سلسلة الرسائل الجامعيّة (٢٦)

الواسطة بين الله وخلقه عند أهل السنة ومخالفيهم

إعداد

د./ المرابط بن محمد يسلم المجتبى الشنقيطي

دار الفضيلة
الرياض - السعودية

الطَّبْعَةُ الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار الفضيلة للنشر والتوزيع
الرياض: ١١٥٤٣ ص ب: ٥١١٤٢
تلفاكس : ٢٣٣٣٠٦٣

المقدمة

الحمد لله، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الكبير، المتعال، القريب، المجيب الدعاء، الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء عمن ناداه، بديع السماوات والأرض، لم يتخذ وزراء، ولا وسائط، ولا شفعاء: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾(١).

والحمد لله الذي لم يتخذ ولدا، ولم يكن له ولي من الذل، ولا شريك من الشركاء، الذي يعطي، ويمنع، ويضر، وينفع، ويخفض، ويرفع، ويعز، ويذل، بعدله، وفضله، وحكمته، لا لأجل أحد من خلقه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا وسيط عنده حال الدعاء، والتضرع، والرجاء؛ بل هو أقرب إلى عباده من حبل الوريد، القائل لنبيه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(٢).

أنزل الكتب، وأرسل الرسل بالبشارة، والنذارة، وسائط بينه وبين خلقه في تبليغ شرعه، وإقامة الحجة على الناس أجمعين: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(٣).

وأشهد أن محمدا نبيه المصطفى، ورسوله المجتبى، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين، الألباء، وصحابته المصطفين النجباء، أولئك الذين اهتدوا بهديه، ودعوا بدعوته، وتخرجوا من مدرسته، الذين ضربوا أروع المثل لتحقيق التوحيد، وحماية حماه، فكان يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحدا يناوله إياه، تحقيقا لقول الصادق المصدوق: (**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**)(٤).

أما بعد: فلقد بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم خاتمة للوسائط من النبيين،

---

(١) سورة السجدة الآية ٤
(٢) سورة البقرة الآية ١٨٦
(٣) سورة النساء الآية ١٦٥
(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند١/ ٢٩٣، والترمذي في سننه٤/ ٦٦٧، وقال: هذا حديث حسن صحيح. قال ابن رجب: (وأصح الطرق كلها طريق حنش الصنعاني التي خرجها الترمذي، كذا قاله ابن منده وغيره) جامع العلوم والحكم ص١٨٤

ورحمة مهداة للعالمين، أرسله بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وواسطة في التبليغ، وهاديا بالدلالة والبيان؛ لتحرير الخلق من عبودية الإنسان إلى عبادة الخالق الرحمن، ومن التعلق بمظاهر الكون، إلى التعلق بمن أمره بين الكاف، والنون.

وقد انتشر إذ ذاك في الأرض قاطبة التعلق بالوسائط، والأوثان، وعم شرك التقريب، وعبادة غير الله كل مكان، فكان لكل قبيلة في الجاهلية صنمها، وطاغوتها، وواسطتها، وعليه تقصر جميع طقوسها، وعبادتها، (وكانت الأمم إذ ذاك ما بين مشرك بالرحمن عابد للأوثان، وعابد للنيران، وعابد للصلبان، أو عابد للشمس، والقمر، والنجوم، كافر بالله الحي القيوم، أو تائه في بيداء ضلالته، حيران قد استهواه الشيطان، وسد عليه طريق الهدى، والإيمان، فالمعروف عنده ما وافق إرادته ورضاه، والمنكر ما خالف هواه، قد تخلى عنه الرحمن، وفاز به الخذلان، يسمع، ويبصر بهواه لا بمولاه، ويبطش، ويمشي بنفسه، وشيطانه لا بالله، فباب الهدى دونه مسدود، وهو عن الوصول إلى معرفة ربه واتباع مرضاته مصدود، فأهل الأرض بين تائه حيران، وعبد للدنيا فهو عليها لهفان، ومنقاد للشيطان جاهل، أو جاحد، أو مشرك بالرحمن)[١].

فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان بالله، واجتناب الطواغيت التي تعبد من دون الله، فجاء صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة، والتوحيد الخالص، فعلق القلوب ببارئها، وربط النفوس بمنشئها، فتهاوت الوسائط، وتحطمت الأصنام، وهربت الخرافة خوفا من أنوار التوحيد الساطعة، وتميزت رسالته ﷺ بالدعوة إلى التوحيد، فكسرت القيود، والأغلال، وحررت العبيد في الحال، وأخرجتهم من عبادة العباد، إلى عبادة رب العباد، فمن الناس من كتب الله له السعادة، والهدى، واتبع النور الذي جاء به النبي فاهتدى، فكانوا جنود السنة وأولياء الرحمن، ومنهم من كابر، وعاند، وقاتل دون واسطته البدعية، وجالد، فكانوا جنود الشرك والبدعة، وأولياء الشيطان، فقاتلهم رسول الله (بجنده الذين اختارهم الله لصحبة نبيه، فتبدد الظلام، وعم نور الإسلام أرجاء المعمورة، وصفت العقيدة من الشوائب، والمكدرات، وخلص الدين لبديع الأرض والسماوات، ولم يلحق صلوات الله وسلامه عليه بالرفيق الأعلى حتى أكمل الله برسالته

(١) مقدمة الصواعق المنزلة لابن القيم ١/ ٥٩



الدين، وتمت النعمة على المسلمين. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾[1]، وترك الأمة على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعده إلا هالك -صلوات ربي وسلامه عليه-، فلم يدعْ خيرا إلا دل أمته عليه، ولا شرا إلا حذرها منه، ومن الأمور التي دل عليها الأمة أن العبادة المشروعة، والعمل الصالح واسطة مقبولة، ووسيلة مشروعة، ومن الأمور التي حذر منها الأمة أشد تحذير الاستغاثة بغير الله، وجعل العبد واسطة بدعية بينه وبين ربه في دعائه، ورجائه، وعبادته، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين من ربه -صلوات ربي وسلامه عليه-.

واستمرت الأمة على هذه الجادة، حتى نبتت في الإسلام نوابت من أهل البدع، وظهر في الدين مقالات تصادم العقل، والشرع، ومن ذلك مسألة الواسطة، **وقد تبين لي أن المخطئين في مسألة الواسطة ثلاث طوائف:**

أ - **الفلاسفة**: الذين يقولون إن الكواكب، والروحانيات، والعقول المدبرة هي الواسطة بين الله وخلقه.

ب - **الرافضة**: الذين يزعمون أن الأئمة من أهل البيت -رحمهم الله- هم الواسطة بين الله والناس

ج - **الصوفية**: الذين يدعون أن أرباب الطرق، وشيوخ الفرق هم الواسطة بين الحق والخلق.

فكانت الفلسفة التي تجمع بين هذه الطوائف في نظرتهم للواسطة أن قالوا: إن الإنسان العادي لا يمكن أن يتوجه إلى ربه بمطالبه مباشرة؛ بل عليه أن يبحث عن واسطة نظيفة الظاهر، مصقولة الباطن، حتى توصله بمولاه، ويتحقق له بسببها مبتغاه، فزعموا أن هؤلاء المقربين هم الواسطة بين الخلق، والخالق، حال الاضطرار، وهجوم الحوادث، والأخطار، وأن الدعاء لا يثمر إلا إذا كان بواسطتهم، والاستغاثة، والاستعانة لا تصح إلا إذا كانت بهم، فإليهم يفزع الملهوف، ونحوهم ييمم المضطر، فلا فيض إلا من جهتهم، ولا مدد إلا بواسطتهم، فعلقوا القلوب بغير الله تعالى، وانقطعوا عن الله بوسائط بدعية، وفتنوا بوسائل وهمية، وقد يتمكن الغلو في الوسائط من قلوبهم، وتنشب الخرافة أظفارها

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

في حلوقهم، فينقطعون عن الله بالكلية، ويتوجهون إلى وسائطهم المزعومة بالعبادة، فتراهم يتقلبون بين حالتين: كل حالة شر من الأخرى؛ إما أن يتوسلوا بهم ويدعوا الله تعالى بواسطتهم، وإما أن يستغيثوا بهم ويستمدوا منهم، ويستغنوا بهم عن الله بعبادتهم.

وهكذا أصبح لكل طائفة من هذه الطوائف مفهومها الخاص للواسطة؛ بيد أن الفلسفة التي سبقت الإشارة إليها تجمعهم جميعا، من أجل ذلك تعلق الفلاسفة ومن تبعهم بالكواكب والروحانيات، وتعلقت الرافضة بأئمة أهل البيت رحمهم الله تعالى، كما تعلقت الصوفية بالأولياء وأرباب الطرق، وشيوخ الفرق.

وقد رأيت أن تكون هذه الرسالة بعنوان: **« الواسطة بين الله وخلقه عند أهل السنة وأهل الأهواء، وأثرها في العقيدة »**

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

يعد موضوع الواسطة بين الله وخلقه من أهم الموضوعات التي تبنى عليها مسائل الاعتقاد، ويترتب عليها كثير من الآثار الإيجابية، والسلبية، فهي من المواضيع الجديرة بالبحث، والمستحقة للدراسة، والاهتمام. **وبيان ذلك فيما يلي:-**

أولا: أن مسألة الواسطة هي أعظم مسألة خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية، ولأجلها تفرق الناس إلى مؤمنين، وكافرين.

ثانيا: أهمية بيان مفهوم الواسطة الشرعية في معتقد أهل السنة والجماعة، ذلك الفهم الذين نجده منضبطا بالكتاب والسنة حتى يفهمه الناس، وينضبطوا بضوابطه؛ لأن بيان مفهوم الواسطة عند أهل السنة بنوعيها: الواسطة في التبليغ، والواسطة في العبادة يحمي الأمة من تلبيسات أهل الأهواء، والبدع بشبهاتهم التي انطلت على بعض العوام من المسلمين.

ثالثا: أهمية بيان مفهوم الواسطة البدعية في عقائد أهل الأهواء، ذلك الفهم الفاسد الذي يقوم على التقليد الأعمى، ويتميز بالخروج عن دائرة الكتاب والسنة، حتى يعرفه الناس، ويحذروه، ولكي يرجع عنه المنصف، المتحري للصواب.

رابعا: أنه ببيان منهج أهل الأهواء في الواسطة يتضح للناس أنهم انجرفوا مع تيار كل صائح وناعق، واعتمدوا في هذا المنهج على خرافات، وحكايات، وأوهام، لا زمام لها في الحقيقة، ولا خطام.



خامسا: قصدت توضيح كون العبادة الصحيحة وسيلة مقبولة، وواسطة شرعية -بنفسها- وذلك يأخذ بأيدي العوام من المسلمين، ويحصنهم ضد ما أثاره أهل الأهواء من شبهات؛ لتبرير تشبثهم بالوسائط البدعية.

سادسا: ظهور من تأثر بمقولة الفلاسفة كالمنجمين والسحرة وغيرهم وانتشار عقائد الرافضة، والصوفية في العالم الإسلامي؛ مع العلم أن مسألة وساطة الأئمة عند الرافضة، ووساطة أرباب الطرق، والأولياء عند الصوفية هي أهم مسألة يقوم عليها الكيان العقدي لهاتين الطائفتين.

سابعا: أني لمست من خلال المنقاشات، والمحاورات التي تدور في بعض المجالس أن مسألة الواسطة، والتفريق بين الواسطة الشرعية، والبدعية لم يكن واضحا في أذهان كثير من المتحاورين، كما أن هناك نوعيات من عوام المسلمين في بعض النواحي يتوجهون إلى القبور بالدعاء، والسؤال؛ ظانين أن ذلك من تعظيم المقبورين؛ بل يعتقد بعضهم أن الدعاء لا يقبل إلا بواسطة!! وأحسب أن الكتابة في هذا الموضوع تأخذ بأيدي هؤلاء، وتوجههم إلى فهم الواسطة الشرعية، وعدم قياس الواسطة في العبادة على الواسطة في التبليغ.

ثامنا: أن البحث في هذه الرسالة تلبية لرغبة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث ذكر في خاتمة رسالته الصغيرة " الواسطة بين الحق والخلق " أن البحث في مسألة الواسطة يحتاج إلى بسط، وبيان، فقال: (وهذه الجمل لها بسط لا تحتمله هذه الوريقات، والله أعلم)[1].

تاسعا: أن البحث في الواسطة من أجل البحوث، والكلام حول هذه المسألة من أفضل الكلام؛ (إذ فيها بيان التوحيد، ونفي الشرك عن الصمد المجيد)[2]، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية.

عاشرا: أن هذا الموضوع على أهميته، وخطورته - كما يرى بعض الباحثين-[3]، لم أجد من تطرق إليه بالبحث، والدراسة مفصلا سوى رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية الصغيرة الآتي ذكرها، وسوى ما يرد من إشارات خفيفة للموضوع في أثناء الكلام على توحيد الألوهية، وإخلاص العبادة لله تعالى، وفي الكلام على الشرك، واتخاذ المشركين

---

(١) الواسطة بين الحق والخلق ص ٤٥ (٢) تلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ٥٢

(٣) صرح بخطورة البحث في الواسطة الشيخ محمد جميل زينو في مقدمة تحقيق الواسطة بين الحق والخلق، انظر ص٧ من تلك الرسالة.

أصناما يدعون أنها تقربهم إلى الله تعالى زلفى، فأردت بهذه الدراسة أن أبين الواسطة في التبليغ من الملائكة، والأنبياء عليهم السلام، مع بيان حقوق الواسطة الشرعية في التبليغ، وأن أوضح صورة الواسطة في العبادة، وأبرز وجه كون العبادة واسطة، وحاولت أن ألم شتات الموضوع، وأجمع متفرقاته، وأبسط الكلام حول الواسطة الشرعية عند أهل السنة والجماعة، والواسطة البدعية عند أهل الأهواء من الفلاسفة والرافضة والصوفية، مع الربط بين مفهوم الواسطة البدعية في القديم، والحديث، وبيان الآثار المترتبة على ذلك في العقيدة، هذا كله من الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع، والكتابة فيه على صعوبته، وتوسع مباحثه، ودقة الخطة التي وضعت من أجله.

فاستخرت الله تعالى، واستعنت به على خوضه، والكتابة فيه، فأسأله تعالى أن يجعلني في كتابته موفقا، وأن يرضاه عملا صالحا، متقبلا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الدراسات السابقة في الموضوع: أما فيما يتعلق بالدراسات السابقة في هذا الموضوع، فكما أشرت -سابقا- فإن هذا الموضوع من المواضيع النادرة، التي لم أجد من أفردها بالبحث، والدراسة مستقلة حسب اطلاعي المحدود- سوى شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، وذلك في رسالته الصغيرة "الواسطة بين الحق والخلق"[1]، وكما يعلم فإن هذه الرسالة الصغيرة الحجم، الكبيرة النفع: اهتمت ببيان الفرق بين الواسطة في التبليغ

---

(١) مطبوعة ضمن مجموع الفتاوى ١/ ١٢١، كما طبعتها الجامعة الإسلامية بتصحيح الشيخ محمد جميل زينو المدرس في دار الحديث الخيرية بمكة المكرمة. والجدير بالذكر: أن هناك من ينسب هذه الرسالة للعز بن عبد السلام -رحمه الله- خطأ، وقد وقع في هذا اللبس بعض الفضلاء من الباحثين: منهم: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني -رحمه الله- في كتابه " التوسل أنواعه وأحكامه" ص١٤٨، والشيخ الدكتور ربيع المدخلي في تحقيقه لقاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص٢٨٥، وعنه جامع التوسل حكمه وأقسامه، جمعه من كلام الشيخين الألباني، وابن عثيمين -رحمهما الله- علي ابن حسين أبو لوز ص٧١، والدكتور محمد لوح في كتابه "تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي.

وقد قمت بمقابلة الرسالتين فاتضح لي أنهما رسالة واحدة، وأنها لشيخ الإسلام ابن تيمية، وأن نسبتها للعز ابن عبد السلام خطأ ووهم، وذلك لأسباب منها: -

أ- الاتفاق الحرفي بين الرسالتين.

ب- لم يوجد في كتب التراجم -التي اطلعت عليها- من ذكر أن للعز بن عبد السلام رسالة بهذا العنوان مع إثباتهم رسالة الواسطة لشيخ الإسلام ابن تيمية.

ج- أن أسلوب هذه الرسالة، وعباراتها هو أسلوب شيخ الإسلام ابن تيمية، وعباراته في كثير من كتبه، ولعل في تصحيح نسبة هذه الرسالة لمؤلفها الحقيقي إضافة علمية يفخر بها هذا البحث، ولعل الذي لَبَّس على هؤلاء الفضلاء كون الرسالة مطبوعة مع رسالة الأبدال، والغوث، للعز بن عبد السلام ضمن مجموعة رسائل في كتاب شجرة الإرشاد جمعتها وفاء حسن، ويبدو أنهم لم يقارنوا بين الرسالتين، والله أعلم.

والواسطة في العبادة، والرد على بعض الشبهات التي يثيرها القائلون بالواسطة البدعية، ولم تتطرق إلى بيان الوسائط من الملائكة في التبليغ، وكيف كانت تبلغ الوحي إلى الوسائط من النبيين، وهل هنالك واسطة في التبليغ في الآخرة؟ وما صورتها؟ وبيان منهج أهل السنة والجماعة في مفهوم الواسطة، ومذهب أهل الأهواء من الفلاسفة والرافضة والصوفية في إثبات الواسطة البدعية، والتوسع في الرد على شبهاتهم، وبيان صورة الواسطة البدعية عند الصوفية في الأحياء، وصورة الواسطة البدعية عندهم في الأموات، مع ذكر الآثار المترتبة على القول بالواسطة الشرعية، والبدعية في العقيدة، كما وضحه مقيد هذه السطور في هذه الرسالة.

خطة الرسالة: وقد جعلت العمل في هذه الرسالة مكونا من مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب، وخاتمة، وفهارس، وكانت الخطة التفصيلية لأبواب الرسالة، وفصولها ومباحثها على النحو التالي: -

المقدمة: وقد اشتملت على بيان أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة في الموضوع، وعرض عام لهيكل الرسالة، وخطتها المتبعة، مع ذكر بعض الضوابط المنهجية التي سرت عليها في كتابة هذه الرسالة، وكلمة الشكر، والتقدير.

التمهيد ويشتمل على خمسة مباحث:-

المبحث الأول: تعريف الواسطة لغة، وشرعا.

المبحث الثاني: التعريف بأهل السنة، وتوضيح ألقابهم.

المبحث الثالث: تعريف الهوى، وبيان خطورته، وإفساده لعقائد أهله.

المبحث الرابع: التعريف بأهل الأهواء، وبيان سماتهم: **وفيه أربعة مطالب:-**

المطلب الأول: التعريف بأهل الأهواء، وبيان سماتهم.

المطلب الثاني: تعريف الفلاسفة.

المطلب الثالث: تعريف الرافضة.

المطلب الرابع: تعريف الصوفية.

المبحث الخامس: المراد بالأثر لغة، واصطلاحا.

الباب الأول: الواسطة بين الله وخلقه عند أهل السنة والجماعة. وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: مفهوم الواسطة عند أهل السنة والجماعة، وبيان أهمية فهم الواسطة على ضوء الكتاب والسنة.وفيه أربعة مباحث:-

المبحث الأول: حاجة الناس إلى بعثة الرسل " الواسطة " .

المبحث الثاني: الواسطة بين الله ورسله . **وفيه أربعة مطالب:-**

المطلب الأول: جبريل واسطة بين الله ، والملائكة .

المطلب الثاني: جبريل واسطة بين الله ، ورسله .

المطلب الثالث: الملائكة واسطة بين الله ، وغير الأنبياء .

المطلب الرابع: الوحي وأنواعه .

المبحث الثالث: الحكمة في كون الواسطة من البشر .

المبحث الرابع: تقيد أهل السنة والجماعة بالكتاب والسنة في فهم الواسطة .

الفصل الثاني: صورة الواسطة في التبليغ وفيه ثمانية مباحث:-

المبحث الأول: صورة الواسطة في التبليغ في الدنيا .

المبحث الثاني: صورة الواسطة في التبليغ في الآخرة .

المبحث الثالث: مقام الرسالة وخصائصها عند أهل السنة والجماعة .

المبحث الرابع: حقوق النبي ﷺ على أمته عند أهل السنة والجماعة

المبحث الخامس: وجوب الإيمان بعصمة النبي ﷺ .

المبحث السادس: الهداية وأنواعها وبيان ما للرسول ﷺ منها .

المبحث السابع: الرسول ﷺ واسطة في التبليغ والبيان لا في العبادة وجزاء الإنسان .

المبحث الثامن: وسطية أهل السنة والجماعة في باب تعظيم النبي ﷺ .

الفصل الثالث: صورة الواسطة في العبادة.وفيه خمسة مباحث:-

المبحث الأول: تعريف العبادة لغة وشرعا .

المبحث الثاني: وجه كون العبادة واسطة .



الفهارس العلمية: وهي:-

١- فهرس الآيات القرآنية.

٢- فهرس الأحاديث، والآثار.

٣- فهرس الأبيات الشعرية.

٤- فهرس المصطلحات والألفاظ الغريبة.

٥- فهرس الطوائف والفرق.

٦- فهرس المواضع والبلدان.

٧- فهرس الأعلام المترجم لهم.

٨- فهرس المصادر والمراجع.

٩- فهرس الموضوعات.

الضوابط المنهجية التي سرت عليها في كتابة الرسالة:-

١- حرصت في توثيق المادة العلمية التي أنقلها أن أعود إلى المصادر الأصيلة قدر الإمكان، فكلام الفلاسفة أنقله من كتبهم أو من الكتب التي اهتمت بنقل مقالاتهم وعقائد الرافضة أوثقها من كتب الرافضة، وعقائد الصوفية من كتب الصوفية، ولم أنقل بالواسطة إلا عن المصادر التي يتعذر الوقوف عليها؛ وذلك مثل كتب أهل الأهواء المليئة بالخرافات، والشرك، التي توجد في بعض بلدان العالم الإسلامي عند طائفة معينة، وبشكل محدود، ولم أنقل بالواسطة عن هذه الكتب إلا بعد البحث المستمر، وسؤال المختصين.

٢- قد أقول: إن الصوفية تعتقد مسألة من المسائل، ثم أستدل على تلك المسألة بكلام فرقة أو فرقتين من فرق الصوفية؛ لأن المقصود الاستدلال على أن هذه المسألة يوجد في الصوفية من يقول بها، أما حصر مقالات كل الطرق في المسألة الواحدة فأمر متعذر، ومخرج عن المقصود.

٣- إذا قلت: إن الصوفية تعتقد كذا، أو تقول بكذا في هذه الرسالة، فالمراد غلاتهم، المعتقدون في الوسائط البدعية، والمتعلقون بالوسائل الوهمية.

٤- حاولت في جمع المادة أن أقف على أكبر قدر من المصادر، والمراجع القديمة، كما استفدت من الدراسات، والبحوث العلمية الجادة الحديثة، كرسائل الماجستير،



والدكتوراه، وغيرها، حرصا على الاستقراء التام، وطلبا للفائدة.

٥- إذا استدللت لمسألة من المسائل فإني أذكر فيها عدة أقوال، وأجلب لها بعض الأمثلة لبيان أنها تشكل منهجا، أو مذهبا من المذاهب، وحاولت أن أذكر الأقوال -في الغالب- حسب التسلسل التاريخي؛ لمعرفة صاحب القول الأول في المسألة، ومدى اتفاق اللاحق مع السابق، وقد أذكر عدة أقوال في المسألة الواحدة لتعدد الفرق القائلة بها؛ وذلك تأكيدا للقضية، وتأصيلا للمسألة، ويكثر هذا في المسائل التي يظهر الخلاف فيها، وكذلك في المسائل الاعتقادية عند أهل الأهواء والبدع.

٦- التزمت استعمال الألقاب الواردة عن السلف مثل الصلاة والسلام على الأنبياء، والترضي عن الصحابة، والترحم على من بعدهم من العلماء، وإذا نقلت كلاما لأهل الأهواء فيه خلط بين هذه الألقاب كالصلاة والسلام عند الرافضة على غير الأنبياء، والترضي عند الصوفية على غير الصحابة فإني أكتبه باتباع هذا المنهج من غير أن أشير في الحاشية إلى ذلك؛ لكثرة النقول، وتحاشيا لإثقال الحواشي.

٧- أني اهتممت بالنقل الحرفي في الغالب، رعاية للموضوعية، ونقلا للواقع بصورته الحقيقية، وطلبا للدقة في النقل، خصوصا إذا كان المقام يتطلب ذكر أقوال أئمة أهل الأهواء في المسألة الواحدة، وهذا ما يفرضه المنهج العلمي في نقل كلام الخصوم.

٨- إذا نقلت كلاما بالنص من غير تصرف فإني أضعه بين قوسين، وأذكر المرجع في الحاشية من غير أن أقول " انظر "، فإذا أضفت إليه مرجعا آخر للفائدة فإني أصدره بكلمة " انظر "، وكذلك إذا نقلت كلاما بالمعنى فإني لا أضعه بين قوسين، ولكن أشير بالحاشية إلى أن النقل كان بالمعنى، وذلك بأن أقول " انظر " ثم أذكر المراجع التي استفدت منها. وأما إذا جمعت بين النقل والتصرف بالاختصار، والتقديم، والتأخير، فإني أشير إلى ذلك في الحاشية بكلمة (بتصرف).

٩- لم أذكر البيانات الخاصة بالكتب في الحواشي خشية إثقالها؛ لضخامة العمل في هذه الرسالة؛ وكثرة المصادر، والمراجع التي استعنت بها؛ ولأن فهرس المصادر، والمراجع في نهاية الرسالة يؤدي هذا الغرض.

١٠- إذا ذكرت اسم الكتاب في الحاشية فإني أختصره إن كان طويلا، ويكثر هذا في كتب التفسير مثل، تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، وتفسير السعدي، إلا إذا كان

الاختصار يوقع في اللبس، أو يخل بالمعنى فأذكره كاملا، مثل كتاب "مظاهر الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر، والرابع عشر الهجريين لعلي بخيت الزهراني.

١١- شرحت في الحاشية بعض الكلمات التي رأيت أنها غريبة.

١٢- ترجمت للأعلام غير المشهورين، ولم أترجم للأنبياء عليهم السلام، ولا للصحابة رضي الله عنهم، ولا للأئمة الأربعة، ولا المشهورين من أهل العلم رحمهم الله جميعا، وكان منهجي في ترجمة العلم أن أصدرها بكنيته إن كانت له كنية فإن كان ميتا أكتب (رحمه الله) عند أول وروده، فإذا ما تكرر وروده فإني أترحم عليه شفهيا، لا كتابيا، اتباعا لمنهج موحد.

١٣- عرَّفت بمواضع البلدان غير المشهورة الواردة في الرسالة.

١٤- ذكرت مواضع الآيات القرآنية من سورها، مبتدئا بذكر اسم السورة، ورقم الآية في الحاشية.

١٥- خرجت الأحاديث التي وردت في الرسالة بعزوها إلى مصادرها، فإن كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما فإني أكتفي بعزوه إليهما، أو إلى أحدهما، والتزمت الرجوع إلى صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري للحافظ ابن حجر، وإلى صحيح مسلم بشرح الإمام النووي رحمهم الله جميعا. أما إن لم يكن الحديث في الصحيحين فإني أبحث عن مصدر الحديث في غيرهما من كتب السنة، ناقلا حكم العلماء على الحديث باختصار.

١٦- حاولت أن أصوغ المادة العلمية التي استعنت بها في الرسالة بأسلوب علمي سليم قدر استطاعتي.

١٧- ختمت الرسالة بعمل الفهارس العلمية الضرورية التي تسهل على القارئ العودة إلى مواد الرسالة بيسر، وسهولة.

شكر، وتقدير: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وله الشكر على آلائه، ونعمه اللاتي أعد منها، ولا أعددها، ومن أجلها -بعد نعمة الإسلام- الجمع بين نعمتين كبيرتين، وشرفين عظيمين: ألا وهما شرف طلب العلم الشرعي، وطلبه في مدينة شريفة، وبقعة مباركة، في طيبة الطيبة، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

واعترافا بالفضل، وجميل الإحسان، وانطلاقا من قول الله تعالى: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾[١]، وامتثالا لقول النبي ﷺ: (**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**)[٢] فإني أتقدم بعظيم الشكر، وفائق التقدير لفضيلة شيخي الدكتور عطية ابن عتيق الزهراني المشرف الأول على هذه الرسالة على ما أولانيه من رعاية واهتمام؛ حيث شجعني على اختيار الموضوع، ومناصرته، فجزاه الله عني كل خير، كما أزجي شكري الوافر لفضيلة شيخي الأستاذ الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، المشرف الثاني على الرسالة؛ حيث تابع -حفظه الله- مراحل العمل في هذه الرسالة، مرحلة، مرحلة، وخطوة، خطوة -رغم صعوبة موضوع الرسالة، وتوسع مباحثها، ودقة الخطة التي وضعت لها- حتى خرجت الرسالة بهذه الصورة التي نرجو أن تكون مقبولة، فجزاه الله عني خيرا، وبارك له في علمه، وعمره، وقر عينه في ذريته.

كما أشكر كل من قدم لي نصيحة، أو تفضل علي برأي، أو إعارة كتاب، أو دعوة خالصة.

وأخيرا... لا أدعي أنني بلغت الكمال بهذا العمل في هذه الرسالة، ولا أني وفّيت الموضوع حقه، ولكن حسبي أنني بذلت فيه جهدي، واستفرغت فيه وسعي -رغم ضعفي وقلة علمي- ولعل جمع مادة هذا الموضوع المتناثرة، ولم شتاته رغم صعوبته، والكتابة فيه حسب الخطة الشاملة التي وضعت له يعد من الجدة، وعدم التقليد، ورجائي أن يكون في ذلك إضافة علمية من هذه الناحية.

فإن بلغ عملي في هذه الرسالة الشأو الذي قصدته فذلك بفضل الله، وكرمه، وإن

---

(١) سورة إبراهيم، الآيو: ٧.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند ٢/ ٢٨٨، وأبو داود في سننه ٥/ ١٥٧، والترمذي في سننه ٤/ ٣٣٩، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ١٥٨ برقم ٤١٧.



قصر دونه فذلك من نفسي، والشيطان، وأستغفر الله من ذلك.

والله المسئول أن يهدي قلوبنا، ويصلح نياتنا، ويسدد ألسنتنا، وأيدينا، كما أسأله تعالى أن يجعل عملي في هذه الرسالة خالصا لوجهه، وواسطة لرضاه، وذخرا لي يوم ألقاه، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

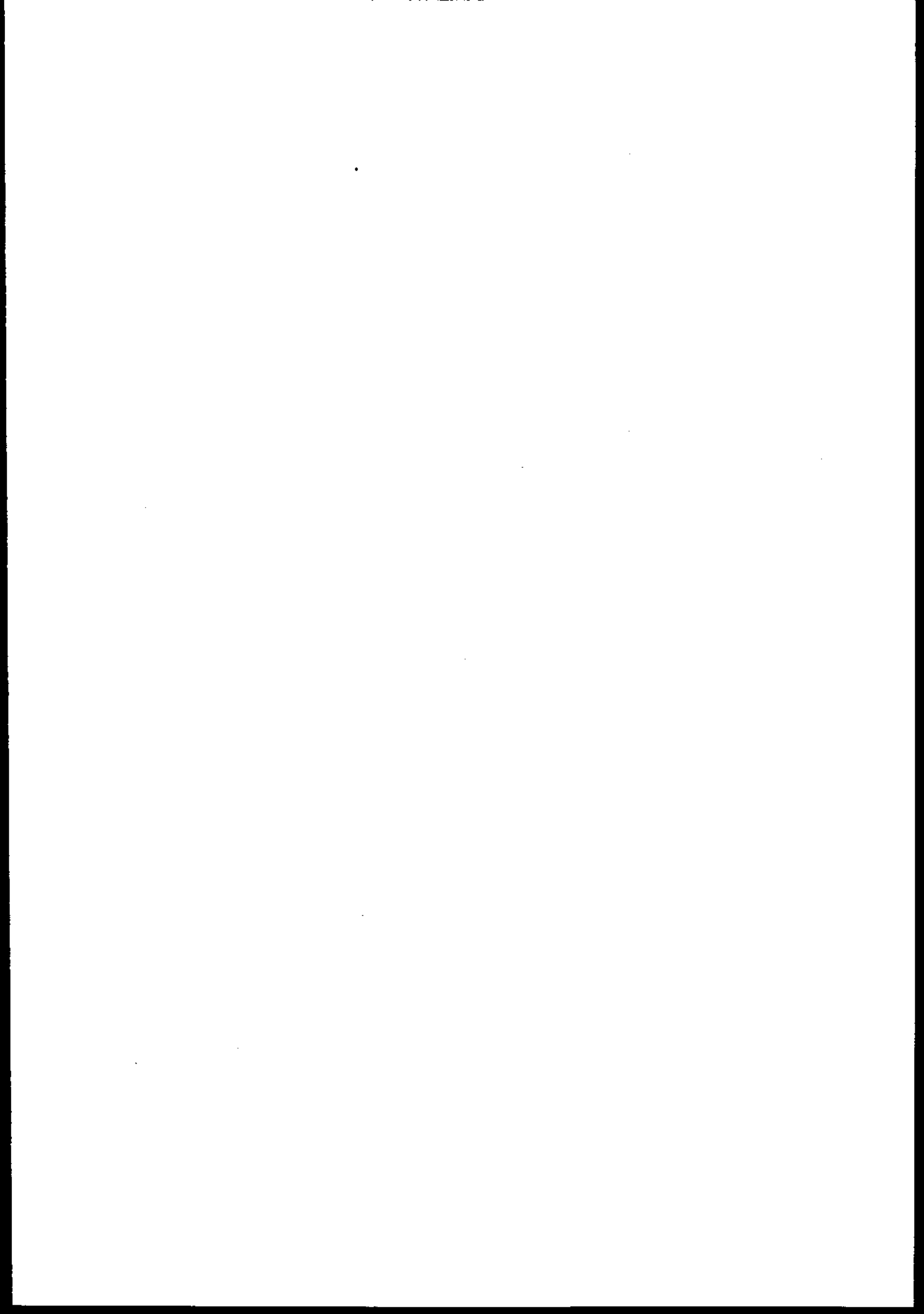
همسة: وبعد، فهذه همسة في آذان السارحين في الوهم، والمبتلين بالوسائط البدعية، والمتعلقين بالوسائل الوهمية، الذين قطعتهم القواطع، وعاقتهم العواقع، وشغلتهم الشواغل عن الله تعالى، وأولئك الحيارى الذين وقفوا مشدوهين أمام مسألة الواسطة، وكل من أراد التقرب إلى الله، جل في علاه فأقول لهم: -

يا من تريد إلى الإله تقربا ... بهواك ثم مناك فهي مغالطه

وعليك بالوحيين إن رمت الهدى ... وحذار من وحي العقول الساقطه

وإذا أردت خلاص نفسك صادقا ... فهلُمَّ دونك ما حوته الواسطه

وصلى الله على خاتمة الوسائط من النبيين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليما كثيرا.



التمهيـــد

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الواسطة لغة واصطلاحا.

المبحث الثاني: التعريف بأهل السنة وتوضيح ألقابهم.

المبحث الثالث: تعريف الهوى وبيان خطورته وإفساده لعقائد أهله.

المبحث الرابع: التعريف بأهل الأهواء وبيان سماتهم.

المبحث الخامس: المراد بالأثر لغة واصطلاحا.



المبحث الأول

تعريف الواسطة لغة واصطلاحا

أ - الواسطة في اللغة: قال ابن فارس رحمه الله: الواو، والسين، والطاء، هذه الأحرف الثلاثة بناء صحيح يدل على العدل والنصف[١].

وقال ابن منظور رحمه الله: وسطت القوم أسطهم وسطا، وسطة: أي توسطتهم، ووسط الشيء، وتوسطه: أي صار بين طرفيه، قال الشاعر: -

إذا رحلت فاجعلوني وسطا إني كبير لا أطيق العُنّدا[٢]

وقال أعرابي للحسن رحمه الله: علمني دينا وَسُوطا لا ذاهبا فروطا، ولا ساقطا سقوطا: أي المتوسط بين الغالي والتالي، ألا ترى إلى قول علي رضي الله عنه: خير الناس هذا النمط الأوسط، يلحق بهم التالي، ويرجع إليهم الغالي[٣].

وواسط الرحْل وواسطته: ما بين القادمة والآخرة، وواسطة القلادة: الدرة التي في وسطها، وهي أنفس خَرَزها[٤].

وقال الليث رحمه الله: وإنما سمي واسط الرحل واسطا؛ لأنه وسط بين القادمة والآخرة، وكذلك واسطة القلادة؛ لأنها الجوهرة التي تكون في وسط العقد المنظوم[٥].

وقال أبو منصور الأزهري رحمه الله: يقال للجوهرة التي تجعل وسط القلادة واسطة، وتسمى الإصبع الوسطى واسطة[٦].

وقال الزمخشري: يقال وسط الرجل وساطة، وسطة، وهو من واسطة قومه إذا كان أرفعهم محلا، قال العرجي[٧]: -

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس٦/١٠٨، مادة (وسط)، ومجمل اللغة له أيضا٤/ ٩٢٤، مادة (وسط)

(٢) أي فاجعلوني وسطا بينكم ترفقون بي وتحفظونني فإني أخاف إن كنت متقدما أو متأخرا عنكم أن تفرط دابتي أو ناقتي فتصرعني. انظر لسان العرب١٥/ ٢٩٣

(٣) انظر لسان العرب١٥/ ٢٩٦

(٤) الخرز بفتحتين: الحب الذي ينظم في العقد، واحدته خَرَزَة. انظر مختار الصحاح ص١٧٢ مادة (خرز)، والمصباح المنير١/ ١٦٦ مادة (خرزت).

(٥) انظر لسان العرب١٥/ ٢٩٣ مادة (وسط).

(٦) انظر تهذيب اللغة١٣/ ٢٦ مادة (وسط).

(٧) انظر أساس البلاغة٢/ ٥٠٥ مادة (وسط) ولسان العرب١٥/ ٢٩٧ مادة (و س ط).



كأني لم أكن فيهم وسيطا ولم تك نسبتي في آل عمرو

وقال سيبويه رحمه الله: سمت العرب المكان الذي بين البصرة والكوفة واسط، قال طرفة بن العبد[١]: -

وإن شئت سامى واسط الكور رأسها وعامت بضَبْعيها نجاء الخفيدد

فلو أرادوا التأنيث قالوا واسطة[٢].

والواسطة في لغة هذيل: الباب، وترادف الوساطة الواسطة في المعنى، يقال: توسط فلان بين القوم إذا عمل الوساطة[٣].

وتقول العرب: صار الماء وسيطة: إذا غلب على الطين، ووساطة الدنانير: خيارها[٤].

وقال ابن دريد رحمه الله: واسط: موضع بنجد، وواسطة بالهاء قرية تحت الموصل، وواسطة قرية في حضرموت[٥].

(والواسطة بين القوم: هي الوسيط، ويقال بعثنا إليهم بواسطة للتفاوض في الأمر، والواسطة هي السبب المؤدي إلى نتيجة، فيقال: كان النجاح في ذلك بواسطة الجد والاجتهاد، أي بسبب الجد والاجتهاد)[٦].

والواسطة تطلق على الأسطوانة الواقعة وسط الروضة الشريفة بين بيت النبي ﷺ ومنبره عن يمينها إلى المنبر أسطوانتان، وبينها وبين الحجرة أسطوانتان، وبينها وبين الرحبة أسطوانتان، وهي واسطة بين ذلك، وتعرف اليوم بأسطوانة السيدة عائشة رضي الله عنها[٧].

وقال الدكتور جميل صليبا في معجمه الفلسفي: (الوساطة: عمل الوسيط، وهي

---

(١) ديوان طرفة بشرح مهدي محمد ناصر الدين ص٢٣، وسامى: أي ارتفع، والكور: الرحل، وضبعها: عضدها، نجاء: سرعة، الخفيدد: ذكر النعام. فالشاعر يصف ناقته التي يركبها، ويقول: لو شئت جعلتها تمشي بسرعة ذكر النعام.

(٢) انظر تاج العروس٥/ ٢٣٩ مادة (وسط) ودائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي١٠/ ٧٨٠ مادة (وسط).

(٣) انظر تاج العروس٥/ ٢٣٩ مادة (وسط). (٤) المرجع السابق٥/ ٢٤٠

(٥) انظر تاج العروس٥/ ٢٤٠، ومعجم البلدان٥/ ٣٥٣

(٦) الهادي إلى لغة العرب لحسن الكرمي٤/ ٤٨٤ مادة (وسط).

(٧) انظر وفاء الوفاء٢/ ٤٤١، والأحاديث الواردة في فضائل المدينة للدكتور صالح الرفاعي ص٤٨٧، والدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين للشيخ غالي الشنقيطي ص ٤٤

التوسط بين الشيئين أو الموجودين، إذا كان هذان الشيئان، أو الموجودان مستقلين في الواقع عن ذلك التوسط .

والوساطة : هي الشيء الذي يتم به الانتقال من طرف إلى آخر، مثل : . . توسط الحواس بين العقل والطبيعة)[١] .

ويمكن القول : إن الواسطة في عصرنا أصبحت شائعة من حيث الإطلاق في لغة العصر على الجاه، والمنزلة، والمكانة، فيقولون : (فلان عنده واسطة) ويعنون بذلك أن له شخصا ذا جاه، ومنزلة يستطيع عن طريقه أن يحصل على وظيفة ما، أو حاجة من حوائج الدنيا[٢] .

ب- الواسطة في الاصطلاح: لعل من المناسب أن أبدأ أولا بذكر الواسطة في اصطلاح أهل السنة والجماعة، ثم أتبع ذلك بذكر معانيها المختلفة في اصطلاح الفرق؛ إذ لم تجمع الفرق على تعريف محدد لمصطلح الواسطة، نظرا للاختلاف الحاصل في مفهوم الواسطة عند هذه الفرق .

أولا: الواسطة في اصطلاح أهل السنة والجماعة: تنوعت عبارات أهل السنة في تعريف الواسطة، وكلها يدور حول تعريف الواسطة بأنها : الوسيلة[٣]، والشفاعة[٤] .

فقد ذكر الشهرستاني رحمه الله أن الواسطة : هي الشيء الذي تجعله لك قبلة، وشفيعا، ووسيلة[٥] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى : (ومن التوسل بالنبي ﷺ أيضا التوسل بالإيمان به، ومحبته، وطاعته، وموالاته، واتباع سنته، ونحو ذلك من أعمال البر المتعلقة به، فهذا أعظم القُرب، والوسائل إلى الله تعالى؛ فإن التوسل : هو التوصل، والتقرب، وما تقرب أحد إلى الله عز وجل بأعظم من طاعة رسوله ﷺ)[٦] .

وقال أيضا في تلخيص كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكري : (فتبين أن

---

(١) المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية، والفرنسية، والإنجليزية، واللاتينية٢/ ٥٧٢

(٢) انظر في حكم هذا النوع من الواسطة : فتاوى للموظَّفين والعُمَّال لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ ابن عثيمين، والشيخ عبد الله الجبرين، جمع محمد بن عبد العزيز المسند ص١١

(٣) انظر تعريف الوسيلة مفصلا في ص ٤٣

(٤) انظر تعريف الشفاعة في ص ٤٦١ من هذه الرسالة .

(٥) انظر الملل والنحل٢/ ٣٥٧

(٦) مجموع الفتاوى١/ ١٢٥، وتلخيص كتاب الاستغاثة١/ ١٦٥، وانظر جلاء العينين في محاكمة الأحمدين ص ٤٧٤

الوسيلة بين العباد وبين ربهم عز وجل الإيمان بالرسل، وطاعتهم. . . ، فالتوسل بهم الذي جاءت به الشريعة: هو التوسل إلى الله بالإيمان بهم، وبطاعتهم، أو بدعائهم، وشفاعتهم، كما كان الصحابة يتوسلون بدعاء رسول الله ﷺ في الاستسقاء، وغيره، وكما يتوسل الخلائق يوم القيامة بشفاعته، وأعظم وسائل الخلائق إلى الله تعالى الإيمان بهم، واتباعهم، وطاعتهم، فأما التوسل بذواتهم، والسؤال بهم بدون دعائهم، وشفاعتهم، وطاعتهم التي يثيب الله عليها، فهذا باطل لا أصل له في شرع، ولا عقل)(١).

وقال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله تعالى: (وبالجملة فتجعل الرسول شيخك، وأستاذك، ومعلمك، ومربيك، ومؤدبك، وتسقط الوسائط بينك وبينه إلا في التبليغ، كما تسقط الوسائل بينك وبين المُرسل في العبودية، ولا تثبت وساطة إلا في وصول أمره، ونهيه، ورسالته إليك، وهذان التَجريدان هما حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله)(٢).

وقال الشيخ تقي الدين المقريزي رحمه الله(٣): (التوحيد حقيقته أن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع الالتفات إلى الأسباب، والوسائط، فلا ترى الخير، والشر، إلا منه تعالى، وهذا المقام يثمر التوكل، وترك شكاية الخلق، وترك لومهم، والرضا عن الله تعالى، والتسليم لحكمه)(٤).

ويقول العلامة نعمان الألوسي رحمه الله-موضحا الترادف بين الواسطة والوسيلة-: (وتحقيق الكلام في هذا المقام أن الاستغاثة بمخلوق، وجعله وسيلة بمعنى طلب الدعاء منه لا شك في جوازه إن كان المطلوب منه حيا)(٥).

---

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة١/ ١٦٥ وما بعدها، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم٢/ ٧٨٦

(٢) مدارج السالكين٣/ ١٤٤، وانظر التوضيح عن توحيد الخلاَّق في جواب أهل العراق للشيخ سليمان ابن عبد الله آل الشيخ ص٣١٠

(٣) هو أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم الحسيني العبيدي البعلي تقي الدين المقريزي، كان متبحرا في التاريخ على اختلاف أنواعه، ولد في القاهرة سنة ٧٦٦هـ، وكانت وفاته سنة ٨٤٥هـ. انظر شذرات الذهب٧/ ٢٥٤، والأعلام١/ ١٧٧

(٤) تجريد التوحيد المفيد ص٥

(٥) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين ص٤٩٤، وانظر صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان ص ١٦٠



ويوضح العلامة محمود شكري الأولوسي رحمه الله: معنى الواسطة الشرعية الصحيحة عند أهل السنة بقوله: (فليس لنا وسيلة إلى الله إلا الدعاء المبني على أصول الذل، والافتقار، والثناء، فهو الوسيلة التي أمرنا الله سبحانه بالتوسل به، وجعله من أفضل الوسائل، وأخبرنا أنه مخ عبادته، تحقيقا لعَبْدِيَّتنا، فسد به عن غيره أبواب الذرائع)[١].

٩- وقال الشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي رحمه اللهفي تفسيره: (التحقيق في معنى الوسيلة هو ما ذهب إليه عامة العلماء من أنها التقرب إلى الله تعالى بالإخلاص له في العبادة، على وفق ما جاء به الرسول ﷺ، وتفسير ابن عباس داخل في هذا[٢]؛ لأن دعاء الله والابتهال إليه في طلب الحوائج من أعظم أنواع عبادته التي هي الوسيلة إلى نيل رضاه ورحمته، وبهذا التحقيق تعلم أن ما يزعمه كثير من ملاحدة أبتاع الجهال المدعين للتصوف من أن المراد بالوسيلة في الآية[٣] الشيخ الذي يكون له واسطة بينه وبين ربه أنه تخبط في الجهل، والعمى، وضلال مبين، وتلاعب بكتاب الله تعالى، واتخاذ الوسائط من دون الله من أصول كفر الكفار، فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الطريق الموصلة إلى رضا الله، وجنته، ورحمته هي اتباع رسوله ﷺ ومن حاد عن ذلك فقد ضل سواء السبيل)[٤].

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: (الواسطة: هي الشفاعة للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة)[٥].

ويقول الشيخ أحمد بن يحيى النجمي: (وأقول التوسل معناه: التوصل بشيء إلى شيء، فما لا يمكن الوصول إليه بغير واسطة تتخذ الوسيلة للوصول إليه بواسطة، وتلك الواسطة هي الوسيلة، فمثلا ماء البئر لا ينال باليد، فيتخذ الرشاء -وهو الحبل- وسيلة للوصول إليه، أو المضخة في العصر الحديث، ومعنى الوسيلة في الشرع: القربة التي تكون سببا في الوصول إلى مرضاة الله وجنته، وهي تكون بفعل أوامر الله، واجتناب

(١) غاية الأماني في الرد على النبهاني١/ ٢٥٤

(٢) فسر ابن عباس رضي الله عنهما الوسيلة بالحاجة. انظر تفسير ابن كثير٢/ ٥٥، وأضواء البيان٢/ ٧٦

(٣) وهي قوله تعالى: }يا أيها الذين آمنوا اتقوا وابتغوا إليه الوسيلة) المائدة ٣٥

(٤) أضواء البيان٢/ ٨٧

(٥) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين٥/ ٦١، وانظر معجم ألفاظ العقيدة لعامر فالح ص٢٢٨، والدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية لجيلان العروسي٢/ ٨٣٨

نواهيه، وبذلك أمر الله عز وجل)[١].

ويقول الدكتور ناصر العمر: (والتوسط بين الناس من الوساطة، وهي الشفاعة)[٢].

ويقول الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله: (فالوسيلة: التقرب إلى الله بأنواع القُرب، والطاعات، وأعلاها إخلاص الدين له، والتقرب إليه بمحبته، ومحبة رسوله، ومحبة دينه، ومحبة من شرع حبه، وبهذا يجمع ما قاله السلف، وقولهم من اختلاف التنوع)[٣].

ومما يدل على الترادف المعنوي بين الواسطة والوسيلة قول مجد الدين الفيروز آبادي رحمه الله في قاموسه: (الوسيلة والواسلة: المنزلة عند الملك، والدرجة، والقربة، ووسَّل إلى الله تعالى توسلا عمل عملا تقرب به إليه)[٤].

وبيَّن ابن الأثير رحمه الله: أن التوسل في اللغة هو التقرب إلى المطلوب، والتوصل إليه برغبة؛ لأن الواسل هو الراغب، والوسيلة: هي القربة، والواسطة، والأسباب هي التي يتصول بها إلى الشيء، ويتقرب بها إليه، وجمعها وسائل[٥].

– فالتوسط، والتوجه، والتوسل، والتحبب، والتقرب، كلها بمعنى، وهو اتخاذ الوسيلة الشرعية، وهي الإيمان بالرسول ﷺ وطاعته.

(فالواسطة الوحيدة للوصول إليه تعالى هي الإيمان به إيمانا صحيحا، ثم عبادته بما شرع)[٦].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والتحبب، والتقرب إليه إنما هو بطاعة رسوله، فالإيمان بالرسول، وطاعته هو وسيلة الخلق إلى الله، ليس لهم وسيلة يتوسلون بها ألبتة إلا الإيمان برسوله، وطاعته، وليس لأحد من الخلق وسيلة إلى الله تبارك وتعالى إلا توسله بالإيمان بهذا الرسول الكريم، وطاعته)[٧].

ولعل التعريف المختار الذي يجمع أقوال أهل السنة في تعريف الواسطة هو: أن

---

(١) أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة ص٢٧٤، وانظر الرد على شبهات المستعينين بغير الله لأحمد بن عيسى النجمي ص٩٢

(٢) الوسطية في ضوء القرآن الكريم ص١٦

(٣) هذه مفاهيمنا ص١٢، وانظر قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق د. ربيع المدخلي ص١٧

(٤) القاموس المحيط ٤/ ٦٥ مادة (وسل).

(٥) انظر النهاية في غريب الحديث ٥/ ١٨٥ مادة (وسل).

(٦) مقدمة تحقيق الواسطة بين الحق والخلق ص١٠

(٧) الجواب الباهر في زوار المقابر ص١٠٢

الواسطة هي الوسائل، والأسباب الشرعية المقربة إلى الله الواردة في الكتاب والسنة، بمعرفتها، والإيمان بها، والعمل بمقتضاها، يتقرب العبد إلى الله تعالى لقبول أعماله.

فالواسطة عند أهل السنة والجماعة تطلق على أمرين:-

الأمر الأول: واسطة من الله إلى العباد لتبليغ شريعته، وهذه الواسطة تختص بالملائكة الكرام، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ حيث ينزل الملك الأمين بالوحي من الله تعالى إلى نبيه المصطفى(١)، فيكون النبي سفيرا، وواسطة بين الله تعالى وخلقه يبلغهم الوحي، ويبين لهم الشريعة، وهذه واسطة صحيحة.

يقول الإمام الماوردي رحمه الله: (لا منزلة في العالم أعلى من النبوة التي هي سفارة بين الله تعالى وعباده، تبعث على مصالح الخلق، وطاعة الخالق، فكان أفضل الخلق بها أخص، وأكملهم شروطا، أحق بها وأمس)(٢).

ويتحدث شيخ الإسلام ابن تيمية عن نبينا محمد ﷺ مبينا أنه الواسطة في التبليغ بيننا وبين الله تعالى فيقول: (. . . وهذه الحقوق الثابتة بعد موته هي تبع لرسالته؛ فإنه هو السفير، والواسطة بيننا وبين الله تعالى في تعليمنا، وانتفاعنا بما علمنا من علم الله، وخبره، وفي أمرنا، وإرشادنا إلى ما أمر الله به، وأحبه، ورضيه، وبذلك حصل لمن آمن به، واتبعه سعادة الدنيا والآخرة، بل أعظم نعمة أنعم الله بها على المؤمنين أن أرسله إليهم، وأنزل عليه الكتاب، ومنَّ عليهم باتباعه، فليس في الدنيا خير أعظم من هذا)(٣).

وأما الأمر الثاني: فهو واسطة من العباد إلى الله تعالى لتحقيق طاعته، كالواسطة في العبادة، وقبول الطاعة، مثل واسطة توحيد الله تعالى، والتوسل بأسمائه، وصفاته، وواسطة العمل الصالح، وشفاعة نبينا ﷺ يوم القيامة. **فالواسطة نوعان:**

أ - واسطة من الحق إلى الخلق وهي الرسالة.

ب - واسطة من الخلق إلى الحق وهي العبادة(٤).

يقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله: (وإن أعظم

---

(١) في كون الملك واسطة بين الله تعالى ورسله. انظر ص من هذه الرسالة.

(٢) أعلام النبوة ص٢٥٤

(٣) تلخيص كتاب الاستغاثة١/ ٢٣٧، وانظر قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص٢٤٠

(٤) انظر تفسير الفخر الرازي١/ ٢٥١، وتفسير ابن كثير ١/ ٢٦

الوسائل، وأشرف المقاصد هو توحيد الله تعالى بعبادته، ودعائه وحده لا شريك له)[١].

فالوسائل التي تقرب العبد من الله سبحانه وتعالى، وتدنيه من رحمته سبحانه إنما تكون بما شرعه الله على لسان نبيه ﷺ من علم، أو عمل قلبي، أو بدني، أو ترك، وكف عن عمل محظور، فيدخل في ذلك جميع الطاعات، وترك جميع المعاصي امتثالا لأمر الشارع[٢].

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله موضحا الأعمال الموصلة إلى رضا الله والمقربة منه وبها يكون (القرب منه والحظوة لديه، والحب له، وذلك بأداء فرائضه القلبية، كالحب له وفيه، والخوف، والرجاء، والإنابة، والتوكل، والبدنية كالزكاة، والحج، والمركبة من ذلك كالصلاة، ونحوها من أنواع القراءة، والذكر، ومن أنواع الإحسان إلى الخلق بالمال، والعلم، والجاه، والبدن، والنصح لعباد الله، فكل هذه الأعمال تقرب إلى الله حتى يحبه . . . ويستجيب له الدعاء)[٣].

فهذه أقوال أهل السنة في تعريف الواسطة، وهي أن الواسطة والوسيلة: كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من فعل الطاعات، وترك المحظورات.

وأن التوسط: هو ابتغاء الواسطة إلى الله تعالى أي: الاجتهاد في فعل ما يتقرب به إليه جل في علاه.

فالإقرار بوحدانية الله تعالى واسطة، والشهادة للنبي ﷺ بالرسالة واسطة، وإقام الصلاة واسطة، وإيتاء الزكاة واسطة، وصوم رمضان واسطة، وحج بيت الله الحرام واسطة، وذكر الله تعالى واسطة، والصلاة على النبي ﷺ واسطة، وتلاوة القرآن واسطة، والكلمة الطيبة واسطة، وإماطة الأذى عن الطريق واسطة، وكل شعبة من شعب الإيمان واسطة، تقرب العبد إلى الله تعالى، وتدنيه من رحمته[٤].

ثانيا: الواسطة في اصطلاح أهل الأهواء والبدع: أما الواسطة عند أهل الأهواء فليست

---

(١) تحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود بن جرجيس ص٤٩، وانظر مدارج السالكين٣/ ٣٦٤، ومعارج الألباب في مناهج الحق والصواب لحسين النعمى ص٢٩٩

(٢) انظر القول الجلي في حكم التوسل بالنبي والولي ص٢٨، والرد على شبهات المستعينين بغير الله تعالى ص٩٢

(٣) تفسير السعدي٢/ ١٣٤

(٤) انظر: الوسيلة لأبي الوفاء محمد بن درويش ص٢٨، وتطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد للأمير الصنعاني ص٥٥، والتوسل أنواعه وأحكامه للشيخ الألباني ص١٤



مضبوطة بضابط شرعي، ولا محددة بحد عُرْفي ولا عقلي، فهي عالم خيالي، وباب واسع دخل عن طريقه من الحكايات، والخرافات، والبدع ما جعل أهل الأهواء يتيهون في هذه المسألة العقدية الخطيرة، ويتبعون كـا صائح، وناعق، ويتعلقون بكل شيء، ويصرحون بوساطة ذات المخلوق، الميت، أو الحي، حتى وصل بهم الأمر إلى أن قالوا: **(لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه)**(١)، وهو حديث مكذوب على رسول الله ﷺ؛ والذي جرهم إلى ذكره والاستدلال به؛ هو عدم وجود الأدلة الصحيحة التي تؤيد الوسائط البدعية التي يثبتونها، وعدم التقيد بالنصوص الثابتة من الكتاب والسنة، ثم اعتماد أهل الأهواء

-كما جرت العادة- على التمويهات، والحكايات المختلقة، والأحاديث المكذوبة؛ بل جوّز بعضهم توسيط الحيوانات، والجمادات(٢).

وفي الصفحات التالية بيان لتعريف الواسطة إجمالا عند أهل الأهواء عموما، وتفصيلا عند الفلاسفة والرافضة، والصوفية.

الواسطة عند علماء الحساب والرياضيين: الوسط: بالفتح وسكون السين المهملة عند الرياضيين هو الحد الأوسط المسمى بالواسطة، والمحاسبون يسمون العدد الثاني من الأعداد الثلاثة المتناسبة بالوسط، والثالث من الأعداد الأربعة المتناسبة بالوسطين.

فالواسطة في النسبة: هي التي يكون نسبة أحد الطرفين إليها كنسبتها إلى الطرف الآخر.

والواسطة العددية: هي التي تكون نصف مجموع حاشيتيها المتقابلين، كالأربعة فإنها وسط بين ثلاثة، وخمسة، ومن هاهنا أخذ البعدان الأوسطان بحسب المسافة.

فأما البعدان الوسطان بحسب المصير فيعني مصير الكوكب بالقياس إليهما ليس سريعا ولا بطيئا(٣).

فالواسطة الحسابية: تقال لجملة من المقادير هي حاصل قسمة مجموعها على عددها؛ ولهذه الواسطة الحسابية نفع كبير في المقاييس النفسية(٤).

(١) وهذا الحديث باطل لا أصل له. انظر تخريجه ص
(٢) نقله خير الدين الألوسي عن بعضهم. انظر جلاء العينين ص٥٧٧
(٣) انظر كشاف اصطلاحات الفنون٢/ ١٣٧٥
(٤) انظر المعجم الفلسفي للدكتور جميل صليبا٢/ ٥٧٣



الواسطة عند دعاة تحضير الأرواح: ذكر صاحب المعجم الفلسفي: أن الواسطة في عرف علماء الأرواح: هي الشيء الذي يتم به الاتصال بين الأحياء وأرواح الموتى[١].

وقد ظهرت في القرن العشرين ظاهرة غريبة هدامة يرى بعض الباحثين أن لها صلة بالصهيونية العالمية، هذه الظاهرة هي: الروحية الحديثة، أو تحضير الأرواح، فتتخذ هذه الدعوة - بزعم أصحابها- أسلوب العلوم التجريبية في استدعاء أرواح من ماتوا، ومناجاتهم، واستفتائهم في قضايا الغيب المجهولة، والاستعانة بهم في علاج مرضى الأبدان، والنفوس، وفي الإرشاد إلى كشف المجرمين.

يعتمد أسلوب هذه الدعوة الهدامة على **أربعة محاور:**-

- **المحور الأول:** خباء، أو غرفة تسمى الخدر، أو المخدع.

- **المحور الثاني:** الظلام حتى تتم عملية الخداع.

- **المحور الثالث:** الوسيط الذي يكلم -حسب زعمه- أرواح من ماتوا، ويكلمونه، فيكون واسطة بين الناس الحاضرين، وعالم الغيب.

- **المحور الرابع:** شهود الجلسة.

وبلغ الانخداع بهذه الظاهرة ذروته حينما صرح الدكتور علي راضي[٢] -وهو أحد المخدوعين بهذه الدعوة - قائلا: إن أكبر واسطة في العالم قد حضر إلى القاهرة منذ عدة شهور إنه أمريكي لا يزيد عمره عن إحدى وعشرين سنة، تسميه بعض الصحف الأمريكية نبي القرن العشرين لكثرة ما أتى من المعجزات على حد زعمها[٣].

يقول الدكتور محمد محمد حسين: (إن الروحيين لا يثبتون للرسل، والأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه إلا صفة الوساطة هذه، فالنبي -على حسب تعبير (آرثر فندلاي) هو

---

(١) انظر بد العارف لابن سبعين ص٢٩٦، والمعجم الفلسفي ٢/ ٥٧٤، والروحية عند محي الدين ابن عربي ١/ ٨٦ للدكتور علي راضي.

(٢) هو الدكتور علي راضي أستاذ الفيزياء بجامعة عين شمس بالقاهرة، وعمل أستاذا لهذه المادة بجامعة الرياض، ثم استقال من التدريس، وتفرغ لآرائه الروحية، ويعمل حاليا رئيسا لجمعية الأهرام الروحية، وكما يقول عن نفسه إنه حاصل على دكتوراه في العلم الروحي؛ حيث اجتمعت به صاحبة المرجع الآتي فأفادها بذلك. انظر موقف الإسلام من السحر لحياة با أخضر ٢/ ٤٢٧

(٣) انظر سفير الأرواح العليا أو مقتطفات من تعاليم السيد سلفر برش ترجمة د. راضي ص٨٥، وثلاثون سنة بين الموتى لكارل ويكلاند ترجمة علي راضي ص٥٠



وسيط في درجة عالية من درجات الوساطة، والمعجزات التي جرت على أيديهم ليست إلا ظواهر روحية كالظواهر التي تحدث في حجرة تحضير الأرواح، بل إن هؤلاء المفسدين يتحدَّون الكنيسة في أوروبا، وأمريكا زاعمين أن في وسع بعض الوسطاء أن يعيدوا إحداث كلما نسب للمسيح عليه السلام من معجزات)[١].

وقد اتضح أن الروحية الحديثة نوع من السحر يستعين فيه الوسيط بالشياطين للقيام بأعمال خارقة لعادة الحاضرين في الجلسة[٢].

يقول أحد الكتاب الذي انخدع بهذه الدعوة في أول أمره، ثم ظهر له زيفها وبطلانها، وأنها تقوم على الخداع والشعوذة، فرجع عنها، وكتب عن فضائحها: إن الواسطة التي كانت بينه وبين الأرواح رجل يوصون بحسن رعايته وإكرامه وهو رجل تارك للصلاة، وحليق اللحية، وهم لا ينهونه عن منكر فعله[٣].

الواسطة عند الفلاسفة: لم تكن نظرة الفلاسفة موحدة -كما هي عادتهم- فيما يتعلق بالواسطة، فحينما يرى معظمهم أن العقول المدبرة أو الكواكب العلوية الروحانية هي الواسطة بين الله تعالى وخلقه[٤]، يذهب قسم آخر منهم إلى إنكار وجود واسطة بين العباد وبارئهم قائلين: إن الواسطة غير معقولة[٥].

ولهذا عرَّف القسم الأول من الفلاسفة الواسطة بقولهم: (الواسطة هي الشيء الذي يتم به الانتقال من طرف إلى آخر، مثل توسط الزمان، والمكان بين الحرية والعالم، وتوسط الحواس بين العقل والطبيعة، وتوسط العقول السماوية بين الله وخلقه. . . فالوسيط هو المتوسط بين الشيئين لتقريب أحدهما من الآخر، مثال ذلك قول (لافل): إن التعداد في النفوس هو الوسيط بين العقل المحض، وكثرة الأفكار والأشياء.

---

(١) الروحية الحديثة -دعوة هدامة- تحضير الأرواح وصلته بالصهيونية العالمية ص ٣٨، وأكد صاحب مفاهيم يجب أن تصحح على حد زعمه أن الأرواح يمكن أن تجيب من يناديها، وتغيث من يستغيث بها، كالأحياء سواء بسواء؛ بل أشد وأعظم. انظر مفاهيم يجب أن تصحح لمحمد علوي مالكي ص١٧٤

(٢) انظر موقف الإسلام من السحر ٢/ ٤٥٣ (٣) انظر عالم الجن والشياطين د. سليمان الأشقر ص١٠٧

(٤) انظر جامعة الجامعة من تراث إخوان الصفا تحقيق عارف تامر ص٩٦، والملل والنحل ٢/ ٢٨، والرد على المنطقيين ص٥٣٤، وتلخيص كتاب الاستغاثة ٢/ ٥٧٢، وبغية المرتاد ص١٨٧، والجواب الكافي ص١٩٥، ونشر الطوالع للمرعشي ص٩٩، والتنجيم والمنجمون للمشعبي ص٤٣، وهذه مفاهيمنا ص٩٥

(٥) انظر حاشية القوشجي على شرح التجريد للطوسي بهامش المواقف.



وقول بعض علماء اللاهوت: إن السيد المسيح هو الوسيط بين الله والناس)[١].

وقال الإيجي: (الفلاسفة قالوا: إنه واحد حقيقي، فلا يصدر عنه أثران، والصادر عنه العقل الأول، والبواقي صادرة عنه بالوسائط)[٢].

وفي نشر الطوالع: إن الفلاسفة (قالوا: الواحد لا يصدر عنه إلا واحد، فاحتاجوا إلى إثبات العقول العشرة واسطة بينه وبين العالم الجسماني)[٣].

وقال العلامة ابن القيم -وهو يتحدث عن شرك الوساطة-: (ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم، وأبديته، وأنه لم يكن معدوما أصلا، بل لم يزل، ولا يزال، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب، ووسائط اقتضت إيجادها، يسمونها العقول والنفوس)[٤].

الواسطة عند الرافضة: تعتقد الرافضة في العموم أن النبي ﷺ واسطة بين الله تعالى وخلقه؛ حيث كان يأتيه جبريل عليه السلام بالوحي[٥] حتى بلغ رسالة الإسلام الخالدة، وليت الروافض وقفوا عند هذا الحد في تعريف الواسطة، حتى يتفقوا مع أهل السنة في الفهم الصحيح للواسطة في التبليغ، ولكن الرافضة شطت عن الحق، وابتعدت عن التصور الصحيح للواسطة، حينما يصرح أئمتها، وعلماؤها، مرة بأن عليا رضي الله عنه كان مشاركا للنبي ﷺ في تبليغ الرسالة، ومرة يصرحون بأن الأئمة من آل البيت هم الواسطة بين الله تعالى، وخلقه، ناهيك عن اعتقادات الغلاة في حق علي رضي الله عنه ورفع درجته فوق النبي ﷺ[٦].

وبما أن التناقض سمة من سمات مذهب الرافضة؛ فإن الباحث في كتبهم لن تعوزه الأدلة على كل ما تقدم، إلا أن الأمر الذي يبدو واضحا، وتطفح به كتب القوم، خصوصا

---

(١) المعجم الفلسفي٢/ ٥٧٣، ونشر الطوالع ص٩٩

(٢) المواقف في علم الكلام ص٢٨٣، وانظر لوامع الأنوار البهية١/ ١٤٦، وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية على الفلاسفة في قولهم: (الواحد لا يصدر عنه إلا واحد) انظر: مجموع الفتاوى٨/ ١٣٨

(٣) ص ٩٩، وانظر الرسول والوحي للدكتور محمد المسير ص٢٢٦

(٤) الجواب الكافي ص٢٥٤، وانظر تجريد التوحيد المفيد ص٢٥، وانظر رد الشهرستاني عليهم في الملل والنحل٢/ ٣٢٨، وكذلك رد المرعشي في نشر الطوالع ص١٨٢

(٥) سيمر معنا في بيان نظرتهم للرسول (أن من غلاتهم من يزعم أن جبريل عليه السلام أرسله الله بالوحي إلى علي فخان الأمانة، وبلغ الرسالة إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

(٦) سوف يأتي تفصيل هذا التصور في مبحث: تنقيص بعض أهل الأهواء لمقام الواسطة الصحيحة.



في باب الأدعية، والزيارات هو أن الواسطة بين الخلائق، وبارئهم سبحانه وتعالى هم الأئمة.

ومن صور هذا التناقض قول صاحب عقائد الإمامية -وهو يتكلم عن النبوة: (نعتقد أن النبوة وظيفة إلهية، وسفارة ربانية، يجعلها الله لمن ينتخبه، ويختاره من عباده الصالحين، وأوليائه الكاملين في إنسانيتهم، فيرسلهم إلى سائر الناس لغاية إرشادهم إلى ما فيه منافعهم، ومصالحهم في الدنيا والآخرة... ونعتقد أن قاعدة اللطف توجب أن يبعث الخالق اللطيف بعباده رسله لهداية البشر، وأداء الرسالة الإصلاحية، وليكونوا سفراء الله، وخلفاءه)[1].

فيلاحظ هنا أن هذا التعريف للنبوة ينسحب حسب مفهوم الرافضة للواسطة حتى على أعمال الأئمة المعصومين - على حد زعمهم-، فلم يكن هذا التعريف مقصورا عندهم على الأنبياء فحسب؛ بل استمع إلى صاحب الكتاب نفسه وهو يتكلم عن الإمامة فيقول: (والإمامة كالنبوة لطف من الله تعالى، وهي استمرار لها، والذي يوجب إرسال الرسل، وبعث الأنبياء هو نفسه يوجب أيضا نصب الإمام)[2].

ويقول أيضا مصرحا بأن الأئمة هم الواسطة، والوسيلة إلى الله تعالى: (ونعتقد أن الأئمة هم أولو الأمر الذين أمر الله تعالى بطاعتهم، وأنهم الشهداء على الناس، وأنهم أبواب الله، والسبل إليه، والأدلة عليه، وأنهم عَيْبَةُ[3] علمه، وتراجمة وحيه، وأركان توحيده، وخزان معرفته؛ ولذا كانوا أمانا لأهل الأرض، كما أن النجوم أمان لأهل السماء)[4].

ونجد التناقض نفسه عند صاحب كتاب المعارف الحسينية فحينما يصرح مرة بأن الأنبياء، والرسل هم السفراء، والواسطة بين الله والخلق في قوله: (يجب على الخالق المتوحد من باب اللطف أن يجعل بينه وبين خلقه وسائط، وسفراء أمناء نسميهم رسلا، وأنبياء يليقون من جهة لاستماع كلامه، وتلقي وحيه، وإلهامه، ومن جهة ثانية لتبليغ مراده إلى جملة عباده)[5]، حينما يصرح بهذا التعريف للواسطة نجده يشرك في عمل الأنبياء هذا -وهو

---

(١) عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر ص٢٨
(٢) عقائد الإمامية ص٥٠
(٣) العيبة: وعاء من جلد وموضع السر من الرجل. انظر القاموس المحيط ١/ ١١٣، مادة (العيب).
(٤) عقائد الإمامية ص٥٤
(٥) المعارف الحسينية ص١٧

التوسط بين العباد وبارئهم في تبليغ رسالات الله- يَشْرك معهم الأئمة من آل البيت رحمهم الله فيقول في خطبة كتابه: (أما بعد: فيقول الحسين بن آل حيدر الكاظمي[١]: إن الذي حدا بي لوضع هذا الكتاب أمران: أولا: خدمة للأمة الإسلامية عامة، وللذاكرين خاصة، وتقربا إلى الله تبارك وتعالى، بواسطة خاتم النبيين وبأهل بيته الميامين المعصومين -رحمهم الله أجمعين)، ثم ذكر الأمر الثاني: وهو استخراج الأخبار الصحيحة المعروفة عند العامة والخاصة دون ما يستشهد به الغلاة[٢].

وممن صرح بمشاركة الأئمة من آل البيت رحمهم الله للأنبياء والرسل عليهم السلام - في توسطهم عالم الرافضة الأسترابادي[٣]؛ حيث يقول: (فيجب على الإنسان أن يعتقد بحقيقة الأنبياء، وأوصيائهم، وكونهم من قبل الله تعالى، وأنهم الوسائط بينه تعالى، وبين خلقه، والمبلغون عنه سبحانه إليهم، وهم حفظة شرائعه، ويؤمن بهم و، أنهم قالوا الحق عن الله تعالى، وأنه تعالى أثنى عليهم بطاعته وإجابته وذكره، وشكره، ومن أثنى الله عليه فقوله وعمله وفعله حق، وأن يؤمن بكل ما أنزل الله على أنبيائه، وأوصيائهم، وكتبه، ووحيه، وبما أدته ملائكته إليهم؛ لأن الله تعالى أخبر به نبيه محمدا ﷺ وحججه [الصادقين][٤][٥]).

ومما يؤيد أن المقصود بالواسطة عند الرافضة هم الأئمة تصريح الحافظ البرسي[٦] الرافضي بأنه ليس هناك واسطة بين الله تعالى، والأئمة، وهذا تفضيل لهم على أنبياء الله، ورسله الذين كانوا يأخذون عن الله بواسطة الملك في غالب الأحيان.

يقول البرسي: (وليس بينه [أي الله] وبين رسول الله، ووليه سر، وهذا رمز، وحله: أن ليس بينهم وبين الله واسطة في الخلق، ولا أول في السبق، ولا أقرب إلى حضرة الحق؛ لأنهم الخلق الأول، والعالم الأعلى، والكل تحت رفعتهم)[٧].

وإذا كان مذهب الحافظ البرسي أن الإمام يأخذ عن الله، ويطلع على اللوح المحفوظ

---

(١) لم أقف على ترجمته. (٢) المعارف الحسينية ص٢

(٣) هو محمد باقر بن محمد الأسترابادي الشهير بداماد من شيوخ الرافضة في الدولة الصفوية، توفي سنة ١٠٤٠هـ. انظر الكنى والألقاب٢/ ٢٠٦، وخلاصة الأثر للمحبي٢/ ٣٠١، ومعجم المؤلفين٩/ ٩٣

(٤) في الأصل المنقول (الصادقون) وهو خطأ نحواً.

(٥) مقتبس من حياة الأرواح للأسترابادي. انظر دائرة المعارف للأعلمي الشيعي٧/ ٦٣

(٦) لم أقف على ترجمته. (٧) مشارق أنوار اليقين ص ١٣٥



بلا واسطة، وقد قرر هذا المذهب في مواطن كثيرة من كتابه "مشارق أنوار اليقين" مصرحا بأن الإمام عليا رضي الله عنه أفضل من النبي ﷺ؛ لأن النبي مقيد بالتبليغ، وبتوسط الملك، أما الإمام فإنه مطلق العنان، يأخذ من اللوح المحفوظ ما شاء، ويخبر كيف شاء[1]، إذا كان الأمر كذلك فإننا نجد المامقاني[2] الرافضي يصرح بأن الواسطة بين الأئمة، وبين الله تعالى تكون عن طريق جبريل عليه السلام تارة، وعن طريق النبي ﷺ تارة أخرى[3].

وهذا يؤكد أن التناقض سمة من السمات البارزة في عقائد الرافضة، فاعتقاد الحافظ البرسي في الإمامة، وهو بلاشك معتقد إخوانه من الرافضة أن الإمامة ركن من الدين، ولطف يجب على الله نصبه، وتعيينه، وأن معرفة الولي الإمام واجبة على كل مكلف، كوجوب معرفة النبي سواء بسواء، ومن مات ولم يعرف إمام زمانه مات كافرا، وهذه الإمامة كمال الدين، وعين اليقين، ورجح الموازين، وأن الإمام يجب أن يكون معصوما، واجب الطاعة، خُصّا من العلي العظيم، ونصا من الرؤوف الرحيم، وأن الأئمة هم الواسطة بين الله تعالى، وخلقه في حياتهم يبلغون الشرائع، ويهدون الضائع، وفي قبورهم هم الوسيلة، والذخيرة ليوم الحشر، وقبورهم، ومشاهدهم ملجأ القاصدين، وملاذ الداعين، فلا مهرب من قبضتهم، ولا فوز، ولا نجاة إلا بواسطتهم، ولن يلج الجنة إلا من دخل من بابهم[4].

وتراهم يصرحون بأن الأئمة من آل البيت هم الواسطة يقول أحدهم: (وما يعترض به من ليس فيه أنس بالفن، ولا باصطلاح أهله بأني قلت: إنهم (رحمهم الله)]يقصد الأئمة [العلة الفاعلة فمرادي أنهم محال مشيئة الله؛ بمعنى أن الله سبحانه أطلعهم على خلق ما خلق [فوجودهم][5] شرط لإيجاد غيرهم؛ لأنهم الوسائط من الله، من خلقه، وإن كان الله تعالى قادرا على الإيجاد بدون توسط الأسباب، والآلات، إلا أنه عز وجل جرت عادته أنه يجري الأشياء على ترتيب أسبابها؛ ليعرف العباد الدليل، والاستدلال

---

(١) انظر مشارق أنوار اليقين ص١٩٨

(٢) هو عبد الله بن محمد حسن بن عبدالله بن محمد باقر المامقاني النجفي من كبار شيوخ الرافضة، ولد بالنجف سنة ١٢٩٠هـ، وتوفي بها سنة ١٣٥١هـ من كتبه، تنقيح المقال في علم الرجال. انظر الأعلام٦/ ٩٣، ومعجم المؤلفين٦/ ١١٦، ونقباء البشر ٢/ ١١٩

(٣) انظر تنقيح المقال٣/ ٢٤٠، ومسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة للدكتور ناصر القفاري القسم الأول ص٣٨٤

(٤) انظر مشارق أنوار اليقين ص ٢١٤-٢١٥

(٥) في النص المنقول (وجوههم) وليس له معنى.



على معرفة ما يريد منهم . . . فإنه تعالى إنما يخلق على العلل ليعرِّف لعباده كل شيء بما يتوقف عليه الإيجاد، والتعريف من العلل الفاعلية، لا من العلل المادية، ولا الصورية، ولا الغائية، وهذا هو المعروف عند أهله، وليس المراد بالعلة الفاعلية أنهم هم الخالقون، تعالى الله عمن يشاركه في خلقه علوا كبيرا)[١] .

ويقول الكليني[٢] : (إن الإمام ينطق عن الله في الكتاب، وإنه أوضح بأئمة الهدى من أهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم عن دينه، وأبلج عن سبيل مناهجه، وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه، وجعلهم مسالك لمعرفته، ومعالم لدينه، وحُجَّاباً بينه وبين خلقه، والباب المؤدي إلى معرفة حقه، أطلعهم الله على المكنون من سره)[٣] .

وأبواب الأدعية والزيارات من كتب الرافضة تطفح بالتوجه إلى الأئمة، والتوسل بهم، واعتبارهم واسطة بينهم، وبين الله تعالى، فمن ذلك دعاء التوسل بالأئمة (يا سادتي، وموالي إني توجهت بكم أئمتي، وعدتي ليوم فقري، وحاجتي إلى الله، وتوسلت بكم إلى الله، واستشفعت بكم إلى الله فاشفعوا لي عند الله، واستنقذوني من ذنوبي عند الله؛ فإنكم وسيلتي إلى الله، وبحبكم، وبقربكم أرجو نجاة من الله، فكونوا عند الله رجائي، يا سادتي، يا أولياء الله)[٤] .

وننقل عن عباس القمي[٥] الدعاء الآتي الذي تدعو به الرافضة، وإن كان قد تعدى دعاء الله بالواسطة إلى دعاء الواسطة نفسها: (يا محمد، يا علي، يا علي، يا محمد اكفياني فإنكما كافياني، وانصراني فإنكما ناصراني، يا مولانا يا صاحب الزمان: الغوث، الغوث، الغوث، أدركني، أدركني، أدركني، الساعة، الساعة، الساعة، العجل، العجل، العجل، يا أرحم الراحمين، بحق محمد وآله الطاهرين)[٦] .

ومن الأدعية في كتاب " كليات مفاتيح الجنان " (يا مولاي، يا صاحب الزمان، يا ابن

---

(١) دائرة المعارف للأعلمي الشيعي ٧/ ١١٤، نقلا عن أحمد بن زين الدين الأحسائي.

(٢) هو أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني من كبار فقهاء الشيعة الإمامية، صنف للشيعة كتاب الكافي جمع فيه أحاديث الشيعة، وهو عندهم بمنزلة صحيح البخاري عند أهل السنة، وقد جمع في كتابه من الطامات، والشناعات، والافتراءات على أهل البيت ما لا يعلمه إلا الله، توفي سنة ٣٢٨هـ. انظر الكنى والألقاب لعباس القمي ٣/ ١٢٠، ولسان الميزان لابن حجر ٥/ ٤٣٣، والأعلام للزركلي ٧/ ١٤٥

(٣) أصول الكافي ١/ ١، وانظر الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور مصطفى كامل الشيبي الشيعي ١/ ٤٦٣

(٤) كليات مفاتيح الجنان لعباس القمي ص١١٠، وانظر مناسك حج لآية الله العظمى فاضل لنكراني ص٢٨٤

(٥) هو عباس بن محمد رضا بن أبي القاسم القمي من الإمامية، ولد بقم حوالي ١٢٩٣هـ، وتوفي بالنجف سنة ١٣٥٩هـ. انظر الأعلام للزركلي ٣/ ٢٦٥، ونقباء البشر ٢/ ٩٩

(٦) كليات مفاتيح الجنان ص١١٦

رسول الله، حاجتي، كذا وكذا، فاشفع لي في نجاحها، فقد توجهت بحاجتي لعلمي أن لك عند الله شفاعة مقبولة، ومقاما محمودا، فبحق من اختصكم بأمره، وارتضاكم لسره، وبالشأن الذي لكم عند الله بينكم وبينه، سل الله تعالى في نجح طلبتي، وإجابة دعوتي، وكشف كربتي)[١].

وفي كتاب " مناسك حج " التوجه بالأئمة في الدعاء، وجعلهم واسطة، ووسيلة إلى رضوان الله: (رب صل على الأئمة الذين اخترتهم لأمرك، وجعلتهم خزنة علمك، وحفظة دينك، وخلفاءك في أرضك، وحججك على عبادك وطهرتهم من الرجس، والدنس تطهيرا، بإرادتك، وجعلتهم الوسيلة إليك، والمسلك إلى جنتك)[٢].

ويعلق الباحث جيلان العروسي على هذه الأدعية عند الرافضة، مبينا أن هذه النماذج من الأدعية فيها اعتقاد أن الأئمة هم الواسطة بين الله، وبين الخلق في الحوائج، بل في اعتقاد أنهم الواسطة في الحوادث الكونية: من إنزال الغيث، وإمساك السماء، تعالى الله عما يقولون، فكأن الله لا يعمل شيئا إلا لجبر خاطر الأئمة، وإرضائهم وبوساطتهم أوجد العالم، فكأن الله محتاج إليهم في تدبير شؤون الكون، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا[٣].

ويخاطبون عليا رضي الله عنه في قبره بعبارات الواسطة، والحجة، والباب، والمعدن، والأمين، وعين الله، ويد الله، ولسانه، وسفير الله، وخازنه، ومستودع علمه إلى غير ذلك[٤].

ووجدت أحمد السرهندي، النقشبندي الصوفي يؤيد الرافضة في ادعائها أن عليا رضي الله عنه، والأئمة من بنيه هم الواسطة، وأن ما يصل إلى أولياء الصوفية من فيض على حد زعمهم -إنما هو بتوسطه رضي الله عنه، بالأصالة، وحضرات الفاطمة والحسنين رضي الله عنهم تبع له[٥].

وهذا يوضح لنا الصلة القوية، والتمازُج البَيِّن بين الأفكار، والمعتقدات عند كل من

---

(١) المرجع نفسه ص ١١٧

(٢) مناسك حج للنكراني ص٣٠٦

(٣) انظر الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية٢/ ٩٣٣

(٤) انظر كليات مفاتيح الجنان ص٣٧٧

(٥) انظر المنتخبات من المكتوبات ص ٢٢٤

الرافضة، والصوفية[1]، وسوف يتضح هذا التشابه، والتداخل في مفهوم الواسطة عند هاتين الطائفتين في تعريف الصوفية للواسطة في الحديث الآتي.

الواسطة عند الصوفية: تتقارب عقائد أهل الأهواء، وتتشابه في كثير من الأحيان؛ وذلك لعدم الضابط من الدليل الشرعي، وفي هذا المنزع نجد الصوفية مشت على سَنَن الرافضة في مسائل عديدة من الاعتقاد، ومن ذلك مسألة تعريف الواسطة، وتعيين المتوسط بين الله تعالى، وخلقه.

فكما رأينا الرافضة فيما سبق تعتقد أن الأئمة من آل البيت -رحمهم الله- هم الواسطة بين الله تعالى، وخلقه نجد أن الصوفية لم تلتزم معتقد أهل السنة والجماعة في قصر الواسطة في التبليغ على خاتم النبيين محمد ﷺ، بل ضارعت الرافضة في مسلكها، واعتبرت أن الواسطة بين الله، والخلق هو الشيخ[2]، والولي الذي أضفت عليه كثيرا من هالات التقديس، والإجلال، والتعظيم حتى رفعته إلى مرتبة النبي ﷺ وفي بعض الأحيان فوق مرتبته[3].

وفي كتب الصوفية، والغلاة منهم على وجه الخصوص، التصريح بأن ما يصل إلى المريدين من هداية، وتوفيق، وخير، وما يندفع عنهم من شقاوة، وخذلان، وسوء، وشر، فإنما هو بتوسط الشيخ.

فأهمية الشيخ لا تقتصر على هداية المريدين، وإرشادهم، وتبصيرهم بعيوب أنفسهم؛ بل إنها تتعدى هذه الحدود لتجعل الشيخ واسطة بين المريدين وربهم، يقوي العلاقة بين العباد وبارئهم، من خلال تحبيب الله إلى العباد، وتحبيب العباد إلى الله[4].

يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني مصرحا بأن الشيخ هو الواسطة: (فيجعله وسيلة، وواسطة بينه وبين ربه عز وجل، وطريقا، وسببا يتوصل به إليه، كمن يريد الدخول على ملك، ولا معرفة له به؛ فإنه لا بد له من أن يصادف حاجبا من حجابه، أو واحدا من

---

(١) انظر الصلة بين التصوف والتشيع للشيبي الشيعي١/ ٤١٤، والعلاقة بين التشيع والتصوف لفلاح بن أحمد رسالة دكتوراه غير منشورة.

(٢) انظر مفاهيم يجب أن تصحح لمحمد علوي مالكي ص٩٥، وزيارة القبور والاستنجاد بالمقبور لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٦٢، وأضواء البيان للشنقيطي٢/ ٩٨، والتحفة السنية بتوضيح الطريقة التجانية لمحمد البرناوي ص١٧٩، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص٣٤٤

(٣) انظر تفصيل هذا التصور في مبحث تنقيص بعض أهل الأهواء لمقام الواسطة الصحيحة.

(٤) انظر نظرية الاتصال عند الصوفية لسارة بنت عبد المحسن ص٩٨



حواشيه، وخواصه؛ ليبصره بسياسة الملك، ودأبه، وعادته)[١].

ويقول -أيضا- في كتابه " الغنية " (فالمشايخ هم الطريق إلى الله عز وجل، والأدلاء عليه، والباب الذي يدخل منه إليه، فلا بد لكل مريد لله عز وجل من شيخ على ما بينا)[٢].

ويقول السهروردي[٣]: (إن العالم ما خلا قط عن الحكمة، وعن شخص قائم بها عنده الحجج، والبينات، وهذا يدل على أن القطبانية هي صورة من صور النبوة، فالإمام، أو الخليفة هو القطب، أو الإنسان الكامل، والأقطاب، أو الأئمة هم الدعائم التي يقوم عليها صرح الوجود، وهم الواسطة بين عالم الأمر، وعالم الخلق)[٤].

ونقل ملاَّ علي القاري رحمه الله[٥] في مرقاة المفاتيح عن بعض الصوفية: أن القطب هو الواسطة في الفيض بين الله وعباده، فقال: (القطب، ويقال له الغوث: هو الواحد الذي هو محل نظر الله تعالى من العالم في كل زمان، أي: نظرا خاصا يترتب عليه إفاضة الفيض، واستفاضته، فهو الواسطة في ذلك بين الله تعالى وبين عباده، فيقسم الفيض المعنوي على أهل بلاده بحسب تقديره، ومراده)[٦].

ويبين صاحب معجم مصطلحات الصوفية أن الشيخ هو الذي سلك طريق الحق ويعرف المخاوف، ويبصر المهالك، فإذا ظفر الإنسان بهذا الشيخ عليه أن يعتقد في قلبه أن لا شيخ غيره، ولا يوصل إلى الله إلا هذا، فهو واسطته وسببه الذي يوصله بالحق تبارك وتعالى، وهذا يسمى توحيد المطلب[٧].

---

(١) الغنية٢/ ١٦٥، وانظر نظرية الاتصال ص٩٩

(٢) الغنية٢/ ١٦٦، وانظر كتاب الفتح الرباني فيما يحتاج إليه المريد التجاني لمحمد بن عبد الله الطصفاوي ص٢

(٣) هو أبو النجيب عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سعد البكري الصديقي السهروردي صوفي ولد بسهرورد سنة ٤٩٠هـ، وسكن بغداد، فولي المدرسة النظامية، ثم توفي ببغداد سنة ٥٦٣هـ، وقيل: غير ذلك. انظر معجم البلدان٣/ ٢٨٩، والوفيات١/ ٢٩٩، والأعلام للزركلي٤/ ٤٩

(٤) عوارف المعارف ص١٨٠، وانظر معجم ألفاظ الصوفية للدكتور حسن الشرقاوي ص٢٣٥

(٥) هو علي بن سلطان بن محمد الهروي المعروف بالقاري الحنفي أحد صدور العلم، ألف التأليف الكثيرة النافعة في فنون العلم مثل: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، وشرح الشفا وغيرها، توفي سنة ١٠١٤هـ. انظر خلاصة الأثر للمحبي٣/ ١٨٥، والبدر الطالع للشوكاني١/ ٤٤٥

(٦) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح١٠/ ١٧٨

(٧) انظر معجم مصطلحات الصوفية ص١٤٣



وذكر الألوسي ما رواه القشيري[١] عن معروف الكرخي[٢] أنه قال لتلامذته : (إن كانت لكم إلى الله حاجة فأقسموا عليه بي فإني الواسطة بينكم وبينه الآن)[٣]!! .

ومثل ذلك يروى عن أبي الحسن علي الشاذلي[٤] فإنه قال لأحد أتباعه : (إذا عرضت لك إلى الله تعالى حاجة فأقسم عليه بي)[٥] .

وقال ابن الحاج[٦] : (ثم يتوسل بأهل تلك المقابر : أعني بالصالحين منهم في قضاء حوائجه ، ومغفرة ذنوبه ، ويكثر التوسل بهم إلى الله تعالى ؛ لأن الله تعالى اجتباهم ، وشرفهم ، وكرمهم ، فكما نفع بهم في الدنيا ففي الآخرة أكثر ، فمن أراد حاجة فليذهب إليهم ، ويتوسل بهم ؛ فإنهم الواسطة بين الله تعالى ، وخلقه)[٧] .

ويقول صاحب كتاب " ميزاب الرحمة الربانية في التربية بالطريقة التجانية " (ولكل مؤمن بنور الإيمان بواسطة الشيخ مدد وجيه . . . ولا يقدح في صدق المريد توجهه إلى الله تعالى بشيخه في قضاء حوائجه الدنيوية ، والأخروية ، أن يكل أموره إليه كافة حتى يكون بحيث لا يرى مددا إلا منه ، ولا فتحا إلا عنه ، وأن به جميع الفتوحات النورانية ، والظلمانية من الأقوات الجسمانية ، والروحانية)[٨] .

وصرح أحد أتباع أحمد التجاني[٩] بأنه هو الوسيلة والواسطة ، فقال : إن ختم الولاية

---

(١) هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري الصوفي ، ولد سنة ٣٧٦هـ وتوفي بنيسابور سنة ٤٦٥هـ. انظر ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي٣/ ٢٤٣ ، ووفيات الأعيان١/ ٢٩٩ ، والأعلام للزركلي٤/ ٥٧

(٢) هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي أحد أعلام الزهد المتصوفين من موالي الإمام الرضي بن موسى الكاظم اشتهر بالصلاح والتقشف ولأتباعه غلو فيه كانت وفاته سنة ٢٠٠هـ انظر سير أعلام النبلاء٩/ ٣٣٩ ، ووفيات الأعيان٢/ ١٠٤ ، والأعلام للزركلي٧/ ٢٦٩

(٣) جلاء العينين ص٥٥٩ ، وصيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان ص١٨٩ ، والقول الفصل النفيس ص١٨٢

(٤) هو أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن خلف بن جبريل المنوفي المصري الشاذلي ، الصوفي ، يعتقد فيه أتباعه كثيرا من الخرافات والأساطير ، ولد سنة ٨٥٧هـ بالقاهرة ، وتوفي بها سنة ٩٣٩هـ. انظر إيضاح المكنون للبغدادي١/ ٥٥٧ ، والأعلام للزركلي٥/ ١٦٤ ، ومعجم المؤلفين٧/ ٢٣٠

(٥) جلاء العينين ص٨٣

(٦) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري القبيلي المغربي الفاسي المالكي الصوفي الشهير بابن الحاج ، عالم شارك في بعض العلوم ، ولد بفاس ، وتوفي بها ، وقدم مصر وحج ، كف بصره في آخر عمره ، توفي سنة ٧٣٧هـ. انظر الدرر الكامنة٤/ ٢٣٧ ، وذكريات مشاهير رجال المغرب لعبد الله كنون ص٦ ، ومعجم المؤلفين١١/ ٢٨٤

(٧) المدخل١/ ٢٤٩

(٨) ميزاب الرحمة الربانية ص٣٣

(٩) هو التجاني وقيل : التيجاني أبو العباس أحمد بن محمد فتحا بن المختار الصوفي المغربي مؤسس الطريقة التجانية ، ولد ونشأ بعين ماضي سنة ١١٥٠هـ ، وتوفي بفاس سنة ١٢٣٠هـ. له مقالات تصادم الشرع والطبع ، لأتباعه غلو زائد فيه . انظر : ترجمته في جواهر المعاني ، ١/ ١٩ ، وكشف الحجاب ص١٠ ، وبغية المستفيد ص١٣٥ ، والأعلام للزركلي ١/ ٢٣٢ ، ومعجم المؤلفين٢/ ١٤٣

لم يثبت لأحد قبل شيخنا، وإن أحدا ما ادعاها، وثبت على ادعائها لنفسه، ما عدا شيخنا، وسيدنا وواسطتنا، ووسيلتنا إلى ربنا[١].

ويقول عبد العزيز الدباغ[٢] لمريده: (إذا وجدت، وأعطاك المولى الشيخ الذي يربيك فقم على خدمته، واعرف حق صحبته، واتخذه وسيلة إلى الله عسى أن تدرك معرفة الله عز وجل)[٣].

وقال -أيضا- لأحد مريديه: (إن ذاتي ليست بمحجوبة في القبر، بل هي في العالم كله، عامرة له، ومالئة، وفي أي موضع تطلبني تجدني، حتى لو أنك قمت إلى سارية في المسجد، وتوسلت بي إلى الله عز وجل، فإني أكون معك حينئذ، ثم أشار إلى العالم كله فقال: وأنا فيه بأجمعه، فحيثما طلبتني وجدتني)[٤]

ويقول أحمد السرهندي منوها بقدر هذا الشيخ الواسطة وأهميته: (ومن لم يشرف بصحبة مثل هذا الشيخ، فإن كان من المرادين يجذبه الحق سبحانه، ويجتبيه إليه، ويكفيه أمره، بمحض عنياته التي لا غاية لها، ولا نهاية، ويعلمه كل شرط، وأدب لازم له، ويجعل روحانية بعض الأكابر وسائل طريقه، ودليله في قطع منازل السلوك، فإن توسط روحانيات المشايخ في قطع طريق السلوك لازم، بطريق جري عادة الله سبحانه، وإن كان من المريدين فأمره من غير توسط شيخ مقتدى به مشكل، فينبغي أن يلتجئ إلى الله سبحانه دائما، إلى أن يصل إلى شيخ مقتدى به)[٥].

ويقول الدكتور تقي الدين الهلالي في بيانه لنشأة صلاة الفاتح عند التجانيين، والواسطة المعظم الذي نقلها إلى الشيخ الواسطة التجاني: (إن هذه الصلاة وجدت في أول أمرها عند شخص يسمى محمد بن العربي التازي[٦]، ويسميه التجانيون الواسطة المعظم؛ لأنه -بزعمهم- كان واسطة بين النبي ﷺ وبين الشيخ أحمد التجاني يحمل الرسائل من الشيخ

---

(١) انظر الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية ص٣٣

(٢) هو أبو فارس عبد العزيز بن مسعود الدباغ من الأشراف الحسنيين صوفي، لأتباعه مبالغات وغلو في شأنه، ولد بفاس بالمغرب سنة ١٠٩٥هـ وكانت وفاته بها سنة ١١٣٢هـ، انظر الإبريز لمريده أحمد بن المبارك اللمطي ص٤، والأعلام للزركلي ٤/ ٢٨

(٣) الإبريز ص٢٣٧

(٤) الإبريز ص٢٤٢

(٥) المنتخبات من المكتوبات ص٩٨

(٦) هو أبو عبدالله محمد بن العربي التازي دارا، الدمراوي أصلا (الواسطة العظمى)، حين يزعمون أنه كان واسطة بين النبي صلى الله عليه وسلم والشيخ التيجاني، توفي بعين ماضي سنة ١٢٠٤هـ. انظر كشف الحجاب عم تلاقى مع الشيخ التيجاني من الأصحاب لأحمد بن الحاج العياش ص٩٧

إلى النبي ﷺ ومن النبي إلى الشيخ التجاني، وفي ذلك الوقت، أي وقت الواسطة لم يكن النبي ﷺ يظهر للشيخ التجاني، وإنما كان يظهر لمحمد بن العربي، وزعموا أن النبي ﷺ، قال للواسطة محمد بن العربي: لولا محبتك لحبيبي التجاني ما رأيتني، وكان الواسطة يخبر الشيخ التجاني بأنه إذا جاء الوقت الموعود يظهر النبي ﷺ له بلا واسطة، يحدثه، ويكلمه)[1].

فهذه هي الواسطة في عرف التجانيين، وهي داخلة في تعريف بقية الصوفية للواسطة كما رأينا.

وتعبر الصوفية أحيانا عن الشيخ الواسطة بالإنسان الكامل، والبرزخ.

يقول التهانوي[2]: (إن الإنسان الكامل الحقيقي هو البرزخ بين الوجوب، والإمكان، والمرآة الجامعة بين صفات القدم، وأحكامه، وبين صفات الحدثان، وهو الواسطة بين الحق والخلق، وبه، وبمرتبته يصل فيض الحق، والمدد الذي سبب بقاء ما سوى الحق إلى العالم كله، علوا، وسفلا، ولولاه من حيث برزخيته التي لا تغاير الطرفين لم يقبل شيء من العالم المدد الإلهي، الوجداني؛ لعدم المناسبة، والارتباط، ولم يصل إليه)[3].

ويقول أحمد السرهندي -موضحا أن المقصود بهذا البرزخ هو الشيخ، الواسطة-: (وهذه المحافظة إنما هي إلى زمان الوصول إلى الشيخ الكامل، المكمل، ثم بعد الوصول إليه لا شيء عليه سوى تفويض جميع مراداته إليه، وكونه كالميت بين يدي الغسال لديه، والفناء الأول هو الفناء في الشيخ، ويكون هذا وسيلة الفناء في الله:

من أجل كونك في البداية أحولا لا بد من شيخ يقودك أولا

فإن طريقة الإفادة، والاستفادة مبني على وجود المناسبة أولا بين الطرفين، والطلب لا بد له أولا من برزخ، ذي جهتين؛ لكونه في الابتداء في غاية الدناءة، ونهاية الخساسة، وعدم مناسبته أصلا لجناب قدسه جل سلطانه، من هذه الحيثية، وذلك البرزخ (هو

---

(١) الهدية الهادية ص١١١، وانظر التحفة السنية بتوضيح الطريقة التجانية ص٦٢

(٢) هو محمد بن علي بن محمد بن حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي، من أهل الهند، لغوي مشارك في بعض العلوم من آثاره كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، كان حيا سنة ١١٥٨هـ. انظر ترجمته في الأعلام للزركلي٧/ ١٨٨، ومعجم المؤلفين١١/ ٤٧

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون١/ ١١٢، وانظر التعريفات ص٦٣، ومعجم مصطلحات الصوفية للحفني ص٢٧، والمعجم الصوفي الحكمة في حدود الكلمة د. سعاد الحكيم ص١٥٨



الشيخ) الكامل المكمل)[١].

فوساطة الإنسان الكامل نوعان: أ- واسطة فيض. ب- واسطة مد، ومعناها الإنسان الكامل الذي يمثل الرابطة بين الحق والخلق بمناسبته للطرفين[٢]. وأصبحت بذلك رتبة المشيخة من أعلى الرتب في طريق الصوفية للتوسط بين الحق والخلق، ونيابة النبوة في الدعاء إلى الله تعالى[٣].

ومما يؤكد صحة المقولة التي سبقت الإشارة إليها، وهي تأثر الصوفية في مسألة الواسطة بالرافضة اعتبار أحمد السرهندي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو الواسطة العظمى في الوجود، ثم انتقلت منه هذه الوساطة إلى الاثني عشر من بنيه -رحمهم الله-، ثم إلى الأولياء من الصوفية، حتى وصلت النوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني.

يقول السرهندي: (وأظن أنه [أي علي] رضي الله عنه كان ملاذ هذا المقام، قبل النشأة العنصرية أيضا، كما أن بعد النشأة العنصرية كل من وصل إليه الفيض، والهداية من هذا الطريق وصل بتوسطه؛ فإنه عند نقطة منتهى هذا الطريق، ومركز هذا المقام متعلق به، ولما تم دوره (رضيالله عنه) فوض هذا المنصب العظيم القدر، وسلمه إلى حضرات الحسنين، على الترتيب، وبعدهما إلى كل واحد من الأئمة الاثني عشر، على الترتيب، والتفصيل، وكل من وصل إليه الفيض، والهداية في أعصار هؤلاء الأكابر، وكذلك بعد ارتحالهم، وصل بتوسطهم، وبحيلولتهم، وإن كان من الأقطاب، ونجباء الوقت، وكان ملاذ الجميع، وملجأ الكل هؤلاء الأكابر؛ فإنه لا بد للأطراف من اللحوق بالمركز إلى أن وصلت النوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني، قدس سره، ولما بلغت النوبة إليه فوض المنصب المذكور إليه قدس سره، ولا يشاهد على هذا المركز أحد بين الأئمة المذكورين، وبين الشيخ قدس سره، ويفهم وصول الفيوض، والبركات في هذا الطريق إلى أي فرد كان من الأقطاب، والنجباء، بتوسطه الشريف، فإن هذا المركز لم يتيسر لغيره؛ ولهذا قال: -

أفلت شموس الأولين وشمسنا   أبدا على أفق العلا لا تغرب

والمراد بالشمس: شمس فيضان الهداية، والإرشاد، ولما تعلقت المعاملة التي كانت

---

(١) المنتخبات من المكتوبات ص٢٧   (٢) انظر الكشف عن حقيقة الصوفية ص٩٣

(٣) انظر عوارف المعارف ص٨٣، ونظرية الاتصال عند الصوفية ص٩٥



أولا متعلقة بالأولين بالشيخ بعد وجوده، وصار هو واسطة وصول الرشد، والهداية كما كان الأولون قبله، ويكون وصول الفيض أيضا بتوسطه، مادامت معاملة التوسط باقية)[1].

ويمكن القول: إن نظرة الصوفية للواسطة من الأولياء، والمشايخ، سارت على منوال النظرة الشيعية للواسطة في الأئمة المعصومين -على حد زعمهم- ولم تحد عنها في غالب الأحيان.

يقول الدكتور كامل الشيبي الشيعي: (ومن هنا جاء التزاوج بين التشيع والتصوف؛ بل جاء رسم التصوف على مثال المثل الروحية الشيعية، وصار الأولياء صورا أخرى من ولي الله علي بن أبي طالب، وصاروا يتحرون ما يقال في الأئمة فيضيفونه إلى الأولياء)[2].

ويرى بعض الروافض أن الصوفية باعتقادهم في مشايخ طرقهم أنهم هم الواسطة؛ إنما أرادوا بذلك مقابلة الشيعة في اعتقادهم وساطة الأئمة من آل البيت، فهم شر الطوائف، والسبب عنده: أن علماء الصوفية صرحوا بأن طريقتهم يشترط فيها أن تكون على مذهب أهل السنة والجماعة، فأرادوا إخلاف الحق بمقابلته بما يشابهه من الباطل؛ لأن الباطل مشابه للحق في الصورة الظاهرة، وفي بادئ الرأي، ثم إن كل هذه الضلالات، والترهات، والتكلفات، ما ابتدعتها الصوفية إلا لأجل معارضة أئمة الهدى رحمهم الله[3].

ويقول الشيبي: (وبذلك يتضح كنه الصحبة الصوفية، وصدورها عن التشيع، ويتبين التآلف بين الإمام، والشيخ، والشيعي، والمريد. . . والواقع أن ذلك كله آت من الثقة العمياء في الشيخ. . . ولذلك كانت طاعة المريد للشيخ فوق طاعته للرب. فالمريد لا يستطيع بنفسه أن يتفهم ما أراده الله بأسراره، وآياته، ولكن الشيخ يفهم، وبذلك وجب على المريد أن يطيعه تلك الطاعة التي لا طاعة فوقها)[4].

وأكد ابن خلدون رحمه الله[5] رسم وساطة الشيخ عند الصوفية على مثال وساطة الإمام عند الرافضة مبينا: أن سلف الصوفية كانوا مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة؛ فلذلك تأثروا بكثير من معتقداتهم، وتشابهت الخرافات التي يقوم عليها مذهب كل من الطائفتين. . .[6].

---

(١) المنتخبات من المكتوبات ص٢٢٤ وما بعدها.

(٢) الصلة بين التصوف والتشيع للشيبي١/ ٣٨٣

(٣) انظر دائرة المعارف للأعلمي الشيعي٨/ ٤٢

(٤) الصلة بين التصوف والتشيع للشيبي١/ ٤٦٤

(٥) هو أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جار الحضرمي الأشبيلي الأصل، التونسي، ثم القاهري، المالكي، ولي الدين المعروف بابن خلدون، ولد بتونس سنة ٧٣٢هـ، وتنقل في البلدان، ولي كتابة السر بفاس، ثم عزل، فرحل إلى مصر، وولي قضاء المالكية بالقاهرة، حتى توفي بها سنة ٨٠٨هـ. انظر الضوء اللامع للسخاوي٤/ ١٤٥، وشذرات الذهب٧/ ٧٦، ومعجم المؤلفين٥/ ١٨٨

(٦) انظر مقدمة ابن خلدون ص٤٣٧

المبحث الثاني

التعريف بأهل السنة وتوضيح ألقابهم

أولا: التعريف بأهل السنة: لكي نقف على تعريف محدد وواضح للمراد بأهل السنة ينبغي أن نقف على تعريف السنة وبيان المراد بها في اللغة واصطلاح العلماء؛ لأن معرفة الاسم (السنة) وبيانه واسطة ووسيلة إلى معرفة المسمى (أهل السنة) والمراد بهم. فأقول:

أ – السنة في اللغة: السنة -بضم الأول وفتح الثاني المشدد-: الطريقة والسيرة، حسنة كانت أو قبيحة، وتجمع على سنن مثل غرفة وغُرف[١].

قال ابن فارس: السنة: السيرة، وسنة رسول الله ﷺ: سيرته، قال الهذلي[٢]:

فلا تجزعن من سنة أنت سرتها فأول راض سـنـة من يسيرهـا.

وقال ابن منظور: السنة: السيرة المحمودة أو المذمومة، وقد تكرر في الأحاديث ذكر السنة والمراد بها الطريقة[٣].

ومن تلك الأحاديث حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **(من سن في الإسلام سنة حسنة، فعمِل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء)**[٤].

ب – السنة في الاصطلاح: يختلف المراد السنة في اصطلاح المحدثين والأصوليين والفقهاء وعلماء الوعظ وأصول الدين وإن كان الجميع يتفق على أنها سنة النبي (، لكن الاختلاف حصل عند التفصيل والتحديد[٥].

ولعل مرد هذا الاختلاف في تحديد المعنى الاصطلاحي للسنة راجع إلى تنوع الأغراض التي يعنى بها كل فئة من أهل العلم[٦].

فعلماء الحديث عرفوا السنة بأنها: (هي ما أثر عن النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو

---

(١) انظر مختار الصحاح ص ٣١٧ مادة (س ن ن)، والمصباح المنير ١/ ٢٩٢ مادة (س ن ن).

(٢) انظر مجمل اللغة ٢ / ٤٥٥ مادة (س ن ن).

(٣) انظر لسان العرب ١٣/ ٢٢٥ مادة (س ن ن).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب العلم باب من سن في الإسلام سنة حسنة ١٦/ ٢٢٦

(٥) انظر وسطية أهل السنة بين الفرق ص ٣٠

(٦) انظر: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للسباعي ص ٤٨

تقرير، أو صفة خَلْقية، أو خُلُقية، أو سيرة، سواء كان قبل البعثة[١] أو بعدها)[٢].

وعلماء الأصول لما كانت عنايتهم منصبة في البحث عن الأدلة الشرعية اهتموا بأقواله ﷺ، وأفعاله ـ وتقريراته، فعرفوا السنة بأنها: (ما نقل عن النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير).

وقال الشوكاني رحمه الله في بيانه لتعريف السنة عند الأصوليين -هي: (ما صدر عن النبي (من غير القرآن، من قول، أو فعل، أو تقرير، وهذا هو المقصود بالبحث عنه في هذا العلم)[٣].

وأما علماء الفقه فإنهم ذهبوا في تعريفهم للسنة مذهبا آخر مختلفا عن تعريف المحدثين والأصوليين نظرا لاشتغالهم في البحث عن أحكام الشارع على أفعال العباد من حيث الوجوب، أو الحرمة، أو الإباحة، أو غير ذلك.

يقول الخطيب البغدادي رحمه الله[٤]: (وقد غلب على ألسنة الفقهاء أنهم يطلقون السنة فيما ليس بواجب، فينبغي أن يقال في حدِّ السنة: أنها ما رسم ليحتذى استحبابا)[٥].

وعلى رأي الخطيب البغدادي قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في تعريف السنة عند الفقهاء: (وفي اصطلاح بعض الفقهاء: ما يرادف المستحب)[٦].

هكذا عرف المحدثون، والأصوليون، والفقهاء السنة في اصطلاحاتهم، أما السنة في باب العقائد عند علماء السلف فيعنون بها معنى أوسع من التعريفات السابقة عند هؤلاء العلماء، فإنهم يقصدون بالسنة موافقة كتاب الله وسنة الرسول ﷺ، وأصحابه الكرام

---

(١) كتحنثه ﷺ في غار حراء، وحسن سيرته؛ لأن الحال يستفاد منها ما كان عليه قبل النبوة من كرائم الأخلاق، ومحاسن الأفعال، كقول أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها: (كلا والله لايخزيك الله؛ إنك لتصل الرحم وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق..). انظر قواعد التحديث للقاسمي ص ٣٨، وأصول الحديث لمحمد عجاج الخطيب ص ١٩

(٢) فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي شرح السخاوي ١/ ١٢

(٣) إرشاد الفحول ص ٣٣

(٤) هو الحافظ أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي المعروف بالخطيب البغدادي، ولد سنة ٣٩٢هـ واشتغل بالحديث، والأصول، والتاريخ، توفي في بغداد سنة ٤٦٣هـ. انظر ترجمته في وفيات الأعيان ١/ ٩٢، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٤/ ٢٩، ومعجم الأدباء ٤/ ١٣

(٥) الفقيه والمتفقه ١/ ٨٦، وانظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي القسم الثاني ١/ ١٥٦

(٦) فتح الباري ١٣/ ٢٤ في شرح صحيح البخاري لابن حجر، وانظر: أنيس الفقهاء للقونوي ص ١٠٦



رضي الله عنهم، وتشمل أمور الاعتقادات، والعبادات[١]، وتقابلها البدعة[٢]، فيقال: فلان على السنة إذا كانت أعماله على وفق الكتاب والسنة، وفلان على البدعة إذا كانت أعماله مخالفة للكتاب والسنة، أو أحدهما.

قال الشاطبي رحمه الله[٣]: (ويطلق -أي لفظ السنة- في مقابلة البدعة فيقال: فلان على سنة إذا عمل على وفق ما عمل عليه النبي ﷺ كان ذلك مما نص عليه الكتاب أوْ لاَ، ويقال: فلان على بدعة إذا عمل على خلاف ذلك، وكأن هذا الإطلاق إنما اعتبر فيه عمل صاحب الشريعة فأطلق لفظ السنة من تلك الجهة، وإن كان العمل بمقتضى الكتاب، ويطلق أيضا لفظ السنة على ما عمل عليه الصحابة وجد ذلك في الكتاب والسنة أو لم يوجد[٤]؛ لكونه اتباعا لسنة ثبتت عندهم لم تنقل إلينا، أو اجتهادا مجمعا عليه منهم، أو من خلفائهم. . .)[٥].

ولأهمية مسائل الاعتقاد وخطورتها لأنها هي أصل الدين وأساسه وعليها يبنى غيرها من شعائر الإسلام التعبدية أطلق السلف رحمهم الله لفظ السنة على ما يوافق الكتاب والسنة في المسائل الاعتقادية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ولفظ السنة في كلام السلف يتناول السنة في العبادات

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى ٤/ ١٨٠، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية ص١٠٩

(٢) البدعة في اللغة: الإحداث في الدين، قال ابن منظور: البدعة: الحدث، وما ابتدع من الدين بعد الكمال، وأنشد قول رؤبة:

إن كنتَ لله التَّقيَّ الأطوعا ... فليس وجهَ الحقِّ أن تبدَّعا

انظر: لسان العرب ١/ ١٧٤، وتهذيب اللغة ٢/ ٢٤٠، مادة (بدع).

والبدعة في اصطلاح الشرع: (عبارة عن طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه) الاعتصام للشاطبي ١/ ٥٠، وقال ابن رجب: "كل ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه فهو بدعة، أما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا وإن كان بدعة لغة". انظر: جامع العلوم والحكم ص ٢٥٢، وقال الحافظ ابن حجر: "وتطلق لبدعة في الشرع على ما يقابل السنة، فتكون مذمومة". انظر: فتح الباري ٤/ ٢٥٣، والحوادث البدع ص ٤٠، وحقيقة البدعة وأحكامها لسعيد الغامدي ١/ ٢٥٢

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الغرناطي، المالكي، الشهير بالشاطبي، أصول لغوي، محدث، مفسر، من كبار أئمة المالكية، كان سيفا على المبتدعة، والمقلدة المتعصبة في زمنه توفي -رحمه الله تعالى- سنة ٧٩٠هـ.
انظر مقدمة الاعتصام ١/ ١٠، والأعلام للزركلي ١/ ٧٥، ومعجم المؤلفين ١/ ١١٨

(٤) معنى ذلك: عثرنا عليه في السنة، أو لم نعثر عليه فيها. قاله شارح الموافقات الشيخ عبد الله دراز. انظر: لموفقات ٤/ ٤ الحاشية رقم (١).

(٥) الموافقات ٤/ ٤

وفي الاعتقادات وإن كان كثير ممن صنف في السنة يقصدون الكلام في الاعتقادات، وهذا كقول ابن مسعود، وأبي بن كعب[١]، وأبي الدرداء -رضي الله عنهم- : (اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة)[٢][٣].

وقال ابن رجب الحنبلي رحمه الله[٤]: (السنة طريقة النبي ﷺ التي كان عليها هو وأصحابه السالمة من الشبهات والشهوات، ثم صار معنى السنة في عرف كثير من العلماء المتأخرين[٥]من أهل الحديث وغيرهم: عبارة عما سلم من الشبهات في الاعتقادات خاصة في مسائل الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وكذلك في مسائل القدر، وفضائل الصحابة، وصنفوا في هذا العلم تصانيف، وسموها كتب السنة، وإنما خصوا هذا العلم باسم السنة؛ لأن خطره عظيم، والمخالف فيه على شفا هلكة)[٦].

المراد بأهل السنة: فالمراد بأهل السنة -أخذا مما سبق- هم المتبعون للسنة المتمسكون بها وهم الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان من هذه الأمة إلى يوم الدين.

وقد ظهر إطلاق هذا اللفظ (أهل السنة) في صدر الإسلام وعصر النبوة، فقد أخرج اللالكائي[٧] - رحمه الله تعالى - (عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[٨] أن ابن عباس قال: (فأما الذين ابيضت

---

(١) أورده البغوي عن أبي بلفظ (إن اقتصادا في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة) شرح السنة١/ ١٨٣ باب الاعتصام بالكتاب والسنة.

(٢) أخرج هذا الأثر الدارمي عن ابن مسعود بلفظ (**القصد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة**) ١/ ٧٢ وقال: "هذا موقوف وروي عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلا بزيادة ألفاظ". والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٩، والحاكم في المستدرك ١/ ١٠٣، وصححه الشيخ الألباني. انظر: صلاة التراويح ص٧

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ١٠٩

(٤) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب زين الدين السلامي البغدادي ثم الدمشقي أحد العلماء الحفاظ في الحديث مشارك في كثير من العلوم، ولد في بغداد سنة ٧٣٦هـ ونشأ في دمشق وبها كانت وفاته سنة ٧٩٥هـ. انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ٣٢١، وشذارت الذهب ٦/ ٣٣٩

(٥) ينبغي ملاحظة أن تخصيص مفهوم السنة بأصول الاعتقاد بدأ في عصور متقدمة وأن كثيرا من علماء السلف صنفوا كتبا في أبواب الاعتقاد وأصول الدين وأطلقوا على هذه المصنفات اسم السنة. انظر تلك الكتب وتفصيل الكلام عنها في مسألة التقريب للقفاري القسم الأول ص ٥٣، ووسطية أهل السنة بين الفرق ص٣٧

(٦) كشف الكربة ص ٥٧

(٧) هو أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي، اللالكائي، وهذا اللقب نسبة إلى بيع (اللوالك) التي تلبس في الأرجل، كان حافظا للحديث، من فقهاء الشافعية، من أهل طبرستان ثم استوطن بغداد، ومات معمرا بالدينور سنة ٤١٨هـ. انظر: شذرات الذهب ٣/ ٢١١، والأعلام للزركلي ٩/ ٥٧

(٨) سورة آل عمران الآية ١٠٦

وجوههم فأهل السنة والجماعة وأولو العلم، وأما الذين اسودت وجوههم فأهل البدع والضلالة)[١].

ويقول ابن حزم -رحمه الله-[٢]: (وأهل السنة أهل الحق ومن عداهم فأهل البدعة، فإنهم الصحابة رضي الله عنهم، ومن سلك نهجهم من خيار التابعين رحمة الله عليهم، ثم أصحاب الحديث ومن تبعهم من الفقهاء جيلا فجيلا إلى يومنا هذا، ومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم)[٣].

والسبب في تسميتهم بأهل السنة هو: كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (إنما سموا أهل السنة لاتباعهم سنته ﷺ)[٤].

ثانيا: توضيح ألقابهم: من الأسماء والألقاب المرضية عند أهل السنة وتميزهم عن أهل الأهواء والبدع: أنهم: -

(أ) **أهل الجماعة**[٥]، وقد ورد هذا الاسم في عدد من الأحاديث النبوية أشهرها حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: (**إن هذه الأمة ستفترق على إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة**)[٦].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ٧٢، وتفسير البغوي ١/ ٣٣٩، ومجموع الفتاوى٣/ ٢٧٨، وتفسير ابن كثير ٢/ ٧٦, قال السيوطي: أخرجه ابن أبي حاتم وأبو نصر في الإبانة والخطيب في تاريخه. ثم ذكر السيوطي أن هذا الأثر الموقوف ورد مرفوعا عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما. انظر الدر المنثور٢/ ٦٣,

(٢) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري عالم الأندلس في عصره فقيه، أديب، حافظ، متكلم، ولد بقرطبة سنة ٣٨٤هـ، وقيل غير ذلك، وتوفي بالأندلس سنة ٤٥٦هـ. انظر ترجمته في نفح الطيب ٢/ ٢٨٣، والأعلام للزركلي ٥/ ٥٩,

(٣) الفصل ٢/ ١٠٧ وانظر تلبيس إبليس ص ١٧,

(٤) المنتقى وهو مختصر منهاج السنة النبوية، اختصره الحافظ الذهبي ص ١٨٩,

(٥) قد استوفى الكلام عن معنى الجماعة الدكتور جمال بن بادي في كتابه وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق، فانظره ص ٣٠

(٦) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي عاصم في السنة ١/ ٣٢ حديث ٦٣، قال محقق السنة الشيخ الألباني: حديث صحيح، وقد ورد بألفاظ أخرى فيها ثلاث وسبعون، وفيها وصف الفرقة الناجية بأنها (الجماعة) في السنة لابن أبي عاصم أيضا ١/ ٧ وأخرجه بهذه اللفظة (هم الجماعة) الإمام أحمد في المسند من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ٣/ ١٤٥، وأبوداود في أول كتاب السنة باب شرح السنة ٥/ ٦، وابن ماجه في سننه ٢/ ١٣٢٢، وأخرجه الحاكم في مستدركه ١/ ١١٢٨ وقال: هذه أسانيد تقوم بها الحجة، ووافقه الذهبي، واللالكائي ١/ ١٠٢, قال محققه: حديث حسن. والآجري في الشريعة ص ١٨، وابن بطة في الإبانة ص ١٠٦، وذكره الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٢٠٤, وانظر تخريج حديث افتراق الأمة بطرقه كلها وأقوال العلماء في تلك الطرق في اليمانيات المسلولة للكوراني تحقيق المؤلف ص ١٢٠



وفي حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (**يد الله على الجماعة**)[١].

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد، ومن أراد بحبوحة**[٢] **الجنة فعليه بالجماعة**)[٣].

وأحق من يوصف بالجماعة: سلف هذه الأمة المحمدية من الصحابة الأبرار، والتابعين الأخيار الذين اجتمعوا على الحق الصريح من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ[٤]؛ لأن ما ذهبوا إليه هو الحق وهو مذهب أهل السنة والجماعة، وأهل السنة والجماعة معتصمون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ مجمعون على ذلك، وما عدا أهل الجماعة فهم أهل الأهواء والبدع الذين هم أهل الافتراق المتبعون للسبل المتفرقة عن سبيل الحق[٥].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قول الله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾[٦] (تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة)[٧] وهذا الاسم (الجماعة) ينطبق على أهل السنة وإن تفرقت ديارهم وتباعدت أبدانهم، كما قال قتادة[٨] رحمه الله: (أهل رحمة الله أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم)[٩]. وقد ورد عن ابن مسعود رضي الله

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة تحقيق الشيخ الألباني ١/ ٤٠، قال الألباني: حديث صحيح وإسناده ضعيف جدا، ثم قال الألباني/ أخرجه أيضا الطبراني ١/ ٢٢٥ وهو صحيح وله شواهد، وأخرجه الترمذي في سننه٤/ ٤٦٥، والنسائي في سننه ٧/ ٩٢

(٢) بحبوحة الجنة: أوسطها وأوسعها وأرجحها. انظر مختار الصحاح ص ٤١ مادة (ب ح ح).

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ١/ ٤٢ بأسانيد فيها ضعف، قال محقق السنة الشيخ الألباني: لكن هذه الأسانيد يقوي بعضها بعضا إلى درجة الحسن، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ١٨، والترمذي في سننه٤/ ٤٦٥، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وأخرجه الحاكم في لمستدرك١/ ١١٤، وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٤) انظر الاعتصام للشاطبي ١/ ٢٨، وشرح العقيدة الواسطية للهراس ص ١٦

(٥) انظر حقيقة البدعة وأحكامها لسعيد الغامدي ١/ ٢٧٤

(٦) سورة آل عمران الآية ١٠٦

(٧) سبق تخريجه.

(٨) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن قتادة بن عُزير السدوسي البصري، تابعي مفسر حافظ ضرير قال فيه الإمام أحمد: قتادة أحفظ أهل البصرة، ولد قتادة سنة ٦١هـ وتوفي بواسط سنة ١١٨هـ. انظرترجمته في تذكرة الحفاظ للذهبي ١/ ١١٥، ووفيات الأعيان ٤/ ٨٥، والأعلام للزركلي ٦/ ٢٧

(٩) ذكره ابن كثير في تفسيره، انظره ٤/ ٢٩١، وانظر شرح النووي لصحيح مسلم ١٣/ ٦٧

عنه تفسير لمفهوم الجماعة حيث قال: (الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك)[١].

وقد بين أبوشامة المقدسي[٢] -رحمه الله- تفسير ابن مسعود (للجماعة بقوله: ﷺ وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق واتباعه وإن كان المتمسك بالحق قليلا والمخالف له كثيرا؛ لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه، ولا نظرة إلى كثرة أهل الباطل بعدهم)[٣].

وقال أبو عيسى الترمذي -رحمه الله-[٤]: (وتفسير الجماعة عند أهل العلم: هم أهل الفقه والعلم والحديث) ثم قال: ولما سئل ابن المبارك -رحمه الله-[٥] من الجماعة؟ قال: أبوبكر، وعمر، فقيل له: قد مات أبوبكر، وعمر، قال: فلان، وفلان، فقيل له: قد مات فلان، وفلان، قال: أبو حمزة السُّكري -رحمه الله[٦] جماعة[٧].

ونجد شيخ الإسلام ابن تيمية يجعل التقيد بمصادر التلقي عند أهل السنة بالكتاب والسنة والإجماع هو الفيصل بين أهل السنة والجماعة ومن عداهم من أهل الأهواء فيقول: (فمن قال بالكتاب والسنة والإجماع كان من أهل السنة والجماعة)[٨]، ثم يقول: (لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة... وهم يَزِنُون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس

---

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث ص ٢٢، وانظر إغاثة اللهفان لابن القيم ١/ ٧٠

(٢) هو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم شهاب الدين المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي محدث حافظ مؤرخ مفسر أصولي متكلم، ولد سنة ٥٩٩هـ في دمشق ونشأ بها حتى كانت وفاته بها رحمه الله سنة ٦٦٥هـ. انظر ترجمته في البداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ٢٥٠، وشذرات الذهب ٥/ ٣١٨، والأعلام للزركلي ٤/ ٧٠

(٣) الباعث على إنكار البدع والحوادث ص ٢٢

(٤) هو أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي الترمذي من أئمة الحديث وحفاظه تتلمذ للبخاري وشاركه في بعض شيوخه، ولد سنة ٢٠٩هـ وترحل في البلدان لجمع الحديث، كان يضرب به المثل في الحفظ عمي في آخر عمره، وكانت وفاته سنة ٢٧٩هـ. انظر ترجمته في نكت الهميان ص ٢٦٤، وتهذيب التهذيب ٩/ ٣٨٧، والأعلام للزركلي ٦/ ٣٢٢

(٥) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، كان إماما، حجة، كثير الحديث، ولد سنة ١١٨هـ ومات بهيت منصرفا من الغزو سنة ١٨١هـ. انظر ترجمته في الطبقات الكبرى لابن سعد ٧/ ٣٧٢، وتاريخ بغداد ١٠/ ١٥٢، والأعلام للزركلي ٤/ ٢٥٦

(٦) هو الإمام الحجة أبو حمزة محمد بن ميمون السُّكري المروزي، عالم مرو، كان من الأئمة المقتدى بهم في زمنه، لقب بالسكري لحلاوة كلامه كانت وفاته سنة ١٦٧هـ. انظر ترجمته في تاريخ بغداد الخطيب ٣/ ٢٦٦، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٥

(٧) انظر سنن الترمذي ٤/ ٤٦٧

(٨) مجموع الفتاوى ٣/ ٣٤٦، وانظر قواعد الأديان لشيخ الإسلام أيضا ص ٤١



من أقوال وأعمال مما له تعلق بالدين)[١] .

ويستخلص الدكتور محمد بن عبد الله الوهيبي من أقوال أهل العلم في معنى الجماعة قوله : (يمكن للباحث أن يعتبر مسمى أهل السنة والجماعة بين الفرق كمسمى المسلمين بين الملل ، فالانتساب إلى هذا الاسم (أهل السنة والجماعة) والتسمي به كمصطلح يدل على صحة الاعتقاد ، وصحة المنهج أمر حسن ، وجائز باعتباره انتسابا لاسم شرعي ، وقد استعمله أئمة السلف ، ومن أكثر الأئمة استعمالا لهذا المصطلح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله)[٢] .

والحق أن مصطلح (أهل السنة والجماعة) يعطينا المعنى ، ويفهم منه المسمى المراد به وهم أصحاب هذا الاتجاه من غير فصل بين اللفظين في المعنى حتى أصبح كأنه لفظ واحد ، فقد صار مصطلحا شائعا يؤدي المعنى من دون بحث عن معنى الكلمتين ، كما أنه يمكن أن يكتفى بأحد اللفظين فيؤدي المعنى بانفراده[٣] ؛ ولهذا لما سئل الإمام مالك رحمه الله عن السنة قال : (هي ما لااسم له غير السنة وتلا : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [٤])[٥] .

ولما سئل أيضا عن أهل السنة قال : (أهل السنة : الذين ليس لهم لقب يعرفون به ، لاجهمي ، ولا قدري ، ولا رافضي)[٦] .

(ب) **الفرقة الناجية**[٧]. وهذا الوصف مأخوذ من الحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه وغيره أن النبي ﷺ قال : (... **وأن أمتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة**)[٨] . وفي رواية أخرى أخبر ﷺ عن هذه الفرقة الناجية بقوله : (**الذين على ما أنا عليه وأصحابي**)[٩] .

---

(١) مجموع الفتاوى ٣/ ١٥٧ ، وقال أيضا : (والبدعة مقرونة بالفرقة كما أن السنة مقرونة بالجماعة فيقال أهل السنة والجماعة ، كما يقال : أهل البدعة والفرقة) الاستقامة لشيخ الإسلام١/ ٤٢

(٢) انظر نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف ١/ ١٧

(٣) انظر : مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة القسم الأول ص ٣٤

(٤) سورة الأنعام الآية ١٥٣

(٥) الاعتصام للشاطبي ١/ ٥٨

(٦) الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبد البر ص ٣٥

(٧) انظر في سبب تعيين الفرقة الناجية الاعتصام للشاطبي ٢/ ٢٥١ وما بعدها ، وفرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام للدكتور غالب العواجي ١/ ٣٢

(٨) رواه ابن ماجة في سننه٢/ ١٣٢٢ ، وصححه الشيخ الألباني . انظر صحيح ابن ماجه ٢/ ٣٦٤ رقم الحديث ٣٢٢٧

(٩) رواه الترمذي في سننه٥/ ٢٦ ، وحسنه الشيخ الألباني . انظر صحيح الترمذي ٢/ ٣٣٤



ولا شك أن هذا الوصف لاينطبق إلا على أهل السنة والجماعة، فهم المتبعون للكتاب والسنة المتمسكون بما كان عليه النبي ﷺ، فهم إذا الفرقة الناجية. ولما سئل الإمام أحمد رحمه الله عن الفرقة الناجية قال: (إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم؟)[١].

وقال القاضي عياض[٢]- رحمه الله تعالى - في التعليق على قول الإمام أحمد: (إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث)[٣].

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني: (أما الفرقة الناجية فهي أهل السنة والجماعة، وأهل السنة لا اسم لهم إلا اسم واحد، وهو: أصحاب الحديث)[٤].

أما في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية فكثيرا ما يطلق اسم الفرقة الناجية على أهل السنة والجماعة، ومن ذلك قوله في مقدمة العقيدة الواسطية: (أما بعد: فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة)[٥].

ج - (السلفية أو السلفيون وأتباع السلف)[٦].

اختلف العلماء في تحديد مفهوم السلف زمنيا فمن قائل: إنهم الصحابة رضوان الله عليهم، ومن قائل: إنهم الصحابة والتابعون، وذهب آخرون إلى أن السلف إذا أطلق يراد به الصحابة والتابعون وتابعو التابعين[٧]، أي: القرون الثلاثة التي ثبتت لها الخيرية بقول النبي ﷺ: (**خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد**

---

(١) شرف أصحاب الحديث للخطيب ص٢٥

(٢) هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي السبتي، عالم المغرب، وإمام أهل الحديث في وقته، ولد بسبتة عام ٤٧٦هـ، ثم ولي قضاءها، وكانت وفاته بمراكش عام ٥٤٤هـ. انظر ترجمته في الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب ٤/ ٢٢٢، والديباج المذهب لابن فرحون ٢/ ٤٦٣، وأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض لأحمد بن محمد المقري ١/ ٢٣

(٣) شرح النووي لصحيح مسلم١٣/ ٦٧، وانظر تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٦/ ٤٣٤

(٤) الغنية لطالبي طريق الحق ص ٨٠

(٥) العقيدة الواسطية بشرح الهراس ص١٥

(٦) السلف في اللغة: جمع سالف على وزن حارس، ويجمع على أسلاف وسُلاَّف، والسلف: المتقدم، والجماعة المتقدمون، والقوم السلاف: المتقدمون. انظر مختار الصحاح ص ٣٠٩ مادة (س ل ف)، ولسان العرب ٩/ ١٥٨ مادة (س ل ف). وقال ابن الأثير: (سلف الإنسان: من تقدمه بالموت من آبائه وذوي قرابته، ولهذا سمي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح) النهاية ٢/ ٣٩٠

(٧) انظر: تفصيل تلك الأقوال في وسطية أهل السنة بين الفرق ص ٩٧ وما بعدها، ومنهج الأشاعرة في العقيدة للحوالي ص ١٥، نقلاً عن السلفية وأعلامها في موريتانيا للطيب بن عمر ص ٢٠



قـرنه قرنـين أو ثلاثة...)[1] . وإلى هذا الرأي ذهب كثير من أهل العلم، وهو مختار شيخ الإسلام ابن تيمية[2] .

ولعل الراجح أن مفهوم السلف يصح إطلاقه على الصحابة الكرام، والتابعين لهم بإحسان وأتباعهم، وأئمة الدين ممن شهد له بالإمامة، وعرف عظم شأنه في الدين، وتلقى الناس كلامهم خلفا عن سلف[3] .

ويحدد ابن رجب ـ رحمه الله تعالى ـ السلف المقتدى بهم إلى عصر الإمام أحمد وأقرانه فيقول: (وفي زماننا يتعين كتابة كلام السلف المقتدى بهم إلى زمن الشافعي، وأحمد وإسحاق[4][رحمه الله] وأبي عبيد[5][رحمه الله] وليكن الإنسان على حذر مما حدث بعدهم فإنه حدث بعدهم حوادث كثيرة)[6] .

وفي الانتساب إلى السلف والتلقب بالسلفية: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (لا عيب على من أظهر مذهب السلف وانتسب إليه واعتزى إليه، بل يجب قبول ذلك منه فإن مذهب السلف لا يكون إلا حقا)[7] .

ونقول ـ بصراحة: إننا إذا عرفنا أن الدعوة إلى اتباع السلف أو الدعوة إلى السلفية كما يعبر البعض إنما هي دعوة إلى الإسلام كما أنزل على الرسول ﷺ وتلقاه عنه أصحابه الكرام رضوان الله عليهم، فلا شك أن هذه الدعوة دعوة حق والانتساب إليها شرف، وفخر، فلا ضير في الانتساب إلى السلف والاعتزاء إليهم حينئذ[8] .

د - (**أهل الحديث**). كثيرا ما يطلق أهل العلم هذا الاسم، ويقصدون به أهل السنة

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح كتاب فضائل أصحاب النبيﷺ ٧/ ٣ حديث ٣٦٤٩، وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب فضائل الصحابة ١٦/ ٨٤

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٠٧

(٣) انظر: لوامع الأنوار للسفاريني ١/ ٢٠، ووسطية أهل السنة بين الفرق ص ١٠١

(٤) هو أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي التميمي المروزي ابن راهويه، عالم خراسان في عصره، ولد في طريق مكة سنة ١٦١هـ طاف البلاد لجمع الحديث قال فيه الخطيب البغدادي: (اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والورع والزهد، كانت وفاته سنة ٢٣٨هـ. انظر: تاريخ بغداد ٦/ ٣٤٥، والأعلام للزركلي ١/ ٢٩٢

(٥) هو أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي الأزدي الخزاعي بالولاء، من كبار علماء الحديث والأدب والفقه، ولد في هراة سنة ١٥٧هـ وتعلم بها ثم رحل إلى بغداد فولى القضاء بطرسوس، ورحل إلى مصر والحجاز، ثم توفي بمكة سنة ٢٢٤هـ. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٩٠، والأعلام للزركلي ٦/ ١٠

(٦) فضل علم السلف على علم الخلف ص ٤٤

(٧) مجموع الفتاوى ٤/ ١٤٩

(٨) انظر وسطية أهل السنة بين الفرق ص ١٠٩

والجماعة؛ حتى إنه قد يرد المصطلحان: (أهل السنة) و (أهل الحديث) في كلام واحد لبعض العلماء مما يشير إلى الترادف المعنوي بين الاسمين، فالإمام الصابوني -رحمه الله-[١] يقول في عقيدته إن: (أصحاب الحديث المتمسكين بالكتاب والسنة -حفظ الله أحياءهم ورحم أمواتهم- يشهدون لله تعالى بالوحدانية، وللرسول ﷺ بالرسالة والنبوة. . . وقد أعاذ الله تعالى أهل السنة من التحريف والتكييف ومنَّ عليهم بالتعريف والتفهيم حتى سلكوا سبل التوحيد والتنزيه)[٢].

ويوضح شيخ الإسلام ابن تيمية صحة تسمية السلف وأهل السنة والجماعة بلقب أهل الحديث في قوله: (. . مذهب السلف، أهل الحديث والسنة والجماعة)[٣]. وإطلاق مصطلح أهل الحديث على أهل السنة والجماعة إنما يقصد به أهل العلم أنهم أهل الحديث رواية ودراية واتباعا؛ لأنالمرء قد يكون من أهل الحديث صناعة ورواية وليس هو من أهل السنة والجماعة، فقد يكون مبتدعا يرى اعتقاد أهل البدع وينتهج منهج أهل الأهواء؛ ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية -في بيان المراد بلفظ أهل الحديث-: (ونحن لانعني بأهل الحديث المقتصرين على سماعه، أو كتابته وروايته، بل نعني بهم كل من كان أحق بحفظه، ومعرفته، وفهمه ظاهرا وباطنا واتباعه باطنا وظاهرا، وكذلك أهل القرآن)[٤].

فعلى رأي شيخ الإسلام ابن تيمية يصح إطلاق مصطلح (أهل الحديث) -بهذا المعنى- على أهل السنة، وهذا المعنى هو المراد عند الإطلاق في كتب السلف للدلالة على أهل السنة والجماعة.

هـ (**أهل الأثر**). يرد هذا الاسم كثيرا في مصنفات أهل العلم المتقدمين ويريدون به أهل السنة.

يقول أبوحاتم الرازي -رحمه الله-[٥]: (مذهبنا واختيارنا: اتباع رسول الله ﷺ

---

(١) هو أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل الصابوني لقبه أهل السنة في خراسان بشيخ الإسلام، وكان عارفا بالحديث، والتفسير، والعربية، كانت ولادته بخراسان سنة ٣٧٣هـ ووفاته بها سنة ٤٤٩هـ. انظر طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ١١٧، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٣/ ٢٧، والأعلام للزركلي ١/ ٣١٧

(٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ص ١٠٦

(٣) درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٠٣ (٤) مجموع الفتاوى ٤/ ٩٥

(٥) هو أبوحاتم محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران الحنظلي الرازي، حافظ للحديث من أقران البخاري ومسلم، ولد في الري سنة ١٩٥هـ وإليها نسبته، وتنقل في البلدان لطلب الحديث، كانت وفاته في بغداد سنة ٢٧٧هـ. انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٢/ ٧٣، تهذيب التهذيب ٩/ ٣١، والأعلام للزركلي ٦/ ٢٥٠



وأصحابه والتابعين، والتمسك بمذهب أهل الأثر، مثل أبي عبد الله أحمد بن حنبل)[١].
ولاشك أن أهل الأثر هنا المراد بهم أهل السنة والجماعة. ويرد في كثير من مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية إطلاق مصطلح (أهل الأثر) ولا يريد به إلا أهل السنة[٢].

وبين السفاريني[٣]- رحمه الله- في منظومته أن اسم (أهل الأثر) لايطلق إلا على أهل السنة والجماعة تلك الفرقة الناجية[٤] فقال[٥]:

وليس هذا النص جزما يعتبر   في فرقة إلا على أهل الأثـــــر

ثم شرح هذا البيت وعرف أهل الأثر بقوله: (أصحاب الأثر: يعني الذين إنما يأخذون عقيدتهم من المأثور عن الله جل شأنه في كتابه، أو في سنة النبي (، أو ما ثبت وصح عن السلف الصالح من الصحابة الكرام والتابعين الفخام)[٦].

و - (**الطائفــة المنصـورة**). ورد هذا الاسم في الحديث الصحيح المروي عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله)[٧]. وسبب اختصاصهم بهذه الصفة أنهم أحبوا الله ورسوله والتزموا ما شرعه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ وطبقوا ذلك الالتزام في المعتقد، والسلوك، والمنهج، فلذلك استحقوا نصر الله تعالى لهم دون من سواهم من طوائف أهل الأهواء والبدع.

وقد ورد عن بعض العلماء تعيين لهذه الطائفة المنصورة، فقال عبد الله بن المبارك: (هم عندي أصحاب الحديث)[٨].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ١/ ١٧٩,

(٢) انظر -على سبيل المثال- درء تعارض العقل والنقل٦/ ٢٦٦,

(٣) هو أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفَّاريني الحنبلي، كان عالما بالحديث والأصول والأدب، من مصنفاته ((البحور الزاخرة في علوم الآخرة)) و((لوامع الأنوار البهية))، توفي سنة ١١٨٨هـ. انظر الأعلام٦/ ١٤٠، ومعجم المؤلفين٨/ ٢٦٢

(٤) خالف السفاريني رحمه الله ما قرره في منظومته حيث بين في شرحها أن الفرقة الناجية تضم ثلاث طوائف: ١- الأثرية: وإمامهم أحمد بن حنبل ٢- الأشعرية: وإمامهم أبو الحسن الأشعري ٣- الماتريدية: وإمامهم أبو منصور الماتريدي. انظر لوامع الأنوار ١/ ٧٣، وانظر ردي عليه في تحقيقي لكتاب اليمانيات المسلولة ص ١٢٥

(٥) لوامع الأنوار ١/ ٧٣

(٦) لوامع الأنوار ١/ ٦٤

(٧) رواه مسلم انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإمارة باب قوله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي) ١٣/ ٦٧

(٨) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي ص ٢٦

وقال الإمام أحمد بن حنبل: (إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث فلا أدري من هم)[١].

وقال القاضي عياض رحمه الله - مفسرا قول الإمام أحمد هذا -: (إنما أراد الإمام أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث)[٢]. وقال الإمام النووي -رحمه الله -بعد نقل هذه الأقوال في تعيين الطائفة المنصورة-: (ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين: منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل يكونون متفرقين في أقطار الأرض)[٣].

وقد جمع شيخ الإسلام ابن تيمية بين وصف أهل السنة والجماعة: بالفرقة الناجية والطائفة المنصورة في قوله -في مقدمة العقيدة الواسطية-: (أما بعد: فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة)[٤]. وهذه الأسماء والألقاب التي مر ذكرها، وصح وصف أهل السنة بها لا شك أنها لم تكن شائعة في عصور السلف الأولى؛ لأن الحاجة لم تكن داعية إلى إظهارها والتميز بها، ولكنها برزت بعد ذلك في مواجهة مناهج أهل الأهواء والبدع الضالة؛ لرد تلك البدع والتميز عن أصحابها وإبعاد الخلطة بهم والتحذير منهم، فلما ظهرت البدعة تميزوا بالسنة، ولما حكم الرأي تميزوا بالحديث والأثر، ولما فشت البدع والأهواء في الخلوف تميزوا بهدي السلف هلم جرا[٥].

وبعد أن بينت المراد بأهل السنة والجماعة، ووضحت بشيء من التفصيل الأسماء والألقاب المرضية عندهم، وأنها تنصرف عند الإطلاق إليهم لا إلى غيرهم من أهل الأهواء والبدع، يحسن بي أن أشير هنا من غير تفصيل[٦] إلى أن الفرق المخالفة لأهل السنة تدعي الانتساب إلى هذا الاسم، والتسمي به لما فيه من شرف النسبة؛ ولأن الفرقة

---

(١) انظر المصدر السابق ص ٢٥

(٢) شرح النووي لصحيح مسلم ١٣/ ٦٧، وانظر تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٦/ ٤٣٤

(٣) شرح النووي لصحيح مسلم ١٣/ ٦٧

(٤) العقيدة الواسطية بشرح الشيخ الهراس ص ١٤

(٥) انظر: حكم الانتماء إلى الفرق للشيخ بكر أبي زيد ص ٤٢

(٦) قد كفاني مؤونة الرد على هذا الادعاء مفصلا القول في ذلك فضيلة الدكتور محمد باكريم حفظه الله في كتابه القيم وسطية أهل السنة بين الفرق، فمن أراد التوسع في الرد على هذا الزعم الكاذب فليرجع إلى الكتاب المذكور ص ٤٨ وما بعدها، وينظر نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف للدكتور محمد بن عبد الله الوهيبي ١/ ١٨



الناجية، والطائفة المنصورة هم الذين اتبعوا ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فكثير من الناس يخبر عن هذه الفرق بحكم الظن، والهوى، فيجعل طائفته، والمنتسبة إلى متبوعه الموالية له هم أهل السنة والجماعة ويجعل من خالفها هم أهل البدع، وهذا ضلال مبين؛ فإن أهل الحق والسنة لا يكون متبوعهم إلا رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى... وليست هذه المنزلة لغيره من الأئمة، بل كل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ فمن جعل شخصا من أشخاص غير رسول الله ﷺ من أحبه ووافقه كان من أهل السنة والجماعة، ومن خالفه كان من أهل البدعة، والفرقة، كما يوجد ذلك في الطوائف من أتباع أئمة الكلام في الدين وغير ذلك، كان من أهل البدع والضلال والتفرق [(١)]. وقد تنازعت طوائف أهل الأهواء هذا المطلب.

يقول الإمام الشاطبي: (فكل طائفة تدعي أنها على الصراط المستقيم وأن ما سواها منحرف عن الجادة، وراكب بُنَيَّات الطريق... فعدد الأقوال في تعيين هذا اللقب على عدد الفرق)[(٢)].

فالرافضة تدعي أنها هي الفرقة الناجية، وأن الحق معها، وأن أهل السنة من الفرق الضالة[(٣)] والمعتزلة يزعمون أنهم أهل الحق وأنهم الفرقة الناجية، وأن غيرهم ليسوا على الحق[(٤)]. وأما استعمال مصطلح (أهل السنة والجماعة) بين الأشاعرة والماتريدية فأمر شائع في كتب الفرق[(٥)] وخصوصا عند المصنفين من الأشاعرة.

يقول الإيجي في كتابه المواقف: الفرقة الناجية المستثناة: هم الأشاعرة، والسلف من المحدثين وأهل السنة والجماعة[(٦)]. وقد انتحل رأيه زين العابدين الكوراني[(٧)] -رحمه

(١) مجموع الفتاوى ٣/ ٣٤٦ (٢) الاعتصام ٢/ ٨٠

(٣) انظر: مشارق أنوار اليقين للبرسي ص ٢١٥، والمعارف الحسينية لآل كاشف الغطا ص ٦٣، واليمانيات ص ١٧٧، وانظر نقل ابن المطهر الحلي لهذا القول في منهاج الكرامة اللمطبوع مع كتاب منهاج السنة النبوية ١/ ٩٥

(٤) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص١٢٤

(٥) وقد رددت عليهم في هذا الادعاء بشيء من التفصيل في اليمانيات المسلولة ص ١٢٣ حاشية رقم (٢)

(٦) انظر: المواقف ص ٤٢٩

(٧) هو فخر الأفاضل زين العابدين بن يوسف بن محمد بن زين العابدين بن طاهر بن صدر الدين محمد بن إسماعيل الكوراني الكردي الحنفي، مفسر لغوي، أصولي، متكلم، توفي بعد سنة ١٠٦٦هـ انظر ترجمته في اليمانيات المسلولة ص ١٩

الله- في اليمانيات المسلولة على الرافضة المخذولة فإنه لم يحد في تعريفه للفرقة الناجية عن تعريف الإيجي قيد أنملة[١].

ولما ذكر أبو المظفر الأسفراييني[٢] اعتقاد الفرقة الناجية لم يذكر إلا اعتقاد الأشاعرة الذي يخالف في كثير من الأحيان معتقد السلف رحمهم الله[٣]. وقد سبقت الإشارة إلى أن السفاريني جعل أهل السنة ثلاث طوائف: (الأثرية، والأشعرية، والماتريدية).

ويقول أشعري آخر: (إذا أطلق أهل السنة والجماعة فالمراد بهم الأشاعرة والماتريدية)[٤].

ولا شك أن منهج أهل السنة والجماعة، أو الفرقة الناجية، أو الطائفة المنصورة، أو أهل الأثر، أو السلف واضح، وصريح بينه الحديث: (الذين على ما أنا عليه وأصحابي) وهو التمسك بالكتاب والسنة، والسير على منهاج الصحابة رضي الله عنهم والتابعين، لهم بإحسان إلى يوم الدين؛ وذلك باتباعهم، وترك الابتداع في الدين بعدهم، فمن سار على هذا المنهج الرباني البين كان من أهل السنة والجماعة، ومن انحرف عنه كان من الفرق المخالفة، والمفارقة للجماعة. ثم تبقى بعد ذلك الدعاوى التي تدعيها الفرق المنحرفة عن هذا المنهج بأن الحق معها، وأن أهل السنة ليسوا على شيء، وما أصدق قول الشاعر[٥]:

إذا اشتبكت دموع في خدود ... تبين من بكى ممن تباكى

وكل يدعي وصلا بليلى ... وليلى لاتقر لهم بذاكا

الألقاب التي تنبز بها طوائف أهل الأهواء والبدع أهل السنة.

لا يفتأ أهل الأهواء ينبزون أهل السنة والجماعة بألقاب، وأسماء ابتدعوها من عند أنفسهم يقصدون بها الوقيعةَ في أهل السنة، والحطَّ من شأنهم، والسخرية منهم، والتشنيع عليهم وعلى منهجهم.

يقول الإمام أحمد: (وقد أحدث أهل الأهواء والبدع والخلاف أسماء شنيعة قبيحة يسمون بها أهل السنة، يريدون بذلك الطعن عليهم، والإزراء بهم عند السفهاء،

---

(١) انظر: اليمانيات المسلولة على الرافضة المخذولة ص ١٢٣

(٢) هو أبو المظفر شهفور بن طاهر بن محمد الأسفراييني، الأصولي، الفقيه، المفسر، شافعي المذهب، توفي سنة ٤٧١هـ. انظر ترجمته في طبقات الشافعية ٥/ ١١، والأعلام للزركلي ٣/ ٢٦٠

(٣) انظر: التبصير في الدين للزبيدي ص ٩١ وما بعدها.

(٤) إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين للرازي ٢/ ٦

(٥) انظر -للتوسع- اليمانيات المسلولة ص ١٢٣ وما بعدها.

والجهال)[١]. فقد يسمونهم: حشوية، وبعضهم يسميهم: مشبهة، وبعضهم: ناصبة، وبعضهم: نابتة، وبعضهم: جبرية، وعصابة أهل السنة والجماعة بعيدة من هذه المعايب، بريئة زكية نقية، وليس معها إلا السنة المضية، والسيرة المرضية، والسبل السوية، والحجج البالغة القوية[٢].

ففي باب الأسماء والصفات ترميهم الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة بالتشبيه؛ لأن أهل السنة يصفون الله تعالى بكل ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ من غير تعطيل، ولا تأويل، ولا تشبيه، ولا تمثيل، ولا تكييف، ولما كانت هذه الطوائف تؤول النصوص الواردة في الصفات؛ لأن ظاهرها يوهم التشبيه عندهم؛ لذلك عدوا كل من أثبت لله ما أثبتَتْه النصوص الشرعية من غير تأويل مشبها[٣].

وفي باب أفعال العباد: تنبزهم المعتزلة، والقدرية بأنهم مجبرة، وذلك لأن أهل السنة يقولون: كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهذا هو الجبر عند القدرية؛ لأنهم يرون أن العبد هو الخالق لفعله، والمحدث له، وليس مخلوقا لله[٤].

وفي باب الإمامة: ترميهم الرافضة بلقب النواصب، أي المعادون لعلي رضي الله عنه حيث لم يبغضوا أبابكر، وعمر رضي الله عنهما[٥].

وتسميهم الرافضة، والصوفية (عامة)[٦]، والعامة: ضد الخاصة[٧] وذلك في كتب

---

(١) السنة للإمام أحمد ص ٤٠، وانظر عقيدة السلف وأصحاب الحديث ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ص١٣٢

(٢) انظر: عقيدة السلف وأصحاب الحديث ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ص ١٣٣، والصيد الثمين في رسائل ابن عثيمين ١/ ١٤٩

(٣) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ١/ ١٨٢، والانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد لأبي الحسين الخياط المعتزلي ص ٥٥

(٤) انظر: شرح الأصول الخمسة ص ٧٧٥، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ١٨٢

(٥) انظر: الغنية للجيلاني ص ٨٥، ووسطية أهل السنة بين الفرق ص ١٣٦

(٦) يرى الدكتور محمد باكريم حفظه الله أن هذا اللقب انفردت الرافضة بإطلاقه على أهل السنة. انظر وسطية أهل السنة بين الفرق ص ١٣٨، وقد وجدت الصوفية تطلقه على فقهاء أهل السنة فتصف الصوفية بأنهم أهل الحقيقة، وأما الفقهاء من أهل السنة فهم أهل الظاهر وهم العامة. يقول الشعراني: (وسمعته -أي علي الخواص- يقول: ليس الغيب الذي يعلم للعارفين غيبا عندهم إنما هو من قسم عالم الشهادة فيخبرون عما يشاهدونه فما سماه غيبا إلا من كان محجوبا من العامة) الجواهر والدرر للشعراني مطبوع بحاشية الإبريز ص ١٨٠، وانظر الاعتصام ٢/ ٣٤٩، وجواهر المعاني لعلي حرازم ٢/ ٤

(٧) انظر: لسان العرب ١٢/ ٤٢٦ مادة (ع م م).



الرافضة أمر لا يحتاج إلى دليل[(١)]. وقد وجد عند الصوفية باعتبارها تسير على سنن الرافضة في كثير من المسائل الاعتقادية.

وينبزها الغلاة أعداء السنن والآثار بأنها حشوية[(٢)] وهم يقصدون بذلك الطعن على أهل السنة؛ لأنهم يروون الأحاديث النبوية الثابتة عن المعصوم ﷺ فجمعوها بطريق الاستقصاء، فلما رأى ذلك أهل الأهواء، وعلموا أنهم ذكروا أحاديث تخالف مناهج المبتدعة رموهم بالحشو[(٣)]، **وللحشو على هذا المعنى مرادان:**

١- جمع الأحاديث من غير تمييز صحيحها من سقيمها.

٢-وقد يريد الغلاة من بغض السلف بهذا اللقب رميهم بالتجسيم[(٤)].

وهذه الألقاب الشنيعة التي يطلقها أهل الأهواء جهارا على السلف الصالح أهل السنة والجماعة، نبزا وطعنا، وتشنيعا لاتلحق بهم عارا، ولا تلصق بهم شنارا[(٥)]، ولا تزيدهم بين الفرق إلا جلالة ووقارا، فالوقيعة في أهل الخير دليل على الصلاحهم، ولقد أحسن القائل[(٦)]:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص   فهي الشهادة لي بأني كامل

وتسمية أهل الباطل للحق بغير اسمه لا يغير من الحق شيئا، وقد رد أهل العلم على بعض هذه الألقاب بطريقة يفهم منها المخالف اعتزاز أهل السنة بعقيدتهم وإن سميت بغير اسمها، وهي طريقة تبكت الخصم وتسكته، فعند ما سمى أهل البدع حب أهل البيت

---

(١) انظر: مشارق أنوار اليقين للبرسي ص ٢١٥، والمعارف الحسينية ص ٦٣، واليمانيات ص ١٧٧، كشف الأسرار للخميني ص ١٧١

(٢) الحشو في اللغة: يطلق على ما يحشى به الفراش من قطن وغيره، والحشو من الكلام: الفضل الذي لافائدة منه، والحشو من الناس: رذالتهم، والذين لايعتمد عليهم، وحشوة البطن ما فيه من كبد وطحال وغير ذلك، والحشو: صغار الإبل، ويقال: تحشيت من فلان إذا تذممت منه، فرجعت معاني الحشو هنا كلها إلى الذم. انظر تهذيب باللغة للأزهري ٥/ ١٣٧ مادة (ح ش ا)، ولسان العرب لابن منظور ٣/ ١٩٣ مادة (ح ش ا).

(٣) قال أبو عبد الله الحاكم: (وعلى هذا عهدنا في أسفارنا وأوطاننا كل من ينسب إلى نوع من الإلحاد والبدع لاينظر إلى الطائفة المنصورة إلا بعين الحقارة ويسميها الحشوية) كتاب معرفة علوم الحديث الحاكم ص ٤ وانظر: البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان للسكسكي ص ٩٥، ومسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله (أهل الجاهلية ألف أصلها الإمام محمد بن عبد الوهاب وتوسع في شرحها محمود شكري الألوسي ص ١/ ٩٤ وما بعدها.

(٤) انظر: المنية والأمل للمرتضى ص ٤ بواسطة منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان المجاز للدكتور مصطفى الحويني ص ٦٨، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ١/ ١٨٢، والصيد الثمين في رسائل بن عثيمين ١/ ١٥٠

(٥) الشَّنار: بفتح الشين المعجمة: العيب والعار. انظر مختار الصحاح ص ٣٤٨ مادة (ش ن ر).

(٦) البيت للمتنبي. انظر ديوانه بشرح العكبري ٣/ ٢٦٠



-رحمهم الله الحب الشرعي- رفضا رد عليهم الإمام الشافعي رحمه الله بقوله[١] :

إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

ولما أطلق أهل الأهواء والبدع على أهل السنة لقب الحشوية ؛ لحبهم حديث رسول الله ﷺ، وتفانيهم في جمعه وفهمه، رواية ودراية اقتفيت أنا أثر الإمام الشافعي رحمه الله في رده على من سمى حب أهل البيت رفضا فقلت[٢] :

إن كان حشوا حب قول محمد نفسي إذاً حشويةٌ وفؤادي[٣]

ولما انتشرت العقيدة السلفية بدعوة الشيخ المصلح محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في العصر الحديث، وركزت هذه الدعوة المباركة على تنقية العقيدة الإسلامية من شوائب البدع، والخرافات، فانتشر الوعي، وأضاء نور الدعوة السلفية ربوع الجزيرة العربية التي كانت تعيش حال الجاهلية الأولى ؛ لذلك وقف في وجه هذه الدعوة أهل البدع، وصاروا يؤلفون الكتب، وينشرون الرسائل في ذمها، والتحذير منها، وينبزونها بألقاب مثل : الوهابية[٤]، والمنكرون[٥]، ولكن ذلك لا يغير من حقيقة هذه الدعوة المباركة شيئا، وقد رد عليهم الشاعر بقوله[٦] :-

(١) ديوان الإمام الشافعي جمع وتعليق محمد الزغبي ص ٥٥

(٢) انظر اليمانيات المسلولة ص ١٣٩ حاشية رقم (١).

(٣) ثم وجدت رد العلامة ابن القيم رحمه الله قد رد على من نبز أهل السنة بهذا اللقب فقال :-

ياقوم إن كان الكتاب وسنة الـ مختار حشوا فاشهدوا ببيان
إنا بحمد إلهنا حشوية صرف بلا جحد ولا كتمان
تدرون من أولى بهذا الاسم وهـ ـو مناسب أحواله بوزان
من قد حشى الأوراق والأذهان من بدع تخالف مُوجَب القرآن
هذا هو الحشوي لا أهل الحديث أئمة الإسلام والإيمان

انظر توضيح المقاصد في شرح قصيدة ابن القيم الكافية الشافية ١/ ٧٩

(٤) انتشر هذا اللقب، حتى أصبح بعض مصنفي أهل السنة -وللأسف- يذكرونه في كتبهم بعد ما كان قابعا في كتب المخالفين لدعوة الشيخ رحمه الله. انظر معجم ألفاظ العقيدة لعامر بن عبد الله فالح ص ٤٤٥، والدرر السنية في الرد على الوهابية لأحمد زيني دحلان ص ٥٠، والمشاهدات المعصومية ص٧٠، والمجموع المفيد ص٢٨٦، وتصحيح خطأ تاريخي حول الوهابية للدكتور محمد الشويعر ص٢٥

(٥) سمعت هذا اللقب بأذني من بعضهم ويقصدون بذلك أنهم هم المحبون وأن أتباع هذه الدعوة ينكرون محبة النبي ﷺ ولقد (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) ما ينكرون محبته بأبي هو وأمي ﷺ ؛ لأن حبه أساس الإيمان ومفتاح دار الجنان، وكيف لا يحبونه -صلوات الله وسلامه عليه- وقد أحبته الجبال، وحنت إليه جذوع الأشجار؟ ولكنهم لما رأوا نهيهم عن الغلو في الأنبياء والأشخاص وتوضيحهم للناس أن حب النبي ﷺ إنما هو باتباع شرعه لا بالابتداع في الدين بعده، ادعاء تلك المحبة، لما رأوا ذلك قالوا هذه المقالة الشنيعة.

(٦) البيت للشاعر ملا عمران. انظر مجموعة الرسائل الكمالية ص ١٨٤

إن كان تابع أحمد متوهبا فأنا المقر بأنني وهَّابِي

ولست أشك في أن سبب هذه العداوة، وظهور تلك الألقاب الشنيعة، والفظيعة من قبل أهل الأهواء والبدع، إنما هو الهوى الذي يميز جميع طوائف أهل الباطل، ذلك الصنم الذي يعشعش في قلوب أهل الأهواء وسيكون التعريف به وبيان خطورته في الحديث الآتي.



المبحث الثالث

تعريف الهوى وبيان خطورته وإفساده لعقائد أهله

الهوى في اللغة: يقال: هوى بالفتح يهوي هويًا، وهُويًا، وهويانا، وانهوى: سقط من فوق إلى أسفل، ويقال: أهويتُه: إذا ألقيته من فوق وأنشدَ:

هَوَى زَهْدَمٌ تحت الغبار لحاجب ... كمـا انـقضَّ باز أقْتَمُ الريش كاسر

ويقال: رأيتهم يتهاوون في المهواة: إذا سقط بعضهم في إثر بعض.

وهوى، وأهوى، وانهوى: سقط قال الشاعر[1]:

وكم منزل لولاي طحت كما هوى ... بـأجـرامـه مـن قلة النِّيق مُنْهَوي

والهوية: بفتح الهاء وضمها: الموضع الذي يهوي من يقوم عليه، أي: يسقط[2] والهوى: مقصور: هوى النفس، وإذا أضفته إليك قلت: هوايَ، وهوى النفس: إرادتها، والجمع الأهواء.

وقال اللغويون: الهوى: محبة الإنسان الشيء، وغلبته على قلبه، قال الله عز وجل: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾[3] معناه: نهاها عن شهواتها، وما تدعو إليه من معاصي الله عز وجل.

ومتى تكلم بالهوى مطلقا لم يكن إلا مذموما، حتى ينعت بما يخرجه عن هذه الصفة[4]؛ لقولهم: هوىً حسن، وهوى موافق للصواب[5].

ويقال: هوى الرجل، ومعناه: مات، قال الشاعر[6]: -

وقال الشامتـون هوى زيادٌ ... لكل مـنيـة سـبـب مـتين

وقالوا: إذا أجدب الناس أتى الهاوي والعاوي، فالهاوي: الجراد، والعاوي الذئب[7].

---

(١) انظر: لسان العرب ١٥/ ١٦٧ (٢) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤/ ٢٦٦

(٣) سورة النازعات الآية ٤٠

(٤) وهناك من أهل العلم من يرى أن الله تعالى لم يجعل في الهوى شيئا من الخير، فلا يصلح للمدح، حتى في النعت. انظر قول ابن عباس رضي الله عنهما الآتي في ص.

(٥) انظر: تهذيب اللغة ٦/ ٤٩٠ مادة (هـ و ا)، ومختار الصحاح ص ٧٠٢ مادة (هـ و ا)، ولسان العرب ١٥/ ١٦٨ مادة (هـ و ا).

(٦) ينسب هذا البيت للنابغة الذبياني ولم أجده في ديوانه. انظر تهذيب اللغة ٦/ ٤٩٠

(٧) انظر: لسان العرب ١٥/ ١٦٩ مادة (هـ و ا).



وبالجملة فالهوى في اللغة تدور معانيه حول: السقوط، والميل عن الحق، والموت، والحيرة، والرضوخ لرغبات النفس، وشهواتها، والخضوع لما يتمناه القلب.

الهـــوى في الاصطلاح: قال ابن القيم في تعريفه: (الهوى: ميل الطبع إلى ما يلائمه)[١].

فالهوى اصطلاحا: خلاف الهدى، وهو ميل الإنسان إلى رغبات نفسه، ومحاب قلبه بحيث يخرجه ذلك عن حد الشرع، والاعتدال، ويكون ذلك في الشهوات، والعقائد، والمذاهب، والآراء[٢]. فكل من لم يتبع الهدى فقد اتبع الهوى، قال الله تعالى: **﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾**[٣] فإن الهدى في الوحي الذي جاء به خاتم النبيين، صلوات الله وسلامه عليه، وفيه الخير، والصلاح للعباد في دنياهم، وأخراهم، من اتبعه فقد ضمن السلامة، والصحة في المعتقد، والرأي، والسلوك، والمنهج، ومن لم يتبع الهدى قاده الهوى إلى ظلمات بعضها فوق بعض، وانتهى به الأمر إلى عبادة هواه، قال الله تعالى: **﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾**[٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان حقيقة الهوى: (والهوى نفسه: وهو الحب والبغض الذي في النفس لا يلام العبد عليه، فإن ذلك لا يملكه، وإنما يلام على اتباعه كما قال تعالى: **﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾**[٥] فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله فهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، بل قد يتمادى به الأمر إلى أن يتخذ إلهه هواه)[٦].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -موضحا ما أشرت إليه من أن المعرض عن الهدى متبع للهوى لامحالة-: (ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من المنسوبين إلى العلماء، والعباد يجعل من أهل الأهواء كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء؛ وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه، والعلم بالدين لا يكون إلا بهدى الله الذي بعث به

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ٤٦٩

(٢) انظر: مقدمات في الأهواء والافتراق، والبدع للدكتور ناصر العقل ص ٢٢

(٣) سورة القصص الآية ٥٠ (٤) سورة الجاثية الآية ٢٣

(٥) سورة القصص الآية ٥٠

(٦) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٣-٢٤، وانظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ص ٢٧٠

رسـوله ﷺ . . . ومجرد الحب، والبغض هو هوى، لكن المحرم منه اتباع حبه، وبغضه بغير هدى من الله؛ ولهذا قال الله لنبيه داود: ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[1] فأخبر أن من اتبع هواه أضله ذلك عن سبيل الله وهو هداه الذي بعث به رسوله، وهو السبيل إليه)[2].

وقد بين العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - أنه لا ينبغي ذم الهوى مطلقا، ولا مدحه مطلقا، كما أن الغضب لا يذم مطلقا، ولا يحمد مطلقا؛ وإنما يذم المفرط من النوعين[3].

وقد ورد ذم الهوى في كثير من الآيات القرآنية[4] لمضادته للهدى والاتباع، ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾[5] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[6] وقال تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[7]؛ لأن ذلك من هوى الغفلة عن ذكر الله، واتباع شهوات النفس. وقال الله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[8] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[9]، فبينت الآيتان أن الله سبحانه وتعالى يحذر، وينهى عن هوى الحكم بغير ما أنزل الله.

وقد ذم السلف رحمهم الله الهوى، وبينوا خطورته، وإفساده للعقائد[10]، فمن ذلك قولهم: إن سبب تسمية الهوى هوى: لأنه يهوي بصاحبه في نار جهنم، روى اللالكائي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال له رجل: (الحمد لله الذي جعل هوانا على هواكم

(١) سورة ص الآية ٢٦ (٢) الاستقامة ٢/٢٢٦
(٣) انظر روضة المحبين ص ٤٦٩
(٤) انظر تلك الآيات مجتمعة في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي ص ٩٠٨ مادة (هـ و ى).
(٥) سورة المائدة الآية ٧٠ (٦) سورة النازعات الآية ٤٠
(٧) سورة الكهف الآية ٢٨
(٨) سورة ص الآية ٢٦ (٩) سورة النساء الآية ١٣٥
(١٠) بينما نجد الصوفية تمجد الهوى وتقول إنه أعظم مجلى عبد فيه الله، فما عبد الله ولا غيره من أنواع المعبودات بشيء أعظم من الهوى، وقد صوب ابن عربي عبادة العجل والأصنام؛ لأنهم عبدوا تلك المعبودات بطريق الهوى. انظر الرد على هذا الزعم في العلم الشامخ ص ٢٩٤



فقال ابن عباس : إن الله لم يجعل في هذه الأهواء شيئا من الخير ، وإنما سمي هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار)[١] .

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : (الباطل فيما وافق النفس ، وإن رأيت أن لله عز وجل فيه طاعة)[٢] . والباطل الذي يوافق النفس هو الهوى .

وقال علي رضي الله عنه : (الهوى يصد عن الحق)[٣] .

وقال الحسن البصري : (ما من داء أشد من هوى خالط قلبا)[٤] .

وری اللالكائي عن طاوس[٥] ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال : (ما ذكر الله هوى في القرآن إلا عابه)[٦] .

وسأل رجل إبراهيم النخعي[٧] ـ رحمه الله تعالى ـ عن الأهواء أمنها خير؟ فقال النخعي : (ما جعل الله في شيء منها مثقال ذرة من خير ، وما هي إلا زينة الشيطان ، وما الأمر إلا الأمر الأول ، يعني : ما كان عليه السلف الصالح)[٨] .

وقال الإمام الشافعي : (لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ماخلا الشرك خير له من أن يلقاه بشيء من الأهواء)[٩] .

وقال العلامة ابن القيم : (والمقصود أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخلاق[١٠] ، وبين الخوض بالباطل ؛ لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد والباطل ، والتكلم به وهو الخوض ، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب ، وهو الاستمتاع بالخلاق ، فالأول : البدع ، والثاني : الهوى ، وهذان هما أصل كل شر ، وفتنة ، وبلاء ، وبهما كذبت الرسل ، وعصي

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ١٣٠ ، رقم الأثر ٢٢٥ ، ورواه ابن بطة في الشرح والإبانة ص ١٢٣ رقم الأثر ٦٢

(٢) رواه ابن بطة في الشرح والإبانة ص ١٢١ رقم الأثر ٥٣

(٣) رواه ابن بطة في الشرح والإبانة ص ١٢٢ رقم الأثر ٥٤

(٤) رواه ابن بطة في الشرح والإبانة ص ١٢٤ رقم الأثر ٦٤

(٥) هو طاوس بن كيسان الفارسي ثم اليماني العالم الحافظ الزاهد كان يقول : لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لا اعتدلا ، كانت وفاته سنة ١٠٥هـ. انظر طبقات الشعراني ١/ ٣٩ ، سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٨ ، شذرات الذهب ١/ ١٣٣

(٦) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ١٣٠ رقم الأثر ٢٢٨

(٧) هو الإمام التابعي أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي من أكابر التابعين صلاحا ، وصدقا ، ورواية ، وحفظا للحديث ، عاش بالكوفة ، وكانت وفاته في سنة ٩٦هـ. انظر : حلية الأولياء ٤/ ٢١٩ ، وتهذيب التهذيب ١/ ١٧٧

(٨) الاعتصام ٢/ ١٨٠

(٩) الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع للسيوطي ص ٧١

(١٠) الخلاق : النصيب . انظر مختار الصحاح ص ١٨٧ مادة (خ ل ق) .

الرب، ودخلت النار، وحلت العقوبات، فالأول من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات؛ ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى، فتنه هواه، وصاحب دنيا، أعجبته دنياه)[١].

وقد بين الإمام الشاطبي أن المرء إما أن يتبع الهدى والحق فينقذ نفسه من الهلكة، وإما أن يتبع الهوى والشهوة فيقع في الابتداع والضلال، وليس هناك قسيم ثالث.

يقول الشاطبي محذرا من الابتداع: (إنه اتباع الهوى لأن العقل إذا لم يكن متبعا للشرع لم يبق إلا الهوى، والشهوة، وأنت تعلم ما في اتباع الهوى، وأنه ضلال مبين، ألا ترى قول الله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[٢] فحصر الحكم في أمرين لاثالث لهما عنده وهو الحق، والهوى، وعزل العقل مجردا؛ إذ لايمكن في العادة إلا ذلك، وقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[٣]، فجعل الأمر محصورا بين أمرين: اتباع الذكر، واتباع الهوى، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[٤]، وهي مثل ما قبلها، وتأملوا هذه الآية فإنها صريحة في أن من لم يتبع هدى الله في هوى نفسه فلا أحد أضل منه، وهذا شأن المبتدع فإنه اتبع هواه بغير هدى من الله، وهدى الله هو القرآن)[٥].

وقد ورد أن من البدع المحرمة: المشي في هوى النفس، وتلبية أمانيها، والتعصب في هواها، فإن حبك الشيء يعمي ويصم[٦].

وروى ابن الجوزي عن أبي بكر الوراق[٧] - رحمه الله تعالى - أنه قال: (أصل غلبة الهوى مقاربة الشهوات، فإذا غلب الهوى أظلم القلب، وإذا أظلم القلب ضاق الصدر، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق، وإذا ساء الخلق أبغضه الخلق، وإذا أبغضه الخلق أبغضهم، وإذا أبغضهم جفاهم، وإذا جفاهم صار شيطانا رجيما)[٨].

---

(١) أعلام الموقعين ١/ ١٣٦ (٢) سورة ص الآية ٢٦

(٣) سورة الكهف الآية ٢٨ (٤) سورة القصص الآية ٥٠

(٥) الاعتصام ١/ ٥١، وانظر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٦

(٦) انظر: الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع للسيوطي ص ٢٩٨، والدين الخالص للقنوجي ٤/ ٢٩

(٧) هو أبو بكر محمد بن إسماعيل بن العباس البغدادي، المستملي، الوراق، ولد سنة ٢٩٣هـ، قال الخطيب البغدادي: سألت البرقاني عن محمد بن إسماعيل، فقال: ثقة، ثقة، توفي سنة ٣٧٨هـ. انظر تاريخ بغداد٢/ ٥٣، وسير أعلام النبلاء١٦، ٣٣٨

(٨) ذم الهوى لابن الجوزي ص ٣٣



وقال أعرابي : (ما أشد تحويل الرأي عند الهوى ، هو الهوان وإنما غلط باسمه فاشتق له من جنسه)[١] .

وقد نظم هذا المعنى شاعر فقال[٢] :

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه   فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وقال العلامة ابن القيم : (وقد قيل : الهوى كمين[٣] لا يؤمن)[٤] . وشرح كلام ابن القيم هذا أن يقال : الهوى لص فإذا ترك مع صاحبه سرق منه دينه ، وعقله ، ومروءته ، وحياءه ، وتركه كالبيت الخاوي ، ولا شك أن سرقة هذه الأمور أخطر وأنكى وأفظع وأبكى من ومن سرقة متاع البيت ، فليأخذ المرء الحيطة والحذر من هذا اللص الخطر .

---

(١) ذم الهوى ص ٢٨

(٢) انظر : ذم الهوى ص ٣٣

(٣) الكمين في اللغة : الذي يستخفي في الحرب حيلة حتى يأخذ عدوه على غفلة . انظر المصباح المنير ٢/ ٥٤١ مادة (كمن) .

(٤) روضة المحبين ص ٤٦٩



المبحث الرابع

التعريف بأهل الأهواء وبيان سماتهم

المطلب الأول: التعريف بأهل الأهواء.

لما كانت الغاية من هذا المبحث هي الوقوف على معرفة مفهوم الواسطة بين الله تعالى وخلقه من جانب أهل السنة وفق ما جاء في الكتاب والسنة وبيان السلف رحمهم الله لتلك الواسطة، ثم بيان مفهوم الواسطة عند أهل الأهواء، وإيضاح أنواع الوسائط البدعية التي يثبتونها، لما كان الأمر كذلك رأيت أنه من المناسب التعريف بأهل الأهواء عموما، وبيان شيء من سماتهم التي يعرفون بها، ومن ثم الوقوف على تعريف الطوائف التي اشتهرت بالقول بالواسطة البدعية، فكان لكل منها مفهومها الخاص بها: هذه الطوائف هي: الفلاسفة والرافضة، والصوفية. وسوف يكون التعريف مختصرا؛ لأن ذكر تاريخ منشأ هذه الطوائف وبيان الأطوار التاريخية التي مرت بها وإلقاء الضوء على فرقها ورجالاتها ليس من أغراض هذه الرسالة[١].

أ - المراد بأهل الأهواء: قال أهل اللغة: الأهواء واحدها هوى، وكل فارغ هواء، والهواء: الجبان لأنه لا قلب له فكأنه فارغ، الواحد والجمع في ذلك سواء.

وقال الجرجاني[٢]: (أهل الأهواء أهل القبلة الذين لايكون معتقدهم معتقد أهل السنة وهم الجبرية، والقدرية، والروافض، والخوارج، والمعطلة، والمشبهة، وكل منهم اثنا[٣] عشرة فرقة، فصاروا اثنين وسبعين[٤].

وقال الحافظ ابن رجب: (فالبدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع ومن أجل ذلك يسمى أهلها أهل الأهواء[٥]

---

(١) انظر تهذيب اللغة ٦/ ٤٩٢، ولسان العرب ١٥/ ١٦١، مادة (هـ - و - ي).

(٢) هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي السيد الحسيني المعروف بالشريف الجرجاني من كبار علماء العربية، ولد سنة ٧٤٠هـ بجرجان، ودريس العلوم في شيراز، ثم خرج إلى بلاد الروم وبها ذاع صيته، توفي بشيراز سنة ٨١٦هـ. انظر الفوائد البهية ص١٢٥، والضوء اللامع ٥/ ٣٢٨، والبدر الطالع ١/ ٤٨٨، والأعلام ٥/ ١٥٩

(٣) هكذا في النص، والصحيح (اثنتا واثنتين) بالتأنيث.

(٤) التعريفات ص ٥٧، وحصر الجرجاني فرق الأمة في هذه الأصول وتفريعها حتى يكتمل العدد اثنان وسبعون غير مسلم كما درج عليه غيره من المصنفين في الفرق؛ لأن الأمة باقية، والافتراق حاصل وانظر للتوسع اليمانيات المسلولة ص١٤٠

(٥) جامع العلوم والحكم ص ٣٨٨

ولعل الضابط لأهل الأهواء أن كل من خرج عن موجب الكتاب والسنة فهو من أهل الأهواء، وإن كان منسوبا إلى العلماء، أو مصنفا مع طائفة العباد.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من المنسوبين إلى العلماء والعباد يجعل من أهل الأهواء، كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء[١]).

ويرى الإمام الشاطبي أن مصطلح أهل الأهواء لا يطلق حقيقة إلا على الذين ابتدعوها أصلا، وقدموا فيها شريعة الهوى بالاستنباط، والتقعيد، والانتصار لها، والاستدلال على صحتها في زعمهم، حتى عد خلافهم خلافا، وشبههم منظورا فيها ومحتاجا إلى ردها، والجواب عنها؛ بخلاف العوام فإنهم متبعون عادة لما يقرره علماؤهم؛ لأنه فرضهم، فليسوا بمتبعين للهوى، وإنما يتبعون ما يقال لهم كائنا ما كان، فلا يطلق - إذاً - على العوام لفظ أهل الأهواء، حتى يخوضوا بأنظارهم فيها ويحسِّنوا بعقولهم ويُقَبِّحوا، وإنما يتعين لمصطلح أهل الأهواء مدلول واحد وهو من انتصب للابتداع، وترجيحه على غيره، وأما الأتباع من أهل الغفلة عن ذلك والسالكون سبل رؤسائهم بمجرد التقليد من غير نظر فلا يشملهم هذا المصطلح "[٢].

ثم يستدرك الشاطبي فيضيق العذر على العوام المقلدين فيوضح أن تقليد أهل الغفلة من العوام لآبائهم، ومن يعتقدون فيه الصلاح من شيوخهم، دون النظر إلى كونهم من أهل العلم والاجتهاد أولا نوع من استدلالهم للبدعة بشرع الهوى، فيدخلون بهذا الاعتبار في مسمى أهل الأهواء؛ لأن الله تعالى ذم من احتج بهذا التقليد، فقال تعالى حكاية عن الكفار في تقليدهم لآبائهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[٣][٤].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والبدعة التي يعد بها الرجل من أهل الأهواء ما اشتهر عند أهل العلم بالسنة مخالفتها للكتاب والسنة كبدعة الخوارج، والروافض، والقدرية، والمرجئة[٥]) فمذهب شيخ الإسلام أن الضابط الذي يعرف به أهل الأهواء هو: ابتداع أمر اشتهر عند العلماء مخالفته للكتاب والسنة وهو ضابط دقيق لتمييز أهل الأهواء ومعرفتهم.

---

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ٥٢
(٢) انظر الاعتصام ١/ ١٦٢
(٣) سورة الزخرف الآية ٢٢
(٤) انظر الاعتصام ١/ ١٦٣ وما بعدها.
(٥) مجموع الفتاوى ٣٥/ ٤١٤

ويعلل الشاطبي لتسمية أصحاب البدع أهل الأهواء مبينا أن السبب في ذلك أنهم لم يسلموا للنصوص الشرعية ابتداء، بل اعتقدوا أمورا من عند أنفسهم أو متبوعيهم، ثم حاولوا الاستدلال عليها بلي أعناق النصوص لها وضرب الأدلة وإخضاعها لتلك العقائد المبتدعة فقال: (ولذلك سمي أهل البدع أهل الأهواء؛ لأنهم اتبعوا أهواءهم، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها والتعويل عليها، حتى يصدروا عنها، بل قدموا أهواءهم واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظورا فيها من وراء ذلك، وأكثر هؤلاء هم أهل التحسين والتقبيح ومن مال إلى الفلاسفة وغيرهم، ويدخل في غمارهم من كان (يغشى)[1] السلاطين لنيل ما عندهم أو طلبا للرياسة، فلا بد أن يميل مع الناس بهواهم ويتأول عليهم فيما أرادوا حسب ما ذكره العلماء ونقله الثقاة من مصاحبي السلاطين[2]. ومعظم أهل الأهواء يكون ضلالهم بسبب فتنتين: فتنة الشهوات، وفتنة الشبهات[3].

وذكر العلامة ابن القيم أن السلف كانوا يسمون أهل الآراء المخالفة للسنة وما جاء به الرسول ﷺ في مسائل الأحكام العملية أهل الشبهات والأهواء؛ لأن الرأي المخالف للسنة جهل لا علم، وهوى لا دين، وهذا يوضح قولة الإمام مالك بن أنس المشهورة (إذا قل العلم ظهر الجفاء، وإذا قلت الآثار ظهرت الأهواء [4]).

ويشمل مصطلح أهل الأهواء ثلاث فئات، يدخل تحتها كل صاحب هوى، خرج به هواه عن الالتزام بالكتاب والسنة وهذه الفئات هي:

الأولى: أصحاب السيف الخارجين على ولاة المسلمين وجماعتهم مثل: الخوارج، والبغاة، والمناوئين لحكام المسلمين.

الثانية: أهل الكلام، والبدع، والجدل، والخصومات في الدين مثل: الخوارج، والرافضة، والقدرية، والمرجئة، والمعتزلة، والجهمية، والمشبهة، والمتصوفة، والباطنية، ومتكلمة الكلابية، والكرامية، والأشاعرة، والماتريدية.

الثالثة: يشمل مصطلح أهل الأهواء أيضا: كل من سار على نهج هذه الطوائف في

---

(١) في الاعتصام (يخشى) ولعله تحريف.

(٢) الاعتصام ٢/ ١٧٦

(٣) كشف الكربة لابن رجب ص ٤٧

(٤) انظر مجموع الفتاوى ١٧/ ٣٠٨، إغاثة اللهفان ٢/ ٥١٠

الأصول، أو أحدث منهجا مخالفا لمنهج أهل السنة والجماعة مثل: أصحاب التيارات المنحرفة المعاصرة، من شيوعيين، وعلمانيين، وقوميين[١]، وحداثيين[٢]. . . إلى غير ذلك من الاتجاهات المنحرفة التي تتباين في التسمية وتتحد في المقصد وهو الإلحاد وفصل الدين عن الحياة الاجتماعية وكره أهل السنة والجماعة والسخرية من الملتزمين بالإسلام عقيدة وشريعة[٣].

ب- **ولأهل الأهواء سمات بارزة**، وعلامات واضحة تميزهم عن أهل السنة ويعرفون بها فمن تلك العلامات:

١- اتباع الهوى[٤]، وهذه العلامة هي أبرز صفات أهل الأهواء وإليها ينتسبون، وقد وصفهم الله تعالى بهذه الصفة في قوله تعالى: **﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾**[٥].

قال الإمام ابن كثير- رحمه الله تعالى - في تفسير الآية: (أي إنما يأتمر بهواه مهما رآه حسنا فعله، ومهما رآه قبيحا تركه، وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين[٦].

ولهذا قيل: فبالقرآن ثبت ذم الهوى، وبالقرآن ثبت وجه اتباع الهوى وهو أصل الزيغ

---

(١) وقد تطاول القوميون حتى قال شاعرهم وهو يخاطب أحد الحكام القوميين البعثيين: -

كم تمتلك هذه الأرض ربًّا وقد تقصر المنى وتطول

وحتى لا يتطرق إلى الأذهان أن معنى الرب هنا المنعم قال في شطر البيت الثاني: -

حسبنا البعث وهو نعم الوكيل

وقال الشاعر القومي الآخر رشيد الخوري: -

سلام على كفر يوحد بيننا وأهلا وسهلا بعده بجهنم

فهذه القوميات تشكل خطرا على العقيدة الإسلامية بما تبثه في معتنقيها من عقائد فاسدة وانحرفات دنية ظاهرة جرهم إلى الإيمان بها والسقوط في مستنقعها هوى القوميات والنعرات الجاهلية. انظر القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع لسماحة الشيخ ابن باز ص ١٤، والقومية في نظر الإسلام لمحمد أحمد باشميل ص ٣٠، وصراع مع الباطل له أيضا ص ٨ وما بعدها، وفكرة القومية العربية على ضوء الإسلام لشيخنا معالي الدكتور صالح العبود ص٢٥٢

(٢) الحداثة: مصطلح أدبي يرى أصحابه الخروج عن سنن الضوابط والشروط التي وضعها قدماء النقد للشعر والنثر والدعوة إلى مسايرة الغرب ومحاكاته في هذا الجانب، ويصبح الحداثيون منتظمين في سلك أهل الأهواء إذا جرهم هوى الحوداثة إلى التطاول على العقيدة الإسلامية وراموا بالحداثة خدش الدين. انظر الحداثة في منظور إيماني د/ عدنان علي رضا النحوي ص ٢٥

(٣) انظر مقدمات في الأهواء والافتراق والبدع ص ٢٤

(٤) تقدم الحديث حول تعريف الهوى وبيان خطورته وإفساده لعقيدة صاحبه.

(٥) سورة الجاثية الآية ٢٣

(٦) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٠



عن الصراط المستقيم[١].

٢- الفرقة والاختلاف: قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**﴾[٢].

قال الإمام البغوي رحمه الله تعالى: هم أهل البدع والأهواء[٣].

وقال ابن كثير: (الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفا له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لااختلاف فيه، ولاافتراق، فمن اختلف فيه وكانوا شيعا أي فرقا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات فإن الله تعالى قد برأ رسوله مما هم فيه [٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية مبينا أن علامة أهل الأهواء: التفرق والشذوذ (ولهذا وصفت الفرقة الناجية بأنها أهل السنة والجماعة وهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم، أما الفرق الباقية فإنهم أهل الشذوذ والتفرق والبدع والأهواء، ولا تبلغ الفرقة من هؤلاء قريبا من مبلغ الفرقة الناجية فضلا عن أن تكون بقدرها، بل قد تكون الفرقة منها في غاية القلة وشعار هذه الفرق مفارقة الكتاب والسنة والإجماع[٥]

٣- اتباع ما كان عليه الآباء، والأشياخ من العادات الفاسدة، والمعتقدات الباطلة، وأشباه ذلك، وهو التقليد المذموم الذي وصفه الله تعالى في قوله: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾[٦].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسير الآية: ما وجدوا عليه آباءهم من الدين ولو كان غير سديد ولا دينا ينجي من عذاب الله، ولو كان في آباءهم كفاية ومعرفة ودراية لهان الأمر، ولكن آباءهم لا يعقلون شيئا، فليس عندهم من المعقول شيء، ولا من العلم والهدى شيء، فتبا لمن قلد من لاعلم عنده صحيح، ولا عقل رجيح، وترك اتباع ما أنزل الله واتباع رسله، الذي يملأ القلوب علما، وإيمانا وهدى، ويقينا[٧].

(١) انظر الاعتصام ٢/ ١٧٩، والعلم الشامخ ص ٢٩٤ (٢) سورة الأنعام الآية ١٥٩
(٣) انظر شرح السنة ١/ ١٨٤
(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ١٩٦، وانظر الاعتصام ٢/ ١٦٦
(٥) مجموع الفتاوى ٣/ ٣٤٥، وانظر العلم الشامخ ص ١٩٤ (٦) سورة المائدة الآية ١٠٤
(٧) انظر تفسير السعدي ٢/ ١٦٥

وقال الشاطبي بعد استدلاله بالآية: فنبههم الله تعالى على وجه الدليل الواضح، فتمسكوا بمجرد تقليد الآباء (وهذا الوجه هو الذي مال بأكثر المتأخرين من عوام المبتدعة إذا اتفق أن ينضاف إلى شيخ جاهل، أو لم يبلغ مبلغ العلماء فيراه يعمل عملا فيظنه عبادة فيقتدي به كائنا ما كان ذلك العمل موافقا للشرع أو مخالفا . . . فهو في الحقيقة راجع إلى تقليد من حسن ظنه فيه خطأ أو أصاب كالذين قلدوا آباءهم سواء[(١)].

٤- تكفيرهم لمخالفيهم بغير دليل: ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن شعار أهل الأهواء تكفير كل من لايرى رأيهم وإن لم يكفروه بدعوه، أو رموه بالتفسيق فقال: (والخوارج تكفر أهل الجماعة وكذلك المعتزلة يكفرون من خالفهم، وكذلك الرافضة، ومن لم يكفر يفسق، وكذلك أكثر أهل الأهواء يبتدعون رأيا، ويكفرون من خالفهم فيه [(٢)].

ونقل عن الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ أنه سئل عن الذي يكفر مخالفه في الرأي فأجاب بقوله: (الجواب أني لا أعلم مستندا لهذا القول والتجاسر على تكفير من ظاهره الإسلام من غير مستند شرعي ولا برهان مرضي يخالف ما عليه أئمة العلم من أهل السنة والجماعة، وهذه الطريقة هي طريقة أهل البدع والضلال [(٣)].

٥- الذلة بسبب طاعتهم لأهوائهم: وضّح العلامة ابن القيم أنه ينبغي للمرء أن يحفظ نفسه من ذل طاعة الهوى، فإنه ما أطاع أحد هواه ولا استرسل فيما يلقاه قط إلا وجد في نفسه ذلا، ولا يغتر بصولة أهل الأهواء وكِبْرهم وغطرستهم فهم أذل الناس بواطن، قد جمعوا بين صفتي الكبر والذل[(٤)].

٦- اتباع المتشابه: لقول الله تعالى: ﴿ . . . فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾[(٥)].

قال ابن كثير: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ أي إنما يأخذون منه المتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلزه على تأويلاتهم الباطلة؛ لاحتمال لفظه لما يصرفونه، ولهذا

---

(١) الاعتصام ٢/ ١٨٢، وانظر العلم الشامخ ص ٤٠٧، وتنبيه أولي الأبصار إلى كمال الدين وما في البدع من الأخطار لشيخنا الدكتور صالح السحيمي ص ١٤٢

(٢) منهاج السنة النبوية ٥/ ١٨١

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٣/ ٢٠

(٤) انظر روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ٤٧٣

(٥) سورة آل عمران الآية ٧



قال: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي الإضلال لأتباعهم، إيهاما لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم[١].

وقال البغوي: قيل المراد بـ: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ هم جمع أهل الأهواء والبدع[٢]؛ لأنهم جميعا يشتركون في هذه الصفة وهي اتباع المتشابه.

٧- معارضة السنة بالقرآن، ودعوى الاكتفاء بالقرآن عن السنة في التشريع:

وقد أخبر بذلك الصادق المصدوق (في قوله: (ليوشك الرجل متكئا على أريكته[٣]، يحدث بحديثي فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، ما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإن ما حرم رسول الله فهو مثل ما حرم الله [٤].

قال الإمام البربهاري[٥] يرحمه الله تعالى: (إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار أو يرد أو يريد غير الآثار فاتهمه على الإسلام، ولا شك أنه صاحب هوى مبتدع)[٦].

٨- بغض أهل السنة والأثر، وإطلاق الألقاب الشنيعة عليهم[٧]. يقول أبو حاتم الرازي: (وعلامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة، وعلامة القدرية تسميتهم أهل الأثر مجبرة، وعلامة المرجئة تسميتهم أهل السنة مخالفة ونقصانية[٨]، وعلامة الرافضة تسميتهم أهل السنة ناصبة، ولا يلحق أهل السنة إلا اسم واحد، ويستحيل أن تجمعهم هذه الأسماء)[٩].

ويقول الشيخ إسماعيل الصابوني: (وعلامات أهل البدع على أهلها بادية ظاهرة،

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٥ (٢) انظر تفسير البغوي ١/ ٢٧٩

(٣) الأريكة: السرير المزخرف الذي له مجال، وقيل هو كل ما اتكئ عليه من سرير أوفراش أو منصة. انظر مختار الصحاح ص ١٤ مادة (أرك) والنهاية ١/ ٤٠ مادة (أرك).

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند ٤/ ١٣٢، والحاكم في المستدرك ١/ ١٠٩، وصححه، ووافقه الذهبي، وقال بتصحيحه أيضا الشيخ الألباني. انظر صحيح سنن ابن ماجه ١/ ٧ رقم الحديث ١٢

(٥) هو أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري نسبة إلى الأدوية المجلوبة من الهند، الإمام القدوة، الحافظ، الثقة، شيخ الحنابلة في عصره، أخذ عن بعض الأكابر من أصحاب الإمام أحمد، كانت وفاته سنة ٣٢٩هـ. انظر ترجمته في طبقات الحنابلة ٢/ ١٨، والمنتظم لابن الجوزي ٦/ ٣٢٣ (٦) كتاب شرح السنة للبربهار ص ٥١

(٧) تقدم الكلام على الألقاب الشنيعة التي يطلقها أهل الأهواء على أهل السنة ظلما وشنآنا.

(٨) يقصدون بذلك أن أهل السنة يرون زيادة الإيمان ونقصانه، أما المرجئة فيرون أن الإيمان لا يتجزأ ولا يزيد ولا ينقص، فأطلقوا على أهل السنة لقب (نقصانية) لذلك. انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ١/ ١٧٩، ووسطية أهل السنة بين الفرق للدكتور محمد بن عبدالله با كريم ص ١٣٤

(٩) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ١/ ١٧٩

وأظهر آياتهم وعلاماتهم شدة معاداتهم لحملة أخبار النبي ﷺ واحتقارهم لهم وتسميتهم إياهم حشوية، وجهلة، وظاهرية، ومشبهة، اعتقادا منهم في أخبار رسول الله ﷺ أنها بمعزل عن العلم، وأن العلم ما يلقيه الشيطان إليهم من نتائج عقولهم الفاسدة، ووساوس صدورهم المظلمة)[١].

٩- ومن علامات أهل الأهواء أن مصادر التلقي عندهم غير مضبوطة بضابط شرعي، كما هو الحال عند أهل السنة وآراؤهم في هذا التلقي لا تستقر على منهج محدد لاعتمادهم على عقولهم، وأهوائهم، فلذلك نجد مصادر الدين عند أهل الأهواء متعددة: فمن آخذ بالعقل لا يحيد عنه، ومن آخذ بالأوهام والظنون والذوق والكشف، وإيحاء الشياطين، ومن آخذ بالرأي، وظنون الرجال، والفلسفات المتناقضة، ومن آخذ بالروايات الضعيفة والمكذوبة وما لا أصل له كدعوى الكشف والعلم اللدني، والتلقي عن مصادر وهمية ومجهولة، والأخذ عن الأمم الضالة[٢].

ومما يبين خطر أهل الأهواء أنهم يعملون على تشتيت الأمة وتفريق كلمتها حيث إن كل طائفة من أهل الأهواء يذهب بها هواها إلى حيث شاء من العقائد الفاسدة والآراء الباطلة، فتوالي عليها وتعادي، وبذلك يشيع الخلاف والتنافر والشحناء والبغضاء، حتى بين أبناء الأسرة الواحدة.

نقل ابن القيم عن علي بن المديني رحمه الله[٣] أنه قال: (كان أبو الجعد إذا تغدى جمع بنيه فكانوا ستة: اثنان مرجئان، واثنان شيعيان، واثنان خارجيان، فكان أبو الجعد يقول: لقد جمع الله بين أيديكم وفرق بين أهوائكم)[٤].

ونقل البربهاري عن عبد الله بن المبارك أنه قال: (أصل ثنتين وسبعين هوى: أربعة أهواء فمن هذه الأربعة الأهواء تشعبت الاثنان وسبعون هوى)[٥].

---

(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث مطبوع ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ١/ ١٣١، وانظر مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ٥/ ٩٠ (٢) انظر مقدمات في الأهواء والافتراق والبدع ص ٨٩

(٣) هو: علي بن عبد الله بن جعفر بن نجيح بن بكر بن سعد السعدي مولاهم البصري المعروف بابن المديني مولى عروة بن عطية السعدي. قال عنه أبو حاتم الرازي: كان ابن المديني علما في الناس في معرفة الحديث والعلل، وكان الإمام أحمد لا يسميه وإنما يكنيه تبجيلا له، توفي رحمه الله سنة ١٧٨هـ انظر ترجمته في تاريخ بغداد١١/ ٤٥٨، وسير أعلام النبلاء١١/ ٤١، وشذرات الذهب٢/ ٨١.

(٤) بدائع الفوائد ٣/ ١٩٥

(٥) كتاب شرح السنة للبربهاري ص ٥٧



ويحسن بي أن أختم الكلام عن أهل الأهواء وبيان علاماتهم بكلمة رائعة للإمام الشوكاني أوردها في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] حيث قال: (فيه من التهديد العظيم والزجر البليغ ما تقشعر له الجلود وترجف منه الأفئدة، وإذا كان الميل إلى أهوية المخالفين لهذه الشريعة الغراء والملة الشريفة من الرسول ﷺ الذي هو سيد ولد آدم يوجب عليه أن يكون -وحاشاه- من الظالمين فما ظنك بغيره من أمته؟ وقد صان الله هذه الفرقة الإسلامية بعد ثبوت قدم الإسلام، وارتفاع مناره عن أن يحيلوا إلى شيء من هوى أهل الكتاب، ولم يبق إلا دسيسة شيطانية، ووسيلة طاغوتية وهي ميل بعض من يحمل حجج الله إلى هوى بعض طوائف المبتدعة، لما يرجوه من الحطام العاجل من أيديهم أو الجاه لديهم إن كان لهم في الناس دولة أو كانوا من ذوي الصولة، وهذا الميل ليس بدون ذلك الميل، بل اتباع أهوية المبتدعة يشبه اتباع أهوية أهل الكتاب كما يشبه الماءُ الماءَ، والبيضةُ البيضةَ، والتمرةُ التمرةَ، وقد تكون مفسدة اتباع أهوية المبتدعة أشد على هذه الملة من مفسدة اتباع أهوية أهل الملل، فإن المبتدعة ينتمون إلى الإسلام ويظهرون للناس أنهم ينصرون الدين، ويتبعون أحسنه، وهم على العكس من ذلك، والضد لما هنالك، فلا يزالون ينقلون من يميل إلى أهويتهم من بدعة إلى بدعة، ويدفعونه من شنعة إلى شنعة حتى يسلخوه من الدين، ويخرجوه منه، وهو يظن أنه منه في الصميم، وأن الصراط الذي عليه هو الصراط المستقيم)[2].

وبعد أن عرَّفت بأهل الأهواء، ووضحت المراد بهم، وبينت بعض السمات والعلامات المميزة لهم بين الفرق، وذكرت بعض النقول عن أهل العلم في التحذير من أهل الأهواء، وتلبيساتهم، يجدر بي أن أشير هنا إلى تعريف موجز للطوائف التي كان لكل منها مفهوم خاطئ للواسطة، ودافعت كل منها عن مفهومها للواسطة، وشذت به عن مفهوم الواسطة عند أهل السنة والجماعة، **هذه الطوائف هي:-**

أ - الفلاسفة
ب - الرافضة
ج - الصوفية.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٤٥
(٢) تفسير الشوكاني ١/ ١٥٤

المطلب الثاني: التعريف بالفلاسفة:

الفلسفة : باليونانية : محبة الحكمة ، والفيلسوفعندهم هو : فيلا سوفا ، مركب من كلمتين : (فيلا) أي : المحب ، و(سوفا) أي : الحكمة ، فمعناه : محب الحكمة[1] .

والفلاسفة - كما ذكر الغزالي - ثلاثة أقسام :

أ- الدهريون : وهم طائفة حجدوا الصانع ، وزعموا أن العالم قديم ، موجود بنفسه .

ب- والطبيعيون : وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة ، وعن عجائب الحيوان ، وعلم التشريح ، فاضطرهم ذلك إلى الاعتراف بوجود الله .

ج- والإلهيون : وهم متأخروا الفلاسفة كسقراط[2] ، وتلامذته .

وعلوم الفلسفة ستة أقسام :

١ - علم الرياضة .
٢- وعلم الطبيعة .
٣- وعلم السياسة .
٤ - وعلم الإلهيات .
٥- وعلم الأخلاق .
٦ - وعلم المنطق ، وقد ترجمت معظم هذه العلوم في عهد الخليفة المأمون[3] ، ولتاريخ الفلسفة عصور مصطلح عليها عند الفلاسفة ، وهذه العصور هي :

الفلسفة الشرقية القديمة ، ثم الفلسفة اليونانية ، التي تهتم بالأخلاق الإنسانية ، فالفلسفة الوسيطة التي تؤيد الدين بالعقل ، ثم الفلسفة الحديثة التي تساير العلوم وتحللها[4] .

المطلب الثالث: التعريف بالرافضة:

تعريف الرفض لغة: الرفض في اللغة : الترك ، والمنع ، يقال : رفضه إذا تركه فهو رفيض ، ومرفوض ، ومن معانيه : التفرق فيقال : رفضت الإبل من باب ضرب إذا تفرقت

---

(١) انظر الملل والنحل ٢/ ٥٨

(٢) هو سقراط بن سفرونيسقوس فيلسوف يوناني من أثينا ، أبو نحات ، وأمه قابلة ، ولد سنة ٤٦٩ ، وتوفي سنة ٣٩٩ قبل الميلاد ، لم يترك أثرا مكتوبا ؛ لكن سجل حياته ، وتعاليمه تلميذه أفلاطون في محاوراته . انظر الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال ١/ ٩٨٥

(٣) انظر الملل والنحل ٢/ ٥٨ ، والمنقذ من الضلال للغزالي ص١٣

(٤) انظر الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٣١٠



في المرعى فهي إبل رافضة، ويقال: رجل رُفَضَة كهُمزة: إذا كان يتمسك بالشيء ثم يدعه، وترفَّض العود: إذا تكسر[١].

ويلاحظ هنا أن هذه المعاني اللغوية التي استفيدت من مادة (رفض) تتجاذب اسم الرافضة، وأن هذه المعاني تدور كما هو واضح حول الأمر المكروه والمذموم.

تعريف الرفض اصطلاحا: الرافضة في الاصطلاح: هم الغلاة من الشيعة في حب علي رضي الله عنه ونبيه من بعده وبغض الشيخين أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- على الخصوص، ومعظم الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

يقول المقريزي في تعداده للفرق: (الفرقة التاسعة: الروافض: الغلاة في حب علي بن أبي طالب، وبغض أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية في آخرين من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين)[٢].

وقد كانت كتب الفرق تطلق اسم الرافضة على الإمامية الاثني عشري[٣] الذين يُفْرِطون في موالاة أهل البيت، ويُفَرِّطون في حق الصحابة رضي الله عنهم فيسبونهم ويقولون بكفرهم سوى ستة رجال[٤]، وبما أن فرق الشيعة كلها من غلاتها القدماء والمحدثين انصبت في قالب الإمامية كما صرح الإمامية أنفسهم بذلك[٥]، وبما أن الإمامية تزعمت طوائف الشيعة في العصر الحاضر وحملت رايتها، وكونت لها دولة وأصبح لها علماؤها ومؤلفوها يدافعون عن عقائد الشيعة، وهي -أيضا- عقائد الرافضة، بما أن الأمر كذلك فإنه يتبارد إلى الذهن عند إطلاق لفظ (الرافضة) أنه يعم الشيعة الغلاة سوى فرقة الزيدية[٦].

---

(١) انظر مختار الصحاح ص ٢٥٠ مادة (رفض) ولسان العرب ٧/ ١٥٦، والمصباح المنير ١/ ٢٣٢ مادة (رفضه) والقاموس المحيط ٢/ ٣٤٤، مادة (رفضه)

(٢) خطط المقريزي ٢/ ٣٥١

(٣) انظر في شأن الإمامية فرق الشيعة للنوبختي ص ١٠٨، والأنوار النعمانية ٢/ ٢٤٤، والغيبة ص ٥١، والمقالات والفرق للقمي ص ١٠٢، ومقالات الإسلاميين ١/ ٨٨، والملل والنحل ١/ ١٦٢، ومختصر التحفة الاثني عشرية ص ٢١

(٤) وهؤلاء الستة عندهم هم: أبو الدرداء، وحذيفة بن اليمان، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي رضي الله عنهم جميعا. انظر اليمانيات المسلولة على الرافضة المخذولة ص ٢٤٤

(٥) صرح بهذا الرأي محمد حسين الزين حيث قال: لا يحق لأحد أن يطلق اسم الشيعة على غير الاثني عشرية (الرافضة) وأكثر الزيدية والإسماعيلية وبعض الفطحية والواقفية، وبما أن الفطحية والواقفية لا وجود لهما في هذا العصر اختص اسم الشيعة بالشيعة الإمامية الاثني عشرية. انظر الشيعة في التاريخ ص٣٠، وأصل الشيعة وأصولها ص ١٠٩

(٦) انظر في شأن الزيدية المقالات والفرق ص ١٨، وفرق الشيعة للنوبختي ص ٥٧، والفهرست لابن النديم ص ٢٢٦، والملل والنحل ١/ ١٥٤، واليمانيات المسلولة ص ١٩١

يقول الدكتور ناصر القفاري -مؤكدا أنه لايوجد الآن من طوائف الشيعة إلا الإمامية: إن طائفة الاثني عشرية استوعبت معظم مقالات فرق الشيعة وعقائدها: كالنص على الأئمة والقول بعصمتهم والتَّقيَّة، والغيبة، والرجعة، والبداء، بالإضافة إلى أنها تمثل غالبية الشيعة، لذلك فإن مصطلح (الشيعة) إذا أطلق فلا ينصرف إلا إليهم[١].

وقد لاحظ أحمد الفيومي[٢] رحمه الله أن لفظ الشيعة يصدق بالإطلاق على متقدمي الشيعة الذين لم يكونوا يسبون الصحابة أو يكفرونهم، أما المتأخرون من الشيعة فإنهم رافضة؛ لأن هذا اللقب يستعمل في كل من غلا في هذا المذهب، وأجاز الطعن في الصحابة رضي الله عنهم[٣]. ومما يؤيد صحة إطلاق اسم الرافضة على عموم الشيعة المتأخرين أننا وجدنا كثيرا من مصنفي كتب الفرق تتناول الحديث عن الشيعة، وتعداد فرقها تحت اسم الرافضة من أمثال المقريزي كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وابن الجوزي[٤]، والبزدوي[٥]، وأبي الحسين الملطي[٦]، والأسفراييني[٧]، وعبد القاهر البغدادي[٨]، وأبي منصور السكسكي[٩]. هؤلاء العلماء أطلقوا على مجموع فرق الشيعة لقب الرافضة[١٠].

وعموما فإن التلازم، والتداخل بين الشيعي والرافضي قائم.

قال الشعبي[١١] رحمه الله: (ائتني بشيعي صغير أخرج لك منه رافضيا كبيرا، وائتني

---

(١) انظر مسألة التقريب القسم الأول ص ١١

(٢) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي الحموي. قال عنه الحافظ ابن حجر: كان فاضلا عارفا باللغة والفقه، ولد بالفيوم ورحل إلى حماة فقطنها، وولي الخطابة في جامع الدهشة أيام الملك المؤيد إسماعيل، توفي في حدود سنة ٧٧٠هـ. انظر الدرر الكامنة ١/ ٣١٤، وبغية الوعاة ١/ ٣٨٩، والأعلام للزركلي ١/ ٢٢٤

(٣) انظر المصباح المنير ١/ ٢٣٢ مادة (رفضه).

(٤) انظر تلبيس إبليس ص ٢٢

(٥) انظر كتاب أصول الدين للبزدوي ص ٢٤٧

(٦) انظر التنبيه والرد ص ١٨

(٧) انظر التبصر في الدين ص ١٦

(٨) انظر الفرق بين الفرق ص ٤١

(٩) انظر البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ص ٦٥

(١٠) يرى الدكتور غالب العواجي حفظه الله أن إطلاق اسم الرافضة على عموم الشيعة أمر غير سديد؛ لأن زيد بن علي رحمه الله هو الذي سماهم رافضة؛ ولأن الشيعة كان لهم وجود قبل زيد تحت أسماء أخرى. انظر فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام ١/ ١٣٨، والذي يظهر لي أن هذا يتجه إذا أدخلنا الزيدية في مسمى الرافضة، أما إذا أخرجنا الزيدية فإن بقية طوائف الشيعة يصدق عليهم هذا الاسم يصح أن يقال (الرافضة والزيدية) كما قيل (الشيعة والزيدية) والله أعلم.
وقد ذهب إلى هذا الرأي أيضا الدكتور ناصر القفاري فقال: (والذي يلاحظ على إطلاق اسم الرافضة على كل فرق الشيعة هو أنه ينبغي استثناء الزيدية، أو بعبارة أدق استثناء الزيدية ما عدا فرقة الجارودية منها؛ لأن الجارودية سلكت مسلك الروافض) أصول مذهب الشيعة ١/ ٩٥

(١١) هو أبو عمرو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي، الحميري، محدث، راوية، فقيه، شاعر، ولد بالكوفة سنة ١٩هـ، ونشأ بها، كانت قاضيا في خلافة عمر بن عبدالعزيز -رحمه الله تعالى، كانت وفاته بالكوفة سنة ١٠٣هـ. انظر إيضاح المكنون ٢/ ٣٧٣، والأعلام للزركلي ٤/ ١٨، ومعجم المؤلفين ٢/ ٢٧

برافضي صغير أخرج لك منه زنديقا كبيرا)[١].

سبب تسميتهم بالرافضة: تكاد المصادر تجمع على أن أول من أطلق هذا الاسم على غلاة الشيعة هو الإمام زيد بن علي[٢] رحمه الله، وذلك أنه لما خرج إلى الكوفة[٣] تبعه خلق كثير من الشيعة، وقالوا له: تبرأ من الشيخين: أبي بكر، وعمر، ونحن نبايعك[٤] فامتنع من ذلك، وقال: إنهما وزيرا جدي، فقالوا: إنا نرفضك، فقال: اذهبوا أنتم الرافضة[٥].

وهناك من يزعم أن المغيرة بن سعيد[٦] هو الذي سماهم بهذا الاسم، وذلك أنه لما ادعى أن محمد ابن الحنفية[٧] - رحمه الله تعالى - هو القائم المنتظر، وأنه حي لم يمت برئت منه الشيعة، ورفضته، فسماهم الرافضة[٨].

ويرى أبو الحسن الأشعري[٩] - رحمه الله تعالى - أنهم سموا رافضة لرفضهم إمامة أبي

---

(١) لسان الميزان لابن حجر ٣/ ٤٢٧، وانظر الفوائد المنتقاة من فتح الباري وكتب أخرى للشيخ عبد المحسن العباد حفظه الله ص ٤٢

(٢) هو الإمام أبو الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - العلوي، الهاشمي، القرشي، ويقال له: (زيد الشهيد) ولد سنة ٧٩هـ، وكان بينه وبين هشام بن عبدالملك نفرة، فضيق عليه هشام، ثم خرج عليه زيد في الكوفة سنة ١٢٠هـ، ولما قاتله يوسف الثقفي خذله شيعته، حتى قتل سنة ١٢٢هـ.
انظر مقاتل الطالبيين ص١٢٧، ووفيات الأعيان٢/ ٣٥، والفتوح لابن أعثم الكوفي٨/ ٣١٤، وانظر: الإمام زيد المفترى عليه لشريف أحمد الخطيب ص٣٤

(٣) الكوفة: المصر المشهور من أرض بابل من سواد العراق، سميت كوفة لاستدارتها، انظر معجم البلدان ٤/ ٤٩٠

(٤) وهذه هي قاعدة الولاء والبراء عند الرافضة فهم يقولون: (لا ولاء إلا ببراء) أي لا ولاء لعلي وآل البيت إلا ببراء من أبي بكر، وعمر، وعثمان، وسائر الصحابة رضي الله عنهم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ابتدعت الرافضة هذا الراي وألزمت الناس به ووالت وعادت عليه. انظر مجموع الفتاوى ٥/ ١٤، والتحفة المهدية شرح التدمرية ٢/ ١٧، وهجر المبتدع لبكر أبي زيد ص ١٨

(٥) انظر الفتوح لابن أعثم الكوفي ٨/ ٣١٤، والمنتظم لابن الجوزي ٧/ ٢١٠، والكامل لابن الأثير ٤/ ٢٤٦، والعبر ١/ ١١٨

(٦) هو أبو عبد الله المغيرة بن سعيد العجلي الرافضي الكذاب كان ساحرا ممخرفا، حكى عنه الشعبي أنه قال: لو أردت أن أفني عادا وثمود وقرونا بين ذلك كثيرا لفعلت، وبلغ أمره خالد بن عبد الله القسري فأمر بالقصب، والنفط ثم أجج نارا فأحرقه وذلك سنة ١١٩هـ انظر معرفة أخبار الرجال للكشي ص ١٤٦ والنجوم الزاهرة ١/ ٢٨٣، ولسان الميزان ٦/ ٧٥

(٧) هو أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه الهاشمي القرشي المعروف بابن الحنفية وهي أمه خولة بنت جعفر الحنفية، كان كثير الورع، والعلم شديد القوة، والبأس، ولد لسنتين خلتا من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتوفي رحمه الله بالمدينة، ودفن بالبقيع سنة ٨١هـ وقيل غير ذلك. انظر وفيات الأعيان ٤/ ١٦٩، وتقريب التهذيب ترجمة (٥٤٩) وحلية الأولياء ٣/ ١٧٤

(٨) انظر فرق الشيعة للنوبختي ص ٦٢، واليمانيات ص ١٩٢

(٩) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم ينتهي نسبه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ولد بالبصرة سنة ٢٦٠هـ وقيل غير ذلك، وإليه تنتسب الطائفة الأشعرية، كان معتزليا ثم كلابيا، ثم رجع في آخر الأمر إلى مذهب السلف، وأعلن أنه على عقيدة أهل الأثر، وفي الأشعري رحمه الله سنة ٣٢٤هـ وقيل غير ذلك. انظر تاريخ بغداد ١١/ ٣٤٦، والبداية والنهاية ١١/ ١٨٧، وشذرات الذهب ٢/ ٣٠٣



بكر، وعمر رضي الله عنهما[١].

وقال عبد الله بن الإمام أحمد ـ رحمهما الله تعالى: (سألت أبي من الرافضة؟ فقال: الذين يشتمون أو يسبون أبا بكر، وعمر)[٢].

وقيل سموا رافضة لرفضهم دين الإسلام[٣]، وقيل سموا رافضة لرفضهم وتركهم محبة الصحابة رضي الله عنهم[٤].

ويلاحظ أن بعض كتب الرافضة تنص على أن هذا اللقب من ألقابها، وقد أورد شيخهم المجلسي[٥]في كتابه بحار الأنوار عدة أحاديث من رواياتهم في مدح التسمية بالرافضة، فمن ذلك ما ذكره في باب سماه (باب فضل الرافضة ومدح التسمية بها): (عن أبي بصير قال: قلت لأبي جعفر (رحمه الله): جعلت فداك اسم سمينا به استحلت به الولاة دماءنا وأموالنا وعذابنا، قال: وما هو؟ قلت: الرافضة. فقال أبو جعفر: إن سبعين رجلا من عسكر موسى عليه السلام لم يكن في قوم موسى أشد اجتهادا وأشد حبا لهارون منهم، فسماهم قوم موسى الرافضة فأوحى الله إلى موسى أن أثبت لهم هذا الاسم في التوراة فإني نحلتهم، وذلك اسم قد نحلكموه الله)[٦].

وصرح صاحب روضات الجنات بأن لقب الرافضة كان موجودا قبل حادثة زيد، ورفض الشيعة له، وروى في ذلك أن امرأة من الشيعة أتت عائشة رضي الله عنها فقالت لها: (يا أم المؤمنين: ما تقولين في أم قتلت ولدها عمدا؟ فقالت: جزاؤها الخلود في

---

(١) انظر مقالات الإسلاميين ١/ ٨٩، والبرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ص ٦٥، وقد اعترض شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا الرأي مناصرا القول بأنهم سموا رافضة لرفضهم زيد بن علي وتركهم له. انظر منهاج السنة النبوية ٢/ ١٣٠، وكأن الخلاف لفظي؛ لأن ترك الشيعة لزيد ورفضهم لإمامة أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما مؤداهما واحد. انظر أصول مذهب الشيعة ١/ ١٠٨

(٢) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد ص ٢٢٢، وانظر السنة للخلال ٣/ ٤٩٢، والمسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة ٢/ ٣٥٧

(٣) تعليق محمد محي الدين عبد الحميد على مقالات الإسلاميين ١/ ٨٩، والفصل لابن حزم ١/ ١٦٥

(٤) انظر شم العوارض في ذم الروافض لملا علي القاري مخطوط في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة برقم١٣/ أ.

(٥) هو محمد باقر بن محمد تقي بن مقصود علي الأصفهاني من علماء الإمامية ولي المشيخة في أصفهان، وترجم إلى الفارسية كثيرا من العلوم. ولد سنة ١٠٣٧هـ، وتوفي سنة١١١١هـ. انظر ترجمته في روضات الجنات١/ ١١٨، والذريعة٣/ ١٦، والأعلام للزركلي٦/ ٤٨

(٦) بحار الأنوار ١١/ ٢٢٣، وانظر دائرة المعارف للأعلمي الرافضي ١٨/ ٢٠٠



النار؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾[(١)] فقالت المرأة: فكيف بأم قتل من أجلها عشرون ألفا من أولادها يوم البصرة[(٢)] تعني وقعة الجمل. فقالت عائشة: نحُّوها عني فإنها رافضية خبيثة)[(٣)].

ويصف أحد الروافض الشيعة بأنهم يمثلون في مقابل أهل السنة عموما أقلية معارضة ضمن الإطار الإسلامي العام، عرفت هذه الأقلية المعارضة في تاريخ الإسلام بالشيعة[(٤)].
ويفتخر الشارح -وهو رافضي أيضا- باسم الرافضة فيقول: (في تقديري أن سماحة الشيخ يعني صاحب الكلام السابق يقصد بكلمة (معارضة) (رفض) الاعتراف بشرعية النظام القائم حينئذ، باعتباره لا يتفق مع الصورة الحقيقية للقادة، ونظام الحكم الرشيد. . .
ومن هنا نفهم أن إطلاق كلمة (رفض) أو (رافضة) في الماضي على شطر الأمة الذي حيل بينه وبين النهوض بأمانة الحكم الإسلامي كان هو التعبير الدقيق عن تكييف موقفهم، وتصويره تصويرا سليما، ومن ثم تكون هذه الكلمة بالرغم من أنها كانت تطلق ذما، وتشهيرا منطوية بمدلولها الحقيقي على أشجع، وأجرأ معاني المواجهة السياسية في ضوء المصطلحات الحديثة في عصرنا الحاضر)[(٥)].

ومما يدل على أن لقب الرافضة مشهور عند الرافضة أنفسهم، وأنهم لايجدون غضاضة في التسمي به أنهم أصبحوا يفتخرون به في معرض التورية، ومن ذلك ما نقله صاحب الكشكول أن رجلا سنيا أرسل إلى رجل شيعي وقراً[(٦)] من الحنطة وكانت عتيقة فردها عليه ثم لما أرسل له عوضها جديدة لكن فيها تراب كتب إليه بعد قبولها شعرا[(٧)]: -

بعثتَ لنا بديلَ البُرِّ بُرًّا ... رجاءً للجزيل من الثواب
رفضناه عتيقا وارتضينا ... به إذ جاء وَهْوَ أبُو تراب

فقد رفض البر في المرة الأولى؛ لأنه عتيق (أي قديم) كراهة منه للفظ عتيق (وهو لقب

(١) سورة النساء الآية ٩٣
(٢) البصرة: هي البصرة العظمى بالعراق، سميت بصرة لأن أرضها غليظة ذات حجار صلبة، ويقال البصرتان للكوفة والبصرة. انظر معجم البلدان١/ ٤٣٠
(٣) انظر روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات للخوانساري ١/ ٨٨
(٤) انظر التشيع ظاهرة طبيعية في إطار الدعوة الإسلامية تأليف محمد باقر الصدر تعليق طالب الحسيني ص٧٧
(٥) التشيع ظاهرة طبيعية في إطار الدعوة الإسلامية تأليف محمد باقر الصدر تعليق طالب الحسيني ص٧٧
(٦) الوِقْر: الحِمْل، وأكثر ما يستعمل الوقر في حِمْل البغل، والحمار. انظر مختار الصحاح ص ٧٣٢ مادة (وق ر).
(٧) انظر الكشكول للعاملي ١/ ٤٠٩

أبي بكر رضي الله عنه) فهو يكرهه، وقبل البر في المرة الثانية وإن كان مخلوطا بالتراب حبا منه لكلمة (أبي تراب) وهي كنية لعلي رضي الله عنه فهو يحبها ويفهم من هذين البيتين شيئان : -

(أ) أن في هذه القصة تأييداً للقائلين بأن سبب تسميته الرافضة بهذا الاسم هو رفضهم لخلافة الشيخين أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما .

(ب) اعتراف الرافضة بهذا اللقب، واعتباره لقب تشريف، وتكريم لا لقب شتم وتذميم .

يقول الدكتور ناصر القفاري -معللا قبول الرافضة لهذا اللقب- فكأنهم أرادوا تطييب نفوس أتباعهم بتحسين لقب (الرافضة) إلا أن الروايات التي ذكرت سبب هذا اللقب تفيد أنهم لقبوا بهذا الاسم من قبيل الذم لا من قبيل المدح[1] .

ذكر جملة من عقائدهم: بالإضافة إلى أن الرافضة جعلوا نصوص التوحيد في ولاية الأئمة، وهدموا بذلك توحيد الألوهية، واعتقادهم خلق القرآن وتحريفه، ونقصانه، ونفيهم للرؤية ـ تبعا للمعتزلة ـ ويقولون : إن المعاصي واقعة بإرادة إبليس، وأن أفعال العباد مخلوقة لهم ـ بالإضافة إلى ذلك فإن لهم أصولا، ومعتقدات أخرى خالفوا فيها أهل السنة والجماعة، وانفردوا بها، ومن تلك العقائد :

١ـ الإمامة . ٢ـ الوصية . ٣ـ العصمة . ٤ ـ التقية . ٥ـ المهدية أو ((الغيبة)) .

٦ـ الرجعة . ٧ـ القول بالبداء، وغيرها من المخالفات التي تزخر بها كتبهم، وذكرها عنهم المصنفون في الفرق[2] .

المطلب الثالث: تعريف الصوفية:

الصوفية لغة: الصوفية لغة، في معاجم اللغة تطلق كلمة (صوف) على عدة معان منها : الصوف المعروف، وهو شعر الحيوانات ونحوها، والصوفانة : بغلة زغباء قصيرة، كما تستعمل كلمة (صوف) في بعض دلالاتها اللغوية بمعنى الميل، والعدل فيقال : صاف السهم عن الهدف بمعنى مال عنه، كما يقال : صاف الرجل عن الشر إذا عدل عنه .

---

(١) انظر أصول مذهب الشيعة ١/ ١٠٨

(٢) انظر ـ للتوسع : مقالات الإسلاميين١/ ٦٩، الملل والنحل١/ ١٤٧، والفرق بين الفرق ص٤١، والحجج الداحضة للدواني ص٢٣٣، واليمانيات المسلولة ص١٥٥، وأصول مذهب الشيعة٢/ ٧٩١



وقال الفيومي في مصباحه: يقال تصوف الرجل وهو صوفي من قوم صوفية، والصوفية كلمة مولدة[١].

الصوفية اصطلاحا: وأما الصوفية في الاصطلاح: فقد اختلفت عبارات العلماء في تعريف محدد للصوفية، وتفسير حقيقي لاشتقاق كلمة (صوفية) حتى ذكر بعض العلماء أن تلك التعريفات وصلت ألفي تعريف[٢]، والذي يهمنا في هذه الإلمامة السريعة هو الإشارة العجلى إلى بعض هذه التعريفات، ثم التنبيه على التعريف المرضي عند علماء الصوفية، والمختار الذي يصدق بالإطلاق على الصوفية عند أهل السنة والجماعة.

التعريف الأول: قيل إن الصوفية نسبة إلى لبس الصوف[٣]، وهو صحيح من حيث اللغة، ولكن القشيري رحمه الله[٤] اعترض عليه بأن القوم لم يختصوا بلبس الصوف[٥]، ويجاب بأن لبس الصوف هو الغالب على من طلب خشونة العيش، والتقلل من الدنيا، ورام التقشف في الملبس، وترك الناعم من الثياب[٦]. ويلاحظ أن هذا هو الغالب على الصوفية ومن سلك طريقهم؛ ولذلك سأل بعض السلف: أي شيء أراد الصوفية بلباس الصوف؟ فقيل: التواضع. قال: ما يتكبر أحدهم إلا إذا لبس الصوف.

وقال أبو سليمان الداراني[٧] - رحمه الله تعالى - لرجل لبس الصوف: إنك قد أظهرت آلة الزاهدين، فماذا أورثك هذا الصوف؟ فسكت الرجل، فقال له: يكون ظاهرك قطنيا وباطنك صوفيا[٨].

---

(١) انظر لسان العرب ٧/ ٤٤٣ مادة (صوف)، والمصباح المنير ١/ ٣٥٢ مادة (الصوف)، والقاموس المحيط ٣/ ١٦٩ مادة (الصوف).

(٢) صرح بذلك السهروردي، انظر عوارف المعارف ص ٤٤٠، ونقل الطوسي عن إبراهيم بن المولد الصوفي أنه أجاب عن سؤال: (ما هو التصوف؟) بأجوبة بلغت أكثر من مائة جواب. انظر اللمع ص ٤٧، وحقائق عن التصوف لعبد القادر عيسي ص ١٥

(٣) انظر التعرف إلى مذهب التصوف للكلاباذي ص ٢٩، والرسالة القشيرية ص٢٧٩، ومجموع الفتاوى ١١/ ٦، ومقدمة ابن خلدون ص ٤٣٢

(٤) هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري من فقهاء الشافعية، كان شيخ الصوفية في عصره، توفي سنة ٤٦٥هـ انظر تاريخ بغداد ١١/ ٨٣، وتبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ٢٧١، وشذرات الذهب ٣/ ٣١٩

(٥) انظر الرسالة القشيرية ص٢٧٩

(٦) انظر الموفي بمعرفة التصوف والصوفي للأدفوي ص ٤٠

(٧) هو أبو سليمان عبدالرحمن بن عطية الداراني نسبة إلى قرية داران من قرى دمشق، من زهاد الصوفية المتقدمين، كان يقول: ربما تقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياما فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة، توفي سنة ٢١٥هـ. انظر ترجمته في الرسالة القشيرية ص٤١١، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ١٨٢، وشذرات الذهب٢/ ١٣

(٨) انظر تلبيس إبليس ص ١٩٦



الثاني: وقيل إنما هي مشتقة من الصفاء، والمصافاة[١]، قال الشاعر[٢]:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا ... قدما وظنوه مشتقا من الصوف

ولست أمنح هذا الاسم غير فتى ... صافى فصوفي حتى سمي الصوفي

وذلك أنهم لما صفت قلوبهم وصافوا الخلق بترك ما في أيديهم من الدنيا وعدم الخوض معهم في الأغراض والأعراض، صافوهم بمحبتهم وإكرامهم. وهذا الاشتقاق أيضا لاتشهد له اللغة؛ وإن كان يحلو للصوفية أن تكون النسبة إليه[٣].

الثالث: وقيل إن كلمة (صوفية) نسبة إلى (الصُّفَّة)[٤] التي كان يجلس فيها فقراء الصحابة رضي الله عنهم في أخرة المسجد النبوي.

وبيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية: أنه غلط؛ لأنه لو كان كذلك لقيل في النسبة (صُفِّي) وقد لمح أيضا عدم سلامة هذا الاشتقاق أبو القاسم القشيري[٥].

الرابع: وقيل إنما هي نسبة إلى الصف الأول المقدم بين يدي الله، قال القشيري: (فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم فالمعنى صحيح، ولكن اللغة لاتقتضي هذه النسبة إلى الصف)[٦].

وقال شيخ الإسلام: وهذا غلط من حيث الاشتقاق اللغوي أيضا؛ لأن النسبة الصحيحة إلى الصف إنما هي (صَفِّي)[٧].

الخامس: وقيل إنما سموا صوفية نسبة إلى صوفة بن بشر بن أد بن طابخة[٨] قبيلة من العرب جاوروا بمكة في الزمن القديم، وهذا وإن كان يستقيم من ناحية الاشتقاق اللغوي إلا أنه ضعيف من ناحية أنه لو نسب النساك إلى هذه القبيلة لكانت هذه النسبة معروفة في عهد الصحابة رضوان الله عليهم؛ ولأن معظم الصوفية لايعرفون هذه القبيلة ولا يرضون

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص٢٧٩، والموفي بمعرفة التصوف والصوفي ٤٠، والصوفية معتقدا ومسلكا د/ جابر طعيمة ص ٢١

(٢) انظر الموفي ص ٤٠

(٣) انظر اللمع للطوسي ص ٤٧، ودراسات في الفرق ص ٩٨، والتصوف منشأه ومصطلحاته د/ أسعد الحمراني ص ١٩

(٤) انظر عن أخبار الصفة وأحوال أهلها كتاب أهل الصفة وأحوالهم لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٤ وما بعدها.

(٥) انظر مجموع الفتاوى ١١/٦، والرسالة القشيرية ص٢٧٩

(٦) الرسالة القشرية ص٢٧٩

(٧) انظر مجموع الفتاوى ١١/ ٦، والصوفية معتقدا ومسلكا ص ٢١

(٨) بنو صوفة بطن من مضر من العدنانية كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية ويفيضون بالحجاج من مزدلفة إلى منى وقد انقرضوا. انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٢٠٦، ونهاية الأرب في معرفة أحوال العرب للقلقشندي ص ٢٩٤



الانتساب إلى قبيلة جاهلية لاوجود لها في الإسلام[١].

السادس: وقيل هي نسبة إلى الصفوة من خلق الله[٢].

السابع: وقيل إنما هي نسبة إلى (صوفة القفا) وهي الشعيرات النابتة في مؤخر الرأس[٣]. وقيل غير ذلك.

ومن العجيب أن بعض الباحثين ذهب إلى أن لفظ الصوفية يصلح أن يكون مشتقا من الأصول اللغوية لكل هذه الكلمات التي مرت معنا؛ لأن لها من كل كلمة منها معنى يصح انصرافها إليه، وتأخذ منه بطرف![٤].

مع أن أستاذهم القشيري بعد ما ذكر اشتقاق الكلمة قال: (والرجل من الصوفية يقال له: متصوف، والجماعة متصوفة، وليس لهذا الاسم من جهة العربية قياس ولا اشتقاق، ولا ظهر فيه أثر فهو إذا لقب)[٥]، فلو كانت الاشتقاقات السابقة مرادة بمجموعها عند القوم لأومأوا إليها ولو بطريق الرمز والإشارة، وإذا أردنا أن نخرج بتعريف واحد للصوفية أخذا من هذه الاشتقاقات السابقة فإننا لن نظفر بتعريف محدد؛ لأن تعريف هذه الكلمة لاينفصل عن اشتقاقها فالأمران متداخلان[٦] إلا أننا سوف نورد بعض تعريفات للصوفية أنفسهم محاولين تمييز التعريف المرضي عندهم.

قال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله[٧]: (الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر)[٨][٩].

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ١١/ ٦، والموفي ص ٤١، وفرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام لفضيلة الدكتور العواجي ٢/ ٥٨٠

(٢) انظر الصوفية معتقدا ومسلكا ص ٢١، وفرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام ٢/ ٥٨٠

(٣) انظر الصوفية معتقدا ومسلكا ص ٢١

(٤) انظر ما كتبه الدكتور أحمد بناني في كتابه موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ٦٧

(٥) الرسالة القشيرية ص٢٧٩، وانظر مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٢، ومن قضايا التصوف في الكتاب والسنة للدكتور محمد الجلنيد ص ٣٥,

(٦) انظر التصوف منشأه ومصطلحاته ص ٢١

(٧) هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التستري الزاهد العابد، له كلمات نافعة في اتباع السنة والأثر، كانت وفاته سنة ٢٨٣هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء١٣/ ٣٣٠، وطبقات الصوفية للسلمي ص٢٠٦، وشذرات الذهب٢/ ١٨٢

(٨) المدر بفتحتين واحد (المدر) وهو التراب المتلبد وقيل الطين، والعرب تسمي القرية مدرة لأن بنيانها غالبا يكون بالطين. انظر مختار الصحاح ص ٦١٩مادة (م در) والمصباح المنير ٢/ ٥٦٦ مادة (المدر).

(٩) التعرف إلى لمذهب التصوف للكلاباذي ص ٩



وقال أبو القاسم الجنيد رحمه الله[١] : (التصوف ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع)[٢] .

وقال أبو عثمان الحيري رحمه الله[٣] : (التصوف الصحبة مع الله بحسن الأدب ودوام الهيبة ، والمراقبة والصحبة مع رسول الله ﷺ باتباع سنته ، ولزوم ظاهر العلم)[٤] .

فهذه بعض أقوال أهل هذه الطائفة ، ومدارها كلها على أن الصوفية هم الجماعة المتصفة بالصفات المحمودة في الشرع ، والمتخلقة بالأخلاق الممدوحة في الطبع معرضة عن الدنيا ، مقبلة على الأخرى ، سالكة السبيل التي هي أولى بالمرء وأحرى[٥] .

وهذا التعريف للصوفية قد نعتبره صحيحا إذا ما ارتبط بالصوفية في عهدها الأول عند ماكان التصوف مجرد نزعة سلوكية عند بعض المسلمين طلبا للزهد وانقطاعا للعبادة ، أما بعد هذه المرحلة فقد تأثرت الصوفية بمؤثرات فكرية خارجية من اليهودية والمسيحية والمجوسية ، وتحولت من ظاهرة الزهد إلى حركات ، وطقوس ، ورسوم ، وبدع ، ومنكرات محدثة في الدين ما أنزل الله بها من سلطان[٦] ؛ ولهذا قال بعضهم وهو من الصوفية غير الغلاة- : (كان للقوم إشارات ثم سارت حركات ثم لم يبق إلا حسرات)[٧] .

وبالنظر إلى تعريف أهل السنة والجماعة للصوفية نجد أن ابن خلدون راعى في تعريفه للصوفية النسبة إلى الصوف ، حيث يرى أنه لاتوجد طائفة من الطوائف المنتسبة للأمة يغلب على أفرادها لبس الصوف مثل ما يوجد عند الصوفية ، ثم إن لبس هذه الطائفة للصوف كان الغرض منه إظهار الزهد ، والتورع عن لبس فاخر الثياب ، عكس سائر الناس فإنهم قد يلبسونه ، ولكن من غير ملاحظة الغرض الذي تقصده الصوفية ، فلبس الصوف إذا هو العلامة الفارقة التي تميزهم[٨] .

---

(١) هو أبو القاسم الجُنيد بن محمد الخراز البغدادي سيد الطائفة الصوفية وإمامها في عصره ، نشأ بالعراق وأصله من نهاوند ، كانت وفاته سنة ٢٩٧هـ انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ١٠/ ٢٥٥ ، وطبقات الشعراني ١/ ٨٤

(٢) الرسالة القشيرية ص٢٨١ ، وعوارف المعارف للسهروردي ص٤٣ ، والموفي ص٣٧

(٣) هو أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور الحيري بالحاء المهملة من أهل الري ، وأقام بنيسابور ، فنشر التصوف في خراسان ، كانت وفاته سنة ٢٩٨هـ انظر طبقات الصوفية للسلمي/ ١٧٠ ، وحلية الأولياء ١٠/ ٢٤٤ ، وطبقات الشعراني ١/ ٨٦

(٤) الرسالة القشيرية ص٤٠٧ ، والموفي ص٣٥

(٥) انظر الموفي ص ٤٦ ، وعوارف المعارف ص ٤٤ ، والصوفية في نظر الإسلام لسميح الزين ص٢٣

(٦) انظر الصوفية معتقدا ومسلكا ص ٢٠ وفرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام ٢/ ٥٧٨ ، والصوفية في نظر الإسلام ص ٢٥

(٧) هذا القول لأبي بكر الواسطي انظر طبقات الصوفية للسلمي ص ٣٠٢ ، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٤٩

(٨) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٢

ثم يبيّن ابن خلدون في تعريف الصوفية في طورها الأول: أن أصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا، وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة، ومال، وجاه، والانفراد في الخلوة للعبادة[١].

ويقول الأدفوي المصري[٢] رحمه الله في تعريفه للصوفية: أما الصوفية في العرف الخاص فإنها تطلق على من يلبس لباسا مخصوصا، مكونا من ثوب فضفاض تحت العباءة، ويكون الثوب عادة من صوف، وعمامة لطيفة تتدلى منها عذبة[٣] على الجبهة ويحضر مكان الذكر لقراءة الأوراد غير متعاط للحرف الدنية، من الحياكة، والحجامة، وشبهها غير موصوف بالثراء المادي[٤].

وتعرض شيخ الإسلام ابن تيمية لتعريف الصوفية فذكر أولا بعض تعريفات الصوفية أنفسهم، فنقل تعريف التستري المتقدم، ثم أشار شيخ الإسلام إلى المعنى الذي تريد الصوفية أن تصل إليه فقال: (وهم يسيرون بالصوفي إلى معنى الصِّدِّيق)[٥]، ومعلوم أن الصِّدِّيقين هم أفضل الخلق بعد الأنبياء كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾[٦] فبينت الآية أنهم في المرتبة الثانية بعد الأنبياء؛ فلذلك اعترض شيخ الإسلام على هذا التعريف فقال: (لكن هو في الحقيقة نوع من الصديقين فهو رأي الصوفي الصديق الذي اختص بالزهد، والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه فكان الصديق من أهل هذه الطريقة كما يقال: صديقو العلماء وصديقو الأمراء، فهو أخص من الصديق المطلق ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم)[٧].

ولعل الأمر الذي يشرح تعريف شيخ الإسلام للصوفية هو ما قاله في بيان الحكم الوسط عليهم، وهو أمر في غاية العدل، لو علمه الصوفية لما طعنوا فيه وفي منزلته، يقول رحمه

(١) انظر المصدر السابق ص٤٣٣

(٢) هو أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوي كمال الدين نسبة إلى بلدة (أدفو) بصعيد مصر، ولد بهذه البلدة سنة ٦٨٥هـ ونشأ ببلدته ثم تحول إلى القاهرة، وقد وصف بأنه مؤرخ وعالم بالأدب والفقه والفرائض، كانت وفاته سنة ٧٤٨هـ. انظر الدرر الكامنة ١/ ٥٣٦، وشذرات الذهب ٦/ ١٥٣، والبدر الطالع ١/ ١٨٢

(٣) العذبة " الطرف. انظر المصباح المنير ١/ ٣٩٨ مادة (عذب)

(٤) انظر الموفي ص ٤٦

(٥) مجموع الفتاوى ١١/ ١٦

(٦) سورة النساء الآية ٦٩

(٧) مجموع الفتاوى ١١/ ١٧



الله: (والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد ويخطئ وفيهم من يذنب فيتوب أو لايتوب، ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه، وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع، والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج[1] مثلا؛ فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق المستقيم مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره... فهذا أصل التصوف)[2].

وعرف أحمد أمين المصري[3] رحمه الله الصوفية في زمنه فقال: (التصوف كان في الأصل معناه لبس الصوف زهادة في الدنيا، ثم صار في أغلب الأحيان إلا في القليل النادر صناعة لكسب العيش وتتطلب هذه الصناعة عمامة خضراء وسبحة غليظة والتظاهر بذكر الله، ودعوى مخاطبة الأولياء والاتصال بهم عن طريق الروح)[4].

ويستخلص صاحب كتاب الصوفية في نظر الإسلام تعريفا للصوفية بعد نقله لجملة من التعريفات -قائلا: (يمكن القول بكل بساطة وصراحة أن التصوف -برأينا- يقوم على ناحيتين: الناحية الفكرية التي تهدف إلى الاتصال بالله بأية طريقة من الطرق التي ابتدعها الإنسان ووسوس له بها الشيطان. والناحية العملية التي تقوم على المجاهدات، والرياضات -حسب تعبير الصوفية- وما تنطوي عليه من أساليب ووسائل متنوعة يتهافت الصوفية على استعمالها حتى يصل بهم الحد إلى نوع من نوبات الصرع أو الغشيان الذي يسمونه الفناء، بينما هو في الحقيقة إرهاق للجسم وتلف للأعصاب، حتى لايعود يقوى معها أحدهم على المتابعة فيخر مغشيا عليه، وهاتان الناحيتان: الفكرية والعملية ينكرهما الإسلام جملة وتفصيلا)[5].

---

(١) هو أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج البيضاوي الفارسي إمام الزنادقة الاتحادية كان جده مجوسيا واسمه (محمي) ولد سنة ٢٤٤هـ قال عنه السلمي: والمشايخ في أمره مختلفون رده أكثر المشايخ ونفوه وأبوا أن يكون له قدم في التصوف، قتل مصلوبا ببغداد سنة ٣٠٩هـ. انظر طبقات الصوفية للسلمي ص ٣٠٧، وطبقات الشعراني ١/ ١٢٦، والحلاج للدكتور جلال شرف ص ٣٠ وما بعدها. (٢) مجموع الفتاوى ١١/ ١٨

(٢) هو أحمد أمين بن الشيخ إبراهيم الطباخ عالم بالأدب، والتاريخ من كبار الكتاب، ولد بالقاهرة سنة ١٢٩٥هـ، قرأ مدة قصيرة بالأزهر وتخرج من مدرسة القضاء الشرعي وتولى القضاء ببعض المحاكم الشرعية، له عدة مؤلفات ومقالات بالصحف، توفي بالقاهرة سنة ١٣٧٣هـ. انظر ترجمته في الأعلام للزركلي ١/ ١٠١، ومعجم المؤلفين لكحالة ١/ ١٠٦

(٣) قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية لأحمد أمين ص ١٢٠

(٤) الصوفية في نظر الإسلام دراسة وتحليل لسميح عاطف الزين ص ٢٨



ويبدو من هذه التعريفات أن علماء أهل السنة نظر كل واحد منهم في تعريفه للصوفية إلى الصوفية في زمنه، فتعريف شيخ الإسلام ابن تيمية ينطبق على الصوفية الأوائل الذين كان فيهم السابق بالخيرات، والمقتصد، والظالم لنفسه من المنتسبين إليهم، والأدفوي نظر إلى الصوفية في عصره، وأحمد أمين عرف الصوفية بالنظر إلى معايشته للمتصوفة في العصر الحديث . . . . وهلم جرا.

ويؤيد صدق ما ذهبت إليه قول المقرزي في نهاية كلامه على الصوفية في عصره: (ثم تلاشى الآن حال الصوفية، ومشايخها حتى صاروا من سقط المتاع لاينسبون إلى علم، ولا ديانة، وإلى الله المشتكى)[١]

---

(١) خطط المقريزي ٢/ ٤١٤

المبحث الخامس

المراد بالأثر لغة واصطلاحا

الأثر في اللغة: قال ابن فارس: الهمزة، والثاء، والراء لهذه الأحرف ثلاثة أصول:- تقديم الشيء، وذكر الشيء، ورسم الشيء الباقي[١].

وقال الأزهري: الأُثر: بضم الهمزة من الجرح وغيره في الجسد يبرأ ويبقى أثره. وقال شمر: يقال في هذا أثْر، وأُثْر، والجمع آثار، ويقال: أثرت في الأمر تأثيرا جعلت فيه أثرا: أي علامة، والآثار الأعلام. ويقال فيه أثر السيف وآثاره، قال الشاعر[٢]:-

أداعيك ما مستصحبات على السُّرى حسانٌ وما آثارها بحسان

وذو الآثار: لقب لشاعر جاهلي؛ لأنه كان إذا هجا قوما ترك فيهم آثارا[٣].

وقال الراغب الأصفهاني: (أثر الشيء حصول ما يدل على وجوده، يقال أثر، وأثَّر، والجمع الآثار. قال الله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾[٤] ومن هذا يقال للطريق المستدل به على من تقدم آثار)[٥].

والمراد بالأثر في الاصطلاح: قال الجرجاني: الأثر اسم جنس، وله عدة معان، منها أنه يطلق على النتيجة أو الأمر الحاصل من الشيء، والآثار: هي اللوازم المعللة بالشيء[٦].

وقال التهانوي: الأثر يأتي لعدة معان، ومنها: ما يترتب على الشيء وهو المسمى بالحكم عند الفقهاء[٧]. وقد يطلق الأثر على الأمر الحاصل عن غيره، وهو بهذا مرادف للمعلول، أو المسبب عن الشيء[٨].

وقال الحافظ ابن حجر -مبينا أن الأثر هو الأمر المترتب على ما قبله-: والتحقيق أن التكاليف خاصة بالدنيا، وأما ما يقع في القبر، والموقف فهي آثار تلك التكاليف[٩].

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة ١/ ٨٨ مادة (أثر)

(٢) انظر أساس البلاغة للزمخشري ص ٢ مادة (أثر) ومجمل اللغة لابن فارس ١/ ٨٦ مادة (أثر).

(٣) انظر تهذيب اللغة ١/ ١٢٠، مادة (أثر) ولسان العرب ٤/ ٥ مادة (أثر) والمصباح المنير ١/ ٤ مادة (أثر) والقاموس المحيط ١/ ٣٧٥ مادة (أثر).

(٤) سورة الروم الآية ٥٠

(٥) المفردات ص ٩ مادة (أثر)

(٦) انظر التعريفات ص ٩، والكليات للكفوي ١/ ٤٠

(٧) انظر كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٩٥

(٨) انظر المعجم الفلسفي للدكتور جميل صليبا ١/ ٣٧

(٩) انظر فتح الباري ١١/ ٤٥١

وقال العلامة الشوكاني في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾[1] أي ما قدموه من حسنات لاينقطع نفعها بعد الموت، كمن سن سنة حسنة، أو نحو ذلك، أو ما تركوه من سيئات تبقى بعد موت فاعلها، كمن سن سنة سيئة أو نحو ذلك[2].

فالتأثير بقاء الأثر في الشيء كالصورة المطبوعة من جانب المؤثر في المتأثر[3]

والأثر: ما يحدثه الفعل في الشيء، أو القول في النفس كالذي يحدثه الرجل بقدمه في الأرض، أو الشاعر بشعره في النفس[4].

فالأثر: اسم جنس وهو جملة من الأمور التي تنتج عن الشيء المسبب لها وهو المعنى المعتبر في العنو[5].

فالمراد بأثر الواسطة: هو الأمور التي تترتب على الاعتقاد الصحيح بمفهوم الواسطة من تجريد توحيد الله سبحانه وتعالى وإخلاص العبادة له وحده، وما يترتب على الاعتقاد بمفهوم الواسطة البدعية من الوقوع في التشبيه والشرك، ثم عبادة الوسائط من دون الله تعالى، فيبقى الأثر في معتقد أهل السنة والجماعة نورا ناصعا، ويقينا صادقا، ويبقى في عقائد أهل الأهواء شركا مهلكا، وظلاما دامسا.

---

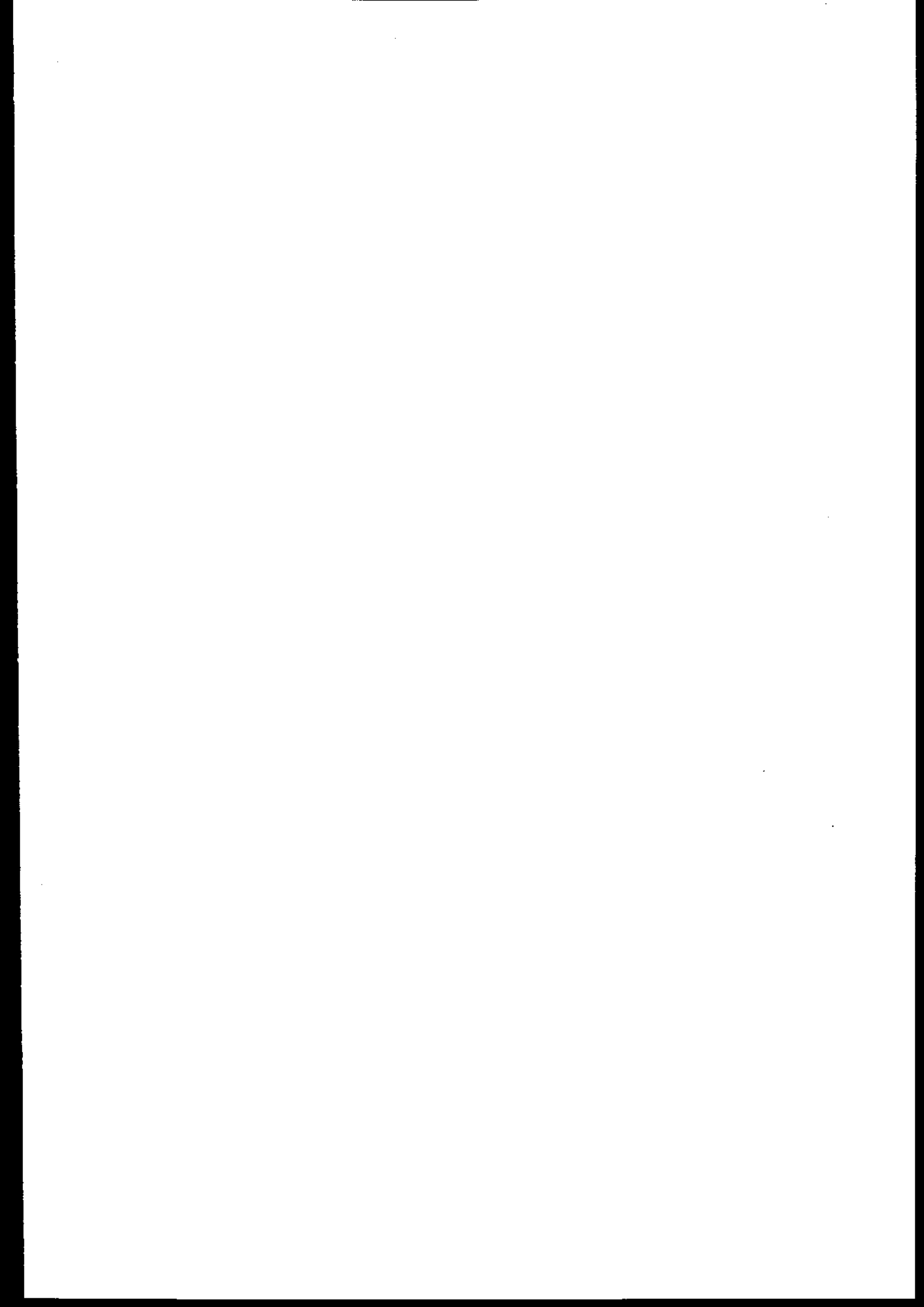
(١) سورة يس الآية ١٢

(٢) انظر تفسير الشوكاني ٤/ ٣٦٢

(٣) انظر الصحاح في اللغة والعلوم تجديد صحاح العلامة الجوهري تصنيف نديم مرعشلي وآخر ١/ ٧ مادة (أثر).

(٤) انظر المعجم الكبير وضعه مجمع اللغة العربية ١/ ٨٨، مادة (أثر)

(٥) انظر أثـر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة للدكتور عبد الله الجربوع رسالة ماجستير.



الباب الأول

الواسطة بين الله وخلقه عند أهل السنة والجماعة

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مفهوم الواسطة عند أهل السنة والجماعة وبيان أهمية فهم الواسطي على ضوء الكتاب والسنة. ويحتوي على أربع مباحث.

الفصل الثاني: صورة الواسطة في التبليغ.

الفصل الثالث: صورة الواسطة في العبادة.



المبحث الأول

حاجة الناس إلى بعثة الرسل "الواسطة".

تنبع حاجة الإنسان إلى بعثة الرسل من طبيعته البشرية التي فطر عليها؛ لأن هذا الإنسان من أعظم المخلوقات شأنا، فقد رزقه الله قوة عقلية ميزته عن سائر المخلوقات الأرضية، ومكنته من تسخير الحيوان، وتشكيل الجماد في معظم الأحيان حيث يشاء، إلا أن قدرات هذا الإنسان محدودة النطاق وتوجيهها نحو الاتجاه السليم الذي يرضاه رب السموات والأرض والآفاق، لايتأتى إلا بتوجيه من الرسل الذين يبعثهم الله واسطة بينه وبين هذا الإنسان؛ لينقذوه من وحل الوثنيات التي سقط فيها كثير من الأمم قبل بزوغ شمس الرسالة الإلهية، وليأخذوا بيده إلى الصراط المستقيم ويعرفوه كيف يعبد خالقه العبادة الصحيحة فتصبح لقدراته التي وهبه الله تعالى مع توجيه الرسل نتائجها السليمة (لما أراده الله من كرامة العاقل، وتشريف أفعاله، واستقامة أحواله، وانتظام مصالحه، حين هيأه للحكمة، وطبعه على المعرفة؛ ليجعله حكيما، وبالعواقب عليما؛ لأن الناس بنظرهم لا يدركون مصالحهم بأنفسهم، ولا يشعرون لعواقب أمرورهم بغزائرهم، ولا ينزجرون مع اختلاف أهوائهم دون أن يرد عليهم آداب المرسلين، وأخبار القرون الماضين فتكون آداب الله فيهم مستعملة، وحدوده فيهم متبعة، وأوامره فيهم ممتثلة، ووعده ووعيده فيهم زاجرا، وقصص من غبر من الأمم واعظا، فإن الأخبار العجيبة إذا طرقت الأسماع والمعاني الغريبة إذا أيقظت الأذهان استمدتها العقول، فزاد علمها، وصح فهمها، وأكثر الناس سماعا أكثرهم خواطر، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكرا، وأكثرهم تفكرا أكثرهم علما، وأكثرهم علما أكثرهم عملا، فلم يوجد عن بعثة الرسل معدل ولا منهم في انتظام الحق بدل)[1].

ومن هنا يظهر بجلاء حاجة الناس إلى بعثة الرسل وإقامة الوسائط وتتلخص تلك الحاجة في الأوجه الآتية[2]: -

---

(١) أعلام النبوة للماوردي ص ٣٣

(٢) انظر -للتوسع في هذا الموضوع- المراجع التالية: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٩/ ٩٣، وزاد المعاد لابن القيم ١/ ٦٩، وطريق الهجرتين له أيضا ص ١٧٠، ومجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ٥/ ٢٩٩، والإرشاد إلى صحيح الاعتقاد للفوزان ص ١٥٣، والوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا ص ٤٨، والعقيدة الإسلامية وأسسها للميداني ص ٣٠٢، وفلسفة النبوة لآدم الألوري ص١٣٧، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن لحسن عتر ص ٢٩



أولا: تحقيق عبادة الله تعالى وحده وإخلاص العمل له: لما كان الغرض من خلق الإنس والجان وتسخير جنس الحيوان، وإبداع السموات والأرض والأكوان هو عبادة الله تعالى وحده ومعرفته بأسمائه وصفاته كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[١]، والحذر من الوقوع في الشرك وتلبس البدع كما قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[٢]، ولما كان العقل البشري قاصرا في ماهيته وحقيقته؛ إذ لايتمكن بدون الواسطة من عبادة الله تعالى على الوجه الذي يحبه ويرضاه، لما كان الأمر كذلك فإن هذا الغرض النبيل وهذه الغاية السامية لا تتم ولا تحصل إلا بإرسال وسائط من الله تعالى إلى خلقه؛ فكان من حكمة الله ورحمته أن أنزل كتبا، وأرسل رسلا مبشرين ومنذرين، واتفقت كلمتهم أجمعين على أمر أممهم بعبادة الله تعالى وحده، والكفر بعبادة ما سواه من مظاهر الكون التي وقع فيها الإنسان حينما غابت عنه شمس الرسالة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[٣]، وقد حققت الرسالة المحمدية -وهي خاتمة الرسالات السماوية- هذه الغاية السامية حينما دعت إلى تحرير الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى سعة الإسلام ورحمته.

ثانيا: إقامة الحجة على الخلائق: فالله سبحانه وتعالى حكيم يضع الأمور في مواضعها، عليم بأحوال عباده، فلو لم يبعث الواسطة من الرسل، وينزل الشرائع في الكتب توضح المحجة، والصراط المستقيم، وتقيم الحجة، وتقطع الشبهة لحسبت الأمم أن لها بين يدي حساب الله حجة سائغة ومعذرة مقبولة. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[٤] لقد قطع الله هذه الشبهة من أساسها بإرسال الرسل وبعثة الأنبياء من أولهم آدم إلى خاتمهم محمد عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[٥]؛ لذلك قضى الله -وهو أحكم الحاكمين- أن لايعذب أمة لم تشرق عليها شمس الرسالة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[٦]، فمن حكمة الله تعالى ورحمته وعدالته أن لا يعذب أحدا من خلقه إلا بعد الإعذار إليه، وإرسال الرسل إليه، وقيام الحجة

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦
(٢) سورة النساء الآية ٣٦
(٣) سورة النحل الآية ٣٦
(٤) سورة طه الآية ١٣٤
(٥) سورة النساء الآية ١٦٥
(٦) سورة الإسراء الآية ١٥



عليه[١].

ثالثا: تعريف الناس بالعالم الغيبي وما أعده الله للمؤمنين به من جنانه، وللكافرين به من نيـــرانه: تظل العقول والأفهام في درك القصور عن استطلاع ما وراء هذا الكون المادي المحسوس من عالم الغيب حتى تأتيها رسالة الله، تدعوها للإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وترسيخ عقيدة القضاء والقدر، والإيمان بحقيقة الجنة والنار، والوقوف بين يدي العزيز الجبار لتناقش على ما اكتسبت من خير أو شر في دار العمل، لتجزى على عمل الخير بالخير، والشر بالشر، دار الجزاء والمحاسبة[٢].

وقد مدح الله سبحانه وتعالى أتباع الرسل الذين يصدقون رسلهم فيما يخبرونهم به من أنباء الغيب، قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[٣].

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية: أن من حكمة الله في إرسال الرسل أن رسولنا وواسطتنا محمداً صلى الله عليه وسلم عرفنا أسماء الله تعالى، وصفاته، وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلى، تارة بما يوضحه من ضرب الأمثال التي هي مقاييس عقلية، وتارة بما يخبرنا به من الأنباء الصادقة النبوية، وتارة بما يقصه علينا من قصص الأنبياء الذين هم خير البرية، وبه عرفنا الملائكة، والنبيين، والجنة، والنار، وأخبار الماضين، وأحداث الدنيا وملاحمها، وفتنها، وأشراط الساعة، وعلاماتها، وأخبار القيامة وتفاصيلها إلى غير ذلك من الأمور الغيبية[٤]. (فمن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل، فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين، وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشرين، ولمن خالفهم منذرين، وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ إذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالة كلها من أولها إلى آخرها[٥]).

رابعا: القدوة الصالحة والأسوة الحسنة. لقد اصطفى الله تعالى رسله عليهم السلام من بين أممهم، قال تعالى: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾[٦]

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣١

(٢) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٣٦٢

(٣) سورة البقرة الآيات (٢-٥).

(٤) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ٢٣٩

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٦٩.

(٦) سورة الحج الآية ٧٥



وأدبهم تأديبا رائعا فسموا إلى ذرا الأخلاق، وترفعوا عن الأطماع الدنيئة، والشهوات المحرمة الرديئة، وتحلوا بأفضل الكمالات الخلقية بأعلى مستوياتها رغم بشريتهم، فكانوا بذلك قدوة حسنة للناس، يقتدون بهم، ويحذون حذوهم، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[١].

ولا شك أن نبينا محمداً ﷺ د ضرب الله به أروع المثل للقدوة الحسنة بما آتاه من الأخلاق الحميدة، والصفات الكريمة[٢] حتى وصفه الله في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٣].

وقد شاء الله أن تكون الواسطة إلى البشر من البشر؛ لتناسب طبيعة الرسول طبيعة المرسل إليهم حتى تكون الواسطة مثالا واقعيا للقدوة الصالحة التي يستطيعون مجالستها، ومعاينتها، والاقتداء بها، قال تعالى في حق نبينا محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[٤] وعمل الرسول القدوة في قومه يشبه عمل الطبيب المعالج لمرضاه (فثبوت حجة الله على عباده ببعثة الرسل إنما هو بأن أكثر الناس خلقوا بحيث لا يمكن لهم تلقي مالهم وما عليهم بلا واسطة، بل استعدادهم إما ضعيف يتقوى بأخبار الرسل، أو هنالك مفاسد لا تندفع إلا بالقسر على رغم أنفهم، وكانوا بحيث يؤاخذون في الدنيا والآخرة، فأوجب لطف الله عند اجتماع بعض الأسباب العلوية، والسفلية أن يوحي إلى أزكى قوم أن يهديهم إلى الحق، ويدعوهم إلى الصراط المستقيم، فمثله في ذلك كمثل سيد مرض عبيده، فأمر بعض خواصه أن يكلفهم شرب دواء شاؤا أم أبوا، فلو أنه أكرههم على ذلك كان حقا، ولكن تمام اللطف يقتضي أن يعلمهم أولا أنهم مرضى، وأن الدواء نافع، وأن يعمل أمورا خارقة تطمئن نفوسهم بها على أنه صادق فيما قال، وأن يشوب الدواء بحلو، فحينئذ يفعلون ما يؤمرون به على بصيرة منه، وبرغبة فيه)[٥].

خامسا: جمع الأمة على دين واحد ورجل واحد. لأن انقياد النس لما يشاهدونه من الآيات المؤيدة للأنبياء أسرع وأقوى وأشد تماسكا؛ فإنهم يجتمعون عليه بقناعة من أنفسهم وعقيدة

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩٠

(٢) وقد تحدث الشيخ ابن سعدي رحمه الله في هذا الموضوع حديثا رائعا. انظر التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ص ٢٧ وما بعدها.

(٣) سورة القلم الآية ٤

(٤) سورة الأحزاب الآية ٢١

(٥) حجة الله البالغة ١/ ٢٤٩ وما بعدها، وانظر الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٥٠٧

راسخة وإيمان ثابت فيحصل بذلك الصلاح والإصلاح، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

سادسا: توجيه الناس وإرشادهم لما فيه الخير والصلاح لهم في دينهم ودنياهم. لأن البشر مهما أوتوا من الفهم، والعقل، والذكاء لا يتأتى لعقولهم أن تستقل بالتنظيم العام المصلح للأمة بأكملها كأمة متماسكة، متكافئة، وإنما الشريعة الإلهية بما اشتملت عليه من معاملات، وأخلاق، وعقوبات تستطيع أن تبين للناس الحق من الباطل، والخير من الشر؛ لأن هذا هو المنهج الرباني الذي وضعه خالق البشر العليم بمصالحهم، وتطبيق رسالة الله يهيء النفس الإنسانية أن تصفو من الكدر وفساد الأعمال، وأن تتوفر لها أسباب بناء المجتمع الأخوي القوي السليم، وتطمئن إلى صلاح أمورها الدينية والدنيوية.

فالرسالة الإلهية روح العالم ونوره وقوام حياته، وأي خير للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (الرسالة ضرورية للعباد، ولا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟، والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة وينالة من حياتها وروحها فهو في ظلمة وهو من الأموات، قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾(٢).

فهذا وصف المؤمن كان ميتا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان وجعل له نورا يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في ظلمات الكفر)(٣).

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية أن الإنسان في حاجة إلى الرسالة السماوية ليس فقط لإصلاح آخرته والتزود لها فحسب، وإنما هو محتاج لها أيضا لإصلاح معاشه، وجميع شؤونه في دنياه، وأن تمييز الإنسان بين النافع والضار بعقله لا يكفي لتسيير شؤونه في حياته كلها، فإن هذا القدر من التمييز تشترك فيه معه العجماوات.

يقول شيخ الإسلام: (الرسالة ضرورية في صلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح في آخرته إلا باتباع الرسالة فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة،

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨ (٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢

(٣) مجموع الفتاوى ١٩/ ٩١ وما بعدها، وانظر النبوات له أيضا ص ١٩١



فالإنسان مضطر إلى الشرع، فإنه بين حركتين: حركة يجلب بها ما ينفعه، وحركة يدفع بها ما يضره، والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره، فهو نور الله في أرضه، وعدله بين عباده وحصنه الذي من دخله كان آمنا، وليس المراد بالشرع التمييز بين النافع والضار بالحس، فإن ذلك يحصل للحيوانات العجم، فإن الحمار والجمل يفرق ويميز بين الشعير والتراب، بل التمييز بين الأفعال التي تضر فاعلها في معاشه ومعاده، والأفعال التي تنفعه في معاشه ومعاده، كنفع الإيمان، والتوحيد، والعدل، والبر، والصدق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر . . . وإخلاص العمل، والتوكل على الله، والاستعانة به، والرضا بمواقع أقداره، والتسليم لحكمه، وتصديق رسله في كل ما أخبروا به، وغير ذلك مما هو نفع، وصلاح للعبد في دنياه وآخرته، وفي ضد ذلك شقاوته ومضرته في دنياه وآخرته، ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل المنافع والمضار في المعاش والمعاد.

فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف منته عليهم أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبين لهم الصراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام وأشر حالا منها، فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو خير البرية، ومن ردها وخرج عنها فهو شر البرية، وأسوأ حالا من الكلب والخنزير وأحقر من كل حقير)[١].

وقال أيضا مبينا أنه لا سبيل إلى معرفة تفاصيل ذلك -أي شؤون معاشه ومعاده- إلا من جهة الرسل: فإن العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة، كالمريض الذي يدرك الحاجة إلى الطب، ومن يداويه ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض وتنزيل الدواء عليه، وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطبيب، فإن آخر ما يعذب بعدم الطبيب موت الأبدان، وأما ما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتا لا ترجى الحياة معه أبدا، وشقي شقاوة لا سعادة معها أبدا[٢].

وأكد العلامة ابن القيم هذا المعنى فعقد مقارنة بين فيها أن حاجة الناس إلى الشريعة أعظم من حاجتهم إلى علم الطب مع أن الناس في حاجة ماسة إلى الطب لإصلاح أبدانهم، فحاجتهم إلى الرسالة أعظم من حاجتهم إلى غيرها من المعارف والفنون[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٩/ ٩٤، وانظر النبوات ص ٢٤٢، ولوامع الأنوار ٢/ ٢٦١

(٢) انظر مجموع الفتاوى ١٩/ ٩٣، والنبوات ص ١٩١

(٣) انظر مفتاح دار السعادة ٢/ ٢



فالرسالة الإلهية بعقيدتها وشريعتها باب يدخل منه الإنسان إلى الحياة الطيبة الكريمة ورغد العيش والراحة النفسية وضمان سلوك الصراط السوي الذي يضمن لسالكيه نعيم الجنة ورضوان الله، وحاجة الخلق إلى هذه الرسالة ضرورية لا ينتظم لهم حال، ولا يصلح لهم دين، ولا بال إلا بذلك، فهم أشد احتياجا إلى بعثة هذه الواسطة من حاجتهم إلى نزول الأمطار ونماء الزروع والأشجار، وتفجر الأرض بالعيون والأنهار، بل ومن الهواء الذي لا بقاء للعالم إلا به، بل ومن النَّفَسِ الذي به تتردد روح الإنسان في جسمه، وبفقده يفقد الإنسان حياته.

يقول العلامة ابن القيم: (ومن هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة، والفلاح، لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله ألبتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال، والأقوال، والأخلاق ليس إلا هديهم، وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم، وأعمالهم، وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق، والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه، وما جاء به طرفة عين فسد قلبك، وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في المِقْلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحسّ بهذا إلا قلب حي **(ما لجرح بميت إيلام** [1])[2].

وقد جمع الله تلك الحكم والأغراض في بعثة خاتمة الوسائط نبينا محمد ﷺ بحكم أن رسالته خاتمة الرسالات السماوية، وكتابه العزيز حوى ما جاءت به الكتب السابقة فبعثه وسط تيه الجاهلية المتوغل في الوثنية، والعالم بحاجة ماسة إلى من يخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وإلى كتاب من ربهم يقرأه عليهم رسولهم وواسطتهم؛ ليزيل عنهم أوهام تلك العقول البدائية ويهدم تلك الخرفات الوثنية الجاهلية، ويهيل التراب على تلك التصورات الخاطئة لعبادة الله، فيوصل المؤمنين بخالقهم، فيعبدوه وحده حق عبادته

---

(١) هذا تضمين لعجز بيت للمتنبي، وصدره «**من يهن يسهل الهوان عليه**» انظر ديوان المتنبي بشرح البرقوقي ٤/ ٢١٧

(٢) زاد المعاد ١/ ٦٩

مستسلمين لربهم في بواطنهم وظواهرهم. وتمت نعمة ربك ببعثة هذا النبي الخاتم صلوات الله وسلامه عليه في هذا الوسط الجاهلي، وبين تلك الملل والنحل المتناقضة، (بعثه الله رحمة للعالمين ومحجة للسالكين، وحجة على الخلائق أجمعين، وافترض على العباد طاعته ومحبته وتوقيره وتعزيره، وسد إليه جميع الطرق، فلم يفتح لأحد إلا من طريقه . . . أرسله بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، فختم به الرسالة، وهدى به من الضلالة وعلم به من الجهالة، وفتح برسالته أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا)[١]، فأقام الحجة، وأوضح المحجة، وأيقظ العقول من سباتها العميق، وأزال الغشاوة بالأسلوب الذي يليق فآمنوا بالرسالة الخاتمة، ودانوا للشرع الجديد، فأظلت رسالته هذا الوسط وانتشر نور الإسلام يبدد ظلام الآفاق مشرقا ومغربا، وتستنير الأمم بنوره في كل نطاق مأتيا ومذهبا، وأضاءت الرسالة المكان والزمان، فصور الشاعر هذا المعنى بقوله[٢]:

ولد الهدى فالكائنات ضياء … وفم الزمان تبسم وثناء

وها نحن نرفل في سعادة، وأمن، وإيمان ببركة بعثته ﷺ فجزاه الله عنا أفضل ما جزى أحدا من النبيين، والمرسلين من قبله، والحمد لله رب العالمين.

ولعل من المناسب -في ختام هذا المبحث- أن أشير إلى أن من زعم من الناس أنه يسعه الاستغناء عن الرسل ورسالاتهم بالعقول التي وهبهم الله تعالى فتجدهم يسنون القوانين الوضعية فيحلون بها ويحرمون مطالبين باطراح الشريعة، ومستندهم في كل ذلك تحسين العقل وتقبيحه، من زعم ذلك فقد بان كذبه، والتاريخ يشهد بذلك (فالبراهمة وهم طائفة من المجوس زعموا أن إرسال الرسل عبث لا يليق بالحكيم لإغناء العقل عن الرسل؛ لأن ما جاء به الرسل إن كان موافقا للعقل حسنا عنده فهو يفعله، وإن لم يأت به، وإن كان مخالفا له قبيحا، فإن احتاج إليه فعله وإلا تركه)[٣].

وقد جرتهم عقولهم هذه التي زعموا أنها تغني عن الواسطة من الرسل ورسالاتهم جرتهم إلى درجة أن أتباعهم في القرن العشرين عبدوا البقر[٤]، يقول

(١) مجموع الفتاوى ١٩/ ٩٦ وانظر لوامع الأنوار ٢/ ٢٦٢

(٢) هذا البيت للشاعر أحمد شوقي. انظر ديوانه الشوقيات ١/ ٣٤٢

(٣) أعلام النبوة للماوردي ص ٣٤ وانظر لوامع الأنوار ٢/ ٢٥٦

(٤) في تلاعب الشيطان بعبادة الحيوانات: انظر إغاثة اللهفان ٢/ ٥٩٦، والعقيدة الإسلامية وأسسها للميداني ص ٣٠٢



أحـــدهـم[1] : (عند ما أرى البقرة لا أجدني أرى حيوانا؛ لأني أعبد البقرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع)[2] .

---

(١) هو زعيم الهند غاندي : انظر أقواله في كتاب مقارنة الأديان للدكتور أحمد شلبي ص ٣٦ وما بعدها، والرسل والرسالات للأشقر ص ٣٧

(٢) مقارنة الأديان ص٣٦



المبحث الثاني
الواسطة بين الله ورسله

التمهيد: تعريف الملائكة لغة، وشرعا، وبيان أصنافهم، ووظائفهم

الملائكة في اللغة: جمع ملك، وأصله (مألك)، وقيل (ملأك) على وزن مفعل، فنقلت حركة الهمزة إلى اللام، وأسقطت، فوزن (ملك): فعل، وقيل: إنه مأخوذ من (لأك) إذا أرسل (فملأك) مفعل، ثم نقلت الحركة، وسقطت الهمزة فوزن (ملك) مفل، وقيل غير ذلك[١].

والهاء في (الملائكة) مزيدة لتأنيث الجمع أو للمبالغة[٢]. وقيل: مقلوب (مألك) من الألوكة، وهي الرسالة، قال الشاعر[٣]: -

فلست لإنسي ولكن لِمَلأكٍ　　　تنزل من جو السماء يصوب

وسموا بذلك؛ لأنهم الواسطة بين الله تعالى وخلقه[٣].

وقال بعض المحققين: الْمُلْك من الْمَلْك، والمتولي من الملائكة شيئا من السياسات يقال له: ملَك ومن البشر مَلِك[٤].

الملائكة شرعا: وأما في الشرع: فهم أجسام علوية قائمة بأنفسها، قادرة على التشكل بالقدرة الإلهية، ذوو قدرات خارقة لا حصر لهم، لا يأكلون، ولا يشربون ولا ينكحون، مقربون طائعون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وليس لهم من خصائص الربوبية، والألوهية شيء[٦].

عددهم: الملائكة الكرام من مخلوقات الله تعالى العظام التي لا يحصى عددها ولا يحيط بأوصافها إلا خالقها عز وجل، حيث قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾[٧]

---

(١) انظر المصباح المنير ١/ ١٨ مادة (ألك) والقاموس المحيط ٣/ ٣٢٧ مادة (لأك)، ورسالة الملائكة لأبي العلاء المعري ص٥

(٢) انظر فتح الباري ٦/ ٣٠٧

(٣) انظر لسان العرب ١٠/ ٤٩٦

(٤) انظر الملل والنحل ١/ ٤٢، والكليات للكفوي ٤/ ٢٧١

(٥) انظر التعريفات ص ٢٩٦، وبصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٤/ ٥٢٤، والكليات للكفوي ٤/ ٢٧١

(٦) انظر العقائد النسفية ص ١٧٢، ومجموع الفتاوى ٤/ ٣٥٣، وفتح الباري ١/ ٢١، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٣٠٠، ولوامع الأنوار ١/ ٤٤، ومعارج القبول للحكمي ٢/ ٧٧، ومجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ٥/ ١١٦، والعقيدة الإسلامية وأسسها للميداني ص ٢٧٩، وعالم الملائكة الأبرار للأشقر ص ٩، ومعجم ألفاظ العقيدة ص ٣٨٦، وعالم الملائكة أسراره وخفاياه لمصطفى عاشور ص ١٠

(٧) سورة المدثر الآية ٣١

وورد في الأثر عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: (ليس شيء أكثر من الملائكة)[١].

أسماؤهم: الذي وردنا من أسماء الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وأما ملك الموت فلم يثبت في القرآن، ولا في السنة الصحيحة تسميته، وقد جاء في بعض الآثار تسميته بعزرائيل[٢]، وهاروت، وماروت[٣]، ومنكر، ونكير، ورضوان، ومالك عليهم السلام.

أصنافهم ووظائفهم: قد جاء في النصوص الشرعية أن الملائكة أصناف كما ثبت أن لكل منهم وظائف وأعمالا، فوظيفة الملائكة الأولى التي تقوم بها في الجملة: تسبيح الله تعالى، والتعبد له ليلا ونهارا من غير ملل، ولا فتور، وهناك أعمال، ووظائف وكل الله بالقيام بها أنواعا مخصوصة من الملائكة:

فمنهم جبريل عليه السلام الأمين على وحي الله يرسله به إلى الأنبياء والرسل كما وكله بالهلكات إذا أراد الله أن يهلك قوما، ووكله بالنصر عند القتال[٤].

ومنهم ميكائيل (ميكال) عليه السلام الموكل بالمطر ونبات الأرض، وأرزاق العباد[٥].

ومنهم إسرافيل عليه السلام الموكل بالنفخ في الصور.

ومنهم ملك الموت الموكل بقبض الأرواح، وله أعوان من الملائكة[٦].

ومنهم الملائكة الموكلون بنفخ الأرواح في الأجنة وكتابة أعمالها المستقبلة وآجالها وأرزاقها وسعادتها أو شقاوتها[٧].

ومنهم الملائكة الموكلون بحفظ بني آدم بأمر الله وآخرون يحصون أعمالهم ويكتبونها[٨].

ومنهم الملكان الموكلان بسؤال الميت إذا وضع في قبره.

---

(١) انظر الحبائك في أخبار الملائك ص ١١

(٢) انظر البداية والنهاية ١/ ٥٠، والحبائك في أخبار الملائك ص ٣٧، وعالم الملائكة الأبرار للأشقر ص١٨

(٣) هذان الملكان أرسلهما الله فتنة لأهل بابل، وذكر ابن كثير أن ما قيل في قصتهما مع المرأة التي علماها اسم الله الأعظم هو من قبيل الإسرائيليات. انظر البداية والنهاية ١/ ٤٨، وتفسير آيات القرآن عن علاقة الملائكة بالإنسان ص ١٤

(٤) انظر الحبائك ص ١٧

(٥) انظر البداية والنهاية ١/ ٥٠، والحبائك ص ١٧، ومجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ٥/ ١١٧

(٦) انظر الحبائك ص ٤٢، والعقيدة الإسلامية وأسسها ص ٢٧٥

(٧) انظر فتح الباري ٦/ ٣٠٣، والحبائك ص ١٢١

(٨) انظر تفسير ابن كثير ٧/ ٣٧٦، ولوامع الأنوار ١/ ٤٥٠

ومنهم خزنة الجنة الذين يسلمون على أهلها .

ومنهم خزنة جهنم الموكلون بها .

ومنهم حملة العرش ومن حوله . . . وغير ذلك[1] .

ومجمل القول : أن الملائكة المكرمين أصناف كثيرة ، ولهم وظائف عديدة في الأكوان حسب تقدير الملك الديان ، وإرسالهم بهذه الوظائف من الحكمة الإلهية بمكان ، وهو مشعر برحمة الخالق بهذا الإنسان (فهم رسل الله في خلقه وأمره ، أو سفراؤه بينه وبين عباده ، يُنْزلونَ الأمر من عنده في أقطار العالم ، ويصعدون إليه بالأمر)[2] .

المَطلب الأول: جبريل واسطة بين الله والملائكة.

لقد وصف الله سبحانه وتعالى الملائكة بقوله : ﴿**لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾[3] وبقوله تعالى : ﴿**وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾[4] وبقوله جل شأنه : ﴿**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ**﴾[5] وبقوله عز وجل : ﴿**وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ**﴾[6] فالسموات في غاية الخوف من الله تعالى ، والهيبة منه ، والإجلال له وكذلك سكانها من الملائكة ، فهم يسبحون بحمد ربهم أي : ينزهونه عن كل ما لا يليق بكماله ، وجلاله ، خوفا منه ، وهيبة ، وإجلالا ، ولشدة خوفهم من ربهم ، وإجلالهم له لا يفترون يسبحون بحمده ويخافون على أهل الأرض ؛ ولهذا يستغفرون لهم خوفا عليهم من سخط الله ، وغضبه[7] .

فقد شرف الله تعالى الملائكة بهذه الوظيفة وهي الاستغراق في عباته ، وتسبيحه ، وتنزيهه ، وفضلهم على غيرهم من مخلوقاته ، وأسكنهم سماواته ، وجعل أفضلهم وأشرفهم وأقواهم جبريل عليه السلام [8] أمينا على وحيه[9] .

قال العلامة ابن القيم : (جبريل موكل بالوحي الذي فيه حياة القلوب والأرواح)[10] .

(١) انظر -للتوسع- الحبائك في إخبار الملائك ص ١٠ وما بعدها ، ومجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين٥/ ١١٧ ، والإرشاد إلى صحيح الاعتقاد للشيخ صالح الفوزان ص ١٤٦ ، وأصول الدين الإسلامي للشيخ محمد بن إبراهيم التويجري ص ٣٤ ، وعالم الملائكة الأبرار للأشقر ص ٣٨ ، والحياة في ظل العقيدة الإسلامية لزيد المدخلي ص ٢٢

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٠٠

(٣) سورة التحريم الآية ٦

(٤) سورة الأنبياء الآية ٢٧

(٥) سورة الأنبياء الآية ٢٠

(٦) سورة الشورى الآية ٥

(٧) انظر أضواء البيان ٧/ ١٥٢

(٨) انظر المبحث الآتي جبريل واسطة بين الله ورسله

(٩) نقل السيوطي أثرا عن ابن سابط أنه قال : (إن إسرافيل هو الذي ينزل بالأمر على بقية الملائكة) الحبائك ص ١٦

(١٠) إغاثة اللهفان ٢/ ١٢٢ ، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٠٠

وقال الحافظ ابن حجر : (وجبريل موكل بالوحي الذي يحصل به الإصلاح العام)[١] .
كما جعله الله سبحانه وتعالى واسطة بينه وبين سائر الملائكة ، ويوضح ذلك الأحاديث الآتية : -

فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ما ذا قال ربكم قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا -بعضه فوق بعض - ووصف سفيان[٢] - رحمه الله تعالى - بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر والكاهن، فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا، وكذا كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء**)[٣] .

فعند ما يأمر الله عز وجل بالأمر ينزل به جبريل عليه السلام فيسأله أهل كل سماء : يا جبريل ماذا قال ربنا؟ فيجيبهم جبريل بقوله : قال الحق ، وهو العلي الكبير ، فيقولون مثل قول جبريل .

روى الإمام ابن جرير الطبري[٤] - رحمه الله تعالى ، والبغوي في تفسيريهما لقوله الله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[٥] أن الملائكة يفزعون حذرا من قيام الساعة ؛ وذلك أن الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام خمسمائة وخمسين سنة ، وقيل ستمائة لم تسمع الملائكة فيها وحيا ، فلما بعث الله محمدا ﷺ كلم جبريل عليه السلام بالرسالة إلى محمد ﷺ فلما سمعت الملائكة ظنوا أنها الساعة ؛ لأن محمدا ﷺ عند أهل السماوات بعثته من أشراط

---

(١) فتح الباري ٦/ ٣٠٧

(٢) هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي ثم المكي ، قال عنه الحافظ ابن حجر : حافظ ، إمام ، حجة ، توفي سنة ١٩٨هـ. انظر سير أعلام النبلاء٨/ ٤٥٤ ، وتقريب التهذيب١/ ٣١٢ ، وشذرات الذهب١/ ٣٥٤

(٣) صحيح البخاري مع الفتح كتاب التفسير ، حديث (رقم ٤٨٠٠) .

(٤) هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري ، ولد سنة ٢٢٤هـ، وتوفي سنة ٣١٠هـ، قال عنه الذهبي : هو الإمام ، العلم ، المجتهد ، عالم العصر ، صاحب التصانيف البديعة . انظر : سير أعلام النبلاء١٤/ ٢٦٧ ، وشذرات الذهب ٢/ ٢٦٠

(٥) سورة سبأ الآية ٢٣



الساعة، فصعقوا مما سمعوا خوفا من قيام الساعة، فلما انحدر جبريل جعل يمر بأهل كل سماء فيكشف عنهم فيرفعون رؤوسهم، ويقول بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق، يعني الوحي، وهو العلي الكبير[١].

وقيل: إنما الموصوفون بهذا الفزع هم المشركون، وذلك حين يكشف الفزع عن قلوبهم عند نزول الموت بهم إقامة للحجة عليهم، تقول لهم الملائكة: ماذا قال ربكم في الدنيا؟ قالوا: الحق، فأقروا به حين لا ينفعهم الإقرار[٢]، وذكر الفخر الرازي: أن لهذا الفزع وجوها: -

أحدها: أنه الفزع الذي يحصل عند الوحي فتصعق الملائكة، فيكون جبريل أول من يرفع رأسه، ثم يمر بالملائكة في كل سماء فيبلغها الأمر، ويزيل عنها الغشي.

ثانيها: أنه الفزع الذي يكون عند قيام الساعة.

ثالثها: أن الله تعالى يزيل الفزع وقت الموت عن القلوب، فينفع المؤمن، ويعترف الكافر بالحق، فيضره لفوات الأوان[٣]، وقد رجح الإمام الطبري الوجه الأول[٤].

قال ابن كثير: (وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه؛ لصحة الأحاديث فيه والآثار)[٥].

٢- وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي، أخذت السماوات منه رجفة، أو قال رعدة - شديدة خوفا من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا سجدا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء يسأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق، وهو العلي الكبير، قال: فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل)**[٦].

وروى ابن جرير الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول: **(إن الله لما أراد أن يوحي إلى محمد دعا جبريل، فلما تكلم ربنا بالوحي كان صوته كصوت الحديد على**

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٠/ ٣٧٥، وتفسير البغوي للبغوي ٣/ ٥٥٧، وتفسير القرطبي ١٤/ ٢٩٧

(٢) انظر تفسير البغوي ٣/ ٥٥٧، وتفسير القرطبي ١٤/ ٢٩٧

(٣) انظر تفسير الفخر الرازي ٢٥/ ٢٧٥ (٤) انظر تفسير الطبري ١٠/ ٣٧٥

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٤٥

(٦) رواه أبو داود ٥/ ١٠٦، والترمذي ٥/ ٣٦٢، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في المقدمة ١/ ٧٠، وابن خزيمة في التوحيد ص ١٤٤، والبيهقي في الأسماء والصفات ص٣٦٢، وأورده ابن القيم في مختصر الصواعق ص٥٠٢، وقال عنه: (وهذا الإسناد كلهم أئمة ثقات) وصحح إسناده الشيخ الألباني. انظر السلسلة الصحيحة ١٠/ ٣٧٥

الصفا، فلما سمع أهل السماوات صوت الحديد خروا سجدا، فلما أتى عليهم جبرائيل بالرسالة رفعوا رؤوسهم، فقالوا:﴿ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾ وهذا قول الملائكة)(١) .

فثبت من هذا أن جبريل عليه السلام كان واسطة بين الله تعالى وسائر الملائكة لإبلاغهم أوامر الله تعالى، وأن جبريل هو الذي يزيل عنهم الغشي، ويخبرهم بما قاله عز وجل.

٣-وتفهم وساطة جبريل أيضا من حديث الإسراء الطويل الذي يرويه مالك بن صعصعة رضي الله عنه عن النبي ﷺ وفيه: أن جبريل عليه السلام كلما مر بالنبي ﷺ على سماء سأله أهلها من الملائكة: من معك يا جبريل؟ فيقول: محمد ﷺ فيقولون: وقد أرسل إليه؟ فيقول جبريل: نعم، فيقولون: مرحبا به، ولنعم المجيء جاء(٢).

أقول: يفهم من هذا الحديث أن جبريل عليه السلام كان واسطة بين الله تعالى، والملائكة في تبليغهم بعثة خاتم النبيين، وإسرائه، ومعراجه ﷺ.

٤-وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (**إذا أحب الله عبدا نادى جبريل: إن الله يحب فلانا، فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في أهل الأرض)**(٣).

فيؤخذ من هذا الحديث أن جبريل عليه السلام يكون واسطة بين الله تعالى وبقية الملائكة في تبليغهم محبة الله للعبد الذي يحبه الله؛ وذلك بعد أن يأمر الله عز وجل جبريل بمحبة هذا العبد، فيحبه جبريل، ثم ينزل جبريل بالأمر إلى ملائكة كل سماء، فيبلغهم محبة الله لعبده، فيحبونه، ثم يضع الله له المحبة، والقبول في أهل الأرض، فيحبونه.

فتبين من هذه النصوص أن جبريل عليه السلام هو المبلغ عن الله سبحانه وتعالى إلى بقية الملائكة، وقد تقتضي حكمة الله عز وجل أن يرسل إلى ملائكته عليهم السلام ملكا غير جبريل، والدليل على ذلك قوله تعالى: **﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ**

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٣٧٥

(٢) انظر الحديث بطوله في صحيح البخاري مع الفتح ٦/ ٣٠٢، حديث رقم ٣٢٠٧

(٣) صحيح البخاري مع الفتح كتاب الأدب باب المقة من الله تعالى ١٠/ ٤٦١ حديث رقم ٦٠٤٠، وصحيح مسلم بزيادة: ((وإذا أبغض الله عبدا نادى جبريل . .)) انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب البر والصلة والآداب باب إذا أحب الله عبدا وضع له القبول في الأرض١٨/ ١٨٣

اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾[١]، فبين الله في هذه الآية أنه يختار من يشاء من الملائكة ليرسلهم حيث يريد سبحانه وتعالى، ويدخل في ذلك توسطهم بينه وبين بقية الملائكة، وبينه وبين الناس، كما بينت الآية أن الله يختار من يشاء من الناس للرسالة واسطة بينه وبين سائر البشر.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: الله يختار من الملائكة رسلا كجبريل، وميكائيل اللذين كان يرسلهما إلى أنبيائه الذين أرسلهم إلى عباده من بني آدم، ومعنى الكلام: الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس -أيضا- رسلا)[٢].

وبين الإمام البيهقي[٣] رحمه الله تعالى ـ أن الإيمان بالملائكة يتطلب منا أن نوقن بأن منهم رسلا يرسلهم الله إلى من يشاء من البشر، كما أنه يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض[٤].

وصرح الإمام البغوي أن هؤلاء الرسل من الملائكة هم: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل عليهم السلام[٥]، فعلى رأيه -رحمه الله- أن هؤلاء المذكورين من الملائكة قد يشاركون جبريل عليه السلام في تبليغ أوامر الله إلى سائر الملائكة؛ لكن وساطة جبريل بالأصالة، ووساطة هؤلاء الملائكة معه على سبيل المشاركة، والله أعلم.

المطلب الثاني: جبريل واسطة بين الله ورسله في إبلاغ الوحي.

من أهم الوظائف المنوطة بالملائكة هو قيامهم بتبليغ الوحي إلى أنبياء الله، ورسله، فالملائكة واسطة بين الله تعالى وبين الرسل في تبليغ الوحي، والشرائع[٦]، (ويكون الملك واسطة بين الرسول وبين ربه والرسول واسطة بين الملك وبين قومه، وما يؤديه الملك إلى الرسول ليؤديه الرسول إلى قومه ضربان: قرآن، ووحي)[٧]، والملك الموكل بهذه المهمة هو جبريل عليه السلام [٨].

---

(١) سورة الحج الآية ٧٥ (٢) تفسير الطبري٩/ ١٩٠، وانظر تفسير السعدي٥/ ١٦٢

(٣) هو أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبدالله بن موسى البيهقي الخرساني الشافعي، ولد سنة ٣٨٤هـ، وتوفي سنة ٤٥٨هـ، وصفه الإمام الذهبي بقوله: هو الحافظ العلامة، الثبت، الفقيه، شيخ الإسلام. انظر سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٦٣، شذرات الذهب٣/ ٣٠٤

(٤) انظر شعب الإيمان ١/ ٤٠٥، والحبائك للسيوطي ص ١٦

(٥) انظر تفسيره ٣/ ٢٩٩، وصرح الفخر الرازي أن الآية أفادت أنه يمكن أن يكون المصطفون ههنا من الملائكة هم الواسطة بين الله تعالى ورسله، وهم أكابر الملائكة، وزاد الرازي ذكر الحفظة عليهم السلام، وأما جميع الملائكة فبعضهم واسطة ورسل إلى البعض. انظر تفسير الفخر الرازي٢٣/ ٦٩

(٦) انظر فتح الباري ٦/ ٣٠٦ (٧) أعلام النبوة للماوردي ص٤٧

(٨) انظر معارج القبول للحكمي ٢/ ٧٨، والرسل والرسالات للأشقر ص ٦٣

فقد أثبتت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أن جبريل عليه السلام هو الذي ينزل بالوحي من الله تعالى إلى الأنبياء والرسل، فكان واسطة بين الله تعالى ورسله[١]، وبيان ذلك في الآتي:

أولا: الأدلة من الكتاب العزيز:

١-قال تعالى: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ**[٢] **عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾[٣].

٢- قال تعالى: ﴿**قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾[٤].

فهاتان الآيتان صريحتان في كون جبريل عليه السلام هو الذي كلفه الله بالنزول بالقرآن الكريم على النبي ﷺ، فكان بذلك واسطة بين الله تعالى وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم.

ثانيا: الأدلة من السنة النبوية. وقد ثبت وساطة جبريل بين الله تعالى ورسله في الأحاديث الآتية:

١-ما رواه الإمام أبو داود رحمه الله تعالى- وغيره من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة -أو قال رعدة- شديدة خوفا من الله عز وجل فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا سجدا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء يسأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي الكبير، قال: فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل**)[٥].

٢- ومنها حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه المشهور بحديث جبريل الذي أخرجه

---

(١) انظر الشرح والإبانة لابن بطة ص ٢٣١.

(٢) المراد بالروح الأمين هو جبريل (قاله غير واحد من السلف، وقال مجاهد: من كلمه الروح الأمين لا تأكله الأرض. وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قول الله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين﴾ أنه قال: (الروح الأمين هو جبريل عليه السلام كتاب العظمة ٢/ ٧٧٦، وسبب تسمية جبريل روحا: أن من تظهر منه الأشياء العجيبة يسمى روحا، وكذلك كان جبريل عليه السلام، ثم إن جبريل يأتي للرسل بالوحي الذي تحصل به حياة القلوب، والأرواح التي هي الحياة الحقيقية. انظر تفسير الطبري ١٩/ ١١٢، واجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص ٨٨، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٠، وتفسير الشوكاني ٤/ ١٢٢، و ١/ ٥٤٠، وأضواء البيان ٦/ ٣٨٠

(٣) سورة الشعراء الآية ١٩٣ (٤) سورة البقرة الآية ٩٧

(٥) سبق تخريجه.



البخاري ومسلم، ومضمونه أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ على صورة أعرابي وسأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة، فلما انصرف قال النبي ﷺ: **(يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)**[1].

٣-ومنها ما أخرجه أبو الشيخ[2]ـ رحمه الله تعالى ـ عن عكرمة بن خالد (أن رجلا قال: يا رسول الله: أي الملائكة أكرم على الله؟ قال: لا أدري! فجاءه جبريل، فقال: يا جبريل أي الخلق أكرمهم على الله؟ قال: لا أدري! فعرج جبريل ثم هبط فقال: جبريل وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، فأما جبريل فصاحب الحرب، وصاحب المرسلين، وأما ميكائيل فصاحب كل قطرة تسقط، وكل ورقة تنبت، وكل ورقة تسقط، وأما ملك الموت فهو موكل بقبض روح كل عبد في بر أو بحر، وأما إسرافيل فأمين الله بينه وبينهم»[3]، فهذه الأحاديث تدل بعمومها على أن جبريل عليه السلام هو الواسطة بين الله تعالى ونبينا محمد ﷺ قال حسان رضي الله عنه[4]:

وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء

ولهذا قال العلامة ابن القيم في شرحه لدعاء النبي ﷺ وتوسله بربوبية الله لجبريل، وميكائيل وإسرافيل، عليه السلام جبريل هو الواسطة الموكل بالوحي الذي فيه حياة القلوب والأرواح)[5].

وتحدث الحافظ ابن كثير عن جبريل عليه السلام وصفه بانه أفضل الملائكة، وأنه ملك كريم، أمين على الوحي، ذو مكانة عند الله تعالى، مطاع في الملأ الأعلى[6].

---

(١) انظر صحيح البخاري مع الفتح كتاب الإيمان باب سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام١/ ١١٤ حديث٥٠، وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والاسلام والاحسان١/ ٢٦٨

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان أبو الشيخ الأصبهاني، صاحب كتاب العظمة، ولد سنة ٢٧٤هـ، وتوفي سنة ٣٦٨هـ، انظر سير أعلام النبلاء١٦/ ٢٧٦، شذرات الذهب٣/ ٦٩، ومعجم المؤلفين٢/ ٢٧٧

(٣) أخرجه أبو الشيخ في كتاب العظمة ٣/ ٨١١، وقال محققه إسناده مرسل، والسيوطي في الدر المنثور ١/ ٩٣ والحبائك ص١٨

(٤) انظر شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري وضعه عبد الرحمن البرقوقي ص ٦، وفي بعض كتب التفسير رواية البيت هكذا: -

وجبريل أمين الله فينا ... وروح القدس ليس به خفاء

انظر تفسير الشوكاني١/ ١١٠

(٥) زاد المعاد ١/ ٤٣، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٣٠٠

(٦) انظر تفسير ابن كثير٣/ ٣٦٠



وقال الحافظ ابن حجر: (... فأما جبريل فقد وصفه الله تعالى بأنه روح القدس، وبأنه الروح الأمين، وبأنه رسول كريم، ذو قوة، مكين، مطاع، أمين.. موكل بالوحي الذي يحصل به الإصلاح العام)[١].

وقد أكرم الله سبحانه وتعالى جبريل بهذه المكرمة، وفضله بهذه الفضيلة، وخصه بهذه الخاصية، وهي توسطه بين الله تعالى ورسله في إبلاغ الوحي، وإنفاذ الأوامر يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -عند قول الله تعالى: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾[٢] (... لأن الذكر الذي تتلوه الملائكة تلقيه إلى الأنبياء، كما كان جبريل ينزل بالوحي على نبينا وغيره من الأنبياء صلوات وسلامه على الجميع)[٣].

ومما يدل على عظم مكانة جبريل عند الله تعالى دون سائر الملائكة عليهم السلام ما ذكره الإمام السيوطي[٤] - رحمه الله تعالى - من أن اسم جبريل في الملائكة معناه: (خادم الله[٥]، وإمام أهل السماء)[٦].

ونقل الحافظ ابن كثير عند تفسير قول الله تعالى: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[٧] عن قتادة أنه قال: (مطاع ثم) أي: في السماوات يعني ليس من أفناد[٨] الملائكة؛ بل هو من السادة والأشراف معتنى به انتخب لهذه الرسالة العظيمة)[٩].

وقد تقتضي حكمة الله عز وجل أن يرسل مع جبريل غيره من الملائكة لتبليغ الوحي[١٠]، وبيان أوامر الله في حوادث مخصوصة.

قال الحافظ ابن كثير: (يرسل الله جبريل عليه السلام إلى الأنبياء لتبليغ الوحي، وقد يرسل غيره من الملائكة إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام)[١١].

---

(١) فتح الباري ٦/ ٣٠٧ (٢) سورة الصفات الآية ٣

(٣) أضواء البيان ٦/ ٤٣٤

(٤) هو أبو الفضل عبدالرحمن بن أبي بكر بن عثمان الخضيري، الطولوني، المصري، الشافعي جلال الدين، ولد سنة ٨٤٩هـ، ونشأ في القاهرة، كتب في شتى فنون المعرفة، كان عالمًا موسعيًا، توفي بالقاهرة سنة ٩١١هـ. انظر الضوء اللامع ٤/ ٦٥، وشذرات الذهب ١/ ٥١.

(٥) لعل المراد أنه عبد الله، وله مزيد عناية وقرب خاص من ربه تعالى؛ لأن الله سبحانه وتعالى غني عن الخادم والمعين. (٦) انظر تنوير الحوالك ١/ ١٦، والحبائك ص ١٩

(٧) سورة التكوير الآية ٢١

(٨) الأفناد معناه: الأفراد، وقيل: الجماعات. انظر القاموس المحيط ١/ ٣٣ مادة (الفند)

(٩) تفسير ابن كثير ٤/ ٥١٢ (١٠) انظر تفسير آيات القرآن عن علاقة الملائكة بالإنسان ص ٤٨

(١١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٣١، وانظر تفسير الشوكاني ١/ ١١٠



وقد أورد الحافظ ابن حجر عن الشعبي أنه قال: (أنزلت على النبي ﷺ النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرافيل عليه السلام ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة، والشيء، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل عليه السلام، فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة)[1]. ثم ذكر ابن حجر أن الواقدي[2] - رحمه الله تعالى - أنكر هذه الرواية المرسلة، وقرر أن النبي (لم يقرن بنبوته من الملائكة غير جبريل عليه السلام)[3].

وأما قيام غير جبريل من الملائكة عليهم السلام بتبليغ الوحي إلى الأنبياء فيعد من النادر[4]، وقد وجدنا أدلة على ذلك من الكتاب والسنة.

أولا: فمن الكتاب الآيات التالية: -

١- قول الله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ[5] مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾[6] فتبين من هذه الآية أن الله تعالى ينزل من يشاء من الملائكة بالوحي، واسطة بينه وبين من يشاء من عباده المرسلين[7].

وذكر البيهقي أن من متطلبات الإيمان بالملائكة أن نؤمن بأن منهم رسلا يرسلهم الله إلى من يشاء من البشر، وقد يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض[8].

٢- وقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[9] فدلت هذه الآية على أن الله عز وجل يختار من يشاء من الملائكة ليرسلهم حيث يريد

---

(١) فتح الباري ١/ ٢٧

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الأسلمي مولاهم الواقدي المديني القاضي صاحب التصانيف والمغازي العلامة الإمام، قال عنه الذهبي: أحد أوعية العلم -على ضعفه المتفق عليه- جمع فأوعى، وخلط الغث بالثمين، والخرز بالدر الثمين فاطرحوه لذلك. ولد بعد العشرين ومائة، وتوفي سنة ٢٠٧هـ. انظر ترجمته في تاريخ بغداد٣/ ٣، وسير أعلام النبلاء٩/ ٤٥٧، والأعلام للزركلي٦/ ٣١١

(٣) انظر تاريخ الرسل والملوك للطبري٢/ ٣، وفتح الباري١/ ٢٧

(٤) انظر الرسل والرسالات للأشقر ص٦٣

(٥) المراد بالروح هنا الوحي، وقد وضحته الآية الأخرى ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ سورة غافر الآية ١٥، وسمي الوحي روحا؛ لأنه يحي قلوب المؤمنين، ويؤيد ذلك أن من جملة الوحي القرآن، وهو نازل من الدين منزلة الروح من الجسد. انظر المفردات ص٢٠٥ مادة (روح) وتفسير الشوكاني٣/ ١٤٧

(٦) سورة النحل الآية ٢

(٧) انظر شعب الإيمان ١/ ٤٠٥، ونقله السيوطي عنه في الحبائك ص٩

(٨) انظر شعب الإيمان١/ ٤٠٥، ونقله السيوطي عنه في الحبائك ص٩

(٩) سورة الحج الآية ٧٥



سبحانه وتعالى، كما أنه يختار من يشاء من البشر للرسالة، وفي الآية إثبات تعدد الواسطة من الملائكة والواسطة من البشر، ونقل الحافظ ابن كثير عن الإمام ابن جرير -عند تفسير قول الحق تبارك وتعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [1] :أن المراد بالسفرة الملائكة، ثم قال ابن جرير: (والسفرة يعني بين الله تعالى وبين خلقه ومنه يقال: السفير الذي يسعى بين الناس في الصلح، والخير كما قال الشاعر:-

وما أدع السفارة بين قومي   وما أمشي بغش إن مشيت

وقال البخاري: (سفرة): الملائكة سفرت، أصلحت بينهم، وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله تعالى وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم)[2].

وقيل المراد السفرة هنا: (الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله ورسوله، من السفارة، وهو السعي بين القوم)[3].

٣-قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ [4]﴾[5].

فبين الله تعالى في هذه الآيات أنه أرسل ملائكة إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام وأخبروهما بأنهم مكلفون من قبل الله بإهلاك قوميهما، بعد أن ينجياهما وأهلهما إلا امرأة لوط المتمالئة مع قومها، فهؤلاء الملائكة الذين ورد ذكرهم بصيغة الجمع[6] ثبت أنهم واسطة بين الله تعالى وإبراهيم ولوط عليهما السلام في إهلاك قوميهما.

ثانيا: ومن السنة الأحاديث التالية:-

١-أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضا[7] من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم

---

(١) سورة عبس الآيتان (١٥-١٦).   (٢) تفسير الطبري٣٠/ ٥٤، وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ٥٠٢

(٣) تفسير الشوكاني٥/ ٣٨٣

(٤) الغابرين: أي الباقين في العذاب. انظر المفردات للراغب ص ٣٥٧ مادة (غبر) وتفسير الشوكاني٤/ ٢٠١

(٥) سورة العنكبوت الآيات (٣١- ٣٢ - ٣٣).

(٦) وسيأتي عن بعض المفسرين أن هؤلاء الملائكة كان برأسهم جبريل عليهم السلام.

(٧) النقيض: الصوت مثل صوت الباب إذا فتح. انظر النهاية لابن الأثير ٥/ ١٠٧ مادة (نقض) وشرح النووي لصحيح مسلم٦/ ٩١

ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين، أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته)[١]. ولا يعارض هذا الحديث كون جبريل عليه السلام هو الواسطة بين الله تعالى ونبينا محمد ﷺ في نزول القرآن، بل غاية ما في هذا الحديث أن هذا الملك إنما أنزله الله على النبي ﷺ لبيان فضل هاتين السورتين[٢].

٢-وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (**جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل من يوم خلق قبل الساعة**[٣]**، فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك قال: أفملكا نبيا يجعلك أو عبدا رسولا؟ فقال جبريل: تواضع لربك يا محمد. قال: بل عبدا رسولا**)[٤]. وهذا الحديث لا ينافي كون جبريل عليه السلام هو الواسطة بين الله تعالى والنبي ﷺ إذ أن هذا الملك[٥] إنما نزل في هذه الحادثة المخصوصة، وهذا التخيير المعين، وفي جلوس جبريل عليه السلام مع النبي ﷺ أوان نزول هذا الملك الكريم دلالة قوية على هذا المعنى.

٣-وروى مسلم في صحيحه عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: (**لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب**[٦] **فرفعت رأسي فإذا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال، وسلم علي، ثم قال: يا محمد: إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك**

---

(١) رواه مسلم. انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب صلاة المسافر وقصرها باب فضل الفاتحة وخوتيم سورة البقرة٦/ ٩١

(٢) انظر تفسير القرطبي١/ ١١٦، والحبائك للسيوطي ص١٧، وتفسير آيات القرآن عن علاقة الملائكة بالإنسان ص٥٠

(٣) أي لم يتنزل قبل هذه الساعة.

(٤) رواه الإمام أحمد٢/ ١٣١، واللفظ له، والبزار انظر كشف الأستار عن زوائد البزار٣/ ١٥٥، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد٩/ ٢١، رواه أحمد والبزار وأبو يعلى، ورجال الأولين رجال الصحيح، وقال ابن كثير: هذا حديث غريب من هذا الوجه. انظر البداية والنهاية١/ ٤٥، وصححه الشيخ الألباني. انظر السلسلة الصحيحة٣/ ٣ برقم (١٠٠٢).

(٥) ورد في بعض المصادر أن هذا الملك هو إسرافيل (. انظر فتح الباري٦/ ٣٠٨، والحبائك ص١٧

(٦) قرن الثعالب: هو قرن المنازل، جبيل على مرحلتين من مكة، وهو ميقات أهل نجد. انظر معجم البلدان٥/ ٢٣٤



فما شئت؟ إن شئت أطبق عليهم الأخشبين[١]**. فقال له رسول الله (: بل أرجو أن يُخْرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا)**[٢].

٤-وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (**أتاني ملك فسلم علي -نزل من السماء ولم ينزل قبلها- فبشرني أن الحسن، والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة**)[٣].

فدلت هذه الأحاديث -بمجموعها على أن الله تعالى قد أرسل ملائكة إلى النبي ﷺ، ولا ينافي إرسالهم كون جبريل عليه السلام -هو الواسطة على الخصوص كما مر بيانه، وهناك من جعل الملائكة كلهم واسطة بين الله والرسل، فقال: (الملائكة عباد الله ليسوا بذكور ولا إناث، مكرمون عند الله، متوسطون بينه وبين أنبيائه)[٤].

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن الملائكة كلهم رسل باعتبار، وأما المصطفون منهم فباعتبار إرسالهم بالوحي فقط[٥]. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه ذكر الملائكة فقال: (منهم الأمناء على وحي الله، والحفظة لعباد الله)[٦]؛ لكن الراجح أن الموكل بتبليغ الوحي إلى الأنبياء من بين سائر الملائكة هو جبريل عليه السلام وأن نزول غيره من الملائكة لهذا الغرض إنما كان في حالات نادرة، وحوادث مخصوصة ليست على سبيل الانفراد والاستقلال، وإنما كانت على سبيل التبعية، والمشاركة لجبريل عليه لاسلام، وفيما يلي بيان أن جبريل عليه السلام كان واسطة بين الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام من الذين صرح القرآن بنزوله عليهم:

(أ) **فمنهم إبراهيم عليه السلام:** ذكر الحافظ ابن كثير وغيره من المفسرين عند تفسير قول الله تعالى في سورة الصافات: ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[٧] أن الله تعالى لما أمر إبراهيم بذبح ابنه -عليهما السلام- فصرعه على وجهه ليذبحه أرسل الله إليه جبريل عليه السلام وفداه الله بكبش أبيض أقرن، أعين، ولما ذبح إبراهيم الكبش قال جبريل: الله أكبر، الله

---

(١) هما جبلا مكة: أبو قبيس، والجبل الذي يقابله. انظر معجم البلدان١/ ١٤٩

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الجهاد والسير باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين١٢/ ١٥٤

(٣) أخرجه الترمذي في سننه٥/ ٦٦٠، وقال: هذا حديث حسن غريب، وصححه الشيخ الألباني. في صحيح سنن الترمذي٣/ ٢٢٥ برقم٢٩٧٥، والسلسلة الصحيحة ٢/ ٤٣٨برقم (٧٩٦)، وصحيح الجامع الصغير١/ ٧٧ برقم (٧٩).

(٤) تنوير الأذهان في تفسير روح البيان للبروسوي١/ ١٣٣

(٥) انظر النبوات ص ٢٨٣

(٦) فتح الباري٦/ ٣٠٨

(٧) الآية ١٠٧



أكبر، وقيل: إن الشيطان عرض لإبراهيم عليه السلام عند السعي فسابقه الشيطان، فسبق إبراهيم عليه السلام، ثم ذهب به جبريل عليه السلام إلى جمرة العقبة[1]. وأورد البيهقي في شعبه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: (نزل جبريل على إبراهيم عليه السلام فراح به وذكر الحديث بنحوه، وزاد: ثم أفاض به حتى أتى به الجمرة فرماها، ثم ذبح، وحلق، ثم أتى به البيت وطاف به)[2].

فيفهم من قصة الذبيح هذه وبيان المناسك أن جبريل عليه السلام كان واسطة بين الله تعالى ونبيه إبراهيم عليه السلام في فداء الله تعالى لابنه إسماعيل[3] بذبح عظيم وبيان مناسك الحج للخليل عليه السلام.

(ب) **ومنهم لوط عليه السلام:** ذكر الله تعالى في كتابه العزيز قصة لوط عليه السلام مع قومه الذين ابتلاهم الله بعمل الفاحشة، وهي إتيان الرجال شهوة من دون النساء، والعياذ بالله فقال تعالى:

١ - ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا [4]وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ [5]﴾ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ [6]إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ [7]مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾[8].

٢ - قال تعالى: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ [9](٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ

---

(١) أورده البيهقي في الشعب٣/ ٤٦٥، وانظر تفسير النسفي٣/ ٢٦، وتفسير ابن كثير٤/ ١٧

(٢) الجامع لشعب الإيمان٣/ ٤٦٤

(٣) اختلف في الذبيح من هو؟ فقال قوم: إنه إسحاق بن إبراهيم. وقال آخرون: إنه إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. وقد رجح هذا القول ابن كثير في تفسيره. انظر٤/ ٢٠، وذكر الشوكاني أدلة كل من الفريقين؛ إلا أنه لم يرجح أحد القولين. انظر تفسير الشوكاني٤/ ٤٠٣، وتفسير السعدي٦/ ١٩١، وأضواء البيان٦/ ٦٩١

(٤) ضاق بهم ذرعا: أي ضاق صدره، أو وسعه، وطاقته بمجيئهم. انظر تفسير الشوكاني٢/ ٥١٣

(٥) عصيب: أي شديد. انظر المفردات ص ٣٣٦ مادة (عصب)

(٦) يهرعون: أي يسرعون إليه. انظر المفردات ص٥٤٢ مادة (هرع)

(٧) أي بطائفة وجزء. انظر تفسير الشوكاني ج/ ٢/ ٥١٥ (٨) سورة هود الآيات (٧٧-٨١).

(٩) الغابرين: الباقين في العذاب. انظر المفردات ص ٣٥٧ مادة (غبر) وتفسير الشوكاني٤/ ٢٠١



رِجْزاً [١]مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[٢].

في هاتين الآيتين يبين الله عز وجل أنه أرسل ملائكة مع جبريل عليهم السلام إلى نبي الله لوط (في صورة البشر وغاية في الجمال، وأن قومه الضالين طمعوا في النيل منهم، وهموا بعمل الفاحشة بهم، فضاق صدر لوط عليه السلام بهذا المجيء خوفا على ضيوفه، ثم أخبروه أنهم ملائكة الله عز وجل، أرسلهم الله لإنقاذ لوط ومن آمن معه وإهلاك قومه، فطمس جبريل عليه لاسلام على أعين قوم لوط فخرجوا عميا لا يبصرون، وأمر الملائكة لوطا بأن يخرج ليلا من القرية هو وأهله، ولا يلتفت منهم أحد إلا امرأته فإنه مصيبها ما أصاب القوم من العذاب الأليم، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وذلك أن جبريل عليه السلام رفع قريتهم إلى السماء حتى سمعت الملائكة صياح ديكتهم ثم قلبها عليهم، وأرسل الله عليهم حجارة من السماء زيادة في عذابهم[٣].

فيفهم من هذه القصة أن جبريل (كان واسطة بين الله تعالى ورسوله لوط عليه السلام وقد شاركه بعض الملائكة في هذه المهمة.

(جـ) ومنهم زكريا عليه السلام: ذكر الله في كتابه العزيز وحيه لنبيه زكريا بواسطة الملائكة: فقال تعالى: **﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا [٤]وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾**[٥].

وقد اختلف المفسرون في المراد بالملائكة هنا على قولين: -

القول الأول: أن المراد جبريل، وممن قال بهذا القول السدي[٦] رحمه الله[٧]. واحتج أهل هذا القول بقراءة ابن مسعود رضي الله عنه: **﴿فناداه جبريل وهو قائم يصلي في المحراب﴾**[٨].

---

(١) الرجز: العذاب الشديد كالزلزلة. انظر المفردات ص١٨٨ مادة (زجر) وتفسير الشوكاني٤/ ٢٠٢

(٢) سورة العنكبوت الآيتان (٣٣-٣٤).

(٣) انظر تفسير القرطبي٧/ ٢٤٧، ومجموع الفتاوى ٤/ ٣٧٦، وتفسير الشوكاني٢/ ٥١٧

(٤) حصورا: يمنع نفسه ويحبسها عن النساء ابتغاء مرضاة الله عز وجل. انظر تفسير الطبري٦/ ٣٧٦

(٥) سورة آل عمران الآيتان (٣٨-٣٩).

(٦) هو أبو محمد إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الهاشمي السدي الكوفي روى عن ابن عباس، وأنس رضي الله عنهما توفي ١٣٧هـ انظر طبقات المفسرين للداوودي١/ ١٠٩، ومعجم المؤلفين١/ ٣٦٨

(٧) انظر تفسير الطبري٦/ ٣٦٤

(٨) انظر تفسير الشوكاني١/ ٣٣٩



القول الثاني: أن المنادي لزكريا جمع من الملائكة ذكر ذلك الطبري عن قتادة والربيع[1] - رحمه الله تعالى - وغيرهما[2]، ثم قال الطبري: (والظاهر أنها جماعة من الملائكة أكثر من واحد، ولا يجوز أن يحمل تأويل القرآن إلا على الأظهر والأكثر المستعمل في ألسن العرب دون الأقل)[3].

وجمع بعضهم بين القولين فقال: إنه لا يبعد أن يكون المعنى: أن الله أرسل إلى زكريا جمعا من الملائكة، وتكلم أحدهم وهو جبريل عليه السلام[4]، وهذا مثل قول الله تعالى لموسى وهارون: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[5]، وقد تكلم أحدهما وهو موسى عليه لاسلام لقول الله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[6].

فيؤخذ من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل جبريل في جمع من الملائكة واسطة بينه وبين زكريا عليه السلام.

(د) ومنهم موسى عليه السلام: من المعلوم أن موسى عليه السلام فد أوحى الله تعالى إليه التوراة مباشرة من غير واسطة وكلمه ربه تكليما[7] فقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾[8]، وقال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي

---

(١) هو الربيع بن أنس البكري روى عن أنس وجابر وابن عمر رضي الله عنهم توفي عام ١٤٠هـ وقيل غير ذلك. انظر الطبقات الكبرى لابن السعد٧/ ٣٦٩، وتهذيب التهذيب٣/ ٢٣٨

(٢) انظر تفسير الطبري٦/ ٣٦٥ (٣) تفسير الطبري٦/ ٣٦٥

(٤) انظر تفسير الشوكاني١/ ٣٣٧ (٥) سورة الشعراء الآية ١٦

(٦) سورة الشعراء الآية ١٨

(٧) ومنزلة التكليم الثابتة لموسى عليه السلام قد شاركه فيها نبينا محمد ﷺ كما ثبت ذلك في حديث الإسراء، وكذلك آدم عليه السلام قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رده على قول ابن إسرائيل: (الأمر أمران أمر بواسطة وأمر بغير واسطة) أن مضمون هذا الكلام أن الأمر بواسطة هو الأمر الشرعي الديني والذي بلاواسطة هو الأمر القدر الكوني، وجعله أحد الأمرين بواسطة والآخر بغير واسطة كلام باطل فإن الأمر الديني يكون بواسطة وبغير واسطة، فإن الله كلم موسى وأمره بلا واسطة وكذلك كلم محمدا صلى الله عليه وسلم وأمره ليلة المعراج، وكذلك كلم آدم وأمره بلا واسطة وهي أوامر دينية شرعية)) مجموع الفتاوى٢/ ٣٢٠ وذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: أن تكليم آدم قد بينه القرآن في قوله تعالى: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ سورة البقرة الآية ٣٥، وأمثالها من الآيات فإنه ظاهر في أنه بغير واسطة من الملائكة. وقال ابن القيم في نونيته:-

وهو المكلم عبده موسى بتكـ ـليم الخطاب وقبله الأبوان

انظر أعلام النبوة للماوردي ص٤٦، والنبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٩١، ومجموع الفتاوى له٢/ ٣٢٠، ومتن القصيدة النونية ص٢٠٤، وشرح العقيدة الطحاوية ص٢٩٥، وأضواء البيان ١/ ١٩٤

(٨) سورة النساء الآية ١٦٤



وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾[1] ، إلا أنه ثبت أن جبريل (قد نزل على موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام فقد روى البخاري في صحيحه في قصة بدء الوحي ونزول جبريل على نبينا محمد ﷺ أول ما نزل، وذهاب خديجة رضي الله عنها بالنبي ﷺ إلى ابن عمها ورقة بن نوفل أن ورقة قال للنبي ﷺ : (هذا الناموس[2] الذي نزل الله على موسى)[3] .

وقال الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث : (لأن نزول جبريل على موسى متفق عليه بين أهل الكتاب)[4] .

ولعل الجمع بين كلام الله تعالى لموسى عليه السلام من غير واسطة وإرسال جبريل عليه السلام إليه يكون من وجهين : -

الوجه الأول: أن الله تعالى قد أنزل التوراة على موسى مباشرة وكلمه بها تكليما من غير واسطة من الملائكة .

الوجه الثاني: أن الله تعالى أرسل جبريل واسطة بينه وبين موسى عليه السلام في شأن بعض الحوادث المخصوصة ، وليس في تبليغ الوحي ، كما كان ينزل على غيره من الرسل ، والله تعالى أعلم .

كما صح أن الله تعالى أرسل ملك الموت واسطة بينه وبين موسى - عليه السلام - فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (**أرسل ملك الموت إلى موسى - عليه السلام - فلما جاءه صكه، فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، فرد الله عليه عينه، وقال: ارجع فقل له: يضع يده على متن ثور، فله بكل ما غطت به يده بكل شعرة سنة، قال: أي رب، ثم ماذا؟ قال ثم الموت، قال: فالآن، فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة برمية حجر، قال: قال رسول الله ﷺ : فلو كنت ثمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر**)[5] .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٤

(٢) الناموس : صاحب السر والمراد به هنا جبريل (، قال الرازي في مختار الصحاح (وأهل الكتاب يسمون جبريل (الناموس) ص٦٨٠ مادة (ن م س) وانظر المصباح المنير٢/ ٦٢٦ مادة(ن م س)

(٣) صحيح البخاري مع الفتح كتاب بدء الوحي١/ ٢٢، حيث (٣) .

(٤) فتح الباري١/ ٢٦ ، وانظر لوامع الأنوار١/ ١٦٩

(٥) رواه البخاري انظر صحيح البخاري مع الفتح كتاب الجنائز باب ما أحدب الدفن في الأرض المقدسة ، أو نحوها٣/ ٢٠٦ ، حديث ١٣٣٩ ، ومسلم انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الفضائل باب فضائل موسى عليه السلام١٥/ ١٢٧



(هـ) **ومنهم عيسى عليه السلام:** ذكر الله تعالى في كتابه العزيز أنه أرسل جبريل إلى عيسى عليهما السلام، وذلك في آيتين من القرآن الكريم:

١ - الآية الأولى: قوله الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[١].

٢ - الآية الثانية: قول الله تعالى: ﴿**اذكر نعمتي التي أنعمت عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس**﴾[٢].

وروح القدس في الآيتين المراد به جبريل عليه السلام.

قال الإمام الشوكاني: (قد يسمى من تظهر منه الأشياء العجيبة روحا ويضاف إلى الله فيقال: هذا روح من الله أي من خلقه، كما يقال في النعمة إنها من الله)[٣].

فتبين بهاتين الآيتين أن الله تعالى أرسل جبريل عليه السلام واسطة بينه وبين كلمته عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

(و) **ومنهم خاتم النبيين محمد ﷺ:** ما من شك في أن جبريل عليه السلام واسطة بين الله تعالى وبينا محمد ﷺفي نزول الوحي وتبليغ الرسالة، إلا في حالات نادرة وحوادث مخصوصة شاركه فيها غيره من الملائكة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وسوف أبين في الصفحات التالية ما يدل على ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

فمن ذلك: -

١ - قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤].

فقد ثبت في بيان سبب نزول هذه الآية أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (**أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم: إنا نسألك عن أشياء فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك، قال: فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه أن قال: الله على ما نقول وكيل، قالوا: فأخبرنا من صاحبك الذي يأتيك من الملائكة؟ فإنه ليس من نبي إلا يأتيه ملك بالخبر فنحن نبايعك إن أخبرتنا! قال: جبريل، قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب، والقتال، ذاك عدونا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالنبات، والقطر والرحمة. فأنزل الله عز وجل:**﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ

---

(١) سورة البقرة الآية ٨٧ (٢) سورة المائدة الآية ١١٠

(٣) تفسير الشوكاني ١/ ٥٤٠، وللتوسع في بيان معنى روح القدس.

(٤) سورة البقرة الآية ٩٧



قَلْبِكَ﴾ [١] إلى آخر الآية[٢] .

ومن الآيات الدالة على نزول جبريل عليه السلام بالوحي على النبي ﷺ واسطة بينه وبين ربه عز وجل : -

٢- قول الله تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[٣] .

٣- وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[٤] .

٤- وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ [٥] فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ [٦] أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾[٧] .

وأخرج الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل عليه بالوحي يحرك لسانه وشفتيه فيشتد عليه ، فكان ذلك يعرف منه فأنزل الله تعالى : ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾[٨] فكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله)[٩] .

٥- وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ [١٠] (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُم [١١] بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾[١٢] .

---

(١) سورة البقرة الآية ٩٧

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند١/ ٣٧٤ ، والترمذي في سننه٥/ ٢٩٤ وقال : هذا حديث حسن غريب ، والطبري في تفسيره١/ ٣٧٧ ، والبيهقي في دلائل النبوة٦/ ٣٦٦ ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد٨/ ٢٤٤ ، وقال : رواه أحمد ، والطبراني ، ورجالهما ثقات ، وصحح إسناده أحمد شاكر محقق تفسير الطبري . انظر١/ ٣٧٨

(٣) سورة النحل الآية ١٠٢

(٤) سورة الشعراء الآيات (١٩٢-١٩٥) .

(٥) ذو مرة : أي قوة في الجسم والعقل ، كأنه محكم الفتل من فرط قوته . انظر المفردات ص٤٦٥ مادة (م ر ر) ومختار الصحاح ص٦٢١ مادة (م ر ر)

(٦) قاب قوسين : أي بقدر هما إذا رمي ، وقيل القاب ما بين وتر القوس إلى مقبضها . انظر المفردات ص٤١٤ مادة (قاب) وتفسير ابن كثير٤/ ٢٦٦

(٧) سورة النجم الآيات (٣-١٠) .

(٨) سورة القيامة الآيات (١٦ - ١٩) .

(٩) أخرجه البخاري ، كتاب بدء الوحي١/ ٢٩ الباب الخامس حديث ، ومسلم واللفظ له ، ومسلم بشرح النووي كتاب الصلاة باب الاستماع للقراءة٤/ ١٦٥

(١٠) أي جبريل عليه السلام انظر تفسير ابن كثير٤/ ٤٨٠

(١١) أي نبينا محمد ﷺ انظر تفسير ابن كثير٤/ ٤٨١

(١٢) سورة التكوير الآيات (١٩ - ٢٣) .

وقد كان نزول جبريل رضي الله عنه على النبي ﷺ على أشكال:-

أولا: فمن تلك الأشكال أنه كان يأتيه على صورة غير مرئية، ويقع كلامه على قلب النبي (فيعي ما يقول، ولا يرى الصحابة جبريل عليه السلام والحالة هذه، ولكن تظهر لهم علامات تدل على أن النبيﷺ يوحى إليه ومن هذه العلامات :-

(أ) خروج العرق من جسمه الشريف ﷺ في اليوم البارد، ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : (**إن كان لَيُنْزَلُ على رسول الله ﷺ في الغداة الباردة ثم تفيض جبهته عرقا**)[١].

(ب) تغير وجهه الشريف ﷺ ففي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : (**كان نبي الله إذا أنزل عليه الوحي كرب**[٢] **لذلك وتَرَبَّدَ**[٣] **وجهه**)[٤].

(جـ) ثقل جسمه الشريف ﷺ فعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت : (**إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ أنزلت عليه المائدة كلها، فكادت من ثقلها تدق عضد الناقة**)[٥]

وروى البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال : (**أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت أن ترض**[٦] **فخذي**)[٧].

ثانيا: وقد يراه على صورته التي خلق عليه.

فقد ثبت أنه ﷺرأى جبريل على صورته التي خلق عليها مرتين، فقد روى مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : (**إن النبي ﷺ لم ير جبريل في صورته التي خلق عليها إلا مرتين: مرة عند سدرة المنتهى، ومرة في جياد**[٨] **له ستمائة جناح قد سد الأفق**)[٩].

---

(١) رواه البخاري انظر صحيح البخاري مع الفتح كتاب بدء الوحي١/ ١٨ الباب الثاني (حديث ٢) ومسلم واللفظ له، انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الفضائل باب طيب عرقه ﷺ والتبرك به١٥/ ٨٦

(٢) كرب : أي أصابه الكرب من شدة الوحي. انظر النهاية في غريب الحديث٤/ ١٦١ مادة (كرب).

(٣) تربد وجهه : تغير إلى الغبرة، وقيل الربدة : لون بين السواد والغبرة. انظر النهاية في غريب الحديث٢/ ١٨٣ مادة (ربد).

(٤) رواه مسلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الفضائل باب طيب عرقه ﷺ١٥/ ٨٨

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند٦/ ٤٥٥، وأشار إليه ابن حجر في شرحه لصحيح البخاري، انظر فتح الباري١/ ٢١، وتفسير ابن كثير٢/ ١٢٦

(٦) الرض : الكسر. انظر مختار الصحاح ص٢٤٥ مادة (رض ض).

(٧) رواه البخاري، كتاب الصلاة باب ما يذكر في الفخذ١/ ٤٧٨ حديث (رقم ١٢).

(٨) جياد : ويقال له أجياد واد بمكة. انظر معجم البلدان١/ ١٠٤

(٩) رواه مسلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب معنى قوله عز وجل﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ وانظر فتح الباري١/ ٢٣، وتفسير ابن كثير٤/ ٢٦٥، والرسول والوحي لمحمد المسير ص٢٨٧

ثالثا: وقد يتمثل جبريل للنبي ﷺ في صورة رجل فيكلمه بالوحي ومن ذلك:-

١- تمثل جبريل عليه السلام بصورة الصحابي دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه، وكان معروفا بجماله، فقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (**كان جبريل عليه السلام يأتي النبيﷺ في صورة دحية**)(١).

٢- وقد يأتيه على صورة رجل غير معروف ومن ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (**بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه**) وساق عمر الحديث إلى أن قال في آخره: (**ثم انطلق فلبثت مليا(٢) ثم قال لي: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**)(٣).

وقد جمع النبي ﷺ بين الشكلين: الأول، والثالث(٤) في قوله: (**أحيانا يأتيني مثل صلصلة(٥) الجرس وهو أشده علي فيفصم(٦) عني وقد وعيت ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول**)(٧).

وبهذه الأشكال الثلاثة ثبت نزول جبريل عليه السلام على النبيﷺ واسطة بينه وبين ربه عز وجل في إبلاغ الوحي.

المطلب الثالث: الملائكة واسطة بين الله تعالى وغير الأنبياء.

يخبرنا القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى أرسل بعض الملائكة المقربين، واسطة منه تعالى إلى أشخاص من البشر ليسوا بأنبياء، تشريفا لهم وتكريما، وأن أولئك الملائكة عليهم السلام جاءت وساطتهم بالبشارة، والنذارة، والابتلاء لهؤلاء الأشخاص. ونريد أن نبين تلك الوساطات في النقاط التالية: -

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند٢/ ١٠٧، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في الإصابة١/ ٤٧٣، كما صححه محقق المسند الشيخ أحمد شاكر. انظر المسند٨/ ١٣٢.

(٢) مليا: أي وقتا طويلا. انظر النهاية في غريب الحديث ٤/ ٣٦٣ مادة (ملا).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) وهما مجيء جبريل رضي الله عنه في صورة غير مرئية ومعينة في صورة رجل من بني آدم.

(٥) الصلصلة: الصوت. انظر النهاية في غريب الحديث ٣/ ٤٦ مادة (صلصل).

(٦) الفصم: القطع. انظر النهاية في غريب الحديث ٣/ ٤٥٢ مادة (فصم).

(٧) رواه البخاري. مع الفتح كتاب بدء الوحي ١/ ١٨ الباب الثاني حديث (رقم٢).



أولا: وحي الله إلى سارة بنت هاران عم إبراهيم عليه السلام: لما ذكر الله تعالى قصة ملائكته الذين أرسلهم إلى إبراهيم عليه السلام ذكر في أثنائها أنهم خاطبوا زوجه سارة، وبشروها بولدها إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب؛ وذلك في آيتين من كتاب الله العزيز.

الآية الأولى: قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾(١).

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ (٢)فَصَكَّتْ (٣)وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾(٤).

فتبين من هاتين الآيتين أن الله تعالى أوحى إلى سارة بواسطة هؤلاء الملائكة الذين بشروها بأنها ستلد إسحاق، رغم كبر سنها، وشيخوخة بعلها، وأن إسحاق سيولد له ولد يسمى يعقوب.

ثانيا: وحي الله إلى مريم ابنة عمران عليها السلام. اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يولد عيسى بن مريم عليه السلام من أم دون أب؛ ليكون ذلك دليلا مشاهدا على عظم قدرة الله عز وجل، ولما كانت مريم عليها السلام هي الأم التي قدر الله ولادتها لهذا النبي الوجيه أرسل الله إليها الملائكة مرارا، وقد بينت آيات القرآن الكريم ذلك في عدة مواضع، فمن تلك الآيات: -

١- قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾(٥).

٢- وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى

---

١) سورة هود الآيات (٧٠- ٧٣).

(٢) أي في صرخة عظيمة، وقيل في جماعة من الناس. انظر المفردات ص ٢٧٩ مادة (ص ر).

(٣) فصكت وجهها: أي ضربت بيدها على وجهها تعجبا كما جرت بذلك عادة النساء. انظر تفسير الشوكاني ٥/ ٨٨

(٤) سورة الذاريات الآيات (٢٨-٣٠).

(٥) سورة آل عمران الآيتان (٤٢- ٤٣).



ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[1].

٣- وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا [2] (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾[3].

فثبت من هذه الآيات أن الملائكة أوحت إلى مريم، ثلاث مرات، واسطة بينها وبين الله تعالى، وفي بعض هذه المرات كانت الواسطة جمعا من الملائكة بصيغة العموم، وفي المرة الثالثة في سورة مريم كان الواسطة هو جبريل عليه السلام، حيث تمثل لمريم على صورة رجل تام الخلقة، وأخبرها أنه رسول من عند الله تعالى؛ ليهب لها غلاما زكيا[4].

ولا يفهم من وحي الله إلى كل من سارة، ومريم، بواسطة الملائكة أنه توجد نبية من النساء؛ لأن النبوة لا تثبت لأحد من البشر إلا بدليل، ولا يوجد دليل على نبوة واحدة من النساء؛ بل القرآن قصر الرسالة على الرجال دون النساء، قال الله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم﴾**[5]، وهذا هو قول جمهور أهل العلم وهو الراجح[6].

وهناك من ذهب إلى أنه يوجد في النساء نبيات، وهذا رأي أبي الحسن الأشعري، وابن حزم، والقرطبي، واتفقوا على نبوة مريم ابنة عمران عليها السلام، وزاد ابن حزم القول بنبوة حواء، وسارة أم إسحاق، وهاجر، وآسية امرأة فرعون، وأم موسى[7].

ثالثا: الملك الذي أرسله الله إلى الرجل الذي أحب أخاه في الله. روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ **(أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى**

---

(١) سورة آل عمران الآيات (٤٥ - ٤٧).
(٢) بغيا: أي زانية وفاجرة. انظر المفردات ص ٥٥ مادة (بغي).
(٣) سورة مريم الآيات (١٧ - ٢١).
(٤) انظر تفسير آيات القرآن عن علاقة الملائكة بالإنسان ص ١٠٠
(٥) سورة يوسف الآية ١٠٩
(٦) انظر شرح النووي لصحيح مسلم ١٥/ ١٩٨، والنبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٣ وتفسير ابن كثير ٢/ ٤٩٢، ولوامع الأنوار ٢/ ٢٦٥
(٧) انظر -للتوسع- في معرفة أدلة هذا الفريق في الفصل لابن حزم ٥/ ١٧، وفتح الباري ٦/ ٤٧٣، وتفسير القرطبي ٤/ ٨٣، وفلسفة النبوة لآدم الألوري ص١٤٦، وتفسير آيات القرآن عن علاقة الملائكة بالإنسان ص ١٠٢

فأرصد الله له على مدرجته[١] ملكا فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها؟[٢] قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)[٣].

فثبت بهذا الحديث أن الله تعالى قد أرسل ملكا من ملائكته، واسطة بينه، وبين هذا الرجل الصالح ليعلمه فضل الحب في الله تعالى، ومنزلة المتحابين فيه.

رابعا: الملك الذي بعثه الله إلى الأبرص، والأقرع، والأعمى في بني إسرائيل لابتلائهم:

روى البخاري، ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة (أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إن ثلاثة في بني إسرائيل أبرص، وأقرع، وأعمى بدا لله عز وجل أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال لون حسن، وجلد حسن، قد قذرني الناس، قال فمسحه، فذهب عنه، فأعطي لونا حسنا، وجلدا حسنا، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل -أو قال البقر- فأعطي ناقة عُشَراء[٤]، فقال: يبارك لك فيها. وأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب، وأعطي شعرا حسنا، وقال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر، قال فأعطاه بقرة حاملا، وقال: يبارك لك فيها. وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إلي بصري، فأبصر به الناس، قال: فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه شاة والدا. فأُنتج هذان، ووُلِّد هذا. فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم، ثم إنه أتى الأبرص في صورته، وهيئته فقال: رجل مسكين تقطعت به الحبال[٥] في سفره، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال

---

(١) المدرجة: الطريق، انظر شرح النووي لصحيح مسلم١٦/ ١٢٤، والذيل على النهاية في غريب الحديث لابن علوش ص ١٦٥

(٢) تربها: أي تقوم بإصلاحها وتنهض إليه بسبب ذلك؟ انظر النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٨٠، مادة(ر ب ي)

(٣) أخرجه مسلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب البر والصلة والآداب باب فضل الحب في الله تعالى ١٦/ ١٢٤

(٤) ناقة عُشَراء: هي التي مر على حملها عشرة أشهر من يوم طرقها الفحل. انظر مختار الصحاح ص ٤٣٤ مادة (ع ش ر) والمصباح المنير ٢/ ٤١١ مادة (العشر).

(٥) الحبال: جمع حبل وهي الأسباب التي يقطعها في طلب الرزق، وقيل العقبات، وقيل الحبل ما طال من الرمل وامتد واجتمع وارتفع. قال الشاعر:

فراح بها من ذي المجاز عشية ... يبادر أولى السابقات إلى الحبل

انظر المصباح المنير ١/ ١١٩ مادة (الحبل) وفتح الباري ٦/ ٥٠٢



بعيرا أتبلغ به في سفري، فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيرا، فأعطاك الله؟ فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، فرد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين وابن السبيل وتقطعت به الحبال في سفره، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، قال له: قد كنت أعمى فرد الله بصري، وفقيرا فقد أغناني، فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك[1] اليوم بشيء أخذته لله، فقال أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك)[2].

فدل هذا الحديث على أن الله تعالى قد بعث ملكا من ملائكته واسطة بينه وبين هؤلاء الثلاثة نفر من بني إسرائيل لابتلائهم، وامتحانهم، وأنه أتاهم على صورة رجل من البشر.

خامسا: ملائكة الليل، وملائكة النهار الذين يتعاقبون في بني آدم: فعن أبي هرية رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر، وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم -وهو أعلم بهم- كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم، وهم يصلون، وأتيناهم، وهم يصلون**)[3].

وذكر الحسن البصري: الحفظة أربعة من الملائكة يعتقبون الإنسان، ملكان بالليل، وملكان بالنهار، وتجتمع هذه الأملاك الأربعة عند صلاة الفجر، وهو قوله تعالى: ﴿**إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾[4][5].

فدل هذا الحديث على أن هناك واسطة من الملائكة، وهم أربعة يرسلهم الله إلى بني آدم، مرتين: مرة في صلاة الفجر، ومرة في صلاة العصر.

---

(١) أي لا أبلغ مشقتك. انظر المصباح المنير ١/ ١١٢، مادة (الجهد).

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له، ٦/ ٥٠٠ رقم الحديث ٣٤٦٤، ومسلم، انظر صحيح مسلم شرح النووي كتاب الرهن ١٨/ ٩٧

(٣) رواه البخاري، ٢/ ٣٣ حديث٥٥٥، ومسلم انظر كتاب المساجد باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما٥/ ١٣٣

(٤) سورة الإسراء الآية ٧٨

(٥) انظر الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقاد لأبي عمرو الداني ص٦٣



فمما تقدم يتبين لنا أن الله تعالى قد أرسل جبريل عليه السلام واسطة إلى غير الأنبياء ليوحي إليهم بأمره تعالى ما يشاء. والله لا يسأل عما يفعل وله في خلقه شؤون.

المطلب الرابع: الوحي وأنواعه.

تقدم معنا في مباحث هذا الفصل بيان الواسطة بين الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، وهم الملائكة المكرمون، وبينا أن الملك الموكل بالوحي هو جبريل عليه السلام أمين الوحي، وفي هذا المطلب نلقي الضوء على هذا الوحي الذي كان ينزل به الواسطة الملكي من عند الله تعالى على الواسطة البشري؛ لبيان معانيه، وأنواعه فنقول: -

الوحي لغة: الإعلام في خفاء، تقول: أوحى إليه، وأوحى عليه بمعنى، والكتابة، والإلهام، والأمر، والإيماء، والإشارة، والتصويت شيئا بعد شيء[١]. وقيل: الوحي: التفهيم، وكل ما أفهمته غيرك، سواء كان بكلام، أو كتابة، أو قول، أو إشارة، أو رسالة، فهو وحي.

قال الراغب: (أصل الوحي الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: (أمر وحي)، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز، والتعريض، وقد يكون بصوت، مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة)[٢]. ومن وحي الإيماء بالجوارح قول الشاعر[٣]: -

نظرت إليها نظرة فتحيرت	**دقائق فكري في بديع صفاتها**
فأوحى إليها الطرف أني أحبها	**فأثر ذاك الوحي في وجناتها**

فمادة كلمة (الوحي) تدل على معنيين أصليين هما: الخفاء، والسرعة؛ ولهذا اختار صاحب الوحي المحمدي تعريفه بقوله: (إنه الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه؛ بحيث يخفى على غيره)[٤].

هذا معنى المصدر (الوحي)، ويطلق، ويراد به أيضا معنى اسم المفعول[٥].

---

(١) انظر تهذيب اللغة٥/ ٢٩٦ مادة (وحي) وأساس البلاغة ص٤٩٤ مادة (و-ح-ي)، ومختار الصحاح ص٧١٣ مادة (و - ح - ي) وترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير للطاهر الزاوي٤/ ٥٨٥ مادة (وحي).

(٢) المفردات ص٥١٥ مادة (وحي).

(٣) انظر الوحي المحمدي ص٤٣

(٤) الوحي المحمدي ص٤٤

(٥) انظر المرجع نفسه، والموضع بعينه.

الوحي بمعناه اللغوي يتناول المعاني التالية[١]:-

١- الإلهام للإنسان، كالوحي إلى أم موسى على نبينا، وعليه السلام، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[٢].

٢- الإلهام الغريزي، والتسخير للحيوان، كالوحي إلى النحل، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[٣].

٣- الإشارة السريعة على سبيل الرمز، والإيحاء، كإيحاء زكريا على نبينا وعليه السلام إلى قومه، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[٤].

٤- وما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٥].

٥-وسوسة الشيطان، وتزيينه الشر للإنسان، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[٦].

وحاصل المعاني للوحي اللغوي أنه: الإعلام في خفاء، وسرعة، وهذا أعم من أن يكون بإشارة، أو كتابة، أو رسالة، أو إلهام، والوحي بهذه المعاني لا يختص بالأنبياء، ولا بكونه من عند الله عز وجل[٧].

الوحي في الشرع: يطلق الوحي على الإعلام بالشرع، فيطلق، ويراد به المعنى المصدري، كما يطلق، ويراد به الموحى به[٨].

وتعريفه من الجهة الأولى: هو إعلام الله أنبياءه بما يريد أن يبلغه إليهم من شرع، أو

---

(١) انظر الوحي المحمدي ص٤٤، ومباحث في علوم القرآن للقطان ص٢٦، والرسول والوحي للدكتور محمد المسير ص٢٠٥، وموارد الظمآن في علوم القرآن للشيخ صابر أبي سليمان ص٩، وهدى الفرقان في علوم القرآن للدكتور غازي عناية ص٤٩، والأسس العقدية التشريعية والأخلاقية كما تصورها سورة النجم لفضيلة الدكتور محمد عمر حوية ص٦٩

(٢) سورة القصص الآية ٧

(٣) سورة النحل الآية ٦٨

(٤) سورة مريم الآية ١١

(٥) سورة الأنفال الآية ١٢

(٦) سورة الأنعام الآية ١٢١

(٧) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي١/ ١٢٨، والوحي المحمدي ص٤٤، ومناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني١/ ٥٦، ومباحث في علوم القرآن للقطان ص٣٢

(٨) انظر الوحي المحمدي ص٤٤، ومباحث في علوم القرآن للقطان ص٢٦، وهدى الفرقان للدكتور غازي ص٥٢



كتاب بواسطة، أو بغير واسطة، فهو أخص من المعنى اللغوي؛ وذلك لخصوص مصدره، ومورده، فقد خص المصدر بالله تعالى، وخص المورد بالأنبياء عليهم السلام.

ويُعَرَّف من الجهة الثانية بأنه: ما أنزل الله على أنبيائه، وعرفهم به من أنباء الغيب، والشرائع، والأحكام؛ فمنهم من أنزل عليه كتابا، ومنهم من لم ينزل عليه كتابا[١].

وقيل في تعريف الوحي: إنه (صلة بين الرب سبحانه وتعالى، وبين من يصطفيه من خلقه؛ ليتحمل أمانة التبليغ عند الخالق إلى الخلق)[٢].

وينقسم الوحي باعتبار المعنى المصدري إلى الأحوال التالية[٣]:-

(أ) تكليم الله نبيه بما يريد منوراء حجاب، كما حصل لموسى -على نبينا وعليه الصلاة والسلام- قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[٤]، وكما حصل لخاتم النبيين ﷺ ليلة الإسراء، والمعراج.

(ب) الإلهام، والقذف في القلب؛ بأن يلقي الله، أو الملك الموكل بالوحي في قلب النبي ما يريد، مع تيقن النبي أن ما ألقي إليه من قبل الله تعالى، وذلك مثل ما ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: (إن روح القدس نفث في رُوعي[٥] أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا الطلب)[٦].

(ج) الرؤيا في المنام، ورؤيا الأنبياء وحي، وذلك مثل رؤيا إبراهيم الخليل أنه يذبح ابنه عليهما السلام، ورؤيا نبينا صلى الله عليه وسلم أنه سيدخل المسجد الحرام مع المسلمين.

(د) تعليم الله أنبياءه بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وهذا القسم يعرف بالوحي الجلي[٧]، وقد بين الله سبحانه وتعالى كيفية التلقي عنه بهذه الأقسام[٨] في قوله

---

(١) انظر الوحي المحمدي ص٤٤، ومباحث في علوم القرآن للقطان ص٢٧

(٢) الرسول والوحي ص٢٣٧

(٣) انظر مناهل العرفان١/ ٦٤، ومباحث في علوم القرآن للقطان ص٣٠، وموارد الظمآن ص١٠، وهدى الفرقان ص٦١

(٤) سورة النساء الآية ١٦٤

(٥) الروع -بضم الراء-: القلب، والعقل، وبفتحها: الفزع، والمراد الأول. انظر لسان العرب٥/ ٣٧٣ مادة (روع).

(٦) أخرجه الإمام الشافعي في مسنده ص٢٣٣، والحاكم في المستدرك٢/ ٥ وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح برقم(٥٣٠٠)، وفقه السيرة ص٩٥

(٧) انظر مناهل العرفان١/ ٦٤، ومباحث في علوم القرآن للقطان ص٣٢

(٨) وقد جعل شيخ الإسلام ابن تيمية تكليم الله لعباده على ثلاثة أوجه -حيث عد الإلهام، والرؤيا في المنام قسما واحدا- أخذا من ظاهر الآية. انظر مجموع الفتاوى٢/ ٢٢٨، ٤/ ٣٧٥

تعـالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[1].

إذ المراد بالوحي في الآية : الإلهام، أو المنام؛ لمقابلته للقسمين الأخيرين : التكلم من وراء حجاب، أو بواسطة الملك[2].

وعليه فإن الوحي بجميع أنواعه يلازمه علم يقيني، وضروري من الموحى إليه، بأن ما ألقي إليه، وأوحي به إليه وحي من الله لا شك فيه، وهذا العلم ضروري لا يحتاج إلى مقدمات؛ لأنه من باب إدراك الأمور الوجدانية، كالظمأ، والجوع، وغير ذلك، فلا مجال لخطرات القلوب، ولا توهمات النفس، ولا نزغات الشياطين[3].

واعلم أن القرآن الكريم تلقفه الواسطة الملكي جبريل عليه السلام سماعا من الله تعالى بلفظه المخصوص، ثم نزل به على الواسطة البشري، نبينا محمد ﷺ يقظة، وليس من القرآن شيء مناما، وهذا القول هو الصواب، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، وله تشهد الشواهد، وعليه تتوافر الأدلة[4].

---

(١) سورة الشورى الآية ٥١

(٢) انظر الأسس العقدية التشريعية والأخلاقية كما تصورها سورة النجم للدكتور محمد عمر حوية ص٧٢

(٣) انظر الوحي المحمدي ص٤٦، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص٢٧، وهدى الفرقان ص٥٣

(٤) انظر الإتقان في علوم القرآن١/ ١٢٦، ومباحث في علوم القرآن للقطان ص٢٩، وهدى الفرقان ص٥٥، والأسس العقدية التشريعية للدكتور محمد عمر حوية ص٧٤



المبحث الثالث

الحكمة في كون الواسطة من البشر

من سنة الله تعالى أن يختار للرسالة من يصطفيه من الملائكة، ومن البشر. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[١] لذلك فإننا نجد أن الواسطة من الأنبياء والرسل بلغوا ذروة الكمال البشري في خلقهم وأخلاقهم، وفي أحسابهم، وأنسابهم، وقد اصطفاهم الله سبحانه وتعالى، وخصهم بهذه الصفات، وهيأهم بها، لتحمل أعباء الرسالات السماوية، وكانوا جميعا على هذا المنوال من لدن أولهم آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد ﷺ[٢] واقتضت حكمة الله تعالى في الأمم الماضية أن يبعث كل رسول إلى أمته خاصة، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾[٥] .ولم يبعث الله رسولا للبشرية كلها إلا خاتم النبيين محمدا ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[٦].

وروى الإمام أحمد في المسند، وابن حبان في صحيحه وغيرهما من حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعا: **(أن عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر)**[٧].

وهذا الجم الغفير من الأنبياء والرسل يدلنا على أن الذين نعرف أسماءهم من الرسل والأنبياء قليل، وأن هناك أعدادا كثيرة لا نعرفها كانوا واسطة بين الله تعالى وأممهم، وقد صرح القرآن الكريم بذلك في مواضع شتى فقال تعالى: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾[٨]، فكل نبي أو رسول كان واسطة بين الله تعالى وقومه،

---

(١) سورة الحج الآية ٧٥

(٢) انظر لوامع الأنوار ٢/ ٢٦٩، والحكمة من إرسال الرسل للشيخ عبد الرزاق عفيفي ص١٣، ومنهج الرسل الكرام في الدعوة إلى الله في القرآن د/ أحمد عبيد رسالة دكتوراه غير منشورة ص ١٠٦

(٣) سورة فاطر الآية ٢٤

(٤) سورة هود الآية ٢٥

(٥) سورة الأحقاف الآية ٢١

(٦) سورة سبأ الآية ٢٨

(٧) المسند ٥/ ٢٦٥، وصحيح ابن حبان ٢/ ٧٦، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٢٥٨ وأورده الهيثمي في المجمع ١/ ١٥٩ ثم قال: ومداره على علي بن يزيد وهو ضعيف، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره ١/ ٥٨٦ معان بن رفاعة السلامي ضعيف وعلي بن يزيد ضعيف، والقاسم أبو عبد الرحمن ضعيف أيضا.

(٨) سورة النساء الآية ١٦٤

وأخبرنا الله باسمه في كتابه العزيز، أو عرفنا إياه رسوله ﷺ يجب الإيمان به على الخصوص، وعدم التكذيب به، وأما الواسطة من الرسل الذين لم يذكرهم القرآن ولم يسموا في السنة، فنؤمن بهم في الجملة(١).

وقد شاءت حكمة العليم الخبير أن تكون الواسطة من الرسل الذين يرسلهم الله إلى البشر من البشر أنفسهم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾(٢).

وقال أيضا: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾(٣). وقد تساءل أعداء الرسل وتعجبوا كيف يكون النبي بشرا له خصائص البشرية في المأكل والمشرب وكافة شؤون المعاش؟

وكانت هذه الشبهة من أعظم ما صد الناس عن الإيمان بالله وتصديق الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً﴾(٤).

وهذه الشبهة الجاهلية سرت على لسان المكذبين أعداء الرسل في جميع الأمم فقد قالوها لنوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾(٥).

وقالوها لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾(٦)

وقالها أصحاب القرية لرسلهم: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾(٧).

وقالها مشركو مكة لخاتم النبيين محمد ﷺ: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾(٨)(٩).

ولما تشبعت أذهان المعاندين للرسل بهذه الشبهة عدوا أتباع هؤلاء الرسل فيما جاءوا به من عقائد وشرائع -بسبب بشريتهم- أمرا قبيحا واعتبروه خسرانا مبينا فقال تعالى على

---

(١) انظر فتح الباري ٦/ ٣٦١، وتفسير الشوكاني ١/ ٥٣٩، والرسل والرسالات للأشقر ص١٧
(٢) سورة الكهف الآية ١١٠
(٣) سورة إبراهيم الآية ١١
(٤) سورة الإسراء الآية ٩٤
(٥) سورة المؤمنون الآية ٢٤
(٦) سورة المؤمنون الآية ٤٧
(٧) سورة يس الآية ١٥
(٨) سورة الأنبياء الآية ٣
(٩) انظر الرسول والوحي ص٣٠٥



لسانهم: ﴿فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾(١) .وقال عنهم أيضا: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾(٢).

عند ذلك اقترح أعداء الرسل أن تكون الواسطة بين الله، وبين سائر البشر من الملائكة فيعاينونهم ويشاهدونهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾(٣) .ثم قالوا: فإن لم يكن ذلك فعلى الأقل يبعث الله مع الواسطة من البشر واسطة من الملائكة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾(٤).

وعندما نتأمل النصوص القرآنية التي جاءت في معرض الرد على هذا التساؤل ومعالجة هذه الشبهة نجد أن الحكمة في كون الواسطة من البشر تكمن في الوجوه الآتية:

أولا: أن الله اصطفى رسله إلى البشر من البشر أنفسهم ولم يجعلهم ملائكة، بل يجوز عليهم ما يجوز على البشر مما لا يقدح في منازلهم العالية، فالواسطة من الأنبياء رجال من الناس يتمتعون بكافة خصائص الجسد البشري ومقوماته، وتتطلب منهم بشريتهم أن يتعاطوا مستلزمات الجسد، واحتياجاته من طعام، وشراب، ونوم، وتعب، ونصب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾(٥) (والحاصل أنهم عليهم الصلاة والسلام من البشر، وأرسلوا إلى البشر، فظواهر هم خالصة للبشر، يجوز عليها من الآفات، والتغيرات، والآلام، والأسقام، وتجرع كأس الحمَام(٦)ما يجوز على البشر مما لا نقيصة عليه فيه، ولا يوجب الاتصاف به نوع نفرة عند كل نبيه)(٧)، وبما أنهم بشر، ولهم أجساد فمصيرهم إلى عالم آخر، إذ لا خلود للبشر في الحياة الدنيا(٨) قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾(٩)، وللطبيعة البشرية لهذا النوع من الواسطة فإنهم يتزوجون، ويتناسلون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾(١٠).

---

(١) سورة القمر الآية ٢٤
(٢) سورة المؤمنون الآية ٣٤
(٣) سورة الفرقان الآية ٢١
(٤) سورة الفرقان الآية ٧
(٥) سورة الفرقان الآية ٢٠
(٦) الحمام بكسر الحاء المهملة: قدر الموت. انظر مختار الصحاح ص ١٥٧ مادة (ح م م).
(٧) لوامع الأنوار ٢/ ٣١٠
(٨) انظر نبوة محمد (في القرآن ص ٦٨، والرسول والوحي ص ٣٠٦
(٩) سورة الأنبياء الآية ٨
(١٠) سورة الرعد الآية ٣٨

ثانيـا: أن النبوة سفارة بين الله تعالى وعباده يصطفي الله لها من يشاء من البشر فيكون أفضلهم وأحوزهم لصفات الكمال البشري، وأما التمايز بين الأنبياء وسائر البشر فإنما هو في الوحي وتلقي الشرائع، وذلك أمر لا اختيار للنبي فيه، وليس من تلقاء نفسه(١). قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٢).

فالنبوة إذاً تكريم، وتفضيل لهذا النوع من البشر الذين سبقت لهم من الله الحسنى واجتباهم الله، وهداهم، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾(٣).

ثالثا: أن إرسال واسطة بشرية إلى الناس أنسب لحصول القدوة والأسوة، يقول الإمام ابن كثير: (فمن رحمته تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلا منهم؛ ليدعو بعضهم بعضا؛ وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾(٤) الآية)(٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في رده على المنطقيين -مبينا أن توسط البشر بالرسالة مثل توسط الملائكة بالرسالة: (فقوله: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾(٦) تنبيه على نعمته على البشر، وإحسانه إليهم؛ إذ بعث إليهم من يصحبهم ويصحبونه بشرا مثلهم فإنهم لا يطيقون الأخذ عن الملك)(٧).

فالناس أحوج ما يكونون إلى الرسول القدوة من بني جنسهم يحس بإحساسهم، ويدرك آلامهم وآمالهم، ويعطف على ضعفتهم، ويجبر كسيرهم، ويسير بهم خطوة خطوة، كما ينزل عليه الوحي، نحو تطبيق شرع الله فيهم فيشهدون بذلك شريعة الله على بساط الواقع، والتطبيق العملي، فهو المقصود الآكد من الشرائع؛ فإنها لم تنزل لمجرد استماعها، والمعرفة النظرية لها، فيكون الرسول الواسطة بشخصه حينئذ ترجمة حية

---

(١) انظر أعلام النبوة ص ٢٥٤، والرسول والوحي ص ٣٠٧

(٢) سورة إبراهيم الآية ١١

(٣) سورة مريم الآية ٥٨

(٤) سورة آل عمران الآية ١٦٤

(٥) تفسير ابن كثير ٢/ ١٢٩

(٦) يشير رحمه الله إلى الآية الكريمة ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ سورة النجم الآيتان (١-٢).

(٧) كتاب الرد على المنطقيين ص ٥٣٩

للعقيدة التي يحملها إليهم، وتكون حياته، وجهاده، وأعماله كلها صفحة معروضة أمامهم ليتسنى لهم التأسي به، والعمل على منواله؛ لأنه إنسان مثلهم، ويوضح هذا أننا لو قلنا: إنه لا بد من واسطة بين الله وعباده في تبليغ رسالاته، فهل يصح أن تكون هذه الواسطة حجرا منصوبا، أو شجرة فارعة يخلق الله فيها صوتا يكلم الناس قائلا: (الله يأمركم بكذا، وينهاكم عن كذا. . .)!؟ لا شك أن هذا لو حصل لجمع من الناس لتملك الفزع، والرعب قلوبهم، وأفئدتهم، ولعقدت الدهشة ألسنتهم، ولاذوا فيه بالفرار؛ لأن هذا الأمر مما لا يألفونه بحال؛ بخلاف ما إذا كان المتكلم بهذا الأمر شخصا من الأشخاص أعده الله لحمل أعباء الرسالة الإلهية، وأحاطه بظروف خاصة، وهيأه حتى جعله قابلا لتلقي الوحي، وتبليغ رسالة الله؛ وذلك لا يكون إلا بشرا رسولا[(١)].

رابعا: أن الملك لا يصلح أن يكون رسولا للبشر لبعد الفجوة، وتباين الخصائص بين الملائكة والبشر، فلا يكون المثل الأعلى قريبا للمحاكاة؛ لأن كل جنس إنما يأنس بجنسه، وقوى الإنسان لا تتحمل رؤية الملك في صورته الحقيقية، فالاتصال بالملائكة ورؤيتهم أمر ليس بسهل[(٢)]، فالرسول صلى الله عليه وسلم مع كونه أفضل الخلق، ورزقه الله قسطا عظيما من القوة الجسمية، والنفسية عندما رأى جبريل على صورته[(٣)] أصابه هول عظيم ورجع إلى خديجة رضي الله عنها يرجف فؤاده.

يقول العلامة ابن القيم: (بين سبحانه أنه لو أنزل ملكا كما اقترحوا لما حصل به مقصودهم؛ لأنه إن أنزله في صورته لم يقدروا على التلقي عنه؛ إذ البشر لا يقدرون على مخاطبة الملك، ومباشرته، وقد كان النبي ﷺ -وهو أقوى الخلق- إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك، وتحدر منه العرق[(٤)] في اليوم الشاتي)[(٥)].

وقد بين الله عز وجل -في الرد على طلب الكفار أن تكون الواسطة إليهم ملكا رسولا- أن سكان الأرض ليسوا ملائكة، فلو كانوا ملائكة لأرسل الله إليهم رسولا من جنسهم، : **﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل**

---

(١) انظر نبوة محمد ﷺ في القرآن ص ٧٣ (بتصرف)، وتفسير الشوكاني ٢/ ١٠١، ودفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين ص ٦٦، والرسل والرسالات للأشقر ص ٧١

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي ١٢/ ١٦١، وأضواء البيان ٢/ ١٦٤

(٣) قد رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل على صورته مرتين.

(٤) سبق الحديث عن ذلك.

(٥) التفسير القيم ص ٢٣٣

لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾[١] . أمـا وإن الذين يسكنون الأرض ليسوا كذلك بل هم بشر فرحمة الله، وحكمته تقتضي أن تكون الواسطة إليهم من جنسهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[٢].

وقد تمادى الكفار في غيهم، وعنادهم، وطلبوا إنزال ملك مع رسول الله ﷺ يكون معاضدا له، وشاهدا معه على صدق رسالته، ولم يكن طلبهم هذا استهداء، واسترشادا، وإنما كان معاجزة، وعنادا، ولو أجابهم الله إلى ما طلبوا على سبيل الفرض والاحتمال، فلن يؤمنوا بصدق الواسطة النبي، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً[٣] مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾[٤] .

ومن سنة الله أن الكفار لا يرون الملائكة إلا حين الموت، أو حين نزول العذاب، فلو قدر أنهم رأوا الملائكة لكان ذلك اليوم يوم هلاكهم، فأصبحوا بطلبهم إنزال ملك رسول يطلبون ما فيه عذابهم، وهلاكهم[٥]، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾[٦]، ثم بين سبحانه وتعالى ما جرت به سنته في خلقه أنه عند تلبيته مطالب المعاندين، ثم عدم إيمانهم، واستجابتهم يستأصلهم الله، ويهلكهم بعذاب من عنده[٧]، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ ﴾[٨].

خامسا: لو أرسل الله إلى البشر واسطة من الملائكة لم تكن إلا على هيئة رجل من بني آدم، ولبقيت الشبهة في بشرية الواسطة قائمة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[٩] .ففي هذه الآية يخبر الله تعالى أنه لو بعث رسولا ملكا إلى الناس لكان على هيئة رجل منهم ليمكنهم مخاطبته، والقرب منه، والأنس به والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس الأمر عليهم[١٠].

فلو بعث الله ملكا واسطة على صورة رجل ليبلغ الناس رسالة الله لكان محتاجا إلى

(١) سورة الإسراء الآيتان (٩٤- ٩٥). (٢) سورة آل عمران الآية ١٦٤

(٣) قُبُلاً: أي معاينة، ومقابلة، وقال مجاهد: معناه أفواجا قبيلا، قبيلا، تعرض عليهم كل أمة بعد أمة فيخبرونهم بصدق الرسل. انظر المفردات ص ٣٩٢ مادة (قبل)، وتفسير ابن كثير ٢/ ١٧١

(٤) سورة الأنعام الآية ١١١ (٥) انظر التفسير القيم ص ٢٣٣

(٦) سورة الفرقان الآية ٢٢ (٧) انظر تفسير الفخر الرازي ١٢/ ١٦١، وتفسير ابن كثير ٢/ ١٢٩

(٨) سورة الأنعام الآية ٨ (٩) سورة الأنعام الآية ٩

(١٠) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ١٢٩



التصديق في ادعاءين متلازمين : -

أولهما: أنه ملك صيره الله على هيئة رجل .

وثانيهما: أنه مرسل من عند الله ليبلغهم رسالة الله ، وأن عليهم أن يسمعوا له ويطيعوه ، ألا ترى أن الرسول البشري لما جاء بادعاء واحد كذبه الناس وعادوه ، وآذوه ، فإذا جاءهم بهذين الادعاءين المركبين لم يكونوا أقرب إلى التصديق؟!(1) .

ثم إن إنزال الملك وإن كان يدفع شبهة البشرية على حد زعم المعاندين إلا أنه يقوي الشبهات من وجه آخر ، وذلك لأن أي معجزة ظهرت على يديه عانده المرسل إليهم بقولهم : هذا فعلك فعلته باختيارك وقدرتك ، ولو أن الله أقدرنا على ما أقدرك عليه من القوة والعلم لفعلنا مثل ما فعلت أنت(2) .

وقول الله تعالى : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾(3) يدل على أن الواسطة ينبغي أن يكون من نوع المرسل إليهم ، ومن جنسهم ، ألا ترى أن كثيرا من الرسل عاينوا الملائكة في صورة البشر(4)كأضياف إبراهيم ، وأضياف لوط ، وكالذين تسوروا المحراب ودخلوا على داود ، وكجبريل حين تمثل لمريم بشرا سويا ، ولنبينا محمد ﷺ مرارا ، مقويا ، ومسليا(5) .

ولعل من أظهر الحكم الإلهية في العدول عن إرسال الملائكة واسطة بين الله والناس : أن الملائكة من طبيعة مغايرة خالية من الغرائز ، مصونة عن الشهوات ، فلو طلبوا من الناس الاقتداء بهم في الامتناع عن الشهوات المحرمة ، وعدم معصية الله لما استجابوا لهم ، ولاعتذر الناس بمعاذير متنوعة ، منها : اختلاف الطبيعتين ، وأن الملائكة جبلوا على الطاعة دون البشر(6) .

ثم بين الله سبحانه وتعالى أنه لو أنزل واسطة من الملائكة إلى الناس -كما طلب المعاندون- وجاءتهم هذه الواسطة في صورة البشر فإن الشبهة ستظل قائمة في نفوسهم ، ويلتبس عليهم الأمر كما يلبسون هم على أنفسهم في قبول رسالة الواسطة البشري ، وسيقفون مشدوهين قائلين حينئذ : هل هذا الرسول رجل أو ملك؟! قالتعالى : ﴿وَلَوْ

---

(1) انظر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ص ٧٤

(2) انظر تفسير الرازي ١٢/ ١٦٢ (3) سورة الأنعام الآية ٩

(4) وقد رأى غير الأنبياء الملائكة في صورة البشر . انظر المبحث السابق : الملائكة واسطة بين الله وغير الأنبياء .

(5) انظر تفسير الرازي ١٢/ ١٦٢ ، وأضواء البيان ٢/ ١٦٥

(6) انظر تفسير الرازي ١٢/ ١٦٢ ، ونبوة محمد (في القرآن ص ٧٧

جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[1].

فأعلم الله عز وجل نبيه ﷺ أنه لو نَزَّل ملكا على هذه الحال لوجد المعاندون سبيلا إلى اللبس، والتشكيك، كما كانوا هم يخلطون، ويلبسون على ضعفتهم[2].

وإذا كان الأمر كذلك فما الفائدة من إرسال الرسل من الملائكة على هذا النحو؟ فمن حكمة الله ورحمته بالناس أنه لم يجعل أمر الواسطة مشتبها، ولا مشكلا، بل أرسل إلى الناس واسطة من جنسهم، كانوا في الدنيا مصابيح هدى، وللناس قدوة تحتذى، رسلا مبشرين ومنذرين، فسبحانه من حكيم خبير، وبالمؤمنين رؤوف رحيم.

وقد ذكر الفخر الرازي في بيان الحكمة من بشرية الواسطة أمورا: -

أولها: أن الجنس إلى الجنس أميل.

وثانيها: أن البشر لا يطيقون رؤية الملك.

وثالثها: أن طاعات الملائكة قوية فيستحقرون طاعة البشر.

ورابعها: أن النبوة فضل من الله فيختص بها من يشاء من عباده، سواء كان ملكا، أو بشرا[3].

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ١٢٩، وتفسير الشوكاني ٢/ ١٠١، ومجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ٥/ ١٢٥

(٣) انظر تفسير الفخر الرازي ١٢/ ١٦٢



المبحث الرابع

تقيد أهل السنة والجماعة بالكتاب والسنة في فهم الواسطة.

التمسك بالكتاب والسنة والتقيد بهما في الورود والصدور والتحاكم إليهما في موارد النزاع وتحكيمهما في كل صغير وكبير، والرضا بذلك والانقياد له هو أصل الدين وأساسه وهو منهج أهل السنة والجماعة، بذلك جاءت النصوص وعليه توافرت الأدلة وقامت البراهين وكثرت الشواهد. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[1] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾[3] .ولأنهما حق، والحق أحق أن يتبع: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾[4] .وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال: (**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه**)[5].

وقد خصص الإمام البخاري كتابا في صحيحه لهذا الموضوع وترجم له بـ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة)[6].

قال الإمام الكرماني[7] رحمه الله- في شرحه لترجمة كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة:

---

(١) سورة النساء الآية ٥٩ (٢) سورة النور الآية ٥١

(٣) سورة ألحزاب الآية ٣٦ (٤) سورة التوبة الآية ٦٢

(٥) رواه الإمام مالك مرسلا، والحاكم من حديث ابن عباس انظر تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك ٣/ ٩٢، والمستدرك ١/ ,٩٣ قال الحاكم: وهذا الحديث لخطبة النبي ﷺ متفق على إخراجه في الصحيح ووافقه الذهبي وقال: وله أصل في الصحيح. وقال الشيخ الألباني: إسناده حسن وله شاهد من حديث جابر خرجته في السلسلة الصحيحة. انظر السلسلة الصحيحة رقم الحديث (١٧٦١) والتوسل له أيضا ص ١٤، ثم وجدته في مقدمة السلسلة يقول: ثم وقفت له على شاهد ثالث من حديث أنس في طبقات الأصفهانيين لأبي الشيخ ٤/أ مخطوطة الظاهرية فازداد الحديث قوة على قوة. مقدمة السلسلة الصحيحة ص ٢٧٩

(٦) انظر صحيح البخاري مع الفتح ١٣/ ٢٤٥

(٧) هو شمس الدين محمد بن يوسف بن علي بن سعيد الكرماني، ثم البغدادي، كان إماما في الفقه، والحديث، والتفسير، والمعاني، والعربية، ولد بكرمان سنة ٧١٧هـ، ثم ارتحل إلى شيراز، ودخل مصر، والشام، ثم حج، واستوطن بغداد، ألف تصانيف كثيرة، منها: شرحه لصحيح البخاري. مات سنة ٧٨٦هـ. انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٤/ ٣١٠، وبغية الوعاة للسيوطي ١/ ٢٧٩، والأعلام للزركلي ٧/ ١٥٣



(هذه الترجمة منتزعة من قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾[١] لأن المراد بالحبل الكتاب والسنة على سبيل الاستعارة، والجامع كونها سببا للمقصود وهو الثواب، والنجاة من العذاب)[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والله سبحانه أمرنا باتباع الرسول وطاعته وموالاته ومحبته وأن يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما وضمن لنا بطاعته ومحبته محبة الله وكرامته فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[٤] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٥] وأمثال ذلك في القرآن كثير، ولا ينبغي لأحد أن يخرج في هذا عما مضت به السنة وجاءت به الشريعة، ودل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه سلف الأمة، وما علمه قال به، وما لم يعلمه أمسك عليه[٦]، ولا يقفو ما ليس له به علم، ولا يقول على الله ما لم يعلم فإن الله تعالى قد حرم ذلك كله)[٧].

وقال أيضا رحمه الله -بعد نقله للآيات التي تصرح بوجوب اتباع كتاب الله والآيات التي تأمر بطاعة رسوله ﷺ- (فهذه النصوص توجب اتباع الرسول وإن لم نجد ما قاله منصوصا بعينه في الكتاب كما أن تلك الآيات توجب اتباع الكتاب وإن لم نجد ما في الكتاب منصوصا بعينه في حديث عن الرسول غير الكتاب فعلينا أن نتبع الكتاب، وعلينا أن نتبع الرسول، واتباع أحدهما هو اتباع للآخر، فإن الرسول بلغ الكتاب، والكتاب أمر بطاعة الرسول ولا يختلف الكتاب والرسول ألبتة، كما لا يخالف الكتاب بعضه أيضا)[٨]. والتزام الكتاب والسنة والتقيد بهما هو منهج أهل السنة والجماعة.

ولا شك أن من يلتزم بهذا المنهج فسوف يكون على الصراط المستقيم، ويقوده إلى رضوان الله والجنة، ويقيه المهالك والمهاوي التي سقط فيها كثير من طوائف أهل البدع عند ما نبذوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وراء ظهورهم.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: (وقد تبين أن الواجب طلب علم

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٣
(٢) فتح الباري ١٣/ ٢٤٥
(٣) سورة آل عمران الآية ٣١
(٤) سورة النور الآية ٥٤
(٥) سورة النساء الآية ١٣
(٦) هكذا في النص المطبوع، والأنسب للسياق (أمسك عنه).
(٧) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٢٧٠ وانظر معرفة علوم الحديث للحاكم ص ٢
(٨) مجموع الفتاوى ١٩/ ٨٤

ما أنزل الله على رسوله ﷺمن الكتاب، والحكمة، ومعرفة ما أراد بذلك، كما كان عليه الصحابة، والتابعون، ومن سلك سبيلهم، وكلما يحتاج إليه الناس فقد بينه الله ورسوله ﷺ بيانا شافيا كافيا، فكيف أصول التوحيد، والإيمان؟، ثم إذا عرف ما بينه ﷺ نظر في أقوال الناس، وما أرادوا بها فعرضت على الكتاب والسنة، والعقل الصريح الذي هو موافق للرسول ﷺ فإنه الميزان مع الكتاب فهذا سبيل الهدى، وأما سبيل الضلال والبدع والجهل فعكسه أن تبتدع بدعة بآراء رجال، وتأويلاتهم ثم يجعل ما جاء به الرسول ﷺ تبعا لها، وتحرف ألفاظه وتأول على وفق ما أصلوه وهؤلاء تجدهم في نفس الأمر لا يعتمدون على ما جاء به الرسول ﷺ تبعا لها، وتحرف من الهدى، ولكن ما وافقهم منه قبلوه وجعلوه حجة لا عمدة، وما خالفهم منه تأوَّلوه كالذين يحرفون الكلم عن مواضعه، أو فوضوه كالذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني)[1]فالله سبحانه جعل الكتاب والسنة أمرا خالدا على مر العصور ليتعلم منهما الجاهل ويسترشد بهما الضال، ويأمن الخائف ويتذكر المتذكر، ويعتبر المعتبر، ويستمد المؤمن، ويهتدي الباحث عن الحق، ويستنير الشاك، ويتقدم المتردد، ويطمئن الحيران، وليكون ملاذا عند الاختلاف وفيصلا عند اللبس، ورسما متبعا في الاعتقاد والتعبد، والتحكم والتحكيم، والإباحة والحظر، والتحليل والتحريم، وغير ذلك من أحكام العليم الحكيم، ومستنا يرجع إليه الأمر كله في التقديم والتأخير[2].

فأهل السنة والجماعة ملتزمون بالكتاب والسنة ومتقيدون بهما في جميع شؤونهم ما يقدمون عليه منها وما يذرونه، سواء في باب الاعتقاد والتعبد، والتشريع والمعاملات، أو السلوك، والأخلاق، ولما سلكوا هذا المنهج بلغ بهم أوسط السبل، وأقوم المناهج كما قال الإمام ابن كثير: (ولما جعل الله هذه الأمة وسطا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب)[3].

فأهل السنة والجماعة يحكمون كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺفي جميع أبواب الاعتقاد، ويعدونهما الأصل الذي يستدل به، ويرجع إليه عند النزاع؛ لأنهما مصدر التلقي؛ ولأن مسائل العقيدة من الأمور التوقيفية التي لا مجال للرأي فيها، بل يتوقف فيها

---

(١) الدرر السنية ٢/ ٨ وانظر عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية لشيخنا معالي الدكتور صالح العبود ص ١٨٣

(٢) انظر معارج الألباب ص ٦٩ والفتوى الحموية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٦٠

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٢٧٥، وانظر اليمانيات المسلولة ص ٢٥٥

نفيا أو إثباتا على الوحي من الكتاب والسنة مع إيقانهم بأن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح[١]، ولإيمانهم بأن الكتاب والسنة قد بينا جميع ما يحتاج المسلم إلى معرفته من مسائل الاعتقاد بيانا شافيا كافيا قاطعا للعذر، (وذلك أن أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب اعتقادها ويجب أن تذكر قولا أو تعمل عملا، كمسائل التوحيد، والصفات، والقدر، والنبوة، والمعاد، أو دلائل هذه المسائل، فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من هذه المسائل فقد بينه الله ورسوله بيانا شافيا قاطعا للعذر، إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين، وبينه للناس، وهو من أعظم ما أقام الحجة على عباده فيه بالرسل الذين بينوه وبلغوه، وكتاب الله الذي نقل الصحابة، ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه والحكمة التي هي سنة رسول الله ﷺ التي نقلوها أيضا عن الرسول مشتملة من ذلك على غاية المراد، وتمام الواجب، والمستحب، والحمد لله الذي بعث فينا رسولا من أنفسنا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة، الذي أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام دينا، الذي أنزل الكتاب تفصيلا لكل شيء، وهدى، ورحمة، وبشرى للمسلمين. . . وإنما يظن عدم اشتمال الكتاب والحكمة على بيان ذلك من كان ناقصا في عقله وسمعه، ومن له نصيب من قول أهل النار الذين قالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[٢]، وإن كان ذلك كثيرا في كثير من المتفلسفة، والمتكلمة، وجهال أهل الحديث، والمتفقهة، والصوفية)[٣].

ففي كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ غنية لطالب الحق عما سواهما من الآراء التي تحسنا وتقبحها العقول البشرية الناقصة، والتقشفات، والمواجيد التي يسميها بعض المبتدعة أذواقا، وأحوالا، فلا أحد أعلم بمصالح الخلق ومنافعهم، وما فيه فصل النزاع بينهم من خالق الخلق، الحكيم العليم سبحانه وتعالى، ولا أحد أعلم بذلك بعد الله من رسول الله ﷺ من أجل ذلك كان (أهل الإيمان إذا تنازعوا في شيء من القرآن ردوه إلى الله وسوله، كما رتب عليه الإيمان، فكل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين دقه، وجله، جليه، وخفيه ردوه إليهما، فلو لم يكن في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بيان ما تنازعوا فيه لم يأمر الله بالرد إليه؛ إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع، وقد أجمع الناس على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٢ (٢) سورة الملك الآية ١٠
(٣) درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٧، ومجموع الفتاوى ٣/ ٢٩٥

ﷺ هو الرد إليه نفسه في حياته، وإلى سنته ﷺ بعد وفاته، وقد جعل الله هذا الرد من موجبات الإيمان، ولوازمه، فإذا انتفى انتفى الإيمان ضرورة)[١].

ومن تلك المسائل التي يتقيد أهل السنة والجماعة بالكتاب والسنة في فهمها مسألة الواسطة بين الله وخلقه[٢]، فأهل السنة والجماعة بحكم سيرهم على هذا المنهج البين، والطريق الواضح، والصراط المستقيم، نظروا إلى نصوص الكتاب والسنة فوجدوها تثبت نوعا من الواسطة وتنفي أنواعا أخرى من الوسائط ما أنزل الله بها من سلطان، يتشبث بها أهل الأهواء والبدع، دون أن يسعفهم في إثباتها شيء من الأدلة المنقولة الصحيحة، أو يوافقهم عليها أهل العقول السليمة الصريحة، فأثبت أهل السنة والجماعة ما أثبته الكتاب والسنة، ونفوا ما عدا ذلك، سيرا مع الكتاب والسنة، ووقوفا مع النص وجودا وعدما، ولذلك نجد التوافق التام والانسجام المتكامل بين كلام أهل السنة والجماعة في بيان مفهوم الواسطة وبين ما دلت عليه آيات القرآن الكريم، والأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ وتلك ميزة امتاز بها أهل السنة والجماعة في كل عصر، ومصر عن غيرهم من أهل الأهواء، والبدع، وهي حصرهم لمصدر التلقي لدينهم في الكتاب والسنة، وهذا من الأصول التي اتفق عليها سلف هذه الأمة رحمهم الله، وهي أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم، كما يوضحه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: (وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا برأيه ولا ذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وجده، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول ﷺ جاء بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم)[٣]. عند ما أطلق أهل الأهواء، والبدع العنان لآراء الرجال وفتحوا الباب لأقيسة المناطقة، وأصغوا بآذانهم لسفسطات الفلاسفة، ولم يتقيدوا بالكتاب والسنة لتسلم عقيدتهم، وتصفوا آراؤهم، ويستقيم منهجهم، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فكان جزاؤهم أن تخبطوا في دوامة من الحيرة، والشك، والهذيان.

يقول العلامة ابن القيم: (لقد استبان والله الصبح لمن له عينان ناظرتان، وتبين الرشد

---

(١) لوامع الأنوار ١ / ٦، وانظر الرد على شبهات المستعينين بغير الله ص ٢١

(٢) انظر الواسطة بين الحق والخلق ص ١٠ ومجموعة الرسائل الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة (الوصية الكبرى) ١/ ٢٧٩

(٣) مجموع الفتاوى ١٣/ ٢٨، وانظر مجموع رسائل الشيخ ابن عثيمين ٦/ ٥٨، وتعريف الخلق بمذهب السلف ص ٩٧

من الغي لمن له أذنان واعيتان، لكن عصفت على القلوب أهوية البدع، والشبهات، والآراء المختلفات، فأطفأت مصابيحها، وتحكمت فيها أيدي الشهوات فأغلقت أبواب رشدها، وأضاعت مفاتيحها، وران عليها كسبها، وتقليدها لآراء الرجال، فلم تجد حقائق القرآن والسنة فيها منفذا، وتمكنت فيها أسقام الجهل، والتخليط، فلم تنتفع معها بمصالح الغذاء، واعجبا!! جعلت غذاءها من هذه الآراء التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولم تقبل الاغتذاء بكلام الله تعالى ونص نبيه المرفوع)[١].

ومن المعلوم أنه تقرر في مقاصد الشريعة أن الوسائل لها أحكام المقاصد والغايات[٢]، وما دام مقصود المتوسل إلى الله تعالى بالواسطة هو قبول أعماله، وتحقيق آماله، ونيل المنى، وكف الأذى، فينبغي أن يقصد الوسائل المشروعة، ويتخذ الواسطة الشرعية الثابتة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، والتوسل بأسماء الله تعالى، وصفاته، وبأعمال المتوسل الصالحة، ودعاء الأخيار الصالحين أهل الورع، والتقى لقبول عمله، وتحقيق أمله؛ لأن (الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيء سببا إلا أن تكون مشروعة؛ فإن العبادات مبناها على التوقيف فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله فيدعو غيره، وإن ظن أن ذلك سبب في حصول بعض أغراضه، ولذلك لا يعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة، وإن ظن ذلك؛ فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك، وقد يحصل بالكفر، والفسوق، والعصيان بعض أغراض الإنسان، فلا يحل له ذلك؛ إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به؛ إذ الرسول ﷺ بعث بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فما أمر الله به فمصلحة راجحة، وما نهى عنه فمفسدة راجحة)[٣].

ويقول العلامة ابن القيم[٤](الوجه التاسع أن العبد المخلوق لا يعلم مصلحته حتى يعرفه الله تعالى إياها، ولا يقدر على تحصيلها حتى يقدره الله تعالى عليها، ولا يريد ذلك حتى يخلق الله تعالى فيه إرادة ومشيئة، فعاد الأمر كله لمن ابتدأ منه وهو الذي بيده الخير

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٩٠، وانظر موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة لسليمان الغصن ١/ ٣٤٠

(٢) انظر قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام ١/ ١٠٤ (٣) الواسطة بين الحق والخلق ص ٤٤

(٤) ذكر ابن القيم هذا الوجه من خلال ذكره للوجوه التي يتضح بها أنه لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون الله هو إلهه، وفاطره وحده، وهو معبوده وغاية مطلوبه وأحب إليه من كل ما سواه. انظر إغاثة اللهفان ١/ ٤٧، ومجموع الفتاوى ١/ ٢٠



كله وإليه يرجع الأمر كله، فتعلق القلب بغيره رجاء وخوفا وتوكلا وعبودية ضرر محض لا منفعة فيه، وما يحصل بذلك من المنفعة فهو سبحانه وحده الذي قدرها ويسرها وأوصلها إليك)[١].

وقال الحافظ ابن حجر: (ينبغي للمرء أن يجعل تعلقه في جميع أموره بالله وحده، وأن كل من فرض أن فيه رحمة ما حتى يقصد لأجلها فالله سبحانه وتعالى أرحم منه فليقصد العاقل لحاجته من هو أشد له رحمة)[٢].

فلا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب في تحصيل منفعة أو دفع مضرة إلا بدليل شرعي من الكتاب والسنة، فمن أثبت واسطة واعتقد أنها سبب لذلك بلا علم أو يخالف الشرع كان مبطلا، مثل ما يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء، وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر وقال: (إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل)[٣][٤].

ثم إن الله سبحانه وتعالى (قد علمنا في نصوص أخرى كثيرة أن علينا إذا أردنا التقرب إليه أن نتقدم إليه بالأعمال الصالحة التي يحبها ويرضاها وهو لم يكل تلك الأعمال إلينا ولم يترك تحديدها إلى عقولنا وأذواقنا؛ لأنها حينذاك -تختلف وتتباين، وستضطرب، وتتخاصم؛ بل أمرنا سبحانه أن نرجع إليه في ذلك ونتبع إرشاده وتعليمه فيه؛ لأنه لا يعلم ما يرضي الله عز وجل إلا الله وحده؛ فلهذا كان من الواجب علينا حتى نعرف الوسائل المقربة إلى الله -أن نرجع في كل مسألة إلى ما شرعه الله سبحانه، وبينه رسوله ﷺ، وهذا هو الذي وصانا به رسولنا صلوات الله عليه وسلامه؛ حيث قال: (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه)[٥][٦].

ومن الأسباب الشرعية الموهومة اتخاذ بعض الناس أسبابا باطلة لم يرد في الكتاب ولا في السنة ما يؤيدها يظنونها تقربهم إلى الله سبحانه وتعالى، وهي تباعدهم منه في الحقيقة، وتجلب إليهم السخط والغضب؛ بل واللعنة، والعذاب، وتباعد بينهم وبين المصلحة والمنفعة والرغاب، فمن ذلك استنجاد بعضهم بالموتى المقبورين من الأولياء

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٤٧ (٢) فتح الباري ١٠/ ٤٣١

(٣) رواه مسلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب النذر ١١/ ٩٨

(٤) انظر الواسطة بين الحق والخلق ص ٤٤

(٥) سبق تخريجه، انظر ص (٦) التوسل للألباني ص ١٤

والصالحين، وجعلهم واسطة، والاستعانة بهم ليقضوا لهم حوائجهم التي لا يستطيع قضاءها إلا الله سبحانه وتعالى، كطلبهم ودعائهم دفع الضرر وشفاء السقيم وجلب الرزق وإزالة العقم والنصر على العدو، وأمثال ذلك، مما دلت النصوص الشرعية على خسران فاعله وضلاله البعيد، كما قال تعالى: ﴿**يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ**﴾[(١)]، فتراهم يتمسحون بحديد الأضرحة وحجارة القبور ويهزونها أو يلقون إليها أوراقا كتبوا فيها طلباتهم ورغباتهم، فهذه وسائل شرعية بزعمهم ولكنها في الحقيقة باطلة ومخالفة لأساس الإسلام الأكبر الذي هو العبودية لله تعالى وحده، وإفراده سبحانه بجميع أنواعها، وفروعها[(٢)].

وكذلك كل من سلك إلى الله عز وجل طريقا ليست مشروعة موافقة للكتاب والسنة بواسطة بدعية فإنه لا محالة سالك بنيات الطريق.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومعلوم أن كل من سلك إلى الله عز وجل علما وعملا بطريق ليست مشروعة موافقة للكتاب والسنة، وما كان عليه سلف الأمة وأئمتها فلا بد أن يقع في بدعة قولية أو عملية؛ فإن السائر إذا سار على غير الطريق المهيع[(٣)] فلا بد أن يسلك بنيات الطريق وإن كان ما يفعله الرجل من ذلك قد يكون مجتهدا فيه مخطئا مغفورا له خطؤه، وقد يكون ذنبا، وقد يكون فسقا، وقد يكون كفرا بخلاف الطريق المشروعة في العلم والعمل؛ فإنها أقوم الطرق، وليس فيها عوج، كما قال تعالى: }إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴿ **إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴾[(٤)][(٥)].

ويؤكد العلامة ابن القيم أن التقيد بالوحي، والنبوة، ومتابعة واسطتنا ﷺ في التبليغ هو الطريق الموصلة، والواسطة الصحيحة إلى رضوان الله تعالى، وأن كل الطرق مسدودة إلا من أتى خلف رسول الله ﷺ قائلا: (فهذا العلم الصافي المتلقى من مشكاة الوحي والنبوة يهذب صاحبه لسلوك طريق العبودية، وحقيقتها: التأدب بآداب رسول الله ﷺ باطنا وظاهرا، وتحكيمه باطنا وظاهرا، والوقوف معه حيث وقف، بل والمسير معه حيث سار

---

(١) سورة الحج الآيتان ١٢-١٣

(٢) انظر التوسل للألباني ص ١٩ (بتصرف) وتحفة الطالب والجليس ص ٤٩

(٣) الطريق المهيع: الواضح الواسع. انظر القاموس المحيط ٣/ ٨٩ مادة (المهيع).

(٤) سورة الإسراء الآية ٩

(٥) شرح العقيدة الأصفهانية ص ١٢٩، وانظر مجموعة الرسائل الكبرى (رسالة الاستغاثة) ١/ ٤٨٢



بك . . . فلا تخالفه ألبتة ، فتجعل رسول الله ﷺ شيخا ، وإماما ، وقدوة ، وحاكما ، وتعلق قلبك بقلبه الكريم ، وروحانيتك بروحانيته . فتجيبه إذا دعاك ، وتقف معه إذا استوقفك ، وتسير إذا سار بك ، وتقيل إذا قال ، وتنزل إذا نزل ، وتغضب لغبضه ، وترضى لرضاه ، وإذا أخبرك عن شيء أنزلته منزلة ما تراه بعينك ، وإذا أخبرك عن الله بخبر أنزلته منزلة ما تسمعه من الله بأذنك . . . وبالجملة فالطريق مسدودة إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ واقتدى به في ظاهره وباطنه)[١] .

ومن ثمرة هذا الاعتصام بالكتاب ، والسنة ، والتقيد بهما أن أهل السنة والجماعة خرجوا بمنهج واضح ودقيق أخذا من آيات القرآن العظيمة ، وأحاديث السنة القويمة ، وهو أن العمل لا يكون صالحا مقبولا يتقرب به إلى الله تعالى حتى يتوفر فيه **شرطان مهمان عظيمان:**

أولهما: أن يكون خالصا بأن يقصد به وجه الله عز وجل .

وثانيهما: أن يكون صوابا أي موافقا لما شرعه الله تبارك وتعالى في كتابه ، أو بينه رسوله ﷺ في سنته ، فإذا اختل واحد من هذين الشرطين لم يكن العمل صالحا ولا مقبولا . والدليل على ذلك قول الله تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٢] .

قال الحافظ ابن كثير : (وهذان ركنا العمل المتقبل ، لابد أن يكون خالصا لله ، صوابا على شريعة رسول الله ﷺ)[٣] . وقوله تعالى في الآية الأخرى : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[٤] ، ولم يقل أكثر عملا ؛ لأن العبرة ليست بكثرة الأعمال ، وإنما بالأعمال الحسنة النافعة ، والاعتقادات الصالحة التي تكون خالصة لله عز وجل ، وعلى شريعة رسول الله ﷺ ، فمتى فقد العمل واحدا من هذين الشرطين حبط وبطل[٥] .

ولهذا قال الفضيل بن عياض رحمه الله[٦] في هذه الآية : (أخلصه ، وأصوبه ، قالوا :

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ١٤٣ ، وانظر إغاثة اللهفان ١/ ٤٦ ، وتلخيص كتاب الاستغاثة لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ١٦٧

(٢) سورة الكهف الآية ١١٠

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ١١٤ ، وانظر التوسل للألباني ص ١٥

(٤) سورة الملك الآية ٢

(٥) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٤١٦

(٦) هو أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي من أكابر العباد الصلحاء ، كان ثقة في الحديث ، أخذ عنه الإمام الشافعي ، كانت ولادته بسمرقند سنة ١٠٥هـ ، ووفاته بمكة حرسها الله سنة ١٧٨هـ . انظر ترجمته في طبقات الصوفية ٦/ ١٤ ، وتذكرة الحفاظ ١/ ٢٢٥ ، ووفيات الأعيان ٣/ ٢١٥ وتهذيب التهذيب ٨/ ٢٩٤

يا أبا علي : ما أخلصه ، وأصوبه؟ قال : إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا ، صوابا ، والخالص : أن يكون لله ، والصواب : أن يكون على السنة)[١] .

وبين شيخ الإسلام ابن تيمة أن هذين الركنين هما حقيقة الشهادتين بقوله : (ودين الإسلام مبني على أصلين : على أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيء ، وعلى أن يعبد بما شرعه على لسان نبيه ﷺ ، وهذان هما حقيقة قولنا : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله)[٢] .

ويقول العلامة ابن القيم : (فلا يكون العبد متحققا بـ: ﴿إياك نعبد﴾ إلا بأصلين عظيمين : أحدهما : متابعة الرسول ﷺ . والثاني : الإخلاص للمعبود)[٣] .

وبناء على هذا المنهج قال الفقهاء : العبادات مبناها على التوقيف[٤] ، وما من شك في أن موضوع الواسطة من أجل أنواع العبادات ؛ لأنه مبني على الدعاء والتوجه ، والتذلل ، والخضوع ، والرغبة ، والرهبة ، والخوف ، والرجاء ، فيجب التوقف فيه على النص الشرعي ، والتقيد بالكتاب والسنة ، ففي ذلك اتباع للرسول صلى الله عليه وسلم وترك الابتداع في العبادة بعده ، وقد صور لنا الفاورق عمر بن الخطاب رضي الله عنه كيف يكون الاتباع للشرع ، والانقياد له ، سواء علمت الحكمة في المأمور به ، أو المنهي عنه ، أم جهلت ، فقد صح عنه رضي الله عنه أنه قبل الحجر الأسود ، وقال : (**إني أعلم أنك حجر لا تضر ، ولا تنفع ، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك**)[٥] . واتباعا للكتاب ، والسنة ، وتطبيقا لهذا المنهج فقد اتفقت كلمات السلف في الآثار المروية عنهم رحمهم الله في الحض على الاعتصام بالكتاب ، والسنة ، والتقيد بهما في عامة شؤون الحياة ، وخصوصا في مسائل الاعتقاد ، ولا سيما مسألة الواسطة[٦] : فقد نقل الذهبي عن الإمام الزهري[٧]

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٩٥ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٤/ ١٤٠ب .

(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٣٠٥ ، وانظر مجموع الفتاوى ١/ ٣٣٣

(٣) مدارج السالكين ١/ ٨٣

(٤) انظر قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٢٧٠

(٥) رواه البخاري -واللفظ له- ٣/ ٤٦٢ حديث ١٥٩٧ ، ومسلم انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الحج باب استحباب تقبيل الحجر في الطواف ٩/ ١٧

(٦) انظر درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٤٤ ، وتعريف الخلف بمذهب السلف ص ٩٧

(٧) هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبدالله بن شهاب الزهري ، القرشي ، الفقيه ، الحافظ المتفق على جلالته وإمامته . توفي سنة ١٢٤هـ . انظر تقريب التهذيب ٢/ ٢٠٧ ، والأعلام ٧/ ٣١٧

رحمه الله أنه قال: (كان من مضى من علمائنا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة)[١].

وروى عبد الله بن الإمام أحمد بسنده عن الإمام مالك بن أنس رحمهم الله جميعا أن مالكا كان إذا ذكر عنده الزائغون في الدين يقول: قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: (سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننا الأخذ بها اتباع لكتاب الله تعالى واستكمال لطاعة الله تعالى، وقوة على دين الله، ليس لأحد من الخلق تغييرها، ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا)[٢].

وقال الإمام الشافعي رحمه الله في ذم أهل الكلام، والبدع: (يقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة)[٣].

وقال الإمام أحمد رحمه الله: (لا يتجاوز القرآن، والحديث)[٤].

وقال محمد بن الحسن الآجري رحمه الله[٥] بعد نقله للآثار الواردة عن أئمة السلف في الحض على التمسك بالكتاب والسنة والتقيد بهما: (فيما ذكرت في هذا الجزء من التمسك بشريعة الحق، والاستقامة على ما ندب الله تعالى إليه أمة محمد ﷺ وندبهم إليه الرسول ﷺما إذا تدبره العاقل علم أنه لزمه التمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسولهﷺ وبسنة الخلفاء الراشدين، وجميع الصحابة رضي الله عنهم، وجميع من تبعهم بإحسان، وأئمة المسلمين، وترك الجدال، والمراء، والخصومة في الدين، ولزم مجانبة أهل البدع، والاتباع، وترك الابتداع)[٦].

---

(١) إسناده صحيح أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ٩٤ رقمه ١٣٦، وقوام السنة في الحجة في بيان المحجة ١/ ٢٤٦، والآجري في كتاب الشريعة ٣/ ١١٤٥، وأورده الذهبي في سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٧، وانظر الآثار الواردة عن أئمة السنة في أبواب الاعتقاد ١/ ١١٩

(٢) كتاب السنة ١/ ٣٥٧ رقم الأثر ٧٦٦، وأخرجه الآجري في كتاب الشريعة ١/ ٤٠٧ رقم الأثر ٩٢ قال محقق الكتاب: إسناده صحيح، وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ٩٤، وانظر الآثار الواردة عن أئمة السنة في أبواب الاعتقاد ١/ ١٢٠

(٣) درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٤٤ (٤) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٥) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله الآجري نسبة إلى (آجر) قرية من قرى بغداد من فقهاء الشافعية، ومحدثيها، ثم انتقل في آخر عمره إلى مكة للعبادة، فكانت وفاته بها سنة ٣٦٠هـ، انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٢/ ٢٤٣، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ١٣٣، وشذرات الذهب ٣/ ٣٥

(٦) كتاب الشريعة ١/ ٤٢٤

ونقل الإمام الذهبي عن محمد بن أبي حاتم[١] -رحمه الله- (وسمعته[٢] يقول: لا أعلم شيئا يحتاج إليه إلا وهو في الكتاب والسنة، فقلت له: يمكن معرفة ذلك؟ قال: نعم)[٣]

وقال الإمام الذهبي: (وإذا رأيت المتكلم المبتدع يقول: دعنا من الكتاب والأحاديث الآحاد، وهات العقل فاعلم أنه أبو جهل، وإذا رأيت السالك التوحيدي يقول: دعنا من النقل ومن العقل وهات الذوق، والوجد فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر، أو قد حل فيه، فإن جبنت منه فاهرب، وإلا فاصرعه، وابرك على صدره واقرأ آية الكرسي، واخنقه)[٤].

وأنشد ابن النجار[٥]-رحمه الله- في الاعتصام بالكتاب والسنة والتقيد بهما[٦]: -

من كان يرغب في النجاة فماله ... غير اتباع المصطفى فيما أتى

ذاك السبيل المستقيم وغيره ... سبل الضلالة والغواية والردى

فاتبع كتاب الله والسنن التي ... صحت فذاك إن اتبعت هو الهدى

ودع السؤال بلم وكيف فإنه ... باب يجر ذوي البصيرة للعمى

الدين ما قال الرسول وصحبه ... والتابعون ومن مناهجهم قفا

وقال العلامة بن القيم في نونيته[٧]: -

حذق لقلبك في النصوص كمثل ما ... قد حذقوا في الرأي طول زمان

واكحل جفون القلب بالوحيين واحـ ... ـذر كحلهم يا كثرة العميان

---

(١) هو أبو حاتم محمد بن إدريس بن المنذر بن مهران الإمام الناقد الحافظ شيخ المحدثين، ولد بالري سنة ١٩٥ هـ من نظراء الإمام البخاري وطبقته توفي سنة ٢٧٧ هـ. انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٢/ ٧٣، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٤٧، وشذرات الذهب ٢/ ١٧١.

(٢) يقصد الإمام البخاري رحمه الله.

(٣) أورده الذهبي في ترجمة الإمام البخاري. انظر سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤١٢، والآثار الواردة عن أئمة السنة في أبواب الاعتقاد ١/ ١١٣

(٤) سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٧٢، وانظر الآثار الواردة عن أئمة السنة في أبواب الاعتقاد ١/ ١١٨

(٥) هو أبو عبد الله محمد بن محمود بن حسن بن هبة الله محب الدين البغدادي المشهور بابن النجار، أحد الأئمة الحفاظ، قال عنه الإمام الذهبي هو محدث العراق، ومؤرخ العصر، ولد سنة ٥٧٨ هـ كانت وفاته سنة ٦٤٣ هـ، انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٣١، ووفيات الأعيان ٤/ ٣٦، وشذرات الذهب ٥/ ٢٢٦

(٦) انظر سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١١٤

(٧) انظر متن النونية ص ٢٦٥

لم يحوج الله الخلائق معهما   لخيال فلتان ورأي فلان
والجهل داء قاتل وشفاؤه   أمران في التركيب متفقان
نص من القرآن أو من سنة   وطبيب ذاك العالم الرباني

وجملة القول: فأهل السنة والجماعة -بحكم هذا المنهج السليم وتقيدهم بكتاب ربهم الكريم، وسنة نبيهم الرؤوف الرحيم- نظروا إلى الواسطة فأثبتوا منها ما أثبته الدليل، ونفوا ما عدا ذلك مما يتعلق به أهل البدع، والتضليل، فأثبتوا وساطة الملائكة، والأنبياء في تبليغ الشرائع، ونفوا توسطهم وتدخلهم في غير ذلك من الوقائع، وقالوا: أما التوسل بأسماء الله تعالى، وصفاته، فواسطة صحيحة صرحت بها الآيات الصريحة، والأحاديث النبوية الصحيحة، والشفاعة في الآخرة واسطة مقبولة بشرط الإذن، والرضا، وليست مجهولة، والعمل الصالح من المتوسل، واسطة بينه وبين ربه موافق للعقل، والنقل، والدعاء، والتذلل من الإنسان، واسطة بينه وبين ربه المنان، وكل عبادة خلصت للمعبود فهي واسطة شرعية لا يضيع فيها مجهود[1].

ومن ثمرات التقيد بالكتاب والسنة في مسألة الواسطة إخلاص العبادة لله وحده دون أن يكون لغيره تعالى نصيب منها، فإذا دعوا الله دعوه مخلصين له الدين متوجهين إليه بكليتهم من غير أن تكون بينهم وبينه واسطة، وإذا أرادوا من الله قضاء حاجة لم ينزلوها إلا بساحة فضله العميم، ولم يظهروا الذلة والانكسار إلا للرحمن الرحيم، موقنين بأن القرب منه تعالى يكون في السجود: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[2] خاشعين، مخبتين لبارئ الوجود، ولم يتوجهوا إلى غير الله، من ملك مقرب، أو نبي مرسل، بله غيرهما من المخلوقين، سواء كانوا أحياء أو مقبورين، ولسان حالهم يقول[3]: -

لا قبة ترجى ولا وثن ولا   قبر له سبب من الأسباب
كلا ولا حجر ولا شجر ولا   عين ولا نصب من الأنصاب
لرجاء نفع أو لدفع بلية   الله ينفعني ويدفع ما بي

---

(١) انظر الحديث المفصل عن هذا النوع من الواسطة الشرعية.
(٢) سورة العلق الآية ١٩
(٣) من قصيدة للشاعر ملا عمران. انظرها في مجموعة الرسائل الكمالية ص ١٨٣



ويقول[1] : -

لا تدع في حاجة بازا ولا أسدا   الله ربك لا تشرك به أحدا

ويقول أيضا في التوجه إلى الله عز وجل وقصده والشكوى إليه[2] :

ولأكتمن عن البرية خَلّتي[3]   ولأشكون إليك جهد زماني

ولأقصدنك في جميع حوائجي   من غير قصد فلانة وفلان

(١) هذا البيت لمفتي مدينة السلام (بغداد) والإشارة بلقب (الباز) إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي تتعلق به قلوب الملايين من الناس في العراق، والهند، وغيرهما يدعونه ويستغيثون به واسطة بينهم وبين الله تعالى. انظر صيانة الإنسان ص ١٩٩

(٢) البيتان لعبد الله بن محمد القحطاني الأندلسي من نونيته. انظر مجموعة المناهل العذاب فيما على العبد لرب الأرباب لصالح السعوي ص ٢١٠

(٤) الخلة: بفتح الخاء: الحاجة والفقر. انظر مختار الصحاح ص ٨٧ مادة (خ ل ل).

الفصل الثاني

صورة الواسطة في التبليغ

وفيه ثمانية مباحث:-

المبحث الأول: صورة الواسطة في التبليغ في الدنيا .

المبحث الثاني: صورة الواسطة في التبليغ في الآخرة .

المبحث الثالث: مقام الرسالة وخصائصها عند أهل السنة والجماعة .

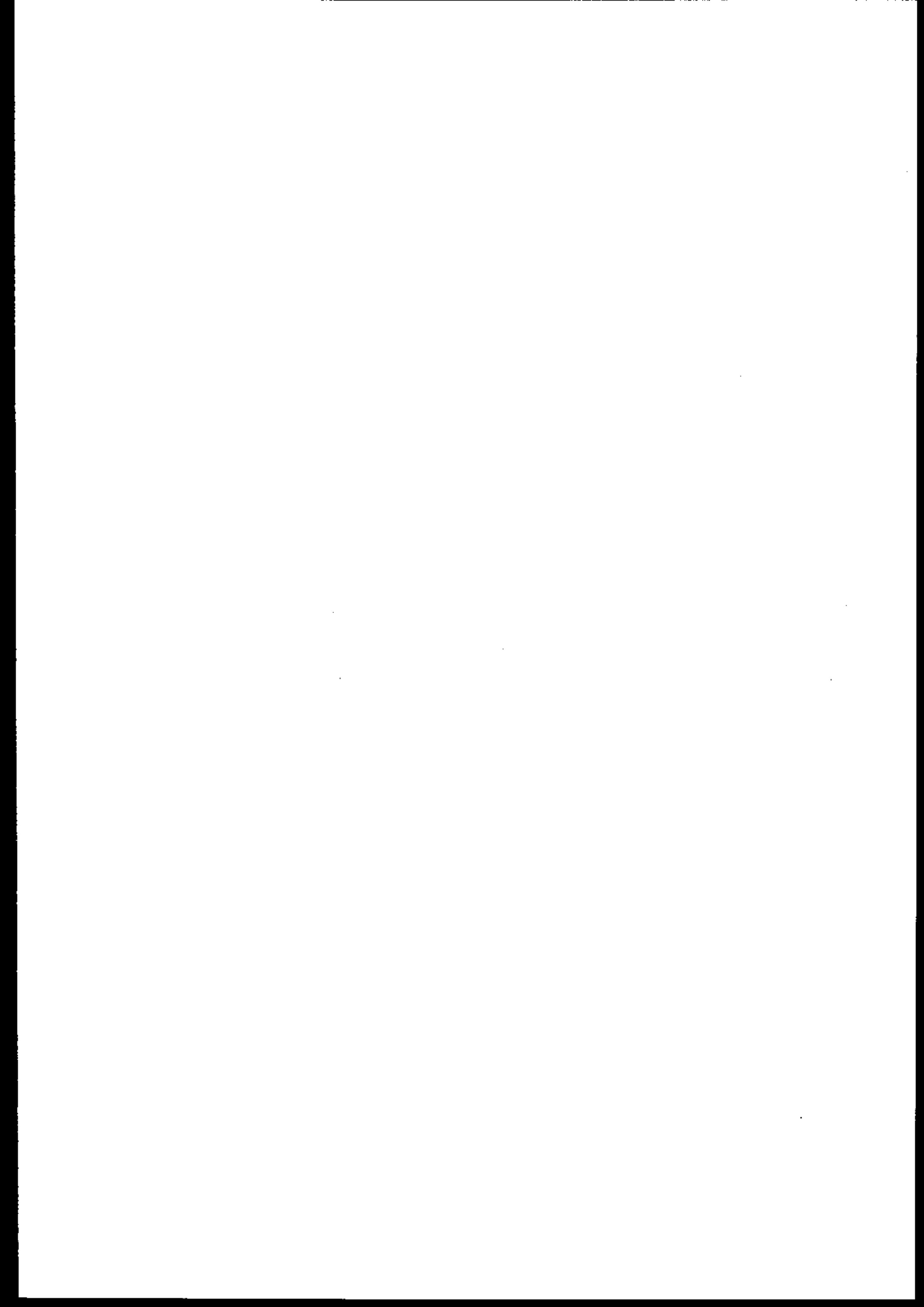
المبحث الرابع: حقوق الرسول ﷺ على أمته عند أهل السنة والجماعة .

المبحث الخامس: وجوب الإيمان بعصمته صلى الله عليه وسلم .

المبحث السادس: الهداية وأنواعها وبيان ما للرسول ﷺ منها .

المبحث السابع: الرسول ﷺ واسطة في التبليغ والبيان لا في العبادة وجراء الإنسان .

المبحث الثامن: وسطية أهل السنة والجماعة في باب تعظيم النبي ﷺ .



المبحث الأول
صورة الواسطة في التبليغ في الدنيا

تقدم معنا في المباحث السابقة أن الله سبحانه وتعالى يختار من الملائكة رسلا، ومن الناس رسلا، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[1] وأنه عز وجل قد اختار جبريل من بين سائر الملائكة عليهم السلام ليكون أمينا على وحيه إلى الواسطة من الأنبياء والرسل، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾[2]، وقد يرسل مع جبريل بعض الملائكة في حوادث مخصوصة فجبريل ومن معه واسطة في التبليغ من الملائكة.

ويختار الله من البشر إنسانا كاملا عاقلا شريفا سليما في الخلق كريم الأخلاق والنسب، فيوحي إليه بواسطة جبريل عليه السلام، وتتم بعثته إلى قومه رسولا يوحى إليه وواسطة بشرية بينهم وبين الله تعالى لتتم نعمة الله على الناس ببعثة هذا الرسول عند اتباعه ولتقوم الحجة عليهم ويتم الإعذار إليهم عند مخالفته وتكذيبه قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[3].

وقد مرت قوافل البشرية، ومراحل التاريخ، وكان الله يبعث إلى كل أمة رسولا من أنفسهم يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، ويبلغهم شريعته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[4]، وتتابعت الرسالات السماوية على هذا المنوال، رسالة خاصة بأمة معينة وبزمان معين، من لدن آدم عليه السلام حتى جاءت خاتمة الرسالات على يد خاتمة الوسائط من المرسلين نبينا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، فكانت رسالته عالمية إلى الثقلين: الإنس والجن[5]، والعرب والعجم، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[6]، وقال تعالى في سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[7].

---

(١) سورة الحج الآية ٧٥ — (٢) سورة الشعراء الآية ١٩٣

(٣) سورة الإسراء الآية ١٥ — (٤) سورة النحل الآية ٣٦

(٥) انظر الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص١٢٧، وشرح العقيدة الطحاوية ص١٦٦، وتفسير ابن كثير ٤/ ١٨٣، ولوامع الأنوار ٢/ ٢٢٣ — (٦) الآية ١٥٨

(٧) الآية ٢٨

ويوضح صورة الواسطة في التبليغ في الدنيا كون الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يوحي بالأمر إلى الواسطة من الملائكة أمر جبريل بتبليغ ما يشاء من الوحي، ثم ينزل به جبريل على الواسطة من الرسل، ثم يقوم الرسول بالبلاغ المبين في قومه قائلا: إن الله يأمر بكذا، وكذا وينهى عن كذا، وكذا يقول الإمام الماوردي: (ويكون الملك واسطة بين الرسول وبين ربه، والرسول واسطة بين الملك وبين قومه، وما يؤديه الملك إلى الرسول ليؤديه الرسول إلى قومه ضربان: قرآن، ووحي)[١].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس) فاصطفى جبريل من الملائكة، واصطفى محمداً من الناس. . فكلاهما رسول من الله بلغ ما أرسل به)[٢].

فاتضح بذلك أن تبليغ الشريعة الذي كان يقوم به الملك إلى الرسول، ويقوم به الرسول إلى المبعوث إليهم واسطة شرعية صحيحة وسببها: كون الواسطة من الملائكة ملكا مقربا ومن البشر رجلا مرسلا يصطفيه الله ويختاره من بين سائر البشر، فلذلك حصل هذان النوعان من الواسطة على الزلفى، والعناية، والقرب، والرسالة من الله تعالى بسبب كونهما واسطة في التبليغ، ومن سوى الأنبياء والرسل من حوارييهم وأنصارهم وأصحابهم وكذلك مشائخ العلم والدين واسطة بين النبي وأمته في تبليغ الشريعة وبيان محاسن الدين في الدنيا؛ لأنهم ورثته كما قال نبينا ﷺ: (**إن العلماء ورثة الأنبياء**)[٣].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن سوى الأنبياء من مشائخ العلم والدين فمن أثبتهم وسائط بين الرسول وأمته يبلغونهم ويعلمونهم، ويؤدبونهم، ويقتدون بهم، فقد أصاب في ذلك، وهؤلاء إذا أجمعوا فإجماعهم حجة قاطعة لا يجتمعون على ضلالة، وإن تنازعوا في شيء ردوه إلى الله والرسول؛ إذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق، بل كل أحد من الناس يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله ﷺ)[٤].

---

(١) أعلام النبوة ص٤٧ (٢) مجموع الفتاوى١٥/ ٦٨

(٣) رواه أبو داود في سننه٤/ ٧٥، وابن ماجه في المقدمة١/ ٨١، والترمذي في سننه٥/ ٤٨ وقال: "ولا نعرف هذا الحديث إلا عن عاصم بن رجاء بن حيوة وليس هو عندي بمتصل وإنما يروى عن عاصم عن الوليد بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء عن النبي ﷺوهذا أصح "، والدارمي في سننه١/ ١٠٤، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله١/ ٤٠، والبغوي في شرح السنة١/ ٢٧٥، وصححه الحاكم في المستدرك١/ ٨٩، وابن حبان في صحيحه١/ ٢٥٣ حديث٨٨، وحسنه حمزة الكناني، وله شواهد يتقوى بها كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح١/ ١٦٩

(٤) مجموع الفتاوى١/ ١٢٥، والواسطة بين الحق والخلق ص٢٤

ويحدثنا العلامة ابن القيم عن الواسطة بين الرسول وأمته مبينا أهميتها في تبليغ الشريعة في الدنيا فيقول : (ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم ، هم القائمون بما بعثوا به علما وعملا ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومناهجهم ، وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة وهي مرتبة الصديقية ؛ ولهذا قرنهم الله في كتابه بالأنبياء ، فقال تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾(١) فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة ، وهؤلاء هم الربانيون وهم الراسخون في العلم وهم الوسائط بين الرسول وأمته ، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه ، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك)(٢) .

وقد أمر النبي ﷺ التبليغ عنه ففي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ(بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)(٣) ، وقال عليه الصلاة والسلام أيضا (ليبلغ الشاهد الغائب)(٤) .

قال الحافظ ابن حجر : (المراد به تبليغ هذا القول المذكور أو تبليغ جميع أحكام الشريعة ، ويستفاد منه : الحث على تبليغ العلم)(٥) .

قال الإمام النووي فيما معناه : يؤخذ من هذا الحديث : وجوب تبليغ العلم بحيث ينتشر في الأمة(٦) .

يقول العلامة ابن القيم : (فأمر صلى الله عليه وسلم بالتبليغ عنه لما في ذلك من حصول الهدى بالتبليغ ، وله صلى الله عليه وسلم أجر من بلغ عنه ، وأجر من قبل ذلك البلاغ ، وكلما كثر التبليغ عنه تضاعف له الثواب ، فله من الأجر بعدد كل مبلغ ، وكل مهتد بذلك البلاغ ، سوى ماله من أجر عمله المختص ، فكل من هدي واهتدى بتبليغه فله الأجر لأنه هو الداعي إليه ولو لم يكن في تبليغ العلم عنه إلا حصول ما يحبه صلى الله عليه وسلم

---

(١) النساء الآية ٦٩
(٢) طريق الهجرتين ص٣٥١
(٣) رواه البخاري ٦/ ٤٩٦ حديث٣٤٦١
(٤) هذا جزء من خطبة الوداع رواها البخاري ١/ ١٥٧ حديث٦٧ ورواها مسلم انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب القسامة باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض١١/ ١٦٧
(٥) فتح الباري١/ ١٥٩
(٦) انظر شرح النووي لصحيح مسلم١١/ ١٦٩



لكفى به فضلا وعلامة المحب الصادق أن يسعى في حصول محبوب محبوبه، ويبذل جهده وطاقته فيه، ومعلوم أنه لا شيء أحب إلى رسول الله ﷺ من إيصاله الهدى إلى جميع الأمة فالمبلغ عنه ساع في حصول محابه فهو أقرب الناس منه وأحوجهم إليه، وهو نائبه وخليفته في أمته، وكفى بهذا فضلا وشرفا للعلم وأهله)[1] . (فتبليغ رسالات الله من أفضل الوسائل لأدائه إلى جلب كل صلاح دعت إليه الرسل وإلى درء كل فاسد زجرت عنه الرسل، والإنذار وسيلة إلى درء مفاسد الكفر والعصيان، والتبشير وسيلة إلى جلب مصالح الطاعة والإيمان)[2] .

وكان الصحابة رضي الله عنهم أجمعين واسطة في التبليغ في الدنيا بين النبي ﷺ وأمته ممن اتبعه من سائر الناس مأمورين أن يبلغ شاهدهم غائبهم كان ذلك في حياة النبي ﷺ وبعده، وكانوا حريصين على التبليغ يبلغ بعضهم بعضا، وكانوا يتناوبون على ذلك كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمر رضي الله عنه أنه قال : (كنت أنا وجار لي من الأنصار من عوالي المدينة[3] . . . وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يوما وأنزل يوما، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره وإذا نزل فعل مثل ذلك)[4] . وقال الله تعالى : ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾[5]، وكان النبي ﷺ يبعث الرسل والأمراء والقواد ويأمرهم أن يبلغوا الرسالة إلى من أرسلوا إليهم فبعث رسله إلى كسرى، وقيصر، وسائر ملوك العجم[6] وقد يجيء أفراد من القبائل فيسلمون ويتعلمون ويسمعون من النبي ﷺ النصائح والتوجيه، ثم يرجعون إلى قبائلهم واسطة بينهم وبين النبي ﷺ في تبليغ شرع الله، وقد علموا أن النبي ﷺ رسول الله إلى الناس كافة إلى يوم القيامة[7] .

فالصحابة رضوان الله عليهم، ومشائخ العلم من السلف رحمهم الله إلى أن يعود الإسلام غريبا كما بدأ واسطة بين الرسول ﷺ وأمته، يقتدون به ويبلغون شرعه الذي

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٧٣ (٢) قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام ١/ ١٠٤

(٣) هي ضيعة بينها وبين المدينة أربعة أميال، وقيل ثلاثة، وهي حي العوالي الذي اتصل به عمران المدينة المنورة اليوم. انظر معجم البلدان ٤/ ١٦٦

(٤) هذا جزء من الحديث الذي رواه البخاري في قصة هجر النبي (لزوجاته رضي الله عنهن وظن بعض المسلمين أنه طلقهن. ١/ ١٨٥ حديث ٨٩ (٥) سورة التوبة الآية ١٢٢

(٦) انظر سفراء النبي ﷺ لمحمود شيت خطاب ١/ ٢٤

(٧) انظر فتح الباري ١٣/ ٢٤١، والأنوار الكاشفة للمعلمي ص٧١، وقواعد التحديث للقاسمي ص٢١، والشفاعة لمقبل الوادعي ص٥



أوحاه الله إليه وبلغه وورثه العلماء، فهم يبلغون شرع الله للأمة، وينيرون المحجة، ويقيمون عليهم الحجة؛ لذلك كانوا واسطة في الدنيا بين النبي ﷺ وسائر الأمة في تبليغ الشريعة، وبيان الدين للأمة؛ وذلك بما ورثوه من العلم الذي هو ميراث النبوة[١].

يقول الإمام البيهقي فيما معناه: فالصحابة النجباء رضي الله عنهم هم الواسطة الذين اختارهم الله وزراء لنبيه وأصفياء وخلفاء، وجعلهم السفراء بيننا وبينه ﷺ في الحق الذي عدوه إلينا، والصدق الذي تجاوزه إلينا[٢].

---

(١) انظر إيثار الحق على الخلق لابن الوزير ص٧٧، وصيانة الإنسان ص ١٧٩

(٢) انظر الأسماء والصفات للبيهقي ص٤٦٠



المبحث الثاني

صورة الواسطة في التبليغ في الآخرة

قبل الخوض في غمار هذا المبحث، وبيان الواسطة التي يرسلها الله تعالى إلى أصحاب الأعذار في عرصات يوم القيامة، ينبغي أن نشير في يسير من القول إلى مسألة وقع النزاع فيها بين أهل العلم رحمهم الله، وهذه المسألة هي: هل الآخرة دار عمل، وتكليف وابتلاء أم، دار ثواب، وعقاب، وجزاء؟ أقول: اختلف أهل العلم في هذه المسألة على **قولين**:-

القول الأول: ذهب كل من الإمام ابن حزم[1] وشيخ الإسلام ابن تيمية[2] والعلامة ابن القيم[3] والإمام ابن كثير[4] والحافظ ابن حجر[5] وغيرهم من العلماء رحمهم الله تعالى إلى إثبات التكليف في الآخرة، وقالوا: إن كون الآخرة دار جزاء لا ينافي حصول التكليف في عرصاتها.

القول الثاني: وذهب الإمام ابن عبد البر، وجماعة من علماء المالكية رحمهم الله تعالى إلى أنه ليس في الآخرة تكليف، وابتلاء وإنما هي دار جزاء[6].

وقد استدل الفريق الأول بقول الله تعالى: **﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾**[7].

وجه الدلالة من الآية: أنها أثبتت أن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه يدعو أقواما إلى السجود يوم القيامة، وهذا الأمر من التكليف[8].

كما استدلوا أيضا بالأحاديث الآتية الواردة في إثبات الامتحان وإرسال الواسطة من الله تعالى إلى أصحاب الأعذار ليتم التبليغ إليهم وتقوم الحجة عليهم يوم القيامة، وقالوا: إن كون الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء لا يلزم منه أن لا يقع في إحداهما ما يختص بالأخرى.

---

(١) انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل٤/ ٦٠ (٢) انظر مجموع الفتاوى١٧/ ٣٠٨

(٣) انظر طريق الهجرتين ص٤٠٠، وأحكام أهل الذمة٢/ ١١٥٠ كلاهما لابن القيم.

(٤) انظر تفسير ابن كثير٥/ ٥١ (٥) انظر فتح الباري٣/ ٤٨٦

(٦) انظر تجريد التمهيد ص٣٢٦، وأهل الفترة ومن في حكمهم لموفق شكري ص٨٦

(٧) سورة القلم الآيتان ٤٢-٤٣

(٨) انظر تفسير ابن كثير٤/ ٤٠٧، وطريق الهجرتين ص٤٠١

يقول الطيبي رحمه الله[١] : (لا يلزم من أن الدنيا دار بلاء والآخرة دار جزاء أن لا يقع في إحداهما ما يختص بالأخرى، فإن القبر أول منازل الآخرة وفيه ابتلاء، وفتنة بالسؤال، وغيره)[٢]. ونقل العلامة ابن القيم عن الإمام البيهقي : أن جماعة من الأئمة نصوا على وقوع الامتحان في الدار الآخرة، وقالوا: إن التكليف لا ينقطع إلا بدخول دار القرار في الجنة أو النار[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (وهذا أجود ما قيل في هذه المسألة وعليه تتنزل جميع الأحاديث)[٤].

فالتحقيق أنه ثبت بأحاديث صحيحة أن الله سبحانه وتعالى يكلف عباده يوم القيامة في العرصات، وأن التكليف في دار الدنيا، وأما ما يقع في القبر وفي الموقف فهي آثار ذلك التكليف[٥].

ويقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي : (الجمع بين الأدلة واجب متى ما أمكن بلاخلاف؛ لأن إعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما ولا وجه للجمع إلا بهذا وهو القول بالعذر والامتحان)[٦].

واستدل أصحاب القول الثاني بالعقل وأنه ليس في وسع المكلف الدخول في النار؛ لأن ذلك من قبيل التكليف بالمحال[٧].

والراجح: القول الأول؛ لورود النصوص الصحيحة الصريحة في إثبات وقوع التكليف في عرصات القيامة، وحصول الإرسال إلى من لم تبلغه الدعوة وهم المعذورون، وإنما ينقطع التكليف بدخول الجنة أو النار، والله أعلم.

صورة الواسطة:

من المعلوم بالنقل أن الله سبحانه وتعالى يحاسب العباد يوم القيامة بنفسه قال

---

(١) هو شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي من علماء الحديث، والتفسير، والبيان، حاز ثروة طائلة من المال فأنفقها في وجوه الخير حتى افتقر في آخر عمره، وكان شديد الرد على المبتدعة آية في استخراج الدقائق من الكتاب والسنة، كانت وفاته سنة٧٤٣هـ. انظر الدرر الكامنة٢/ ١٥٦، والبدر الطالع١/ ٢٢٩، والأعلام٨/ ٢٨٠
(٢) فتح الباري١١/ ٤٥١
(٣) انظر الاعتقاد للبيهقي ص١٠٧، وطريق الهجرتين ص٤٠٠، وأحكام أهل الذمة٢/ ١١٥٠ كلاهما لابن القيم، وانظر فتح الباري١١/ ٤٥١
(٤) مجموع الفتاوى٤/ ٢٤٧
(٥) انظر فتح الباري١١/ ٤٥١
(٦) مراقي السعود ص ٨٨
(٧) انظر تجريد التمهيد لابن عبد البر ص٣٢٦، وأهل الفترة ومن في حكمهم لموفق شكري ص٨٦



تعالى : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾(١) إلا أنه ورد في السنة أنواع من الواسطة في حالات معينة تقع في ذلك اليوم تكريما للواسطة ولتقوم الحجة ويتم الإعذار بتقدير العزيز الغفار، فقد ورد أن النبي ﷺ يكون واسطة بين الأمم يوم القيامة وبين الرب جل وعلا، وكما كان جبريل عليه السلام واسطة من الملائكة بين الله تعالى وبين الواسطة من الأنبياء والرسل في تبليغ الرسالات في الدنيا، فقد ورد كذلك في بعض الأحاديث أن جبريل عليه السلام يكون واسطة بين الله تعالى وبين خاتم النبيين محمد ﷺ في الآخرة وذلك في الموقف عندما يشتد الكرب، ويفرق القلب، وتذهب الأمم إلى الأنبياء والرسل تطلب منهم الشفاع(٢)، ثم يعتذر الأنبياء واحدا بعد واحد حتى ينتهوا إلى خاتمة الوسائط من النبيين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر إخوانه من المرسلين، فيقول: أنا لها، حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى، ثم ينطلق صلى الله عليه وسلم فيأتي تحت العرش ويقع ساجدا لربه ويحمده بمحامد يفتح الله عليه بها في ذلك اليوم، عند ذلك يرسل الله عز وجل جبريل ويقول له: اذهب إلى محمد ﷺ وقل له: ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع، فروى الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي بكر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إني لقائم أنتظر حتى يعبر الصراط إذ جاءني عيسى فقال: هذه الأنبياء جاءتك يا محمد يسألونك ويدعون الله أن يفرق جميع الأمم إلى حيث يشاء الله إلى غير ما هم فيه فالخلق ملجمون بالعرق فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة(٣). وأما الكافر فيغشاه الموت فقال: انتظر، فذهب نبي الله صلى الله عليه وسلم فقام تحت العرش فلقي مالم يلق ملك مصطفى ولا نبي مرسل، فأوحى الله إلى جبريل: أن اذهب إلى محمد وقل له: ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع)(٤).

---

(١) سورة الأنبياء الآية٤٧

(٢) انظر تفصيل الكلام على الشفاعة في مبحث صورة الواسطة في الشفاعة .

(٣) الزكمة والزكام واحد، وهو مأخوذ من الزكم والزكب وهو الملء وحقيقته: تحلب فضول رطبة الدماغ إلى المنخرين. والمراد أن المؤمن لا يتضرر من العرق في ذلك الموقف العصيب وإنما يصيبه من العرق ما يصاب به المزكوم من زكامه، وأما الكافر فيؤذيه ويغشاه كأنه الموت. انظر تهذيب اللغة١٠/ ١٠٤، والذيل على النهاية في غريب الحديث لابن علوش ص٢٢٤

(٤) هذا اللفظ لحديث الشفاعة العظمى رواه الإمام أحمد في المسند١/ ٤، وابن خزيمة في التوحيد ص٣١٠، وابن حبان في صحيحه كما في موارد الظمآن ص ٦٤٢، وقال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والبزار ورجالهم ثقات. انظر مجمع الزوائد١٠/ ٣٧٥، وأصل الحديث من غير ذكر توسط جبريل عليه السلام مخرج في الصحيحين. انظر صحيح البخاري مع الفتح كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار١١/ ٤١٧ حديث ٦٥٦٥، وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب ما جاء في عصمة الأنبياء٣/ ٥٣

وورد في السنة أن الله سبحانه وتعالى يرسل في عرصات يوم القيامة رسولا ليبلغ أوامر الله إلى من لم تبلغه في الدنيا وهم أصحاب الأعذار الذين لم يمكنهم الانتفاع بالرسالة في الدنيا ولم تشملهم هداية النبوة[١]، وهم: رجل أصم لا يسمع شيئا وقت البعثة، ورجل أحمق مجنون لا يعقل شيئا، ورجل بلغ من الكبر عتيا وأصبح هرما لا يدرك شيئا، وصبي مات قبل الحلم، ورجل مات في الفترة[٢] لم يدرك رسالة ولم يأته رسول، فهؤلاء يمتحنهم الله عز وجل في ذلك اليوم وجاء امتحانهم في السنة على ثلاث صور: -

الصورة الأولى: ورد أن الله سبحانه وتعالى يمتحنهم بنفسه من غير واسطة، فيأمرهم بدخول نار امتحانا واختباراً، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**يؤتى بأربعة يوم القيامة: بالمولود، وبالمعتوه، وبمن مات في الفترة، وبالمعمَّر الفاني، قال: كلهم يتكلم بحجته، فيقول الرب تعالى لعُنُق[٣] من النار: ابرز، فيقول لهم: إني كنت أبعث إلى عبادي رسلا من أنفسهم وإني رسول نفسي إليكم، فيقول لهم: ادخلوا هذه، فيقول من كتب عليهم الشقاء: يا رب أنى ندخلها، ومنها كنا نفر؟ قال: ومن كتب عليه السعادة يمضي فيقتحم فيها مسرعا، فيقول الرب تعالى: قد عاندتموني، وقد عصيتموني، فأنتم لرسلي أشد تكذيبا ومعصية، فيدخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار**)[٤].

الصورة الثانية: في امتحانهم يوم القيامة: أنه ترفع لهم نار، ثم ينادون ويدعون إلى اقتحامها، فمن اقتحمها فهو من أهل السعادة والجنة، ومن أمسك عنها فهو من أهل الشقاوة والنار. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الهالك

---

(١) انظر مجموع الفتاوى١٧/ ٣٠٨، والعاقبة في ذكر الموت والآخرة للأشبيلي ص ٣١٧

(٢) المراد بأهل الفترة: هم القوم الذين عاشوا في زمان متطاول بين نبيين كانقطاع الرسالة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وهذا رأي ابن كثير وجمهور المفسرين، وقال السبكي: هم من كانوا بين رسولين لم يرسل إليهم الأول ولم يدركوا الثاني. انظر تفسير ابن كثير٢/ ٦٥، وتفسير القرطبي٦/ ١٢١، وتفسير الألوسي٦/ ١٠٣، وحاشية البناني على شرح المحلي على متن جمع الجوامع للسبكي١/ ٦٣، وأهل الفترة ومن في حكمهم ص ٥٨

(٣) العنق: الجماعة الكثيرة من الناس، والقطعة من النار وهو المراد هنا. انظر النهاية لابن الأثير٣/ ٣١٠ مادة (عنق) ولسان العرب١٠/ ٢٧٣ مادة (ع ن ق).

(٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد١٨/ ١٢٨، وأبو يعلى في مسنده٧/ ٢٢٥، والبزار انظر كشف الأستار٣/ ٣٤، قال الهيثمي في المجمع٧/ ٢١٩: (رواه أبو يعلى، والبزار بنحوه، وفيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس، وبقية رجال أبي يعلى رجال الصحيح) وأورده البيهقي في الاعتقاد ص٧٧، وابن القيم في أحكام أهل الذمة٢/ ١١٤٥، وابن كثير في تفسيره٥/ ٥١



في الفترة، والمعتوه، والمولود، قال: يقول الهالك في الفترة: لم يأتني كتاب ولا رسول ثم تـلا: ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾[١]، ويقول المعتوه: رب لم تجعل لي عقلا أعقل به خيرا ولا شرا، قال: ويقول المولود: رب لم أدرك العقل، قال: فترفع لهم نار فيقال لهم: ردوها أو ادخلوها، قال: فيردها أو يدخلها من كان في علم الله سعيدا لو أدرك العمل، ويمسك عنها من كان في علم الله شقيا لو أدرك العمل، فيقول: إياي عصيتم، فكيف رسلي؟)[٢].

أما الصورة الثالثة فهي: أن الله سبحانه وتعالى يرسل رسولا إلى هؤلاء المعذورين[٣] واسطة بينه وبينهم يوم القيامة وكل من لم تبلغه الدعوة فمن أطاع هذه الواسطة[٤] دخل الجنة ومن عصاها دخل النار[٥]، فعن الأسود بن سريع رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**أربعة يمتحنون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئا، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في الفترة، أما الأصم فيقول: يا رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئا، وأما الأحمق فيقول: يا رب قد جاء الإسلام والصبيان يرمونني بالبعر، وأما الهرم فيقول: يا رب قد جاء الإسلام وما أعقل شيئا، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني كتاب ولا رسول، فيأخذ مواثيقهم ليطيعنّه، فيرسل إليهم: أن ادخلوا النار، فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما**)[٦]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله

---

(١) سورة طه الآية ١٣٤

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد١٨/ ١٢٧، والبغوي في الجعديات٢/ ٧٩٣، والبزار. انظر كشف الأستار٣/ ٣٤، قال الهيثمي في المجمع٧/ ٢١٥: رواه البزار، وفيه عطية وهو ضعيف، وبقية رجاله رجال الصحيح، وأورده ابن القيم في أحكام أهل الذمة٢/ ١١٤٢، وابن كثير في تفسيره٥/ ,٥٢ ويشهد له ما تقدم بنحوه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) انظر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص٢٢

(٤) لم يرد في السنة تحديد هذه الواسطة، هل هي واسطة من الملائكة أم من البشر؟ إلا أن الحكمة تقتضي أن تكون من البشر للتناسب الحاصل بين الطبيعتين ولغير ذلك من الأغراض التي مرت معنا في مبحث الحكمة في كون الواسطة من البشر انظر ص، غير أني وجدت ابن عربي الصوفي ذكر في فصوص الحكم١/ ١٣٧ أن الله تعالى يرسل أفضلهم واسطة بينه وبينهم، وفيه نظر؛ لأن هذا الواسطة من أهل الأعذار، وهو محتاج إلى واسطة!!

(٥) انظر مجموع الفتاوى٤/ ٢٤٦، وطريق الهجرتين ص٣٩٦، وأحكام أهل الذمة٢/ ١١٣٧، والإمام محمد نصر المروزي وجهوده في بيان عقيدة السلف والدفاع عنها للدكتور علي بن نفيع العلياني٢/ ٥٨٧

(٦) رواه الإمام أحمد في المسند٤/ ٢٤، وابن حبان في صحيحه حديث١٨٢٧، والبزار. انظر كشف الأستار٤/ ١٥٦، وأورده الهيثمي في المجمع٧/ ٢١٦، وقال: هذا لفظ أحمد ورجاله في طريق الأسود بن سريع وأبي هريرة رجال الصحيح وكذلك رجال البزار فيهما، وأخرجه الطبراني في الكبير١/ ٢٦٤، والبيهقي في الاعتقاد وقال: هذا إسناد صحيح ص٧٦، وابن كثير في تفسيره٥/ ٥١ وصححه الشيخ الألباني. انظر السلسة الصحيحة٣/ ٤١٨ حديث١٤٣٤



ﷺ : (**أربعة كلهم يوم القيامة يدلي على الله بحجة وعذر: رجل هلك في الفترة، ورجل أدرك الإسلام هرما، ورجل أصم أبكم، ورجل معتوه، فيبعث الله إليهم رسولا فيقول: أطيعوه فيأتيهم الرسول فيؤجج لهم نارا فيقول: اقتحموها، فمن اقتحمها كانت عليه بردا وسلاما، ومن لا حقت عليه كلمة العذاب**)(١).

وبتآلف أجزاء هذه الصور الثلاث تتكامل صورة الواسطة في التبليغ في الآخرة، ولعل الحكمة من إرسال واسطة في التبليغ في عرصات يوم القيامة هو الإعذار إلى الخلق -ولا أحد أعذر من الله- وإقامة الحجة عليهم تحقيقا لقوله عز من قائل: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾(٢) سبحانه، له الحكمة البالغة وهو الحكيم الخبير.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي عاصم في السنة١/ ١٧٦، وذكره العلامة ابن القيم نقلا عن الإمام أبي نصر المروزي. انظر أحكام أهل الذمة٢/ ١١٤٢، ويشهد له ما تقدم من حديث أنس بن مالك، وأبي سعيد الخدري، والأسود بن سريع رضي الله عنهم جميعا، وقد تقدم تخريج أحاديثهم. انظر ص قال الحافظ ابن حجر: " وقد صحت مسألة الامتحان في حق المجنون، ومن مات في الفترة من طرق صحيحة " فتح الباري٣/ ٢٤٦

(٢) سورة الإسراء الآية ١٥

المبحث الثالث

مقام الرسالة وخصائصها عند أهل السنة والجماعة

الرسالة أو النبوة (خبر خاص يكرم الله عز وجل به أحدا من عباده فيميزه بإلقائه إليه ويوقفه به على شريعته بما فيها من أمر ونهي ووعظ وإرشاد ووعد، ووعيد)[١] وتحدث ابن حزم عن تعريف الرسالة فقال: (وتفسير الرسالة هو: أن يرسل الله من يشاء من عباده بما شاء إلى من شاء من خلقه)[٢].

وقيل الرسالة: (سفارة العبد بين الله تعالى وبين ذوي الألباب من خليقته ليزيح بها عللهم فيما قصرت عنه عقولهم من مصالح الدنيا والآخرة)[٣].

قال بعض أهل العلم: (ولهذا توصف أبدا بالرسالة والبعثة)[٤].

ويقول الإمام الماوردي في تعريفه للرسالة أو النبوة مبينا منزلتها العالية، ومقامها الرفيع: (لا منزلة في العالم أعلى من النبوة التي هي سفارة بين الله تعالى وعباده، تبعث على مصالح الخلق وطاعة الخالق، فكان أفضل الخلق بها أخص وأكملهم بشروطها أحق بها وأمس)[٥].

ويقول مجد الدين الفيروزآبادي: (النبوة سفارة بين الله وبين ذوي العقول لإزاحة عللهم في أمر معادهم ومعاشهم)[٦].

ومذهب أهل السنة والجماعة أن النبوة أو الرسالة اصطفاء من الله واختيار منه لعبده من بين سائر الناس يختصه برحمته ويصطفيه بفضله ومنته، وليست مجرد صفة إضافية غير ثابتة، وقالوا: إن النبي أو الرسول ميزه الله بصفات وخصه بخصائص دون غيره من سائر الناس، وأن الله فضله بفضائل ومقامات بعد البعثة لم تكن موجودة فيه قبلها[٧].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والله سبحانه قد أخبر أنه يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس، والاصطفاء افتعال من التصفية كما أن الاختيار افتعال من الخيرة، فيختار من

(١) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي١/ ٢٣٩، وانظر شعب الإيمان للبيهقي١/ ١٥٠

(٢) كتاب الدرة فيما يجب اعتقاده ص٣٨١

(٣) شرح العقائد النسفية ص١٦٤، وانظر دلائل النبوة لقوام السنة تحقيق مساعد الحميد١/ ١٩، ومعارج القبول٢/ ٤٩١

(٤) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني١/ ٣٣

(٥) أعلام النبوة ص٢٥٤

(٦) بصائر ذوي التمييز٥/ ١٥، وانظر الصلات والبشر له أيضا ص١٥

(٧) انظر مقدمة تحقيق النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق د/ عبد العزيز الطويان ص٢٨ رسالة دكتوراه.



يكون مصطفى، وقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1] (فهو أعلم بمن يجعله رسولا ممن لم يجعله رسولا، ولو كان كل الناس يصلح للرسالة لامتنع هذا، وهو عالم بتعيين الرسول وأنه أحق من غيره بالرسالة كما دل القرآن على ذلك)... إلى أن قال: (والله سبحانه اتخذ رسولا فضله بصفات أخرى لم تكن موجودة فيه من قبل إرساله كما كان يظهر لكل من رأى موسى، وعيسى، ومحمدا من أحوالهم، وصفاتهم بعد النبوة، وتلك الصفات غير الوحي الذي ينزل عليهم، فلا يقال: إن النبوة مجرد صفة إضافية كأحكام الأفعال كما تقوله الجهمية)[2].

وأما الأشاعرة فالرسالة عندهم هي مجرد أمر الرسول بالتبليغ وليست صفة ثبوتية؛ ولذلك جوزوا بعثة كل مكلف إلا أنهم قيدوا هذا الإطلاق بقولهم: إن النبي لا يكون فاجرا.

يقول الشهرستاني: (النبوة ليست صفة راجعة إلى نفس النبي ولا درجة يبلغ إليها أحد بعلمه وكسبه)[3].

وقال سيف الدين الآمدي[4]-رحمه الله- (وليست النبوة هي معنى يعود إلى ذات من ذاتيات النبي ولا إلى عرض من أعراضه استحقها بكسبه وعلمه)[5].

ويرد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية موضحا مذهبهم هذا في تحديد ماهية النبوة أو الرسالة قائلا: (فهؤلاء يجوزون بعثة كل مكلف والنبوة عندهم مجرد إعلامه بما أوحاه إليه، والرسالة مجرد أمره بتبليغ ما أوحاه إليه وليست النبوة عندهم صفة ثبوتية ولا مستلزمة لصفة يختص بها؛ بل هي من الصفات الإضافية كما يقولون مثل ذلك في الأحكام الشرعية)[6].

إذا تبين ذلك فالنبوة فضل من الله ورحمته وموهبته ونعمته يمن الله تعالى بها ويعطيها من يشاء من خلقه، ممن أكرمه بالنبوة فلا يبلغها مجتهد بعلمه ولا يستحقها عاقل بكسبه ولا

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٤ (٢) منهاج السنة النبوية٥/ ٤٣٧

(٣) نهاية الإقدام في علم الكلام ص٤٦٢

(٤) هو أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي سيف الدين الآمدي، ولد سنة ٥٥١هـ بآمد بلدة بديار بكر، وتفقه في بداية أمره على مذهب الإمام أحمد، ثم صار شافعيا، اشتغل بالعلوم العقلية حتى رمي بالتعطيل، توفي بجبل قاسيون سنة ٦٣١هـ. انظر ميزان الاعتدال٣/ ١٣٤، والبداية والنهاية ٥/ ١٤٤، ومعجم المؤلفين٧/ ١٥٥ (٥) غاية المرام في علم الكلام ص٣١٧

(٦) منهاج السنة النبوية٢/ ٤١٤، وانظر مقدمة تحقيق النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية بتحقيق د/ عبد العزيز الطويان ص٢٩



ينالها باستعداد ولايته؛ بل يخص المولى عز وجل بها من يشاء من عباده المصطفين (إن إرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع منة من الله تعالى وفضل لا واجب عليه ذلك وإنما هو على سبيل اللطف بالخلق والفضل عليهم فبعث الله تعالى جميع الرسل من آدم إلى محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين إلى المكلفين لطف من الله بهم ليبلغوهم عنه سبحانه أمره ونهيه ووعده ووعيده، وبينوا لهم عنه سبحانه ما يحتاجون إليه من أمور المعاش والمعاد مما جاءوا به من شرائعهم وأحكامهم التي أنزلها الله تعالى في كتبه عليهم اختصاصا كالقرآن العظيم، واشتركا كالتوراة لموسى وهارون ويوشع ومن بعدهم إلى عيسى عليه وعليهم السلام حتى تقوم الحجة عليهم بالبينات وينقطع عنهم سائر التعللات كما قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[1] فلولا إعذاره تعالى إليهم على ألسنة الرسل وإقامة الحجة عليهم ببعثه أهل خيرته من ذوي النبوة والفضل لتوهموا أن لهم حجة سائغة ومعذرة بالغة)[2]، ولقد كانت بعثة خاتم النبيين محمد ﷺ نورا أضاء الوجود وبدد الظلام، وسيفا مصلتا على الكفر، والظلم والأوثان، ولقد أحسن كعب بن زهير رضي الله عنه عندما قال[3]: -

إن الرسول لسيف يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

فمذهب أهل السنة والجماعة أن النبوة لا تنال بمجرد الكسب جدا واجتهادا، وبتكلف أنواع العبادات، وتلبس أشق الطاعات، والدأب في تهذيب النفس، وتنقية الخواطر، وتطهير الأخلاق، ورياضة النفس والبدن، وتهذيب ذلك، وإنما هي فضل إلهي محض يؤتيه الله من يشاء ممن سبق في علمه وإرادته باصطفائه لها، واختياره لتحملها، فالله أعلم حيث يجعل رسالته[4].

يقول السفاريني[5]: -

ولا تنال رتبة النبوة ... بالكسب والتهذيب والفتوة[6]

لكنها فضل من المولى الأجل ... لمن يشا من خلقه إلى الأجل

وهذا بخلاف قول الفلاسفة المشائين الذين يجوزون اكتساب النبوة؛ لأنهم يزعمون أن

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٥ (٢) لوامع الأنوار٢/ ٢٥٨، وانظر النبوات ص٨٨٨

(٣) انظر قصيدة البردة لكعب بن زهير شرح ابن الأنباري ص ٧٨

(٤) انظر لوامع الأنوار٢/ ٢٦٠ (٥) لوامع الأنوار٢/ ٢٦٠

(٦) الفتوة كرم النفس وتعاطي الأوصاف المحمودة والتخلق بها. انظر القاموس المحيط٤/ ٣٧٥ مادة (الفتى).



من لازم الخلوة والعبادة وداوم المراقبة في الغيب والشهادة وتناول الحلال وأخلى نفسه من الشواغل العائقة عن المشاهدة بعد كمال ظاهره وباطنه بالتهذيب والرياضة انصقلت مرآة باطنه وفتحت بصيرة لبه وتهيأ لمالا يستطيع أن يتهيأ له غيره من التحلي بالنبوة؛ لأن النبوة عندهم عبارة عن اجتماع ثلاث خواص في الإنسان: -

الأولى: الاطلاع على الأمور الغيبية لصفاء جوهر نفسه واتصاله بالروحانيات العالية[(١)].

الثانية: ظهور خوارق العادات على يديه.

الثالثة: مشاهدة الملائكة على صورة متخيلة وسماع كلام الله تعالى[(٢)]. وقد كذب الفلاسفة ومن نحا نحوهم في هذا التوهم فإن الرسالات السماوية لم تكن أمرا كسبيا ولم تكن الأنبياء والرسل قد تعلموا بطريق المجاهدة والرياضة حتى نالوا مرتبة النبوة والرسالة؛ بل كان أفضل الأنبياء محمد رسول الله ﷺ أميا لا يحسن القراءة والكتابة وعاش في بيئة خالية من الدرسات الفلسفية والطبيعية المعقدة، كالتي عرفها اليونان والفرس والهنود، ومع ذلك فإن رسالته الخالدة رسمت طريق السعادة والفلاح والفوز والنجاح، وأثرت في الملايين من البشر الذين اعتنقوها فنظمت حياتهم الخاصة والعامة، وحكمت اجتماعهم واقتصادهم وسياستهم وأخلاقهم وقيمهم، وأثمرت حضارة عالمية سامقة كان لها أثر كبير في الحضارة العالمية، وصدى مازال يدوي في المشرق والمغرب، ولا ريب أن هذا ما كان ليحدث لولا مقام هذه الرسالة ومكانتها لأنها وحي إلهي جاء خاتمة لرسالات الله[(٣)].

ولما كمل الرسول صلى الله عليه وسلم مقام الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى أكمل الله له رسالته وأحوج الخلائق كلهم إليها في الدنيا والآخرة، أما حاجتهم إليها في الدنيا فأشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب والنَّفَس الذي به حياة أبدانهم وأما حاجتهم إليها في الآخرة فإنهم يتشفعون بسائر الرسل إلى الله حتى يريحوهم من ضيق مقامهم في الموقف، فكل رسول يتأخر عن الشفاعة في تلك العرصات حتى يأتي صاحب الرسالة الخاتمة صلى الله عليه وسلم فيشفع لهم عند الله تعالى ليريحهم من أهوال ذلك الموقف وهو الذي يفتح لهم باب الجنة[(٤)].

(١) راجع صورة الواسطة عند الفلاسفة.
(٢) انظر منهاج السنة النبوية ٢/ ٤١٥، وبغية المرتاد ص٣٨٦، ولوامع الأنوار ٢/ ٢٦٨
(٣) انظر الرسالة والرسول لشيخنا الدكتور أكرم ضياء العمري ص٢٣
(٤) انظر الاقتصاد في الاعتقاد للحافظ عبد الغني المقدسي ص١٩٦، والفوائد لابن القيم ص ١٥٤، ونبوة محمد ﷺ في القرآن ص ٢٧٩

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -مبينا مقام الرسالة وأنها بمثابة الروح والنور للعالم: (الرسالة ضرورية للعباد لا غنى لهم عنها وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء؛ فإن الرسالة روح العلم ونوره وحياته فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ . . . ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل المنافع والمضار في المعاش، فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف منته عليهم أن أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وبين لهم الصراط المستقيم ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام وأشر حالا منها)[١].

ولشرف النبوة ومقامها الرفيع عند الله تعالى نجد أن الله سبحانه وتعالى وصف بها أفضل أنبيائه ورسله محمد ﷺ في سياق الثناء عليه، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾[٢]، (ولم يقل على محمد فاختار له أحب أسمائه وأشرف صفاته وهو من المواضع الكثيرة التي عظم الله فيها نبيه ﷺ وشرفه على الخلق كلهم بها، فلم يخاطبه إلا باسم النبوة أو الرسالة فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾[٣]، فهذه فضيلة عظيمة قد نوه العلماء بذكرها وشرفها وجعلها من المراتب العلية وأجدرها)[٤].

ولا شك أن الرسالة لم تكتسب مقامها العالي ومكانتها الرفيعة إلا بكونها وحيا من الله عز وجل يختار له رسولا مصطفى، والرسول على قدر المرسل.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد سمى الله الشمس سراجا وهاجا وسماه سراجا منيرا ونعمة الله بالسراج المنير أنعم من نعمته بالسراج الوهاج من وجوه: منها: أن السراج الوهاج لصلاح بعض الأمور الدنيوية وهي فانية منقضية، والسراج المنير لصلاح الدين والآخرة مع صلاح الدنيا؛ فإن وجود الشمس لا ينتفع به الآدميون في الدنيا إلا أن يكون لهم اجتماع وتعاون في المصالح وذلك لايتم إلا بشريعة تقيم بينهم قانون العدل، ولم يطرق الوجود شريعة أعظم من شريعته ﷺ فما يحصل بها صلاح الناس في المعاد وبعض نعمه منها خير من الدنيا وما فيها، وأما ما يحصل بها من صلاح القلوب، والأرواح، والأبدان بالعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والهدى، ودين الحق فهذا لا يحصل لا بشمس ولا بنجومها، وكذلك ما يحصل بها بعد الموت من السعادة الأبدية التي لا نسبة لخير الدنيا إليها)[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى١٩/ ٩٣، وانظر لوامع الأنوار٢/ ٢٥٩ وما بعدها.
(٢) سورة الأحزاب الآية ٥٦ (٣) سورة آل عمران الآية ٦٨
(٤) الصلات والبشر ص٢٥، وانظر نبوة محمد ﷺ في القرآن ص٤٩
(٥) تلخيص كتاب الاستغاثة١/ ٢٣٨، وانظر أعلام النبوة ص٤٠، وطريق الهجرتين ص٣٤٩

وقد حصل لمن آمن بالرسالة المحمدية سعادة الدنيا والآخرة؛ بل أعظم نعمة أنعم الله بها على المؤمنين أن أرسل إليهم خاتمة رسله المصطفى ﷺ وأنزل عليه الكتاب ومن عليهم باتباعه والانضواء تحت لوائه فاستضاؤا بالرسالة واحتموا بها من هلاك الدنيا وعذاب الآخرة، فوجدوا النور والهدى والإيمان والرحمة والسلام، وليس في الدنيا خير أعظم من هذا، فبالرسالة عرفت أسماء الله وصفاته، وبها عرفت الملائكة والنبيون والجنة والنار وسير الرسل وأخبار الدنيا وملامحا وفتنها وأشراط الساعة وعلاماتها وأخبار القيامة والموقف، العرصات والجسر والصراط . . . وغير ذلك. وإذا قيس ما عند أمة محمدﷺ من العلم والدين والهدى والنور والبيان بفضل رسالة الإسلام إلى ما عند غيرهم من أهل الكتاب، مع أنه في الأصل دون ما عند المسلمين في الصفة والمقدار وبينهما تفاوت عظيم وجد عندهم من الجهل البسيط والمركب في المقال والفعال مالا يكاد يخطر ببال[١].

ولما كانت الرسالات السماوية السابقة إنما أنزلت لأصلاح شئون أقوام بأعيانهم، والرسالة الخاتمة التي أنزلت على خاتمة الوسائط من الرسل رسالة عامة للبشرية كلها لما كان الأمر كذلك فإن هذا يقتضي أن تمتاز هذه الرسالة بحكم عالميتها عن غيرها من الرسالات بخصائص تجعلها صالحة لكل زمان ومكان، وتفي بمصالح جميع بني الإنسان وقد جعلها الله تعالى كذلك وأنزل على رسوله ﷺ قبيل وفاته: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً**﴾[٢].

وبالنظر إلى ما خص الله به هذه الرسالة الخالدة من خصائص وميزها به من كمالات نجد أن لرسالة الإسلام خصائص عديدة وميزات فريدة أفردت بالتأليف فجاءت في مجلدات، فكيف بالحديث اليسير عنها في هذه الصفحات؟ فمن تلك الخصائص: -

أولا: عالميتها: جاءت رسالة الإسلام عامة إلى الثقلين: الإنس، والجن، وإلى الأبيض، والأسود، وهذه من الخصائص الكبرى المميزة للإسلام فإن الرسالات السابقة كانت خاصة بأمة معينة وتنقضي بزمان محدد قال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾[٣] وقال تعالى: ﴿**وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾[٤] وأما خاتم النبيين محمد ﷺ فقد

---

(١) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ص٢٣٧ بتصرف، واقتضاء الصراط المستقيم١/ ٦٤، والرسالة والوسول للعمري ص٣٤

(٢) سورة المائدة الآية ٣

(٣) سورة إبراهيم الآية ٤

(٤) سورة فاطر الآية ٢٤



خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[٢]، وقال أيضا: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[٣].

فنبينا صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى الناس عامة كما قال صلى الله عليه وسلم (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الناس . . . وذكر منها: وكان النبي يرسل إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)[٤] متفق عليه.

والدليل على كون رسالة الإسلام عامة إلى الإنس والجن قول الله تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[٥] حيث يدخل في العالمين عالم الجن مع عالم الإنس.

قال الإمام القرطبي[٦]- رحمه الله تعالى: (والمراد بالعالمين هنا: الإنس والجن؛ لأن النبي ﷺ كان رسولا إليهما ونذيرا لهما)[٧] فرسالة نبينا محمد ﷺ كانت عامة بالاتفاق بعكس الرسالات السابقة لها فإنها كانت خاصة بأمة معينة، وكتابه صلى الله عليه وسلم هيمن على ما بين يديه من كتب السماء بحكم أنه خاتم الكتب المنزلة وقد بين القرآن الكريم، والسنة المطهرة؛ ذلك أحسن بيان في أكثر من موضع قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[٨]، ومع أنه إجماع المسلمين فهو أيضا معلوم بالاضطرار من الدين[٩]. وكما أن الرسالة الخاتمة امتدت بآفاقها الرحيبة إلى الماضي فاعترفت برسالات الأنبياء السابقين في التاريخ فإنها اختصت بعمومها وعالميتها، فهي لسائر البشر صالحة لكل زمان ومكان، وليست رسالة أمة معينة ولا تنقضي بزمان محدد

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٨ (٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٧

(٣) سورة الفرقان الآية ١

(٤) رواه البخاري انظر صحيح البخاري مع الفتح كتاب التيمم١/ ٤٣٦ حديث٣٣٥ وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب المساجد ومواقيت الصلاة٥/ ٤ (٥) سورة الفرقان الآية ١

(٦) هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الأندلسي القرطبي المالكي، الإمام المفسر الفقيه، له مصنفات جليلة النفع، توفي سنة ٦٧١هـ. انظر شذرات الذهب٥/ ٣٣٥، ومعجم المؤلفين٨/ ٢٤٠

(٧) تفسير القرطبي١٣/ ٤، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص١٦٦، ولوامع الأنوار٢/ ٢٧٩، ومعارج القبول٢/ ٤٩٦، (٨) سورة المائدة الآية ٤٨

(٩) انظر كتاب الرد على المنطقيين ص٤٥٣، وخصائص الدعوة الإسلامية لمحمد أمين حسن ص١٥٣، وخصائص الرسالة المحمدية للدكتور أحمد مرعي العمري رسالة ماجستير غير منشورة ص٨٨، وعقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ص٢١

وهي دين الحاضر والمستقبل[١]، ورسالة الإسلام هي الرسالة العالمية التي ارتضاها الله للبشرية جمعاء حتى قيام الساعة، وقد أمر الله أتباع الديانات الأخرى بالدخول فيها مبينا لهم أنها نسخت الرسالات كلها[٢] فلا يقبل الله بعد بعثة محمد ﷺ نبينا ولا بعد رسالته رسالة قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[٣] وقال أيضا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٤] (فالرسالة الخاتمة دعوة لوحدة الإنسانية تحت راية التوحيد لا تعترف بالطبقية ولا بالعنصرية ولا باختلاف اللون والعرق واللغة؛ بل هي تتجاوز كل ذلك تحقيقا للمساواة التامة بين البشر، وتوحيدا لموكب الإيمان في طريقه إلى الله)[٥].

الثانية: كونها خاتمة الرسالات السماوية: بعث النبي ﷺ خاتما للنبيين، وجاءت رسالته خاتمة للرسالات فختم الله بمحمد ﷺ المرسلين وختم برسالة الإسلام الرسالات السماوية، فلا نبي بعد محمد ﷺ ولا رسالة ولا شريعة بعد الإسلام، ومعنى ختم الرسالة: انتهاء إنباء الله للناس وانقطاع وحي السماء[٦].

وقال السفاريني: (معناه أنه لا تبتدأ نبوة ولا تشرع شريعة بعد نبوته وشريعته)[٧]. والأدلة على ختم الرسالات الإلهية برسالة الإسلام كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[٨].

يقول الإمام ابن كثير: (فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده صلى الله عليه وسلم وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بطريق الأولى والأحرى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة؛ فإن كل رسول نبي ولا ينعكس)[٩].

وقال الإمام ابن جرير في تفسيره لهذه الآية: . . . (ولكن رسول الله وخاتم النبيين الذي

---

(١) انظر عالمية الإسلام لأحمد علي الملا ص١٠

(٢) انظر الحديث عن قضاء الإسلام على الديانات والممالك القديمة ونسخه الشرائع السابقة في تثبيت دلائل النبوة ٢/ ٣١٤

(٣) سورة آل عمران الآية ١٩

(٤) السورة نفسها الآية ٨٥

(٥) الرسالة والرسول ص٣٩ وانظر غاية السول في خصائص الرسول لابن الملقن ص٢٥٩، ولوامع الأنوار٢/ ٢٧٩، وخصائص القرآن الكريم ص ٧٢

(٦) انظر عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية لشيخنا الدكتور أحمد سعد الغامدي ص١٦

(٧) لوامع الأنوار٢/ ٢٧٧

(٨) سورة الأحزاب الآية ٤٠

(٩) تفسير ابن كثير٣/ ٥٠١، وانظر خصائص الرسالة المحمدية للدكتور أحمد مرعي العمري رسالة ماجستير غير منشورة ص٢١٢

ختم النبوة فطبع عليها فلا تفتح لأحد بعده إلى قيام الساعة)[١] . وقد أعلن النبي ﷺ أن رسالته خاتمة الرسالات وأنه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين في أحاديث نبوية كثيرة، منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون ويعجبون ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟! قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)[٢] .

وإذا كانت رسالة الإسلام عامة، والقرآن الكريم يخاطب بني البشر جميعا من كان في زمنه صلى الله عليه وسلم ومن سيأتي بعده، فإنه يظهر بهذا العموم أنها خاتمة الرسالات، وأن البشرية ليست بحاجة إلى دين جديد مادامت الرسالة الخاتمة تشمل الجميع، والقرآن الكريم يخاطب الجميع، ولهذا قال الزمخشري في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾[٣]) :إلا رسالة عامة لهم محيطة بهم؛ لأنهم إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم)[٤] .

فلا مجال أبدا لمزاحمة هذه الرسالة برسالة أخرى ولا مجال أبدا لزحزحتها عن مكانها الذي خصها الله به، وما حفظ القرآن الكريم إلى يوم القيامة إلا بقاء لهذه الرسالة إلى يوم الدين، فالله سبحانه وتعالى متم نوره ولو كره الكافرون[٥] .

ومما يبين قيمة هذه الخصيصة أن الرسالة الخاتمة هي أعظم الرسالات وأكملها وأشملها حيث (جمع الله فيها محاسن ما قبلها من الرسالات وزادها من الكمالات ما ليس في غيرها، فلهذا جعلها الله شاهدة وأمينة وحاكمة على الرسالات كلها)[٦] .

الثالثة شمولها: تميزت رسالة الإسلام عن الرسالات السماوية السابقة بشمولها بكل ما ينطوي تحت هذه الكلمة من أبعاد ودلالات زمانية ومكانية ونظرة مستوعبة للإنسان ولهذا الكون الذي يعيش فيه، وللدار الآخرة التي هو صائر إليها، فالرسالة الإسلامية هي الرسالة السماوية الوحيدة (التي امتدت طولا حتى شملت آباد الزمن وامتدت عرضا حتى

---

(١) تفسير الطبري١٩/ ١٨

(٢) رواه البخاري واللفظ له، كتاب المناقب باب خاتم النبيين٦/ ٥٥٨، حديث٣٥٣٤، ومسلم، كتاب الفضائل باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين١٥/ ٥١

(٣) سورة سبأ الآية ٢٨ (٤) الكشاف٢/ ٧

(٥) انظر خصائص القرآن الكريم للدكتور فهد الرومي ص١٩٠ وما بعدها، وخصائص الرسالة المحمدية للدكتور أحمد مرعي ص١٦٥

(٦) تفسير ابن كثير٢/ ٦٨، وانظر الرسل والرسالات للأشقر ص٢٥٥

انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقا حتى استوعبت شئون الدنيا والآخرة)[١].

وقد أشار القرآن إلى معنى الشمول في رسالة الإسلام في غير ما موضع، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾[٣].

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أي فارضوه أنتم لأنفسكم؛ فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام وأنزل به أشرف كتبه. . . وهو الإسلام، أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا، وقد أتمه الله فلا ينقصه وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدا)[٤]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٥].

نقل الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء)، وقال مجاهد: (كل حلال وكل حرام)[٦]، ثم قال ابن كثير -معلقا على هذين القولين-: (وقول ابن مسعود أعم وأشمل؛ فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم)[٧].

لقد جمعت الرسالة الخاتمة محاسن جميع الرسالات السابقة وزادت عليها وفاقتها كمالا وجمالا وجلالا.

يقول الحسن البصري: (أنزل الله مائة وأربعة كتب وأودع علومها أربعة: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان]القرآن [ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان)[٨].

ولله در العلامة ابن القيم، فقد بين معنى الشمول في رسالة الإسلام بيانا شافيا، فقال: (وعموم رسالته صلى الله عليه وسلم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم، وأعمالهم، وأنه لم يحوج أمته إلى أحد بعده وإنما حاجتهم إلى من

---

(١) خصائص الدعوة الإسلامية لمحمد أمين حسن ص٢٣١

(٢) سورة الأنعام الآية ٣٨

(٣) سورة المائدة الآية٣

(٤) تفسير ابن كثير٢/ ١٤

(٥) سورة النحل الآية ٨٩

(٦) تفسير ابن كثير٢/ ٦٠٣

(٧) المرجع نفسه والموضع بعينه.

(٧) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان٢/ ٤٥١، وأورده شيخ الإسلام ابن تيمية في التحفة العراقية في أعمال القلوب ص ٢٦، والسيوطي في الإكليل في استنباط التنزيل ص٥، والشيخ محمد الأمين في أضواء البيان٣/ ٣٣٦



يبلغهم عنه ما جاء به، فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص: عموم بالنسبة إلى المرسل إليهم، وعموم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه من بعث إليه في أصول الدين وفروعه، فرسالته كافية شافية عامة لا تحوج إلى سواها ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا، وهذا. . . وقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علما وعلمهم كل شيء حتى آداب التخلي وآداب الجماع والنوم والقيام والقعود والأكل والشرب. . وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برمته ولم يحوجهم الله إلى أحد سواه)[1].

وتتضح خصيصة الشمول في رسالة الإسلام ببيان أن الأنبياء أعلنوا من خلال دعواتهم أنهم مسلمون، ودعوا إلى الإسلام، فلقد قال نوح عليه السلام: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2]، وإبراهيم، وإسماعيل قالا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[3]، ووصى إبراهيم بنيه ويعقوب فقالا: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[4]، ويوسف عليه السلام دعا ربه فقال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[5]. فجميع هؤلاء الرسل على نبينا وعليهم الصلاة والسلام دعوا إلى الإسلام؛ لأنه الدين الخاتم الشامل الذي هيمن على كل الأديان السابقة، ولا غرو في ذلك؛ لأن رسالات الأنبياء دعوتها واحدة وهي توحيد الله سبحانه وتعالى وإخلاص العبادة له، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[6].

وقد أوضح خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم شمول رسالته فبلغ البلاغ المبين وأدى الأمانة وصدع بالدعوة وأوصل الرسالة (فأحكم ما شرع من نص وتنبيه وعم بما أمر من حاضر وبعيد حتى صار لما تحمله من الشرع مؤديا، ولما تقلده من حقوق الأمة موفيا؛ لئلا يكون في حقوق الله زلل ولا في مصالح الأمة خلل، وذلك في برهة من زمانه، لم يستوف تطاول الاستيعاب، حتى أوجز وأنجز، وما ذاك إلا بديع معجز)[7]. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: (لقد تركنا صلى الله عليه وسلم وما يحرك طائر جناحيه في السماء

---

(١) أعلام الموقعين ٤/ ٣٧٥ وما بعدها.

(٢) سورة يونس الآية ٧٢

(٣) سورة البقرة الآية ١٢٨

(٤) سورة البقرة الآية ١٣٢

(٥) سورة يوسف الآية ١٠١

(٦) سورة آل عمران الآية ١٩

(٧) أعلام النبوة ص٢٧٠، وانظر شرح العقيدة الطحاوية بتحقيق التركي ٢/ ٧٨٧، ومجموع الفتاوى ١٩/ ١٨، وخصائص الرسالة المحمدية للدكتور أحمد مرعي ص١٦٥

إلا أذكرنا منه علما)[١]؛ فلهذا شلمت رسالة الإسلام بأنظمتها نواحي الحياة المختلفة ومتطلبات المجتمع الإنساني (فلم تقتصر تعاليمها على النواحي الاعتقادية والتعبدية فقط وإنما امتدت لتشمل النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ونظم التربية والقضاء والأخلاق، وقد استهدفت تعاليمها إقامة حياة إنسانية سامية يتحرر فيها العقل البشري من الخرفات والأوهام، وجاءت هذه التعاليم موافقة لطبيعة الدعوة الإسلامية الخالدة الخاتمة، فلا بد لها والأمر هكذا أن تشمل تعاليمها جميع أنظمة الحياة إلى أن تقوم الساعة)[٢].

فالشمول من الخصائص التي تميزت بها رسالة الإسلام عن كل ما عرفه الناس من الأديان والفلسفات والمذاهب، وهذا الشمول يستوعب آباد الزمن كما يحنو بجناحيه على جميع أم الأرض وينتظم جميع شئون الحياة في الدنيا والآخرة، وقد تأتى هذا لرسالة الإسلام بحكم كونها رسالة الخلود التي قدر الله بقاءها إلى أن تقوم الساعة، فليس بعد الإسلام رسالة ولا بعد القرآن كتاب ولا بعد النبي ﷺ نبي، فلا غرو أن تأتي خاتمة الرسالات بكل معاني الشمول، وأبعاد الكمالات.

الرابعة: الوسطية والتوازن. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[٣]، فيفهم من هذه الآية تميز رسالة الإسلام بالوسطية في كل شيء: في الاعتقاد بين الإفراط والتفريط، وفي العمل لا تقول بالتبتل ولا تذوب في حمأة الشهوات الدنيوية، ووسط في المعاملات والأخلاق والبر والإنفاق... الخ، وكل ذلك يؤخذ من مفهوم الوسطية حيث جاءت نكرة في سياق الامتنان في الآية، فدلت على العموم.

قال الإمام ابن كثير (ولما جعل الله هذه الأمة وسطا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب)[٤].

وبما أن التوازن والوسطية من خصائص الإسلام فإن الأمة الإسلامية أمة وسط بين اليهود والنصارى؛ لأن اليهود انحرفوا انحراف قصور، والنصارى انحرفوا انحراف غلو، فذم الله كلتا الطائفتين، وسم النصارى بالضلال، ووسم اليهود بالغضب، وجعل هذه الأمة أمة صراط مستقيم لا عوج فيه ولا أمتا، قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند٥/ ١٥٣

(٢) خصائص الدعوة الإسلامية لمحمد أمين حسن ص١٦٩، وانظر عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ص١١٤

(٣) سورة البقرة الآية ١٤٣

(٤) تفسير ابن كثير١/ ٢٧٥، وانظر اليمانيات المسلولة ص٢٥٥

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾[١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالحكمة التي هي سنته وهي الشِّرعة والمنهاج الذي شرعه له، فكان من هذه الحكمة أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يباين سبيل المغضوب عليهم والضالين)[٢].

وقال زين العابدين الكوراني: (ويلحق بذلك توسط شريعة هذه الأمة بين سائر الشرائع أيضا؛ فإنهم مثلا مأمورون بغسل النجاسة بالماء وكانت اليهود على إفراط بقطع محلها والنصارى في تفريط بمخامرتهم[٣] لها بلا إزالة، وأيضا هم مأمورون بعدم مواقعة الحائض وكانت اليهود على إفراط من حرمة البيتوتة[٤] في بيت فيه الحائض والنصارى في تفريط بتجويزهم مواقعتها، وأيضا جوز الله لهم في القتل العفو والقصاص وكانت النصارى مأمورين بالعفو واليهود مأمورين بالقصاص حتما)[٥]. والدليل على ما قاله الكوراني من أنرسالة اليهود تحتم عليهم القصاص ورسالة النصارى تحتم عليهم العفو قول الله تعالى عن أهل التوراة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ﴾[٦] وقال أيضا عن اليهود: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[٧].

قال المفسرون: (وكذلك الأغلال مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة نحو بَتِّ القضاء بالقصاص عمدا كان أو خطأ من غير شرع الدية)[٨].

ومن القضايا الاجتماعية التي ظهرت فيها وسطية رسالة الإسلام قضية الطلاق فإن الإسلام أباحه عند الضرورة، والنصارى يحرمونه على من تزوج، واليهود لا مراجعة عندهم[٩] ولو أردت أن أستقصي نواحي التوازن والوسطية في رسالة الإسلام لكتبت عن الإسلام كله؛ لأن الإسلام ينظر بنظرة وسطية متوازنة إلى كل قضية من قضايا الإنسان والكون والحياة.

---

(١) سورة الفاتحة الآيتان (٦-٧).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم١/ ٨٠، وانظر الوسطية في ضوء القرآن الكريم للدكتور ناصر العمر ص٨٩

(٣) المخامرة: المخالطة. انظر مختار الصحاح ص١٨٩ مادة (خ م ر).

(٤) قال الرازي: (يقال: بات الرجل في بيته يبيت ويبات بيتوتة) مختار الصحاح ص٧٠ مادة (ب ي ت

(٥) اليمانيات المسلولة على الرافضة المخذولة ص٢٥٥

(٦) سورة المائدة الآية ٤٥ (٧) سورة الأعراف الآية ١٥٧

(٨) الكشاف٢/ ٩٧، وانظر تفسير البيضاوي١/ ٣٧٢، وتفسير أبي السعود٢/ ٤١٤

(٩) وقد يكون هذا من خصائص تلك الرسالتين، وقد يكون من تحريف أهل الكتاب، والله أعلم.

الخامسة: كون المؤمنين بهذه الرسالة يشهدون يوم القيامة على سائر الأمم من أصحاب الرسالات السابقة؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[١].

قال بعض المفسرين في معنى: ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي (من معاصريكم ومن من قبلكم ومن بعدكم من الشرار الذين عليهم تقوم الساعة)[٢].

وقال الإمام ابن كثير (يقول تعالى: إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم؛ لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل)[٣].

وقال تعالى مؤكدا شهادة المؤمنين بهذه الرسالة على سائر أصحاب الشرائع السابقة: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[٤].

قال الإمام ابن كثير في معنى الآية (أي إنما جعلناكم هكذا أمة وسطا عدولا خيارا مشهودا بعدالتكم عند جميع الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الناس؛ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك)[٥].

روى البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (يجاء بنوح فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم يارب، فتسأل أمته: هل بلغكم؟ فيقولون ما جاءنا من نذير! فيقول: من شهودك؟ فيقول: محمد وأمته، فيجاء بكم فتشهدون، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[٦].

قال العز بن عبد السلام[٧] ـ رحمه الله تعالى: (نزل الله تعالى أمته[٨] منزلة العدول من

---

(١) سورة البقرة الآية ١٤٣ (٢) تفسير البيضاوي١/ ٨٧، وانظر اليمانيات المسلولة ص٢٥٨

(٣) تفسير ابن كثير١/ ٢٧٥ (٤) سورة الحج الآية ٧٨

(٥) تفسير ابن كثير٣/ ٢٤٧

(٦) صحيح البخاري باب ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ حديث٧٣٤٩

(٧) هو أبو محمد عبدالعزيز بن عبدالسلام بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد عز الدين السلمي الدمشقي الشافعي المعروف بابن عبدالسلام، فقيه، من أهل الأصول والعربية والتفسير، ولد بدمشق سنة ٥٧٧هـ، وقيل غير ذلك، برع في المذهب الشافعي وبلغ رتبة الاجتهاد، توفي سنة ٦٦٠هـ انظر البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٥، وشذرات الذهب٥/ ٣٠١، ومعجم المؤلفين٢/ ١٦٢

(٥٢٤) أي: أمة محمد ﷺ



الحكام؛ فإن الله تعالى إذا حكم بين العباد فجحدت الأمم تبليغ الرسالة أحضر أمة محمد ﷺ فيشهدون على الناس بأن رسلهم أبلغتهم، وهذه الخصيصة لم تثبت لأحد من الأنبياء)[١].

ومن أهل العلم من يرى أن هذه الشهادة خاصة بأهل العدالة من هذه الأمة وهم أهل السنة والجماعة؛ لأنهم أهل العلم الشرعي ولا يدخل في ذلك من سواهم من أهل الجهل والأهواء والبدع؛ لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿**ليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ مكم شهداء**﴾[٢]؛ ولهذا قال الحافظ ابن حجر: (وكأنه من جهة الصفة المذكورة وهي العدالة لما كانت تعم الجميع لظاهر الخطاب أشار إلى أنها من العام الذي أريد به الخاص، أو من العام المخصوص؛ لأن أهل الجهل ليسوا عدولا وكذلك أهل البدع، فعرف أن المراد بالوصف المذكور أهل السنة والجماعة، وهم أهل العلم الشرعي ومن سواهم، ولو نسب إلى العلم فهي نسبة صورية لا حقيقية)[٣].

ومن أهل العلم من يرى أن المراد مجموع الأمة لعدم اتصاف كل فرد منهم بالوصف المذكور[٤]؛ ولأن المراد بالشهادة في آية سورة آل عمران الشهادة في الغزوات[٥]؛ ولأن الحديث الصحيح صرح بعدالة مجموع الأمة وشهادتها على الأمم قبلها[٦]، والله أعلم.

ولا ريب أن شهادة هذه الأمة على الأمم قبلها يوم القيامة ميزة عظيمة خص الله بها المؤمنين بهذه الرسالة الخالدة؛ إلا أنها تحمل في طياتها مسئولية عظيمة تتطلب من كل مسلم تطبيق ما جاءت به هذه الرسالة، ومعرفة أحوال أصحاب الرسالات السابقة، وأخذ العبرة مما جرى لهم، ودراسة سير الرسل الصحيحة الواردة في الكتاب والسنة، عند ذلك يتهيأ المسلم لهذه الشهادة العظيمة، ويحق له الافتخار بهذه النعمة الجسيمة في اختصاص

---

(١) بداية السول في تفضيل الرسول ﷺ للعز بن عبد السلام ص٣٨، وخصائص المصطفى ﷺ بين الغلو والجفاء للصادق إبراهيم ص٥٤ رسالة ماجستير غير منشورة. (٢) الآية ١٤

(٣) فتح الباري١٣/ ٣١٦، وهو رأي الزمخشري، والبيضاوي، انظر الكشاف١/ ٢١٩، وتفسير البيضاوي١/ ١٨٤

(٤) انظر تفسير أبي السعود١/ ٢٧٦، واليمانيات المسلولة ص٢٥٤

(٥) انظر تفسير الطبري٣/ ١٤١، وتفسير القرطبي٤/ ٢١٨، وتفسير ابن كثير٢/ ,١٠٧ أما النسفي فقد جمع بين القولين وهما: طلب الاستشهاد في سبيل الله أو اتخاذهم شهداء على الأمم يوم القيامة، انظر تفسير النسفي١/ ٢٥٦

(٦) انظر اليمانيات المسلولة ص٢٥٦، وكشف الغمة ببيان خصائص رسول الله ﷺ والأمة لمصطفى بن إسماعيل ص٥٠٢

أمته بالشهادة على الأمم القديمة.

السادسة: حفظ الله لها من التبديل: لقد تكفل الله تعالى بحفظ الرسالة الخاتمة ولم يكل حفظها إلى البشر كما وكَّل حفظ التوراة إلى الربانيين والأحبار قال تعالى: ﴿**وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ**﴾[1]، ولم يطق الربانيون والأحبار حفظ رسالتهم فخانوا الأمانة وغيروا وبدلوا وحرفوا وظهر التدخل البشري في التوراة والإنجيل اللذين في أيدي أهل الكتاب اليوم أما رسالة الإسلام فهي رسالة العالم أجمع وهي خاتمة الرسالات ومن خصائصها بقاؤها ما بقيت حياة على وجه الأرض[2]؛ فلذلك تكفل الله تعالى بحفظها فقال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[3].

ومن أظهر صور حفظ هذه الرسالة من التبديل أنك لو نظرت (اليوم في هذا العالم شرقه وغربه لترى العدد الهائل الذي يحفظ القرآن عن ظهر قلب بحيث لو شاء ملحد أو يهودي أو صليبي تغيير حرف منه فإن صبيا صغيرا أو ربة بيت أو عجوز لا يبصر طريقه يستطيعون الرد عليه وبيان خطئه وافترائه ناهيك عن العلماء الذين حفظوه وفقهوا معانيه وتشبعوا بعلومه، وانظر إلى تاريخ هذا الكتاب وكم نال من عناية ورعاية في تدوينه وتفسيره وإعرابه وقصصه وأخباره وأحكامه ما كان ذلك ليكون لولا ذلك الحفظ الرباني وسيبقى هذا الكتاب إلى أن يأذن الله بزوال هذا الكون ودماره)[4].

ويكفي رسالة الإسلام هذه الخصيصة دليلا على أنها رسالة إلهية وأن قرآنها كتاب رباني أوحاه الله تعالى إلى خاتم النبيين ﷺ، وتأمل هذا القرآن فسيطول بك المقام وسيمتد بك الزمان لو ذهبت تستعرض الأحداث العظيمة والأهوال الجسيمة، والعوامل الخطيرة والأحوال المتماوجة التي اخترقها القرآن حتى وصل إلينا كما أنزله الله وسيخترق بإذن الله أحوال المجتمع الإسلامي المعاصر وظروفه وملابساته ويصل إلى من بعدنا ومن بعدهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ما طالته الأفواه النافخة ولا نالته الأصوات اللاغية ليتم الله نوره ولو كره الكافرون)[5].

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٤

(٢) انظر الرسل والرسالات للأشقر ص٢٤١، وخصائص القرآن الكريم للدكتور الرومي ص١٥٧

(٣) سورة الحجر الآية ٩

(٤) الرسل والرسالات ص٢٤٢، وانظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١/ ٣٦٢

(٥) خصائص القرآن للدكتور فهد الرومي ص١٥٧

ويحسن بي أن أشير هنا -في نهاية الحديث عن هذه الخصائص- إلى أن الإمام البيهقي ذكر في آخر كتابه " دلائل النبوة" عدة خصائص بطريق الاختصار فقال: -

١- **فمنها:** أنه صلى الله عليه وسلم كان رسول الثقلين: الإنس والجن، وأنه خاتم الأنبياء.

٢- **ومنها:** أن شرف الرسول بالرسالة ورسالته عليه السلام أشرف الرسالات، لأنها نسخت ما تقدمها من الرسالات الإلهية ولا تأتي بعدها رسالة تنسخها.

٣- **ومنها:** أن الله عز وجل أقسم بحياته عليه الصلاة والسلام.

٤- **ومنها:** أنه جمع له بين إنزال الملك عليه وإصعاده إلى مقام الملائكة وبين إسماعه كلام الملك. ومشاهدته إياه في صورته التي خلق عليها وجمع له بين إخباره عن الجنة والنار وإطلاعه عليهما فصار العلم له واقعا بالعالمين: دار التكليف، ودار الجزاء عيانا.

٥- **ومنها:** قتال الملائكة معه.

٦- **ومنها:** أن الله جل ثناؤه لم يخاطبه في القرآن إلا بالنبي أو الرسول ودعا سائر الأنبياء بأسمائهم.

٧- **ومنها:** أنه صلى الله عليه وسلم في الدنيا أكثر الأنبياء عليهم السلام أعلاما، وقد ذكر بعض المصنفين أن أعلام نبينا محمد ﷺ تبلغ ألفا[١]. والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر دلائل النبوة٥/ ٤٩٩، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح١/ ١٤٠

المبحث الرابع

حقوق الرسول صلى الله عليه وسلم على أمته

توطئة: من الحكم الإلهية، والرحمة بالبشرية أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الخلق عبثا، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾[١]، ولم يتركهم سدى؛ بل خلق الخلق لغاية ذكرها في كتابه العزيز وصرحت بها آياته الكريمة في مواضع شتى، منها: قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[٢]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٣].

فالحكمة من خلق الله سبحانه وتعالى للخلق أولا، وبعثهم ثانيا هي اختبارهم وابتلاؤهم ليجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فلذلك لم يتركهم هملا من غير واسطة ترسم لهم منهجا وعملا؛ بل أرسل إليهم رسله تترى وسائط بينه وبينهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[٤]، كلما انطفأت أنوار رسالة وبعد بالناس الأمد عن تعاليم تلك الواسطة بعث الله واسطة أخرى تبشر وتنذر للإعذار إلى الخلق وإقامة الحجة عليهم، قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٥]، فالرسل هم الواسطة بين الله تعالى وخلقه في تبليغ الشرائع وإرشاد الخلائق إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم[٦].

ولقد اصطفى الله محمدا ﷺ ليكون خاتم النبيين وآخر الوسائط من المرسلين وجعله أمينه على وحيه وخيرته من خلقه وسفيره بينه وبين عباده وحجته على خلقه أرسله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وأرسله إلى الناس أجمعين وأكمل له ولأمته الدين، وبعثه على حين فترة من الرسل وظهور الكفر وطموس السبل فأحيى به ما درس من معالم الإيمان وقمع به أهل الشرك من عبدة الأوثان والنيران والصلبان وأذل به مشركي أهل الكتاب وأهل الكفر والارتياب، وفلق به صبح الإيمان فأضاء حتى ملأ الآفاق نورا، وأطلع به شمس الرسالة في حنادس[٧] الظلم سراجا

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١١٥
(٢) سورة الملك الآية ٢
(٣) سورة الذاريات الآية ٥٦
(٤) سورة النحل الآية ٣٦
(٥) سورة النساء الآية ١٦٥
(٦) انظر مجموع الفتاوى١/ ٣٦٥، والواسطة بين الحق والخلق ص١٦، ولوامع الأنوار٢/ ٢٦٠.
(٧) الحنادس: جمع حندس بكسر أوله وثانيه ومعناه: الليل الشديد الظلمة، انظر مختار الصحاح ص١٢٦ مادة (حدس) والقاموس المحيط٢/ ٢١٦ مادة (الحندس).



منيرا، (فهدى الله به من الضلالة، وعلم به من الجهالة، وبصر به من العمى، وأرشد به من الغي، وكثر به بعد القلة، وأعز به بعد الذلة، وأغنى به بعد العَيلة[١]، واستنقذ به من الهلكة، وفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الغمة وجاهد في الله حق جهاده وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه وشرح الله له صدره ورفع له ذكره ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره وأقسم بحياته في كتابه المبين[٢].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (فهدى الله الناس ببركة نبوة محمد ﷺ وبما جاء به من البينات والهدى هداية جلت عن وصف الواصفين وفاقت معرفة العارفين حتى حصل لأمته المؤمنين عموما ولأولي العلم منهم خصوصا من العلم النافع والعمل الصالح والأخلاق العظيمة والسنن المستقيمة ما لو جمعت حكمه سائر الأمم علما وعملا -الخالصة من كل شوب إلى الحكمة التي بعث بها لتفاوتا تفاوتا يمنع معرفة قدر النسبة بينهما، فلله الحمد كما يحب ربنا ويرضى [٣].

ولقد امتن الله سبحانه وتعالى على المؤمنين بهذه الرسالة الخالدة بهذه النعمة العظيمة وهي بعثة هذا النبي الخاتم صلوات الله وسلامه عليه، فقال تعالى: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ .[٤]

ولما كان خاتم النبيين بهذه المنزلة عند ربه عز وجل وحاجة الناس إليه بهذه الدرجة، فقد أوجب الله لرسوله ﷺ على أمته جملة من الحقوق والواجبات، منها ما يتصل بجانب الرسالة التي بعث بها، ومنها ما يتعلق بشخصه الكريم ومقداره العظيم، صلى الله عليه وسلم، فضلا من الله وتكريما لرسوله وخيرته من خلقه صلى الله عليه وسلم[٥].

---

(١) العَيلة بفتح أوله: الفقر، انظر المصباح المنير٢/ ٤٤٠ مادة (العيلة) والقاموس المحيط٤/ ٢٣ مادة (عال).

(٢) توضيح المقاصد في شرح نونية ابن القيم للعلامة أحمد بن عيسى ص١٩، وانظر الأم للشافعي١/ ٤، وروضة المحبين لابن القيم ص٤، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته في ضوء الكتاب والسنة لفضيلة الدكتور محمد بن خليفة التميمي١/ ٩

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم١/ ٦٤، وانظر تلخيص كتاب الاستغاثة١/ ٢٣٧، ولوامع الأنوار٢/ ٢٦٢

(٤) سورة آل عمران الآية ١٦٤

(٥) انظر حقوق النبي ﷺ على أمته١/ ١٤، والأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة للشيخ عبد الرحمن الدوسري ص٦٩، وشخصية الرسول ﷺ في ضوء المقاييس الإنسانية للدكتور عبد الحليم عويس ص٤٧

وما من شك في أن بيان هذه الحقوق كاملة وتتبعها وتعدادها حقا حقا يتطلب مؤلفا مستقلا[١] ، وسيخرج بمنهج هذه الرسالة عن المنحى الذي سارت عليه وهو الحديث الموجز عن أهم هذه الحقوق والواجبات، وهذا ما سيكون في الحديث الآتي :-

حقوق الرسول ﷺ على أمته عند أهل السنة والجماعة. إذا تقرر بما قدمنا من مقام هذه الرسالة الخالدة ومكانتها السامية وخصائصه الفريدة دون سائر الرسالات السماوية، فقد أوجب الله عز وجل على الأمة لصاحب هذه الرسالة صلى الله عليه وسلم جملة من الحقوق والواجبات، تطبيقها واجب ومراعاتها أمر لازب[٢] ، ومن ذلك : الإيمان به صلى الله عليه وسلم ومحبته وطاعة أمره واتباع سنته وتعزيره وتوقيره وتعظيمه والصلاة والسلام عليه، وسيكون الحديث في هذا المبحث عن هذه الحقوق تباعا :-

أولا: الإيمان به صلى الله عليه وسلم. الإيمان بالرسول ﷺ يكون بـ(تصديقه وطاعته واتباع شريعته)[٣] ، ومن ذلك : التصديق بأن المصطفى (نبي الله ورسوله إلى الذين بعث فيهم وإلى من يأتي من بعدهم من الإنس والجن إلى قيام الساعة[٤] .

قال الإمام البيهقي (والإيمان برسول الله ﷺ يتضمن الإيمان له وهو قبول ما جاء به من عند الله عنه والعزم على العمل به؛ لأن تصديقه في أنه رسول الله إلزام لطاعته وهو راجع إلى الإيمان بالله والإيمان له؛ لأنه من تصديق الرسل وفي طاعة الرسول طاعة المرسل؛ لأنه بأمره أطاعه)[٥] .

وقال القاضي عياض في تعريف الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم (الإيمان به صلى الله عليه وسلم هو تصديق نبوته ورسالة الله له وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان بأنه رسول الله)[٦] .

فتصديقه صلى الله عليه وسلم وطاعته واتباع سنته وتحكيم شرعه هي الأمور التي

---

(١) ومن أراد التوسع في بيان تلك الحقوق فليرجع إلى كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم للقاضي عياض رحمه الله، وكتاب حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته لفضيلة الدكتور محمد بن خليفة التميمي حفظه الله.

(٢) أمر لازب : أي ثابت، ولازم وكل ما لا بد منه، انظر مختار الصحاح ص٥٩٧ مادة (ل ز ب) والمصباح المنير٢/ ٥٥٢ مادة (لزب).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم١/ ٢٥٩

(٤) انظر كتاب المنهاج في شعب الإيمان للحليمي١/ ٢٣٧، وشعب الإيمان للبيهقي١/ ١٤٥

(٥) شعب الإيمان١/ ١٥٠

(٦) الشفا٢/ ٨

يرتكز عليها الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهذا مقتضى الشهادة له بالرسالة كما قال الحافظ ابن حجر (**الشهادة بالرسالة تتضمن التصديق بما جاء به**)[١] . **ويمكن أن نقول: إن الإيمان بالنبي ﷺ يقوم على ركيزتين عظيمتين:-**

الأولى: تصديقه صلى الله عليه وسلم ويترتب عليه أمران مهمان، أحدهما: إثبات نبوته وصدقه فيما بلغه عن الله عز وجل وهذا مختص به صلى الله عليه وسلم[٢] ، ويتعلق بإثبات نبوته وصدقه صلى الله عليه وسلم عدة أمور[٣] منها :-

أ - الإيمان بعموم رسالته وعالميتها وأنها إلى كافة الناس عربهم وعجمهم، وعامة إلى الثقلين[٤] إنسهم وجنهم، قال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾[٥] وقال أيضا: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً** ﴾[٦] ، وقال تعالى: ﴿**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ**﴾[٧] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار**)[٨] ، فمن الإيمان بالمصطفى صلى الله عليه وسلم الإيمان بجميع ما جاء به صلى الله عليه وسلم ومما جاء به ودعا الناس إلى الإيمان به الإخبار بعموم رسالته للإنس والجن بجميع أجناسهم وأشكالهم وألوانهم ونحلهم ومللهم ولغاتهم وبلدانهم[٩] .

ب - الإيمان بكونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ورسالته خاتمة الرسالات السماوية[١٠] ، قال الله تعالى: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾[١١] .

---

(١) فتح الباري ١/ ١١٩ (٢) انظر مجموع الفتاوى ١٥/ ٩١

(٣) سبق الحديث عن معظم هذه الأمور في المبحث السابق عن مقام الرسالة وخصائصها عند أهل السنة والجماعة.

(٤) عموم رسالة الإسلام وعالميتها من خصائص هذه الرسالة، وقد سبق الحديث عنها في المبحث السابق.

(٥) سورة الأعراف الآية ١٥٨ (٦) سورة الفرقان الآية ١

(٧) سورة الأنعام الآية ١٩

(٨) رواه مسلم، كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل كلها ٢/ ١٨٦

(٩) إيضاح الدلالة في عموم الرسالة لشيخ الإسلام ابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ٢/ ٩٩، وحقوق النبي على أمته للتميمي ١/ ٨٤ (١٠) انظر الحديث عن هذه الخصيصة في المبحث السابق .

(١١) سورة الأحزاب الآية ٤٠



وقد تقدم معنا حديث جابر رضي الله عنه، وفيه: أن النبي ﷺ قال: (وأنا خاتم النبيين).

فمن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم الإيمان بكونه خاتم النبيين وكون رسالته خاتمة الرسالات، وهذا من حقوقه صلى الله عليه وسلم الواجبة على الأمة.

جـ - الإيمان بكون شريعته ناسخة لما تقدمها من الشرائع.

د - الإيمان بأنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ الرسالة وأكملها وأدى الأمانة على تمامها ونصح الأمة بأجمعها حتى تركهم على البيضاء ليلها كنهارها[١]، قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾[٢].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -مبينا وجه الدلالة من هذه الآية- (إن الله أخبر في هذه الآية بأنه قد أكمل الدين، وإنما كمل بما بلغه؛ إذ الدين لم يعرف إلا بتبليغه فعلم من ذلك أنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ جميع الدين الذي شرعه الله لعباده)[٣].

فمن حقوق الرسول صلى الله عليه وسلم الثابتة له على أمته أن يقروا له بالفضل والصدق والأمانة والتبليغ (فلا يكون إيمان للمرء إذا لم يقر للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه قد بلغ الرسالة أعظم ما يكون التبليغ وقام بأدائها أعظم ما يكون القيام، واحتمل في سبيلها أشق ما يحتمله البشر)[٤].

هـ - الإيمان بعصمته صلى الله عليه وسلم[٥].

و - الإيمان بماله من الحقوق على أمته كمحبته وطاعته وتعزيره وتوقيره وتعظيمه والصلاة والسلام عليهﷺ.

قال الحليمي -بعد أن ذكر تعريف الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم- (والإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كان في الجملة تصديقه في الرسالة على الوجه الذي يذكره ويصفه؛ فإنه يتفرع ويتشعب فروعا وشعبا: -

---

(١) سبق الحديث عن هذه الخصيصة في المبحث السابق. (٢) سورة المائدة الآية ٣

(٣) مجموع الفتاوى٥/ ١٥٥ (بتصرف يسير). (٤) حقوق النبي ﷺ على أمته١/ ١٢٥

(٥) سيأتي الحديث عن العصمة في المبحث الآتي "وسطية أهل السنة والجماعة في باب تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم"



الأول: تصديقه في أن الله عز وجل ثناؤه أرسله فميزه برتبة الرسالة من سائر الناس.

والثاني: تصديقه في أنه عز اسمه أرسله بما يقول، وإن الذي يؤديه هو رسالة الله التي أرسل بها.

والثالث: تصديقه في أنه أرسله إلى كل من يذكر أنه أرسله إليهم من خصوص أوعموم.

والرابع: تصديقه في أنه خاتم النبيين لا رسول ولا نبي بعده، والشريعة المشروعة له آخر الشريعة وعليها تقوم الساعة.

والخامس: تصديقه في صفة إرساله؛ إذ أثبتها لقومه؛ فإن قال: أوحي إلي على لسان ملك صدق في أن الذي يأتيه ملك)[١] .

والثاني:(تصديقه فيما جاء به وأن ما جاء به من عند الله حق يجب اتباعه، وهذا يجب عليه صلى الله عليه وسلم وعلى كل أحد)[٢] .

قال شارح الطحاوية (يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيمانا مجملا ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم على التفصيل فرض على الكفاية)[٣] .

والركيزة الثانية: طاعته واتباع شريعته: إن الإيمان بالمصطفى صلى الله عليه وسلم كما تقرر أنه تصديقه في كل ما جاء به من ربه فهو يتضمن كذلك العزم على العمل بما جاء به، وهذه هي الركيزة الثانية من ركائز الإيمان به صلى الله عليه وسلم، وسيكون الحديث عن هذا الحق قريبا بعد الكلام عن محبته صلى الله عليه وسلم.

الأدلة من القرآن والسنة على وجوب الإيمان بالنبي ﷺ.

أولا: الأدلة من القرآن الكريم. لقد أكد الله سبحانه وتعالى وجوب الإيمان بنبيه صلى الله عليه وسلم بأن جعله مقترنا بالإيمان به عز وجل في مواضع كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[٤] ، وقوله تعالى: ﴿ فَآمِنُوا

---

(١) كتاب المنهاج ١/ ٢٣٨

(٢) مجموع الفتاوى ١٥/ ٩١

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص٧٠

(٤) سورة الحديد الآية ٧

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[1] ، وقد رتب الله على الإيمان بالمصطفى صلى الله عليه وسلم كفلين من الرحمة ونورا ومغفرة فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] والإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم واحد من ثلاثة حقوق اقترن بها حقه صلى الله عليه وسلم مع حق الله تعالى في القرآن الكريم وأما الحقان الآخران فهما : طاعته صلى الله عليه وسلم ومحبته[3] (فالإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم واجب متعين لا يتم إيمان إلا به ولا يصح إسلام إلا معه)[4] قال تعالى في حق من لم يؤمن بالله ورسوله : ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾[5] .

ثانيا: الأدلة من السنة المطهرة. ورد في السنة النبوية أحاديث كثيرة تحض على وجوب الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم منها : -

١- حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺقال : (**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله**)[6] .

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**)[7] .

٣- وعن ابن عباس رضي الله عنهما لما قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ قال لهم : (**أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا المغنم من الخمس**)[8] . الحديث .

---

(١) سورة التغابن الآية ٨ (٢) سورة الحديد الآية ٢٨ وانظر أضواء البيان٧/ ٥٣٥

(٣)حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته١/ ٦٩

(٤) الشفا٢/ ٤ (٥) سورة الفتح الآية ١٣

(٦) رواه البخاري، ١/ ٧٥ ، حديث ٢٥ واللفظ له، ومسلم انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله١/ ٢١٢

(٧) تقدم تخريجه . (٨) رواه البخاري، ١/ ١٢٩، حديث ٥٣، ومسلم ١/ ٥٣

فيؤخذ من هذه الأحاديث وجوب الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم على كل من بلغه إرساله، سواء في زمنه صلى الله عليه وسلم أو بعده إلى أن تقوم الساعة، سواء في ذلك الإنس والجن، والعرب والعجم، وأهل الكتاب، ومن ليسوا بأهل كتاب؛ لأن الله ختم به الأنبياء ونسخ بشريعته سائر الشرائع، وهذا من الحقوق الثابتة له صلى الله عليه وسلم على كل فرد من أفراد أمته.

ثانيا: محبته صلى الله عليه وسلم. عرف الحافظ ابن حجر المحبة بقوله: (وحقيقة المحبة عند أهل المعرفة من المعلومات التي لا تحد وإنما يعرفها من قامت به وجدانا لا يمكن التعبير عنه)[١] . وقال العلامة ابن القيم: (لا تحد المحبة بحد أوضح منها فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدها وجودها ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها، وعلاماتها، وشواهدها، وثمراتها، وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة، وتنوعت بهم العبارات وكثرت الإشارات بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله وملكه للعبارة)[٢] .

ونقل القاضي عياض عن سفيان أنه عرف محبة النبي صلى الله عليه وسلم بقوله (المحبة: اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام)[٣] ، ثم علق القاضي عياض على هذا التعريف مبينا أن سفيان راعى في هذا التعريف قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [٤] فكأنه التفت إلى علامة محبة الرسول صلى الله عليه وسلم[٥] .

وقيل (محبة الرسول صلى الله عليه وسلم اعتقاد نصرته والذب عن سنته والانقياد لها وهيبة مخالفته)[٦] .

ومحبة نبينا صلى الله عليه وسلم روحي فداه حق زائد على وجوب مجرد التصديق بنبوته؛ بل يجب أن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه، وولده، ووالده، والناس أجمعين (فحب النبي صلى الله عليه وسلم من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجل قواعده؛

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٤٦٣

(٢) مدارج السالكين ٣/ ٩، وانظر طريق الهجرتين ص ٢٩٠

(٣) الشفاء ٢/ ٢٥

(٤) سورة آل عمران الآية ٣١

(٥) انظر الشفاء ٢/ ٢٥، وشرح الشفا ٢/ ٥٣ لملاً علي القاري.

(٦) الشفاء ٢/ ٢٦ وانظر تفسير القرطبي ٤/ ٦٠



بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين)[١] .

ولما كانت محبة الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم هي أصل الإيمان وأساس الدين، ولما كانت محبة نبينا صلى الله عليه وسلم هي إحدى الحقوق الواجبة له على الأمة فقد بينت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية هذا الواجب وركزت على توضيح هذا الحق، فمن تلك الآيات : -

أ - قول الله تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٢] ، فالآية دليل على وجوب محبة الله تعالى ورسوله ﷺ وأن محبتهما مقدَّمة على محبة غيرهما، ولا يتصور خلاف في ذلك بين الأمة[٣] .

قال القاضي عياض -بعد استشهاده بالآية (فكفى بهذا حضا وتنبيها ودلالة وحجة على إلزام محبته ووجوب فرضها وعظم خطرها واستحقاقه لها صلى الله عليه وسلم؛ إذ قرع تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله وأوعدهم بقوله تعالى : ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ ، ثم فسقهم بتمام الآية وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله)[٤] .

وبتأمل هذه الآية نجد أن الأمر فيها لم يقتصر على وجود أصل المحبة لله ورسوله؛ بل فيها أمر زائد على ذلك وهو أن يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما، ومحبة الله تقتضي تحقيق العبودية الكاملة له عز وجل؛ لأن العبادة هي الغاية التي خلق الله لها الخلق من جهة أمره ومحبته ورضاه، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٥] ، كما أن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم تقتضي تحقيق المتابعة له وموافقته في حب ما أحبه وبغض ما كرهه ومحبته صلى الله عليه وسلم متفرعة عن محبة الله تعالى وتابعة لها، فمن أحب الله محبة صادقة من قلبه أوجب له ذلك أن يحب بقلبه ما يحبه الله ورسوله ويكره ما يكرهه الله ورسوله ويرضى ما يرضى الله ورسوله ويسخط ما يسخط الله

---

(١) التحفة العراقية ص٥٧، وانظر الصارم المسلول ص٤٢٠، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم للتميمي١/ ٥٣
(٢) سورة التوبة الآية ٢٤
(٣) انظر تفسير القرطبي٨/ ٩٥
(٤) الشفا٢/ ٢٣
(٥) سورة الذاريات الآية٥٦



ورسوله وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض؛ فإن عمل بجوارحه شيئا يخالف ذلك بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله أو ترك بعض ما يحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه دل ذلك على نقص محبته)[١] .

فجميع المعاصي إنما تنشأ من تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع، فيجب على المؤمن محبة الله تعالى ومحبة من يحبه الله من الملائكة والأنبياء والصدقين والشهداء والصالحين عموما[٢] .

ب - وقوله تعالى : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[٣] وهذه الآية دليل على أن من لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم أولى به من نفسه فليس من المؤمنين وهذه الأولوية تتضمن أمورا ينبغي التنبه لها :-

منها : أن يكون النبي ﷺ أحب إلى العبد من نفسه التي بين جنبيه؛ لأن الأولوية أصلها الحب ونفس العبد أحب إليه من غيره ومع هذا يجب أن يكون الرسول أحب إليه منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان كما يلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة من الرضا بحكم النبي والتسليم لأمره وإيثاره على ما سواه.

ومنها : أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلا؛ بل الحكم على نفسه للرسول صلى الله عليه وسلم يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده، أو الوالد على ولده، فليس له -وحالة الحب هذه- في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولى به منها[٤] .

جـ - وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٥] ، وفي هذه الآية إشارة إلى التلازم بين محبة الله تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله تعالى قد جعل برهان محبته تعالى ودليل صدقها هو اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ولا يتم اتباع النبي صلى الله عليه وسلم إلا بعد الإيمان به، والإيمان به صلى الله عليه وسلم لا بد فيه من تحقق شروطه التي منها محبته صلى الله عليه وسلم،

---

(١) حقوق النبي ﷺ على أمته للدكتور التميمي ١/ ٣٠٢ (٢) انظر جامع العلوم والحكم ص٣٨٨

(٣) سورة الأحزاب الآية ٦ (٤) انظر الرسالة التبوكية لابن القيم ص٣٩ (بتصرف).

(٥) سورة آل عمران الآية ٣١



فمن كان صادقا في دعوى محبة الله اتبع رسوله لا محالة، وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما[1] .

وذكر الإمام القرطبي عن الحسن وابن جريج[2] ـ رحمهما الله تعالى ـ أنهما قالا: نزلت هذه الآية في قوم من أهل الكتاب قالوا: نحن الذين نحب ربنا [3] .

ونقل الإمام ابن كثير عن الحسن البصري وغيره من السلف أنهم قالوا: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية[4] .

وقال بعض السلف: لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرقة الشجي فتنوع المدعون في الشهود، فقيل: لا تقبل هذه الدعوى إلا ببينة: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾[5] . [6]

وقال القاضي عياض: (فالصادق في حب النبي ﷺ من تظهر علامة ذلك عليه وأولها الاقتداء به واستعمال سنته واتباع أقواله وأفعاله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه والتأدب بآدابه في عسره ويسره ومنشطه ومكرهه، وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾[7]

ومن الأحاديث التي جاءت في معرض لتأكد وجوب محبة النبي صلى الله عليه وسلم: -

أولا: ما جاء في حديث عمر رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ **(يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال له عمر فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ الآن يا عمر)**[8] . **فهذا الحديث نص على وجوب تقديم محبة الرسول صلى الله عليه وسلم على محبة النفس.**

---

(١) انظر حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للتميمي١/ ٣٠٦

(٢) هو شيخ الحرم أبو خالد وأبو الوليد عبدالملك بن عبدالعزيز بن جُريج الإمام الحافظ، الأموي المكي، أول من دون العلم بمكة كما قال الذهبي، توفي سنة ١٥٠هـ. انظر تاريخ بغداد١/ ٤٠٠، وسير أعلام النبلاء٦/ ٣٢٥، وتهذيب التهذيب٢/ ٢٤٩

(٣) انظر تفسير القرطبي٤/ ٦٠

(٤) انظر تفسير ابن كثير٢/ ٢٥

(٥) سورة آل عمران الآية ٣١

(٦) انظر مجموع الفتاوى١٨/ ٣١٥

(٧) الشفا٢/ ٢٢

(٨) رواه البخاري، كتاب الأيمان باب كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم١١/ ٥٢٣ رقم الحديث٦٦٣٢

ثانيا: ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (**فو الذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده**)[١] . وهذا دليل على وجوب تقديم محبته صلى الله عليه وسلم على محبة الوالد والولد.

ثالثا: ومنها حديث أنس (قال: قال رسول الله ﷺ (**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**)[٢] . وهذا دليل أيضا على وجوب تقديم محبته صلى الله عليه وسلم على محبة الوالد والولد والناس أجمعين.

رابعا: ومنها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)[٣] ، والشاهد منه قوله ﷺ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما).

خامسا: ومنها حديث أنس رضي الله عنه قال (**جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: وما أعددت للساعة؟ قال: حب الله ورسوله، قال: فإنك مع من أحببت، قال أنس فما فرحنا بعد الإسلام فرحا أشد من قول النبي ﷺ: فإنك مع من أحببت، قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم**)[٤] .

سادسا: ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**من أشد أمتي لي حبا ناس يكونون بعدي يود أحدهم لو رآني بأهله وماله**)[٥] .

سابعا: ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر[٦]

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان١/ ٥٨ رقم الحديث ١٤

(٢) رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور باب حب الرسول صلى الله عليه سلم من الإيمان واللفظ له١/ ٥٨ رقم الحديث٥١، ورواه مسلم، اكتاب الإيمان باب بيان خصال من اتصف بها وجد حلاوة الإيمان٢/ ١٥

(٣) أخرجه البخاري، ١/ ٧٢ رقم الحديث ٢١، ومسلم، كتاب الإيمان باب خصال من اتصف بها وجد حلاوة الإيمان واللفظ له١/ ٤٨

(٤) رواه البخاري، ١٠/ ٥٥٧ حديث٦١٧١، ومسلم، كتاب البر والصلة باب المرء مع من أحب١٦/ ١٨٦، واللفظ له.

(٥) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب فيمن يود رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بأهله وماله١٧/ ١٧٠

(٦) خيبر: بلدة تابعة لمنطقة المدينة المنورة في ناحية الشام تبعد عن المدينة ثمانية برد، فتحها النبي ﷺسنة سبع من الهجرة وقيل غير ذلك، انظر معجم البلدان٢/ ٤٠٩



(لأعطين هذه الراية رجلا يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه قال عمر بن الخطاب (ما أحببت الإمارة إلا يومئذ، قال: فتساورت لها[1] رجاء أن أدعى لها، قال: فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فأعطاه إياها . . .) الحديث[2] .

فثبت من هذه الآيات القرآنية الكريمة، ومن هذه الآثار النبوية الشريفة وجوب تقديم محبته صلى الله عليه وسلم بعد محبة الله سبحانه وتعالى على النفس والولد والوالد والمال والناس أجمعين، وأنه لا يستكمل أحد الإيمان حتى يكون كذلك، وأن الصحابة رضوان الله عليهم كان حظهم من هذه المحبة أتم وأوفر وكان حبهم له صلى الله عليه وسلم أشد وأكبر، ولقد سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (كيف كان حبكم لرسول الله ﷺ؟ قال: كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ)[3] .

وقد جعل بعض أهل العلم محبة نبينا صلى الله عليه وسلم ومحبة أهل بيته وأصحابه رضي الله عنهم من خصائصه الكبرى[4] .

وذكر ابن الملقن[5] -رحمه الله- في خصائصه أنه يجب على الأمة أن يحبوا النبي ﷺ محبة خاصة تفوق محبة النفس والمال والولد، وعد ذلك من خصائصه ﷺ التي لم يشاركه فيها أحد من المرسلين؛ وذلك لأن الصفات التي تستوجب المحبة موجودة في حقه صلى الله عليه وسلم فوجبت له المحبة الكاملة كما نقل عن القاضي حسين[6] -رحمه الله قوله (يجب على المرء أن يكون جزعه وحزنه وقلقه على فراق النبي ﷺ من الدنيا أكثر من حزنه على فراق أبويه كما يجب عليه أن يكون عنده أحب إليه من نفسه وأهله وماله)[7] .

---

(١) أي رفعت لها شخصي، انظر النهاية لابن الأثير ٢/ ٤٢٠ مادة (س ور).

(٢) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ١٥/ ١٧٦

(٣) الشفا ٢/ ٢٠

(٤) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي ٣/ ٣٢٩

(٥) هو أبو حفص عمر بن علي بن أحمد بن محمد بن عبدالله سراج الدين الأنصاري الواداياشي الأندلسي، التكروري الأصل، المصري، الشافعي، فقيه، أصولي، محدث، حافظ مؤرخ، له مشاركات في بعض العلوم، ولد بالقاهرة سنة ٧٢٣هـ، وتوفي بها سنة ٨٠٤هـ.
انظر الضوء اللامع ٦/ ١٠٠، وشذرات الذهب ٧/ ٤٤، والبدر الطالع ٥٠٨

(٦) هو أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد المروزي القاضي من أجلة أصحاب الإمام الشافعي، ومتى أطلق القاضي عند الشافعية فهو المراد، توفي سنة ٤٦٢هـ انظر طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٥٥، وشذرات الذهب ٣/ ٣١٠

(٧) غاية السول في خصائص الرسول ص ١٧٦

فكل من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم لا يخلو من وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة له صلى الله عليه وسلم غير أنهم متفاوتون في ذلك فمنهم من يأخذ من تلك الأرجحية بالحظ الأوفر، ولا ريب أن حظ الصحابة رضي الله عنهم من تلك المحبة أعظم؛ لأن معرفتهم لقدره أعظم؛ ولأن المحبة ثمرة المعرفة فتقوى وتضعف بحسبها، ومن المسلمين من يكون مستغرقا في الشهوات محجوبا بالغفلات عن ذلك المعنى في أكثر الأوقات، فهذا بأخس الأحوال(١) .

وقال الحافظ ابن حجر: (ومن علامة الحب المذكور أن يعرض على المرء أن لو خير بين فقد غرض من أغراضه أو فقد رؤية النبي ﷺ أن لو كانت ممكنة فإن كان فقدها أن لو كانت ممكنة أشد عليه من فقد شيء من أغراضه فقد اتصف بالأحبية المذكورة ومن لا فلا، وليس ذلك محصورا في الوجود والفقد؛ بل يأتي مثله في نصرة سنته والذب عن شريعته وقمع مخالفيها)(٢) .

وتبدو علاقة حب النبي ﷺ في حياته ببذل المجهود في طاعته ونصرته ومعاونته وبذل المال إذا أراده والمسارعة إلى ما يحبه، وأما بعد مماته صلى الله عليه وسلم فتكون بطلب سنته والبحث عن أخلاقه وآدابه وتعظيم أمره ولزوم القيام به وشدة الغضب والإعراض عن من يدين بخلاف سنته والغضب على من ضيعها لأثرة دنيا وحب من كان بسبيل من قرابة أو صهر أو هجرة أو نصرة أو صحبة ساعة من ليل أو نهار على الإسلام والتشبه به في زيه ولباسه صلى الله عليه وسلم(٣) . فمن حقه صلى الله عليه وسلم فداه أبي وأمي الذي أوجبه الله علينا أن نحبه محبة خاصة تفوق محبتنا لنفوسنا وأموالنا وأولادنا وأمهاتنا وآبائنا وجميع الخلق ليتم إيماننا ويرحمنا ربنا وذلك بفضل سفارته؛ لأنه صلى الله عليه وسلم الواسطة بيننا وبين ربنا في تبليغ الشريعة وأحكام الدين.

ثالثا: طاعة أمره واتباع سنته ﷺ: العبودية الحقة هي الاستسلام لله والانقياد له وحده دون سواه واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم في كل أقواله، وأفعاله، وأحواله؛ لأن الله تعالى قرن طاعة الرسول بطاعته فقال عز وجل: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ

---

(١) انظر المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأحمد بن عمر القرطبي١/ ٢٢٦
(٢) فتح الباري١/ ٥٩
(٣) انظر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي٢/ ٦٩٣

تُرْحَمُونَ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[٢]، وقال أيضا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٣] ، وجعل سبحانه وتعالى الجنة جزاء لمن آمن به وأطاع رسوله واتبع سنته والنار لمن عصاهما ، فقال عز من قائل : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٤] .

قال الإمام الشافعي رحمه الله (إن الله افترض طاعة رسوله وحتم على الناس اتباع أمره فلا يجوز أن يقال لقول : إنه فرض إلا لكتاب الله ثم لسنة رسوله وذلك لما وصفنا من أن الله تعالى جعل الإيمان برسوله مقرونا بالإيمان به وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مبينة عن الله معنى ما أراد دليلا على خاصه وعامه ، ثم قرن الحكمة بكتابه فأتبعها إياه ، ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسول الله صلى الله عليه وسلم)[٥] . ولا شك أن طاعة النبي ﷺ واتباع سنته أمر واجب ؛ لأنه من لوازم الإيمان به وتصديقه صلى الله عليه وسلم، فإذا وجب الإيمان به وتصديقه في ما جاء به وجبت طاعته ؛ لأن ذلك مما أتى به[٦] ، قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[٧] وقال : ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[٨] ، وقال : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[٩] ، وقال : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾[١٠] .

قال القاضي عياض -بعد إيراده لهذه الآيات- (فجعل تعالى طاعة رسوله طاعته وقرن طاعته بطاعته ووعد على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب، وأوجب امتثال أمره واجتناب نهيه، قال المفسرون والأئمة : طاعة الرسول التزام سنته والتسليم لما جاء به)[١١] .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٢
(٢) سورة آل عمران الآية ٣٢
(٣) سورة النساء الآية ٥٩
(٤) سورة النساء الآيتان (١٣-١٤).
(٥) الأم١/ ١٤
(٦) انظر الشفا٢/ ١١ ، وأدب العبودية لمحمد مصطفى عبد الرحمن ص١١
(٧) سورة الأنفال الآية ٢٠
(٨) سورة النور الآية ٥٤
(٩) سورة الحشر الآية ٧ .
(١٠) سورة النساء الآية ٦٩
(١١) الشفا٢/ ١١



ويعلم بما تقدم من الآيات الكريمات أن الله سبحانه وتعالى أوجب على الخلق طاعة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم واتباع سنته في مواضع شتى من القرآن الكريم[١] حتى قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله (نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في ثلاثة وثلاثين موضعا)[٢] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (وقد أمر الله بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في أكثر من ثلاثين موضعا من القرآن وقرن طاعته بطاعته، وقرن بين مخالفته ومخالفته كما قرن بين اسمه واسمه، فلا يذكر الله إلا ذكر معه)[٣] . قال الصرصري[٤] رحمه الله[٥] :-

لا يصح الأذان في الفرض إلا باسمه العذب في الفم المرضي

ونصوص الكتاب والسنة التي تحث الأمة على اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وامتثال أمره والتمسك بسنته لا تحصى كثرة، ومنها قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٦] ، فجعل في الإيمان بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم واتباع سنته وتطبيق شرعه الهداية التامة والفوز العظيم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾[٧] .

وقد وضح بعض أهل العلم أن الأسوة في الرسول صلى الله عليه وسلم تعني الاقتداء به والاتباع لسنته وترك مخالفته في الأقوال والأفعال[٨] .

وقد بين الحسن البصري أن الإنسان ينبغي ألا يغتر بقول من يقول: (المرء مع من أحب)؛ لأن من أحب قوما اتبع آثارهم ولن يلحق المرء بهذه الرتبة حتى يتبع النبي صلى الله عليه وسلم ويأخذ بهديه ويتبع سنته ويصبح ويمسي وهو على نهجه حريصا على اتباع

(١) وقد تناول تفسير تلك الآيات بشيء من التفصيل فضيلة الدكتور محمد التميمي، انظر حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته١/ ١٧٣

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ ص٥٦ (٣) مجموع الفتاوى١٩/ ١٠٣

(٤) هو أبو زكريا يحيى بن يوسف بن يحيى جمال الدين الأنصاري الصرصري نسبة إلى صرصر من أعمال بغداد الشاعر لقب بالمادح لكثرة شعره في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولد سنة٥٨٨هـ، قتله التتار يوم دخلوا بغداد سنة٦٥٦هـ انظر ترجمته في البداية والنهاية١٣/ ٢٣٤، والنجوم الزاهرة٧/ ٦٦، والأعلام٩/ ٢٢٥ (٥) انظر تفسير ابن كثير٤/ ٥٦١

(٦) سورة الأعراف الآية ١٥٨ (٧) سورة الأحزاب الآية ٢١

(٨) انظر الشفا٢/ ١٤ ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم بين الاتباع والابتداع لعبد الرؤوف محمد عثمان ص١١٥

طريقته، فإن ملاك الأمر هو الاستقامة والاتباع، أما رأيت اليهود والنصارى وأهل الأهواء والبدع؟؛ فإنهم يدعون محبة أنبيائهم وليسوا على منهاجهم![١] .

وقد تقدم في بداية هذا المبحث أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم هي الركيزة الثانية من ركائز الإيمان به وهي تعني (الانقياد له صلى الله عليه وسلم وذلك بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه وزجر امتثالا لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[٢] ، فيجب على الخلق اتباع شريعته والالتزام بسنته مع الرضا بما قضاه والتسليم والاعتقاد الجازم أن طاعته هي طاعة لله وأن معصيته معصية لله؛ لأنه هو الواسطة بين الله وبين الثقلين في التبليغ)[٣] .

وقد جاءت الأحاديث متضافرة للتأكيد على وجوب طاعة المصطفى ﷺ واتباع سنته وتطبيق شريعته وفعل ما أمر به والترغيب في ذلك مع التأكيد على التحذير من مخالفته وتحريم معصيته والإحجام عن ما نهى عنه، والترهيب من ذلك، فمن تلك الأحاديث: -

١ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**)[٤] .

٢- ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله... الحديث**)[٥] ، فطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم شرط لطاعة الله؛ لأن الله أمر بطاعته فطاعته صلى الله عليه وسلم امتثال لما أمر الله به، وطاعة له[٦] .

٣- ومنها حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (**إنما مثلي ومثل**

---

(١) انظر استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس لابن رجب ص١٢٠

(٢) سورة الحشر الآية ٧

(٣) حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للتميمي ١/ ٣٥

(٤) رواه البخاري، انظر صحيح البخاري مع الفتح كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٣/ ٢٤٩ رقم الحديث ٧٢٨٠

(٥) رواه البخاري، ١٣/ ١١١ رقم الحديث ٧١٣٧، ومسلم، كتاب الإمارة باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ١٢/ ٢٢٣

(٦) انظر الشفا ٢/ ١٢، والرد على الأخنائي مطبوع بحاشية تلخيص كتاب الاستغاثة ص١٨٢

ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان(١) ، **فالنجاء**(٢) **فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا**(٣) **فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم**(٤) **فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق)**(٥) .

٤- ومنها حديث جابر رضي الله عنه وفيه : أن الملائكة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقالوا : (**مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة وبعث داعيا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة.... فالدار الجنة والداعي محمد صلى الله عليه وسلم، فمن أطاع محمدا فقد أطاع الله ومن عصى محمدا فقد عصى الله ومحمد فرق**(٦) **بين الناس)**(٧) .

فهذه الأحاديث الأربعة وغيرها تؤكد وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به، وامتثال أمره واجتناب نهيه، كما تؤكد على أن هذه الطاعة هي مفتاح الجنة، والطريق الموصلة إلى رضا الله ومحبته وهي سبيل النجاة الوحيد التي متى سلكها المسلم وجاهد نفسه عليها وجد حلاوة الإيمان وفاز برضا الله ورحمته ونجا من سخطه وأليم عذابه(٨) .

وقد حكى الله عن الكفار -وهم في سقر- أنهم يقولون : ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا

---

(١) مبالغة في الإنذار وكان من عادة العرب أن رائد القوم إذا وقف على مكان عال فرأى العدو نزع ثوبه ولوح به ينذر قومه فيبقى عريانا . انظر غريب الحديث لابن الجوزي٢/ ٩١ مادة (العين مع الراء) .

(٢) النجاء : السرعة أي انجو بأنفسكم . انظر غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام١/ ٢٤٦ مادة (نجا)، والنهاية لابن الأثير٥/ ٢٥ مادة (نجا) .

(٣) الدلجة بفتح الدال وضمها : السير من أول الليل وقد يراد به الليل كله وأنشدوا له قول علي رضي الله عنه : -

اصبر على السير والإدلاج في السحر وفي الرواح على الحاجات والبكر

انظر النهاية لابن الأثير٢/ ١٢٩ مادة (دلج) .

(٤) أي : استأصلهم، ومنه الجائحة التي تصيب المال، انظر النهاية لابن الأثير١/ ٢١١ مادة (جوح) والقاموس المحيط١/ ١٢٩ مادة (الجوح) .

(٥) رواه البخاري، ١٣/ ٢٥٠ رقم الحديث٧٢٨٣، ومسلم، كتاب الفضائل باب شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم١٥/ ٤٨

(٦) أي أنه صلى الله عليه وسلم فرق بين المؤمنين والكافرين بالطاعة والعصيان. انظر النهاية لابن الأثير٣/ ٤٣٩ مادة (فرق) .

(٧) رواه البخاري، ١٣/ ٢٤٩ رقم الحديث٧٢٨١

(٨) انظر فتح الباري١/ ٦١ ، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للتميمي١/ ١٨٨



الرَّسُـــولاْ ﴾[1] ، يتمنون العودة إلى الدنيا لتحقيق هذه الطاعة حتى يخلصوا من عذاب جهنم ؛ لكنهم تمنوا طاعته حيث لا ينفعهم التمني[3] .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم في غير ما موضع من أحاديثه الشريفة أن كل من ادعى الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وتطبيق الشريعة ثم لم يتبع طريقة النبي صلى الله عليه وسلم ورغب عن سنته فليس منه كما جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (**جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر، ولا أفطر، وقا آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنتم الذين قلتم كذا، وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**)[3] .

وهذا الحديث يركز على قضيتين مهمتين في دين الإسلام ، ألا وهما : -

(أ) الاتباع ، (ب) ترك الابتداع ، وقد تقدم معنا الأصلان العظيمان اللذان لا يقبل الله عملا إلا بشرط وجودهما ، وهما : -

١ - إخلاص العمل لوجه الله تعالى .

٢ - متابعة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الشريعة ما عرفت إلا بواسطته[4] .

قال شارح الطحاوية : (فالواجب كمال التسليم للرسول صلى الله عليه وسلم والانقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن نعارضه بخيال باطل نسميه معقولا . . . أو نقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم فنوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان كما نوحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل ، فهما توحيدان لا نجاة للعبد إلا

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٦٦ (٢) انظر الشفا٢/ ١٢

(٣) رواه البخاري٩/ ١٠٤ رقم الحديث ٥٦٣ واللفظ له ، ورواه مسلم ، كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه٩/ ١٧٥

(٤) تقدم بيان هذين الأصلين العظيمين .

بهما: توحيد المرسِل، وتوحيد متابعة الرسول؛ فلا نحاكم إلى غيره ولا نرضى بحكم غيره)[١] .

ويجب على كل من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وصدق بما جاء به من ربه ودخل في الإسلام أن يطيع الرسول صلى الله عليه وسلم الواسطة الذي عرفه بربه؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يبعث واسطة من الرسل إلى أممهم إلا ليطيعوا تلك الواسطة بإذن الله تعالى، قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٢] ، وقد بين الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية أن الله تعالى لم يرسل رسولا واسطة إلى قومه إلا فرض طاعته على من أرسله إليهم ولا يطيع تلك الواسطة إلا من وفقه الله لذلك[٣] .

وتتحق طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في امتثال أمره واجتناب نهيه والبعد كل البعد عن أي مخالفة له في الظاهر أو الباطن من شأنها أن تجعل صاحبها مخالفا للسنة ومشاقا للرسول؛ لقوله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه (. . . فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم)[٤] . وإذا رأينا امرءا يدعي الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم ومحبته، وتعظيمه، ثم وجدناه غير مطيع لأمر النبي صلى الله عليه وسلم وغير متبع لسنته فإن هذا الادعاء افتراء، وتلك المحبة كذب واجتراء وصاحبها مبتدع واعتقاده فاسد وادعاؤه كاذب، كما قيل: -

والدعاوى مالم تقيموا عليها … بينات أبناؤها أدعياء

ولأن علامة المحب الصادق طاعته لمحبوبه فالطاعة عنوان المحبة[٥] .

ولقد أحسن القائل[٦] : -

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٢٠٠

(٢) سورة النساء الآية ٦٤

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٠٥

(٤) رواه البخاري، ١٣/ ٢٥١ رقم الحديث ٧٢٨٨ واللفظ له، ومسلم كتاب الحج باب فرض الحج مرة في العمر ٩/ ١٠٠

(٥) انظر روضة المحبين ص٢٦٥، وطريق الهجرتين ص ٢٩٨، وأضواء البيان ١/ ٢١٧، ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم بين الاتباع والابتداع ص١٢٥

(٦) اختلف في قائل هذين البيتين اختلافا كثيرا، فقيل هما لعبد الله بن المبارك، وقيل لرابعة العدوية، وقيل لأبي العتاهية، ورجح مرتضى الزبيدي أنهما للحسن بن محمد بن الحنفية وهو رأي البيهقي في الشعب ١/ ٣٨٦، قال: فأصل الإنشاد للحسن والباقون متمثلون، انظر الشفا ٢/ ١٥، وإتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ٩/ ٦١٩، وعبد الله بن المبارك الإمام القدوة لمحمد عثمان جمال ص ١٧٥



تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا محال في القياس بديع[١]

لو كان حبك صادقا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وجملة القول: إن الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم حق من حقوقه الثابتة على أمته ومحبته صلى الله عليه وسلم حق من حقوقه، وطاعة أمره واتباع سنته حق من حقوقه الثابتة، وهذه الحقوق كلها واجبة وهي مترابطة ومتلازمة ولا ينفك بعضها عن بعض، حيث لا يتصور في شخص واحد وجود بعضها وتخلف حق منها.

رابعا: تعزيره وتوقيره وتعظيمه صلى الله عليه وسلم.

أمر الله تعالى المؤمنين بتعزير النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيره وتعظيم شأنه فقال تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾الآية[٢]، وقال أيضا: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣].

نقل المفسرون عن ابن عباس رضي الله عنهما -في معنى التعزير- أنه قال: (﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي حموه ووقروه. وقال مجاهد: ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ سددوا أمره وأعانوا رسوله ونصروه)[٤].

قال ابن جرير الطبري: ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ معناه: وقروه وعظموه وحموه من الناس ثم قال -بعد أن نقل قول ابن عباس ومجاهد السابقين- (وهذه الأقوال متقاربات المعنى وإن اختلفت ألفاظ أهلها بها ومعنى التعزير في هذا الموضع: التقوية بالنصر والمعونة، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال)[٥].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (التعزير اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه)[٦]. وعن معنى التوقير قال ابن عباس رضي الله عنهما: (: ﴿تُوَقِّرُوهُ﴾ بمعنى التعظيم، وقال قتادة: ﴿تُوَقِّرُوهُ﴾ أمر الله بتسويده وتفخيمه)[٧].

وقال ابن جرير الطبري: (فأما التوقير فهو التعظيم والإجلال والتفخيم)[٨].

---

(١) في بعض المراجع رواية أخرى لهذا العجز وهي: × هذا لعمري في القياس شنيع ×

(٢) سورة الفتح الآية ٩ (٣) سورة الأعراف الآية ١٥٧

(٤) تفسير الطبري٩/ ٨٥، وانظر تفسير القرطبي١٦/ ٢٦٦، وتفسير ابن كثير٤/ ١٩٩

(٥) تفسير الطبري٢٦/ ٧٥ (٦) الصارم المسلول ص٤٢٢

(٧) تفسير الطبري٢٦/ ٧٤ (٨) المرجع نفسه ٢٦/ ٧٥

وقال القرطبي (: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي تدعوه بالرسالة والنبوة لا بالاسم والكنية)[١] على جهة الإجلال والتعظيم.

وعرف شيخ الإسلام ابن تيمة التوقير بقوله : (التوقير اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام، وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حد الوقار)[٢] .

فتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم وإجلاله وتوقيره شعبة عظيمة من شعب الإيمان، وهذه الشعبة غير شعبة المحبة؛ بل هي أمر زائد على المحبة؛ لأن منزلتها ورتبتها أعلى وأسمى من رتبة المحبة فليست كل محبة تورث تعظيما، ألا ترى أن الوالد يحب ولده محبة إشفاق لكنها تدعوه إلى تكريمه لا إلى تعظيمه، أما الولد فإنه يحب والده محبة تجمع بين التكريم والتعظيم، وكذلك شأن السيد مع مماليكه فإنه يحبهم ولكنه لا يعظمهم، أما المماليك فإنهم يحبون سيدهم ويعظمونه، فعلمنا من ذلك أن التعظيم منزلة ورتبة فوق منزلة ورتبة المحبة[٣] .

ولما قرن الله عز وجل في الآيتين السابقتين بين الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه علمنا أن في ذلك تنبيها وإرشادا إلى أن القيام بحقوقه صلى الله عليه وسلم التي منها تعزيره وتوقيره يعد من الإيمان الواجب الذي لا يتم إيمان المرء إلا به[٤] .

وهذا التعزير والتوقير والإجلال للنبي صلى الله عليه وسلم حق من حقوقه الثابتة له في حياته وبعد لحوقه بالرفيق الأعلى؛ لأن حرمته صلى الله عليه وسلم في قبره كحرمته حيا؛ ولذلك قال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبر الرسول صلى الله عليه وسلم كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام؛ لأنه يجب احترامه وتعظيمه حيا وفي قبره صلى الله عليه وسلم دائما[٥] .

ويدخل في توقير النبي صلى الله عليه وسلم ورعاية جنابه وإجلاله وتعظيمه توقير آله وذريته وأزواجه وأصحابه رضي الله عن الجميع واحترامهم وإنزالهم المنزلة اللائقة بهم كما

---

(١) تفسير القرطبي١٦/ ٢٦٧ (٢) الصارم المسلول ص٤٢٢

(٣) انظر المنهاج في شعب الإيمان للحليمي٢/ ١٢٤، وشعب الإيمان للبيهقي١/ ١٩٣

(٤) انظر حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للتميمي٢/ ٤٢٤، والسيف المسلول في الذب عن الرسول للدكتور عويد المطرفي ص١٠

(٥) انظر الشفا٢/ ٣٥، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للتميمي٢/ ٤٣٢



ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم الأمر بذلك وسلكه السلف الصالح رحمهم الله، فلآل النبي صلى الله عليه وسلم من الحقوق ما يجب رعايتها فالله سبحانه وتعالى جعل لهم حقا في الخمس والفيء كما قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾(٢).

كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصلاة عليهم مع الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، ففي حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: (خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا: قد عرفنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد)(٣).

قال الإمام ابن كثير (ولا ننكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم؛ فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على ظهر الأرض فخرا وحسبا ونسبا ولاسيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه وعلي وأهل بيته وذريته رضي الله عنهم أجمعين)(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ولا ريب أن لآل محمد صلى الله عليه وسلم حقا على الأمة لا يشركهم فيه غيرهم ويستحقون من زيادة المحبة والموالاة مالا يستحقه سائر بطون قريش، كما أن قريشا يستحقون من المحبة والموالاة ما لا يستحقه غير قريش من القبائل، كما أن جنس العرب يستحق من المحبة والموالاة ما لا يستحقه سائر أجناس بني آدم)(٥).

فأهل السنة والجماعة يحبون أهلالبيت ويتولونهم ويجلونهم؛ وذلك لحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ويعدون ذلك من توقيره صلى الله عليه وسلم ويودونه حقا من حقوقه عليه الصلاة والسلام لا كما تزعم الرافضة أنهم هم الذين يحبون أهل البيت

---

(١) سورة الأنفال الآية ٤١ (٢) سورة الحشر الآية ٧

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير باب ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ ٨/ ٥٣٢ رقم الحديث ٤٧٩٧، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد التشهد ٤/ ١٢٤.

(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ١٢٢ (٥) منهاج السنة النبوية ٤/ ٥٩٩



ويتولونهم على الخصوص فإنهم كاذبون في هذا الادعاء ومفتضحون عند جميع العقلاء؛ لأن معظم أئمة أهل البيت رحمهم الله تبرأوا من الرافضة ومن حماقاتهم وألفوا في الرد على ضلالاتهم(١) .

ويدخل في توقير النبي صلى الله عليه وسلم وإجلاله احترام أزواجه وذريته، فيجب على كل مسلم أن يحفظ لزوجات النبي ﷺ رضوان الله عليهن أجمعين حقهن في الحرمة والإجلال والتوقير والاحترام والإكرام والإعظام، ويحفظ لهن المكانة التي جعل الله لهن من بين سائر نساء العالمين، وينزلهن منزلة الأمومة التي هي حق من حقوقهن؛ لأن الله تعالى جعلهن أمهات في التحريم والاحترام قال تعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾(٢) .

قال الإمام القرطبي عند تفسيره لهذه الآية (شرف الله تعالى أزواج نبيه صلى الله عليه وسلم بأن جعلهن أمهات المؤمنين أي في وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال، وحجبهن رضي الله تعالى عنهن بخلاف الأمهات)(٣) .

ولنساء النبي صلى الله عليه وسلم مكانة خاصة ومنزلة عظيمة بحكم صلتهن بالرسول صلى الله عليه وسلم وعشرتهن معه قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾(٤) ، يعني في الفضل والشرف؛ وذلك لما منحهن الله تعالى من صحبة الرسول صلى الله عليه وسلم وعظيم المحل منه ونزول القرآن في حقهن(٥) . وكانت بيوتهن رضي الله عنهن عامرة بنزول الوحي والحكمة وهذه الفضيلة لم يشاركهن فيها بيت من بيوت المسلمين؛ ولذلك أمرهن الله تعالى أن ينشرن في المسلمين تلك الآيات والحكمة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوها في بيوتهن، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾(٦) .

قال قتادة وغير واحد من السلف: (واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس)(٧) ، وقد فعلن ونفع الله بعلومهن رضي الله

---

(١) انظر اليمانيات المسلولة على الرافضة المخذولة ص١٩٩، والعقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط للدكتور سليمان السحيمي ص١٧٢
(٢) سورة الأحزاب الآية ٦
(٣) تفسير القرطبي١٤/ ١٢٣، غاية السول لابن الملقن ص٢٤٨
(٤) سورة الأحزاب الآية ٣٢
(٥) انظر الشفا٢/ ٣٢، وتفسير القرطبي١٤/ ١٧٧
(٦) سورة الأحزاب الآية ٣٤
(٧) تفسير ابن كثير٣/ ٤٩٤

عنهن وجزاهن عنا وعن الإسلام خير الجزاء.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يتولون أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة خصوصا خديجة رضي الله عنها أم أكثر أولاده وأول من آمن به وعاضده على أمره، وكان له منها المنزلة العالية، والصدِّيقة بنت الصدِّيق رضي الله عنهما)[١] .

ومن توقيره صلى الله عليه وسلم وبره توقير أصحابه رضي الله عنهم وإجلالهم ومعرفة حقهم والاقتداء بهم وحسن الثناء عليهم والاستغفار لهم والإمساك عما شجر بينهم ومعاداة من عاداهم والإضراب عن وقائع المؤرخين، وجهلة الرواة الناقلين وضللة الرافضة والمبتدعين القادحة في أحد منهم، وأن نلتمس لهم فيما نقله الناقلون عنهم من مثل ذلك أحسن التأويلات ونخرجه لهم أصوب المخارج؛ إذ هم أهل ذلك ولا نذكر أحدا منهم بسوء ولا ننكر عليه أمرا؛ بل نذكر حسناتهم وفضائلهم وحميد سيرتهم، ونسكت عما وراء ذلك؛ لأن الخوض فيه خوض فيما نهينا عنه[٢] .

فالصحابة رضي الله عنهم لهم فضل صحبة النبي صلى الله عليه وسلم ورؤيته ونصرته وحمايته والجهاد معه، وقد اختارهم الله لذلك وجعلهم واسطة في تبليغ الشريعة بين النبي صلى الله عليه وسلم وأمته. وقد أثنى الله عليهم في مواضع عديدة من القرآن الكريم[٣] . منها قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٤] ، وأثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عن النيل منهم في جملة من الأحاديث[٥] ، منها: حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد

---

(١) مجموع الفتاوى٣/ ١٥٤ (٢) انظر الشفا٢/ ٤٣

(٣) خصص زين العبدين الكوراني مقصدا كاملا لتفسير الآيات التي وردت بعدالة الصحابة رضي الله عنهم وتوسع في ذلك، انظر اليمانيات المسلولة ص٢٢١

(٤) سورة التوبة: الآية ١٠٠

(٥) مجموعة في مقصد واحد وبشروح وافية في اليمانيات المسلولة على الرافضة المخذولة ص ٢٧٨



أحدهم ولا نصيفه)[1] [2] .

فهذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة : حب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعدم التفريق بينهم ، ومعرفة حقهم ، والترضي عنهم ، ونشر محاسنهم ، والذب عن أعراضهم التي ينتهكها الروافض قبحهم الله تعالى ، وكلام علماء السلف وكتب أهل السنة مليئة ببيان هذه العقيدة الصافية النقية ؛ لأن حفظه صلى الله عليه وسلم في صحابته رضي الله عنهم من حقوقه الثابتة ، وحبهم وتوقيرهم وإجلالهم من حبه وتوقيره وتعظيمه صلى الله عليه وسلم[3] .

وأكتفي بهذا القدر من الكلام حول تعزير النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيره وتعظيمه ؛ لأن المقصود بيان أن هذا من حقوقه صلى الله عليه وسلم الثابتة له على أمته ، أما تفصيل الكلام حول التعظيم الشرعي والبدعي في حقه صلى الله عليه وسلم وبيان وسطية أهل السنة في ذلك فسيكون في المبحث القادم بحول الله تعالى وعونه .

خامسا: الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم.

ومن حقوق الرسول صلى الله عليه وسلم الثابتة التي تعد جانبا مهما من جوانب تعظيمه وتوقيره صلى الله عليه وسلم ألا وهو الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم ، فقد أمرنا الله عز وجل بذلك فقال تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[4] ، فهذه الآية هي الأصل في بيان هذا الحق[5] ، وأجمع أهل العلم على أن فيها من تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم وبيان منزلته والتنويه بمقداره ما ليس في غيرها[6] .

---

(١) النصيف لغة في النصف ، قال الشاعر : × لم يغذها مد ولا نصيف ×
وهو مكيال عند العرب ، انظر النهاية لابن الأثير ٥/ ٦٥ مادة (نصف) ومختار الصحاح ص ٦٦٣ مادة (ن ص ف).

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب فضائل الصحابة ٧/ ٢١ رقم الحديث ٣٦٧٣ ، ورواه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم١٦/ ٩٢

(٣) انظر الشفا٢/ ٤٣ ، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للتميمي٢/ ٤٨٥

(٤) سورة الأحزاب الآية ٥٦

(٥) انظر المنهاج في شعب الإيمان للحليمي٢/ ١٤٣

(٦) انظر القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع للسخاوي ص٣٨ ، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للتميمي٢/ ٥١٤

قال الإمام ابن كثير في بيان معنى الآية (والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين: العلوي والسفلي جميعا[١]) كما قيل[٢] :-

حللت بهذا حلة ثم حلة بهذا فطاب الواديان كلاهما

وبهذه الآية شرف الله نبيه صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد موته وأظهر للعالمين منزلته عنده[٣] .

قال الشيخ السعدي: (وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعة درجته وعلو منزلته عند الله وعند خلقه ورفع ذكره و: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أي يثني الله عليه بين الملائكة وفي الملأ الأعلى لمحبته تعالى، ويثني عليه الملائكة المقربون ويدعون له ويتضرعون: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ اقتداء بالله وملائكته وجزاء له على بعض حقوقه عليكم وتكميلا لإيمانكم وتعظيما له صلى الله عليه وسلم ومحبة وإكراما وزيادة في حسناتكم وتكفيرا من سيئاتكم)[٤] ، فالآية تبين أن الله سبحانه وتعالى يأمر المؤمنين بالصلاة والسلام على النبي جملة وقدم قبل أمرهم بذلك إخبارهم بأن ملائكته يصلون على النبي ليلفت أنظارهم إلى ما في الصلاة والسلام عليه من الفضل والأجر؛ إذ كانت الملائكة مع عدم تكليفهم بشريعته تتقرب إلى الله بالصلاة والسلام عليه فيعلم المؤمنون أنهم بالصلاة والتسليم عليه أحرى وأولى[٥] ، ثم إنه تعالى (لما أرشد المؤمنين إلى تعظيمه صلى الله عليه وسلم بتعليم سلوك طريق الأدب معه في أشياء كثيرة تتعلق بحياته وموته إظهارا لشرفه وتعظيما له عقبه بما يدل على أنه تعالى أيضا معظم لشأنه أيضا، وكذلك ملائكته المقربون حملة العرش وحفظة العرش الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وفيه بيان لمنقبة عظيمة؛ فإن الملك قد يأمر بإكرام شخص ولا يكون عنده بمكان فأزيل هذا التوهم وبين أنه أكرم الخلق على ربه تعالى)[٦] .

---

(١) تفسير ابن كثير٣/ ٥١٤
(٢) انظر القول البديع ص٣٩
(٣) انظر الشفا٢/ ٣٥، وتفسير القرطبي١٤/ ٢٣٢
(٤) تفسير السعدي٦/ ١٢٠
(٥) انظر المنهاج في شعب الإيمان للحليمي٢/ ١٣١
(٦) الصلات والبشر في الصلاة على خير البشر للفيروزآبادي ص١٩

والدليل على مشروعية الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم من السنة كثيرة منها: حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه قال (إن النبي صلى الله عليه وسلم خرج علينا فقلنا: يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: (قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)(١) . وقد تضافرت الأدلة النقلية الصحيحة على مشروعية الإكثار من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في سائر الأوقات وكثير من الأماكن، وتتأكد تلك المشروعية في مواطن، إما وجوبا وإما استحبابا مؤكدا(٢) .

ومن هذه المواطن(٣) في الصلاة في التشهد الأول، وفي التشهد الأخير منها، وفي آخر القنوت، وبعد التكبيرة الثانية من صلاة الجنازة، وفي الخطب، كخطبة الجمعة، والعيدين، والاستسقاء، وغيرها، وبعد إجابة المؤذن، وعند الإقامة، وعند الدعاء، وعند دخول المسجد، وعند الخروج منه، وعلى الصفا والمروة، وعند اجتماع القوم قبل تفرقهم، وعند ذكره صلى الله عليه وسلم(٤) . ولصلاة العبد على النبي صلى الله عليه وسلم أجر عظيم وفضل عميم طالما حصله الذاكرون المصلون وضيعه التعساء الغافلون.

قال العلامة ابن القيم: (إن طلب الصلاة من الله على رسوله صلى الله عليه وسلم هو من أجل أدعية العبد وأنفعها له في دنياه وآخرته)(٥) .

والأحاديث التي جاءت في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة منها:

١ - حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي؛ فإنه من صلى علي صلاة صلى**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر الشفا ٢/ ٥٤، وجلاء الأفهام ص٢٥١، والقول البديع ص٢٤٨، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته ٢/ ٥٢٣

(٣) انظر بيان تلك المواضع مع ذكر أدلتها بالتفصيل في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لإسماعيل القاضي ص٧٢، والشفا ٢/ ٥٤، وجلاء الأفهام ص٢٥١، والقول البديع ص٢٤٨، والصلاة والبشر ص١١١، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للتميمي ٢/ ٥٢٣

(٤) وهناك مواطن أخرى -غير ما ذكر- بينها ابن القيم، والسخاوي، والفيروزآبادي، انظر على الترتيب: جلاء الأفهام ص٢٥١، والقول البديع ص٢٤٨، والصلاة والبشر ص١١١

(٥) بدائع الفوائد ٢/ ١٩٠

الله عليه بها عشرا، ثم سلوا لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو؛ فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة)[1] .

٢- وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال (**ما شئت، قلت: الربع؟ قال ما شئت، وإن زدت فهو خير، قلت: النصف؟ قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير، قلت: الثلثين؟ قال: ما شئت، وإن زدت فهو خير، قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: إذن تكفى همك، ويغفر لك ذنبك)**[2] .

٣- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة)**[3] .

وبوقفة يسيرة مع هذه الأحاديث وغيرها كثير يعرف المرء عظيم فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وأنه يجنى بامتثال هذا الأمر ثمرات نافعة ويحصل على فوائد جمة في الدنيا والآخرة؛ وذلك لأن صلاتنا على النبي صلى الله عليه وسلم امتثال لأمر الله تعالى أولا، وموافقة له سبحانه وتعالى في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثانيا، وكذلك موافقة ملائكته الكرام عليهم السلام وإن اختلفت تلك الصلوات، فصلاتنا عليه دعاء وسؤال، وصلاة الله تعالى عليه ثناء وتعظيم وتشريف، وصلاة الملائكة عليه رقة تبعث على استدعاء الرحمة[1] .

وقد ذكر العلامة ابن القيم في الباب الرابع من كتابه الرائع "جلاء الأفهام" عددا من

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يسأل له الوسيلة٤/ ٨٥

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند٥/ ١٣٦، والترمذي في سننه٤/ ٦٤٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والحاكم في المستدرك٢/ ٤٢١، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأخرجه إسماعيل القاضي في فضائل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ص٨، والحديث في إسناده عبد الله بن محمد بن عقيل، قال عنه ابن القيم: احتج به الأئمة الكبار كالحميدي، وأحمد، وإسحاق، وعلي بن المديني، والترمذي، وغيرهم. انظر جلاء الأفهام ص٦٦ وقال الألباني: إسناده حسن من أجل الخلاف المعروف في ابن عقيل. انظر مشكاة المصابيح برقم٩٢٩

(٣) رواه الترمذي في سننه٢/ ٣٥٤، وقال: حديث حسن غريب، وأخرجه ابن حبان في صحيحه. انظر موارد الظمآن / حديث٢٣٨٩، وأورده ابن القيم في جلاء الأفهام وعزاه إلى البزار، والبغوي، انظر جلاء الأفهام ص٥٢، وذكر الحافظ ابن حجر أن له شاهدا عند البيهقي ثم قال: ولا بأس به، انظر فتح الباري١١/ ١٦٧

(٤) انظر الشفا٢/ ٥٠، وجلاء الأفهام ص٧٥، وفتح الباري٨/ ٥٣٢

تلك الفوائد الجمة والثمرات النافعة فليطالعه من أراد التوسع[1] .

وإذا كانت صلاتنا على النبي صلى الله عليه وسلم حقا من حقوقه الثابتة له علينا صلى الله عليه وسلم فالحمد لله الحليم الذي جعل أداء هذا الحق العظيم منوطا بحصول الأجر الجسيم والنوال العميم فضلا منه ونعمة ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (فصلى الله على نبينا محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون ، وصلى الله تعالى عليه في الأولين والآخرين أفضل وأكثر وأزكى ما صلى على أحد من خلقه ، وزكانا وإياكم بالصلاة عليه أفضل ما زكّى أحدا من أمته بصلاته عليه ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته وجزاه الله سبحانه وتعالى عنا أفضل ما جزى مرسلا عمن أرسل إليـه)[2] . ونسأله تعالى أن يزرع في قلوبنا محبته سبحانه وتعالى ومحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يعيننا على طاعة الله ورسوله وأداء الحقوق الثابتة لنبيه علينا وأن يجعل أعمالنا خالصة صالحة إنه ولي ذلك والقادر عليه .

---

(١) انظر جلاء الأفهام ص٣٣٥ ، وذكر الإمام ابن الجوزي عشر كرامات تحصل بالصلاة على النبي ﷺ ، انظر بستان الواعظين لابن الجوزي ص٢٩٧

(٢) الأم للإمام الشافعي ١ / ٤

المبحث الخامس

وجوب الإيمان بعصمته صلى الله عليه وسلم

سبق في المبحث الرابع الحديث عن وجوب الإيمان بالنبي ﷺ وأن ذلك من حقوقه الثابتة له على أمته، وأنه قد بلغ الرسالة وأكملها، وأن هذا التبليغ قد اقترن بعصمة الله لنبيه ﷺ في كل ما يبلغه عن ربه عز وجل، فالإيمان بعصمته صلى الله عليه وسلم من الأمور التي يتعلق بها إثبات نبوته، وصدقه صلى الله عليه وسلم؛ فلهذا رأيت أن أفرد هذا المبحث في الحديث عن عصمة الله لنبيه صلى الله عليه وسلم باعتبار أن الإيمان بعصمة النبي صلى الله عليه وسلم من الأمور الداخلة في جملة الحقوق الواجبة له صلى الله عليه وسلم على أمته.

العصمة في اللغة: ترجع اشتقاقات كلمة العصمة إلى معنى المنع[١].

العصمة في الشرع: أما عصمة النبي صلى الله عليه وسلم فقد عرفها علماء الشرع بعدة تعريفات أوضحها وأنسبها وأسلمها من الاعتراض ما ذكره صاحب كتاب نسيم الرياض من أنها (لطف من الله تعالى يحمل النبي على فعل الخير ويزجره عن الشر مع بقاء الاختيار تحقيقا للابتلاء)[٢].

والحديث عن عصمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو حديث عن عصمة سائر إخوانه من المرسلين لأننا -نحن المؤمنين بالله- لا نفرق بين أحد من رسله، ونؤمن بأن الله تعالى اصطفاهم وفضلهم على العالمين وجعل (تربتهم طيبة وأحسابهم أصلية ومعادنهم نقية، وأصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم طاهرة، وبواطنهم صافية، وظواهرهم صادقة، ونشأتهم قويمة، ومنهجهم في طفولتهم رشيد، وسلوكهم بعد أن بلغوا الرشد حميد، وتصرفهم حكيم، وموقفهم فيما يأتون وما يذرون سليم، فهم في القمة من الفضائل، وفي الذروة من الكمال البشري . . . الذي يجعلهم فوق الدنايا والصغائر، وليس بعد امتداح الله تعالى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وثنائه عليهم وإشادته بأخلاقهم ورفع درجاتهم دلالة على أنهم كانوا أسرع الناس في الخيرات وأبعد الناس عن المعاصي

(١) انظر مختار الصحاح ص٤٣٧ مادة (ع ص م) ولسان العرب١٢/ ٤٠٣ مادة (عصم) والقاموس المحيط٤/ ١٥٢ مادة (عصم).

(٢) نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض للشهاب الخفاجي٤/ ٣٩



والموبقات)[١] .

الجوانب التي عصم فيها النبي صلى الله عليه وسلم[٢] .

أولا: العصمة في التبليغ ودعوى الرسالة: اتفقت الأمة على أن الرسول صلى الله عليه وسلم معصوم في تبليغ الرسالة[٣] وهذه العصمة هي التي عليها المناط؛ فيها يحصل المقصود من البعثة ومهمة الرسل من أولهم إلى خاتمهم عليهم الصلاة والسلام هي تبليغ شرع الله تعالى إلى عباد الله، فهم الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه ليبلغوا هم أوامره ونواهيه، وبما أعطاهم الله تعالى من هداية البيان والإرشاد والتبليغ يهتدي البشر، وفي معرفة الله، وعبادته عبادة صحيحة كما حب ويرضى وعن طريقهم يتبين الصراط المستقيم، ولهذا أوجب الله تعالى العصمة لأنبيائه ورسله في جانب تحمل الرسالة وأدائها حتى تصل إلى العباد كاملة تامة غير منقوصة ولا محرفة، وبذلك تقوم الحجة على الخلائق أجمعين، ولقد دلت آيات الكتاب العزيز وأحاديث السنة المطهرة على عصمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في هذا الجانب، وانعقد إجماع الأمة على ذلك، فمن القرآن:

١ - قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[٤] .

فهذه الآيات نصت على أن الله سبحانه وتعالى لا يؤيد من يكذب عليه فلا بد أن يظهر كذبه، وأن ينتقم منه، ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الجنس، كما يزعم المكذبون له فيما حكاه الله عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾[٥] وحاشاه صلى الله عليه وسلم من ذلك- لأنزل الله به العقوبة كما ذكره في هذه الآيات، وحيث إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقع له شيء من ذلك فلم يهلكه الله ولم يعذبه فهو إذن لم يتقول على الله مالم يقله ولم يفتر في التبليغ شيئا من عند نفسه، وبهذا ثبتت عصمته صلى الله عليه وسلم في كل ما بلغه عن ربه عز وجل[٦] .

---

(١) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم للدكتور محمد الحديدي ص١٤١

(٢) انظر تلك الجوانب بالتفصيل في كتاب حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للدكتور محمد التميمي١/ ١٣٠ وما بعدها.

(٣) انظر مجموع الفتاوى١٠/ ٢٩٠، ولوامع الأنوار٢/ ٣٠٤

(٤) سورة الحاقة الآيات (٤٤-٤٧).

(٥) سورة الشورى الآية (٢٤).

(٦) انظر الشفا١/ ١٠٩، وعصمة الأنبياء للحديدي ص١٠٤، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته١/ ١٣١

قال الإمام ابن كثير بعد تفسيره لهذه الآيات: (والمعنى في هذا بل هو صادق راشد؛ لأن الله عز وجل مقر له ما يبلغه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات)[١] .

٢- وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[٢] فالآية نص في عصمة لسان النبي صلى الله عليه وسلم من كل هوى وغرض فهو لا ينطق إلا بما يوحى إليه من ربه ولا يقول إلا ما أمر به فيبلغه إلى الناس عموما، وقد بلغ صلى الله عليه وسلم ما أوحاه إليه ربه كاملا موفورا من غير زيادة ولا نقصان فهذه الآية شهادة وتزكية من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في كل ما بلغه للناس من أوامر الله ونواهيه[٣] .

٣- وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[٤] وهذه الآيات -أيضا- دالة على عصمة الله وتثبيته لنبيه صلى الله عليه وسلم في تبليغ الوحي ومعناها قريب من معنى الآيات السابقة.

يقول الإمام ابن كثير: (فقد أخبر تعالى عن تأييده لرسوله صلوات الله عليه وسلامه وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها)[٥] .

وأما الأدلة من السنة على عصمة النبي صلى الله عليه وسلم في جانب التبليغ فمنها: -

١- حديث طلحة بن عبيد الله عن أبيه رضي الله عنهما، وجاء فيه قوله صلى الله عليه وسلم (ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فإني لن أكذب على الله عز وجل)[٦] .

٢- ومنها حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب

---

(١) تفسير ابن كثير٤/ ٤١٧.   (٢) سورة النجم الآيتان (٣-٤).
(٣) انظر عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم للدكتور محمد الحديدي ص٩٢، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته١/ ١٣٠   (٤) سورة الإسراء الآيات (٧٣-٧٥).
(٥) تفسير ابن كثير٣/ ٥٣.
(٦) رواه مسلم انظر صحيح مسلم بشرح النووي في كتاب الفضائل باب وجوب امتثال ما قاله شرعا١٥/ ١١٦



كل شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه سولم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب الرضا فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (**اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق**)[١] .

٣- ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (إني لا أقول إلا حقا)، قال بعض أصحابه فإنك تداعبنا يا رسول الله، قال (**إني لا أقول إلا حقا**)[٢] .

دليل الإجماع على عصمة النبي صلى الله عليه وسلم في التبليغ: نقل الإجماع على هذا غير واحد من علماء الأمة، قال القاضي عياض: (وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها بخلاف ما هو به لا قصدا ولا عمدا ولا سهوا ولا غلطا)[٣] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (إن الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة؛ ولهذا وجب الإيمان بكل ما أتوه)[٤] .

ثانيا: العصمة من الكفر والشرك، وهذه العصمة ذات بعدين:-

أ – عصمته قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم.

ب – عصمته بعد البعثة صلى الله عليه وسلم.

أما البعد الأول وهو عصمته من الشرك والكفر قبل بعثته ونزول الوحي إليه صلى الله عليه وسلم فقد دلت النصوص الثابتة على أن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم منذ نشأته من الكفر والشرك فلم يعهد أنه سجد لصنم، أو استلمه؛ بل فطره ربه على معرفته والاتجاه إليه وحده، واعتزال قريش وبغض أصنامها، ومن نظر في سيرته صلى الله عليه وسلم لم يجده إلا على هذا الوصف صلى الله عليه وسلم، والنصوص التي تدل على هذا كثيرة

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده٢/ ١٦٢، وأبو داود في سننه٤/ ٦٠ حديث٣٦٤٦، والحاكم في المستدرك ١/ ١٠٤، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه أحمد في المسند٢/ ٣٤٠، والترمذي في سننه٤/ ٣٥٧ حديث١٩٩٠، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) الشفا٢/ ١٠٩

(٤) مجموع الفتاوى١٠/ ٢٨٩



جدا، وسأكتفي بالحديث الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة[١] فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعني ظئره-[٢] فقالوا: إن محمدا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع[٣] اللون، قال أنس: وكنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره[٤] صلى الله عليه وسلم.

فهذا الحديث يدل على إخراج جبريل عليه السلام لحظ الشيطان منه صلى الله عليه وسلم وتطهيره لقلبه فلا قدرة للشيطان على إغوائه ولا سبيل له عليه، ومنه يؤخذ عصمته صلى الله عليه وسلم من الشرك قبل البعثة، ولما كان الله لم يرسل إلى خلقه إلا من هو أعقل أهل زمانه وأقواهم فطرة وأحسنهم خلقا وخُلُقا كان نبينا صلى الله عليه وسلم معصوما قبل النبوة وبعدها ولم يقع ذلك منه أصلا، وإن اختلف في جوازه عقلا، فعلى منعه لا يبقى شيء، وعند من جوزه قبل البعثة لم يقل بوقوعه فرجع الأمر إلى العصمة، فالكل متفقون على أن الله تعالى لم يبعث فاسقا ولا معروفا بالظلم والفجور، ولم يبعث إلا إنسانا نقيا ذكيا تحبه القلوب وتهابه الأعين، ويرضى عنه كل أحد[٥].

كما عصمه الله تعالى من الحلف بأسماء الأصنام التي كان يعبدها قومه ويحلفون بها تعظيما لشأنها[٦]، والنصوص الدالة على هذا كثيرة وقد عني بجمعها من ألف في الدلائل، والخصائص، مثل الحافظ أبي نعيم الأصبهاني[٧]، والإمام البيهقي[٨] والإمام السيوطي[٩].

ونقل الشريف الجرجاني إجماع الأمة على عصمة الأنبياء من الكفر والشرك قبل النبوة وبعدها، فقال: "وأما الكفر فأجمعت الأمة على عصمتهم منه قبل النبوة وبعدها، ولا

---

(١) العلقة: قطعة من الدم. انظر مختار الصحاح ص٤٥٠ مادة (ع ل ق).

(٢) الظئر: الناقة تعطف على ولدها، ومنه قيل للمرأة الأجنبية تحضن ولد غيرها ظئرا أيضا. انظر المصباح المنير ٢/ ٣٨٨ مادة (الظئر).

(٣) قال أهل اللغة: يقال هو منتقع إذا تغير بسبب حزن أو فزع. انظر القاموس المحيط ٣/ ٨٨ مادة (النقع).

(٤) رواه مسلم كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم ٢/ ٢١٦

(٥) انظر نسيم الرياض ٤/ ١٤٨، وعصمة الأنبياء للحديدي ص١٢١

(٦) انظر حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته ١/ ١٣٦

(٧) انظر دلائل النبوة له ١/ ١٤٣

(٨) انظر دلائل النبوة له ٢/ ٣٠

(٩) انظر الخصائص الكبرى له ١/ ١٤٨



خلاف لأحد منهم في ذلك »[1] .

وبهذا تبين أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن على دين قومه، ولم يعبد الأصنام كما عبدوها، ولو حصل ذلك لنقل إلينا الرواة تعيير المشركين له بذلك عند صدعه صلى الله عليه وسلم بالدعوة، ولكانوا أشد فرحا بذلك، فلما لم يعيره أحد منهم بذلك علمنا أنه صلى الله عليه وسلم لم يشاركهم في تلك الطقوس التي كانوا عليها، فلما عصمه الله من ذلك ولم يجعل لكفار قريش طريقا عليه لجأوا إلى تلفيق التهم الباطلة، والأقاويل المتناقضة، كاتهامه بالسحر تارة، وبالجنون تارة، وبالكهانة تارة أخرى[2] .

ونعلم بذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان ربه قد عصمه مما هو دون الشرك من الأمور المنكرة التي كان عليها أهل الجاهلية ففيه دليل على عصمته صلى الله عليه وسلم من الوقوع في الشرك من باب أولى وأحرى .

عصمته صلى الله عليه وسلم من الكفر، والشرك بعد النبوة: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم الذي بعثه الله تعالى بالحنيفية السمحة والتوحيد الناصع ليقع منه الكفر، أو يحوم حول الشرك، بل قد كان صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة للموحدين حربا على المشركين، وجاءت رسالته السامية لتنقذ الناس من أوحال الشرك ودنس الكفر إلى عبادة الله تعالى، فهو صلى الله عليه وسلم منزه عن كل ضلال وغواية كما أخبر الله بذلك في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾[3] فهذه شهادة من الله جل ثناؤه لخاتمة رسله صلى الله عليه وسلم بأنه راشد تابع للحق ليس بضال ولا غاو، بل إنه صلوات الله وسلامه عليه في غاية من كمال الاستقامة والاعتدال والسداد والهداية والصلاح[4] .

وعلى هذا أجمعت الأمة كما قال الفخر الرازي: (أجمعت الأمة على أن الأنبياء معصومون عن الكفر والبدعة)[5] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمة: (ففي الجملة كل ما يقدح في نبوتهم وتبليغهم عن الله

---

(١) شرح المواقف ص١٣٤

(٢) انظر الشفا٢/ ٩٧، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم للتميمي١/ ١٣٨

(٣) سورة النجم الآية ٣

(٤) انظر تفسير ابن كثير٤/ ٢٦٤، وآيات الهداية والاستقامة في كتاب الله تعالى للشيخ عطية محمد سالم٢/ ١٥٩، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم للتميمي١/ ١٤٥

(٥) عصمة الأنبياء ص١، وانظر لوامع الأنوار٢/ ٣٠٤



تعالى فهم متفقون على تنزيههم عنه)[١] .

وقال الآمدي : (فما كان منها[٢] كفر فلا تعرف خلافا بين أرباب الشرائع في عصمتهم عنه)[٣] .

ومن نظر في سيرته صلى الله عليه وسلم علم أنه صلى الله عليه وسلم كان أحرص شيء على هداية قومه إلى التوحيد وأبعد شيء عن الشرك ووسائله وما ذلك إلا لأن الله تعالى قد عصمه من الشرك والكفر والفسوق والعصيان .

ثالثا: عصمته صلى الله عليه وسلم من الكذب في غير الوحي والتبليغ: لا ريب أنه صلى الله عليه وسلم عُرف قبل البعثة وبعدها بالصدق والأمانة وحسن الخلق والبر والإحسان وجميع محاسن الأخلاق التي جبله الله عليها منذ نشأته ، وعُرف عنه التحلي بتملك الخلال في مجتمع الجاهلية حتى كانوا يدعونه الأمين ، وقد عصمه الله جل ثناؤه وكرمه بهذه الخصال لتهيئته لحمل الأمانة العظمى ، وتبليغ الرسالة للناس كافة . فعصمته صلى الله عليه وسلم من الكذب في سائر الأمور التي دون الوحي والتبليغ ممكنة عقلا وحاصلة شرعا ، ومما يستدل به على ذلك : -

أ - قول خديجة بنت خويلد رضي الله عنها حينما جاءها النبي صلى الله عليه وسلم خائفا بعد لقياه جبريل في غار حراء[٤] وقال لها : (إني قد خشيت على نفسي) فقالت له : (كلا ابشر فوالله لا يخزيك الله أبدا ، فوالله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق)[٥] .

ب - قول أبي جهل عليه من الله ما يستحق للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا لا نكذبك ، ولكن نكذب الذي جئت به[٦] فأنزل الله تعالى : ﴿**فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾[٧] فهذا دليل على أن قريشا وإن اتهمت النبي صلى الله عليه وسلم بالكذب

---

(١) منهاج السنة النبوية١/ ١٣٠ (٢) أي المعاصي .
(٣) الإحكام في أصول الأحكام١/ ١٤٦
(٤) هو جبل على مقربة من مكة حرسها الله ، بينهما ثلاثة أميال وهو معدود من جملة جبالها . انظر معجم البلدان٢/ ٢٣٣
(٥) رواه البخاري كتاب التفسير سورة اقرأ٨/ ٧١٥ حديث ٤٩٥٣
(٦) انظر تفسير الطبري٧/ ١٨٢ ، وتفسير ابن كثير٢/ ١٣٤
(٧) سورة الأنعام الآية ٣٣

في دعوى الرسالة إلا أنها معترفة له بالصدق في غير أمر النبوة.

جـ - ومن ذلك جواب أبي سفيان رضي الله عنه لهرقل عظيم الروم عندما سأله عن النبي صلى الله عليه وسلم وذلك عندما أرسلت قريش أبا سفيان إلى الحبشة ليرد إليها من هاجر من المسلمين إلى الحبشة فكان مما سأله عنه: (فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال أبو سفيان: لا، فقال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله)[١].

فهذه نماذج يسيرة من الأدلة على صدقه صلى الله عليه وسلم وعصمته من الكذب قبل النبوة وبعدها، ومن أراد أن يقف على الكثير من ذلك مستوفى فليرجع إلى سيرته صلى الله عليه وسلم وشمائله وسنته المدونة، ولن يجد -على كثرة المنقول من ذلك عنه صلى الله عليه وسلم- كذبة أحصيت عليه ولا خُلْفا في خبر أخبر به، وهذا كله دلالة واضحة على عصمته صلى الله عليه وسلم من الكذب بأي حال من الأحوال.

قال القاضي عياض: (وأما أقواله الدنيوية من إخباره عن أحواله وأحوال غيره وما يفعله أو فعله فقد قدمنا أن الخُلْف فيها ممتنع عليه في كل حال وعلى أي وجه من عمد أو سهو أو صحة أو مرض أو رضا أو غضب، وأنه معصوم منه صلى الله عليه وسلم، هذا فيما طريقه الخبر المحض مما يدخله الصدق والكذب، فأما المعاريض الموهم ظاهرها خلاف باطنها فجائز ورودها منه في الأمور الدنيوية لاسيما لقصد المصلحة كتوريته عن وجه مغازيه لئلا يأخذ العدو حذره، وكما روي من ممازحته ودعابته لبسط أمته، وتطييب قلوب المؤمنين من صحابته وتأكيدا في تحببهم، ومسرة نفوسهم)[٢].

رابعا: عصمته صلى الله عليه وسلم من الكبائر التي دون الشرك: لقد اصطفى الله محمدا صلى الله عليه وسلم ليكون واسطة بينه وبين خلقه، وجعله خاتمة الرسل وميزه بصفات وجبله عليها لم تكن موجودة في غيره من البشر، فكان على خلق عظيم، ووصفه الله تعالى به في قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٣]، وجمع الله في شخصه صلى الله عليه وسلم كل صفات الخير، والأخلاق الحميدة كما قال حسان رضي الله عنه يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم[٤]: -

---

(١) رواه البخاري كتاب بدء الوحي ١/ ٣١ حديث ٧
(٢) الشفا٢/ ١٦٥
(٣) سورة القلم الآية ٤
(٤) انظر ديوانه طبعة دار صادر ص١٠



وأجمل منك لم تر قط عيني وأفضل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

ولتهيئته لرسالة الله فقد حفظه الله وعصمه من كل ما يحط من قدره الشريف ويخل بمكانه المنيف، قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾[١] ، ومن ذلك صيانة الله له وحفظه من أقذار الجاهلية قبل مبعثه ونزول الوحي إليه[٢] ، ومما يدل على حفظ الله تعالى له وعصمته من كل ما يحط من قدره ويطعن في شخصه الكريم على هذا الوجه: -

أ - حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه (**أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينقل مع قريش الحجارة للكعبة وعليه إزاره، فقال له العباس عمه: يا ابن أخي لو حللت إزارك، فجعلته على منكبك دون الحجارة؟ قال: فحله على منكبه فسقط مغشيا عليه فما رؤي بعد ذلك عريانا صلى الله عليه وسلم**)[٣] .

ب - وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (**ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلا ليلتين كلتاهما عصمني الله منهما قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم أهلنا فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الفتيان، فقال: بلى، فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بالغرابيل[٤] والمزامير قلت: ما هذا؟ فقيل تزوج فلان فلانة فجلست أنظر وضرب الله أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئا، ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة ففعل فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة فجلست أنظر وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ قلت: لا شيء، ثم أخبرته الخبر، فوالله ما**

---

(١) سورة النجم الآية ٢
(٢) انظر الشفا٢/ ٩٧، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للتميمي١/ ١٥١، ولوامع الأنوار٢/ ٣٠٦
(٣) رواه البخاري كتاب الصلاة باب كراهة التعري في الصلاة وغيرها١/ ٤٧٤ حديث ٣٦٤، ومسلم كتاب الحيض باب الاعتناء بحفظ العورة٤/ ٣٣، واللفظ للبخاري.
(٤) جمع غربال بكسر أوله: الدف وما تنخل به الحبوب. انظر مختار الصحاح ص٤٧١ مادة (غربل) والقاموس المحيط٤/ ٢٤ مادة (غربله).

هممت، ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله بنبوته)[١] .

فهكذا عصمه الله تعالى عن الوقوع في الكبائر قبل إكرامه صلى الله عليه وسلم بالنبوة، فما بالك بحاله عليه الصلاة والسلام بعد الاجتباء والاصطفاء واختياره واسطة بين الناس وخالق السماء وتأييده بالوحي ونزول جبريل إليه في الصباح والمساء؟ .

يقول الإمام السفاريني في منظومته -مبينا ما يجب اعتقاده في حق الأنبياء من العصمة[٢] :-

وأن كل واحد منهم سلمْ ... من ما نقص ومن كفر عصمْ

كذاك من إفك ومن خيانهْ ... لوصفهم بالصدق والأمانهْ

مسألة وقوع الخطأ منه صلى الله عليه وسلم.

تقدم معنا ذكر الأمور التي عصم فيها نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم، لكن قد يرد سؤال وهو: هل يقع منه صلى الله عليه وسلم الخطأ في غير تلك الأمور المتقدمة؟ .

والجواب على هذا السؤال: أن جمهور أهل العلم تؤيدهم نصوص القرآن والسنة يرون وقوع الخطأ منه -روحي فداه- صلى الله عليه وسلم[٣] ولكنهم يعتقدون الأمور التالية :-

١ - أن الله جل ثناؤه لا يقره على الخطأ إن وقع منه، بل يوجهه الله للحق، وقد يحصل له عتاب على ذلك.

٢ - أن الخطأ يقع منه صلى الله عليه وسلم بطريق الاجتهاد دون تعمد منه عليه الصلاة والسلام، وعليه فلا يسمى هذا الخطأ معصية؛ لأن في هذه العبارة سوء أدب مع النبي صلى الله عليه وسلم ولا يصح استعمالها في حقه.

٣- أن ما يقع منه صلى الله عليه وسلم من هذا القبيل ليس مما يقدح في حقه الشريف أو ينقص من منزلته وقدره المنيف بعكس الأمور التي عصم منها والتي سبق ذكرها فإن وقوعها يقدح في مقام النبوة وينقص من منزلة الرسالة.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ص١٤٣، والبيهقي في دلائل النبوة٢/ ٣٣، وأورده السيوطي في الخصائص الكبرى١/ ١٤٩، وقال الحافظ ابن حجر: إسناده حسن متصل ورجاله ثقات، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية٢/ ٢٨٧

(٢) انظر لوامع الأنوار٢/ ٣٠٣

(٣) انظر مجموع الفتاوى٤/ ٣١٩



٤ - أنه موفق للتوبة النصوح على الفور من الخطأ، وهذا مما يرفع من قدره، ويعلي من منزلته، كما أن الله سبحانه وتعالى قد وعده بالمغفرة بقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾(١) (٢).

ومن النصوص التي يستدل بها على ما قلنا:-

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾(٣)، فهذه الآيات نزلت من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم(٤).

يقول الإمام ابن كثير: (ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله صلى الله عليه سلم كان يوما يخاطب بعض عظماء قريش وقد طمع في إسلامه فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم وكان ممن أسلم قديما فجعل يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم من شيء ويلح عليه، وَوَدَّ النبي صلى الله عليه وسلم أن لو كف ساعته ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعا ورغبة في هدايته وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه، فأنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾(٥).

وكذلك عتاب الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾(٦).

وفي قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾(٧).

قال قتادة رحمه الله: (ثنتان فعلهما النبي صلى الله عليه وسلم ولم يأمر بهما: إذنه لطائفة من المنافقين في التخلف عنه ولم يكن له أن يمضي شيئا إلا بوحي، وأخذه من الأسارى الفدية، فعاتبه الله كما تسمعون)(٨).

---

(١) سورة الفتح الآية ٢

(٢) انظر حقوق النبي صلى الله عليه وسلم للتميمي ١/ ١٥٥، ومقدمة تحقيق دلائل النبوة لقوام السنة تحقيق مساعد الحميد ١/ ٤٣

(٣) سورة عبس الآيات (١-٣).

(٤) انظر تفسير القرطبي ١٩/ ٢١٢

(٥) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٠١

(٦) سورة الأنفال الآيتان (٦٧-٦٨).

(٧) سورة التوبة الآية ٤٣

(٨) تفسير القرطبي ٨/ ١٥٤

وأما ما يقع من الخطأ منه صلى الله عليه وسلم في جانب الأمور الدنيوية فمن الأدلة عليه حديث رافع بن خديج رضي الله عنه قال: (قدم نبي الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يؤبرون[١] النخل يقولون يلقحون النخل فقال: ما تصنعون؟ قالوا: كنا نصنعه قال: لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا فتركوه فنقصت، قال فذكروا ذلك له فقال: (**إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر**)[٢] . وفي رواية **(أنتم أعلم بأمر دنياكم)**[٣] .

وكما حكى ابن إسحاق[٤] رحمه الله أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل بأدنى مياه بدر[٥] قال له الحباب بن المنذر: (أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: لا بل هو الرأي والحرب والمكيدة، قال: فإنه ليس بمنزل انهض حتى نأتي أدنى واد من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب[٦] فنشرب ولا يشربون، فقال (أشرت بالرأي) وفعل ما قاله)[٧] .

قال القاضي عياض: فمثل هذا وأشباهه من أمور الدنيا التي لا مدخل فيها بعلم ديانة ولا اعتقادها ولا تعليمها يجوز عليه فيما ذكرنا[٨] إذ ليس في هذا كله نقيصة ولا محطة وإنما هي أمور اعتيادية يعرفها من جربها، وجعلها همه، وشغل نفسه بها، والنبي صلى الله عليه وسلم مشحون القلب بمعرفة الربوبية ملآن الجوانح بعلوم الشريعة مقيد البال بمصالح الأمة الدينية والدنيوية، ولكن هذا[٩] إنما يكون في بعض الأمور ويجوز في النادر فيما سبيله التدقيق في حراسة الدنيا واستثمارها، لا في الكثير المؤذن بالبله والغفلة)[١٠] .

---

(١) تأبير النخل: تلقيحه وإصلاحه. انظر مختار الصحاح ص٢ مادة (أ ب ر) والمصباح المنير١/ ١ مادة (أبر).

(٢) رواه مسلم ١٥/ ١١٦

(٣) رواه مسلم انظر صحيح مسلم بشرح النووي١٥/ ١١٧

(٤) هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي المدني مولاهم إمام المغازي نزيل العراق مات سنة ١٥٠هـ انظر تهذيب التهذيب٩/ ٣٨، وشذرات الذهب١/ ٢٢٥

(٥) بدر: الماء المشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء الذي وقعت عنده غزوة بدر الكبرى الفاصلة بين الإسلام والكفر سنة ١هـ انظر معجم البلدان١/ ٣٥٧

(٦) جمع قليب وهو البئر القديمة قبل طيها. انظر مختار الصحاح ص٥٤٧ مادة (ق ل ب) والمصباح المنير٢/ ٥١٢ مادة (قلبته).

(٧) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة٣/ ٣١، والسيوطي في مناهل الصفا ص٨٠ وعزاه لابن إسحاق والبيهقي، والقاضي عياض في الشفا٢/ ١٦٣

(٨) يقصد من وقوع الخطأ.

(٩) أي الخطأ.

(١٠) الشفا٢/ ١٦٣

وكذلك الأمور التي لها تعلق بأحكام البشر الجارية على يديه صلى الله عليه وسلم كمنازعاتهم ومعرفة المحق من المبطل وتمييز المصلح من المفسد، فهذه أمور اجتهادية له أن يجتهد فيها برأيه لقوله صلى الله عليه وسلم (إنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار)[1] .

يقول القاضي عياض : (وتجري أحكامه على الظاهر وموجب غلبات الظن بشهادة الشاهد ويمين الحالف ومراعاة الأشبه ومعرفة العفاص[2] والوكاء[3] مع مقتضى حكمة الله في ذلك)[4] .

والحكمة في جواز الخطأ عليه في هذا النوع لكي تقتدي به الأمة من بعده في النظر في القضايا والأحكام على ما كان يقضي به بين الناس؛ لأنه قد استوى هو وغيره من أمته في هذا الجانب[5] .

وهذا هوالحق والقول الوسط بين أهل الإفراط وأهل التفريط في مسألة وقوع الخطأ من النبي صلى الله عليه وسلم .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (واعلم أن المنحرفين في مسألة العصمة على طرفي نقيض كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه : قوم أفرطوا في دعوى امتناع الذنوب حتى حرفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب ومغفرة الله لهم ورفع درجاتهم بذلك. وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دل القرآن على براءتهم منه، وأضافوا إليهم ذنوبا وعيوبا نزههم الله عنها، وهؤلاء مخالفون للقرآن، وهؤلاء مخالفون للقرآن ومن اتبع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط مهتديا إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقين والشهداء والصالحين)[6] .

---

(١) رواه البخاري كتاب الشهادات باب من أقام البينة مع اليمين٥/ ٢٨٨، حديث٢٦٨٠، ومسلم انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الأقضية باب بيان أن حكم الحاكم لا يغير الباطن١٢/ ٤، واللفظ لمسلم.

(٢) العفاص بكسر أوله : جلد يوضع في رأس القارورة يحفظها . انظر مختار الصحاح ص٤٤٢ مادة (عفص).

(٣) الوكاء : ما يشد به رأس القربة . انظر مختار الصحاح ص٧٣٥ مادة (و ك ي).

(٤) الشفا٢/ ١٦٤

(٥) انظر حقوق النبي صلى الله عليه وسلم للتميمي١/ ١٥٩

(٦) مجموع الفتاوى ١٥/ ١٥٠ .

المبحث السادس

الهداية وأنواعها وبيان ما للرسول صلى الله عليه وسلم منها

الكلام حول الهداية والضلال هو لب أبواب القدر، وما يتعلق به من المسائل؛ فإن أعظم نعمة يقدرها الله تعالى للعبد هي نعمة الهداية، وأعظم مصيبة يصيب الله تعالى بها الإنسان هي مصيبة الضلال، وكل ما يعطيه الله الإنسان من نعمة فهي دون نعمة الهداية، وكل ما يصيبه به من مصائب فهي دون مصيبة الضلال، وقد اتفقت الرسل عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى خاتمهم، والكتب المنزلة عليهم أن الله سبحانه وتعالى يضل من يشاء ويهدي من يشاء وأن من هداه الله فلا مضل له، وأن من أضله فلا هادي له، فالهداية والإضلال بيده سبحانه وتعالى، وأما العبد فلا يملك من ذلك شيئا، إلا أننا نقول عن العبد إذا أضله الله ضال، أو هداه الله مهتدي؛ لأن الاهتداء، والضلال فعل العبد وكسبه[(١)] باختياره ومشيئته.

وقبل الشروع في بيان أنواع الهداية، وتقرير الأدلة عليها من الكتاب العزيز أرى أنه من المناسب أن أذكر تعريف الهداية في اللغة، والاصطلاح فأقول: -

أولا: الهداية في اللغة: قال ابن فارس: (الهاء، والدال، والحرف المعتل أصلان: أحدهما: التقدم للإرشاد، والآخر بعثة لطف[(٢)] فالأول قولهم هديته الطريق هداية أي تقدمته لأرشده.

قال الأعشى[(٣)][(٤)]:-

إذا كان هادي الفتى في البلا ... د صدر القناة أطاع الأميرا

والأصل الآخر: الهدية)[(٥)].

---

(١) انظر شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ص١٤١، وبدائع الفوائد٢/ ٣٨ كلاهما لابن القيم.

(٢) بعثة لطف: يقصد الهدية كما سيذكره في الأصل الثاني.

(٣) هو أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل بن بني قيس بن ثعلبة الوائلي يعرف بأعشى قيس، والأعشى الكبير من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية وأحد أصحاب المعلقات، قيل إنه كان يغني بشعره فسمي (صنَّاجة العرب) عمر طويلا وأدرك الإسلام ولم يسلم -عياذا بالله- لقب بالأعشى لضعف بصره، توفي في السنة السابعة من الهجرة. انظر الشعر والشعراء١/ ١٧٨، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني٩/ ١٠٨، ومعجم الشعراء للدكتور عفيف عبد الرحمن١/ ٢٢

(٤) انظر ديوان الأعشى ص٨٧

(٥) معجم مقاييس اللغة٦/ ٤٢ مادة (هدي).



والهدي: الرشاد، والدلالة، يؤنث، ويذكر، يقال: هدى الله فلانا للدين هدى، وهديا، وهداية، وهديته الطريق، والبيت هداية، أي: عرفته، هذه لغة أهل الحجاز، أما غيرهم فيعدون الفعل بإلى فيقولون: هديته إلى الطريق وإلى البيت. وفي مختار الصحاح: أن هذا الفعل (هدى) يتعدى بنفسه وبحرف اللام وبإلى[(١)] .

وقال الليث: (الهدى نقيض الضلالة، يقال: هدي فاهتدى، والهدى: البيان، والهدى: إخراج شيء إلى شيء، والهدى أيضا: الطاعة والورع)[(٢)] .

وقال الأزهري: (الطريق يسمى هدى، ومنه قول الشاعر[(٣)] :-

قد وكَّلَتْ بالهدى إنسانَ[(٤)] ساهمةٍ كـأنه من تَـمام الظِمْـءِ[(٥)] مسمول[(٦)]

وقال الأصمعي[(٧)] -رحمه الله-: (هداه، يهديه في الدين هدى، وهداه، يهديه هداية إذا دله على الطريق، فتقدمه، والهداية، والهادية: العصا؛ لأنها تتقدم ممسكها فكأنها تهديه وتدله على الطريق)[(٨)] .

ثانيا: الهداية في الاصطلاح أما الهداية اصطلاحا فهي من الهدى، وهو في الأصل مصدر كالسرى، ومعناه (الرشاد، والدلالة، ولو غير موصلة)[(٩)] .

وقال الإمام النووي: (الهداية: التوفيق، واللطف، ويقال: هدانا للإيمان، وهدانا

---

(١) انظر تهذيب اللغة٦/ ٣٧٨ مادة (هدى) وصحاح اللغة للجوهري٦/ ٢٥٣٣ مادة (هـ د ى) ومختار الصحاح ص٦٩٢ مادة (هدى).

(٢) تهذيب اللغة٦/ ٣٧٨ مادة (هدى) وانظر لسان العرب١٥/ ٥٨ مادة (هدى).

(٣) البيت للشماخ انظر ديوانه بشرح أحمد بن الأمين الشنقيطي ص٨١

(٤) إنسان: أي حدقة العين. انظر المصباح المنير١/ ٢٥، مادة(أنست).

(٥) الظمء: ما بين الشربتين انظر المصباح المنير١/ ٣٨٦، مادة (ظمئ).

(٦) مسمول أي مفقود، ومنه الإسمال وهو الإصلاح بين الناس، كأنه أزال ما بينهم من عدواة. انظر: معجم مقاييس اللغة٣/ ١٠٢، مادة (سمل).

(٧) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي الأصمعي راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة، والشعر، والبلدان، ولد بالبصرة سنة١٢٢هـ كان كثير التطواف في البوادي لجمع اللغة، توفي بالبصرة سنة ٢١٦هـ انظر ترجمته في مقدمة الأصمعيات ص ١١، ووفيات الأعيان١/ ٢٨٨، وإنباه الرواة في أخبار النحاة٢/ ١٩٧، والأعلام للزركلي٤/ ٣٠٧

(٨) تهذيب اللغة٦/ ٣٧٨ مادة (هدى) وصحاح اللغة٦/ ٢٥٣٣ مادة (هدى) ولسان العرب١٥/ ٥٨ مادة (هدى).

(٩) لوامع الأنوار١/ ٥٠

الإيمان، وهدانا إلى الإيمان)[١] .

وجاء في النهاية لابن الأثير : (ومن أسمائه تعالى الهادي، وهو الذي بصّر عباده وعرفهم طرق معرفته حتى أقروا بربوبيته، وهدى كل مخلوق إلى مالا بد منه في بقائه ودوام وجوده)[٢] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : (الهدى هو بيان ما ينتفع به الناس ويحتاجون إليه وهو ضد الضلالة فالضال يضل عن مقصوده وطريق مقصوده، وهو سبحانه بيَّن في كتابه ما يهدي الناس . . . وعرفهم الطريق وهو ما يعبدونه به ففي الهدى بيان المعبود وما يعبد به)[٣] .

وقال العلامة ابن القيم : (الهداية هي العلم النافع والعمل الصالح)[٤] . وقال أيضا : (فالهدى والفضل، والنعمة متلازمان لا ينفك بعضها عن بعض كما أن الضلال والشقاء متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر)[٥] .

ثم بين ابن القيم أن هناك ثلاثة أركان تقوم عليها الهداية، ألا وهي :-

١- فاعل ٢- وقابل ٣- وآلة؛ أما الفاعل فهو الله سبحانه وتعالى، وأما القابل فهو قلب العبد، وأما الآلة فهي ما يحصل به الهدى وهو كتاب الله المنزل)[٦] .

أنواع الهداية: إن للهداية التي هي أعظم نعمة يوفق الله عبده لنيلها **أربعة أنواع:-**

النوع الأول: الهداية العامة المشتركة بين الخلق أجمعين بأن هدى الله سبحانه وتعالى مخلوقاته إلى ما يصلح لها، ويناسبها من قدرها، ومعيشتها، وآجالها، وهي أعم أنواع الهداية، ومراتبها لا يحصيها إلا الله سبحانه وتعالى[٧] .

ودليل هذه الهداية قول المولى عز وجل : **﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾**[٨] فذكر سبحانه أربعة أمور عامة : الخلق، والتسوية والتقدير،

---

(١) التبيان في أداة حملة القرآن للنووي ص١٨٩
(٢) النهاية في غريب الحديث٥/ ٢٥٣
(٣) النبوات ص١٥١
(٤) التفسير القيم لابن القيم ص١٣
(٥) الفوائد ص ١٣٧، وانظر إغاثة اللهفان٢/ ٥٣٨، كلاهما لابن القيم.
(٦) انظر إغاثة اللهفان٢/ ٥٤٠
(٧) انظر شفاء العليل ص١٤١، وبدائع الفوائد٢/ ٣٥، ولوامع الأنوار١/ ٣٣٤
(٨) سورة الأعلى الآيات (١-٢-٣).



والهداية، وجعل التسوية من تمام الخلق، والهداية من تمام التقدير)[١] فمعنى التقدير، والهداية هنا قيل: المراد أنه تعالى قدر خلق الذكر والأنثى، ثم هدى الذكر للأنثى، فلولا هدايته سبحانه التي جبل بها كل ذكَر وعرَّفه كيف يأتي أنثاه من جنسه لحفظ النسل، وبقاء النوع لما اهتدى لذلك[٢]، وهي المذكورة أيضا في قوله تعالى: ﴿ **الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ** ﴾[٣] أي: أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطى كل عضو شكله، وهيأته، وأعطى كل موجود خلقته المختصة به، ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال، وهذه الهداية يدخل تحتها هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، كما تعم هداية الجماد المسخر لما خلق له، فلهذا الجماد هداية تليق به، كما أن لكل نوع من الحيوانات هداية تليق به، وإن اختلفت أنواعها، وضروبها، وكذلك كل عضو له هداية تليق به، فهداية الرجلين المشي، وهداية اليدين البطش والعمل، وهداية اللسان الكلام، وهداية الأذن الاستماع، وهداية العين كشف المبصرات، وكل عضو لما خلق له، وهداية الزوجين من كل حيوان الازدواج والتناسل، وتربية الأولاد، وتتجلى عطية الخالق سبحانه وتعالى في هذه الهداية حينما نراه هدى الطفل الرضيع إلى التقام ثدي أمه عند ولادته، وطلبه الرضاعة[٤].

ومن صور هذه الهداية أنه سبحانه وتعالى هدى أمة النحل إلى الجبال والشجر تتخذ منها بيوتا وأبنية، وكذلك الشأن في هدايته لأمة الطير، والحيتان وغيرها من المخلوقات التي لا يعلم عددها إلا الله خالقها، فهو سبحانه وتعالى (لم يهمل أمر كل دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه، بل جعلها أمما وهداها إلى غاياتها ومصالحها)[٥].

ومراتب هذه الهداية لا يحصيها إلا هو فتبارك الله رب العالمين ومن تأمل بعض هدايته سبحانه وتعالى المبثوثة في العالم علم أنه لم يهمل هذه الحيوانات سدى ولم يتركها معطلة، بل هداها إلى هذه الهداية التي تعجز عقول العقلاء عن إدراكها والإحاطة بجزئياتها، وشهد له -لا محالة- بأنه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم[٦].

---

(١) شفاء العليل ص١٤٢ (٢) انظر تفسير الطبري٣/ ١٥٢، وتفسير ابن كثير٣/ ١٦٣

(٣) سورة طه الآية ٥٠

(٤) انظر شفاء العليل ص١٤٣، وبدائع الفوائد٢/ ٣٥، وتفسير ابن كثير٣/ ١٦٣

(٥) بدائع الفوائد٢/ ٣٦

(٦) انظر بدائع الفوائد٢/ ٣٥ بتصرف يسير، وشفاء العليل ص١٤١ وقد أطال فيه ابن القيم رحمه الله النفَسَ لبيان هداية الله العامة لهذه المخلوقات. وانظر لوامع الأنوار١/ ٣٣٤



وما أحسن قول الشاعر[1] :-

وفـي كـل شـيء لـه آية تـدل عـلى أنـه واحـد

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر وطريقي الهلاك والنجاة، وهذا النوع من الهداية لا يستلزم الهدى التام؛ لأنها سبب وشرط، وذلك لا يستلزم حصول المشروط والمسبب، بل قد يتخلف عنه المقتضي، وذلك راجع لوجود مانع، أو لعدم كمال السبب[2] ودليل هذه الهداية قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[3] .

قال قتادة في معنى الآية (أي: بينا لهم طريق الهدى وطريق الضلالة، فاستحبوا أي آثروا الضلالة على الهدى)[4] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[5] ، فهداهم الله هداية بيان، ودلالة، وإرشاد، فلم يقبلوها، فأضلهم عقوبة لهم على ترك الاهتداء أولا بعد أن عرفوا الهدى، ثم أعرضوا عنه، فأعماهم عنه بعد أن أراهموه وهذه سنته سبحانه وتعالى في كل من أنعم عليه نعمته فكفرها؛ فإنه يسلبه إياها بعد أن كانت متاحة له، وبين يديه[6] ، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[7] ومن إطلاق الهدى على معنى البيان والدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾[8] لأنه لو كان هدى توفيق لما قال: ﴿إما مكفور﴾[9] وهذه الهداية هي المذكورة في وقوله تعالى في حق نبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[10] .

الثالثة: هداية التوفيق، والإلهام، والاصطفاء، وخلق المشيئة المستلزمة للفعل أي أن هذه الهداية مستلزمة للاهتداء لا يتخلف عنها، وهذه الهداية خاصة بالرب جل وعلا لا يملكها ملك مقرب ولا نبي مرسل، بله غيرهما ممن خلق الله تعالى، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[11] وقوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ

---

(١) هذا البيت لأبي العتاهية. انظر ديوانه ص٣٩٤
(٢) انظر شفاء العليل ص١٦٧، ولوامع الأنوار٢/ ٣٣٥
(٣) سورة فصلت الآية ١٧
(٤) تفسير الطبري٢٤/ ١٠٤، وانظر تفسير ابن كثير٤/ ١٠٣
(٥) سورة التوبة الآية١١٥
(٦) انظر شفاء العليل ص١٦٧
(٧) سورة الأنفال الآية٥٣
(٨) سورة الإنسان الآية ٣
(٩) انظر أضواء البيان٧/ ٨٠
(١٠) سورة الشورى الآية٥٢
(١١) سورة فاطر الآية ٨

يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[١] وقوله تعالى أيضا : **﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ ﴾**[٢] ، **وهداية التوفيق والإلهام هذه تتضمن أمرين:—**

أحدهما: فعل الرب تبارك وتعالى، وهو الهدى. والثاني : فعل العبد، وهو الاهتداء، وهو الأثر المترتب على فعله سبحانه وتعالى، فهو الهادي، والعبد المهتدي، قال تعالى : **﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾**[٣] ولا سبيل إلى وجود هذا الأثر إلا بمؤثر تام صالح ؛ فإن لم يحصل فعله لم يوجد فعل العبد، ولهذا قال تعالى : **﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾**[٤][٥] وقد بين العلامة ابن القيم أن هذه الهداية أخص من هداية البيان، والدلالة، والإرشاد السابقة، وأنها هي التي ضل بسبب إنكارها جهال القدرية، وصاح عليهم سلف الأمة، وأهل السنة من نواحي الأرض، عصرا بعد عصر إلى وقتنا هذا[٦] .

زعمت القدرية النفاة بالتأويل الفاسد أن المراد من الهداية، والضلال في كتاب الله تعالى هو تسمية العبد مهتديا، وضالا، فجعلوا هداية الله وإضلاله مجرد تسمية العبد بذلك[٧] ، وتأول بعضهم نصوص الهداية على أن المراد بها هداية البيان والإرشاد لا خلق الهدى في القلب بطريق التوفيق والإلهام، فإنه سبحانه وتعالى لا يقدر على ذلك عند هذه الطائفة الزائغة[٨] ؛ ولذلك يقول السفاريني (تنبيه المشهور عند المعتزلة ومن مذهبهم أن الهداية هي الدلالة الموصلة إلى المطلوب فإن لم تكن موصلة إلى المطلوب فليست بهداية عندهم)[٩] .

أما الجبرية الغلاة فذهبوا في الطرف النقيض لمذهب القدرية النفاة فأنكروا الأسباب والقوى تبعا لإنكارهم فعل العبد وقدرته، وأن يكون له تأثير في الفعل ألبتة فلم يوافقوا القدرية في ضلالهم، بل ازدادوا ضلالا على ضلالهم وجمدوا على ما هم عليه من الباطل[١٠] .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٣٩
(٢) سورة الأعراف الآية١٨٦
(٣) سورة الإسراء الآية ٩٨
(٤) سورة النحل الآية ٣٧
(٥) انظر شفاء العليل ص١٦٩
(٦) المرجع نفسه والصفحة نفسها.
(٧) انظر مقالات الإسلاميين١/ ٣٢٤، وشفاء العليل ص١٧٤
(٨) انظر شفاء العليل ص١٧٥، ولوامع الأنوار١/ ٣٣٥
(٩) لوامع الأنوار١/ ,٣٣٥
(١٠) انظر في بيان مذهب الطائفتين والرد عليهم الملل والنحل١/ ٨٥، ومجموع الفتاوى١٤/ ٢٧٠، وشفاء العليل ص١٧٤



وكلا الطرفين من هاتين الطائفتين ذميم كما قال الشاعر[1] : -

توسط إذا ما رمت شيئا فإنه ... كلا طرفي قصد الأمور ذميم

ولما احتج الجبرية بالقدر وقالوا: كيف يدخل الله العبد النار وقد حرمه الهدى؟ وترجم ذلك شاعرهم بقوله[2] : -

ما حيلة العبد والأقدار جارية ... عليه في كل حال أيها الرائي

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له ... إياك إياك أن تبتل بالماء

تصدى له من أهل السنة من يرد عليه بقوله[3]

إن حفه اللطف لم يمسسه من بلل ... ولم يبال بتكتيف وإلقاء

وإن يكن قدر المولى بغرقته ... فهو الغريق ولو ألقي بصحراء

ومن المناسب هنا أن أذكر كلمة رائعة للإمام جعفر الصادق[4] رحمه الله ذكرها في باب الهدى والضلال فقال: (إن الله تعالى أراد بنا شيئا وأراد منا شيئا، فما أراده بنا طواه عنا، وما أراده منا أظهره لنا، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا؟)[5] .

ولأن هداية التوفيق، والإلهام هي أخص أنواع الهداية وأهمها فقد ركزت عليها آيات الكتاب العزيز، ومن ذلك مجيء سبع آيات في سورة واحدة هي سورة الزمر كلها توضح أن الهداية، والإضلال فعل الله سبحانه وتعالى، وأن الاهتداء، والضلال فعل العبد وكسبه[6] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والعبد مضطر دائما إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم؛ فإنه لا نجاة من العذاب، ولا وصول إلى السعادة إلا بهذه الهداية فمن فاته فهو إما من

---

(١) انظر العزلة للخطابي ص ٢٣٧

(٢) انظر مسألة القضاء والقدر وموقف المؤمن منها لمحمد متولي السداوي ص٣٠

(٣) انظر المرجع السابق، والموضع بعينه.

(٤) هو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد بن الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط الهاشمي القرشي سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية لقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط، ولد بالمدينة سنة ٨٠هـ وتوفي رحمه الله بها سنة ١٤٨هـ انظر ترجمته في وفيات الأعيان١/ ٣٢٧، وتاريخ اليعقوبي٢/ ٣٨١، وانظر المصايد والمطارد لكشاجم ص٢٠٢

(٥) الملل والنحل١/ ١٦٦، وانظر اليمانيات المسلولة ص٢٠٠، والإمام الصادق لمحمد أبي زهرة ص٢٢٤

(٦) انظر تفسير الرازي٢٥/ ٢، ومباحث العقيدة في سورة الزمر تأليف ناصر بن علي الشيخ ص٥٣٣



المغضوب عليهم وإما من الضالين، وهذا الهدى لا يحصل إلا بهدى الله)[1] .

الرابعـــة: هداية المؤمنين إلى الجنة، والكافرين إلى النار يوم القيـامة، وهذه هي غـاية الهـداية، قال تعالى في حق المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[2] وقال أهل الجنة فيها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[3] ، وقال تعالى عن أهل النار: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[4] ، وقـــال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[5] .

فهذه الهداية بعد قتلهم، فقيل إن المعنى: سيهديهم إلى طريق الجنة، ويصلح بالهم في الآخرة بخذلان خصومهم، وقبول أعمالهم[6] .

مراتب الهداية الخاصة والعامة:

ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله أن للهداية الخاصة والعامة عشر مراتب وسأوردها فيما يلي بإيجاز: -

المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده يقظة بلا واسطة بينهما، بل من الله إلى العبد. وهذه أعلى مراتبها كما كلم موسى بن عمران[7] على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وقال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[8] ، فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده ثم خص موسى من بينهم بمرتبة التكليم.

الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾[9] ، وقـال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾[10] فجعل الله الوحي في آية الشورى قسما من أقسام التكليم بينما جعله

---

(١) التفسير الكبير لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢/ ٣٣٥
(٢) سورة يونس الآية ٩
(٣) سورة الأعراف الآية ٤٣
(٤) سورة الصافات الآيتان (٢٢-٢٣).
(٥) سورة محمد صلى الله عليه وسلم الآية ٤
(٦) انظر شفاء العليل ص١٧٩
(٧) تقدم معنا في مبحث (جبريل واسطة بين الله ورسله) أن هذه المرتبة يشترك فيها مع موسى بن عمران أول الأنبياء آدم، وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم.
(٨) سورة النساء الآية ١٦٤
(٩) سورة النساء الآية ١٦٣
(١٠) سورة الشورى الآية ٥١



في آية النساء قسيما للتكليم، وذلك باعتبارين: الأول: لأنه قسيم التكليم الخاص الذي هو بلا واسطة. والثاني: أنه قسم من أقسام التكليم العام الذي هو إيصال المعنى بطرق متعددة.

الثالثة: إرسال واسطة من الملائكة إلى الواسطة من البشر فيوحي إليه ما أمره الله أن يوصله إليه[١] وهذا الرسول الواسطة من الملائكة قد يتمثل للرسول الواسطة من البشر رجلا يراه معاينة ويخاطبه ويأخذ عنه، وقد يراه على صورته التي خلق عليها، وقد يدخل فيه الملك ويلابسه فيوحي إليه ما يوحيه ثم يسري عنه، وهذه الحالات الثلاث قد حصلت لنبينا صلى الله عليه وسلم[٢] وهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء لا تكون لغيرهم.

الرابعة: مرتبة التحديث: وهذه دون مرتبة الوحي الخاص ودون مرتبة الصديقية كما كانت لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنه كان في الأمم قبلكم محدَّثون فإن يكن في هذه الأمة فعمر بن الخطاب)[٣].
وذكر العلامة ابن القيم أن شيخ الإسلام ابن تيمية بين معنى الحديث وأن السر في أن النبي صلى الله عليه وسلم جزم بأنهم كائنون في الأمم قبلنا وعلق وجودهم في الأمة الإسلامية بـ"إن" الشرطية مع أن هذه الأمة هي أفضل الأمم لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته فلم يحوج الله الأمة بعد نبيها إلى محدث ولا ملهم ولا صاحب كشف ولا منام، فهذا التعليق لكمال الأمة لا لنقصها[٤].

الخامسة: مرتبة الإفهام، قال تعالى: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[٥]، فذكر الله في هذه الآية هذين النبيين الكريمين وأثنى عليهما بالعلم والحكم؛ لكنه خص سليمان عليه السلام بالفهم في هذه الواقعة المعينة، وقال علي رضي الله عنه -وقد سئل- (هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء دون الناس)؟ فقال: (لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه، وما في هذه الصحيفة، وكان فيها العقل وهو

---

(١) انظر المبحث السابق (صورة الواسطة في التبليغ في الدنيا) ص
(٢) انظر المبحث السابق (الواسطة بين الله ورسله) ص
(٣) أخرجه البخاري كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٧/ ٤٢ حديث ٣٦٨٠
(٤) انظر مدارج السالكين١/ ٣٩, (٥) سورة الأنبياء الآيتان (٧٨-٧٩).



الديات، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر)[١] .

فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله في قلبه، والفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عنوان الصديقية ومشور الولاية النبوية .

السادسة: مرتبة البيان العام، والإرشاد، والدلالة، وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه التي لا يعذب أحدا، ولا يضله إلا بعد وصوله إليها[٢] ، قال تعالى : **﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾**[٣] .

السابعة: مرتبة البيان الخاص، وهذا البيان مستلزم للهداية الخاصة، وهي هداية التوفيق، والإلهام، والعناية، والاجتباء[٤] قال تعالى في هذه المرتبة : **﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾**[٥] .

الثامنة: مرتبة الإسماع، قال تعالى : **﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾**[٦] وقال أيضا : **﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾**[٧] .

وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة، والتبليغ فإن ذلك حاصل لهم وبه قامت الحجة عليهم؛ لكن ذاك إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب، والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام: أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن، ومرتبة الإفهام أعم، **ولمرتبة الإسماع ثلاث مراتب:-**

١-سماع الأذن ٢-وسماع القلب ٣-وسماع القبول والإجابة .

التاسعة: مرتبة الإلهام، قال تعالى : **﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾**[٨] وهذا الإلهام غير الفراسة؛ لأن الفراسة قد تتعلق بنوع كسب وتحصيل، أما الإلهام فموهبة خالصة لا تنال بكسب ولا تحصيل .

العاشرة: مرتبة الرؤيا الصالحة، وهي من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي صلى الله عليه

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الديات باب العاقلة ١٢/ ٢٥٦ حديث ٦٩٠٣

(٢) وهي هداية البيان والإرشاد التي سبق إيضاحها.

(٣) سورة التوبة الآية ١١٥

(٤) هذه هي هداية التوفيق والإلهام، وقد سبق بيانها.

(٥) سورة النحل الآية ٣٧

(٦) سورة الأنفال الآية ٢٣

(٧) سورة فاطر الآية ٢٢

(٨) سورة الشمس الآيتان (٧-٨).



وسلم أنه قال (الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة)[١] .

وقد ذكر بعض أهل العلم أن سبب هذا التخصيص يعود إلى أن النبوة بدأت بالرؤيا الصادقة لمدة نصف سنة، ثم بدأ الوحي يقظة لمدة ثلاث وعشرين سنة من حين مبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى حين وفاته صلوات الله وسلامه عليه، فنسبة مدة الوحي في المنام من ذلك جزء من ستة وأربعين جزءا، ثم قال العلامة ابن القيم (وهذا حسن لولا ما جاء في الرواية الأخرى الصحيحة (إنها جزء من سبعين جزءا)[٢] .

وقد قيل في الجمع بينهما : إن ذلك بحسب حال الرائي ؛ فإن رؤيا الصديقين من ستة وأربعين، ورؤيا عموم المؤمنين الصادقة من سبعين والله أعلم)[٣] .

بيان ما للرسول صلى الله عليه وسلم من أنواع الهداية:

إذا تقرر بما قدمنا من أنواع الهداية الأربعة وهي : الهداية العامة، وهداية البيان، والدلالة والإرشاد والتبليغ، وهداية التوفيق والإلهام ثم هداية أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، إذا تقرر ذلك واتضح، فنقول: إن النوع الثاني من أنواع الهداية وهي : هداية البيان، والدلالة، والإرشاد هي التي شرّف الله تعالى بها نبيه صلى الله عليه وسلم وأعطاه إياها وكرَّم الله بها كل من آمن به وبرسوله صلى الله عليه وسلم وأطاعه واتبع النور الذي أُنزل معه، وهذه الهداية أخص من الهداية العامة، وأعم من هداية التوفيق والإلهام، وهداية أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، والدليل على إسنادها للرسول صلى الله عليه وسلم، وإثباتها له قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٤] .

قال العلامة ابن القيم (وهذه الهداية هي التي أثبتها لرسوله صلى الله عليه وسلم. . . ونفى عنه تلك الهداية الموجبة، وهي هداية التوفيق، والإلهام بقوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[٥] ، وقال تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٦] ، فجمع سبحانه بين الهدايتين : العامة والخاصة، فعم بالدعوة حجة، مشيئة، وعدلا ، وخص بالهداية، نعمة، مشيئة وفضلا)[٧] .

---

(١) أخرجه البخاري ١٢/ ٣٩٠ حديث٦٩٨٩، ومسلم كتاب الرؤيا ١٥/ ٢٤

(٢) أخرجه مسلم كتاب الرؤيا ١٥/ ٢٤

(٣) مدارج السالكين١/ ٥٠، وقد لخصت هذه المراتب بتصرف يسير خشية الإطالة المملة.

(٤) سورة الشورى الآية٥٢

(٥) سورة القصص الآية ٥٦

(٦) سورة يونس الآية ٢٥

(٧) شفاء العليل ص١٦٨

فالرسول صلى الله عليه وسلم بعثه الله واسطة في التبليغ وبيان الحق والإرشاد إليه والإنذار بالوحي والدعوة إليه، ولا يملك شيئا من هداية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة، والمحل القابل للهدى، كما خلق الله سبحانه وتعالى إبليس للغواية وتزيين الشر للناس، وليس له القدرة على إضلال أحد من البشر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأما قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[١] مع قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢] فقد اتفق المسلمون على أن تلك المنفية ليست هي الهداية المثبتة له لا نزاع في هذا بين أهل السنة والقدرية، وأما الهداية المثبتة، فهي الدعوة، والبيان، وهذه يشترك فيها من يحبه ومن لا يحبه فإن عليه البلاغ وقد بلغ صلى الله عليه وسلم البلاغ المبين، وقال في آخر عمره في حجة الوداع (اللهم هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد)[٣]، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾[٤]، وقوله: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[٦]، فإن الهداية هنا هي هداية الدلالة والإرشاد بكلامه، وبعلمه، وأمره، ونهيه، وترغيبه، وترهيبه، وأما حصول الهدى في القلب فهذا لا يقدر عليه أحد باتفاق المسلمين سُنِّيهم وقدريهم؛ لأن أحدا لا يستطيع أن يهدي القلوب ويخلق الهدى فيها غير الله.

أما أهل السنة فيقولون: إن الاهتداء الذي في القلب لا يقدر عليه إلا الله؛ ولكن العبد يقدر على أسبابه وهو المطلوب منه بقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[٧]، وهو المنفي عن الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[٨]، وقوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾[٩]، وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[١٠]

وأما القدرية فيقولون: إن ذلك مقدور للعبد[١١].

والتحقيق: أنه من جملة الأمور التي تسمى: المتولدات؛ الكشبع، والريِّ، والرؤية في

---

(١) سورة القصص الآية ٥٦ (٢) سورة الشورى الآية ٥٢

(٣) أخرجه البخاري، ٣/ ٥٧٣ حديث (١٧٤١) ومسلم كتاب الحج باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم٨/ ١٧٠ (٤) سورة فصلت الآية ١٧

(٥) سورة التغابن الآية ٦ (٦) سورة الرعد الآية ٧

(٧) سورة الفاتحة الآية ٦ (٨) سورة القصص الآية ٥٦

(٩) سورة النحل الآية ٣٧ (١٠) سورة البقرة الآية ٢٧٢

(١١) هذا رأي القدرية النفاة للقدر، وأما القدرية المجبرة فإنهم لا يثبتون للعبد فعلا وقد سبق الرد عليهم.



العين، والسمع في الأذن، فهي حاصلة بفعل العبد المقدور له، بأسباب خارجة عن قدرته؛ ولهذا يثاب عليه لما له في حصوله من السبب، والاكتساب)[١] .

وهذه الهداية كما أنها للرسول صلى الله عليه وسلم على الخصوص فهي أيضا لجميع إخوانه من المرسلين إلى أممهم قبله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[٢] ، وحكى القرآن عن إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام أنه قال لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾[٣] ، وقال موسى لفرعون: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[٤] ، وقال تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[٥] ، وقال تعالى أيضا عن قوم موسى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[٦] .

وقد أثبت الله سبحانه وتعالى لكتبه التي أنزلها على رسله المصطفين هداية الدلالة والإرشاد أيضا، ولا شك أن هداية الرسل لا ينفك عن هداية الكتب التي أوحى الله إليهم؛ بل هما متلازمان؛ لأن كل رسول هدى الله به قومه للحق إنما كان ذلك بسبب هداية البيان، والإرشاد التي جعل الله للرسول الواسطة، ولكتابه السماوي، ولهذا أمر الله خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم أن يقول لقومه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ﴾[٧]

إذا تبين ذلك فقد أثبت الله لكتبه المنزلة عموما هذه الهداية كما أثبتها لخاتمة كتبه المنزل على خاتم أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم على الخصوص، فقال تعالى عن القرآن الكريم: ﴿الم ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٨] ، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾[٩] وقال أيضا: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١٠] ، وقال عز وجل -في شأن التوراة المنزلة على موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام-: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾[١١] ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[١٢]

---

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ٤٣٥، وانظر شفاء العليل ص١٦٨، ولوامع الأنوار ١/ ٣٣٥، وأضواء البيان ٧/ ٨٠

(٢) سورة الرعد الآية ٧

(٣) سورة مريم الآية ٤٣

(٤) سورة النازعات الآية ١٩

(٥) سورة غافر الآية ٣٨

(٦) سورة السجدة الآية ٢٤

(٧) سورة الأنبياء الآية ٤٥

(٨) سورة البقرة الآيتان (١-٢).

(٩) سورة البقرة الآية ١٨٥

(١٠) سورة الإسراء الآية ٩

(١١) سورة المائدة الآية ٤٤

(١٢) سورة السجدة الآية ٢٣



وقال تعالى -في شأن الإنجيل المنزل على عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام- : ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1] ، وقال تعالى -في شأنهما معا- : ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ③ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[2]

فهداية البيان، والدلالة، والإرشاد، والنصح، والتبليغ هي التي جعل الله للرسل والكتب المنزلة عليهم، وبما أن نبينا صلى الله عليه وسلم كان خاتم النبيين، وكتابه المنزل كان خاتمة الكتب السماوية المنزلة فقد حظيا بالنصيب الأوفر من هذه الهداية، وسيظل القرآن الكريم، والسنة المطهرة المرجع الوحيد لهذه الهداية حتى يأذن الله بزوال هذا الكون، وحتى يعود الإسلام غريبا كما بدأ.

فنسأله سبحانه وتعالى أن يجعلنا هداة مهتدين، وكما هدانا بهدايته العامة إلى ما يناسبنا ويصلح معاشنا، وكما هدانا بهداية البيان بالقرآن، والتبليغ، والإرشاد بالرسول صلى الله عليه وسلم أن يهدينا بهداية التوفيق لصراطه المستقيم، وأن يلهمنا الهداية إلى جنته ورضوانه على صراطه يوم الدين، فإننا محتاجون إلى هدايته في كل لمحة وطرفة[3] .

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٦

(٢) سورة آل عمران الآية ٤

(٣) انظر التفسير الكبير لشيخ الإسلام ابن تيمية٢/ ٣٣٧، وقاعدة في الرد على الغزالي في التوكل لشيخ الإسلام أيضا ص١٧٠ ، وبدائع الفوائد٢/ ٣٨، ومعارج القبول٢/ ٩٦ ، وأضواء البيان٦/ ٣٠٣



المبحث السابع

الرسول ﷺ واسطة في التبليغ والبيان لا في العبادة وجزاء الإنسان

الرسالة أو النبوة (خبر خاص يكرم الله عز وجل به أحدا من عباده فيميزه بإلقائه إليه ويوفقه به على شريعته بما فيها من أمر ونهي ووعظ وإرشاد ووعد ووعيد)[1] . فالرسالة اصطفاء من الله واختيار منه لعبده من بين سائر الناس يختصه برحمته ويصطفيه بفضله ومنته وليست مجرد صفة إضافية غير ثابتة، والنبي أو الرسول ميَّزَه الله بصفات وخصه بخصائص دون غيره من سائر الناس، وفضله بفضائل ومقامات بعد البعثة لم تكن موجودة فيه قبلها .

يقول الإمام الماوردي : (لا منزلة في العالم أعلى من النبوة التي هي سفارة بين الله تعالى وعباده تبعث على مصالح الخلق وطاعة الخالق فكان أفضل الخلق بها أخص وأكملهم بشروطها أحق بها وأمس)[2] .

وعند أهل السنة أن الرسالة فضل من الله ورحمة وموهبة ونعمة يمن الله تعالى بها ويعطيها من يشاء من خلقه ممن أكرمه بالنبوة فلا يبلغها مجتهد بعمله ولا يستحقها عاقل بكسبه ولا ينالها باستعداد ولايته، بل يخص المولى عز وجل بها من يشاء من عباده المصطفين قال تعالى : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[3]

يقول العلامة السفاريني : (إن إرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع منة من الله تعالى وفضل لا واجب عليه ذلك، وإنما هو على سبيل اللطف بالخلق والفضل عليهم فبعثه تعالى جميع الرسل من آدم إلى محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين إلى المكلفين لطف من الله بهم ليبلغوهم عنه سبحانه أمره ونهيه ووعده ووعيده ويبينوا لهم عنه سبحانه ما يحتاجون إليه من أمور المعاش والمعاد مما جاءوا به من شرائعهم وأحكامهم التي أنزلها الله تعالى في كتبه عليهم. . . حتى تقوم الحجة عليهم بالبينات وينقطع عنهم سائر التعللات كما قال تعالى : ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[4] فلولا

(١) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ١/ ٢٣٩، وانظر شعب الإيمان للبيهقي ١/ ١٥٠

(٢) أعلام النبوة ص٢٥٤

(٣) سورة الحج الآية ٧٥

(٤) سورة النساء الآية ١٦٥

إعذاره تعالى إليهم على ألسنة الرسل وإقامة الحجة عليهم ببعثه أهل خبرته من ذوي النبوة والفضل لتوهموا أن لهم حجة سائغة ومعذرة بالغة)[١] .

وقد اصطفى الله سبحانه وتعالى جميع الرسل لهذه المهمة وهي تبليغ رسالات الله إلى أممهم حتى ختمهم بالنبي محمد ﷺ فكان مبلغا عن الله إلى جميع الثقلين بحكم دعوته العامة ورسالته العالمية زمانا ومكانا.

والنبوة وحي؛ لأن الرسول مبلغ عن الله وكلما يصدر عنه من أوامر ونواهي إنما يتبع فيه ما يأتيه من وحي الله عز وجل، ولهذا أمر الله نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقول: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾[٢]

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أي إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ليس ذلك إلا عما أوحاه الله تعالى إليَّ، ولكن لا يجدي هذا عمن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه)[٣] .

فسنة نبينا محمد ﷺ وحي لا مراء في ذلك؛ لأنها مشتملة على فصل الخطاب وهي مفسرة للكتاب وقد أمر الله تعالى بالرد إليها -بعد كتابه- عند التحاكم، فقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾[٤] ، وعند أهل السنة والجماعة أن الوحي بقسميه: القرآن والسنة هما الأصل الذي يرجع إليه في التشريع[٥] والإجماع والقياس فرع عنهما. قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[٦]

وقد بين ابن كثير في تفسيره إن هذه الآيات شهادة للرسول ﷺ بأنه راشد تابع للحق غير متصف بالضلال ولا بالغواية نزهه الله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود، بل إنه عليه الصلاة والسلام وما بعثه الله به من الشرع العظيم والوحي النافع في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد، لا يقول قولا عن هوى نفسه وغرضها، وإنما يقول الذي يؤمر به ليبلغه إلى الناس كلاما موفورا ومن غير زيادة ولا نقصان[٧] ، ولهذا روى

---

(١) لوامع الأنوار ٢/ ٢٥٨، وانظر النبوات ص٨٨ (٢) سورة الأنبياء الآية ٤٥
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ١٨٩، وانظر الكشاف ٢/ ٣٦٣ (٤) سورة النساء الآية ٥٩
(٥) انظر أعلام الموقعين ١/ ١١، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص٢٧، والسنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص٣٧٦ (٦) سورة النجم الآيات (١-٥).
(٧) انظر تفسير ابن كثير ٤/ ٢٦٤

الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو قال: (كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله (أريد حفظه فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله (بشر يتكلم في الغضب فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: (اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق)[1] وقال عليه الصلاة والسلام: (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه)[2] ، وقال الإمام الأوزاعي: (إذا بلغك عن رسول الله ﷺ حديث فلا تظنن غيره ولا تقولن غيره فإن محمدا إنما كان مبلغا عن ربه)[3].

إذا تبين أن النبوة اصطفاء محض واجتباء إلهي لمن يختاره الله عز وجل لهذا المنصب الشريف، وهذه الوظيفة السامية، وإذا تقرر أنها وحي من الله تعالى إلى الرسول الواسطة لا يخرج فيها عن أوامر الله ونواهيه[4] وأن جميع الرسل جاءوا على هذا المنوال، وكانت رسالاتهم على هذا الوصف حتى ختمهم الله بخاتم رسله وأفضل أنبيائه محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع إخوانه من النبيين والمرسلين.

إذا تقرر ذلك فأقول: إن هناك فرقا بين ما هو حق لله وحده لا يشركه فيه غيره وبين ما هو للرسول الواسطة، فالله سبحانه وتعالى بعث جميع الرسل وأنزل عليهم كتبه السماوية بالدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له والنهي عن صرف شيء من أنواع العبادة لما سواه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[5] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[6] ، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ

---

(١) رواه أبوداود٣/ ٦٠، والدارمي في سننه المقدمة١/ ١٢٥، والإمام أحمد في المسند٢/ ١٦٢، والحاكم في المستدرك١/ ١٠٥، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الشيخ الألباني، انظر السلسلة الصحيحة٤/ ٤٥ برقم١٥٣٢

(٢) رواه أحمد في المسند٤/ ١٣١، وأبوداود في سننه٥/ ١٠، وصححه الشيخ الألباني انظر صحيح سنن أبي داود٣/ ١١٧ برقم٤٦٠٤

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه١/ ١٤٩، وانظر الآثار المروية عن أئمة السنة في أبواب الاعتقاد من سير أعلام النبلاء١/ ١٤٣

(٤) تقدم الكلام في المبحث السابق عن عصمة الرسول وما يجوز عليه من الخطأ عند أهل السنة والجماعة .

(٥) سورة النحل الآية ٣٦ (٦) سورة الأنبياء الآية ٢٥

اللَّه وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[١]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (فالعبادة والاستعانة وما يدخل في ذلك من الدعاء والاستغاثة والخشية والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستغفار كل هذا لله وحده ، لا شريك له ، فالعبادة متعلقة بالألوهيته ، والاستعانة متعلقة بربوبيته ، والله رب العالمين لا إله إلا هو ، ولا رب لنا غيره ، لا ملك ولا نبي ولا غيره ، بل أكبر الكبائر الإشراك بالله وأن تجعل له ندا وهو خلقك والشرك أن تجعل لغيره شركا أي نصيبا في عبادتك وتوكلك واستعانتك كما قال تعالى : ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾[٢] وأصناف العبادات : الصلاة بأجزائها مجتمعة ، وكذلك أجزاؤها التي هي عبادة بنفسها من السجود ، والركوع ، والتسبيح ، والدعاء ، والقراءة ، والقيام لا يصلح إلا لله ، ولا يجوز أن يتنفل على طريق العبادة إلا لله وحده ، لا لشمس ، ولا لقمر ، ولا لملك ، ولا لنبي ، ولا صالح ، هذا في جميع ملل الأنبياء . . . وهذا كله تفصيل الشهادتين اللتين هما أصل الدين : شهادة أن لاإله إلا الله وشهادة أن محمدا عبده ورسوله ، والإله من يستحق أن يألهه العباد ، ويدخل فيه حبه وخوفه ، فما كان من توابع الألوهية فهو حق محض لله ، وما كان من أمور الرسالة فهو حق الرسول)[٣] .

وقال العلامة ابن القيم : (وبالجملة فتجعل الرسول شيخك وأستاذك ومعلمك ومربيك ومؤدبك وتسقط الوسائط بينك وبينه إلا في التبليغ كما تسقط الوسائل بينك وبين المرسل في العبودية ، ولا تثبت وساطة إلا في وصول أمره ونهيه ورسالته إليك ، وهذان التجريدان هما حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، والله وحده هو المعبود المألوه الذي لا يستحق العبادة سواه ، ورسوله المطاع المتبع المهتدى به الذي لا يستحق الطاعة سواه ، ومن سواه فإنما يطاع إذا أمر الرسول بطاعته فيطاع تبعا للأصل)[٤] .

فدين الحق دين الإسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسله ، وهذا هو معنى قولنا : (أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله) **فههنا أصلان:** —

---

(١) سورة آل عمران الآيتان (٧٩-٨٠) . (٢) سورة الأنعام الآية ٩٤

(٣) مجموع الفتاوى١/ ٧٤ بتصرف ، وانظر القول الفصل النفيس ص١٠٦

(٤) مدارج السالكين٣/ ١٤٤ ، وانظر الرد على شبهات المستعينين بغير الله تعالى ص ٧٩



أ – توحيد الله بالعبادة ب – الإيمان برسله وطاعتهم .

وبمعرفة هذين الأصلين يتحقق الشرطان العظيمان لقبول العمل وهما : إخلاص العمل لله تعالى ، ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولهذا لا يدخل أحد في دين الإسلام حتى يؤمن بهذين الأصلين العظيمين ولا يكمل إيمانه ويتحقق إيقانه حتى يفرق بين حق الله تعالى وحق رسوله صلى الله عليه وسلم فيعتقد أن الله هو المنعم على الإطلاق في تقسيم الأرزاق والأخلاق ، وأنه المعطي والمانح ، والمهدي ، والمانع ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم واسطة بيننا وبين ربنا في تبليغ شرعه وبيان ما يحبه ويرضاه وما يسخطه ويقلاه ، وأنه صلى الله عليه وسلم بلغ ما أنزل إليه ربه البلاغ المبين وبلغ في مقام التبليغ المرتبة العليا ، والمكانة الرفيعة ، وعليه فإن تصحيح محبته الله تعالى ورسوله وترجيح مودتهما لا تتم إلا بتحقيق هذين الحقين ، والإيمان بهما[1] (ولله تعالى حق لا يشركه فيه مخلوق كالعبادات ، والإخلاص ، والتوكل ، والخوف ، والرجاء ، والحج ، والصلاة والزكاة ، والصيام ، والصدقة ، والرسول له حق كالإيمان به ، وطاعته ، واتباع سنته ، وموالاة من يواليه ، ومعاداة من يعاديه ، وتقديمه في المحبة على الأهل ، والمال والنفس ، كما قال صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)[2] [3] .

ولم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم إنه واسطة في إجابة الدعاء ، وكشف البلاء والهداية ، والإغناء ، ونحو ذلك ، فالله تعالى هو المتفرد بذلك وهو جل وعلا يسمع دعاء خلقه ويرى مكانهم ، ويعلم سرهم ونجواهم ، وهو القادر على إنزال النعماء ، وإزالة الضراء من غير احتياج منه إلى أن يعرِّفه أحد أحوال عباده أو يعينه على قضاء حوائجهم والأسباب التي يحصل بها ذلك هو خلقها ويسرها ، فهو مسبب الأسباب التي يحصل بها أي مطلوب ، ولهذا فرض سبحانه على المصلي أن يقول في صلاته : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[4] فالله سبحانه وتعالى أجل وأعظم وأغنى وأعلى من أن يفتقر إلى شيء ، بل هو الأحد الصمد ، وكل ما سواه مفتقر إليه وهو مستغن عن كل ما سواه ، فعن أبي هريرة

---

(١) انظر شرح الشفا لملا علي القاري ٢/ ٣٥ (٢) تقدم تخريجه .
(٣) مجموعة الرسائل الكبرى ٢/ ٤١٦ ، وانظر مجموع الفتاوى ١/ ١٣٦
(٤) سورة الفاتحة الآية ٥

رضي الله عنه قال: قام فينا النبي ﷺ فذكر الغلول[١] فعظمه وعظم أمره قال: (**لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة**[٢] ، **يقول يا رسول الله أغثني فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك وعلى رقبته بعير له رغاء**[٣] ، **يقول يا رسول الله أغثني فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك**)[٤] الحديث.

فهؤلاء الذين بلغهم أخبر أنهم استغاثوا به يوم القيامة وسألوه الشفاعة يقول لهم: لا أملك لكم من الله شيئا قد أبلغتكم[٥] مع أنه صلى الله عليه وسلم صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة.

قال الحافظ ابن حجر في شرحه لهذا الحديث: (قوله[ﷺ] (لا أملك لك شيئا) أي من المغفرة لأن الشفاعة أمرها إلى الله، وقوله (قد أبلغتك) أي فليس لك عذر بعد الإبلاغ وكأنه صلى الله عليه وسلم أبرز هذا الوعيد في مقام الزجر والتغليظ وإلا فهو في القيامة صاحب الشفاعة في مذنبي الأمة)[٦] .

فالحنفاء لا يثبتون بين الله وبين مخلوقاته واسطة في عبادته وسؤاله وإنما يثبتون الوسائط في تبليغ رسالات الله، فأصل دين الحنفاء شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا وغيره من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم رسل من الله إلى البشر[٧] ، وليس في الحنفاء (من يقول بإثبات البشر وسائط في الخلق، والتدبير، والرزق، والإحياء، والإماتة، وسماع الدعاء، وإجابة الداعي، بل الرسل كلهم وأتباع الرسل متفقون على أنه

---

(١) الغلول: بضم المعجمة واللام: الخيانة في المغنم، قال ابن قتيبة: سمي بذلك لأن آخذه يغله في متاعه أي يخفيه. انظر المصباح المنير٢/ ٤٥٢، والقاموس المحيط٤/ ٢٦ (مادة الغل).

(٢) الحمحمة: صوت الفرس إذا طلب العلف، يقال فيه: حمحم وتحمحم. انظر مختار الصحاح ص١٥٧، مادة (ح م م) والقاموس المحيط٤/ ١٠٢ مادة حمم. قال عنترة: -

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إليّ بعبرة وتحمحم

انظر شرح ديوان عنترة طبعة دار الكتب ص١٢٦

(٣) الرغاء: بضم الراء: صوت البعير وهو لجميع ذوات الخف. انظر مختار الصحاح ص٢٤٩ مادة (رغا) والنهاية لابن الأثير٢/ ٢٤٠

(٤) رواه البخاري. كتاب الجهاد باب الغلول٦/ ١٨٥ حديث٣٠٧٣واللفظ له، ورواه مسلم كتاب الإمارة باب غلظ تحريم الغلول١٢/ ٢١٦

(٥) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة١/ ٥٣، وحقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته للتميمي٢/ ٦٦١

(٦) فتح الباري٦/ ١٨٦

(٧) انظر الرد على المنطقيين ص١٠٥، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ١٠

لا يعبد إلا الله وحده، فهو الذي يسأل ويعبد وله يصلى ويسجد، وهو الذي يجيب دعاء المضطرين، ويكشف الضر عن المضرورين، ويغيث عباده المستغيثين: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾[(1)] ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾[(2)]، وليس عند الحنفاء أن أحدا غير الله يستقل بفعل شيء، بل غايته أن يكون سببا والأثر لا يحصل إلا به وبغيره من الأسباب، وبصرف الموانع، والله تعالى هو الذي يخلق بتأثير الأسباب وبدفع الموانع مع خلقه سبحانه أيضا لهذا السبب، لكن المقصود أنه ليس في الوجود ما يستقل بإحداث شيء، ولا ثَمَّ شيء يوجب كل أثر إلا مشيئة الله وحده، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والرسل هم وسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ رسالاته وأمره، ونهيه، ووعده، ووعيده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[(3)] وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[(4)] فأخبر أنه أرسله شاهدا كما قال: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[(5)] وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيداً﴾[(6)]، ولما دفن النبي ﷺ شهداء أحد قال (أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة)[(7)] وقوله[(8)]: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيراً﴾ بالوعد والوعيد: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ بالأمر والنهي... فتوسط البشر بالرسالة مثل توسط الملك بالرسالة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[(9)]

فرسل الله وسائط في تبليغ رسالاته كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[(10)] وقال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ﴾[(11)] وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[(12)] وكذلك قال هود عليه السلام[(13)].

---

(١) سورة فاطر الآية ٢ — (٢) سورة النحل الآية ٥٣
(٣) سورة الأنعام الآية ٤٨ — (٤) سورة الأحزاب الآيتان (٤٥ - ٤٦).
(٥) سورة الحج الآية ٧٨ — (٦) سورة النساء الآية ٤١
(٧) رواه البخاري، كتاب الجنائز باب الصلاة على الشهيد٣/ ٢٠٩ حديث١٣٤٣
(٨) أي في آية الأحزاب السابقة. — (٩) سورة الحج الآية ٧٥
(١٠) سورة المائدة الآية ٦٧ — (١١) سورة الجن الآيتان (٢٧ - ٢٨).
(١٢) سورة الأعراف الآيتان (٦١-٦٢).
(١٣) وذلك في سورة الأعراف نفسها، قال تعالى على لسان هود عليه السلام ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ الآيتان (٦٧-٦٨).

فمن جعل ما يثبته الحنفاء من توسط البشر أو توسط الملائكة من جنس ما يثبته المشركون وأخذ يفاضل بين البشر والملائكة لم يكن عارفا بدين الإسلام[١] فمن اتخذ هؤلاء أو هؤلاء أربابا كما يقول من يجعلهم وسائط في العبادة والدعاء ونحو ذلك فهو كافر)[٢] .

فالإله هو الذي تألهه القلوب بالعبادة، والاستعانة، والمحبة، والتعظيم، والخوف، والإجلال، والإكرام، وهو سبحانه وتعالى حق لا يشاركه فيه غيره، فلا يعبد إلا الله ولا يدعى إلا الله، ولا يخاف إلا الله، ولا يطاع إلا الله، والرسول صلى الله عليه وسلم هو المبلغ عن الله طاعته، وأمره، ونهيه، وتحليله، وتحريمه، وسائر ما بلغه، من كلام ربه، فهو الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه في تبليغ الدين: من عقيدة، وشريعة، وأخلاق، وأما إجابة الدعاء، وكشف البلاء، والهداية، والإغناء، وسائر أنواع العبادة، جزاء ابن آدم، وما يصير إليه، ونحوه فالله جل وعلا هو المتفرد بذلك الذي يسمع ويرى، ويعلم السر والنجوى، وهو سبحانه القادر على إنزال النعم، وإزالة الضر والسقم من غير احتياج منه إلى أن يعرِّفه أحد من خلقه أحوال عباده، أو يعينه على قضاء حوائجهم، والأسباب التي يحصل بها عادة ذلك هو الذي خلقها، ويسرها، وأهل السموات يسألونه وأهل الأرض يسألونه، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[٣] ، وهو سبحانه لا يشغله سمع كلام هذا عن سمع كلام هذا، ولا يغلطه اختلاف أصواتهم ولغاتهم، بل يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، ولا يبرمه إلحاح الملحين، بل يحب الإلحاح في الدعاء[٤] .

فكل من كان للرسول صلى الله عليه وسلم أطوع وأتبع كان أولى به في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾[٥] ، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو الواسطة بيننا وبين بارئنا في التبليغ، فالحلال ما حلله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، والله هو المعبود المسؤول المستعان به الذي يخاف

---

(١) يقصد شيخ الإسلام بذلك الرد على الشهرستاني وغيره من أهل الكلام الذين أجروا مناظرة بين الحنفاء والصابئة في مسألة الواسطة فكان ردهم ضعيفا لعدم اعتمادهم على الوحي وتقيدهم بالدليل الشرعي.

(٢) الرد على المنطقيين ص٥٣٧ وما بعدها (بتصرف).   (٣) سورة الرحمن الآية ٢٩

(٤) انظر مجموع الفتاوى١/ ٣٦٥، وتلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ١٤١، والواسطة بين الحق والخلق ص١٦

(٥) سورة يوسف الآية ١٠٨



ويرجى ويتوكل عليه، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[1] ، فجعل الطاعة لله والرسول كما قال تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[2] وجعل الخشية والتقوى لله وحده لا شريك له فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾[3] فأضاف الإيتاء إلى الله والرسول كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[4] ، فليس لأحد أن يأخذ إلا ما أباحه الرسول وإن كان الله آتاه ذلك من جهة القدرة والملك فالله يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، ولهذا كان النبي ﷺ يقول في الاعتدال من الركوع وبعد السلام: (اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد)[5] ، أي من آتيته جدا وهو: البَخْتُ[6] ، والمال والملك، فإنه لا ينجيه منك إلا الإيمان والتقوى، وأما التوكل فعلى الله وحده، والرغبة فإلى الله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ ولم يقل: ورسوله، وقالوا: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ولم يقولوا هنا: ورسوله، كما قال في صدر الآية: ﴿ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ، بل هذا نظير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾[7] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾[8] ، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد ﷺ حين قيل له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾[9]

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[10] أي: الله وحده حسبك وحسب المؤمنين الذين اتبعوك وصدقوك[11] (فكل ما أمرهم به الرسول من

---

(١) سورة النور الآية ٥٢ (٢) سورة النساء الآية ٨٠

(٣) سورة التوبة الآية ٥٩ (٤) سورة الحشر الآية ٧

(٥) رواه البخاري، كتاب الأذان باب الذكر بعد الصلاة٢/ ٣٢٥ حديث٨٤٤، ومسلم، كتاب الصلاة باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع٤/ ١٩٤

(٦) البخت: الحظ وزنا ومعنى، انظر مختار الصحاح ص٤٢ مادة (ب خ ت) والمصباح المنير١/ ٣٧ مادة (البخت).

(٧) سورة الشرح الآيتان (٧-٨).

(٨) سورة آل عمران الآية ١٧٣ (٩) رواه البخاري، كتاب التفسير ٨/ ٢٢٩ حديث ٤٥٦٣

(١٠) سورة الأنفال الآية ٦٤

(١١) انظر مجموعة الرسائل الكبرى٢/ ٤١٥



واجب ومستحب فالله أمرهم به، وإذا أطاعوا الله ورسوله فأجرهم على الله، وإذا عصوا الله ورسوله فحسابهم على الله قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[1] وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلاَّ مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[1]، وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[2] ثم قال: ﴿اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[3]

فأمر بطاعته وطاعة رسوله؛ لأن طاعته طاعة لله، وأمرهم بالتوكل عليه وحده، وطاعة الرسول هي: عبادة الله وحده، والأمر، والمعنى المتقدم: من أن الرسول ليس عليه إلا ما أُمر به من البلاغ والبيان والجهاد وليس عليه جزاء العباد ولا حسابهم ولا هدايتهم قد كرر في القرآن في مواضع)[5]، ومن تلك المواضع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[6] قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾[7] وقوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[8] وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾[9] وقوله عز من قائل: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[10].

قال العلامة السعدي: (وهذه الآيات الكريمات مبينة جهل من يقصد النبي ﷺ ويدعوه لحصول نفع أو دفع ضر؛ فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينفع من لم ينفعه الله، ولا يدفع الضر عمن لم يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله وإنما ينفع من قبل ما أرسل به من البشارة والنذارة وعمل بذلك، فهذا نفعه عليه السلام الذي فاق نفع الآباء والأمهات والأخلاء والإخوان بما حث العباد على كل خير وحذرهم عن كل شر، وفيه لهم غاية البيان والإيضاح)[11].

---

(١) سورة الرعد الآية ٤٠ (٢) سورة الغاشية الآيات (٢١-٢٦).
(٣) سورة التغابن الآية ١٢ (٤) سورة التغابن الآية ١٣
(٥) تلخيص كتاب الاستغاثة١/ ٢٣٥، وانظر إقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله أو صدق الكهنة والعرافين لابن باز ص١٦ (٦) سورة الرعد الآية ٧
(٧) سورة الأحقاف الآية ٢٣ (٨) سورة الرعد الآية ٤٠
(٩) سورة الأنعام الآية ٥٢ (١٠) سورة الأعراف الآية ١٨٨
(١١) تفسير السعدي٣/ ١٢٧، وانظر تفسير ابن كثير٢/ ٢٨٥، وأضواء البيان٢/ ٢٥٤، وعقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية لفضيلة شيخنا معالي الدكتور صالح العبود ص٢٦٤

ولا ريب أن التفريق بين حق الله تعالى وحق رسوله ﷺ من المقاصد العقدية المهمة التي ركز عليها القرآن الكريم وبينتها آياته الكريمة ووضحها خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم في غير ما موضع من سنته المطهرة حماية منه صلى الله عليه وسلم لجناب التوحيد ولبيان ما يليق بالخالق وما هو من خصائص المخلوق؛ ولهذا لما أنزل على النبي ﷺ قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[1] قال عليه الصلاة والسلام: (يا معشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئا، ويا صفية عمة رسول الله ﷺ، لا أغني عنك من الله شيئا يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا)[2] .

قال الحافظ ابن حجر -مبينا ما يستفاد من الحديث-: (وفيه إشارة إلى أن النفوس كلها ملك لله تعالى وأن من أطاعه حق طاعته في امتثال أوامره واجتناب نواهيه وفَّى ما عليه من الثمن، وبالله التوفيق)[3] .

فإذا صرح النبي ﷺ وهو سيد المرسلين- لأقاربه من المؤمنين والمشركين خصوصا بَضْعته[4] صلى الله عليه وسلم وعمه العباس وعمته صفية رضي الله عنهم جميعا بأنه لا يملك لهم من الله شيئا، واعترف عليه الصلاة والسلام -وهو سيد الموحدين- بأنه ليس إليه إنقاذ بشر من النار قد كتبها الله عليه كما خاطبه الله بقوله تعالى: ﴿**أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار**﴾[5] فما بالنا ننسب إليه ما ليس من حقه صلى الله عليه وسلم؟! وإذا عرف الإنسان ذلك وآمن بأنه صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا الحق والصدق ثم نظر إلى ما وقع في قلوب كثير من الناس من الاعتقاد فيه وفي غيره من الأنبياء والصالحين أنهم ينفعونهم أو يضرونهم أو يغنون عنهم من عذاب الله شيئا تبين له الفرق بين حال الموحدين والغلاة في حق المرسلين وعرف غربة الدين[6] .

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٥

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ حديث١ ٤٧٧

(٣) فتح الباري٨/ ٥٠٣

(٤) البَضْعة: بفتح الباء: القطعة من اللحم. انظر غريب الحديث لابن الجوزي١/ ٧٥ (باب الباء مع الضاد).

(٥) سورة الزمر الآية ٢٠

(٦) انظر تيسير العزيز الحميد ص٢٢٠ وما بعدها بتصرف، وحوار مع المالكي لابن منيع ص٣٣

وهذ الأصل عظيم النفع جدا لمن عقله وتدبره وهو التفريق بين ما هو من حق الله وما هو من حق رسول الله ، فمن فهم ذلك واعتقده فإنه يسلم من تلبيسات أهل الأهواء الغالين في حق الأنبياء والمرسلين الذين ينسبون للأنبياء ما هو من خصائص رب العالمين ؛ ولهذا إذا قال قائل : (لا يجوز التوكل إلا على الله وحده ولا العبادة إلا لله وحده ولا يتقى ولا يخشى إلا الله وحده ؛ لا الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم كان هذا تحقيقا للتوحيد ولم يكن هذا سبا لهم ولا تنقصا بهم ولا عيبا لهم ، وإن كان فيه بيان نقص درجتهم عن درجة الربوبية ، فنقص المخلوق عن الخالق من لوازم كل مخلوق ويمتنع أن يكون المخلوق مثل الخالق فكل عبادة ليست واجبة في شرع الرسول ولا مستحبة كانت من الشرك والبدع ، وكلما تدبر الإنسان ما أمر به وشرعه تبين له أنه جمع في شرعه بين كمال توحيد الرب وإخلاص الدين له وبين كمال طاعة الرسل وتعزيرهم ومحبتهم وموالاتهم ومتابعتهم ، فأسعد الناس في الدنيا والآخرة أتبعهم للرسول باطنا وظاهرا صلى الله عليه وسلم تسليما)[١] .

فالرسول صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وخيرة خلق الله أجمعين وهو أفضل الرسل وأوجه الشافعين وقد اصطفاه الله تعالى ليكون واسطة بينه وبين عباده رحمة لهم ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[٢] ، وكل ما نحن فيه من نعمة الإسلام والإيمان والطمأنينة والأمان وغير ذلك من سائر النعم التي ترجع إلى ديننا ودنيانا فبفضل الله تعالى ثم بفضل سفارته صلى الله عليه وسلم وبواسطته عرفنا الله تعالى وما يجب له من الأسماء والصفات وطريق العبودية الموصل إليه سبحانه وتعالى وعرفنا الجنة والنار ، وقصص الأنبياء والمرسلين ، مع أممهم كل ذلك بطريق الوحي الذي أيده به ربه عز وجل ، وقد بلغ صلى الله عليه وسلم في النبوة المقام الأسمى وفي الرسالة المكانة الرفيعة ، وقد بلغ عن ربه البلاغ المبين حتى تركنا على المحجة البيضاء ، وتركنا في دنيانا في سناء فجزاه الله عنا أفضل ما جزى نبيا عن من أرسل إليه . ولكنه صلى الله عليه وسلم (كان مبلغا محضا ومخبرا لا منشئا ومؤسسا)[٣] ؛ بل إنه كان على منوال إخوانه المرسلين ، قال تعالى : ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا

---

(١) الرد على الأخنائي ص٣٥٠ بتصرف ، وانظر حقوق النبي صلى الله عليه وسلم للتميمي ٢/ ٦٦٩
(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ (٣) زاد المعاد ١/ ٣٨



مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[١] .

ونحن إذا تكلمنا عن بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم ينبغي ألا نغفل قضية مهمة وهي : أنه صلى الله عليه وسلم بشر ولكنه بشر مؤيد بالوحي ومعصوم من الغي فهو بشر رسول ، أو بشر يوحى إليه ، وهذا هو أسلوب القرآن الكريم ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[٢] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾[٣] .

وبيان مقام الربوبية ومقام النبوة وأن الرسول صلى الله عليه وسلم واسطة في التبليغ والبيان لا في العبادة وجزاء الإنسان ؛ -لأن التبليغ والبيان يرجع إلى مقام النبوة ، والعبادة والجزاء يرجعان إلى مقام الربوبية- ليس فيه تنقيص للرسول صلى الله عليه وسلم ولا خدش لمقام النبوة ؛ بل هذا هو عين الأدب معه صلى الله عليه وسلم الذي يؤيده القرآن والسنة[٤] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (إن الكلام إذا كان في سياق توحيد الرب سبحانه ونفي خصائصه عما سواه لم يجز أن يقال : هذا سوء عبارة في حق من دون الله تعالى من الأنبياء والملائكة ؛ فإن المقام أجل من ذلك ، وكل ما سوى الله تعالى يتلاشى عند تجريد توحيده ، ونبي الله صلى الله عليه وسلم كان من أعظم الناس تقريرا لما يقال على هذا الوجه ، وإن كان نفس المسلوب)[٥] .

ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث الإفك[٦] لما نزلت براءة عائشة رضي الله عنها من السماء فأخبرها النبي صلى الله عليه وسلم بما نزل في شأنها من الوحي قالت لها أمها (قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لها عائشة : **(لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل)**[٧] ، وفي رواية قالت : **(بحمد الله لا بحمد أحد ولا**

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٩ (٢) سورة الكهف الآية ١١٠

(٣) سورة الإسراء الآية ٩٣

(٤) انظر هذه مفاهيمنا ص١٠٦ ، والإرشاد للشيخ صالح الفوزان ص ١٥٣ ، والتأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم لحسن نور حسن ص٣١ ، ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم بين الاتباع والابتداع ص٢٠

(٥) تلخيص كتاب الاستغاثة٢/ ٦٤٧

(٦) قد أفرد حديث الإفك في جزء مستقل بعض الحفاظ منهم الحافظ عبد الغني المقدسي . انظره بتحقيق محمود الحداد .

(٧) رواه البخاري ، كتاب المغازي باب حديث الإفك٨/ ٤٣١ حديث ٤١٤١ ، ورواه مسلم ، كتاب التوبة باب في حديث الإفك١٧/ ١٠٢



بحمدك)[1] ، فأقرها النبي صلى الله عليه وسلم وأبوها الصديق رضي الله عنه على مثل هذا الكلام الذي نفت فيه أن تحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أحدا من الخلق وإنما ولت الحمد أهله فقصرته على الله تعالى ؛ لأنه هو الذي أنزل براءتها بغير فعل أحد ولم يقل أحد إن في ذلك سوء أدب مع النبي ﷺ أو خدشا لمقام النبوة .

ولله در العلامة ابن القيم فقد علق على هذا الموقف بقوله : (ومن تأمل قول الصديقة وقد نزلت براءتها فقال لها أبوها : قومي إلى رسول الله ﷺ فقالت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله ، عَلِم معرفتها وقوة إيمانها وتوليتها النعمة لربها وإفراده بالحمد في ذلك المقام ، وتجريدها التوحيد ، وثقتها بمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، ولله ذلك الثبات والرزانة منها ، وقد تنكر قلب حبيبها لها شهرا ، ثم صادفت الرضا منه والإقبال ، فلم تبارد إلى القيام إليه والسرور برضاه ، وقربه مع شدة محبتها له ، وهذا غاية الثبات والقوة)[2] .

وروى الإمام أحمد بسنده عن الأسود بن سريع رضي الله عنه أن النبي ﷺأتي بأسير فقال : (اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ، فقال النبي (: عرف الحق لأهله)[3] .

كل هذه الأدلة المتوافرة من الكتاب والسنة التي سقناها دليلا على حق الله تعالى في العبادة وجزاء الإنسان ، وحق الرسول صلى الله عليه وسلم في التبليغ ، والإرشاد والبيان لم تمنع الغلاة في حقه صلى الله عليه وسلم من التوجه إليه في الدعاء سواء بتوسل بدعي أو دعائه وسؤاله صلى الله عليه وسلم ، وهذا شرك جلي ومن يأت قبر النبي ﷺ وير أهل الجهل من العوام ، وأهل الغلو على هذه الحال يجدْ من ذلك العجب العجاب .

وهذا الصنيع الطائش من هؤلاء الغلاة لغو وجنون ، فليس بين الله وبين خلقه في العبادة شفعاء ، ولا وجهاء ، ولكل بشر -في الأولين والآخرين- أن يتقدم بسؤاله إلى الله مباشرة ، وإذا أذنب العبد فله الحق كله أن يتصل بربه معتذرا لا يحمل توبته ملك مقرب ولا

---

(١) رواه البخاري ، كتاب المغازي باب حديث الإفك٨/ ٤٣٥ حديث ٤١٤٣

(٢) زاد المعاد٣/ ٢٦١ ، وانظر حديث الإفك للحافظ عبد الغني المقدسي ص٥٠

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند٣/ ٤٣٥ ، والطبراني في الكبير١/ ٢٨٦ حديث ٨٣٩ ، والحاكم في المستدرك٤/ ٢٥٥ ، وقال (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه) وتعقبه الذهبي بقوله : (ابن مصعب ضعيف) قال الهيثمي في مجمع الزوائد١٠/ ١٩٩ : (رواه أحمد ، والطبراني ، وفيه محمد بن مصعب وثقه أحمد وضعفه غيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح) وأورده أبو عبيد في الأموال ص١٦٣ حديث ٣٦٦

نبي مرسل ولا غيرهما من الناس، الذي شرع لعباده الدين من بدء الخليقة وبين لهم على لسان رسله هذه الحقيقة، فالله وحده هو الضار النافع الخافض الرافع، وليس لأحد بعده تعقيب على حكمه، وليس من شأن ملك في السماء، أو نبي في الأرض التدخل في مشيئة الله، ولا التصرف في ملكه، فهو الذي يحكم الخلق أبدا، وإليه لا إلى غيره يحتكمون أولا وآخرا[١] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا: (كرَّم الله الإنسان بجعل التشريع الديني من حقوقه[٢] وحده، وإنما النبيون والرسل مبلغون عنه وليسوا بمسيطرين على الأقوام، وطاعتهم تابعة لطاعته، فقد أبطل ما نحلهم الناس من ربوبية التشريع، كما أبطل عبادتهم وعبادة من دونهم من القديسين، وبذلك تحرر الإنسان من الرق الروحي والعقلي الذي منيت به الأمم المتدينة، ولا سيما البوذيين، والنصارى، ولضلال أهل الملل والنحل في ذلك كرر هذا الإصلاح في كثير من السور بالتصريح بأن الرسل بشر مثل سائر البشر يوحى إليهم، وبأنهم ليسوا إلا مبلغين لدين الله تعالى الموحى إليهم.

قال تعالى لخاتمهم المكمل لدينهم في خاتمة سورة الكهف: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[٣] وقال في جملتهم من وسطها: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[٤] وفي معناهما آيات أخرى: بعثهم مبشرين ومنذرين بالقول والعمل، لا متصرفين في الكون بالنفع والضر بأنفسهم، ولا بتأثيرهم في إرادته تعالى. . . وقد بين ذلك صلى الله عليه وسلم بأقواله وأعماله وأخلاقه في العبودية، والتواضع بما لا يدع لتأويل الآيات سبيلا)[٥] .

ومن المناسب في نهاية هذا المبحث أن أورد سؤالا وجهه لشيخ الإسلام ابن تيمية يتعلق بالموضوع، وهو: هل صحيح أن الله لا يسمع الدعاء إلا بواسطة محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه الوسيلة والواسطة؟ .

---

(١) انظر كتاب الله في العقيدة الإسلامية لأحمد بهجت ص ١٧١، ودعوة الرسل إلى الله تعالى لمحمد أحمد العدوي ص٣٩٨، وعقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي ص٣٣٥

(٢) يقصد من حقوق الله وحده.

(٣) سورة الكهف الآية ١١٠

(٤) سورة الكهف الآية ٥٦

(٥) الوحي المحمدي ص١٩٩، وتفسير المنار٨/ ٥٧١، وانظر معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم لعبد الوهاب الديلمي ص١٨٧



فأجاب -رحمه الله- بقوله : (الحمد لله ، إن أراد بذلك أن الإيمان بمحمد ، وطاعته ، والصلاة والسلام عليه وسيلة للعبد في قبول دعائه ، وثواب دعائه فهو صادق ، وإن أراد بذلك أن الله لا يجيب دعاء أحد حتى يرفعه إلى[1] مخلوق ، أو يقسم عليه ، أو أن نفس الأنبياء بدون الإيمان بهم ، وطاعتهم ، وبدون شفاعتهم وسيلة في إجابة الدعاء فقد كذب في ذلك ، والله أعلم)[2] .

---

(١) كذا في مجموع الفتاوى ، ولعل الأنسب للسياق (إليه) والله أعلم .

(٢) مجموع الفتاوى١/ ١٣٩

المبحث الثامن

وسطية أهل السنة والجماعة في باب تعظيم النبي ﷺ

لقد تقدم معنا في المبحث الرابع من هذا الفصل أن تعزير النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيره، وتعظيمه التعظيم الشرعي من الحقوق الثابتة له صلى الله عليه وسلم على أمته إذ إن محبته -بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم- شرط من شروط الإيمان به عليه الصلاة والسلام، ولا يتم إيمان أحد من الناس إلا بتحققها، كما قال عليه الصلاة والسلام: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)(١) .

أما هذا المبحث فيدور حول بيان منهج السلف في حق النبي صلى الله عليه وسلم وتوسطهم في باب تعظيمه عليه الصلاة والسلام؛ ذلك التعظيم الشرعي المأخوذ من الكتاب والسنة، وتطبيقات الصحابة رضي الله عنهم، فبمعرفة حدود هذا التعظيم الشرعي يقف المسلم في سياج منيع وحصن حصين يقيه التردي في إحدى حفرتين: ألا وهما: غلو الغالين، أو جفاء المتنقصين.

اعلم أن الخيرية والوسطية ثابتة لأمة محمد ﷺ على سائر الأمم فهم وسط بين غلو النصارى وإفراطهم وتقصير اليهود وتفريطهم في حق الرسل عليهم السلام، وخيره الأمة وأوسطها وأعدلها هم أهل السنة والجماعة، فهم -كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (أهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل)(٢) ، فكل خير، وفضل، وعدل ثبت لهذه الأمة فلأهل السنة والجماعة منه الحظ الأوفر، والقدر المعلى(٣) ، فأهل السنة والجماعة وسط في جميع أبواب الاعتقاد بين جميع الفرق:

فهم وسط بين الفرق في باب أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وهم وسط بين الفرق في باب الأسماء والأحكام، والوعد، والوعيد، وهم وسط بين الفرق في باب القدر، وهم وسط بين الفرق فيما يتعلق بالصحابة رضي الله عنهم، ثم هم أيضا وسط بين الفرق في باب تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم(٤) .

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) مجموع الفتاوى٤/ ١٤٠، ومجموعة الرسائل الكبرى١/ ٢٧٤

(٣) انظر وسطية أهل السنة بين الفرق ص١٥٦، ومجموعة الرسائل الكبرى١/ ٢٧٤

(٤) انظر الكلام حول وسطية أهل السنة في تلك الأبواب بالتفصيل في كتاب وسطية أهل السنة بين الفرق ص٣٠٣ وما بعدها.

إن مما امتازت به عقيدة أهل السنة والجماعة : التوسط ، والتوازن في جميع المسائل من غير إفراط ولا تفريط ، ولا ريب أن من سار على هذا المنهج سوف يكون داخلا في الوصف الذي وصف الله به الأمة في قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[١]

قال ابن كثير : (والوسط هنا المراد به الخيار والأجود ، كما يقال : قريش أوسط العرب نسبا ، أي : خيرها ، ولما جعل الله هذه الأمة وسطا خصها بأكمل الشرائع ، وأقوم المناهج ، وأوضح المذاهب)[٢] .

والذي جعل هذا المنهج منطلقا واضحا وسمة بارزة لأهل السنة والجماعة في جميع أبواب الاعتقاد ومن ذلك : ما يتعلق بتعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم هو تقيدهم بالكتاب والسنة الصحيحة ، فالسلف من الصحابة ، والتابعين ، وتابعيهم بإحسان ، ومن سار على منهاجهم من علماء الأمة وهداة الملة نظروا في آيات الكتاب العزيز ، وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم الثابتة ، فيما نصا عليه وأمرا به ، ودلا عليه دعوا الأمة إلى الأخذ به والاستماع إليه ، والتمسك به ، وما نهيا عنه ، وحذرا منه واستنكفا عنه دعوا الأمة إلى تركه والحذر من ملابسته والابتعاد عنه ، ومن لم يجعل هذا المنهج منطلقا في تناول مسائل العقيدة وخصوصا ما يتعلق بجناب نبينا صلى الله عليه وسلم فهو لا محالة مائل إلى أحد الشقين وواقع في إحدى الحفرتين : إما الإفراط ، وإما التفريط ، وهذا حال الطوائف الأخرى التي لم تتقيد بنهج الكتاب والسنة في فهم العقيدة .

وتتبين وسطية أهل السنة والجماعة في باب تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم في الأمور التالية :

١- مكانته الرفيعة، ومنزلته العالية صلى الله عليه وسلم[٣] :

يؤمن أهل السنة والجماعة بأن النبي ﷺ لغ من الرسالة المحل الأعلى ، والمكانة الرفيعة ، ومن النبوة المنزلة العليا ، وأنه صلى الله عليه وسلم أبلغ الرسل بيانا وأعظمهم معجزة ،

(١) سورة البقرة الآية ١٤٣

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٢٧٥

(٣) قارن بين هذا وبين ما سبق في المبحث الثالث من هذا الفصل بعنوان : مقام الرسالة وخصائصها عند أهل السنة والجماعة .



وأعمهم رسالة، وبه ختمهم الله تعالى، صلى الله عليه وسلم تسليما. فنبينا صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء والمرسلين وسيد الخلق أجمعين، كما أخبر صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله: (**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفَّع**)[١]، وفي قوله أيضا: (**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**)[٢].

وهذا الخبر حين يخبر به نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم، ويتكلم به لا يقوله من باب التفاخر، والتعالي، وإنما قاله لوجهين:

أحدهما: أنه من النعمة التي أمره الله تعالى أن يتحدث بها في قوله عز من قائل: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[٣].

وثانيهما: أن هذا من البيان الذي يجب تبليغه لأمته ليعرفوه، ويعتقدوه، ويعملوا بمقتضاه ويوقروه، صلى الله عليه وسلم كما ينبغي، وبما تقتضيه مرتبته العالية، ومنزلته الشريفة، كما أمرهم الله تعالى[٤].

ولكونه خاتم النبيين فلا نبي بعده يخبرنا بعظيم قدره عند الله تعالى، فلا يمكننا معرفة ذلك إلا بخبره، صلى الله عليه وسلم[٥].

ولا شك أن مكانة النبي ﷺ، ومقداره العظيم يوجب على كل مؤمن تعظيمه صلى الله عليه وسلم، ومحبته، بعد اعتقاد عظمة الله سبحانه وتعالى، ومحبته فوق محبة أي محبوب، وتعظيم أي عظيم آخر، ولا أحد يشك في كفر من لا يعتقد ذلك، والمقصود هنا بهذا التعظيم هو أمر زائد على المحبة؛ إلا أنه تعظيم شرعي، يحفظ للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم مكانته في قلب المؤمن، بعيدا عن الغلو في حقه، صلى الله عليه وسلم، أو إعطائه شيئا من خصائص الألوهية، أو الربوبية، كما يفعل الغلاة من أهل البدع[٦].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق١٥/ ٣٧

(٢) رواه الترمذي في سننه٥/ ٥٨٧ حديث ٣٦١٥ وقال حسن صحيح، وراه ابن ماجه في سننه٢/ ١٤٤٠ حديث ٤٣٠٨، وصححه الشيخ الألباني انظر صحيح ابن ماجه٢/ ٣٤٠، وشرح العقيدة الطحاوية ص١٦٠

(٣) سورة الضحى الآية ١١

(٤) انظر شرح صحيح مسلم للنووي١٥/ ٣٧، وغاية السول لابن الملقن ص٢٦٧

(٥) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص١٦٤، وأصول الدين للبغدادي ص١٦٥

(٦) انظر المفهم بشرح صحيح مسلم للقرطبي١/ ٢٢٦

ولا ريب في أن ما وصل إلينا من خير وبركة فبيمن سفارته، صلى الله عليه وسلم، ومكانته العظيمة عند الله تعالى، واصطفائه، وإرساله واسطة بيننا وبين ربنا تبارك وتعالى.

٢- التأكيد على بشريته[١]، صلى الله عليه وسلم، وعبوديته لله عز وجل:

لقد أكدت آيات القرآن الكريم هذه الحقيقة أكثر من مرة، ووضحت هذه العقيدة أتم توضيح؛ لتبين للناس أن الرسل بشر مثلنا، وأجسامهم من لحم، ودم مثل أجسامنا، وأنهم ينامون، ويستيقظون، ويأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وتطرأ عليهم الأمراض البشرية غير المنفرة، ثم يموتون؛ إلا أن الله سبحانه وتعالى فضل الرسل من البشر على سائر الجنس البشري بفضيلة الاصطفاء، والعصمة، والاختصاص بالنبوة، ونعمة الوحي، وكفى بذلك فضلا من ربك ونعمة؛ ذلك هو الفضل العظيم قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ**﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ **قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً** ﴾[٣] .

وأما عبوديته صلى الله عليه وسلم لربه فقد أكدتها آيات قرآنية عظيمة، وأحاديث نبوية شريفة؛ وذلك لأن كمال مرتبة العبد عند الله تعالى في تحقيق العبودية التامة لله عز وجل.

يقول شارح الطحاوية: (واعلم أن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله، وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه، وأن الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلهم)[٤] .

ولقد بلغ خاتم النبيين، صلى الله عليه وسلم في مقام العبودية، والرسالة أعلى المنازل، وأكمل المقامات، من أجل ذلك وصفه الله تعالى بالعبودية في أشرف المقامات، فقال تعالى -في ذكر الإسراء-: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا** ﴾[٥] ، وقال تعالى -في ذكر مناجاة النبي ﷺ لربه-: ﴿**وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا**﴾[٦] ، وقال تعالى -في مقام الوحي-: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا** ﴾[٧] ، وقال تعالى: ﴿**فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ** ﴾[٨] .

---

(١) لمعرفة الحكمة من بشرية الرسل راجع المبحث السابق.
(٢) سورة الكهف الآية ١١٠
(٣) سورة الإسراء الآية ٩٣
(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٤٩
(٥) سورة الإسراء الآية ١
(٦) سورة الجن الآية ١٩
(٧) سورة الكهف الآية ١
(٨) سورة النجم الآية ١٠



كما جمع النبي ﷺ بين العبودية، والرسالة لنفسه في قوله: (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله . . .)[1] .

وروى إسماعيل القاضي[2] -رحمه الله- بسنده عن قتادة مرفوعا في قول الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[3] أن النبي ﷺ قال: (ابدأوا بالعبودية، وثنوا بالرسالة)[4] .

قال معمر[5] -رحمه الله-: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده: فهذه العبودية والرسالة أن يقول: عبده ورسوله)[6] .

وبهذا استحق نبينا صلى الله عليه وسلم التقديم على الناس في الدنيا والآخرة؛ ولذلك يقول المسيح على نبينا وعليه الصلاة والسلام -يوم القيامة إذا طلبوا منه الشفاعة بعد الأنبياء عليهم السلام-: (اذهبوا إلى محمد، عبد غفر له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر)[7] . فحصلت لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم تلك المرتبة العظيمة، لتكميله عبوديته لله تعالى[8] .

وذكره، صلى الله عليه وسلم لهاتين الصفتين في حقه وهما: العبودية والرسالة دفع للإفراط، والتفريط، ورد على من أفرط من أمته بالغلو قولا، وفعلا، أو فرط بترك متابعته والبعد عن سنته عليه الصلاة والسلام[9] .

ولشرف مقام العبودية كان الصالحون يتلذذون بعبوديتهم، وذلتهم، وانكسارهم لله تعالى. وما أحسن فخر من قال[10] :

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة١/ ٢٢٦

(٢) هو أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الأزدي، قاضي بغداد، وصاحب التصانيف، ولد سنة ١٩٩هـ، وتوفي سنة ٢٨٢هـ. انظر سير أعلام النبلاء١٣/ ٣٣٩، وشذرات الذهب٢/ ١٧٨

(٣) سورة الشرح الآية ٤

(٤) فضل الصلاة على النبي ﷺص٨٦ رقم١٠٤، وصححه المحقق الشيخ الألباني.

(٥) هو أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي بالولاء البصري النحوي، من أئمة اللغة والأدب، من مصنفاته معاني القرآن، وإعراب القرآن، والأمثال، توفي سنة ٢٠٧هـ. انظر وفيات الأعيان٥/ ٢٣٥، والأعلام ٧/ ٢٧٢

(٦) فضل الصلاة على النبي ﷺص٨٦، رقم ١٠٤ قال محققه الشيخ الألباني: إسناده مرسل صحيح، ورجاله كلهم ثقات.

(٧) تقدم تخريجه.

(٨) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص١٤٩، والصارم المنكي ص٣٣٥، والخشوع في الصلاة لابن رجب ص٣٦

(٩) انظر فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ص٣٩

(١٠) البيتان للفضيل بن عياض.

ومما زادني فخرا وتيهاً   وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك ياعبادي   وأن صيرت أحمد لي نبيا

وأنشد آخر[١] :

مالي وللفقر إلى عاجز   مثلي لا يملك إغنائي
وإنما يحسن فقري إلى   مالك إسعادي وإشقائي
يا عمرو ثأري عند زهرائي   يعرفه السامع والرائي
لا تدعني إلا بيا عبدها   فإنه أشرف أسمائي

وقال آخر[٢] :

كفى بك عزا أنك له عبد   وكفى بك فخرا أنه لك رب

٣- تعظيم الرسول ﷺ مع التأكيد على أن الرسل لا يملكون شيئا من خصائص الألوهية، أو الربوبية: لا ريب أن تعظيم الرسول ﷺ واجب، بل هو من أعظم الواجبات؛ إذ لا يمكن أن يتم لشخص إيمانه ما لم يتم تعظيمه للرسول ﷺ، فمن لا يعظم النبي ﷺ فهو كافر خارج عن دائرة الإسلام بلا ريب، فلا خلاف على وجوب تعظيم النبي ﷺ، إنما الخلاف، والإنكار في وسائل التعظيم، وأساليبه، وصوره، فتعظيم الرسول ﷺ لا يستلزم السفر، والحج، وشد الرحال إلى قبره، عليه الصلاة والسلام، فذلك بدعة في الدين، بل تعظيمه، صلى الله عليه وسلم يكون في اتباع سنته، صلى الله عليه وسلم، والتمسك بهديه، والاعتصام بأوامره، واجتناب ما نهى عنه، وحذر منه[٣] .

(ولا شك أننا نحبه، صلى الله عليه وسلم في شخصه، وكم نتمنى أن نكون حظينا بصحبته، صلى الله عليه وسلم، والاشتراك مع أصحابه، والتزاحم معهم في تتبع آثاره، والاستمتاع بأحاديثه، ومجالسه، ومخالطته، ولكن هيهات، هيهات، فقد حيل بيننا وبينه، صلى الله عليه وسلم، فيبقى لنا كمردود إيجابي للقول بحبه، والدلالة على صدق

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٠٠، والخشوع في الصلاة لابن رجب ص٣٨

(٢) انظر الفوائد لابن القيم ص ٤٤ ومن أهل العلم من يجعله من كلام علي رضي الله عنه. انظر المنفرجة لابن النحوي بشرح البوصيري ص٦٥

(٣) انظر المجموع المفيد في نقض القبورية ونصرة التوحيد للدكتور محمد الخميّس ص١٧٤

ذلك منا التمسك بسنته، صلى الله عليه وسلم، قولا وعملا، وتعلما وتعليما، وإيثارا، وأمرا بها، ونهيا عن تنكبها، والتأسي به، صلى الله عليه وسلم في أخلاقه، وآدابه، وشمائله، والدفاع عن سنته، صلى الله عليه وسلم، ورد كل ما لم يكن من سنته من بدع، ومحدثات، مهما كانت ظواهرها حسنة، ومقبولة)[١] .

فتعظيم الرسول، صلى الله عليه وسلم عند أهل السنة منضبط بالكتاب والسنة وبهذا المنهج كانوا متوسطين بين غلو الغلاة وتنقص الجفاة، ويستدلون على التعظيم الشرعي للنبي الكريم، صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[٢] .

قال قتادة: (أمر الله تبارك وتعالى أن يهاب نبيه، وأن يعظم، وأن يبجل، وأن يُسَوَّد)[٣] .

وقال الضحاك بن مزاحم[٤] -رحمه الله: (نهاهم الله أن ينادوه كما ينادي بعضهم بعضا، وأمرهم أن يشرفوه، وأن يعظموه، ويدعوه إذا دعوه باسم النبوة)[٥] .

وقيل المعنى: (لا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء بعضكم بعضا؛ فتأخروا إجابته بالأعذار، والعلل التي يؤخر بها بعضكم إجابة بعض، ولكن عظموه بسرعة الإجابة، ومعالجة الطاعة، ولم يجعل الصلاة لهم عذرا في التخلف عن الإجابة إذا دعا أحدهم وهو يصلي، إعلاما لهم بأن الصلاة إذا لم تكن عذرا يستباح به تأخير الإجابة، فما دونها من معاني الأعذار أبعد!)[٦] .

فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد المعلى رضي الله عنه أنه قال: (كنت أصلي فمربي رسول الله ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيته، فقال: ما منعك أن تأتي؟ ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا

---

(١) حوار مع المالكي لابن منيع ص٤٠ (٢) سورة النور الآية ٦٣

(٣) تعظيم قدر الصلاة للمروزي٢/ ٦٦٤، وانظر تفسير ابن كثير٣/ ٥٧٣

(٤) هو أبو محمد الضحاك بن مزاحم، صاحب التفسير، كان من أوعية العلم، وثقه الإمام أحمد، ويحيى بن معين، وغيرهما، وتوفي سنة ١٠٢هـ، وقيل: غير ذلك. انظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٩٨، وشذرات الذهب ١/ ١٢٤

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره٢٦/ ٧٥، وانظر تعظيم قدر الصلاة للمروزي٢/ ٦٦٥

(٦) المنهاج للحليمي٢/ ١٢٥، وانظر تفسير ابن كثير٣/ ٥٧٤



﴿يُحْيِيكُمْ﴾[١] ؟ . ثم قال: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن . . . .) الحديث بطوله[٢] .

وقد ذكر بعض أهل العلم أن هذا مما خص به صلى الله عليه وسلم من دون سائر الأنبياء عليهم السلام[٣] .

وقيل معنى الآية: (لا تجعلوا دعا الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا، وذلك أنهم كانوا ينادونه على رسم[٤] أعداء نبيهم فيقولون له يا محمد، يا أبا القاسم، فنهوا عن ذلك، وأمروا أن يعظموه، فيقولوا: يا رسول الله، ويا نبي الله، وكل واحد من الأمرين إجلال، وتعظيم)[٥] .

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾[٦] .

نزلت هذه الآية في شأن ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري رضي الله عنه حيث كان في أذنه وقر، وكان جهوري الصوت، فكان إذا جلس إلى النبي ﷺ يرفع صوته إذا تكلم، فلما نزلت هذه الآية انطلق مهموما، حزينا لا يدري ما ذا يفعل، فمكث في بيته أياما يخاف أن يكون قد حبط عمله، وكان سعد بن عبادة رضي الله عنه جاره، فانطلق حتى أتى النبي ﷺ فأخبره بذلك، فقال له النبي ﷺ: (اذهب إليه فقل له أنك لست من أهل النار؛ ولكن من أهل الجنة)[٧] ، فلما أخبر سعد ثابتا بذلك فرح فرحا شديدا ثم أتى سعد إلى النبي ﷺ، وأخبره بشأن ثابت فقال النبي ﷺ: هو من أهل الجنة)[٨] ، فكان بعد ذلك ثابت إذا جلس إلى النبي ﷺ يخفض صوته، حتى ما يكاد يسمع الذي يليه[٩] ، فنزل فيه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[١٠] [١١] .

(١) سورة الأنفال الآية ٢٤ (٢) صحيح البخاري ٨/ ٣٠٧ حديث ٤٦٤٦ .

(٣) انظر غاية السول لابن الملقن ص٢٧٨ (٤) أي عادة .

(٥) شعب الإيمان للبيهقي٢/ ١٩٥ ، وانظر لوامع الأنوار٢/ ١٩٤ ، والشفا٢/ ٣٠

(٦) سورة الحجرات الآية ٢

(٧) رواه البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة٦/ ٧١٧ حديث٣٦١٣

(٨) رواه مسلم، كتاب الإيمان باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله٢/ ١٣٤

(٩) انظر أسباب النزول للواحدي ص٤٤٥ ، والشفا٢/ ٣١ (١٠) سورة الحجرات الآية ٣

(١١) انظر الجامع لشعب الإيمان للبيهقي٢/ ١٩٦ ، وقيل: إن الآية نزلت في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فبعد نزول قول الله تعالى﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ الآية السابقة آلى على نفسه أن لا يكلم رسول الله إلا كأخي السرار فنزلت فيه الآية ﴿إن الذي يغضون أصواتهم﴾ الآية رواه الحاكم في المستدرك٢/ ٤٦٢ ، وانظر شعب الإيمان للبيهقي٢/ ١٩٧ ، وأسباب النزول للواحدي ص٤٤٦

فنهاهم الله عز وجل أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي، ويخرجوا عن مكالمته من طريق الاستماع إلى طريق الجهر؛ لأن ذلك في العادة غض من المخاطب، واستخفاف بقدره، وضرب من الاستعلاء عليه، كما أن خفض الصوت تذلل، ورعاية لحقه، وإكبار لشأنه وتعظيم لحقه، ثم حذرهم أشد التحذير من مقاربة ما نهاهم عنه في قوله: ﴿ **أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ** ﴾، وذلك بأن يستقر في نفس أحدهم أمرا فيود الإعلان عما في نفسه، وهو بحضور رسول الله ﷺفيختلط، ويرفع صوته إلى حد الإعلان، فيلزمه حكم الاستخفاف، والتهاون برسول الله ﷺ فيكفر، ويحبط عمله، وهو غافل عن خطورة هذا الأمر، ولا يشعر أنه كفر، وحبط لعمله، وهذا أبلغ ما يكون من الأمر بتعظيم رسول الله ﷺ، وإذا كان الأمر بجميع ما ذكرنا مقبحات فعلى المؤمنين أن يكونوا بضد هذه الصفات، دون ما يوافقها[1] .

ومن صور هذا التعظيم عدم رفع الأصوات عند قبره الشريف، ولا يتكلم عنده في لهو، ولا لغو، ولا باطل، ولا يناقش أمرا من أمور الدنيا مما لا يليق بجلال قدره، صلى الله عليه وسلم، وعظيم مكانته عند الله عز وجل[2] .

وتعظيم الرسول ﷺمحله القلب، ويشترك معه اللسان، والجوارح. فالتعظيم الذي محله القلب: (ما يتبع اعتقاد كونه عبدا رسولا، من تقديم محبته على النفس، والولد، والوالد، والناس أجمعين، **ويصدق هذه المحبة أمران:**

أحدهما: تجريد التوحيد؛ فإنه صلى الله عليه وسلم كان أحرص الخلق على تجريده، حتى قطع أسباب الشرك ووسائله من جميع الجهات، . . . ونهى أن يحلف بغير الله، وأخبر أن ذلك شرك، ونهى أن يصلي إلى القبر، أو يتخذ مسجدا، أو عيدا، أو يوقد عليه سراج، بل مدار دينه على هذا الأصل الذي هو قطب رحا النجاة، ولم يقرر أحد ما قرره النبي بقوله، وفعله، وسد الذرائع المنافية له، فتعظيمه، صلى الله عليه وسلم بموافقته على ذلك، لا بمناقضته فيه.

الثاني: تجريد متابعته، وتحكيمه وحده في الدقيق والجليل من أصول الدين وفروعه،

---

(١) انظر الجامع لشعب الإيمان للحليمي ٢/ ١٢٨

(٢) انظر شعب الإيمان للبيهقي ٢/ ٢٠٦، والشفا ٢/ ٣٥



والرضى بحكمه والانقياد له، والتسليم، والإعراض عما خالفه، وعدم الالتفات إلى ما خالفه؛ حتى يكون وحده هو الحاكم المتبع المقبول قوله المردود ما خالفه، كما كان ربه تعالى وحده هو المعبود المألوه المخوف المرجو المستغاث به، المتوكل عليه الذي إليه الرغبة، الرهبة الذي يؤمل وحده لكشف الشدائد، ومغفرة الذنوب الذي من جوده الدنيا والآخرة، الذي خلق الخلق وحده، ورزقهم وحده، ويبعثهم وحده، ويغفرلهم، ويرحم، ويهدي، ويضل، ويسعد، ويشقي وحده، وليس لغيره من الأمر شيء كائنا من كان؛ لا للنبي، صلى الله عليه وسلم، ولا لجبريل عليه السلام، ولا غيرهما، فهذا هو التعظيم الحق، المطابق لحال المعظَّم النافع للمعظِّم في معاشه، ومعاده، والذي هو لازم إيمانه، وملزومه.

وأما التعظيم باللسان فهو الثناء عليه بما هو أهله، مما أثنى به عليه ربه، وأثنى على نفسه من غير غلو، ولا تقصير، كما فعل عباد القبور؛ فإنهم غلوا في مدحه إلى الغاية.

وأما التعظيم بالجوارح فهو العمل بطاعته والسعي في إظهار دينه، ونصر ما جاء به، وجهاد ما خالفه.

وبالجملة: فالتعظيم النافع هو التصديق فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما نهى وزجر، والموالاة والمعاداة، والحب، والبغض لأجله، وتحكيمه وحده، والرضى بحكمه، وأن لا يتخذ من دونه طاغوت يكون التحاكم إلى أقواله، فما وافقها من قوله صلى الله عليه وسلم قبله، وما خالفها رده، أو تأوله، أو أعرض عنه، والله سبحانه يشهد، -وكفى به شهيدا، وملائكته، ورسله، وأولياؤه- أن عباد القبور وخصوم الموحدين ليسوا كذلك)[1] .

فالتعظيم الشرعي الذي ينبغي للرسول صلى الله عليه وسلم قد بينه الله في كتابه، ووضحه على لسان رسوله ﷺ، وهو ما كان المقصود به التوقير، والإجلال، والمحبة، والنصرة، والتأييد، والتصديق، والإيمان، والطاعة، والمتابعة، وكذلك التعظيم المنهي عنه قد بينه الله ووضحه في كتابه العزيز، وعلى لسان رسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم، وهو ما كان يطفح منه الغلو، والإطراء، وإخراج الرسول ﷺ عن حيز البشرية، والعبودية إلى حيز الألوهية، والتصرف المطلق الذي ليس فوقه شيء.

---

(١) الصارم المنكي ص٣٣٧، وانظر تيسير العزيز الحميد ص٣١٥



فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾[١] ، وأهل الغلو يجعلون الأمر كله إليه، والله يقول: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾[٢] ، وهم يطلبون منه المغفرة، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾[٣] ، وأهل الأهواء يجعلون له خصائص الألوهية، من جلب نفع، ودفع ضر، وإغاثة الملهوفين، وتفريج عن المكروبين، وسماع الدعوات، وإجابة الداعين، والله عز وجل يقول: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[٤] ، وأولئك يقولون: إنه يعلم الغيب حتى بعد موته عليه الصلاة والسلام، ويعلم أعمال أمته كلها، ويسمع دعاءهم، ويرى مكانهم[٥] .

وحق الرسول ﷺ هو أعظم حقوق المخلوقين، فلا حق لمخلوق أعظم من حق المصطفى صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[٦] ، فتوقيره صلى الله عليه وسلم، واحترامه، وإجلاله، وتعظيمه التعظيم اللائق به من غير غلو ولا تقصير من حقوقه عليه الصلاة والسلام، فتوقيره في حياته محبة شخصه الكريم، وتوقير سنته، وأما توقيره بعد مماته فيحصل بتوقير سنته، وشرعه القويم، ومن علم توقير الصحابة رضي الله عنهم، وتعظيمهم للرسول ﷺ عرف كيف قام هؤلاء الأجلاء الفضلاء بما يجب عليهم لنبي الله ﷺ.

قال عروة بن مسعود لقريش حينما أرسلوه ليفاوض النبي ﷺ في صلح الحديبية[٧] : لقد دخلت على الملوك: كسرى، وقيصر، والنجاشي؛ فلم أر أحدا يعظمه أصحابه مثل ما يعظم محمدا أصحابه، كان إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له، عليه الصلاة

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٢٨
(٢) سورة التوبة الآية ٨٠
(٣) سورة فصلت الآية ٦
(٤) سورة الأعراف الآية ١٨٨
(٥) انظر أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة ص١٨٢ ، وغاية الأماني ١/ ٢١٤
(٦) سورة الفتح الآيتان (٨-٩).
(٧) هي قرية بينها وبين مكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل، سميت ببئر هناك عند الموضع الذي فيه النبي ﷺ وأصحابه، وقيل سميت بشجرة حدباء كانت في ذلك الموقع، وقد أمر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بعد ذلك بقطعها حماية لجناب التوحيد. انظر معجم البلدان ٢/ ٢٢٩

والسـلام[١] ، هكذا كانوا يعظمونه رضي الله عنهم، مع ما جبله به عليه من الأخلاق الكريمة، ولين الجانب، وحلاوة النفس، ولوكان فظا غليظا لانفضوا من حوله[٢] .

واعلم أنه ليس من تعظيم النبي ﷺ هضم جناب الربوبية، كما أنه ليس من الجفاء في حق رسول الله ﷺ إثبات بشريته، ونبوته، ورسالته، ونقص رتبته عن رتبة الربوبية.

يقول العلامة ابن القيم : (والفرق بين تجريد التوحيد، وبين هضم أرباب المراتب أن تجريد التوحيد لا يعطي المخلوق شيئا من حق الخالق، وخصائصه، فلا يعبد ولا يصلى له، ولا يسجد، ولا يحلف باسمه، ولا ينذر له، ولا يتوكل عليه، ولا يؤله، ولا يقسم به على الله، ولا يعبد ليقرب إلى الله زلفى ولا يساوى برب العالمين في قول قائل: ما شاء الله وشئت، وهذا منك، ومن الله، وأنا بالله، وبك، وأنا متوكل على الله، وعليك، والله لي في السماء، وأنت في الأرض، وهذا من صدقاتك، وصدقات الله، وأنا تائب إلى الله، وإليك، وأنا في حسب الله، وحسبك، فيسجد للمخلوق كما يسجد المشركون لشيوخهم، يحلق رأسه له، ويحلف باسمه، وينذر له، ويسجد لقبره بعد موته، ويستغيث به في حوائجه، ومهماته، ويرضيه بسخط الله، ولا يسخطه في رضا الله، ويتقرب إليه أعظم مما يتقرب إلى الله، ويحبه، ويخافه، ويرجوه أكثر مما يحب الله، ويخافه، ويرجوه، أو يساويه، فإذا هضم المخلوق خصائص الربوبية، وأنزله منزلة العبد المحض الذي لا يملك لنفسه فضلا عن غيره ضرا، ولا نفعا، ولا موتا، ولا حياة، ولا نشورا لم يكن هذا تنقصا له، ولا حطا من مرتبته –ولو رغم المشركون– وقد صح عن سيد ولد آدم، صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: (**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله**)[٣] . . . وقال له رجل قد أذنب (**اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد** ﷺ **فقال:(عرف الحق لأهله**)[٤] ، وقد قال الله له : ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ** ﴾[٥]، وقال: ﴿**قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ**﴾[٦] وقال: ﴿**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا**

(١) رواه البخاري ، كتاب الشروط باب الشرط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ٥/ ٣٢٩ حديث ٢٧٣١

(٢) انظر الصيد الثمين في رسائل ابن عثيمين ١/ ٢٨٩ ، والرسل والرسالات للأشقر ص١١٢

(٣) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها﴾ ٦/ ٤٧٨ حديث ٣٤٤٥

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سورة آل عمران الآية ١٢٨

(٦) سورة آل عمران الآية ١٥٤

شَاءَ اللَّهُ﴾(١) ، وقال : ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾(٢) ، أي : لن أجد من دونه من ألتجئ إليه ، وأعتمد عليه . . . فعظم ذلك على المشركين بشيوخهم ، وآلهتهم ، وأبوا ذلك كله ، وادعوا لشيوخهم ومعبوديهم خلاف هذا كله ، وزعموا أن من سلبهم ذلك فقد هضمهم مراتبهم ، وتنقصهم ، وقد هضموا جانب الإلهية غاية الهضم ، وتنقصوه ، فلهم نصيب وافر من قوله تعالى : ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(٣) (٤)) .

وإذا نظرنا في الحقوق ، ما يختص منها بخالق الأرض ، والسماوات ، وما هي حقوق للأنبياء وأصحاب الرسالات وجدناها ثلاثة بحكم هذه التقسيمات .

يقول الشيخ السعدي : (قد ميز الله في كتابه بين حقه الخاص ، وحق رسوله الخاص ، والحق المشترك ، وأعلم بذلك أن الحقوق ثلاثة : حق الله وحده ، لا يكون لغيره ، وهو عبادته وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادات . وحق خاص لرسوله ﷺ ، وهو التعزير ، والتوقير ، والقيام بحقه اللائق ، واتباعه ، والاقتداء به . وحق مشترك ، وهو الإيمان بالله ، ورسوله ، وطاعة الله وطاعة رسوله ، ومحبة الله ، ومحبة رسوله . وقد ذكر الله الحقوق الثلاثة في آيات كثيرة من القرآن)(٥) .

٤- التحذير من إطرائه صلى الله عليه وسلم، أو الغلو في حقه، أو التفريط في تعظيمه.

لقد حذر النبي ﷺ أمته من الغلو في حقه ، أو إطرائه ، ومجاوزة الحد في مدحه ، فالإطراء هو مجاوزة الحد في المدح بالباطل ، وهذا الإطراء يؤدي بالمطري إلى أن ينزل النبي ﷺ فوق منزلته التي أنزله الله إياها وهي منزلة العبودية ، والرسالة ، فيرفعه إلى مقام الألوهية ، ومنزلة الربوبية ، وهذا هو عين ما كان النبي ﷺ يخشاه ، ويحذر منه أمته ، فقال عليه الصلاة والسلام : (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ؛ فإنما أنا عبده فقولوا : عبد الله ورسوله ﷺ(٦) ، أي : لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى

(١) سورة يونس الآية ٤٩ (٢) سورة الجن الآيتان (٢١-٢٢) .
(٣) سورة الزمر الآية٤٥
(٤) الروح ٢/ ٧٦٦ ، وانظر تلخيص كتاب الاستغاثة١/ ٢٣٢ لشيخ الإسلام ابن تيمية .
(٥) القواعد الحسان لتفسير القرآن ص١٤٠ ، وانظر الصارم المسلول ص٤١
(٦) سبق تخريجه .



بن مريم، فادعوا فيه الربوبية، وإنما أنا عبد لله، ورسول منه إليكم، فصفوني بالعبودية، والرسالة كما وصفني ربي، فقولوا: عبد الله ورسوله، إلا أن هذا التوازن، والتوسط في حقه صلى الله عليه وسلم لم يَرُق لعبدة القبور وجهلة أهل الأهواء فأبوا (إلا مخالفة لأمره، وارتكابا لنهيه، وناقضوه أعظم المناقضة، وظنوا أنهم إذا وصفوه بأنه عبد الله ورسوله، وأنه لا يدعى ولا يستغاث به، ولا ينذر له، ولا يطاف بحجرته، وأنه ليس له من الأمر شيء، ولا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله، أن في ذلك هضما لجنابه، وغضا من قدره، فرفعوه فوق منزلته، وادعوا فيه ما ادعت النصارى في عيسى، أو قريبا منه، فسألوه مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب)[1] .

والتعظيم الشرعي -وهو الواقع وسطا بين طرفي غلو وتقصير- مأمور به.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وإذا كانت البهائم، والجمادات تعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم فنحن أحق بتعظيمه كما قال الحسن البصري في حنين الجذع[2] : إذا كان الجذع يحن إليه فأنتم أولى بالحنين إليه. وهذا حسن، لكن تعظيمه إنما يكون بطاعته، ومتابعته، ومعاونته، وما فيه زيادة لثوابه، ورفع لمنزلته، وهو مراد الحسن وغيره، لا بأمور مبتدعة، لاسيما إذا كانت من باب الشرك، وفيها تكليف له؛ فإن سؤاله في حياته وإن كان جائزا في الجملة فليس من باب التعظيم له، ولا التوقير ولا من فعل خيار أصحابه، وإنما كان يفعل ذلك أهل الجفاء كالأعراب، ومن هو حديث عهد بالإسلام، دون أكابر المؤمنين، وإن وقع ذلك منهم وقع قليلا)[3] .

ولا يزال الشيطان يظهر لأهل الأهواء والبدع التوحيد والإخلاص الذي بعث الله به رسله في قالب التنقيص للرسول صلى الله عليه وسلم، ويظهر لهم ما نهى عنه النبي ﷺ من الغلو، والإطراء في قالب محبته، وتعظيمه ﷺ ومن تأمل ما أمر به النبي ﷺ، وما نهى عنه علم يقينا أن هؤلاء هم المتنقصون الناقصون؛ لأنهم أفرطوا في تعظيمه بارتكاب ما نهى الله عنه في كتابه في مواضع لا يمكن حصرها من دعوة غيره، خصوصا، وعموما، ثم إن

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص٣١٤، وانظر التوسل للألباني ص٨٥

(٢) قصة حنين الجذع صحيحة وثابتة رواها البخاري. انظر صحيح البخاري مع الفتح كتاب المناقب باب علامات النبوة٦/ ٦٠١ حديث ٣٥٨٣

(٣) تلخيص كتاب الاستغاثة١/ ٢٨٥



هؤلاء فرطوا في متابعته صلى الله عليه وسلم ؛ فلا أخذوا بقوله ، ولا اتبعوه في فعله ، بل ولا رضوا بحكمه ، وأمره ، ولا سلموا له ، وهذا الذي تركوه هو الذي يحصل به تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيعظم أمره ، ويقبل ، ويعظم نهيه ويترك ، ويكون هو المتبع المطاع ، ويدعو إلى دينه الذي دعا إليه من إخلاص العبادة لله وحده ، وينصره بنصرة ما بعث به من الحق ، ويواليه بالمتابعة ، والاقتداء بهديه ، ويعادي من خالفه بارتكاب ما نهى عنه ، وأنت ترى ما وقع اليوم ، وقبله من كثير من الجهال من الإفراط ، والتفريط)[١] .

فصورة النبي في الإسلام أنه أرفع البشر قدرا ، له الحب ، والتوقير ، والإجلال ، والتعظيم وأعظم ، صفات التعظيم وصفه بالعبودية ، والرسالة ، كما مر سابقا ، وله الدرجة الرفيعة ؛ لكنه لا يتجاوز مقام العبودية ، والطاعة لله ، ولا يخلع على نفسه صفات الألوهية ، أو يروم مقام الربوبية ، ولا يدعو الناس إلى عبادته ؛ بل يدعوهم إلى عبادة مرسله وحده ، وشعاره في ذلك : ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾[٢] وقد حرص النبي المجتبى ﷺ على التمييز بين الألوهية والنبوة ، خصوصا وأن الأمم الماضية قد ألهت أنبياءها ، فقالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله .

ولا ريب أن تأليه الأنبياء لم يكن في حياتهم ، بل بعد موتهم بقليل ، أو كثير حين تدخل المبالغات ، والأساطير إلى تاريخهم ، وسيرتهم ، ويبالغ أتباعهم في ذكر أخبارهم ، ووقائعهم ، حتى يوصلهم إلى مرحلة الألوهية ، ثم يعبدونهم من دون الله ، أو يشركونهم في عبادة الله تعالى ، ومن هنا حذر رسولنا الكريم ، صلى الله عليه وسلم من الغلو في حقه ، وأكد على صفاته البشرية ، فقد (**أتى النبي ﷺ رجل فكلمه، فجعل ترعد فرائصه، فقال: هون عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد**)[٣] ، فهل بعد هذا تواضع من خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي اختاره الله من خيار خلقه ، وعصمه في نسبه ، وطهارة محتده[٤] ، ورغم علو مكانته ، وسمو خلقه ، وإشادة القرآن برفعته ، وعظمته ، فإننا لا نتخطى به خصائص البشرية ، ومنازل النبوة[٥] .

---

(١) القول الفصل النفيس ص١٣٥ ، وانظر التوسل حكمه وأقسامه للشيخين محمد بن صالح العثيمين وناصر الدين الألباني رحمهم الله جمع أبي لوز ص٧٩ (٢) سورة آل عمران الآية ٧٩

(٣) رواه ابن ماجه٢/ ١١٠١ برقم ٣٣١٢ ، وانظر صحيح سنن ابن ماجه٢/ ٢٣٢ برقم ٢٦٧٧ ، ورواه الحاكم٣/ ٤٧ ، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٨٧٦

(٤) المحتد الأصل ، يقال : فلان من محتد صدق ، ومحفد صدق . انظر الصحاح للجوهري٢/ ٤٦٢ مادة (حتد) .

(٥) انظر الرسالة والرسول ص٣٠

فأهل السنة والجماعة من أشد الناس تعظيما للرسول ﷺ، واتباعا لسنته، ﷺ ويدلك على هذا أنهم كانوا حريصين دائما على اتباع سنة الرسول ﷺ، والتقيد بها، وإنكار ما خالفها من عقيدة، أو عمل قولي، أو فعلي، ويدلك على هذا أيضا أنهم جعلوا الصلاة على النبي ﷺ ركنا من أركان الصلاة، لا تصح الصلاة إلا بها؛ فهل بعد هذا من شك في تعظيمهم لرسول الله ﷺ، وهم أيضا إنما قالوا بأنها ركن من أركان الصلاة؛ لأن ذلك هو مقتضى الدليل عندهم، فهم متبعون للدليل، معظمون للرسول، لا يغلون بالنبي ﷺ في أمر لم يشرعه الله ورسوله، ثم إن حقيقة الأمر أن إنكارهم للمدائح النبوية المشتملة على الغلو في رسول الله ﷺ هو التعظيم الحقيقي لرسول الله ﷺ، وهو سلوك الأدب مع الله ورسوله؛ حيث لم يقدموا بين يدي الله ورسوله، فلم يغلوا؛ لأن النبي ﷺ نهاهم عن ذلك)[1].

وكل من أراد أن يتحدث عن النبي ﷺ بإثبات ما يليق بمقامه الشريف من التعظيم الشرعي أو نفي مالا يجوز في حقه، ومكانه المنيف من الغلو، والإطراء يجب أن يلتزم بما جاء في القرآن والسنة النبوية الثابتة دون أن يختلق من تلقاء نفسه أمورا لم تثبت عن الشارع بقصد حسن النية، واعتمادا على العواطف ليتقرب بها إلى الله عز وجل راجيا الثواب والمغفرة؛ لأن الأمور التي يتقرب بها إلى الله تعالى لا بد فيها من شروط: (أن تكون مشروعة بنص من الكتاب أو السنة الثابتة أو باجتهاد معتمد عليه، وأن تقع في الحدود المقررة لها من الزمان، والمكان، وأن تقع بالكيفية التي أمر بها الشارع والإخلاص بالقربى إلى الله تعالى.

وإذا انتفى شرط من هذه الشروط فلا تعتبر قربة؛ بل تكون بدعة حينئذ، ونحن نرى اليوم أناسا يغالون في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدح، يرفعونه إلى مرتبة الألوهية، أو يصفونه بصفات لا تليق إلا بالله، أو يطلبون طلبات لا دخل له في حصولها أثناء حياته فضلا عن بعد مماته صلى الله عليه وسلم، . . . وعند ما نرفض الغلو في شخصية الرسول، صلى الله عليه وسلم لا يعني بالضرورة أن نقصر في توقيره، وتعظيمه، وحبه، ولكن نعني أن نلتزم بما هو مشروع في حقه، صلى الله عليه وسلم دون إفراط، أو تفريط، بعيدين عن الغلو والتقصير لنتصف بالوسطية التي أشار إليها القرآن

(١) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله- ٣/ ٦٠، وانظر هذه مفاهيمنا ص٢٣٥

الكريم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[(١)] [(٢)].

فالتوازن خصيصة من خصائص دين الإسلام كما مر معنا، والتوسط في باب تعظيم نبينا صلى الله عليه وسلم سوط يمكن أن نضرب به كلا من الغلاة والجفاة في حق نبينا عليه الصلاة والسلام، سواء بسواء، حتى يعودوا إلى جادة الحق، وحتى يسلكوا السنن الواضح، والصراط المستقيم، وبهذا المنهج تبقى العقيدة صافية المعين، رقراقة الجداول، يشرب منها كل من أراد الحق شربه هنية، من غير تعكير من عقائد الغلاة، أو بتر، وتشويش من عقائد المتنقصين الجفاة.

يقول العلامة ابن القيم: (وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان، إما إلى تفريط وإضافة، وإما إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه، والغالي فيه، كالوادي بين الجبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين دميمين؛ فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له، فالغالي فيه مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد)[(٣)].

ومن مشاهداتي في المسجد النبوي الشريف أنني قابلت ذات يوم رجلا من المسلمين خارجا من باب البقيع -بعد أن سلم على النبي ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما، وكان رجوعه بطريق القهقرى، فقلت له: لماذا تمشي هذه المشية والناس خلفك وقد تسقط على أحدهم فتؤذيه؟ فأجابني: إنني أخشى في حال خروجي -أن أولي الحجرة الشريفة ظهري تعظيما للرسول ﷺ، ثم نظرت في وجهه فإذا هو قد حلق لحيته، وإلى ثوبه فإذا هو قد أسبله، وأمارات جفاء سنة النبي (واطراح أوامره بادية عليه فعلمت أن سبب ذلك هو تلبيس إبليس مع ظلمة الجهل بالشريعة.

يقول الشيخ ابن عثيمين: (ومن العجائب أن هؤلاء المغالين يدعون أنهم معظمون لرسول الله (تجدهم معظمين له كما زعموا في مثل هذه الأمور؛ وهم في كثير من سننه فاترون معرضون، والعياذ بالله)[(٤)].

---

(١) سورة البقرة الآية ١٤٣

(٢) التأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم ص ٣٢، وانظر المشاهدات المعصومية عند قبر خير البرية لمحمد سلطان المعصومي ص٧٣

(٣) مدارج السالكين٢/ ٤٩٦

(٤) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن عثيمين٣/ ٦٢، وانظر الزيارة الشرعية والشركية لمحي الدين البركوي ص٢٦، وهذه مفاهيمنا ص٢٣٥

ولعل من أشبه ما أختم به هذا المبحث المهم قول العلامة ابن القيم في نونيته[١] :-

الرب رب والرسول فعبده	حقا وليس لنا إله ثان
فلذاك لم نعبده مثل عبادة الر	حمن فعل المشرك النصراني
كلا ولم نغل الغلو كما نهى	عنه الرسول مخافة الكفران
لله حق لا يكون لغيره	ولعبده حق هما حقان
لا تجعلوا الحقين حقا واحدا	من غير تمييز ولا فرقان
فالحج للرحمن دون رسوله	وكذا الصلاة وذبح ذي القربان
وكذا السجود ونذرنا ويمينا	وكذا متاب العبد من عصيان
وكذا العبادة واستعانتنا به	إياك نعبد ذاك توحيدان
وعليهما قام الوجود بأسره	دينا وأخرى حبذا الركنان
لكنما التعزير والتوقير حق	للرسول بمقتضى القرآن
والحب والإيمان والتصديق لا	يختص بل حقان مشتركان
هذي تفاصيل الحقوق ثلاثة	لا تجهلوها يا أولي العدوان
ونظير هذا قول أعداء المسيـ	ـيح من النصارى عابدي الصلبان
أنا تنقصنا المسيح بقولنا	عبد وذلك غاية النقصان
لو قلتمُ ولدٌ إلهٌ خالقٌ	وفيتموهُ حقهُ بوزان
وكذاك أشباه النصارى قد غلوا	في دينهم بالجهل والطغيان
صاروا معادين الرسول ودينه	في صورة الأحباب والإخوان
والله ما عظمتموه طاعة	ومحبة يا فرقة العصيان
أنى وجهلكم به وبدينه	وخلافكم للوحي معلومان
والله أمركم عجيب معجب	ضدان فيكم ليس يتفقان
تقديم آراء الرجال عليه مع	هذا الغلو فكيف يجتمعان

(١) انظر متن القصيدة النونية ص ٢٤٩ ، بتصرف في انتقاء الأبيات من غير ترتيب.



والله لم نقصد سوى التجريد للتـ ـوحيد ذاك وصية الرحمن

ورضى رسول الله منا لا غلـــو الـشرك أصـل عـبادة الأوثـان

والله لو يرضى الرسول دعاءنــا إياه بـادرنــا إلــى الإذعــان

والله لو يرضى الرسول سجودنا كـنـا نـخـر لـه على الأذقـان

والله ما يرضيـه منـــا غير إخــ ـلاص وتـحكـيم لذا الـقرآن

ولقد نهى ذا الخلق عن إطرائــه فعل النصارى عابدي الأوثـان

ولـقـد نـهـانـا أن نصير قبــــره عـيدا حـذار الـشـرك بـالرحمن

الفصل الثالث

صورة الواسطة في العبادة

وفيه خمسة مباحث:-

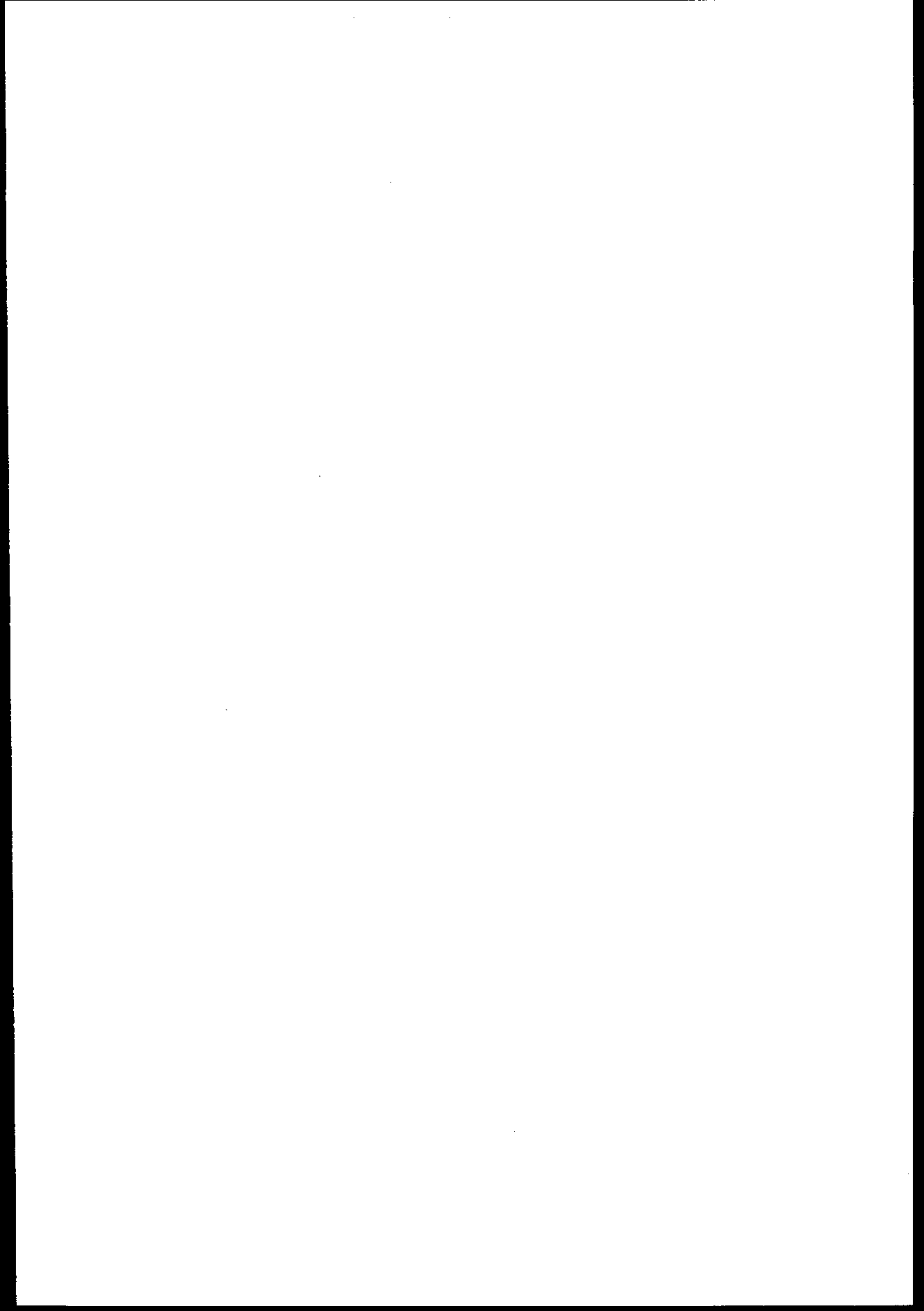
المبحث الأول: تعريف العبادة لغة وشرعا .

المبحث الثاني: وجه كون العبادة واسطة .

المبحث الثالث: صورة الواسطة في الدعاء .

المبحث الرابع: صورة الواسطة في التوسل المشروع .

المبحث الخامس: صورة الواسطة في العمل الصالح .





المبحث الأول

تعريف العبادة لغة وشرعا

تعريف العبادة لغة مادة العين، والباء، والدال تدل على أصلين كأنهما متضادان : -

أحدهما : اللين، والذل، والآخر : الغلظ، والشدة، فمن الأول : قول العرب : هذا عبد مملوك، وهذا بعير معبد، وهذا طريق معبد. ومن الثاني : قولهم : هذا ثوب له عَبَدة؛ إذا كان صفيقا، قويا، فالعبدة تعني : القوة، والصلابة[1]. واستعمال (عَبَد) بمعنى : أطاع، وانقاد وارد في الكتاب العزيز، ومنه قوله تعالى : ﴿أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾[2]، أي : لاتطيعوه، وقوله تعالى : ﴿**فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ** ﴾[3]، أي مطيعون، متذللون لنا، يدينون لنا، على عادة العرب في تسمية من دان للملك عابدا له[4]. ويقال : عبد الله يعبده عبادة، ومعبدا، ومعبدة، وعبودة، وعبودية : خضع له، وانقاد له، وذل له، وأطاعه، وتأله له، وتنسك.

فالعبادة، والعبودة، والعبودية : الخضوع، والتذلل، والطاعة، والانقياد، والتأله، والتنسك، يقال : طريق معبد : أي مذلل وطئته الأقدام، وذللته[5]، قال طرفة بن العبد[6] : -

تباري عتاقا ناجياتٍ وأتبعت ... وظيفا وظيفا فوق مَوْرٍ معبَّد

والشاعر يعني بالمور : الطريق، والمعبد : المذلل، الموطوء، ومن ذلك قيل للبعير المذلل بالركوب في الحوائج : معبد، كما يقال للبعير المطلي بالقطران : معبد، قال طرفة أيضا[7] : -

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة ٤/ ٢٠٥ مادة (عبد). (٢) سورة يونس، الآية : ٦٠.

(٣) سورة المؤمنون الآية : ٤٧. (٤) انظر تفسير الطبري ١٨/ ٢٥.

(٥) انظر تهذيب اللغة للأزهري ٢/ ٢٣٤ مادة (عبد)، وصحاح اللغة للجوهري ٢/ ٥٠٣ مادة (عبد)، والمخصص لابن سيدة ١٣/ ٩٦ مادة (عبد)، والمصباح المنيد ٢/ ٣٨٩ مادة (عبدة)، ولسان العرب ٩/ ١٠ مادة (عبد)، وتاج العروس ٨/ ٣٣١ مادة (ع ب د).

(٦) انظر ديوان طرفة بشرح الأعلم الشنتمدي ص١٣، والمغني : أن هذه الناقة تباري بسيرها إبلاً عتاقًا، والعتاق الكرام البيض، والناجيات : السريعات، والوظيف : من الرسغ إلى الركبة، وفي الرجل من الرسغ إلى العرقوب، أي : أتعبت هذه الناقلة وظيف رجلها، ووظيف يدها، أو رضعت رجلها موضع وظيف يدها وهو ضرب من السير.

(٧) انظر ديوان طرفة بشرح الأعلم الشنتمري ص٣١

إلي أن تحامتني العشيرة كلها   وأفردت إفراد البعير المعبَّد

وقولهم للبعير المطلي بالقطران: معبد؛ لأنه يتذلل لشهوته القطران فلا يمتنع[١]. فعلم مما سبق أن العبادة في اللغة تعني الخضوع، والتذلل، والطاعة، والانقياد؛ لكن هل يصح إطلاق العبادة على كل خضوع، وتذلل، وكل طاعة، وانقياد؟ أم هناك تقييد؟.

يقول الزجاج رحمه الله[٢]: (معنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع)[٣]. فقيد الطاعة بالخضوع.

وقال ابن سيدة رحمه الله[٤]: (وكل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة، طاعة كان للمعبود، أو غير طاعة، وكل طاعة لله على جهة الخضوع، والتذلل فهي عبادة، والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم: كالحياة، والفهم، والسمع، والبصر)[٥].

وقسم الراغب العبادة في اللغة إلى قسمين: عبادة بالتسخير، وعبادة بالاختيار، وهي لأصحاب النطق، وهي التي جاءت الأوامر بها[٦].

العبادة في الشرع: كثرت عبارات العلماء في بيان المعنى الشرعي للعبادة، ولكثرتها فإني سوف أشير إلى بعض تلك التعريفات: -

١- عرفها الراغب الأصفهاني بقوله: (العبادة: فعل اختياري مناف للشهوات البدنية، تصدر عن نية، يراد بها التقرب إلى الله طاعة للشريعة)[٧].

٢- وعرفها البغوي بقوله: (العبادة: الطاعة مع التذلل، والخضوع، وسمي العبد عبدا

---

(١) انظر تهذيب اللغة٢/ ٢٣٤، وأساس البلاغة للزمخشري ص٢٩١، والقاموس المحيط١/ ٣٢٢ مادة (العبد).

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، من صدور أهل العلم في اللغة والنحو والتفسير، يعد أقدم أصحاب المبرد الذين قرأ عليهم، كانت وفاته سنة ٣١١هـ، وقيل غير ذلك. انظر الفهرست لابن النديم١/ ٦٠، ومعجم الأدباء١/ ١٣١، إنباه الرواة للقفطي١/ ١٥٩

(٣) معاني القرآن١/ ٤٨، وانظر تهذيب اللغة٢/ ٢٣٤

(٤) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل، وقيل: أحمد، وقيل: محمد المرسي الأندلسي، الضرير المعروف بابن سيدة، عالم بالنحو واللغة وأشعار العرب وأيامهم ولد بمرسية سنة ٣٩٨هـ، وتوفي بدانة سنة ٤٥٨هـ، وقيل: غير ذلك. انظر وفيات الأعيان١/ ٤٣١، والصلة لابن بشكوال ص٤١٠، وشذرات الذهب ٣/ ٣٠٥

(٥) المخصص لابن سيدة الجزء ٤ السفر ١٣ ص٦٢

(٦) انظر المفردات ص٣١٩

(٧) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ص١٥٧

لذلته، وانقياده)[١].

٣- وعرفها الفخر الرازي بقوله: (فهي فعل، أو قول، أو ترك فعل، أو ترك قول، ويؤتى به لمجرد اعتقاد أن الأمر به عظيم يجب قبوله)[٢].

٤- وعرفها شيخ الإسلام بن تيمية بقوله: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الباطنة، والظاهرة)[٣]. وقال أيضا: (وهي اسم يجمع كمال الحب لله، ونهايته، وكمال الذل لله، ونهايته، فالحب الخلي عن ذل، والذل الخلي عن حب لا يكون عبادة، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين)[٤].

ودلالة العبادة على المحبة ناتجة عن كون آخر مراتب الحب هو التتيم، يقال: تيم الله: أي عبد الله، فالمتيم المعبد لمحبوبه، ومن خضع لإنسان، وهو في الباطن يبغضه لا يسمى عابدا له، ومن أحب شيئا، ولم يخضع له لم يكن عابدا له، كما قد يحب ولده، وصديقه[٥].

٥- وقال العلامة ابن القيم: (العبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل، والخضوع... فمن أحببته ولم تكن خاضعا له لم تكن عابدا له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدا له حتى تكون محبا، خاضعا)[٦]. وقال في موضع آخر: (بنى الرب جل وعلا: ﴿**إياك نعبد**﴾ على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله، ويرضاه، من قول اللسان، والقلب، وعمل القلب، والجوارح. والعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب: ﴿**إياك نعبد**﴾ حقا هم أصحابها)[٧].

٦- وقريب منه تعريف الإمام ابن كثير حيث يقول: (وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة، والخضوع، والخوف)[٨].

٧- وقيل العبادة هي: (الاعتراف بما ينبغي بالقول، والفعل)[٩].

---

(١) شرح السنة ١/ ٥٣ (٢) تفسير الفخر الرازي٢٦/ ٢٣٩

(٣) العبودية ص٣٨

(٤) مجموع الفتاوى١٠/ ١٩، ومنهاج السنة النبوية٣/ ٢٩٠، وانظر جهود شيخ الإسلام ابن تيمة في توضيح توحيد العبادة تأليف د. أحمد الغنيمان رسالة دكتواره غير منشورة ص٣٧٢

(٥) انظر العبودية ص ٤٤، ومدارج السالكين١/ ٧٤، واستنشاق نسيم رياض الأنس لابن رجب ص١٨

(٦) مدارج السالكين١/ ٧٤

(٧) مدارج السالكين١/ ١٠٠، والتفسير القيم ص٩١، ومفتاح دار السعادة١/ ٢٩٣

(٨) تفسير ابن كثير١/ ٢٥ (٩) العلم الشامخ ص٤٨

٨- وقيل: (هي وقفك النفس على مطلوب حكم الله تركا، وعملا، واعتقادا، أو استعمال نفسك له وحده تركا، وعملا، واعتقادا على مقتضى حكمه الطلبي)[١].

٩- وقيل هي: (ما أمر به شرعا، من غير اقتضاء عقلي، ولا اطراد عرفي)[٢].

١٠- وعرفها بعضهم بأنها: (فعل ما أمر الله به، ورسوله، وترك ما نهى الله عنه، ورسوله ابتغاء وجه الله، والدار الآخرة)[٣].

١١- وقال الشيخ ابن عثيمين: (العبادة تطلق على معنيين: على التعبد، وعلى المتعبد به؛ فعلى المعنى الأول يكون معنى العبادة أن يتذلل الإنسان لربه بامتثال أمره، واجتناب نهيه محبة له، وتعظيما، فيكون هذا الوصف عائدا للإنسان العابد، أما على المعنى الثاني: أن العبادة تطلق على معنى المتعبد به، فقد حدها شيخ الإسلام رحمه الله- في تعريف من أحسن ما يكون من التعاريف[٤]. . . فالصلاة إذن عبادة، والزكاة عبادة، والصوم عبادة، والحج عبادة)[٥].

وهناك تعريفات أخرى تدور حول هذه التعريفات التي ذكرنا[٦].

وأحسن هذه التعريفات، وأجلاها، وأعلاها، وأولاها هو تعريف شيخ الإسلام بن تيمية، والبغوي، وابن كثير؛ لأن تلك التعريفات تمثل حقيقة العبادة، وتوضحها بأدق تعبير، وأوجزه، وأشمله، وأحوطه، وجميع أنواع العبادات داخلة في دائرة تلك التعريفات، من أعمال تعبدية، عملية، أو اعتقادية.

فتبين من تعريف العبادة أن الدين كله داخل في مفهوم العبادة، بدون استثناء،

---

(١) معارج الألباب ص١٨٨

(٢) تحفة الطالب والجليس ص١٠٨، وانظر مجموعة التوحيد النجدية ص٢١٢

(٣) تحفة الطالب والجليس ص١٠٨، وانظر تطهير الاعتقاد ص٣٧

(٤) ثم ذكر تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية

(٥) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد ابن عثيمين٧/ ٣٣٠، وانظر فقه العبادات له أيضا ص١٦

(٦) من تلك التعريفات أ- تعريف السيد الجرجاني: (فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربه). التعريفات ص,١٨٩ ب- وتعريف محمد صديق حسن خان: (ما أمر به الشارع من أفعال العباد، وأقوالهم المختصة بجلال الله تعالى وعظمته) الدين الخالص١/ ,٢١٥ جـ-وقال آخرون العبادة: عبارة عما تشترط فيه النية. انظر الأمنية في إدراك النية للقرافي ص,٢٩ وغير ذلك من التعريفات التي لا تخرج عما ذكرنا.



فالأعمال الاعتقادية، واللفظية، والبدنية، والمالية كلها من أنواع العبادة، وأجل ذلك دعاء المسألة فهو مع كونه داخلا في العبادة، وواحدا من أفرادها فهو من أجلِّ تلك الأنواع، ودعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة؛ كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، فهما متلازمان[٧].

(١) انظر العبودية ص ٣٨، وتطهير الاعتقاد ص٤٨، وتيسير العزيز الحميد ص٢١٥، والقواعد الحسان ص١٥٤، ومجموع فتاوي ورسائل الشيخ ابن عثيمين٧/ ٣٣٠، وأدب العبودية ص٨٠

المبحث الثاني

وجه كون العبادة واسطة

تقدم معنا في تعريف العبادة الشرعي أنها (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الباطنة، والظاهرة). وما دامت هذه الأقوال، والأعمال مأمورا بها من قبل الشارع، وما دام الله جل وعلا يحبها، ويرضاها فهي -لا شك- تنفع صاحبها؛ إذا استوفت شرطي قبول العمل؛ وهما:

أ- الإخلاص لله تعالى. ب- ومتابعة الرسول ﷺ.

فبهذين الشرطين يكون العمل صحيحا ومقبولا[١] مصداقا لقوله تعالى: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾[٢]

والله سبحانه وتعالى لم يخلق الخلق عبثا، ولم يتركهم سدى، وإنما خلقهم لمهمة معلومة، وغاية محدودة، ألا وهي عبادته سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[٣]

قال ابن كثير: (أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم)[٤]، وقال الربيع بن أنس: (أي: إلا للعبادة)[٥].

وقيل المعنى: إلا ليعبدني السعداء منهم، ويعصيني الأشقياء، فأطلق المجموع وأراد البعض[٦].

فالعبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية عنده التي خلق الخلق لها، وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾[٧]، وكذلك قال كل رسول لقومه: فقال تعالى مبينا تبليغهم جميعا لهذه المهمة: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾[٨]

وجعل العبادة لازمة لرسوله صلى الله عليه وسلم إلى الموت، كما قال تعالى: ﴿**وَاعْبُدْ**

---

(١) تقدم الكلام حول هذين الشرطين المهمين، والأصلين العظيمين.

(٢) سورة الكهف الآية ١١٠

(٣) سورة الذاريات الآية ٥٦

(٤) تفسير ابن كثير٤/ ٢٥٥، وانظر تفسير القرطبي١٧/ ٥٥

(٥) المرجع نفسه والصفحة عينها.

(٦) انظر تفسير القرطبي١٧/ ٥٥، وتفسير الألوسي٢٧/ ٢٠، وأضواء البيان٧/ ٦٧١

(٧) سورة الأعراف الآية ٥٩

(٨) سورة النحل الآية ٣٦



رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾[1] ، وبها وصف ملائكته، وأنبياءه، فقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ⑲ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾[2] ، وذم المستكبرين عنها بقوله عز وجل: ﴿وقال ربك ادعوني أستجب لكم إن الذي يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾[3] وبما أن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله عز وجل فإن العبد كلما ازداد في ترقي مراتب العبودية ازداد كماله، وعلت درجته عند ربه، ومن زعم أن أحدا من الخلق يسعه الخروج من دائرة العبودية بوجه من الوجوه، أو أنه يكون بذلك الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق، وأضلهم، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ⑨③ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ⑨④ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾[4][5]

ولا ريب أن القلب كلما ازداد حبا لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد القلب عبودية ازداد لربه حبا وتعلقا به دون سواه (فالقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة، وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة، والتوكل، وهي العلة الفاعلة، فالقلب لا يصلح ولا يفلح، ولا ينعم، ولا يسر، ولا يلتذ، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه، وحبه، والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن، ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده، ومحبوبه، ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح، والسرور، واللذة، والنعمة، والسكون، والطمأنينة، وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له، فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك إلا الله، فهو دائما مفتقر إلى حقيقة: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾؛ فإنه لو أعين على حصول كل ما يحبه، ويطلبه، ويشتهيه، ويريده، ولم يحصل على عبادة الله فلن يحصل إلا على الألم، والحسرة، والعذاب)[6].

فالعبادة بأنواعها، وطرقها، ومراتبها هي الطريق الوحيد للوصول إلى مرضاة الله تعالى فإن الله سبحانه وتعالى يأمر عباده بذكره، وشكره، وحسن عبادته فإذا قام العبد وامتثل

---

(١) سورة الحجر الآية ٩٩ (٢) سورة الأنبياء الآية ١٩

(٣) سورة الحجر الآية ١٩

(٤) انظر العبودية ص٨، وأصل الدين عند الأئمة وسلف الأمة لعبد المحسن الشاذلي ص٢٥

(٥) سورة مريم الآيات (٩٣-٩٥).

(٦) العبودية ص١٠٨، وانظر علل الشرائع للصدوق ص١٢، والموافقات للشاطبي١/ ٦٠



هذا الأمر، وأدى هذا الحق أقبل الله عليه، وسمع نجواه، وأجاب دعاءه، وقبل شكواه، يقول ابن رجب: (وهو سبحانه وتعالى جابر المنكسرة قلوبهم من أجله، وهو سبحانه وتعالى يتقرب ممن يناجيه في الصلاة، ويعفر وجهه في التراب بالسجود، كما يتقرب من عباده الداعين له، السائلين له، المستغفرين من ذنوبهم بالأسحار، ويجيب دعاءهم، ويعطيهم سؤالهم؛ ولا جبر لانكسار العبد أعظم من القرب، والإجابة)[١].

ولكي تكون عبادتنا واسطة بيننا وبين ربنا عز وجل في قبول أعمالنا، ولرحمته إيانا ينبغي أن نخلص له الدين، ونتوكل عليه، ونرغب في حوائجنا إليه، ولا نجعل له ندا، لا في محبته، ولا في خشيته، ولا في دعائه، ولا في الاستعانة به، كما ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: (**من مات وهو يدعو ندا من دون الله دخل النار**)[٢].

فالتوسل بذلك إلى حصول ثواب الله ومحبته، ورضوانه نافع؛ فإن الأعمال الصالحة التي أمر بها الرسول ﷺ هي الوسيلة التامة إلى سعادة الدنيا والآخرة[٣]، وتحصيل المطلوب، ونيل المرام إنما يكون بواسطة العبادة؛ ولذا قال الآلوسي: -وهو يبين السر الذي من أجله قدمت العبادة على الاستعانة في الذكر في الفاتحة- (الثالث: أن العبادة مما يتقرب بها العبد إلى الله تعالى. الرابع: أنها وسيلة فتقدم على طلب الحاجة؛ لأنه أدعى للإجابة)[٤]. فقدم الغاية المقصودة على الوسيلة الموصلة[٥].

وبين الإمام ابن كثير أن البشر خلقوا لأجل العبادة، وهي واسطتهم لحصول الخيرات[٦].

ومن الأدلة على أن العبادة واسطة بين العابد وربه، وأن الأعمال الصالحة مقربة إلى الله تعالى، وشافعة للعامل قوله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[٧]

قيل المراد به: جنس الصلاة، أي صل واقترب، وقيل المراد: نفس السجود في

---

(١) الخشوع في الصلاة لابن رجب ص١٤

(٢) رواه البخاري، ٨/ ١٧٦، حديث٤٤٩٧، ومسلم، كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات لا يشرك به شيئا دخل الجنة وأن من مات مشركا دخل النار٢/ ٩٢ واللفظ له.

(٣) انظر قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص٢٣٥ (بتصرف).

(٤) تفسير الآلوسي١/ ٨٨، وانظر تفسير الفخر ٢٨/ ٢٣١

(٥) انظر اقتضاء الصراط المستقيم٢/ ٨٥٦

(٦) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٢٦

(٧) سورة العلق الآية ١٩



الصلاة، فيكون المعنى: اتبع بسجودك قرب المنزلة من ربك تعالى، فتقرب منه بالعبادة، وتحبب إليه بالطاعة[١].

وروى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا من الدعاء**)[٢]؛ لأن السجود (أعظم ما يظهر فيه ذل العبد لربه عز وجل، حيث جعل أشرف أعضائه، وأعزها عليه، وأعلاها عليه حقيقة أوضع ما يمكنه فيضعه في التراب متعفرا، ويتبع ذلك انكسار القلب، وتواضعه، وخشوعه لله عز وجل، ولهذا كان جزاء المؤمن إذا فعل ذلك أن يقربه الله إليه)[٣].

وقد منع الله النار أن تحرق أثر السجود من المؤمن، فهي لا تأتي على جميع أعضائه، إما إكراما من الله لموضع السجود، ولعظم مكانته من الخضوع لله تعالى، وإما لكرامة تلك الصورة التي خلق آدم والبشر عليها، وفضلوا بها على سائر الخلق[٤]، كل ذلك يبين منزلة العبادة، وخصوصا عبادة السجود، ومكانتها عند الله تعالى حيث نفعت صاحبها فباعد الله بين موضع سجوده، وبين النار. قال الحافظ ابن حجر: وجدت بخط أبي -رحمه الله- نظم هذا المعنى في قوله[٥]: -

يا رب أعضاء السجود عتقتها　　من عبدك الجاني وأنت الواقي

والعتق يسري بالغنى يا ذا الغنى　　فامنن على الفاني بعتق الباقي

والتذلل لله تعالى، وإظهار الفاقة إليه، والإلحاح في الدعاء من أهم أنواع العبادة التي تنفع العبد، وتدنيه من رحمة الله. قال العلامة ابن القيم: (قال أبو حفص: أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال، وملازمة السنة في جميع الأفعال، وطلب القوت من وجه حلال)[٦].

وقال أبو عمران الجوني[٧] رحمه الله: (أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: إذا قمت بين يدي فقم مقام العبد الحقير الذليل، وذم نفسك؛ فهي أولى بالذم، وناجني

---

(١) انظر زاد المسير لابن الجوزي٩/ ١٧٩، وتفسير الرازي٣٢/ ٢٦، وتفسير ابن كثير٤/ ٥٦٦، وتفسير القاسمي٧/ ٣٦١　　(٢) رواه مسلم، كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود٤/ ٢٠٠

(٣) الخشوع في الصلاة لابن رجب ص٢٧　　(٤) انظر فتح الباري١١/ ٤٥٦

(٥) المرجع نفسه١١/ ٤٥٧　　(٦) مدارج السالكين٢/ ٤٤١

(٧) هو أبو عمران موسى بن سهل بن عبدالحميد الجويني البصري، نزيل بغداد، قال عنه الذهبي: وثقه الدارقطني، وكان من الحفاظ، توفي سنة ٣٠٧هـ. انظر سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٦١، وشذرات الذهب ٢/ ٢٥١



بقلب وجل، ولسان صادق)[١].

ومن الأدلة -أيضا كذلك- على أن العبادة واسطة بين العبد، وخالقه، وأن الطاعة محبوبة له، ومقربة إليه: ما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله تعالى قال: «**من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**») الحديث[٢].

فالشاهد من هذا الحديث القدسي العظيم، قوله تعالى: (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته . . . إلخ) قسم أولياءه المقربين إلى قسمين: **أحدهما:** من تقرب إليه بأداء الفرائض، ويشمل ذلك فعل الواجبات، وترك المحرمات. **والثاني:** من تقرب إليه بعد الفرائض بالنوافل، فظهر بذلك أنه لا يوجد طريق يوصل إلى التقرب إلى الله تعالى وولايته، ومحبته سوى طاعته التي شرعها على لسان رسوله ﷺ، فمن ادعى ولاية الله، والتقرب إليه، ومحبته بغير هذه الطريق فسوف يبدو كاذبا في دعواه، كما كان المشركون يتقربون إلى الله تعالى بعبادة من يعبدونه من دون الله، من الأصنام، والأوثان، كما حكى الله ذلك عنهم، فقال تعالى: ﴿**ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾[٣]

فأولياء الله على درجتين: إحداهما المتقربون إليه بأداء الفرائض وهذه درجة المقتصدين، أصحاب اليمين، وأداء الفرائض أقل الأعمال، كما قال عمر رضي الله عنه: (أفضل الأعمال أداء ما افترض الله، والورع عما حرم الله، وصدق النية فيما عند الله عز وجل)[٤]. **والدرجة الثانية:** درجة السابقين المقربين: (وهم الذين تقربوا إلى الله -بعد الفرائض- بالاجتهاد في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات بالورع، وذلك يوجب للعبد محبة، كما قال: (**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**) فمن أحبه الله رزقه محبته، وطاعته، والانشغال بذكره، وخدمته، فأوجب له ذلك القرب منه،

---

(١) الخشوع في الصلاة لابن رجب ص٢٦

(٢) صحيح البخاري مع الفتح كتاب الرقاق باب التواضع ١١/ ٣٤٠ حديث ٦٥٠٢

(٣) سورة الزمر الآية ١٠

(٤) جامع العلوم والحكم ص٣٦٠



والزلفى لديه، والحُظوة عنده)[١].

وقوله تعالى: (**ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذبي لأعيذنه**) يعني: (أن هذا المحبوب المقرب له عند الله منزلة خاصة تقتضي أنه إذا سأل الله شيئا أعطاه إياه، وإن استعاذ به من شيء أعاذه منه، وإن دعاه أجابه فيصير مجاب الدعوة لكرامته على ربه عز وجل)[٢].

والقرآن كلام الله، ودوام قراءته، وتدبره، والانشغال به، وتطبيقه في كل صغيرة وكبيرة من حياة المسلم عبادة مقبولة، وواسطة شرعية تدني العبد من رحمة الله تعالى، وتقربه إليه، كما روى أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (**اقرأوا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه**)[٣]. وقال عليه الصلاة والسلام: (إن سورة في كتاب الله، ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[٤][٥]، وفي رواية: (سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ**﴾[٦]

وعن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعا: (**ما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه**)[٧]. وقال خباب بن الأرت رضي الله عنه لرجل: (**تقرب إلى الله ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه**)[٨] يريد بذلك القرآن الكريم؛ إذ لا شيء عند المحبين أحلى من كلام محبوبهم، فهو لذة قلوبهم، وغاية مطلوبهم[٩].

---

(١) المرجع نفسه والموضع بذاته. (٢) المرجع نفسه ص٣٦٥

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة القرآن وفضل سورة البقرة٦/ ٨٩

(٤) سورة الملك الآية١

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند٢/ ٢٩٩، وابن ماجه في سننه حديث ٣٧٨٦، وأبوداود في سننه حديث١٤، والترمذي في سننه٥/ ١٦٤، وقال حديث حسن، والحاكم في المستدرك٢/ ٤٩٧، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٦) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد٧/ ١٢٧، وقال: رواه الطبراني في الصغير، والأوسط ورجاله رجال الصحيح، وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح الجامع برقم ٣٦٤٤

(٧) رواه الترمذي٥/ ١٧٦، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي إسناده بكر بن خنيس وقد تكلم فيه ابن المبارك، وتركه في آخر أمره، ووصله الحاكم في المستدرك٢/ ٤٤١، وله شاهد آخر في المستدرك أيضا١/ ٥٥٥

(٨) أخرجه الحاكم في المستدرك٢/ ٤٤١، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال: صحيح.

(٩) انظر جامع العلوم والحكم ص٣٦٣



وروى الإمام أحمد بسنده في كتاب الزهد عن فروة بن نوفل الأشجعي[(١)] رحمه الله قال: (كنت جارا لخباب فخرجت يوما من المسجد، وهو آخذ بيدي فقال: يا هناه: تقرب إلى الله عز وجل بما استطعت؛ فإنك لن تتقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه)[(٢)].

وأعظم فرائض البدن التي تقرب إلى الله تعالى وتوجب الرضوان، والرحمة الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[(٣)]، فهي: (معقل المسلم، وملجأه الذي يأوي إليه، والعروة الوثقى التي يعتصم بها، والحبل الممدود بينه وبين ربه الذي يتعلق به، وغذاء الروح وبلسم الجروح، ودواء النفوس، وإغاثة الملهوف، وأمان الخائف، وقوة الضعيف، وسلاح الأعزل)[(٤)].

فالصلاة صورة من الصور التي يقوم بها المسلم لعبادة خالقه وهي صلة بين العبد وربه وهي قرة العين وراحة الضمير، وطمأنينة النفس، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ(**وجعل قرة عيني في الصلاة**)[(٥)].

فالصلاة من أفضل العبادات البدنية التي تقرب العبد من الله تعالى (حيث يقف المصلي في رحاب الله ليس بينه وبين الله واسطة، فيشعر بالقرب من الله، ويشعر بمعية الله له، فتمتلئ جوارحه بالأمن، والطمأنينة، والثقة، واليقين، فيخشع راكعا، ويخشع ساجدا، يستمد العون، والتأييد، قال الله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾[(٦)] [(٧)]

وقال الحافظ ابن حجر في معرض بيانه لعظيم قدر الصلاة وأهميتها في حياة المؤمن: (وفي الحديث عظم قدر الصلاة؛ فإنه ينشأ عنها محبة الله للعبد الذي يتقرب بها، وذلك لأنها محل المناجاة، والقربة، ولا واسطة فيها بين العبد وربه، ولا شيء أقر لعين العبد

---

(١) هو فروة بن نوفي الأشجعي، من الثالثة، الكوفي، قيل: إن له صحبة، ورجح ابن عبدالبر، والحافظ ابن حجر أن صحبته غير صحيحة، بل هو من الخوارج الذين خرجوا على المغيرة بن شعبة في خلافة معاوية، فقتله المغيرة مع بقية الخوارج سنة ٤٥هـ. انظر: تهذيب الكمال٢٣/ ١٧٩، تهذيب التهذيب٨/ ٢٣٢، وتقريب التهذيب ص٤٤٥

(٢) الزهد للإمام أحمد ص٦٢

(٣) سورة العلق الآية ١٩

(٤) الأركان الأربعة للندوي ص٣٠

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند٣/ ١٢٨، والنسائي في سننه٧/ ٦١، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح١١/ ٣٤٥: أخرجه النسائي وغيره بسند صحيح، وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح الجامع ١/ ٥٩٩ برقم٣١٢٤

(٦) سورة المؤمنون الآيتان (١-٢).

(٧) الصلاة للطيار ص١٨، وانظر حكمة التشريع وفلسفته١/ ١١٣



منها)[١].

وكيف لا تكون عبادة هذا شأنها واسطة بين العبد وربه، وهي مشتملة على السجود الذي يخر فيه المؤمن متذللا لبارئه خاشعا لخالقه، ومعفرا لوجهه تاركا الدنيا وراء ظهره، معرضا عن كل ما سوى الله تعالى؟!، وقد تقدم الحديث الصحيح الذي رواه أبوهريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**)[٢]، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: مر رسول الله ﷺ وأنا معه، وابو بكر على عبد الله بن مسعود، وهو يقرأ، قال، فسمع قراءته، ثم ركع عبد الله، وسجد، قال: فقال رسول الله ﷺ (**سل تعطه، سل تعطه...**) الحديث[٣].

فالعبادة متى ما خلصت لله تعالى، وكانت على منهاج سنة رسول الله ﷺ فإنها تكون مقبولة، وتنفع صاحبها، فقد ورد أن صلاة العبد إذا صلاها بقلب حاضر، خاشع كانت قرة عينيه، وصعدت إلى الخالق سبحانه وتعالى، ولها نور، وبرهان، حتى يستقبل بها الرحمن عز وجل فتشفع لصاحبها[٤].

وقد صور لنا بعض علماء السلف تصويرا مؤثرا للصلاة التامة التي تقرب العبد من ربه عز وجل، وفيه دليل على أن العبادة متى خلصت للحق تبارك وتعالى نفعت وكانت واسطة شرعية صحيحة بين العبد وربه تعالى، فعند ما سئل حاتم الأصم[٥] **رحمه الله عن صلاته قال**: (إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه، فأقعد حتى تجتمع جوارحي، ثم أقوم إلى صلاتي، وأجعل الكعبة بين حاجبيّ، والصراط تحت قدمي، والجنة عن يميني، والنار عن شمالي، وملك الموت ورائي، وأظنها آخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجاء والخوف، وأكبر تكبيرا بتحقيق، وأقرأ قراءة بترتيل، وأركع ركوعا بتواضع، وأسجد سجودا بتخشع، وأقعد على الورك الأيسر، وأفرش ظهر

---

(١) فتح الباري١١/ ٣٤٥ (٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند١/ ٣٨، قال محققه أحمد شاكر: إسناده صحيح. انظر المسند بتحقيق أحمد شاكر١/ ٢٧٠

(٤) انظر الصلاة ومقاصدها للحكيم الترمذي ص٤١، والوابل الصيب ص٢٥، والخشوع في الصلاة لسليم الهلالي ص٤١، وردود على أباطيل لمحمد الحامد١/ ٣٤٢

(٥) هو أبو عبدالرحمن حاتم بن علوان، المعروف بالأصم، من أكابر زهاد الصوفية، كانت وفاته سنة ٢٣٧هـ. انظر الرسالة القشيرية ص٣٩٣، وشذرات الذهب٢/ ٨٧

قدمها، وأنصب القدم اليمنى على الإبهام، وأتبعها الإخلاص، ثم لا أدري أقبلت مني أم لا؟!)[١]. ولقد أحسن القائل[٢]: -

ألا في الصلاة الخير والفضل أجمع ... لأن بها الآراب[٣] لله تخضع

فمن قام للتكبير لاقته رحمة ... وكان كعبد باب مولاه يقرع

وصار لرب العرش حين صلاته ... نجيا فطوباه لو كان يخشع

إذاً فالعبادة بأنواعها، وطرقها، ومراتبها هي الطريق الوحيد للوصول إلى الله تعالى، واللحاق بالرسول ﷺ وصحبه الكرام رضوان الله عليهم[٤].

ومن الأسباب التي تستجلب بها محبة رب العالمين، وتكون سببا في قبول أعمال المتقين، وهي داخلة في جملة العبادات التي أمر الله تعالى بها: معرفة الله، وتوحيده، ومحبته، وطاعته.

قال عتبة الغلام[٥] رحمه الله قال: (من عرف الله تعالى أحبه، ومن أحب الله تعالى أطاعه، ومن أطاع الله تعالى أكرمه، ومن أكرمه الله تعالى أسكنه في جواره، ومن أسكنه في جواره فطوباه، وطوباه، وطوباه)[٦].

فبالاعتصام بالله تعالى، وطاعته، ومراقبة أمره يقرب العبد من ربه تعالى، والرب يقرب من عبده، ويصير العبد محبوبا، وترتفع الوسائط الحائلة بين العبد وبين القرب المطلوب الذي لا تقر عيون عابديه وأوليائه إلا به[٧]؛ ولهذا قال الإمام ابن كثير في تفسير قوله الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾[٨] قيل معناه: من سلك طريق الهدى وصل إلى الله، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾[٩][١٠]

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ١/ ١٣٨، والخشوع في الصلاة لابن رجب ص٢٩

(٢) انظر معالم غائبة عن حياة المسلمين تأليف ربيع بن محمد السعودي ص٦٤

(٣) الآراب: الأعضاء. انظر مختار الصحاح ص١٢، مادة (أرب).

(٤) انظر تفسير الآلوسي ٢١/ ١٦٧، والأصل الجامع لعبادة الله للشيخ محمد بن عبد الوهاب ضمن مؤلفات الشيخ قسم العقيدة ص٦٨، والعبادة والعباد ص٤٥٧

(٥) هو عتبة بن أبان الغلام البصري الزاهد، الخاشع، كان يشبه في حزنه الحسن البصري، استشهد غازيا. انظر: حلية الأولياء ٦/ ٢٣٠، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٦٢

(٦) استنشاق نسيم الأنس لابن رجب ص٤٧

(٧) انظر مدارج السالكين ١/ ٤٦٦، وبحر الدموع لابن الجوزي ص١٨، والخشوع وأثره في بناء الأمة ص٨٥

(٨) سورة الليل الآية ١٢

(٩) سورة النحل الآية ٩

(١٠) انظر تفسير ابن كثير ٤/ ٥٥٦

فقلب الإنسان دائم الشعور بالحاجة إلى الله، وهذا الشعور الأصيل الصادق لا يملأ فراغه شيء في الوجود إلا حسن الصلة برب الوجود، وهذا ما تقوم به العبادة إذا أديت على وجهها، ولأن العبادة حق الله تعالى، فكيف يسوغ للمخلوق أن يطلب حاجته بتضييع حق الله تعالى.

أما فعل الطاعات، فهو موجب لاستجابة الدعاء، ولهذا لما توسل أصحاب الغار[١] الذين انطبقت عليهم الصخرة بأعمالهم الصالحة وعباداتهم التي أخلصوا فيها لله تعالى، متعبدين لله تعالى داعين الله بها أجيبت دعواتهم، قال وهب بن منبه[١] رحمه الله: (مثل الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر)[٢]. وقال الربيع بن أنس: (في الحكمة: أن العمل الصالح يرفع ربه إذا عثر)[٣].

وكان الحسن البصري يقول: (تَفَقَّد الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، والقراءة، والذكر، فإن وجدت ذلك فامض، وأبشر، وإلا فاعلم أن بابك مغلق فعالج فتحه)[٤].

وأعمال العباد تناضل عن صاحبها، وتدافع عنه، فإذا جاءه العذاب من جهة رجليه جاءه قيام الليل يدفع عنه، وإذا جاءه من جهة يديه جاءته الصدقة تشفع له عند ربه، وتدفع عنه، وقل مثل ذلك في بقية أنواع العبادات، وأصناف القربات[٦]. فقد روي عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول ﷺ فقال: (**إني رأيت البارحة عجبا، رأيت رجلا من أمتي قد احتوشته[٧] ملائكة العذاب فجاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك[٨]، ورأيت رجلا من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه صلاته فاستنقذته من ذلك، ورأيت رجلا من أمتي احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر الله فخلصه منهم، ورأيت رجلا من أمتي يلهث عطشا، فجاءه**

---

(١) سيأتي الحديث عن أصحاب الغار في المبحث القادم (صورة الواسطة في العمل الصالح)

(٢) هو أبو عبدالله وهب بن منبه الصنعاني اليماني من أحبار التابعين، صاحب القصص، كثير النقل من الإسرائيليات، كان ثقة صادقا، توفي سنة ٢١٤هـ. انظر ميزان الاعتدال٤/ ٣٥٢، وتقريب التهذيب ٢/ ٣٣٩

(٣) الزهد لابن المبارك ص١٠٩، وأورده الطرطوشي في كتاب الدعاء المأثور ص٥٩، وانظر جامع العلوم والحكم ص١٠٦، والداعي والمدعي في علم الدعاء لابن عبد الهادي تحقيق عبد الباسط إبراهيم رسالة ماجستير غير منشورة ص٣١٨

(٤) الزهد للإمام أحمد ص١٥٩

(٥) الزهد للحسن البصري ص٧٩

(٦) انظر إتحاف السادة المتقين للزبيدي٨/ ١١٩

(٧) أحاطوا به، يقال: احتوش القوم بالصيد إذا أحاطوا به من كل جانب. انظر مختار الصحاح ص١٦٢ مادة(ح-و-ش).

(٨) قال المناوي: يحتمل أن هذه الأعمال قامت بهذه الأفعال على الحقيقة حيث يجسد الله تعالى الثواب ويخلق فيه حياة ونطقا، والقدرة صالحة لذلك، ويحتمل أنه مضاف إلى الملك الموكل بكتابة الأعمال. انظر فيض القدير٣/ ٢١

صيام رمضان، فسقاه، ورأيت رجلا من أمتي من بين يديه ظلمة، ومن خلفه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن شماله ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، فجاءته حجته، وعمرته فاستخرجاه من الظلمة، ورأيت رجلا من أمتي جاء ملك الموت ليقبض روحه، فجاءه بره لوالديه، فرده عنه، ورأيت رجلا من أمتي يكلم المؤمنين، ولا يكلمونه، فجاءته صلة الرحم فقالت: إن هذا كان واصلا لرحمه فكلِّمهم وكلَّموه، وصار معهم، ورأيت رجلا من أمتي يأتي النبيين وهم حلق، كلما مر على حلقة طرد، فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذ بيده فأجلسه إلى جنبي، ورأيت رجلا من أمتي يتقي وهج[1] النار بيديه عن وجهه، فجاءته صدقته فصارت ظلا على رأسه، وسترا عن وجهه، ورأيت رجلا من أمتي جاءته زبانية العذاب فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فاستنقذه من ذلك، ورأيت رجلا من أمتي جاثيا على ركبتيه، وبينه وبين الله عز وجل حجاب، فجاءه حسن خلقه، فأخذ بيده، فأدخله على الله عز وجل، ورأيت رجلا من أمتي هوى في النار، فجاءته دموعه اللتي بكى بها في الدنيا من خشية الله، فأخرجته من النار، ورأيت رجلا من أمتي قد هوت صحيفته إلى شماله، فجاءه خوفه من الله تعالى، فأخذ صحيفته، فجعلها بيمينه، ورأيت رجلا من أمتي قد خف ميزانه، فجاءه أفراطه[2] فثقلوا ميزانه، ورأيت رجلا من أمتي على شفير[3] جهنم، فجاءه وجله من الله عزوجل فاستنقذه من ذلك، ورأيت رجلا من أمتي يرعد كما ترعد السَّعفة[4] فجاءه حسن ظنه بالله تعالى، فسكن رعدته، ورأيت رجلا من أمتي يزحف على الصراط مرة، ويحبو مرة، فجاءته صلاته علي فأخذت بيده، فأقامته على الصراط حتى جاز، ورأيت رجلا من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة، فغلقت الأبواب دونه، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله، فأخذت بيده، فأدخلته الجنة)[5].

---

(١) الوَهَج فتح الهاء: حر النار. انظر مختار الصحاح ص٧٣٨ مادة (وهج).

(٢) الأفراط: جمع فرط بالتحريك، وهو الولد الذي مات صغيرا. انظر مختار الصحاح ص٤٩٩ مادة (فرط).

(٣) الشفير: هو الحافة، والشاطئ، والوادي. انظر مختار الصحاح ص٣٤١ مادة(ش-ف-ر).

(٤) السعفة: غصن النخل. انظر مختار الصحاح ص٣٠٠ مادة (سعف).

(٥) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد٧/ ١٧٩، وقال: رواه الطبراني في الكبير بإسنادين: أحدهما فيه سليمان بن أحمد الواسطي. والثاني: فيه خالد بن عبد الرحمن المخزومي، وكلاهما ضعيف. وأورده السيوطي في الجامع الكبير١/ ٣١٧، ورمز له بالضعف، كما ضعفه الشيخ الألباني. انظر ضعيف الجامع الصغير وزيادته ص٣٠٠ برقم٢٠٨٦

ووجدت له طريقا ليس فيها هذان المتكلم فيهما، ذكرها أسلم بن سهل الرزاز الواسطي المعروف ببحشل. انظر تاريخ واسط لبحشل٢/ ١٦٩، وقد قال الإمام الذهبي عن بحشل هذا: (هو الحافظ الصدوق المحدث، مؤرخ مدينة واسط، وصاحب التصانيف) سير أعلام النبلاء١٣/ ٥٥٣، وتذكرة الحفاظ٢/ ٦٦٤ =



لا ريب أن العبادات المشروعة الظاهرة، والباطنة، كلها صالحة لأن تكون واسطة بين العباد وربهم؛ بشرط أن تكون تلك العبادات صالحة، وخالصة، ومقبولة لدى المولى الكريم. يقول الإمام القرطبي: (هذا لمن أخلص في عمله، وصدق الله في قوله، وفعله،

= وقال ابن القيم: هذا حديث عظيم، شريف القدر ينبغي لكل مسلم أن يحفظه لعموم فائدته، وحاجة الخلق إليه، وقد رواه الحافظ أبو موسى المديني في كتاب الترغيب في الخصال المنجية، والترهيب من الخلال المردية) وبنى كتابه عليه وجعله شرحا له، وقال: هذا حديث حسن جدا، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يعظم شأن هذا الحديث، وبلغني عنه أنه كان يقول: شواهد الصحة بادية عليه. انظر الوابل الصيب ص, ١٦٩

وأورده السخاوي في القول البديع ص١٢٤، وقال: أخرجه الطبراني في الكبير، والديلمي في مسند الفردوس، وابن شاذان في مشيخته، وفي سنده علي بن زيد بن جدعان وهو مختلف فيه، ورواه الطبراني من غير طريقه بسند ضعيف، وقال الرشيد العطارفي رواية أبي موسى المديني هذه أحسن طرقة. وأخرجه التميمي وغيره مطولا، وكذا الباغيان في فوائده عن أبي عمرو بن منده بسنده إلى مجاهد عن عبد الرحمن بن سمرة، وقال: غريب. وأخرجه القاضي أبو يعلى في كتاب إبطال التأويلات لأخبار الصفات. وأخرجه الحافظ بن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك٢/ ٤٠٣ برقم٥٢٦، وسكت عنه.

وقال القرطبي: هذا حديث عظيم ذكر فيه أعمالا خاصة تنجي من أهوال خاصة لكنه فيمن أخلص لله تعالى في عمله، وصدق الله في قوله، وفعله، وأحسن نيته. انظر التذكرة ص, ٤٠٤

وقال المناوي: قال جمع من العلماء: هذا الحديث أصل من أصول الإسلام فينبغي حفظه، واستحضاره، والعمل عليه مع الإخلاص؛ فإنه الذي فيه الخلاص، وقال ابن القيم: كان شيخنا يعظم أمر هذا الحديث، ويفخم شأنه، ويعجب به، ويقول: أصول السنة تشهد له، ورونق كلام النبوة يلوح عليه. ثم قال المناوي: وهو من أحسن الأحاديث الطوال، وليس من دأب المصنف إيرادها في هذا الكتاب، لكنه لكثرة فوائده، وتنوع فرائده، وأخذه بالقلوب، اقتحم مخالفة طريقه فأورده إعجابا بحسنه، وحرصا على النفع به؛ ولهذا لما أورده الديلمي في الفردوس استشعر الاعتراض على نفسه فاعتذر بنحو ذلك. انظر فيض القدير٣/ , ٢٥

ثم نقل المناوي عن ابن الجوزي أنه نقل الحديث من طريقي الضعيف، وبعد أن حكم بضعفه علق عليه بقوله: (لكن قال ابن تيمية: أصول السنة تشهد له، وإذا اتتبعت متفرقات شواهده رأيت منها كثيرا) فيض القدير٣/ ٢٦

ووجدت لهذا الحديث شاهدا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن الميت يسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين، فإن كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصوم عن يمينه، وكانت الزكاة عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة، والصلاة، والصلة، والمعروف، والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه، فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، ويؤتى عن يمينه، فيقول الصوم: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يساره، فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ويؤتى من قبل رجليه، فيقول فعل الخيرات: ما قبلي مدخل. فيقال له: اقعد، فيقعد، وتمثل له الشمس قد دنت للغروب. . .) الحديث أخرجه عبد الرزاق في المصنف برقم ٦٧٠٣، وابن أبي شيبة في المصنف٣/ ٣٨٣، والحاكم في المستدرك١/ ٣٧٩، وصححه، ووافقه الذهبي، وأورده البيهقي في الاعتقاد ص١٠٨، والمنذري في الترغيب والترهيب٦/ , ١٦٨ قال العراقي: وصححه الإمام أحمد. انظر تخريج أحاديث إحياء علوم الدين٤/ ١٨٧٤ برقم٢٩٧٦

وأحسن نيته له في سره، وجهره، فهو الذي تكون أعماله حجة له، ودافعة عنه)[١].

وإذا كان القصد من التوسط هو الوصول إلى مرضاة الله تعالى، ومغفرته، والقرب منه، وحصول صنوف الخيرات بسبب ذلك؛ فإن العبادة الصالحة، والعمل الحسن، والطاعة المقبولة تقرب العبد من الله تعالى، وتكون سببا في مرضاته، ومغفرته، وتحقيق كل سعادة، وخير، فلا حاجة إلى توسيط غير العبادة، والحالة هذه؛ إذ العبادة صلة مؤكدة، والتوسيط توعير كما قيل[٢].

إذا ما أتيت الأمر من غير بابه ضللت وإن تقصد إلى الباب تهتدي

فمن لم تكن عبادته خالصة، صالحة، أو دخلها ما يفسدها من المفسدات؛ كالرياء، أوالعجب، أومخالفة السنة؛ فإن هذه العبادة لا تصلح أن تكون واسطة بين العبد وربه؛ لأنها غير مقبولة، فهي غير موصلة، وغير شافعة؛ لأن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم. يقول العلامة ابن القيم: (والمقبول من العمل قسمان: أحدهما: أن يصلي العبد، ويعمل سائر الطاعات، وقلبه متعلق بالله عز وجل، ذاكرا لله عز وجل على الدوام، فأعمال هذا العبد تعرض على الله عز وجل حتى تقف قبالته فينظر الله عز وجل إليها؛ فإذا نظر إليها رآها خالصة لوجهه مرضية، وقد صدرت عن قلب سليم، مخلص، محب لله عز وجل، متقرب إليه، أحبها، ورضيها، وقبلها)[٣].

ثم ذكر القسم الثاني: وهي الأعمال التي يعملها العبد على العادة، والغفلة[٤].

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص١٦١

(٢) هذا البيت أورده الماوردي في أدب الوزير المعروف بقوانين الوزارة ص١٩ .

(٣) الوابل الصيب ص٣٩، وانظر الصلاة ومقاصدها للحكيم الترمذي ص٣٤

(٤) انظر المرجع نفسه، والموضع بعينه.



المبحث الثالث

صورة الواسطة في الدعاء

تقدم معنا في المبحث السابق أن العبادة الشرعية الصحيحة، والعمل الحسن المقبول واسطة بين العابد وربه عز وجل، وأن جميع العبادات الظاهرة والباطنة التي ثبت بالشرع أن الله تعالى أمر بها في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ صالحة لأن تكون واسطة صحيحة، ولما كان الدعاء من جملة تلك العبادات؛ بل هو رأسها وأساسها، كما ثبت أنه هو العبادة، أو مخها، وسيأتي بيانه، لما كان الأمر كذلك والدعاء، بهذه المنزلة فإني أردت أن يكون الحديث عنه في هذا المبحث.

فأقول: الدعاء في اللغة: يأتي لعدة معاني أشهرها: الطلب، والسئوال، والعبادة، والرغبة إلى الله تعالى[١].

وأما في الشرع فهو: (الرغبة إلى الله تعالى، والتوجه إليه في تحقيق المطلوب، أو دفع المكروه، والابتهال إليه في ذلك، إما بالسؤال، أو بالخضوع، والتذلل، والرجاء، والخوف، والطمع)[٢].

والدعاء من أهم أنواع العبادة، بل هو العبادة نفسها، كما ثبت في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (الدعاء: هو العبادة)[٣]، وفي رواية (الدعاء مخ العبادة)[٤].

ولأهمية الدعاء في دين الإسلام فقد أمر الله تعالى به، وندب عباده إليه في كثير من آيات الكتاب العزيز، فقال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي

---

(١) انظر المخصص لابن سيدة١٣/ ٨٨، وتهذيب اللغة للأزهري٣/ ١١٩ مادة (دعا)، والتعريفات ص١٠٤، ولسان العرب٤/ ٣٥٩ مادة (دعا).

(٢) الدعاء ومنزلته في العقيدة الإسلامية١/ ٤٨، وانظر شأن الدعاء للخطابي ص٤، ومجموع الفتاوى١٥/ ١٠، وبدائع الفوائد٣/ ٢، ومعارج الألباب ص١٩٦

(٣) رواه أبوداود٢/ ٧٦، والبخاري في الأدب المفرد ص٢٠١، والترمذي في سننه٥/ ٣٧٤، وابن ماجه٢/ ١٢٥٨، والإمام أحمد في المسند٤/ ٢٦٧، وابن حبان في صحيحه٣/ ١٧٢ حديث٨٩٠، والحاكم في المستدرك١/ ٤٩٠، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٤) رواه الترمذي في سننه٥/ ٤٥٦، وفي إسناده ابن لهيعة، وأخرجه الطبراني في الأوسط١/ ١٨٢، وقال لم يرو هذا الحديث عن أبان إلا عبيد الله تفرد به ابن لهيعة، كما أخرجه أيضا الطبراني في كتابه الدعاء٢/ ٧٨٩ حديث٨



سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[١]

قال الإمام ابن كثير في معنى الآية: (هذا من فضله تبارك وتعالى، وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة)[٢]. وقيل معنى الآية: اعبدوني أثبكم على عبادتكم. وقيل: بل المعنى: اسألوني أعطكم، ولا منافاة بين القولين؛ لأن دعاء الله من أنواع العبادة[٣].

وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[٤]، وقال -أيضا-: ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾[٧]، وقال تعالى -أيضا-: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[٨]

قيل في سبب نزول هذه الآية: إن الحسن البصري قال: سببها أن قوما قالوا للنبي ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فنزلت الآية، وقيل: غير ذلك[٩]، ومعنى الآية: وإذا سألك الناس عن المعبود فأخبرهم أنه قريب يثيب على الطاعات، ويجيب الداعي، ويعلم ما يفعله العبد من العبادات[١٠].

قال بعضهم: والسر في أن الله تعالى لم يقل: فقل إني قريب في الآية، كما هي عادة أساليب القرآن في الجواب عن الأسئلة الموجهة للرسول ﷺ السر فيه: الإشارة إلى نفي الواسطة في الدعاء؛ لأن الدعاء نفسه واسطة مقبولة، فلم يجعل الله واسطة في الجواب على السؤال، فكيف بواسطة في الدعاء نفسه؟[١١]، وقيل لبعضهم: ادع لي، فقال:

---

(١) سورة غافر الآية ٦٠
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٩٢.
(٣) انظر أضواء البيان ٧/ ٦٢
(٤) سورة الأعراف الآية ٥٥
(٥) سورة غافر الآية ٦١
(٦) سورة الأنبياء الآيتان (٨٣-٨٤).
(٧) سورة الفرقان الآية ٧٧
(٨) سورة البقرة الآية ١٨٦
(٩) انظر تفسير القرطبي ٢/ ٣٠٨، وأضواء البيان ١/ ٩٨
(١٠) انظر تفسير القرطبي ٢/ ٣٠٨
(١١) انظر تفسير الفخر الرازي ٥/ ٩٨، وإتحاف السادة المتقين ٥/ ٢٨، والدعاء ومنزلته في العقيدة الإسلامية ٢/ ٨٤٤



(كفاك من الأجنبية أن تجعل بينك وبينه[1] واسطة)[2].

وكان خالد الربعي[3] رحمه الله يقول: عجبت لهذه الأمة في: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ حيث أمرهم بالدعاء، وتكفل بالإجابة، ولم يشترط بين الأمرين شرطا، كما اشترط الإخلاص في قوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[4]، وكانت الأمم تفزع إلى أنبيائها في حوائجهم حتى تسأل الأنبياء لهم ذلك[5] إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي تحث المؤمنين على الدعاء، وتبين منزلته عند الله تعالى ومكانته من العقيدة الإسلامية.

وتطفح السنة بالأحاديث الصحيحة في شأن الدعاء وفيها بيان قرب العبد من ربه عز وجل حال الدعاء، وأنه لا يحتاج -والحالة تلك- إلى واسطة بينه وبين ربه تبارك وتعالى، فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد؛ فأكثروا من الدعاء**)[6]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟**)[7].

قال الحافظ ابن حجر في شرحه لهذا الحديث: اقتصر في هذا الحديث على هذه المطالب الثلاثة، وهي الدعاء، والسؤال، والاستغفار، والسر في ذلك: أن المطلوب إما أن يكون لدفع المضار، أو جلب المسار، وذلك إما ديني، وإما دنيوي فيحصل الأول بالاستغفار، ويحصل الثاني بالسؤال، ويحصل الثالث بالدعاء[8].

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل، أنه قال: (**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر**

---

(١) أي بينك وبين الله تعالى. (٢) الرسالة القشيرية ص٢٧٠

(٣) هو خالد بن تباب الرِّبعي الأحدب، ابن أخي صفوان بن محرز، بصري، روى عن شهر بن حوشب، قال الرازي: ترك أبو زرعة خالد الربعي ولم يقرأ علينا حديثه، انظر: الجرح والتعديل٣/ ٣٢٢، ولسان الميزان ٢/ ٤٣١

(٤) سورة غافر الآية ١٤

(٥) انظر تفسير القرطبي٢/ ٣٠٩، وتفسير ابن كثير٤/ ٩٢ (٦) سبق تخريجه.

(٧) رواه البخاري، كتاب التهجد باب الدعاء والصلاة من آخر الليل٣/ ٢٩ حديث ١١٤٥، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وصلاة الليل٦/ ٣٦ (٨) انظر فتح الباري٣/ ٣١

الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم....) الحديث[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا يدعوني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**)[٢]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**ليس شيء أكرم على الله من الدعاء**)[٣]. وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**إن ربكم حيي كريم يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه يدعوه أن يردهما صفرا ليس فيهما شيء**)[٤].

فتبين من مجموع هذه الأحاديث أن الله سبحانه وتعالى أمر بالدعاء، وجعله واسطة الرجاء، فكل خلقه يفزعون في حوائجهم إليه، ويعولون عند الحوادث والكوارث عليه، وحقيقة الدعاء: إظهار افتقار العبد الضعيف إلى مولاه الغني الكريم والتبرؤ من الحول، والقوة، وفيه تتجلى سمة العبودية، ويستشعر العبد ذلته، وضعفه البشري، وهو مظهر الثناء على الله عز وجل، وإضافة الجود، والكرم إليه[٥].

والدعاء داخل في المقدورات العادية[٦]، وهو سلاح المؤمن الذي ينبغي أن لا يفارقه، وترسه الذي يتترس به، وجنته التي تحميه، والله سبحانه وتعالى قريب يسمع دعاء الداعين، ويرى أحوال عباده المقربين الخاضعين لعز ربوبيته، والمنكسرين لألوهيته، والمتلذذين بمقام عبوديته، وهو سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى واسطة تبلغه، وترفع الأمر إليه، أو تؤثر في إرادته، أو تعينه، أو تنوب عنه؛ بل دعاء العبد ربه ينفع بنفسه، وإجابته ما

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم١٦/ ١٣٢

(٢) رواه البخاري، واللفظ له، كتاب التوحيد باب قول الله: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ ١٣/ ٣٨٤، حديث٧٤٠٥، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى١٧/ ١٢

(٣) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب٥/ ٤٥٥، وابن ماجه٢/ ٢٥٨، وابن حبان انظر موارد الظمآن حديث ٢٣٩٧، والحاكم في المستدرك١/ ٣٩٠، وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب٥/ ٥٥٧، وابن ماجه٢/ ١٢٧١، وابن حبان انظر الإحسان٣/ ١٦٠ حديث٨٧٦، وأبوداود حديث١٤٨٨، والحاكم في المستدرك١/ ٤٩٧، وصححه ووافقه الذهبي، وقال الذهبي: هذا حديث مشهور رواه عن النبي (جمع من الصحابة. انظر العلو ص٦٣، وأخرجه الطبراني في الدعاء ص٨٧٧

(٥) انظر شأن الدعاء ص٤

(٦) انظر القائد إلى تصحيح العقائد ص١٠٤

ضية، إن خلا من موانع الإجابة.

ولا يكون الدعـاء واسطة صالحة بين العبد وربه حتى يكون خالصا لله تعالى كسائر العبادات، وذلك بأن يعلم الداعي علم يقين أن الله الذي يدعوه هو القادر وحده على قضاء حاجته.

وقد عبر الإمام القرطبي عن الإخلاص في الدعاء بقوله: (فمن شروط الداعي أن يكون عالما بأن لا قادر على حاجته إلا الله، وأن الوسائط[1] في قبضته ومسخرة بتسخيره، وأن يدعوه بنيه صادقة)[2].

وقال ابن أبي العز: (الذي عليه أكثر الخلق من المسلمين وسائر أهل الملل، وغيرهم أن الدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع، ودفع المضار... وإجابة الله لدعاء العبد مسلما كان أو كافرا، وإعطاؤه سؤله من جنس رزقه لهم، ونصره لهم، وهو مما توجبه الربوبية للعبد مطلقا)[3].

وللدعـاء أركـان، وأجنحة، وأسباب، وأوقات(فإن وافق أركانه قوي، وإن وافق أجنحته طار في السماء، وإن وافق مواقيته فاز بالمطلوب، وإن وافق أسبابه نجحت الأمور، فأركانه: حضور القلب، والرأفة، والاستكانة، والخشوع، وأجنحته: الصدق، ومواقيته: الأسحار، وأسبابه: الصلاة على محمد ﷺ)[4].

ولا ريب أن المكثر لدعاء الله تعالى محبوب عند ربه تبارك وتعالى؛ لأنه بالدعاء امتثل أوامر الله عز وجل، واعترف بأنه هو الذي يقصد لقضاء الحوائج، ويناط بدعائه إنجاح الأمور. ولا ريب أن الاعتراف بذلك والإيمان به هو عين التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، بخلاف من يعرض عن سؤال ربه تعالى؛ فإنه واقع -لامحالة- في سؤال المخلوقين، ويصبح عند الله ممقوتا، وعند الناس مكروها[5]، ولقد أحسن القائل[6]: -

---

(١) لعله يقصد الوسائط غير الشرعية.

(٢) تفسير القرطبي٢/ ٣١٠، وانظر لمعرفة المزيد من شروط الدعاء: شأن الدعاء ص١٣، وإحياء علوم الدين١/ ٣٦٥، والمنهاج في شعب الإيمان للحليمي١/ ٥٣، والجواب الكافي ص٧

(٣) شرح العقيدة الطحاوية بتحقيق التركي٢/ ٦٧٦

(٤) تفسير القرطبي٢/ ٣١١، وانظر شأن الدعاء ص١٣

(٥) انظر الدعاء في الإسلام وأثره في العقيدة والحياة ص١٥

(٦) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة١/ ٢٢٣، وتفسير ابن كثير٤/ ٩٢ ووجدت البيهقي ذكر البيت الثاني في كتابه شعب الإيمان حيث قال: سمعت الأستاذ أبا القاسم بن حبيب المفسر يقول: أخذ الشاعر معنى الحديث: (**من لا يسأل الله يغضب عليه**)، ثم ذكره. انظر شعب الإيمان٢/ ٣٥

لا تسألن بَنيَّ آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

قال طاوس اليماني لعطاء رحمه الله[١] : (يا عطاء : إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه ، وجعل عليها حجابه ، وعليك بمن بابه لك مفتوح إلى يوم القيامة ، أمرك أن تسأله ، ووعدك أن يجيبك)[٢] .

والدعاء من أجل صور الواسطة بين العابد وربه ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (والدعاء من أجل العبادات ، فينبغي للإنسان أن يلزم الأدعية المشروعة ؛ فإنها معصومة ، كما يتحرى في سائر عباداته الصورة المشروعة ؛ فإن هذا هو الصراط المستقيم)[٣] .

وبما أن معتقد أهل السنة والجماعة مبني على الدليل من الكتاب والسنة ، فإنهم يرفضون الأسباب غير الشرعية التي يتخذها أهل الأهواء والجهل واسطة بينهم وبين الله تعالى (أما السبب المباح المشروع فكالعبادات الشرعية في حصول الأجر ، والثواب ، وكالدعاء لله ، والاستغاثة به ، والتوكل عليه في حصول ما يقدره الله بذلك من المطالب)[٤] فهو مطلوب ومرغوب فيه شرعا ، وهذا الأمر مما يعلم بالضرورة من دين الإسلام ؛ إذ لا يوجد في الإسلام واسطة بين الله وبين عباده من الأنبياء ، أو الأولياء ، والصالحين (في الخلق ، والتدبير ، والرزق ، والإحياء ، والإماتة ، وسماع الدعاء ، وإجابة الداعي ، بل الرسل كلهم ، وأتباع الرسل متفقون على أنه لا يعبد إلا الله وحده ، فهو الذي يسأل ويعبد ، وله يصلى ، ويسجد ، وهو الذي يجيب دعاء المضطرين ، ويكشف الضر عن المضرورين ، ويغيث عباده المستغيثين : ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٥] [٦] وبهذا يتبين أن المسلمين ؛ بل الحنفاء جميعا (ليس بينهم وبين الله تعالى واسطة في العبادة ، والدعاء ، والاستغاثة ؛ بل يناجون ربهم ، ويدعونه ، ويعبدونه بلا واسطة)[٧] .

---

(١) هو عطاء بن أبي رباح كان مولى لأبي ميسرة الفهري ، نشأ بمكة ، يقال : إنه حج سبعين حجة ، وعاش مائة سنة ، توفي سنة ١١٥هـ بمكة المكرمة . انظر شذرات الذهب / ، وطبقات الشعراني١/ ٣٩
(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء٨/ ١٤١ ، والبيهقي في شعب الإيمان٢/ ٣٥
(٣) تلخيص كتاب الاستغاثة١/ ١٧٠
(٤) المرجع نفسه١/ ١٩٤
(٥) سورة فاطر الآية ٣
(٦) الرد على المنطقيين ص٥٣٧
(٧) تلخيص كتاب الاستغاثة٢/ ٥٧٢

وما استجلب عبد من الله تعالى ما يحب، واستدفع منه ما يكره، ونال المطلوب، وقربه من علام الغيوب بأعظم من الاشتغال بطاعة الله تعالى، وذكره، وشكره، وحسن عبادته، وهذا هو حقيقة الإيمان، ومظهر ذلك في عبادة الدعاء[١].

فالدعاء رابطة قوية بين العبد وبارئه، وعبادة مرضية يتقرب بها المخلوق من خالقه جل شأنه، وهو وسيلة صحيحة، وواسطة شرعية[٢]، يتم فيه اطراح العبد بباب ربه الكريم يسأله قبول طاعته، وقضاء حاجاته، ويتجلى فيه من مظاهر العبودية، والاستسلام للباري جل وعلا، والذل والانكسار له ما لا يظهر في كثير من صور العبادات الأخرى.

ومما يوضح صورة الواسطة في الدعاء: أنه مثل سائر العبادات في الإسلام إذا توافرت فيه شرطا قبول العمل يصبح عبادة صحيحة، وعملا صالحا متقبلا، وواسطة شرعية تدني الداعي، وتنيله المرام، (وهكذا الدعاء إذا كان صالحا في نفسه، والداعي قد جمع بين قلبه ولسانه في الضراعة، والخشوع، وقوة التعلق بالله، وصدق اللجوء إليه، وحسن العلاقة مع الله بالإخلاص في المقاصد، وصلاح الأعمال، والتوبة النصوح، أو تقديم حسنة، أو صدقة، ولم يحصل مانع للقبول من الإصرار على ذنب، أو أكل حرام، أو تلبس بمظلمة، فإنه يكون نافعا، ناجحا، وإن خلا من الضراعة الصحيحة، وصدق اللجوء، وحسن العلاقة، وصدق التوبة، أو حصلت موانع الإجابة تخلفت إجابة الدعاء)[٣].

ويبين العلامة ابن القيم معنى كون الدعاء مخ العبادة والسر في هذا التشبيه، **فيقول:** (وحق الداعي أن يستشعر عند دعائه ما يجب عليه اعتقاده مما لا يتم الإيمان إلا به؛ إذ الدعاء مخ العبادة، والمخ لا يكون إلا في عظم، والعظم لا يكون إلا في لحم، فإذا وجب إحضار معتقدات الإيمان عند الدعاء وجب أن يكون الطلب ممزوجا بالثناء، فمن ثم جاء لفظ الطلب للهداية، والرغبة فيها مشوبا بالخير تصريحا من الداعي بمعتقده، وتوسلا منه بذلك الاعتقاد الصحيح إلى ربه، فكأنه متوسل إليه ايمانه واعتقاده أن صراط الحق هو الصراط المستقيم)[٤].

---

(١) انظر فتح الباري لابن رجب١/ ٢٠
(٢) انظر مقدمة تحقيق الترغيب في الدعاء للحافظ عبد الغني المقدسي تحقيق فالح الصغير ص٧٣
(٣) صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم للشيخ عبد الرحمن الدوسري٣/ ١٤٩
(٤) بدائع الفوائد٢/ ١١



ومن فوائد الدعاء أنه يستدعي حضور القلب مع الله عز وجل، وذلك منتهى العبادة التي يحبها الله تعالى، ويرضاها، فالدعاء يرد القلب إلى خالقه بالتضرع، والتذلل، والاستكانة؛ ولهذا كان البلاء مصاحبا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل؛ لأنه يرد القلب بالافتقار إلى الله عز وجل، ويمنع نسيانه[1].

وقال الآلوسي في رده على أهل الأهواء الذين يتخذون من ذوات الأنبياء عليهم السلام، والأولياء وسائط بينهم وبين الله تعالى، ومبينا في الوقت نفسه أن الدعاء واسطة شرعية عند السلف الصالح يقول الآلوسي: (وكيف يحسن طريق يؤدي إلى الإشراك؟ وأنى يليق بالموحدين هذا الوجه المؤدي للارتباك؟ وهذا طريق سلفنا الصالح، وهو الاعتقاد الصحيح الراجح، هذا وإن النبي ﷺ -وأرواحنا له فداء- لا يرضى بما يغضب الرب المتعال، وكيف لا، وقد بعث بحماية التوحيد من هذه الأقوال، والأفعال؟ وقد. . . كان خلقه القرآن، يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه، فليس لنا وسيلة إلى الله إلا الدعاء المبني على أصول الذل، والافتقار، والثناء، فهو الوسيلة التي أمرنا الله سبحانه بالتوسل به، وجعله من أفضل الوسائل وأخبرنا أنه مخ عبادته، تحقيقا لعبديتنا، فسد به عن غيره أبواب الذرائع)[2].

فإذا صلى الموحد لله تعالى، ثم اتجه إلى القبلة[3] راغبا إلى الله تعالى وحده بقلب خاشع ونفس منكسرة، نادما على ما فرط منه في جنب الله تعالى آملا من ربه عز وجل قبول توبته، وتحقيق أمنيته، ثم رفع يديه إلى مولاه، مقبلا عليه بكليته معرضا عن كل ما سوى الله تعالى من مَلَك، أو بشر، أو حجر، مستشعرا قرب مولاه، وأنه في تلك الحالة يراه، فطوباه، وطوباه، وهذه هي الواسطة التي تفيد، وإلى رحابها ترحل قلوب الموحدين من بعيد؛ لأن من انقطع إلى بيت الكريم وألقى نفسه عند الباب مسكينا ذليلا، وتعرض لنفحاته في ذلك البيت، وحوله بكرة وأصيلا، فسوف يتحفه الله تعالى وهو أكرم الأكرمين بمنن وعطايا، ولن يخيب سعيه.

---

(١) انظر إحياء علوم الدين٤/ ٢٠٢، وسلاح المؤمن لابن الإمام ص٤٢

(٢) غاية الأماني٢/ ٢٤٥

(٣) ذكر الحليمي أن النبي ﷺ حين أراد الدعاء لأمته بقباء صلى ركعتين، واستدل على مشروعية الصلاة قبل الدعاء بالآية ﴿فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب﴾ سورة الانشراح الآيتان (٧-٨) انظر المنهاج في شعب الإيمان١/ ٥٣٤، وتفسير ابن كثير٤/ ٥٦٢

يقول العلامة ابن القيم : (فما خاب من أنزل به حوائجه، وعلق به آماله، وأصبح ببابه مقيما، وبحماه نزيلا)[١].

ولاشتمال الدعاء على حضور قلبي لا يوجد في غيره؛ فإن بعض العبادات مثل : الصلاة، أو الصوم، أو الحج، أو غيرها يغلب على العبد فيها الغفلة، والشرود؛ فإذا اشتغل بالدعاء استدعى ذلك منه مزيدا من حضور القلب؛ ولهذا ورد فيه أنه مخ العبادة دون غيره من العبادات الأخرى؛ لأن المخ هو المغذي للأعضاء، والمقوم لاستدامة بقائها، فما شبه به إلا لأنه يعمل هذا العمل، وبهذا يتضح أن الدعاء (يفتح بابا عظيما من المحاضرة، ويجعل الانقياد التام، والاحتياج إلى رب العالمين في جميع الحالات بين عينيه)[٢]، ولهذا ورد الحث على الدعاء، والإلحاح فيه، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه كان يقول : ﷺ جدوا في الدعاء؛ فإنه من يكثر قرع الباب يوشك أن يفتح له)[٣].

ودعاء المظلوم حال مظلمته واسطة مقبولة، لا يحول بينها وبين الله عز وجل حائل، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (...**واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجاب**)[٤].

وبما أن أشرف مقامات العبد هو إظهار عبوديته، وطاعته، ومسكنته للباري عز وجل؛ فإنه ورد أن ربنا تبارك وتعالى يدنو عشية يوم عرفة[٥] من أهل الموقف، وهم يدعون الله تعالى، مخبتين، منكسرين، متضرعين، ثم يباهي بهم الملائكة فيقول : (ما أراد هؤلاء؟ أشهدكم أني قد غفرت لهم)[٦].

ويقول العلامة ابن القيم : (ويحصل مع دنوه منهم تبارك وتعالى ساعة الإجابة التي لا يُردُّ فيها سائلا يسأل خيرا، فيقربون منه بدعائه، والتضرع إليه في تلك الساعة، ويقرب

(١) مفتاح دار السعادة١/ ٤٧

(٢) الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية١/ ٢٩٦، وانظر بيان حقيقة التوحيد للشيخ صالح الفوزان ص٣٩

(٣) ذكره ابن أبي شيبة في المصنف١٠/ ٢٠٢ حديث٩٢٢٤، وأورده ابن الإمام في سلاح المؤمن في الدعاء والذكر ص٤١

(٤) رواه البخاري، تاب الزكاة باب أخذ الصدقة من الأغنياء٣/ ٣٥٧ حديث١٤٩٦

(٥) المكان الذي فيه جبل الرحمة الذي يكون عنده الموقف، وحدها من الجبل المشرف على بطن عرنة إلى جبال عرفة . انظر معجم البلدان٤/ ١٠٤

(٦) رواه مسلم، كتاب الحج باب فضل يوم عرفة٩/ ١١١ بدون زيادة (أشهدكم أني قد غفرت لهم) فقد رواها أصحاب السنن .



منهم تعالى نوعين من القرب، أحدهما: قرب الإجابة المحققة في تلك الساعة. والثاني: قربه الخاص من أهل عرفة، ومباهاته بهم ملائكته، فتستشعر قلوب أهل الإيمان هذه الأمور، فتزداد قوة إلى قوتها، وفرحا، سرورا، وابتهاجا، ورجاء لفضل ربها، وكرمه)[١]. والتذلل لله تعالى، وإظهار المسكنة له، والتوبة إليه من موجبات قبول الدعاء، وقد كان النبي ﷺ يأمر به في الاستسقاء[٢]. ولقد أحسن الشاعر في تصوير الدعاء حالة استشعار الداعي بجرائمه، واعترافه بذنوبه حيث يقول[٣]: -

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فبمن يلوذ ويستجير المجرم؟

أدعوك رب كما أمرت تضرعا ... فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم؟

مالي إليك وسيلة إلا الرجا ... وجميل عفوك ثم أني مسلم

ويدخل في صورة الواسطة في الدعاء توسل المؤمن إلى الله تعالى بدعاء أخيه المؤمن الحي الحاضر، وقد صحت هذه الصورة من فعل الصحابة رضي الله عنهم؛ حيث كانوا يسألون النبي ﷺ أن يدعو الله لهم بدعاء عام، ودعاء خاص، ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (أن رجلا دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر، ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبل رسول الله ﷺ قائما فقال: يا رسول الله هلكت المواشي، وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: (اللهم اسقنا، اللهم اسقنا، اللهم اسقنا) قال أنس: ولا والله ما نرى في السماء من سحابة ولا قزعة[٤]، ولا شيئا، وما بيننا وبين سلع[٥] من بيت ولا دار، قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس[٦]، فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت، قال: والله ما رأينا الشمس

---

(١) زاد المعاد١/ ٦٤

(٢) من ذلك تحويل ردائه صلى الله عليه وسلم ورفع يديه، وأمر أمته بذلك، وقيل السر في ذلك هو التفاؤل بتغير الحال، وقيل هي: علامة بينه وبين ربه عز وجل. انظر فتح الباري٢/ ٤٩٨

(٣) الأبيات لأبي نواس. انظر ديوانه ص٦١٨

(٤) قطعة من السحب الخفيفة. انظر: مختار الصحاح ص٥٣٣، مادة(ق-ز-ع).

(٥) هو جبل يقع وسط المدينة الآن في الناحية الغربية للمسجد النبوي. انظر معجم البلدان٣/ ٢٣٦

(٦) أي مستديرة. انظر: مختار الصحاح ص٧٦، مادة (ت ر س).



سبتا[١]، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبله قائما فقال: يا رسول الله هلكت الأموال، وانقطعت السبل فادع الله يمسكها، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه، ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام، والظراب[٢] والأودية، ومنابت الشجر، قال: فانقطعت، وخرجنا نمشي في الشمس)[٣].

وقد بين الحافظ ابن حجر أن من فوائد هذا الحديث جواز سؤال الدعاء من أهل الخير، ومن يرجى منهم القبول، وإجابتهم لذلك[٤].

وتحت هذا النوع من التوسل بدعاء الحي الحاضر صورتان: إحداهما: أن يطلب المرء من الحي الحاضر الدعاء، فيستجيب له، ويدعو له، دون أن يدعو الطالب المتوسل، ومثال هذه الصورة ما حصل من النبي ﷺ من الدعاء للأعرابي في حديث الاستسقاء السابق. وثانيهما: أن يطلب الدعاء من حي حاضر، ثم يدعو هو بنفسه أن يتقبل الله دعاء المتوسَّل به، أو يؤمن على دعائه، وفي هذه الصورة يوجد دعاءان: أحدهما: من الحي الحاضر المطلوب منه الدعاء، والثاني: من المتوسِّل نفسه[٥].

ويصح في صورة الواسطة في الدعاء أن يتوسل الأفضل بدعاء المفضول، فقد طلب النبي ﷺ من عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يدعو له لما أراد الخروج لأداء العمرة، وطلب عمر رضي الله عنه ومعه السابقون الأولون من العباس بن عبد المطلب الاستسقاء، ومثل ذلك فعل معاوية رضي الله عنه مع يزيد بن الأسود الجرشي[٦] رحمه الله[٧]، كما سيأتي تفصيل ذلك.

---

(١) في بعض الروايات ستا وفي بعضها سبتا، والمراد به أسبوعا.

(٢) جمع ظرب وهو الجبل الصغير. انظر: القاموس المحيط ١/ ١٠٣، مادة (الظرب).

(٣) رواه البخاري، كتاب الاستسقاء باب الاستسقاء في المسجد الجامع ٢/ ٥٠١ حديث ١٠١٣، ومسلم، كتاب صلاة الاستسقاء باب رفع اليدين في الاستسقاء ٦/ ١٩١.

(٤) انظر فتح الباري ٢/ ٥٠٦، وإقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله أو صدق الكهنة والعرافين لسماحة الشيخ ابن باز ص ١٥

(٥) انظر قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٨١، والتوصل إلى حقيقة التوسل ص ١٣٣، وصيانة الإنسان ص ٢٠٥، ومجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ٥/ ٢٨٦، والتوسل أنواعه وأحكامه للألباني ص ٤٠

(٦) هو يزيد بن الأسود الجُرشي من سادة التابعين بالشام، كان يسكن الغوطة بدمشق، أسلم في حياة النبي ﷺ، كان من الزهاد العابدين الصالحين، استسقى به معاوية، والضحاك بن قيس رضي الله عنهما لما أصاب الناس القحط فسقوا، كانت وفاته سنة ٧١هـ. انظر المعرفة والتاريخ ٢/ ٣٨٠، وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ١٦١، وسير أعلام النبلاء ٤/ ١٣٦

(٧) انظر التوصل إلى حقيقة التوسل ص ١٦٥، والتوسل أنواعه وأحكامه للألباني ص ٤٣



ولا ريب أن الواسطة في الدعاء لا يكون لها أثرها الإيجابي إلا بشرط أن يكون الدعاء جامعا لشرائط الصحة، والقبول، خالصا من موانع الإجابة؛ بخلاف الدعاء الذي يصدر من الساهين اللاهين الذين لا يعملون صالحا؛ فإن هذا دعاء يحمل في طياته مانعا من موانع الإجابة، ويصدق عليه -والحالة هذه- ما قاله وهب بن منبه: (مثل الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر)[1]. والله أعلم.

(١) سبق تخريجه.

المبحث الرابع

صورة الواسطة في التوسل المشروع

المطلب الأول: التوسل في اللغة والشرع.

أولا: التوسل في اللغة: التوسل مصدر لتوسل يقال: توسلت إلى فلان بكذا، أي: تقربت إليه بذلك الشيء، وتوسلت إلى الله وسيلة: أي: عملت عملا أتقرب به إليه، فمعناه التقرب، ويأتي -أيضا- بمعنى: الرغبة، والطلب، يقال: وسل فهو واسل أي: رغب فهو راغب إلى الله تعالى، ومنه قول الشاعر[١]: -

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم   بلى كل ذي دين[٢]إلى الله واسل

ويقال أيضا: وسَّل فلان إلى ربه وسيلة، بمعنى أنه عمل عملا تقرب به إليه، ومنه قول عنترة[٣] الشاعر[٤]: -

إن الرجال لهم إليك وسيلة   إن يأخذوك تكَحّلي وتخضّبي

يعني بالوسيلة: القربة، وفيها معنى الرغبة، والحاجة، قال الراغب الأصفهاني: (الوسيلة: التوصل إلى الشيء برغبة، وهي أخص من الوصيلة لتضمنها لمعنى الرغبة)[٥] قال الشاعر[٦]: -

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا   وعاد التصافي بيننا والوسائل

وتطلق الوسيلة على المنزلة العلية عند الملك، ومنه الحديث: (**اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة...**)[٧]، ثم فسرت في الحديث الآخر (**...ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن**

(١) البيت للبيد بن ربيعة العامري، انظر ديوانه طبعة دار صادر ص١٣٢

(٢) رواية الديوان (بلى كل ذي لب) والمثبت هو رواية أصحاب المعاجم اللغوية.

(٣) هو عنترة بن شداد بن عمر بن معاوية العبسي الشاعر، من أهل نجد، كان من فرسان العرب في الجاهلية، أمه حبشية اسمها زبيبة، وسرى إليه السواد منها، أحب ابنة عمه عبلة، شهد حرب داحس والغبراء، قتله الأسد الرهيص، وجبار بن عمرو الطائي، مات سنة ٢٢قبل الهجرة، انظر: معجم الشعراء للمرزباني ص١٥١، والأعلام٥/ ٢٦٩

(٤) انظر ديوان عنترة طبعة دار صادر ص٣٣

(٥) المفردات ص٥٢٣، وانظر تفسير ابن كثير٢/ ٥٥

(٦) انظر تهذيب اللغة١٣/ ٦٧، وتاج العروس٨/ ١٥٤

(٧) رواه البخاري، كتاب الأذان باب الدعاء عند النداء٢/ ٩٤ حديث٦١٤



سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة)[١] .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر أنه يمكن رد معنى المنزلة -هنا- إلى القربة ؛ وذلك لأن (الواصل إلى المنزلة قريب من الله فتكون كالقربة التي يتوسل بها)[٢] .

وجمع التوسل : توسلات ، وتجمع الوسيلة على وزن فعائل ، وسائل ، وعلى فُعُل بضمتين : وُسُل ، وعلى فعيل : وسيل[٣] ، فتحصل من هذا أن التوسل يطلق في اللغة على الأمور التالية : -

١- القربة	٢- الحاجة .
٣- الرغبة .	٤- المنزلة .

وهذه المعاني اللغوية للوسيلة متداخلة ، ومتلازمة ، فالقربة ، والرغبة ، والحاجة ، والمنزلة قرائب في المعنى ، ويستلزم بعضها بعضا ، وندرك من هذا أن التوسل في اللغة قريب المعنى من التوسل في الشرع ؛ ولهذا قال الراغب الأصفهاني : (حقيقة الوسيلة إلى الله : مراعاة سبيله بالعلم ، والعبادة ، وتحري مكارم الشريعة ، وهي كالقربة)[٤] .

فالتوسل في القرآن العظيم ، وكلام النبي المعصوم r ، وعند العلماء اللغويين ، والمحدِّثين ، والمفسرين إنما هو التقرب إلى الله رب العالمين بما شرعه على لسان خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم[٥] .

ثانيا: التوسل في الشرع.

وأما التوسل في الشرع فهو أيضا مأخوذ من هذا المعنى اللغوي فهو : التقرب إلى الله تعالى بالإيمان بنبيه ﷺ وبطاعته ، أو بدعائه ، وشفاعته عليه الصلاة والسلام[٦] . ومعنى ذلك : (التقرب إلى الله بطاعته ، وعبادته ، واتباع أنبيائه ، ورسله ، وبكل عمل يحبه الله ،

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الصلاة باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه٤/ ٨٥

(٢) فتح الباري٢/ ٩٥

(٣) انظر العين للخليل بن أحمد الفراهيدي٧/ ٢٩٨ ، وتهذيب اللغة الأزهري١٣/ ٦٧ مادة (وسل) ومعجم مقاييس اللغة٦/ ١١٠ مادة (وسل) ، ومجمل اللغة لابن فارس٤/ ٩٢٥ مادة (وسل) ولسان العرب١٥/ ٣٠١ مادة (وسل) والنهاية لابن الأثير٥/ ١٨٥ ، والتعريفات ص٢٥٢ ، والمفردات ص٥٢٣

(٤) المفردات ص٥٢٤

(٥) انظر القول الجلي في حكم التوسل بالنبي والولي ص١٨

(٦) انظر قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص٨١ ، والتوسل أنواعه وأحكامه للشيخ الألباني رحمه الله ص١٤

ويرضـــاه)[١]. فالتوسل المشروع الذي شرعه الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم (إنما هو التقرب إلى الله تعالى بما شرعه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من علم، أو عـمل قلبي أو بدني، أو ترك، وكف عن عـمل محظور، فيـدخل فيـه جـميع الطاعات، وترك جميع المعاصي امتثالا لأمر الشارع)[٢].

يقول الشيخ ابن عثيمين: (التوسل المشروع: عبادة يراد بها التوصل إلى رضوان الله، والجنة، ولهذا نقول: جميع العبادات وسيلة إلى النجاة من النار، ودخول الجنة)[٣].

فالتوسل الصحيح: هو الطلب من الله تعالى بواسطة مشروعة، كقولك مثلا: اللهم بحـبك، وحـبنا لنبـيك ﷺ وحبنا لأوليـائك فـرج كربنا، واشف مـريضنا، والوسيلة المشروعة: هي فعل مـا يتـقـرب به إلى الله تعـالى من الطاعـات، واجـتناب المعـاصي، والتوسل: هو ابتغاء الوسيلة الصالحة إلى الله، أي الاجتهاد في فعل ما يتقرب به إلى الله تعالى، وعلى هذا فتوحيد الله سبحانه وتعالى وسيلة، والشهادة للنبيﷺ بالرســالة وسيلة، وإقام الصلاة وسيلة، وإيتـاء الزكـاة وسيلة، وأداء الفـرائض وسيلة، واجـتناب المحرمات وسيلة، وإماطة الأذى عن الطريق وسيلة، وجميع شعب الإيمان وسائل تقرب إلى الله تعالى، وتدني من رحمته[٤].

المطلب الثاني: صورة الواسطة في التوسل المشروع، قسم المحققون من العلماء التوسل إلى قسمين: -

القسم الأول: توسل مشروع، وهو ما كان بوسيلة جاءت بها الشريعة.

القسم الثاني: توسل ممنوع، وهو التوسل إلى الله تعالى بما لم يثبت في الشرع أنه وسيلة صحيحة. وهذا النوع من التوسل سوف نتناوله بالحديث عند بياننا للواسطة بين الله وخلقه عند أهل الأهواء في الباب الثاني.

أمـا القـــسم الأول: وهو التوسل المشروع، فهو كل توسل شرعه الله تعالى في كتابه

---

(١) التوصل إلى حقيقة التوسل ص٢٠ (٢) القول الجلي ص٢٨

(٣) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين٥/ ٢٧٩، وانظر التوسل حكمه وأقسامه للشيخ ابن عثيمين والعلامة الألباني جمع أبي لوز ص٩

(٤) انظر الوسيلة لأبي الوفاء ص٢٨، ومجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين٥/ ٢٧٩



وحثنا عليه، وبينه لنا رسوله الأمين ﷺ أي (ما كان موافقا لما شرع الله من التقرب إليه بالطاعات، والأعمال الصالحة التي يحبها الله ويرضاها، ولا يحب ولا يرضى إلا الذي أمر به)[١]. أي: التوسل إلى الله تعالى بالوسيلة الصحيحة الموصلة إلى المطلوب؛ ولا يكون ذلك إلا بوسيلة مقبولة جاءت بها الشريعة[٢].

والتوسل المشروع أنواع: فمن العلماء من أوصلها إلى سبعة[٣]، ومنهم من أوصلها إلى ستة[٤]، وعند التأمل ترجع تلك الأنواع المشروعة **إلى ثلاثة:-**

أولا: التوسل بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

ثانيا: التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح الذي ترجى إجابة دعائه، وهذا النوع سبقت الإشارة إليه في بيان صورة الواسطة في الدعاء في المبحث السابق.

ثالثا: التوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح، وهذا النوع سنأتي على توضيحه في بيان صورة الواسطة في العمل الصالح.

فالتوسل إلى الله تعالى باسم من أسمائه الحسنى، أو صفة من صفاته العليا أمر مشروع، وذلك مثل قول المسلم في دعائه: (**اللهم إني أسألك بأنك أنت الرحمن الرحيم أسألك أن ترحمني**). ومثله: (**يا غفار اغفرلي، يا رزاق ارزقني، يا نصير انصرني، ياي حفيظ احفظني**)[٥].

---

(١) التوصل إلى حقيقة التوسل ص١٤

(٢) انظر التوسل حكمه وأقسامه للشيخين ابن عثيمين والألباني جمع أبي لوز ص١٥

(٣) كالشيخ ابن عثيمين رحمه الله وهذه الأنواع السبعة هي: -
أ- التوسل إلى الله تعالى بأسمائه. ب- التوسل إلى الله تعالى بصفاته. جـ- التوسل إلى الله تعالى بأفعاله. د-التوسل إلى الله تعالى بالإيمان به. هـ- التوسل إلى الله تعالى بحال الداعي. و- التوسل بدعاء الرجل الصالح الذي ترجى إجابة دعائه. ز- التوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح. انظر مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين٢/ ٣٣٥ وما بعدها.

(٤) مثل الشيخ مبارك الميلي، والشيخ محمد بن بشير السهسواني رحمهما الله وهي عند الثاني كالتالي: -
١-التوسل بأسماء الله تعالى وصفاته. ٢- التوسل بالأعمال الصالحة. ٣- التوسل بتصديق النبيﷺ والإيمان به. ٤- التوسل بدعاء النبي ﷺ في حال حياته، وكذلك بدعاء الصالحين. ٥- التوسل بإضافة الرب إلى عباده الصالحين نحو: رب جبريل إلخ. ٦- التوسل بالصلاة على النبيﷺ. انظر صيانة الإنسان ص٢٠٣ وما بعدها، ورسالة الشرك ومظاهره ص, ٢٠٢

(٥) انظر تفسير القرطبي٧/ ٣٢٧

والدليل على مشروعية هذا النوع من التوسل قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾[١]، والمعنى: (ادعوا الله تعالى متوسلين إليه بأسمائه الحسنى، ولا شك أن صفاته العليا عز وجل داخلة في هذا الطلب؛ لأن أسماءه الحسنى سبحانه صفات له خصت به تبارك وتعالى)[٢]، والتوسل إلى الله تعالى بأسمائه، وصفاته يأتي على وجهين: -

الوجـــه الأول: التوسل إلى الله تعالى بأسمائه، وصفاته على سبيل العموم: مثال الأسماء، ما ثبت في الحديث الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه في دعاء الهم والغم (**اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحدا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي**)[٣]، فالشاهد من الحديث قوله: (**أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك**).

ومثال الصفات على سبيل العموم أن يقول الداعي: (**اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا أن تشفيني، وتوفقني، وتسدد خطاي**) فهذا توسل صحيح[٤].

وأما الوجه الثاني: فهو التوسل إلى الله تعالى باسم خاص، أو صفة خاصة، مثال الاسم الخاص أن تقول: (**يا غفور اغفرلي، يا رحيم ارحمني، اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني**)، ومثاله أيضا ما جاء في حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنهحيث طلب من النبي ﷺدعاء يدعو به في صلاته فقال: (**قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفرلي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**)[٥]. ففي هذا الحديث التوسل إلى الله تعالى باسمين من أسمائه الحسنى مناسبين للمطلوب، أولا هما: الغفور، والرحيم[٦].

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٠ (٢) التوسل أنواعه وأحكامه للألباني ص٣١

(٣) رواه أحمد في المسند١/ ٣٩١ قال محققه أحمد شاكر: إسناده صحيح، ورواه الحاكم في المستدرك١/ ٥٠٩، وصححه الشيخ الألباني. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة١/ ٣٣٦ برقم ١٩٩

(٤) انظر مدارج السالكين١/ ٢٤، والتوسل حكمه وأقسامه للشيخين ابن عثيمين والألباني جمع أبي لوز ص١٧

(٥) رواه البخاري، كتاب الأذان باب الدعاء قبل السلام٢/ ٣١٧ حديث ٨٣٤، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء باب استحباب خفض الصوت بالذكر١٧/ ٢٧

(٦) انظر فقه العبادات للشيخ ابن عثيمين ص٨٩، والتوسل حكمه وأقسامه للشيخين ابن عثيمين والألباني جمع أبي لوز ص١٧



ومن هذا النوع أيضا أن النبي ﷺ سمع رجلا يقول في تشهده (**اللهم إني أسألك يا الله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد أن تغفرلي ذنوبي، إنك أنت الغفور الرحيم**) فقال صلى الله عليه وسلم: (**قد غفر له، قد غفر له**)(١).

ومن هذه الأدلة: ما ذكر ه الله تعالى من دعاء سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام حيث قال: ﴿ **رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ** ﴾(٢)، فتوسل برحمة الله تعالى التي هي صفة من صفاته تعالى.

ومن أدلة هذا النوع -أيضا- أن النبي ﷺ كان يكثر في دعائه من قوله: (**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث**)(٣).

وأما مثال التوسل إلى الله تعالى بصفة خاصة من صفاته جل وعلا فهو ما جاء في الحديث الآخر: (**اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني**)(٤)، ففي هذا الحديث توسل بصفة من صفات الله وهي (عزة الله) ومثل ذلك أيضا ما ورد في الحديث: (**اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرا لي، وتفني إذا علمت الوفاة خيرا لي**)(٥)، فهذا توسل إلى الله تعالى بصفتي: العلم، والقدرة) وهما مناسبتان للمطلوب(٦).

يقول الشيخ الألباني: (فهذه الأحاديث وما شابهها تبين مشروعية التوسل إلى الله تعالى باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته، وأن ذلك مما يحبه الله سبحانه، ويرضاه؛ ولذلك استعمله رسول الله ﷺ، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ**

---

(١) رواه أبوداود في سننه١/ ٦٠٢، والنسائي في سننه٣/ ٥٢، وأحمد في المسند٤/ ٣٣٨، وصححه الشيخ الألباني، انظر التوسل للألباني ص٣٢ (٢) سورة النمل الآية ١٩

(٣) أخرجه الترمذي في سننه٥/ ٥٣٨، والحاكم في المستدرك١/ ٥٠٩، وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح سنن الترمذي . . . . برقم ٢٧٩٦، والتوسل للألباني ص٣٣

(٤) رواه البخاري، كتاب التوحيد باب قول الله تعالى ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ ١٣/ ٣٦٨ حديث ٧٣٨٣، ومسلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الذكر والدعاء باب في الأدعية١٧/ ٣٩ -واللفظ لمسلم.

(٥) رواه البخاري، كتاب المرضى باب تمني المريض الموت١٠/ ١٢٧ حديث٥٦٧١، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء باب كراهة تمني الموت١٧/ ٧ من غير زيادة (بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق) فيهما، والزيادة عند النسائي٣/ ٥٤، والحاكم١/ ٥٢٤، ووافقه الذهبي، وصححها الألباني، انظر التوسل له ص٣٢

(٦) انظر التوسل للألباني ص ٣٢، ومجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين٥/ ٢٨١

فَخُذُوهُ﴾(١)، فكان من المشروع لنا أن ندعوه سبحانه بما دعاه به رسوله ﷺ، فذلك خير ألف مرة من الدعاء بأدعية ننشئها وصيغ نخترعها)(٢).

ويدخل تحت التوسل بأسماء الله تعالى وصفاته التوسل بإضافة اسم الرب جل وعلا إلى عباده الصالحين؛ كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته بقوله: (**اللهم رب جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**)(٣).

فدل هذا الحديث على أن هذا الدعاء توسل بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا: من ربوبيته للملائكة المقربين، وخلقه للسموات والأرضين، وعلمه للغيب، والشهادة(٤).

ومن التوسل بأسماء الله تعالى وصفاته ما ورد في سورة الفاتحة، فقد جمعت الفاتحة دعاء الله تعالى بوسيلتين، ألا وهما: التوسل بحمد الله، والثناء عليه، وتمجيده، والتوسل إليه بعبوديته، وتوحيده.

يقول العلامة ابن القيم: (ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب، ونيله أشرف المواهب، علم عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده، والثناء عليه، وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم: توسلٌ إليه بأسمائه، وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء)(٥).

فهذه التوسلات المشروعة، وما تلاها من الأدعية النافعة، بالإضافة إلى أنها تقرب إلى الرب تبارك وتعالى، ودعاء له، ورغبة إليه، فهي بلاشك تعليم من النبي ﷺ لأمته حتى تقتفي أثره، وحض لها حتى تقتدي بفعله، وتهتدي بهداه؛ فإن خير الهدى هدى النبي محمد ﷺ، وأنفع التوسل توسل النبي عليه الصلاة والسلام(٦).

(١) سورة الحشر الآية ٨
(٢) التوسل للألباني ص ٣٤، وانظر الإنصاف في حقيقة الأولياء وما لهم من الكرمات والألطاف للأمير الصنعاني ص٤٨
(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب صلاة النبي (ودعائه بالليل٦/ ٥٦
(٤) انظر رسالة الشرك ومظاهره للميلي ص٢٠٣، والدعاء ومنزلته في العقيدة الإسلامية٢/ ٧٣٥
(٥) مدارج السالكين١/ ٢٣، وانظر التفسير القيم له أيضا ص ٢٣
(٦) انظر التوصل إلى حقيقة التوسل ص٣٧، والبدعة وأثرها السيء في الأمة لسليم الهلالي ص ١٧

ومن ذلك الأبيات المشهورة المنسوبة لأبي القاسم السهيلي[١] رحمه الله التي يقول فيها[٢] :-

يا من يرى ما في الضمير ويسمع	أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجّى للشدائد كلها	يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه في قول "كن"	امنن فإن الخير عندك أجمع
مالي سوى فقري إليك وسيلة	فبالافتقار إليك فقري أدفع
مالي سوى قرعي لبابك حيلة	فلئن رددت فأيٌّ باب أقرع؟
ومن الذي أدعو وأهتف باسمه	إن كان فضلك عن فقيرك يمنع؟
حاشا لمجدك أن تقنط عاصيا	الفضل أجزل والمواهب أوسع

وقال آخر -متوسلا إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى، ومستغيثا بها[٣] :-

بأسمائك الحسنى دعوتك سيدي	وجئت بها يا خالقي متوسلا
ومبتهلا ربي إليك بفضلها	وأرجو بها كل الأمور مسهلا
فقابل إلهي بالرضا منك واكفني	صروف زماني مكثرا ومقللا

فسؤال الله جل وعلا، والتوسل إليه بأسمائه، وصفاته واسطة شرعية مقبولة، وهذا النوع من التوسل يدخل في باب التسبب المباح في الدين، فكونه المحمود المنان يقتضي منّه على عباده، وإحسانه الذي يحمد عليه، وكونه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد يقتضي توحده في صمديته، فيكون هو السيد الكامل في سؤدده المقصود بالحوائج المستغني عما سواه، وكل ما سواه مفتقرون إليه لا غنى بهم عنه، وهذا سبب لقضاء الحاجات، وتحقيق الأمنيات[٤]، وقس على ذلك ما تضيء به بقية أسمائه، وصفاته جل في علاه.

---

(١) هو أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد بن أصبَغ الخثعمي السهيلي الأندلسي المالكي الضرير، محدث حافظ، من أهل النحو والتاريخ، ولد بسهيل بالأندلس سنة ٥٠٨هـ، وقيل: غير ذلك، تتلمذ على ابن العربي فنبغ حتى اشتهر فطلبه والي مراكش وأقام عند حتى توفي بمراكش سنة ٥٨١هـ، انظر وفيات الأعيان١/ ٣٥١، وتذكرة الحفاظ٤/ ١٣٧، وشذرات الذهب٤/ ٢٧١

(٢) انظر وفيات الأعيان٣/ ١٤٣

(٣) انظر غاية الأماني٢/ ٣٢٦

(٤) انظر غاية الأماني٢/ ٣٣٧

ويتضح من بيان هذه الصورة أن التوجه إلى الله تعالى، والتوسل إليه بأسمائه، وصفاته هو فعل الأنبياء، والمرسلين؛ كما أوضحته آيات كتاب رب العالمين، وهو سنة خاتمة الوسائط من النبيين ﷺ. فالاقتصار عليه واجب، والتمسك بالثابت من التوسل أنفع للمسلم من التوسلات المخترعة التي ما أنزل الله بها من سلطان؛ كما هو ديدن أهل الأهواء والبدع[1]، وحتى لا ينفتح باب التوسل، فتتزاحم البدع، وتتصارع للدخول منه، فينخلع مصراعاه، ويتسلل إلى عقيدة المسلمين البدع، والخرفات، والأوهام، والجهل، وأمراض التعلق بغير الله تعالى؛ كما هو حال أهل الأهواء، والبدع. والله الهادي إلى صراطه المستقيم.

---

(١) انظر صيانة الإنسان ص٢٠١، والإنصاف في حقيقة الأولياء للصنعاني ص٥٠



المبحث الخامس

صورة الواسطة في العمل الصالح

لا ريب أن كل عبادة شرعية يؤديها المؤمن لله عز وجل، واشتملت على شرطي قبول العمل؛ وهما: أ- الإخلاص لله تعالى. ب- ومتابعة النبي صلى الله عليه وسلم، لا ريب أنها عمل صالح، وواسطة شرعية مقبولة عند الله تعالى؛ لأنه سبحانه وتعالى أمر بها، ولا يأمر ربنا عز وجل بعبادة إلا وهو يحبها، ويرضاها. (فالعمل الصلح: هو الإحسان، وهو فعل الحسنات، والحسنات: هي ما أحبه الله، ورسوله وهو ما أمر به أمر إيجاب، أو استحباب)[١].

والطريق الوحيدة، الموصلة إلى رضى الله تعالى، ونيل ما عنده من خيري الدنيا، والآخرة هي العمل الصالح المبني على وفق ما جاء به النبي صلى الله بإجماع العلماء؛ لأنه لا وسيلة إلى الله تعالى إلا باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم وهذا هو المراد بالوسيلة[٢]، في قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[٣]

فكل عمل حسن، ومشروع قام به المسلم ينفعه التوسل به، وهو واسطة صحيحة بينه وبين ربه تبارك وتعالى، سواء أكان ذلك العمل الصالح من أعمال القلب، أو كان من أعمال الجوارح: كالتوسل إلى الله تعالى بالإيمان به، وبمحبته ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم واتباع سنته، وكالخوف من الله جل جلاله ورجاء رحمته، وإيثار رضاه سبحانه وتعالى على رضا غيره وطاعته في امتثال أوامره، والبعد عن نواهيه، والله سبحانه وتعالى (كرم عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأنواع الإكرام، ومدحهم، وأثنى عليهم، وأعلى مراتبهم، ومنازلهم، ورفع درجاتهم، وشرفهم بأنواع مراتب الشرف بحيث يعجز الإنسان عن استقصائها... فلقد شرفهم سبحانه بالوفادة عليه وبمناجاته، والتوجه إليه، وبقربه، وبحبه، كما أكرمهم بأن يكونوا من أهل الله تعالى وخاصته، وأكرمهم بذكره لهم، وجعل قلوبهم زجاجات لمصابيح الإيمان)[٤].

والأعمال الصالحة التي تنفع المؤمن وتقربه من مولاه متنوعة؛ لكنها في الأساس تعود

---

(١) العبودية ص٧٥

(٢) انظر أضواء البيان ٢/ ٧٦

(٣) سورة المائدة الآية ٣٥

(٤) صعود الأقوال ورفع الأعمال ص١٣٤

إلى ثلاثة أضرب : (منها ما يختص بالقلب ، ومنها ما يختص بالبدن ، ومنها ما يشارك فيه البدن والقلب)[١] .

وقد دلت الآيات القرآنية على مشروعية التوسل بالعمل الصالح ، ومن ذلك : -

١- قول الله تبارك تعالى : ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٢] أي فاجعل إيماننا بك وبشريعتك التي أنزلت علينا واسطة مرضية لغفران ذنوبنا ، وتقصيرنا في أمرنا بفضلك ورحمتك[٣] .

يقول الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية : (أي هؤلاء الراسخون في العلم أهل العلم والإيمان ، يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم لمغفرة ذنوبهم ووقايتهم عذاب النار وهذا من الوسائل التي يحبها الله : أن يتوسل العبد إلى ربه بما منَّ به عليه من الإيمان ، والأعمال الصالحة إلى تكميل نعم الله بحصول الثواب الكامل واندفاع العقاب)[٤] .

٢- وقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[٥] ففيه توسلَ الحواريون إلى الله تعالى بإيمانهم به واتباعهم لرسوله عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام[٦] .

٣- وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾[٧] وهذه مثل آية آل عمران الأولى فيها توسل بالإيمان بالله تعالى وهو عمل صالح .

٤- وقوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[٨] فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال -في تفسير هذه الآية- : (الكلم الطيب ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله عز وجل ، ومن ذكر الله تعالى ، ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله ، فكان أولى به)[٩] .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (إذا حدثنا كم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك

---

(١) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ص١٦٠ (٢) سورة آل عمران الآية ١٦
(٣) انظر تفسير ابن كثير١/ ٣٠٤
(٤) تفسير السعدي١/ ١٧٤ ، وانظر الكواكب النيرات في المنجيات والمهلكات لعبد الله الجار الله ص٤٢
(٥) سورة آل عمران الآية ٥٣ (٦) انظر تفسير ابن كثير١/ ٣١٥
(٧) سورة المؤمنون الآية ١٠٩ (٨) سورة فاطر الآية ١٠
(٩) تفسير ابن كثير٣/ ٥٥٧

من كتاب الله تعالى: إن العبد المسلم إذا قال: سبحان الله وبحمده، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، تبارك الله، أخذهن ملك، فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن إلى السماء الدنيا، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجيء بهن وجه الله عز وجل، ثم قرأ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[1]، ومعنى صعود الكلم الطيب إلى الله تعالى: قبوله له، أو صعود الكتبة وهم الواسطة من الملائكة بما يكتبونه في الصحف، وتخصيص الكلم الطيب بالذكر لبيان الثواب عليه، مع أنه يتناول كل كلام يصح وصفه بكونه طيبا؛ مثل ذكر الله تعالى، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتلاوة القرآن. . . . إلى غير ذلك من الأقوال الطيبة، والأعمال الصالحة[2].

فالأعمال الصالحة التي تحصل من القلوب، والجوارح ترفع مع كلام العبد الطيب؛ فإذا لم يكن له عمل صالح لم يرفع له قول إلى الله تعالى؛ لأن الأعمال الصالحة هي التي ترفع إلى الله جل وعلا، ويرفع الله تعالى صاحبها، ويعزه، ويقربه[3].

وتطفح السنة النبوية بصور عديدة للواسطة في العمل الصالح؛ لأن التوسل بالعمل الصالح الذي قام به العبد من أنجع أنواع التوسل، وأنفعها للمتوسل، **ومن ذلك**:-

١- ما تضمنته قصة أصحاب الغار، كما يرويها لنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر، فأووا إلى غار في جبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل، فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله، فادعوا الله تعالى بها؛ لعل الله يفرجها عنكم، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، وامرأتي، ولي صبية صغار، أرعى عليهم، فإذا أرحت[4] عليهم حلبت، فبدأت بوالديَّ، فسقيتهما قبل بَنِيَّ، وإنه نأى بي ذات يوم الشجر[5]، فلم آت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحِلاب[6]، فقمت عند رؤوسهما أكره أن**

---

(١) المرجع نفسه٣/ ٥٥٦، وانظر الصلاة ومقاصدها للحكيم الترمذي ص٣٤، والوابل الصيب ص٣٩

(٢) انظر تفسير الشوكاني٤/ ٣٤١ (٣) انظر تفسير السعدي٦/ ١٤٩

(٤) أرحت: أي رددت الماشية من الرعي إليهم، وإلى موضع مبيتها، وهو مُراحها بضم الميم. انظر شرح النووي لصحيح مسلم١٧/ ٥٦

(٥) نأى بي الشجر: أي بعدت في طلب الشجر. انظر مختار الصحاح ص٦٤٢ مادة (ن أ ى)

(٦) الحلاب بكسر الحاء: الإناء الذي يحلب فيه، وقد يريد بالحلاب هنا اللبن المحلوب. انظر شرح النووي لصحيح مسلم١٧/ ٥٦، والنهاية١/ ٤٢١، مادة (حلب).



أوقظهما من نومهما، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما، والصبية يتضاغون[١] عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء، ففرج الله منها فرجة، فرأوا منها السماء، وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار، فتعبت حتى جمعت مائة دينار، فجئتها بها، فلما وقعت بين رجليها، قالت: يا عبد الله اتق الله، ولا تفتح الخاتم إلا بحقه[٢] فقمت عنها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة، ففرج لهم، وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيرا بفرَق[٣] أرز، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي فعرضت عليه فرقه، فرغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرا ورعاءها[٤]، فجاءني، فقال: اتق الله، ولا تظلمني حقي، فقلت: اذهب إلى تلك البقر، ورعائها، فخذها، فقال: اتق الله، ولا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، خذ ذلك البقر ورعاءها، فأخذه فذهب به؛ فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقي، ففرج الله ما بقي، وخرجوا يمشون)[٥].

وذكر الإمام النووي، والحافظ ابن حجر في شرحيهما للصحيحين أنه يستفاد من هذا الحديث: استحباب الدعاء في حال الكرب بصالح الأعمال، والتوسل إلى الله تعالى به؛ لأن هؤلاء النفر الثلاثة فعلوه فاستجاب الله لهم، وذكره النبيﷺ في معرض الثناء عليهم، وبيان مناقبهم[٦].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فهؤلاء الثلاثة سألوا الله وتوسلوا إليه بأعمال البر، فالأول: أخبر عن بره بوالديه برا عاليا تاما أكمل البر وأحسنه، والآخر: أخبر عن عفته التامة الكاملة وعن همته العالية، والآخر: أخبر عن أداء الأمانة على الوجه الأكمل الأتم)[٧].

---

(١) يتضاغون: أي يصيحون باكين من الجوع. انظر النهاية لابن الأثير٣/ ٩٢ مادة (ضغا).
(٢) الخاتم: كناية عن بكارتها، وقوله (بحقه) أي: بنكاح، لا بزنا. انظر شرح النووي لصحيح مسلم١٧/ ٥٧
(٣) الفرق بفتح الراء وإسكانها: إناء يسع ثلاثة آصع. انظر النهاية لابن الأثير٣/ ٤٣٧ مادة (فرق).
(٤) الرعاء جمع راعي، مثل رعاة، ورعيان. انظر مختار الصحاح ص٢٤٨ مادة (رع ي).
(٥) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار٦/ ٥٠٥ حديث٣٤٦٥، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال١٧/ ٥٥
(٦) انظر شرح النووي لصحيح مسلم١٧/ ٥٦، وفتح الباري٦/ ٥٠٩
(٧) تلخيص كتاب الاستغاثة١/ ١٢٨

وقال الشيخ الألباني: (دعا هؤلاء الثلاثة ربهم سبحانه متوسلين إليه بهذه الأعمال الصالحة، أي صلاح والمواقف الكريمة، أي كرم، معلنين أنهم إنما فعلوها ابتغاء رضوان الله تعالى وحده، لم يريدوا بها دنيا قريبة، أو مصلحة عاجلة، أو جاها، أو مالا، ورجوا الله جل شأنه أن يفرج عنهم ضائقتهم ويخلصهم من محنتهم، فاستجاب سبحانه دعاءهم، وكشف كربهم، وكان عند حسن ظنهم به، فخرق لهم العادات، وأكرمهم بتلك الكرامة الظاهرة)[1].

٢- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان، ويبقى معه واحد، يتبعه أهله، وماله، وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله**)[2].

٣- ومثله ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مرزوق[3] رحمه الله تعالى، قال: (روي أن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله عمله في أحسن صورة وأطيب ريح، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أن الله قد طيب ريحك، وحسن صورتك، فيقول: كذلك كنت أنا عملك الصالح، طالما ركبتك في الدنيا اركبني اليوم، وتلا: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾[4][5]

٤- وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**الذين يذكرون الله من جلال الله من تسبيحه، وتكبيره، وتحميده، وتهليله يتعاطفن حول العرش، لهن دوي كدوي النحل يذكرن بصاحبهن؛ ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيء يذكر به؟**)[6].

٥- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**إن الميت يسمع خفق نعالهم إذا ولوا**

---

(١) التوسل ص٣٩، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص٢٦٤

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق باب سكرات الموت ١١/ ٣٦٢ حديث ٦٥١٤، ومسلم، كتاب الزهد ١٨/ ٩٥

(٣) هو أبو الخير عبدالله بن مرزوق الهروي مولى، شيخ أبي إسماعيل الأنصاري، ولد سنة ٤٤١هـ، إمام محدث، رحّالة، قال ابن النجار: كان موصوفا بالحفظ، والمعرفة، وحسن السيرة، توفي سنة ٥٠٧هـ، انظر: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٠٠، وشذرات الذهب ٤/ ١٦

(٤) سورة مريم الآية ٨٥

(٥) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره ٨/ ٣٨٠، وابن كثير وأسنده إلى ابن أبي حاتم. انظر تفسير ابن كثير ٣/ ١٤٤، وأورده القرطبي في التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص٢٣٢

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٠/ ٢٨٩، والإمام أحمد في المسند ٤/ ٢٦٨، وابن ماجه في سننه ٢/ ١٢٥٢، والحاكم في المستدرك ١/ ٥٠٠ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي قال البصيري في الزوائد ٣/ ١٩٣: إسناده صحيح، ورجاله ثقات، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٣٢٠ برقم ٣٠٧١، وفي مختصر العلو للذهبي ص ٩٦

مدبرين، فإن كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصوم عن يمينه، وكانت الزكاة عن يساره، وكان فعل الخيرات: من الصدقة، والصلاة، والصلة، والمعروف، والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه، فتقول الصلاة، ما قبلي مدخل، ويؤتى عن يمينه فيقول الصوم: ما قبلي مدخل، ويؤتى من عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ويؤتى من قبل رجليه، فيقول فعل الخيرات: ما قبلي مدخل، فيقال له: اقعد، فيقعد، وتمثل له الشمس قد دنت للغروب...)[١].

فتبين من هذه الأحاديث أن المسلم إذا وقع في ضيق، أو أصابته محنة فعليه أن يلتجئ إلى الله تعالى متوسلا بأرجى عمل صالح قام به؛ فإنه ينفعه، ويستجيب الله له، كما قال تعالى: **﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾**[٢]

ومن هذا ما يذكر عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقول في السحر: (اللهم أمرتني فأطعتك، ودعوتني فأجبتك، وهذا سحر فاغفرلي)[٣]، وكان عراك بن مالك[٤] رحمه الله إذا صلى الجمعة انصرف، فوقف على باب المسجد فقال: (اللهم إني أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين)[٥].

وقال الحسن البصري -في قول الله تعالى-: **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾**[٦] **(إن العبد إذا قال قولا حسنا، وعمل عملا صالحا رفع الله تعالى قوله بعمله)**[٧].

وقال وهب بن منبه: (مثل الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر)[٨].

وقال الربيع بن أنس: (في الحكمة أن العمل الصالح يرفع ربه إذا عثر)[٩].

والحكمة في رفع الأعمال إلى الله تعالى: أن الأقوال الطيبة المشروعة، والأعمال

---

(١) تقدم تخريجه. (٢) سورة الشورى الآية ٢٦

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره٣/ ٢٠٨، وأورده ابن كثير في تفسيره١/ ٣٠٥

(٤) هو عراك بن مالك الغفاري المدني التابعي، أحد العلماء العاملين، وثقه أبو حاتم وغيره، قال عنه عمر ابن عبدالعزيز: ما أعلم أحدا أكثر صلاة من عراك بن مالك، توفي سنة ١٠٤هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٥/ ٦٣، وشذرات الذهب١/ ١٢٢

(٥) أورده الماوردي في تفسيره٦/ ١٠، وابن كثير في تفسيره وأسنده إلى ابن أبي حاتم. انظر تفسير ابن كثير٤/ ٣٩٢

(٦) سورة فاطر الآية ١٠ (٧) الزهد للحسن البصري ص١٤٩

(٨) الزهد لابن المبارك ص١٠٩، وانظر جامع العلوم والحكم ص١٠٦

(٩) الزهد للإمام أحمد ص١٥٩

الصالحة المقبولة ترفع لتشفع لصاحبها، وتكون واسطة له عند الله تعالى[١]؛ لأن الأعمال الصالحة تناضل عن صاحبها وتدافع عنه؛ فإذا جاءه العذاب من جهة رجليه جاءه قيام الليل يدفع عنه، وإذا جاءه من جهة يديه جاءته الصدقة تشفع له عند ربه، وتدفع عنه، وقل مثل ذلك في بقية أنواع العبادات، وأصناف القربات؛ فإنها أعمال صالحة تنفع صاحبها وتكون واسطة بينه وبين ربه عز وجل، تقرب العابد من ربه، وتدنيه من رحمته[٢].

وقد تقدم معنا حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه الطويل، وفيه بيان بعض الأعمال الصالحة التي أنقذت صاحبها من العذاب، مثل: وضوئه، وصلاته، وذكره لله تعالى، وصيامه، وحجه، وعمرته، وبره بوالديه، وصلته لرحمه، وغسله من الجنابة، وصدقته، وأمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر، وحسن خلقه، وخشيته لله عز وجل، وخوفه منه، وحسن ظنه بربه تعالى، وصلاته على النبي المصطفى ﷺ وشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولا ريب أن العبادات المشروعة الظاهرة، والباطنة، كلها صالحة لأن تكون واسطة بين العباد وربهم؛ بشرط أن تكون تلك العبادات صالحة، وخالصة، ومقبولة لدى المولى الكريم. يقول الإمام القرطبي: (هذا لمن أخلص لله في عمله، وصدق الله في قوله، وفعله، وأحسن نيته له في سره، وجهره، فهو الذي تكون أعماله حجة له، ودافعة عنه)[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض بيانه لصورة الواسطة في العمل الصالح: (وسؤال الله بمجرد ذوات الأنبياء، والصالحين غير مشروع؛ بخلاف الطلب من الله بدعاء الصالحين، وبالأعمال الصالحة؛ فإنه جائز؛ لأن دعاء الصالحين سبب مطلوبنا الذي دعوا به، وكذلك الأعمال الصالحة سبب لثواب الله لنا؛ فإذا توسلنا إلى الله بالأعمال الصالحة وبدعائهم كنا متوسلين إليه بوسيلة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ

---

(١) انظر المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح للدمياطي ص٤٨٥، وصعود الأقوال ورفع والأعمال ص٩٥، وثواب الأعمال الصالحة لحسين الجمل ص١٣

(٢) انظر إتحاف السادة المتقين للزبيدي٨/ ١١٩، وغاية الأماني٢/ ٣٣٧، ورسالة الشرك ومظاهره للميلي ص٢٠٤، ومجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين٥/ ٢٨٦

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص١٦١



الْوَسِيلَةَ ﴾[1]، فالوسيلة : هي الأعمال الصالحة)[2].

ولا ريب أن خير الناس هو من فهم هذا وتزود قبل رحيله بزاد التقوى، والإيمان، والعمل الصالح، كما قيل : -

وخير الناس عبد قال صدقا ... وقدم صالحا قبل الذهاب

وقال آخر[3] : -

قدم لنفسك قبل موتك صالحا ... واعمل فليس إلى الخلود سبيل

وما من شك في أن العمل الصالح واسطة بين العبد وربه، ينفع العبد في دنياه وآخرته، وهو سفينة النجاة، وشاطئ الأمان، وما أحسن قول الشاعر في هذا المعنى[4] : -

إن لله عبادا فُطَنَا ... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحي وطنا

جعلوها لجة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا

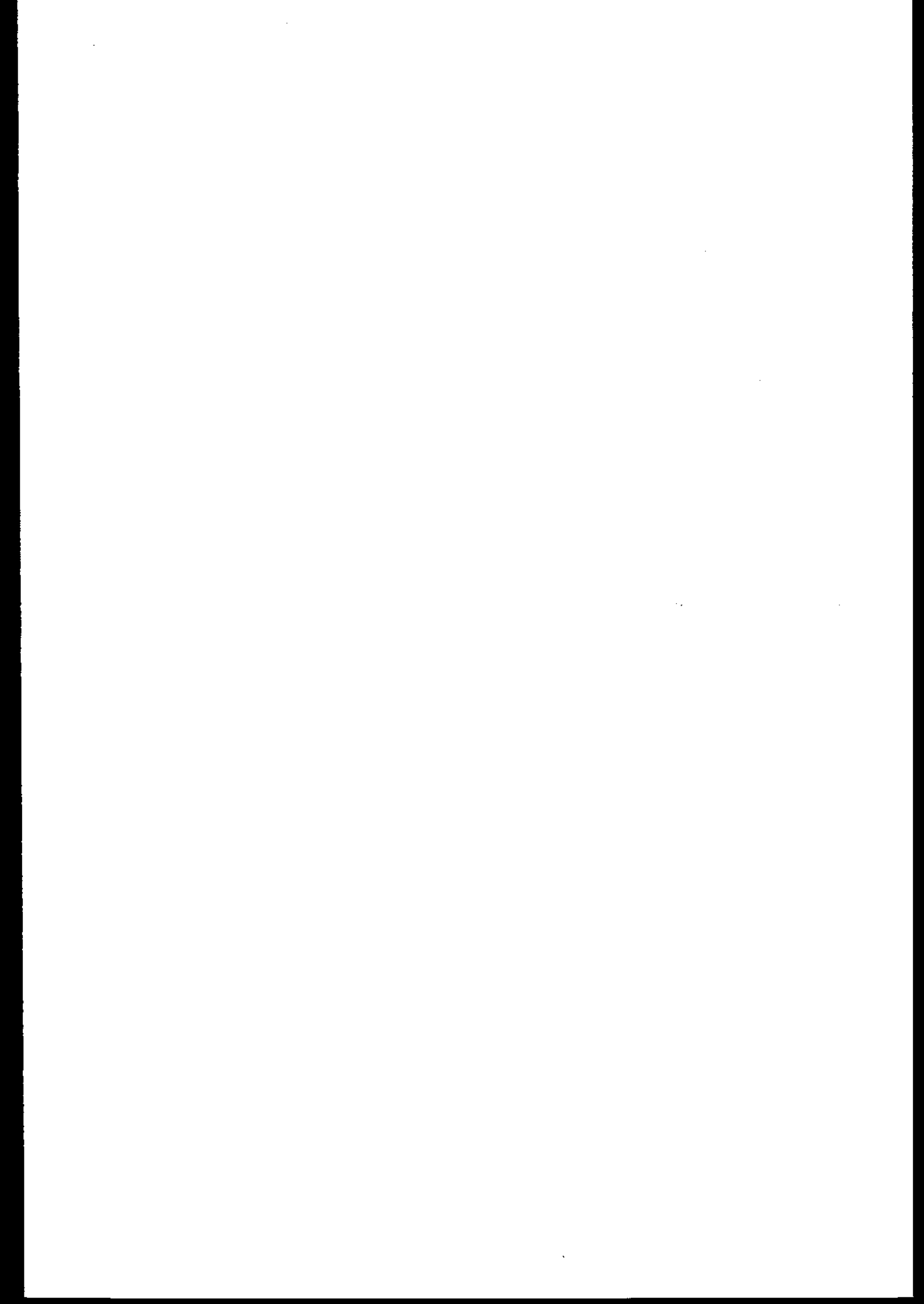
---

(١) سورة المائدة الآية ٣٥

(٢) تلخيص كتاب الاستغاثة١/ ١١٩

(٣) انظر تنوير الأذهان للبروسوي١/ ٩٦

(٤) انظر رياض الصالحين ص ٢٧ وإتحاف السادة المتقين للزبيدي٨/ ١٠٥، والعبادة والعباد لمحمد بن نمر الخطيب ص٤٥٦



الفصل الرابع

صورة الواسطة في الشفاعة في الآخرة

وفيه أربعة مباحث:-

المبحث الأول: تعريف الشفاعة لغة، واصطلاحا.

المبحث الثاني: صورة الواسطة في شفاعة النبي ﷺ.

المبحث الثالث: صورة الواسطة في شفاعة غير النبي ﷺ.

المبحث الرابع: صورة الواسطة في شفاعة القرآن، والصيام.

المبحث الأول

تعريف الشفاعة لغة، واصطلاحا

أولا: الشفاعة في اللغة قال ابن فارس: (الشين، والفاء، والعين أصل صحيح، يدل على مقارنة الشيئين، من ذلك: الشفع خلاف الوتر)[١].

والشفع: الزيادة، وعين شافعة تنظر نظرين لضعفها[٢]، والشفاعة: الوسيلة، والطلب[٣]، يقال: كان وترا فشفعه شفعا، وشفع الوتر من العدد صيره زوجا، ويقال أيضا: ناقة شفوع للتي يجمع منها محلبان في حلبة واحدة، وشاة شافع للتي معها ولدها[٤]، ويقال: شفع لي يشفع شفاعة، وتشفع، بمعنى طلب، ومعنى استشفعه: أي طلب منه الشفاعة، وقال له: كن لي شفيعا، والشفاعة كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره[٥].

والشافع: الطالب لغيره، فيشفع به إلى المطلوب، قال الأعشى[٦]: -

واستشفعتْ من سراة الحي ذا شرف ... فقد عصاها أبوها والذي شفعا

ويقال: تشفعت بفلان إلى فلان فشفعني فيه، واسم الطالب: شفيع، وشافع، والجمع: شفعاء[٧]، قال الشاعر[٨]: -

مضى زمن والناس يستشفعون بي ... فهل لي إلى ليلى الغداة شفيع؟

وقال ابن الأثير: (يقال: شفع يشفع شفاعة، فهو شافع، وشفيع، والمشفِّع: الذي يقبل الشفاعة، والمشفَّع: الذي تقبل شفاعته)[٩].

وذكر الراغب الأصفهاني أن الشفاعة: انضمام الشافع إلى المشفوع له، ومعاونته فيصير شفعا له، أو شفيعا في فعل الخير، والشر، فيعاونه، ويقويه، ويشاركه في نفعه وضره، ثم

---

(١) معجم مقاييس اللغة٣/ ٢٠١ مادة (شفع).
(٢) انظر تهذيب اللغة للأزهري١/ ٤٣٦ مادة (شفع).
(٣) انظر لوامع الأنوار٢/ ٢٠٤
(٤) انظر تهذيب اللغة١/ ٤٣٨، ومعجم مقاييس اللغة٣/ ٢٠١، وأساس البلاغة للزمخشري ص٢٣٨ مادة (شفع).
(٥) انظر كتاب العين للخليل بن أحمد١/ ٢٦١، وتهذيب اللغة١/ ٤٣٧ مادة (شفع).
(٦) انظر ديوانه طبعة درا صادر ص١٠٥
(٧) انظر لسان العرب٧/ ١٥١ مادة (شفع).
(٨) انظر أساس البلاغة ص٢٣٨
(٩) النهاية لابن الأثير٢/ ٤٨٥ مادة (شفع).



قال: (وأكثرما تستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة، ومرتبة إلى من هو أدنى، ومنه الشفاعة في القيامة)[(١)].

وقال السفاريني -في توجيه ذلك-: (فكأن الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له)[(٢)].

ويتحصل مما تقدم أن الشفاعة في اللغة هي: الانضمام إلى آخر من أجل نصرته، وأن الشفاعة تدل على ضم شيئين، ومقارنتهما، وأن اشتقاقها من الشفع الذي هو ضد الوتر، وأنها تنقسم إلى عناصر ثلاثة: -

(أ) شافع: وهو صاحب الشفاعة التي يطلبها لغيره، ويسمى شفيعا أيضا، فإن قبلت شفاعته فهو مشفَّع بفتح الفاء[(٣)].

(ب) ومشفوع له: وهو صاحب الطلب، وهو المنتفع بالشفاعة.

(جـ) ومشفوع إليه: وهو من تطلب منه الشفاعة، فإن قبلها فهو مشفِّع بكسر الفاء[(٤)].

ثانيا: الشفاعة في الاصطلاح: عرف ابن الأثير الشفاعة بقوله: (هي السؤال في التجاوز عن الذنوب، والجرائم)[(٥)]. وبمثل ذلك عرفها الشريف الجرجاني، حيث قال: (هي السؤال في التجاوز عن الذنوب من الذي وقع الجناية في حقه)[(٦)].

ونقل السفاريني في تعريفها أنها: (سؤال الخير للغير)[(٧)]، وبتأمل يسير لهذه التعريفات نجد أن التعريفين الأولين حصرا الشفاعة في جلب المنافع، وأن التعريف الثالث حصرها في درء المفاسد، وكل واحد منها ليس جامعا؛ بل الحقيقة أن طلب الشفاعة لا يقتصر على أحد الأمرين؛ بل يتعلق بأحدهما تارة، وبالآخر تارة أخرى[(٨)].

وقيل: (هي طلب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم -أو غيره من الله في الدار الآخرة حصول منفعة لأحد من الخلق)[(٩)].

---

(١) المفردات ص٢٦٣ (٢) لوامع الأنوار٢/ ٢٠٤

(٣) انظر كتاب العين١/ ٢٦١

(٤) انظر لسان العرب٧/ ١٥٢ مادة (شفع)، والشفاعة للدكتور ناصر الجديع ص١٤

(٥) النهاية٢/ ٤٨٥ مادة (شفع). (٦) التعريفات ص١٦٨

(٧) لوامع الأنوار٢/ ٢٠٤ (٨) انظر الشفاعة للدكتور ناصر الجديع ص١٥

(٩) الحياة الآخرة للدكتور غالب العواجي١/ ٢٨٣

والتعريف المختار أن الشفاعة هي : (التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة)[1] .

وسبب اختيار هذا التعريف : هو أنه جامع شامل للأمرين معا ، ويصح إطلاق هذا التعريف على الشفاعة ، سواء أكانت في أمور الدنيا ، أو في أمور الآخرة . والله أعلم .

(١) شرح لمعة الاعتقاد للشيخ محمد بن صالح العثيمين ص١٢٨ ، وانظر الكليات للكفوي٣/ ٧٥



المبحث الثاني

صورة الواسطة في شفاعة النبي ﷺ في الآخرة

يستنتج الباحث بعد استقراء الأحاديث النبوية الواردة في الشفاعة ومن مطالعة كلام أهل العلم حول الشفعاء في الآخرة، يستنتج أن الشفاعة تتنوع من حيث الشفعاء، ومن حيث نوع الشفاعة في اليوم الآخر: فأحيانا يكون الشفيع نبينا محمدا ﷺ ومرة يكون غيره من الشفعاء: كالملائكة، والنبيين، والمؤمنين، وتارة يشفع القرآن، والصيام. ويتناول هذا المبحث صورة الواسطة في شفاعة النبي ﷺ، وسيتناول المبحثان التاليان شفاعة غير النبي ﷺ فأقول -وبالله التوفيق:-

للنبي ﷺ شفاعات في الآخرة، بعضها خاص به عليه الصلاة والسلام، ويشاركه الملائكة، والنبييون في بعضها الآخر. فيكون واسطة بين الله تعالى، وخلقه في تلك الشفاعات، وفيما يلي بيان لصورة الواسطة في تلك الشفاعات:-

١- **الشفاعة العظمى**: وهذه الشفاعة خاصة بخاتم النبيين ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء، والمرسلين، وذلك حين يجمع الله الخلائق في عرصات القيامة، ويشتد الموقف، فتفزع الأمم إلى الأنبياء تطلب منهم التوسل من أجل الشفاعة عند الله تعالى ليقضي بينهم، ويريحهم من مقامهم ذلك، وما هم فيه من شدة، وكرب، فتفزع إلى آدم، ونوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم الصلاة والسلام فيتدافع الشفاعة -بعد آدم- أولو العزم من الرسل -عليهم الصلاة والسلام- حتى ينتهي الأمر إلى نبينا محمد ﷺ فيقول: (أنا لها) ويشفع لأهل الموقف عند ربه عز وجل وهذه الشفاعة هي أعظم الشفاعات؛ ولهذا تسمى الشفاعة العظمى؛ لأنها شفاعة شاملة لجميع الأمم على اختلاف أديانهم، وهذه الشفاعة هي المقام المحمود على رأي جمهور العلماء[١] الذي وعد الله عز وجل به خاتم النبيين ﷺ في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[٢]

والدليل على ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر رضي

---

(١) انظر تفصيل الكلام حول المراد بالمقام المحمود في المراجع التالية: التوحيد لابن خزيمة٢/ ٧٢٤، وتفسير الطبري١٦/ ١٤٣، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي٦/ ١١٢، وتفسير ابن كثير٣/ ٥٧، وفتح الباري٨/ ٤٠٠

(٢) سورة الإسراء الآية ٧٩



الله عنهما أنه قال: (**إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا**[١] **كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان: اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود**)[٢].

ومما يستدل به على الشفاعة العظمى ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتي رسول الله ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه، فنهس[٣] منها نهسة فقال: (أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون لم ذلك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم، والكرب ما لا يطيقون، وما لا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟، فيقول بعض الناس لبعض: ائتوا آدم، فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحا، فيقولون: يا نوح: أنت أول الرسل إلى الأرض، وسماك الله عبدا شكورا، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ فيأتون إبراهيم، فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وذكر كذباته[٤]، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى ﷺ فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالاته وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن

---

(١) أي: جماعات، والجثا: جمع جُثْوة: وهو الشيء المجموع. انظر النهاية لابن الأثير ١/ ٢٣٩ مادة (جثا).

(٢) صحيح البخاري، ٨/ ٣٩٩، حديث ٤٧١٨

(٣) النهس: أخذ اللحم بأطراف الأسنان. انظر النهاية لابن الأثير ٥/ ١٣٦ مادة (نهس).

(٤) ورد ذكر هذه الكذبات في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ سورة النساء الآية ١٦٥ حديث رقم ٣٣٥٨، ٦/ ٣٨٨, وقد وجه العلماء هذه الكذبات بتوجيهات منها: أنه أطلق عليها ذلك لكونها بصورة الكذب عند السامع، وقيل غير ذلك. انظر فتح الباري ٦/ ٣٩٢



فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى ﷺ: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفسا لم أومر بقتلها، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى ﷺ، فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكَلَّمْتَ الناس في المهد، وكلمة منه ألقاها إلى مريم، وروح منه، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى ﷺ: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله -ولم يذكر ذنبا- نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إل محمد ﷺ فيأتوني، فيقولون: يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجدا لربي، ثم يفتح الله علي، ويلهمني من محامده، وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه لأحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: يارب أمتي، أمتي، فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين[(١)] من مصاريع الجنة لكما بين مكة، وهجر[(٢)]، أو كما بين مكة، وبصرى[(٣)])[(٤)][(٥)].

ولبيان وجه الاستدلال بهذا الحديث على ثبوت الشفاعة العظمى قال الإمام ابن خزيمة رحمه الله[(٦)]: (هذه الشفاعة التي وصفنا أنها أول الشفاعات هي التي يشفع بها النبيﷺ ليقضي الله بين الخلق، فعندها يأمره الله عز وجل أن يدخل من لا حساب عليه من أمته الجنة من الباب الأيمن)[(٧)].

---

(١) المصراعان: بابان منصوبان ينضمان جميعا، ويكون مدخلهما في الوسط منهما. انظر القاموس المحيط٣/ ٥٢ مادة (الصرع).
(٢) هَجَر: قصبة بلاد البحرين. انظر معجم البلدان٥/ ٣٩٣
(٣) بُصْرى بضم الباء قصبة كورة حوران، من أعمال دمشق بالشام. انظر معجم البلدان١/ ٤٤١
(٤) صحيح البخاري، ٨/ ٣٩٥، حديث ٤٧١٢، ومسلم، كتاب الإيمان٣/ ٦٥
(٥) ذكر العلامة ابن القيم أن السبب في اعتذار سائر الأنبياء عليهم السلام لأممهم، وامتناعهم من الشفاعة هو أنهم عوتبوا قبل الغفران، فأحجمهم ذلك عن الهجوم عليه، ونبينا صلى الله عليه وسلم غفر له قبل العتاب. انظر بدائع الفوائد٤/ ٢١٦
(٦) هو أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري، ولد بنيسابور سنة ٢٢٣هـ، وطاف البلاد لطلب العلم وسماع الحديث حتى أصبح محدثا، وشارك في كثير من العلوم، توفي سنة ٣١١هـ. انظر البداية والنهاية١١/ ١٤٩، والوافي بالوفيات٢/ ١٩٦، وشذرات الذهب٢/ ٢٦٢
(٧) التوحيد لابن خزيمة١/ ٥٩٣

كما استدل بهذا الحديث -أيضا- أبو عبد الله القرطبي، ثم قال مبينا وجه الاستدلال به على هذه الشفاعة: (وقوله: (فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه) يدل على أنه شُفع فيما طلب من تعجيل حساب أهل الموقف؛ فإنه لما أمر بإدخال من لا حساب عليه من أمته فقد شرع في حساب من عليه حساب من أمته، وغيرهم)[(١)].

٢- الشفاعة في استفتاح باب الجنة لأهلها: ورد في بعض الأحاديث أن النبي ﷺ هو أول من يشفع لأهل الجنة في دخولها من ذلك ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (**أنا أول شفيع في الجنة لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت، وإن من الأنبياء نبيا ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد**)[(٢)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه -أيضا- أن النبي ﷺ قال: (**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك**)[(٣)].

وعن أبي هريرة، وحذيفة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: (يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف[(٤)]لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم! لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله، قال: فيقول إبراهيم لست بصاحب ذلك، إنما كنت خليلا من وراء وراء، اعمدوا إلى موسى ﷺالذي كلمه الله تكليما، فيأتون موسى ﷺ فيقول: لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه، فيقول عيسى ﷺ: لست بصاحب ذلك، فيأتون محمدا ﷺ فيقوم فيؤذن له. . .) الحديث[(٥)].

فيستدل بهذه الأحاديث ونحوها على أن النبي ﷺ أول الشفعاء، حيث يشفع لأهل الجنة في دخولها، وعليه فهذه الشفاعة -أيضا- خاصة به صلى الله عليه وسلم؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذه الشفاعة والتي قبلها: (وهاتان الشفاعتان خاصتان له صلى الله عليه وسلم)[(٦)].

---

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص٢٤٥

(٢) أخرجه مسلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب قول النبي ((أنا أول الناس يشفع في الجنة) ٢/ ٧٣

(٣) رواه مسلم، انظر المرجع نفسه والموضع بعينه.

(٤) أي تقرب لهم، انظر مختار الصحاح ص٢٧٣ مادة (ز ل ف).

(٥) أخرجه مسلم انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب الشفاعة٢/ ٧٠

(٦) مجموع الفتاوى٣/ ١٤٧



٣- الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه: وهذه الشفاعة خاصة بالنبي ﷺ لعمه أبي طالب، ودليلها ما جاء في الصحيحين عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: يا رسول " هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحفظك، ويغضب لك؟ قال: (**نعم هو في ضحضاح[١] من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**)[٢].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: (**لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه، يغلي منه دماغه**)[٣].

ولعل السبب في شفاعة النبي ﷺ لعمه أبي طالب في تخفيف العذاب هو ما اشتهر عن أبي طالب من الدفاع عن الرسول ﷺ، ونصرته له، حتى ورد أنه أهون أهل النار عذابا يوم القيامة، فعن ابن عباس رضي الله عهما أن رسول الله ﷺ قال: (**أهون أهل النار عذابا أبو طالب وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه**)[٤].

وذكر بعض أهل العلم أن هذه الشفاعة التي نفعت أبا طالب مع كونه كافرا شفاعة تخفيف فقط لا شفاعة إخراج من النار[٥].

٤- الشفاعة في رفع درجات أقوام من أهل الجنة: ودليل هذا النوع ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وفيه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عامر عم أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما على جيش إلى أوطاس[٦] فرمي أبو عامر بسهم في ركبته، فقال لأبي موسى: يا ابن أختي انطلق إلى رسول الله ﷺ فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك أبو عامر: استغفرلي، قال: واستعملني أبو عامر على الناس، ثم إنه مكث يسيرا ثم مات، فلما رجعت إلى النبي ﷺ دخلت عليه، فأخبرته بخبرنا وخبر

---

(١) الضحضاح: أصله يقال لما رق من الماء على وجه الأرض وهو ما يبلغ الكعبين، واستعير للنار. انظر النهاية لابن الأثير٣/ ٧٥، مادة (ضحح).

(٢) صحيح البخاري ٧/ ١٩٣ حديث ٣٨٨٣، وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان باب شفاعة النبي لأبي طالب٢/ ٨٤

(٣) المرجعان السابقان، والموضعان نفساهما.

(٤) رواه مسلم، كتاب الإيمان باب التخفيف عن أبي طالب بسبب النبي ﷺ٢/ ٨٥.

(٥) انظر كتاب البعث والنشور للبيهقي ص٣١، والتذكرة للقرطبي١/ ٢٨٧، ومجموع الفتاوى١/ ١٤٤، وإثبات الشفاعة للإمام الذهبي ص٢١

(٦) أوطاس: واد في ديار هوازن فيه كانت وقعة حنين للنبي ﷺ ببني هوازن. انظر معجم البلدان١/ ٢٨١.



أبي عامر، وقلت له: قال قل له: يستغفرلي، فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ منه، ثم رفع يديه، ثم قال: (اللهم اغفر لعبيد ابن عامر حتى رأيت بياض ابطيه ثم قال: اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك أو من الناس) فقلت: ولي يا رسول الله فاستغفر، فقال النبي ﷺ: (اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلا كريما)[١].

واستدل الذهبي، وابن كثير ايضا بهذا الحديث على هذا النوع من الشفاعة[٢].

ومما يستدل به على هذا النوع من الشفاعة ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺدعا لأبي سلمة لما توفي فقال: (**اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين**[٣]**، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره، ونور له فيه**)[٤].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن هذه الشفاعة خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم[٥]. وقيل إنها ليست خاصة به؛ لكنه هو المقدم فيها[٦].

٥- الشفاعة في دخول الجنة بلا حساب: ودليل هذا النوع من الشفاعة ما رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: (عرضت علي الأمم فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي فيمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل هؤلاء أمتي! قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد كثير قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب، قلت: ولم؟ قال: كانوا لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون) فقام إليه عكاشة من محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: (اللهم اجعله منهم، ثم قام إليه رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: (سبقك بها عكاشة)[٧].

---

(١) صحيح البخاري ٨/ ٤١ حديث ٤٣٢٣، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي موسى وأبي عامر الأشعريين١٦/ ٥٩
(٢) انظر النهاية في الفتن والملاحم٢/ ٢٠٦
(٣) الغابرين: أي الباقين من عقبه. انظر شرح النووي لصحيح مسلم٦/ ٢٢٣
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الجنائز باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حضر٦/ ٢٢٣
(٥) انظر مجموع الفتاوى١٤/ ٣٩٩، ولوامع الأنوار٢/ ٢١١
(٦) انظر أعلام السنة المنشورة للحكمي ص١٣٩
(٧) صحيح البخاري ١١/ ٤٠٥ حديث٦٥٤١، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بلا حساب٢/ ٨٨

وجاء في بعض السنن عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**وعدني ربي عز وجل أن يُدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفا وثلاث حثيات من حثيات ربي عز وجل**)[١].

٦- **الشفاعة لأهل الكبائر**: المراد بأهل الكبائر: العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بسبب ذنوبهم، فيشفع فيهم الرسول ﷺ لإخراجهم من النار بعد دخولها، ودليل هذا النوع من الشفاعة ما رواه البخاري ومسلم من حديث معبد بن هلال العنزي رحمه الله[٢] قال: اجتمعنا ناس من أهل البصرة[٣] فذهبنا إلى أنس بن مالك وذهبنا معنا بثابت البناني إليه يسأله لنا عن حديث الشفاعة فإذا هو في قصره، فوافقناه يصلي الضحى، فاستأذنا فأذن لنا -وهو قاعد على فراشه، فقلنا لثابت: لا تسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة، فقال: يا أبا حمزة، هؤلاء إخوانك من أهل البصرة جاءوك يسألونك عن حديث الشفاعة، فقال: حدثنا محمد ﷺ قال: (إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض فيأتون آدم، فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم؛ فإنه خليل الرحمن فيأتون إبراهيم، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله، فيأتون موسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى؛ فإنه روح الله وكلمته، فيأتون عيسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد (، فيأتوني، فأقول: أنا لها، فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، ويلهمني محامد أحمده بها، لا تحضرني الآن فأحمده بتلك المحامد، وأخرله ساجدا، فيقال: يا محمد: ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي، أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان[٤]، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدا، فيقال: يا محمد: ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تُشَفَّع، فأقول: يا

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه وقال: هذا حديث حسن غريب٤/ ٦٢٦، وابن ماجه في سننه٢/ ٤٤٦، والإمام أحمد في المسند٥/ ٢٦٨، وصححه الشيخ الألباني. انظر مشكاة المصابيح للتبريزي٣/ ٦٥ هامش (٢) بتحقيق الشيخ الألباني.

(٢) هو معبد بن هلال العَنَزي البصري، ذكره ابن حبان في الثقاة، وقال عنه ابن حجر: معبد بن هلال ثقة من الرابعة. انظر: تاريخ دمَشق٥٩/ ٣٣٣، وتهذيب التهذيب١٠/ ٢٠٣، وتقريب التهذيب ص٥٣٩

(٣) البصرة المصر المشهور بالعراق. انظر معجم البلدان١/ ٤٣٠

(٤) ذكر الإمام ابن خزيمة أن المراد بعض من كان في قلبه قدر ذلك الوزن من الإيمان؛ لأنه ثبت أن غير النبي ﷺ يشفع أيضا. انظر كتاب التوحيد٢/ ٧٢٨



رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدا، فيقال: يا محمد: ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقول: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان، فاخرجه من النار، فأنطلق فأفعل) فلما خرجنا من عند أنس، قلت لبعض أصحابنا: لو مررنا بالحسن البصري؛ فإنه متوار خوفا من الحجاج بن يوسف[1] - رحمه الله تعالى - فيحدثنا بما حدثنا أنس بن مالك، فأتيناه، فسلمنا عليه، فأذن لنا، فقلنا له: يا أبا سعيد جئناك من عند أخيك أنس بن مالك فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة، فقال هيه[2]، فحدثناه بالحديث فانتهى إلى هذا الموضع، فقال: هيه، فقلنا: لم يزد على هذا، فقال: لقد حدثني -وهو جميع-[3] منذ عشرين سنة، فلا أدري أنسي أم كره أن تتكلوا، فقلنا: يا أبا سعيد، فحدثنا، فضحك، وقال: (خلق الإنسان عجولا) ما ذكرته إلا أنا أريد أن أحدثكم، حدثني كما حدثكم به، ثم قال: (ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر ساجدا، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يارب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي، وجلالي، وكبريائي، وعظمتي لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله)[4].

وروى البخاري في صحيحه من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة يسمون الجهنميين)[5].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**شفاعتي لأهل الكبائر من**

---

(١) هو أبو محمد الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل الثقفي الطائفي، كان ذا شجاعة وإقدام ودهاء وفصاحة، لكنه أخذ عليه قتله لعبدالله بن الزبير رضي الله عنه وحصاره لأهل الحرم ورميه للكعبة بالمنجنيق، قال عنه الذهبي: كان ظلوما جبارا، وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، انظر سير أعلام النبلاء٤/ ٣٤٣، وشذرات الذهب ١/ ١٠٦

(٢) بمعنى: زدني؛ وهو اسم فعل بمعنى الأمر. انظر شرح النووي لصحيح مسلم٢/ ٦٤

(٣) أي مجتمع العقل، وهو إشارة إلى أنه كان وقتها لم يدخل في الكبر الذي هو مظنة تفرق الذهن، واختلاط الحفظ. انظر فتح الباري١٣/ ٤٧١,

(٤) صحيح البخاري ١٣/ ٤٧٣ حديث٧٥١٠، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان باب الشفاعة٢/ ٦١ واللفظ للبخاري.

(٥) صحيح البخاري مع الفتح كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار١١/ ٤١٦ حديث ٦٥٥٩

أمتي)[١].

وذكر ابن أبي العز رحمه الله[٢] نوعين آخرين من شفاعة النبي ﷺ وكأنه عدهما واحدا حيث قال: (النوع الثاني، والثالث من الشفاعة: شفاعته صلى الله عليه وسلم في أقوام تساوت حسناتهم، وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها)[٣].

ويتبين من هذه الأحاديث صحة شفاعة النبي ﷺ التي أنكر بعض أنواعها أهل البدع، كما يتضح من مجموع أحاديث هذا المبحث صورة الواسطة في شفاعة النبي ﷺ في الآخرة، يقول ابن أبي العز: (ثم إن الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال: أ - فالمشركون، والنصارى، والمبتدعون من الغلاة في المشايخ، وغيرهم يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا. ب - والمعتزلة، والخوارج أنكروا شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره في أهل الكبائر. جـ - أما أهل السنة، والجماعة فيقرون بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر، وشفاعة غيره؛ لكن لا يشفع أحد حتى ياذن الله له، ويحد له حدا)[٤].

وبعد أن ثبتت شفاعة نبينا، وحبيبنا محمد ﷺ ينبغي التنبيه هنا على أنه لا يجوز أن نتوجه إليه ﷺ الآن بطلبها منه في الدنيا، وإنما نتوجه إلى المولى عز وجل في طلبها فنقول: اللهم شفع فينا نبيك وخاتمة رسلك محمدا صلى الله عليه وسلم، واجعلنا نرد حوضه، ونشرب منه شربة لا نظمأ بعدها أبدا، واجزه اللهم عنا أفضل ما جزيت نبيا عن أمته، وصل اللهم عليه أفضل، وأكمل ما صليت على أحد من النبيين، والمرسلين من قبله، وسلم تسليما.

---

(١) أخرجه أبوداود في سننه٥/ ١٠٦، والترمذي في سننه٤/ ٦٢٥ برقم٢٤٣٦، وقال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، والإمام أحمد في المسند٣/ ٢١٣، والحاكم في المستدرك١/ ٦٩، وابن حبان في صحيحه٨/ ١٣٢ برقم٦٤٣٤ بترتيب ابن بلبان، وقال ابن كثير: إسناده صحيح على شرط الشيخين. انظر تفسيره١/ ٤٨٨، وقال الشيخ الألباني: الحديث صحيح بطرقه. انظر كتاب السنة لابن أبي عاصم٢/ ٣٩٩، بتعليق الشيخ الألباني، وانظر للتوسع في تخريجه كتاب الشفاعة لمقبل الوادعي ص٨٥

(٢) هو صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد بن أبي العز الحنفي الأذرعي الدمشقي، ولد سنة ٧٣١هـ، اشتغل بالعلوم حتى كان ماهرا في الفتوى، وخطب بحبان، وولي قضاء دمشق، ثم قضاء مصر، ثم استعفي ورجع إلى دمشق، كانت وفاته بها سنة ٧٩٢هـ، انظر هدية العارفين للبغدادي١/ ٧٢٦، والأعلام للزركلي٥/ ١٢٩

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص٢٣٢، وانظر إثبات الشفاعة للذهبي ص٢١

(٤) المرجع نفسه ص٢٣٥، وانظر اليوم الآخر القيامة الكبرى للأشقر ص١٨٩

المبحث الثالث

صورة الواسطة في شفاعة غير النبي ﷺ من الملائكة والنبيين والمؤمنين

تقدم معنا في المبحث السابق بيان صورة الواسطة في شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة، وحيث إن الله تعالى يأذن في الشفاعة في هذا اليوم أيضا لغيره عليه الصلاة والسلام فإن الحديث في هذا المبحث سيكون عن صورة الواسطة في شفاعة هؤلاء الشفعاء[١]، على ضوء الأدلة الشرعية، وذلك **على النحو التالي:-**

أولا: صورة الواسطة في شفاعة الملائكة لقد سبقت الإشارة في مباحث سابقة إلى التعريف بالملائكة الكرام عليهم السلام، وبيان كونهم واسطة في تبليغ أوامر الله ووحيه إلى أنبيائه ورسله، وبعض خلقه من غير الرسل.

ونبين هنا كونهم واسطة في الشفاعة في الآخرة، فالدليل على شفاعتهم قول الله تعالى: **﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾**[٢]ونحوها من الآيات.

والدليل على هذه الشفاعة من السنة ما جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الطويل مرفوعا، وفيه: (فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة.. ولم يبق إلا أرحم الراحمين....)[٣].

ثانيا: صورة الواسطة في شفاعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. لقد ثبت في السنة أن غير النبي من إخوانه المرسلين عليهم الصلاة والسلام يشفع في اليوم الآخر، لكن شفاعتهم تكون فيما يشاركون فيه النبي ﷺ عدا شفاعاته ﷺ الخاصة به، أما هذه الشفاعة التي يشاركه فيها إخوانه من النبيين والمرسلين فهو ﷺ المقدم فيها، والدليل على شفاعتهم ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الآتي، وفيه: (فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة، وشفع النبيون...)[٤].

---

(١) ولهذا -والله أعلم- جاء ذكر الشفعاء في آيات الشفاعة بصيغة الجمع بالمنطوق أو المفهوم، كقوله تعالى ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ سورة المدثر الآية ٤٨، وقوله﴿ من ذا الذي يشع عنده إلا بإذنه﴾ سورة البقرة الآية ٢٥٥ انظر عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ص١٣٥، والشفاعة في الإسلام للدكتور عانش الحبيشي رسالة ماجستير غير منشورة ص١٢٢

(٢) سورة النجم الآية ٢٦

(٣) انظر تخريجه الآتي بعد أسطر.

(٤) يأتي تخريجه بعد أسطر.

ثالثا: صورة الواسطة في شفاعة المؤمنين: لقد ثبت في السنة النبوية أن الله سبحانه وتعالى يأذن للمؤمنين في الشفاعة لأهل النار، وهذا من كرامة المؤمن على الله عز وجل، وهي منقبة عظيمة لأهل الإيمان، حيث يتعدى النفع الإيماني صاحبه إلى أخيه الذي أدخلته ذنوبه النار، والعياذ بالله. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعا وهو حديث طويل، وفيه: (حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون، ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه، وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحدا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيرا) وكان أبو سعيد الخدري يقول: (إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾**[1] فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين. . .)[2].

ومما يمكن الاستدلال به على هذه الشفاعة -أيضا- ما جاء في بعض السنن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**إن من أمتي من يشفع للفئام[3]، ومنهم من يشفع للقبيلة، ومنهم من يشفع للعصبة[4]، ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة**)[5].

---

(١) سورة النساء الآية ٤٠

(٢) رواه البخاري، كتاب التوحيد باب قول الله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ ١٣/ ٤٢٠، حديث ٧٤٣٩، ومسلم، كتاب الإيمان باب إخراج العصاة من النار ٢/ ٣٠ واللفظ لمسلم.

(٣) الفئام: الجماعة الكثيرة. انظر النهاية لابن الأثير ٣/ ٤٠٦ مادة (ف ء م)

(٤) العصبة بضم العين: ما بين العشرة إلى الأربعين. انظر القاموس المحيط ١/ ١٠٩، مادة(عصب).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه ٤/ ٦٢٧، وقال: هذا حديث حسن، والإمام أحمد في المسند ٣/ ٢٠، وابن خزيمة في كتاب التوحيد ٢/ ٦٣٦



وعن عبد الله بن أبي الجدعاء رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: (**ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم، قالوا: سواك يا رسول الله؟ قال: سواي**)[1].

ونفهم من شفاعة المؤمنين يوم القيامة التي أعطوها بسبب إيمانهم أنه كلما كان المؤمن أكثر تقى، وأكمل إيمانا، كان أحرى بالشفاعة لإخوانه المسلمين؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**إن اللعانين لا يكونون شهداء، ولا شفعاء يوم القيامة**)[2].

رابعا: صورة الواسطة في شفاعة الشهداء: قد جاء في بعض السنن أن الشهداء يشفعون يوم القيامة لأقاربهم؛ وذلك إكراما من الله لهم، لتضحيتهم بأرواحهم في سبيل الله تعالى. فعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**للشهيد عند الله ست خصال...**) ثم قال في آخر الحديث: (**ويشفع في سبعين إنسانا من أقاربه**)[3]. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته**)[4].

خامسا: صورة الواسطة في شفاعة أولاد المؤمنين: أولاد المسلمين إذا ماتوا قبل الحلم شفعاء، وأفراط لوالديهم يوم القيامة، يشفعون في والديهم، ويكونون واسطة بينهم وبين الله تعالى لطلب المغفرة لهم، والتجاوز عنهم، وإدخالهم الجنة مع أولادهم. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال له: إنه قد مات لي ابنان، فهل أنت محدثي عن رسول الله ﷺ بحديث تطيب له أنفسنا عن موتانا؟ قال: نعم: (صغارهم دعاميص[5]الجنة،

(١) أخرجه الترمذي في سننه٤/ ٦٢٦، وقال: حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجه في سننه٢/ ١٤٤٣، والإمام أحمد في المسند٣/ ٦٣٦، والحاكم في المستدرك١/ ٧٠ وصححه ووافقه الذهبي، وقال الشيخ الألباني: سنده صحيح. انظر تحقيق مشكاة المصابيح للتبريزي٣/ ٨١ برقم٥٦٠١

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب باب النهي عن لعن الدواب وغيرها ١٦/ ١٤٧

(٣) أخرجه الترمذي في سننه٤/ ١٨٨، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجه في سننه٢/ ٩٣٦، والإمام أحمد في المسند٤/ ١٣١، وأورده الآجري في كتاب الشريعة ص٣٤٩، وصححه الشيه الألباني، انظر: صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ١٢٩ برقم٢٢٥٧

(٤) أخرجه أبوداود في سننه٣/ ٣٤، وأورده الآجري في الشريعة ص٣٥٠، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير ٢/ ١٣٤٤ برقم٨٠٩٣

(٥) الدعاميص جمع دعموص: أي صغار أهلها، وأصل الدعموص دويبة في الماء لا تفارقه، أي فهذا الصغير في الجنة لا يفارقها. انظر شرح النووي لصحيح مسلم١٦/ ١٨٢، والقاموس المحيط٢/ ٣١٤، وفيه: الدعموص -بالضم- دويبة أو دودة تكون في الغدران.



يتلقى أحدهم أباه، أو قال: أبويه فيأخذ بثوبه أو قال بيده كما آخذ أنا بصنفة[1] ثوبك هذا، فلا يتناهى أو قال فلا ينتهي حتى يدخله الله وأباه الجنة)[2]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد، لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله وإياهم بفضل رحمته الجنة، وقال: يقال لهم: ادخلوا الجنة، قال: فيقولون: حتى يجيء أبوانا، قال: ثلاث مرات، فيقولون مثل ذلك، فيقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم وأبواكم)[3].

وبعد أن تبينت صورة الواسطة في شفاعة غير النبي ﷺ من الملائكة، والأنبياء، والمؤمنين، وأولادهم، والشهداء من هذه الأمة، فينبغي للمؤمن اعتقاد شفاعة هؤلاء الشفعاء الذين دلت الأدلة الشرعية على ثبوت شفاعتهم في الآخرة ويكونون واسطة مقبولة عند الله تعالى، يقول السفاريني: (يجب أن يعتقد أن غير النبي ﷺ من سائر الرسل، والأنبياء، والملائكة، والصحابة، والشهداء، والصديقين، والأولياء على اختلاف مراتبهم، ومقاماتهم عند ربهم يشفعون. وبقدر جاههم، ووجاهتهم يشفعون؛ لثبوت الأخبار بذلك، وترادف الآثار على ذلك، وهو أمر جائز غير مستحيل، فيجب تصديقه، والقول بموجبه؛ لثبوت الدليل)[4].

وقد ذكر بعض أهل العلم أن شفاعة غير النبي ﷺ ممن ذكرنا تكون مشتركة مع النبي ﷺ في **ثلاث شفاعات وهي:-**

(أ) الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها. (ب) الشفاعة فيمن دخل النار أن يخرج منها. (جـ) الشفاعة في رفع درجات المؤمنين في الجنة

مبينا أن هذه الشفاعات ليست خاصة بالنبي ﷺ، بل تكون للملائكة، والنبيين، والصدقين، وغيرهم من المؤمنين، والصالحين حتى يشفع الرجل في أهله، وفي جيرانه، وفيما أشبه ذلك[5].

---

(١) صَنَفَة الثوب: طرفه. انظر شرح النووي لصحيح مسلم١٦/ ١٨٢

(٢) أخرجه مسلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب البر والصلة باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه١٦/ ١٨٢

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند٢/ ٥١٠، والنسائي في سننه٤/ ٢٥، والبيهقي في الشعب٧/ ١٣٣, قال الشيخ مقبل الوادعي: وهو على شرط الشيخين. انظر الشفاعة للوادعي ص٢٠٢

(٤) لوامع الأنوار٢/ ٢٠٩، وانظر اليوم الآخر القيامة الكبرى للأشقر ص١٩٠، والشفاعة في الإسلام للدكتور عائش الحبيشي ص١٤١

(٥) انظر مجموعة الرسائل والمسائل النجدية٢/ ٦٥



المبحث الرابع

صورة الواسطة في شفاعة القرآن والصيام

لا ريب أن قراءة القرآن الكريم، وإقامة حروفه، وتطبيق حدوده، وصيام شهر رمضان مع النوافل، إيمانا واحتسابا -لا ريب أن هذا من أصلح أنواع العبادة التي تنفع صاحبها، وتكون واسطة شرعية مقبولة بينه وبين ربه عز وجل، وقد سبقت الإشارة إلى شيء من ذلك في المبحث الماضي (وجه كون العبادة واسطة)؛ ولكن لما ثبت أن للقرآن، والصيام شفاعة يوم القيامة أردت أن أبين صورة الواسطة في شفاعتيهما في الآخرة؛ فأقول: -

أولا: صورة الواسطة في شفاعة القرآن الكريم: ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**اقرؤا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرؤا الزهراوين**[١] **البقرة، وسورة آل عمران؛ فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان**[٢]**، أو كأنهما فِرْقان**[٣]**من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرؤا سورة البقرة؛ فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة**)[٤][٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (**إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له، وهي:﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾**[٦]

ثانيا: صورة الواسطة في شفاعة الصيام: ومما يدل على شفاعة الصيام في الآخرة ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (**الصيام، والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام أي رب منعته الطعام، والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن منعته النوم بالليل فشفعني فيه، قال: فيشفعان**)[٧].

فتبين من هاتين الصورتين للواسطة في شفاعة القرآن، والصيام في الآخرة أن الأعمال الصالحة، والعبادة الشرعية المقبولة واسطة بين الله تعالى وعباده العاملين الصالحين، وأن

---

(١) سميت سورة البقرة وآل عمران زهراوين لنورهما وهدايتهما وعظيم أجرهما. انظر شرح النووي لصحيح مسلم٦/ ٩٠

(٢) الغياية: كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه كالسحابة وغيرها. انظر النهاية لابن الأثير٣/ ٤٠٣ مادة (غيا).

(٣) الفرْقُ، والفرقة: الطائفة. انظر مختار الصحاح ص٥٠١ مادة (ف ر ق).

(٤) البَطلة: أي السحرة. انظر شرح النووي لصحيح مسلم بشرح النووي٦/ ٩٠

(٥) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة٦/ ٨٩

(٦) سبق تخريجه.

(٧) أخرجه الإمام أحمد في المسند٢/ ١٧٤، والحاكم في المستدرك١/ ٥٤٤ وقال حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ورمز له السيوطي بالصحة في الجامع الصغير٢/ ٥٢، وصححه الشيخ الألباني. انظر صحيح الترغيب والترهيب١/ ٤١١

من أنفع تلك العبادات الشرعية، وأرجى تلك الأعمال الصالحة قراءة القرآن، والاشتغال بالصيام، يقول السفاريني: (والحاصل أن للناس شفاعات بقدر أعمالهم، وعلو مراتبهم، وقربهم من الله تعالى، والقرآن يشفع لأهله، والإسلام يشفع لأهله)[١].

وبعد أن بينا صورة الواسطة في الشفاعة في الآخرة، لا ننسى أن هذه الشفاعة خاصة بأهل التوحيد الخالص، وأنها لا تطلب من الشفعاء في الدنيا، وإنما نتوجه إلى الله تعالى نسأله أن يشفع فينا هؤلاء الشفعاء الذين ثبتت شفاعتهم.

وقد ذكر أهل العلم -استنباطا من آيات الشفاعة، وأحاديثها- أن للشفاعة **شروطا ثلاثة[٢] وهي:-**

١- كون المشفوع له من أهل التوحيد.

٢- رضا الله عن المشفوع له، ولا يرضى الله إلا عن أهل التوحيد.

٣- إذن الله تعالى للشافع في الشفاعة[٣].

وقد قرر العلامة ابن القيم هذه الشروط، وسماها أصولا، فقال: (فهذه ثلاثة أصول. . . لا شفاعة إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله، وعمله، ولا يرضى من القول، والعمل إلا توحيده، واتباع رسوله)[٤] صلى الله عليه وسلم.

والدليل على هذه الشروط من الكتاب العزيز، قول الله تعالى: ﴿ **يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً** ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿**وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى**﴾[٦]وقد قرر أهل العلم هذه الشروط، وتوسعوا في إيراد الأدلة عليها من الكتاب والسنة[٧].

---

(١) لوامع الأنوار٢/ ٢١١، وانظر الشفيع لعمر با شميل ص٦، ومجموع الفتاوى٣/ ١٤٧

(٢) من أهل العلم من يزيد شرطا رابعا، وهو قدرة الشافع على الشفاعة. انظر الشفاعة للوادعي ص١٢ ومن أهل العلم من يجمع هذه الشروط في شرطين، وهما: أ- رضا الله عن المشفوع له. ب- وإذنه تعالى للشافع في الشفاعة. انظر الحياة الآخرة للدكتور العواجي١/ ٢٩٢

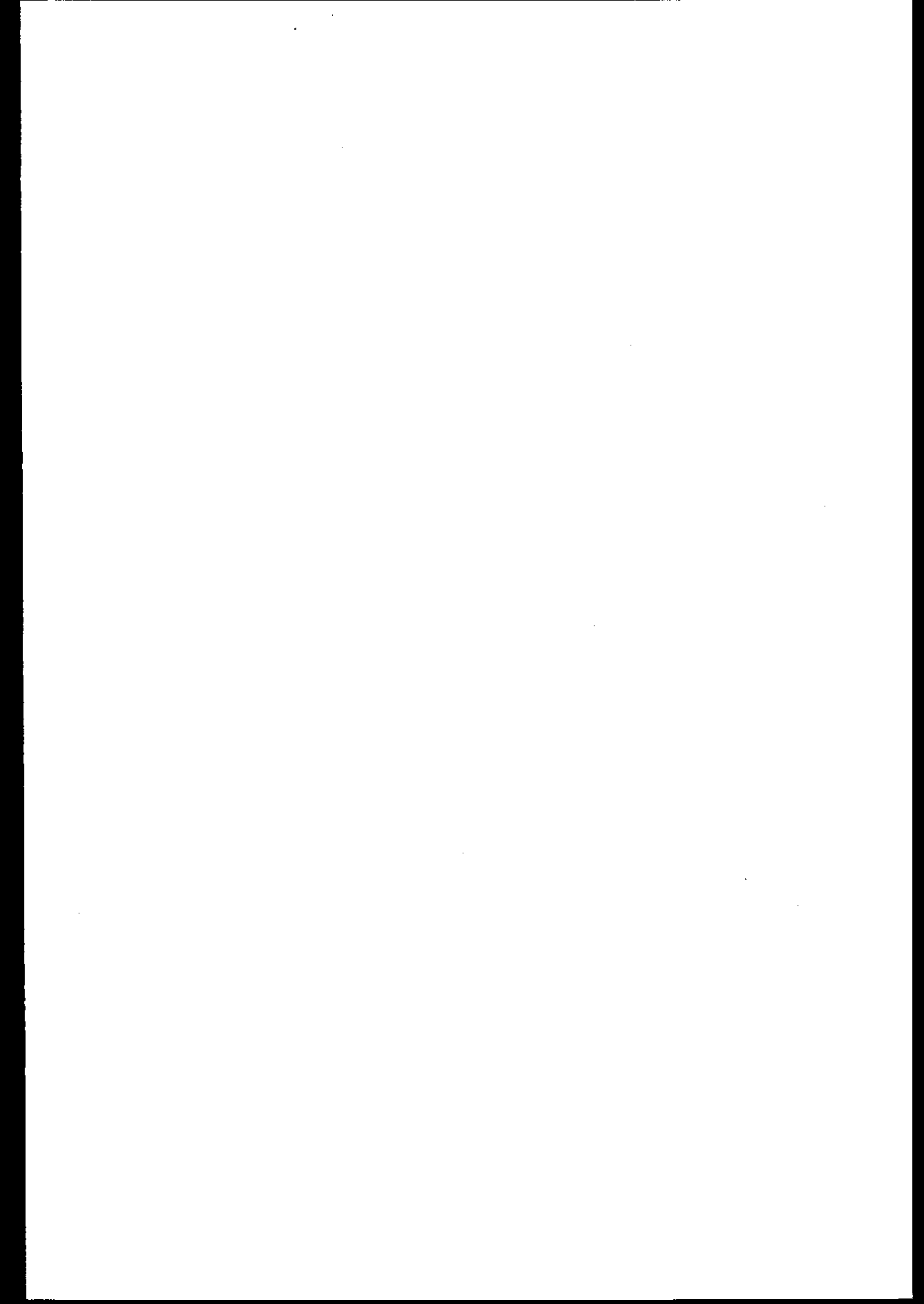
(٣) انظر الشفاعة للدكتور عائش الحبيشي رسالة ماجستير غير منشورة ص١٥٥، والشفاعة للدكتور ناصر الجديع ص٧١

(٤) مدارج السالكين١/ ٣٤١

(٥) سورة طه الآية ١٠٩

(٦) سورة النجم الآية ٢٦

(٧) لمعرفة الأدلة على تلك الشروط والتوسع في ذلك راجع الشفاعة للدكتور ناصر الجديع ص٧١، والشفاعة في الإسلام للدكتور عائش الحبيشي ص١٥٥، والشفاعة للشيخ مقبل الوادعي ص١٢، والحياة الآخرة للدكتور غالب العواجي ١/ ٢٩٢



الباب الثاني

الواسطة بين الله وخلقه عند أهل الأهواء

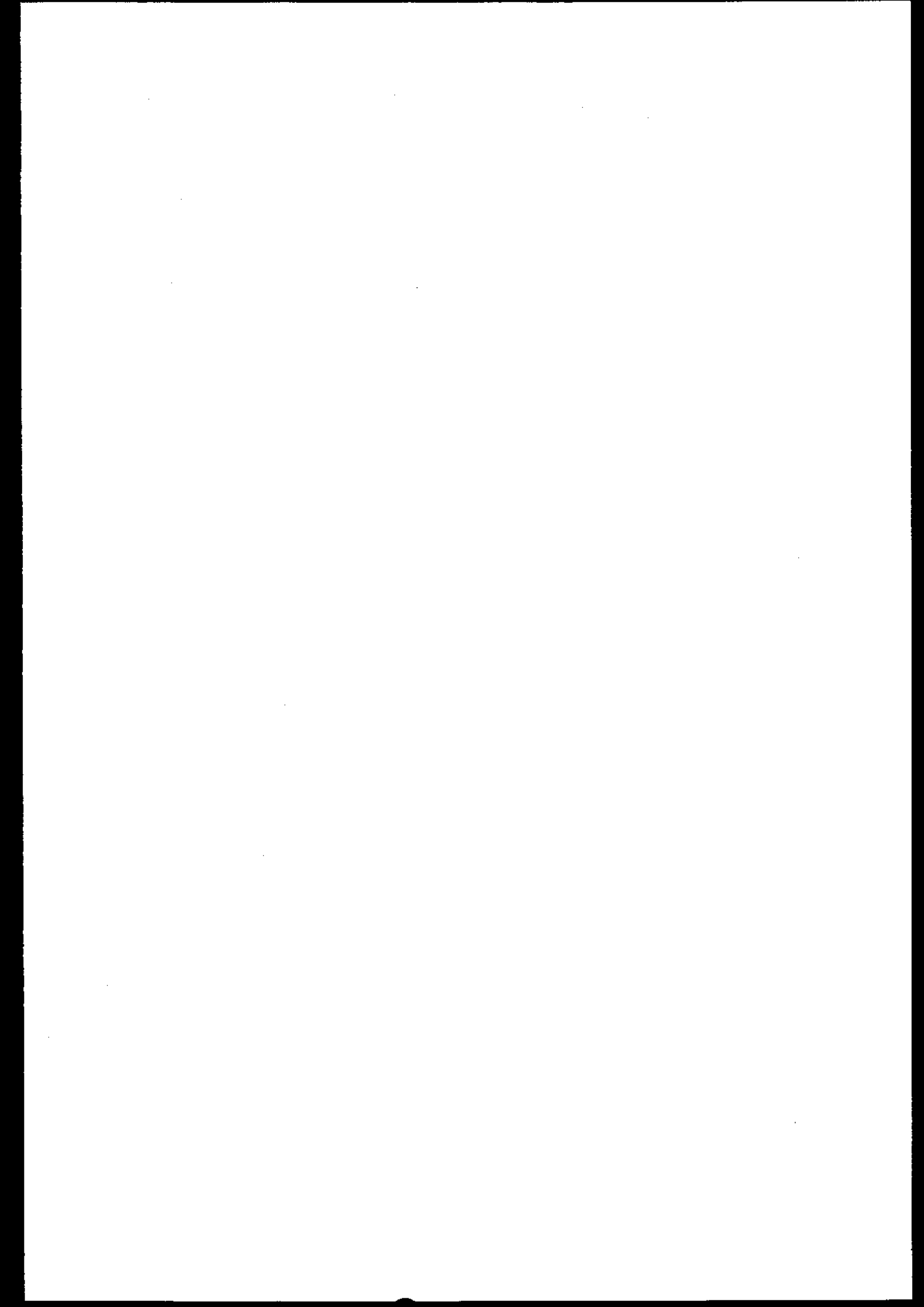
وفيه أربعة فصول:-

الفصل الأول: مفهوم الواسطة عند أهل الأهواء وبيان خروجهم فيه عن دائرة الكتاب والسنة.

الفصل الثاني: الواسطة بين الله وخلقه عند الفلاسفة وبيان شبهتهم والرد عليهم.

الفصل الثالث: الواسطة بين الله وخلقه عند الرافضة وبيان شبهاتهم والرد عليهم.

الفصل الرابع: الواسطة بين الله وخلقه عند الصوفية وبيان شبهاتهم والرد عليهم.



الفصل الأول

مفهوم الواسطة عند أهل الأهواء

المبحث الأول: مذهب أهل الأهواء في فهم الواسطة وبيان فساده

سبقت الإشارة في التمهيد -عند تعريف الرافضة، والصوفية من أهل الأهواء والبدع- أن الرافضة قصرت مفهومها الخاص بالواسطة على الأئمة من آل البيت رحمهم الله، وجعلته الصوفية في الأولياء والشيوخ من أرباب الطرق وشيوخ الفرق، فكذبت الرافضة على الأئمة من آل البيت فادعت أنهم واسطة بينهم وبين الله تعالى، والأئمة بريئون من هذا الزعم الكاذب، بينما كذب غلاة أئمة الصوفية، ومشايخها الضالون على المريدين من أتباعهم فادعى كثير من مشايخهم أنهم واسطة بينهم وبين الله تعالى، فكذب التابع على المتبوع عند الطائفة الأولى، وكذب المتبعون على أتباعهم عند الطائفة الثانية (فكل من الإمام والولي كان يدعي لنفسه وينسب إليه أصحابه العلم اللدني، واعتبروا كلا منهما مطلعا على سر منحه الله له مباشرة وبلا واسطة)[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والغلو في الأمة وقع في طائفتين: طائفة من ضلال الشيعة الذين يعتقدون في الأنبياء، والأئمة من أهل البيت الألوهية، وطائفة من جهال المتصوفة يعتقدون نحو ذلك في الأنبياء، والصالحين)[٢].

كما أن الصوفية يظهر بجلاء تأثرهم بالفلاسفة؛ وذلك في صورة الواسطة البدعية عند الصوفية في الأموات ـ كما سيأتي، ويجمع بين طائفتي الرافضة والصوفية الغلو، وتقديس الأشخاص[٣]، كما يجمع بينهما الالتجاء إلى القبور، والتعلق بأصحابها، وهو ما يطلق عليه القبورية، وهي فرق كثيرة متفاوتة في دركات القبورية من حيث الغلو، والتقديس، ومن حيث الانتماء إلى الأشخاص، والمدارس، فبعضهم وثنية أقحاح، وبعضهم يقع في بعض الشركيات، وبعضهم الآخر متأثر ببعض بدع القبورية، ويمثل القبورية في العالم

---

(١) من قضايا التصوف للدكتور محمد الجلنيد ص٢٢٣، وانظر إغاثة اللهفان٢/ ٥٩٨، وكتاب البرهان الساطع في تبرؤ المتبوع من التابع لمحمد سلطان المعصومي ص١٣

(٢) مجموع الفتاوى١/ ٦٦

(٣) انظر دراسات في الأهواء والفرق والبدع للدكتور ناصر العقل ص٣٧١

الإسلامي طائفتان: الأولى: الرافضة بجميع فرقها، **والثانية:** الصوفية بجميع طرقها[١].

كل مذهب لا يقوم على منهج الله تعالى، ولا يستنير بنور الوحي: من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ الذي هو مصدر التلقي عند أهل السنة والجماعة[٢] ففساده بين، وخلله ظاهر، وهذا الوصف هو الذي يصدق على مذهب أهل الأهواء في فهم الواسطة فإنهم لم يتقيدوا بالكتاب والسنة في إثبات ما يصح من الواسطة الشرعية، ونفي ما لا يصح من الوسائط البدعية، ولم يحكموهما في أمور العقيدة، فيسيروا معهما حيث سارا ويقفوا معهما حيث وقفا؛ بل تركوا هذا المنهج الرباني، وعمدوا إلى تسويلات النفس ونزغات الشيطان، وبنوا مذهبهم في الواسطة على ركام من الخرافات، والأوهام، ونسيج من الحكايات، والمنامات، والأقيسة الفاسدة، والأدلة المردودة الباطلة، ولعل مذهبهم في الواسطة يتبين لنا من خلال النقاط التالية: -

أولا: تعلقهم بكل شيء ظنوه سببا، وإن لم يكن سببا. يظن أهل الأهواء أن كل شيء توسل به الإنسان إلى ربه عز وجل كان وسيلة صحيحة وواسطة موصلة، وهذا غلط فاحش، فقد تقدم معنا في تعريف الواسطة عند أهل الأهواء أنهم يروون في هذا المقام حديثا مكذوبا وهو أن النبي ﷺ قال: **(من حسن ظنه بحجر نفعه)**[٣]، فأطلقوا العنان لأهوائهم، وحسنوا بكل شيء ظنونهم، فتعلقت قلوبهم بالأحياء الموجودين ويمموا نحو الأموات المقبورين، وأصبحوا يستمدون منهم، فقطعتهم عن الله القواطع، وشغلتهم دون الله الشواغل وتعلقت بغير الله القلوب، فحرمت بسبب العوائق، والعلائق عن مناجاة علام الغيوب، واعتمدوا على الأسباب الشرعية، وغير الشرعية.

فمن تلك الأسباب الشرعية: الأنبياء، والمرسلون، وأولياء الله الصالحون المتقون، فالإيمان بهؤلاء، ومحبتهم، واتباعهم، وطلب الدعاء منهم في حال حياتهم، وعدم الغلو فيهم ينفع المسلم، ويزيده إيمانا، وأما الالتفات إليهم بالكلية، واعتماد القلب عليهم، ورجاؤهم دون الله، والاستناد إليهم، وسؤالهم إجابة الدعوات، أو التوجه بهم إلى الله

---

(١) انظر جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية لشمس الدين الأفغاني ١/ ٢٧، ودمعة على التوحيد حقيقة القبورية وآثارها في واقع الأمة من إصدارت المنتدى ص١٧

(٢) راجع المبحث السابق (تقيد أهل السنة والجماعة بالكتاب والسنة في فهم الواسطة)

(٣) باطل لا يصح، ولمعرفة المزيد عنه .

لتفريج الكربات، واعتقاد أنهم يعلمون ما غيبه الله تعالى من أقداره عن الخلق، فتلك دعوى ساقطة، وسفسطة هابطة، لا تصلح أن تكون واسطة.

وأما الأسباب غير الشرعية أصلا فكالعكوف على القبور، والتمسح بها، وتعفير الجباه، والخدود بترابها، واستمطار الرحمات، وطلب حصول الخيرات بدعاء أصحابها، والاستغاثة بهم، والاستعانة برفاتهم، فهذا النوع ليس من الأسباب الشرعية أصلا حتى يلتفت إليه أهل الأهواء، ويُعدَّ واسطة، وسببا موصلا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ولهذا قال بعضهم: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع)[(١)].

وقال علي بن أبي العز: (ومعنى التوكل، والرجاء يتألف من وجوب التوحيد والعقل، والشرع، وبيان ذلك: أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه، ورجاؤه والاستناد إليه، وليس في المخلوقات ما يستحق هذا؛ لأنه ليس بمستقل، ولا بد له من شركاء وأضداد مع هذا كله؛ فإن لم يسخره مسبب الأسباب لم يسخر)[(٢)].

فمن قال: (أتوسل بأبي بكر فقد جمع بين ذاتين لا وسيلة، ولا طريق توصل وتجمع إحداهما بالأخرى، فكأنما هذا القائل قد لفظ لفظا لا معنى له، بمنزلة من سرد الأحرف الهجائية؛ إذ لا اتصال بين ذات المتوسِّل، والتوسَّل به حتى يجمع بينهما، فلابد من جامع يتوسل به، وهو حب الصحابة مثلا، وهو من عمل المتوسل، فإذا قال: أتوسل إليك رب بحبي لأبي بكر، أو بحبي لصحابة نبيك، كان هذا حسنا مشروعا، وكذا إن قال: أتوسل إليك بتوقيري، وتعزيري، وحبي، واتباعي لنبيك نبي الرحمة، كان هذا من الوسائل النافعة)[(٣)].

فالخطورة تكمن في التعلق بالأسباب، والأخذ بها وحدها دون النظر إلى مسببها، وخالقها، وهو الله سبحانه وتعالى، وهذه الخطورة تعرض الكون للاختلال، فالتعلق بالأسباب وحدها يؤدي إلى عبادتها، وما من أمة عبدت الأسباب إلا انتشر فيها الجهل

(١) مجموع الفتاوى٨/ ٧٠، وانظر صيانة الإنسان ص٢٣٢

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص٤٦٠، وانظر مجموعة الرسائل الكبرى١/ ٣٧٤، والقول الفصل النفيس ص٣٣

(٣) هذه مفاهيمنا ص ١٨، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم٢/ ٦٩٦، والتوسل للألباني ص٢٢

والفساد، ومن ترك المسبِّب وعبد الأسباب فقد ضل، ونسي الله تعالى؛ ولهذا ينبغي أن يعتبر في الأسباب **ثلاثة أمور**:-

أولها: أن السبب لا يستقل بالمطلوب.

وثانيها: أنه لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم.

وثالثها: أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيء سببا إلا أن تكون مشروعة[١].

فالعبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى، والأسباب الشرعية الموصلة إلى مرضاته لا يمكن أن تعرف إلا بوحي الله المنزل (فنحن نتقرب إلى الله تعالى، بالأفعال التي يحبها الله تعالى ويرضاها، ومحبوبات الله ومرضياته غيب محجوب عنا، ولا نستطيع معرفته إلا إذا أعلمنا بذلك، من هنا كانت العبادات التي تقربنا إلى ربنا مبينة مفصلة، ولم يترك الله لأحد فيها قولا، ولم يدع فيها نقصا يحتاج إلى إكمال، ولو ترك شيء بغير إيضاح لكان مدعاة إلى الاختلاف، والتنازع)[٢].

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ في رده على من زعم أن دعاء غير الله تعالى من الأحياء والمقبورين، واعتبارهم واسطة شرعية يعد من قبيل الجاه، والتسبب: (وهذا العراقي[٣] صرح بأنه يجوز نداؤهم -أعني نداء الأنبياء، والصالحين؛ بل والجمادات- كما هو مشهور عنه، لكن يسميه توسلا، خالف المشركين في التسمية لا في الحقيقة، فيدعو الغير، ويرجوه في كل مطلوب على وجه الجاه، والتسبب، وهذا حقيقة الشرك، والتنديد)[٤].

ثم أخذ رحمه الله في الرد عليه فقال (واعلم أن دعاء الأموات والغائبين ليس بسبب لما يقصده المشرك، ويريده، بل هو سبب لنقيض قصده، وحرمانه، وهلاكه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾[٥]؛ لأنه في الحقيقة إنما عبد

---

(١) انظر الواسطة بين الحق والخلق ص٤٤

(٢) مقاصد المكلفين فيما يتعبد به لرب العالمين لعمر الأشقر ص٥٠٤

(٣) يقصد الشيخ رحمه الله داود بن جرجيس الذي ألف كتابه للرد عليه.

(٤) تحفة الطالب والجليس ص٣٧، وانظر مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ١/ ٧٢

(٥) سورة الحج الآيتان (١٢-١٣).

الشيطان، ودعاه، وأطاعه فيما يأمر به؛ ولذلك تتبرأ الملائكة، والصالحون ممن دعاهم، وصرف لهم شيئا من العبادة، وأيضا: فليس كل سبب يباح؛ بل من الأسباب ما هو محرم، وما هو كفر كالسحر، والتكهن، والغبي يظن أن الدليل يسلم له إذا أراد التسبب لا الاستقلال، وعباد الكواكب، وأصحاب النيرنجيات[١]، ومخاطبات النجوم يرون أنها أسباب، ووسائل نافعة، ويظنونها كالأسباب العادية، وعباد القبور والأنفس المفارقة يرون أن تعلق قلب الزائر، وروحه بروح المزور سبب لنيل مقصوده، وتحصيل نصيب مما يفيض على روح ذلك المزور[٢]. . . وقد قال بعض السلف[٣]: (ما عبدت الشمس، والقمر إلا بالمقاييس)[٤].

وإذا أخبرنا الله تعالى أن المشركين الأولين إنما أشركوا شرك واسطة وتقريب لا شرك خلق، وإيجاد، وشرك تسبب، لا شرك استقلال، فلماذا لا نتبع قول الله جل وعلا، وندع تأويلات أهل الأهواء، والبدع؟[٥].

والغاية إذا كانت واضحة وصحيحة -وهي عبادة الله تعالى بما شرع- فلا بد أن تكون الوسيلة أيضا كذلك واضحة وصحيحة؛ لأن الذي شرع الغاية لم ينس الوسيلة، والأعمال الصالحة لا تكون مقبولة إلا بالنية الصالحة، فالنية الحسنة لا تجعل الباطل حقا؛ لأن حسن الينة وحده لا يكفي لتصحيح الفعل، فلا بد أن ينضم إليها التقيد بالشرع[٦].

والذين يقصدون التقرب إلى الله تعالى بأسباب غير مباحة ثلاث فرق: -

١- فرقة عدت بعض الذنوب والمعاصي قربات، كالتي تمكن نفسها من الشيخ صاحب الطريقة عن طريق الحرام، طلبا لوساطته وبركته.

٢- وفرقة جعلت الحرام وسيلة إلى الأمور التي يتقرب بها إلى الله تعالى كالذي يطلب

---

(١) النيرنجيات: إظهار خواص الامتزاجات، وتحوها بين القوى الفاعلة والمنفعلة وهي ضرب من التمويه والتخييل، وينرنج فارسي معرب، وأصله نورنك أي: لون جديد، والنيرنجيات ألحقها بعضهم بالسحر. انظر مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده١/ ٣٣٩

(٢) راجع صورة الواسطة عند الفلاسفة في الفصل الأول من هذا الباب.

(٣) جاءت هذه العبارة عن ابن سيرين رحمه الله رواها عنه ابن جرير في تفسيره٨/ ١٣١، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله٢/ ٧٦، قال الحافظ ابن كثير: إسناده صحيح. انظر تفسيره٢/ ٢٠٣

(٤) تحفة الطالب والجليس ص٤٥

(٥) انظر هذه مفاهيمنا ص١١٩

(٦) انظر مدارج السالكين١/ ٨٤، والبدعة لسليم الهلالي ص١٨

المال والكسب بالربا.

٣- وفرقة ظنت أن من الحرام ما يصبح قربة في حق طائفة معينة أو فرد معين كالذين يزعمون أن المعصية الصغيرة مباحة للولي، ويدعون أن الله أحل له ما حرمه على غيره، فيزعمون أن ذلك الذنب قربة لصدوره عن ذلك الولي[١].

ويجمع بين أهل الأهواء، وهذه الفرق الثلاث أن أهل الأهواء أيضا يزعمون أنهم يتقربون إلى الله تعالى بالشرك، ووسائله كالغلو في الأشخاص، والتوسل بهم إلى الله تعالى، والالتجاء إلى القبور، والعكوف عليها، ولهذا خاطبهم أحد الشعراء بقوله[٢]: -

يا داعيا غير الإله تقربا	**في زعمه للواحد الديان**
أنسيت أنك عبده وفقيره	**ودعاؤه قد جاء في القرآن**
الله أقرب من دعوت لكربة	**وهو المجيب بلا توسط ثان**
ليس التوسل والتوسط بالهوى	**بل بالتقى والبر والإحسان**
هذا كتاب الله يفصل بيننا	**هل جاء فيه توسلوا بفلان**
إن التوسل في الكتاب لواضح	**وإذا فطنت فإنه نوعان[٣]**

ثانيا: دعوتهم الصريحة إلى التعلق بالواسطة، والالتفات إليها أكثر من الالتفات إلى المتوسط إليه.

بناء على ما سبق من تعلق أهل الأهواء بالأسباب الشرعية وغير الشرعية لتتوسط لهم عند الله تعالى، فإنهم يرون أن الإنسان العادي غير مهيأ لمناجاة الله تعالى ورجائه، ودعائه، والاطراح بين يديه من غير واسطة نظيفة الظاهر، مصقولة الباطن، تفتح له أبواب ذلك الرجاء، ونوافذ الدعاء، وتمهد له الاطراح بين يدي خالق الأرض والسماء، وعلى هذا الفهم بنوا مذهبهم الفاسد في الواسطة، وقالوا: لا بد لنا من واسطة، وليس كل من اتخذ بينه وبين الله واسطة يعد مشركا؛ لأن أمور الناس جميعا تنبني على الواسطة[٤].

---

(١) انظر قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام ١/ ١٥٠، ومقاصد المكلفين للأشقر ص٥٠١

(٢) هذه الأبيات لمحمد عبد الظاهر الفقيه. انظر كتابه حياة القلوب بدعاء علام الغيوب ص٩٩

(٣) يشير بذلك إلى توسل المؤمنين بالإيمان والعمل الصالح وتوسل المشركين بالأصنام والأوثان.

(٤) لا يقصدون بذلك الواسطة الشرعية الصحيحة التي سبق بيانها في معتقد أهل السنة والجماعة وهي واسطة من الله إلى الناس في التبليغ وهي النبوة، أو الرسالة، وواسطة من الخلق إلى الخالق وهي العبادة، وإنما يقصدون بالواسطة توسيط ذوات الأنبياء، والأولياء، والصالحين، وكل من زعموا أن فيه سرا إلهيا!!.



يقول محمد علوي المالكي : (يخطئ كثير من الناس في فهم حقيقة الواسطة فيطلقون الحكم هكذا جزافا بأن الواسطة شرك ، وأن من اتخذ واسطة بأي كيفية كانت فقد أشرك بالله ، وأن شأنه في هذا شأن المشركين القائلين : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[١] ، وهذا كلام مردود ، والاستدلال بالآية في غير محله ؛ وذلك لأن هذه الآية الكريمة صريحة في الإنكار على المشركين عبادتهم للأصنام واتخاذها آلهة من دونه تعالى ، وإشراكهم إياها في دعوى الربوبية على أن عبادتهم لها تقربهم إلى الله زلفى ، فكفرهم وإشراكهم من حيث عبادتهم لها ، ومن حيث اعتقادهم أنها أرباب من دون الله . . . فالواسطة لا بد منها ، وهي ليست شركا ، وليس كل من اتخذ بينه وبين الله واسطة يعتبر مشركا ، وإلا لكان البشر كلهم مشركين بالله ؛ لأن أمورهم جميعا تنبني على الواسطة ، فالنبي صلى الله عليه وسلم تلقى القرآن بواسطة جبريل ، فجبريل واسطة للنبي ﷺ وهو صلى الله عليه وسلم الواسطة العظمى للصحابة رضي الله تعالى عنهم . . . ، وهو الذي يقول : (أنا قاسم والله معط) وبذلك يظهر أنه يجوز وصف أي بشر عادي بأنه فرج الكربة ، وقضى الحاجة ، أي كان واسطة فيها ، فكيف بالسيد الكريم ، والنبي العظيم صلى الله عليه وسلم؟)[٢] .

وهذا هو مذهب أهل الأهواء في الواسطة ، وهو الخلط بين الواسطة في التبليغ ، والواسطة في العبادة ، ومن ثم يظنون من نفى الواسطة في العبادة فهو ينفي الواسطة في التبليغ ، وهذا فهم سقيم يصيح بصاحبه ، وبنوا على مذهبهم هذا أن كل واسطة في التبليغ يصح توسيطها في الدعاء ، والرجاء ، والتوجه ، والاستمداد ، وطلب الرزق ، والسداد ، وسيمر بنا أن من نتائج هذا الفهم الخطير أن أهل الأهواء تجاوزوا حافة الدعاء بالواسطة فسقطوا في حفرة دعاء الواسطة نفسها ، والتوجه إليها بطلب المغفرة ، والنجاة ، وسعة الرزق ، وشفاء المريض ، وحضور الغائب ، وإنجاح المطالب ، وإخصاب رحم العقيم ، والاستمداد من أصحاب القبور الفيوضات الدائمة ، والتوجه إليهم بطلب حسن الخاتمة ، وهذا من غير شك ظن الغافلين الجاهلين الذين حرموا التقوى ، والولاية ، وقست قلوبهم فعميت بصائرهم عن نور الهدى .

---

(١) سورة الزمر الآية , ٣ ووقعت الآية في مفاهيم يجب أن تصحح هكذا﴿إنما نعبدهم﴾ وهذا خطأ يجب أن يصحح!

(٢) مفاهيم يجب أن تصحح ص ٩٥ وما بعدها (بتصرف)



يقول أبو السمح الفقيه رحمه الله[١] : (فيظنون أن الأولياء تقرب العباد من الله فيكونون وسطاء عنده لغيرهم ممن ليسوا بأولياء، ولم يدروا أن اتخاذ الأولياء وسطاء وشفعاء من دون الله هو دين المشركين في كل زمان، وأن دين الإسلام امتاز بأنه لا وساطة فيه بين العبد وربه[٢]، ولا زلفى إليه تعالى إلا بالإيمان، والعمل الصالح، والتقوى، كما قال جل شأنه: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾[٣]، : ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[٤]

فإن لم يكن العبد وليا مطيعا لله فإن أولياء الله يتبرؤون منه، ويكرهونه موالاة لله، ولن يتوسطوا لعدو الله، وهم أحباب الله، فإن توسطوا له كانوا أعداء لله مثله، وطردوا، وكيف يتوسطون لمن يدعوهم من دون الله؟ فيحولوا بينه وبين مناجاته لربه، وتذلله له، وهم لم يكونوا أولياء إلا بحبهم ما يحب الله وبغضهم ما يبغض الله تعالى، والله يبغض من يدعو سواه، ويحب من يسأله، ويدعوه)[٥].

واستمع إلى آخر وهو يدعو إلى الشرك علانية، ويقول: إنه ينبغي أن يتعلق الخلائق بالواسطة أكثر من تعلقهم بالمتوسط إليه، وهو الخالق سبحانه ذو القوة المتين، فيقول: (. . . فإنه صلى الله عليه وسلم هو الواسطة بيننا وبينه تعالى، والدليل لنا عليه، والمعرف لنا به عز وجل، والتعلق بالواسطة متقدم على التعلق بالمتوسط إليه؛ فإن الواسطة هو السبب في الدخول على الملك العظيم، ووسيلة إلى منازل القرب، فهو صلى الله عليه

---

(١) هو أبو السمح عبدالظاهر بن محمد نور الدين التليني، إمام وخطيب المسجد الحرام، ولد في بلدة (تلين) بمصر سنة ١٣٠٠هـ، حفظ القرآن على يد والده وهو في سن التاسعة من عمره، ثم التحق بالأزهر، وكان يحضر مجلس الشيخ محمد عبده وهو صغير السن، ثم اتصل بالشيخ أمين الشنقيطي رحمه الله فأنار له طريق العقيدة السلفية، أسس في مصر جماعة أنصار السنة، ثم طلبه الملك عبدالعزيز آل سعود ـ رحمه الله تعالى ـ، وعينه إماما وخطيبا في المسجد الحرام، أسس دار الحديث بمكة الكرمة، توفي بمصر سنة ١٣٧٠هـ. انظر: الأعلام٤/ ١١، وأئمة المسجد الحرام ومؤذنوه في العهد السعودي لعبدالله الزهراني ص, ٣٢

(٢) لعله رحمه الله يقصد نفي الواسطة في العبادة، والدعاء، أما في التبليغ فالواسطة ثابتة كما تقدم في الباب الأول من هذه الرسالة.

(٣) سورة طه الآيتان (٧٥-٧٦).

(٤) سورة سبأ الآية ٣٧

(٥) حياة القلوب بدعاء علام الغيوب ص٢٣ وما بعدها (بتصرف).

وسلم الواسطة بين الخلق وبين ربهم تعالى)[١] .

وإذا كان هذا الصوفي يدعو إلى التعلق بالواسطة، ويقصد بها النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من التعلق بالله تعالى فإننا نجد صوفيا آخر يدعو أيضا إلى التعلق بالواسطة؛ لكنه يقصد بالواسطة الشيخ، فيقول: (فالتعلق بالشيخ واللياذ بجنابه، والانحياز إليه تعلق بجناب الله الكريم؛ لأن الشيخ باب رحمة الله دنيا وأخرى، وعلى يديه تنزل الرحمة من الرحمن إلى كل مرحوم، وهو الوسيلة والواسطة، ولولا هو لهلك الكل، كما قيل: لولا الواسطة لذهب الموسوط)[٢] .

ويقول آخر: (ولهذا يتبين لك وجوب التعلق بالوسائل، والأسباب، وتأكد لزوم التزام الوسائط، والأبواب، فَتَعَلَّقْ بالوسائل، والأسباب، والجأ، واستغث، وانده لخواص الله، والأحباب، واطرق لدى الخطوب ما شئت من الأبواب تنل بذلك من فيض الوهاب ما لا يدخل في حساب)[٣] .

وهذا الاعتقاد السائد عند الصوفية في الواسطة هو ما مهد لظهور هذا المفهوم الخاطئ ونراه عندهم أيضا في الأوراد، والصلوات، فيقولون في الصلاة المشيشية[٤] بعد وصف النبي ﷺ بصفات فيها غلو (. . . . ولا شيء إلا وهو به منوط إذ لولا الواسطة لذهب -كما قيل- الموسوط)[٥] .

ويقولون: (كل من كان متعلقا بنبي أو برسول، أو ولي فلا بد أن يحضره، ويأخذ بيده في الشدائد)[٦] .

فالعكوف على القبور والتعلق بالمقبورين (ناتج عن قلة الاعتقاد في الأحياء؛ وذلك من نقص الهمة، اللهم إلا أن يكون ذلك على سبيل التعرض لنفحات الرحمة بالزيارة لطلب الزيادة، فمدد الميت أقوى من مدد الحي؛ لأنه في بساط الحق؛ ولأن التعلق به عري عن

---

(١) نقله النبهاني عن محمد بن عمر الغمري الواسطي. انظر شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ص٢٧١

(٢) رماح حزب الرحيم بحاشية جواهر المعاني١/ ٢٠ للفوتي.

(٣) من رسالة تحريض الأغبياء على الاستعانة بالأنبياء والأولياء لعبد الله المحجوب الميرغني، نقلا عن دمعة على التوحيد ص٤٥

(٤) نسبة إلى منشئها عبد السلام بن مشيش صوفي مغربي اشتهر برسالة له تدعى الصلاة المشيشية توفي عام ٦٢٢هـ.

(٥) الصلاة المشيشية مطبوعة بحاشية دلائل الخيرات للجزولي ص٢٦٠

(٦) فتاوى إفريقية للبريلوي ص١٣٥ نقلا عن البريلوية لإحسان إلهي ظهير ص٦٠، وانظر دمعة على التوحيد ص١٠٧



الأعراض، والعوارض من الاستئناس ونحوه، وكرامة الله لأوليائه لا تنقطع بموتهم؛ بل ربما زادت، كما هو معلوم في كثير منهم)[١].

ونقل النبهاني[٢] عن بعض مصنفي الصوفية أنه قال: (يحكى أن سيدي محمدا الحنفي[٣] قدس الله سره فرش سجادته على البحر، وقال لمريده: قل يا حنفي، وامش، فمشى المريد خلفه، فخطر له: لم تقول: يا حنفي؟ هلا قلت: يا الله؟ فلما قالها: غرق، فأمسك الشيخ بيده، وقال له: أنت الحنفي تعرفه فكيف بالله؟ فإذا عرفت الله فقل: يا الله!! يشير إلى أن الوسائط لا بد منهم، وقد قيل: لو وصل واصل من غير واسطة لوصل رسول الله ﷺ، ولكن كان واسطته أولا جبريل، فالوسائط ينادون من مكان قريب فيجابون، والمريد من مكان بعيد فلا يجاب، فلهذا قيل: لولا الواسطة لذهب الموسوط، وقال آخر: لولا الوسائط لكنا من الوسائط)[٤].

ويقولون: (إن لله عبادا اختصهم بحوائج الناس يفزعون إليهم بحوائجهم)[٥] ويدعون أيضا: (أن جميع العالم للأولياء ككف يد ينظرون إليها، وإن ناداهم أحد واستغاث بهم من أي بقعة كان يغيثونه، ويقضون حوائجه)[٦].

فإذن ينبغي أن لا تستولي علينا الغرابة من أصحاب هذا المعتقد الفاسد والمفهوم الخاطئ للواسطة حينما يصرحون (بأن نظام الخلق قائم بوساطة الأولياء)[٧]. وهذا ما جرهم في نهاية المطاف إلى ظهور التوسل بالله عز وجل والعياذ بالله إلى الصالحين لقضاء الحوائج فيقول الزائر على هذا الوجه الكفري: (قدمت وجاه الله يا سيدي فلان إلا ما قضيت لي حاجتي)[٨].

---

(١) نخبة المطلوب من شرح مطهرة القلوب لمحمد بن أحمد الخديم ص١٩

(٢) هو أبو المحاسن يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني الشافعي الأديب الصوفي، من مصنفاته: ((جامع كرمات الأولياء)) و((شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق))، توفي سنة ١٣٥٠هـ، انظر معجم المؤلفين١٣/ ٢٧٥

(٣) هو شمس الدين محمد الحنفي الصوفي صاحب الأقوال الخطيرة في شأن الكرامة، ولأتباعه غلو زائد فيه، قال عنه الشعراني: هو أحد أركان الصوفية وصدور أوتادها، مات سنة ٨٤٧هـ. انظر طبقات الشعراني٢/ ٨٨

(٤) برء الأسقام في زيارة برزة والمقام لمصطفى البكري الخلوتي نقلا عن شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ص٤٤٧

(٥) الأمن العلى للبريلوي ص٤٩ نقلا عن البريلوية ص٥٦

(٦) جاء الحق لأحمد يار البريلوي ص١٣٨ نقلا عن البريلوية ص٦٣

(٧) الأمن والعلى للبريلوي ص٢٤ نقلا عن البريلوية ص٧٤

(٨) الإبريز ص١٧٤

وفي الرد على هذا الادعـــاء، وقـــول أهل الأهواء: (لا بد للخلق من واسطة) وأن الأقطاب، والأبدال، والغوث يرزق الله بهم الخلائق يقول العز بن عبد السلام: (يلزم منه أن يرزق الله سبحانه الكفار، وينصرهم على عدوهم بالذات بلا واسطة، ويرزق المؤمنين وينصرهم بواسطة المخلوقات، والتعظيم في عدم الواسطة)(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وبالجملة فقد علم المسلمون كلهم أن ما ينزل بالمسلمين من النوازل في الرغبة، والرهبة مثل دعائهم عند الاستسقاء لنزول الرزق، ودعائهم عند الكسوف، والاعتداد لرفع البلاء، وأمثال ذلك إنما يدعون في ذلك الله وحده لا شريك له، لا يشركون به شيئا، لم يكن للمسلمين قطعا أن يرجعوا حوائجهم إلى غير الله عز وجل؛ بل كان المشركون في جاهليتهم يدعونه بلا واسطة فيجيبهم الله، أفتراهم بعد التوحيد والإسلام لا يجيب دعاءهم إلا بهذه الواسطة التي ما أنزل الله بها من سلطان؟)(٢).

ثالثا: فلسفتهم الخاصة في منع العصاة والمذنبين من التوجه إلى الله تعالى مباشرة، والبحث عن واسطة مصقولة لتتوسط لهم عند الله تعالى: يدافع أهل الأهواء عن مذهبهم في اتخاذ الواسطة البدعية بشبه متعددة، أهمها هذه الفلسفة التي سبقهم إليها الفلاسفة والمشركون في الجاهلية وهي أن الإنسان العادي غير مهيأ لمناجاة الله والتوجه إليه، وخصوصا إذا كان هذا الإنسان متلبسا ببعض الذنوب والمعاصي، فإنها تمنعه من هذه الأهلية فعليه إذن أن يبحث عن واسطة بينه وبين الله تعالى كي يسمع نداءه ويحقق رجاءه، وهذه الواسطة متوفرة فما عليه إلا أن يتوجه إلى قبر من قبور الأنبياء، أو ولي من الأولياء، أو إلى شيخ من مشايخ الطريقة مجرب في العلانية والسر، بسبب ما حل فيه من السر!! فإذا فعل ذلك فقد نجح في دنياه، وفاز في أخراه، فالأولياء يتصرفون، ولكن الله هو الذي له التصرف في تلك الأمور العظيمة، حتى يتعجب المتعجب بينما الفاعل في الحقيقة هو الله تعالى.

وقد جعل الله الوسائط؛ لأن الإنسان لو شاهد أفعال الحق لذابت نفسه وسالت وإنما يطيق الخلق أن يشاهدوا أفعال الحق عن طريق الواسطة؛ ولذا خلق الله الوسائط، وجعل الملائكة ظروفا تظهر فيها أفعاله لئلا تذوب المخلوقات، فلهذا كان للملائكة خصوصية في

---

(١) رسالة الأبدال، والغوث ضمن كتاب شجرة الإرشاد ص٦

(٢) زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور ص٦٦



توسطهم في الفعل ليست لغيرهم؛ ولأجل النفع الحاصل بالملائكة في التوسط بين الحق والخلق وجب الإيمان بهم دون غيرهم من المخلوقات[1].

ويصرح صوفي معاصر بهذا المذهب قائلا: (فامتثالا لأمر الله تعالى وتلبية لنداء القرآن سنذهب إلى البدوي[2].

ونقول له: حسبة لوجه الله تعالى، وامتثالا لأمر الله عاونًا في قضاء حوائجنا، وساعدنا على قضاء مصالحنا، واسأل الله تعالى أن يكشف عنا السوء، واطلب منه أن يمنحنا رضاه، واسأله أن يكشف عن المسلمين ما هم فيه من جهد، وعناء، وأن يزيل عنهم ما هم فيه من فاقة، وبلاء، سنقول له ذلك وأكثر من ذلك.

ونقول له: أنت أعرف منا بربك، وأدرى بما يجب له من أدب، وخضوع... ونحن عبيد قد أعمتنا الدنيا عن معرفة الله، وشغلتنا عن حضرته، وحالت بيننا وبينه، فأصبحنا نستحق الإبعاد، ونستوجب الطرد، والإعراض من حضرته، وليس لنا موئل، ولا سند، ولا معين إلا أن نطلب منك المعاونة، والمساعدة عنده، فإن لم تساعدنا لنكونن من الخاسرين، نعم سنقول له ذلك اعترافا لله بعجزنا، واعترافا بخطيئاتنا، وإقرارا بتقصيرنا، وقصورنا عن طلب السؤال منه؛ لأنا أغضبناه، وخرجنا عن حدود الأدب في معاملته، وانصعنا[3] لشهواتنا، وانقدنا لأهوائنا، وما بقي لنا وجه نسأله به، ولسان نذكره به، وما بقي لنا إلا الشفاعة عنده وبأخص أحبابه، وأخلص المقربين له، هذا هو تقديرنا لتعاليم القرآن، وتقديرنا لمقام ربنا، وتقديرنا لمقام أحبابه، وتقديرنا لأنفسنا)[4].

ويقول رجل آخر من أهل الأهواء مدافعا عن هذا المذهب في فهم الواسطة؛ لكنه هذه المرة من متأخري الرافضة: (فإذا كانت قداسة المكان وعراقة الزمان مؤثرين في استجابة الدعاء، وقبول التوبة، وقضاء الحاجة، وغفران الذنوب، فما المانع أن يقرن الداعي دعاءه

---

(١) انظر الإبريز ص٢٠٣، والصوفية معتقدا ومسلكا ص٣٧، ودمعة على التوحيد ص٩٧، والشرك في القديم والحديث لأبي بكر محمد زكريا ص٧٩٠ رسالة ماجستير غير منشورة.

(٢) هو أبو الفتيان، وقيل: أبو العباس أحمد بن علي بن إبراهيم بن علي بن إبراهيم شهاب الدين الحسيني، البدوي، الصوفي، ولد بفاس سنة ٥٩٦هـ، طاف البلاد، وأقام بمكة والمدينة، ودخل العراق، والشام، ثم استقر في مصر، وعظم شأنه بها، وانتسب إلى طريقته جمهور كبير من المصريين، توفي بطنطا سنة ٦٧٥هـ. انظر: الأعلام ١/ ١٧٠، ومعجم المؤلفين١/ ١٩٥

(١) انصاع للأمر: انقاد له، ورجع إليه. انظر القاموس المحيط٣/ ٥٥، مادة(الصاع).

(٤) العظة والاعتبار آراء في حياة السيد البدوي لأحمد محمد حجاب ص١٧٠



بذكر نبي الرحمة، وأهل بيته الأطهار، ويقدمهم بين يدي حوائجه؟ فإذا لم نكن نستغرب وقوع المكان، والزمان شفعا مؤثرا في استجابة الدعاء فماذا نستغربه من شفاعة نبي كريم؟! وهكذا العقل الفطري لا يستبعد تأثير واسطة الفيض في بلوغ القاصر بهمته المطلوبة نظرا لكمال الواسطة، وصلاحيته لانعكاس الفيوض منه إلى القاصرين، فإن للكاملين إشعاعات مفاضة تشمل القاصرين عن بلوغ الأهداف؛ حيث مرادفة الكامل كمال، ومصاحبة الجميل جمال؛ ولأجل عين ألف عين تكرم)[١].

ويرى بعض أهل الأهواء أن السبب في عدم التجاء الناس في الدعاء والتضرع إلى الله تعالى والتوجه إلى الواسطة من البشر، أو الحجر هو أن أهل الديوان[٢] ربطوا عقول الناس بالتوجه إلى الصالحين، وقطعوا صلتها بالله عز وجل للظلمة الكامنة فيهم.

يقول صاحب الدباغ: (وسألته رحمه الله لم كان الناس يستغيثون بذكر الصالحين دون الله عز وجل، فترى الواحد إذا جهد في يمينه يقول: وحق سيدي فلان كسيدي عبد القادر الجيلاني. . . . وإذا أصابه ضر، وأراد أن يسأل كالسعاة الذين يتكففون الناس صرح باسم سيدي فلان وهم في ذلك كله منقطعون عن الله عز وجل، وإذا قيل لهم توسلوا بالله، أو احلفوا به، أو نحو ذلك لا يقع ذلك الكلام منهم موقعا، فما السبب في ذلك؟ فقال رحمه الله: أهل الديوان من أولياء الله فعلوا ذلك عمدا لقوة الظلام في الذوات، وكثرة المنقطعين عن الله عز وجل، فصارت ذواتهم خبيثة، وأولياء الله تعالى يحبون الذين يذكرون سيدهم وخالقهم سبحانه أن تكون ذاته طاهرة. . . . وهذا لا يكون إلا للأولياء، ولا يكون للبعداء المحجوبين، فلو توجهت الذات الظلمانية إليه تعالى بجميع عروقها، وبكل جواهرها وسألته أمرا ومنعها، ولم يعطها على سر القدر في المنع لربما وقع لها وسواس في وجود الحق سبحانه، فتقع فيما هو أدهى وأمر من عدم قضاء حاجتها، فكان من المصلحة ما فعله أهل الديوان من ربط عقول الناس بعباد الله الصالحين؛ لأنه إذا وقع لهم وسواس في كونهم أولياء فإن ذلك لا يضرهم)[٣].

---

(١) مجلة الهادي الشيعية العدد الرابع مقالة بعنوان الشفاعة بين السلب والإيجاب لمحمد هادي معرفة ص٢٤

(٢) أهل الديوان أو مملكة الديوان يقصد به الصوفية اجتماع أرواح الأولياء أحياء وأمواتا رجالا ونساء ويحضره الملائكة والكمل من الجن ويحضره النبي (ويكون ذلك ليلة القدر فيتفقون على التصرف في العوالم العلوية والسفلية. انظر الإبريز ص١٩٩

(٣) الإبريز ص١٧٣



وبالجملة فالمعاني التي لأجلها يكون الشفعاء والوسطاء في مذهب أهل الأهواء من دون الله لا تكون إناطتها به واتصالها به إلا عن جهل وقصور بالغ، ولا يعتبرها في حقه تعالى إلا من لم يدر أمره، أو حقيقة شأنه إذ لو علم عظمة الله جل وعلا لأيقن أن هذا غلط كبير، ونؤي عن الحق وعمل بنقيض الحكمة، والعدل، (وكيف لا، والتوسيط في هذا الباب وقع بجاهل إلى عالم، أو بمن لا نسبة بينه وبين المتوسَّل إليه في جميع الوجوه؟ وخصوصا المعنى الذي يلاحظه المتوسِّل، والجهة التي يؤمها، والأمر الذي يحاوله، وهو إنهاء مطالبه، فكيف مع هذا إذا كان المتوسل إليه يقول: هلم، فأنا قريب منك لقضاء حاجتك، وإجابة دعائك؟ وقد تعرضت لك فلا تعرض عني، والتوسيط توعير، ومناقضة للمقاصد الصحيحة، والركون في الوصول إليَّ على شفيع هو من محض إيجادي ساع في أن ينال قربا مني ودنوا من رحمتي، راج ما ترجون، خائف مما تخافون سفه بحت، وضلال مبين . . . فكيف يصلح توسيط من يجهل، وينسى، ويمل، ويضجر، ويشغله شيء عن شيء، ولم يحجر الله سبحانه وتعالى اتخاذ الشفعاء من دونه إلا لما هو خير لنا، حسن العائدة علينا، عدل، قسط فيما بيننا وبينه، جار على السنن القويم الصالح البرئ من كل فساد، ولما في الاتخاذ من الفساد، والضرر، وعدم الانتفاع، فهذا خلاصة الأمر)[1].

وما أصدق قول الشاعر في معنى أن التوسيط توعير[2]: -

إذا ما أتيت الأمر من غير بابه ضللت وإن تقصد إلى الباب تهتدي

رابعا: اعتمادهم على الأخبار الواهية والأحاديث المكذوبة لما كان أهل الأهواء لا يحكمون الكتاب والسنة في معتقداتهم الباطلة، ومن ذلك مذهبهم في الواسطة؛ فإنهم ضلوا ضلالا بعيدا وأصبحوا ينعقون مع كل ناعق وينساقون مع كل سائق، ويستدلون بالأخبار الواهية، والأحاديث المكذوبة؛ لأنهم لا يميزون بين صحيح الأدلة من ضعيفها، ولا يعنيهم هذا الأمر في شيء، فدخل في عقائدهم البدع، والخرافات، والأوهام، وكل ما يصادم الشرع والعقل بسبب هذا المنهج، ومن تلك الأحاديث والأخبار التي يستدلون بها: -

---

(١) معارج الألباب ص٢٤٩، وانظر القول الفصل النفيس ص ٣٢.
(٢) هذا البيت أورده الماوردي في أدب الوزير المعروف بقوانين الوزارة ص ١٩.

أ - حديث (**من حسن ظنه بحجر نفعه**)[١]. فاستنادا إلى هذا الحديث المكذوب على النبي (الذي بعث بقتل من حسن ظنه بالأحجار ورفضه الإيمان بالله تعالى والتعلق به يرون أن من الأولياء من يتولى التصرف في جميع من يزور الصالحين ويحسن ظنه بالموتى فهذا الشيخ الولي ينظر في حوائجهم، ويقضي ما قضاه الله منها، فقلوب أمة محمد صلى الله عليه وسلم لها شأن عظيم عند الله، ولو أنها اجتمعت على موضع لم يدفن فيه أحد وظنت فيه وليا، وجعلت ترغب إلى الله تعالى في ذلك الموضع فإن الله تعالى يسرع لها في الإجابة[٢].

ب - ومثل: (إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور)[٣].

ج - ومثل: (قبر معروف ترياق مجرب يستشفى به)[٤].

د - ومثل قولهم: (قبر موسى الكاظم الترياق الأكبر)[٥].

هـ - ويرون أن أحد الأولياء (كان إذا ناداه مريده أجابه من مسيرة سنة أو أكثر)[٦].

و - وكان محمد بن الفرغل[٧] يقول لأتباعه: (أنا من المتصرفين في قبورهم، فمن كانت له حاجة فليأت إلى قبالة وجهي، ويذكرها لي أقضها له)[٨].

ز - ويقولون: (ذكر بعض العارفين أن الولي بعد موته أشد كرامة منه في حال حياته؛ لانقطاع تعلقه بالمخلوق، وتجرد روحه للخالق، فيكرمه الله تعالى بقضاء حاجة المتوسلين به)[٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وإنما يضع مثل هذه الحكايات من يقل علمه ودينه)[١٠].

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) انظر الإبريز ص٢٥٤، ومجموعة الرسائل والمسائل النجدية١/ ٦٨

(٣) موضوع مكذوب باتفاق العلماء. انظر المزيد في تخريجه الآتي.

(٤) الرسالة القشيرية ص٤٢٧، وانظر وفيات الأعيان٥/ ٢٣٢، واقتضاء الصراط المستقيم٢/ ٦٩٠

(٥) كشف فيوض لحمد عثمان البريلوي ص٥٧ نقلا عن البريلوية ص٦٠

(٦) مجموعة رسائل رضوية للبريلوي١/ ١٨٠ نقلا عن البريلوية لإحسان إلهي ظهير ص٦٠

(٧) هو محمد بن أحمد الفرغل السميعي الصعيدي ينعته الصوفية بالولي، وينقلون عنه كثيرا من الحكايات والكرامات. مات سنة ٨٦٠هـ بالصعيد في مصر، ودفن بزاويته في أبي تيج. انظر جامع كرامات الأولياء١/ ٢٧٣

(٨) جامع كرامات الأولياء١/ ٢٧٤

(٩) نقله النبهاني عن شيخه العدوي. انظر شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ص١٢٠

(١٠) اقتضاء الصراط المستقيم٢/ ٦٩٣، وانظر صيانة الإنسان ص٢٧٥



فمذهب أهل الأهواء التعويل على المنامات، والأحاديث الموضوعة، والحكايات المزعومة دون الاعتماد على الكتاب والسنة الصحيحة، واعتبار فهم السلف الصالح رحمهم الله.

ومن تلك الأحلام الشيطانية أن أبا المواهب الشاذلي[١] كان يقول: (رأيت رسول الله ﷺ فقال لي: إذا كانت لك حاجة وأردت قضاءها فانذر لنفيسة الطاهرة[٢] ولو فلسا؛ فإن حاجتك تقضى)[٣]. فهذا الحلم الشيطاني دعوة صريحة للشرك بالله عز وجل وتخط لحدود التوحيد، وتنقص لمقام الرسول (الذي كان يدعو لحماية جناب التوحيد، وسد كل طريق يفضي إلى الشرك، (وعلى كل فالمنامات لا يمكن الاعتماد عليها، وصاحبها ليس نبيا معصوما، ومن ثم فلا يعتمد عليها، فكيف إذا كانت حلما شيطانيا، وخالفت الأحكام الشرعية؟ بل وخالفت الأصل الأصيل وهو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة؟)[٤].

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن من غرور أهل الأهواء وأشباههم أن يحسبوا أن استجابة الدعاء عند القبور كرامة من الله لصاحب القبر، وليس هو في الحقيقة كرامة، وإنما هو استدراج؛ لأن الكرامة في حقيقة الأمر هي التي تنفع صاحبها في الآخرة، أو تنفعه في الدنيا، ولا تضره في الآخرة، أما هذه الاستجابة فهي بمنزلة ما ينعم الله به على الكفار، والفساق من البسطة في الجسم، والسلطة في الحكم، والكثرة في المال والولد[٥].

(ولا ريب أن اتخاذ الشفعاء، والتوجه إليهم بالقلب واللسان ينافي إسلام القلب والوجه لله وحده، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[٦] أخبر تعالى أن النذارة بالقرآن لا تنفع إلا من تخلى عن الشفعاء في

---

(١) هو أبو الحسن علي بن عبدالله بن عبدالجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن بطال نورالدين الضرير الصوفي المعروف بالشاذلي، نشأ بالمغرب الأقصى، ومبدأ ظهوره بشاذلة بتونس، ونزل بالأسكندرية، وإليه تنسب الطريقة الشاذلية، ولد بالمغرب سنة ٥٩١هـ، وتوفي بصحراء عيذاب سنة ٦٥٦هـ، انظر لطائف المنن لابن عطاء السكندري ص١٣٥، طبقات الشعراني٢/ ٥، والأعلام٥/ ١٢٠، ومعجم المؤلفين٢/ ٤٦٧

(٢) هي نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، صاحبة المشهد المعروف بمصرة تقية، صالحة، عالمة بالحديث والتفسير، ولدت بمكة سنة ١٤٥هـ، ونشأت بالمدينة ثم انتقلت مع زوجها إلى مصر، ثم توفيت بالقاهرة سنة ٢٠٨هـ.

قال ابن خلكان: وكان للمصريين فيها اعتقاد عظيم، وهو إلى الآن باق كما كان، انظر: وفيات الأعيان ٥/ ٤٢٣، والأعلام للزركلي٨/ ٤

(٣) طبقات الشعراني ٢/ ٧٤

(٤) دمعة على التوحيد ص١٣٠

(٥) انظر اقتضاء الصراط المستقيم٢/ ٧٠٥، والقول الفصل النفيس ص٦٨

(٦) سورة الأنعام الآية ٥١



دار العمل، وعلق رغبته، ورهبته، وسؤاله، وطلبه بمن له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، وهذا هو الذي دعا إليه رسول الله ﷺ وفي تحقيقه من الآيات ما لا يحصى)[١].

ومن صور تعلقهم بالقبور، والدعوة صراحة إلى الشرك قول شاعر القبورية[٢]: -

يا خائفين من التتر — لوذوا بقبر أبي عمر

ولو نطق هذا المقبور الذي واراه الثرى بعيدا عن عالم الورى، لخاطب هؤلاء الذين يتوجهون إليه بالدعاء، والسؤال قائلا بلسان الحال[٣]: -

ومن عجب أني لغيرك شافع — إليك وبي فقر إلى ألف شافع

وسبب ذلك أن المقبور قد انقطع عمله وهو في حاجة إلى من يدعو له ويشفع لأجله (ولهذا شرع في الصلاة عليه وجوبا أو ندبا ما لم يشرع مثله في الدعاء للحي، فإنا لما كنا إذا قمنا إلى جنازته ندعو له، ونشفع لأجله، فبعد الدفن أولى أن ندعو له ونشفع؛ لأنه في قبره أشد احتياجا إلى الدعاء منه على نعشه؛ لأنه حينئذ معرض للسؤال وغيره . . . فبدل أهل البدع والضلال قولا غير الذي قيل لهم؛ فإنهم قصدوا بالزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ إحسانا إلى الميت، وإلى الزائر سؤالهم الميت، والاستغاثة به)[٤].

ومن نماذج الحكايات القبورية الصارخة بالكفر والمغلفة بالشرك في الربوبية والألوهية ما ذكره أحد القبوريين وهو إمام وخطيب للنقشبندية في أحد المساجد المهمة، حيث يقول: (دعوت الله ست سنوات أن يرزقني الولد فلم أرزق، وذهبت إلى شيخي في أربيل[٥]، فما أن استغثت به، وطلبت منه الولد حتى رزقت بطفلين توأمين!!)[٦] تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا. وهذا بعينه ما ذكره الآلوسي عن بعضهم أنه قال: (الولي أسرع إجابة من الله عز وجل)[٧].

---

(١) القول الفصل النفيس ص٨٦، وانظر الدرر السنية في الأجوبة النجدية ١/ ١٦٥

(٢) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ٢/ ٧٣٢ (٣) انظر يتيمة الدهر للثعالبي .

(٤) الرد على شبهات المستعينين بغير الله تعالى ص٦٩، وانظر إقامة البراهين لسماحة الشيخ ابن باز ص٤٦

(٥) الذي في معجم البلدان إربل على وزن إثمد فلعل الناس توسعوا في استعمالها فقالوا أربيل تقع بين الزابين وتعدمن أعمال الموصل بينها وبين بغداد مسيرة سبعة أيام للقوافل. انظر معجم البلدان ١/ ١٣٧

(٦) دمعة على التوحيد ص٦٣ (٧) تفسير الآلوسي ٢٤/ ١١



ومما رسخ مذهب أهل الأهواء في الواسطة المبني على الاعتقاد الفاسد في المقبورين وادعاء أنهم ينفعونهم إذا توجهوا إليهم، وتوسلوا بهم، وجعلوهم واسطة ما يحكيه بعضهم من أنواع الحكايات الباطلة العاطلة (كحكاية أن بعض المريدين استغاث بالله فلم يغثه، واستغاث بشيخه فأغاثه، وحكاية أن بعض المأسورين في بلاد العدو دعا الله فلم يخرجه، ودعا بعض المشائخ الموتى فجاء فأخرجه إلى بلاد الإسلام، وحكاية أن بعض الشيوخ قال لمريده: إذا كانت له حاجة إلى الله فتعال فقف إلى قبري وتوسل إلى الله بي، وآخر قال: قبر فلان هو الترياق المجرب، فهؤلاء وأشباههم يرجحون هذه الوثنية والعبادات، والقربات الشركية على الأدعية، والعبادات التي أحبها الله وشرعها لأحب عباده إليه، ويكرهها هؤلاء مضاهاة لسائر المشركين)[١].

ويصرح التجانيون بأن أحمد التجاني هو خاتم الأولياء وهو الواسطة بين الأنبياء والأولياء، وأن فيوض الأنبياء لا تصل بالمدد إلى أي ولي كبر شأنه، أو صغر إلا بواسطته من نشأة العالم إلى النفخ في الصور[٢].

ويحكون عنه أنه قال: (نهاني ﷺ عن التوجه بالأسماء[٣] وأمرني بالتوجه بصلاة الفاتح لما أغلق)[٤].

وأنه قال أيضا: (شفعني الله في أهل عصري من يوم ولادتي إلى يوم حلول رمسي وزيادة عشرين سنة)[٥].

ونقل النبهاني عن أحد شيوخه أنه قال: (من الأولياء من ينفع مريده الصادق بعد مماته أكثر مما ينفعه حال حياته، ومن العباد من تولى الله تعالى تربيته بغير واسطة، ومنهم من تولاه بواسطة بعض أوليائه، ولو ميتا في قبره، فيربي مريده وهو في قبره، ويسمع مريدُه صوتَه من القبر، ولله عباد يتولى تربيتهم النبي ﷺ بنفسه من غير واسطة لكثرة صلاتهم عليه ﷺ).

---

(١) القول الفصل النفيس ص٩٧، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص٤٦٣

(٢) انظر رماح حزب الرحيم بهامش جواهر المعاني ٢/ ٥ (٣) لعله يقصد أسماء الله الحسنى.

(٤) الإفادة الأحمدية ص٥٧ بواسطة مخازي الولي الشيطاني الملقب بالتجاني الجاني لإبراهيم القطان المطبوع بآخر مشتهى الخارف الجاني ص٦٠٧ (٥) المرجع السابق ص٦٩

ثم قال: (وعلى هذا الذي ذكره شيخنا قول صاحب الحقائق والدقائق حاشا الصوفي أن يموت)[١].

وما دام مذهب أهل الأهواء في الواسطة يقوم على مجرد الظن بوجود السر على حد زعمهم في حي منظور أو ميت مقبور، واعتقاد صلاحه وقربه من الله تعالى، ووساطته عنده، ما دام الأمر كذلك فما الفرق بين كونه من تراب، أو حجارة، أو أخشاب، أو حديد، أو نحاس... أو أي شيء من المخلوقات؟ لا فرق عندهم في ذلك؛ بل المهم وجود السر والتوجه إلى صاحبه حتى وصل بهم الأمر إلى ما يسمى بـ«أضرحة دواب الأولياء».

(ففي اللاذقية[٢] بسورية حضرة يقال: إنها مدفن الفرس التي كان يركبها الولي المغربي لا تزال حتى اليوم تزار وتبخر، وفي الإسكندرية[٣] بمصر عزمت البلدية على نقل ضريح من أحد الطرق فثار الغوغاء هناك واستنكروا نقل الولي من قبره؛ ولكن البلدية أصرت على عزمها، وكانت المفاجأة أن القبر يضم عظام حمار، فالقبوريون عباد كل ضريح حتى لو ثبت عدم صحة نسبة الضريح إلى صاحبه أو كان الضريح لدابة، أو ثبت عدم وجود ضريح أصلا)[٤].

ويوجد بالقرب من عمان[٥] بالأردن مقام الشيخ (خنزير)[٦]. وفي مصر يتزاحم الناس في مولد السيد البدوي حول حمار يأتي به دراويش الطريقة الشاذلية إلى قبر السيد البدوي فيتسابقون إليه يتمسحون به ويعتقدون بركته، وينزعون شعرات من جسمه يصنعون منها الأحجبة، والتعاويذ، وهذا الفعل بعينه كان قدماء المصريين يفعلونه بهذا الحيوان[٧].

---

(١) شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ص١٥٠، وانظر مثله في الجواهر والدرر للشعراني المطبوع بحاشية الإبريز ص٥٩

٢) اللاذقية مدينة بالشام من أعمال حلب غربي جبلة بينهما ستة فراسخ. انظر معجم البلدان٥/ ٥

(٣) وتسمى الإسكندرية العظمى؛ لأن الإسكندر الرومي بنى ثلاث عشرة مدينة وسماها باسمه، ولم يبق منها يحمل اسمه سوى هذه وهي مدينة مشهورة بمصر. انظر معجم البلدان١/ ١٨٢

(٤) دمعة على التوحيد ص١٢٤

(٥) عمان، بتشديد الميم: عاصمة الأردن تقع على سيف البادية، ورستاقها البلقاء. انظر معجم البلدان٤/ ١٥١

(٦) انظر دمعة على التوحيد ص١٢٦

(٧) انظر دمعة على التوحيد ص١٢٧



كل هذه الطقوس الخرافية، والعبادات الشركية خيمت في أذهان العوام من الناس بسبب تلبيسات أهل الأهواء والبدع بذكر هذه الحكايات، والمنامات عن قضاء الأولياء لحوائج الناس وتصرفهم في الكون، فتجاوزوا بهذه التصرفات، والممارسات الدعاء بالواسطة المزعومة إلى دعاء الواسطة نفسها، (وكذا قولهم: العارف لا يعرف، والشكوى لأهل البصير عيب، مدد يا سيدي فلان، نظرة إلينا بعين الرضا، راعني أنا محسوبك، وكذا قولهم: ملعون ابن ملعون من كان في شدة، أو في ضيق ولم يقل يا ست، أو يا سيد، وهذا هو عين الشرك الأكبر)[1]. وقال أحدهم وهو يؤصل مذهب أهل الأهواء فيالواسطة والتعلق بها بسبب النفع الحاصل في الالتجاء إلى المقبورين على حد زعمهم[2]: -

ولا تسمعن من قاصر النفع فيهم ... على من يكن حيا فذاك من الطلس[3]

فإن شهود النفع ينفي مقالهُ ... ولا سيما والقوم نصوا على العكس

وقد دفع الالتجاء إلى الأموات، ودعاء الغائبين لكثير من جهلة الفقهاء، والمفتين، وأقوام من أهل الزهد والعبادة والدين، فترى أحدهم يستغيث بمن يحسن به الظن حيا كان أو ميتا، ويحصل لكثير منهم أن تتمثل له صورة المستغاث به وتخاطبه وتقضي بعض حوائجه وتخبره ببعض الأمور الغائبة.

ومنهم من يقول للواسطة: سل لي ربك، ومنهم من يذكر ذلك في صورة منظومة، أو منثورة، ومنهم من يقول: يا سيدي الشيخ فلان، أو يا سيدي رسول الله ﷺ: نشكو إليك ما أصابنا من العدو، وما نزل بنا من المرض، وما حل بساحتنا من الجهد.

ومنهم من يظن أن الرسول ﷺ أو الشيخ يعلم ذنوبه، ويعرف حوائجه، وإن لم يذكرها، وأنه يقدر على غفران ذنوبه، وقضاء حوائجه، ويقدر على ما يقدر عليه الله، ويعلم ما يعلمه الله[4].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في رده على من زعم أن القطب، أو الغوث، والنجباء

---

(١) السنن والمبتدعات ص١٦، وانظر الرسائل السلفية للشوكاني ص١٧٢

(٢) انظر نخبة المطلوب من شرح مطهرة القلوب لمحمد بن أحمد الخديم ص١٨٥

(٣) قال صاحب القاموس المحيط: يقال: رجل أطلس إذا رمي بقبيح، ويقال أنطلس الأمر بمعنى خفي، انظر القاموس المحيط ٢/ ٢٣٤ مادة (طلس).

(٤) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ٩٣



بواسطتهم يكون مدد الخلائق، ونصرهم، ورزقهم: (وأما القطب، "الغوث" "الفرد" "الجامع" فهذا قد يقوله طوائف من الناس ويفسرونه بأمور باطلة في دين الإسلام، مثل تفسير بعضهم أن الغوث هو الذي يكون مدد الخلائق بواسطته في نصرهم، ورزقهم، حتى يقول: إن مدد الملائكة وحيتان البحر بواسطته، فهذا من جنس قول النصارى في المسيح عليه السلام والغالية في علي رضي الله عنه، وهذا كفر صريح يستتاب منه صاحبه؛ فإن تاب وإلا قتل؛ فإنه ليس من المخلوقات، لا ملك، ولا بشر يكون إمداد الخلائق بواسطته؛ ولهذا كان ما يقوله الفلاسفة في العقول العشرة، وكذلك أعني بالغوث ما يقوله بعضهم: من أن في الأرض ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا يسمونهم النجباء فينتقى منهم سبعون هم النقباء، ومنهم أربعون هم الأبدال، ومنهم سبعة هم الأقطاب، ومنهم أربعة هم الأوتاد، ومنهم واحد هو الغوث، وأنه مقيم بمكة، وأن أهل الأرض إذا نابهم نائبة في رزقهم، ونصرهم فزعوا إلى الثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، وأولئك يفزعون إلى السبعين، والسبعون إلى الأربعين، والأربعون إلى السبعة، والسبعة إلى الأربعة، والأربعة إلى الواحد، وبعضهم قد يزيد في هذا وينقص في الأعداد، والأسماء، والمراتب؛ فإن لهم فيها مقالات متعددة، حتى يقول بعضهم إنه ينزل من السماء على الكعبة ورقة خضراء باسم غوث الوقت، واسم خضره. . .، وهذا كله باطل لا أصل له في كتاب الله، ولا سنة رسوله، ولا قاله أحد من سلف الأمة، ولا أئمتها، ولا من المشايخ الكبار المتقدمين الذين يصلحون للاقتداء بهم)[1].

خامسا: قياسهم الواسطة في العبادة على الواسطة في التبليغ: من أهم الأمور التي بنى عليها أهل الأهواء مذهبهم الفاسد في فهم الواسطة أنهم قاسوا توسيطهم للأنبياء، والأولياء، وشيوخ الطرق في دعائهم لله تعالى لقضاء حوائجهم، وتحقيق مطالبهم، قاسوا ذلك على إرسال الله تعالى لأنبيائه، ورسله واسطة بينه وبين خلقه لتبليغ شرائعه، وإقامة الحجة على خلقه، مبشرين من اتبع الوحي الذي جاءوا به بالفوز برضا الله تعالى وقربه، ومنذرين من أعرض عن ذكره والنور الذي جاءوا به بسخط الله تعالى، وعذابه، والبعد منه، ولقد عُلِمَ من طريق الوحي أن هؤلاء المرسلين أكدوا للخلق أن وساطتهم

(١) زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور ص٦٢، وانظر دراسات في الأهواء والفرق والبدع للدكتور ناصر العقل ص١٥٢



ليست في عبادة الخلق لخالقهم ؛ لأن الله تعالى قريب مجيب يعلم حالهم ويرى مكانهم، ويسمع سؤالهم، فليس بينه وبين خلقه واسطة في حال الالتجاء، والتضرع، والدعاء، وسائر أنواع العبادة التي بينها الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا هو سبيل الإخلاص الذي جاء به الإسلام ولا يقبل الله عز وجل عبادة بدونه[١]، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٢]، وقال أيضا: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[٣]، ولتشبث أهل الأهواء بهذه الشبهة وبيان متمسكهم فيها والرد عليها فسوف نتناولها بتوسع في المبحث الرابع من هذا الفصل.

سادسا: زعمهم أن كل من عظمه الله عز وجل واسطة بذاته، فيرون أن من تعظيمه اعتقاد وساطته وأن ذلك من تعظيم الله عز وجل. ومن تلبيسات إبليس على أهل الأهواء جعلهم كل من ورد تعظيمه في كتاب الله تعالى أو في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم واسطة صحيحة توصل إلى المطلوب، وتدني العبد من علام الغيوب، وليتهم تقيدوا بمنهج الكتاب والسنة فعظموا ما ورد تعظيمه في الكتاب والسنة بما يستحقه من التعظيم، والإكرام، وقصروا الواسطة على ما ثبت في الكتاب والسنة أنه واسطة شرعية فيكونوا متقيدين بالكتاب والسنة في فهم الواسطة، وهذا هو منهج أهل السنة والجماعة.

لكن أهل الأهواء خالفوا هذا المنهج الواضح والصراط المستقيم، وبنوا على اعتقادهم الباطل في الميت المعظم مذهبهم في الواسطة وهو مأخوذ من مذهب عباد الكواكب والأصنام حيث قالوا: (الميت المعظم الذي لروحه قرب ومنزلة ومزية عند الله تعالى لاتزال تأتيه الألطاف من الله تعالى، وتفيض على روحه الخيرات؛ فإذا علق الزائر روحه به وأدناها منه فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها، كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية، والماء، ونحوه على الجسم المقابل له، قالوا: فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت، ويعكف بهمته عليه ويوجه قصده كله وإقباله عليه بحيث لا يبقى فيه التفات إلى غيره، وكلما كان جمع الهمة، والقلب عليه أعظم كان أقرب إلى انتفاعه به.

---

(١) راجع ما سبق بيانه في الفصل الثالث (صورة الواسطة في العبادة)
(٢) سورة الكهف الآية ١١٠ (٣) سورة الزمر الآيتان (٢-٣).



وقالوا: فإن العبد إذا تعلقت روحه بروح الوجيه المقرب عند الله، وتوجه بهمته إليه وعكف بقلبه عليه صار بينه وبينه اتصال يفيض به عليه منه نصيب مما يحصل له من الله تعالى، وشبهوا ذلك بمن يخدم ذا جاه، وحظوة، وقرب من السلطان، فهو شديد التعلق به، فما يحصل لذلك من السلطان من الإنعام والإفضال ينال ذلك المتعلق به بحسب تعلقه به.

فهذا سر عبادة الأصنام وهو الذي بعث الله رسله وأنزل كتبه بإبطاله، وتكفير أصحابه، ولعنهم، وأباح دماءهم، وأموالهم، وسبي ذراريهم، وأوجب لهم النار، والقرآن من أوله إلى آخره مملوء من الرد على أهله، وإبطال مذهبهم)[1].

قالوا فالأنبياء عليهم السلام لهم الجاه العريض والمكانة العظيمة عند الله تعالى، فتعظيمهم من تعظيم الله تعالى فلا غرو -والحالة هذه- أن نجعلهم واسطة بيننا وبين ربنا جل وعلا؛ لأنه تعالى عظمهم بالإرسال، والإيحاء فنحن نعظمهم بالتعلق، والالتجاء.

يقول النبهاني: (من الجلي الواضح البين الذي لا يخفى على من وضع الله في قلبه أدنى نور أن مراعاة جانب الله تعالى والمحافظة على توحيده إنما تكون بتعظيم من عظمه الله تعالى، وتحقير من حقره الله تعالى، وقد عظم الله تعالى أنبياءه، وأصفياءه، فعظمناهم لأجله، فالتعظيم في الحقيقة راجع إليه سبحانه وتعالى وقد جعلهم سبحانه وتعالى وسائط لنا في تبليغ شرائع دينه، فوسطناهم له عز وجل لقضاء حوائجنا تبعا له في توسيطهم لنا في تبليغ شرائعه، واحتقارا لأنفسنا عن أن نكون أهلا لطلب حوائجنا منه سبحانه وتعالى بلا واسطة لكثرة ذنوبنا، ووفرة عيوبنا...)[2].

ويقول آخر -مؤكدا هذا الزعم القاصر للتعظيم-: (... فإن للكاملين إشعاعات مفاضة تشمل القاصرين عن بلوغ الأهداف حيث مرادفة الكامل كمال، ومصاحبة الجميل جمال؛ ولأجل عين ألف عين تكرم)[3].

وبسبب هذا المنهج الفاسد الذي وضعه أهل الأهواء للمعظمين ونظرتهم الغالية للتعظيم

(١) إغاثة اللهفان١/ ٢٢٤، وانظر الرسائل السلفية للشوكاني ص١٩٠، ودمعة على التوحيد ص٩٣

(٢) شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ص١٤٢، وانظر الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية للنبهاني أيضا ص٦٠٤، ومفاهيم يجب أن تصحح ص٩٤

(٣) تقدم في ص، وانظر ما نقله الشيخ عبد الله بن جبرين ورد عليه من قول أحد كتاب الصوفية المعاصرين: (لك أن تتوسل إلى الله بكل ما يحبه الله) في الجواب الفائق على مبدل الحقائق ص٣٠



البدعي نشأ عندهم تقديس الأشخاص، والأماكن، والآثار، والتبرك بها، والتعلق بها، واعتبارها واسطة لجلب الحسنات، ومحو السيئات، ويظنون أن من فعل ذلك فهو دليل على سلامة قلبه وصفاء روحه ومحبته للأنبياء والمرسلين، وعباد الله الصالحين، ولا يضره بعد ذلك الإخلال بالواجبات، أو التلبس بشيء من المحرمات.

وقد بين أبو الوفاء بن عقيل رحمه الله[١] السر في ذلك فقال: (لما صعبت التكاليف على الجهال، والطغام[٢] عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، وهم عندي كفار بهذه الأوضاع: مثل تعظيم القبور، وإكرامها بما نهى عنه الشرع: من إيقاد النيران، وتقبيلها، وتخليقها[٣]، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل بنا كذا وكذا تبركا)[٤]. وقد صاغ أبو السمح الفقيه هذا المعنى شعرا فقال[٥]: -

ثقلت على الناس الفعال فيمموا نصبا تقربهم بلا حسبان

واستأنسوا بدعائها واستوحشوا مما يقربهم إلى الرحمن

وبسبب هذا الفهم الفاسد للواسطة ضل أهل الأهواء في هذا الباب العظيم، وهو توحيد الألوهية الذي هو أساس الإسلام، وروح العقيدة، وانقطعوا عن الله تعالى بتعلقهم بهذهالوسائط البدعية التي يثبتونها، فظهر عندهم تقديس الأشخاص والغلو فيهم وغرقوا في هذا الغلو حتى آذانهم، وهذا ما سنتحدث عنه في المبحث الآتي. .

---

(١) هو أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل الفقيه الحنبلي البغدادي، أحد أذكياء العالم، ولد سنة ٤٣١هـ من مصنفاته ((الفنون)) و ((الواضح في أصول الفقه))، كانت وفاته سنة ٥١٣هـ، انظر شذرات الذهب ٤/ ٣٥

(٢) الطغام والطغامة: أوغاد الناس وأراذلهم، الواحد والجمع فيه سواء. انظر مختار الصحاح ص٣٩٣ مادة (ط غ م).

(٣) تخليقها: أي تعطيرها بنوع من الطيب يسمى الخلوق، يقال: خلقه تخليقا إذا طلاه بالعطر. انظر مختار الصحاح ص١٨٧ مادة (خ ل ق).

(٤) إغاثة اللهفان ١/ ٢٠١، وانظر مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص٣٣، والرسائل السلفية للشوكاني ص١٨٠

(٥) انظر حياة القلوب بدعاء علام الغيوب ص١٠٣

المبحث الثاني

غلو بعض أهل الأهواء في الواسطة الصحيحة

أولا: الغلو في اللغـة: يقال: غلا السعر غلاء بالمد فهو غال، وغَليٌّ، وأصل الغلاء الارتفاع ومجاوزة القدر في كل شيء، يقال: بعته بالغلاء، والغالي، والغليٌّ، قال الشاعر[1]: -

ولو أنا نباع كلام سلمى   لأعطينا به ثمنا غليا

وغلا الرجل في الدين يغلو غلوا، وغلانية إذا جاوز فيه الحد، كغلو اليهود، والنصارى في دينهما[2].

وفي المصباح المنير: الغلو: التشدد، والتصلب، ومجاوزة الحد ومنه قوله تعالى: ﴿**لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ**﴾[3][4]، ويقال: غلا بالسهم يغلو غلوا وغلوة إذا رفع يده يريد به أقصى الغاية في الرمي، ويقال: تغالى النبت، واغلولى إذا ارتفع عن الأرض، ونما، وتمادى في الطول، ويقال: تغالى لحم الدابة إذا ارتفع وصار على رؤوس العظام، والغالية: نوع من الطيب، والغالي: اللحم السمين، وكل شيء ارتفع وسما وزاد فقد غلا، قال الشاعر[5]: -

فما زال يغلو حب مية عندنا   ويزداد حتى لم نجد ما نزيدها

والغلوان، والغلواء: الغلو وسرعة الشباب، وأوله. يقال: خفف من غلوائك[6]. والتغلية: أن تسلم من بعد وتشير إشارة[7]. ويقال: غالى في صداق المرأة وأغلاه إذا جاوز فيه العرف المعتاد.

وقال الراغب: (الغلو تجاوز الحد، يقال ذلك إذا كان في السعر غلاء، وإذا كان في

---

(١) انظر لسان العرب ١٠/ ١١٢، مادة (غلا) والقاموس المحيط ٤/ ٣٧٣ مادة (غلا).

(٢) انظر كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ٤/ ٤٤٦ مادة (غلو، غلي).

(٣) جزء الآية هذا في سورة النساء الآية ١٧١ وفي سورة المائدة الآية ٧٧

(٤) انظر المصباح المنير ٢/ ٤٥٢ مادة (الغلوة) وأساس البلاغة للزمخشري ص٣٢٧ مادة (غلو).

(٥) هذا البيت لذي الرمة. انظر ديوانه ص١٦٥

(٦) انظر تهذيب اللغة للأزهري ٨/ ١٩٠ مادة (غلا) وصحاح اللغة للجوهري ٦/ ٢٤٤٩ مادة (غلا) ولسان العرب ١٠/ ١١٣ مادة (غلا).

(٧) انظر تاج العروس ١٠/ ٢٧٠ مادة (غلي).

القدر والمنزلة، وفي السهم غلو، وأفعالها جميعا غلا يغلو، وقال تعالى: ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾[١]، والغلي، والغليان يقال في القدر إذا طفحت، ومنه استعير قوله: ﴿طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾[٢]، وبه شبه غليان الغضب والحرب)[٣].

فتبين من عرض علماء اللغة لمادة (الغلو) في معاجمهم أن أصل الغلو يطلق في اللغة على مجاوزة الشيء حده الذي وضع له سواء كان هذا الحد شرعيا أم عرفيا.

ثانيا: الغلو في الشرع: لما كانت المعاني الشرعية لبعض المصطلحات وثيقة الصلة بمدلولاتها اللغوية وتبين من تعريف الغلو في اللغة أنه يدور حول مجاوزة الحد أيا كان نوعه، لما كان الأمر كذلك فإننا وجدنا معنى الغلو في الشرع موافقا للمدلول اللغوي؛ إذ يطلق الغلو في الشرع ويراد به: مجاوزة حدود الشريعة: اعتقادا أو قولا، أو عملا.

وقد ورد النهي عن الغلو مرتين في القرآن الكريم. قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[٤]وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[٥]

قال القرطبي في تفسير الآية الأولى: (قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ نهي عن الغلو، والغلو: التجاوز في الحد، ومنه غلا السعر يغلو غلاء، وغلا الرجل في الأمر غلوا، وغلا بالجارية لحمها وعظمها إذا أسرعت الشباب فجاوزت لداتها[٦]، ويعني بذلك فيما ذكره المفسرون غلو اليهود في عيسى حتى قذفوا مريم، وغلو النصارى فيه حتى جعلوه ربا، فالإفراط، والتقصير كله سيئة وكفر)[٧].

كما ورد النهي عن الغلو في السنة أيضا موافقا في المعنى لما ورد في القرآن الكريم، فمن ذلك ما رواه أهل السنن من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: (**القط لي حصى فلقطت له سبع حصيات من حصى**

---

(١) سبق في الحاشية رقم... من هذه الصفحة.
(٢) سورة الدخان الآيات (٤٤-٤٥-٤٦).
(٣) المفردات ص٣٦٤
(٤) سورة النساء الآية ١٧١
(٥) سورة المائدة الآية ٧٧
(٦) لداتها: أي أترابها ومثيلاتها، مفرده (لدة). انظر القاموس المحيط٤/ ٣٨٨ مادة (لدى).
(٧) تفسير القرطبي٦/ ٢١

الخذف[١]، فجعل ينفضهن في كفه، ويقول: أمثال هؤلاء فارموا، ثم قال: (**يا أيها الناس إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين**)[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تعريفه للغلو من خلال شرحه لهذا الحديث . . . (وقوله: (إياكم والغلو في الدين) عام في جميع أنواع الغلو: في الاعتقادات، والأعمال، والغلو: مجاوزة الحد؛ بأن يزاد في حمد الشيء أو ذمه على ما يستحق، ونحو ذلك)[٣].

وعرف الحافظ ابن حجر الغلو بأنه: (المبالغة في الشيء والتشديد فيه بتجاوز الحد)[٤]. وبمثل هذا التعريف عرفه الإمام الشاطبي[٥]. وقيل: (هو الإفراط في التعظيم بالقول والاعتقاد)[٦].

(وضابطه [أي الغلو] تعدي ما أمر الله به، وهو الطغيان الذي نهى الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾[٧][٨]، وذلك لأن الحق واسطة بين الإفراط والتفريط.

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: (وقد قرر العلماء أن الحق واسطة بين التفريط والإفراط وهو معنى قول مطرف بن عبد الله[٩]- رحمه الله تعالى: (الحسنة بين سيئتين)[١٠]

---

(١) الخذف: رمي الحصاة بطرف الإبهام، والسبابة، وقولهم: (حصى الخذف) معناه: الرمي بصغار الحصى. انظر المصباح المنير١/ ١٦٥، مادة (الخذف).

(٢) رواه النسائي في سننه٢/ ٤٣٥، وابن ماجه في سننه٢/ ١٨٣، وابن حبان في صحيحه٩/ ١٨٣ بترتيب ابن بلبان، والحاكم في المستدرك١/ ٤٦٦، وصححه، ووافقه الذهبي، والإمام أحمد في المسند١/ ٢١٥، وصححه الإمام النووي في المجموع٨/ ١٧١، وشيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم١/ ٢٩٣، وبين أن إسناده على شرط مسلم، كما صححه الشيخ الألباني، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة٣/ ٢٧٨ برقم١٢٨٣

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم١/ ٢٩٣، وبنحو هذا التعريف عرفه الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله. انظر تيسير العزيز الحميد ص٣٠٥

(٤) فتح الباري١٣/ ٢٧٨

(٥) انظر الاعتصام١/ ٣٠٤

(٦) فتح المجيد ص٢١٨

(٧) سورة طه الآية ٨١

(٨) تيسير العزيز الحميد ص٣٠٥

(٩) هو أبو عبد الله مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير الحرشي العامري، زاهد من كبار التابعين، ولد في حياة النبي ﷺ أقام بالبصرة حتى توفي بها عام ٨٧هـ. انظر سير أعلام النبلاء٤/ ١٨٧، وتهذيب التهذيب١٠/ ١٧٢، والأعلام للزركلي٧/ ٢٥٠

(١٠) انظر المحجة في سير الدلجة لابن رجب الحنبلي ص١٨



وبه تعلم أن من جانب التفريط والإفراط فقد اهتدى)[١].

فتبين من هذا كله أن الغلو في الشرع هو (مجاوزة الحد بالزيادة على المشروع قدرا ووصفا، اعتقادا، وعملا)[٢]، وحقيقته: أنه أعلى مراتب الإفراط في الجملة[٣].

كما يلاحظ في مسألة الغلو أنها (تجاوز من مشروع إلى غير مشروع، فمثلا تعظيم الرسول ﷺ والإشادة بذكره، هذا أمر مشروع طالما كان ذلك في حدود بشريته، فإذا تجاوزنا بتعظيمه حدود بشريته صار هذا غلوا)[٤].

يمثل الغلو ظاهرة انحراف خطيرة في تاريخ الأديان السماوية؛ إذ يعد من أكبر أسباب الانحراف بالدين عن الصراط المستقيم وعادة ما يبدأ هذا الانحراف يسيرا، ثم يتفاقم ويتعاظم على مر الأيام حتى يصبح كأنه الأصل، فالنصرانية التي كانت على عهد المسيح على نبينا وعليه السلام عقيدة خالصة من شوائب الشرك ودينا قويما أصبحت بسبب الغلو منحرفة عن التوحيد الخالص إلى الشرك المحض، ومن دين سماوي إلى دين وضعي ممزوج بوثنيات الهند، وترهات اليونان، وأباطيل اليهود[٥]، فالغلو هو أول خطوات الانحراف عن الدين القويم، والوقوع في الشرك العظيم، كما حدث لقوم نوح عليه السلام، وكما فعل اليهود مع العزير، والنصارى مع المسيح، وكما هو الواقع في حياة كثير من المسلمين، حيث دب فيهم هذا الوباء القاتل، والمرض المدمر من قرون، ولم يزل شره في ازدياد حتى جهل معنى التوحيد، والمراد بالعبادة، فوقع كثير من المسلمين في الشرك بسبب الغلو، ومجاوزة الحد المشروع.

يقول العلامة ابن القيم: (ومن أسباب عبادة الأصنام الغلو في المخلوق، وإعطاؤه فوق منزلته، حتى جعل فيه حظ من الألوهية، وشبهوه بالله سبحانه، وهذا التشبيه الواقع في الأمم هو الذي أبطله الله سبحانه، وبعث رسله وأنزل كتبه بإنكاره، والرد على أهله)[٦].

---

(١) أضواء البيان ١/ ٤٩٤

(٢) محبة النبي ﷺ بين الاتباع والابتداع ص١٤٨، وانظر الغلو في الدين لعلي بن عبد العزيز الشبل ص١٧

(٣) انظر الغلو لعلي بن عبد العزيز الشبل ص٢٢

(٤) محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع ص١٤٨، وانظر التأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم ص٣٥، وانظر الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة لعبد الرحمن اللويحق ص٥٩

(٥) انظر محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع ص١٥١

(٦) إغاثة اللهفان ٢/ ٢٢٢

وبسبب غلو النصارى في واسطتهم الصحيحة فإنهم انقسموا في القول فيها إلى عدة مقالات فقد أخرج ابن جرير وغيره عن قتادة أن أهل الكتاب انتخبوا أربعة من علمائهم للنظر في شأن عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام والقول فيه، وذلك بعد أن رفعه الله إليه، فقال الأول: هو الله هبط إلى الأرض، فخلق ما خلق، وأوحى ما أوحى، ثم صعد إلى السماء، فتابعه على ذلك جماعة فكانت اليعقوبية من النصارى. وقال الثاني: هو ابن الله فتابعه على ذلك جماعة فكانت النسطورية من النصارى. وقال الثالث: هو إله، وأمه إله، والله إله، فتابعه على ذلك جماعة، فكانت الإسرائيلية من النصارى. وقال الرابع: هو عبد الله ورسوله وكلمته، فكان على الحق وتبعه فيه فرقة منهم، ثم إنهم اقتتلوا فظهر الكافرون، وغلب المؤمنون القائلون بأنه عبد الله ورسوله[١]. وذكر الحافظ ابن كثير أن هذا الأثر مروي عن كثير من السلف، والخلف[٢].

وأما اليهود فإنهم نسبوا هذا النبي الكريم إلى الزنا وحاشاه من ذلك، وزعموا أنه لغير رشدة، وأنه كان ساحرا كذابا[٣].

وقد رد الله سبحانه وتعالى على افتراءات هاتين الطائفتين، وبين الحق في شأن عيسى عليه السلام، وأنه عبد الله ورسوله، مثل سائر أنبياء الله ورسله[٤].

فالغلو مطيعة الشرك بالله تعالى وهو أعظم صورة عصي الله بها، وقد أهلك الله تعالى القرون الماضية والأمم السالفة؛ كقوم نوح، وغيرهم بسبب غلوهم في الصالحين منهم، حتى وقعوا في الشرك (ويذكر التاريخ الإسلامي أن الغلو في هذه الأمة رغم وضوح المنهج وصراحة النصوص في التحذير منه قد وقع مبكرا في حياة هذه الأمة، يشوه صفاء دينها، وينخر في حنيفيتها، ويصرفها عن اعتدالها ذات اليمين وذات الشمال، وعن استقامتها على منهج الله، وصراطه المستقيم. .وإن أعظم ما حورب به المسلمون في دينهم

---

(١) انظر تفسير الطبري١٦/ ٦٥، وتفسير ابن كثير٣/ ١٢٧، والدر المنثور٤/ ٢٧١

(٢) انظر تفسير ابن كثير٣/ ١٢٧

(٣) انظر تفسير الطبري١٦/ ٦٥، وقواعد الأديان لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٤٠، وتفسير ابن كثير٣/ ١٢٧

(٤) انظر للتوسع في الرد على المغضوب عليهم والضالين في هذا الاعتقاد: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح٢/ ٣٠٧، وبيان مباحث العقيدة في سورة مريم للدكتور محمد عبد الرحمن الشظيفي رسالة ماجستير غير منشورة ص٣٢٤، وموقف اليهود والنصارى من المسيح عليه السلام وإبطال شبهاتهم حوله لسارة حامد العبادي رسالة دكتوراه غير منشورة ص٣٧ وما بعدها.

أن فتح لهم باب الغلو في قيمه وآدابه حتى عقائده، وتبين كتب الفرق، والعقائد أن معظم انحرافات الفرق الإسلامية والمتسبين إليه إنما كان بسبب الغلو)[١].

فإذن غلو الرافضة، والصوفية في واسطتنا الصحيحة بنبينا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه تابع لغلو اليهود في العزير عليه السلام، حيث قالوا: (عزير ابن الله)، ولغلو النصارى في المسيح عليه السلام حيث قالت النصارى: (المسيح ابن الله)؛ إلا أن نبينا صلى الله عليه وسلم لما حذر أمته من الغلو فيه وإطرائه كما فعلت النصارى للمسيح عليه السلام لم يجرأ أهل الأهواء أن يقولوا فيه مقولة صريحة كمقولة اليهود والنصارى؛ لكنهم وصفوه صلى الله عليه وسلم بصفات لا تليق إلا بالخالق عز وجل، وادعوا فيه ادعاءات ترفعه فوق مقام النبوة وتسلبه صفات البشرية التي صرح القرآن أكثر من مرة بوصفه بها، والتحذير من وصفه بما يضادها[٢] مثل قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ**﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً**﴾[٤]

وهذا مصداق لقوله صلى الله عليه وسلم (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع)[٥].

وكما حذر الله تعالى هذه الأمة من الغلو في نبيها صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم فقد حذرها أيضا على لسان رسوله الصادق الأمين حيث قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: (**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله**)[٦].

(وبالجملة فالغلو أصل شرك الأولين والآخرين إلى يوم القيامة، وقد أمرنا الله بمحبة أوليائه وإنزالهم منازلهم من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم، ونهانا عن الغلو فيهم، فلا نرفعهم فوق منزلتهم، ولا نحط منها لما

---

(١) انظر العلاقة بين التشيع والتصوف لفلاح أحمد رسالة دكتوراه غير منشورة ص٨

(٢) راجع المبحث السابق (الحكمة في كون الواسطة من البشر)

(٣) سورة الكهف الآية ١١٠ (٤) سورة الإسراء الآية ٩٣

(٥) رواه البخاري انظر كتاب الاعتصام باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن من كان قبلكم١٣/ ٣٠٠ حديث ٧٣٢٠، ومسلم، كتاب العلم باب اتباع سنن اليهود والنصارى١٦/ ٤٥٩

(٦) سبق تخريجه.

يعلم تعالى في ذلك من الفساد العظيم، فما وقع الشرك إلا بسبب الغلو فيهم)[١].

وأول من أظهر الغلو في الإسلام هي فرقة السبئية من الروافض[٢]، ونجد أن الغلو الذي كان سمة من سمات فرق الغلاة من الشيعة في القديم أصبح الآن عند جميع الشيعة الإمامية من ضروريات المذهب[٣]، وهذا شيعي معاصر يصرح بذلك قائلا: (إن المؤسف حقا هو أن الغلو النظري مثل العملي دخل إلى أعماق القلوب عن طريق فقهاء المذهب والمجتهدين، فالمسؤولية الأولى والأخيرة تقع على عاتقهم؛ لأنهم هم الذين قادوا العوام على الطريق، فهناك أمور نسبتها كتب الشيعة إلى الأئمة وتبناها فقهاء المذهب، وذكرتها كتب الروايات الموثوقة عندهم مثل: (أصول الكافي)، و(الوافي)، و (الاستبصار)، و (من لا يحضره الفقيه)، و(وسائل الشيعة) وغيرها من أهم الكتب، والمصادر الشيعية، وفي كثير منها الغلو)[٤].

وقال البرسي الرافضي: (وهناك من فرق الغلاة من قالت: إن النبي، والأئمة يخلقون ويرزقون، وإليهم الموت والحياة)[٥].

ومن مظاهر الغلو في حق الرسول صلى الله عليه وسلم اعتقاد بعض الناس أنه يعلم الغيب، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه يتصرف في الدنيا بعد موته، ويزور من يشاء في المشارق والمغارب، ويزعم بعضهم أن النبي ﷺ يحضر مجلسه؛ ولذلك ينشر ثوبا أبيض وسط الحلقة ليجلس عليه النبي ﷺ والخلفاء الراشدون على حد زعمهم! وبعضهم يدعي أن النبي ﷺ يزوره ويخصه بمعارف، وأحوال، ويشرع له مسائل من الدين تخالف شرع النبي ﷺ الذي أتمه الله وأكمله وارتضاه قبل موته عليه الصلاة والسلام، ويزعم بعض أهل الأهواء أن النبي ﷺ كان لا يفارق شيخه طرفة عين، وصرح كثير من أرباب الطرق الصوفية أنهم قابلوا النبي ﷺ وأعطاهم بعض الأوراد التي تقوم على

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص٣٤٥، وانظر مصرع الشرك والخرافة ص، وتقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ٢/ ٢٥

(٢) انظر فرق الشيعة للنوبختي ص٤٣، والأصول من الكافي ١/ ١٤٦، والمقالات والفرق للقمي ص٤٣، وتاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة لعبد الله فياض ص٨٧

(٣) انظر اليمانيات المسلولة ص١٤٨، والخطوط العريضة لمحب الدين الخطيب ص٦٤، والشيعة والتشيع لإحسان إلهي ظهير ص١٦٤

(٤) الشيعة والتصحيح لموسى الموسوي ص١١٣

(٥) مشارق أنوار اليقين ص ٢١١، وانظر اليمانيات المسلولة ص١٤٨

أساسها تلك الطرق، ويعتقدون أن السماوات والأرض وما بينهما مملوءة بالنبي ﷺ ولو كشف عنا الحجاب لرأيناه عيانا إلى غير ذلك من الاعتقادات الفاسدة التي منشؤها الغلو في جناب الرسول صلى الله عليه وسلم[١].

ومن غلو أهل الأهواء في النبي (ﷺ أنهم ينسبون إليه أبناءهم في التسمية طمعا في رد البلاء، فَيُعَبِّدونهم له عليه الصلاة والسلام بدلا من تعبيدهم لله الذي خلقهم، فيسمونهم (عبد النبي) (وغلام الرسول)[٢].

وعموما فإن الغلو في الأشخاص وخصوصا في خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم هو سبب قوي في فشو الشرك وانتشاره بين المسلمين في هذا العصر[٣].

ومن ثم قامت الرافضة واقتطعت قطعة من هذا الغلو وفصلتها على قدر يليق بمقام الإمام (المعصوم) على رأيهم! ولما رأت الصوفية ما فعلته الرافضة واستحسنت منها هذا الفعل أرادت أن تحاكيها كما هي عادتها فانتزعت رقعة وفصلتها على قدر يليق بمقام الولي (المحفوظ) على حد زعمهم!، فليس غلو الصوفية في حق نبينا صلى الله عليه وسلم إلا منحدرا وعرا سلكته الصوفية رغم وضوح منهج أهل السنة في هذا الباب، فخرجت منه إلى واد سحيق وجدت فيه الرافضة تتيه فوافقتها في مسائل عديدة من الاعتقاد، وخصوصا ما يتعلق بالغلو، ومجاوزة حدود الشريعة، ومصادمة الفطر السليمة، والعقول الصحيحة[٤].

وبسبب غلو أهل الأهواء في نبينا صلى الله عليه وسلم الغلو الذي نهى الأمة عنه فقد انتشر بين عوام المسلمين وخصوصا من انخرط في سلك الرافضة، أو الصوفية بعض الأدعية البدعية والاستغاثات الشركية عند زياراتهم لقبر النبي ﷺ، مثل قول بعضهم: (يا بو إبراهيم فلان لطمني فخذلي حقي منه)، وقول الآخر: (يا بو القاسم احنا قصدناك من

---

(١) انظر فتح المجيد ص٢٢٤ حاشية رقم (١) للمحقق محمد حامد الفقي، والصارم المنكي ص٣٣٩، وأنوار الحق في الصلاة على سيد الخلق لعبد المقصود سالم ص٩٣

(٢) انظر بيان الشرك ووسائله عند أئمة الحنفية ص ٤٠، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ٢/ ٦٩٥

(٣) انظر العلاقة بين التشيع والتصوف لفلاح أحمد ص٨

(٤) المرجع نفسه ص٢٨٠، وانظر الغلو وأثره في عقائد الرافضة لشيخنا الدكتور جازي بخيت الجهني رسالة دكتوراه غير منشورة ص١٢، والصلة بين التصوف والتشيع للشيبي ١/ ٤١٤، ومظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية لإدريس محمود رسالة ماجستير غير منشورة ص١٤٢



مكان كذا، فلا تردنا خائبين) وآخر يقول: (يا بو فاطمة وجد الحسن والحسين إنا قصدنا بابك، والعارف ما يعرف، والشكوى لأهل البصيرة عيب)[1].

ولهذا لا تستولي عليك الدهشة وتحوطك الغرابة -أيها المؤمن الموحد حينما تسمع أهل الغلو في الرسول صلى الله عليه وسلم ينشدون[2]: -

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي ... في كل هول من الأهوال ألقاه

إن كان زارك قوم لم أزر معهم ... فإن عبدك عاقته خطاياه

ويصيحون قائلين[3]: -

يا رسول الإله إني ضعيف ... فاشفني أنت مصدر للشفاء

يا رسول الإله إن لم تغثني ... فإلى من ترى يكون التجائي

وينشد النبهاني لنفسه[4]: -

سيدي أبا البتول أغثني ... أنت أدرى بما حواه الضمير

ولا ريب أن هذه النماذج من الغلو التي مرت معنا تمثل صورة حقيقية لغلو أهل الأهواء في حق نبينا صلى الله عليه وسلم، ولا ريب أنه صلى الله عليه وسلم حذر أمته من الدنو من الغلو؛ وذلك بالنهي عن إطرائه صلى الله عليه وسلم؛ لأن الإطراء وسيلة وواسطة للغلو، والغلو بريد الشرك، وما ذلك إلا حماية منه عليه الصلاة والسلام لجناب التوحيد[5]، وصيانة للعقيدة، وسدا لوسائل الشرك، وحفاظا على مقام الربوبية من الخدش، ورعاية لمنزلة النبوة من النبش، (فأبى عباد القبور إلا مخالفة لأمره، وارتكابا لنهيه، وناقضوه أعظم المناقضة، وظنوا أنهم إذا وصفوه بأنه عبد الله ورسوله، وأنه لا يدعى ولا يستغاث به، ولا ينذر له، ولا يطاف بحجرته، وأنه ليس له من الأمر شيء، ولا

---

(١) انظر نماذج من هذا الغلو في النبي ﷺ في توحيد الألوهية أساس الإسلام ص١٧٤، والبريلوية ص٩١، وظاهرة الغلو في الدين لعبود علي درع ص٢٥٧

(٢) انظر ديوان عبد الرحيم البرعي ص١٤

(٣) هذان البيتان لشمس الدين التنوجي المصري. انظر شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ص٣٥٢

(٤) انظر شواهد الحق ص٣٧٧

(٥) انظر حماية الرسول ﷺ حمى التوحيد للدكتور محمد بن زربان الغامدي رسالة ماجستير غير منشورة ص٢٢٣، وفتاوى اللجنة الدائمة ١/ ٤٤٦

يعلم من الغيب إلا ما علمه الله أن في ذلك هضما لجنابه، وغضا من قدره، فرفعوه فوق منزلته، وادعوا فيه ما ادعت النصارى في عيسى أو قريبا منه، فسألوه مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب . . . . ومن العجب أن الشيطان أظهر لهم ذلك في صورة محبته عليه السلام، وتعظيمه ومتابعته، وهذا شأن اللعين لا بد وأن يمزج الحق بالباطل ليروج على أشباه الأنعام أتباع كل ناعق الذين لم يستضيئوا بنور العلم)[1].

ولعل سؤالا يرد على ذهن القارئ لهذه النماذج من الغلو، وهو: لماذا هذا الغلو الزائد، والاعتقاد الفاسد في حق الرسول ﷺ مع علمنا اليقين بنهيه الصريح بلسانه الفصيح صلى الله عليه وسلم عن إطرائه، والغلو في حقه؟.

وللإجابة على هذا السؤال نقول: إن أهل الأهواء (لما رأوا أن النبي ﷺ خليل الرحمن وصاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة وبركاته صلى الله عليه وسلم على أصحابه في حياته، لما توسلوا به ليدعولهم، فحقق الله دعوتهم، وكذلك لما رأوا تعظيم النصارى لعيسى بن مريم وغلوهم فيه، قالوا: نحن أحق بهذا التعظيم منهم لمن هو أفضل منه: رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلكوا طريقتهم فاحتفلوا بميلاده، ومن ثم دعوه من دون الله توسلا، ودعاء، واستشفاء، واستنصارا، ومددا)[2].

(١) تيسير العزيز الحميد ص٣١٤، وانظر الوسطية في القرآن الكريم لعلي بن محمد الصلابي ص٣٧٧
(٢) الغلو في الدين لعلي بن عبد العزيز الشبل ص٧٨، وانظر التصوف بين الحق والخلق لمحمد شقفة ص٨٠، ومحبة الرسول بين الاتباع والابتداع ص١٥٢



المبحث الثالث

تنقيص بعض أهل الأهواء لمقام الواسطة الصحيحة

رأينا في المبحث السابق كيف أن بعض أهل الأهواء خالفوا النبي ﷺ في نهيه عن إطرائه، والغلو فيه، فجاوزوا الحد في مدحه، وإطرائه، والغلو في جنابه صلى الله عليه وسلم؟، ونجد في هذا المبحث أن بعضا من أهل الأهواء وقفوا موقفا آخر من نبينا وإمامنا، وقدوتنا محمد ﷺ، وكانوا في الطرف المقابل لأهل الغلو، فحطوا من رتبته عليه الصلاة والسلام، وتنقصوا مقام النبوة، وادعوا أن لبعض الشخصيات منزلة أعلى من منزلته، ومكانة أسمى من مكانته صلى الله عليه وسلم، وهذا تناقض من أهل الأهواء عجيب فتارة يغلون في حقه صلى الله عليه وسلم ويرفعونه فوق مرتبة النبوة ومنزلة الرسالة وتارة يحطون من قدره الشريف ومقامه المنيف ويتنقصون مكانته الرفيعة صلى الله عليه وسلم، وهذان الطرفان مذمومان كما قيل[1]: -

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وكقول الآخر[2]:

خير الأمور الوسط الوسيط وشرها الإفراط والتفريط

ومن هنا يلاحظ الباحث أن التناقض سمة من السمات البارزة في عقائد أهل الأهواء وهو نتيجة حتمية لكل مذهب مظلم لم يتخذ الوحي مشعلا ونورا، وكل منهج مضطرب لم يتقيد بالكتاب والسنة، ورودا وصدورا.

وبعد البحث لمعرفة القائلين بهذه المقالة الشنيعة في الواسطة الصحيحة وجدت أن الجفاة المتنقصين للرسل من أهل الأهواء ثلاث طوائف: الفلاسفة، والرافضة، والصوفية، وفيما يلي بيان مقالاتهم في تنقيص الرسل الكرام عليهم السلام:

أولا: مقالة الفلاسفة: يزعم الفلاسفة أن النبوة أمر اكتسابي يستطيع الإنسان بطريق المجاهدة، والتصفية، والرياضة أن يكتسبها، وهذا قول الفلاسفة المشائين[3]؛ لأنهم

---

(١) انظر العزلة للخطابي ص٢٣١، ويتيمة الدهر للثعالبي٤/ ٣٣٦

(٢) انظر أدبيات الشاي والقهوة لمحمد طاهر الخطاط ص١٦٦

(٣) سموا بذلك لأن أستاذهم أرسطو كان يعلم تلاميذه الحكمة وهو يمشي. انظر الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال٢/ ١٧٠٤

يزعمون أن من لازم الخلوة، والعبادة، ودوام المراقبة في الغيب والشهادة، وتناول الحلال، وأخلى نفسه من الشواغل العائقة عن المشاهدة بعد كمال ظاهره وباطنه بالتهذيب، والرياضة انصقلت مرآة باطنه، وفتحت بصيرة لبه، وتهيأ لما لا يستطيع أن يتهيأ له غيره من التحلي بالنبوة؛ لأن النبوة عندهم عبارة عن اجتماع ثلاث خواص في الإنسان :-

الأولى: الاطلاع على الأمور الغيبية لصفاء جوهر نفسه واتصاله بالروحانيات العالية.

الثانية: ظهور خوارق العادات على يديه.

الثالثة: مشاهدة الملائكة على صور متخيله، وسماع كلام الله تعالى[١].

وهذا تكذيب للوحي وتنقيص للموحى إليهم من أصحاب الرسالات ممن سبق في علم الله تعالى وإرادته باصطفائه، واختياره لتحمل الرسالة، فالنبوة فضل إلهي محض يؤتيه الله من يشاء من صفوة خلقه للبعثة، والإرسال قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[٢]

ولم يكتف الفلاسفة بهذا القول في النبوة، ولم يقفوا عند هذا الحد؛ بل قالوا إن الأنبياء كذبوا على الجمهور من الناس، ووضعوا الشرائع من عند أنفسهم للتخييل على العامة، فلم يتمكنوا من بيان الحقائق؛ لأن إظهارها يفسد الناس على حد قولهم[٣]، ففضلوا بذلك الفلاسفة على الأنبياء في العلم، فقالوا: إن الفلاسفة يعلمون الحقائق العقلية العلمية أكثر من الأنبياء، وأن الأنبياء كانوا في القوة العملية أكمل، ولهذا وضعوا الشرائع العملية، وادعوا أن المعجزات ليست إلا قوى نفسانية، أو طبيعية أو فلكية من جنس السحر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن ملاحدة المتصوفة من يزعم أن أرسطو كان هو الخضر خضر موسى، وهؤلاء منهم من يفضل الفلاسفة على الأنبياء في العلم، ويقول: إن هارون كان أعلم من موسى، وإن عليا كان أعلم من النبي ﷺ كما يزعمون أن الخضر أعلم من موسى، وأن عليا، وهارون، والخضر كانوا فلاسفة يعلمون الحقائق العقلية العلمية أكثر من موسى، وعيسى، ومحمد؛ ولكن هؤلاء كانوا في القوة العملية أكمل؛

(١) انظر منهاج السنة النبوية ٢/ ٤١٥، وبغية المرتاد ص٣٨٦، ولوامع الأنوار ٢/ ٢٦٨

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٤ (٣) انظر مجموع الفتاوى ٤/ ٩٠



ولهذا وضعوا الشرائع العملية، وهؤلاء يفضلون فرعون على موسى ويسمونه أفلاطون القبطي، وقد يقولون: إن صاحب مدين الذي تزوج موسى بنته هو أفلاطون اليوناني[1] أستاذ أرسطو ويقولون: إن موسى كان أعلم من غيره بالسحر وإنه استفاد ذلك من حموه؛ إذ كان عندهم ليست المعجزات إلا قوى نفسانية، أو طبيعية، أو فلكية، من جنس السحر، ولكن موسى كان مبرزا على غيره في ذلك إلى أمثال ذلك من المقالات التي تقولها الملاحدة المتفلسفة المنتمون إلى الإسلام في الظاهر من متشيع ومتصوف. . . . ولهم من هذا الجنس ما يطول حكايته، مما يدل على أنهم من أجهل الناس بالمعقول، والمنقول، ولم يكفهم جهلهم بما جاءت به النبوات حتى ضموا إلى ذلك أخبار العالم، وأيام الناس)[2].

ثانيا: مقالة الرافضة: بحكم الغلو الزائد في الأئمة من آل البيت الذي تقول به الرافضة فإنها واقعة لا محالة في تنقيص نبينا ورسولنا محمد ﷺ والحط من قدره، والطعن في رسالته، ومن ذلك قول طائفة الغرابية[3] من غلاتهم (إن عليا أشبه بمحمد من الغراب بالغراب، والذباب بالذباب فاشتبها على جبرائيل فبلغ الرسالة إلى محمد، وكانت لعلي)[4].

ويقول شاعرهم في ذلك[5]: -

غلط الأمين فجازها عن حيدر   تالله ما كان الأمين أمينا

وهناك طائفة يقال لها: الذَّمِّية[6] سموا بذلك لذمهم محمدا صلى الله عليه وسلم بأن عليا (بعثه لدعوة الناس إليه بالعبودية فدعا الناس إلى نفسه، وقال بعضهم بإلهيتهما، واختلفوا في التقديم والتأخير، والذين يقدمون عليا يقال لهم: العينية، والذين يقولون

---

(١) هو فليسون يوناني ولد سنة ٤٢٧، وتوفي سنة ٣٤٧ قبل الميلاد، كان تلميذا لسقراط، من مؤلفاته ((جمهورية أفلاطون)) وغيرها من مجموعات فلسفية، وتتميز فلسفة أفلاطون بنظرية المثل العليا، انظر الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال ١/ ١٨١

(٢) الرد على المنطقيين ص١٨٣

(٣) انظر في شأن هذه الفرقة التبصير في الدين ص١١٢، والتعريفات ص١٦٢، والبدء والتاريخ ٥/ ١٣١، وخطط المقريزي ٢/ ٣٥٢، والتحفة الاثني عشرية ص١٢٠

(٤) اليمانيات المسلولة ص١٦٩

(٥) انظر الفرق بين الفرق ص٢٥٠، والنواقض للروافض للبرزنجي ص٢٩٠، ومختصر التحفة اثني عشرية ص١٣

(٦) انظر في شأن هذه الطائفة المقالات والفرق للقمي ص٥٩، والملل والنحل ١/ ١٧٥، وتلبيس إبليس ص٩٦، وخطط المقريزي ٢/ ٣٥٣

بتقديم محمد ﷺ يقال لهم : الميمية[١] .

وغلاة الرافضة يلعنون صاحب الريش ويعنون به جبريل عليه السلام ؛ لأنه بلغ الرسالة إلى محمد ﷺ ولم يبلغها لعلي بن أبي طالب[٢] ، وسماهم المقريزي " مخطئة " لتخطئتهم جبريل عليه السلام[٣] ، وهذا غاية في التنقيص لهذه الواسطة من الملائكة .

ومن غلاتهم فرقة الإسحاقية[٤] ، وتزعم أن عليا هو الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وأنه هو الذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالرسالة[٥] . والهشامية[٦] من فرق الغلاة تقول بعصمة الأئمة ، وعدم عصمة الأنبياء[٧] . وهذا القول شبيه بقول الخوارج بجواز وقوع الأنبياء في الكفر[٨] .

وقد فطن بعض المستشرقين لما في عقائد الرافضة من الطعن في نبينا صلى الله عليه وسلم ، والحط من قدره فقال : (فطائفة من فرق الشيعة يطلق على مجموعها اسم " علي إلهي " أي الذين يرون الألوهية في علي ، واسمهم وحده كاف في بيان حقيقة عقيدتهم يجمعون إلى تأليه علي رفضهم لبعض أركان الشريعة الإسلامية ، وفي مثل هذه الزندقات ما لم تبسط صفة الألوهية على النبي كثيرا ما يؤدي الرفع من شأن علي إلى الغض من مقام النبي ؛ حتى يصل إلى درجة أقل من درجة علي المؤله ، ويرى بعض هذه الفرق أن نزول جبريل بوحي الرسالة على محمد إنما جاء خطأ ، وأن عليا هو الذي كان مقصودا بها ، وتوجد فرقة أخرى وهي فرقة العلبائية التي تسمى أيضا بالذمية لذمهم النبي ؛ إذ عندهم أن النبي قد اغتصب لنفسه المنزلة التي كانت لعلي وفي فرقة " النصيرية " أنزل النصيريون محمدا بجانب علي المؤله إلى منزلة أقل شأنا من علي ، وزعموا أنه كان حَجَّاباً له)[٩] .

---

(١) انظر المقالات والفرق ص١٩١ ، والملل والنحل١/ ١٧٥ ، والمواقف ص, ٤٩٠

(٢) انظر الرد عليهم في هذا الافتراء في اليمانيات المسلولة ص١٧٠

(٣) انظر خطط المقريزي٢/ ٣٥

(٤) نسبة إلى الضال إسحاق بن زيد بن الحرث . انظر فرق الشيعة للنوبختي ص٩٤ ، والمقالات والفرق ص١٠٠ ، والأنوار النعمانية٢/ ٢٤١ ، والملل والنحل١/ ١٨٨

(٥) انظر تلبيس إبليس ص٩٥

(٦) انظر في شأن هذه الفرقة فرق الشيعة ص٧٨ ، والملل والنحل١/ ١٨٤ ، والفرق بين الفرق ص٦٥

(٧) انظر الأنوار النعمانية١/ ٢٠ ، والمواقف ص٤٢١ ، وانظر رد الآمدي على هذا الاعتقاد في كتابه غاية المرام في علم الكلام ص٣٨٤

(٨) انظر جلاء العينين في محاكمة الأحمديين ص٤٢٩

(٩) العقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسهير ص١٨٣ ، وانظر الرد الكافي على مغالطات الدكتور عبد الواحد وافي الإحسان إلهي ظهير ص١٤١



ومن صور التنقيص الذي تطفح به كتب الرافضة التأكيد على رفع رتبة علي رضي الله عنه فوق رتبة النبي ﷺ، ولا ندري أيهما الأصل في الفضل، هل هو النبي ﷺ أم علي رضي الله عنه؟ إلا أننا نرى أن الرافضة لا تجعل النبي أصلا يعظم ويحترم علي لأجله؛ بل إنهم يحترمون النبي ﷺ ويعظمونه من أجل علي رضي الله عنه؛ لأنه أخذ ابنته، وجعله قريبه، وحبيبه، وعلى هذا اخترعوا تلك الرواية العجيبة الغريبة المكذوبة، وهي: أن النبي ﷺ قال: (أعطيت ثلاثا، وعلي مشاركي فيها، وأعطي علي رضي الله عنه ثلاثا ولم أشاركه فيها، فقيل: يا رسول الله، وما الثلاث التي شاركك علي فيها؟ قال: (لواء الحمد لي، وعلي حامله، والكوثر لي، وعلي ساقيه، والجنة، والنار لي وعلي قسيمهما، وأما الثلاث التي أعطي علي ولم أشاركه فيها؛ فإنه أعطي شجاعة ولم أعط مثله، وأعطي فاطمة الزهراء زوجة، ولم أعط مثلها، وأعطي ولديه: الحسن، والحسين، ولم أعط مثليهما)[1].

وتحمل هذه الروايات في طياتها ولها أمثلة كثيرة حقيقة معتقدات الرافضة، وأنهم يعدون عليا الأصل والنبي ﷺ الفرع، كما أنهم يصرحون بأفضليته على سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر ظاهر لا لبس فيه، وغلو وإفراط في حق علي رضي الله عنه، وتنقيص وتفريط في جناب النبي صلى الله عليه وسلم[2].

نعم فالرافضة تريد إهانة هذا النبي العظيم الذي فضله الله على سائر الأنبياء والرسل بصفات لم يعطوها، وخصائص لم ينالوها، قالوا فيه: إن عليا وازن بينه وبين نفسه فقال: (أنا قسيم الله بين الجنة والنار، وأنا الفاروق الأكبر، وأنا صاحب العصا، والميسم، ولقد أقرت لي جميع الملائكة والرسل بمثل ما أقروا به لمحمد صلى الله عليه وآله ولقد حملت على مثل حمولة الرب، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله يدعى فيكسى وأدعى فأكسى، ويستنطق، وأستنطق إلى هذا نحن سواء، وأما أنا فلقد أوتيت خصالا ما سبقني إليها أحد قبلي علمت المنايا، والبلايا، والأنساب، وفصل الخطاب، فلم يفتني ما سبقني، ولم يعزب عني ما غاب عني)[3].

---

(١) أمالي الصدوق ص٢١٩، وانظر بحار الأنوار٣٩/ ٩٠، والأنوار النعمانية.

(٢) انظر الشيعة وأهل البيت ص١٩١، وكسر الصنم نقض كتاب أصول الكافي لآية الله أبي الفضل البرقعي ص٢٠١، والعقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط ص٣٧٥

(٣) الأصول من الكافي ١/ ١٩٦

وهذا التنقيص ليس مستبعدا من القوم؛ لأنهم تعودوا عليه وتجرأوا على تصغير شأن نبي الله ﷺ مقابل علي رضي الله عنه، وهناك أشنع من هذا، وأقبح إساءة لسيد الخلائق أجمعين، ورسول الله إلى الثقلين صلى الله عليه وسلم، وهو ما رووه في الأمالي: (أن رسول الله قال لعلي: لو لم أبلغ ما أمرت به من ولايتك لحبط عملي)[1].

ويرى بعض علمائهم أن النبي ﷺ إذا لم يوص فقد ضيع أمته، وأصبح ناقص النبوة، أو الرسالة[2].

وأراد البرسي الرافضي أن يفلسف فكرته القائلة بتفضيل علي على النبي ﷺ فقال: (فمثال النبي، والولي في علم الظاهر والباطن كمثل ملك اختار من عبيده عبدين فجعل أحدهما له سفيرا، والآخر نائبا ووزيرا، وخزن عندهما علم المملكة، وولاهما حكما، ثم أمر الملك سفيره أن لا يحكم بما وصل إليه، وفوض إليه إلا بالظاهر في حكم الأديان؛ لئلا يتهمه أهل المملكة بالأخذ عن الكهان، وأمره أن يوصل علم الظاهر والباطن إلى النائب الذي هو الوزير وجعل له الحكم المطلق؛ وذلك لأن حكم الملك والسلطانقد وصلا إليه على الإطلاق فهو مطلق العنان فيهما)[3].

ويؤكد مصنفو الرافضة أن الأئمة يأخذون من اللوح المحفوظ بلا واسطة، فهم أفضل من الأنبياء الذين لا ينطقون عن الهوى وإنما يخاطبون الناس بالوحي الذي يوحى.

يقول البرسي من علمائهم: (إن النبي والولي مطلعان على علم الغيب؛ لكن النبي لا ينطق به إلا مع الأمر؛ لأنه الرسول، أما الولي في النطق بالغيب فمطلق العنان... ومن علومهم ما يعلمه -هم- ولم يجر على لسان مخلوق غيرهم، وهو ما وصل إليهم بغير واسطة، وهو السر الذي ظهرت به آثار الربوبية عنهم)[4].

وفي الكافي عن أبي جعفر أنه قال: (إن الله عز وجل جمع لمحمد ﷺ سنن النبيين من آدم، وهلم جرا إلى محمد ﷺ قيل له: وما تلك السنن؟ قال: علم النبيين بأسره، وإن رسول الله ﷺ صير ذلك كله عند أمير المؤمنين رضي الله عنه فقال له رجل: يا ابن رسول

---

(١) تفسير نور الثقلين ١/ ٦٥٤ نقلا عن الشيعة وأهل البيت ص٢٦٠

(٢) انظر عقائد الإمامية الاثني عشرية للزنجاني ص١٧١، نقلا عن الرسل والرسالات للأشقر ص١١٦

(٣) مشارق أنوار اليقين ص١٧٨ (٤) المرجع السابق ص١٩٨

الله فأمير المؤمنين أعلم أم بعض النبيين؟ فقال أبو جعفر رحمه الله اسمعوا ما يقول! إن الله يفتح مسامع من يشاء! إني حدثته أن الله جمع لمحمد ﷺ علم النبيين وأنه جمع ذلك كله عند أمير المؤمنين رضي الله عنه وهو يسألني: أهو أعلم أم بعض النبيين!)[١].

فإذا كانت الرافضة تنقل مثل هذه الحكايات المكذوبة وتؤمن بهذه الخرافات المجلوبة من الديانات والعقائد القديمة المسلوبة التي قضى عليها الإسلام، ومحا ظلامها من الديار المفتوحة بنوره الصافي؛ فإن هذا من الأدلة الواضحة، والشهادة الفاضحة على التنقيص الصريح لحق هذه الواسطة التي حبانا الله بها وهي رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يقتصر التنقيص كما في هذه الرواية على خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه؛ بل شمل أيضا القدح في سائر الأنبياء عليهم السلام، وقد بوب صاحب الفصول المهمة على هذه الروايات بقوله: باب أن النبي والأئمة الاثني عشر أفضل من سائر المخلوقات من الأنبياء، والأوصياء، والملائكة، وغيرهم[٢].

فالإمام علي رضي الله عنه نبي مرسل بعثه الله تعالى حسب زعمهم مع النبي ﷺ بتبليغ ما أمره الله أن يبلغ، وهذا تنقيص لمقام النبي ﷺ وغلو زائد في حق الأئمة المعصومين المزعومين ووصفهم بما لم يوصف به النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا أبو طاهر الجنابي[٣] من غلاة الباطنية يقول: -

(ما أضل هذه الأمة إلا راع، وطبيب، وجمال؛ فأما الراعي، والطبيب فأتيا بأشياء تعلماها، وأما الجمَّال فلم يأت بشيء)[٤]، وهو يعني بالراعي موسى كليم الله، وبالطبيب عيسى روح الله، وبالجمال محمدا خير خلق الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.
وقال شاعر القرامطة أعداء الرسل-وهو ينعت القائم بالأمر في زمانه من بني يعرب بالنبي، ويحط من قدر خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم[٥]: -

---

(١) الكافي١/ ٢٢٢، وانظر بحار الأنوار٢٦/ ١٦٥

(٢) انظر الفصول المهمة في أحوال الأئمة للحر العاملي ص١٥١

(٣) هو عدو الله أبوطاهر سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي القرمطي الطاغية الفتاك، ملك البحرين لم يطب للمسلمين بالعراق، والحجاز عيش في أيامه، ويكفيه من المخازي هروبه بالحجر الأسود إلى هجر وتعرية الكعبة، مات عليه من الله ما يستحق في هَجَر، وهو كهل بالجدري سنة ٣٣٢هـ انظر سير أعلام النبلاء١٥/ ٣٢، وفوات الوفيات٢/ ٥٩، والنجوم الزاهرة٣/ ٢٢٥، والقرامطة لعارف تامر ص١٤٢

(٤) قواعد عقائد آل محمد لمحمد بن الحسن الديلمي ص٩٠

(٥) انظر قواعد عقائد آل محمد ص٩٧

خذي الدف يا هذه والعبي وغني هزا ربك ثم اطربي

تولى نبي بني هاشم وهذا نبي بني يعرب

لكل نبي مضى شرعة وهذي شرائع هذا النبي

وادعاء القرامطة أن القائم بالأمر على حد زعمهم نبي مرسل كفر صريح، يقول الإمام ابن حزم: (من ادعى إلهية إنسان، أو ادعى نبوة لأحد بعد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم حاشا عيسى بن مريم فهو كافر، لا خلاف في ذلك من أحد من أهل الإسلام؛ وذلك لخلافه القرآن والثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)[١].

وعقيدة تفضيل الأئمة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم تكن تمثل حقبة تاريخية ثم انتهت كلا؛ بل إن حاكم إيران الكسروية المتأخر يردد ذلك الضلال فيقول: (فإن للإمام مقاما محمودا، ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون . . . وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل)[٢].

وقال أيضا عن الأئمة (ورد عنهم إن لنا مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ومثل هذه المنزلة موجودة لفاطمة الزهراء)[٣].

وزعم هذا الضال أن الأنبياء، والرسل جميعا، وفيهم محمد صلى الله عليه وسلم لم ينجحوا في صلاح البشرية، وتنفيذ العدالة، وأن الذي سينجح في ذلك هو المهدي المنتظر، وأنه الشخص الوحيد في العالم الذي سيحقق ذلك! فيقول: (الأنبياء جميعا جاءوا من أجل إرساء قواعد العدالة في العالم كله؛ لكنهم لم ينجحوا وحتى أن النبي محمدا عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء الذي جاء لإصلاح البشرية، وتنفيذ العدالة لم ينجح في ذلك في عهده . . . . ، وإن الشخص الذي سينجح في ذلك، ويرسي قواعد العدالة في جميع أنحاء العالم، ويُقَوِّم الانحرافات هو المهدي المنتظر إن الإمام المهدي سيعمل على نشر العدالة في جميع أنحاء العالم، وسينجح فيما فشل في تحقيقه الأنبياء، والأولياء بسبب العراقيل التي كانت في طريقهم، وإن السبب الذي أطال الله سبحانه

---

(١) كتاب الدرة فيما يجب اعتقاده ص٢٠٥ (٢) كتاب الحكومة الإسلامية ص٥٢ للخميني.

(٣) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

وتعالى من أجله عمر الإمام المهدي هو أنه لم يكن بين البشرية من يستطيع القيام بمثل هذا العمل الكبير حتى الأنبياء والأولياء)[١] .

ثم يصف المهدي -الخرافة- بأنه الرجل الأول، والمخلص الفريد، وأما الأنبياء، والمرسلون فهم في المرتبة الثانية بعده، وأن عيد ميلاد خرافة السرداب أكبر، وأعظم فائدة للبشرية من ميلاد خاتم الأنبياء[٢]، وصفوة الرسل، وسيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم فيقول: (إن هذا العيد الذي هو عيد كبير بالنسبة للمسلمين أكبر من ميلاد النبي عليه الصلاة والسلام)[٣] .

فأي تنقيص بعد هذا لهذا الرسول العظيم؟ وأي حط من قدر جناب هذا النبي الكريم الخاتم؟ صلى الله عليه وسلم، وشرّف، وعظم.

ثالثا: مقالة الصوفية: لم تكن الصوفية موفقة عندما أضفت كثيرا من هالات التقديس على من يعظمونهم من الأولياء، والشيوخ، وطرحت عليهم لباس العصمة، ووشاح التعظيم، ولم تقف عند هذا الحد؛ بل ادعت مساواة هؤلاء المعظمين لأنبياء الله تعالى ورسله، ثم زادت في الخرافة والتنقيص فادعت أن مرتبة الولاية أعلى من مقام النبوة حتى قال ابن عربي[٤] : -

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي!

يقول علي بن أبي العز : (وكثير من هؤلاء يظن أنه يصل برياسته، واجتهاده في العبادة، وتصفية نفسه إلى ما وصلت إليه الأنبياء من غير اتباع لطريقتهم! ومنهم من يظن أنه قد صار أفضل من الأنبياء!! ومنهم من يقول: إن الأنبياء، والرسل إنما يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء!! ويدعي لنفسه أنه خاتم الأولياء!!)[٥]

---

(١) من خطبة للخميني بمناسبة عيد مولد الغائب المزعوم بتاريخ١٥/ ٨ / ١٤٠٠هـ نشرتها صحيفة الرأي العام الكويتية. انظر الخميني وتفضيل الأئمة على الأنبياء لمحمد مال الله ص٣٩

(٢) ومع أن الاحتفال بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم واعتباره عيدا هو بدعة مستحدثة لم يفعلها أهل القرون المفضلة؛ إلا أن تفضيل هذا الرافضي لعيد مولد المختفي في السرداب على مولد النبي ﷺ يعد قدحا في النبوة، وتنقيصا لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم.

(٣) من خطبة للخميني بمناسبة عيد مولد الغائب المزعوم بتاريخ١٥/ ٨ / ١٤٠٠هـ نشرتها صحيفة الرأي الكويتية. انظر الخميني وتفضيل الأئمة على الأنبياء لمحمد مال الله ص ٣٩، وانظر الرسل والرسالات للأشقر ص٢١٢

(٤) انظر بغية المرتاد ص ٣٨، وشرح العقيدة الطحاوية ص٤٩٣

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص٤٩٢



وهذا هو ما صرح به ابن عربي الطائي حيث قال: (وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل، وخاتم الأولياء، وما يراه أحد من الأنبياء، والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم؛ حتى إن الرسل لا يرونه متى رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء؛ فإن الرسالة، والنبوة -أعني نبوة التشريع ورسالته- تنقطعان، والولاية لا تنقطع أبدا.

فالمرسلون من [حيث][1] كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فكيف من دونهم من الأولياء؟.. ولما مثل النبيﷺ النبوة بالحائط من اللَّبن[2] وقد كمل سوى موضع لبنة، فكان صلى الله عليه وسلم تلك اللبنة غير أنه صلى الله عليه وسلم لا يراها كما قال لبنة واحدة، وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤيا، فيرى ما مثل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرى في الحائط موضع لَبِنَتَيْن، واللبن من ذهب، وفضة، فيرى اللبتين اللتين تنقص الحائط عنهما، وتكمل بهما لبنة ذهب، ولبنة فضة، فلا بد أن يرى نفسه تنطبع في موضع تينك اللَّبِنَتين، فيكون خاتم الأولياء تينك اللبنتين، فيكمل الحائط)[3].

وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا الإلحاد، والكفر وتنقيص الأنبياء ردا شافيا، وافيا، ومن كلامه في ذلك الرد قوله: (ففي هذا الكلام من أنواع الإلحاد، والكفر، وتنقيص الأنبياء، والرسل ما لا تقوله لا اليهود، ولا النصارى، وما أشبهه في هذا الكلام بما ذكر في قول القائل: (فخر عليهم السقف من تحتهم) أن هذا لا عقل، ولا قرآن، وكذلك ما ذكره هنا من أن الأنبياء، والرسل تستفيد من خاتم الأولياء الذي بعدهم هو مخالف للعقل؛ فإن المتقدم لا يستفيد من المتأخر، ومخالف للشرع؛ فإنه معلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن الأنبياء، والرسل أفضل من الأولياء الذين ليسوا أنبياء، ولا رسلا)[4].

ثم بين شيخ الإسلام ابن تيمية السر في اختلاق ابن عربي لبدعة خاتم الأولياء، فقال:

---

(١) في فصوص الحكم (من كونهم)، والتصحيح من مجموع الفتاوى٢/ ٢٠٧

(٢) اللَّبِنُ: واحده لَبِنَة وهو الطوب المضروب على شكل المربعات. انظر تهذيب اللغة١٥/ ٣٦٣ مادة (لبن).

(٣) فصوص الحكم ص٦٢

(٤) مجموع الفتاوى٢/ ٢٢٠، وانظر قطر الولي على حديث الولي للشوكاني ص٢٠٥

(وذلك أنه لم يمكنهم أن يجعلوا بعد النبي ﷺ نبيا، ورسولا ؛ فإن هذا كفر ظاهر فزعموا أنه إنما تنقطع نبوة التشريع ورسالته يعني : وأما نبوة التحقيق ورسالة التحقيق وهي الولاية عندهم فلم تنقطع، وهذه الولاية عندهم هي أفضل من النبوة والرسالة)[١].

ويحاول ابن عربي أن يدافع عن فكرته السخيفة، ومقولته الشنيعة في تفضيل خاتم الأولياء على الأنبياء بقوله : (واعلم أن الولاية هي الفلك المحيط العام ؛ ولهذا لم تنقطع، ولها الإنباء العام، وأما نبوة التشريع، والرسالة فمنقطعة، وفي محمد ﷺ قد انقطعت فلا نبي بعده ؛ يعني مشرعا أو مشرعا له، ولا رسول وهو المشرع، وهذا الحديث قصم ظهور أولياء الله ؛ لأنه يتضمن انقطاع ذوق العبودية الكاملة التامة[٢] . . . . فإذا رأيت النبي يتكلم بكلام خارج عن التشريع فمن حيث هو ولي، وعارف، ولهذا مقامه من حيث هو عالم أتم وأكمل من حيث هو رسول، أو ذو تشريع وشرع، فإذا سمعت أحدا من أهل الله يقول : أو ينقل إليك عنه أنه قال : الولاية أعلى من النبوة فليس يريد ذلك القائل إلا ما ذكرناه، أو يقول : إن الولي فوق النبي والرسول ؛ فإنه يعني بذلك في شخص واحد، وهو أن الرسول عليه السلام من حيث هو ولي أتم من حيث هو نبي رسول)[٣].

ويقول أحدهم : (خضنا بحرا وقف الأنبياء بساحله)[٤].

ونقل عن الجيلاني أنه قال : (أنتم معاشر الأنبياء أو يتيم اللقب، وأوتينا أي نحن الأولياء مالم تؤتوا)[٥].

ولم ينقل أحد هذا الكفر الصريح قبل ابن عربي إلا ما ذكره الحكيم الترمذي[٦] في كتابه : " ختم الولاية " لكنه أخطأ شبرا ففرع الصوفية على خطئه ما صار كفرا[٧].

ثم تنقصوا النبي ﷺ من جهة أخرى فقالوا : النبي يأخذ عن الله بواسطة الملك، والولي

---

(١) مجموع الفتاوى ٢/ ٢٢١

(٢) ثم كان ابن سبعين متأثرا بابن عربي إلا أنه كان أكثر صراحة في بيان هذه الفكرة عند ما قال بكل صلافة وجرأة وزندقة وكفر : (لقد غالى ابن آمنة بقوله : لا نبي بعدي) انظر الصوفية في نظر الإسلام ص١٧٩

(٣) فصوص الحكم ص١٣٤

(٤) الصوفية في نظر الإسلام لسميح عاطف ص١٧٨

(٥) المرجع نفسه والموضع بعينه، وانظر العلم الشامخ للمقبلي ص٢٤٠

(٦) هو أبو عبدالله محمد بن علي بن الحسن بن بشير الحكيم الترمذي، محدث، حافظ، صوفي، قال عنه القشيري : من كبار الشيوخ، من مؤلفاته ((ختم الأولياء)) و((الصلاة ومقاصدها))، توفي بعد ٣١٨هـ. انظر الرسالة القشيرية ص٤٠٠، ومعجم المؤلفين ٣/ ٥٠٢

(٧) انظر مجموع الفتاوى ٢/ ٢٣١

يأخذ عن الله بغير واسطة فهو أفضل: (والله تعالى لا يفيض علمه على قلب من يتلمس منه العون والتوفيق من عباده فحسب؛ بل هو سبحانه مصدر العلم كله، وهو يفيض هذا العلم على قلوب الأنبياء بطريق الوحي المباشر وكثيرا ما يلقي سره في قلب صفوته من الخلق بدون وسيط)[١].

وقالوا: الملك ينزل على الولي بالوحي، ولكنه لا يؤمر بالتبليغ[٢]، والأولياء في درجة الصحابة رضي الله عنهم؛ بل الولي مثل النبي، فكما أن النبي تأخذه البرحاء[٣] وقت الوحي فكذلك الولي يأخذه الحال فهما سواء؛ إلا أن النبي يشرع، ويؤمر بالتبليغ، والولي ليس له إلا الإخبار[٤].

ويزعمون أن كل ما كان معجزة لنبي من الأنبياء صح أن يكون كرامة لولي من الأولياء[٥].

ويصرح مصنفو الصوفية أن الولي يكون نبيا ورسولا إذا دعا الخلق إلى الله، ويكون نبيا فقط نبوة ولاية إن لم يدع الخلق إلى الله فقسموا الولاية كما قسم علماء أهل السنة النبوة، فقالوا: (نبوة الولاية ارتجاع الحق إلى الخلق ليقوم بأمورهم المصلحة لشئونهم في ذلك الزمان على شرط الحال، فمن دعا الخلق منهم إلى الله تعالى قبل محمد صلى الله عليه وسلم كان رسولا، ومن دعا بعد محمد صلى الله عليه وسلم كان خليفة لمحمد صلى الله عليه وسلم؛ لكنه لا يستقر في دعواه بنفسه؛ بل يكون تبعا لمحمد صلى الله عليه وسلم كمن مضى من الصوفية مثل: أبي يزيد، والجنيد[٦]، والشيخ عبد القادر، ومحي الدين ابن عربي، وأمثالهم، ومن لم يدع إلى الله تعالى؛ بل وقف مع تدبير أمور الخلق على

---

(١) روح الإسلام للسيد أمير علي ترجمة أمين الشريف٢/ ٣٤١، وانظر الجواهر والدرر للشعراني بحاشية الإبريز ص٨٧، والمعجم الصوفي الحكمة في حدود الكلمة ص١١٨٦

(٢) انظر الإبريز ص١٥١

(٣) البرحاء بالضم والمد: الحمى وغيرها وشدة الأذى والأمر المجهد. انظر مختار الصحاح ص٤٦ مادة (برح)، والقاموس المحيط١/ ٢٢٣ مادة (البرح).

(٤) انظر ميزاب الرحمة الربانية ص١٨١

(٥) انظر الجواهر والدرر الشعراني بحاشية الإبريز ص٢٣٠، والإبريز ص٢٠٣

(٦) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد إمام عند الصوفية قال القشيري: الجنيد سيد هذه الطائفة وإمامهم، أصله من نهاوند، ولد ونشأ في العراق، وكان أبوه يبيع الزجاج، فلذلك يقال له القواريري، من أقوال الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ كانت وفاته سنة ٢٩٧هـ. انظر الرسالة القشيرية ص٤٣٠

حسب ما ينبئه الله تعالى عن أحوالهم فهو نبي نبوة ولاية)[١].

فخاتم الأولياء يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك[٢]؛ بل (خاتم الأولياء مثل خاتم الأنبياء، وقد يفضله؛ لأنه الولي الرسول النبي وخاتم الأولياء)[٣]، وإذا كان ابن عربي يرى أنه كان خاتما للأولياء فإن بعض الصوفية يرون أن عليا رضي الله عنه كان هو الخاتم للأولياء لا غيره[٤]، ويدعيها التجانية لشيخهم التجاني[٥]، فالعالم لا يخلو قط من الحكمة، ومن شخص قائم بها عنده الحج، والبيانات (وهذا يدل على أن القطبانية هي صورة من صور النبوة؛ فالإمام أو الخليفة هو القطب أو الإنسان الكامل، والأقطاب أو الأئمة هم الدعائم التي يقوم عليها صرح الوجود، وهم الواسطة بين عالم الأمر وعالم الخلق)[٦].

ويقول الدباغ: (ولو أن الناس الذين ألفوا في الكرامات قصدوا إلى شرح حال الولي الذي وقع التأليف فيه فيذكرون ما وقع له بعد الفتح من الأمور الباقية الصالحة، والأمور الفانية لعلم الناس الأولياء على الحقيقة، فيعلمون أن الولي يدعو تارة فيستجاب له، وتارة لا يستجاب له، ويريد الأمر، فتارة يقضى وتارة لا يقضى، كما وقع للأنبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، ويزيد الولي بأنه تارة تظهر الطاعة على جوارحه، وتارة تظهر المخالفة عليها كسائر الناس، وإنما امتاز الولي عنهم بأمر واحد وهو ما خصه الله تعالى به من المعارف ومنحه من الفتوحات، ومع ذلك فالمخالفة إن ظهرت عليه فإنما هي بحسب ما يظهر لنا، لا في الحقيقة؛ لأن المشاهدة التي هو فيها تأبى المخالفة وتمنع من المعصية منعا لا ينتهي إلى حد العصمة حتى تزاحم الولاية النبوة؛ فإن المنع من المعصية ذاتي في الأنبياء عرضي في الأولياء، فيمكن زواله في الأولياء، ولا يمكن زواله في الأنبياء، وسره ما سبق أن خير الأنبياء من ذواتهم، وخير الأولياء من غير ذواتهم فعصمة الأنبياء

---

(١) معجم مصطلحات الصوفية ص٢٦٨ (٢) انظر فصوص الحكم ص٣٦

(٣) معجم مصطلحات الصوفية ص٨٧

(٤) انظر معجم ألفاظ الصوفية لحسن الشرقاوي ص١٢٧، ويرى بعض الصوفية متأثرا بعقائد بعض الرافضة أن الفيض انتقل منه إلى الأئمة الاثني عشر بعده إلى أن وصلت النوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني فهو الواسطة في وصول الفيوض والبركات إلى سائر الأقطاب والنجباء على حد زعمهم، انظر المنتخبات من المكتوبات ص٢٢٤

(٥) انظر رماح حزب الرحيم بحاشية جواهر المعاني ٢/ ٥، والرد عليهم في الهدية الهادية للهلالي ص٣١، والتجانية للدكتور علي دخيل الله ص١٦٤ (٦) معجم ألفاظ الصوفية ص٢٣٥



ذاتية وعصمة الأولياء عرضية)[١].

فإن الصوفية لا يستحيون من التصريح بأن الأولياء أنبياء، وعلمهم أعلى مرتبة من علوم الأنبياء والمرسلين.

يقول ابن عربي: (وكذلك الأولياء فهم أنبياء؛ إنما خصوا بعلم لا يحصل إلا لنبي من العلم الإلهي، ويكون حكمهم من الله فيما أخبرهم به حكم الملائكة)[٢].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رادا على هذا الزعم الكاذب: (ثم صاحب الفصوص وأمثاله بنوا الأمر على أن الولي يأخذ عن الله بلا واسطة، والنبي يأخذ بواسطة الملك؛ فلهذا صار خاتم الأولياء أفضل عندهم من هذه الجهة، وهذا باطل، وكذب؛ فإن الولي لا يأخذ عن الله إلا بواسطة الرسول إليه، وإذا كان محدثا قد ألقي إليه شيء وجب عليه أن يزنه بما جاء به الرسول من الكتاب والسنة... وقد كان عندنا شيخ من أجهل الناس، كان يعظمه طائفة من الأعاجم، ويقال إنه خاتم الأولياء يزعم أنه يفسر العلم بوجهين، وأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما فسره بوجه واحد، وأنه هو أكمل من النبي ﷺ، وهذا تلقاه من صاحب الفصوص وأمثال هذا في هذه الأوقات كثيرون)[٣].

ولهذا ترى بعض الصوفية يصرح بعصمة الولي مثل النبي، وبعضهم يعبر عن ذلك بالحفظ، فيقولون: النبي معصوم، والولي محفوظ[٤]، ويقولون: قد ثبتت العصمة للنبيين، وفي ضمنهم الأقطاب، ولم يصرح النبي ﷺ بذلك؛ بل ستر القول بعصمة الأقطاب؛ لأن مراتبهم، وأحوالهم مستورة غير معلومة[٥]، وقالوا: إن غير النبي قد يكون عنده علم أزيد من علم النبي[٦].

ومن موازناتهم بين الرسالة، والنبوة، والولاية، أو القطبانية كما يسمونها وهي صورة واضحة للتنقيص قولهم: (فليس يظهر الكمال صورة، ومعنى، وحسا، بريئا من النقص

---

(١) الإبريز ص٢٢٥

(٢) الفتوحات المكية٢/ ٦٩، وانظر الصلة بين التشيع والتصوف للشيبي١/ ٤٨٣

(٣) مجموع الفتاوى٢/ ٢٢٨، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص٤٩٢، وفضل علم السلف على الخلف لابن رجب ص٤٥

(٤) انظر الرسالة القشيرية ص٢٦٠، والجواهر والدرر بحاشية الإبريز ص١٢٥، وانظر الرد عليهم في النبوات ص١٦٧، ولوامع الأنوار١/ ٣٣٨

(٥) انظر جواهر المعاني١/ ٢٣٢

(٦) انظر مخازي الولي الشيطاني لإبراهيم القطان مطبوع بآخر مشتهى الخارف الجاني ص٦٠٦، والفتح الرباني فيما يحتاج إليه المريد التجاني للطصفاوي ص١٨



بكل وجه وبكل عاتبار إلا في ثلاث مراتب فقط لا ما عداها، وهي: الرسالة لمن دخل حضرتها، والنبوة لمن دخل حضرتها، والقطبانية لمن دخل حضرتها؛ فإن هذه الثلاثة لا صورة للنقض فيها. . . فإذا عرفت هذا فليكن المريد مع شيخه كما هو مع نبيه صلى الله عليه وسلم في التعظيم، والمحبة، والاستمداد، والانقطاع إليه بالقلب، فلا يعادل به غيره في هذه الأمور، ولا يشرك معه غيره)[١]. وهذا الاعتقاد في الأولياء، وتعظيمهم فوق تعظيم الأنبياء راسخ في أذهان الصوفية رسوخ الجبال في الأرض؛ ولهذا كان القشيري يعظم شيخه تعظيما لا يعتقد أن يبلغه أحد، فيقول: (وكنت أفكر في نفسي كثيرا أنه لو بعث الله عز وجل في وقتي رسولا إلى الخلق[٢]؛ هل يمكنني أن أزيد في حشمته على قلبي فوق ما كان منه رحمه الله تعالى، فكان لا يتصور لي أن ذلك ممكن!)[٣].

وهذه النماذج التي سقناها عن الصوفية، وأمثالها كثير تنقيص، وزندقة، وكفر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن فضل أحدا من المشايخ على النبي ﷺ أو اعتقد أن أحدا يستغني عن طاعة رسول الله ﷺ استتيب؛ فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وكذلك من اعتقد أن أحدا من أولياء الله يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم كما كان الخضر مع موسى عليه السلام فإنه يستتاب؛ فإن تاب وإلا ضربت عنقه. . . ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين: إنسهم وجنهم، فمن اعتقد أنه يسوغ لأحد الخروج عن شريعته، وطاعته فهو كافر يجب قتله)[٤].

والتنقيص لازم لأهل البدع سواء الذين رفعوا بعض الأشخاص فوق مرتبة النبي ﷺ أو الذين تركوا شيئا من السنة، واستعاضوا عنها بالبدعة.

يقول العلامة ابن القيم: (فلا تجد مشركا قط إلا وهو منتقص لله سبحانه، وإن زعم أنه يعظمه بذلك، كما أنك لا تجد مبتدعا إلا وهو منتقص للرسول ﷺ، وإن زعم أنه معظم له بتلك البدعة، فإنه يزعم أنها خير من السنة، وأولى بالصواب، أو يزعم أنها هي السنة، وإن كان جاهلا مقلدا، وإن كان مستبصرا في بدعته، فهو مشاق لله، ورسوله،

---

(١) ميزاب الرحمة الربانية في التربية بالطريقة التجانية ص٣٣

(٢) وهذا تنقيص آخر لخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه حيث دار في خلد القشيري أن الله يبعث رسولا بعده، وهو القائل (لا نبي بعدي).

(٣) الرسالة القشيرية ص٢٩٧

(٤) مجموعة الرسائل الكبرى١/ ٣١٥، وانظر الشفا للقاضي عياض٢/ ٢٣٦، ومصرع التصوف ص٢١٩، والبريلوية ص٦٨



فالمتقصون المنقوصون عند الله تعالى، ورسوله، وأوليائه هم أهل الشرك والبدعة)[١].

وليت شعري كيف تجرؤ الصوفية بعد نماذج التنقيص السابقة على رمي أهل السنة، ومن قال بقول السلف في النهي عن الغلو في جناب الرسول ﷺ بالتنقيص؟ (وهؤلاء المشركون هم المتنقصون الناقصون أفرطوا في تعظيمه بما نهاهم عنه أشد النهي، وفرطوا في متابعته فلم يعبأوا بأقواله، وأفعاله، ولا رضوا بحكمه، ولا سلموا له، وإنما يحصل تعظيم الرسول ﷺ بتعظيم أمره، ونهيه، والاهتداء بهديه، واتباع سنته، والدعوة إلى دينه الذي دعا إليه، ونصرته، وموالاة من عمل به، ومعاداة من خالفه، فعكس أولئك المشركون ما أراد الله ورسوله علما وعملا، وارتكبوا ما نهى الله عنه ورسوله)[٢].

ومن صور التنقيص الطعن في السنة، وتحسين البدعة. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وهذا القدر بعينه هو عين الطعن في نفس النبوة، وإن كان يقر بتعظيمهم، وكمالهم إقرار من لا يتلقى من جهتهم علما، فيكون الرسول عنده بمنزلة خليفة يعطي السكة[٣] والخطبة رسما، ولفظا، كتابة، وقولا من غير أن يكون له أمر، أو نهي مطاع، فله صورة الإمامة بما جعل له من السكة، والخطبة، وليس له حقيقتها. . . ومن المعلوم أن المؤمن بالله، ورسوله لا يستجيز أن يقول في الرسالة: إنها عاجزة عن تحقيق العلم، وبيانه، حتى يكون الإقرار بها مع تحقيق العلم الإلهي من غيرها موجبا لصلاح الدين، ولا يستجيز أن يتعدى عليها بالتقديم بين يدي الله ورسوله، ويقدم علمه وقوله على علم الرسول وقوله، ولا يستجيز أن يسلط عليها التأويلات العقلية، ويدعي أن ذلك من كمال الدين، وأن الدين لا يكون كاملا إلا بذلك)[٤].

ونتيجة لهذا التنقيص الذي تطفح به كتب الصوفية وخصوصا ما يتعلق بتفضيل خاتم الأولياء على جميع الأنبياء والرسل، وادعاء كثير من شيوخ الصوفية، ووسائطها أنه هو الخاتم الذي ختمت به الولاية أقول: نتيجة لذلك ظهرت في القرن الماضي حركة القاديانية

---

(١) إغاثة اللهفان١/ ٦٩، وانظر تيسير العزيز الحميد ص٢٦٢، والرسل والرسالات للأشقر ص٢١٥

(٢) فتح المجيد ص٢٢٦، وانظر غاية الأماني٢/ ٣٦٥، والقول الفصل النفيس ص١٩٩

(٣) السكة: حديدة قد كتب عليها يضرب بها الدراهم والدنانير، فلعله أراد بالسكة إعطاءه حق التصرف في الأموال. انظر تهذيب اللغة٩/ ٤٣١ مادة (سكك) وتاج العروس٧/ ١٤٣ مادة (سكك).

(٤) مجموع الفتاوى٤/ ٨٩، وانظر لوامع الأنوار٢/ ٣٠١، وهذه هي الصوفية لعبد الرحمن الوكيل ص١٢٧

بزعامة المتنبئ غلام أحمد القادياني الكذاب[1]، وزعم لأتباعه في جرأة لا مثيل لها وتنقيص ما دونه تنقيص أنه أفضل من الأنبياء، والأولياء من لدن آدم عليه السلام حتى خاتم النبيين وسيد المرسلين ﷺ فصرح لأتباعه أنه أفضل منه فقال: (إن النبي ﷺ له ثلاثة آلاف معجزة، ولكن معجزاتي زادت على مليون معجزة)[2]. ويقول أيضا هذا المتنبئ الكذاب شعرا مفضلا نفسه الخبيثة على رسولنا الأمين صلوات الله وسلامه عليه[3]:-

له خُسف البدر المنير وإن لي غسا القمران المشرقان أتنكر؟!

يعني: أن خاتم النبيين ﷺ خسف له القمر وحده، أما غلام أحمد القادياني فقد خسف له الشمس، والقمر كلاهما، وهل ينكر أحد فضل القادياني بعد هذه الخصلة؟[4].

ويقول ابن هذا الكذاب، وخليفته الثاني، -والحية لا تلد إلا حية -(إن الارتقاء الذهني لإمامنا كان أزيد، وأكثر من النبي الكريم ﷺ؛ لأن هذا الزمان أرقى من آنذاك من حيث التمدن، وهذه هي الفضيلة الجزئية التي حصلت لغلام أحمد على محمد صلى الله عليه وسلم)[5].

ومن صور التنقيص الموجهة لخاتمة الوسائط من الرسل نبينا وحبيبنا محمد ﷺ الاستهزاء بسنته، والسخرية من الملتزمين، كمن يستهزئ بعلماء الدين، وصلحاء الأمة، والدعاة إلى الله، أو يسخر من اللحية، أو يطعن في الحكمة من هيئة الإحرام، أو رمي الجمار، أو أي شعيرة من شعائر الدين؛ لأن الطعن في ذلك طعن في الرسالة وتنقيص لصاحبها عليه الصلاة والسلام.

وقد نقل الإمام النووي قصصا وحكايات حصلت لبعض المستهزئين بكلام النبوة، فيها عبرة للمعتبرين، ومن ذلك أن بعض طلبة العلم كانوا يختلفون إلى بعض المحدثين في أزقة البصرة، فيسرعون في المشي، وكان معهم رجل ماجن في دينه، فقال: ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزئ! فما زال ذلك الماجن في موضعه حتى جفت

---

(١) هو غلام أحمد بن مرتضى القادياني، مؤسس الطائفة القاديانية، ولد سنة ١٢٤٢هـ، وتوفي بلاهور، ودفن بقاديان سنة ١٣٢٦هـ. انظر: الأعلام١/ ٢٥٦، ومعجم المؤلفين١/ ٣٠٦

(٢) تذكرة الشهادتين لغلام أحمد القادياني ص ٤١، نقلا عن القاديانية لإحسان إلهي ظهير ص١٩

(٣) انظر إعجاز أحمدي للقادياني ص٧١ نقلا عن القاديانية لإحسان إلهي ظهير ص٧٥

(٤) انظر القاديانية لإحسان إلهي ظهير ص٧٥

(٥) القاديانية لإحسان إلهي ظهير ٦٩



رجلاه، وسقط على الأرض، ونقل عن خليع آخر أنه جعل في عقبيه مسامير من حديد، وقال: أريد أن أطأ أجنحة الملائكة، فأصابه أكلة[1] في رجليه. وقيل: شلت رجلاه، ويداه، وسائر أعضائه.

ونقل عن بعض المبتدعة أنه حين سمع نهي النبي ﷺ أن يغمس الرجل يده في الإناء -إذا استيقظ من النوم حتى يغسلها -فإنه لا يدري أين باتت يده، قال ذلك المبتدع -على سبيل التهكم- أنا أدري أين باتت يدي! لقد باتت معي في الفراش، فأصبح وقد دخلت يده في دبره إلى ذراعه[2].

وقد بين ابن رجب الحنبلي أن السبب في طعن الطاعنين في السنة وسخرية المستهزئين بالملتزمين هو أن الطاعنين لم يمكنهم القدح في ألفاظ الكتاب، فقال: (والطعن في ألفاظ السنن حيث لم يمكنهم الطعن في ألفاظ الكتاب، ويذمون من تمسك بالنصوص وأجراها على ما يفهم منها، ويسمونه جاهلا، أو حسودا، وهذا يوجد في المتكلمين في أصول الديانات، وفي فقهاء الرأي، وفي صوفية الفلاسفة، والمتكلمين)[3].

---

(١) الأكلة: كفَرِحة، داء يصيب العضو. انظر القاموس المحيط ٣/ ٣٤٠، مادة(أكله).

(٢) انظرَ تلك الحَكايات في بستان العارفين للنووي ص١٢٣ وما بعدها.

(٣) فضل علم السلف على الخلف ص٦٤، وانظر الحد الفاصل بين الإيمان والكفر لعبد الرحمن عبد الخالق ص٥٠



المبحث الرابع

قياسهم الواسطة في العبادة على الواسطة في التبليغ

من أهم الأمور التي بنى عليها أهل الأهواء مذهبهم الفاسد في فهم الواسطة أنهم قاسوا توسيطهم للأنبياء، والأولياء، وشيوخ الطرق في دعائهم لله تعالى لقضاء حوائجهم، وتحقيق مطالبهم، قاسوا ذلك على إرسال الله تعالى لأنبيائه، ورسله واسطة بينه وبين خلقه لتبليغ شرائعه، وإقامة الحجة على خلقه، مبشرين من اتبع الوحي الذي جاءوا به بالفوز برضا الله تعالى، وقربه، ومنذرين من أعرض عن ذكره، والنور الذي جاءوا به بسخط الله تعالى، وعذابه، والبعد منه.

ولقد عُلم -من طريق الوحي- أن هؤلاء المرسلين أكدوا للخلق أن وساطتهم ليست في عبادة الخلق لخالقهم وإن كانت تلك العبادة وضحتها رسالات الله إلى هؤلاء الأنبياء؛ لأن الله تعالى قريب مجيب، يرى مكانهم، ويسمع سؤالهم، ويعرف حالهم، فليس بينه وبين خلقه واسطة في حال الالتجاء، والتضرع، والدعاء، وسائر أنواع العبادة التي بينها الرسول ﷺ، وهذا هو سبيل الإخلاص الذي جاء به الإسلام، ولا يقبل الله عز وجل عبادة بدونه[1]، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[2] وقال أيضا: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ② أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[3]

وهذا القياس معارض لصحيح المنقول، وصريح المعقول، ويستدل به (بعض المتكلمين ولا سيما المتأخرين منهم لتقرير منهجهم الذي أدى بهم إلى الانحراف في توحيد الألوهية، كتقريرهم بعض مظاهر الشرك، ووسائله الذي اعتبروه قربة وطاعة، تقربهم إلى الله زلفى، يستدلون ببعض الشبه، والأقيسة التي عارضوا بها صحيح المنقول.

ومن هذه الأقيسة قياس الواسطة في العبادة على الواسطة في الرسالة، فأخطأ كثير من المتكلمين في فهم الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه حيث حملوها مالا تحتمل فاتخذوا من ذات الرسول ﷺ وغيره من الأنبياء، والصالحين وسائط معتقدين أن الله سبحانه لا يقبل من

---

(١) راجع ما سبق بيانه في الفصل الثالث (صورة الواسطة في العبادة)

(٢) سورة الكهف الآية ١١٠   (٣) سورة الزمر الآيتان (٢- ٣).

عباده عملا إلا إذا جاءوا إليه بهؤلاء الوسطاء؛ ليكونوا لهم وسيلة عنده تقربهم إليه زلفى، ومن أمثلة استدلال المتكلمين بهذا القياس استدلال الشهرستاني به في معرض رده على الصائبة المشركين عباد الكواكب والنجوم، والروحانيات الذين زعموا أنها تقربهم إلى الله زلفى، ولا يمكنهم عبادة الله مباشرة؛ لكثرة ذنوبهم، وكانوا لا يعترفون بالرسل الذين بعثهم الله واسطة بينه وبين خلقه لتبليغ رسالته، فأقام الشهرستاني مناظرة بين الأرواح العلوية التي كانت تعبدها الفلاسفة الصائبة، وبين الأنبياء، وأثبت أن اتخاذ الأنبياء واسطة بين الله وبين خلقه أولى من اتخاذ الروحانيات واسطة)[١].

وهذا خطأ من الشهرستاني في فهم الواسطة بين الله وخلقه جره إليه استدلاله بقياس الواسطة في العبادة على الواسطة في تبليغ الرسالة.

وقد رد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية ردا وافيا، ومما ذكره في رده عليه: أن الحنفاء لا يثبتون بين الله وخلقه واسطة في عبادته، ودعائه؛ وإنما يثبتون الواسطة في تبليغ الرسالة؛ لأن الأصل الذي يؤمن به الحنفاء شهادة أن لا إلأه إلا الله، وشهادة أن محمدا وغيره من المرسلين رسل الله.

ثم قال رحمه الله: (فمن جعل ما يثبته الحنفاء من توسط البشر، وتوسط الملائكة من جنس ما يثبته المشركون وأخذ يفاضل بين البشر، والملائكة لم يكن عارفا بدين الإسلام. . . ، فمن اتخذ هؤلاء، أو هؤلاء أربابا كما يقول من يجعلهم وسائط في العبادة، والدعاء، ونحو ذلك فهو كافر)[٢].

وهذا القياس الفاسد راسخ في أذهان أهل الأهواء رسوخ الجبال في الأرض، والشبهة عندهم في ذلك أن الله ما اختارهم واصطفاهم واسطة في تبليغ رسالاته، وكلامه إلا ليتخذهم الخلائق واسطة بينهم وبين الله تعالى في سائر أنواع العبادة، وهذا بلاشك مصادمة لما دعا إليه هؤلاء الرسل في رسالاتهم.

يقول ابن الحاج المالكي: (. . فإن كان الميت المزار ممن ترجى بركته فيتوسل إلى الله تعالى به، وكذلك يتوسل الزائر بمن يراه ممن ترجى بركته إلى النبي ﷺ؛ بل يبدأ بالتوسل

---

(١) منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل لجابر إدريس ٢/ ٦٧٤، وانظر الملل والنحل ٢/ ٦
(٢) الرد على المنطقيين ص١٠٥، وانظر ص ٥٤٤

إلى الله تعالى بالنبي ﷺ؛ إذ هو العمدة في التوسل والأصل في هذا كله، والمشرع له، فيتوسل به ﷺ وبمن تبعه بإحسان إلى يوم الدين. . . ثم يتوسل بأهل تلك المقابر أعني بالصالحين منهم في قضاء حوائجه، ومغفرة ذنوبه، ثم يدعو لنفسه ويجأر إلى الله تعالى بالدعاء عندهم، ويكثر التوسل بهم إلى الله تعالى؛ لأنه سبحانه وتعالى اجتباهم وشرفهم وكرمهم، فكما نفع بهم في الدنيا ففي الآخرة أكثر، فمن أراد حاجة فليذهب إليهم، ويتوسل بهم؛ فإنهم الواسطة بين الله تعالى وخلقه، وقد تقرر في الشرع، وعلم ما لله تعالى بهم من الاعتناء، وذلك كثير مشهور، ومازال الناس من العلماء، والأكابر، كابرا عن كابر مشرقا، ومغربا يتبركون بزيارة قبورهم، ويجدون بركة ذلك حسا ومعنى)[١].

ويقول السبكي[٢] في كلام خلط فيه بين الشفاعة المثبتة في الآخرة، وبين الواسطة في العبادة المنفية في الدنيا يقول: (وفي التجاء الناس إلى الأنبياء في ذلك اليوم أدل دليل على التوسل بهم في الدنيا، والآخرة، وأن كل مذنب يتوسل إلى الله عز وجل بمن هو أقرب إليه منه، وهذا لم ينكره أحد، ولا فرق بين أن يسمى ذلك تشفعا أو توسلا، أو استغاثة، وليس ذلك من باب تقرب المشركين إلى الله تعالى بعبادة غيره؛ فإن ذلك كفر، والمسلمون إذا توسلوا بالنبي ﷺ أو بغيره من الأنبياء، والصالحين لم يعبدوهم، ولا أخرجهم عن توحيد الله تعالى، وأنه هو المنفرد بالنفع، والضر، وإذا جاز ذلك جاز قول القائل: أسأل الله تعالى برسوله؛ لأنه سائل لله تعالى لا لغيره)[٣].

ويؤيده ابن حجر المكي[٤] في اعتبار هذا القياس الفاسد، فيقول: (ولا فرق بين ذكر التوسل، والاستغاثة، والتشفع، والتوجه به ﷺ أو بغيره من الأنبياء، وكذا الأولياء؛ وذلك لأنه ورد جواز التوسل بالأعمال كما في حديث الغار الصحيح مع كونها أعراضا، فالذوات الفاضلة أولى)[٥].

---

(١) المدخل ١/ ٢٤٩، وانظر شواهد الحق ص٨٥

(٢) هو أبو الحسن علي بن عبدالكافي بن علي بت تمام السبكي الأنصاري الخزرجي، ولد في سبك قرية في مصر سنة ٦٨٣هـ، ثم انتقل إلى الشام فولي القضاء هناك، يعد مبرزا في التفسير والمناظرة، من مؤلفاته((شفاء السقام في زيارة خير الأنام))، توفي بالقاهرة سنة ٧٥٦هـ، انظر: طبقات الشافعية لابنه السبكي٦/ ١٤٦، والأعلام ٤/ ٣٠٢

(٣) شفاء السقام في زيارة خير الأنام للسبكي ص١٦٠، وانظر شواهد الحق ص١٤٠

(٤) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري شهاب الدين، ولد سنة ٩٠٩هـ، وتوفي بمكة سنة ٩٧٣هـ، شافعي المذهب، من مصنفاته « الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة » و«الإعلام بقواطع الإسلام ». انظر ترجمته في الفوائد البهية ص٢٤٠، والبدر الطالع ١/ ١٠٩، وشذرات الذهب٧/ ٣٩٩

(٥) الجوهر المنظم في زيارة القبر المعظم لابن حجر المكي نقلا عن شواهد الحق ص١٣٧



ويقول صاحب جواهر المعاني: (ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم في هذا الميدان تام في نفسه لا يطرأ عليه النقص بوجه من الوجوه، كامل ﷺ يفيض الكمالات على جميع الوجود من العلوم، والمعارف، والأسرار، والأنوار، والأحوال، والفيوضات، والتجليات، والمواهب، والمنح، وجميع وجوه العطايا، فكل ما يفيضه الحق سبحانه وتعالى على الوجود مطلقا، ومقيدا، أو كثيرا، أو قليلا مما اشتهر أو شذ، إنما يفيضه بواسطة الرسول ﷺ فمن ظن أن يصل شيء إلى الوجود بغير واسطة رسول الله ﷺ فقد جهل أمر الله، وإن لم يتب خسر الدنيا والآخرة بهذا الاعتقاد)[1].

ويقول صوفي آخر -مدعيا أن من لم يؤمن بواسطة النبي ﷺ في العبادة أن الأولياء يستطيعون - على حد زعمه -أن يقطعوا ما بين نور إيمانه، وبين نوره عليه الصلاة والسلام، فيقول: (قد اقتضت حكمته تعالى أن يجعل الواسطة في كل إحسان وصل، أو يصل إلينا محمدا ﷺ كما قال القطب مولانا عبد السلام[2]، ولا شيء إلا وهو به منوط؛ أي متعلق، استمدادا، أو استنادا؛ فإن الكل مستمد منه صلى الله عليه وسلم، ومستند إليه، ومن جملة ما هو واسطة فيه نور المعرفة، والإيمان، ووقع لبعضهم أنه قال: ليس لي من النبي ﷺ إلا الهداية، وأما نور الإيمان فمن الله تعالى بلا واسطة، فقال له الأولياء: أرأيت لو قطعنا ما بين نور إيمانك وبين نوره ﷺ أترضى بذلك؟ فقال: نعم، فما تم كلامه حتى سجد للصليب، وكفر، والعياذ بالله!!)[3].

والشبهة في هذا القياس عند أهل الأهواء أنهم (لما رأوا أن النبي ﷺ خليل الرحمن، وصاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة وبركاته صلى الله عليه وسلم على أصحابه في حياته، لما توسلوا به ليدعو لهم، فحقق الله دعوتهم، وكذلك لما رأوا تعظيم النصارى لعيسى ابن مريم، وغلوهم فيه قالوا: نحن أحق بهذا التعظيم منهم لمن هو أفضل منه رسول الله (فسلكوا طريقتهم، فاحتفلوا بميلاده، ثم دعوه من دون الله، توسلا، ودعاء، واستشفاء، واستنصارا، ومددا)[4].

وكونه عليه الصلاة والسلام خليل الرحمن وحبيبه، وكون الشفاعة العظمى إليه يوم

---

(١) جواهر المعاني لعلي حرازم٢/ ٢٣٣، وانظر رماح حزب الرحيم٢/ ١٤٢، وبغية المستفيد لمحمد العربي السائح التجاني ص٢٢٥

(٢) هو عبد السلام بن مشيش صاحب الصلاة المشيشية، سيأتي ترجمته.

(٣) نخبة المطلوب من شرح مطهرة القلوب ص ٨

(٤) الغلو في الدين لعلي الشبل ص٧٨



القيامة، كل هذا حق لا مرية فيه؛ لكن هذا لا يسوغ لنا رفعه صلى الله عليه وسلم فوق منزلة النبوة، وطلب الشفاعة منه بعد أن التحق بالرفيق الأعلى -بأبي هو أمي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لا يجوز لنا أن نتوجه إليه بالدعاء، والطلب، والاستغاثة بعد التحاقه بالرفيق الأعلى صلى الله عليه وسلم؛ بل نتوجه إلى ربنا بالسؤال، وطلب النوال كما أرشدنا إلى ذلك رسولنا صلى الله عليه وسلم؛ كما أن منزلة النبي ﷺ العلية، ومكانته الرفيعة التي حباه الله بها ليكون واسطة بينه وبين خلقه في تبليغ خاتمة الرسالات لا يسوغ لنا جعله صلى الله عليه وسلم واسطة بيننا وبين ربنا في دعائنا إياه، وسؤالنا حاجاتنا منه، واستعانتنا به، واستغاثتنا إياه، واطراحنا بين يديه سبحانه وتعالى، وكذلك سائر العبادات، والأعمال التي يشترط لصحتها كونها خالصة من غير أن يشوبها شائبة من وسيط أو وجيه؛ لأن رسولنا صلى الله عليه وسلم هو الذي علمنا ذلك، وأمرنا بإخلاص العبادة، واللجوء إلى الله تعالى بلا واسطة، ونهانا عن كل ما يخالف ذلك.

ورغم هذا كله فهم بعض أهل الأهواء من قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[1] أنه لا بد من توسيط ذوات الأنبياء، والصالحين، فقالوا: إن للأنبياء، والرسل عليهم الصلاة والسلام جاها عظيما عند مرسلهم جل شأنه؛ ولأجل وجاهتهم تلك بعثهم إلى الناس واسطة في تبليغ شرائعه، رسلا مبشرين ومنذرين، ففهم أهل الأهواء من هذه المكانة العالية، والمنزلة الرفيعة للأنبياء، والرسل فهما خاطئا فجعلوهم واسطة بينهم وبين الله تعالى في أداء العبادة لله تعالى التي طالما حذر رسل الله منْ جَعْلِ واسطة بين العبد وربه في توحيده، وعبادته، حماية لجناب التوحيد، وسدا لباب الشرك بالله تعالى في شيء من أنواع العبادة؛ ولهذا قالوا جميعا لأممهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[2] وقال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾[3]، ففهم أهل الأهواء عكس ما دعت إليه الرسل، فقاسوا وساطتهم في العبادة على وساطتهم في التبليغ.

وهذا الاعتقاد الفاسد في الرسل، والخلط بين ما يليق بهم الوصف به، وما لا يليق بهم سببه الغلو الزائد، والإفراط المنهي عنه في حقهم، وتلبيساتهم على العوام، والسذج من

(١) سورة المائدة الآية ٣٥ (٢) سورة الأعراف الآية ٥٩

(٣) سورة السجدة الآية ٤



الناس بدعوى محبة الرسل، وتعظيمهم، فهذا البكري[١] من شعراء الصوفية يقول[٢]: -

ما أرسل الرحمن أو يرسل   من رحمة تصعد أو تنزل
في ملكوت الله أو ملكه   من كل ما يختص أو يشمل
إلا وطه المصطفى عبده   نبيه مختاره المرسل
واسطة فيها وأصل لها   يعلم هذا كل من يعقل
فلذ به في كل ما ترتجي   فإنه المقصد والمأمل
وناده إن أزمة أنشبت   أظفارها واستحكم المعضل
عجل بإذهاب الذي اشتكي   فإن توقفت فمن ذا أسأل؟!

ولو كان هذا الشاعر يقصد أن السعادة، والهدى في متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وأن الضلال، والشقاء في مخالفته، لكان هذا حقا، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن السعادة، والهدى في متابعة الرسول ﷺ وإن الضلال والشقاء في مخالفته، وإن كل خير في الوجود إما عام وإما خاص فمنشأه من جهة الرسول، وإن كل شر في العالم مختص بالعبد فسببه مخالفة الرسول، أو الجهل بما جاء به، وإن سعادة العباد في معاشهم، ومعادهم باتباع الرسالة)[٣]؛ لكن البكري يقصد شيئا آخر وهو تأصيل مذهب أهل الأهواء في قياسهم وساطة النبي ﷺ في العبادة على وساطته في تبليغ الرسالة، (فإن قلت: أنا لا أقصد بنسبة الإمداد إلى النبي ﷺ أنه هو المدد الحقيقي، وأنا مؤمن بقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[٤]، وإنما أردت أن النبي ﷺ هو الواسطة في إيصال هذه النعم.

وقد زاد هذا المضل[٥] على ادعاء الواسطة بين الله وبين خلقه في النعم كلها أن النبي ﷺ هو أصل هذه النعم على حد زعم من يزعم أن كل العالم بملائكته، وجنته، وناره، وجنه،

---

(١) هو محمد بن علي بن محمد بن الشيخ شمس الدين بن أبي الحسن البكري الصديقي، المصري، الشافعي، الصوفي، الشاعر، حكى عنه النبهاني بعضا من كراماته، مات سنة ٩٩٣هـ، انظر: شذرات الذهب ٨/ ٤٣١، والكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ٣/ ٦٠، وجامع كرامات الأولياء للنبهاني ١/ ٣١٢

(٢) انظر شواهد الحق ص٣٨٩، ونخبة المطلوب ص٨

(٣) مجموع الفتاوى١٩/ ٩٣

(٤) سورة النحل الآية ٥٣

(٥) يقصد البكري صاحب الأبيات الشعرية السابقة.

وإنسه، مسلمهم، وكافرهم، وشياطينهم، كل ذلك مخلوق من نور النبي ﷺ، ويستدلون على ذلك بحديث باطل . . . فالجواب: وما دليلك على أن الله لا يمد الناس إلا بواسطة النبي ﷺ؟ ؛ فإن قلت: قد أسند الله إليه الهداية في قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]

فالجواب: أن الهداية في كتاب الله تعالى تجيء ويراد بها تارة الدلالة، والإرشاد، فالنبي ﷺ يهدي إلى صراط مستقيم أي يدل الناس عليه، يدعوهم إليه بأقواله، وأفعاله، وأخلاقه الكريمة، كما قال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]، وأما التصرف في القلوب بالهداية، والإضلال فهو خاص بذي الجلال . . . وإذا ثبت أن المدد كله من الله وليس في قدرة المخلوق أن يمد مخلوقا برزق حسي أو معنوي بأن يخلق ذلك الرزق، ويهديه له فقد تهدم كل ما بناه صاحب الرماح)[3][4].

ويقول النبهاني -في حديثه عن الأنبياء، والرسل مصرحا بهذا القياس-: (وجعل رسله المكرمين وسائط بينه وبين خلقه لتبليغهم أحكام دينه المبين، فاتخذوهم وسائط إليه في قضاء المرام، كما جعلهم تعالى وسائط إليهم في تبليغ الأحكام، فلم يأتوا بتوسيطهم إياهم في قضاء حوائجهم لديه تعالى شيئا بدعا؛ ولكنهم وسطوا إليه من وسطهم إليهم فلم يخالفوا بذلك عادة، ولا شرعا)[5].

وقال أيضا: (من الجلي الواضح البين الذي لا يخفى على من وضع الله في قلبه أدنى نور أن مراعاة جانب الله تعالى، والمحافظة على توحيده إنما تكون بتعظيم من عظمه الله تعالى وتحقير من حقره الله تعالى، وقد عظم الله تعالى أنبياءه، وأصفياءه، فعظمناهم لأجله؛ فالتعظيم في الحقيقة راجع إليه سبحانه وتعالى، وقد جعلهم سبحانه وتعالى وسائط لنا في تبليغ شرائع دينه، فوسطناهم له عز وجل لقضاء حوائجنا تبعا له في توسيطهم لنا في تبليغ شرائعه، واحتقارا لأنفسنا عن أن نكون أهلا لطلب حوائجنا منه سبحانه وتعالى بلا واسطة؛ لكثرة ذنوبنا، ووفرة عيوبنا . . .)[6].

---

(١) الآية ٥٢ (٢) الآية ٧٣

(٣) يقصد عمر الفوتي التجاني صاحب كتاب رماح حزب الرحيم.

(٤) الهداية الهادية إلى الطائفة التجانية ص٢٧ (٥) شواهد الحق ص ٢٦

(٦) شواهد الحق ص٦٦، وانظر الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية للنبهاني أيضا ص٦٠٤

وقد دافع النبهاني عن الشبهة التي من أجلها قاس أهل الأهواء وساطة الأنبياء، والأولياء في العبادة على الواسطة في التبليغ، فقال: معلقا على كلام العلامة ابن القيم؛ حين ذكر طبقات المكلفين في كتابه، "طريق الهجرتين"، ثم ذكر أهل الطبقة الأولى، وهم الأنبياء، والمرسلون.

يقول النبهاني: (وجميع الأوصاف الجميلة التي ذكرها في عبارته السابقة للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام لا شك أنها تؤهلهم لمرتبة الاستغاثة بهم إلى الله تعالى؛ لقضاء حوائج المستغيثين، وهو مصرح فيها بأنهم وسيلة الناس ووسائطهم إلى الله تعالى، فكما جعلهم تعالى واسطة لخلقه في تبليغ دينه جعلوهم واسطة له في قضاء حوائجهم؛ وإلا فلم لم يبلغ الله تعالى شرائعه، وأحكام دينه إلى كل فرد من أفراد الناس بلا واسطة؟! بل أرسل سبحانه وتعالى إليهم رسلا، أوحى إليهم شرعهم، وهم بلغوه إلى الناس، فجعلهم وسائط بينه وبين خلقه، فالسبب الذي لأجله جعلهم الله تعالى وسائط بينه وبين خلقه هو السبب الذي دعا الناس يجعلونهم وسائط بينهم وبين ربهم في قضاء حوائجهم؛ فإن قلت: ما هو ذلك السبب؟ قلت: هو -والله أعلم- معرفتهم بالله تعالى بحسب درجاتهم، واستعدادهم، وقرب المناسبة بينهم وبين الحق تعالى، والنظر إلى كمال صفائهم وكثرة طاعتهم لله عز وجل، ومعرفتهم بآداب العبودية له تعالى بخلاف سائر الناس؛ ولذلك أجلهم الأنبياء، وهم درجات أعلاهم سيدنا محمد ﷺ، ومثلهم في ذلك الأولياء، والصالحون، ومع كونهم يكونون وسائط في ذلك لمن هو دونهم في الصفاء، والطاعة، ومعرفة آداب العبودية يتخذون من هو فوقهم في ذلك كالأنبياء وسائط لهم لدى الله تعالى؛ كما أن الأنبياء يتخذون سيدهم الأعظم سيدنا محمدا ﷺ واسطة لهم يوم القيامة، كما ورد في حديث الشفاعة. . . ولا شك أن ذلك منهم جميعا، ومن الناس أيضا هو من كمال الأدب مع الله تعالى، فهو من أحسن محسنات العبد، والتزامه حد الأدب مع ربه عز وجل، فالمنع من الاستغاثة إلى الله تعالى بأنبيائه، وأصفيائه مردود ممنوع، والقول به لا مقبول، ولا مسموع)[1].

فاتضح من هذا أن النبهاني يستدل بقياس الواسطة في العبادة على الواسطة في

---

(١) شواهد الحق ص٢٧٥

التبليغ لتسويغ طلب الحوائج، ودفع المضار من الرسل، وعلل ذلك بأن الاتصال بالله مباشرة، وطلب الحوائج منه غير ممكن؛ لكثرة الذنوب، ووفرة العيوب، وهذا هو بعينه ما دافع به المشركون عن التعلق بأصنامهم[١].

وقد تبعه في اعتبار هذا القياس الفاسد محمد علوي المالكي أيضا[٢]، ويرى المالكي أن المتوسل بأي واسطة ما يتوسل بها إلا لأجل محبته لها، واعتقاده بأن الله تعالى يحبها، ويرضاها، فمن أجل ذلك جعلها المتوسل واسطة بينه وبين الله في قبول دعائه، وتحقيق رجائه[٣]، ثم يقول: (والخلاصة: أنه مما لا شك فيه أن النبي ﷺ له عند الله قدر علي، ومرتبة رفيعة، وجاه عظيم، فأي مانع شرعي، أو عقلي يمنع التوسل به؟ فضلا عن الأدلة التي تثبته في الدنيا والآخرة، ولسنا في ذلك سائلين غير الله تعالى، ولا داعين إلا إياه، فنحن ندعوه بما أحب أيا كان، تارة نسأله بأعمالنا الصالحة؛ لأنه يحبها، وتارة نسأله بمن يحبه من خلقه. . . وسر ذلك أن كل ما أحبه الله صح التوسل به، وكذا كل من أحبه من نبي، أو ولي، وهو واضح لدى كل ذي فطرة سليمة، ولا يمنع منه عقل، ولا نقل؛ بل تضافر العقل، والنقل على جوازه، والمسؤول في ذلك كله الله وحده لا شريك له؛ لا النبي، ولا الولي، ولا الحي، ولا الميت. . . وإذا جاز السؤال بالأعمال فبالنبي ﷺ أولى؛ لأنه أفضل المخلوقات، والأعمال منها -والله أعظم حبا له ﷺ من الأعمال، وغيرها)[٤].

هكذا يقرر المالكي ويُجَوِّز دعاء الأنبياء، والأولياء بقياس الواسطة في العبادة على الواسطة في التبليغ، ولو كان يفقه صحيح المنقول لما سلك هذا المسلك، ولعلم أن توسط جبريل عليه السلام رسولا بالوحي من الله إلى رسوله ﷺ إنما كان لتبليغ الرسالة لا للتوسط في العبادة، فكان جبريل واسطة بين الله تعالى وبين رسوله ﷺ في إبلاغ الوحي، وقد اصطفاه الله تعالى لذلك كما اصطفى رسوله محمدا ﷺ ليكون واسطة بين الله تعالى وبين خلقه في تبليغ خاتمة رسالاته، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[٥][٦]

---

(١) انظر منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل ٢/ ٥٢١

(٢) انظر مفاهيم يجب أن تصحح ص٩٥

(٣) انظر مفاهيم يجب أن تصحح ص١١٦

(٤) مفاهيم يجب أن تصحح ص١٥٤

(٥) سورة الحج الآية ٧٥

(٦) انظر منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل ٢/ ٥٢٢



فعند أهل الأهواء أن الله سبحانه وتعالى لما وصف خاتم النبيين ﷺ بالسراج المنير بصفة المبالغة في قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[١] قالوا: معنى ذلك (أن الله عز وجل يمد بواسطته كل من أراد هدايته بالأنوار، والأسرار، فمن اعتقد أن مدد الرسول انقطع، لانتقاله إلى الرفيق الأعلى فقد أساء الأدب مع الرسول، ويخشى عليه الموت على الكفر . . . وكلمة التوحيد لا تتم إلا بمحمد ﷺ فكيف يتهم بالشرك من توسل به إلى الله؟ لك أيها المسلم العاقل أن تتوسل إلى الله بكل ما يحبه الله، إن الله يحب المتقين ذاتا، وصفات، أحياء، وأمواتا، ويحب من أحبهم، ومن اقتدى بهم، ويحب من توسل بهم إليه)[٢].

وأهل الأهواء جميعا متفقون على قياس الواسطة في العبادة على الواسطة في التبليغ؛ ولهذا لما وجه هذا السؤال لعالم الرافضة الخوئي[٣] وهو: هل يجوز طلب الولد، أو الرزق، أو الحفظ والأمان. . . . الخ من المعصومين -على حد زعمهم- مباشرة؛ لا لأنهم يخلقون، أو يرزقون، وإنما لأنهم الوسيلة إلى الله تعالى، والشفعاء إليه بقضاء الحاجات؛ ولأنهم لا يفعلون شيئا إلا بإذنه جل شأنه، فهم يسألونه فيخلق، ويسألونه فيرزق، ولا ترد لهم مسألة، أو دعاء لمنزلتهم منه جل شأنه، ولولايتهم علينا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[٤]؟ فأجاب الخوئي الرافضي على هذا السؤال الطويل العريض بقوله: لا بأس بذلك القصد!![٥]، ثم وجه إليه سؤال آخر، وصيغته: من المتعارف عليه في حال النهوض، أو القيام، أو أي عمل آخر الاستنجاد بالنبي ﷺ أو الإمام علي رضي الله عنه أو أحد من الأئمة رحمهم الله فهل يجوز ذلك عن قصد علما بأن الاعتقاد هو أنهم الباب إلى الله تعالى؟ فأجاب الخوئي بقوله: (لا بأس بتوسيطهم، والاستشفاع بهم إلى الله تعالى كوسيلة في قضائه هو حوائج المتوسلين؛ لأنه تعالى رغب في التوسل بقوله

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٦

(٢) نقل كلام هذا المبتدع ورد عليه الشيخ عبد الله الجبرين في كتابه الجواب الفائق في الرد على مبدل الحقائق ص٢٥ وما بعدها (بتصرف).

(٣) هو أبو القاسم بن علي أكبر بن المير هاشم الموسوي الخوئي الرافضي، أحد مراجع العصر في النجف قال عنه جواد التبريزي: هو أستاذ الفقهاء والمجتهدين وآية الله في هذا العصر ولد في خوي سنة ١٣١٧هـ. انظر: مقدمة صراط النجاة ص٥، ونقباء البشر ١/ ٧١

(٤) سورة المائدة الآية ٣٥

(٥) انظر صراط النجاة في أجوبة الاستفتاءات للخوئي ص٤٦٦

تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[١]

ويقول الخميني[٢] إمامهم مصرحا بهذه العقيدة الباطلة، وهذا القياس الفاسد: (فيتوسل بأولياء الأمراء، وخفراء الزمان، وشفعاء الإنس والجنان؛ يعني الرسول، والأئمة المعصومين، ويجعل تلك الذوات الشريفة شفيعا، وواسطة... ويسأل الحق تعالى رفع شر الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء... ويجعلهم وسائط في الائتمام، وقبول العبادات الناقصة، والمناسك غير اللائقة، فالحق تعالى كما جعل محمدا، وأهل بيته وسائط الهداية....، وعينهم الهداة لنا... فيرحم بشفاعتهم قصورنا، ويتمم نقصنا، ويقبل طاعتنا، وعباداتنا غير اللائقة)[٣].

وهذه هي حال أهل الأهواء في أقيستهم الفاسدة، فقد يقيسون أمرا على أمر أجنبي عنه من غير أن تكون هناك علة صحيحة تجمع بينهما، وهذا النوع من الأقيسة المنطقية مردود شرعا وطبعا[٤]، وهذا القياس في الحقيقة هو قياس المشركين الأولين الذين زعموا أنهم لا يصلون إلى مرادهم إلا بتوسيط الأكابر[٥].

فعلم مما سبق مخالفة أهل الأهواء لصحيح المنقول في اتخاذهم وسائط بينهم وبين الله تعالى في العبادة واستدلالهم لهذا الباطل المؤدي بصاحبه إلى الكفر، والشرك بقياس الواسطة في العبادة على الواسطة في التبليغ، وكما خالفوا صحيح المنقول فقد خالفوا أيضا صريح المعقول، والفطرة السليمة؛ لأن العقل الصريح، والفطرة السليمة متفقان

مع النقل الصحيح على أن الله جل وعلا متصف بصفات الكمال، ومن ذلك صفة الغنى، والعلم، والسمع، والرحمة، فالله تعالى غني عن العالمين، والخلائق كلهم فقراء

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٦٨

(٢) هو عدو الله الملقب عند الرافضة بروح الله بن السيد مصطفى الخميني، إمام الرافضة في هذا العصر، يعدونه المرجع الخامس للمدرسة الشيعية الحديثة، ومثالا لعلي افي الأرض، وممثلا للإمام الغائب، هلك سنة ١٤١٠هـ، انظر نقباء البشر ٢/ ٧٨٩

(٣) الآداب المعنوية للصلاة للخميني ص٥٦٩ نقلا عن كتاب العلاقة بين التشيع والتصوف لفلاح بن أحمد رسالة دكتوراه غير منشورة ص٣٦٣

(٤) انظر المجموع المفيد في نقض القبورية ونصرة التوحيد للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس ص١٧٤

(٥) انظر النبذة الشريفة في الرد على القبوريين والقياس الفاسد وأثره في الانحراف في العقيدة للدكتور أحمد بن شاكر الحذيفي ص٨١ رسالة دكتوراه غير منشورة، والشرك في القديم والحديث لأبي بكر محمد زكريا ص٧٩٠ رسالة ماجستير غير منشورة.



إليه في جميع شؤونهم لا يستغنون عنه طرفة عين، ولو تركهم لأنفسهم لحظة لهلكوا، وإذا كان الأمر كذلك عند العقلاء فإنه يجب طلب النفع، ورفع الضر منه تعالى مباشرة؛ لأنه سبحانه وتعالى عليم بعباده يعلم حوائجهم فيقضيها، ويسمع دعاءهم فيستجيب لهم، رحيم بهم، له القدرة التامة، والمشيئة النافذة؛ فمن كان عنده أدنى مسكة من عقل فإنه سيرفض أي واسطة بينه وبين الله تعالى في عبادته؛ لأن هذا يلزم منه القدح في علمه تعالى، وقدرته، وسمعه، ورحمته، وإساءة ظن بالمولى جل وعلا، فيجب -إذن- إخلاص العبادة لله تعالى، وقطع النظر عما سواه حال أداء العبادة التي علمناها رسول الله (، والابتعاد عن الشرك، ووسائله، وأسبابه المؤدية إليه، وطلب الزلفى لديه، والتوسل إليه تعالى بما شرع من الأعمال الصالحة، وبأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وبدعوة أخ صالح في ظهر الغيب، فهذه هي الواسطة المقبولة، والوسيلة المشروعة التي يدل عليها صحيح المنقول الموافق لصريح المعقول[1].

وببيان هذا القياس الفاسد، وما سبقه من مباحث هذا الفصل يتضح مفهوم الواسطة عند أهل الأهواء، ويبدو خروجهم فيها عن دائرة الكتاب والسنة قضية مسلمة، وأمرا جليا.

---

(١) انظر الواسطة بين الحق والخلق ص ٢٠، والرد على شبهات المستعينين بغير الله تعالى ص٧٩، ومنهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل٢/ ٥٢٦

الفصل الثاني

الواسطة بين الله وخلقه عند الفلاسفة ومن تبعهم وبيان هتهم والرد عليهم.

وفيه ثلاثة مباحث:ـ

المبحث الأول: بيان مقالة الفلاسفة في الواسطة .

المبحث الثاني: صورة الواسطة البدعية عند الفلاسفة .

المبحث الثالث: بيان شبهة الفلاسفة والرد عليهم .

المبحث الأول

بيان مقالة الفلاسفة في الواسطة

اعلم أن كل من اتخذ شريكا مع الله تعالى فذلك الشريك إما أن يكون جسما وإما أن لا يكون كذلك، والذين اتخذوا شريكا جسمانيا فذلك الشريك إما أن يكون من الأجسام السفلية أو الأجسام العلوية، والذين اتخذوا الشركاء من الأجسام العلوية فهم الذين يعبدون الشمس والقمر، وسائر الكواكب، ويضيفون إليها السعادة، والنحوسة، وهم الفلاسفة، ومعظم المنجمين، والصابئة، ومن هؤلاء من يقول: إن الملائكة عبارة عن الأرواح الفلكية، التي هي واسطة عندهم بين الله والعالم، ولكل إقليم روح معين من الأرواح الفلكية يدبره، ويدير شؤونه، ولكل نوع من أنواع هذا العالم روح فلكي يدبره، ويتخذون لتلك الأرواح صورا، وتماثيل، ويعبدونها، وهؤلاء هم عبدة الملائكة، والكواكب[1].

وقد نشأت عبادة الكواكب عند هؤلاء الفلاسفة من الصابئة[2]، ومن تبعهم من المنجمين، نشأت بسبب تعلقهم بالملائكة واعتقدوا أنهم واسطة بين الله وخلقه في العبادة والدعاء والتضرع والرجاء، وأن الله أوكل إليهم تصريف شؤون هذا العالم، ثم اعتقدوا أن الأفلاك، والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الخالق جل وعلا، واعتقدوا أنها حية ناطقة مدبرة للعالم، وزعموا أنها هياكل حلت فيها الملائكة «الأرواح»، فالكواكب بالنسبة للملائكة كالجسد للروح، وهي - عندهم - متصفة بصفات مخصوصة، ولوجود هذه الصفات استحقت أن تكون واسطة تعبد، كما تعبد الآلهة، فكانوا يتقربون إلى الكواكب (الهياكل) تقربا إلى الملائكة (الروحانيات) وبتقربهم إلى الروحانيات يزعمون أنهم يتقربون إلى الخالق تعالى، وهؤلاء يسمون أصحاب الهياكل[3].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (لكن قالوا: لكن نحن إذا توجهنا إلى هؤلاء بالدعاء،

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازي١/ ٢٤٥، ورسائل إخوان الصفا١/ ١٤٥، والتنجيم والمنجمون للمشعبي ص٤٣

(٢) يقال: صبأ الرجل إذا خرج من دين إلى دين، والصبوة في مقابل الحنيفية، والصابئة جنس من أهل الكتاب. انظر مختار الصحاح ص٣٥٤ مادة (ص ب أ)، والملل والنحل٢/ ٥، والصابئون لرشدي عليان ص٢٥

(٣) الملل والنحل٢/ ٢٩، وانظر دمعة على التوحيد ص٩٤، والتنجيم والمنجمون ص٣٥، والصابئون حرانيين ومندائيين لرشدي عليان ص٣٤

والسؤال منهم؛ بل والعبادة لهم، فاض علينا ما يفيض منهم، وفاض عليهم ما يفيض من جهة الله)[١].

وقد بين الشهرستاني مقالتهم بقوله: (فقالوا: الروحانيات هم الأسباب المتوسطون في الاختراع، والإيجاد، وتصريف الأمور من حال إلى حال، وتوجيه المخلوقات من مبدأ إلى مبدأ كما يستمدون القوة من الحضرة الإلهية القدسية ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية، فمنها مدبرات الكواكب السبع السيارة في أفلاكها، وهي هياكلها، ولكل روحاني هيكل، ولكل هيكل فلك، ونسبة الروحاني إلى ذلك الهيكل الذي اختص به نسبة الروح إلى الجسد، فهو ربه، ومدبره، ومديره، وكانوا يسمون الهياكل أربابا، وربما يسمونها آباء، والعناصر أمهات ففعل الروحانيات تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها انفعالات في الطبائع، والعناصر، فيحصل من ذلك تركيبات، وامتزاجات في المركبات، فيتبعها قوى جسمانية، ويركب عليها نفوس روحانية. . . ثم قد تكون التأثيرات كلية صادرة عن روحاني كلي، وقد تكون جزئية صادرة عن روحاني جزئي. . ومنها مدبرات الآثار العلوية الظاهرة. . . . ومنها متوسطات القوى السارية في جميع الموجودات)[٢].

ولما رأوا أن أكثر هذه الكواكب يختفي في النهار، وفي بعض الليل بسبب التقلبات الجوية من الغيوم والضباب، ونحو ذلك قالوا: ينبغي أن ننصب لهذه الكواكب أصناما، وتماثيل على هيئة الكواكب السبعة: (الشمس، والقمر، والزهرة، والمشتري، وعطارد، والمريخ، وزحل)، حتى لا تغيب عن أذهاننا، ولكي نتقرب إليها بالعبادة، فكل تمثال يقابل هيكلا، وزعموا أن التقرب إليهذه الأصنام هو الوسيلة إلى الهياكل (الكواكب) التي هي واسطة بيننا وبين الله تعالى، وهؤلاء يسمون أصحاب الأشخاص[٣].

وهذا من الأسباب التي دعت مشركي مكة إلى اتخاذ الأصنام، والأوثان، وعبادتها من دون الله، وادعائهم أنها واسطة تقربهم من الله تعالى زلفى.

---

(١) الرد على المنطقيين ص١٠٥

(٢) الملل والنحل٢/ ٧

(٣) انظر الملل والنحل٢/ ٢٨، وتفسير الفخر الرازي١/ ٢٤٥، والتنجيم والمنجمون للمشعبي ص٤٣، ودمعة على التوحيد ص٩٥



المبحث الثاني

صورة الواسطة عند الفلاسفة

تتبين صورة الواسطة عند هؤلاء الفلاسفة ومن تبعهم بتصريحهم بأن المستشفع إذا وقف، وعكف بقلبه، وخاطره متوجها إلى بعض الكواكب العلوية التي يسمونا الروحانيات، وأحيانا العقول، والنفوس فإنه يتصل بذلك المعظم المستشفع به؛ فإذا فاض على ذلك ما يفيض من جهة الرب فاض على المستشفع من جهة شفيعه، هذا قول أصحاب الهياكل، وأصحاب الأشخاص[1].

أما أصحاب الهياكل فقالوا: (إن طريقنا في التوسل إلى حضرة القدس ظاهر، وشرعنا معقول؛ فإن قدماءنا في الزمان الأول لما أرادوا الوسيلة عملوا أشخاصا في مقابلة الهياكل العلوية على نسب، وإضافات راعوا فيها جوهرا، وصورة، وعلى أوقات، وأحوال، وهيئات أوجبوا على من يتقرب بها إلى ما يقابلها من العلويات: تختما، ولباسا، وتبخرا، ودعاءً، وتعزيما، فتقربوا إلى الروحانيات، فتقربوا إلى رب الأرباب، ومسبب الأسباب)[2].

وقال الشهرستاني: (اعلم أن أصحاب الروحانيات لما عرفوا أن لابد للإنسان من متوسط، ولابد للمتوسط من أن يرى، فيتوجه إليه، ويتقرب به، ويستفاد منه فزعوا إلى الهياكل التي هي السيارات السبع، فتعرفوا أولا: بيوتها، ومنازلها، وثانيا: مطالعها، ومغاربها، وثالثا: اتصالاتها على أشكال الموافقة، والمخالفة مرتبة على طبائعها، ورابعا: تقسيم الأيام والليالي، والساعات عليها، وخامسا: تقدير الصور والأشخاص، والأقاليم، والأمصار عليها، فعملوا الخواتيم، وتعلموا العزائم، والدعوات، وعينوا ليوم زحل - مثلا - يوم السبت، وراعوا فيه ساعته الأولى، وتختموا بخاتمه المعمول على صورته وهيئته، وصنعته، ولبسوا اللباس الخاص به، وتبخروا ببخوره الخاص، ودعوا بدعواته الخاصة به، وسألوا حاجتهم منه: الحاجة التي تستدعى من زحل، من أفعاله، وآثاره الخاصة به، فكان يقضي حاجتهم، ويحصل - في الأكثر - مرامهم، وكذلك رفع الحاجة

---

(١) أصحاب الهياكل: هم عبدة الكواكب، وأصحاب الأشخاص: هم عبدة الأوثان.

(٢) الملل والنحل ٢/ ٣٢

التي تختص بالمشتري في يومه، وساعته، وجميع الإضافات التي ذكرنا إليه، وكذلك سائر الحاجات إلى الكواكب، وكانوا يسمونها أربابا آلهة، والله تعالى هو رب الأرباب، وإله الآلهة، ومنهم من جعل الشمس إله الآلهة، ورب الأرباب، وكانوا يتقربون إلى الهياكل تقربا إلى الروحنيات، تقربا إلى الباري تعالى)[١].

ثم إن أصحاب الأشخاص قالوا أيضا: (إذا كان لابد من متوسط يتوسل به، وشفيع يتشفع إليه، والروحانيات ـ وإن كانت هي الوسائل ـ لكنا إذا لم نرها بالأبصار، ولم نخاطبها بالألسن لم يتحقق التقرب إليها إلا بهياكلها، ولكن الهياكل قد ترى في وقت، ولا ترى في وقت؛ لأن لها طلوعا وأفولا، وظهورا بالليل، وخفاء بالنهار، فلم يصف لنا التقرب بها، والتوجه إليها، فلابد لنا من صور، وأشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب أعيننا، نعكف عليها، ونتوسل بها إلى الهياكل، فنتقرب بها إلى الروحانيات، ونتقرب بالروحانيات إلى الله سبحانه وتعالى، فنعبدهم: ﴿لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[٢]، فاتخذوا أصناما، أشخاصا، على مثال الهياكل السبعة، كل شخص في مقابلة هيكل، وراعوا في ذلك جوهر الهيكل؛ أعني الجوهر الخاص به من الحديد، وغيره، وصوروه بصورته على الهيئة التي تصور أفعاله عنه، وراعوا في ذلك الزمان، والوقت، والساعة، والدرجة، والدقيقة، وجميع الإضافات النجومية، من اتصال محمود، يؤثر في نجاح المطالب، التي تُستدعى منه، فتقربوا إليه في يومه، وساعته، وتبخروا بالبخور الخاص به، وتختموا بخاتمه، ولبسوا لباسه، وتضرعوا بدعائه، وعزموا بعزائمه، وسألوا حاجتهم منه، فيقولون: إنه كان يقضي حوائجهم، بعد رعاية هذه الإضافات كلها، وذلك هو الذي أخبر التنزيل عنهم أنهم عبدة الكواكب، والأوثان.

فأصحاب الهياكل هم عبد الكواكب: إذا قالوا بإلهيتها ـ كما شرحنا ـ وأصحاب الأشخاص هم عبدة الأوثان؛ إذ سموها آلهة في مقابلة الآلهة السماوية[٣]، وقالوا: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[٤][٥]

---

(١) الملل والنحل ٢/ ٤٩ (٢) سورة الزمر الآية٣

(٣) لعله يقصد بالآلهة السماوية ـ الكواكب العلوية عند هؤلاء الفلاسفة والصابئة ـ وأما في الاعتقاد الصحيح فليس في السماء، ولا في الأرض إله غير الله سبحانه وتعالى.

(٤) سورة يونس الآية١٨ (٥) الملل والنحل٢/ ٥٠



وقد عبر الفلاسفة عن الواسطة بوجه ذكره الفخر الرازي رحمه الله[(١)] في تفسيره موضحا أن الفلاسفة قالوا في بيان الواسطة : إن واجب الوجود تعالى عام الفيض، تام الوجود، وحيث لا يحصل فإنما هو لمانع القابل، وعدم استعداده للقبول، ومن الجائز أن لا يكون الشيء مستعدا لنيل الفيوض بنفسه، لكنه صالح لأن ينالها بوسيط. قالوا: ومثال ذلك في المحسوس أن الشمس الوهاجة تشع بضيائها بسخاء واسع، ولكن لمن عاينها، وتعرض لها، وجها لوجه، وهو شرط لقبول الضوء المباشر، أما الواقف تحت ظلال تحجبه عن الضياء بسبب كثافة السقف الحاجز؛ فإنه مع ذلك صالح للاستضاءة بضوء الشمس، لكن غير المباشر، وذلك بواسطة، مثل المرآة المجلوّة تعكس عليها الشمس أشعتها، وكلما كانت الواسطة أجلى كان الانعكاس أشد وأبين. ثم قالوا: وأرواح الأنبياء لشدة صفائها كانت وسائط تعكس أشعة الفيوض الربانية إلى الخلائق في عموم البركات، وشمول الخيرات، كما كانوا وسائط في إبلاغ الشرائع، والأحكام[(٢)].

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض بيانه للواسطة عند الفلاسفة والرد عليهم: أن الفلاسفة الذين يؤمنون بالنبوات يطلقون على الملائكة العقول العشرة، والنفوس، والجواهر العالية، ويقولون: إن العقل الفعال هو رب كل ما سوى الرب عندهم. فإذا توجه المستشفع عندهم إلى من يعظمه من الجواهر العالية كالعقول والنفوس، والكواكب، والشمس، والقمر؛ فإنه يتصل بذلك المعظم المستشفع به، فإذا فاض على ذلك ما يفيض من جهة الرب، فاض على المستشفع من جهة شفيعه. ثم يقولون نحن إذا توجهنا إلى هؤلاء بالدعاء لهم والسؤال منهم؛ بل والعبادة لهم فاض علينا ما يفيض منهم، وفاض عليهم ما يفيض من جهة الله تعالى[(٣)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالمشركون من الفلاسفة القائلين بقدم العالم هم أعظم

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، فخر الدين الرازي الإمام المفسر، قال عنه الحافظ ابن حجر: (والفخر كان من أئمة الأصول، وكتبه في الأصلين شهيرة سائرة، وله ما يقبل، وما يرد. . . رأس في الذكاء، والعقليات، لكنه عري من الآثار، ولد الرازي سنة ٥٤٤هـ وتوفي سنة ٦٠٦هـ. انظر ترجمته في لسان الميزان لابن حجر٤/ ٤٢٦، وترجم له باسم (الفخر بن الخطيب)، وانظر العبر٣/ ١٤٢، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء للخزرجي٢/ ٢٣، والأعلام للزركلي٧/ ٢٠

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي٣/ ٧٥ وما بعدها.

(٣) انظر الرد على المنطقيين ١٠٢ وما بعدها بتصرف.

شركا، وما يدعونه من الشفاعة لآلهتهم أعظم كفرا من مشركي العرب؛ فإنهم لا يقولون إن الشفيع يسأل الله، والله يجيب دعوته كما يقوله المشركون الذين يقولون إن الله خالق بقدرته، ومشيئته، فإن هؤلاء عندهم أنه لا يعلم الجزئيات، ولا يحدث شيئا بمشيئته، وقدرته، وإنما العالم فاض عنه، فيقولون: إذا توجه الداعي إلى من يدعوه ـ كتوجهه إلى الموتى عند قبورهم، وغير قبورهم، وتوجهه إلى الأرواح العالية ـ فإنه يفيض عليهم ما يفيض من ذلك المعظم الذي دعاه، واستغاث به، وخضع له، من غير فعل من ذلك الشفيع، ولا سؤال منه لله تعالى، كما يفيض شعاع الشمس على ما يقابلها من الأجسام الصقيلة، كالمرآة وغيرها، ثم ينعكس الشعاع من ذلك الجسم الصقيل إلى حائط أو ماء، وهذا قد ذكره غير واحد من هؤلاء، ويزورون القبور الزيارة المنهي عنها، فمقصودهم بها طلب الحوائج من الميت أو الغائب؛ إما أن يطلب الحاجة منه، أو يطلب منه أن يطلبها من الله، وإما أن يقسم على الله به، ثم كثير من هؤلاء يقولون: إن ذلك المدعو يطلب تلك الحاجة من الله، أو إن الله يقضيها بمشيئته، واختياره، للإقسام على الله بهذا المخلوق، وأما أولئك الفلاسفةفيقولون: بل نفس التوجه إلى هذه الروح يوجب أن يفيض منها على المتوجه ما يفيض، كما يفيض الشعاع من الشمس، من غير أن تَقْصُد هي قضاء حاجة أحد، ومن غير أن يكون الله يعلم بشيء من ذلك على أصلهم الفاسد، فتبين أن شرك هؤلاء وكفرهم أعظم من شرك مشركي العرب، وكفرهم، وأن اتخاذ هؤلاء الشفعاء الذين يشركون بهم من دون الله أعظم كفرا من اتخاذ أؤلئك)[1].

(١) الرد على المنطقيين ص٥٣٥، وانظر ما قاله الغزالي في المضنون به على غير أهله مطبوع ضمن رسائل القصور العوالي٢/ ١٥١، وإغاثة اللهفان١/ ٢٢٤

المبحث الثالث
بيان شبهة الفلاسفة والرد عليهم

يثير الفلاسفة ومن تبعهم من الصائبة والمنجمين، والطبائعيين شبهات يدافعون بها عن مذهبهم الفاسد في الواسطة، وادعائهم أن الكواكب العلوية، والسيارات الفلكية هي الواسطة بين الله تعالى وخلقه.

ومن تلك الشبهات التي يتعلقون بها مناظرة إبراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام للنمرود الواردة في التنزيل حيث قالوا: إن الخليل لما استدل على إثبات الصانع تعالى بقوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾(١) قال النمرود أتدعي أنه يحيي ويميت بواسطة الطبائع، والعناصر، أو بغير واسطة هذه الأشياء؟ فإن زعمت الأول فذلك محال؛ لأن كل ما يحدث في هذا العالم فإنما يحدث بواسطة العناصر الأربعة، وحركات السيارات الفلكية، وإن ادعيت الأمر الثاني فمثل هذا الإحياء، والإماتة حاصل فيَّ، ومن كل أحد فإن الرجل قد يكون سببا في إيجاد الولد؛ لكن بواسطة تمزيج الطبائع، وتحريك الكواكب العلوية، وقد يكون سببا في موت آخر بقتله في الحال، فثبت أن الخليل اعتمد في معرفة ثبوت الصانع على الدلائل الفلكية، وأنه لم ينازع الخصم في اعتبار أن الحوادث الأرضية مرتبطة بحركات الوسائط الفلكية من الكواكب أو السيارات العلوية، أو «النفوس» أو «العقول المدبرة»(٢).

وقد أبطل إبراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام مذهب الفلاسفة في الواسطة، وكسر شبهتهم بما قص الله تعالى علينا من خبره في التنزيل(٣) ففي إبطاله لمذهب أصحاب الهياكل، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾(٤)

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٨

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي ٧/ ٢٧، ونقله عن الرازي ابن القيم في مفتاح دار السعادة ٢/ ١٨٧، وانظر التنجيم والمنجمون ص ٢١٧

(٣) انظر الملل والنحل ٢/ ٥١

(٤) سورة الأنعام الآيات (٧٥-٧٨).



وفي إبطاله لمذهب أصحاب الأشخاص قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾(١)

وبهذا يتضح أن بين شرك قوم إبراهيم وشرك قوم نوح على نبينا وعليهما الصلاة والسلام تشابها، فكان شرك قوم نوح يرجع إلى مظاهر الصلاح في البشر، وشرك قوم إبراهيم ينحو منحى العقل، والفلسفة لأسرار الطبيعة، وسير الكواكب العلوية، فشرك قوم نوح شرك تقريب وشفاعة، وشرك قوم إبراهيم كان شرك أسباب، وإعانة، فإذا اتخذ قوم إبراهيم أصناما - كما هو فعل أصحاب الأشخاص - كان شرك تقريب، وشفاعة، ومن شرك هاتين الأمتين تفرعت أصناف الشرك في الناس بعد ذلك، فمقل من الشبهات ومستكثر، فبعث الله تعالى الرسل يدعون الناس إلى التوحيد، ويحذرونهم من عواقب الشرك بأصنافه ووسائله(٢).

وتتلخص شبهة الفلاسفة في اعتقادهم أن الكواكب، أو الروحانيات، أو العقول المدبرة هي الواسطة بين الله والناس في زعمهم أن الإنسان العادي مكبل بالذنوب، وملطخ بالمعاصي، فهو غير مهيأ، ولا صالح لمناجاة الرب سبحانه وتعالى(٣)، قالوا: فالواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله: والبحث عن متوسطات تقربنا إليه زلفى، وهؤلاء الوسائط هم الروحانيون، المطهرون، المقدسون جوهرا، وحالة، وحتى لا تغيب هذه الوسائط عن أعيننا ينبغي أن نعمل لكل كوكب تمثالا ونشخصه على هيئته، وحالته، ونتوجه إليه بالعبادة، والالتجاء، والتضرع، والدعاء.

يقول الشهرستاني: (ومذهب هؤلاء أن للعالم صانعا، فاطرا، حكيما مقدسا عن سمات الحدثان، والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله، وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه، وهم الروحانيون، المطهرون، المقدسون، جوهرا، وفعلا،

---

(١) سورة الأنبياء الآيات(٥١-٥٨). (٢) انظر هذه مفاهيمنا ص٩٧

(٣) ومن الملاحظ أن هذه الشبهة سرت إلى عقائد الرافضة والصوفية كما سيأتي.



وحالة، فهم المقدسون عن المواد الجسمانية المبرأون عن القوى الجسدانية، المنزهون عن الحركات المكانية، والتغيرات الزمانية، قد جبلوا على الطهارة، وفطروا على التقديس، والتسبيح: ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1] فنحن نتقرب إليهم، ونتوكل عليهم، وهم أربابنا، وآلهتنا، ووسائلنا، وشفعاؤنا عند الله، وهو رب الأرباب، وإله الآلهة رب كل شيء، ومليكه. فالواجب علينا أن نطهر نفوسنا عن دنس الشهوات الطبيعية، ونهذب أخلاقنا عن علائق القوى الشهوانية، والغضبية، حتى تحصل مناسبة ما بيننا وبين الروحانيات، فحينئذ نسأل حاجاتنا منهم، ونعرض أحوالنا عليهم، ونصبو في جميع أمورنا إليهم، فيشفعون لنا إلى خالقنا، وخالقهم، ورازقنا ورازقهم. وهذا التطهير، والتهذيب ليس يحصل إلا باكتسابنا، ورياضتنا، رفطامنا أنفسنا عن دَنِيَّات الشهوات باستمداد من جهة الروحانيات، والاستمداد هو التضرع، والابتهال بالدعوات، وإقامة الصلوات، وبذل الزكوات، والصيام عن المطعومات، والمشروبات، وتقريب القرابين، والذبائح، وتبخير البخورات، وتعزيم العزائم، فيحصل لنفوسنا استعداد، واستمداد من غير واسطة؛ بل يكون حكمنا، وحكم من يدعي الوحي على وتيرة واحدة)[2].

الرد عليهم: لقد تبين أن تعلق الفلاسفة، ومن تبعهم بالعقل، ومعارضتهم للشرائع، والديانات قد جعلهم يتيهون في دروب مظلمة، ويتقلبون في تصورات خاطئة، واعتقادات باطلة؛ لأنهم لم يستضيئوا بنور الوحي، ولم يصدقوا الواسطة الصحيحة في التبليغ من الأنبياء، الذين كانوا يأتون بخبر السماء، صباحا، ومساء، من أجل ذلك كانت شبهتهم في الواسطة معارضة للوحي، والتنزيل، ومدعاة للزيغ والتضليل، أما أتباع الرسل، والمصدقون بالوحي فهم يؤمنون بأن الملائكة خلق من مخلوقات الله تعالى، ميزهم الله بأن جعلهم أجساما نورانية، وجبلهم على طاعته، وأسكنهم سماواته؛ لكنهم لا يملكون شيئا من القدرة، ولا يستطيعون شيئا من التشكل بالقوة إلا بإذن الله تعالى، ومشيئته، وأنهم - مع ذلك - لا يملكون شيئا من خصائص الربوبية والألوهية، قال تعالى: ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[3]

---

(١) سورة التحريم الآية: ٦

(٢) الملل والنحل ٢/ ٦

(٣) سورة آل عمران الآية ٧٩



وإذا كان الله عز وجل قد كلف بعض الملائكة بالقيام بأعمال مخصوصة في الكون كتبليغ الوحي إلى الأنبياء، وإنزال المطر، وتقسيم الأرزاق، وقبض الأرواح، وغير ذلك مما مضى بيانه في حديثنا عن الواسطة من الملائكة، وبيان الأعمال المنوطة بهم، -إذا كان الأمر كذلك - فليس معناه أن هؤلاء الملائكة واسطة في الدعاء، والتضرع، والعبادة، والالتجاء، كما هو تصور هؤلاء الفلاسفة، وأن هؤلاء الملائكة أرواح، وعقول، ونفوس، قد تحل في أجسام، وهياكل الكواكب السيارة، وأن المرء يعلق قلبه، ويربط نفسه بهذه العلويات الروحانية حتى تتوسط له عند ربه سبحانه وتعالى.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في رده على الفلاسفة في هذا التصور الباطل: (فبين سبحانه أن من اتخذ الملائكة والنبيين أربابا فهو كافر ـ مع أن المشركين إنما كانوا ـ يتخذونهم شفعاء، ويتقربون بهم إلى الله زلفى؛ فإذا كان هؤلاء الذين دعوا مخلوقا، ليشفع لهم عند الله، كما يشفع المخلوق عند المخلوق، فيسأله، ويرغب إليه بلا إذنه، وقد جعلهم الله مشركين، كفارا مأواهم جهنم؛ فكيف بشرك هؤلاء الفلاسفة، وما يثبتونه من الشفاعة؟؛ فإنهم يجوزون دعاء الجواهر العلوية ـ الشمس، والقمر، والكواكب ـ وكذلك الأرواح التي يسمونها «العقول»، و«النفوس»، ويسميها من انتسب إلى أهل الملل «الملائكة»، وهؤلاء المشركون قد تنزل عليهم أرواح تقضي بعض مطالبهم، وتخبرهم ببعض الأمور، وهم لا يميزون بين الملائكة، والجن، بل قد يسمون الجميع «ملائكة»، و«أرواحا»، ويقولون: روحانية الشمس، وروحانية عطارد، وروحانية الزهرة، وهي الشيطان، والشيطانة التي تضل من أشرك بها؛ كما أن لنفس الأصنام، وهي التماثيل المصنوعة على اسم الوثن من الأنبياء والصالحين، أو على اسم كوكب من الكواكب، أو روح من الأرواح، والأصنام أيضا لها شياطين تدخل فيها، وتكلم أحيانا بعض المشركين، وقد تتراءى أحيانا، فيراها بعض الناس من السدنة وغيرهم، فالمشركون من الفلاسفة، القائلين بقدم العالم هم أعظم شركا، وما يدعونه من الشفاعة لآلهتهم أعظم كفرا من مشركي العرب؛ فإنهم لا يقولون: إن الشفيع يسأل الله، والله يجيب دعوته ـ كما يقوله المشركون الذين يقولون: إن الله خالق بقدرته، ومشيئته ـ فإن هؤلاء عندهم أنه لا يعلم الجزئيات، ولا يحدث شيئا بمشيئته، وقدرته، وإنما العالم فاض عنه. . . . ويقولون: بل نفس التوجه إلى هذه الروح يوجب أن يفيض منها على المتوجه ما يفيض، كما يفيض الشعاع من

الشمس . . . . فتبين أن شرك هؤلاء، وكفرهم أعظم من شرك مشركي العرب، وكفرهم، وأن اتخاذ هؤلاء الشفعاء، الذين يشركون بهم من دون الله أعظم كفرا من اتخاذ أولئك)[١].

وقرر العلامة ابن القيم أن الفلاسفة ومن تبعهم في اعتقادهم في الكواكب العلويات وقعوا في الشرك، حيث جعلوا هذه الوسائط أربابا مدبرة لأمر هذا العالم، فضارعوا بذلك عباد الشمس، وعباد النار، وغيرهم[٢].

وجملة القول: إن هذه الكواكب العلوية ما هي إلا أجرام فضائية تسير بأمر الله عز وجل وتدبيره وتقديره، وأنها آيات كونية من آيات الله عز وجل، لا تضر ولا تنفع، وليس لها من خصائص الألوهية شيء، وإنما هي كواكب مثل كوكب الأرض الذي نعيش عليه، وقد أثبتت الدراسات الكونية المعاصرة أن هذه الكواكب تحمل خصائص كوكب الأرض، فمن زعم أنها تتوسط له عند الله عز وجل حال الدعاء، والتضرع، والرجاء، فقد كذب على الله عز وجل، وادعى ما لا دليل عليه، وبانت لأهل العقول منزلته، واتضحت للناس سخافته، والله تعالى أعلم.

---

(١) الرد على المنطقيين ص٥٣٥

(٢) انظر الجواب الكافي ص ١٩٥

الفصل الثالث

الواسطة بين الله وخلقه عند الرافضة وبيان شبهاتهم والرد عليهم.

وفيه أربعة مباحث:-

المبحث الأول: نظرة الرافضة للرسول صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثاني: عقيدة الرافضة في الملائكة الكرام عليهم السلام.

المبحث الثالث: نظرة الرافضة لأئمتهم «وسائطهم».

المبحث الرابع: بيان شبهات الرافضة والرد عليها.



المبحث الأول
نظرة الرافضة للرسول صلى الله عليه وسلم

تؤمن الرافضة -في الجملة- بالنبي ﷺ وبرسالته، وأنه خاتم النبيين[١]، إلا أنه بحكم الغلو الزائد في الأئمة من آل البيت الذي تقول به الرافضة فسرعان ما ينقضون هذا الإيمان ويقعون في تنقيص هذا النبي الخاتم ﷺ والحط من قدره، والطعن في رسالته، ومن ذلك قول طائفة الغرابية من غلاتهم: (إن عليا أشبه بمحمد من الغراب بالغراب، والذباب بالذباب فاشتبها على جبرائيل فبلغ الرسالة إلى محمد، وكانت لعلي)[٢]. ويقول شاعرهم في ذلك: -

غلط الأمين فجازها عن حيدر ... تالله ما كان الأمين أمينا

وهناك طائفة يقال لها: الذمية سموا بذلك لذمهم محمدا ﷺ بأن عليا رضي الله عنه بعثه لدعوة الناس إليه بالعبودية فدعا الناس إلى نفسه وقال بعضهم بإلهيتهما واختلفوا في التقديم، والتأخير، والذين يقدمون عليا يقالهم: العينية، والذين يقولون بتقديم محمد ﷺ يقال لهم: الميمية[٣].

ومن غلاتهم: فرقة الإسماعيلية [٤] تزعم أن عليا هو الله - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - وأن عليا هو الذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالرسالة[٥].

ومما يستدل به على ما تقدم أن مؤلف كتاب وسائل الشيعة ومستدركاتها أورد أول حديث في أركان الإسلام فقال: عن زرارة[٦] عن أبي جعفر أنه قال: (بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والولاية) قال زرارة: (فقلت:

---

(١) انظر الكافي للكليني كتاب الحجة ١/ ١٦٨، وإحياء الشريعة في مذهب الشيعة لمحمد مهدي الكاظمي ص٥٢، وعقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر ص٢٨، ودائرة المعارف للأعلمي ١٨/ ٢٤٢.

(٢) اليمانيات المسلولة ص١٦٩

(٣) انظر المقالات والفرق للقمي ص١٩١، والملل والنحل ١/ ١٧٥، والمواقف ص٤٩٠

(٤) هذه الطوائف سبق التعريف بها. (٥) انظر تلبيس إبليس ص٩٥

(٦) هو أبو علي وقيل أبو الحسن عبد ربه -وزرارة لقب له - بن أعين، وكان أعين بن سنين راهبا روميا، ثم عبد لرجل من بني شيبان، كان زرارة أول أمره من خواص الصادق، ثم حال بينهما الغلو فطرده الصادق وتبرأ منه، ولعنه ثلاثا، انظر الفهرست لابن النديم ص٢٧٦، ومعرفة أخبار الرجال ص٩٩، ورجال الشيعة في الميزان لعبد الرحمن الزرعي ص٣٨.

وأي شيء من ذلك أفضل؟ قال: الولاية أفضل؛ لأنها مفتاحهن، والوالي هو الدليل عليهن)[١].

فحذفوا في هذه الرواية الركن الأول من أركان الإسلام وهو شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله ﷺ ووضعوا بدلا منه الركن السادس الذي ابتدعته الرافضة، وهو الولاية، مع العلم أنه ذكر بعد ذلك أحاديث في هذا الباب اشتملت على ذكر الشهادتين[٢].

وبما أن عليا رضي الله عنه ابن عم الرسول ﷺ، وزوج ابنته رضي الله عنها، وصفيه، وخليفته من بعده -كما يزعمون- كان طبيعيا أن يكون الغلو في الرسول ﷺ ابتداء وسيلة وواسطة للغلو في علي رضي الله عنه، والأئمة من بنيه؛ لذلك نجد غلاة الرافضة يدعون أزلية وجود الرسول ﷺ وأسبقيته على الكون، وأنه مخلوق من نور؛ ليتوصلوا بذلك إلى ادعاء وصول ذلك النور بطريق التسلسل إلى علي رضي الله عنه، والأئمة من ذريته رحمهم الله[٣]. ويرون أن النبي ﷺ حي في قبره بعد موته، وأنه يسمع الكلام، ويرد الجواب، كما كان في حياته الدنيوية؛ غير أن الله تعالى حبس الناس عن سماع كلامه إلا قليلا من خواصهم[٤]، فتراهم يفصلون في نوع هذه الحياة التي أثبتها الشارع لخاتم النبيين ﷺ، وسكت عن كيفيتها، وسنرى عند بيان شبهات الصوفية، والرد عليها -أن الصوفية وافقت الرافضة في هذا المعتقد.

ومن صور التنقيص الذي تطفح به كتب الرافضة التأكيد على رفع رتبة علي رضي الله عنه فوق رتبة النبي ﷺ ولا ندري أيهما الأصل في الفضل، هل هو النبي ﷺ أم علي رضي الله عنه؟. إلا أننا نرى أن الرافضة لا تجعل النبي ﷺ أصلا يعظم، ويحترم علي لأجله؛ بل إنهم يحترمون النبي ﷺ ويعظمونه من أجل علي رضي الله عنه؛ لأنه أخذ ابنته، وجعله قريبه، وحبيبه، وعلى هذا اخترعوا تلك الرواية العجيبة الغريبة المكذوبة، وهي: أن النبي ﷺ قال: (أعطيت ثلاثا، وعلي مشاركي فيها، وأعطي علي رضي الله عنه ثلاثا ولم أشاركه فيها، فقيل: يا رسول الله، وما الثلاث التي يشاركك علي فيها؟ قال: لواء الحمد

---

(١) وسائل الشيعة ومستدركاتها لمحمد آية الله الشيرازي ص٥

(٢) انظر المرجع نفسه ص١٠

(٣) انظر محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع ص١٦٢

(٤) انظر كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب لمحمد الأمين العاملي ص١٠٩

لي، وعلي حامله، والكوثر لي، وعلي ساقيه، والجنة، والنار لي، وعلي قسيمهما، وأما الثلاث التي أعطي علي، ولم أشاركه فيها، فإنه أعطي شجاعة، ولم أعط مثلها، وأعطي فاطمة الزهراء زوجة، ولم أعط مثلها، وأعطي ولديه الحسن، والحسين، ولم أعط مثليهما)[1].

وهذه الرواية تبين حقيقة معتقد الرافضة، ونظرتهم للرسول ﷺحيث يعدون عليا هو الأصل والنبي ﷺ هو الفرع، وهذا ظاهر لا لبس فيه، وغلو، وإفراط في حق علي رضي الله عنه، وتنقيص، وتفريط في جناب النبي ﷺ[2].

وقد بينا في مبحث سابقمقالة الرافضة في تنقيص الواسطة الصحيحة، وذكرنا نماذج كثيرة توضح نظرة الرافضة للرسول ﷺ.

---

(١) أمالي الصدوق (٢١٩) نقلا عن الشيعة وأهل البيت ص ١٩١، وانظر بحار الأنوار٣٩/ ٩٠، والأنوار النعمانية.

(٢) انظر الشيعة وأهل البيت ص١٩١، وكسر الصنم نقض كتاب أصول الكافي للبرقعي ص٢٠١، والعقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط ص٣٧٥، وأصول مذهب الشيعة عرض ونقد للدكتور ناصر القفاري٢/ ٧٤٣

المبحث الثاني
عقيدة الرافضة في الملائكة الكرام عليهم السلام

تقدم معنا -في الباب الأول- الحديث عن الملائكة، والتعريف بهم، والإشارة إلى الأعمال المنوطة بهم، وبينا هنالك -كونهم واسطة بين الله تعالى، وخلقه في تبليغ أوامره إلى خلقه، على تفصيل أوردناه هنالك.

والذي يهمنا في هذا المبحث هو بيان معتقد الرافضة في واسطة التبليغ هذه من الملائكة، فنقول: -

لقد نال هذا الركن من أركان الإيمان نصيبه من التحريف عند الرافضة، فقد تطاولوا على مقام الملائكة المقربين، وأنكروا وظائفهم، وخصائصهم التي شرفهم الله بها، ولعنوا بعضهم، ومن أجل إثبات ركن الولاية عندهم -فإن لهم روايات غريبة، ومبالغات محجونة تطفح بالكذب على الملائكة عليهم السلام، وهي في الحقيقة أقرب ما تكون إلى إنكارهم أصلا[١]، فإذا تحدثوا عن الأصل الذي خلق منه الملائكة قالوا: (خلق الله الملائكة من نور علي رضي الله عنه)[٢]، وأحيانا تجدهم يقولون: (خلق الله من نور علي بن أبي طالب سبعين ألف ملك يستغفرون له، ولمحبيه إلى يوم القيامة)[٣].

ومن غلاتهم فرقة الغرابية يلعنون الواسطة من الملائكة بين الله ورسله في إبلاغ الوحي: جبريل عليه السلام الروح الأمين، وسيد الملائكة، ويذمونه ويدعون بأن عليا كان أشبه بالنبي ﷺ من الغراب بالغراب، والذباب بالذباب، وأنهما بسبب ذلك أشتبها على جبريل عليه السلام، فغلط في أداء الرسالة فبلغها إلى محمد ﷺ وكانت لعلي رضي الله عنه، ويلمزون هذا الملك الكريم ويلقبونه صاحب الريش[٤]ويقول شاعرهم -مدعيا أن جبريل خان الأمانة-: -

غلط الأمين فجازها عن حيدر ... تالله ما كان الأمين أمينا

ووقف المستشرق جولد تسهير على قدح آخر وتنقيص لهذه الواسطة من الملائكة تزعمه

---

(١) انظر أصول مذهب الشيعة للدكتور ناصر القفاري٢/ ٧٠٥

(٢) المعالم الزلفى في بيان أحوال النشأة الأولى والأخرى لهاشم البحراني ص٢٤٩ نقلا عن أصول فرق الشيعة٢/ ٧٠٦

(٣) بحار الأنوار للمجلسي٢٣/ ٣٢٠

(٤) انظر اعتقادات فرق المسلمين للرازي ص٩٠، والتعريفات ص١٦٢، وخطط المقريزي٢/ ٣٥٣، ومختصر التحفة الاثني عشرية س١٣



الرافضة، فقال: (وذهبوا في إحدى خرافاتهم إلى أن الحسن والحسين كانا يحملان تعويذتين حشوهما من زغب[(١)] جناح الملك جبريل)[(٢)].

ويصفونهم بالخصام، والشجار، وهم الذين لا يعصون الله ما أمرهم من أجل إثبات فضيلة لعلي رضي الله عنه فقد نقل البرسي عن كتاب المقامات: (عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله (في بيتي؛ إذ طرق الباب فقال لي: قومي، وافتحي الباب لأبيك يا عائشة، فقمت، وفتحت له فجاء، فسلم، وجلس، فرد السلام، ولم يتحرك له، فجلس قليلا، ثم طرق الباب، فقال: قومي، وافتحي الباب لعمر، فقمت، وفتحت الباب، فظننت أنه أفضل من أبي، فجاء فسلم، وجلس، فرد عليه، ولم يتحرك له، فجلس قليلاً، ثم طرق الباب فقال: قومي، وافتحي الباب لعثمان، فقمت، وفتحت له، فدخل، وسلم، فرد عليه، ولم يتحرك له فجلس، فطرق الباب فوثب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفتح الباب، فإذا علي بن أبي طالب قد دخل، وأخذ بيده، وأجلسه، وناجاه طويلا، ثم خرج فتبعه إلى الباب، فلما خرج، قلت: يا رسول الله دخل أبي فقمت له، ثم جاء عمر، وعثمان، فلم توقرهما، ولم تقم لهما، ثم جاء علي، فوثبت إليه قائما، وفتحت له الباب، فقال: يا عائشة؛ لما جاء أبوك كان جبرائيل بالباب، فهممت أن أقوم، فمنعني، فلما جاء علي وثبت الملائكة تختصم على فتح الباب له فقمت، وأصلحت بينهم، وفتحت له الباب، وأجلسته، وقربته عن أمر الله)[(٣)].

ويزعمون أن من ملائكة الرحمن من لا وظيفة لهم إلا البكاء على قبر الحسين رضي الله عنه، والتردد على قبره؛ لزيارته، قالوا: (وكل الله بقبر الحسين أربعة آلاف ملك شعث غبر يبكونه إلى يوم القيامة)[(٤)].

وقد روى الكليبي في سبب ذلك قصة، وهي: أن الملائكة الكرام سألت الله عز وجل أن يأذن لها في نصرة الحسين رضي الله عنه والقتال معه، فأذن الله لها، فمكثت تستعد للقتال، وتتأهب للدفاع عن سبط النبي ﷺ وفي أثناء تأهب الملائكة للنزول كان الحسين

---

(١) الزغب بفتحتين الريش، وأصله الشعيرات الصفر على ريش الفرخ. انظر مختار الصحاح ص٢٧٢ مادة (ز غ ب).

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام ص٢٢٠، وانظر أصول مذهب الشيعة ٢/ ٧٠٨

(٣) مشارق أنوار اليقين ص١٩٧

(٤) فروع الكافي ١/ ٣٢٥، نقلا عن أصول مذهب الشيعة ٢/ ٧٠٦



رضي الله عنه قد خرج للقتال، وقتل رضي الله عنه، فلما نزلت الملائكة ووجدت الأمر قد انتهى بقتل الحسين رضي الله عنه حزنت، وشكت ذلك إلى الله تعالى، فأوحى الله إليهم: أن الزموا قبره حتى يخرج من قبره في الرجعة في زمان القائم، فالملائكة حول قبره قائمة تبكي تعزيا، وحزنا على ما فاتها من نصرته وحمايته رضي الله عنه[(١)].

فزيارة قبر الحسين رضي الله عنه هي أمنية أهل السماء، قالوا: (وليس شيء في السموات إلا وهم يسألون الله أن يأذن لهم في زيارة الحسين، ففوج ينزل، وفوج يعرج)[(٢)].

وتزعم الرافضة أن أئمة أهل البيت قالوا: (إن الملائكة لخدامنا، وخدام محبينا. وفي رواية أخرى عنهم أنهم قالوا: (إن جبريل دعا أن يكون خادما للأئمة، قالوا: فجبريل خادمنا)[(٣)].

ويروون عن علي بن الحسين رحمه الله(أنه رآه شخص يجمع شيئا من الأرض فسأله ماذا تجمع؟ فقال: ريشة الملائكة نصنع منها منشفة لأولادنا)[(٤)].

ويزعمون أن الأئمة كانوا أنوارا حول العرش، فهم الذين علموا الملائكة التسبيح، والتهليل، والتحميد، ويروون عن الحسين بن علي السبط رضي الله عنه أنه سئل: أي شيء كنتم قبل أن يخلق الله آدم عليه السلام؟ فقال: (كنا أشباح نور، ندور حول عرش الرحمن فنعلم الملائكة التسبيح، والتهليل، والتحميد)[(٥)].

قد بين شيخ الإسلام ابن تيمية من خلال رده على الرافضة أن في تسميتهم لجبريل عليه السلام خادما كثيرا من القدح، والتنقيص لهذا الملك الكريم، فقال: (فتسميته جبريل رسول الله إلى محمد ﷺ خادما عبارة من لا يعرف قدر الملائكة، وقدر إرسال الله لهم إلى الأنبياء)[(٦)].

ويقول ابن أبي العز: (إن بعض الجاهلين يسيئون الأدب بقولهم: كان الملك خادما

---

(١) انظر أصول الكافي -كتاب الحجة- ١/ ٢٨٣

(٢) بحار الأنوار ٢٧/ ٣٣٥، وانظر علل الشرائع للصدوق ص١٣

(٣) علل الشرائع ص٢٥، وبحار الأنوار ٢٦/ ٣٤٤، وانظر دائرة المعارف للأعلمي الشيعي ١/ ٣٤٧

(٤) كسر الصنم ص٢٧٤

(٥) علل الشرائع للصدوق ص٢٣

(٦) منهاج السنة النبوية ٢/ ١٥٨

للنبي ﷺ، أو أن بعض الملائكة خدام لبني آدم. . . . ونحو ذلك من الألفاظ المخالفة للشرع المجانبة للأدب)[١].

ويزعمون أن الملائكة تضع أجنحتها تحت أقدام الأئمة، وتتنزل عليهم في رحالهم، وتتقلب في فرشهم، وتحضر موائدهم، وتأتيهم بخبر ما يحدث على وجه الأرض، فيروون عن بعض الأئمة أنه قال: (إن الملائكة لتتنزل علينا في رحالنا، وتتقلب في فرشنا، وتحضر موائدنا، وتأتينا من كل نبات في زمانه، رطب، ويابس، وتقلب أجنحتها على صبياننا، وتمنع الدواب أن تصل إلينا، وتأتينا في وقت كل صلاة لتصليها معنا، وما من يوم يأتي علينا، ولا ليل إلا وأخبار أهل الأرض عندنا، وما يحدث فيها، وما من ملك يموت في الأرض، ويقوم غيره إلا تأتينا بخبره، وكيف كانت سيرته في الدنيا؟!)[٢].

ويروى عن علي بن الحسين أنه شاجره رجل من أهل السوق، فقال له علي: يا هذا لو صرت إلى منازلنا لأريتك آثار جبريل في رحالنا[٣].

والملائكة في التراث الرافضي مكلفة بمسألة الولاية؛ لكن الرافضة تزعم أنه لم يستجب لهذا الأمر إلا طائفة المقربين[٤].

ويزعمون أن أحد الملائكة عوقب بكسر جناحه بسبب رفضه ولاية أمير المؤمنين، ولم ينجبر كسره إلا حينما عفر جناحه بتراب قبر الحسين رضي الله عنه[٥].

وقالوا: (إذا أمر الله ملكا بأمر، فإن ذلك الملك يأتي إلى الإمام ويعرض عليه الأمر قبل أن يعمل به)[٦]. ويزعمون أن حياة الملائكة موقوفة على ذكر الأئمة، والصلاة عليهم، وإذا سئلوا لماذا؟ قالوا: لأنه (ليس لهم طعام، ولا شراب إلا الصلاة على علي بن أبي طالب، ومحبيه، والاستغفار لشيعته المذنبين)[٧].

ومن حماقاتهم في هذا الباب: زعمهم أن الملائكة تعتزل الرافضي إذا ناجى رافضيا مثله فيقولون: (إذا التقى الشيعيان يتساءلان، قالت الحفظة: اعتزلوا بنا فإن لهما سرا، وقد

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٠٢، وانظر مجموع الفتاوى٤/ ٣٥٠

(٢) بحار الأنوار٢٦/ ٣٥٦، وانظر الحكومة الإسلامية للخميني ص١٤١، والرد الكافي على مغالطات الدكتور وافي لإحسان إلهي ظهير ص١٤٥

(٣) انظر تبديد الظلام لإبراهيم الجبهان ص٣٦٥

(٤) انظر بحار الأنوار٢٦/ ٣٤٠

(٥) انظر المرجع السابق٢٦/ ٣٤١

(٦) كسر الصنم ص٢٧٥

(٧) بحار الأنوار ٢٦/ ٣٤٩

ستره الله عليهما)[١].

ويؤولون أسماء، وألقاب الملائكة في القرآن بالأئمة، وبهذا الاعتقاد عقد المجلسي في كتابه بابا بعنوان: (باب أنهم رحمهم الله الصافون، والمسبحون، وصاحب المقام المعلوم، وحملة عرش الرحمن، وأنهم السفرة الكرام البررة)[٢].

وجملة القول: إن دعاوى الرافضة في الملائكة الكرام -عليهم السلام- كثيرة تطفح بالطعن، والتنقيص لهذه الواسطة الملكية الكريمة، بدعوى إثبات منقبة للأئمة، وكأن وظيفة الملائكة مقصورة على شئون الأئمة، أو كأنهم ملائكة الأئمة، لا ملائكة الله![٣].

---

(١) وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة لمحمد بن الحسن العاملي٨/ ٥٦٣، نقلا عن أصول مذهب الشيعة٢/ ٧٠٨

(٢) بحار الأنوار٢٤/ ٨٧

(٣) انظر أصول مذهب الشيعة٢/ ٧٠٩



المبحث الثالث
نظر الرافضة لأئمتهم «وسائطهم»

تقدم معنا في تعريف الرافضة للواسطة أنهم يعتقدون أن الأئمة من آل البيت رحمهم الله هم الواسطة بين الله، والناس في تبليغ الشريعة، وواسطة بين الخلق والخالق حال الاضطرار، وهجوم الحوادث، والأخطار، وأن الدعاء لا يثمر إلا إذا كان بواسطتهم، والاستغاثة والاستعانة لا تصح إلا إذا كانت بهم، فإليهم يفزع الملهوف، ونحوهم يمم المضطر، فلا فيض إلا من جهتهم، ولا مدد إلا بواسطتهم، كما نقلنا عنهم في مبحث التنقيص أنهم حينما يتحدثون عن الأئمة المعصومين[١] -بزعمهم- فإنهم ينسون أو يتناسون مقام النبي ﷺ ومرتبة الرسالة؛ وذلك بالغلو الزائد في الأئمة، ومساواتهم لمقام النبي ﷺ، بل ورفع درجاتهم فوق درجته صلى الله عليه وسلم مما أوقعهم في التنقيص الفاضح والطعن المشين في خاتمة الوسائط من النبيين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.

والذي يهمنا في هذا المبحث هو بيان نظرتهم -عموما- لهؤلاء الأئمة، والوسائط عندهم تلك النظرة التي ميزت الرافضة بين الطوائف والفرق بالغلو الزائد، والتقديس المرفوض شرعا للمخلوقين، وفيما يلي إجمال لنظرتهم لأئمتهم ووسائطهم.

١- زعمهم أن الأئمة خلقوا من نور: قول الخميني -مدعيا أن النبي ﷺ والأئمة خلقوا من نور، وأنهم سبقوا الكون في الوجود: (. . . فإن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، والأئمة رحمهم الله كانوا قبل هذا العالم أنوارا فجعلهم الله بعرشه محدقين، وجعل لهم من المنزلة، والزلفى مالا يعلمه إلا الله)[٢].

ووردت روايات كثيرة في الكافي تثبت أن الأئمة خلقوا من نور[٣]. وروى الكليني عن أبي عبد الله رحمه الله أنه خطب يوما فقال: (إن الله تبارك وتعالى نصب الإمام علما لخلقه، وجعله حجة على أهل مواده، وعالمه، وألبسه الله تاج الوقار، وغشاه من نور الجبار بسبب إلى السماء لا ينقطع عنه مواده، ولا ينال ما عند الله إلا بجهة أسبابه، ولا

---

(١) وهولاء الأئمة عند الاثني عشرية هم: المرتضى، والمجتبى، والشهيد، والسجاد، والباقر، والصادق، والكاظم، والرضا، والتقي، والنقي، والزكي، والحجة القائم المنتظر -بزعمهم- انظر الملل والنحل١/ ١٧٣، والأئمة الاثنا عشر لابن طولون ص٤١

(٢) الحكومة الإسلامية ص٥٢

(٣) انظر تلك الروايات، والرد على المؤمنين بها في كسر الصنم لآية الله البرقعي ص٢٧١



يقبل الله أعمال العباد إلا بمعرفته، فلم يزل الله تبارك وتعالى يختارهم لخلقه من ولد الحسين رضي الله عنه من عقب كل إمام، يصطفيهم لذلك ويجتبيهم، ويرضى بهم لخلقه، ويرتضيهم، كل ما مضى منهم إمام نصب لخلقه من عقبه إماما، علما بينا، وهاديا نيرا، وإماما قيما، وحجة عالما، أئمة من الله يهدون بالحق وبه يعدلون، حجج الله، ودعاته، ورعاته على خلقه، يدين بهديهم العباد، وتستهل بنورهم البلاد. . . . فالإمام هو المنتخب المرتضى، والهادي المنتجى[١]، والقائم المرتجى، اصطفاه الله بذلك، واصطعنه على عينه في الذر حين ذرأه، وفي البرية حين برأه)[٢].

والأئمة سبقوا آدم في الوجود؛ لأنهم كانوا يدورون حول العرش قبل خلق آدم يعلمون الملائكة التسبيح، والتهليل. رووا عن الحسين بن علي السبط رضي الله عنهما أنه سئل: أي شيء كنتم قبل أن يخلق الله آدم عليه السلام؟ فقال: (كنا أشباح نور ندور حول عرش الرحمن، فنعلم الملائكة التسبيح، والتهليل، والتحميد)[٣].

٢- زعمهم أن الجزء الإلهي حل في الأئمة: تدعي الرافضة لإثبات غلوها في الأئمة أن جزءا من النور الإلهي حل في علي رضي الله عنه والأئمة من بنيه رحمهم الله، فمن رواياتهم في ذلك أن أبا عبد الله قال: (ثم مسحنا بيمينه فأفضى نوره فينا)[٤]، وفي رواية أخرى عنه قال: (. . . ولكن الله خلطنا بنفسه)[٥].

وورد عن غلاتهم أن الله خلق روح علي، وأولاده وفوض العالم إليهم فخلقوا هم الأرضين والسموات، قالوا: من أجل ذلك نقول في الركوع: سبحان ربي العظيم، وفي السجود: سبحان ربي الأعلى؛ لأن الإله الأعلى هو علي وأولاده، وأما الإله الأعظم فهو الذي فوض إليهم العالم[٦].

وبين الشهرستاني أن غلاة الشيعة غلوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود المخلوقية وحكموا فيهم بأحكام الإلهية، وربما شبهوا واحدا من الأئمة بالإله، وربما شبهوا الإله بالخلق، وأنهم على طرفي الغلو، والتقصير[٧].

---

(١) في حاشية الكافي١/ ٢٠٤ أي صاحب السر.

(٢) الكافي١/ ٢٠٤

(٣) علل الشرائع للصدوق ص٢٣

(٤) أصول الكافي١/ ٤٤٠

(٥) المرجع نفسه١/ ٤٤١

(٦) انظر اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي ص٥٧، والصلة بين التصوف والتشيع للشيبي١/ ٤٠١

(٧) انظر الملل والنحل١/ ١٧٣، واليمانيات المسلولة ص١٦٠، والغلو في الدين لعلي الشبل ص٧٦، ومقالة التشبيه وموقف أهل السنة منها لجابر بن إدريس رسالة دكتوراه غير منشورة ص١٥٢



وتلتقي نظرة الرافضة لعلي رضي الله عنه والأئمة من ذريته مع أقوال النصارى في عيسى بن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام حيث جعلوه ابنا لله تعالى، وادعوا فيه الإلهية[١].

وقد فطن لهذا الغلو بعض المستشرقين، فقال: (إن الشيعة إنما يخلعون على الأئمة صفات الله تعالى)[٢].

وقال آخر: (إن نبي الإسلام كان قد جعل الوحي -أي القرآن- واسطة بين الله، والإنسان؛ ولكن الشيعة حولوا هذه الواسطة إلى شكل الإنسان، يعني الإمام، ولقد زاد الشيعة في كلمة الإيمان. . . كلمة أخرى، وهي: إنني آمنت بالإمام الذي اختاره الله تعالى، وهو يشاركه صفات الألوهية، وهو منقذ للإنسانية)[٣].

وفرقة السبئية[٤] التي تفرع عنها باقي الغلاة من الرافضة تؤمن بألوهية علي رضي الله عنه وتزعم أنه لم يمت، وسيرجع، وإنما قتل ابن ملجم[٥] شيطانا تصور بصورته، وإنه في السحاب، والرعد صوته، والبرق سوطه، وعند سماع الرعد يقولون: عليك السلام يا أمير المؤمنين[٦].

---

(١) انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص٣٠٤، ومختصر التحفة الاثني عشرية ص١٠٠

(٢) صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة لأبي الحسن الندوي ص٧٨، وانظر الشيعة في الميزان للدكتور محمد يوسف النجرامي ص٥٥

(٣) صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة لأبي الحسن الندوي ص٧٨، وانظر العقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسيهر ص١٨٢

(٤) نسبة إلى مؤسسها اليهودي عبد الله بن سبأ، ويقال له: ابن السوداء من غلاة الزنادقة كان يهوديا فتظاهر بالإسلام ليخرق صفوف المسلمين فاندس في الشيعة وسرت سمومه بين الرافضة هلك عام ٤٠هـ انظر عنه وعن السبئية فرق الشيعة للنوبختي ص٢٢، والمقالات والفرق للقمي ص١٩، والشيعة في التاريخ ص٣٨، والبدء والتاريخ٥/ ١٢٩، ومعرفة أخبار الرجال للكشي ص٧٠، وتهذيب تاريخ ابن عساكر٧/ ٤٢٨، ومقالات الإسلاميين١/ ٨٦، والملل والنحل١/ ١٧٤، ومنهاج السنة النبوية ١/ ٥٤. وانظر محاضرة بعنوان: (عبد الله بن سبأ حقيقته لا خيال) للدكتور سعدي الهاشمي ضمن كتاب محاضرات الجامعة الإسلامية في موسمها الثقافي عام ٩٨-١٣٩٩هـ ص ٢٠١

(٥) هو عبد الرحمن بن ملجم بفتح الجيم المرادي التدؤلي الحميري أدرك خلافة عمر رضي الله عنه قرأ على معاذ بن جبل، وكان من شيعة علي قد شهد معه صفين ثم خرج عليه، قتل في اليوم الثالث لمقتل علي رضي الله عنه سنة ٤٠هـ وانظر ترجمته في الكامل في التاريخ لابن الأثير٣/ ١٩٥، ومروج الذهب للمسعودي٢/ ٤٥٧، وتاريخ ابن خلدون٢/ ٦٤٥، وفرق الشيعة ص٢٠

(٦) انظر الملل والنحل١/ ١٧٤، والبرهان في عقائد أهل الأديان للسكسكي ص٦٥، واليمانيات المسلولة ص١٦٧

وقد سخر منهم أحد الشعراء بقوله[١]: -

برئت من الخوارج لست منهم   من الغزّال منهم وابن باب
ومن قوم إذا ذكروا عليا   يردون السلام على السحاب

٣- ادعاؤهم عصمة الأئمة: ويرون أن أئمتهم معصومون من الكبائر، والصغائر مثل الأنبياء -عليهم السلام- تماما، حتى ما يقع منهم الخطأ على سبيل النسيان، والسهو، والتأويل من سن الطفولة إلى حين انتهاء الأجل[٢].

يقول محمد رضا المظفر[٣]: (ونعتقد أن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوما من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الموت عمدا وسهوا كما يجب أن يكون معصوما من السهو، والخطأ، والنسيان)[٤].

ولعلنا نلمس أن أول رافضي قال بعصمة الأئمة هو هشام بن الحكم الكوفي[٥]؛ حيث رأى بوصفه متكلما أن الإمام أحوج إلى العصمة من النبي؛ لأن الثاني يوحى إليه فيسدده الله، وأما الأول فلا يوحى إليه؛ ولذلك احتاج إلى العصمة[٦]!!

وأدى القول بعصمة الأئمة -عند الرافضة- أن ظهرت طريقة صوفية قريبة الصلة بالتشيع، ألا وهي الطريقة البكتاشية وهي تطرد القول بعصمة جميع الأطفال، فبالإضافة إلى أن أصحاب هذه الطريقة يعتقدون عصمة الأئمة الاثني عشر عند الإمامية -مع النبي

(١) البيتان لإسحاق بن سويد العدوي انظر الفرق بين الفرق ص١١٩، والبيان والتبيين للجاحظ١/ ٢٣، والكامل للمبرد٢/ ١٤٢

(٢) انظر بحار الأنوار٢٥/ ١٠٢، والحكومة الإسلامية ص١٩، والعقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط ص٣٦٩

(٣) هو محمد رضا بن محمد بن عبد الله آل مظفر النجفي المتوفى سنة١٣٨٣هـ قال عنه أغا برزك الطهراني: كان عالما جليلا، وأديبا معروفا وهو من أفاضل أهل العلم وأشراف أهل الفضل، والأدب ساهم في الحركة الفكرية في النجف، انظر نقباء البشر في القرن الرابع عشر٢/ ٧٧٢

(٤) عقائد الإمامية ص١٠٤، وانظر الرد عليه في بطلان عقائد الشيعة للتونسوي ص٢٣

(٥) هو أبو محمد هشام بن الحكم مولى كندة أصله من الكوفة، ومولده ومنشأه بواسط، كانت تجارته ببغداد في الكرخ، هلك أيام نكبة البرامكة مستترا بالكوفة عام ١٩٠هـ وقيل غير ذلك. وذكر الكشي أنه كان على مذهب الجهمية، ثم رجع عنه إلى مذهب غلاة الرافضة، وصار من متكلميهم، أعاذنا الله من حاليه. انظر الفهرست ص٢٢٣، ومعرفة أخبار الرجال ص١٦٥، وسمط اللآلي في شرح أمالي القالي للوزير البكري٢/ ٨٥٥، والبدء والتاريخ٥/ ١٣٢

(٦) انظر مقالات الإسلاميين١/ ١٢١، والصلة بين التصوف والتشيع للشيبي١/ ٤١٤



ﷺ- وفاطمة، وخديجة رضي الله عنهما فإنهم يعتقدون عصمة أربعة عشر آخرين تنفرد بهم هذه الطريقة ويعتبرون الإقرار لهم بهذه الصفة شرطا لا يتم تخرج الدرويش إلا به؛ بل زعموا أن كل الأطفال -عندهم- معصومون؛ لأن ما يرتكبونه لا يعتبر كذلك لقصورهم عن الإدراك[١].

٤- زعمهم أن الوحي ينزل على الأئمة[٢] يزعمون أن الأئمة يرون الملائكة وأنها تأتيهم بالوحي، وهناك ملك اسمه الروح أعظم خلقا من الملائكة مختص بالنزول على الأئمة[٣] ويتأولون عليه قوله تعالى: ﴿**تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ**﴾[٤]وهناك ملك كان ينزل بالوحي بعد رسول الله ﷺ على فاطمة الزهراء رضي الله عنها وكاتب هذا الوحي هو علي رضي الله عنه، ولم يزل هذا الملك يأتيها بالوحي حتى اكتمل مصحف فاطمة رضي الله عنها[٥]. ومع اعتقاد نزول الملائكة على الأئمة فإن مصنفيهم وعلمائهم المعتبرين من قال: (إن من يدعي الوحي للإمام قد خرج عن الإسلام)[٦].

وتتحدث بعض رواياتهم عن أنواع الوحي الذي يحصل للأئمة، فتقول: قال جعفر الصادق رحمه الله: (إن منا لمن ينكت في أذنه، وإن منا لمن يؤتى في منامه، وإن منا لمن يسمع صوت السلسلة تقع على الطشت[٧]، وإن منا لمن تأتيه صورة أعظم من جبريل وميكائيل)[٨].

والمقصود أن ادعاءهم نزول الوحي على الأئمة، ونزول مصحف فاطمة رضي الله عنها أن ذلك كله (أداة -عندهم- لاستطلاع ما يحدث في هذا الكون، ولو كان شيء من ذلك لنغير وجه التاريخ، ولما حصل للأئمة ما حصل مما تصوره كتب الشيعة من المحن، ولما

---

(١) انظر الصلة بين التصوف والتشيع ٢/ ٣٤٣

(٢) راجع المبحث السابق (عقيدة الرافضة في الملائكة الكرام -عليهم السلام-).

(٣) انظر الكافي ١/ ٢٨٣، ومقالات الإسلاميين ١/ ١٢٣ (٤) سورة القدر الآية ٤

(٥) انظر الكافي ١/ ١٣٨، ومسألة التقريب ١/ ٢٤٦، والشيعة وتحريف القرآن لمحمد مال الله ص١٧، وموقف الرافضة من القرآن الكريم لمامادو كارامبيري رسالة ماجستير غير منشورة ص٣٠

(٦) كسر الصنم ص١٧٥، وهذا قول شيخهم المفيد.

(٧) هكذا في رواياتهم (الطشت) بالشين المعجمة، ووجدت بعض الباحثين يخطئهم فيها بينما وجدت في القاموس المحيط ١/ ١٥٨ مادة (الطشت) أنه بالسين المهملة، وحكي بالشين المعجمة أيضا.

(٨) بحار الأنوار ٢٦/ ٣٥٨، وانظر بصائر الدرجات الكبرى للصفار ص٦٣، وكشف الأسرار وتبرئة الأئمة الأطهار للسيد حسين الموسوي ص٧٦

غاب منتظرهم، واختفى خوفا من القتل، ولما كان للتقية أدنى حاجة؛ إذ بمعرفة أسباب وقوع المكروه يتقون المكروه، وبمعرفة أسباب المرغوب، والمحبوب يفوزون بالمحبوب)[١].

٥- توسل الأنبياء بالأئمة: لما كان غلو الرافضة في الأئمة غلوا لا حدود له كما تقدم فإن من اليسير عليهم أن يفضلوهم على أنبياء الله تعالى ورسله[٢]، وعلى الملائكة المقربين[٣]، ومن صور ذلك التفضيل، والغلو الفاحش زعمهم أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يتوسلون بالأئمة رغم تأخر الأئمة عن زمان الأنبياء، فمن رواياتهم في ذلك: أن أبا عبد الله قال: (والله ما استوجب آدم أن يخلقه الله بيده، وينفخ فيه من روحه إلا بولاية علي رضي الله عنه وما كلم الله موسى تكليما إلا بولاية علي رضي الله عنه ولا أقام الله عيسى ابن مريم آية للعالمين إلا بالخضوع لعلي ثم قال: أجمل الأمر: ما استأهل خلق من خلق الله النظر إليه إلا بالعبودية لنا، وقال أمير المؤمنين: إن الله عرض ولايتي على أهل السموات، وعلى أهل الأرض أقر بها من أقر بها وأنكرها من أنكرها، أنكرها يونس فحبسه الله في بطن الحوت حتى أقر بها، وكذلك أيوب لما شك في ملك علي قال له الله: فوعزتي لأذوقنك من عذابي، أو تتوب إلي بالطاعة لأمير المؤمنين)[٤].

ورووا عن الرضا رحمه الله أنه قال: (لما أشرف نوح عليه السلام على الغرق دعا الله بحقنا فمنع الله عنه الغرق، ولما رمي إبراهيم في النار دعا الله بحقنا فجعل الله النار عليه بردا، وسلاما، وإن موسى لما ضرب طريقا في البحر دعا الله بحقنا، فجعله يبسا، وإن عيسى عليه السلام لما أراد اليهود قتله دعا الله بحقنا فنجي من القتل، فرفعه إليه)[٥].

٦- جعل الأئمة نصب العين عند الصلاة: ومن صور الغلو الذي تطفح به كتب القوم دعوتهم الصريحة إلى التعلق بهؤلاء الوسائط بزعمهم وربط القلوب بهم أكثر من التعلق بالله سبحانه وتعالى حتى عند القيام بشعيرة الصلاة لله عز وجل، وفي هذا المقام ينسبون إلى الرضا رحمه الله أنه كان يأمر الشيعي عند تكبيرة الإحرام بقوله: (تذكر رسول الله ﷺ

---

(١) أصول مذهب الشيعة ٢/ ٧١٦

(٢) وذكروا في كتب تراجمهم أن المدعو هاشم البحراني صنف كتاب تفضيل الأئمة على الأنبياء. انظر روضات الجنات ص١٨١

(٣) انظر مقالات الإسلاميين ١/ ١٢٠، والعقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط ص٣٧٥

(٤) بحار الأنوار ٢٦/ ٢٩٣ (٥) بحار الأنوار ٢٦/ ٣٢٥

واجعل واحدا من الأئمة نصب عينيك)[١][٢].

ويقول الحافظ البرسي -وهو يخاطب الأئمة-[٣] : -

وأنتم عند الصلاة قبلتي إذا وقفت نحوكم أيممُ

يا سادتي وسادتي أعتابكم بجفن عيني لثراها ألثمُ

منوا على الحافظ عند فضلكم واستنقذوه في غد فأنتمُ

٧- وللمختفي في السرداب نظرة خاصة: فكلما ورد ذكره يضعون أيديهم على رؤوسهم تعظيما له[٤]، ويزعمون أن الطفل إذا بكى من غير ألم، وإذا ضحك من غير عجب؛ فذلك بسبب الغائب المنتظر؛ لأن الطفل إذا رأى الإمام المنتظر فإنه يضحك معه ويناجيه؛ وإذا اختفى عنه وغاب بكى الطفل لتلك الغيبة[٥].

ورأيت بعض متأخري الرافضة يؤقت لخروج الغائب المنتظر، وذلك حسب زعمه إذا تطابق عيد النيروز مع يوم عاشرواء، ويتم ذلك كل ٣٦ سنة، ومن المتوقع أن يتفقا عام ٢٠٠٢م -بزعمهم- فيكون خروج المهدي[٦] الخرافة، والخيال.

ومن أدعيتهم: (يا محمد، يا علي، يا علي، يا محمد اكفياني فإنكما كافيان، وانصراني فإنكما ناصران، يا مُولأنا، يا صاحب الزمان الغوث، الغوث أدركني، أدركني، أدركني، الساعة، الساعة، الساعة، العجل، العجل، العجل، يا أرحم الراحمين، بحق محمد وآله الطاهرين)[٧].

وعموما فإن المهدي الواسطة يتعلقون به أكثر من غيره، والرافضي مشغول به دائما في سفره، وفي حضره، كما أنشدوا[٨]: -

نزيلك ما حططت من الركاب وضيفك حيث كنت من البلاد

---

(١) وسنرى فيما بعد أن هذا الاعتقاد ظهر أيضا عند الصوفية في صورة الواسطة البدعية عندهم في الأموات.

(٢) الصلة بين التصوف والتشيع للشيبي ١/ ٤٦٥، وانظر الفكر الشيعي والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري للشيبي ص٣٥

(٣) انظر مشارق أنوار اليقين ص٢٢٩

(٤) انظر صراط النجاة للخوئي ص٤٦٥

(٥) انظر علل الشرائع لابن بابويه الصدوق ص٥٨٤

(٦) انظر صراط النجاة ص٤٦٤، والشيعة وأهل البيت لإحسان إلهي ظهير ص٢٤٤

(٧) كليات مفاتيح الجنان ص١١٦ لعباس القمي.

(٨) انظر المرجع نفسه ص٩٧

٨- الحج إلى مشاهد الأئمة: ويرون أن الحج إلى قبور الأئمة، ومشاهدهم، والصلاة عندها، والتوسل، والاستشفاع بهم ذلك عندهم أفضل من الحج إلى بيت الله الحرام[١] حتى ألف بعض شيوخهم في ذلك كتابا وسماه: "مناسك حج المشاهد"[٢]، ويزعمون أن كـــربلاء[٣] التي بها مراقد الأئمة أصبحت بتلك المشاهد أعلى رتبة؛ حتى من الكعبة المشرفة، ومن كلامهم في ذلك قول شاعرهم[٤]:-

ومن حديث كربلاء والكعبة ... لكــربــلا بــان علــو الرتبــة

وغيرها مـن سـائر المشــاهد ... أمثالها بـالنقل ذي الشواهد

ونقل أبو المعالي الآلوسي عن والده أن الرافضة عند زيارتهم للأئمة في قبورهم ينادي أحدهم عند الباب إذا وصل المشهد: أأدخل يا أمير المؤمنين؟ أو يا ابن بنت رسول الله صلى الله وآله وسلم؟ أو نحو ذلك، ويزعمون أن علامة الإذن التي يعرفها الزائر أن يشعر برقة في قلبه، ويرى دمعة تسيل من عينه، وهذه الصفة في الزيارة انتقلت بهيئتها وشرائطها إلى الصوفية[٥].

ويرون أن زيارة قبر الحسين رضي الله عنه أفضل ما يكون من الأعمال، وأن الملائكة تقابل زواره، وتناجيهم، وتبلغهم سلام الله عليهم[٦]، ولم يكتفوا بهذا القدر من الكذب، ومجاوزة الحد في الغلو، بل زعموا أن الله تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا يزور قبر علي رضي الله عنه.

تقول أخبارهم: إن أحد الروافض قال: (دخلت المدينة فأتيت الصادق رحمه الله فقلت: جعلت فداك أتيتك، ولم أزر قبر أمير المؤمنين، قال: بئس ما صنعت؛ لولا أنك من شيعتنا ما نظرت إليك؛ ألا تزور من يزوره الله تعالى مع الملائكة، ويزوره الأنبياء مع المؤمنين!!)[٧].

وكل هذه الخرافات تستسيغها عقول الرافضة التي تعيش في تيه مظلم من الجهل، وحالة

(١) انظر كشف الأسرار للخميني ص١١، ومسألة التقريب١/ ٣٠٢

(٢) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة١/ ١٦٦

(٣) كربلاء: الموضع الذي قتل فيه الحسين بن علي رضي الله عنهما -في طرف البرية عند الكوفة. انظر معجم البلدان٤/ ٤٤٤

(٤) انظر كليات مفاتيح الجنان ص٣٠٩

(٥) انظر كليات مفاتيح الجنان ص ٣١١، وغاية الأماني٢/ ٣١٤

(٦) انظر بحار الأنوار١٠١/ ٤٩

(٧) دائرة المعارف للأعلمي الشيعي١/ ١٨٩



مزرية من الضياع[1]، ويدعون أن إجابة الدعاء عند قبور الأئمة متحققة.

وفي ذلك قال شاعرهم -وهو يوصي بالالتصاق بالقبور والصلاة خلف المقبورين[2]: -

وراع فيهن اقتراب الرمس وآثر الصلاة عند الرأس

وصل خلف القبر فالصحيح كغيره في ندبها صريح

والفرق بين هذه القبور وغيرها كالنور فوق الطور

فالسعي للصلاة عندها ندب وقربها بل اللصوق قد طلب

وقال آخر في مشهد أحد الأئمة[3]: -

وما بدا من بركات مشهده في كل يوم أمسه مثل غده

وكشفا العُمي والمرضى به إجابة الدعاء في أعتابه

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الرافضة تتخذ قبور أئمتهم أوثانا تعبد فجرهم ذلك إلى الاستهزاء بما هو من توحيد الله تعالى وعبادته وتراهم يعظمون هؤلاء الذين اتخذوهم وسائط وشفعاء من دون الله (حتى إن طوائف منهم يستخفون بحج البيت وبمن يحج البيت، ويرون أن زيارة أئمتهم، وشيوخهم أفضل من حج البيت، وهذا موجود في الشيعة المنتسبين إلى السنة، وآخرون يستخفون بالمساجد، وبالصلوات الخمس فيها، ويرون أن دعاء شيخهم أفضل من هذا، وهذا موجود في الشيعة. . . حتى ينشدون: -

تعالوا نخرب الجامع ونجعل فيه خمّاره

ونكسر خشب المنبر ونجعل منه طنباره[4]

ويحلف أحدهم اليمين الغموس كاذبا، ولا يجترئ أن يحلف بشيخه اليمين الغموس كاذبا، ومنهم من يقول: كل رزق لا يرزقه إياه شيخه لا يريده، ومنهم من يذبح الشاة، ويقول: باسم سيدي، ومنهم من يقول: إن شيخه أفضل من الأنبياء، والمرسلين، ومنهم من يعتقد فيه الإلهية كما تعتقده النصارى في المسيح. . . ويقولون: نحن غلمان الملك،

---

(١) انظر بروتوكولات آيات قم للدكتور عبد الله الغفاري ص١٣٠

(٢) انظر كليات مفاتيح الجنان ص٣٠٩ (٣) انظر المرجع نفسه ص١٥٠

(٤) الطنباره لعلها آلة العود، قال صاحب القاموس المحيط: الطنبار بالكسر معرب شبه بألية الجمل، انظر ٢/ ٨١ مادة (الطنبور).

ومسمون المسجد اصطبل البطالين، ويقرءون: وما أرسلناك إلا رحمة للمدمنين، وألوان من هذا الجنس الذي فيه استهزاء بالله، وآياته، ورسوله مع تعظيمهم شيخهم، وغلوهم فيه، وكذلك النصيرية[١]، والإسماعيلية، ونحوهم وكثير من طوائف متعددة يرى أحدهم أن استغاثته بالشيخ الميت إما عند قبره وإما عند قبر غيره أنفع له من أن يدعو الله تعالى في المسجد عند السحر، ويستهزئ بمن يعدل عن طريقته إلى التوحيد)[٢].

٩- (من عرف الإمام فليصنع ما يشاء)[٣] هذه قاعدة من قواعد الغلو في أئمتهم، وصورة من صور الزندقة التي تطفح بها كتبهم، وقال بعض غلاتهم أيضا: (الرسالة لا تنقطع أبدا[٤]، وإن الجنة رجل أمرنا بموالاته، والفرائض أيضا رجال كذلك، والنار رجل أمرنا بمعاداته، والمحرمات أيضا رجال كذلك)[٥].

قال الشهرستاني: (وإنما مقصودهم من حمل الفرائض، والمحرمات، والجنة، والنار على أسماء رجال هو أن من ظفر بذلك الرجل، وعرفه فقد سقط عنه التكليف؛ إذ قد وصل إلى الجنة، وبلغ الكمال)[٦].

وقال بعض الغلاة من فرقهم أيضا: (الدين طاعة رجل)[٧].

وقد علق الشهرستاني على هذه القاعدة الخطيرة التي تحصر الدين في طاعة الواسطة بقوله: (ومن اعتقد أن الدين طاعة رجل، ولا رجل له، فلا دين له نعوذ بالله من الحيرة، والحور بعد الكور)[٨][٩].

---

(١) نسبة إلى المبتدع محمد بن نصير النميري، ولذلك قد يطلق عليها أيضا النميرية. انظر في شأنها: فرق الشيعة ص٩٤، والمقالات والفرق ص١٠٠، والأنوار النعمانية لنعمة الله الجزائري٢/ ٢٤١، والملل والنحل١/ ١٨٨، ومختصر التحفة الاثني عشرية ص١٤، وفي حاشية هذه الصفحة علق محب الدين الخطيب رحمه الله بقوله: (ولهذه الطائفة بقية في ديار الشام بين حمص واللاذقية، وحلب، ويتسمون الآن "العلويين") انظر اليمانيات المسلولة ص١٨٩، والشيعة والتشيع لإحسان إلهي ظهير ص٢٢٥

(٢) تلخيص كتاب الاستغاثة٢/ ٦٧٠

(٣) فرق الشيعة للنوبختي ص٣٢، والأنوار النعمانية٢/ ٣٤، ومقالات الإسلاميين١/ ١٢٢

(٤) وسنرى أن هذا الاعتقاد تسرب إلى الصوفية.

(٥) الملل والنحل١/ ١٤٧، وانظر اليمانيات المسلولة ص١٧٣

(٦) الملل والنحل١/ ١٤٧

(٧) الملل والنحل١/ ١٤٧ وانظر الصلة بين التصوف والتشيع للشيبي١/ ٣٩٣

(٨) الحور: النقص، والرجوع، والكور: الزيادة من كار العمامة: أي لاثها، وكل (دور كور)، انظر مختار الصحاح س١٦١، ولسان العرب٥/ ١٥٥

والمعنى: نعوذ بالله من النقصان بعد الزيادة والاستقامة، وقد روي عن النبي ﷺ أنه كان يتعوذ من الحور بعد الكور. انظر لسان العرب٥/ ١٥٥

(٩) الملل والنحل١/ ١٤٧



١٠- يزعمون أن الميت يعاين الأئمة عند الاحتضار[١]: ومن ادعاءاتهم في هذا الباب أن المحتضر يعاين الأئمة عند الموت، فيروون عن أبي عبد الله رحمه الله أنه قال: (لا يموت موال لنا مبغض لأعدائنا إلا ويحضره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين، والحسن، والحسين رضي الله عنهم فيرونه، ويبشرونه، وإن كان غير موال لنا يراهم بحيث يسوءه، والدليل على ذلك قول أمير المؤمنين رضي الله عنه :

يا حار همدان من يمت يرني من مؤمـن أو منافق قبلا[٢]

ويزعمون أن رؤيا الأئمة المنامية وحي في الحقيقة؛ كما هو الحال في رؤيا الأنبياء عليهم السلام؛ لأن منامات الأئمة جارية مجرى الوحي، ولا تكون إلا حقا، وصدقا[٣]، ويبشرون من رأى الأئمة في منامه بالبشرى؛ لأنه قد رآهم على الحقيقة مساواة بمن رأى خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم[٤].

١١- شفاعة الأئمة يوم القيامة: يرى بعض الروافض أن رسول الله ﷺ يشفع يوم القيامة لجماعة من مرتكبي الكبائر من أمته، وأن عليا رضي الله عنه يشفع في أصحاب الذنوب من شيعته، وأن الأئمة من آل محمد ﷺ يشفعون كذلك وينجي الله بشفاعتهم كثيرا من الخاطئين[٥].

ويروون أيضا عن علي رضي الله عنه أنه قال: إن للجنة ثمانية أبواب: باب يدخل منه النبيون، وباب يدخل منه الصديقون، وباب يدخل منه الشهداء، والصالحون، وأما الخمسة الباقية فيدخل منها شيعتنا، ومحبونا، فلا أزال واقفا على الصراط، أدعو، فأقول: رب سلم شيعتي، ومحبي، وأنصاري، ومن تولاني في الدنيا، حتى يأتي النداء من قبل العرش: قد أجبت دعوتك، وشفعت في شيعتك[٦].

ويعلل الدكتور الشيبي الشيعي لادعاء الرافضة أن الأئمة يشفعون شفاعة تضارع وتضاهي شفاعة خاتم النبيين ﷺ بقوله: (وذلك آت من أن عليا وأولاده من الأئمة ماهم

(١) وسترى في الفصل الآتي أن الصوفية تزعم أن المريد يعاين شيخه ساعة الاحتضار.
(٢) حياة الأرواح للاسترابادي نقلا عن دائرة المعارف للأعلمي الشيعي٧/ ٩٤
(٣) انظر دائرة المعارف للأعلمي الشيعي٦/ ١٤٢
(٤) انظر صراط النجاة للخوئي ص٤٦٨
(٥) انظر أوائل المقالات للمفيد ص٤٧، نقلا عن الصلة بين التصوف والتشيع للشيبي/ ٤٠١
(٦) انظر دائرة المعارف٧/ ١٢٤، والحياة الآخرة للدكتور علي العواجي١/ ٣٥٩



إلا استمرار للنبي، وأن عصمتهم وسموهم الورحي هما اللذان بوآهم هذا المقام، ومن هنا يروى عن محمد الباقر وجعفر الصادق قولهما: والله لنشفعن، والله لنشفعن، والله لنشفعن في المذنبين من شيعتنا حتى يقول أعداؤنا إذا رأوا ذلك فمالنا من شافعين!)[1].

وهذا ما شجع أحد المستشرقين أن يقول: (إن الوساطة والشفاعة تتجاوز حدودها وعلى الأخص بالنسبة إلى الحسين)[2].

وعموما فإن هذه الأقوال التي مر ذكرها في بيان نظرة الرافضة لأئمتهم يجمعها أمر واحد، ألا وهو الغلو الزائد في حق الأئمة، ذلك الغلو الذي تطرف كثيرا حتى خرج عن دائرة المدح، ودخل في دائرة القدح، والتنقيص لهؤلاء الأجلة رحمهم الله، ولنستمع إلى قول الحافظ البرسي وهو يخاطب عليا رضي الله عنه[3]: -

أنت المعاد لدى المعاد وأنت لي ... إن ضاق بي رحب البلاد الفاسح

وإلى قوله[4]: -

أنت الصراط المستقيـــ ... م قسيم جنات الأرائك

والنار مفزعها إليــــ ... ك وأنت مالك أمر مالك

ويقول آخر -واصفا عليا رضي الله عنه بالربوبية والعياذ بالله[5]: -

تقبلت أفعال الربوبية التـــي ... عذرت بها من شك أنك مربوب

وقال آخر وهو من المتأخرين يخاطب عليا رضي الله عنه[6]: -

أبا حسن أنت عين الإلــه ... وعنوان قدرته الساميه

وأنت المحيط بعلم الغيوب ... فهل تعزب عنك من خافيه

وأنت مدير رحى الكائنات ... ولك أبحارها الساميه

لك الأمر إن شئت تحيي غدا ... وإن شئت تسفع بالناصيه

---

(١) الصلة بين التصوف والتشيع ١/ ٤٢٨

(٢) عقيدة الشيعة لهجرونيه ص٥٣٥ نقلا عن الصلة بين التصوف والتشيع ١/ ٤٢٨

(٣) انظر مشارق أنوار اليقين ص٢٢٩ (٤) انظر المرجع نفسه ص٢٣٩

(٥) انظر المرجع بعينه ص٤٠، وانظر نماذج من تلك الأشعار الغالية في تبديد الظلام للجبهان ص٣٧

(٦) هذه الأبيات لشيخهم المتأخر إبراهيم العاملي. انظر كتاب "من عقائد الشيعة" لعبد الله بن محمد السلفي ص٢٦

وجملة القول: في نظرة الرافضة لأئمتهم، ووسائطهم أقول: إن كل رافضي سواء كان عالما، أو عاميا فإنه سوف يعصب عينيه بعصابة سوداء، ثم يقول في الواسطة من الأئمة ما يشاء؛ لأن مذهبهم أسس بنيانه على الغلو الزائد في الإمام، والنظرة الخرافية البعيدة عن الحقيقة والواقع لمسألة الإمامة.

ولعلنا ندرك بعد هذه النقول سبب ادعاء الرافضة أن الأئمة هم الواسطة بين الله والناس، وأنه لا خير إلا خيرهم، ولا فيض يصل إلى أحد من الناس إلا بواسطتهم. ويكفي لتأييد ما قدمناه من مناحي الغلو، والخرفات التي نسجتها الرافضة حول الأئمة؛ لادعاء وساطتهم يكفي أن نشير إلى بعض العناوين التي بوب بها الكليني بعض أبواب كتابه "الكافي"[1] حيث يقول: (كتاب الحجة -باب أن الأئمة يعلمون جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة، والأنبياء، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم)[2]، (باب أن الأئمة يعلمون متى يموتون، وأنهم لا يموتون إلا باختيارهم)[3]، (باب أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون وأنه لا يخفى عليهم الشيء)[4]، (باب أن الأرض كلها للإمام)[5].

ويستخلص المستشرق جولد تسيهر الحكم على تصور الرافضة لأئمتهم بأنه يبدو أن هذه المبالغات الشيعية في تجسيد الجوهر الإلهي في أئمة أهل البيت قد أفسح المجال في هذه البيئات إلى ظهور عقائد، وتصورات موغلة في التشبيه، والتجسيم، فالشيعة كانت على وجه الدقة، البيئة التي نبتت فيها جراثيم السخافات التي حاولت القضاء على نظرية الألوهية في الإسلام[6].

ولعل من نافلة القول أن نذكر أن أئمة أهل البيت رحمهم الله بريئون من هذا الغلو الفاحش، والتنقيص المشين الذي تدعيه الرافضة فيهم، وأن أقوالهم في التبرؤ من هذه الادعاءات، والرد على أقوال الغلاة فيهم كثيرة، سنأتي على بعضها في بيان شبهات الرافضة، والرد عليها، وذلك في المبحث الآتي.

---

(١) واعلم أن هذا الكتاب مقدس عندهم وهو بمنزلة صحيح البخاري عند أهل السنة والجماعة.
(٢) الكافي ١/ ٢٥٥ (٣) المرجع نفسه ١/ ٢٥٨
(٤) الكافي ١/ ٢٦٠ (٥) المرجع نفسه ١/ ٤٠٧
(٦) انظر العقيدة والشريعة في الإسلام ص١٨٥



المبحث الرابع

بيان شبهات الرافضة والرد عليها

إذا تقرر أن الواسطة بين الله وخلقه عند الرافضة هم الأئمة من أهل البيت رحمهم الله تعالى كما مر معنا ورأينا كيف يجيزون التعلق بالأئمة، والتوسل بهم ودعاء الله تعالى بهم تارة، وتارة أخرى يدعون بكل صراحة إلى الاستغناء بالأئمة والاستغاثة بهم، والاستمداد منهم؟

إذا تقرر ذلك، فإن هذا المسلك المنحرف، والاعتقاد الفاسد في الأئمة رحمة الله عليهم سببه ركام من الشبهات الواهية التي تتمثل في روايات باطلة، وأخبار مختلقة ملأ بها مصنفو الرافضة كتبهم وتلقاها خلفهم عن سلفهم، وصغيرهم عن كبيرهم بالقبول، والتسليم، وتراهم يدافعون عنها دفاع المستميت وهي أوهى من بيت العنكبوت رغم أنها خالفت جميع الشرائع، والعادات، وأنكرتها عقول جميع المخلوقات، والذي يهمنا في هذا المبحث هو بيان الشبهات التي تتعلق بالأئمة، واعتبارهم واسطة عند الرافضة.

١- شبهة العصمة[١]: إذا كان مذهب الشيعة عموما، والرافضة على الخصوص يقوم على قضية الإمامة، فإن مسألة عصمة الإمام من أكبر الشبهات، وأهم المسائل التي يقوم عليها دين الرافضة، وكيانهم العقدي[٢].

يقول محمد باقر المجلسي: (إن أصحابنا الإمامية أجمعوا على عصمة الأئمة رحمهم الله من الذنوب الصغيرة، والكبيرة، عمدا، وخطأ، ونسيانا من وقت ولادتهم إلى أن يلقوا الله عز وجل)[٣]. وقد تقدم معنا قول محمد رضا المظفر في العصمة.

ويستدلون على العصمة بقول الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٤] حيث استدل بها صاحب بحار الأنوار[٥]، وأصل الشيعة وأصولها[٦] بأن المراد بالعهد في الآية الإمامة، ولا يناله إلا

---

(١) راجع أقوالهم في العصمة في المبحث السابق (نظرة الرافضة لأئمتهم ووسطائهم).

(٢) انظر أصول مذهب الشيعة٢/ ٩٤١، والإمامة عند الشيعة الاثني عشرية لجلال الدين صالح رسالة ماجستير غير منشورة ص٢٤٠

(٣) بحار الأنوار٢٥/ ٣٥٠

(٤) سورة البقرة الآية ١٢٤

(٥) انظر٢٥/ ١٩١

(٦) انظر ص٥٩

من كان معصوما من القبائح ؛ لأن الله سبحانه وتعالى نفى أن ينال الإمامة ظالم، ومن ليس بمعصوم فهو لا محالة ظالم لنفسه، أو ظالم لغيره[١].

الرد عليهم: إن تفسير السلف للعهد في الآية قيل المراد به النبوة، وقيل الإمامة، وقيل الأمان، وقيل المراد بالعهد الدين[٢] فالآية ليست في مسألة الإمامة أصلا، كما هو قول أكثر أهل العلم، ومن فسر العهد بالإمامة قصد إمامة العلم، والصلاح، والقدوة الحسنة، لا الإمامة، والعصمة بالمفهوم الرافضي، ولو سلمنا -جدلا- بأن الآية في الإمامة فالاستدلال بها على القول بالعصمة أمر باطل ؛ إذ لا يسلم أن غير الظالم معصوم، لا يخطئ، ولا يسهو[٣].

واستدلوا أيضا بقول الله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ**﴾[٤]حيث يروون عن جابر الجعفي أنه قال : (لما نزلت هذه الآية قلت : يا رسول الله، عرفنا الله ورسوله، فمن أولي الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال صلى الله عليه وسلم : خلفائي يا جابر، وأئمة ثبتت إمامتهم، وعصمتهم، واتفقت الأمة على علو مرتبتهم، ومنزلتهم)[٥].

واستدلوا أيضا بقول الله تعالى : ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[٦]قالوا : هذه الآية نزلت في أهل الكساء وهم : (النبي صلى الله عليه وسلم، وفاطمة، وعلي، والحسن، والحسين) ويؤخذ منها عصمتهم، وكون إجماع الأئمة بعدهم حجة[٧].

الرد عليهم: إن زوجات النبي ﷺ أمهات المؤمنين داخلات في الآية ؛ لأنهن من أهل

---

(١) مجمع البيان للطبرسي١/ ٢٠١ نقلا عن أصول مذهب الشيعة٢/ ٩٥٢، وانظر بحار الأنوار٢٥/ ١٩١

(٢) انظر تفسير الطبري٢/ ٢٠، وتفسير البغوي١/ ١١٢، وتفسير ابن كثير١/ ١٤٧، وتفسير السعدي١/ ٦٥، وأضواء البيان١/ ٦٩

(٣) انظر أصول مذهب الشيعة٢/ ٩٥٣

(٤) سورة النساء الآية ٥٩

(٥) نقله السويدي عن يوسف الأوالي الرافضي في رده عليه. انظر الصارم الحديد في عنق صاحب سلاسل الحديد، تحقيق الدكتور فهد بن ضويان السحيمي رسالة دكتوراه غير منشورة ص٥١٩، وانظر الصواعق المحرقة للهيثمي ص٧٥

(٦) سورة الأحزاب الآية ٣٣

(٧) انظر حديث الكساء بطوله وزيادات الرافضة فيه في كليات مفاتيح الجنان للقمي ص٦١٢، والصارم الحديد للسويدي ص٥١٨

البيت، ولسن بمعصومات -اتفاقا- فكذلك بقية أهل البيت ليسوا معصومين[١]. (فالأمة معصومة بكتاب ربها، وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم، ولا تجمع الأمة على ضلالة، وعصمة الأمة مغنية عن عصمة الإمام، وهذا مما ذكره العلماء في حكمة عصمة الأمة. قالوا: لأن من كان من الأمم قبلنا كانوا إذا بدلوا دينهم بعث الله نبيا يبين الحق، وهذه الأمة لا نبي بعد نبيها، فكانت عصمتها تقوم مقام النبوة، فلا يمكن أحد منهم أن يبدل شيئا من الدين إلا أقام الله من يبين خطأه فيما بدله)[٢].

وكل من غلا في طائفة من الناس، أو شخصا من الأشخاص فطريقة الرد عليه: أن تذكر له من هو أعلى منه منزلة، وتبين له أن الأعلى منزلة لا يجوز الغلو فيه، فكيف يجوز الغلو في الأدنى؟! كما قال بعض الرافضة لشيخ من شيوخ أهل السنة: تقول مولانا أمير المؤمنين علي ما كان معصوما؟ فقال له السني: أبوبكر، وعمر-عندنا- أفضل منه، وما كانا معصومين، وهذا باب مطرد في الرد على أهل الغلو[٣].

وذكر الشيخ صالح المقبلي[٤]أنه جادل أحد علماء الرافضة في إيجابه العصمة للواسطة من الأئمة، فقال: (قلت لبعضهم: فهل المعصوم حاضر أبدا عند المكلف لكلما عرض عليه، كي يصونه عن الخطأ؟ قال: لا؛ بل لا بد من واسطة غير معصوم، قلت: فإذا ذلك مسلم، والمعصوم موجود هو النبي ﷺ ولم يدل هذا الدليل مع تسليمه إلا على معصوم واحد؛ لا على ثلاثة عشر معصوما!! فانقطع)[٥].

وقد ذهب طوائف من غلاة الرافضة إلى وجوب القول بعصمة كل من يتعلق طرف من مصالح الإمامة به حتى طردوا ذلك في ساسة الدواب، والمستخدمين في الأمور المستحقرة، من الخدام، والعبيد، (ومن انتهى تجرؤه إلى هذا فقد كشف جلباب الحياء عن وجهه، وتعلق بما هو حري بأن يعد من السخرية، والهزء، والتلاعب بالدين.....

(١) انظر الصواعق المحرقة للهيتمي ص٥٧

(٢) أصول مذهب الشيعة٢/ ٩٥٩، وانظر هذه نصيحتي إلى كل شيعي للشيخ أبي بكر الجزائري ص٢٩

(٣) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة٢/ ٤٦٦

(٤) هو صالح بن المهدي بن علي بن عبدالله بن سليمان بن محمد بن عبدالله بن سليمان بن أسعد المقبلي اليمني الزيدي، ولد بقرية المقبل باليمن سنة ١٠٤٧هـ، وقيل: غير ذلك، وانتقل إلى صنعاء، ثم سكن مكة المكرمة، اشتغل بالتفسير وعلوم الحديث، واللغة، والفقه، توفي بمكة سنة ١١٠٨هـ، انظر: البدر الطالع١/ ٢٨٨، والأعلام٣/ ٢٨٣

(٥) العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ ص٢٢٧

وأقدار هؤلاء تقل عن الازدياد على هذا المبلغ في ذكر قبائحهم، وبث فضائحهم)[1].

والحق أن إيجاب العصمة للأئمة من أكاذيب الرافضة على أهل البيت، وافتراءاتهم حيث لم يدل عليها دليل من كتاب، ولا سنة، ولا إجماع، ولا يوافقها عقل سليم، ولعل الذي دعاهم إلى القول بإيجاب العصمة للأئمة أنهم لما ادعوا فيهم ادعاءات باطلة، ولفقوا على ألسنتهم إجابات باطلة، وقَعَّدوا قواعد فاسدة، وأسندوها إليهم، لما فعلوا ذلك -ولا قبل لهم بالدليل- بادروا إلى القول بعصمتهم، حتى يكمموا الأفواه عن السؤال، ويعصبوا العيون عن رؤية الحق.

يقول محب الدين الخطيب: (إن الشيعة يدعون لأئمتهم الاثني عشر ما لا يدعيه هؤلاء لأنفسهم من علم الغيب، وأنهم فوق البشرية، وأيضا قد سجل الكليني نعوتا، وأوصافا للأئمة لاثني عشر رفعهم من منزلة البشر إلى منازل معبودات اليونان[2] في العصور الوثنية)[3].

ولعل ادعاء الرافضة العصمة للأئمة كان درجة صعدوا منها إلى القول بعد ذلك بكون الجزء الإلهي حل فيهم[4].

يقول ابن خلدون: وقد (تجاوزا حد العقل، والإيمان في القول بألوهية هؤلاء الأئمة، إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الألوهية، أو أن الإله حل في ذاته البشرية، وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصارى في عيسى -صلوت الله عليه)[5].

وبالجملة فلا عصمة لغير الأنبياء عليهم السلام.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وإنما يخالف في ذلك الغالية من الرافضة وأشباه الرافضة من الغالية في بعض المشايخ، ومن يعتقدون أنه من الأولياء، فالرافضة تزعم أن الاثني عشر معصومون من الخطأ، والذنب، ويرون هذا من أصول دينهم، والغلية في المشايخ قد يقولون: إن الولي محفوظ، والنبي معصوم، وكثير منهم إن لم يقل ذلك بلسانه

(١) الغياثي لأبي المعالي الجويني ص٩٥

(٢) هذا في اعتقاد اليونان، وإلا فهذه المعبودات ليس لها منازل؛ لأنها لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

(٣) الخطوط العريضة ص١٥

(٤) راجع نظرة الرافضة لأئمتهم ووسائطهم من هذه الرسالة، وانظر العصمة عند الشيعة الإمامية الاثني عشرية لعلي البار ماجستير غير منشورة ص٢٩٦

(٥) مقدمة ابن خلدون ص١٩٢



فحاله حال من يرى أن الشيخ، والولي لا يخطئ، ولا يذنب، وقد بلغ بالطائفتين إلى أن يجعلوا بعض من غلوا فيه بمنزلة النبي، وأفضل منه، وإن زاد الأمر جعلوا له نوعا من الإلهية، وكل هذا من الضلالات الجاهلية المضاهية لضلالات النصرانية، فإن في النصارى من الغلو في المسيح، والأحبار، والرهبان ما ذمهم الله عليه في القرآن، وجعل ذلك عبرة لنا؛ لئلا نسلك سبيلهم)[١].

٢- شبهة الوحي تقدم معنا -سابقا- في بيان نظرة الرافضة لأئمتهم وسائطهم أنهم يدعون أن الوحي لم ينقطع عنهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن هناك كتبا إلهية اكتملت عن طريق هذا الوحي -المزعوم- فكانت خاصة بهم، وهذه الدعوى شبيهة بادعاءات المتنبئين على مر العصور بأن الوحي يأتيهم، ويهذون بكلمات يعارضون بها القرآن الكريم، ولنأخذ هذه الرواية -مثالا لروايات الوحي الكثيرة عندهم- التي ينقلها الكليني عن مصحف فاطمة الزهراء رضي الله عنها -كما يزعمون- تقول الرواية: (إن الله تعالى لما قبض نبيه صلى الله عليه وآله وسلم -دخل على فاطمة من وفاته من الحزن مالا يعلمه إلا الله عز وجل، فأرسل الله إليها ملكا يسلي غمها، ويحدثها فشكت ذلك إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه، فقال: إذا أحسست بذلك وسمعت الصوت قولي لي، فأعلمته بذلك، فجعل أمير المؤمنين رضي الله عنه يكتب كل ما سمع حتى أثبت من ذلك مصحفا. . . أما إنه ليس فيه شيء من الحلال، والحرام؛ ولكن فيه علم ما يكون)[٢].

وهذه الشبهة قد تضمنت أمورا في غاية الخطورة -كما يقول الدكتور ناصر القفاري- (منها: أن الوحي لم ينقطع، والنبوة لم تختم، وأن الأئمة بمنزلة الأنبياء، أو أعظم، فهم تتنزل عليهم الكتب المتعددة من السماء، وهذا مالم يتحقق للرسول صلى الله عليه وسلم ومنها: تضليل الصحابة، والأئمة جميعا بأنها ردت الكتب المنزلة، وهذه الدعوى إحدى المعالم الواضحة على أن هذا المذهب قد ابتلي بشرذمة من الكذابين الذين لا يتورعون عن أي كذب، فهم كذبوا على رسول الله ﷺ بوضع الأحاديث. وكذبوا على الله سبحانه بوضع هذه الكتب!!)[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٦٧ (٢) أصول الكافي ١/ ٢٤٠، وانظر بحار الأنوار ٢٦/ ٤٤

(٣) أصول مذهب الشيعة ٢/ ٧٣



٣- شبهة النص على الأئمة: ويدعون أن هؤلاء الوسائط من الأئمة -رحمهم الله- نزلت صحيفة من السماء فيها ذكر عددهم، وأسمائهم، وأوصافهم، ثم يؤكدون النص بقولهم: نص الرسول صلى الله وسلم على علي رضي الله عنه ونص علي على الإمام من بعده، وهكذا كان كل إمام ينص على الذي بعده.

يقول أحد أئمتهم: (نعتقد أن الإمامة كالنبوة لا تكون إلا بالنص من الله تعالى على لسان رسوله، أو لسان الإمام المنصوب بالنص إذا أراد أن ينص على الإمام من بعده، وحكمها في ذلك حكم النبوة بلا فراق)[١]، ولهذا جعل مصنف كتاب " المعارف الحسينية " فصلا عنونه بقوله: (فصل في بيان ما ورد عن النبي ﷺ من تعيين عدد الأئمة، وذكره صلى الله عليه وسلم لأسمائهم، وأن المهدي هو الثاني عشر ابن الحسن العسكري)[٢].

وهذه الشبهة امتداد لشبهة العصمة، فلما كانوا يعتقدون عصمة الأئمة، وتفضيلهم على الأنبياء، والملائكة عليهم السلام جرهم ذلك إلى القول بأنه لا يعقل أن يكون من هذه منزلته مجهولا لا يعرف بالوصف، والنص؛ لأن الإمامة -عندهم- صنو النبوة، أو أعظم، فمن لم يؤمن بهؤلاء الأئمة فهو أشد كفرا من اليهود، والنصارى[٣]، ويبلغ بهم الأمر في تكفير الأمة أن أعلنوا انفصالهم عن أمة الإسلام بسبب مسألة الإمامة، فقالوا: (لم نجتمع معهم على إله ولا نبي، ولا على إمام، وذلك أنهم يقولون: إن ربهم هو الذي كان محمد صلى الله عليه وسلم نبيه، وخليفته بعده أبوبكر، ونحن لا نقول بهذا الرب، ولا بذلك النبي؛ بل نقول: إن الرب الذي خليفة نبيه أبوبكر ليس ربنا، ولا ذلك النبي نبينا!!)[٤].

٤- قياسهم الإمامة على النبوة[٥]: تعتقد الرافضة العصمة في الأئمة بناء على أنهم خلفاء المعصوم، ويدعون أنهم أفضل من الأنبياء، والرسل بناء على أنهم أوصياء، ونواب لأفضل الأنبياء، والمرسلين، وبسبب هذه المعتقدات الغالية، والتصورات البعيدة عن

---

(١) عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر ص٦٠ (٢) المعارف الحسينية ص١٧٩

(٣) انظر الشيعة في التاريخ ص١٨، والفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة ص٤٣، وانظر الرد القوي الذي رد به عليهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب في رسالة في الرد على الرافضة ص٦، وأصول مذهب الشيعة٢/ ٨٦٦

(٤) الأنوار النعمانية٢/ ٢٧٩

(٥) انظر الصارم الحديد بتحقيق الدكتور فهد السحيمي ص٥٦٨



الحق، والموغلة في الخرافة التي تصور بها الرافضة أئمة أهل البيت تضيفها على الإمامة نجد أنها لا تعارض الإعجاب، والحب للنبي ﷺ فحسب؛ بل إنها تضاده، وتتصادم معه، فبسبب الصبغة النفسية، والعواطف المعلنة من ناحية الرافضة لحب أهل البيت -بزعمهم- وتعظيم الأئمة شغلوا بتلك العواطف كل فراغ في نفوسهم، وعواطفهم، وعقولهم؛ حتى رأيناهم يهدمون كثيرا من حقوق النبوة التي هي مصدر كل خير، وسعادة، وينالون من شخصية الرسول الأعظم ﷺ الذي نال به أهل البيت الشرف، واستحقوا الحب، والإجلال حتى جعلوا الإمامة منافسة للنبوة، أو مشاركة لها في كثير من الصفات[1].

ومن أقوالهم في هذا القياس الفاسد: (من مات، ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية)[2].

وقال عالمهم محمد رضا المظفر: (نعتقد أنها [أي الإمامة] كالنبوة لطف من الله تعالى، فلا بد أن يكون في كل عصر إمام هاد، يخلف النبي في وظائفه من هداية البشر وإرشادهم إلى ما فيه الصلاح، والسعادة، في النشأتين، وله ما للنبي من الولاية العامة على الناس لتدبير شئونهم، ومصالحهم... فالإمامة استمرار النبوة، والدليل الذي يوجب إرسال الرسل، وبعث الأنبياء هو نفسه يوجب أيضا نصب الإمام بعد الرسول.... ولا يجوز أن يخلو عصر من العصور من إمام مفروض الطاعة منصوب من الله تعالى)[3].

وقال آخر: (الإمامة منصب إلهي كالنبوة، فكما أن الله يختار للنبوة من يشاء، فكذلك يختار للإمامة من يشاء، ويأمر نبيه بالنص عليه)[4].

واعلم أن بطلان هذا القياس يعرف من لفظ الإمام " (فالإمام -عندهم- هو المعصوم المفترض الطاعة الموحى إليه، وحيا باطنيا، وهذا هو معنى النبي، فمذهبهم يستلزم إنكار النبوة)[5].

٥- شبهة الروايات المختلقة، والأخبار المكذوبة: اعلم أن للرافضة رواتها، وأخباريها الذين تنقطع بالرواية عنهم عن باقي رواة المسلمين على مر العصور الإسلامية، ولا تقبل

---

(١) انظر صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية ص٨٣

(٢) الكافي١/ ١٨١، وانظر عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر ص٥٦

(٣) عقائد الإمامية ص٤٩

(٤) أصل الشيعة وأصولها لمحمد الحسين آل كاشف الغطاء ص٩٨

(٥) صورتان متضادتان ص٨٢



إلا ما يروى على ألسنة أهل البيت رحمهم الله فأصبحت لهم مكتباتهم التي يقبع داخلها كل تلك الروايات المختلقة، والأخبار المكذوبة، والأسانيد الغريبة.

يقول ابن خلدون: (يرون أن عليا رضي الله عنه هو الذي عينه -صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها، ويؤولونها على مقتضى مذهبهم، لا يعرفها جهابذة السنة، ولا نقلة الشريعة؛ بل أكثرها موضوع، أو مطعون في طريقه، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة)[١].

وقال بعض أئمة أهل البيت النبوي، والعترة[١] الطاهرة في الرد على الغلاة فيهم: (وقد تأملت كلماتهم فرأيت قوما أعمى الهوى بصائرهم، فلم يبالوا بما ترتب على مقالاتهم من المفاسد)[٢].

وتعد الروايات المكذوبة، والأخبار الملفقة دين الرافضة؛ لأنه لا قبل لهم بالدليل الشرعي على مسألة الإمامة، واعتبار الإمام واسطة بين الله تعالى، وخلقه، وما يترتب على ذلك من القول بعصمته، والغلو الذي لا ينتهي، حتى التفاسير التي تنقلها الرافضة عن أهل البيت أكثرها مكذوبة؛ لأنهم نقلوها عن أئمة أهل البيت بواسطة كذابين مفترين أمثال هشام بن الحكم، وزرارة بن أعين، وأمثالهما ممن ثبت نفاقهم، وزندقتهم بشهادة الأئمة أنفسهم[٣].

ولقد حرق علي (بالنار من ادعى فيه الألوهية، وسخط محمد بن الحنيفية[٤] على المختار ابن أبي عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه فصرح بلعنته، والبراءة منه، وكذلك فعل جعفر الصادق رحمه الله بمن بلغه مثل ذلك عنه[٥].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص١٩٦

(٢) عترة الرجل: نسله، ورهطه الأدونون. انظر مختار الصحاح ص٤١٠ مادة (ع ت ر)، والمراد بالعترة: قرابة النبي ﷺ.

(٣) الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة ص٧٧، وانظر رسالة الشرك ومظاهره للميلي ص٣٠٠

(٣) انظر الصواعق المحرقة للهيثمي ص٧٥، والصارم الحديد في عنق صاحب سلاسل الحديد ص٥٧٠

(٤) هو أبو إسحاق المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي، ولد عام الهجرة، وليست له صحبة، كان من زعماء الثائرين على بني أمية، أظهر الاهتمام بتتبع قتلة الحسين رضي الله عنه، وادعى النبوة ونزول الوحي، قتله مصعب بن الزبير سنة ٦٧هـ. انظر معرفة أخبار الرجال ص٨٤، وتاريخ الطبري٦/ ٩٣، والرجال الشيعة في الميزان ص١٣

(٥) انظر الملل والنحل١/ ١٧٤، ومقدمة ابن خلدون ص١٩٢، واليمانيات المسلولة ص١٦٦

وروى الكليني عن سدير[1] أنه قال: (قلت لأبي عبد الله رحمه الله إن قوما يزعمون أنكم آلهة يتلون بذلك علينا قرآنا: ﴿هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾[2]، فقال: يا سدير: سمعي، وبصري، ولحمي، ودمي، وشعري، من هؤلاء براء، وبرئ الله عنهم، ما هؤلاء على ديني، ولا على دين آبائي، والله لا يجمعني الله وإياهم يوم القيامة إلا وهو ساخط عليهم، قال: قلت وعندنا قوم يزعمون أنكم رسل يقرءون علينا بذلك قرآنا: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[3]، فقال: يا سدير سمعي، وبصري، وشعري، وبشري، ولحمي، ودمي من هؤلاء براء وبرئ الله منهم، ورسوله، ما هؤلاء على ديني، ولا على دين آبائي، والله لا يجمعني الله وإياهم يوم القيامة إلا وهو ساخط عليهم. . . .)[4].

ومن الأدعية التي تنقلها الرافضة عن الأئمة رحمهم الله وفيها التوحيد الخالص، والاعتراف بالعبودية والتنصل من الذنوب أدعية السجاد رحمه الله[5].

ومن ذلك قول الباقر رحمه الله: (والله ما نتقرب إلى الله تبارك وتعالى إلا بالطاعة، وما معنا براءة من النار من كان لله مطيعا فهو لنا ولي، ومن كان لله عاصيا فهو لنا عدو، وما تنال ولا يتنا إلا بالعمل والورع)[6].

وهذا الكلام الرائع يوافق معتقد أهل السنة والجماعة الذي هو معتقد أئمة أهل البيت رحمهم الله، وهذا هو المظنون بأن يخرج من أفواه هؤلاء الأئمة، الأجلة، كما قال الشاعر:

وهذا هو الظن المفيد بكم وما سواه فعنكم غير مظنون

فليت الرافضة يعطون مجالا لعقولهم المغلقة بالغفلة حتى يفهموا هذا الكلام الذي ينقلونه عن الأئمة، فيعقلونه، ويعتقدونه!!

وإذا كانوا يزعمون أنهم يتبعون عليا رضي الله عنه فلماذا يخالفونه في قوله: (إن استطعت أن لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل)[7]، فيجعلون بينهم وبين الله تعالى-

---

(١) لم أقف على ترجمته.
(٢) سورة الزخرف الآية ٨٣
(٣) سورة المؤمنون الآية ٥١
(٤) الكافي ١/ ٢٦٩
(٥) انظر الصحيفة السجادية ص ٦٩
(٦) مجلة الهادي الشيعية العدد الرابع ص٣١
(٧) سجع الحمام في حكم الإمام لعلي الجندي، وآخرين ص١٠٣

حال الدعاء والتضرع، والالتجاء- واسطة من ذوات الأئمة المعصومين -بزعمهم-؟!.

ولا أجد شيئا أقوى في الرد على الرافضة في ادعائهم العصمة للأئمة رحمهم الله من أقوال الأئمة أنفسهم، فهذا أبو عبد الله يقول: (إنا لنذنب، ونسيء، ثم نتوب إلى الله متابا)[١]. ورووا عنه -أيضا- أنه قال: (فوالله ما نحن إلا عبيد الذي خلقنا، واصطفانا ما نقدر على ضر، ولا نفع، وإن رحمنا فبرحمته، وإن عذبنا فبذنوبنا، والله مالنا على الله حجة، ولا معنا من الله براءة، وإنا لميتون، ومقبورون، ومنشورون، ومبعوثون، وموقوفون، ومسئولون، ويلهم! مالهم لعنهم الله، فقد آذوا الله، وآذوا رسوله ﷺ في قبره، وأمير المؤمنين، وفاطمة، والحسن، والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي رضوان الله عليهم. . . . أشهدكم أني أمرؤ ولدني رسول الله ﷺ وما معي براءة من الله! إن أطعته رحمني، وإن عصيته عذبني عذابا شديدا)[٢].

وأدعية الأئمة في التبري من الحول، والقوة، والاعتراف بالذنوب أمر يصعب حصره[٣]؛ ولهذا نعلم من طريق العقل، والنقل -أن عليا رضي الله عنه - والأئمة من ذريته -رحمهم الله- ما كانوا يدعون لأنفسهم العصمة، والتبري من الذنوب؛ بل كانوا يعترفون بها سرا وعلانية، ويتضرعون إلى الله مستغفرين خاضعين منيبين إليه؛ ليقيلهم من تلك المعاصي، والعثرات؛ فإن وافق الرافضة على هذا وصدقوا تلك الأقوال فذلك الحق، وإن تكن الأخرى فقد اعترفوا بوقوع الكذب من الأئمة، وهذا في غاية المعارضة للعصمة[٤].

على أننا نجد من مصنفي الرافضة من يجادل بغير الحق، ويحاول تأويل ما يصدر عن هؤلاء الأئمة تأويلا باطلا[٥]، وما من شك في أن الذي تستدل به الرافضة على جواز الغلو في الأئمة، واعتبارهم واسطة تارة، والاستغناء بهم، ودعائهم، والانقطاع إليهم تارة

---

(١) بحار الأنوار ٢٥/ ٢٠٧

(٢) معرفة أخبار الرجال للكشي ص٢٢٥، وانظر كسر الصنم ص١٧٤

(٣) انظر الصحيفة السجادية ص، وكليات مفاتيح الجنان ص٢٧١، ومسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة ١/ ٣٢٩

(٤) انظر الغياثي ص٩٣، والشيعة والتصحيح للموسوي ص١١٣

(٥) انظر الأنوار النعمانية لنعمة الله الجزائري ١/ ٢٥٩، وبحار الأنوار للمجلسي ٢٥/ ٣٥١، وأصول مذهب الشيعة ٢/ ٦٣٠

أخـرى[١] معظمه يقوم على دعوى عصمة الأئمة، وهذا النوع من الأدلة أدلة غير شرعية فاسدة الأصل، والدلالة، وكذلك أدلة سائر أهل الأهواء، واستدلالهم هذا داخل في البدع الحقيقية[٢].

والمقصود أن هذه الروايات المختلقة، والأخبار المكذوبة مدارها على أخباريي الرافضة المجروحين والمعروفين بالكذب، وهذا جعفر الصادق رحمه الله يقول: (إن الناس أولعوا بالكذب علينا، وذلك أنهم لا يطلبون بحديثنا، ويحبنا ما عند الله، وإنما يطلبون الدنيا، وكل يحب أن يدعي رأسا)[٣].

وقد سئل الإمام مالك عن الرواية عن أخباريي الرافضة فقال: (لا تكلمهم، ولا ترو عنهم، فإنهم يكذبون)[٤].

وقال الإمام الشافعي: (ما من أهل الأهواء أشد بالزور من الرافضة وكان إذا ذكرهم عابهم أشد العيب)[٥].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد اتفق أهل العلم بالنقل والرواية والإسناد على أن الرافضة أكذب الطوائف، والكذب فيهم قديم؛ ولهذا كان أئمة الإسلام يعلمون امتيازهم بكثرة الكذب)[٦].

وكان المغيرة بن سعيد العجلي[٧] قد اشتهر في عصره، وعند علماء الرافضة بالكذب فقد رووا عن أبي الحسن الرضا رحمه الله[٨]أنه قال: (كان المغيرة بن سعد يكذب على أبي

---

(١) انظر الغدير لعبد الحسين الأميني٧/ ٧٠، والعقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط ص٣٦٩

(٢) انظر حقيقة البدعة وأحكامها لسعيد بن ناصر الغامدي٢/ ٨، وتبديد الظلام ص٣٢

(٣) معرفة أخبار الرجال ص٩٠، وانظر كسر الصنم ص١٧٦

(٤) رواه أبو حاتم الرازي، انظر منهاج السنة النبوية١/ ٦٠، ولمعرفة موقف الإمام مالك من الرافضة، انظر منهج الإمام مالك في العقيدة للدكتور سعود بن عبد العزيز الدعجان ص٤٩٠

(٥) الصواعق المحرقة للهيتمي ص٦٩، وانظر رسالة في الرد على الرافضة لأبي حامد المقدسي ص٢٠٠

(٦) منهاج السنة النبوية١/ ٥٨

(٧) هو أبو عبد الله المغيرة بن سعيد العجلي الرافضي الكذاب، كان يتنقص أبابكر وعمر رضي الله عنهما، وكان ساحرا منحرفا، حكى عنه الشعبي أنه كان يقول: لو أردت أن أفتي عادا وثمودا وقرونا بين ذلك كثيرا لفعلت، وبلغ أمره خالد بن عبد الله القسري فأمر بالقصب والنفط، ثم أجج نارا فأحرقه، ومن معه؛ وذلك في سنة ١١٩هـ انظر معرفة أخبار الرجال للكشي ص١٤٦، والمنتظم لابن الجوزي٧/ ١٩٣، والكامل لابن الأثير٤/ ٢٣٠، والنجوم الزاهرة١/ ٢٨٣، ولسان الميزان٦/ ٧٥

(٨) هو أبو الحسن علي بن موسى بن جعفر الملقب بالرضا ثامن الأئمة عند الرافضة، ولد بالمدينة سنة ١٥٣هـ =

جعفر رحمه الله تعالى فأذاقه الله حر الحديد)[1].

كما لعن الصادق زعيم المعمرية[2] معمر بن خيثم الشعيري[3]، وقال: (إنه شيطان ابن شيطان، خرج من البحر، فأوى أصحابي)[4].

كما لعن الصادق أيضا زرارة بن أعين -فيمن لعن من الغلاة - وذلك لما أظهر غلوه في الصادق، فتبرأ منه الصادق، ولعنه، ودعا عليه بقوله: (لا يموت زرارة إلا تائها)[5].
فكيف يستقيم لهؤلاء الضالين مذهب، ويثبت لهم اعتقاد؟ ما داموا يروون في كتبهم المعتبرة -عندهم- أشياء تناقض اعتقاداتهم، مصرحين بها في مقالاتهم، وما أسرع ما ينتقض مذهب يقوم في أساسه على الروايات المختلقة التي يرويها هؤلاء الكذابون المجروحون؟ وما أحسن ما قيل[6]: -

ما مشكل أن القيو د تكون غل الأرجل
إن القيود على العقو ل فذاك كل المشكل

والله تعالى أعلم.

= أحبه المأمون، وزوجه ابنته، وعهد إليه بالخلافة من بعده، وضرب اسمه على الدينار، والدرهم؛ لكنه مات في حياة المأمون بطوس سنة ٢٠٣هـ انظر ميزان الاعتدال٣/ ١٥٨، وتهذيب التهذيب٧/ ٣٨٦، والأعلام للزركلي٥/ ٢٦

(١) معرفة أخبار الرجال للكشي ص١٤٦

(٢) فرقة من غلاة الرافضة، انظر في شأنها فرق الشيعة للنوبختي ص٤٤، والمقالات والفرق للقمي ص٥٤، والملل والنحل١/ ١٨٠، ومختصر التحفة الاثني عشرية ض, ١٣

(٣) هو أبو بشار معمر بن خيثم الشعيري، وفي المقالات والفرق معمر بن الأحمر بياع الشعير، كان من جملة الغلاة الذين لعنهم الصادق فيمن لعن، انظر معرفة أخبار الرجال ص٢٥٢، ومقالات الإسلاميين١/ ٧٨، والمقالات والفرق ص٥٣

(٤) معرفة أخبار الرجال ص٢٥٢

(٥) معرفة أخبار الرجال ص٩٩، وانظر كسر الصنم ص١٩٣، والحجج الباهرة في إفحام الطائفة الكافرة الفاجرة للدواني ص٣٤٢

(٦) انظر الوشيعة في نقد عقائد الشيعة ص٢٣٢

الفصل الرابع

الواسطة بين الله وخلقه عند الصوفية وبيان شبهاتهم والرد عليهم

وفيه ستة مباحث:-

المبحث الأول: نظرة الصوفية للرسول صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثاني: مقام النبوة والولاية عند الصوفية.

المبحث الثالث: صورة الواسطة البدعية عندهم في الأحياء.

المبحث الرابع: صورة الواسطة البدعية عندهم في الأموات.

المبحث الخامس: نظرة الصوفية لشيوخهم «وسائطهم».

المبحث السادس: بيان شبهات الصوفية والرد عليها.

المبحث الأول

نظرة الصوفية للرسول صلى الله عليه وسلم

لقد حصل الغلو الزائد في الرسول ﷺ عند الصوفية بسبب كونهم نظروا إلى جانب التعظيم للنبي ﷺ وأهملوا جانب التوحيد وسد الذرائع المفضية إلى الشرك، فنظروا نظرة جزئية قاصرة لنصوص الشرع دون جمع النصوص بعضها إلى بعض حتى تكتمل الصورة، وتتم النظرة، ومن ثم يصح الحكم؛ لكن الصوفية بحكم جهلهم بمقاصد الشريعة في هذا الباب وعدم التقيد بالكتاب والسنة في الورود، والصدور مع غلبة الهوى، والبعد عن نور الوحي وقعوا في هذا الغلو المنهي عنه، وهذا هو السبب الذي أوقعهم وأوقع أهل الأهواء عموما فيما وقعوا فيه[1]، فجعلوه واسطة في الدعاء والالتجاء، ثم تفاقم عندهم الغلو حتى دعوه من دون الله تعالى فجعلوه واسطة في الدعاء والالتجاء.

يقول الإمام الشاطبي: (ومدار الغلط في هذا الفصل إنما هو على حرف واحد، وهو الجهل بمقاصد الشرع، وعدم ضم أطرافه بعضها لبعض؛ فإن مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هو على أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها، وجزئياتها المترتبة عليها، وعامها المترتب على خاصها، ومطلقها المحمول على مقيدها، ومجملها المفسر بينها إلى ما سوى ذلك من مناحيها. . . فشأن الراسخين تصور الشريعة صورة واحدة يخدم بعضها بعضا كأعضاء الإنسان، وشأن متبعي المتشابهات أخذ دليل ما، أي دليل كان عفوا، وأخذا أوليا، وإن كان ثم ما يعارضه من كلي، أو جزئي، فكان العضو الواحد لا يعطي في مفهوم الشريعة حكما حقيقيا، فمتبعه متبع متشابه، ولا يتبعه إلا من في قلبه زيغ كما شهد الله به: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾[2][3]

وبما أن نظرة الصوفية للرسول ﷺ خرجت بها عن حدود الشريعة وذهبت بها مذاهب شتى من الغلو الزائد الذي يطفح بعبارات الكفر، ومعاني الزندقة؛ إلا أننا سنجمل تلك النظرة في النقاط التالية: -

أولا: ما يسمى بالحقيقة المحمدية: وهي أكذوبة من أكاذيب الصوفية تصادم الشرع، والعقل معا، وقالوا بها لتبرير ما زعموه من وساطة النبي في الدعاء والعبادة، ومؤداها:

---

(١) انظر محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع ص١٥٢

(٢) سورة النساء الآية ١٢٢ (٣) الاعتصام ١/ ٢٤٤

(أن الله سبحانه وتعالى عما يصفون عند ما أراد أن يجعل قسما من ذاته متعينا بشكل مخلوقات، كان أول شيء فعله هو أنه قبض قبضة من نور وجهه، وقال لها: كوني محمدا، فكان محمد هو أول التعينات، وهذه القبضة من النور هي التي يطلقون عليها اسم (الذات المحمدية) ومن هذه الذات المحمدية انبثقت السماوات والأرض والدنيا والآخرة التي يسمونها فيما يسمونها (تعينات) فهي كلها تصدر عن الذات المحمدية، ثم تعود إليها، وهذا هو ما يسمونه (الحقيقة المحمدية)[1].

يقول قائل منهم عن هذه الأكذوبة: (اعلم أنه لما تعلقت إرادة الحق تعالى بإيجاد خلقه أبرز الحقيقة المحمدية من أنواره ثم سلخ منها العوالم كلها، علوها، وسفلها، ثم أعلمه بنبوته . . .ثم انبجست منه صلى الله عليه وسلم عيون الأرواح، فهو الجنس العالي على جميع الأجناس، والأب الأكبر لجميع الموجودات، ولما انتهى الزمان بالاسم الباطن في حقه ﷺ إلى وجود جسمه، وارتباط الروح به انتقل حكم الزمان إلى الاسم الظاهر، وظهر محمد ﷺ بكليته جسما وروحا)[2].

ويصرح الحلاج بالمراد بالحقيقة المحمدية في قوله: (طس، سراج من نور الغيب بدا، وعاد، وجاوز السراج، وساد. . . ما أخبر إلا عن بصيرته، ولا أمر بسنته إلا عن حق سيرته، حضر فأحضر، وأبصر فخبرا أسرار النبوة من نوره برزت، وأنوارهم من نوره ظهرت، وليس في الأنوار نور أنور، وأظهر، وأقدم من القدم سوى نور صاحب الكرم. . . همته سبقت الهمم، ووجوده سبق العدم، واسمه سبق القلم؛ لأنه كان قبل الأمم، ما كان في الآفاق، وراء الآفاق، ودون الآفاق أظرف وأشرف، وأعرف، وأنصف، وأرأف، وأخوف، وأعطف من صاحب هذه القضية، وهو سيد البرية الذي اسمه أحمد، ونعته أوحد، وأمره أوكد، وذاته أوجد، وصفته أمجد، وهمته أفرد. . . يا عجبا ما أظهره، وأنظره، وأكبره، وأشهره، وأنوره، وأقدره، وأبصره، لم يزل كان مشهورا قبل الحوادث، والكوائن، والأكوان، ولم يزل كان مذكورا قبل القبل، وبعد البعد، والجواهر، والألوان. . . هو الدليل، وهو المدلول. . . بالحق موصول غير مفصول، ولا

---

(١) الكشف عن حقيقة الصوفية لمحمود القاسم ص ٢٨٠، وانظر هذه هي الصوفية لعبد الرحمن الوكيل ص٧٤، والفكر الصوفي لعبد الرحمن عبد الخالق ص١١٦

(٢) الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ليوسف النبهاني ص٩

خارج عن المعقول . . العلوم كلها قطرة من بحره . . . . والأزمان كلها ساعة من دهره ، الحق ، وبه الحقيقة ، هو الأول في الوصلة ، وهو الآخر في النبوة ، والباطن بالحقيقة ، والظاهر بالمعرفة . . . . الحق ما أسلمه إلى خلقه ؛ لأنه هو ، وإني هو ، وهو هو . . .)[1] .

فهذا النص يدور حول النور المحمدي ، وأنه هو المصدر الأول للمخلوقات العلوية ، والسفلية ، وأن كل نبي ، أو رسول قبل النبي ﷺ ، وكل ولي من الأولياء بعده قد استمد من هذا النور المحمدي ، ويؤكد الحلاج كما هو واضح من هذا النص قدم وجود النبي ﷺ وأنه سبق وجود جميع ما في هذا الكون ، وبناء على نظرة الحلاج هذه للرسول ﷺ فإننا نجد في كلامه ما يفهم منه إنكار الوحي ؛ حيث زعم أن الرسول ﷺ جاء بالرسالة من ذاته ، وأخبر بها عن بصيرته (فهو الدليل وهو المدلول)[2] .

(فالحلاج ومن تابعه من الحلوليين يرون أن محمدا ﷺ هو المظهر الذي حل فيه الإله أو الناسوت الذي حل فيه اللاهوت ، ولم يكن هذا الحلول خاصا بالرسول ؛ بل تعدى إلى الأولياء من بعده ، وهذا كفر أشنع من كفر النصارى ؛ لأن النصارى خصوا الحلول بعيسى ، أما الحلاج فقد عممه في الأنبياء ، والأولياء على السواء)[3] .

ويعتبر الحلاج أول صوفي غلا في الرسول ﷺ بما يخرجه عن حقيقة البشرية ، وذلك انطلاقا من مذهبه في الحلول ، وتبعه في هذا الغلو وهذه الخرافة ابن عربي الطائي الذي بنى للصوفية من بعده مذهبهم الصوفي الفلسفي المصادم لكثير مما جاء به الرسول ﷺ في رسالته السماوية الخالدة . فقال بأزلية محمد ﷺ أو بعبارة أخرى بأزلية النور المحمدي (فالحقيقة المحمدية) أو (النور المحمدي) أو (الكلمة المحمدية) وهذا هو تعبير ابن عربي الصوفي عنها في فصوص الحكم[4] فهو لا يقصد بذلك محمدا الرسول عليه الصلاة والسلام وإنما يقصد الحقيقة المحمدية التي يعدها أكبر مجلى خلقي ظهر فيه الحق ؛ بل يعده الإنسان الكامل ، والخليقة الكامل بأخص معانيه ، ويرى أنه قد انفرد بأنه مجلى للأسماء ، والصفات ، وهو الاسم الأعظم الذي هو الله)[5] .

---

(١) أخبار الحلاج ص ٨٢ نقلا عن الكشف عن حقيقة الصوفية ص٢٦٣

(٢) انظر محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع ص١٧٣

(٣) محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع ص١٧٤ ، وانظر التصوف بين الحق والخلق لمحمد شقفة ص٧٧

(٤) ص ٢١٤ (٥) انظر التعليقات على فصوص الحكم لأبي العلا عفيفي ص٣١٩

ويبدو أن في هذا الوصف الإجمالي لما يسميه ابن عربي (الكلمة المحمدية) أو (الحقيقة المحمدية) عناصر مختلفة مستمدة من الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، والفلسفة المسيحية، واليهودية، مضافا إلى ذلك بعض أفكار من مذهب الإسماعيلية الباطنية، والقرامطة، فمزج جميع تلك العناصر على طريقته الخاصة، فضيع بذلك معالم الأصول التي أخذ عنها، وخرج على العالم بنظرية في طبيعة الحقيقة المحمدية، لا تقل في خطرها، وأهميتها في تاريخ الأديان عن النظريات التي وضعها المسيحيون في طبيعة المسيح، أو النظريات اليهودية، أو الرواقية، أو اليونانية)[١].

ولهذا نجد غلاة الصوفية يعرفون الحقيقة المحمدية بأنها (هي الذات مع التعين الأول، وهو الاسم الأعظم)[٢].

ويرى بعض التجانية أن الحقيقة المحمدية في حقيقة أمرها لا تدرك، ولا تعقل[٣].

ويقول صوفي آخر: (اعلم أن أنوار المكونات كلها من عرش، وفرش، وسماوات، وأرضين، وجنان، وحجب، وما فوقها، وما تحتها، إذا جمعت كلها وجدت بعضا من نور النبي، وأن مجموع نوره لو وضع على العرش لذاب، ولو وضع على الحجب السبعين التي فوق العرش لتهافتت، ولو جمعت المخلوقات كلها، ووضع ذلك النور العظيم عليها لتهافتت، وتساقطت)[٤].

ويقول صوفي آخر من الطريقة التجانية: (لما خلق النور المحمدي جمع في هذا النور المحمدي جميع أرواح الأنبياء، والأولياء جميعا جمعا أحديا، قبل التفصيل في الوجود العيني؛ وذلك في مرتبة العقل الأول)[٥].

فنظرة الصوفية للرسول ﷺ من هذا الجانب تتمثل في كونه (عين الوجود وواسطة عقده، أخذ من أنوار الحق تعالى بقدر صفوه، فالآخذ من الله تعالى بواسطته صلى الله عليه وسلم ولله المثل الأعلى ولرسوله في القوى كآخذ الضوء من الشمس بواسطة

---

(١) المرجع السابق ص٣٢١

(٢) التعريفات للجرجاني ص١٢٢، وانظر المراد بلفظ النور في معجم ألفاظ الصوفية لحسن الشرقاوي ص٢٧٦

(٣) انظر ميزاب الرحمة الربانية ص١٠٨

(٤) الإبريز للدباغ ص٢٧٢، وانظر جواهر المعاني ٢/ ٢٣٣

(٥) رماح حزب الرجيم ١/ ١٤، وانظر بغية المستفيد ص٢٢٥، وانظر الرد عليهم في التجانية للدكتور علي بن محمد آل دخيل الله ص١٦٤



الزجاجة، وهذا تشريف لهذه الأمة، وأي تشريف؛ لأنهم الآخذون بواسطته، والآخذ من الله تعالى من غير واسطته صلى الله عليه وسلم كآخذ الشيء من الشمس من دون واسطة الزجاجة، وذلك لأن الرسول ﷺ هو النور الذي قبضه الله من قبضة نوره. . . . والحق تعالى هو سمعه، وبصره، وقلبه إلى آخره، فكله ﷺ نور مع أنه متحيز في بشريته، وفي عبوديته، والحق تعالى مطلق في كبريائه، وفي ملكوته، فلرسول الله ﷺ وجهتان وجهة إلى الحق تعالى، وهو المقام الذي قال تعالى فيه: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[1] فأعاد الضمير بصيغة الإفراد. . . فهو ﷺ أقرب الكون إلى الله؛ بل فوق العرش الحجب سبعون حجابا ما بين كل حجاب وحجاب مسافة سبعين ألف سنة، وغلظ كل حجاب سبعون ألف سنة، وفوق ذلك فضاء لا يعلم قدر مسافته إلا الله سبحانه وتعالى، وهو الذي يقال له عالم الرقا، وهو مظاهر أسماء الله، وهو فوق العرش، والكرسي، ووراء هذا كله نور سيد الكونين، والثقلين. . وله ﷺ وجهة إلى الخلق. . . وجعله المرسل، والمرسل إليه. . . فهو ﷺ حقيقة الكون، كما أن الشجرة لها ورق، وغصون، وفروع، وعروق، وجذوع، وزهر، وثمر، وحقيقة الكل شجرة. . . فمن صفا قلبه من أمته ﷺ وتوجه به إلى الله بواسطة رسول الله (تفجر من قلبه ينابيع الحكمة، وأخذ قلبه أنوار العلم الإلهي، فقوي بقوة قابلية الواسطة ﷺ)[2]

ويقول شاعرهم -مدعيا أن النبي ﷺ خلق من نور رب العالمين، وأنه وجد قبل خلق آدم عليه السلام، وأن الأشياء خلقت منه[3]: -

أنشاك نورا ساطعا قبل الورى … فردا لفرد والبرية في عدم

ثم استمد جميع مخلوقاته … من نورك السامي فيا عظم الكرم

فلذا إليك الخلق تفزع كلهم … في هذه الدنيا وفي اليوم الأهم

وإذا دهتهم كربة فرجتها … حتى سوى العقلاء في ذاك انتظم

ومن صلواتهم المشهورة ما ذكره صاحب دلائل الخيرات من قوله: (اللهم صل على

(١) سورة التوبة الآية ٦٢

(٢) العقد النفيس في نظم جواهر التدريس لأحمد بن إدريس المغربي ص١٨٦ وما بعدها (بتصرف).

(٣) دلائل الخيرات ص٨٧



سيدنا محمد بحر أنوارك. . إنسان عين الوجود، والسبب في كل موجود، عين أعيان خلقك المتقدم من نور ضيائك. . .)[1]، وقوله: (اللهم صل على سيدنا محمد نور الذات وسره الساري في جميع الأسماء والصفات)[2].

ويقولون أيضا شعرا[3]: -

محمد رويت بالنور طينته محمد لم يزل نورا من القدم

ويقول عبدالسلام ابن مشيش[4] -في صلاته المعروفة عند الطريقة الشاذلية (بالصلاة المشيشية) (اللهم صل على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقائق وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق، وله تضائلت الفهوم، فلم يدركه منا سابق، ولا لاحق، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة، ولا شيء إلا وهو به منوط؛ إذ لولا الواسطة لذهب -كما قيل الموسوط. . . اللهم إنه سرك الجامع الدال عليك، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك. . .)[5].

ويقولون في صلاة أخرى: (اللهم إني أسألك بنير هدايتك الأعظم، وسر إرادتك المكنون من نورك المطلسم، مختارك منك لك، قبل كل شيء، نورك المجرد بين مسالك اللقى، كنزك الذي لم يحط به سواك، وأشرف خلقك الذي بحكم إرادتك كونت من نوره أجرام الأفلاك، وهياكل الأملاك فطافت به الصافون حول عرشك تعظيما وتكريما)[6].

ونتج عن ادعاء الصوفية هذا أن أصل مادة النبي ﷺ التي خلق منها نور نتج عن هذا الغلو زعمهم أنه ﷺ لم يكن له ظل في شمس، ولا قمر، وعلل كثير منهم -متقدمون

---

(١) دلائل الخيرات ص٩٩ (٢) المرجع نفسه ص٢١٤

(٣) انظر أنوار الحق في الصلاة على سيد الخلق لعبد المقصود سالم ص٨٢

(٤) هو أبو محمد عبدالسلام بن مشيش - قيل في ضبط اسم أبيه بشيش بالموحدة، ثم اشتهر بمشيش بالميم انظر الأعلام للزركلي ٤/ ٩ - بن أبي بكر بن منصورة بن علي الإدريسي الحسني، تخرج على يده أبو الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية، صوفي مغربي اشتهر برسالته ((الصلاة المشيشية)) وفيها غلو زائد في حق الرسول r، وقد احتفت بها الصوفية، وشرحها كثير منهم، ولد بثغر تطوان، وقتل فيه على يد أحد السحرة سنة ٦٢٢هـ. انظر جامع كرامات الأولياء ٢/ ٦٩، والنبوغ المغربي لعبدالله كنون ١/ ١٦٠، والأعلام للزركلي ٤/ ٩

(٥) دلائل الخيرات ص٢٥٩، وانظر شرحها بإعظام وإكرام وتزويق وتنميق في الإبريز ص٢٦٨ وما بعدها، وانظر الرد عليها في الكشف عن حقيقة الصوفية ص٢٦٥، والتصوف في ميزان البحث والتحقيق لعبد القادر السندي ص٤١٠

(٦) نقل هذه الصلاة النبهاني عن سيدي محمد البكري في شواهد الحق ص٣٤٦



ومتأخرون- ذلك بأن الأنوار الشفافة لا يكون لها ظل، ونجد التصريح بهذا المعتقد الباطل جليا عند طائفة البريلوية التي صنف إمامها عدة كتب أصل فيها هذه النظرة الغالية في حق الرسول ﷺ وأنه نور لا بشر، ولا ظليل، وأنه جسم شفاف، ومن تلك الكتب[١]: -

١- قمر التمام في نفي الظل عن سيد الأنام ﷺ.

٢- وصلاة الصفا في نور المصطفى ﷺ الذي يقول فيه: (اللهم لك الحمد يا نور، يا نور النور، يا نور قبل كل نور، ونور بعد كل نور، يا من له النور، وبه النور، ومنه النور، وإليه النور، وهو النور، صل وسلم، وبارك على نورك المنير الذي خلقته من نورك، وخلقت من نوره الخلق جميعا)[٢].

فالنبي ﷺ في نظر البريلوية نور كله وجميع أعضائه نور، وليس له ظل؛ لأن النور لا يوجد له ظل[٣].

ولغلاة الصوفية المدافعين عن هذه النظرة الغالية في حق نبينا محمد ﷺ روايات لأحاديث يستدلون بها على تقدمه على الكون في الخلق، وكونه مخلوقا من نور إلى غير ذلك من الخرافات التي مرت الإشارة إليها، وكل تلك الروايات كذب واضح على صاحب الرسالة ﷺ، فمن الغلاة من ينسب إلى النبي ﷺ أنه قال: (من قال إني كلي بشر فقد كفر، ومن قال: (لست ببشر فقد كفر)، وهذا الحديث كذب باتفاق أهل العلم بالحديث[٤].

وكذلك قولهم إنه عليه الصلاة والسلام قال: (كنت نبيا، ولا آدم، ولا ماء ولا طين)[٥].

وهذا الحديث أيضا لا أصل له كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٦]، ومما قاله في رده: (هذا مما لا أصل له، لا من نقل، ولا من عقل؛ فإن أحدا من المحدثين لم

---

(١) انظر جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية٢/ ٧١٩

(٢) صلاة الصفا ص٣ نقلا عن جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية٢/ ٧٢٠

(٣) انظر نفي الفيء للبريلوي ص٦ نقلا عن جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية٢/ ٧٢١

(٤) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح٢/ ٢٠١

(٥) فصوص الحكم لابن عربي الصوفي ص٦٤

(٦) انظر الرد على البكري ص٩، ومجموع الفتاوى٢/ ٢٣٨



يذكره، ومعناه باطل؛ فإن آدم لم يكن بين الماء والطين قط؛ فإن الطين ماء، وتراب، وإنما كان بين الروح، والجسد، ثم هؤلاء الضلال يتوهمون أن النبي ﷺ كان حينئذ موجودا، وأن ذاته خلقت قبل الذوات، ويستشهدون على ذلك بأحاديث مفتراة مثل حديث فيه (أنه كان نورا حول العرش فقال: يا جبريل، أنا كنت ذلك النور)[(١)].

ومن تلك الروايات حديث: (كنت أول النبيين في الخلق، وآخرهم في البعث، فبدئي قبلهم)[(٢)].

ومنها حديث النور المنسوب إلى مصنف عبد الرزاق عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل الأشياء؟ قال: (يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى، ولم يكن في ذلك الوقت لوح، ولا قلم، ولا جنة، ولا نار، ولا ملك، ولا سماء، ولا أرض، ولا شمس، ولا قمر، ولا جني، ولا إنسي، فلما أراد أن يخلق الخلق قسم ذلك النور **أربعة أجزاء**:-

١- فخلق من الجزء الأول: القلم. ٢- ومن الثاني: اللوح.

٣- ومن الثالث: العرش. ٤- ثم قسم الجزء الرابع **أربعة أجزاء**.

(أ) فخلق من الجزء الأول: حملة العرش. (ب) ومن الثاني: الكرسي.

(ج) ومن الثالث: باقي الملائكة. (د) ثم قسم الجزء الرابع **أربعة أجزاء**:

١- فخلق من الأول: السماوات. ٢- ومن الثاني: الأرضين.

٣- ومن الثالث: الجنة والنار. ٤- ثم قسم الرابع أربعة أجزاء: -

(أ) فخلق من الأول: أبصار المؤمنين.

(ب) ومن الثاني نور قلوبهم، وهي المعرفة بالله تعالى.

(ج) ومن الثالث: نور أنسهم، وهو التوحيد، لا إله إلا الله محمد رسول الله)[(٣)].

---

(١) الرد على البكري ص٩، ومجموع الفتاوى٢/ ٢٣٨٨

(٢) وهذا الحديث منكر الإسناد والمتن معا أيضا. انظر السلسلة الضعيفة٢/ ١١٥

(٣) الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص١٣، وهذا الحديث مكذوب لا أصل له، وينسب كذبا إلى مصنف عبد الرزاق كما أنه لا يوجد في كتب السنة المعتمدة. انظر رسالة تنبيه الحذاق على بطلان ما شاع بين الأنام من حديث النور المنسوب لمصنف عبد الرزاق لمحمد أحمد عبد القادر الشنقيطي، وانظر كشف الخفاء للعجلوني١/ ١١٣



وتفرع عن هذه النظرة الغالية للرسول ﷺ وأنه خلق من نور أن بعض الصوفية يرى أنه مرسل إلى الملائكة النورانيين واسطة من الله تعالى إليهم.

يقول علي الخواص: (وهل الأمر للملائكة بواسطة رسول أم من الله بلا واسطة؟ الذي أعطاه الكشف أن ذلك بواسطة رسول الله ﷺ لعموم رسالته في عالم الأرواح، وعالم الأجسام، فأرسل إلى ملائكة السماوات بالأمر فقط، وإلى ملائكة الأرض بالأمر والنهي كالثقلين)[١].

وبعد أن رأينا ما يحتج به الصوفية لبيان (الحقيقة المحمدية) والتأكيد على أزلية النور المحمدي يتبدى لنا أن هذه الروايات كلها ساقطة، وأنه لا زمام لهذا المذهب، ولا خطام لهذه النظرة الغالية في حق خاتم النبيين ﷺ والمخالفة لنصوص الكتاب والسنة التي بينت بوضوح الأصل الذي خلق منه الإنسان والجان، فقال تعالى: ﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ**﴾[٢]، كما أنها أكدت بأساليب لم تدع مجالا لسريان الغلو في العقيدة على أن النبي ﷺ بشر خلق مما خلق منه باقي البشر، قال تعالى: ﴿**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً**﴾[٣] إلى غير ذلك من الآيات المحكمة، والأحاديث الثابتة[٤].

ونحن حين ننفي ما تدعيه الصوفية من أن محمدا ﷺ نور ليس معنى ذلك أننا نعارض ما جاء في القرآن الكريم من وصفه ﷺ بأنه نور، كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا** ﴾[٥]، وقال تعالى في الآية الأخرى مخاطبا أهل الكتاب: ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**﴾[٦]

قال الإمام ابن جرير في تفسير هذه الآية: (يقول جل شأنه لهؤلاء الذين خاطبهم من أهل الكتاب: قد جاءكم يا أهل التوراة، والإنجيل من الله نور؛ يعني بالنور محمدا ﷺ الذي أنار الله به الحق، وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرك، فهو نور لمن استنار به، يبين الحق)[٧].

---

(١) الجواهر والدرر مطبوع بهامش الإبريز ص١٩٢
(٢) سورة الرحمن الآيتان (١٤-١٥).
(٣) سورة الإسراء الآية ٩٣
(٤) راجع ما سبقت مناقشته في مبحث الحكمة في كون الواسطة من البشر.
(٥) سورة الأحزاب الآيتان (٤٥- ٤٦).
(٦) سورة المائدة الآية ١٥
(٧) تفسير الطبري٤/ ١٠٤ على أن هناك من العلماء من يرى أن قوله تعالى ﴿نور﴾ في هذه الآية هو وصف للقرآن الكريم. انظر تفسير ابن كثير٢/ ٣٥، وتفسير السعدي٢/ ١٢٦

فنبينا صلى الله عليه وسلم نور كما وصفه القرآن بذلك، ورسالته التي بعثه الله بها نور يبدد ظلام المعمورة، فهو صلى الله عليه وسلم هاد لمن اتبعه منير له طريق الهداية ومضيء له سبيل الرشاد بإذن ربه[١]، وهذا المعنى هو الذي قصده الشاعر كعب بن زهير رضي الله عنه في قوله بحضور النبي صلى الله عليه وسلم[٢]: -

إن الرسول لسيف يستضاء به　　　مهند من سيوف الله مسلول

فالنبي ﷺ نور بالمعنى القرآني؛ لا كما تزعم الصوفية بالنور الخرافي المصادم لحقيقته البشرية.

ثانيا: اعتقادهم أن الكون خلق من أجل النبي ﷺ وهذا الاعتقاد حصل نتيجة لنظرتهم السابقة للرسول ﷺ فكما أنه صلى الله عليه وسلم -في نظرهم- قبضة من نور الله، وأنه أسبق الكون وجودا، وأن مظاهر هذا الكون بأجمعها انبجست من نوره عليه الصلاة والسلام بعد التعين، فالنتيجة أن الله سبحانه وتعالى خلق هذاالكون من أجل محمد ﷺ، ولولا محمد ﷺ ما خلقت الدنيا، ولا دحيت أرض، ولا رفعت سماء، ولا أضاءت شمس، ولا قمر، ولا خلق الله بشرا، ولا بعث إليهم رسلا، ولا أنزل وحيا[٣]، فإذن يجب طلب المدد من النبي ﷺ؛ لأنه الواسطة والأصل الذي يستمد منه، واسمع إلى شاعرهم يقول[٤]: -

لولاه ما خلقت شمس ولا قمر　　　ولا نجوم ولا لوح ولا قلم

ويقول آخر من فصيلته وعلى شاكلته[٥]: -

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من　　　لولاه لم تخرج الدنيا من العدم؟!

ويقول أيضا[٦]: -

فإن من جودك الدنيا وضرتها　　　ومن علومك علم اللوح والقلم

ويستدل هؤلاء الغلاة على معتقدهم الفاسد في النبي ﷺ بأحاديث موضوعة، وأخبار

---

(١) انظر محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع ص١٩١
(٢) انظر قصيدة البردة لكعب بن زهير رضي الله عنه شرح ابن الأنباري ص٧٨
(٣) انظر جواهر البحار في فضائل النبي المختار للنبهاني٣/ ٣٠٤
(٤) ذكره عنهم صاحب تنبيه الحذاق ص٢٧
(٥) انظر ديوان البوصيري ص٢٤٠
(٦) انظر قصيدة البردة في آخر كتاب دلائل الخيرات ص٢٦١

مكذوبة منها حديث: (لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك) وهو حديث موضوع[١].

وأمثال هذا الحديث من الأحاديث الموضوعة لا يعول عليها، ولا يستند عاقل في معتقده عليها مع العلم أنها مصادمة للشرع، ومخالفة للعقل؛ لأن الذي تدل عليه النصوص الشرعية من الكتاب والسنة أن الله عز وجل إنما خلق خلقه إنسه وجنه لغاية ذكرها في القرآن الكريم، وهي العبادة، فقال تعالى: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾**[٢]

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (معنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب)[٣].
وقال تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾**[٤]، فصرح الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة بالحكمة من خلق الخليقة أولا، وبعثهم ثانيا، وهي امتحانهم، وابتلاؤهم ليميز المحسن فيجازى بإحسانه، ويتبين المسيء فيؤاخذ بإساءته[٥].

ومن غلوهم الزائد في الرسول ﷺ ادعاؤهم أنه كان لا ينام كقول بعضهم[٦]: -

قم قم يا حبيبي كم تنام   خالق الخلق لا ينام

قم قم يا حبيبي كم تنام   محمد رسول الله لا ينام

ثالثا: دعواهم جواز صرف شيء من أنواع العبادة له ﷺ[٧]. وقد تفنن الغلاة في هذه النظرة، فمن قائل إنه يستغاث به في كل ما يستغاث فيه بالخالق جل وعلا؛ بمعنى أنه يطلب منه كما يطلب من الخالق (ومن جعل الرسول ﷺ يطلب منه الناس ما يطلبونه من الله تعالى فقد آذى الرسول ﷺ وأساء في حقه، وسلط عليه العامة على اختلاف أغراضهم؛ هذا يطلب منه إنزال المطر، وهذا يطلب منه غفران الذنوب، وهذا يطلب منه النصر على

---

(١) انظر الأحاديث الموضوعة للصغاني ص٧، وكشف الخفاء٢/ ٢٢٢، والفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني ص٣٢٦، وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني برقم ٢٨٢
(٢) سورة الذاريات الآية ٥٦
(٣) تفسير ابن كثير٤/ ٢٥٥، وانظر تفسير الشيخ السعدي٨/ ٣٠
(٤) سورة هود الآية ٧   (٥) انظر أضواء البيان٣/ ١٠
(٦) انظر الوظائف كتاب أدعية وسور قرآنية لمحمدي آبيري البنجلاديشي ص٩٦
(٧) وهذا الاعتقاد نتيجة لما سبق من ادعائهم أنه ﷺ نور قبضه الله من نوره، وأن الموجودات خلقت من نوره ﷺ، وأن هذا الكون بمظاهره خلق من أجله، فهو الواسطة الذي يجب التعلق به، والاستنجاد به، والاستمداد منه.



الأعداء، وهذا يطلب منه أن يتزوج، وهذا يطلب منه الولد، وهذا يطلب منه المعيشة، وهذا يطلب منه الملك، وهذا يطلب منه الولاية... وهذا يطلب منه قضاء دينه.... فنزلوا المخلوق منزلة الإله، وطلبوا منه من جلب المنافع، ودفع المضار ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى)[١].

يقول البوصيري[٢] في البردة التي يترنم بها الملايين في العالم الإسلامي[٣]: -

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

ولن يضيق رسول الله جاهك بي إذا الكريم تجلى باسم منتقم

فإن لي ذمة منه بتسميتي محمدا وهو أوفى الخلق بالذمم

إن لم يكن في معادي آخذا بيدي فضلا وإلا فقل يا زلة القدم

فنفى أن يكون له ملاذ إذا حلت به مصيبة إلا النبي ﷺ وليس ذلك إلا لله وحده لا شريك له، فهو الذي ليس للعباد ملاذ إلا إياه، وهذا في حقيقة الأمر شرك في الألوهية[٤].

ومن شعر بعضهم قوله[٥]: -

ما ذا تعامل يا شمس النبوة من أضحى إليك من الأشواق في كبد

فامنع جناب صريع لا صريخ له ناء المزار غريب الدار مبتعد

حليف ودك واه الصبر منتظر لغارة منك يا ركني ويا عضدي

أسير ذنبي وزلاتي ولا عمل أرجو النجاة به إن أنت لم تجد

ثم تراكم الغلو في قلبه حتى طفح على لسانه فقال: -

وحل عقدة كربي يا محمد من هم على خطرات القلب مطرد

---

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة ٢/ ٦٤٦

(٢) هو أبو عبدالله محمد بن سعيد بن حماد بن محسن الصنهاجي البوصيري، صوفي ناظم من مصنفاته ((قصيدة الكواكب الدرية في مدح خير البرية)) المعروفة بالبردة، توفي سنة ٦٩٤هـ، انظر شذرات الذهب ٥/ ٤٢٨، ومعجم المؤلفين ١٠/ ٢٨

(٣) انظر قصيدة البردة مطبوعة في آخر كتاب دلائل الخيرات ٢٦١

(٤) انظر تيسير العزيز الحميد ص٢٢٢، وصيانة الإنسان ص٨٥، وتقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ٢/ ١٥

(٥) انظر ديوان البرعي ص١٤٦ .



أرجوك في سكرات الموت تشهدني كيما يهون إذا الأنفاس في صعد

وإن نزلت ضريحا لا أنيس بـه فكن أنيس وحيد فيه منفرد

وارحم مؤلفها عبد الرحيم ومن يليه من أجله وانعشه وافتقد

وإن دعا فأجبه واحم جانبه من حاسد شامت أو ظالم نكد

وقال من قصيدة أخرى[١]: -

يا سيدي يا رسول الله يا أملي ويا موئلي يا ملاذي يوم يلقاني

هبني بجاهك ما قدمت من زلل جودا ورجح بفضل منك ميزاني

واسمع دعائي واكشف ما يساورني من الخطوب ونفس كل أحزاني

فأنت أقرب من ترجى عواطفه عندي وإن بعدت داري وأوطاني

إني دعوتك من نا بتي بسرع وأنت أسمع من يدعوه ذو شان

فامنع جنابي وأكرمني وصل نسبي برحمة وكرامات وغفران

ويقول البكري من قصيدة له[٢]: -

ما أرسل الرحمن أو يرسل من رحمة تصعد أو تنزل

في ملكوت الله أو ملكه من كل ما يختص أو يشمل

إلا وطه المصطفى عبده نبيه مختاره المرسل

واسطة فيها وأصل لها يعلم هذا كل من يعقل

ولذ به في كل ما ترتجي فإنه المأمن والمعقل

وناده إن أزمة أنشبت أظفارها واستحكم المعضل

يا أكرم الخلق على ربه وخير من فيهم به يسأل

قد مسني الكرب وكم مرة فرجت كربا بعضه يعضل

فبالذي خصك بين الورى برتبة عنها العلا تنزل

---

(١) انظر ديوان البرعي

(٢) انظر شواهد الحق ص٣٨٩، وأورد هذه القصيدة محمد بن علوي المالكي في الذخائر المحمدية١/ ١٥٨ وقال إنها مجربة لقضاء الحوائج وتقرأ آخر الليل مكرر البيت الأخير ثلاثا وسبعين مرة، نقلا عن محبة الرسول بين الاتباع والابتداع ص١٩٩



عجل بإذهاب الذي أشتكي　　فإن توقفت فمن أسأل

وهذه النظرة الغالية غالبا ما توجد في أشعار المادحين لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم[1] الذين جاوزوا الحد في مدحه عليه الصلاة والسلام وعصوه في نهيه من الغلو فيه، وإطرائه كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، وصار حظهم منه صلى الله عليه وسلم هو مدحه بالأشعار والتغني بالقصائد الغالية، والإطراء الزائد مع عصيانهم له في أمره، ونهيه[1]، وهذا بعينه هو الذي ادعته النصارى في عيسى عليه السلام؛ إلا أن أولئك أطلقوا عليه اسم الإله، وهؤلاء لم يطلقوه عليه؛ لكنهم أتوا بلباب نظرتهم، وخلاصتها، وتركوا الاسم؛ إذ في الاسم نوع تمييز، فرأى الشيطان أن الإتيان بالمعنى دون الاسم أقرب إلى ترويج الباطل، وقبوله عند ذوي العقول السخيفة؛ إذ كان متقررا عند أمة محمد ﷺ أن دعوى النصارى في عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام كفر، فلو أتاهم بدعوى النصارى اسما ومعنى لردوه، وأنكروه، فأخذ المعنى، وأعطاه هؤلاء الشعراء، وترك الاسم للنصارى، وإلا فما ندري ماذا أبقى هؤلاء الشعراء بهذا الغلو الزائد للخالق تعالى وتقدس من سؤال مطلب، أو تحصيل مأرب، فالله المستعان[2].

وينقل النبهاني عن أحد شيوخه أنه سئل عن الاستغاثة بالأنبياء، والأولياء فقال: (ربما جعل الله تبارك وتعالى لهم التصريف في قبورهم بحسب صدق من توجه إليهم... وقد استدارت أبواب جميع الأولياء رضي الله تعالى عنهم لتغلق، وما بقي مفتوحا إلا باب سيد المرسلين ﷺ وزاده فضلا، وشرفا لديه، فمن كان له حاجة فليصل على النبي ﷺ ألف مرة بتوجه تام يسأله في قضاء حاجة؛ فإنها تقضى إن شاء الله تعالى)[3].

ويقول صاحب المواهب اللدنية: (وينبغي للزائر أن يكثر من الدعاء، والتضرع، والاستغاثة، والتشفع، والتوسل، والتوجه به صلى الله عليه وسلم فجدير بمن استشفع به أن يشفعه الله تعالى فيه؛ فإن كلا من الاستغاثة، والتوسل، والتشفع، والتوجه للنبي (... واقع في كل حال قبل خلقه، وبعده، في مدة حياته في الدنيا، وبعد موته في مدة

---

(١) ومن أراد أن يقف على كومة من هذا الغلو المرفوض شرعا فلينظر في كتاب شواهد الحق للنبهاني فإنه جمع عدة قصائد من هذا النوع، انظر ص ٣٥٠

(٢) وقد اعتبر الشوكاني...

(٣) انظر تيسير العزيز الحميد ص٢٢٥، وحقوق النبي (على أمته للدكتور التميمي ٢/ ٧١٨

(٤) شواهد الحق ص١٤٩

البرزخ، وبعد البعث في عرصات القيامة)[١].

ثم استمع إلى النبهاني -وهو يقرر ويوجه مسألة الاستغاثة بالنبي ﷺ فيقول: (فقد ظهر من هذا أن استغاثة المستغيثين به صلى الله عليه وسلم تجيء على معنيين: أحدهما: أن يسأل المستغيث الله تعالى بالنبي ﷺ، أو بجاهه، أو بحقه، أو ببركته أن يقضي حاجته، فالمستغيث على هذا هو الذي يدعو الله تعالى ويجعل واسطة القبول عنده عز وجل نبيه الأعظم، وحبيبه الأكرم صلى الله عليه وسلم، والمعنى الثاني: أن يسأل المستغيث النبي ﷺ ليدعو الله تعالى وليسأله قضاء حاجته؛ لأنه حي في قبره كما يسأله الناس الشفاعة يوم القيامة فيشفع لهم، وكما سأله الناس في حياته الدنيوية الدعاء بالاستسقاء، وغيره فدعا لهم بالسقيا، وغيرها فاستجاب الله له، وجميع الاستغاثات الواقعة في كتابي هذا لا تخلو عن هذين المعنيين)[٢].

ويقول محمد بن علوي المالكي: (فإن قالوا: إن الممنوع إنما هو سؤال الأنبياء، والصالحين من أهل القبور في برازخهم؛ لأنهم غير قادرين، وقد سبق رد هذا الوهم مبسوطا وإجمالا: إنهم أحياء قادرون على الشفاعة، والدعاء، وحياتهم حياة برزخية لائقة بمقامهم يصح بها نفعهم بالدعاء، والاستغفار، والمنكر لذلك أخف أحواله أنه جاهل بما كاد يلحق بالمتواتر من سنته عليه الصلاة والسلام الدال على أن موتى المؤمنين لهم في حياتهم البرزخية العلم، والسماع، والقدرة على الدعاء، وما شاء الله من التصرفات، فما الظن بأكابر أهل البرزخ من النبيين، وسائر الصالحين؟!)[٣].

ومن غلاة الصوفية من يرى أن زيارة قبر النبي ﷺ أفضل من الحج إلى بيت الله الحرام، وأن الاستغاثة به أنجع، وأنفع من الاستغاثة بالله تعالى، ودعائه[٤].

ومنهم من يقول: (إن النبي ﷺ لا يخلو منه زمان ولا مكان) ومرادهم بذلك أنه ما من زمان إلا وهو فيه موجود، ولا من مكان إلا وهو فيه موجود[٥].

ويدعون أنه صلى الله عليه وسلم يحضر كل مجلس، أو مكان أراد بجسده، وروحه،

---

(١) الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية ص٦٠٤

(٢) شواهد الحق ص١٤١، وانظر الرد عليه في غاية الأماني ٢/ ٣٨، ٢٧٣، ٣٤١

(٣) مفاهيم يجب أن تصحح ص١٨٠، وراجع ص ١٦٨، وانظر الرد عليه في هذه مفاهيمنا ص١٢٣، وحوار مع المالكي ص٨٠

(٤) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ٢/ ٦٧٣

(٥) انظر غاية الأماني ١/ ٤٨

وأنه يتصرف ويسير حيث شاء في أقطار الأرض، وفي الملكوت، وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته لم يتبدل منه شيء، فإذا أراد الله أن تراه عين رفع عنه الحجاب فيراه على هيئته التي كان عليها[١].

ويقول زعيم البريلوية: (إن كل مفاتيح الكون في يد رسول الله ﷺ وهو مالك الكل، والنائب الأكبر للقادر وهو الذي يملك كلمة كن.. وهو المبرئ من السقم، والآلام، والكاشف عن الأمة كل خطب، وهو المحيي، وهو الدافع عن[٢] المعضلات، والنافع للخلق، والرافع للمراتب، وهو الحافظ، والناصر، وهو دافع البلاء، أيضا وهو الذي أبرد على الخليل النار، وهو الذي يهب، ويعطي، وحكمه نافذ، وأمره جار في الكونين)[٣].

ومن شعره في النبي صلى الله عليه وسلم قوله[٤]: -

منه الرجا منه العطا منه المدد　　　في الدين والدنيا والاخرى للأبد

ويزعم أيضا أن النبي ﷺ متصرف في الكون، وأنه يوجد في كل مكان، وأن اسمه مكتوب على العرش؛ ليعلم أن العرش ملكه[٥].... إلى غير ذلك من الكفر الواضح، والاعتقاد الفاضح.

ومن الغلاة من يقول في قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** ﴾[٦]، يقول إن الرسول ﷺ هو الذي يسبح بكرة وأصيلا. ومنهم من يقول: اسقط الربوبية، وقل في الرسول ما شئت، كما قال قائلهم[٧]: -

دع ما ادعته النصارى في نبيهم　　　واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

ومنهم من يقول: نحن نعبد الله ورسوله، فيجعلون الرسول ﷺ معبودا[٨]، ولم يقف

---

(١) انظر رماح حزب الرحيم للفوتي ١/ ٢١٩ مطبوع بهامش جواهر المعاني لعلي حرازم، وانظر الرد عليه في مشتهى الخارف الجاني لمحمد الخضر الجكني الشنقيطي ص٩١

(٢) هكذا في النص، ولعل الأنسب للسياق (الدافع للمعضلات).

(٣) الاستمداد على أجيال الارتداد للبريلوي ص٢٩، وما بعدها نقلا عن البريلوية لإحسان إلهي ظهير ص٦٨

(٤) انظر الأمن والعلى للبريلوي ص١٠٥ نقلا عن البريلوية لإحسان إلهي ظهير ص٦٨

(٥) انظر مواعظ نعيمية ص٢٧ نقلا عن البريلوية لإحسان إلهي ظهير ص٦٩، وانظر المهند على المفند لخليل أحمد إلياس ص١٤

(٦) سورة الفتح الآيتان (٨-٩).

(٧) انظر قصيدة البردة للبوصيري مطبوعة في آخر كتاب دلائل الخيرات ص٢٤٢

(٨) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ٤٢٨

الغلاة عند هذا الحد حتى اعتقدوا أنه الله ذاتا وصفة[١].

واسمع إلى أحدهم يقول: (شأن محمد في جميع تصرفاته شأن الله، فما في الوجود إلا محمد، لا يدرى لحقيقته غاية، ولا يعلم لها نهاية، فهو من الغيب الذي نؤمن به، ولما كانت بشريته صلى الله عليه وسلم نورا محضا كانت فضلاته مقدسة طاهرة، ولم يكن لجسمه ظل كالأجسام الكثيفة، وهذا النور المحمدي هو المعني بروح الله المنفوخ في آدم، فروح الله نور محمد)[٢].

وهكذا يفعل الغلو بصاحبه؛ فإنه ما يزال ينحدر به حتى يوقعه في مستنقع الشرك وجحيم الكفران، وهذا بعينه هو ما حصل لغلاة الصوفية في نظرتهم لرسول الله ﷺ فإنهم تجاوزوا تعظيمه صلى الله عليه وسلم التعظيم الشرعي إلى التوسل به توسلا بدعيا، ثم لم يكتف منهم إبليس بهذا القدر حتى زين لهم دعاءه في الملمات، وطلبوا منه قضاء الحاجات، فلم يكتفوا بالدعاء بالواسطة مع ما فيه حتى دعوا الواسطة نفسها؛ من أجل ذلك بالغوا (في تعظيمه صلى الله عليه وسلم حتى رأوا أن الطواف بقبره، والتمسح بترابه، والسجود له من القربات التي يتقرب بها إلى الله عز وجل، واعتقدوا أنه ينفع، ويضر، ويعطي، ويمنع، وأنه يفرج الكربات، وأنه يشفع فيمن يشاء، ويدخل الجنة من يشاء، وهذا غلو منهم، ومبالغة ممقوتة تؤدي بصاحبها إلى الشرك، والانسلاخ الكامل من الدين إن لم يتب منها)[٣].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والله تعالى لم يأذن لنا أن نسأل ميتا حاجة؛ لا نبيا، ولا غيره، ولا نطلب منه جلب منفعة، ولا دفع مضرة، ولا أن نقصد بزيارة قبره إجابة دعائنا، بل شرع لنا الإيمان بهم، وبما جاءوا به، والسلام عليهم، فالذي شرع لنا في حق الرسل فيه تحقيق توحيد الله وحده، وتحقيق طاعتهم، وفيه مزيد الرحمة لهم، ورفعة الدرجة، والرضوان لنا ولهم، والأنبياء لا ينقص عند الله جاههم بموتهم، بل هم في مزيد كرامة الله، وإحسانه إليهم، ورفع الدرجات لهم عند الله، وليس في هذا ما يوجب أن نطلب منهم الحاجات بعد الموت كما كانت تطلب منهم في الحياة، ولا أن يؤمروا، وينهوا،

---

(١) انظر هذه هي الصوفية ص٧٥

(٢) النفحات الأقدسية للبيطار ص٩ نقلا عن هذه هي الصوفية ص٧٧

(٣) مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية ص١٤٧



ونحو ذلك؛ إذ قد علم بالاضطرار انقطاع هذا الحكم عن جميع الأموات، فيظن هؤلاء الجهال الضلال أن مسألتهم، والطلب منهم هو من باب رفع قدرهم، وكذبوا، ليس الأمر كذلك، وإنما ذلك من باب التكليف لهم، وهم يثابون على ذلك، والمكلف لهم المؤذي يتضرر بذلك، ويعذب به، وإذا طلب سائلهم منهم حاجته لم يكن ذلك سببه جاههم؛ فإن ذلك يطلب ممن لا جاه له عند الله)[1].

وبعد أن بينا نظرة الصوفية للرسول ﷺ ونقلنا من كتبهم المعتمدة عندهم هذه المقولات التي تطفح بالغلو، وترشح بالشرك، والعياذ بالله نقول: إن العوام في زماننا هذا قد تأثروا بما سطرته الصوفية في كتبهم، ومن يأت قبر النبي ﷺ وينصت للواقفين حوله يسمعْ من ذلك الكلام أقوالا، وير من أولئك الواقفين أحوالا تذكرنا بالنصوص المنقولة عن غلاة الصوفية آنفا، والتي توضح بجلاء نظرتهم الغالية لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم[2]، وزعمهم أنه واسطة في الدعاء، والرجاء، وسائر أنواع العبادات.

---

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ٢٢٩

(٢) وقد لاحظ ذلك وشاهده محمد بن سلطان المعصومي الحنفي فألف رسالته " المشاهدات المعصومية عند قبر خير البرية " انظر ص ٧٣



المبحث الثاني

مقام النبوة والولاية عند الصوفية

توطئة:

النبوة: خبر خاص يكرم الله به من يصطفيه من عباده ليطلعه على شريعته بما فيها من الأوامر، والنواهي، والوعظ، والإرشاد، والوعد، والوعيد(١).

وهذه الرسالة سفارة العبد بين الله تعالى وبين ذوي الأباب من خلقه ليصلح بها مناحي حياتهم، ومصالحهم الدنيوية، والأخروية(٢).

أما الولاية فهي: (مرتبة في الدين عظيمة، لا يبلغها إلا من قام بالدين ظاهرا وباطنا)(٣).

وقيل: الولاية في الشرع هي: الإيمان والتقوى(٤)، **وللولاية الصحيحة جانبان:**

أ - جانب يتعلق بالعبد، وهو قيامه بأوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه، ثم التدرج في مراقي العبودية بالنوافل، وشتى صور العبادات.

ب - وجانب يتعلق بالله سبحانه وتعالى، وهو محبة هذا العبد، ونصرته، وهدايته، وتثبيته على الهداية.

قال تعالى: ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾(٥)، هذه من جانب الرب سبحانه وتعالى، : ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾، وهذه من جانب العبد(٦).

وذكر الإمام ابن كثير أن الأولياء هم الذين جمعوا بين الإيمان، والتقوى، كما فسرهم ربهم، فكل من كان تقيا كان لله وليا(٧)؛ ولهذا قال الإمام الشافعي: (إذا لم يكن العلماء أولياء فليس لله تعالى ولي)(٨).

---

(١) انظر المنهاج في شعب الإيمان للحليمي١/ ٢٣٩، وشعب الإيمان للبيهقي١/ ١٥٠

(٢) انظر بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي٥/ ١٥، ومقدمة تحقيق دلائل النبوة لقوام السنة تحقيق مساعد الحميد١/ ١٩ / ومعارج القبول٢/ ٤٩١

(٣) مقدمة تحقيق كرامات أولياء الله عز وجل للالكائي تحقيق فضيلة شيخنا الدكتور أحمد سعد حمدان الغامدي ص٧

(٤) انظر إلى التصوف يا عباد الله للشيخ أبي بكر الجزائري ص٣٦، والإنصاف في حقيقة الأولياء للصنعاني ص٩

(٥) سورة يونس الآية ٦٢

(٦) انظر مقدمة تحقيق كرامات أولياء الله عز وجل ص٨

(٧) انظر تفسير ابن كثير٢/ ٤٣٨

(٨) مشتهى الخارف الجاني ص٤٨٩

وقد نظم هذا المعنى المختار بن بونة الجكني رحمه الله[١] في كتابه الوسيلة، فقال[٢]: -

والأولياء المؤمنون الأتقياء ... فالعلماء العاملون أولياء

فكل من اتقى الله تعالى مؤمنا فهو من أولياء الله تعالى، وقد دخل في الآية، وهذا هو الذي تقتضيه الشريعة في الولي[٣]. فالولي الذي يوالي عبادته، وطاعته تجري من غير أن يتخللها عصيان مقصود من شروطه:

١- أن يكون عالما بأصول الدين حتى يفرق بين الخالق والمخلوق، وبين النبي، والمتنبئ.

٢- وأن يتصف بالأخلاق الحميدة التي دل عليها الشرع، والنظر من الورع عن المحرمات؛ بل والمكروهات، وامتثال الأوامر الشرعية، وإخلاص العمل لله تعالى.

٣- وأن لا يتعلق قلبه بما سوى الله تعالى.

٤- وأن يكون حسن المتابعة للنبي ﷺ والاقتداء بسنته في كل صغيرة، وكبيرة.

٥- وأن يلازمه الخوف أبدا، ويحتقر نفسه سرمدا، وأن ينظر إلى الخلق بعين الرحمة، والنصيحة، وأن يبذل جهده في مراقبة محاسن الشريعة وتطبيقها، ومطالعة عيوب النفس وآفاتها، والوجل من سوء الخاتمة[٤].

يقول العلامة شهاب الدين الآلوسي: (وأحسن ما يعتمد عليه في معرفة الولاية اتباع الشريعة الغراء، وسلوك المحجة البيضاء، فمن خرج عنها قيد شبر بعد عن الولاية بمراحل، فلا ينبغي أن يطلق عليه اسم الولي، ولو أتى بألف ألف خارق، فالولي الشرعي اليوم أعز من الكبريت الأحمر، ولا حول ولا قوة إلا بالله:

أما الخيام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحي غير نسائها)[٥]

ومهما بلغ الولي -الولاية الشرعية- من الصلاح، والفلاح، ومهما ترقى في منازل الولاية حتى يبلغ ذروتها فإنه لا يبلغ منزلة النبوة، ولا يقاربها، ولا يزاحمها.

---

(١) هو المختار بن بونة الجكني تاج العلماء في عصرة في بلاد شنقيط، لا يوجد عالم بعده إلا وله الفضل عليه، كان لا يجارى في النحو والكلام، من أنفع ما ألف نظمه الذي سمّاه ((الاحمراء على الألفية))، كان حيا في أوائل القرن الثالث عشر الهجري. انظر الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين الشنقيطي ص٢٧٧

(٢) انظر: الفوائد الكفيلة بمعرفة الوسيلة لمحمد بن الحسن الخديم ص٣١

(٣) انظر مشتهى الخارف الجاني ص٤٦٥

(٤) انظر لوامع الأنوار٢/ ٣٩٧، ومشتهى الخارف الجاني ص٤٨٢، وولاية الله والطريق إليها ص١٠٩

(٥) روح المعاني١١/ ١٤٩

وإذا كان الصوفية يؤمنون بالنبوة حسب تعريفنا السابق في الجملة؛ فإنهم نظروا إلى الولاية نظرة مخالفة للشرع، ومصادمة للنص، فجعلوها دائرة يدخل فيها التقي، وغير التقي، فكل من ظهر على يديه أمر خارق للعادة، أو زعموا أن فيه سرا إلهيا أو انتسب إلى سلسلة المشايخ، أو أرباب الطرق فهو الولي عندهم الذي تولى الله تعالى أمره وجعل فيه سره، فهو مطلع على ملكوت السموات، مشاهد للأفعال، والصفات؛ ولهذا عرفوا الولاية بأنها (قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه، والولي: هو من توالت طاعته من غير أن يتخللها عصيان، أو من يتوالى عليه إحسان الله، وإفضاله، وهو العارف بالله، وصفاته، بحسب ما يمكن المواظب على الطاعات، المجتنب عن المعاصي، المعرض عن الانهماك في اللذات، والشهوات)[١].

وقد سئل شيخ الطريقة التجانية عن الولي فقال: (الولي: من تولى الله أمره بالخصوصية، مع مشاهدة الأفعال، والصفات)[٢].

وهذا التعريف الغامض للولي ما هو سره؟ (السر في غموض تعريف القوم للولي هو احتكارهم للفضائل كي لا تكون لغيرهم من سائر المؤمنين، والمسلمين، وبذلك تختص الولاية بمشايخ الطرق، المأذون لهم في إعطاء الورد، والتربية الخلوية، ومن هنا كان الولي عند الصوفية لا يعرفه إلا الخواص، أما عامة المسلمين فلا سبيل لهم إلى معرفة الولي، يشهد لهذه الحقيقة ويقررها ما يلي: سئل التجاني عن الله تعالى، وعن الولي أيهما معرفته أصعب؟ فقال: معرفة الولي أصعب من معرفة الله تعالى.

وأبعد المرسي[٣] -وهو من أئمة الصوفية- في تعريف الولي حتى قال: إن الولي لو كشف للناس لعبدوه؛ لأن حقيقة الولي أنه يسلب من جميع البشرية ويتخلى بالأخلاق الإلهية ظاهرا وباطنا، ولذا لو كشف الولي للعبد لعبده، وقالوا: إن دائرة الولي أوسع من دائرة النبي، وهذا تفضيل منهم للولي على النبي بأسلوب خفي)[٤].

---

(١) التعريفات للجرجاني ص٣٢٩، وانظر الرسالة القشيرية ص٣٥٩، ومعجم مصطلحات الصوفية لعبد المنعم حنفي ص٢٦٩ (٢) إلى التصوف يا عباد الله ص٣٦

(٣) هو أبو العباس أحمدبن عمر شهاب الدين المرسي الصوفي، تلميذ شيخه الشاذلي الصوفي، أصله من مرسية في الأندلس، وعاش في الإسكندرية، وللمصريين فيه اعتقاد عظيم، ومن أقواله الشنيعة قوله: ((لو كان الحق سبحانه وتعالى يرضيه خلاف السنة لكان التوجه في الصلاة إلى القطب الغوث الواسطة أولى من التوجه إلى الكعبة. مات سنة ٦٨٦هـ. انظر طبقات الشعراني ٢/ ١٢، والأعلام ١/ ١٨٦

(٤) إلى التصوف يا عباد الله ص٣٧

وتراهم يعظمون من شأن الولاية ويهولون من أمر الولي حتى قالوا : (من ادعى أنه ولي يموت كافرا -والعياذ بالله- والحكاية التالية تكشف لنا عن مدى بعد الولاية في اعتقاد القوم واحتكارهم لمنصبها ومقامها .

قال الشيخ أحمد التجاني في رجل لا يمشي إلا ساترا وجهه - قال : ولعله بلغ مرتبة الولاية ؛ فإن من بلغها يصير كل من رأى وجهه لا يقدر على مفارقته طرفة عين ، وإن فارقه ، وانحجب عنه مات لحينه ، وحسبك -أخي المسلم- بهذا التعريف للولي من تعريف إنه سخرية وهزء بعقول المؤمنين)[١] .

ويروون عن الشيخ البدوي أنه كان يلقب بذي اللثامين ؛ لأنه كان يتلثم بلثامين ، فقال له رجل من مريديه : أرني وجهك ، فقال له البدوي : كل نظرة برجل ! فقال : أرنيه ، ولو مت ، فكشف البدوي وجهه فمات الرجل لحينه[٢] .

ويقول السرهندي مبينا مقام النبوة والولاية عندهم ، وأنه يصح أن يشارك الولي النبي فيصبح لابسا للوشاحين ، ومتربعا فوق المقامين فيقول : (ينبغي أن يعلم أنه يصح أن يصل شخص من طريق قرب الولاية إلى قرب النبوة ، ويكون شريكا في كلتا العاملتين ، ويعطى محلا هناك -أيضا- يتطفل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ويجعل معاملة كلا الطرفين مربوطة به .

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)[٣] . إذن لم يقف الصوفية عند تعظيم الأولياء ، وادعاء الحفظ لهم ، والعصمة ، بل زادوا في الخرافة ، وتنقيص الأنبياء ، فادعوا أن مرتبة الولاية أعلى من مرتبة النبوة . وفي هذا يقول ابن عربي[٤] :

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

وقال أيضا[٥] :

بين الولاية والرسالة برزخ فيه النبوة حكمها لا يجهل

---

(١) إلى التصوف يا عباد الله ص٣٧ (٢) انظر شذرات الذهب٥/ ٣٤٦

(٣) المنتخبات من المكتوبات ص٢٢٦

(٤) انظر مجموع الفتاوى٢/ ٢٢١ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص٤٩٣

(٥) انظر الفتوحات المكية٢/ ٢٥٢ ، وانظر الرد عليه في شرح العقيدة الطحاوية ص٤٩٢ ، وفي رسائل وفتاوى في ذم ابن عربي تحقيق د. موسى الدويش ص٦١



ويصرح ابن عربي بهذا المعتقد -وهو اعتقاد غلاة الصوفية- فيقول: (ولما مثل النبي صلى الله عليه وسلم النبوة بالحائط من اللبن، وقد كمل سوى موضع لبنة، فكان صلى الله عليه وسلم تلك اللبنة غير أنه صلى الله عليه وسلم لا يراها كما قال -لبنة واحدة، وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤيا، فيرى ما مثل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرى في الحائط موضع لبنتين، واللبن من ذهب، وفضة، فيرى اللبنتين اللتين تنقص الحائط عنهما، وتكمل بهما لبنة ذهب، ولبنة فضة، فلا بد أن يرى نفسه تنطبع في موضع تينك اللبنتين، فيكون خاتم الأولياء تينك اللبنتين، فيكمل الحائط!)[١].

ويقول التجاني: (إن لنا منزلة عند الله تناهت في العلو عند الله تعالى إلى حد يحرم ذكره)[٢].

فالولاية -عند الصوفية- أعظم قدرا، وأعلى شأنا من النبوة، وخاتم الأولياء هو الذي يستمد منه سائر الأولياء، وحتى الأنبياء، والرسل إنما يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء؛ لأن ولاية الرسول أعلى من نبوته، فالرسول من حيث هو ولي أتم من حيث هو نبي رسول؛ لأن النبوة، والرسالة منقطعة، وأما الولاية فلا تنقطع أبدا.

يقول ابن عربي: (واعلم أن الولاية هي الفلك المحيط العام؛ ولهذا لم تنقطع ولها الإنباء العام، وأما نبوة التشريع، والرسالة فمنقطعة. . .، والرسول عليه السلام من حيث هو ولي أتم من حيث هو نبي رسول)[٣].

ويرى بعض بعض غلاة الصوفية أن كلمة (الولاية) قد تعني الربوبية، ويستدل على هذا الرأي بقول الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾[٤][٥]

فخاتم الأولياء يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك[٦]؛ بل (خاتم الأولياء مثل خاتم الأنبياء، وقد يفضله؛ لأنه الولي الرسول، النبي، وخاتم الأولياء)[٧].

(١) فصوص الحكم ص٦٣، وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية أن ابن عربي متأثر -فيما ذهب إليه- بالفلاسفة. انظر الرد على المنطقيين ص٣٠٢

(٢) جواهر المعاني٢/ ٩٣، وانظر الرد عليه في مخازي الولي الشيطاني مطبوع في نهاية مشتهى الخارف الجاني ص٦١١، وهذه هي الصوفية لعبد الرحمن الوكيل ص١١١

(٣) فصوص الحكم ص١٣٤، وانظر جلاء العينين ص١٣٦، والصوفية في نظر الإسلام ص١٧٦

(٤) سورة الكهف الآية ٤٤

(٥) انظر الحركة الصوفية في الإسلام للدكتور محمد أبي ريان ص٣٠٩

(٦) انظر فصوص الحكم ص٣٦، وانظر الرد عليه في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص٣٩، ومجموع الفتاوى٢/ ٢٢٠

(٧) معجم مصطلحات الصوفية ص٨٧، وانظر العلم الشامخ للمقبلي ص٢٤٠

وتبدو الولاية كاملة في نظر الصوفية -عند ما تصبح قوى الكون مسخرة للولي بقوة روحانية فيصبح قادرا على إتيان المعجزات، والخوارق، والإخبار بالمغيبات، والتلقي من الهواتف، والنطق بالسريانية دون تعلم، ويرى الولي نفسه في منزلة، أو مقام لا يمتنع فيه عليه عسير، ولا يستحيل أمام إرادته أمر؛ حتى إنه يقول للشيء: (كن فيكون!). وطريق الوصول إلى مقام الولاية هو العلم اللدني الذي يزعمون أن الولي يتلقاه عن الله تعالى بلا واسطة[1]. ويزعمون أن من الكرامة أن تفاض على الولي جميع الأسرار، والعلوم فيضا[2].

ومن موازناتهم بين الرسالة، والنبوة، والولاية، أو القطبانية -كما يسمونها- قول بعضهم: (فليس يظهر الكمال صورة، ومعنى، وحسا، بريئا من النقص بكل وجه، وبكل اعتبار إلا في ثلاث مراتب فقط، لا ما عداها، وهي: الرسالة لمن دخل حضرتها، والنبوة لمن دخل حضرتها، والقطبانية لمن دخل حضرتها، فإن هذه الثلاثة لا صورة للنقص فيها. . . فإذا عرفت هذا فليكن المريد مع شيخه كما هو مع نبيه صلى الله عليه وسلم في التعظيم، والمحبة، والاستمداد، والانقطاع إليه بالقلب، فلا يعادل به غيره في هذه الأمور، ولا يشرك معه غيره)[3].

ولعل السبب في هذه النظرة الخرافية لمقام الولاية، والغلو الزائد في الولي هو تهيئة الشيخ الصوفي لمنصب الخلافة الربانية، وتجويز جعله واسطة بينهم، وبين الله تعالى؛ لأن من سمت منزلته وعلا مقامه فوق منزلة النبوة، ومقام الرسالة -من كان هذا شأنه- كيف لا يكون واسطة؟ وكيف لا يتوجه إليه المذنبون، والخاطئون، والمحتاجون، يستمدون منه الفيوضات، ويسترفدون منه الهدايا، والأعطيات؟! من أجل ذلك كله جعلوا هؤلاء الأولياء واسطة بينهم، وبين الله تعالى.

يقول أحمد التجاني -شيخ الطريقة التجانية-: (اعلم أن حقيقة القطبانية هي الخلافة العظمى عن الحق مطلقا في جميع الوجود وجملة، وتفصيلا، جيثما كان الرب إلها كان هو خليفة في تصريف الحكم، وتنفيذه في كل من عليه ألوهية الله تعالى، ثم قيامه بالبرزخية العظمى بين الحق والخلق، فلا يصل إلى الخلق شيء كائنا من كان من الحق إلا

---

(١) انظر الصوفية في نظر الإسلام ص١٦٨
(٢) انظر مجلة المنار ٤/ ٦٨٠
(٣) ميزاب الرحمة الربانية ص٣٣

بحكم القطب، وتوليه، ونيابته عن الحق في ذلك، وتوصيله كل قسمة إلى محلها، ثم قيامه في الوجود بروحانيته في كل ذرة من ذرات الوجود جملة وتفصيلا، فترى الكون كله أشباحا لا حركة لها، وإنما هو الروح القائم فيها جملة وتفصيلا)[١].

وهذا القطب -الخرافة- له (ثلاثمائة وست وستون ذاتا إحداها[٢] بمكة المشرفة لا يخرج منها ما دام حيا، والذات الترابية حيث أراد الله تعالى من البلاد. . . . وفرق في هذه الذوات باعتبار ما يختص به كل منها، وأي ذات اختصت بشيء من الترقيات، والتجليات، والفتوحات، والأسرار وغيرها في بلد، فذلك الاختصاص سار لجميعها)[٣].

والأولياء -عموما- ترد عليهم أحوال يشاهدون فيها ملكوت السموات والأرض، وينظرون الأنبياء أحياء غير أموات[٤].

والأولياء عند الصوفية بعضهم أعلى من بعض، وفي صراع دائم على القطبية، والبرزخية، والخلافة العظمى، والختمية، فشيخ التجانية لما سمع المقالة الشهيرة عن الشيخ عبد القادر الجيلاني، وهي أنه قال: (قدمي هذه على رقبة كل ولي لله تعالى) نهض وكان متكئا، فاستوى جالسا، ومد رجليه، وقبض عليهما بيديه.

وقال: الشيخ عبد القادر قال ذلك في أولياء زمانه، وأنا أقول: (قدماي هاتان على رقبة كل ولي لله تعالى من لدن آدم عليه السلام إلى النفخ في الصور).

وسبب ذلك كما يقول أحد مريديه وأتباعه: أن جميع الكمالات، والكرامات، والخصائص التي نالها أحد من العارفين المقربين فقد أعطاها الله تعالى لهذا الولي التجاني، ومنه تفيض على سائر أولياء الله تعالى من أجل ذلك خضعت له من جميع الأولياء الأعناق، وأذعنوا لمقامه في عوالم الغيب بالإطباق، فهو القطب المكتوم، وهو الواسطة بين الأنبياء، والأولياء، فكل ولي لله تعالى من لدن آدم إلى النفخ في الصور لا يتلقى فيضا، ولا يجد مددا من حضرات الأنبياء إلا بواسطته من حيث لا يشعرون، ومدده الخاص يتلقاه من خاتم النبيين ﷺ، ولا اطلاع لأحد على فيضه الخاص[٥].

---

(١) جواهر المعاني ٢/ ٨١، وانظر معجم ألفاظ الصوفية ص٢٣٥، والرد عليهم في تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ١/ ٩٤

(٢) في بغية المستفيد (أحدها) -على التذكير- والذات مؤنثة.

(٣) بغية المستفيد ص١٨٦

(٤) انظر المرجع السابق ص٢١٢

(٥) انظر بغية المستفيد ص٢٢٤



وعند مقارنة قول الجيلاني، والتجاني في قيادة الأولياء نجد أن الجيلاني قيد الحكم بأولياء زمانه ومع ذلك قيل إنه ندم عند وفاته على هذا القول، ووضع خده على الأرض[١]، أما التجاني فقد أطلق الحكم، وادعى ما لا دليل عليه من الشرع أو الطبع[٢].

ولبيان حقيقة النبوة، والولاية عند الصوفية نجد أنهم لم يجعلوا إدراك حقيقة النبوة مقصورا على الأنبياء وحدهم؛ بل يرون أن أي إنسان يملك أنموذجا من خاصية النبوة، وهو ما يدرك أثناء النوم.

يقول الغزالي[٣]: (وأما ما عدا هذا من خواص النبوة فإنما يدرك بالذوق من سلوك طريق التصوف)[٤].

ويذهب الغزالي إلى أن الأولياء يدركون خاصية النبوة في تلقي الوحي والإلهام مثل سائر الأنبياء، حيث يقول: (بل قد تتمثل للأنبياء، والأولياء في اليقظة والصحة صورة جميلة محاكية لجوهر الملائكة وينتهي إليهم الوحي والإلهام فيتلقون من أمر الغيب في اليقظة ما يتلقاه غيرهم في النوم، وذلك لشدة صفاء باطنهم)[٥].

هكذا يرى الغزالي -وهو الإمام الحجة عند الصوفية- أن مقام الولاية مزاحم لمقام النبوة؛ ولذلك نجده كثيرا ما يقرن اسم الأولياء مع الأنبياء فيما يتعلق بالوحي والإلهام والكشوفات[٦].

(ولعلك تلحظ -بعد كل ما ذكرته لك- أن ما يدعيه الغزالي من الكشوفات الصوفية إنما هو انتقاص من مرتبة النبوة، ودعوة عامة للجميع إلى تسلقها، وارتقائها، وهذا الرأي له خطورته التي تفوق خطورة الرأي الباطني القائل بفيضان العلوم الموحاة إلى الإمام المعصوم؛ حيث إن عدد الأئمة الموحى إليهم -عند الباطنية- لا يتعدى اثني عشر إماما؛ أما عدد الأولياء الذين يتلقون العلوم الكشفية فإنه لا حصر له ألبتة؛ إذ باب الوحي مفتوح

---

(١) انظر الجواهر والدرر للشعراني مطبوع بهامش الإبريز ص١٤٢

(٢) انظر الرد عليه في مشتهى الخارف الجاني ص٥٣٥

(٣) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي، قال عنه ابن كثير: كان من أذكياء العالم في كل ما يتكلم فيه، له مصنفات منتشرة في فنون عديدة منها: ((فضائح الباطنية)) و((إحياء علوم الدين))، كانت وفاته سنة ٥٠٥هـ. انظر البداية والنهاية١٢/ ١٧٣، وسير أعلام النبلاء١٩/ ٣٢٢

(٤) المنقذ من الضلال للغزالي ص٧٢

(٥) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص١٣

(٦) انظر أبو حامد الغزالي والتصوف لعبد الرحمن دمشقية ص١٦٩

على مصراعيه، وما عليك إلا أن تصفي قلبك من الكدورات، وتنقيه من المعاصي، ثم تخلو بنفسك في زاوية، وتفتح عين الباطن جاعلا قلبك في عين الملكوت حتى تنفتح لك تلك الطاقة، وتظهر لك أرواح الملائكة، والأنبياء، والصور الحسنة الجميلة الجليلة، فينكشف لك ملكوت السموات والأرض، وترى مالا يمكن وصفه ولا شرحه)(١).

ومع ذلك فإن الصوفية لا يسمحون بفتح باب الولاية لكل أحد؛ بل يجعلون الدخول من هذا الباب لصفوة خاصة من الناس مختارة.

يقول المستشرق نيكو لسون(٢): (ولكن ليس معنى هذا أن جميع الصوفية أولياء؛ فإن الأولياء ليسوا في الحقيقة إلا طائفة قليلة من خواص أهل الله من الرجال، والنساء الذين وصلوا إلى أعلى مراتب الأحوال الصوفية، وهم من حيث صلتهم بالله بمثابة المرايا التي تنعكس عليها صورة الذات الإلهية، أو المجالي التي يتجلى الله فيها للخلق)(٣).

وللأولياء عند الصوفية حكومة باطنة تتصرف في الكون وتحفظ عليه نظامه، ويتزعمها القطب، وتحته: النقباء، والأوتاد، والأبرار، والأبدال، أو البدلاء، ويزداد كل صنف من هذه الأصناف بحسب درجة بعدهم من القطب، وهذا التصرف لمقام الأولياء ربما أخذته الصوفية عن الشيعة، أو الإسماعيلية(٤).

ويرى المستشرق نيكو لسون أن المعتدلين من الصوفية يعتقدون أن النبي محمدا ﷺ فوق كل ولي مهما سمت درجته، وعلت مكانته، أما غلاتهم القائلون بوحدة الوجود، والصوفية الذين ينكرون الوحي، ويكفرون بالأديان السماوية فيرون أن مقام الولاية أرفع قدرا، وأعلى شأنا من مقام النبوة(٥).

وما ذكره هذا المستشرق وجدنا من الصوفية من يصرح به، فالسرهندي من علماء

---

(١) المرجع السابق ص١٧٣، انظر الصوفية في نظر الإسلام لسميح عاطف ص١٧٣

(٢) هو رينولد ألين نيكولسون، مستشرق إنجليزي، ولد سنة ١٨٦٨م، تعلم العربية والفارسية في انجلترا وألمانيا، وقام بالتدريس في جامعة كيمبردج، وتخصص في اللغات الشرقية وآدابها، وفي عام١٩٢٦م صار كبير المحاضري اللغة العربية والفارسية وآدابها، وكان اعتناؤه منصبا على الجانب التصوفي عند المسلمين، من مؤلفاته: ((الصوفية في الإسلام)) و((فكرة الشخصية في التصوف)) و((في التصوف الإسلامي)) وغيرها، مات سنة ١٩٤٥م. انظر الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال٢/ ١٨٦٨

(٣) في التصوف الإسلامي لنيسكولسون ص١٥٧

(٤) انظر المرجع السابق ص٨١، والإنصاف في حقيقة الأولياء للصنعاني ص١٣

(٥) انظر في التصوف الإسلامي ص١٥٨



الصوفية -صرح بالمقام الصحيح للولاية حيث ذكر أنه ينبغي أن يعلم أنه ما من مسألة اختلف فيها العلماء، والصوفية، ولوحظ فيها حق الملاحظة إلا وجد الحق فيها في جانب العلماء، وسر ذلك: أن نظر العلماء بواسطة متابعة الأنبياء عليهم السلام نافذ إلى كمالات النبوة، وعلومها، ونظر الصوفية مقصور على كمالات الولاية ومعانيها؛ فلا جرم إذن أن يكون العلم المأخوذ من مشكاة النبوة أصوب، وأصفى، وأصح من العلم المأخوذ من مرتبة الولاية، والمجاهدة، ثم أعلن قائلا: (فلاح من هذا التحقيق أنه لا يبلغ ولي قط درجة نبي من الأنبياء عليهم السلام بل يكون رأس الولي تحت قدم نبي على الدوام)[1].

ويقول الدباغ: (وقد غلط بعض الأولياء من أهل الفتح فظن أن الولي العارف الكبير قد يبلغ مقام النبي في المعرفة، وإن كان في الدرجة لا يصله، وهذا الذي ظنوه غلط مخالف لما في نفس الأمر، والصواب أن الولي، ولو بلغ في المعرفة ما بلغ لا يصل إلى ما ذكروه، ولا يقرب منه أصلا)[2].

وهذا من الحق الذي نطق به هذان الصوفيان وبمقارنته مع ما سبق نقله عن الصوفية وبيان رفعهم لمقام الولاية وتنقيصهم للأنبياء عليهم السلام وخدشهم لمقام النبوة نستخلص أن مناهجهم مضطربة، وأقوالهم متناقضة بسبب بعدهم عن الكتاب والسنة وعدم التقيد بهما، وكل منهج لا يستمد قواعده من الوحي فالاضطراب صفة ذاتية من صفاته، والتناقض سمة بارزة من سماته، والتخبط نتيجة حتمية من نتائجه؛ إذ كيف يعد كل من ظهرت منه مكاشفات أو تصرفات شيطانية يعد بمجرد ذلك وليا من أولياء الله تعالى؟ (فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله؛ مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي ﷺ باطنا وظاهرا؛ بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة، أو يعتقد أن لأولياء الله طريقا إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو يقول: إن الأنبياء ضيقوا الطريق، أو هم على قدوة العامة دون الخاصة، ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعي الولاية، فهؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان، فضلا عن ولاية الله عز وجل، فمن احتج بما يصدر عن أحدهم من خرق عادة على ولايتهم كان أضل من اليهود والنصارى)[3].

---

(١) المنتخبات من المكتوبات ص٨٢ (٢) الإبريز ص٢٧٧
(٣) الفرقان لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٢٢، وانظر مشتهى الخارف الجاني ص٤٨٣

فالصوفية عند ما نظروا إلى الأولياء نظرة غالية، وادعوا أنهم واسطة بينهم وبين الله تعالى لزم هذا الادعاء أمران: أحدهما: رفع مقام الولاية فوق مقام النبوة، والغلو في الولي، واعتباره محفوظا، أو معصوما إلى غير ذلك. وثانيهما: خدش مقام النبوة، والحط من منزلة الرسالة، وتنقيص الأنبياء، وجعل الأولياء في رتبة الأنبياء، وربما فضلوا خاتم الأولياء على جميع الأنبياء، والرسل عليهم الصلاة والسلام[(١)].

ولعل السبب في شيوع هذا المفهوم الخاطئ لمقام الولاية بين الصوفية على تعدد طرقها هو أن (مقالة الزنادقة هذه كثيرا ما يسعى في ترويجها الفساق من المدعين للولاية، حتى يجدوا مسرح الشهوات واسع المجال بعيد ما بين الجوانب، وانسحبت على ذلك الأغبياء فلم يزنوا سيرة المدعي للولاية بميزان الشريعة، كمسألة التجاني التي تركت الشريعة البيضاء غير محصورة يمكن كل من أراد الإحداث فيها من المنتسبين إلى الطريقة الصوفية إحداث ما شاء إلى يوم القيامة، أن المنتسبين للعلم يهابون التعرض لكل من ادعى الولاية بحالة أو مقالة، وما ذلك إلا من ضعف البصيرة، وقلة الرسوخ في العلم، وعدم التحقق بحقائق الدين التي يضمحل أمامها كل باطل، وتسقط تجاهها كل دعوى كاذبة كما كان عليه سلف هذه الأمة، وخلفها من الإنكار على كل من أدخل في دين الله تعالى ما ليس منه؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون)[(٢)].

ولانتشار الطرق الصوفية في ربوع العالم الإسلامي -إلا ما رحم ربي- أصبح مفهوم الولي عند عامة الناس اليوم (هو إما من انتصب للإذن بالأوراد الطرقية ولو كان في جهله بدينه مساويا لحماره، وإما من اشتهر بالكهانة وسموه -حسب اصطلاحهم- مرابطا ولو تجاهر بترك الصلاة، وأعلن شرب المسكرات، وإما من انتمى إلى مشهور بالولاية، ولو كان إباحيا لا يحرم حراما، وحق هؤلاء الأولياء الجزم بولايتهم، وعدم التوقف في دخولهم الجنة، ثم الطاعة العمياء، ولو في معصية الله، وبذل المال لهم، ولو أخل بحق زوجته، وصبيته، والثقة بهم، ولو خلوا بالخرد العين، بعد فهم المطلوبون في كل شدة، ولكل محتم بهم عدة، وهم حماة للأشخاص، والقرى، والمدن، كبيرها، وصغيرها، حاضرها، وباديها، فما من قرية بلغت ما بلغت في البداوة، أو الحضارة إلا ولها ولي

---

(١) راجع المبحث السابق (تنقيص بعض أهل الأهواء لمقام الواسطة الصحيحة) لتقف على نموذج من تلك التنقيصات الفاضحة، والزندقة الواضحة.

(٢) مشتهى الخارف الجاني ص١٢٨



تنسب إليه فيقال : سيدي فلان هو مولى البلد الفلاني ، ويجب عند هؤلاء الناس -أن يكون علماء الدين خدمة لهؤلاء الأولياء ، مقرين لأعمالهم ، وأحوالهم ، غير منكرين لشيء منها ، وإلا أوذوا بضروب السباب ، ومستقبح الألقاب)[١] .

ومظاهر الولاية -عند الصوفية- تعتمد على قذارة الثياب ، واختيار لون خاص من الألوان ، وإطالة شعر الرأس ، ولباس الخرقة ، والمرقعة ، والتشرد في الأرض ، وذهول الولي عن نفسه ، وفساد نفسه ، ونكران وجوده[٢] .

فتبين -من هذا التحقيق- أن الصوفية نظروا إلى الولاية نظرة ذوقية ، غالية ، بعيدة عن نظرة الشرع ، فرفعوا من مقامها إلى حد لا يعتقده العاقل ، ثم تناهوا في الرفع من شأنها ، ومقامها حتى جعلوها فوق مقام النبوة ، ومنزلة الرسالة ؛ ليبنوا على ذلك معتقدهم الفاسد في الأولياء ، وجعلهم واسطة في دعاء الله تعالى ، وندائه ، ورجائه ، وربما انقطعوا عن الله تعالى إلى هؤلاء الوسائط من الأولياء ، استمدادا ، واسترفادا ، واستغاثة ، واستعانة . وإذا ما وزنا نظرة الصوفية هذه بميزان الشرع وجدناها باطلة ؛ لأنها بنيت على باطل . والله تعالى أعلم .

---

(١) رسالة الشرك ومظاهره للميلي ص١٢٢ ، وتقديس الأشخاص في الفكر الصوفي١/ ٥٦

(٢) انظر الصوفية في نظر الإسلام ص١٧٢ ، والسنن والمبتدعات للشقيري ص٣٣٧



المبحث الثالث

صورة الواسطة البدعية عندهم في الأحياء

يأمر الصوفية الأتباع المريدين بالتعلق الشديد بأوليائهم من المشايخ، وأرباب الطرق المتبوعين؛ وذلك عن طريق العقد الذي يكون بين المريد، والشيخ، ويلتزم بموجبه المريد اتصاله بالشيخ الواسطة والانقطاع إليه، والاستمداد منه، والارتباط به حيا وميتا، وهذا العقد يعرف بـ"العهد" و "الميثاق"، وصورته: (أن يتعهد الطرف الأول: وهو الشيخ بأن يخلص المريد من كل شدة، ويخرجه من كل محنة متى ناداه، مستغيثا به، كما يشفع له يوم القيامة في دخول الجنة، ويتعهد الطرف الثاني: وهو المريد بأن يلتزم بالورد وآدابه، فلا يتركه مدى الحياة، كما يلتزم بلزوم الطريقة، وعدم استبدالها بغيرها من سائر الطرق)[1].

ولنستمع إلى أحدهم وهو يبين فلسفتهم في ربط قلب المريد بالشيخ -الواسطة- فيقول: يشترط (ربط القلب بالشيخ بالاعتقاد، والاستمدادا على وصف التسليم، والمحبة، والتحكيم، فيكون اعتقاده أن هذا المظهر هو الذي عيَّنه الحق سبحانه للإفاضة عليه، وأنه لا يحصل له الفيض إلا بواسطته دون غيره، ولو كانت الدنيا مملوءة بالمشايخ، ومتى ما يكون في باطن المريد تطلع إلى غير شيخه لم يفتح باطنه إلى الحضرة الواحدية؛ فالإنسان في الجهة، وله بدن، وروح، والله تعالى منزه عن الجهة، فحكمته اقتضت الاستفاضة ممن في الجهة عن الفياض الحق الذي ليس في الجهة. . . . ومن هنا يعرف أن المناسبة بين المفيض، والمستفيض فيما يتعلق بالاستفاضة شرط، وقد ورد في بعض الأحاديث على ما أثبت المشايخ في كتبهم أن الشيخ في قومه كالنبي في أمته، فلا بد للمريد أن يتوجه إلى شيخه بربط قلبه معه، ويتحقق أن الفيض لا يجيء إلا بواسطته، وإن كان الأولياء كلهم هادين مهتدين يعتقد كلهم، ويدعو لهم؛ لكن استمداده الخاص، واستفاضته تكون من روحانية شيخه وحده، ويعلم أن استمداده من شيخه استمداده من النبي ﷺ فإن شيخه متعلق، مستمد من شيخه، وشيخه من شيخه أيضا، وهكذا إلى رسول الله ﷺ فهو مستمد بالحقيقة من رسول الله ﷺ، وهو من الحق جل وعلا . . فربط القلب بالشيخ أصل كبير في الاستفاضة؛ بل هو أصل الأصول)[2].

---

(١) إلى التصوف يا عباد الله ص١١، وانظر هذه هي الصوفية للوكيل ص٩٩

(٢) بغية المستفيد لمحمد العربي السائح التجاني ص٢٩٩



وقد بين الغزالي صورة الواسطة البدعية في الأحياء بوجه ذكره في بعض كتبه؛ حيث يرى أن المتأله الذي صفا قلبه يشرق عليه النور من الحضرة الإلهية بغير واسطة، وأما المتبع للرسول المقتدي بالوحي فهذا يحتاج إلى واسطة.

يقول الغزالي: (من استولى عليه التوحيد فقد تأكدت مناسبته مع الحضرة الإلهية، فأشرق عليه النور من غير واسطة، ومن استولت عليه السنن، والاقتداء بالرسول، ومحبة اتباعه، ولم ترسخ قدمه في ملاحظة الوحدانية لم تستحكم مناسبته إلا مع الواسطة، فافتقر إلى واسطة في اقتباس النار)(١).

ثم ضرب لذلك مثالا محسوسا، وهو أن الحائط الذي ليس مكشوفا للشمس يحتاج إلى واسطة الماء المكشوف للشمس حتى يقتبس من أشعتها وضيائها، وهذه حقيقة الشفاعة في الدنيا، فالوزير صاحب الحظوة الممكن في قلب السلطان المخصوص بالعناية قد يغضي السلطان عن هفوات أصحاب هذا الوزير الذي يعفو عن زلاتهم، لا لمناسبة بين السلطان، وأصحاب وزيره، وإنما لمناسبتهم للوزير الذي يناسب السلطان، ففاضت العناية عليهم بواسطة الوزير؛ لا بأنفسهم، ولو ارتفعت الواسطة وحجب الوزير لم تشملهم العناية أصلا(٢).

ولعل الغزالي -في بيانه لصورة الواسطة هذه متأثر بالفلاسفة الذين مثلوا لمفهوم الواسطة عندهم بالمرآة المجلوة التي تنعكس عليها أشعة الشمس(٣).

ويرى بعض الصوفية أن المشايخ على علم دائم بالأحوال الباطنية لمريديهم، مما يجعل العلاقة حميمة بين الشفيع والمشفوع له.

يقول المستشرق نيكو لسون: (ولكن أولياء الصوفية يدعونها أي [الشفاعة] لأنفسهم باعتبارها جزءا مما ورثوه عن النبي عليه السلام؛ ولذا ترونهم يتنافسون في الدعوة التي يقطعونها أمام كل من أحبوهم، أو أسدوا إليهم معروفا؛ بل وكل من رآهم، بأن الله تعالى يسيغفر لهؤلاء جميعا من أجلهم، وفي هذا على أقل تقدير لعلاقة شخصية بين الشفيع والمشفوع له)(٤).

---

(١) المضنون به على غير أهله مطبوع ضمن رسائل القصور العوالي ٢/ ١٥١

(٢) انظر المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٣) راجع صورة الواسطة عند الفلاسفة.

(٤) في التصوف الإسلامي ص١٦٤



ولعل أجلي ما تتضح به معالم تعلق المريد بالواسطة البدعية في حال الحياة أن يصرح المتبوعون من المشايخ، والأولياء لأتباعهم ومريديهم أن بيدهم الخلاص، والفلاح لمن توجه إلى الله تعالى بواسطتهم، وتعلق بهم، وآوى إلى جنابهم، ودخل في ساحتهم، ومن تلك النماذج: قول بعضهم لمريده متبجحا، ومصرحا بأنه الواسطة في هذا الكون لحصول المدد، والغياث، والخلاص من الضيق[١]:

نحن الغياث لمن ضاقت مذاهبه — فاهتف بنا إن تضق أو إن تكن تضم

نحن الذين لهذا الكون ذو مدد — ينـاله مـن رآنـا أو نأى فعمي

وقال الجيلي[٢]:

وأمري بأمر الله إن قلت كن يكن — وكل بأمر الله فاحكم بقدرتي

وكقول ولي آخر: (يا رياح اسكني عليهم بإذني)[٣].

ومثل ذلك المقالة المشهورة عن معروف الكرخي أنه قال لتلامذته: (إن كانت لكم إلى الله حاجة فأقسموا عليه بي، فإني الواسطة بينكم وبينه الآن)[٤].

وذكر الآلوسي ما يروى عن أبي الحسن الشاذلي أنه قال لأحد أتباعه: (إذا عرضت لك إلى الله تعالى حاجة فاقسم عليه بي)[٥].

ومما يروى عن أبي يزيد البسطامي[٦] أنه قال لأحد مريديه: (وقع في خاطري أني أشفع لك إلى ربي عز وجل فأجابه المريد: يا أبا يزيد لو شفعك الله في جميع المخلوقين لم يكن ذلك كثيرا؛ إنما هم قطعة من طين!!)[٧].

وذكر الشعراني[٨] في ترجمة الشيخ مدين الأشموني[٩] أن امرأة جاءته فقالت: هذه

---

(١) انظر السنن والمبتدعات للشقيري ص٢٦٤ (٢) انظر جواهر المعاني٢/ ٨٠

(٣) المرجع نفسه والموضع بعينه. (٤) انظر جلاء العينين ص٦٧ (٥) جلاء العينين ص٦٧

(٦) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي الصوفي، كان جده مجوسيا ثم أسلم، له أقوال متناقضة بعضها مقبول وبعضها فيه زندقة، لأتباعه فيه غلو فاحش في تعظيمه، ولد سنة ١٨٨هـ، وتوفي سنة ٢٦١هـ. انظر ترجمته في الرسالة القشيرية ص٣٩٥، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٨٦، وطبقات الشعراني١/ ٧٦، وشذرات الذهب٢/ ١٤٣ (٧) الطبقات الكبرى للشعراني٢/ ١٠٢

(٨) هو: عبدالوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد الشعراني الشاذلي، الصوفي، الشافعي، من مصنفاته ((الطبقات الكبرى في تراجم الأولياء)) و((الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم، توفي سنة ٩٧٣هـ. انظر: شذرات الذهب٨/ ٣٧٢، ومعجم المؤلفين٦/ ٢١٨

(٩) هو مدين بن أحمد الأشموني، عدّه الشعراني من شيوخه المعظمين، وصوّره بصورة خرافية، ونسب إليه كثيرا من الكرامات، والأعاجيب على عادة الصوفية، مات سنة ٨٦٢هـ، انظر طبقات الشعراني٢/ ١٠١، وجامع كرامات الأولياء للنبهاني٢/ ٤٦٢

ثلاثون دينارا بشرط أن تضمن لي على الله الجنة، فقال لها الشيخ مدين -مباسطا- هذه الدنانير ما تكفي، فقالت: لا أملك غيرها، فضمن لها على الله دخول الجنة، ثم ماتت المرأة فبلغ ورثتها ذلك فجاءوا يطلبون من الشيخ الدنانير، وقالوا: هذا الضمان لا يصح، فجاءتهم في المنام، وقالت لهم: اشكروا لي الشيخ على تفضله، فقد دخلت الجنة، فتركوا مطالبة الشيخ بالدنانير[(١)].

وينقلون عن السيد البدوي أنه كان يأتيه الرجل في حياته فينظر إليه نظرة واحدة فيمتلئ قلب الرجل هداية، وتقوى، ومعرفة (فكان يصنع الرجال، ويصوغ الأبطال بنظرة واحدة من نظراته الثاقبة، فيحولهم بقدرته الربانية، وقوته الروحانية من أشباح آلية إلى أرواح نورانية، ومن صور آدمية إلى حقائق إنسانية، فيصبح الواحد منهم بعد أن كان فردًا آليا، وشبحا آدميا يزن أمة برأسها[(٢)] ويملأ البلاد بحذافيرها علما، وهديا، ونورا مبينا، هكذا كان يصنع الرجال، ويصوغ الأبطال، يأتي إليه خليفته بالرجل العادي، وهو قائم على السطوح فينظر إليه نظرة واحدة فيمتلئ بها هداية وتقوى، ومعرفة، ويأمره بالانصراف. . . ويعرف هؤلاء المصابيح بالسطوحية)[(٣)].

ويذكرون عنه أنه قال: (إن الفقراء كالزيتون وفيهم الصغير والكبير، ومن لم يكن له زيت فأنا زيته! أساعده في جميع أموره، وقضاء حوائجه، لا بحولي، ولا بقوتي، ولكن ببركة النبي صلى الله عليه وسلم)[(٤)].

وذكروا أن من عادات السيد البدوي حب التوسل في حياته؛ أي أنه يحب أن يسأله الناس، ويتوسلوا به، وفي تعليل هذه العادة يقول أحدهم: (أي: أنه يحب أن يسأله الناس وهذه سنة من سنن الله تعالى، فالله يحب أن يسأله الناس، ويغضب إذا تركوا سؤاله، وكل متخلق بأخلاق الله تعالى يحب -لكرم طبعه وخلوص نفسه، وعلو همته- أن يسأله الناس، ويحب أن يسعى لهم في قضاء مصالحهم)[(٥)].

فإذا كان المقصود بهذه العادة أن السيد البدوي يحب أن يشفع للخلق، ويسعى في قضاء

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للشعراني ٢/ ١٠٢ (٢) هكذا المطبوع، ولعله يقصد (بأسرها).

(٣) العظة والاعتبار آراء في حياة السيد البدوي لأحمد حجاب ص١٠٣، وانظر شذرات الذهب لابن العماد ٥/ ٣٤٦ (٤) العظة والاعتبار ص٩٦

(٥) المصدر السابق ١٥٧



مصالحهم الدنيوية، ويبذل لهم ما في وسعه، ووجاهته، ويدعو الله لهم، فهذا أمر مطلوب شرعا؛ لقول الله تعالى: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾[1] ولقول نبيه ﷺ: (اشفعوا تؤجروا)[2]، وأما إن كان المراد أنه يحب أن يجعله المريدون واسطة بينهم وبين الله تعالى في دعائهم، وندائهم واستعانتهم، واستغاثتهم بالله تعالى لجلب محبوب، أو دفع مكروه، فهذا هو الضلال بعينه الذي نحن بصدد الرد على القائلين به.

وإذا كان الشيخ -الواسطة- يستطيع أن يدخل من يشاء الجنة بغير حساب ولا عقاب -بزعمه- ويحط عن الخاطئين جبال الذنوب كما يقول الشيخ التجاني: (ليس لأحد من الرجال أن يدخل كافة أصحابه الجنة بغير حساب ولا عقاب، ولو عملوا من الذنوب ما عملوا وبلغوا من المعاصي ما بلغوا إلا أنا وحدي)[3]، إذا كان الشيخ يصرح بهذا الادعاء وهو حي يرزق فلا نستبعد من المريدين الجاهلين المنغمسين في المعاصي الذين لم يستضيئوا بنور الوحي، ولم ينقادوا لعلماء الشرع أن يتهافتوا -كالفراش- على أدعياء الولاية، والوساطة ظانين بربهم ظن السوء وأن بيد هؤلاء الأولياء من شيوخ الزوايا خلاصهم، وفي سوحهم، وحماهم مناصهم.

ومن الدعاية لهذا الاعتقاد في الشيخ الحي، وأنه واسطة بين الله، والناس قول بعضهم: (لأنهم يعني الشيوخ أبواب رحمة الله تعالى دنيا وأخرى، وعلى أيديهم تنزل الرحمة من الرحمن إلى كل مرحوم، وهم الوسائل، ولولاهم لهلك الكل، كما قيل: لولا الواسطة لذهب الموسوط، وعن قول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾[4] يقول: هو طاعة الأكابر من السادات والمشايخ)[5].

فهذه دعوة إلى وجوب الاستمداد من المشايخ، وتوسيطهم في كل ما ينتاب الإنسان؛ لكن بأسلوب غير مباشر؛ لأنهم إذا كانوا هم أبواب رحمة الله وكانوا هم المقصودين من قول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ فيتحتم أن تكون النتيجة المترتبة على هذا الادعاء وجوب استمطار الرحمات منهم، والدعاء لرفع البلاءات بتوسيطهم، ووجوب

---

(١) سورة النساء الآية ٨٥

(٢) رواه البخاري، كتاب الزكاة باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها ٣/ ٢٩٩ حديث ١٤٣٢، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام ١٦/ ١٤٦

(٣) جواهر المعاني ٢/ ١٧٦

(٤) سورة المائدة الآية ٢

(٥) رماح حزب الرحيم مطبوع مع جواهر المعاني ١/ ١٧



الطاعة لهذا الأمر الرباني الذي لم يصرفه صارف عن الوجوب، وهو ما أشارت إليه الآية السابقة[١].

ويقول أحد أتباع الطريقة الرفاعية -بعد أن ذكر مقدورات شيخه الخارقة من قطع مسافة في مدة مائة عام بخطوة واحدة، وأنه يعرف ألسنة الطيور إلى غير ذلك من الخرافات- يقول مبينا صورة جعله واسطة في حال الحياة (تعلق بأذياله وكن من أهل مجلسه، ولا تفارق محياه، وتشفع به إلى الله تعالى؛ فإن الله لا يرد شفاعتك به؛ لأنه من أكرم أهل البيت. . . . إلى أن قال: إن أكابر الرجال، وفحول الأبطال. . . علموا أن طريقته طريق النجاح، والأمان، وأن محبته من أعظم الأسباب المقربة إلى الرحمن؛ ولذلك ألزموا أنفسهم، وأهلهم الأخذ بعهده، والتمسك ببيعة طريقته)[٢].

وذكروا عن شيخهم الرفاعي أنه كان ينشد لنفسه[٣]: -

أنا الرفاعي طبولي في السما ضربت والأرض في قبضتي والأوليا خدمي

كل المشايخ يأتوا باب زاويتي وفوق هاماتهم حاز العلا علمي

فالجأ بأعتاب عزي والتمس مددي وطف ببابي وقف مستمطرا نعمي

وإن تعجب لجرأة هؤلاء الشيوخ الأولياء من الصوفية في التصريح بكونهم واسطة بين الله تعالى وبين مريديهم في الدنيا فعجب جراءة الدباغ في تسليته لمريده بأنه سيدفع عنه كل ضرر في الدين والدنيا نزل به في الحياة، وأنه سيتكفل عنه سؤال الله تعالى، ومحاسبته بعد الممات.

يقول عنه أحد مريديه: (وشكوت إليه (رحمه الله) ذات يوم أمرا نزل بي فيه ضرر في الدين، والدنيا لا تؤمن غائلته، فقال لي: أما في الدنيا فلا تخش منه أبدا، ولا يقع لك منه شرا أصلا، وأما في الآخرة فأنا أتكفل لك على الله تعالى أنك لا تسأل عن هذا الأمر، ولا تحاسب عليه، فكان الأمر في الدنيا كما قال، ونرجو من الله سبحانه أن يكون الأمر في الآخرة كما قال! وما كان (رحمه الله) لأصحابه إلا رحمة محضة يشفع لهم في زلاتهم،

---

(١) انظر تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ١/ ٣٤٧

(٢) قلادة الجوهر ص٤٤٠ بواسطة تقديس الأشخاص ١/ ٣٥٠

(٣) انظر قلادة الجوهر، نقلا عن الكشف عن حقيقة الصوفية ص٥١٢

ويتكفل لهم بنوائبهم، ويتحمل لهم كلما يخشون عاقبته، ويهتم لأمورهم أكثر ما يهتم لأموره)[١].

ويحدثنا الدباغ عن أحد شيوخه، وأنه بقي يطلب من يدله على الله عز وجل أربعة عشر عاما تنقل خلالها في كثير من البلدان فذكر أنه وجد في العراق رجلا يجتمع حوله خلائق لا يحصون، وله طقوس معينة، وهم يتخذونه واسطة لهم، فقال مبينا صورة هذه الواسطة (قد اجتمع عليه من الخلائق مالا يحصى عدده، وكانت له زاوية للوارد، والصادر، يطعم فيها كل يوم ما يقرب من مائتي مد من الطعام من كثرة الواردين، واتخذ في زاويته خلوة للعبادة، والركوع، والسجود، بحيث أنه لا يخرج منها إلا في الثلاثة الأيام الأخيرة من الشهر، وأما في السبعة والعشرين يوما فليس إلا الركوع، والسجود، وفي الخلوة طاقة يمد له منها النقيب الطعام الذي يأكله، وجعلوا في الخلوة موضعا للخلاء، والطهارة، وأقاموا له أمرا لخلوة في كل ما يحتاجه حتى لا يحوجه إلى الخروج[٢] فيلزم خلوته المدة المذكورة؛ فإذا تمت خرج في الأيام الثلاثة المذكورة، فيتكلم مع الواردين في حوائجهم الأسبق، فالأسبق حتى يفرغ منهم جميعا، فإذا تمت الثلاثة الأيام، واستهل الشهر رجع لخلوته فأقام فيها سبعه وعشرين يوما، هذه عادته في دهره)[٣].

ويصور لنا الشيخ رشيد رضا حال أحد هؤلاء الأولياء المدعين من المتأخرين -مبينا طريقة التجاء الأغنياء من المريدين إليه في حياته واعتباره واسطة لهم- فيقول: (في الجيزة[٤] شيخ من الذين يعتقد الناس فيهم الولاية وينسبون لهم الكرامات، وهذا الشيخ متهتك مدمن خمر يجلس في الحانات التي في الشوارع العمومية، ويشرب في مجلس واحد أكثر من ثلاثين كأسا، ونقل إلينا أن بعض الأغنياء الموصوفين بالصلاح يتقربون إلى الله تعالى وتنزه عن تقربهم- بدفع ثمن الخمرة التي يشربها، ويزعمون أن سؤره من الخمرة فيه شفاء وبركة، فيشربونه بهذه النية. . . وحزب ولي الجيزة يعتقدون أنه يشرب الخمر فينزل في جوفه جمرا، ولكنه من أحباب الله (حاشا لله) الذين لا يؤاخذهم، ولا يؤاخذ من ينتمي إليهم، ويتصل بهم، وهذا الاعتقاد كفر، وخروج عن ملة الإسلام، بلا خلاف

---

(١) الإبريز ص٢٥٠

(٢) فأين الخروج إلى الجمعة والجماعة، وصلة الرحم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والكد على العيال؟!.

(٣) الإبريز ص٣١١

(٤) مدينة غربي القاهرة قبالتها. انظر معجم البلدان٢/ ٢٠٠

بين الأئمة، وما أوقع الناس فيه إلا الغلو في اعتقاد الكرامات وجعلها صناعة من الصناعات)[١].

ويحكى أن شيخا من شيوخ الطرق الصوفية المعروف عند مريديه بالولاية (كان مع مريديه في سفينة فهاج بهم البحر، وعلت أمواجه، فلجأوا جميعا إلى الله يسألون الفرج، والسلامة، وكان الشيخ منفردا في غرفة يدعو، فلم تنفرج الأزمة، وعادته أن لا يبطأ عليه بالإجابة! فوقع في روعه أنه أتي من قبل أتباعه، لا لنقص فيه يوجب هذا الإعراض عنه، فخرج على أتباعه مغضبا يقول: ما ذا صنعتم في هذه الشدة؟ فقالوا " دعونا الله مخلصين له الدين بلسان المضطرين. . . . فنكر عليهم اللجوء إلى الله مباشرة، ووبخهم عليه، وعرفهم أن ذلك هو الحائل دون استجابة دعائه، وأنذرهم عاقبة استمرارهم على التوجه إلى ربهم، وأنه الغرق، وعلمهم أن واجبهم هو التوجه إليه، وسؤاله، ثم هو وحده يتوجه إلى الله، فتابوا من دعاء الموحدين، وامتثلوا تعليم الشيخ المخالف لتعليم رب العالمين، وعاد الشيخ إلى غرفته، يدعو متوسطا بين الله ومريديه، فانكشفت الغمة، وسلمت السفينة، وحمد الشيخ ثقته بنفسه، وفقهه سر البطء عن استجابة دعائه، وتفقيهه لأتباعه سر النجاة، وصرفهم إلى الثقة به عن الثقة بالله!!)[٢].

ويذكرون أن الشيخ محمد الحنفي الذي عاش بمصر كان يذهب كل يوم بعد العصر، ينشر سجادته على الماء فيجتاز النيل من الشاطئ الشرقي إلى الغربي مشيا على الماء هو، وتلاميذه، ويقول لهم: قولوا: يا حنفي!! فقال واحد منهم: يا الله، فغرق، فأخرجه الحنفي، ووبخه، وأمسك بيده، وقال له: أنت الحنفي تعرفه فكيف بالله؟! فإذا عرفت الله فقل: يا الله يشير إلى أن الوسائط لا بد منهم، ولولا الوسائط لكنا من الوسائط[٣].

ويذكرون أن زوجة هذا الولي مرضت، وأشرفت على الموت، فكانت تدعو وتقول: (يا سيدي أحمد يا بدوي خاطرك معي، فرأت سيدي أحمد (رحمه الله) في المنام، وهو ضارب لثامين، وعليه جبة واسعة الأكمام عريض الصدر، أحمر الوجه والعينين وقال

---

(١) مجلة المنار٤/ ٦٧٩، وانظر الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين لعلي بخيت الزهراني١/ ٣٦٥ (٢) رسالة الشرك للميلي ص١٩٦

(٣) انظر شواهد الحق ص٤٤٧، ومعارج الألباب للنعمي ص٢١٧، ويحكى مثل هذه القصة عن الجنيد مع أحد أتباعه. انظر جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية٣/ ١٠٥٦

لها : لم تناديني ، وتستغيثين بي وأنت لا تعلمين[1] أنك في حماية رجل من الكبار المتمكنين ، ونحن لا نجيب من دعانا وهو في موضع أحد من الرجال ، قولي : يا سيدي محمد يا حنفي يعافيك الله تعالى ، فقالت ذلك فأصبحت كأن لم يكن بها مرض !)[2] .

ففي هذا النص صورة واضحة للواسطة البدعية في الحياة ؛ حيث أن زوجة هذا الولي لما استغاثت بالواسطة من الأولياء الميتين لم يجب دعاءها ، ولم يخلصها ؛ وإنما أحالها على زوجها الولي الواسطة الحي ! ! وليس في ربط قلب المريد بالشيخ -الواسطة- في حال الحياة أكثر من هذا ؛ ولذلك يقول بعضهم : (من اعتقد شيخا ولم يره كسيدي أحمد البدوي ، وغيره ، لا يصير بذلك مريدا له ؛ إنما هو محب له ؛ فإن شيخ الإنسان هو الذي يأخذ عنه ، ويقتدي به)[3] .

ويقول شيخ التجانية : (فمن فزع إلى أهل عصره الأحياء من ذوي الخاصة العليا ، وصحبهم ، واقتدى بهم ، واستمد منهم ، فاز بنيل المدد الفائض من الله ، ومن أعرض عن أهل عصره مستغنيا بكلام من تقدمه من الأولياء الأموات طبع عليه بطابع الحرمان ، وكان مثله كمن أعرض عن نبي زمانه)[4] .

إذا تقررت هذه التصريحات السابقة ، والادعاءات السامقة[5] من الشيخ الولي الواسطة ، في حياته ، وأن بيده فلاح المريد وخسرانه ، وبواسطته تنزل على المريد من الله الرحمات الواسعة ، والفيوضات الدافقة ، إذا تقرر ذلك في ذهن المريد ، وربط قلبه بشيخه ، وشد الوثاق ، واستولى الشيخ على قلب مريده ، وبصره ، وبصيرته ، لا نستبعد بعد هذا كله- أن نرى المريدين حول الشيخ -الواسطة- طائعين مخبتين متذللين ، ومنهم من ينظر إليه خوفا وطمعا ، ومنهم من لا يستطيع أن يملأ عينيه من صورة الشيخ إجلالا وتعظيما وتواضعا ، فمن الأصول المتبعة عند الطرق الصوفية : أن يضع المريد يده في يد الشيخ ويشبك أصابعه في أصابع الشيخ ويغمض عينيه ، ويقول له الشيخ : عاهدني على التزام الورد بشروطه ، ويلقنه الورد ، ومن هذه العملية التقليدية وضعوا كلمات العهد ،

---

(١) وردت هذه الأفعال المضارعة الثلاثة (تنادين تستغيثين تعلمين) في طبقات الشعراني بحذف النون وهذا لحن ؛ لأن هذه الأفعال في حالة الرفع .
(٢) الطبقات الكبرى ٢/ ٩٦
(٣) المصدر السابق ٢/ ٩٢
(٤) جواهر المعاني ٢/ ٩٢
(٥) أي : المرتفعة العالية . انظر القاموس المحيط ٣/ ٢٥٥ مادة (سمق) .



والبيعة، والتشبيك، والتلقين)[١].

وينتقل السر عند التجانيين من الشيخ الواسطة إلى المريد عن طريق فتح الشيخ فم المريد، ونفثه السر فيه[٢].

وهذه الطقوس التي يتبعها الشيخ مع المريد من التلقين وتغميض العين، والنفث، والتشبيك بدعة ظاهرة، والغرض منها -كما يقول الشيخ أبو بكر الجزائري هو (إيجاد ناموس وطقوس خاصة يتم بها التأثير على نفسية العوام لإيقاعهم في شبكة الصيد، وهذه الطريقة لتسخيرهم، والتسلط عليهم باسم الشيخ، والعهد، والطريقة؛ كما أن الورد الذي اشترطت له هذه الشروط من الشيخ المأذون له لعارف بالله، والعهد، والتلقين، وتغميض العين، والتشبيك ما هو إلا بدعة في شكله، لم يرد عن الشارع، كأكثر أوراد المتصوفة)[٣].

ثم ينتقل الأتباع من المريدين بعد ذلك إلى درجة الاستمداد من الشيخ، وانتقال البركة المزعومة عن طريق تقبيل يده، والتمسح بها، أو التبرك بما انفصل منه كالشعر، والريق، والعرق، وشرب ماء وضوئه، أو إفاضته على الجسم، أو الاحتفاظ بملابسه، وأدواته للتبرك بها، ونحو ذلك[٤].

ونقل الشعراني في طبقاته أن شيخا من شيوخ الصوفية كان إذا دخل الحمام وحلق رأسه تقاتل الناس على شعره، يتبركون به، ويجعلونه ذخيرة عندهم وبعضهم يأخذ من تراب زاويته، ويجعله في ورق المصاحف للاستشفاء، والبركة[٥].

ومن الغرائب في هذا الباب ما يحدث في بعض احتفالات موالد الصالحين عند تغيير عمامة الشيخ لشرائها بأي مبلغ يطلب منهم لاقتنائها، والفوز بها[٦].

ثم ينتقل الأتباع من المريدين بعد ذلك إلى درجة الركوع، والسجود للشيخ الواسطة، -والعياذ بالله- وهو ما يسمونه وضع الرأس قدام الشيخ احتراما، وتوضعا، وهذا نوع من الشرك المحرم.

---

(١) إلى التصوف يا عباد الله ص١٨ (٢) انظر كشف الحجاب ص٣٨١

(٣) إلى التصوف يا عباد الله ص٢٠، وانظر معارج الألباب ص٢٠١

(٤) انظر التبرك أنواعه وأحكامه للدكتور ناصر الجديع ص٣٨٢، وتوحيد الألوهية أساس الإسلام ص٣٤٠

(٥) انظر الطبقات الكبرى للشعراني ٢/ ٩٤، والمنتخبات من المكتوبات ص٩٨

(٦) انظر التبرك أنواعه وأحكامه ص٣٨٣، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية٣/ ١٥٧٩

يقول العلامة ابن القيم : (ومن أنواع الشرك : سجود المريد للشيخ ؛ فإنه شرك من الساجد، والمسجود له، والعجب أنهم يقولون : ليس هذا سجودا ؛ وإنما هو وضع الرأس قدام الشيخ احتراما، وتوضعا، فيقال لهؤلاء : ولو سميتموه ما سميتموه فحقيقة السجود وضع الرأس لمن يسجد له، وكذلك السجود للصنم، وللشمس، وللنجم، وللحجر، كله وضع الرأس قدامه . . . ومن أنواعه حلق الرأس للشيخ ؛ فإنه تعبد لغير الله . . . ومن أنواعه : التوبة للشيخ ؛ فإنها شرك عظيم فإن التوبة لا تكون إلا لله)[١] .

وبما أن السجود من الشعائر التعبدية التي لا تجوز إلا لله عز وجل وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام إلا أن سجود المريد للشيخ عند الصوفية لعله انتقل إليهم عن طريق الرافضة، والقرامطة، فالرافضة أجازت السجود للشاه إسماعيل الصفوي[٢] .

وقد ألف بعض علمائهم رسالة في تجويز السجود للعبد مسايرة لهذا الغلو في الشاه إسماعيل[٣]، وأما القرامطة فإن المريد الجديد إذا أراد الدخول في دعوتهم فإن أكبر النقباء عندهم يقوم بتعليمه البسملة، ثم يقرأ ذكرا على الحاضرين، فإذا مر على ذكر إمام الزمان خروا جميعا له سجدا[٤] ولشناعة هذا المسلك فإن بعضا من عقلاء الصوفية نمى إليه أن بعض الشيوخ يسجد له مريده، فأرسل إليه رسالة، ووبخه على هذا الفعل[٥] .

فالمبالغة في تعظيم الشيوخ (وتنزيلهم منزلة الأنبياء هو ما ينهى عنه، وقد كان عمر، وغيره من الصحابة، والتابعين رضي الله عنهم يكرهون أن يطلب منهم الدعاء، ويقولون : أنبياء نحن؟ فدل على أن هذه المنزلة لا تنبغي إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكذلك التبرك بالآثار ؛ فإنما كان يفعله الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ ولم يكونوا يفعلونه مع بعضهم بعضا ولا يفعله التابعون مع الصحابة مع علو قدرهم، فدل على أن هذا لا يفعل إلا مع الرسول (مثل التبرك بوضوئه، وفضلاته، وشعره، وشرب فضل شرابه،

---

(١) مدارج السالكين١/ ٣٤٤، وانظر العلم الشامخ للمقبلي ص٢٥١

(٢) هو إسماعيل بن عباس بن إسماعيل الأول بن حيدر بن جنيد ابن الشيخ صفي الدين الأردبيلي الصفوي، ملك العجم في فارس، جعل التشيع دين الدولة الفارسية في عهده، كان مبدأ سلطته سنة ٩٠٦هـ، وهلاكه سنة ٩٣٠هـ. انظر الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة للغزي٣/ ٥٣، والكنى والألقاب للقمي٢/ ٤٢٤، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص٤٩٦

(٣) انظر الصلة بين التصوف والتشيع للشيبي٢/ ٣٧٠

(٤) انظر أربع رسائل إسماعيلية تحقيق عارف تامر ص٧٩

(٥) انظر المنتخبات من المكتوبات للسرهندي ص٤

وطعامه .

وفي الجملة فهذه الأشياء فتنة للمعظم ، والمعَظَّم ، لما يخشى عليه من الغلو المدخل في البدعة ، وربما يترقى إلى نوع من الشرك)[١] .

فالتبرك بالذوات لا يكون إلا لمن نص الله تعالى على إعطائه البركة كأنبيائه ، ورسله عليهم السلام ؛ وأما غيرهم من عباد الله الصالحين من العلماء ، والأولياء فبركتهم بركة عمل ؛ بمعنى : أنها ناشئة عن علمهم ، وعملهم ، وعبادتهم ، لا عن ذواتهم ، فبركة الصالحين تكمن في دعائهم الناس إلى الخير ، ودعاء الله لهم ، ونفعهم الخلق بالإحسان إليهم بنية صالحة ، وبسبب صلاحهم ، وإصلاحهم لغيرهم تظهر آثار بركتهم في مجتمعهم ، وأما أن يعتقد الناس أن ذواتهم مباركة فيتمسحون بهم ، ويشربون سؤرهم ويقبلون أيديهم ، فهذا ممنوع في غير الأنبياء[٢] .

وقدرد الأمير الصنعاني[٣] ـ رحمه الله ـ على ما استنبطه بعضهم من تقبيل الحجر الأسود فجوز تقبيل كل من يستحق التعظيم[٤] .

فاتخاذ الشيخ واسطة بين المريد وربه في كل ما ينتابه ويحتاج إليه من أمور دينه ودنياه ، والانقطاع بسببه عن دعاء الله تعالى ، والتوجه إليه والتلذذ بمناجاته من الاعتقاد الفاسد المنتشر بين أوساط الصوفية -كما مر معنا- أما اتخاذ شيخ عارف بالله تعالى ، وبالصراط المستقيم المؤدي إلى رضوان الله تعالى من أجل التعلم عنه والاقتداء به في كمالاته الروحية ، والأخذ بتربيته الإسلامية ، وتطبيق سنن الهدى الثابتة عن المصطفى ﷺ التي يرويها الشيخ عمن تقدمه من أهل العلم المشهود لهم بالإمامة في الدين (فهذا أمر محمود ، ومأمور به ؛ إذ لا يمكن لأحد أن يعرف الله تعالى ، ويعرف محابه ، ومساخطه ، ويعرف كيف يعبده ، ويتقرب إليه إلا إذا تتلمذ لمشايخ العلم ، وتعلم منهم ، وتربى تحت رعايتهم ، وكامل عنايتهم)[٥] .

---

(١) الحكم الجديرة لابن رجب ص٤٦ (٢) انظر هذه مفاهيمنا ص٢٠٨

(٣) هو : محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد بن الحسين الأمير الصنعاني ، إمام عالم ، فقيه ، من تصانيفه «سبل السلام شرح بلوغ المرام »و«تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد » ، توفي سنة ١١٨٢هـ ، انظر : البدر الطالع٢/ ١٣٣ ، والأعلام ٦/ ٣٨

(٤) انظر الإنصاف في حقيقة الأولياء للصنعاني ص٥٦

(٥) إلى التصوف يا عباد الله ص١٣ ، وانظر جلاء العينين ص٥٦٥

وهذا الاعتقاد الفاسد في الشيخ واعتباره واسطة بين الله والناس كما تبين من صورة الواسطة البدعية عندهم في الأحياء لا ينتهي بموت الشيخ وانتقاله إلى عالم البرزخ؛ بل سينسحب عليه الحكم بوساطته بعد موته، ويزداد الحكم توكيدا، وتصبح العلاقة بين المريد وشيخه الميت أكثر حماسة وتوطيدا، بينما الشيخ رفات تحت الثرى بعيدا عن أعين الورى، وهذا ما ستوضحه صورة الواسطة البدعية عندهم في الأموات في المبحث الآتي.



المبحث الرابع

صورة الواسطة البدعية عندهم في الأموات

رأينا في المبحث السابق كيف أن الصوفية يأمرون الأتباع المريدين بالتعلق الشديد بالشيخ -الواسطة- في حال حياته، فإذا مات هذا الشيخ وأصبح في عالم البرزخ فإن التعلق به يزداد، واعتقاد وساطته يتمكن من شغاف القلوب؛ حيث يرون أنه أصبح في عالم الأرواح، وأن روحه قد تحررت، وتخلصت من أغلالها الجسمانية، وقيودها البشرية، فهي تطوف في الآفاق، وتحوم حول المريدين وتحوطهم بالعناية دون افتراق، فالشيخ المقبور يتصرف في الكون حيث يشاء؛ من أجل هذا كله اشتهرت دعوة الصوفية إلى التعلق بغير الله تعالى من المقبورين، وغيرهم، والعكوف على المقابر، وهذه السنة أخذتها الصوفية من الرافضة فيما أخذت من العقائد الفاسدة، فالرافضة -كما تقدم معنا- تدعو بكل صراحة، ووقاحة إلى الالتصاق بالقبر، والصلاة خلفه، وأحيانا يستحبون أن تكون عند رأس المقبور.

فانتقلت عدوى القبورية من الرافضة إلى الصوفية، وأصبح التعلق بالمقبورين والعكوف على القبور ديدن الصوفية وشعيرة من أغلى الشعائر التعبدية عندهم، ومن ثم نقل النبهاني عن بعض الصوفية قوله: (ومعلوم أن الأولياء أحياء في قبورهم إنما ينقلون من دار إلى دار . . . ، ومن الأولياء من ينفع مريده الصادق بعد موته أكثر مما ينفعه حال حياته، ومن العباد من تولى الله تربيته بنفسه بغير واسطة، ومنهم من تولاه بواسطة بعض أوليائه، ولو ميتا في قبره، فيربي مريده، وهو في قبره، ويسمع صوته من القبر)[1].

وقالوا بصراحة: (الولي في الدنيا كالسيف في غمده فإذا مات تجرد منه فيكون أقوى في التصرف)[2].

وأكد الكوثري[3] هذه العقيدة القبورية قائلا: (لا بد لأهل السلوك والرشاد من

---

(١) شواهد الحق ص١٥٠

(٢) إرغام المريد للكوثري ص٢٨، نقلا عن جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ٢/ ١٠٧٩

(٣) هو محمد بن زاهد الحسن الكوثري الجركسي الحنفي، كان فقيها جدليا متكلما، وله اشتغال بالأدب، والسير، ويؤخذ عليه تعصبه وعداؤه للدعوة السلفية، من مصنفاته: ((مقالات الكوثري))، توفي سنة ١٣٧١هـ. انظر الأعلام ٦/ ١٢٩، ومعجم المؤلفين ١٠/ ٤



التوسل، والاستغاثة، والاستمداد بأرواح الأجلة، والسادة الأمجاد؛ إذ هم المالك لأزمة الأمور في نيل ذلك المراد)[١].

ويقول الدباغ: (ومن آداب زائر القبور إذا أراد أن يدعو لصاحب قبر، ويتوسل إلى الله تعالى بولي من أوليائه في إجابة دعوته أن يتوسل إليه تعالى بولي ميت؛ فإنه أنجح لمقصوده، وأقرب لإجابة دعوته)[٢].

ونجد أن صورة الواسطة في هذا النص ميت يتوسط لميت!! فالولي -بعد موته- تتعلق روحه بمريده، فيحصل له ببركته أنوار، وفيوضات، ومعارف، وفتوحات.

قال بعض العارفين: (الولي يكون اعتناؤه بقرابته، واللائذين به بعد موته أكثر من اعتنائه بهم في حياته؛ لأنه في حياته كان مشغولا بالتكليف، وبعد موته طرح عنه الأعباء، وتجرد، والحي فيه خصوصية، وبشرية، وربما غلبت إحداهما الأخرى، وخصوصا في هذا الزمان، فإنها تغلب البشرية، والميت ما فيه إلا الخصوصية فقط. . . إن الأخيار إذا ماتوا لم تفقد منهم إلا أعيانهم، وصورهم، وأما حقائقهم فموجودة، فهم أحياء في قبورهم، وإذا كان الولي حيا في قبره فإنه لم يفقد شيئا من علمه وعقله، وقواه الروحانية؛ بل تزداد أرواحهم -بعد الموت- بصيرة، وعلما، وحياة، وروحانية، وتوجها إلى الله تعالى، فإذا توجهت أرواحهم إلى الله تعالى في شيء قضاه سبحانه وتعالى، وأجراه إكراما لهم، وهذا معنى قول بعضهم: إن لهم التصرف)[٣].

وقال ابن الحاج: (فإن كان الميت المزار ممن ترجى بركته فيتوسل إلى الله تعالى به، وكذلك يتوسل الزائر بمن يراه ممن ترجى بركته إلى النبي ﷺ؛ بل يبدأ بالتوسل إلى الله تعالى بالنبي ﷺ إذ هو العمدة في التوسل، والأصل في هذا كله، والمشرع له، فيتوسل بهﷺ وبمن تبعه بإحسان إلى يوم الدين. . . ثم يتوسل بأهل تلك المقابر، أعني بالصالحين منهم في قضاء حوائجه، ومغفرة ذنوبه، ثم يدعو لنفسه، ولوالديه، ولمشايخه، ولأقاربه، ولأهل تلك المقابر، ولأموات المسلمين، وأحيائهم. . ويجأر إلى الله تعالى بالدعاء عندهم، ويكثر التوسل بهم إلى الله تعالى؛ لأنه سبحانه وتعالى اجتباهم، وشرفهم،

---

(١) إرغام المريد ص٥ نقلا عن جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية٢/ ١٠٦٥، وانظر الروحية عند محي الدين ابن عربي للدكتور علي راضي١/ ٩٠

(٢) الإبريز ص١٩٤

(٣) تقريب الأصول لتسهيل الوصول لأحمد دحلان نقلا عن شواهد الحق ص١٤٩

وكرمهم فكما نفع بهم في الدنيا ففي الآخرة أكثر، فمن أراد حاجة فليذهب إليهم، ويتوسل بهم فإنهم الواسطة بين الله تعالى وخلقه. . . وأما عظيم جناب الأنبياء، والرسل -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين: فيأتي إليهم الزائر ويتعين عليه قصدهم من الأماكن البعيدة فإذا جاء إليهم فليتصف بالذل، والانكسار، والمسكنة، والفقر، والحاجة، والاضطرار، والخضوع، ويحضر قلبه، وخاطره إليهم وإلى مشاهدتهم بعين قلبه، لا بعين بصره؛ لأنهم لا يبلون ولا يتغيرون، ثم يثني على الله تعالى بما هو أهله، ثم يصلي عليهم، ويترضى عن أصحابهم، ثم يترحم على التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، ثم يتوسل إلى الله تعالى بهم في قضاء مآربه، ومغفرة ذنوبه، ويستغيث بهم، ويطلب حوائجه منهم، ويجزم بالإجابة ببركتهم، ويقوي حسن ظنه في ذلك؛ فإنهم باب الله المفتوح، وجرت سنته سبحانه وتعالى في قضاء الحوائج على أيديهم، وبسببهم)[1].

فالاستعانة بروحانية المشايخ الأجلة، ووصول الفيوض الباطنية من صورهم، وقبورهم أمر مطلوب، وصحيح على الطريقة المعروفة عند أهلها، وخواصها، وليس أمرا خاصا بما هو شائع عند العوام[2].

وإذا كان الشيخ -الواسطة- يوصي مريديه بالتعلق به في حياته -كما مر معنا في بيان صورة الواسطة البدعية عندهم في الأحياء فإننا وجدنا بعض هؤلاء المتبوعين يأمر أتباعه بالتعلق به، والتوسل به إلى الله تعالى، وإنزال المريدين حوائجهم به بعد موته، ويؤكد لهم أن روحه حاضرة معهم، وعنايته شاملة لهم، وأنه لا يغيب عنهم طرفة عين، ومن ذلك قول الشيخ محمد الحنفي[3] في مرض موته: (من كانت له حاجة فليأت إلى قبري، ويطلب حاجته أقضها له؛ فإن ما بيني وبينكم غير ذراع من تراب، وكل رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب فليس برجل)[4].

وكان هذا الشيخ يقرر لأتباعه عقيدة التعلق بالقبور، والاستنجاد بالمقبور، فيقول: (إذا مات الولي انقطع تصرفه في الكون من الإمداد وإن حصل مدد للزائر بعد الموت، أو قضاء حاجة فهو من الله تعالى على يد القطب، صاحب الوقت، يعطي الزائر من المدد على قدر مقام المزور)[5].

(١) المدخل ١/ ٢٤٨
(٢) انظر المهند على المفند ص٤٥
(٣) تقدمت ترجمته.
(٤) الطبقات الكبرى للشعراني ٢/ ٩٦
(٥) المرجع السابق ٢/ ١٠٠



وذكروا عن الشيخ زروق[١] أنه قال[٢] :-

أنا لمريدي جامع لشتاته إذا ما سطا جور الزمان بنكبة

وإن كنت في ضيق وكرب ووحشة فناد بيا زروق آت بسرعة

ويؤكد الدباغ لمريده وساطته، وعنايته به حتى بعد دفنه في التراب، فيقول له موصيا ومسليا (إن ذاتي ليست بمحجوبة في القبر؛ بل هي في العالم كله، عامرة له، ومالئة، وفي أي موضع تطلبني تجدني؛ حتى إنك لو قمت إلى سارية في المسجد، وتوسلت بي إلى الله عز وجل فإني أكون معك حينئذ، ثم أشار إلى العالم كله فقال: وأنا فيه بأجمعه، فحيثما طلبتني وجدتني!)[٣].

فهذه التصريحات من المشايخ والأولياء أنفسهم هي التي مهدت لرسوخ هذا الاعتقاد الفاسد في أذهان المريدين.

وأصل صورة الواسطة البدعية عند الصوفية في الأموات مأخوذة عن عباد الأصنام والفلاسفة والصابئة[٤].

وقد بين لنا العلامة ابن القيم صورة الواسطة البدعية عند الصوفية في الأموات، والقبورية عموما فقال: (فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيدا، وقد نزلوا عن الأكوار[٥]، والدواب إذا رأوها من مكان بعيد، فوضعوا لها الجباه، وقبلوا الأرض، وكشفوا الرؤوس، وارتفعت أصواتهم بالضجيج، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج، ورأوا أنهم قد أربوا في الربح على الحجيج، فاستغاثوا بمن لا يبدي، ولا يعيد، ونادوا؛ ولكن من مكان بعيد حتى إذا دبوا منها صلوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر، ولا أجر من صلى إلى القبلتين، فتراهم حول القبر ركعا سجدا يبتغون فضلا من الميت ورضوانا، وقد ملأوا أكفهم خيبة، وخسرانا، فلغير الله؛ بل للشيطان ما يراق هناك من العبرات،

---

(١) هو أبو الفضل أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى شهاب الدين البرلسي الفاسي الصوفي الشهير بزرُّوق، ولد بفاس سنة ٨٦٤هـ، له مقالات شنيعة في دعوة المريدين للتعلق به والاستمداد منه، توفي بطرابلس الغرب سنة ٨٩٩هـ. انظر شذرات الذهب(باسم إسماعيل المعروف بزروق) ٧/ ٣٦٣، ومعجم المؤلفين١/ ٩٨

(٢) انظر روض الرياحين لعبد السميع الديوبندي ص٢٠٦ نقلا عن جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية٢/ ١٠٨٧

(٣) الإبريز ص٢٤٢

(٤) راجع صورة الواسطة عند الفلاسفة مما تقدم.

(٥) الأكوار: جمع كور -بضم الكاف- وهو الرحل بأدواته ويجمع أيضا على كيران، انظر مختار الصحاح ص٥٨٢ مادة (ك و ر).



ويرتفع من الأصوات، ويطلب من الميت من الحاجات، ويسأل من تفريج الكربات، وإغناء ذوي الفاقات، ومعافاة أولي العاهات، والبليات، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين تشبيها له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركا وهدى للعالمين، ثم أخذوا في التقبيل، والاستلام، أرأيت الحجر الأسود، وما يفعل به وفد البيت الحرام؟ ثم عفروا لديه تلك الجباه، والخدود التي يعلم الله أنها لم تعفر كذلك بين يديه بالسجود، ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذا لم يكن لهم عند الله من خلاق، وقربوا لذلك الوثن القرابين، وكانت صلاتهم، ونسكهم، وقرباتهم لغير الله رب العالمين، فلو رأيتهم يهنئ بعضهم بعضا، ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجرا وافرا، وحظا، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحج المتخلف إلى البيت الحرام فيقول: لا، ولو بحجك كل عام! هذا ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم، ولا استقصينا جميع بدعهم، وضلالهم؛ إذ هي فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال)[١].

ونقل الشيخ محمد رشيد رضا صورة للواسطة البدعية عند صوفية زمانه في الشيخ عبد القادر الجيلاني، وهي أن من يتوجه إلى بغداد المدفون بها الشيخ عبد القادر الجيلاني -(القطب) كما يزعمون- بعد أن يصلي ركعتين بالليل، ويتوجه إلى الشيخ الواسطة، ويستغيث بهذين البيتين: -

أيدركني ضيم وأنت ذخيرتي ... وأظلم في الدنيا وأنت نصيري؟

وعار على راعي الحمى وهو في الحمى ... إذا ضاع في البيدا عقال بعيرا

ثم يناديه باسمه، ويذكر حاجته فإنها تقضى[٢]، وتسمى هذه الصلاة عند البريلوية الصلاة الغوثية، وصورتها: أن يصلي أحدهم ركعتين، ثم يخطو في اتجاه بغداد إحدى عشرة خطوة، وكلما وضع قدمه استغاث بالشيخ الجيلاني[٣].

وقالوا -أيضا- في بيان صورة الواسطة البدعية عندهم في زيارة قبر الشيخ الجيلاني: (أول ما يجب على الزائر أن يتوضأ وضوءا سابغا، ثم يصلي ركعتين بخشوع، واستحضار

(١) إغاثة اللهفان١/ ٢٠٠

(٢) ذكر هذه الصورة الشيخ رشيد رضا في تعليقه على صيانة الإنسان، انظر ص١٩٩

(٣) انظر جاء الحق لأحمد البريلوي ص١٨٦ نقلا عن البريلوية لإحسان إلهي ظهير ص٥٨

ثم يتوجه إلى تلك (الكعبة) المشرفة، وبعد السلام على صاحب الضريح المعظم يقول: يا صاحب الثقلين أغثني، وأمدني بقضاء حاجتي، وتفريج كربتي، أغثني يا محي الدين عبد القادر، أغثني يا ولي عبد القادر، أغثني يا سلطان عبد القادر، أغثني يا بادشاه عبد القادر، أغثني يا خوجه عبد القادر، يا حضرة الغوث الصمداني، يا سيدي عبد القادر الجيلاني عبدك، ومريدك مظلوم عاجز، محتاج إليك في جميع الأمور في الدين والدنيا والآخرة)[١].

وقد صور لنا أحدهم -وهو من المتأخرين- صورة الواسطة البدعية في زيارة السيد أحمد البدوي فقال: (الذي يجلب لفاعله الرضا، والمحبة هو أن يقف الزائر خارج الباب، فيستغفر ربه إحدى عشرة مرة من خطيئاته، وفرطات لسانه التي ارتكبها قبل قدومه للزيارة؛ فإذا تطهر من خطيئاته دخل في أدب، واحترام، وقال: (لا إله إلا الله) إحدى عشرة مرة أيضا، ويختم الحادية عشرة بقوله (محمد رسول الله) فإنه إذا كانت روح الولي غائبة، مشغولة بأمر حضرت عند ذكر لا إله إلا الله؛ لأنه لا شيء أشهى للولي من ذكر الله، فإذا ذكر عندها حضرت على عجل، وبعد ذلك يبدأ بالسلام، فإذا سلم رد عليه السلام، ورده للسلام منحة للزائر لا يستهان بها، ثم يقرأ سورة الإخلاص إحدى عشرة مرة، ثم يقول: اللهم تقبل مني هذه القراءة، واجعل ثوابها في صحيفة سيد المرسلين، وثواب مثل ذلك لأرواح أبينا سيدنا آدم، وأمنا سيدتنا حواء، ومن ولدا من الأنبياء والمرسلين، والشهداء والصالحين -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- وثواب مثل ذلك لآل بيت النبي وأصحابه، وأزواجه، وذريته، وأهل بيته -صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم وعنا، ونفعنا بهم في الدنيا والآخرة، وألحقنا بهم في الدارين آمين، وثواب مثل ذلك في صحيفة هذا الولي، ثم من يحب بعد ذلك، فإذا قدم لهم هذه الهدية طالبه بهدية مماثلة، فقال: شيء لله من المدد يا سيدي فلان، إحدى عشرة مرة، وبعد ذلك يبسط يديه إلى السماء، ويطلب حاجاته الدنيوية، ثم الأخروية، وعندئذ يؤمن الولي على دعائه الدنيوي، ثم الأخروي، وتأمينه قد يكون سببا في قبول دعائه، وقد يكون سببا في قبول ما هو منه مصلحة للداعي، فهذه هي صفة الزيارة التي تجلب لفاعلها الرضا، والمحبة من سيدي أحمد البدوي)[٢].

(١) النظرات للمنفلوطي ١/ ٤٥، وانظر دمعة على التوحيد ص٢١١
(٢) العظة والاعتبار آراء في حياة السيد البدوي لأحمد محمد حجاب ص١٥٨



وينفق القبوريون على هذه المشاهد الأموال الطائلة، ويعملون النذور لها، ويحسبون الأموال عليها، كل ذلك تعظيما للمقبورين، واعتقادا لوساطتهم، وقد صور الشاعر المصري حافظ إبراهيم(١) بسخرية هذا الواقع المؤلم بقوله(٢): -

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم	**وبألف ألف ترزق الأموات**
من لي بحظ النائمين بحفرة	**قامت على أحجارها الصلوات**
يسعى الأنام لها ويجري حولها	**بحر النذور وتقرأ الآيات**
ويقال هذا القطب باب المصطفى	**ووسيلة تقضى بها الحاجات**

وأما كيفية زيارة قبر الشيخ أحمد التجاني -وهي صورة للواسطة البدعية في الأموات عند التجانية- فهي: أن يقابل الواحد منهم الضريح وهو يقرأ (التحيات لله) إلى: (ورحمة الله) سبع مرات وفي الثامنة إلى (رسوله) صلى الله عليه وسلم، ثم يقول السلام عليك يا خليفة الله، السلام عليك يا خليفة رسول الله، السلام عليك يا أيها القطب المكتوم، السلام عليك يا سيدنا، وشيخنا مولانا أحمد التجاني، ثم يقرأ الفاتحة أربع مرات، صلاة الفاتح أزيد من إحدى عشرة ويهدي ثواب ذلك للشيخ أحمد التجاني، ثم يقول: اللهم بحق عبادك الذين إذا نظرت إليهم سكن غضبك، وبحق الحافين من حول العرش، وبحق سيدنا محمد ﷺ، وبحق سيدنا، وشيخنا، ومولانا أحمد التجاني افعل لي كذا، وكذا، ويسمي حاجته؛ فإنها تقضى إن شاء الله(٣).

وفي صورة أخرى للواسطة البدعية في الأموات عند التجانية يذكرون أن من أتى ضريح الشيخ أحمد التجاني، وقرأ عنده سورة يس وأهدى ثوابها لشيخه التجاني، ثم أنشد هذه الأبيات: -

أيضام عبد في حماكم قد نزلْ	**يا سادة لهم السيادة في الأزلْ**
إني أتيت لبابكم مستصرخا	**يا من لهم كل الأماني والأملْ**
أنتم ولاة الأمر يا غيث الورى	**عونا لنا نصرا عيانا عن عجلْ**

---

(١) هو محمد حافظ بن إبراهيم فهمي، المهندس الشهير بحافظ إبراهيم، ويلقب بشاعر النيل، ولد في ذهبية بالنيل عام ١٢٨٧هـ، ونشأ يتيما في القاهرة، واشتغل بالمحاماة، ثم التحق بالمدرسة الحربية وتخرج منها برتبة ملازم ثاني، عين في آخر عمره رئيسا للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية، له ديوان شعر، كانت وفاته سنة ١٣٥١هـ. انظر الأعلام ٦/ ٣٠٤، ومعجم المؤلفين٣/ ٢٠٤

(٢) انظر ديوان حافظ إبراهيم ١/ ٣١٨

(٣) انظر كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب لسيدي أحمد سكيرج ص٥٠



ثم دعا بما أراد فإن الإجابة تقع له بحول الله وقوته[١] .

ونقل النبهاني عن الشيخ علي القاري[٢] أنه ذكر فائدة عظيمة يستحب فعلها عند قبور الأنبياء، والأولياء، والعلماء، ومن دونهم، فقال: (إذا زرت قبر نبي، أو ولي، أو عالم، أو من دونهم -مثلا- وكنت في كرب عظيم، وأردت أن صاحب ذلك القبر تحضر روحه إليك وتشكو إليه ظلامتك؛ أي بلسان حالك، أو قالك؛ ليشفع فيك عند المليك، فيكفيك ما أهملك ومن دائك يشفيك، فاقرأ: ﴿**قل هو الله أحد**﴾ عشر مرات، وإن قدمت قبل القرآن؛ أعني يس كان أجود، وأسرع، والمعوذتين، ثلاثا، ثلاثا، فاتحة الكتاب، والأسماء الحسنى بعد أو البقرة وآخرها، وتغمض عينيك، وتستحضر جميع قلبك، ثم تقول: (لا إله إلا الله) ثلاثا (الله) ثلاثا بالمد، ثم تسكت سكة لطيفة، وتقول: السلام عليكم ورحمة الله بركاته يا سيدي فلان، أو يا شيخ، أو يا أستاذي، أو يا رسول الله ﷺ أي: وتعرض على المزار ما أصابك من أكدار، يجليها بمنة الستار، بشفاعة صاحب المزار، وهذه الفائدة من أكبر الفوائد)[٣] .

ويعتقد بعض الصوفية أن الميت تعود إليه الحياة بعد أربعين يوما من دفنه، وفي هذا اليوم يعملون للميت عيدا يسمونه عيد الميت الأربعين، وقد صور لنا أحد شعرائهم الواسطة البدعية عندهم في الأموات بعد الأربعين فقال -يخاطب المقبور: -

لم لا تجيب وقد دعوت مرارا؟ يكفيك صمتا أربعون نهـارا

الليل أقبل وازدهى بنجومـه ما بال نجمي في التراب توارى

ويقدم لنا الأستاذ عبد الرحمن الوكيل تجربته في القبورية والتي تعتبر صورة واضحة لما يحدث حول الأضرحة في العالم الإسلامي فيقول: (كنت أطوف حول صنم البدوي حتى إذا مثلت أمام الكوة الصغيرة في وثنه النحاسي البراق أنفذ منها يدي في رعشة التقديس حتى ألمس ستر القبر، ثم أخرجها رويدا رويدا في حرص، وحذر بالغين، وقد ضممت قبضتيهما على . . . . ؟ على ماذا؟ كنت أوقن حين ذاك أنني أضمهما على بركات سماوية، تفيض من روح الله على القبر، ثم أبسط يدي في جيبي، ثم أمسح بها وجهي

---

(١) انظر المرجع نفسه. (٢) تقدمت ترجمته.

(٣) ذكر هذه الفائدة القبورية لعلي القاري في شرحه للحصن الحصين ونقلها عنه النبهاني، انظر شواهد الحق ص٤٤٥

رجاء أن أكون ميسر الرزق، داني قطوف النجاح، مشرق الوجه بنور الله)[١].

ويصور لنا كاتب آخر ما شاهده من أحوال الناس عند أحد المقابر، فيقول: (منهم من يتشبث بالضريح معانقا، ومقبلا، ومن لم يستطع الوصول إليه يقف ملوحا بيديه، متمتما بالدعاء، وقراءة الفاتحة، ومنهم من يخر مقبلا عتبات الضريح، ومن الرجال من يخلع شاله[٢] ويربطه في المقصورة، ثم يمسح يديه على وجهه، وصدره، والجميع في حاله من النشوة، والوجد)[٣].

وإذا أردنا أن نرصد أحوال الغلاة في المقبورين وأفعال العاكفين على الأضرحة وجدنا بعضهم يصلي إلى الميت المقبور، ويدعوه، فيقول: يا سيدي فلان اغفرلي، وارحمني، وطائفة منهم يستقبلون القبر ويصلون إليه مستدبرين الكعبة، ويقولون: القبر قبلة الخاصة، والكعبة قبلة العامة، وهذا يقوله من هو أكثر الناس تظاهرا بالعبادة والزهد، وهو شيخ متبوع، فما ظنك بمريده العامي؟ فلعل أمثل أصحاب شيخه يقوله عن شيخه وآخر من أعيان الشيوخ المتبوعين أصحاب الصدق والاجتهاد في العبادة، والورع يأمر المريد إذا أراد التوبة أن يذهب إلى قبر الشيخ فيعكف عليه عكوف أهل الأصنام على أصنامهم وجمهور هؤلاء الغلاة في المقبورين يجدون عند عبادة الأضرحة من الرقة، والخشوع، والرجاء، والخوف من المقبور ما لا يجدونه في المساجد، والمشاعر المقدسة، ومنهم من يقول: من طاف بقبر الشيخ سبعا كان كحجة، وكان بعض الشيوخ الذين عاصروا شيخ الإسلام ابن تيمية، ولهم فضل، وعلم، وزهد إذا نزلت بهم نازلة خطوا إلى جهة قبر الشيخ عبد القادر الجيلاني خطوات، واستغاثوا به.

ومن الغلاة من يقول: هذا وقتك يا شيخ فلان، أو يقول: إن لم تحضر يا شيخ فلان؛ وإلا فعل بنا، وصنع!!، وقد يقول قائلهم: إن كان لك جاه عند الله تعالى فهذا وقت جاهك، وقد يستغيث أحدهم بعدة مشايخ مقبورين، فيقول: يا سيدي فلان، وسيدي فلان، وسيدي فلان[٤].

---

(١) هذه هي الصوفية ص٤

(٢) الشال: هو المخيط خياطة خفيفة، يقال: (شللت الثوب شلا أي خطته خياطة خفيفة) انظر المصباح المنير ١/ ٣٢٢ مادة (شلَّت).

(٣) موالد مصر المحروسة لعرفة عبده علي ص٦٠ نقلا عن دمعة على التوحيد ص٦٥

(٤) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ٢/ ٥٦٠، وغاية الأماني ٢/ ٣٤٦، ودمعة على التوحيد ص٥٥



يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (وآخرون قد جعلوا الميت بمنزلة الإله ، والشيخ الحي المتعلق به كالنبي ؛ فمن الميت يطلب قضاء الحاجات ، وكشف الكربات ، وأما الحي فالحلال ما حلله ، والحرام ما حرمه ، وكانوا في أنفسهم قد عزلوا الله عن أن يتخذوه إلها ، وعزلوا محمدا ﷺ عن أن يتخذوه رسولا ، وقد يجيء الحديث العهد بالإسلام ، أو التابع لهم لحسن الظن بهم ، أو غيره يطلب من الشيخ الميت : إما دفع ظلم ملك يريد أن يظلمه ، أو غير ذلك ، فيدخل ذلك السادن فيقول : قد قلت للشيخ ، والشيخ يقول للنبي ، والنبي يقول لله ، والله قد بعث رسولا إلى السلطان فلان! فهل هذا إلا محض دين المشركين ، والنصارى ، وفيه من الكذب ، والجهل ما لا يستجيزه كل مشرك ، ونصراني ، ولا يروج عليه؟)[1] .

وتبلغ القبورية ذروتها في الخرافة حينما تعمد إلى خصخصة الأضرحة ، والمشاهد ، وتقسيم تخصصات المشايخ في الفوائد ، فلكل ضريح دوره في حياة الناس : فضريح السيدة فلانة يزار لزواج العوانس ، وضريح الشيخ فلان يزوره المعدمون لبسطة الرزق ، والقادرة الشاطرة صاحبة الضريح الفلاني يحج إليها في مشاكل الحب ، والهجر ، والفراق ، والطلاق ، ومقبورة أخرى متخصصة في أمراض الأطفال ، والعيون ، وعسر الهضم ، وهكذا . . فالقائمة لا تنتهي ، وهي مؤامرة محكمة الحلقات تلف خيوطها حول السذج ، والبسطاء من المسلمين[2] .

وذكر الأمير الصنعاني : أن الوسائط البدعية انتشرت في جميع النواحي ، وأصبح لكل قوم واسطة ينادونه ، فأهل العراق لهم واسطة ، وأهل الهند يتعلقون بواسطتهم ، وأهل مكة والطائف لهم واسطة ، وفي كل بلد ميت يهتف الناس باسمه ، وأهل مصر لهم واسطة ، وأهل اليمن لهم واسطة ، وفي كل قرية أموات يهتفون بهم ، وينادونهم ، ويرجونهم لجلب الخير ، ودفع الضر ، وهذا بعينه فعل المشركين في الأصنام[3] .

ثم قال –شعرا– من قصيدة يمدح بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ويشيد بدعوته السلفية رحمهما الله تعالى[4] : –

---

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة ٢/ ٥٦٤ (٢) انظر : كنت قبوريا ص٣٦

(٣) انظر تطهير الاعتقاد ص٥٨ ، ومدارج السالكين ١/ ٣٣٩ ، والدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد ضمن الرسائل السلفية للشوكاني ص١٦٥ ، وتوحيد الألوهية أساس الإسلام ص٣٢١

(٤) انظر تطهير الاعتقاد ص٥٩

أعادوا بها معنى سواع ومثله ... يغوث وود ليس ذلك من ودي

وقد هتفوا عند الشدائد باسمها ... كما يهتف المضطر بالصمد الفرد

وكم نحروا في سوحها من نحيرة ... أهلت لغير الله جهلا على عمد

وكم طائف حول القبور مقبلا ... ويلتمس الأركان منهن بالأيدي

ويرى بعض المستشرقين أن ظاهرة العكوف على القبور، والاستنجاد بالمقبورين، وطلب الحوائج منهم -عند بعض المسلمين- لم تظهر إلا في القرن الثالث الهجري متأثرة بالعقيدة الكاثوليكية عند النصارى.

يقول بوته: (وفي القرن الثالث من الهجرة ظهرت في الإسلام العقيدة بالأولياء، وابتدعت زيارة قبورهم، وصاروا يعتبرون لهم خصائص، ويعزون إليهم الكرامات، والخوارق، وأشبهت القضية العقيدة الكاثوليكية من هذا الوجه، فالولي الفلاني يشفي من الريح[١] كما كان القديس " فياكر " يشفي من مرض الباسور، والشيخ الفلاني يقصده الناس لأجل لقيان الحوائج الضائعة؛ كما كانوا في النصرانية يقصدون القديس " أنطوان بادو" . والإمام الشافعي يستغيث به طلاب الأزهر للنجاح في دروسهم؛ مثل القديس " أيف " الخ)[٢].

وهكذا، بهذه العقيدة الكاثوليكية النصرانية دخل الشرك إلى عقائد الصوفية، من عدة منافذ، وجاءت الخرافة تجر أذيالها، كل ذلك بسبب التقليد، والمحاكاة، والتشبه، وعدم التقيد بمصدر التشريع: الكتاب، والسنة، واتباع سنن اليهود، والنصارى، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ، فصار ديدنهم عند الأموات، ومصارع الرفات دعاؤهم، والاستعانة بهم، والعكوف حول أجداثهم، ورفع الأصوات بالخوار[٣]، وإظهار الفاقة، والاضطرار.

يقول الشيخ حسين النعمي (ترى هنالك ربع المشهد مأهولا، وقد قطعت إليه المهامه[٤]، وعورا، وسهولا، والنداء لساكنه: أن يمنح، أو يربح، والتأدب، والخضوع،

---

(١) هكذا في النص، ولعله يقصد الريح الخارجة من البطن بسبب اضطرابات في الجهاز الهضمي.

(٢) من كتاب الإسلام والنصرانية في إفريقية لمسيو بوته مري نقلا عن دمعة على التوحيد ص١١٧

(٣) الخوار: صياح الثور، انظر مختار الصحاح ص ١٩٢، مادة (خ، و، ر).

(٤) المهامة: جمع مهمه، وهي الصحراء البعيدة، انظر مختار الصحاح ص٦٣٩، مادة م، هـ، هـ).

والتوقير، والرغبة، ومشاعر الرهبة، وينضاف إلى ذلك، خصوصا في الزيارات في الأعياد، والموالد- نحر الأنعام، وترك الصلاة، وصنوف الملاهي، وأنواع المعاصي للمليك العلام، وكثيرون لا طمع في حصرهم، ولعلهم العموم- إلا من شاء الله- إن لم تلد زوجة أحدهم، أو طال مرض مريض منهم أو أصاب امرأة التوق إلى النكاح، أو قحطت الأرض، أو دهمهم نازل من عدو، أو جراد، أو غيرهما، أو راموا أمرا عناهم تحصيله فالولي في كل ذلك نصيب العين.

ومن عجيب ما أتته العامة من طرائف هذا الباب، وغرائبه الفاحشة ما شاهدناه بالمعاينة مكتوبا على راية مشهد من المشاهد (هذه راية البحر التيار فلان بن فلان به أشتغيث، وأستجير، وبه أعوذ من النار).

ومنهم أقوام يخاطبون المقبور من مسافة أربعة برد، وأكثر من ذلك وينادونه، يسألونه المطر. . . ومن ذلك أن امرأة كف بصرها، ومات ولدها فنادت وليها: أما الله فقد صنع ما ترى، ولم يبق إلا حسبك فيَّ، ومن ذلك، وهو أشهر عجائبهم المعلومة في نواح من البلدان، شراؤهم الأولاد -بزعمهم- من الولي بشيء معين، فيبقى ثمنه رسما جاريا يؤدى كل عام لصندوق الولي، وإن كانت امرأة فمهرها له أو نصف مهرها؛ إذ هي مشتراة منه. . . ومن ذلك -وهو أيضا من طرائف ما يحكى- أن رجلا سأل من فيه مسكة من عقل، فقال: كيف رأيت الجمع لزيارة الشيخ؟ فأجابه: لم أر أكثر منه إلا في جبال عرفات؛ إلا أني لم أرهم سجدوا لله سجدة قط، ولا صلوا مدة الثلاثة الأيام فريضة، فقال السائل: قد تحملها عنهم الشيخ!!)[1].

وبناء على هذا الاعتقاد الفاسد في المقبورين نشأ شرك الألوهية؛ حيث توجه القبوريون إلى الأضرحة، وأصحابها بالعبادات، والتقربات التي لا يصح صرفها إلا لله عز وجل بدعوى نيل البركة ظانين أنهم بزيارتهم لهذه الأضرحة ستأتيهم البركة، ويشفون من مرضهم، أو يفكون عقم نسلهم، وكانوا يمسحون عمامة صاحب الضريح -بعد الولائم- أملا في شفاء أوجاع الرأس، ويمسون قفطانه للعلاج من الحمى، لحسن الحجر لفك عسر اللسان، وتقديم العرائض طلبا لرفع الظلم، وتمسح النساء في الضريح أملا في إنجاب

---

(١) معارج الألباب ص٢٠٢ وما بعدها (بتصرف).



الذكور، ولم يستح القبوريون في طلبهم المنهوم للبركة المزعومة أن يستسيغوا المعاشرة الزوجية في هذه الأضرحة، فهذا الشعراني صاحب أكبر سجل لخرافات القبوريين يذكر من كرامات البدوي أنه دعاه إلى فض بكارة زوجته فوق قبة قبره فكان الأمر، وفي السودان وصل الأمر في العصر الحاضر عند بعض الرجال المخرفين إلى مجامعة زوجاتهم عند أضرحة الأولياء، بدعوى نيل البركة!)[1].

وهذه الأمور التي ابتدعها القبوريون عند الأضرحة مراتب -كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

المرتبة الأولى:(أبعدها عن الشرع أن يسأل الميت حاجة، أو يستغيث به فيها، كما يفعله كثير من الناس بكثير من الأموات، وهو من جنس عبادة الأصنام؛ ولهذا تتمثل لهم الشايطين على صورة الميت، أو الغائب كما كانت تتمثل لعباد الأصنام؛ بل أصل عبادة الأصنام إنما كانت من القبور. . . وقد يرى أحدهم القبر قد انشق وخرج منه الميت، فعانقه، أو صافحه، أو كلمه، ويكون ذلك شيطانا تمثل على صورته ليضله، وهذا يوجد كثيرا عند قبور الصالحين، وأما السجود للميت، أو للقبر فهو أعظم، وكذلك تقبيله.

المرتبة الثانية: أن يظن أن الدعاء عند قبره مستجاب، أو أنه أفضل من الدعاء في المساجد، والبيوت، فيقصد زيارته لذلك، أو للصلاة عنده، أو لأجل طلب حوائجه منه، فهذا أيضا من المنكرات المبتدعة باتفاق أئمة المسلمين.

المرتبة الثالثة: أن يسأل صاحب القبر أن يسأل الله له، وهذا بدعة باتفاق أئمة المسلمين)[1].

ويدعي بعض الصوفية أن الولي المقبور يجيب الفقير الصوفي إذا ناداه من قبره، ولا يجيب الفقيه السني، والسبب -عنده- هو أن الفقير الصوفي يعتقد في المقبور النفع، والضر، وأما الفقيه السني، فلا يعتقد ذلك؛ ولهذا لما سأل الشعراني شيخه عليا الخواص: ما السبب الذي أجاب به مشايخ الطرق مريديهم، وهم في قبورهم، وحرم ذلك الفقهاء مع أئمتهم؟ أجابه بأن السبب هو اعتقاد الصوفي الصحيح، فالصوفي يعتقد في شيخه أنه حي

---

(١) دمعة على التوحيد ص٦١، وانظر التبرك أنواعه، وأحكامه للجديع ص٤٧٣

(٢) تلخيص كتاب الاستغاثة١/ ١٤٦، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم٢/ ٦٥٧، وزيارة القبور والاستنجاد بالمقبور ص١٧، وإغاثة اللهفان١/ ٢٢٢، وفتاوى اللجنة الدائمة٢/ ٢٨٠

في قبره، والحي يجيب من ناداه، والفقيه يعتقد أن إمامه قد مات، والميت لا يجيب من ناداه، فلو صح اعتقاد الفقيه وصدق في تعلقه بهؤلاء الوسائط المقبورين لأجابوه من قبورهم، كما أجابوا من ناداهم من فقراء الصوفية الذين يعتقدون حياة هؤلاء الأئمة في قبورهم، فالأمر تابع لاعتقاد المريد، لا للمشايخ، والله أعلم!![1].

فليت غلاة الصوفية الذين ابتلوا بالعكوف على القبور، والتعلق بالمقبورين علموا أن صاحب القبر الذي يدعونه صباحا، ومساء، قد غيِّب في الثرى، بعيدا عن أعين الورى، وأنه يتمنى من الحي أن يتصدق عليه بدعوة خالصة، أو يهبه صدقة جارية، وأنه يقول بلسان الحال[2]: -

ومن عجبٍ أني لغيرك شافــع ... إليك وبي فقرٌ إلى ألف شافع!!

لَيْتَهم علموا ذلك، يقول العلامة ابن القيم: (فبدل أهل البدع، والشرك قولا غير الذي قيل لهم، بدلوا الدعاء له بدعاء نفسه، والشفاعة بالاستشفاع به، وقصدوا بالزيارة التي شرعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم -إحسانا إلى الميت وإحسانا إلى الزائر، وتذكيرا بالآخرة: سؤال الميت، والإقسام به على الله، وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذي هو مخ العبادة، وحضور القلب، عندها وخشوعه أعظم منه في المساجد، وأوقات الأسحار، ومن المحال أن يكون دعاء الموتى، أو الدعاء بهم، أو الدعاء عندهم مشروعا، وعملا صالحا، ويصرف عنه القرون الثلاثة المفضلة، وبنص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم يرزقه الخلوف الذين يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون، فهذه سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أهل القبور بضعا وعشرين سنة حتى توفاه الله تعالى؛ هل يمكن بشر على وجه الأرض أن يأتي عن أحد منهم بنقل صحيح، أو حسن، أو ضعيف، أو منقطع أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبور، فدعوا عندها، وتمسحوا بها؛ فضلا عن أن يصلوا عندها، أو يسألوا الله بأصحابها، أو يسألوهم حوائجهم؟)[3].

---

(١) انظر الجواهر والدرر للشعراني مطبوع بهامش الإبريز ص٥٩

(٢) انظر يتيمة الدهر للثعالبي.

(٣) إغاثة اللهفان١/ ٢٠٨، وانظر الدر النضيد ضمن الرسائل السلفية للشوكاني ص١٧٢، وزيارة القبور الشرعية، والشركية للبركوي ص١٨، وغاية الأماني٢/ ٣٠، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية٢/ ١١٣٨

فينبغي للمسلم أن يعلق قلبه بالحي الذي لا يموت لتحقيق آماله، وقضاء حوائجه، وبلوغ عزه؛ لأن من علق آماله بمقبور ميت فآماله ميتة، قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾[١] وقال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢]

(١) سورة الفرقان الآية ٥٨

(٢) سورة غافر الآية ٦٤



المبحث الخامس

نظرة الصوفية لشيوخهم "وسائطهم"

توطئـــة: لقد مر معنا في المبحث الثالث من هذا الفصل صورة الواسطة البدعية عند الصوفية في الأحياء من شيوخهم، وتناولت في المبحث الرابع -أيضا- صورة الواسطة البدعية عندهم في الأموات، وسأتناول في هذا المبحث نظرة الصوفية لشيوخهم، ووسائطهم، عموما؛ الأحياء منهم، والأموات، وهذا التقسيم إنما هو من مقتضيات منهج البحث العلمي الذي يعني بترتيب الأفكار المتقاربة، وتقسيم الفكرة إلى أجزاء متعددة؛ لتكون أسهل تناولا، وأشد رسوخا في ذهن القارئ، ومع أنني معترف بأن الكلام في هذا المبحث يمكن أن يتجاذب أطرافه المبحثان السابقان، من بعض الجوانب؛ إلا أنني قصدت بهذا المبحث بيان نظرة الصوفية لشيوخهم ووسائطهم عموما، دون الاقتصار على بيان صورة الواسطة البدعية عندهم في الأحياء، أو المقبورين، ومظاهر التوسيط التي ابتلي بها أولئك المجانين؛ محاولا تجنب التكرار في النقول، مع بيان نظرتهم باختصار يوحي بالشمول.

تعتني الصوفية بالزهد، والمجاهدة النفسية، وعصيان الهوى، والصبر على المداومة على الطاعة، والمرابطة في المساجد، إلا أن هناك أمرا عقديا خطيرا أخطأت فيه الصوفية ينسف كل ما قلنا عنهم سلفا، ويوقعهم في بؤرة الشرك، ومستنقع الخرافة، إنه الغلو في الشيوخ، ورفع منزلتهم إلى مقام الأنبياء، وادعاء وساطتهم، وقدراتهم الخارقة، وتصرفهم في الإنسان، والكون، وإضفاء كثير من الأوصاف عليهم، لا تليق إلا بالباري سبحانه وتعالى، حتى أصبح الشيخ عالما خرافيا يبني على ادعاء وساطته كثير من التصورات الخاطئة، والدعاوى الكاذبة.

يقول الأستاذ عبد الرحمن الوكيل: (ما ألحفت[1] الصوفية في شيء إلحافها في الدعوة إلى اتخاذ شيوخها أربابا من دون الله، ففرضت على الدرويش أن يكون وطاء ذليلا لشيخه مستعبد الفكر سليب الإرادة كجثة الميت في يد الغاسل، وجعلت هذه العبودية الممتهنة أولى الدلائل على طاعة المريد لشيخه وعلى حبه له، وعلى أنه يرقى معارج الوصول إلى

---

(١) ألحف بالشيء: أضربه. انظر القاموس المحيط٣/ ٢٠١ مادة (لحفه).

حظائر القدس)[١] .

ويقول أيضا : (فالصوفية يعتقدون أن أولياءهم ليسوا بشرا وإنما هم آلهة تخلق ما تشاء وتختار ، أو هم -كما نقلنا من قبل- ذات الله سبحانه وتعالى تجسدت مرة فكانت تجانية ، وأخرى فكانت نقشبندية ، وأخرى فكانت رفاعية ، أو شاذلية ، أو برهامية[٢] !!)[٣] .

فالشيخ عند غلاة الصوفية إله يعطونه كل صفات الألوهية ، وهذا هو الأساس في كل طريقة ، والاعتقاد السائد عند معتنقيها ، وما تفرقت الطرق إلا اتباعا لتعدد الشيوخ ، وتسمى كل طريقة باسم شيخها ، ومؤسسها ، وكلهم يعبدون الشيوخ ، وأقوالهم شاهدة عليهم بذلك كالتبرك بذواتهم ، والركوع أمام قبورهم ، ولثم حجارتها ، والاستغاثة بما فيها من رمم[٤] ، وأمثلهم طريقة في ذلك من يعتقد أنهم واسطة بينه وبين الله تعالى ، وأنهم يقربونه إلى الله زلفى ، وحسن مآب ، وأفعالهم ، وأقوالهم شاهدة عليهم بوضوح كوضوح الشمس على أنهم يؤلهون شيوخهم ، ويعبدونهم ، ولو طفقنا نجمع أقوال عارفيهم ، وأقطابهم في تأليه الشيوخ لملأنا ألوف الصفحات ، وضيعنا نفيسا من الأوقات[٥] . لكن الذي يتمشى مع الرسالة ، ويسمح به منهج البحث هو إجمال نظرتهم لشيوخهم في النقاط التالية : -

أولا: حقيقة الشيخ الذي لا يصح إيمان، ولا هدى، ولا صلاح، ولا فلاح إلا باتباعه.

إذا طرحنا السؤال التالي : وهو ما هي حقيقة الشيخ الذي يكون بهذه المنزلة؟ يجيبنا عليه شيخ التجانية أحمد التجاني بقوله : (أما ما هي حقيقة الشيخ الواصل؟ فهوالذي رفعت له جميع الحجب عن كمال النظر إلى الحضرة الإلهية نظرا عينيا ، وتحقيقا يقينيا ؛ فإن الأمر أوله محاضرة ، وهو مطالعة الحقائق من وراء ستر كثيف ، ثم مكاشفة ، وهو مطالعة الحقائق من وراء ستر رقيق ، ثم مشاهدة ، وهو تجلي الحقائق بلا حجاب ، لكن مع خصوصية . . فهذا هو الشيخ الذي يستحق أن يطلب ، ومتى عثر المريد على من هذه صفته فاللازم في حقه أن يلقي بنفسه بين يديه كالميت بين يدي غاسله ، لا اختيار له ، ولا إرادة ، ولا إعطاء

---

(١) هذه هي الصوفية ص٩٩
(٢) هكذا في النص المطبوع ، ولعله يقصد الطريقة البرهانية .
(٣) هذه هي الصوفية ص١٠٢
(٤) الرمم : جمع رمة بكسر الراء : وهي العظام البالية . انظر مختار الصحاح ص٢٥٧ مادة (ر ، م ، م) .
(٥) انظر الكشف عن حقيقة الصوفية ص٣١٧ وما بعدها (بتصرف) .

له، ولا إفادة، ومتى أشار عليه بعمل، أو أمر فليحذر من سؤاله بلم؟ وكيف؟ وعلام؟ ولأي شيء؟؛ فإنه باب المقت، والطرد)(١) .

ويقول القشيري: (ثم يجب على المريد أن يتأدب بشيخ؛ فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبدا، هذا أبو يزيد يقول: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان، وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق(٢) يقول: (الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق؛ لكن لا تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نَفَسًا فَنَفسًا فهو عابد هواه)(٣) .

ويقول ابن عربي في فتوحاته - شعرا-(٤) :-

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله	فقم بها أدبا لله بالله
هو الأدلاء والقربى يؤيدهم	على الدلالة تأييدا على الله
كالأنبياء تراهم في محاربهم	لا يسألون من الله سوى الله
فإن بدا منهم حال تولههم	عن الشريعة فاتركهم مع الله

ويقول أبو حامد الغزالي: (فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة؛ ليهديه إلى سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة. . . فمعتصم المريد -بعد تقديم الشروط المذكورة- شيخه، فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد؛ بحيث يفوض أمره إليه بالكلية، ولا يخالفه في ورده، ولا صدره، ولا يبقى في متابعته شيئا، ولا يذر؛ ليعلم أن نفعه في خطأ شيخه -لو أخطأ- أكثر من نفعه في صواب نفسه - لو أصاب- فإذا وجد مثل هذا المعتصم وجب على معتصمه (أي شيخه) أن يحجبه، ويعصمه بحصن حصين)(٥) .

ويطلبون من المريد الصادق أن يكون مع شيخه كالميت مع مغسله، ولا يتكلم، ولا

---

(١) جواهر المعاني١/ ١٢٥، وانظر مجموع رحلات الشيخ إبراهيم إنياس ص١٠، والشيخ إبراهيم إنياس السنغالي حياته وآراؤه وتعاليمه لمحمد الطاهر ميغري ص٢٤٩

(٢) هو أبو علي الحسن بن علي بن محمد النيسابوري الشافعي المعروف بالدقاق، شيخ القشيري الصوفي، وكان يثني عليه، من آثاره كتاب الضحايا. مات سنة ٤٠٥هـ، انظر شذرات الذهب٣/ ١٨٠، ومعجم المؤلفين١/ ٥٧٢

(٣) الرسالة القشيرية ص٣٨٠

(٤) انظر الفتوحات المكية الباب الحادي والثمانون بعد المائة .

(٥) إحياء علوم الدين٣/ ٦٥



يتحرك، ولا يشتغل بشيء؛ حتى بالقرآن، والذكر إلا بإذنه[١]، وفي هذا المعنى يقول شاعرهم[٢]: -

وكن عنده كالميت عند مغسل يقلبه ما شاء وهو مطـــاع

ثم بعد وصول المريد إلى شيخ كامل مكمل، (لا شيء عليه سوى تفويض جميع مراداته إليه، وكونه كالميت بين يدي الغسال لديه، والفناء الأول: هو الفناء في الشيخ، ويكون هذا الفناء وسيلة الفناء في الله: -

من أجل كونك في البداية أحولا لا بد من شيخ يقودك أولا

فإن طريق الإفادة، والاستفادة مبني على وجود المناسبة بين الطرفين، والطلب لا بد له أولا من برزخ ذي جهتين؛ لكونه في الابتداء في غاية الدناءة، ونهاية الخساسة، وعدم مناسبته أصلا لجناب قدسه، جل سلطانه من هذه الحيثية، وذلك البرزخ هو الشيخ الكامل المكمل)[٣].

ومن شأن المريد الصادق -إذا أراد أن يذكر الله تعالى، أو يفعل عبادة من العبادات- أن يستحضر نظر شيخه إليه؛ ليزداد أدبه، ويضم شتات قلبه[٤].

وهذا شيخ الرفاعية الذي تروى عنه الكرامات، والأعاجيب يقول: (من لم يكن له شيخ فشيخه الشيطان. . . . وينبغي للمريد أن يعرف لشيخه الحق بعد وفاته، كما كان يعرف له الحق في حال حياته، وقال: من يذكر الله تعالى بلا شيخ، لا الله له حصل!، ولا نبيه!، ولا شيخه!)[٥].

ولا ريب في أن من يتفوه بهذا الكلام، ويدعو المسلمين إلى هذا الاعتقاد الفاسد لا ريب أنه خطا بالتصوف خطوات جاوز بها مستنقع البدعة حتى سقط في بحر الشرك، والعياذ بالله، واستمع إلى صوفي آخر من هذا القبيل، يقول الدباغ: (. . فإن المريد لا يجيء بشيء حتى لا يكون في قلبه غير الشيخ!، والله!، والرسول!)[٦]. وانظر إلى هذه المحبة

---

(١) انظر الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية للشعراني١/ ١٨٩ نقلا عن الكشف عن حقيقة الصوفية ص٣١٩
(٢) هذا البيت للجيلي نقله عنه الأستاذ عبد الرحمن الوكيل. انظر هذه هي الصوفية ص١٠٠
(٣) المتخبات من المكتوبات للسرهندي ص٢١
(٤) انظر الأنوار القدسية٢/ ٩٨ نقلا عن الكشف عن حقيقة الصوفية ص٣٢١
(٥) قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر لأبي الهدى الصيادي ص١٧٧ نقلا عن الكشف عن حقيقة الصوفية ص٣٢١
(٦) الإبريز ص٣١

الثلاثية، ولاحظ تقديم الشيخ في الذكر على رب العزة، والجلال، وعلى نبيه المصطفى ﷺ، وقالوا: (من يطع الشيخ فقد أطاع الرسول)[1] . وهذا الاعتقاد الفاسد في الشيخ هو الرابطة عند النقشبندية؛ لأن الرابطة -عندهم- (عبارة عن ربط القلب بالشيخ الكامل. . . . وحفظ صورته بالخيال، ولو عند غيبته، أو بعد وفاته، ولها صور، أهونها أن يتصور المريد صورة شيخه الكامل بين عينيه، ثم يتوجه إلى روحانيته في تلك الصورة، ولا يزال متوجها إليها بكليته حتى يحصل له الغيبة، أو أثر الجذب. . وهكذا يداوم على الرابطة حتى يفنى عن ذاته، وصفاته في صورة الشيخ. . فتربيه روحانية الشيخ بعد ذلك إلى أن توصله إلى الله تعالى، ولو كان أحدهما في المشرق، والآخر في المغرب، فبالرابطة يستفيض الأحياء من الأموات المتصرفين)[2] .

فحقيقة الحب التام للشيخ أن يحب المريد الأشياء من أجله، ويكرهها من أجله، كما هو الشأن في محبة الله عز وجل[3] -تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، واسمع إلى صوفي آخر يقول: (قال بعض المشايخ: من لم يتأدب بأوامر الشيوخ وتأديبهم فلا يتأدب بكتاب، ولا سنة)[4] ، فتراهم يوجبون على كل صوفي طلب الشيخ المرشد، الواسطة؛ ليخلص نفسه من الرذائل النفسانية، والشيطانية، عاجلا وآجلا، وهذا الوجوب النظري أمر وضعي طبيعي، وهذا الأصل في طلب القرب من الله غاية مطلوبة؛ لأن من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها؛ فلذلك أمر المريد بصحبة الشيخ الكامل، والتعلق به[5] ، ويحرمون عليه التعلق بشيخ آخر، أو حتى زيارته حيا، أو ميتا[6] ، فلا يصح إيمان أحد -عندهم- ولا هدايته، ولا توفيقه، ولا صلاحه، ولا فلاحه إلا عن طريق الشيخ ذي القدرات الخيالية، وإذا رد عليهم أهل العلم بأن هذه الأمور بيد الله تعالى يهبها لمن يشاء؛ ولو لم يسلك طريقة من الطرق، ولا ربط قلبه بشيخ من الشيوخ قالوا: (والذي يقضي منه العجب أن من طلب سعدى، وسلمى، لا يصل إليهما -مع وجود الجنسية، والقرب القريب- إلا بواسطة، يهديه، ويوصله، وهذا الغافل يطمع أن يصل إلى الحضرة الإلهية -مع ذلك

---

(١) جواهر البحار في فضائل النبي المختار للنبهاني ٣/ ٣٠٤

(٢) السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية لعبد المجيد الخاني ص٢٢ نقلا عن الكشف عن حقيقة الصوفية ص٣٢٤

(٣) انظر الأنوار القدسية ١/ ١٦٩ نقلا عن الكشف عن حقيقة الصوفية ص٣٢٢

(٤) رماح حزب الرحيم ١/ ١١٦ (٥) انظر المصدر السابق ١/ ١١٢

(٦) انظر نخبة المطلوب لمحمد بن الخديم ص١٤٢

البعد البعيد- من غير واسطة، ودليل ما أهون عليك أمر ربك يا غافل!)[1] .

ثانيا: عصمة الشيخ،وحفظه[2] : تدعي الصوفية أن هذا الشيخ الذي مرت حقيقته، وقدراته، وأهميته في التوسط للمريدين عند الله تعالى - تدعي أنه معصوم من الخطأ، والزلات، وبعضهم يدعي أنه يأخذ عن الله بلا واسطة، وأنه يأتيه الوحي، والإلهام، وحتى صرح بعضهم بنزول الملك على الشيخ.

يقول الشعراني: (اعلم أن بعض العلماء أنكر نزول الملك على قلب غير النبي ﷺ لعدم ذوقه له، والحق أنه ينزل؛ ولكن بشريعة نبيه - عليه الصلاة والسلام، فالخلاف إنما ينبغي أن يكون فيما ينزل به الملك لا في نزول الملك، وإذا نزل على غير نبي لا يظهر له حال الكلام أبدا؛ إنما يسمع كلامه، ولا يرى شخصه، أو يرى شخصه من غير كلام، فلا يجمع بين الكلام، والرؤية إلا نبي، والسلام)[3] ، فكل من قال: إن الولي لا يشاهد الملك، ولا يكلمه فذلك دليل على أنه غير مفتوح عليه[4] .

وبعض الحذاق من الصوفية يخشى التصريح بالقول بالعصمة فيقول: الأنبياء معصومون، والأولياء محفوظون[5] .

وهذا الأمر مشهور عند الصوفية (فطائفة من النساك، والعباد يزعمون في بعض المشايخ أو في من يقولون إنه ولي الله إنه لا يذنب، وربما عينوا بعض المشايخ زعموا أنه لم يكن لأحدهم ذنب، وربما قال بعضهم: النبي معصوم، والولي محفوظ، ومن عالية هؤلاء من يعتقد في بعض المشايخ من الإلهية والنبوة ما اعتقدته الغالية في علي، ويزعم أن الشيخ يخلق، ويرزق، ويدخل من يشاء الجنة، ومن يشاء النار، ويعبده، ويدعوه كما يعبد الله، ويقول: كل رزق لا يرزقنيه الشيخ فلان فإني لا أريده، ويذبح الذبائح باسمه، ويصلي، و يسجد إلى جهة قبره، ويستغيث به في الحاجات كما يستغاث بالله تعالى، فأما ضلال هذه الغالية فشرك واضح)[6] .

---

(١) رماح حزب الرحيم١/ ١١٦

(٢) راجع المبحث السابق تنقيض بعض أهل الأهواء لمقام الواسطة الصحيحة .

(٣) رسالة الفتح في تأويل ما صدر عن الكمل من الشطح للشعراني نقلا عن جلاء العينين في محاكمة الأحمدين ص١٣٧

(٤) انظر الإبريز ص١٥١ ورماح حزب الرحيم١/ ١٦٧

(٥) انظر الجواهر والدرر مطبوع بهامش الإبريز ص١٢٥، والرد عليهم في بغية المرتاد ص٤٩٦، والنبوات ص١٦٧، ولوامع الأنوار١/ ٣٣٨

(٦) جامع الرسائل المجموعة الأولى ص٢٦٤



وإذا كان إمام المحدَّثين عمر رضي الله عنه يجوز عليه الخطأ والنسيان، فليس في شيوخ الصوفية معصوم؛ بل الخطأ يجوز عليهم كلهم، كما قال أبو الحسن الشاذلي: (قد ضمنت لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسنة، ولم تضمن لنا العصمة في الكشوف، والإلهام)[١].

ويقول الإمام الشاطبي: (رأى قوم التغالي في تعظيم شيوخهم حتى ألحقوهم بما لا يستحقونه؛ فالمقتصد منهم يزعم أنه لا ولي لله أعظم من فلان، وربما أغلقوا باب الولاية دون سائر الأمة، إلا هذا المذكور، وهو باطل محض، وبدعة فاحشة. . . والمتوسط يزعم أنه مساو للنبي ﷺ إلا أنه لا يأتيه الوحي، بلغني هذا عن طائفة من الغالين في شيخهم إلى الحاملين لطريقتهم في زعمهم نظير ما ادعاه بعض تلامذة الحلاج في شيخهم على الاقتصاد منهم فيه، والغالي يزعم فيه أشنع من هذا، كما ادعى أصحاب الحلاج في الحجاج وهذا نمط الشيعة الإمامية، ولولا الغلو في الدين، والتكالب على نصر المذهب، والتهالك في محبة المبتدع لما وسع ذلك عقل أحد.

ومن تأمل هذه الأصناف وجدلها من البدع في فروع الشريعة كثيرا؛ لأن البدعة إذا دخلت في الأصل سهلت مداخلها الفروع)[٢].

ويقول شيخنا صالح السحيمي -حفظه الله-: (من أعظم العوامل، والأسباب التي أدت إلى ذيوع البدعة، وانتشارها بين الناس التقليد الأعمى للشيوخ في الأصول، والفروع، فقول الشيخ مقدم -عند المبتدعة- على قول الله ورسوله، وأكثر ما يوجد ذلك عند الرافضة، وأصحاب الطرق الصوفية، كما يوجد -أيضا- عند متعصبة الفقهاء، فأتباع الشيوخ يتلقون الأصول التي يسمعونها ويشاهدونها من شيوخهم، ويأخذونها مسلمة على أنها الطريق الوحيد الذي يقربهم إلى الله؛ حتى وإن خالفت هدي الكتاب، والسنة، فيعتقدون أنها من التشريع الذي خص الله به أصفياءه، وأولياءه، وعباده المقربين، بالغوا في ذلك حتى اعتقد كثير منهم في الشيوخ العصمة، وأنهم لا يفعلون إلا حقا؛ لأنهم معصومون من الخطأ، فيتبعونهم في كل ما يؤثر عنهم، من قول، أو فعل؛ على أنه الطريق المقرب إلى الله الموصل إلى رضاه)[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى ٢/ ٢٢٦ (٢) الاعتصام ١/ ٢٥٨

(٣) تنبيه أولي الأبصار إلى كمال الدين وما في البدع من الأخطار ص١٤٢

ثالثا: تقديس الشيخ والتهويل من قدراته، وطاقاته: لا تفتأ الصوفية تضع على شيوخ الطرق هالات من التقديس، وتحوطهم بوشاح من التعظيم، يخرج بهم -في كثير من الأحيان- عن حدود المخلوقية مما يجعلهم أضحوكة في أعين العقلاء، فالشيخ مطلع على خاطر مريده، فإذا أراد المريد من شيخه قضاء حاجة ما، فما عليه سوى أن يذكرها لشيخه، فإن الشيخ يسرع له في الإجابة ويقضيها في الباطن.

يقول الدباغ لتلميذه: (إذا أردت قضاء حاجة لك أو لغيرك فاذكرها لي، ولا تزد أي لا تحرص في قضائها، ولا تهتم بها، فإن ذلك سبب عدم قضائها، فكان الأمر كذلك، فكنا إذا عرضت حاجة، وذكرناها له، وسكتنا، جاء فيها الفرج سريعا، وإذا وقع لنا بها اهتمام، وعناية انغلق بابها)[١] . وذكر الشعراني أن أحد شيوخه ووسائطه كان إذا ناداه مريده من مسيرة سنة أو أكثر أجابه بسرعة[٢] .

فالأولياء، وشيوخ الطرق مستولون على مريديهم، وأتباعهم، فهذا الدسوقي[٣] نقلوا عنه أنه قال -يخاطب تلميذه- (يا ولدي: إن صح عهدك معي فأنا معك قريب غير بعيد، وأنا في ذهنك، وأنا في سمعك، وأنا في طرفك، وأنا في جميع حواسك الظاهرة، والباطنة، وإن لم يصح عهدك لا تشهد مني إلا البعد)[٤] .

وبعد استيلاء الشيخ على ظاهر المريد وباطنه، واستعماره، والتصرف فيه حيث يشاء الشيخ يصبح المريد حاملا بالشيخ، كما يقول الدباغ: (إن المريد إذا أحب الشيخ المحبة الكاملة سكن الشيخ معه في ذاته، ويكون بمنزلة الحبلى التي تحمل بولدها؛ فإن حملها تارة يتم صلاحه، فيبقى على حالة مستقيمة إلى أن تضعه، وتارة يسقط، ولا يجيء منه شيء، فهكذا حالة المريد إذا حمل بشيخه، فتارة تكون محبته خالصة تامة دائمة، فلا يزال أمر الشيخ يظهر في ذاته إلى أن يفتح الله عليه، وتارة تكون محبته منقطعة)[٥] .

فإذا تعذر على المريد الوصول إلى الشيخ، والاستمتاع بالنظر إلى جنابه؛ لعروض مرض أو أمر قاهر فليشخص شيخه بين عينيه بصفته، وهيأته، وملامحه، ويشكو له ما ألم

---

(١) الإبريز ص١٩٠ (٢) انظر الطبقات الكبرى٢/ ١٩

(٣) هو إبراهيم بن محمد بن عبدالرحمن الدسوقي الصوفي، له مقالات بصادم الشرع، ولأتباعه غلو فيه، مات سنة ٩١٩هـ. انظر طبقات الشعراني١/ ١٦٥، وشذرات الذهب٨/ ٩٠، ومعجم المؤلفين١/ ٦٤

(٤) الطبقات الكبرى للشعراني١/ ١٥٠ (٥) الإبريز ص٢١٧

به؛ فإنه يبرأ بإذن الله، وإن كان المريد في جماعة من الناس، واستحى منهم فليشتك إلى شيخه بقلبه عن طريق الخواطر[١] . ويقول أحدهم -ولعله قد جمع بين بدعتي الرفض والتصوف[٢] - (والشيخ فضلا عن أن تأثيره ثابت؛ فإن نوره ينتشر في كل مكان، ومع أنه شخصية روحية، واضحة المعالم؛ لكنه مقترن -داخليا- بالنور الذي يشرق على البر، والبحر، ويضيء كل شيء للمريد المرتبط به)[٣] .

وما دام الشيخ يدعي هذه الدعاوى لنفسه، ويهول من قدراته، وأنه مع مريده أينما كان بهذا الاعتقاد، فلا نستبعد أن ينتج عن هذا التصور الخاطئ توجه المريد إلى شيخه بالدعاء، والرجاء بقصد قضاء الحاجات، وتحقيق الرغبات، ومنهم من يرفع شيخه فوق منزلته، ويصفه بأوصاف الربوبية التي لا يستحقها إلا من يأتي بالشمس من المشرق حتى وصلت الوقاحة بأحدهم منتهى الغاية فقال: (لو رأيت أبا يزيد[٤] مرة واحدة كان أنفع لك من رؤية الله سبعين مرة!!!)[٥] والعياذ بالله تعالى، ويدعون أن أمور الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، ولم يطلع عليها أحدا من خلقه إلا من ارتضى من رسول، يدعون أنها ليست غيبا عند الأولياء. يقول الشعراني عن شيخه علي الخواص: (وسمعته يقول: ليس الغيب الذي للعارفين غيبا عندهم؛ إنما هو من قسم عالم الشهادات، فيخرجون عما يشاهدونه؛ فما سماه غيبا إلا من كان محجوبا عن ذلك من العامة)[٦] .
إذن: فما دام الشيخ بهذه الصفات، وبقدرته محيطا بجميع المخلوقات فما على المريد إلا أن يسلم له زمام أمره، ولا يعترض عليه، ولو في خاطره، كما قالوا: (سلم تسلم، ولا تعترض فتنطرد)! يقول البكري[٧] :-

وسلم الأمر له لا تعترض ... ولو بعصيان أتى أذى فرض
وكن لديه مثل ميت فاني ... لدى مغسل لتمسي داني

ويقول آخر[٨] :-

---

(١) انظر الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية لابن عجيبة ص٣٣٩ نقلا عن الكشف عن حقيقة الصوفية ص٣٢٣
(٢) هو الدكتور سيد حسين نصر الإيراني.
(٣) الصوفية بين الأمس واليوم لسيد نصر حسين ص٧٣ نقلا عن الكشف عن حقيقة الصوفية ص٣٢٧
(٤) هو أبو يزيد البسطامي، تقدمت ترجمته.
(٥) إحياء علوم الدين ٤/ ٣٥٦
(٦) الجواهر والدرر مطبوع بهامش الإبريز ص١٨٠
(٧) انظر هذه هي الصوفية ص١٠٠
(٨) انظر الإبريز ص٢٥١

وفر إليه في المهمـات كلهـا ... فإنك تلقى النصر في ذلك الفر

ويدعون إلى تقوية همة المريد بقول بعضهم[١] :-

إن الفتى حسب اعتقاده نفع ... وكل من لم يعتقد لم ينتفع

وبالجملة فإن (الصوفية رفعوا أولياءهم فوق كل مخلوق، وجعلوا قدراتهم، وطاقاتهم تفوق طاقة البشر، واعتقدوا فيهم اعتقادات فيها الكثير من الغلو، والتجاوز، فاعتقدوا أن لهم القدرة على التصرف في الكون، والحياة، تصرفا كاملا شاملا، كإحياء الموتى، وشفاء المرضى، وإنزال المطر، وهداية الضالين هداية التوفيق، وإضلال المهتدين بالسر، والباطن، وحفظ العالم من الدمار، واعتقدوا أنهم يعلمون الغيب على وجه الإطلاق، فلا يخفى عليهم شيء، وأنهم معصومون من الخطأ، والخطايا، يقولون للشيء كن فيكون، وغير ذلك، فلما اعتقدوا ذلك كله في أوليائهم كان من الطبيعي أن لا ينحرفوا عن هذا الخط الذي رسموه، وساروا عليه، منذ ظهور التصوف، وأوليائه، فجعلوا من أوليائهم لقدراتهم المزعومة صواعق مرعبة، ورعودا مرهبة، لتخويف الآخرين، وصدهم عن بيان الحق في وقت الحاجة إليه)[٢] .

رابعا: الشيخ يطرح عن المريد الخطايا، والمعاصي: نجد في كثير من التراث الصوفي أن هؤلاء الشيوخ يقدمون عروضا مغرية لاصطياد السذج من الناس، فيقدمون لهم وعودا خيالية، خالية من الضوابط الشرعية تجعل المريد يعيش في عالم ذهني من المثالية بعيدا عن الحقيقة، والواقع، فمن تلك الوعود المزعومة أن المريد لا يقع في مأزق، ولا يتكدر خاطره إلا ويجد شيخه وواسطته منقذا له في الحال، وأنه بفضل شيخه يعيش حياة سعيدة، ويموت على الإيمان، ويخاصم عنه يوم القيامة، ويدخل معه الجنة بلا حساب ولا عقاب. والمطلوب من المريد أن لا يكتم عن شيخه ما صدر منه سواء حسنة تسر، أو معصية تضر؛ لأنه (لا عورة بين المريد، والشيخ)[٣] .

ويذكرون عن الدباغ أنه شكا إليه تلميذه ذات يوم أمرا نزل به فيه ضرر في الدين، والدنيا، لا تؤمن غائلته، فأخبره الشيخ الدباغ قائلا : (أما في الدنيا فلا تخش منه أبدا،

---

(١) انظر ردود على أباطيل للشيخ محمد الحامد ص٤٢٧
(٢) تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ٢/ ١٩٢
(٣) الجواهر والدرر مطبوع بهامش الإبريز ص٦٠

ولا يقع لك منه شر أصلا، وأما في الآخرة فأنا أتكفل لك على الله تعالى أنك لا تسأل عن هذا الأمر، ولا تحاسب عليه، فكان الأمر في الدنيا كما قال رحمه الله، ونرجو من الله سبحانه أن يكون الأمر في الآخرة كما قال! وكان رحمه الله يقول لنا: لا تكتموا عني شيئا من الأمور التي تنزل بكم في الدين والدنيا، وأخبروني حتى بالمعاصي التي تقع لكم، وإن لم تخبروني أخبرتكم؛ فإنه لا خير في صحبة يستر معها شيء من أحوال المتصاحبين، وكان رحمه الله يقول: أما أنا فلا أكتم عنكم شيئا من أموري ثم يشرح لنا حاله. . . ويذكر لنا جميع ما وقع له من العاديات، غيرها، ويقول لنا: إن لم أخبركم، ولم أطلعكم على أحوالي فإن الله يعاقبني ويحاسبني؛ لأنكم تظنون بي الخير، فاصبروا حتى أذكر لكم الأمور الباطنية التي لم تطلعوا عليها، فمن شاء منكم أن يذهب فليذهب؛ فإن سكوتي عن ذكر تلك الأمور غش لكم، وما كان رحمه الله لأصحابه إلا رحمة محضة، يشفع لهم في زلاتهم، ويتكفل لهم بنوائبهم، ويتحمل لهم كلما يخشون عاقبته، ويهتم لأمورهم أكثر مما يهتم لأموره، وقال لي ذات يوم: الرجل الذي لا يشاطر صاحبه في سيئاته ما هو بصاحب له، وقال: إن لم تكن الصحبة إلا على الحسنات فما هي بصحبة. . . فظهر بهذا قوله في العوارف: وبالقول مع الشيخ تنحل العقدة، والله أعلم)[١].

وتزعم التجانية أن كل من رأى شيخهم أحمد التجاني في يومي الاثنين، والجمعة أنه يدخل الجنة بلا حساب، ولا عقاب[٢]، ونصه عن التجاني: (قال لي سيد الوجود: بعزة ربي يوم الاثنين، والجمعة، لا أفارقك فيهما من الفجر إلى الغروب، ومعي سبعة أملاك، وكل من رآك في اليومين يكتبون -يعني الأملاك السبعة- اسمه في رقعة من ذهب، ويكتبونه من أهل الجنة، وأنا شاهد على ذلك)[٣]، وقد نظمه بعضهم فقال[٥]: -

في يوم الاثنين أو الجمعة ... رائيه يدخل غدا في الجنة

بلا حساب لا ولا عقاب ... بل هو آمن من العذاب

والملفت للنظر -هنا- أن بعض هؤلاء الشيوخ كثيرا ما ينتحل كلام بعض الشيوخ

(١) الإبريز ص٢٥٠

(٢) في كشف الحجاب عن من تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب ص٢٨٨ أن من رآه في هذين اليومين يشمل كل من رآه، ولو كافرا!!.

(٣) بغية المستفيد ص٢١٦، وانظر كشف الحجاب ص٢٨٨، والرد عليه في مشتهى الخارف الجاني ص١٦١

(٤) بغية المستفيد ص٢٠٩



المتقدمين، أو يحاكيه؛ كما مر معنا -في ادعاء كثير منهم أن الله ختم به الأولياء، وأن قدميه على رقبة كل ولي، فكذلك الأمر بخصوص الرؤية، فلعل التجاني حاكى بهذا الادعاء ما يروى عن الشيخ عبد القادر الجيلاني أنه قال: (طوبى لمن رآني، أو رأى من رآني، أو رآى من رأى من رآني، وأنا حسرة على من لم يرني)[1]. والفرق بين الادعاءين واضح كما ترى.

وهذه النصوص لا تحتاج إلى تعليق؛ لأن مصادمتها لنصوص الشريعة وخروجها عن دائرة الدين الحنيف الذي هو سمة خاتمة الرسالات يعرف ببداهة العقل، وقد تنبه بعض المستشرقين لوعود مشايخ الطرق لمريديهم الخارجة عن تعاليم الإسلام، يقول نيكولسون - معلقا على نظرة الصوفية لوسائطهم ووعود المشايخ لمريديهم: (ولذا ترونهم يتنافسون في الوعود التي يقطعونها أمام كل من أحبوهم، أو أسدوا إليهم معروفا؛ بل وكل من رأوهم بأن الله تعالى سيغفر لهؤلاء جميعا من أجلهم، وفي هذا على أقل تقدير تصوير لعلاقة شخصية بين الشفيع والمشفوع له)[2].

خامسا: الحلف بالشيخ: ونتيجة للغلو الزائد في الشيخ، والتصورات الخاطئة التي يهمس بها الشيخ في آذان مريديه، ويشيعها الأتباع بين الناس، يصبح الخوف من الشيخ مستوليا على قلوب الجميع، وخصوصا على المريدين الذين يخافون من شيخهم في حياته، وبعد دفنه أكثر من خوفهم من الله تعالى، فإذا بالغ الصوفي الغالي في يمينه، وأراد التأكيد أقسم بالولي الواسطة، وإذا حلف بالله تعالى، أو بأسمائه، وصفاته فإنه لا يطمئن باله، ولا يرتاح قلبه، ولا يصدق الحالف حتى يحلف له بشيخه، كما أن الحالف لا يتورع أن يحلف أغلظ الأيمان باسم الله تعالى كاذبا، فاجرا، وأما أن يحلف باسم وليه كاذبا فهذا لا يتجاسر عليه، وقد يلزم بعض من انتصب للقضاء من هذه الطائفة الخصم بالحلف باسم الشيخ أو على قبره[3].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (حتى إن طائفة من أصحاب الكبائر الذين لا يتحاشون فيما يفعلونه من القبائح، كان إذا رأى قبة الميت، أو الهلال الذي على رأس القبة خشي من

(١) بهجة الأسرار ومعدن الأنوار لنور الدين الطنوفي ص٢٣ نقلا عن الكشف عن حقيقة الصوفية ص٤٨٤

(٢) في التصوف الإسلامي ص١٦٤

(٣) انظر قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص٢٧٢، وتجريد التوحيد للمقريزي ص٢٨، والدين الخالص لمحمد صديق حسن خان٤/ ٧١



فعل الفواحش، ويقول أحدهم لصاحبه. ويحك هذا هلال القبة، فيخشون المدفون تحت الهلال، ولا يخشون الذي خلق السموات والأرض)[1] .

ويقول الشيخ حسين النعمي: (وكثيرون لا يدخلون تحت حد الإحصاء إذا كان الحلف باسم الله أقدم عليه الحالف؛ بلا مبالاة حتى إذا طلب منه الحلف بصاحب القبر، وبالأخص إذا ألزمه محلفه بإمساك حلقة باب النصب، فلا يتجاسر -قط- إن كانت يمينا فاجرة، وقد لا يرضى المحلوف له إلا بذلك دون الرسم الشرعي، ويعتقد أنه إن أقدم الحالف فإن كان بارا، وإلا بادره الولي بالعقوبة العاجلة، والبطشة الكبرى)[2] .

ويقول المستشرق جولدتسيهر[3] : (الولي المحلي الذي أصبح موضع الثقة ومحط الآمال، فإليه يؤتى بالقرابين، وفي مرضاته تنذر النذور؛ لكسب نياته الحسنة، ولكي ترجى شفاعته عند الله تعالى، كما أن أتباعه، ومريديه يعدونه عماد الحق، والصدق، وأنه الحارس لهما، الكفيل بهما، ويخشى الواحد منهم أن يحنث في يمين حلف فيها باسم الولي، أو أن ينكث بعهده في مكان يراه الولي، ذا طهارة، وقداسة أكثر مما يحمر خجلاً عند ما يحلف بالله باطلا)[4] .

سادسا: القصص،والحكايات التي تروى عن الشيخ: بناء على نظرة الصوفية الغالية للشيخ الذي مرت معنا حقيقته، والقول بعصمته، وحفظه، وتقديسه، والتهويل من قدراته، والحلف باسمه وكونه يطرح عن المريد الخطايا، والمعاصي بناء على ذلك فإن للصوفية حكايات موغلة في الخرافة، يذكرون فيها نماذج من قدرات الشيوخ، وتصرفاتهم في الكون، وهي صورة واضحة للخروج عن شريعة الإسلام، ومخالفة صريحة للشرع،

---

(١) تلخيص كتاب الاستغاثة٢/ ٥٦٣، ورسالة الشرك ومظاهره للميلي ص٢٧٧

(٢) معارج الألباب ص٢٠٦، وانظر تيسير العزيز الحميد ص٤٨٥، ومجلة المنار١/ ٥٨، وتقديس الأشخاص في الفكر الصوفي٢/ ١٩٦

(٣) هو جولد تسهير اجنتس مستشرق مجري، ولد سنة ١٨٥٠م، ودرس في بودابست، وعمل أستاذا بجامعتها، ثم في بلاد العالم الإسلامي دارسا، وباحثا، حيث صحب في سورية الشيخ طاهر الجزائري، وأقام بالقاهرة، ودرس على شيوخ الأزهر، يعد من أوسع المستشرقين دراسة للإسلام وتاريخه، وعقائده، وفرقه الدينية، صنف عدة مؤلفات عن الإسلام منها: ((العقيدة والشريعة في الإسلام)) و((الظاهرية ومذهبهم وتاريخهم))، و((مذاهب المسلمين في تفسير القرآن)) وغيرها، مات سنة ١٩٢١م. انظر الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال١/ ٦٦٨

(٤) العقيدة والشريعة في الإسلام ص٢٣٢

والطبع، فهم يزعمون أن من هؤلاء الأولياء، والشيوخ من يخرج من قبره، ويمشي على الأرض عيانا لقضاء حاجات مريده، وتوجيهاته، ومن تلك الحكايات: -

(أ) القصة المضحكة التالية التي نقلها الشعراني عن أحد شيوخه[١] فقال: (ولقد قصدته في حاجة، وأنا فوق سطوح مدرسة أم خوند بمصر، فرأيته خرج من قبره يمشي من دمياط[٢]، وأنا أنظره إلى أن صار بيني وبينه نحو خمسة أذرع، فقال: (عليك بالصبر، ثم اختفى)[٣].

ونرد على هذه الخرافة القبورية بقول الأمير الصنعاني: (وبالجملة فالقول بخروج الميت من قبره، وبرزخه بشخصه لقضاء أغراض الأحياء قول مخالف للعقل، والنقل؛ لأن من واراه القبر لا يخرج منه إلا في المحشر)[٤].

وإذا وقع الشيخ الصوفي في معصية التمسوا له الأعذار، ومن تلك الأعذار أن الشيخ يستتر عن أعين العامة، ويظهر أعمالا كالزنى، والكذب الفاحش، وشرب الخمر، وقتل النفس، وغير ذلك من الدواهي، وأن تلك الأفعال صور من الغيب، لا وجود لها في الخارج؛ بل هي تصورات يراها غيرهم حقيقة، وهي خيالية يفعلها الشيخ الواسطة استتارا عن العوام، وحفظا لمقامه، وتحريرا لأدبه![٥].

(ب) واستمع لما يحكونه عن الشيخ علي وحيش[٦] وكراماته: فقد كان هذا الشيخ الولي المزعوم يقيم في خان بنات الخطا، وكان كل من خرج يقول له: قف حتى أشفع فيك عند الله قبل أن تخرج، فيشفع فيه، وكان يحبس بعضهم اليوم، واليومين، ولا يمكنه أن يخرج حتى يجاب في شفاعته، وكانت له أحوال غريبة، فإذا حكيت لبعض مقدميهم يقول: هؤلاء يخيلون للناس هذه الأفعال، وليس لها حقيقة[٧].

---

(١) شيخ الشعراني هذا اسمه أبو العباس الحريثي.

(٢) المدينة المشهورة بمصر بين تنيس والقاهرة على زاوية بين بحر الروم والنيل. انظر معجم البلدان٢/ ٤٧٢

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني٢/ ١٤٧، وانظر مثل هذه الحكايات في الجواهر والدرر ص٤٦

(٤) الإنصاف في حقيقة الأولياء وما لهم من الألطاف ص٥١ (٥) انظر الإبريز ص٢٣٢

(٦) هو علي وحيش الصوفي من مجاذيب النجارية عده الشعراني من جملة شيوخه، وحكى عنه أمورا خرافية مصادمة للشرع، وعدها من كراماته، مات سنة ٩١٧, انظر طبقات الشعراني٢/ ١٤٩

(٧) انظر الطبقات الكبرى للشعراني٢/ ١٥٠

(جـ) ومن كرامات الشيخ محمد الخضري[١] أنه كان يقوى عليه الحال فيتكلم بألفاظ لا يستطيع أحد سماعها في حق الأنبياء، وكان يرى في كثير من البلدان في ساعة واحدة، وحصل مرة في يوم الجمعة أن سأله الناس الخطبة فقال: باسم الله فطلع المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: وأشهد أن لا إله لكم إلا إبليس -عليه الصلاة والسلام- فقال الناس: كفر، فسل السيف، ونزل، فهرب الناس كلهم من الجامع، فجلس عند المنبر إلى أذان العصر وما تجرأ أحد أن يدخل الجامع، ثم جاء بعض أهل البلاد المجاورة، فأخبر أهل كل بلد أنه خطب عندهم، وصلى بهم، فعددوا له ذلك اليوم ثلاثين خطبة، وكان يقول: لا يكمل الرجل حتى يكون مقامه تحت العرش عليالدوام، وكان يقول: الأرض بين يدي كالإناء الذي آكل فيه، وأجساد الخلائق كالقواري أرى ما في بواطنهم[٢] .

(د) ومن الأولياء من يضع قدمه في المشرق، والأخرى بالمغرب في خطوة واحدة حسب زعمهم[٣] .

(هـ) ويحكون أن الحجر، والماء كان يخاطب الشيخ الدباغ فيرجع من الخلاء بغير تبرز؛ لأن هذه المخلوقات سمعها تذكر الله تعالى؛ لأنه يحفظ الكتب السماوية جميعها، ويعرف لغات بني الإنسان، والسريانية، ولغة الجن، ولغة الملائكة، ولغات الحيوان، ويرى أن القط لا يأكل الفأرة إلا بإذنه. فلذلك كان قادرا على رد الضال، ومنع المقتول من قاتله أن ينفذ فيه القتل[٤] .

(و) ومن هؤلاء الشيوخ من يحكى أنه نزل في حلقته شبح من الجو لا يدري الحاضرون ما هو فأطرق الشيخ ساعة، ثم ارتفع الشبح إلى السماء فسألوه؟ فقال: هذا ملك وقعت منه هفوة فسقط علينا يستشفع بنا، فقبل الله شفاعتنا فيه فارتفع، وكان إذا شاوره أحد في أمر يقول له أمهلني حتى أشتشير فيه جبريل عليه السلام، ثم يقول له: افعل، أو لا تفعل[٥] .

(ز) ومن هؤلاء الشيوخ من يحكى عنه أنه توضأ يوما قبل أذان العصر، واضطجع

---

(١) هو محمد الخضري الصوفي، له أقوال مصادمة للشريعة كقوله: لا يكمل الرجل حتييكون مقامه تحت العرش على الدوام، وكقوله: أجساد الخلائق كالقوارير أرى ما في بواطنهم، مات سنة ٨٩٧هـ، انظر طبقات الشعراني٢/ ١٠٦

(٢) انظر الطبقات الكبرى للشعراني٢/ ١٠٧

(٣) انظر الإبريز ص٤٨

(٤) انظر المرجع السابق ص١٠٩ وما بعدها.

(٥) انظر الطبقات الكبرى للشعراني١/ ١٥٧



على سريره، ومكث سبع عشرة سنة، ثم قام وعيناه كالدم الأحمر فصلى بذلك الوضوء[١]

(حـ) ومن هؤلاء الواصلين شيخ يدعون فيه السر والولاية، يحكون عنه أنه وهب أحد محبيه عشر سنين من عمره لما رآه مريضا، ثم مات المريض، في غيبة الشيخ، فجاء والميت عليالنعش، فقال: كيف مت؟ وعزة ربي لو كنت حاضرا ما تركتك تموت[٢] .

(ط) وأتت امرأة أحد هؤلاء الشيوخ وقالت له: ادع الله أن يرزقني ولدا ذكرا، فقال سترزقين ذلك، فوضعت أنثى، فراجعته، فقال لها: والله ما قلت لك ذلك إلا بعد ما مسست ذكره بيدي هذه؛ ولكن أراد أن يكذب هذه اللحية!![٣] .

(ي) ويحكون عن رجل من شيوخ اليمن أنه قال يوما لخادمه وهما في سفر: قل للشمس تقف حتى أصل إلى منزلي، وكان في مكان بعيد، وقد قرب وقت غروبها، فقال لها الخادم: قال لك الفقيه قفي له فوقفت حتى بلغ مكانه، ثم قال للخادم: أطلق ذلك المحبوس، فأمرها الخادم بالغروب فغربت، ودخل الناس في الظلام[٤] .

(ك) ويحكون عن أحد الشيوخ أنه في الرضاع لم يكن يرضع في رمضان أمه إلا ليلا، ولما بلغ تسع سنين أرادت أمه يوما أن تمسح له رجليه بدهن، فوجدت بإحدى رجليه ماء، وطينا، والأخرى يابسة، فسألته أمه عن ذلك فقال لها: خالي التماري غرقت به المركب في الجزيرة فأنقذته برجلي حين طلب الإغاثة[٥] .

(ل) ومن غلو الرفاعية في شيخهم أحمد الرفاعي ادعاؤهم أنه كان يتكلم وهو في المهد صبيا، وأنه قد كلم الناس يوم ولادته[٦] ، ولما كبر (كان قطب الأقطاب في الأرض، ثم انتقل إلى قطبية السموات، ثم صارت السموات السبع في رجله كالخلخال، وختم الله به النبوة كما ختم به الولاية)[٧] ، ويزعمون أنه قال: (صحبت ثلاثمائة ألف أمة ممن يأكل، ويشرب وينكح، ولا يكمل الرجل -عندنا- حتى يصحب هذا العدد، ويعرف كلامهم، وصفاتهم، وأسماءهم، وأرزاقهم، وآجالهم)[٨] .

---

(١) انظر المرجع السابق١/ ١٠٧ (٢) انظر الطبقات الكبرى للشعراني٢/ ١٠٣

(٣) انظر جامع الكرامات للنبهاني١/ ٥٢٣

(٤) انظر نشر المحاسن الغالية لليافعي ص٣٣ نقلا عن الكشف عن حقيقة الصوفية ٤٧٣

(٥) انظر طبقات ابن ضيف الله ص١١٤ نقلا عن تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي٢/ ٢٦٦

(٦) انظر قلادة الجوهر ص٣٠ نقلا عن دراسات في التصوف لإحسان إلهي ظهير ص٢٢٠

(٧) الطبقات الكبرى للشعراني١/ ١٤١

(٨) قلادة الجوهر ص٦٧ نقلا عن دراسات في التصوف لإحسان إلهي ظهير ص٢٢٢



وقد حصل لهؤلاء الشيوخ مرادهم من ذكر هذه الحكايات، فقد رسخت في أذهان المريدين وآمنوا بقدرات الشيخ إيمانا تزول الجبال الراسيات، ولا يزول، فإذا قال الشيخ لمريده: (يتعين ربط القلب بالشيخ من طريق الإرادة، والمحبة، فتعلم أنك في حمايته، وولايته، وظل رعايته في جميع الأوقات فتمسك بهذه الطريقة بأمره، وإرشاده، والله تعالى يحفظ أوقاتك، وأحوالك بواسطته، ويكون باطنك متوجها إليه، فالأصل اتصال الباطن، وقوة الرابطة)[١] صدقه المريد، ومن تعاليمهم أن المريد عليه أن يسلم نفسه إلى الشيخ، ويتبرأ منها، ويطلق اختياره ثلاثا؛ لكي يستعد لتصرف الشيخ، وعلى المريد أن لا ينكر على الشيخ وإن رآه يرتكب المخالفات، وإن طلق الشيخ امرأته فعلى المريد أن لا يتزوجها، وليعلم أن شيخه معه، ويراه حيثما كان[٢] .

وبالجملة فقد وصل بهم الغلو في الشيوخ حد النهاية، حتى ادعى بعض الصوفية أن المريدين يُدعون يوم القيامة على رؤوس الأشهاد بأسماء مشايخهم، وليس بأسماء آبائهم .

فنتج عن هذا الاعتقاد تعلق المريد بالشيخ حتى أصبح مألوفا أن تسمع المريد يلهج بذكر شيخه في الشدة المسرة، وإذا مشى، وإذا عثر، كما يلهج الصبي بذكر أمه[٣] .

وهذا مما يؤخذ على الطرق الصوفية أن الشيخ يُري مريديه وأتباعه على أنه يستطيع أن يخلصهم من الشدائد، وينقذهم من المهالك، متى استعانوا به، أو نادوه، ولو من بعيد كما يأتيهم ساعة الاحتضار فيلقنهم الشهادتين، ويخاصم عنهم في قبورهم الملكين، وأخيرا يشفع لهم يوم القيامة، فيجوزون على الصراط بمعية الشيخ، ويدخلون الجنة بشفاعته، فيزداد تعلق المريدين بشيخهم، ويتفاقم غلوهم في شخصه، فينقطعون به عن دعاء الله تعالى، واللجوء إليه، وهذا من الشيخ افتراء، وكذب، وتغرير، وتضليل[٤] ، (وهكذا قصد بالشيخ أن يهدي الحيارى لشعائر الطريق فانحرف بهم عن جادة القصد؛ ليزدادوا حيرة، وضلالا، والتمست لديه الحقيقة الضائعة فزادت الحقيقة على يديه بعدا، وضياعا، واتخذ وسيلة ضرورية لتصحيح العقيدة، والشريعة، فهدمت على يديه العقيدة، والشريعة في قلوب مريديه)[٥] .

---

(١) رماح حزب الرحيم١/ ١٦٤ (٢) انظر رماح حزب الرحيم١/ ١٤٤

(٣) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة٢/ ٦٧٨، ومدارج السالكين١/ ٣٣٩

(٤) انظر إليالتصوف يا عباد الله ص١١، والفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة لعبد الرحمن عبد الخالق ص٣١٦ (٥) نظرية الاتصال عند الصوفية ص٢٨٩

ولعلنا -بهذه الإلمامة- نكون قد بينا نظرة الصوفية للشيخ الواسطة، تلكالنظرة الغالية البعيدة عن الحق، المجانبة للصواب، والمصادمة للسنة، والكتاب، ولعل في سردنا لتلك الطائفة من الحكايات، والأساطير السابقة غنية عن الاشتغال بالرد عليها، وتفنيدها؛ لوضوح زيفها، وخرافتها، وضلال القائلين بها.



المبحث السادس

بيان شبهات الصوفية والرد عليها

لما كان خطأ الصوفية في باب الواسطة من حيث أنهم قاسوا وساطة الأنبياء عليهم السلام في دعاء الله تعالى والطلب منه على وساطتهم في تبليغ الشرائع، فتوجهوا إليهم -وهم في قبورهم- بالطلبات، وجعلوهم واسطة بينهم وبين الله تعالى في قضاء الحاجات، وفعلوا الشيء نفسه مع الأولياء، والصالحين، وشيوخ الطرق المتبوعين، فزعموا أنهم واسطة في العون، والمدد، والإغاثة بين الله تعالى وبين المكروبين المضطرين، وادعوا أنه لا يصل مدد، ولا يفيض فيض، ولا يحصل صلاح، ولا فلاح، ولا إيمان، ولا هدى لأحد من الناس إلا عن طريقهم، وبواسطتهم؛ لما كان الأمر كذلك فإننا وجدناهم متعلقين للدفاع عن هذا الاعتقاد الفاسد بكم هائل من الشبهات الواهية، والأدلة الباطلة، **وأن تلك الشبهات أنواع:-**

- فمنها ما هو عام.
- ومنها ما يتعلق بالأنبياء عليهم السلام.
- ومنها ما يتعلق بالأولياء، والشيوخ.
- وفيما يلي بيان تلك لشبهات والرد عليها بطريق الاختصار:

أولا: الشبهات العامة.

أ- من أكبر الشبهات التي يتعلق بها الصوفية، والقبورية -عموما- ويستدلون بها على جواز دعاء غير الله تعالى في الشدائد، والاستغاثة به هو زعمهم أنهم إذا توجهوا إلى الأنبياء، والصالحين بالدعاء، والاستغاثة، والتوسل بهم، وتوسيطهم في العبادات أنهم لا يعبدونهم بذلك وإنما يعبدون الله تعالى، ويتوجهون بهؤلاء المحبوبين ليقربوهم إلى الله تعالى زلفى، ولهذه الشبهة صورتان عند الصوفية، قديما وحديثا[1] :-

١- صورة فلسفية منطقية كلامية.

٢- صورة أمية عامية.

أما الصورة الأولى؛ فتقريرها عندهم أن النفوس التي فارقت أبدانها أقوى من النفوس

---

(١) انظر جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية٣/ ١٢٨٢



المتعلقة بالأبدان من بعض الوجوه؛ لأنها حين فارقت تلك الأبدان زال عنها الغطاء، والوطاء[١]، وانكشف لها عالم الغيب، فالزائر إذا ذهب إلى قبر إنسان قوي النفس كامل الجوهر شديد التأثير، ووقف عند قبره ساعة، وتأثرت نفسه من تلك التربة حصل لنفس الزائر تعلق بتلك التربة التي عرفنا أن نفس الميت المزور تعلق بها أيضا فحينئذ يحصل لنفس الحي، ولنفس الميت ملاقاة بسبب اجتماعهما على تلك التربة، فصارت هاتان النفسان شبيهتين بمرآتين صقيلتين وضعتا بحيث ينعكس الشعاع من كل واحدة منهما إلى الأخرى، وبهذا السبب ينعكس النور من نفس الميت المزور إلى نفس هذا الحي الزائر، وبهذه السبيل الفلسفية تصير تلك الزيارة سببا لحصول المنفعة الكبرى، فهذا هو السبب الأصلي في شرعية الزيارة، ولهذا ينتفع بزيارة القبور، والاستعانة بنفوس الأخيار من الأموات في استمطار الرحمات، ودفع المضرات[٢]. هذه سفسطة المتفلسفة منهم[٣].

وأما الصورة الثانية للواسطة؛ فتقريرها -عند العامة- على جواز الاستغاثة بالأموات، واستمداد الفيوضات منهم؛ بل وجوبها -عندهم- أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والأولياء كما يزعمون- واسطة في العون، والمدد، والإغاثة بين الله تعالى وبين المكروبين المضطرين لعلو شأنهم، ورفيع منزلتهم عند الله تعالى، وأن المكروب المستغيث يرى نفسه ملطخا بالذنوب، فهو بعيد عن الله تعالى لا يصل إليه إلا بواسطة أحبابه من الأولياء المقربين الذين يشفعون له عند الله تعالى، فكما أنه لا يمكن للعامة الوصول إلى الملوك إلا بواسطة الأمراء، والوزراء، والمقربين كذلك لا يمكن الوصول إلى الله تعالى لقضاء الحوائج، وتحقيق الآمال إلا بواسطة المعظمين المقربين من الأنبياء، والأولياء[٤].

---

(١) الوطاء بكسر الواو وفتحها: ضد الغطاء. انظر مختار الصحاح ص٧٢٧ مادة (و-ط-أ)، والقاموس المحيط١/ ٣٤ مادة (وطئه).

(٢) توجد هذه الصورة عند أغلب الصوفية المتفلسفة منهم. انظر شرح المقاصد للتفتزاني٢/ ٧٢، وشواهد الحق ص١٥١، ومقالات الكوثري ص٣٨٣، وقد نقل هذه الصورة شيخ الإسلام ابن تيمية عن بعض الصوفية، انظر مجموع الفتاوى١/ ١٦٧، والرد على المنطقيين ص٥٣٥، ونقلها أيضا العلامة ابن القيم، انظر إغاثة اللهفان١/ ٢٢٤، كما نقلها محي الدين البركوي، انظر زيارة القبور الشرعية والشركية ص٤٨

(٣) انظر جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية٣/ ١٢٨٢

(٤) انظر التصريح بهذه الصورة من الشبهة في شواهد الحق ص٦٦، وص١٤٢، ومفاهيم يجب أن تصحح ص٤٣، وذكرها الإمام محمد بن عبد الوهاب ورد عليها في كشف الشبهات في التوحيد ص١١، وانظر الصواعق المرسلة الشهابية ص١٤٤، ومجلة المنار١١/ ٣٤٩، والمجموع المفيد للخميس ص١١٧

الرد على هذه الشبهة:

١- **أما الصورة الأولى** فنقول للرد عليها: إن هذه الواسطة هي بعينها عقيدة المشركين الأولين عباد الأصنام السابقين في تعلقهم بالمخلوقين من دون الله تعالى، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[٢] والشفاعة حق، ولكنها ملك لله تعالى وحده: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٣]، فلا يجوز طلبها من الأموات سواء كانوا أنبياء، أو أولياء، ولا من غيرهم، وإنما تطلب ممن بيده الأمر كله، وقد أخبرنا الله تعالى أنها لا تحصل إلا بشرطين: -

الأول: إذن الله للشافع أن يشفع، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[٤]

والثاني: أن يكون المشفوع فيه ممن رضي الله قوله، وعمله، وهو المؤمن الموحد، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾[٥]، وقال أيضا: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾[٦]، (فالله لم يرخص في طلب الشفاعة من الملائكة، والأنبياء، ولا الأصنام؛ لأنها ملكه وحده، منه تطلب، فهو الذي يأذن للشافع أن يشفع، وإن لم يأذن له لم يتقدم في الشفاعة بين يديه، وليس الأمر كما يحصل عند المخلوقين من تقدم الشفعاء إليهم، وإن لم يأذنوا لهم، ويقبلون شفاعتهم، ولو لم يرضوا بها؛ فإن المشفوع عنده من المخلوقين يحتاج إلى الشافع، ومعاونته، فيضطر لقبول شفاعته، وإن لم يأذن له فيها، وأما الله سبحانه فهو الغني عما سواه، فليس بحاجة إلى أحد؛ بل كل أحد محتاج إليه، وأيضا المخلوق لا يدري عن كل أحوال رعيته حتى يبلغه عنها الشفعاء لديه، والله سبحانه بكل شيء عليم، لا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه، فليس بحاجة إلى من يبلغه، وحقيقة الشفاعة عند الله سبحانه أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيعفو عنهم، ويغفر بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه بذلك)[٧].

وشبهة الصوفية هذه هي شبهة الكفار قديما، فقد بين الفخر الرازي أن الأشياء التي عبدها الكفار من دون الله في القديم **شيئان:-**

(١) سورة الزمر الآية ٣ (٢) سورة يونس الآية ١٨
(٣) سورة الزمر الآية ٤٤ (٤) سورة البقرة الآية ٢٥٥
(٥) سورة الأنبياء الآية ٢٨ (٦) سورة طه الآية ١٠٩
(٦) بيان حقيقة التوحيد للشيخ صالح الفوزان ص٣٣

أ - عقلاء. ب - وغير عقلاء.

أما العقلاء، فكالمسيح، وعزير، والملائكة، فإن قوما منهم عبدوا هؤلاء، وكثير من الناس كانوا يعبدون الشمس، والقمر، والنجوم، ويعتقدون فيها أنها أحياء عاقلة ناطقة، وأما الأشياء التي عبدت مع أنها ليست موصوفة بالحياة، ولا بالعقل فهي الأصنام، ومراد الكفار من عبادتها أنها تقربهم إلى الله زلفى، فالعاقل لا يعبد الصنم، والوثن من حيث إنه خشب، أو حجر، وإنما يعبده لاعتقاده أن هذه الأصنام تماثيل الكواكب، أو تماثيل الأرواح السماوية، أو تماثيل الأنبياء، والصالحين الذين سلفوا، ومقصودهم من عبادتها توجيه تلك القربات إلى تلك الأشياء التي جعلوا هذه التماثيل صورا لها[١].

ثم قال الرازي: (وحاصل ما لعباد الأصنام أن قالوا: إن الإله الأعظم أجل من أن يعبده البشر؛ لكن اللائق بالبشر أن يشتغلوا بعبادة الأكابر من عباد الله، مثل الكواكب، ومثل الأرواح السماوية، ثم إنها تشتغل بعبادة الإله الأكبر، فهذا هو المراد من قولهم: **﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾**[٢] إلى أن قال: (واعلم أن الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالا فقالوا: نحن لا نعبد هذه الأصنام لاعتقاد أنها آلهة تضر، وتنفع، وإنما نعبدها لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين، فنحن نعبدها لأجل أن يصير أولئك الأكابر شفعاء لنا عند الله فأجاب الله تعالى بأن قال: **﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ﴾**[٣]

وتقرير الجواب أن هؤلاء الكفار إما أن يطمعوا بتلك الشفاعة من هذه الأصنام، أو من أولئك العلماء، والزهاد الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لها، والأول باطل؛ لأن هذه الجمادات، وهي الأصنام لا تملك شيئا، ولا تعقل شيئا، فكيف يعقل صدور الشفاعة عنها؟. والثاني باطل؛ لأن في يوم القيامة لا يملك أحد شيئا، ولا يقدر أحد على الشفاعة إلا بإذن الله، فيكون الشفيع في الحقيقة هو الله الذي يأذن في تلك الشفاعة، فكان الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره)[٤].

وقد بين العلامة نعمان الآلوسي أن عقيدة القبورية من الصوفية في اتخاذ الواسطة هي

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازي٢٦/ ٢٤١ (٢) سورة الزمر الآية ٣
(٣) سورة الزمر الآية ٤٣
(٤) تفسير الفخر الرازي٢٦/ ٢٨٥، وانظر بلوغ الأرب للألوسي٢/ ١٩٢

أصل دين المشركين الأولين، فقال: (إذا تبين هذا فالمشركون قد كانت عبادتهم لآلهتهم هذا الالتجاء، والرجاء، والدعاء؛ لأجل الشفاعة، معتقدين أنها المقربة لهم، فبسبب هذا الاعتقاد، والالتجاء أريقت دماؤهم، واستبيحت أموالهم. . . فهذا الالتجاء بطلب الشفاعة، ورجائها عبادة لا تصلح إلا له عز وجل، وأنها من صرف حقوقه تعالى ومن الشرك)[1] .

وقال العلامة شكري الآلوسي في رده على غلاة القبورية: (وسمعت من بعض أغبياء الغلاة، وجهلتهم من أهل الثياب المعلمة، والأقفاء المورمة، والألقاب المفخمة قال. . . . فإذا قال القائل مستغيثا بأحد من الأموات: يا فلان افعل كذا وكذا فالمقصود الطلب من الله أن يقضي حاجته وبعد أن فرغ من هذا الهذيان وسكت قلت له: . . . . وينبغي على قولك هذا أن يطلب من المخلوق كل شيء يطلب من الخالق، وينبغي أن لا يعترض على عبدة الأصنام، وطلبهم ما يطلب من الله؛ فإنهم أيضا كانوا يعتقدون أن أصنامهم وسائط، ووسائل، وشفعاء، وكانوا: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[2] ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[3] ونحو ذلك من الكلام، وإذا سئلوا: ﴿مَن يَرْزُقُكُم﴾[4] ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[5] ، وقد سبق في هذا الكتاب في عدة مواضع بيان ذلك، وأن كلام الغلاة هذا، وكلام عبدة الأصنام من واد واحد، وقد تشابهت قلوبهم، وأوردت عدة آيات ونصوص)[6] .

وفلسفة غلاة القبورية الموروثة عن الأسلاف في الجاهلية لا بد منها لتبرير هذه العقيدة؛ إذ (ليس من الطبيعي أن يتوجه إنسان إلى حجر، أو شجر، أو قبر، أو أي مخلوق آخر بأشكال التقديس، والتقرب، ولذا فإن الصورة الساذجة المباشرة لهذه الأعمال لا يتصور أنها تنطلي من أول وهلة وبصورتها الساذجة على المخلوق المكرم بعقله المميز بفطرته؛ إذ لا بد من وجود حجج، وحيثيات تزين هذا الانحراف، وتسوغه له، أي لابد من فلسفة لهذا الأمر حتى ولو لم تظهر مصاحبة له، فهي في كثير من الأحيان تظهر في صورة أشبه ما تكون بالاتجاه النفسي لدى المبتلين بهذا الداء)[7] .

(١) جلاء العينين ص٤٤٥، وانظر هذه مفاهيمنا ص١٠٤، وتوحيد الألوهية أساس الإسلام ص٣٠٠
(٢) سورة يونس الآية ١٨ (٣) سورة الزمر الآية ٣
(٤) سورة يونس الآية ٣١ (٥) سورة لقمان الآية ٢٥
(٦) غاية الأماني ٢/ ٣٥٢، وانظر الصراع بين الإسلام والوثنية لعبدالله القصيمي ص١٣٦
(٧) دمعة على التوحيد ص٩٣

والمبتلون بالتعلق بالوسائط، والذين يحتجون بهذه الشبهة الفلسفية أنواع: (فمنهم من نسي جلال الله بالكلية، فجعل لا يعبد إلا الشركاء، ولا يرفع حاجته إلا إليهم، لا يلتفت إلى الله أصلا، وإن كان يعلم بالنظر البرهاني أن سلسلة الوجود تنصرم إلى الله. ومنهم من اعتقد أن الله هو السيد، وهو المدبر، لكنه قد يخلع على بعض عبيده لباس الشر، والتأله، ويجعله متصرفا في بعض الأمور الخاصة، ويقبل شفاعته في عباده بمنزلة ملك الملوك[١] يبعث على كل قطر ملكا، وقلده تدبير تلك المملكة فيما عدا الأمور العظام... وهذا مرض جمهور اليهود، والنصارى، والمشركين، وبعض الغلاة من منافقي دين محمد ﷺ يومنا هذا)[٢].

وقد حقق العلامة ابن أبي العز أن هذا النوع من الشفاعة، والتوسل، والتوسيط هو أصل شرك العرب، وغيرهم من مشركي الهند، والترك، والبربر[٣].

وبين العلامة الأمير الصنعاني أن التوسل بالمخلوقين، وجعلهم واسطة بين الناس ورب العالمين هي طريقة الصابئة المذكورة في القرآن مضمونه إلى أهل الكتاب[٤].

ويرى بعض الباحثين أن هذه الشبهة الفلسفية في اتخاذ الواسطة ظهرت قديما في المشركين من قوم إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام -حيث (نشأ عبادة الكواكب عندهم من التعلق بالملائكة واعتقاد أنهم وسطاء بين الله وخلقه، وأنهم موكول إليهم تصريف هذا العالم، ثم اعتقدوا أن الأفلاك، والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى، وزعموا أنها أحياء ناطقة مدبرة للعالم، وأنها بالنسبة للملائكة كالجسد للروح، فهي الهياكل، والملائكة الأرواح، وأنها متصفة بصفات مخصوصة، ولوجود هذه الصفات استحقت أن تكون آلهة تعبد، فكانوا يتقربون إلى الهياكل (الكواكب) تقربا إلى الروحانيات (الملائكة)، ويتقربون إلى الروحانيات تقربا إلى الباري تعالى، وهؤلاء يسمون (أصحاب الهياكل)... واعتقدوا أن التقرب إلى هذه الأصنام هو الوسيلة إلى الهياكل (الكواكب) التي هي وسيلة إلى الروحانيات (الملائكة) التي هي وسيلة إلى الله تعالى، وهؤلاء يسمون (أصحاب الأشخاص) ولكن يظهر هنا جليا دور قدسية

(١) لا يجوز إطلاق مثل (ملك الملوك) (وقاضي القضاة)) ,شاهنشاه) ونحو ذلك على غير الله تعالى.
(٢) حجة الله البالغة للدهلوي١/ ١٨٢
(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٧٩
(٤) انظر الإنصاف في حقيقة الأولياء، وما لهم من الكرامات، والألطاف ص٤٨



(الأرواح) التي نسبوها إلى الملائكة، وعقيدة الواسطة والوسيلة)[1] .

وهذه الشبهة حصلت نتيجة لتصور أهل الأهواء البدائي للواسطة، حيث حارت أفئدة كثيرين منهم في تصور إله لا تدركه الأبصار، فالتمسوا الخلاص من هذه الحيرة في حل وسط، وشبهة فلسفية تتمثل في وجود شخصية بشرية ينسبون إليها الألوهية، وتكون برزخا بين الطرفين فكانت هذه الحاجة لوجود إله قريب من الأبصار هي التي ألجأت النصارى إلى تصور مثل أعلى، أطلقت عليه اسما، وكسته لحما، ودما، وعبدته بوصفه إلها بشريا[2]

وبالجملة فقد أبطل الله تعالى هذه الشبهة التي تتعلق بها الصوفية، وهي بعينها شبهة المشركين الأولين، **وذلك ببرهانين عقليين:-**

أولهما: أنه ليس في آلهة المشركين التي اتخذوها شيء من خصائص الألوهية؛ لأنها مخلوقة فهي لا تخلق، ولا تجلب لعابديها نفعا، ولا تدفع عنهم ضرا، ولا تملك لهم حياة، ولا موتا، ولا نشورا، ولا تملك شيئا من ملكوت السماوات والأرض، قال الله تعالى: **﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾**[3] ، وقال تعالى: **﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾**[4] ، وقال تعالى: **﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾**[5] وإذا كانت هذه حال آلهتهم فإن ادعاء وساطتها من أسفه السفه، وأبطل الباطل.

والثاني: أن المشركين كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وهو أن الله تعالى هو الرب الخالق المالك المتصرف الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو الذي يجير ولا يجار عليه، وهذا يستلزم منهم أن يوحدوه بالألوهية كما وحدوه بالربوبية، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً**

---

(١) التنجيم والمنجمون وحكمهم في الإسلام للدكتور عبد المجيد المشعبي ص٤٣، وأصل الكلام في الملل والنحل٢/ ٤٩، وانظر دمعة علىالتوحيد ص٩٤

(٢) انظر روح الإسلام للسيد أمير على ترجمة أمين الشريف وآخر٢/ ١٢

(٣) سورة الفرقان الآية ٣

(٤) سورة سبأ الآيتان (٢٢-٢٣).

(٥) سورة الأعراف الآيتان (١٩١-١٩٢).

وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾[(١)] ، وقال تعالى : ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾[(٢)] ، وقال أيضا : ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴿٣١﴾ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾[(٣)][(٤)]

ولما وجه السؤال الآتي للشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله[(٥)] - وصيغته : إذا قال القبوري : أنا لم أشرك ، وإنما جعلت النبي ، أو الولي المقبور واسطة ، وشفيعا يقربني إلى الله زلفى !! فما جوابه؟

أجاب بقوله (جوابه هو أن الله أخبر عن المشركين أنهم لم يعتقدوا في أحجارهم ، وأشجارهم ، ونحوها الربوبية ؛ بل قالوا : ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾[(٦)] ، وأنهم يقولون : ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾[(٧)] ، فلم يقبل الله ذلك منهم ؛ بل شدد النكير عليهم ، وتوعدهم ، وأمر رسله بقتالهم ، واستباحة سبيهم ، وأموالهم ، وتعلق القبوريين[(٨)] في هذه الأزمنة بالمقدسين عندهم أعظم من تعلق أولئك المشركين ؛ لأن الأوائل يشركون في الرخاء ، ويخلصون في الشدة ، كما أخبر الله عنهم بقوله :[﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ [(٩)]، أما القبوريون ،

---

(١) سورة البقرة الآيتان (٢١-٢٢) . (٢) سورة الزخرف الآية ٨٧

(٣) سورة يونس الآيتان (٣١-٣٢) .

(٤) انظر مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله٥/ ١١٢ ، ومظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية لإدريس محمود ص٤٤١

(٥) هو الشيخ عبدالرحمن بن محمد بن خلف بن عبدالله الفهد آل نادر الدوسري نسبة إلى بطن من قبيلة الدواسر ، ولد في بريدة سنة ١٣٣٢هـ، تخرج من المدرسة المباركية في الكويت حيث كان والده يسافر به إلى الكويت بقصد التجارة ، يقال : إنه حفظ القرآن في أقل من شهر ، ثم انتقل من الكويت إلى الرياض ، وقد فسر القرآن الكريم وأذاع جزءا منه في الإذاعة بصوته ، من مؤلفاته((صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن الكريم)) ، توفي بلندن عام ١٣٩٩هـ، انظر : علماء آل سليم وتلامذتهم ص١٢٢ ، إتحاف النبلاء بسير العلماء ص١٥١

(٦) سورة الزمر الآية ٣ (٧) سورة يونس الآية ١٨

(٨) في النص المطبوع (القبوريون) وهو في محل جر .

(٩) في النص المطبوع رسمت الآية هكذا﴿فإذا مسهم الضر في البحر دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ وليس في القرآن آية بهذا التركيب –حسب علمي- فلعلها مركبة من آيتين : وهما صدر آية الإسراء وهي قوله تعالى﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم﴾الآية ٦٧ ، وعجز آية العنكبوت التي وضعتها مكان الخطأ في النص .



والمفتونون بتقديس الأشياء في هذا الزمان فهم يشركون في الرخاء، والشدة؛ بل تزداد ضراعتهم إلى المقبورين حال الشدة أعظم مما يضرعون إلى الله، أو يلتفتون[1] إليه، فهم عدلوا بربهم غيره؛ إذ ساووه بملوك الدنيا الذين يجهلون أحوال رعاياهم، ونواياهم، فيحتاجون دائما إلى وسيط يعرفهم بالناس، ويشفع عندهم للمذنبين، والله لا يخفى عليه خافية، ولا دونه، ودون توبة عباده حجاب، وما لهم من دونه من ولي ولا شفيع، قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾[3]، : ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[3] ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4] ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾[5]، فإن القبوري الذي يجعل المقبور واسطة، وشفيعا، قد انتقص الله انتقاصا عظيما؛ حيث قاسه بالمخلوق الذي يحابي في فضله، وحكمه، وعدله، فيعطي من له وسيط، وشفيع أكثر مما يعطي غيره، أو يحرم من ليس له واسطة لجهله بحاله، ويعفو عن المذنب الذي له شفيع، ويطرح الآخر في السجن، والعذاب، وذنبهما واحد (تقدس الله عن ذلك) فهذا القبوري اتهم الله بالمحاباة من حيث لا يشعر، وانتهج خطة المشركين الذين هم بربهم يعدلون، زاعما أنه موحد، وهو مخالف للتوحيد (عافاه الله من ذلك) فعليه التوبة، وإخلاص الدين لله من جديد)[6].

وكل هذه الممارسات البدعية بدعوى الواسطة (مخالفة للإسلام الصحيح يجب أن تزال، ويجب أن نعود إلى الإسلام في بساطته الأولى، وطهارته، ونقائه، ووحدته، واتصال العبد بربه، من غير واسطة، ولا شريك)[7].

٢- وأما في الرد على الصورة الثانية العامية فنقول: إن هذه الشبهة من أعظم براهين الصوفية القبورية العقلية، وجمهور القبوريين يتشبثون بها قديما وحديثا، ولا بأس أن أسوق بعض نصوص أئمتهم في تقرير هذه الصورة، يقول اليافعي[8]: (قد جرت العادة

---

(١) في النص المطبوع (يلتفتوا) وهو في محل رفع.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٥
(٣) سورة الأنعام الآية ١
(٤) سورة يونس الآية ١٨
(٥) سورة السجدة الآية ٤
(٦) الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة ص٦٥
(٧) زعماء الإصلاح في العصر الحديث لأحمد أمين ص١٦
(٨) هو عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان بنفلاح عفيف الدين اليافعي اليمني، ثم المكي، الشافعي، الصوفي، الشاعر، ولد قبل السبعمائة بقليل، ورحل إلى عدن، ثم جاور بمكة المكرمة حتى توفي بها سنة ٧٦٨هـ. انظر الدرر الكامنة ٢/ ٢٤٧، وشذرات الذهب ٦/ ٢١٠

أن من له حاجة قد يتوسل ذلك الوجيه بأوجه إلى من يراد منه قضاء الحاجة، كما يتوسل الإنسان من الرعية بالأمير، والأمير يتوسل بالوزير، والوزير يشفع عند السلطان في قضاء حاجة ذلك الإنسان، فكذلك نحن نتوسل إلى الله الكريم بنبينا عليه أفضل الصلاة والتسليم، وقد نتوسل بالأولياء في نادر من الأوقات في قضاء بعض الحاجات، والأولياء يتوسلون بالنبي الكريم فيشفع عند الله عز وجل فيسمع سبحانه شفاعته، ويقبل)[1] .

ويقول النبهاني: (وهو سبحانه قد اتخذهم -ولا سيما المرسلين منهم- وسائط بينه وبين خلقه في تبليغ دينه وشرائعه فاتخذوهم خلقه المجيبون لدعوتهم المصدقون بنبوتهم، وصفوتهم وسائط إليه في غفران زلاتهم وقضاء حاجاتهم؛ لعلمهم بأن المناسبة بينهم وبينه تعالى أقوى بكثير من المناسبة بين غيرهم وبينه عز وجل، وإن كانوا كلهم عبيده تعالى، فإذا علم ذلك يعلم يقينا أن تعظيمهم، وتوقيرهم، والتوسل بهم إليه تعالى -فضلا عن كونه لا يخل بتوحيده سبحانه وتعالى- هو من لباب توحيده، وخالص دينه، وأحسن عباداته عز وجل. . ولا يشك عاقل بأن تعظيم خواص عبيد الملك، وأصفيائه من الأنبياء، والأولياء في حياتهم، وبعد مماتهم هو في الحقيقة تعظيم لله تعالى، ولا يفهم موفق أن في ذلك شركا مع الربوبية؛ لأنهم عبيده الطائعون، وخدامه الصادقون الذين قضوا أعمارهم في خدمته كما يحب ويرضى سبحانه وتعالى، وكانوا الوسائط بينه وبين خلقه في إرشادهم، وهدايتهم، وتبليغهم شرائعه وتعريفهم دينه، وكيفية عبادته، وبذلك امتازوا عن سائر عبيده عز وجل، وصاروا أقربهم، وأحبهم إليه فاستحقوا بذلك أن يعظمهم الناس، لا لذاتهم، بل لعلمهم أن تعظيمهم إياهم هو من أجل تعظيم الله لهم، فهو تعظيم له سبحانه وتعالى . . . وتعظيمهم من أحسن وجوه التقرب إليه لقضاء حوائجهم عنده، وكلما كان ذلك العبد، أو التابع أقرب له، وأحب إليه كان إكرامه، وتعظيمه، والتوسل به إليه أقرب في نجاح الحاجة، وحصول المقصود. . . فإذا عظمناهم، وتقربنا، وتشفعنا، وتوسلنا بهم إليه لقضاء حوائجنا الدنيوية، والأخروية، مع اعتقادنا الجازم أنهم عبيده، وليس لهم معه من الأمر شيء، وأنه تعالى يشفع من شاء منهم، ويرد شفاعة من شاء. . فعظمناهم لذلك، واتخذناهم وسائط لقضاء حوائجنا عنده، لكونهم -وإن شاركونا في أصل العبودية له تعالى- فقد امتازوا عنا بما تفضل الله عليهم به من

(١) انظر نشر المحاسن الغالية نقلا عن جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ٣/ ١٢٨٥



الرسالة، والنبوة، والولاية، وكثرة العلم، والعمل، والمعرفة، والطاعات، وسائر الخدمات التي تليق به تعالى، أنكون بذلك قد أشركنا بعبادته تعالى؟ أو نكون قد أطعناه سبحانه وتعالى بتعظيم من عظم الله؟ واحتقار أنفسنا عن أن نكون أهلا لطلب حوائجنا منه تعالى - بلا واسطة - لكثرة ذنوبنا، وتقصيرنا في طاعة مولانا عز وجل، ولذلك اتخذنا أفضل عبيده وسائل إليه لنوال فضله)[1] .

وقال آخر، وهو على شاكلة النبهاني في تقرير هذه الشبهة العامية في الواسطة: (وكل ما في الأمر أن المتوسل يرى نفسه ملطخا بقاذورات المعاصي، أبعدته الغفلات عنه تعالى أيما إبعاد، فيفهم من هذا أنه جدير بالحرمان من تحقيق مطالبه، وقضاء حاجاته إن دعا الله مباشرة؛ لأجل هذا يتقدم المتوسل إليه تعالى بأحبابه الذين لا يعرفون إلا طاعته مبتهلا إليه بجاههم عنده، وحرمتهم لديه أن يقضي له حاجته لأجل هؤلاء الأحباب الذين عودهم تعالى[2] ، إذا كان هذا هو السر في التوسل فلا أثر إذن فيه لحياة المتوسل بهم أو موتهم، فإنهم أحباب ربنا تعالى على أي حال كانوا . . . أحياء كانوا أم أمواتا)[3] ، **وأجاب العلماء على هذه الشبهة بعدة أجوبة:**

الجواب الأول: أن الصوفية في تشبثهم بكلمة "الواسطة" ملبسون، ومدلسون؛ حيث إنهم خلطوا حقا بباطل، وعبروا بمباح وأرادوا محرما، فإن كون الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- واسطة بين الله وخلقه يحتمل معنى حقا ومعنى باطلا، فمن أراد أنهم واسطة في تبليغ أوامر الله ونواهيه، وبيان دينه، وشرعه، وهداية الناس إلى الصراط المستقيم، وتوضيح محاب الله، ومساخطه فهذا معنى حق، وصواب، فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله وما يكرهه، وما يأمر به، وما ينهى عنه إلا بواسطة الرسل -عليهم السلام-؛ لأن الله تعالى اصطفاهم ليبلغوا عنه رسالاته إلى سائر الخلق، وأما من أرادوا بالواسطة أن الأنبياء -عليهم السلام- والأولياء، واسطة بين العباد، وخالقهم في جلب المنافع، ودفع المضار، والرزق، والنصر، وسائر الإغاثات، وكشف الكربات، وأن الناس

---

(١) شواهد الحق ص١٤٢ وما بعدها (بتصرف) وانظر مفاهيم يجب أن تصحح لمحمد علوي مالكي ص٩٥

(٢) في النص المطبوع سقط المفعول الثاني (لعودهم) وأصبح في الكلام بتر، ولعل تقديره (عودهم تعالى أن لا يردهم).

(٣) فصل الخطاب للحمامي المصري ص٦٠ نقلا عن جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية٣/ ١٢٨٦، وممن استشهد بهذه الشبهة أيضا مواطن مصري بعث برسالة إلى الشيخ الغزالي جاء فيها: (جمهور الناس عصاة والله إنما يتقبل من المتقين، فلو ذهب إنسان إلى ربه وهو موقر بالسيئات لم يجب له سؤالا) عقيدة المسلم للغزالي ص٨٢ كما حكاها المقريزي ورد على القائلين بها، انظر تجريد التوحيد ص٢٣

يتوجهون إلى الأنبياء، والأولياء، لتحصيل ذلك، ويستغيثون بهم عند نزول النوازل، وإلمام الملمات، وينادونهم من دون الله تعالى في غيابهم في الحياة، وبعد الممات فهذا من الشرك[1] الذي كفر الله به المشركين في الجاهلية الأولى.

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية أن الأنبياء، والرسل واسطة بين الله، وخلقه في تبليغ الرسالة[2] بكل ما تحمله هذه الكلمة من العقائد النافعة، والأحكام العادلة، والعبادات الصالحة، والدلائل الشرعية، ثم رد على الذين يزعمون أن الأنبياء، والأولياء، والصالحين وسائط بين الله، وبين خلقه في جلب المنافع، ودفع المضار فقال: (وإن أراد بالواسطة أنه لا بد من واسطة في جلب المنافع، ودفع المضار مثل أن يكون واسطة في رزق العباد، ونصرهم، وهداهم، يسألونه ذلك، ويرجعون إليه فيه فهذا من أعظم الشرك الذي كفر الله به المشركين؛ حيث اتخذوا من دون الله أولياء، وشفعاء يجتلبون بهم المنافع، ويدفعون بهم المضار؛ لكن الشفاعة لمن يأذن الله له فيها حق، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[5]، وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ ﴾[6]

وقالت طائفة من السلف: كان أقوام يدعون المسيح، والعزير، والملائكة، فبين الله أن الملائكة، والأنبياء لا يملكون كشف الضر عنهم، ولا تحويلا، وأنهم يتقربون إلى الله، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، وقال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ

---

(١) وهذا النوع من الشرك يسمى شرك التقريب، وهو عبادة غير الله بقصد التقرب إلى الله. انظر مجالس الأبرار على خزينة الأسرار لأحمد الرومي ص١٥٠ نقلا عن بيان الشرك ووسائله عند أئمة الحنفية للدكتور محمد الخميس ص١٧

(٢) راجع الفصل السابق (صورة الواسطة في التبليغ)

(٣) سورة السجدة الآية ٤

(٤) سورة الأنعام الآية ٥١

(٥) سورة الإسراء الآيتان (٥٦-٥٧).

(٦) سورة سبأ الآيتان (٢٢-٢٣).



الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(١)

فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة، و النبيين أربابا كفر، فمن جعل الملائكة، والأنبياء، وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يسألهم غفران الذنب، وهداية القلوب، وتفريج الكروب، وسد الفاقات، فهو كافر بإجماع المسلمين. . . . ومن أثبتهم وسائط بين الله وبين خلقه كالحجاب الذين يكونون بين الملك ورعيته بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه -فالله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم- فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله، كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس لقربهم منهم، والناس يسألونهم أدبا منهم أن يباشروا سؤال الملك أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج، فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر، مشرك يجب أن يستتاب، فإن تاب، وإلا قتل، وهؤلاء مشبهون لله، شبهوا المخلوق بالخالق، وجعلوا لله أندادا. . .
والمقصود هنا أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالوسائط التي تكون بين الملوك، والرعية فهو مشرك، بل هذا دين المشركين عباد الأوثان، كانوا يقولون: إنها تماثيل الأنبياء، والصالحين، وإنها وسائل يتقربون بها إلى الله، هو من الشرك الذي أنكره الله على النصارى؛ حيث قال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٢)(٣)

ويقول الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ في رده على من أجاز دعاء غير الله تعالى بدعوى أنه واسطة بين الله تعالى والداعي: (فالقول بجواز الاستغاثة بغير الله، ودعاء الأنبياء، والصالحين، وجعلهم وسائط بين العبد، وبين الله، والتقرب إليهم بالنذر، والنحر، والتعظيم بالحلف وما أشبهه مناقضة ومنافاة لهذه الحكمة التي هي المقصودة بخلق السماوات والأرض، وإنزال الكتب، وإرسال الرسل، وفتح لباب الشرك في المحبة، والخضوع، والتعظيم، ومشاقة ظاهرة لله، ورسوله، ولكل نبي كريم، والنفوس مجبولة على صرف ذلك المذكور من العبادات إلى من هو أهل لكشف الشدائد، وسد

(١) سورة آل عمران الآيتان (٧٩-٨٠).
(٢) سورة التوبة الآية ٣١
(٣) الواسطة بين الحق والخلق ص٢٠ وما بعدها (بتصرف يسير) وانظر مجموع الفتاوى١/ ١٢١



الفاقات، وقضاء الحاجات من الأمور العامة التي لا يقدر عليها إلا فاطر الأرض، والسماوات) إلى أن قال: (الوجه الثاني: أن هذا بعينه قول عباد الأنبياء، والصالحين من عهد قوم نوح إلى أن بعث إليهم خاتم النبيين، ولم يزيدوا على ما ذكره هؤلاء الغلاة فيما انتحلوه من الشرك الوخيم، والقول الذميم، كما حكى الله عنهم ذلك في كتابه الكريم قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(٢)

فهذه النصوص المحكمة صريحة في أن المشركين لم يقصدوا إلا الجاه والشفاعة، والتوسل بمعنى جعلهم وسائط تقربهم إلى الله، وتقضي حوائجهم منه تعالى، وقد أنكر القرآن هذا أشد الإنكار، وأخبر أن أهله هم أصحاب النار، وأن الله تعالى حرم عليهم الجنة دار أوليائه الأبرار، وجمهور هؤلاء المشركين لم يدعوا الاستقلال، ولا الشركة في توحيد الربوبية؛ بل أقروا، واعترفوا بأن ذلك لله وحده، كما حكى سبحانه إقرارهم، واعترافهم بذلك في غير موضع من كتابه، فحاصل ما ذكر من جواز الاستغاثة، والدعاء، والتعظيم بالنذر، والحلف مع نفي الاستقلال، وأن الله يفعل لأجله هو عين دعوى المشركين، وتعليلهم، وشبههم، لم يزيدوا عليه حرفا واحدا؛ إلا أنهم قالوا: قربان، وشفعاء، والغلاة سموا ذلك توسلا، فالعلة واحدة، والحقيقة متحدة).

ثم ذكر الشيخ الوجه الثالث الذي أثبت فيه أن الله سبحانه وتعالى أمر عباده بإفراده بالدعاء، والاستغاثة، وإنزال الحاجات، وجميع العبادات دون غيره كائنا من كان، واستدل بآيات وأحاديث كثيرة تؤيد ما ذكره، ثم قال: (وعلى القول بجعل الوسائط بين العباد وبين الله تقطع أصول هذا الأصل العظيم الذي هو قطب رحى الإيمان، وينهدم أساسه الذي ركب عليه البنيان، فأي فرج، وأي نعيم، وأي فاقة سدت، وأي ضرورة دفعت، وأي سعادة حصلت، وأي أنس، واطمئنان إذا كان التوجه، والدعاء، والاستغاثة، والذبح، والنذر لغير الملك الحنان المنان؟! فصلاح السماوات والأرض بأن يكون الله سبحانه هو إلهها دون ما سواه، ومستغاثها الذي تفزع إليه وتلجأ إليه في مطالبها وحاجاتها.. وأن الشرع الذي جاء به محمد ﷺ والسنة التي سنها في قبور

(١) سورة يونس الآية ١٨ (٢) سورة الزمر الآية ٣



الأنبياء، والصالحين، وعامة المؤمنين تنافي هذا القول الشنيع . . . ومن شم رائحة العلم، وعرف شيئا مما جاءت به الرسل عرف أن هذا الذي قاله الغلاة من جنس عبادة الأصنام، والأوثان، مناقض لما دلت عليه السنة، والقرآن، ولا يستريب في ذلك عاقل من نوع الإنسان. . . وأن من أعرض عن الله، وقصد غيره، وأعد ذلك الغير لحاجته، وفاقته، واستغاث به، ونذر له، ولاذ به؛ فقد أساء الظن بربه، وأعظم الذنوب -عند الله- إساءة الظن به فإن المسيء به الظن قد ظن خلاف كماله المقدس. . قال تعالى -عن خليله إبراهيم عليه السلام- : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) أي فما ظنكم أن يجازيكم إذا لقيتموه قد عبدتم غيره . . . وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء فإنهم محتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية، وحوائجهم من الوسطاء الذين يعينونهم على قضاء حوائجهم، وإلى من يسترحمهم، ويستعطفهم بالشفاعة، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم، وعجزهم، وضعفهم وقصور علمهم، فأما القادر على كل شيء العالم بكل شيء الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه تنقص بحق ربوبيته، وإلهيته، وتوحيده، وظن به ظن السوء، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العقول، والفطر، وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبيح)(٢)

الجواب الثاني: أن هذه الشبهة هي اتخاذ الأنبياء، والأولياء واسطة بين العباد وخالقهم في جلب المنافع، ودفع المضار من أجل أن الله تعالى يحبهم، وأن توسيطهم تعظيم له سبحانه وتعالى هذه الشبهة باطلة من أصلها؛ إذ فيها قياس الله تعالى على ملوك الدنيا، وهذا من أفسد القياس في العالم، ومع أنه قياس مع الفارق(٣)؛ فإنه فاسد من عدة أوجه(٤): -

---

(١) سورة الصفات الآيات (٨٥-٨٧).

(٢) انظر منهاج التأسس للشيخ عبد اللطيف آل الشيخ نقلا عن غاية الأماني ١/ ٢٦٣ وما بعدها، وأصل الكلام للعلامة ابن القيم، انظر الجواب الكافي ص٣٣٠

(٣) انظر القياس الفاسد وأثره في الانحراف في العقيدة رسالة دكتوراه غير منشورة للدكتور أحمد بن شاكر الحذيفي ص٨١

(٤) انظر الواسطة بين الحق والخلق ث٢٦، وإغاثة اللهفان١/ ٣٣٩، وتجريد التوحيد المفيد ص٣١، والصواعق المرسلة الشهابية لابن سحمان ص١٤٩، والتوسل للألباني ص١٤٤، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية٣/ ١٣٠٦، وتقديس الأشخاص في الفكر الصوفي٢/ ٢٥٦

أولا: أن الملوك لأجل جهلهم بحقائق الأمور، وعدم علمهم بأصول الرعية -يحتاجون إلى الوسائط من الأمراء، والوزراء، والندماء، والوجهاء، والأصدقاء؛ ليبلغوهم أحوال الرعية، ويرفعوا إليهم حوائجهم بخلاف من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فمن ساوى الله تعالى بملوك البشر، فقد كفر.

ثانيا: أن ملوك الدنيا عاجزون عن تدبير أمورهم، والقيام بحقوق رعاياهم، وصد أعدائهم إلا بأعوان، وأنصار من الوزراء ليعينونهم على أداء مهماتهم، وتدبير شئون ممالكهم، وسياسة رعيتهم، وحفظ بلدانهم، وأوطانهم بخلاف رب البرية، الخالق الحي، القيوم، القادر، المالك، الغني، القاهر، القوي، العزيز، المعطي المانع، فمن ظن أن الله تعالى يحتاج لواسطة مثل ملوك البشر فقد كفر.

ثالثا: أن ملوك البشر ليسوا مريدين لنفع الرعية، والإحسان إليهم، ورحمتهم إلا بمحرك يحركهم من الخارج، فهم محتاجون من أجل ذلك إلى وسائط، وشفعاء، ونصحاء ينصحون، ويشفعون عندهم للمظلومين، والمحتاجين من الرعية، ليقوموا بقضاء حوائج هؤلاء بالترغيب، والنصيحة، والشفاعة بخلاف رب العالمين الرؤوف الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، فمن ظن أن الله تعالى يحتاج مثل هؤلاء الوسطاء فقد كفر، والعياذ بالله.

رابعا: أن الملوك مضطرون إلى قبول وساطة أمرائهم، ووزرائهم، ووجهاء ممالكهم؛ لحاجتهم إليهم في حفظ البلاد، وسياسة العباد، وكثيرا ما يقبل الملوك شفاعة أولئك الوسطاء بإذنهم، وبدون إذنهم لمن يرضون عنه، ولمن يسخطون عليه بخلاف مالك الملوك الغني عما سواه الحي القيوم الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولم يكن له شريك في الملك، قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[1]، فبين الله تعالى (أن كل من دعى من دونه ليس له ملك، ولا شريك في الملك، ولا ظهير، وأن شفاعتهم لا تنفع إلا لمن أذن له، وهذا بخلاف الملوك فإن الشافع عندهم قد يكون له ملك، وقد يكون شريكا لهم في الملك، وقد يكون مظاهرا معاونا لهم على ملكهم، وهؤلاء يشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك -هم وغيرهم- والملك يقبل شفاعتهم

(١) سورة سبأ الآيتان (٢٢-٢٣).



تارة لحاجته إليهم، وتارة لخوف منهم، وتارة لجزاء إحسانهم إليه، ومكافأتهم، ولإنعامهم عليه، حتى إنه يقبل شفاعة ولده، وزوجته؛ لذلك فإنه محتاج إلى الزوجة، وإلى الولد، حتى لو أعرض عنه ولده، وزوجته لتضرر بذلك، ويقبل شفاعة مملوكه، فإذا لم يقبل شفاعته يخاف أن لا يطيعه، أو أن يسعى في ضرره، وشفاعة العباد، بعضهم عند بعض كلها من هذا الجنس، فلا يقبل أحد شفاعة أحد إلا لرغبة، أو رهبة، والله تعالى لا يرجو أحدا، ولا يخافه، ولا يحتاج إلى أحد)[1]، فتبين بهذا أن قياس الخالق على الملك المخلوق قياس مع الفارق، وقياس تمثيل، يتضمن تشبيه الخالق بالمخلوق[2].

الجواب الثالث: أن قياس أحكام الدين على أمور الدنيا، وواقع الحياة العملية دليل على جهل صاحب هذا القياس، والمتفوه به، والمعتقد له؛ إذ ليست هناك قاعدة أصولية شرعية يبني عليها هذا القياس، ويخرج عليها أفعال هؤلاء الغلاة من الناس[3].

الجــواب الـرابع: أن شبهة الصوفية في الواسطةمن أجل طلب القرب من الله تعالى والزلفى لديه بالتوجه إلى المقربين من الوسطاء، كما يفعل أبناء الدنيا مع ملوكهم بتوسيط وزرائهم، وخواصهم، والمحبوبين لديهم هي عقيدة القرامطة الباطنية[4]، كما أثبت ذلك إخوان الصفا في رسائلهم[5]، حيث قالوا: (إن الحكماء لما عرفوا أن للعالم صانعا طلبوا القربة إليه، والتوسل بصفوة خلقه، وطلبوا الزلفى لديه بتعظيمهم لهم كما يفعل أبناء الدنيا من القربة إلى ملوكهم بالتوسل إليهم بأقاربهم وندمائهم، ووزرائهم، وكتابهم، وخواصهم، وقوادهم؛ فهكذا؛ وعلى هذا المثال فعل الحكماء.

اعلم يا أخي أن أهل المعارف الذين يعرفون الله حق معرفته، وهم أولياء الله فهم لا يتوسلون إليه بأحد غيره، وأما من قصر فهمه، ومعرفته فليس له طريق إلى الله تعالى إلا

---

(١) الواسطة بين الحق والخلق ص٢٨، وانظر معارج الألباب ص١٣٠

(٢) انظر تجريد التوحيد ص٣٠، وتقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ٢/ ٢٥٤

(٣) انظر تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ٢/ ٢٥٥

(٤) هم أتباع حمدان قرط أحد دعاة الباطنية وأئمتهم كوفي مات سنة ٢٩٣هـ سموا بالباطنية لقولهم بأن الشريعة لها ظاهر وباطن، والإسماعيلية، والبابكية، والخرمية وغير ذلك من الأسماء. انظر فضائح الباطنية للغزالي ص١١، والفرق بين الفرق ص٢٨٢، وإتعاظ الحنفاء للمقريزي ١/ ١٥١، وتاريخ أخبار القرامطة لثابت بن سنان وابن العديم ص٧، واليمانيات المسلولة ص٢٠٩

(٥) هم جماعة سرية من الباطنية تحالفوا فيما بينهم لبث الكفر في المسلمين بطرق سرية، وتسموا بهذا الاسم، وكان ظهورهم في دولة بني بويه الشيعية. انظر الحركات الباطنية للدكتور محمد الخطيب ص١٦٩



بأنبيائه، ورسله، والأئمة، وأوصيائهم، وأولياء الله؛ فبهم يتقرب إلى الله، وبتعظيمهم، والذهاب إلى مساجدهم، ومشاهدهم، والدعاء، والصلاة، والصيام عند قبورهم، طلبا للقربة إلى الله، والزلفى لديه)[١].

الجواب الخامس: أن غلاة الصوفية -في جعلهم الأنبياء، والصالحين واسطة بين الله تعالى وخلقه في استنزال الخير، واستدفاع الشر مشبهة مرتين بتشبيهين **من جهتين اثنتين:** فمرة شبهوا المخلوق الناقص بالخالق في صفات الكمال، فصاروا مشبهة بذلك؛ حيث رفعوا المخلوق الواسطة فوق منزلته، ووصفوه بصفات لا تليق إلا بالخالق سبحانه وتعالى، من العلم، والإرادة، والقدرة المطلقة، والسمع، والإحاطة والإغاثة ونحوها؛ حتى عبدت الواسطة من دون الله تعالى[٢]، ومرة شبهوا الخالق بالمخلوق في صفات النقص؛ وذلك في قياسهم الفاسد؛ حيث قاسوا رب العالمين خالق السماوات والأرضين بالملوك، والسلاطين الذين لا يتوصل إليهم عادة إلا بواسطة الوزراء، والوجهاء[٣]، وهذه الشبهة من أصول أهل الشرك، فإن أصل الشرك هو التشبيه، والتشبه[٤].

الجواب السادس: أن يقال لأصحاب هذه الشبهة: قد تحقق أن المسلمين؛ بل الكافرين -أيضا- يدعون الله تعالى مباشرة، بلاواسطة، والله تعالى -يجيبهم- فهل يعقل أن الله تعالى يجيب دعاء الكافرين المشركين بالذات من غير واسطة، ولا يجيب دعاء المسلمين الموحدين المتبعين للرسل إلا بهذه الواسطة[٥]؟.

يقول محمود شكري الآلوسي: (وبالجملة فقد علم المسلمون كلهم أن ما ينزل بالمسلمين من النوازل في الرغبة، والرهبة -مثل دعائهم عند الكسوف والاعتداد لرفع البلاء، وأمثال ذلك إنما يدعون في مثل ذلك الله وحده لا يشركون به شيئا لم يكن للمسلمين أن يرجعوا حوائجهم إلى غير الله؛ بل كان المشركون في جاهليتهم يدعونه

---

(١) رسائل إخوان الصفاء٤/ ٢٠

(٢) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٢٣٧، وتجريد التوحيد المفيد للمقريزي ص٢٦، ومقالة التشبيه وموقف أهل السنة منها لجابر إدريس رسالة دكتوراه غير منشورة ص١٥٠

(٣) انظر جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية٣/ ١٣٠٤

(٤) المراد بالتشبيه هو تشبيه الخالق بالمخلوق، وأما التشبه فالمراد به أن يشبه المخلوق نفسه إلهه من بعض الوجوه. انظر تجريد التوحيدص٣٠، والشرك في القديم والحديث لأبي بكر زكريا٢/ ١٢٠٨

(٥) انظر مجموع الفتاوى١١/ ٤٣٧، ومعارج الألباب ص٢٤٩



-بلاواسطة- فيجيبهم الله، أفتراه بعد التوحيد، والإسلام لا يجيب دعاءهم إلا بهذه الواسطة التي ما أنزل بها من سلطان؟)[١].

الجواب السابع: أنه ثبت بالأدلة السمعية، والعقلية بطلان هذه الشبهة، وذلك من وجوه: -

الأول: أن المقبورين لا يعلمون بحال المضطرين المكروبين المستغيثين المستشفعين كما سبق بيانه فكيف يطلبون شفاعتهم؟ وكيف يكونون -والحالة هذه- واسطة بينهم وبين الله تعالى؟.

الثاني: لقد تحقق أن الأموات لا تصرف لهم في شأن من شؤون الكون، فكيف يطلب منهم أن يتصرفوا تصرف الوسطاء من الوزراء والوجهاء؟.

الثالث: أن الأموات لا يسمعون دعاء المستغيثين بهم، ولا يطلعون على أحوالهم كما صرح بذلك علماء الحنفية [٢]فكيف يتصور وساطتهم، وشفاعتهم للناس بدون أن يسمعوا نداءهم؟.

الرابع: أنه لم يثبت شرعا أن الميت يشفع لمن جاء مستغيثا به؛ بل الأدلة من الكتاب والسنة وإجماع العقلاء متوافرة على أن الميت في لحده رهين كسبه، قد انقطع عمله[٣].

الجواب الثامن: أن ما زعمه غلاة الصوفية من أن العاصي نظرا لكثرة ذنوبه ووفرة عيوبه ليس له اللجوء إلى الله تعالى مباشرة وأن عليه أن يستصحب واسطة مقربة قبل مناجاة رب العالمين أن ذلك كلام لا أصل له في الإسلام قط؛ بل إن رسالة الإسلام جاءت لتخلص عقول البشر وتحررها من ذل هذا الاعتقاد الفاسد، وحتى إبليس رمز العصاة، وإمام الملعونين لما دعا ربه مباشرة أجيبت دعوته، قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[٤] أفيكون الملعون يدعو فيستجيب الله له رأسا من غير واسطة، ولا يدعو المؤمن المطيع إلا بواسطة؟!.

---

(١) غاية الأماني ١/ ٤١٣

(٢) انظر الآيات البينات في عدم سماع الأموات لنعمان الآلوسي ص٥٣، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ٣/ ١٣٠٩

(٣) انظر للتوسع غاية الأماني ١/ ٣٠٠، وصيانة الإنسان ص١٨٧، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ٣/ ١٢٣٢، والدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية ٢/ ٨٣٨

(٤) سورة الحجر الآية ٣٨



الجواب التاسع: أن ادعاء الواسطة على هذا الوجه من الحماقة بمكان؛ فإن مثل من يدعو الله بواسطة الأنبياء، والصالحين كمثل من يذهب إلى رئيس من الرؤساء، أو وزير من الوزراء -مثلا- ويقول له: يا سيادة الرئيس أطلب منك بجاه الوزير الفلاني أن تجعلني في الوظيفة الفلانية، أو كمن يطلب من وزير الأوقاف وظيفة الوعظ، أو الخطابة، ويقول له: أسألك بحق الإمام أبي حنيفة، أو بجاه الإمام الشافعي أن توكل إلى تلك الوظيفة، ولا يشك عاقل في حماقة من يتصرف هذا التصرف، ولا ريب أن الرئيس، أو الوزير سوف ينظر إلى هذا الشخص بعين الازدراء، ويحكم عليه بالحماقة، وعدم الرزانة(١).

الجواب العاشر: أن في التوسيط توعيرا، ولن تجلب الواسطة للسائل من الخير نقيرا؛ بل فيه معارضة، ومناقضة للمقاصد الصحيحة بالركون في الوصول إلى الله تعالى عن طريق الوسطاء، والشفعاء؛ بل فيه إساءة الظن برب العالمين؛ بل التعظيم في عدم الواسطة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ويلزم منه أن يرزق الله سبحانه وتعالى الكفار وينصرهم على عدوهم بالذات -بلا واسطة، ويرزق المؤمنين وينصرهم بواسطة المخلوقات، والتعظيم في عدم الواسطة. . . تدبر، ولا تتحير)(٢).

فكما أن من أحب شيئا دون الله، لغير الله فمضرته أكثر من منفعته، فاعتماد الإنسان على الوسائط المخلوقة، وتوكله عليهم يوجب الضرر من جهتهم، وما علق عبد رجاءه بغير الله إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا كسر(٣)

ومصداق ذلك أن السائل يتوجه إلى ربه عز وجل في حاجة مهمة فيتوسل إليه بحق الشفعاء، أو بجاه الوسطاء، فيبعد عن حاجته بمراحل، بسبب هذا التوسيط المنهي عنه، والمحذور الذي وقع فيه، ولو أنه توجه إلى ربه -مباشرة- مستشعرا عظمة الباري ورحمته بخلقه، متذللا، منكسرا، معترفا بذنوبه التي سلفت، محققا لتوحيد ربه لأتاه الغيث مدرارا، ولحالفه التوفيق مرارا، ولقد أحسن القائل(٤): -

إذا ما أتيت الأمر من غير بابه ضللت وإن تقصد إلى الباب تهتدي

الجواب الحادي عشر: أن من تتبع الأدعية الواردة في القرآن الكريم على لسان أنبياء الله ورسله عليهم السلام وغيرهم من عباد الله الصالحين فلن يجد دعاء واحدا دخلته واسطة

---

(١) الدين الخالص لصديق حسن خان٢/ ١٨٧
(٢) مجموع الفتاوى١١/ ٤٣٧
(٣) انظر المرجع السابق١/ ٢٩
(٤) تقدم تخريجه.

من الوسائط ؛ بل هي خطابات موجهة للباري عز وجل فيها اطراح بين يديه، واعتراف بالطبيعة البشرية، وتلذذ بعبوديتهم له سبحانه وتعالى، ولا شك أن من عارض خطاب الله تعالى الصريح في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾[1]، وقال إنه لا بد لنا من واسطة، وليس في اتخاذ الواسطة شرك[2]، فقد خالف الأمر الوارد في هذه الآية، وسوف يحكم على عقله بالخرق، والحمق.

ب – ومن الشبهات العامة : استدلال الصوفية بقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾[3] حيث يرون أن المراد بالوسيلة هنا ذوات الأنبياء، والصالحين[4] وجاههم، وحقوقهم عند الله تعالى، فيقصدونهم بالدعاء، والالتجاء، والاستعانة، والاستغاثة، سواء كانوا أحياء، أم أمواتا، حاضرين، أم غائبين[5]. كما يستدلون بقوله تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ﴾[6]، حيث قالوا : (أمرنا الله بالاستعانة بالأعراض، ولم يقل استعينوا بالله)[7].

وقال آخر : (في هذه الآية رد على من يقول : إنه لا تنبغي الاستعانة بغير الله ؛ بل من قال هذا فقد كفر لمخالفته نص الكتاب، وإذا كانت الصلاة والصبر اللذان هما من أفعال العبد ندب الحق إلى الاستعانة بهما فالاستعانة بأولياء الله تعالى في قضاء الحوائج، والمصالح بالطريق الأولى جائزة)[8]، **الرد على هذه الشبهة:**

أما الآية الأولى : فقد تقدم معنا أن المراد بالوسيلة فيها، وكذلك الوسيلة في السنة،

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٦

(٢) كما صرح بذلك محمد بن علوي مالكي في مفاهيم يجب أن تصحح ص٩٦

(٣) سورة المائدة الآية ٣٥

(٤) في معجم ألفاظ الصوفية للدكتور حسن الشرقاوي : أنه بمقتضى هذه الآية يكون النبي، والولي وسيلة مبتغاة، ويكون سؤالهما مطلوبا شرعا حتى ينال العبد المقصود. انظر ص ١٠١

(٥) انظر لمع برق المقامات العوال في زيارة سيدي حسن الراعي وولده عبد العال لمصطفى البكري مطبوع بآخر شواهد الحق ص٤٤٥، وشواهد الحق ص٢٨٢، ومفاهيم يجب أن تصحح ص١١٨، والرد عليه في هذه مفاهيمنا ص١٤ وما بعدها.

(٦) سورة البقرة الآية ٤٥

(٧) صلح الإخوان لابن جرجيس ص١٣٨ نقلا عن جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية٣/ ١٢٦١، وانظر الرد عليه في تحفة الطالب والجليس ص١٣٨

(٨) لمع برق المقامات العوال مطبوع بآخر شواهد الحق ص٤٤٥

وفهم السلف إنما هو العمل الصالح[١]، وبذلك فسر أهل العلم المراد بالوسيلة في الآية، ولم يرد عن أحد من أهل العلم المعتمدين أن المراد بالوسيلة في الآية توسيط ذوات الشيوخ ونداؤهم، والاستغاثة بهم، كما فعل غلاة الصوفية.

قال الآلوسي: (واستدل بعض الناس بهذه الآية على مشروعية الاستغاثة بالصالحين، وجعلهم وسيلة بين الله تعالى وبين العباد، والقسم على الله تعالى بهم بأن يقال: اللهم إنا نقسم عليك بفلان أن تعطينا كذا، ومنهم من يقول للغائب، أو الميت من عباد الله الصالحين: يا فلان ادع الله تعالى ليرزقني كذا وكذا ويزعمون أن ذلك من باب ابتغاءالوسيلة وكل ذلك بعيد عن الحق بمراحل)[٢]. وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: (... وبهذا التحقيق تعلم أن ما يزعمه كثير من ملاحدة أتباع الجهال المدعين للتصوف من أن المراد بالوسيلة في الآية الشيخ الذي يكون له واسطة بينه وبين ربه أنه تخبط في الجهل والعمى، وضلال مبين، وتلاعب بكتاب الله تعالى، واتخاذ الوسائط من دون الله من أصول كفر الكفار)[٣].

وأما الآية الثانية: فليس فيها دليل على جواز الاستغاثة بالأموات عند الشدائد، والانقطاع بذوات المخلوقين عن التلذذ بمناجاة رب العالمين؛ بل إنها من أقوى الأدلة على وجوب الالتجاء إلى الله تعالى عند نزول الخطب، واشتداد الكرب، والتوسل إليه بعمل المتوسل الصالح، وقد تقدم معنا أن الصلاة، وغيرها من الطاعات كالصبر من أعظم الأعمال الصالحة التي تنفع صاحبها في حياته، وبعد مماته، وأن العمل الصالح واسطة بنفسه[٤].

وبهذا يبطل محاولة غلاة الصوفية الاستدلال على جواز الواسطة البدعية بالآيات القرآنية.

جـ - ومن الشبهات العامة: استدلال الصوفية بأحاديث موضوعة، وأخبار واهية إذا طولب الغلاة بالدليل على ما يعتقدونه من جواز التوجه إلى الله تعالى بذوات المخلوقين في الدعاء، والرجاء، والانقطاع بهم عن الخلاق العليم بالتذلل والاستمداد والاستغاثة

---

(١) انظر من هذه الرسالة. (٢) تفسير الألوسي ٦/ ١٢٤
(٣) أضواء البيان٢/ ٧٧، وانظر الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية٢/ ٧٠٣
(٤) انظر صورة الواسطة في العمل الصالح.



فإنهم سوف يوردون كمّا هائلا من الأحاديث الضعيفة، أو الموضوعة، وسلة مليئة بالأخبار الواهية، والأقاصيص المختلفة، وفيما يلي عرض لبعض ما يستدلون به من السنة مع بيان فساده: -

١- توسل آدم بالنبي ﷺ فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعا: (لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال: يا آدم فكيف عرفت محمدا ولم أخلقه؟ قال: يا رب لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا: لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال: غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك)[١].

رواه الحاكم، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد، وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذا الكتاب)[٢].

وتعقبه الذهبي[٣] رحمه الله بقوله: بل هو موضوع، وعبد الرحمن واه)[٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأما تصحيح الحاكم لمثل هذا الحديث فهذا مما أنكره عليه أئمة العلم بالحديث، وقالوا: إن الحاكم يصحح أحاديث، وهي موضوعة مكذوبة)[٥]. كما أخرجه من طريق الحاكم أيضا البيهقي، وحكم بضعفه[٦]. وبهذا يكون رد الاستدلال بهذا الحديث من ناحيتين اثنتين: -

الأولى: من ناحية السند، فقد تكلم كبار نقاد الحديث على هذا الحديث فحكموا بوضعه، وبطلانه، فمن الحفاظ الذين حكموا عليه بالوضع.

١- الإمام الذهبي[٧]، ٢- والحافظ ابن حجر[٨]، وشيخ الإسلام ابن

---

(١) استدل بهذا الحديث البكري كما في تلخيص كتاب الاستعانة ١/ ٥٢، والسبكي في شفاء السقام ص١٧٢، ودحلان في الدرر السنية ص٩، والنبهاني في شواهد الحق ص١٣٧، وعلوي مالكي في مفاهيم يجب أن تصحح ص١١٩

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٦١٥، وأخرجه الطبراني في المعجم الصغير ٢/ ٨٢، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٤٨٩

(٣) هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي، قال عنه السبكي: إمام الأئمة، وذهب العصر معنى ولفظا، وشيخ الجرح والتعديل، ورجل الرجال في كل سبيل، توفي سنة ٧٤٨هـ، انظر شذرات الذهب ٦/ ١٥٣

(٤) تلخيص المستدرك ٢/ ٦١٥

(٥) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص١٦٥

(٦) انظر دلائل النبوة ٥/ ٤٨٩

(٧) انظر تلخيص المستدرك ٢/ ٦١٥

(٨) انظر لسان الميزان ٣/ ٣٥٩



تيمية[1]، وابن عبد الهادي[2]، والألباني[3] رحمهم الله.

والثانية: من ناحية المتن: أن هذا الخبر معارض للقرآن في موضعين: -

أ - فيه التصريح بأن الله تعالى ما غفر لآدم عليه السلام إلا بسبب جعله محمدا ﷺ واسطة في توبته، والذي صرح به القرآن الكريم هو أن الله تعالى غفر لآدم بكلمات تلقاها منه، قال الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[4]، والراجح أن تفسير هذه الكلمات هو بقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[5]، وهذا هو الأصل المعتمد في التفسير حيث يفسر القرآن بالقرآن[6].

ب- أن فيه (ولولا محمد ما خلقتك)، ومعلوم مناقضة هذا القول للحكمة من خلق الله تعالى للبشر، وهم آدم، وذريته، وكذلك الجن؛ إذ أن الحكمة من خلقهم جميعا إنما هي العبادة[7]، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[8]

فثبت بهذا القول الباطل معارضة صريح القرآن الكريم[9].

٢- حديث: (توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم) ويرويه بعضهم بلفظ (إذا سألتم الله فسلوه بجاهي) وهو خبر باطل لا أصل له، وإن احتج به الصوفية[10].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (حديث باطل لم يروه أحد من أهل العلم، ولا هو في شيء من كتب الحديث)[11]. كما حكم بوضعه الآلوسي المفسر[12]. وقال الشيخ الألباني: (لا أصل له في شيء من كتب الحديث ألبتة، وإنما يرويه بعض الجهال بالسنة)[13].

---

(١) انظر قاعدة جليلة ص١٦٨، وتلخيص كتاب الاستغاثة١/ ٥٦، ومجموع الفتاوى١/ ٢٥٤

(٢) انظر الصارم المنكي ص٣٦

(٣) انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة١/ ٣٨ برقم ٢٥، والتوسل أنواعه وأحكامه ص١١٣

(٤) سورة البقرة الآية ٣٧

(٥) سورة الأعراف الآية ٢٣، وانظر تفسير الطبري١/ ٢٤٥، وتفسير ابن كثير٢/ ٢١٥

(٦) انظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن١/ ٦٠

(٧) راجع الفصل السابق صورة الواسطة في العبادة.

(٨) سورة الذاريات الآية ٥٦

(٩) انظر التوسل للألباني ص١٢٤

(١٠) انظر بغية المستفيد لابن السائح التجاني ص١٦٩، وحكاه عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية ورده في قاعدة جليلة ص٢٥٢، واقتضاء الصراط المستقيم٢/ ٧٩٢، ومجموع الفتاوى١/ ٣٤٦

(١١) قاعدة جليلة ص٢٥٢، وانظر مجموع الفتاوى١/ ٣٤٦، واقتضاء الصراط المستقيم٢/ ٧٩٢

(١٢) انظر تفسير الآلوسي٦/ ١٣٧

(١٣) التوسل للألباني ص١٢٧، وانظر سلسلة الأحاديث الضعيفة١/ ٣٠ برقم٢٢

ومما ينبغي أن يعلم أن الحكم على هذا الحديث بالبطلان، والوضع لا يستلزم نفي جاه النبي ﷺ العظيم؛ فإن جاهه عند الله تعالى عظيم، ومقامه كريم، وإذا كان الله تعالى وصف موسى بقوله: ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾[1] وقال في عيسى: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[2]؛ فكيف بسيد ولد آدم صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون؟ وصاحب الكوثر، والحوض المورود، وهو إمام الأنبياء إذا اجتمعوا، وخطيبهم إذا وفدوا ذي الجاه العظيم ﷺ؟ إلا أن جاه المخلوق عند الله تعالى ليس كجاه المخلوق عند المخلوق؛ لأنه لا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه[3].

٣- ومن تلك الأحاديث الموضوعة: حديث: (إذا أعيتكم الأمور، أو إذا تحيرتم في الأمور فعليكم بأصحاب القبور، أو فاستعينوا بأهل القبور)[4]؛ حيث احتج به الغلاة في القبور على جواز الاستغاثة، والاستعانة بالواسطة من المقبورين عند الشدائد، والكروب، ونزول النوازل والخطوب[5]، وهو موضوع لا أصل له باتفاق أهل الحديث. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فهذا الحديث كذب مفترى على النبي ﷺ بإجماع العارفين بحديثه، لم يروه أحد من العلماء بذلك ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة)[6]. وبين العلامة ابن القيم أن هذا الخبر من الأحاديث المكذوبة التي وضعها أشباه عباد الأصنام من المقابرية على رسول الله ﷺ وهي تناقض دينه وما جاء به[7].

٤- ومن الأحاديث الموضوعة التي يحتج بها غلاة الصوفية على جواز دعاء الواسطة البدعية حديث: (لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه)، وفي لفظ (لو اعتقد أحدكم بحجر لنفعه) ولشهرة هذا الحديث على الألسنة للاستدلال به على جواز دعاء الله تعالى بأي واسطة كانت أورده السخاوي رحمه الله[8] في المقاصد الحسنة[9]. وقد حكم عليه

(١) سورة الأحزاب الآية ٦٩ (٢) سورة آل عمران الآية ٤٥

(٣) انظر قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ٢٥٢

(٤) قال العجلوني: كذا في الأربعين لابن كمال باشا. انظر كشف الخفاء١/ ٨٨

(٥) انظر الأمن والعلى للبريلوي ص٤٢ نقلا عن البريلوية لإحسان إلهي ظهير ص٦٠

(٦) قاعدة جليلة ص٢٩٧ (٧) انظر إغاثة اللهفان١/ ٢٢٠

(٨) هو أبو الخير، وقيل: أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن أبي بكر بن عثمان بن محمد شمس الله السخاوي، نسبة إلى قرية (سخا) بمصر، ولد بالقاهرة سنة ٨٣١هـ، اشتهر بالحديث والفقه، وله مشاركات في الفرائض، والتفسير، وأصول الفقه، توفي بالمدينة سنة ٩٠٧هـ، انظر: الضوء اللامع٨/ ٢، والبدر الطالع٢/ ١٨٤، وشذرات الذهب٨/ ١٥

(٩) انظر ص٣٤١ برقم ٨٨٣



الحفاظ من العلماء بالوضع، فممن حكم بوضعه شيخ الإسلام ابن تيمية[١]. وكذلك العلامة ابن القيم، وذكر أنه من جملة الأحاديث التي بسببها انتشر الشرك في الأمة، وأنه من وضع عباد الأصنام[٢]. وقال الحافظ ابن حجر: لا أصل له[٣]. ونقل كلامه علي القاري فأقره[٤]. كما حكم عليه بالوضع أيضا الشيخ الألباني[٥].

وبهذا القدر من الأحاديث الموضوعة، والأخبار الواهية نكتفي في مناقشة أدلتهم، وشبهاتهم؛ لأن هذا من أشهر ما يستدلون به، وفي الرد عليه رد على ما يشبهه من أدلتهم، وشبهاتهم الأخرى التي لا تخرج عن شاكلة هذه النماذج؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأما أولئك الضلال أشباه المشركين فعمدتهم؛ إما أحاديث ضعيفة أو موضوعة، أو منقولات عمن لا يحتج بقوله؛ إما أن يكون كذبا عليه، وإما أن يكون غلطا منه؛ إذ هي نقل غير مصدق عن قائل غير معصوم)[٦].

د - **ومن الشبهات العامة: شبهة التسبب،والكسب**: ما زلنا أمام اعتذارت الصوفية لتبريرهم التوجه بالدعاء، والاستغاثة، والنداء إلى الأنبياء، والصالحين سواء كانوا أحياء غائبين أم في حياتهم البرزخية مقبورين، ومن تلك المعاذير: أن الاستغاثة بالأنبياء، والأولياء، والصالحين، وطلب المدد منهم هو من قبيل الأخذ بالأسباب، وليس ذلك من باب الشرك بالله، ولا يعد عبادة لغير الله تعالى؛ بل إن طلب الغوث منهم على سبيل الكسب، والتسبب، ومن الله تعالى على سبيل الخلق، والإيجاد، والله تعالى جعل الأولياء أبوابا للخير منها يدلف[٧] إليه الداخلون، وسحبا يمطر منها أنواع الخيرات على المتعلقين بهم، والمستغيثين، وغاية ما يعتقده الناس في الأموات أنهم أسباب ووسائل كالأحياء، لا أنهم خالقون، وموجدون، والتسبب، والكسب أمران مقدوران للميت، وفي إمكانه كالحي، وليس في ذلك نوع من أنواع الشرك[٨].

---

(١) انظر منهاج السنة النبوية١/ ٤٨٣، ونقل هذا الحكم عنه مرعى بن يوسف الكرمي انظر الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة ص١٠٧ برقم ١٨٨

(٢) انظر المنار المنيف ص١٣٩ برقم ٣١٩

(٣) انظر المقاصد الحسنة للسخاوي ص٣٤١

(٤) انظر المصنوع من معرفة الحديث الموضوع للقاري ص١٤٧ برقم ٢٤٨

(٥) انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة١/ ٤٥٢ برقم ٤٥٠

(٦) تلخيص كتاب الاستغاثة٢/ ٦٨٠

(٧) يدلف: أي يمشي إليه، ويدخل عليه. انظر القاموس المحيط٣/ ١٤٥ مادة(دلف).

(٨) انظر تقرير هذه الشبهة في شفاء السقام للسبكي ص١٧٦، والدرر السنية لدحلان ص١٧، وشواهد الحق ص١٣٨، ومفاهيم يجب أن تصحح ص٨٦



يقول المالكي : (فنسبة الأفعال إلى العباد من نسبة المسبب إلى السبب أو الواسطة ، وهذا لا منافاة فيه ؛ لأن مسبب الأسباب هو الذي خلق الواسطة وخلق فيها معنى الوساطة ، ولولا ذلك الذي أودع الله تعالى فيها لم تصلح أن تكون واسطة[1] .

ويقال للرد على هذه الشبهة : (نعم هذا معتقد من يعبد الأنبياء ، والصالحين ، ويستغيث بهم ، يقول : هم سببي وواسطتي ، يحصلون لي بكسبهم ، والله هو الخالق ، ولا أدعي غير ذلك ، ولا نازع في الخلق ، والربوبية إلا فرعون ، والذي حاج إبراهيم في ربه ، وجمهور المشركين كما تقدم تقريره ، فبطل تعليله)[2] .

ويقول محمود شكري الآلوسي : (فإن قلت : إن للمستغاث بهم قدرة كسبية ، وتسببية ، فتسبب الإغاثة إليهم بهذا المعنى ، قلنا له : إن كلا منا فيمن يستغاث به عند إلمام مالا يقدر عليه إلا الله ، أو السؤال مالا يعطيه ، ويمنعه إلا الله ، وأما فيما عدا ذلك مما يجري فيه التعاون ، والتعاضد بين الناس ، واستغاثة بعضهم ببعض فهذا شيء نقول به[3] ، ونعد منعه جنونا ؛ كما نعد إباحة ما قبله شركا ، وضلالا ، وكون العبد له قدرة كسبية لا يخرج بها عن مشيئة رب البرية ، لا يستغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله ، ولا يستغاث به ، ولا يتوكل عليه ، ولا يلتجئ في ذلك إليه ، فلا يقال لأحد حي ، أو ميت ، قريب ، أو بعيد : ارزقني ، أو أمتني ، أو أحي ميتي ، أو اشف مريضي إلى غير ذلك مما هو من الأفعال الخاصة بالواحد الأحد ، الفرد الصمد ، بل يقال لمن له قدرة كسبية قد جرتالعادة بحصولها ممن أهله الله لها : أعني في حمل متاعي ، أو غير ذلك ، والقرآن ناطق بحظر الدعاء عن كل أحد ، لا من الأحياء ، ولا من الأموات ، سواء كانوا أنبياء ، أو صالحين ، أو غيرهم ، وسواء كان الدعاء بلفظ الاستغاثة ، أو بغيرها ؛ فإن الأمور الغي رمقدورة للعباد لا تطلب إلا من خالق القدر ، ومنشئ البشر ، كيف والدعاء عبادة وهي مختصة به سبحانه ، أسبل الله علينا بفضله عفوه ، ورضوانه ، فالقصر على ما تعبدنا فيه من محض الإيمان والعدول عنه عين المقت ، والخذلان ، وهذا خلاصة ما ذكروه من جعل الاستغاثة ، والاستشفاع بغير الله شركا ظاهرا لا يغفر ، ومتعاطيه جاعل لله ندا ، فيذبح بأمر الله تعالى ، وشرع رسوله

---

(١) مفاهيم يجب أن تصحح ص٨٦

(٢) منهاج التأسيس للشيخ عبد اللطيف آل الشيخ نقلا عن غاية الأماني١/ ٢٧٩

(٣) في النص المطبوع (لا نقول به) ومعناه غير مراد بلا شك .

ﷺ إن لم يتب . وبالجملة فالاستغاثة، والاستعانة، والتوكل أغصان دوحة التوحيد المطلوب من العبيد)[١].

ثم إن الدعاء الرجاء والتوكل والاستعانة، والاستغاثة من جملة العبادات؛ بل هي أسس للعبادة، والتأله لله تعالى، وصرفها لغيره من خلقه محض الشرك المنهي عنه، وأما جعل ذوات الأنبياء، والصالحين واسطة، وسببا لحصول الخير، ودفع الشر، ونسبة هداية التوفيق إليهم، وأن هذا داخل في جملة الأسباب المشروعة، فهذا لا يجوز بحال، وإن ظن المبتدع ذلك كل الظن.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيء سببا إلا أن تكون مشروعة؛ فإن العبادات مبناها على التوفيق، فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله فيدعو غيره، وإن ظن أن ذلك سبب في حصول بعض أغراضه؛ ولذلك لا يعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة، وإن ظن ذلك)[٢].

وقد تقدم الكلام عن هذه الشبهة في بيان الأسس التي بنى عليها أهل الأهواء مذهبهم في الواسطة[٣]، فلا نطيل الكلام عنها بأكثر من هذا.

هـ - ومن الشبهات العامة: شبهة المجاز العقلي[٤]: تقرر الصوفية، والغلاة -عموما- أن تصرف الأولياء في الكون، والإنسان -بزعمهم- وشفاء الأمراض، ومعرفة النيات، والخواطر، وهداية القلوب هداية التوفيق، وإغاثة المستغيثين، ونصرة المكروبين، وتدمير الأعداء، وتمكين الأولياء إنما يقصد بذلك كله المجاز العقلي، فالفاعل لذلك كله في الحقيقة هو الله عز وجل، وأما نسبة تلك الأفعال إلى الوسائط من الخلق فمن باب المجاز العقلي، لا على وجه الحقيقة[٥]. يقول أحمد دحلان: (فإذا قال العامي من المسلمين نفعني النبي ﷺ أو أغاثني، أو نحو ذلك فإنما يريد الإسناد المجازي، والقرينة على ذلك أنه

---

(١) غاية الأماني ١/ ٢٥٢، وانظر صيانة الإنسان ص١٨٦، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ٣/ ١٠٣١

(٢) الواسطة بين الحق والخلق ص٤٤

(٣) انظر

(٤) المجاز العقلي هو (إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ما هو له) انظر التعريفات للجرجاني ص٢٥٩، ومفتاح العلوم للسكاكي ص١٧٠

(٥) انظر تقرير هذه الشبهة في شفاء السقام للسبكي ص١٤٤، والدرر السنية لدحلان ص٢٠، ومفاهيم يجب أن تصحح ص٨٥

مسلم، موحد، لا يعتقد التأثير إلا لله، فجعلهم ذلك، وأمثاله من الشرك جهل محض، وتلبيس على عوام الموحدين)[١]. ويقول محمد علوي مالكي: (إن من نسب الفعل إلى الواسطة لا يكفر؛ إلا إذا اعتقد أنها هي الفاعلة المدبرة المخترعة، وإذا لم تكن ملاحظة الواسطة بهذا الاعتبار؛ بحيث أن الواسطة علامة، أو ظرف الخلق المقدرو فيها فلا كفر؛ بل تارة يندب الشرع إلى ملاحظة الواسطة)[٢].

الرد على هذه الشبهة:-

١- إن الألفاظ الشركية، والخطابات الغالية التي تصدر من الغلاة، نحو الوسائط من الأموات المقبورين -وقد مر معنا كثير منها- لا ينطبق عليها حد المجاز العقلي إذا اعتبرنا حال هؤلاء الداعين المستغيثين، واعتقادهم؛ لأن الإسناد الواقع في كلامهم إسناد حقيقي، ولا ينطبق عليه حد المجاز العقلي، ومن المرجحات لذلك اعتقادهم التأثير، والتصرف المطلق في الكون، وغير ذلك لمن يدعونهم من الوسائط، كما تقدم معناه.

٢- أننا لو أوّلنا كلام هؤلاء الغلاة في الواسطة باحتمال المجاز العقلي، فماذا نعمل بأعمالهم الشركية؟ فهل يمكن تأويلها هي الأخرى؟ وإذا أولت فبماذا نؤول سجودهم للمقبورين، وتعفير جباههم بتراب الأضرحة، والطواف بالمشاهد، والقباب، وذبحهم للقرابين، وتقديمهم للنذور؟ (فهل هذه الأعمال أيضا مؤولة لوقوعها عمن لا يعتقد التأثير مع أن هذه العبادات من خالص حق الله تعالى، وصرفها لغيره شرك)[٣].

بل إن من سمع أقوال المستغيثين بالوسائط المقبورين على علم أنهم يعتقدون أن لهم شيئا من التصرف، والاستقلالية، والتمكن، وهذا كفر فوق كفر الكسب، والتسبب، والواسطة[٤].

يقول الشهاب الآلوسي: (ولا أرى أحدا ممن يقول ذلك إلا وهو يعتقد أن المدعو الحي الغائب، أو الميت المغيب يعلم الغيب، ويسمع النداء، ويقدر بالذات، أو بالغير على جلب الخير، أو دفع الأذى، وإلا لما ادعاه، ولما فتح فاه، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم)[٥].

---

(١) الدرر السنية ص٢١
(٢) مفاهيم يجب أن تصحح ص٨٩
(٣) صيانة الإنسان ص٢٢٠
(٤) انظر هذه مفاهيمنا ص١٢٢
(٥) تفسير الألوسي ٦/ ١١٥

٣- ثم إن قول الغلاة هذا يدل على أن الشرك لا يكون إلا اعتقاديا، وأن التفوه بالكفر لا يعتبر إلا إذا طابق الاعتقاد، و (هذا يقتضي سد أبواب الشرائع، ومحو الأبواب التي ذكرها الفقهاء في الردة. . . ولو قلنا: إن الألفاظ لا عبرة بها، إنما العبرة للاعتقاد لأمكن لكل من يتكلم بكلام يحكم على قائله بالردة اتفاقا أن يقول: لم تحكمون بردتي؟ فيذكر احتمالا، ولو بعيدا يخرج به عما كفر فيه، ولما احتاج إلى توبة، ولا توجه عليه لوم أبدا، وهذا ظاهر البطلان)[1].

ولو فتحنا هذا الباب لكل متأول بكلام ظاهره الكفر لم يكن في الأرض كافر.

قال الإمام الذهبي: (وإن فتحنا باب الاعتذار عن المقالات، وسلكنا طريق التأويلات المستحيلات لم يبق في العالم كفر، ولا ضلال، وبطلت كتب الملل والنحل واختلاف الفرق)[2].

وهذا خلاف ما قرره العلماء المعتبرون من أن (المدار في الحكم بالكفر على الظواهر، ولا نظر للمقصود، والنيات، ولا نظر لقرائن حاله)[3].

٤- أن من يستدل بالمجاز العقلي على إباحة دعاء غير الله تعالى فقد احتج بحجة المشركين الأوائل الذين نزل فيهم القرآن الكريم، وحكم بكفرهم رغم ادعائهم أنهم يقرون بتوحيد الربوبية، ويعبدون مع الله تعالى غيره من الأصنام لاعتقاد وساطتها، وشفاعتها، فكما أو هذه الحجة لم تنفع المشركين فهي لا تنفع أيضا الغلاة في المقبورين.

٥- أن عوام المسلمين الذين جرفهم تيار التصوف حين يتوجهون إلى وسائطهم المقبورين بهذه الاستغاثات، والنذورات الشركية لا يخطر ببالهم، ولا يرد بأذهانهم، ولا يستحضرون هذه المجازات العقلية، والتلبيسات الفلسفية، والتأويلات البلاغية، وإنما يفهم ذلك حماة البدعة، ودعاة الضلالة لتصحيح هذه الأقوال الشركية، وتصويب أفعال العوام ليدفعوا بهم إلى مستنقع الشرك، وهاوية الخرافة.

ثانيا شبهات تتعلق بالأنبياء عليهم السلام:

أ – التوسل بهم: لقد قسم المحققون من العلماء التوسل إلى **قسمين:**

---

(١) جلاء العينين ص٥١٥

(٢) تاريخ الإسلام. . . نقلا عن الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية ٢/ ٩٢٧

(٣) الإعلام بقواطع الإسلام لابن حجر الهيتمي ص٨٢



- توسل مشروع، وتوسل ممنوع، وقد تقدم معنا تعريف التوسل، وبيان أقسامه، وتكلمنا عن القسم الأول منه، وهو التوسل المشروع، وأوضحنا هناك صورة الواسطة الشرعية في هذا النوع من التوسل الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة.

ونأتي الآن على القسم الثاني من التوسل، وهو التوسل الممنوع، وهو التوسل إلى الله تعالى بوسيلة لا تثمر أي بوسيلة لم يثبت في الشرع أنها وسيلة[١]، **وهو نوعان:-**

النوع الأول: أن يكون بوسيلة سكت عنها الشرع، وهذا من التوسل المحرم، بل إنه قد يجر إلى الشرك، ومثاله أن يتوسل إنسان بجاه شخص ذي جاه عند الله تعالى كالتوسل بجاه الأنبياء (لأنه إثبات لسبب لم يعتبره الشرع؛ ولأن جاه ذي الجاه ليس له أثر في قبول الدعاء؛ لأنه لا يتعلق بالداعي، ولا بالمدعو، وإنما هو من شأن ذي الجاه وحده، فليس بنافع لك في حصول مطلوبك، أو دفع مكروبك، ووسيلة الشيء ما كان موصلا إليه، والتوسل بالشيء إلى ما لا يوصل إليه نوع من العبث، فلا يليق أن تتخذه فيما بينك وبين ربك)[٢].

ومثال آخر على التوسل بوسيلة سكت عنها الشرع، وهو التوسل بذات الشخص، وهذا توسل بدعي من وجه وشركي من وجه آخر، فكونه من البدع؛ لأنه لم يكن معروفا عند النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وكونه من الشرك؛ لأن كل من اعتقد في أمر من الأمور أنه سبب، وواسطة في جلب الخير، ودفع الشر، فقد أتى نوعًا من أنواع الشرك؛ من أجل هذا فإنه يحظر التوسل بذات النبي ﷺ مثل أن يقول الشخص (أسألك بنبيك محمد ﷺ) إلا على تقدير أن هذا الشخص يتوسل بالإيمان بالرسول ﷺ ومحبته، فإن ذلك عمل صالح، وواسطة شرعية ينتفع بها العبد، وعلى هذا المعنى يحمل كلام من توسل بالنبي ﷺ بعد مماته من السلف كما نقل عن بعض الصحابة، والتابعين، والإمام أحمد في رواية عنه، وحينئذ لا يكون في المسألة نزاع، لكن كثيرًا من العوام، وكثيرًا من الناس في هذا الزمان يطلقون هذا اللفظ ولا يريدون هذا المعنى[٣].

النوع الثاني: من التوسل الممنوع، هو توسل المشركين بأصنامهم، وأوثانهم، وتوسل

---

(١) انظر مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين٢/ ٣٤٣

(٢) المرجع نفسه، والموضع بعينه، وانظر قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص٩٩

(٣) انظر قاعدة جليلة ص١١١

أهل الأهواء الجاهلين بالأولياء، والصالحين .

فالتوسل الممنوع هو (الواقع من بعض العوام بسؤاله تعالى بأشخاص الأنبياء، والأولياء، والصالحين مما لا يعد قربة، ولا وسيلة لهم إلى الله؛ لأنه لا عمل لهم فيه، فإنه بدع من القول، وزور، وضلال من اللعين، وغرور، وهو قطعا غير مشروع، بل هو من عمل المشركين الذي سرى إلى بعض المسلمين من أهل الكتاب كما سرى إليهم من الوثنيين، وذلك كقولهم : -

أسألك بحق النبي عليك، بحق قبره المعظم، أو قبته عليك، أو بجاهه، أو بركته عليك يا نبي الله سقتك على ربك)[١]،**ولفظ التوسل يراد به ثلاثة أمور**

الأول: التوسل بالإيمان بالنبي ﷺ وهذا أصل الإيمان، والإسلام .

والثاني: دعاؤه، وشفاعته، وهذا النوع أيضا ينتفع المتوسل الذي يدعو له النبي ﷺ ويشفع فيه .

والثالث: التوسل به، بمعنى الإقسام على الله بذات النبي، والسؤال بذاته، وهذا النوع من التوسل الممنوع هو المشتهر عند كثير من المتأخرين، وقد يوسعون دائرته فيدخلون فيها غير النبي ﷺ من سائر إخوانه من المرسلين، والصالحين، وكل من يعتقدون فيه الولاية، والصلاح، وهذا النوع لم يكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه، لا في حياة النبي ﷺ ولا بعد مماته، لا عند قبره، ولا قبر غيره، ولا يعرف في شيء من الأدعية المشهورة المروية عنهم[٢].

إذن فهذا النوع من التوسل غير مشروع؛ لأنه لا ينبني على أساس شرعي تقوم به الحجة، وقد أنكره المحققون من العلماء، ولم ينقل عن أحد منهم القول بجواز شيء من ذلك إلا ما ذكر عن الإمام أحمد أنه قال بجواز التوسل بالنبي ﷺ دون غيره كأن يقول المتوسل : (اللهم إني أتوسل إليك به) وهو مقتضى إحدى روايتين عنه، والرواية الأخرى هي الموافقة لقول سائر الأئمة : أبي حنيفة، ومالك، والشافعي وغيرهم من السلف رحمهم الله؛ ولهذا أفتى العز بن عبد السلام أنه لا يقسم على الله بأحد من خلقه سواء من الملائكة، أو الأنبياء، أو غيرهم، لكن ذكر له حديث في الإقسام بالنبي ﷺ فقال : إن صح الحديث كان خاصا به[٣].

(١) القول الجلي في حكم التوسل بالنبي والولي ص٣٢ (٢) انظر قاعدة جليلة ص٨٢
(٣) انظر فتاوى العز بن عبد السلام ص١٢٦

ومعلوم أن الحديث المذكور لا يدل على الإقسام به عليه الصلاة والسلام[١].

وقد لخّص العلامة نعمان الألوسي الخلاف في هذه المسألة بقوله: (وقد اختلف العلماء بعد أن اتفقوا على استحباب سؤاله عز وجل به، وبأسمائه وبصفاته وأفعاله، في جواز التوسل بالذوات المنيفة، والأماكن والأوقات الشريفة؛ فعن العز بن عبدالسلام ومن تابعه عدم الجواز إلا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وعن الحنابلة في أصح القولين أنه مكروه كراهة تحريم، وهذا إذا كان الداعي متوجها إلى ربه متوسلا إليه بغيره؛ مثل أن يقول: أسألك بجاه فلان عبدك، أو بحرمته أو بحقه. وأما إذا توجه إلى ذلك الغير فطلب منه كما يفعله كثير من الجهلة فهو شرك كما تقدم)[٢].

فالصحيح حظر التوسل بمخلوق مطلقا، سواء كان التوسل بذاته، أو بجاهه، أو بحقه؛ لترك الصحابة رضي الله عنهم ذلك كله، والاقتصار على الثابت من صور التوسل المشروع التي سبق توضيحها، ولهذا قال الإمام أبوحنيفة رحمه الله: (لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، وأكره أن يقول: أسألك بمعاقد العز من عرشك)، وكذا قال أبو يوسف[٣] رحمه الله: (وأكره أن يقول: بحق فلان، أو بحق أنبيائك، ورسلك، وبحق البيت الحرام، والمشعر الحرام)[٤].

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية: هل صحيح أن الله سبحانه وتعالى لا يسمع الدعاء إلا بواسطة محمد ﷺ فإنه الوسيلة والواسطة؟ فأجاب بقوله: (الحمد لله، إن أراد بذلك أن الإيمان بمحمد، وطاعته، والصلاة والسلام عليه وسيلة للعبد في قبول دعائه، وثواب دعائه فهو صادق، وإن أراد أن الله لا يجيب دعاء أحد حتى يرفعه إلى[٥] مخلوق، أو يقسم عليه به، أو أن نفس الأنبياء بدون الإيمان بهم وطاعتهم، وبدون شفاعتهم وسيلة في إجابة الدعاء، فقد كذب في ذلك والله أعلم)[٦].

---

(١) انظر مجموع الفتاوى١/ ١٤٠ (٢) جلاء العينين ص٥١٦

(٣) هو أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن حُبيش الأنصاري الكوفي، الإمام المجتهد، العلامة، المحدث، قاضي القضاة، صاحب الإمام أبي حنيفة، ولد سنة ١١٣هـ، وتوفي سنة ١٨٢هـ.
انظر سير أعلام النبلاء٨/ ٥٣٥، وشذرات الذهب١/ ٢٩٨

(٤) الدر المختار في الفقه الحنفي للحصكفي٢/ ٦٣٠، والفتاوى الهندية لجماعة من علماء الهند٥/ ٢٨٠

(٥) هكذا في المطبوع، ولعل المناسب للسياق (إليه).

(٦) مجموع الفتاوى١/ ١٣٩

وعلى هذا أفتت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالرياض؛ حيث ورد إليها تساؤل من بعض الأشخاص هل يجوز التوسل بحياة بعض الصحابة رضي الله عنهم أثناء الدعاء؟ فأجابت قائلة: (الدعاء بجاه رسول الله، أو بجاه فلان من الصحابة، أو غيرهم، أو بحياته لا يجوز؛ لأن العبادات توقيفية، ولم يشرع الله ذلك، وإنما شرع لعباده التوسل إليه سبحانه بأسمائه، وصفاته، وبتوحيده، والإيمان به، وبالأعمال الصالحات، وليس جاه فلان، وفلان، وحياته من ذلك، فوجب على المكلفين الاقتصار على ما شرع الله سبحانه، وبذلك يعلم أن التوسل بجاه فلان، وحياته، وحقه من البدع المحدثة في الدين، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)[1] . . . وبالله التوفيق)[2].

وأهل السنة وإن قالوا بالمنع من التوسل بذاته ﷺ إلا أنهم لا يكفرون من يذهب إليه، مستدلا بحديث الضرير، كما ينسبه إليهم بعض العوام، وأهل الأهواء، ومن لا يعرف حقيقة مذهبهم[3].

لكن أهل الأهواء عموما والصوفية خصوصا يستدلون على جواز التوسل بذوات المخلوقين من الأحياء، والميتين، وبجاههم، وحقهم، والاستغاثة بهم حال الاضطرار، ودعاء الله تعالى بهم يستدلون ببعض الأدلة التي هي عند التحقيق شبهات، وهي كثيرة، لكننا نختار أكثرها شبها بالدليل للرد عليها، وبيان الحق فيها، وليُقاس عليها باقي الشبهات.

الشبهة الأولى: حديث الضرير عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلا ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: (ادع الله أن يعافيني، فقال: إن شئت دعوت لك، وإن شئت صبرت فهو خير لك، فقال: ادعه فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى

---

(١) رواه البخاري، انظر صحيح البخاري مع الفتح كتاب الاعتصام باب إذا اجتهد الحاكم فأخطأ خلاف الرسول١٣/ ٣١٧ حديث ٧٣٥٠، ومسلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة١٢/ ١٦

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة١/ ١٥٣ الفتوى رقم ٨٨١٨

(٣) انظر المجموع المفيد من رسائل وفتاوى للشيخ سعد بن حمد بن عتيق. جمع وترتيب: إسماعيل بن سعد بن عتيق ص٤٤

ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه في، وشفعني فيه، قال: ففعل الرجل، فبرأ)[١]. فذهب القوم إلى أن هذا الحديث يدل على جواز التوسل في الدعاء بجاه النبي ﷺ أو غيره من الأنبياء، والأولياء، والصالحين، في الحياة وبعد الممات.

الرد عليهم، أولا: أن هذا الحديث ليس فيه دليل على جواز التوسل الممنوع، وأن كل من سأل الله بنبي أو برجل صالح، سواء بذاته، أو بحقه، أو بجاهه، أن معنى ذلك الإقسام به على الله، وأن ذلك كله واسطة شرعية، ووسيلة صحيحة، كما فعل هذا الأعمى، بل فهمهم هذا باطل؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقول هؤلاء باطل شرعا، وقدرا، فلاهم موافقون لشرع الله، ولا ما يقولونه مطابق لخلق الله)[٢].

ثانيـا: أن الأعـمى إنما جاء إلى النبي ﷺ ليدعو له؛ إذ لو قصد هذا الصحابي الضرير التوسل بذات النبي ﷺ أو بجاهه، أو بحقه لكفاه عن المجيء المتعذر على مثله، أن يجلس في بيته، ويدعو ربه بقوله: اللهم إني أسألك بجاه نبيك، وبحقه، ومنزلته عندك أن تشفيني، فلما لم يفعل ذلك علم بداهة أنه إنما قصد بهذا التوسل النوع الجائز من التوسل وهو دعاء الرجل الصالح.

ثالثـا: أن قوله: (ادع الله أن يعافيني) عبارة صريحة في أن هذا التوسل إنما هو طلب للدعاء من المتوسل به.

رابعا: أن النبي ﷺ وعده بالدعاء مع نصحه بسلوك ما هو الأفضل له في الآخرة، وذلك في قوله: (إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت) ومعلوم أن النبي ﷺ خير من وفى بوعده -وقد وعده بالدعاء، وتصريح الصحابي بطلب الدعاء بقوله (فادعه) يرجح ذلك، فعلم أن النبي ﷺ قد قام بالدعاء، كما طلب الصحابي على وجه إلا أن النبي ﷺ وجه الصحابي بدافع الشفقة إلى النوع المشروع من التوسل، وهو التوسل بالعمل الصالح حيث ورد في بعض الروايات أنه أمره أن يتوضأ، ويصلي ركعتين[١]، ثم يدعو لنفسه.

خامسا: أن قوله في الدعاء الذي علمه رسول الله ﷺ وهو (اللهم فشفعه في) دليل على التوسل بالدعاء، لا بالذات، والجاه، قال الشيخ الألباني (وهذا يستحيل حمله على

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه٥/ ٥٦٩، وابن ماجه في سننه١/ ٤٤١، وهو في المسند٤/ ١٣٨، وعمل اليوم والليلة للنسائي ص٤١٧، والمعجم الصغير للطبراني١/ ١٨٣، والمستدرك للحاكم١/ ٣١٣، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع ١/ ٢٧٤برقم١٢٧٩، والتوسل له أيضا ص٧٤

(٢) مجموع الفتاوى١/ ٣٢٤

(٣) كما في رواية ابن ماجه، وأحمد، والحاكم، والبيهقي.

التوسل بذاته ﷺ، أو جاهه، أو حقه إذ المعنى: اللهم اقبل شفاعته ﷺ في أي اقبل دعاءه في أن ترد علي بصري، والشفاعة لغة: الدعاء)[١]، وهذه الزيادة (فشفعه في) من الكنوز كما قال الشيخ الألباني من عرفها جعل منها معولا لهدم شبهات المخالفين[٢].

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية أن توسل هذا الضرير إنما كان بدعاء النبي ﷺ لا بذاته، وجاهه، كما فعل عمر في التوسل بدعاء العباس رضي الله عنهما الآتي، ولم يتوسل بذات النبي ﷺ، ثم قال شيخ الإسلام: (فالحديثان معناهما واحد فهو صلى الله عليه وسلم رجلا يتوسل به في حياته، كما ذكر عمر أنهم كانوا يتوسلون به إذا أجدبوا، ثم إنهم بعد موته إنما كانوا يتوسلون بغيره لا عنه، فلو كان التوسل به حيا وميتا سواء، والمتوسل به الذي دعا له الرسول، كمن لم يدع له الرسول، لم يعدلوا عن التوسل به -وهو أفضل الخلق، وأكرمهم على ربه، وأقربهم إليه وسيلة- إلى أن يتوسلوا بغيره ممن ليس مثله)[٣].

سادسا: أن هذا الحديث ذكره العلماء في معرض بيان معجزات النبي ﷺ ودعائه المستجاب، وما أظهره الله ببركة دعائه من الخوارق، وإظهار المعجزات، فإنه بدعائه ﷺ لهذا الأعمى رد الله عليه بصره من أجل ذلك أخرج المصنفون هذا الحديث في دلائل النبوة، كالبيهقي، وغيره، وهذا يدل على أن السر في شفاء الأعمى إنما كان بدعاء النبي ﷺ، ويؤيد هذا التوجه أنه لو كان السر في دعائه الأعمى وحده، وتوسله بذات النبي ﷺ وجاهه، دون دعاء المصطفى ﷺ لكان كل من دعا به من عميان الأمة مخلصا يعافى من علته، ولو كان الأمر كذلك لنقل إلينا أن عادة العميان من عهد الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم جارية على هذا النوع من التوسل، وهو أمر يتعذر نقله[٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وكذلك لو كان كل أعمى توسل به، ولم يدع له الرسول بمنزلة ذلك الأعمى لكان عميان الصحابة، أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى فعدولهم عن هذا إلى هذا مع أنهم السابقون الأولون المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان؛ فإنهم أعلم منا بالله ورسوله، وبحقوق الله ورسوله، وما يشرع من الدعاء،

---

(١) التوسل أنواعه وأحكامه ص٧٨

(٢) انظر صحيح الجامع ١/ ٢٧٤ في التعليق على الحديث رقم ١٢٧٩

(٣) قاعدة جليلة ص٢٥٩، ومجموع الفتاوى ١/ ٣٢٥

(٤) انظر التوسل للألباني ص٨٠

وينفع، وما لم يشرع، ولا ينفع، وما يكون أنفع من غيره، وهم في وقت ضرورة، ومخمصة، وجدب، يطلبون نفريج الكربات، وتيسير العسير، وإنزال الغيث بكل طريق ممكن دليل على أن المشروع ما سألوه دون ما تركوه)[١].

الشبهة الثانية: استدلالهم بأثر استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنهما.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا أقحطوا استسقى بالعباس ابن عبد المطلب، فقال: (اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون)[٢].

يحتج المخالفون بهذا الأثر على جواز التوسل بذات الشخص، وجاهه، وحقه، ويرون أن عمر رضي الله عنه ما توسل بالعباس رضي الله عنه إلا تعظيما لرسول الله ﷺ وتفخيما لأهله وتقديما لعم النبي ﷺ وذلك مبالغة من عمر في التوسل بالنبي ﷺ ما استطاع، فيكون بذلك عمر رضي الله عنه قد توسل برسول الله ﷺ على أبلغ وجه وأحسنه، ثم إن هذا الفضل من عمر رضي الله عنه هو من باب بيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل[٣]. ومع هذا فإن الإجابة (منوط وقتها بعلم الله عز وجل، فقد تتأخر فيضطرب ضعاف القلوب إن كان التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك المقام، وقد لا يحصل هذا الاضطراب إذا كان بالعباس رضي الله عنه)[٤].

الرد عليهم: إن هذا الأثر ليس فيه دليل على جواز التوسل الممنوع بذات الشخص وجاهه وإنما هو من التوسل المشروع، وهو طلب الدعاء من الحي الحاضر؛ وذلك من وجوه: -

١- أن توسل عمر بدعاء العباس لا بذاته؛ إذ لو كان الأمر كذلك لما كان ثمة حاجة في أن يقوم العباس فيدعو بدعائه متوجها إلى الله، متذللا خاشعا، بعد كلام عمر، فهذا صريح على أنه دعا بدعاء ثان[٥].

---

(١) قاعدة جليلة ص٢٦٠، ومجموع الفتاوى١/ ٣٢٦

(٢) رواه البخاري، كتاب الاستسقاء باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا ٢/ ٤٩٤ حديث رقم ١٠١٠

(٣) انظر مفاهيم يجب أن تصحح ص١٥٠

(٤) ردود على أباطيل لمحمد الحامد القسم الثاني ص٤٦، وانظر الرد عليهم في أوضح الإشارة للشيخ أحمد النجمي ص٢٧٧

(٥) انظر التوسل للألباني ص٦٧، ومجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين٢/ ٣٥١

٢- تصريح عمر رضي الله عنه أنهم كانوا يتوسلون بالني ﷺ في حياته وأنهم في هذه الحادثة توسلوا بالعباس رضي الله عنه فيه دليل على أن التوسلين من نوع واحد، وهو دعاء الرسول ﷺ لهم كما كان توسلهم بالعباس رضي الله عنه أيضا بدعائه[١].

٣- لو كان التوسل بالذات جائزا كما يدعيه المخالفون لما عدل عمر رضي الله عنه عن التوسل بذات النبي ﷺ إلى العباس؛ لأنه ممكن لو كان مشروعا، وأما ادعاؤهم أنه لبيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل فدعوى عجيبة، وتعليل واه[٢].

يقول الشيخ الألباني: (فهذه الأحاديث وأمثالها مما وقع زمن النبي ﷺ وزمن أصحابه الكرام رضوان الله عليهم وتبين بما لا يقبل الجدال أو المماراة أن التوسل بالنبي ﷺ أو بالصالحين الذي كان عليه السلف الصالح هو مجيء المتوسل إلى المتوسل به، وعرضه حاله له، وطلبه منه أن يدعو له الله سبحانه؛ ليحقق طلبه فيستجيب هذا له، ويستجيب من ثم الله سبحانه وتعالى)[٣].

الشبهة الثالثة: استدلالهم بتوسل آدم بالنبي عليهما الصلاة والسلام، وقد بان بطلانه من ناحية السند، والمتن في بياننا للشبهات العامة، والرد عليها في الصفحات السابقة.

الشبهة الرابعة: استدلالهم بالحكاية التي تروى عن الإمام مالك مع الخليفة أبي جعفر المنصور رحمهما الله تعالى، بناء على استدلالهم بتوسل آدم السابق، وقد أخرجها القاضي عياض بسنده إلى محمد بن حميد الرازي رحمهما الله تعالى[٤]، فقال: (ناظر أبوجعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك: يا أمير المؤمنين! لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله تعالى أدب قوما فقال: ﴿ **لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** ﴾[٥]، ومدح قوما فقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ**

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٢٣٨، وجلاء العينين ص٥٢٢، والتوسل للألباني ص٦٧

(٢) انظر قاعدة جليلة ص٨٢، والتوسل للألباني ص٦٥، والدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية٢/ ٧٢٦

(٣) التوسل أنواعه وأحكامه ص٥٨، وانظر الشرك وأنواعه لجفري وهاب رسالة ماجستير غير منشورة ص٣٠٤، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية٢/ ١٥٠٧

(٤) هو أبو عبدالله محمد بن حميد بن حيان الرازي، العلامة الحافظ الكبير، ولد سنة ١٦٠هـ، قال الذهبي: وهو مع إمامته منكر الحديث، صاحب عجائب، توفي سنة ٢٤٨هـ، انظر تاريخ بغداد٢/ ٢٥٩، وسير أعلام النبلاء١١/ ٥٠٣، وشذرات الذهب٢/ ١١٨

(٥) سورة الحجرات الآية ٢

امتحن اللهُ قلوبهم للتقوى لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيمٌ ﴾[(١)]، وذم قوما فقال: ﴿ إنّ الّذين يُنادونك من وراء الحُجُرات أكثرُهُمْ لا يعقلون ﴾[(٢)]، وإن حرمته كحرمته حيا، فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله، أ أستقبل القبلة، وأدعو، أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة؟ بل استقبله، واستشفع به، فيشفعك الله، قال الله تعالى: ﴿ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرّسول لوجدوا الله توّابًا رّحيمًا ﴾[(٣)(٤)]

مناقشة هذه الحكاية: قد رد أهل العلم الخبيرون بمنهج الإمام مالك رحمه الله هذه الحكاية **بالأوجه التالية**:-

أولا: جهة الإسناد.

١- مدار هذه الحكاية على محمد بن حميد الرازي، وهو متهم بالكذب، فقد قال البخاري: في حديثه نظر، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال أبوزرعة: صح عندنا أنه يكذب، وقال الذهبي في المغني: ضعيف لا من قبل حفظه، وقد وثقه الإمام أحمد، وابن معين، والراجح عدم توثيقه، وأما الذين وثقوه فعذرهم في ذلك أنهم لم يعرفوه؛ لأنه خراساني، وأهل بلده يعرفون حاله، ولعله عند ما اجتمع بالذين وثقوه في بغداد اختار لهم أحاديثه الصحيحة[(٥)].

٢- الانقطاع الحاصل بين ابن حميد، والإمام مالك بن أنس؛ فإن ابن حميد الرازي لم يلق الإمام مالكا، ولا سيما في زمن أبي جعفر المنصور؛ حيث ولادة ابن حميد كانت سنة ١٦٠هـ ووفاته سنة٢٤٨هـ وكانت وفاة الإمام مالك سنة١٧٩هـ، وتوفي أبوجعفر المنصور بمكة سنة١٥٨هـ، ثم إن ابن حميد لم يخرج من بلده إلا وهو كبير مع أبيه[(٦)]. فهذه المناظرة

(١) سروة الحجرات الآية ٣ (٢) سورة الحجرات الآية ٤

(٣) سورة النساء الآية ٦٤

(٤) الشفا٢/ ٣٥، وممن احتج بهذه الحكاية على جواز التوسل بالذات: البكري كما في تلخيص كتاب الاستغاثة١/ ٨٥، والسبكي في شفاء السقام ص٨٤، والسمهودي في وفاء الفاء٤/ ١٣٧٦، ودحلان في الدرر السنية ص١٠

(٥) انظر تهذيب الكمال في الرجال٨/ ١٠٢، والكامل لابن عدي٦/ ٢٢٧٧، والمجروحين لابن حبان٢/ ٣٠٣، وتاريخ بغداد للخطيب٢/ ٢٥٩، وميزان الاعتدال٣/ ٥٣٠، والمغني٢/ ٥٧٣، وسير أعلام النبلاء للذهبي١١/ ٥٠٣، وتهذيب التهذيب لابن حجر٩/ ١٢٧

(٦) انظر قاعدة جليلة ص١٢٢، والصارم المنكي ص٢٦٠

على فرض صحتها حصلت قبل ولادة ابن حميد الرازي[١].

٣- وإذا كانت هذه الحكاية منقطعة، وابن حميد ضعيفا عند أهل الحديث إذا أسند، فكيف إذا أرسل حكاية لا تعرف إلا من جهته؟ ولم يروها أحد من أصحاب الإمام مالك المعروفين بالأخذ عنه مع العلم أن في إسناد هذه الحكاية مجهولين إذا كان الأمر كذلك فقد بان بطلان الاستدلال بهذه الحكاية من جهة السند[٢].

ثانيا: مناقشة هذه الحكاية من جهة المتن:

١- هذه الحكاية تخالف منهج الإمام مالك في زيارة القبور وكراهته للوقوف عند قبر النبي ﷺ للدعاء له، أو الدعاء عنده[٣]، كما ذكر أصحابه المعتمدون أنه سئل عن أقوام يطلبون القيام مستقبلي الحجرة النبوية يدعون لأنفسهم، فأنكر مالك فعلهم[٤]، كما كره لأهل المدينة التردد للسلام، وكره أن يقال: زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم[٥].

٢- أن هذه الحكاية تخالف ما ثبت عن السلف وخصوصا عند الإمام مالك من التحذير من البدع محافظة على السنة وسدا لذرائع الشرك، وصيانة للعقيدة، وحماية لجناب التوحيد، والآثار الواردة عنهم كلهم رحمهم الله تدل على أن هذا هو عملهم؛ بل هي مخالفة لمنهجهم، ومعارضة لطريقتهم.

٣- أن لفظ هذه الرواية فيه ركاكة لغوية، وذلك في قوله (استشفع به فيشفعك الله) وإذا كان المراد طلب شفاعته فإنما يقال: استشفع به فيشفعه الله فيك)[٦].

٤- ولو صحت هذه الحكاية فيمكن أن يكون الإمام مالك نهى عن رفع الصوت في مسجد النبي ﷺ لكن وقع تحريف في ألفاظ الرواية[٧].

٥- وقد يقال: إن إيراد هذه القصة على جواز التوسل بالذات ليس في محله؛ لأن القصة تدور حول مسألة الدعاء، هل يجوز حال استقبال القبر، أم لا يكون إلا في اتجاه

---

(١) انظر الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية٢/ ٨٣١

(٢) انظر قاعدة جليلة ص١٢٤، والدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية٢/ ٨٣٢

(٣) انظر الشفا٢/ ٧٣ نقلا عن المبسوط لإسماعيل القاضي، والمنتقى للباجي١/ ٢٩٦، والجواب الباهر ص٦٦، والصارم المنكي ص٢٥٩

(٤) انظر العتبية في مسائل مذهب الإمام مالك لمحمد بن أحمد العتبي مطبوعة مع البيان والتحصيل لابن رشد١٨/ ٤٤٤، والشفا٢/ ٧٣

(٥) انظر الشفا٢/ ٧١، وقاعدة جليلة ص١٣٩

(٦) انظر قاعدة جليلة ص١٤٨

(٧) انظر المرجع السابق ص١٥٢

القبلة؟ والله أعلم.

٦- وعلى فرض صحة هذه الحكاية فإن التوسل الوارد فيها هو التوسل بشفاعة النبي ﷺ يوم القيامة، وهذه الشفاعة ثابتة، لا يستطيع أحد إنكارها، وليس المراد بالتوسل فيها التوسل البدعي في الدنيا[١].

٧- فالنتيجة أن هذه الحكاية على هذا الوجه -إما أن تكون في غاية الضعف، مكذوبة على الإمام مالك، وإما أن تكون دخلها التغيير، والتحريف، وإما أن تفسر بما يوافق مذهب الإمام مالك في الزيارة، والتوسل المعروف عنه[٢].

فإذن الموافق لمذهب الإمام مالك هو خلاف هذه الحكاية؛ لأن سد الذرائع أصل من أصول مذهب المالكية. وحمل رواية الشفا على السقوط أولى لكون المبسوط أصح، وأوفق لمذهب الإمام مالك غاية ما هنالك أن تكون الروايتان متعارضتين.

يقول نعمان الآلوسي: (وإذا تعارضت الروايتان، ولم يمكن الجمع بينهما فنسقطهما، ونرجع إلى الأصل المرجوع إليه في الأقياس، والأصل ما ذكرناه؛ لدلالة الكتاب والسنة، فالعمل به هو الواجب، سيما في مثل هذه المطالب)[٣].

ولعلنا نكتفي بهذا القدر من إيراد شبهات المجيزين للتوسل الممنوع؛ لأن باقي أدلتهم لا تخرج عن هذه الشبهات[٤].

ب- **ومن الشبهات** التي تتعلق بالأنبياء عليهم السلام -قياس وساطتهم في العبادة على وساطتهم في التبليغ:

هذه الشبهة من أهم الشبهات التي بنى عليها أهل الأهواء عموما وخصوصا الصوفية مذهبهم الفاسد في فهم الواسطة، ذلك أنهم قاسوا توسيطهم للأنبياء، والأولياء، وشيوخ الطرق في دعائهم لله تعالى لقضاء حوائجهم، وتحقيق مطالبهم، قاسوا ذلك على إرسال الله تعالى لأنبيائه، ورسله واسطة بينه وبين خلقه لتبليغ شرائعه، وإقامة الحجة على خلقه، مبشرين من اتبع الوحي الذي جاءوا به بالفوز برضا الله تعالى، وقربه، ومنذرين من

---

(١) انظر قاعدة جليلة ص١٤٧، والتوصل إلى حقيقة التوسل ص٢٢٢
(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم٢/ ٧٦٤، والصارم المنكي ص٢٦٤
(٣) جلاء العينين ص٥٢٦
(٤) ومن أراد التوسع في ذلك فلينظر قاعدة جليلة ص٨٢، وجلاء العينين ص٥٠٥، والتوسل للألباني ص٥٤



أعرض عن ذكره والنور الذي جاءوا به بسخط الله تعالى وعذابه، والبعد منه.

ولقد علم من طريق الوحي أن هؤلاء المرسلين أكدوا للخلق أن وساطتهم ليست في عبادة الخلق لخالقهم، وإن كانت تلك العبادة وضحتها رسالات الله إلى هؤلاء الأنبياء؛ لأن الله تعالى قريب، مجيب، يرى مكانهم، ويسمع سؤالهم، ويعرف أحوالهم، فليس بينه وبين خلقه واسطة في حال الالتجاء، والتضرع، والدعاء وسائر أنواع العبادة التي بينها الرسول ﷺ للناس، وهذا هو سبيل الإخلاص الذي جاب به الإسلام، ولا يقبل الله عز وجل عبادة بدونه[1].

وقد مر معنا هذا القياس الفاسد ورددنا على القائلين به في بياننا لمذهب أهل الأهواء في فهم الواسطة، فنكتفي بما ذكرناه هنالك خشية التكرار.

جـ- ومن الشبهات المتعلقة بالأنبياء -عليهم السلام- تجويز دعائهم والاستعانة بهم، وطلب المدد منهم بعد موتهم بناء على ما ثبت من حياتهم البرزخية.

قال بعضهم: (يرى أئمة الصوفية أنه لا مانع من التوسل بالموتى، وطلب الدعاء منهم؛ لأن أرواحهم ليست ميتة، ولا متلاشية، كما تتلاشى قوى الأبدان، فالموت إنما هو مفارقة الأبدان فحسب، أو انتقال الأرواح إلى دار غير دارها، فلا تزال حية في عالم البرزخ، فلا سبيل لإنكار الحياة، والعمل بعد الموت، وقد صح أن كثيرا[2] من الأولياء يصلي في قبره، ويقرأ القرآن. . . . فأرواح الموتى لا تزال حية باقية تسمع، وتعلم، وتعمل. . . . ؛ بل هي أسمع من أرواح الأحياء؛ ولأنها سميعة بالذات، وأرواح الأحياء سميعة بالأدوات. . . وخلاصة القول أن التوسل بأرواح الأنبياء، والأولياء، والصالحين بعد مماتهم -كالتوسل بهم، وطلب الدعاء منهم حال حياتهم، والذي يؤمن بذلك عليه أن يؤمن بذلك أيضا، فالدليل هو الدليل)[3].

وبهذا الاعتقاد صرح محمد علوي المالكي فقال: (ولو لم يكن للفقيه من الدليل على صحة التوسل، والاستغاثة به ﷺ بعد وفاته إلا قياسه على التوسل، والاستغاثة به في حياته الدنيا لكفى؛ فإنه حي الدارين، دائم العناية بأمته، متصرف -بإذن الله- في

---

(١) راجع ما سبق بيانه في الفصل السابق (صورة الواسطة في العبادة)
(٢) في النص المطبوع (كثير) بالرفع، وهو خطأ.
(٣) معجم ألفاظ الصوفية لحسن الشرقاوي ص١٠١ وما بعدها (بتصرف).



شئونها، خبير بأحوالها)[١].

ويدعون أن الاستغاثة بالأنبياء في قبورهم، ودعاءهم، وقضاء الحوائج بالتوسل بهم هو من باب معجزاتهم، ومعجزات الأنبياء، وكرامات الأولياء لا تنقطع بعد موتهم، فهم أحياء في قبورهم يصلون، ويحجون، فتكون الإغاثة منهم معجزة لهم[٢].

وينقل النبهاني عن بعض الصوفية قوله: (وإذا كانت زيارة قبر الوالدين تحصل بسببها المغفرة، فكيف بزيارة قبور الأنبياء الذين هم أحياء في قبورهم، يأكلون، ويشربون، وينكحون!! ويصلون تلذذا لا تعبدا؟)[٣].

ويقرون هذه الشبهة بقول بعضهم: (وإذ قد ثبت تعظيمه وإجلاله ميتا ﷺ كما كان حيا وثبت أنه حي في قبره، فطلب الشفاعة منه دخول في توقيره ﷺ ويكون طالب الشفاعة كمن طلب شيئا ممن له قدرة عليه، وهو عليه الصلاة والسلام قادر على ذلك بوجه التسبب في الدعاء، كما كان حيا، وكما كان وسيلة في التبليغ فهو (الوسيلة في دعائه لأمته، ويكون طلب ذلك منه أدعى للإجابة)[٤].

الرد عليهم: ما من شك في أن القول بحياة الأنبياء حياة برزخية حق ثابت بالأحاديث الصحيحة.

يقول السيد نعمان الآلوسي: (فنعتقد حياتهم عليهم الصلاة والسلام حياة برزخية فوق حياة الشهداء، وأن نبينا ﷺ قد جعل عند قبره الشريف ملك يبلغه سلام المسلمين الذين عند ضريحه المكرم، والنائبين عنه، ونعتقد أن الأنبياء عليهم السلام جميعهم طريون لا تأكل الأرض أجسادهم الشريفة؛ للأحاديث الواردة في ذلك... ولكنا نمنع أن يطلب منهم شيء فلا يسألون شيئا بعد وفاتهم، كما تقدم، سواء كان بلفظ استغاثة، أو توجه، أو استشفاع، أو غير ذلك، فجميع ذلك من وظائف الألوهية، فلا يليق جعله لمن يتصف بالعبودية، فإن ادعى أحد أن حياتهم صلى الله عليهم وسلم... حياة حقيقية، كما هو الأصل في حمل الألفاظ على حقائقها، ولم تثبت قرينة على التجوز بها، فتبقى الحياة على حقيقتها، أجبناه قائلين: لا شك أنه لا يراد بهذه الحياة الحقيقية، ولو أريدت لا قتضت

---

(١) مفاهيم يجب أن تصحح ص١٧٢، وانظر الرد عليه في هذه مفاهيمنا ص١٢٣
(٢) انظر شواهد الحق ص١٤١ (٣) المرجع نفسه ص٤٤٩
(٤) نقله السيد نعمان الآلوسي عن بعضهم في جلاء العينين ص٥٠٢



جميع لوازمها من أعمال، وتكليف، وعبادة، ونطق، وغير ذلك، وحيث انتفت حقيقة هذه الحياة بانتفاء لوازمها وبحصول الانتقال من هذه الحياة الدنيوية الحقيقية إلى تلك الحياة البرزخية المعبر عن هذا الانتقال بالموت الحال به صلى الله عليه وسلم، وأرواحنا له الفداء- كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1] وحلول الموت به صلى الله تعالى عليه وسلم لا يمكن أحدا إنكاره. . . وحيث انتفت الحياة الحقيقية بما ذكر، وبغيره ثبتت الحياة البرزخية، وهي متفاوتة، فحياة الشهداء فوق حياة المؤمنين، وحياة الأنبياء عليهم السلام أعلى من حياة الشهداء، وقد شرف سبحانه هؤلاء الأحياء بالتشريفات العندية، فقال عز من قائل -في حق الشهداء الذين تتقاصر مرتبتهم عن الأنبياء -: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2][3]

ومما يرد به على هؤلاء الغلاة في ادعائهم تجويز التوجه إلى الرسول ﷺ بالدعاء، والاستغاثة الآن؛ لثبوت حياة الأنبياء في قبورهم، يرد عليهم بأن النبي ﷺ، وكذلك الأنبياء، والصالحون عند ما كانوا في الحياة الدنيوية لا يمكن أن يشرك بهم من دون الله تعالى، وأما بعد انتقالهم إلى الحياة البرزخية، فيمكن أن يشرك بهم، فيمتنع القياس من هذه الجهة[4].

بهذا أفتت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية، والإفتاء بالرياض -حيث ورد إليها سؤال بهذا الخصوص فأفتت قائلة: (النبي صلى الله عليه وسلم حي في قبره الحياة البرزخية التي يتهيأ له معها أن يتنعم بما يفيض الله تعالى عليه من أنواع النعيم، والكرامة، وليس حيا الحياة التي كانت له في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[5] وقد صلى عليه الصحابة رضي الله عنهم صلاة الجنازة، ووضعوه في لحده عليه الصلاة والسلام - ولا يكون ذلك وهو حي الحياة الدنيوية، وقد نزلت بهم أحداث، ومشكلات، ولم يستفتوه في أحداثهم، ولا استشاروه في حل مشكلاتهم، وهم في أشد الحاجة إلى ذلك، فدل على أن أجله قد انتهى، وأن الموت قد نزل به كغيره من البشر، وقد علم الصحابة رضي الله عنهم ذلك فأقاموا الخلفاء عنه تباعا، واجتهدوا في

---

(١) سورة الزمر الآية ٣٠ (٢) سورة آل عمران الآية ١٦٩

(٣) جلاء العينين ص٥٢٨، وانظر الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية٢/ ٨٥٠

(٤) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة١/ ٤٥٤، والقائد إلى تصحيح العقائد ص١٠٤، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية٢/ ٨٧٥ (٥) سورة الزمر الآيتان (٣٠-٣١).



شئون دينهم، ودنياهم على ضوء كتاب الله وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم دون رجوع إليه، واستشارة له، وهو في قبره)[1] صلى الله عليه وسلم. ولهذا قال العلامة ابن القيم في الرد على أصحاب هذا القياس الفاسد[2]: -

قالوا الرسول بقبره حي كما	قد كان فوق الأرض والرجمان
لو كان حيا في الضريح حياته	قبل الممات بغير ما فرقان
ما كان تحت الأرض بل من فوقها	والله هذي سنة الرحمان
أتراه تحت الأرض حيا ثم لا	يفتيهم بشرائع الإيمان
فيقال أصل دليلكم في ذاك حجـ	ـتنا عليكم وهي ذات بيان
إن الشهيد حياته منصوصة	لا بالقياس القائم الأركان
هذا مع النهي المؤكد أننا	ندعوه ميتا ذاك في القرآن

فالمراد بحياة الأنبياء في قبورهم هو (نوع من الحياة غير معقول لنا، وهي فوق حياة الشهداء بكثير، وحياة نبينا -صلى الله عليه وسلم أكمل وأتم من حياة سائرهم -عليهم الصلاة والسلام- ثم إن تلك الحياة في القبر، وإن كانت يترتب عليها بعض ما يترتب على الحياة في الدنيا المعروفة لنا من الأذان، والصلاة، والإقامة، ورد السلام المسموع، ونحو ذلك، إلا أنها لا يترتب عليها كل ما يمكن أن يترتب على الحياة المعروفة، ولا يحسن بها، ولا يدركها كل أحد، فلو فرض انكشاف قبر نبي من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لا يرى الناس النبي فيه إلا كما يرون سائر الأموات الذين لم تأكل الأرض أجسامهم، وربما يكشف الله تعالى لبعض عباده فيرى مالا يرى الناس، ولولا هذا لأشكل الجمع بين الأخبار الناطقة بحياتهم في قبورهم، وخبر . . . أن موسى نقل يوسف من قبره بمصر)[3].

ثم إن قياس الميت على الحي، وقياس أحوال الممات على أحوال الحياة، وقياس أمور البرزخ على أمور الدنيا من أوضح الأقيسة فسادا، وبطلانا؛ لأن هذا القياس من قبيل الجمع بين المتخالفين، وقياس الضد على الضد، كقياس الضلال على الهدى، وقياس

(١) فتاوى اللجنة الدائمة ١/ ٤٨٠، الفتوى رقم ٢٦٤١، وانظر التيجانية لعلي محمد دخيل الله ص١٢٣، والصواعق المرسلة الشهابية ص٨١

(٢) انظر متن القصيدة النونية ص١٧٨

(٣) مشتهى الخارف الجاني ص٤٣٧، وانظر الضياء الشارق ص٥٢٠

العدم عليالوجود، إلى غير ذلك من الأمور المتضادة التي لا تجمع أبدا[١].

وجملة القول أن حياة الأنبياء في قبورهم من الأمور الغيبية، وأمور الغيب في العقيدة الإسلامية توقيفية، فما وضحته النصوص الشرعية تكلمنا فيه في حدود النص، وما سكتت عن تفاصيله أمسكنا عن الخوض فيه؛ لأنه لا مجال للعقول، ولا دخل للأقيسة في الأمور الغيبية.

د- ومن الشبهات المتعلقة بالأنبياء عليهم السلام ادعاؤهم جواز دعاء النبي ﷺ، والاستغاثة به، وهو في قبره عليه الصلاة والسلام، وطلب شفاعته، والمدد منه.

ادعاؤهم جواز كل ذلك بناء على ما ثبت من شفاعته يوم القيامة، يقول السبكي: (وفي التجاء الناس إلى الأنبياء في ذلك اليوم أدل دليل على التوسل بهم في الدنيا والآخرة، وأن كل مذنب يتوسل إلى الله عز وجل بمن هو أقرب إليه منه، وهذا لم ينكره أحد، ولا فرق بين أن يسمى ذلك تشفعا، أو توسلا، أو استغاثة، وليس ذلك من باب تقرب المشركين إلى الله تعالى بعبادة غيره)[٢].

وبهذا الاعتقاد صرح كل من النبهاني[٣]، ومحمد علوي مالكي[٤].

والرد عليهم: إن استدلال الغلاة بشفاعة النبي ﷺ الثابتة يوم القيامة على إباحة طلبها منه، والاستغاثة به في قبره ﷺ استدلال في غير محله، فكونه عليه الصلاة والسلام يشفع يوم القيامة الشفاعة العظمى للخلائق، وغيرها من شفاعاته الخاصة به[٥] هذا أمر مسلم؛ لكن الاستدلال به على جواز طلب تلك الشفاعة من النبي ﷺ وهو في قبره، ثم يقاس عليها دعاؤه، والاستغاثة به، بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم، هذا هو المنهي عنه ولا دليل عليه.

يقول السيد نعمان الآلوسي: (فإن قلت: إن النبي ﷺ مأذون له بالشفاعة، ونحن نطلبها ممن هو مأذون فيها!! فالجواب أنه عليه الصلاةوالسلام الأن موعود بالشفاعة في اليوم الآخر، ووعد الله حق؛ لكنها مشروطة ببعد الإذن، ورضاه عن المشفوع فيه، فينبغي

---

(١) انظر المنخل لغربلة خرافات ابن الحاج في المدخل للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس ضمن المجموع المفيد ص١٣٠
(٢) شفا السقام ص١٩٠
(٣) انظر شواهد الحق ص١٢٦، وص١٤٢
(٤) انظر مفاهيم يجب أن تصحح ص١٣٠، وص١٥٩
(٥) راجع المبحث السابق (صورة الواسطة في شفاعة النبي ﷺ)



لمن أراد أن يدعو بطلب الشفاعة أن يقول: اللهم لا تحرمني شفاعته عليه الصلاة والسلام، اللهم شفعه فيَّ وأمثال ذلك، ولو كانت تطلب منه صلى الله عليه وسلم الآن لجاز لنا أن نطلبها أيضا ممن وردت الشفاعة لهم كالقرآن، والملائكة، والأفراط[١]، وهم أطفال المؤمنين، والحجر الأسود، إذ قد ورد أنه يشفع لمثل ربيعة ومضر، وبالصالحين، ولجاز أن ندعوهم، ونلتجئ إليهم، ونرجوهم بهذه الشفاعة، إذ لا فرق بين الجميع بثبوت أصل الشفاعة لهم، والإذن فيها، فتصير إذن والمشركين الأولين في طريق واحد، ولم نفترق إلا بالأعمال الظاهرة، كالصوم، والصلاة، وقول كلمة التوحيد من غير عمل بما فيها، ومن غير اعتقاد لحقيقتها.

ولا يقدم على ذلك من له أدنى مسكه من عقل، أو فكرة فيما صح من النقل)[٢]. ولا أطيل في الرد هلى هذه الشبهة الواهية المتعلقة بشفاعة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم يوم القيامة، فقد تقدم معنا في مبحث سابق بيان صورة الواسطة الصحيحة في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم، وغيره من الشفعاء يوم القيامة، وذكرت هنالك أنه لا يجوز أن يتوجه أحد إلى النبي ﷺ الآن طالبا منه الشفاعة، وإنما الذي يصح، ويشهد له النقل، والعقل أن نطلب هذه الشفاعة من الله سبحانه وتعالى الذي يأذن يوم القيامة لنبيه، وحبيبه صلى الله عليه وسلم في هذه الشفاعة، فنقول: اللهم شفع فينا نبيك وحبيبك محمدا صلى الله عليه وسلم، واجعلنا نرد حوضه، ونشرب منه شربة لا نظمأ بعدها أبدا.

ثالثا: شبهات تتعلق بالأولياء، والصالحين:

أ – شبهة الولاية، والكرامة: يدافع غلاة الصوفية عن دعاء الصالحين، وتوسيطهم، والاستشفاع بهم، وطلب مالا يقدر عليه إلا الله منهم، يدافعون عن ذلك قائلين: إن هذا من جنس الكرامة، والولاية المثبتة التي لا ينكرها أهل السنة[٣]، (وهذه طامة عظيمة، وغاية في الجهالة، والسفاهة، بل هي من جنس احتجاج النصارى على دعاء المسيح وأمه، وعبادتهما ظنوا أن ما حصل للمسيح، ولأمه عليهما السلام من المعجزات، والكرامات يبيح لهم دعاءهما وعبادتهما، وإذا خاطبت النصاري سرد عليك من المعجزات،

---

(١) راجع المبحث السابق (صورة الواسطة في شفاعة غير النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة)

(٢) جلاء العينين س٥١٠، وانظر التوضيح عن توحيد الخلاق للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ ص٣٥١

(٣) وممن استدل بهذه الشبهة ابن جرجيس كما نقلها عنه الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ ورد عليها، انظر جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ٢/ ٩٧٨

والكرامات التي أعطيها المسيح، واحتج بها على دعواه، وعباد القبور يحتجون في هذا الباب بما لم يثبت، وما ثبت فأكثره دون ما أعطيه المسيح، ومع ذلك فالاحتجاج به على دعائهم من جنس حجج النصارى، لا يدل على المدعَى؛ بل غايته أن يدل على علو الدرجة، وصدق الرسالة، أو ثبوت الولاية؛ إذا اقترن بع عمل صالح، وأما الاستدلال بذلك على أنه يدعى، ويرجى، ويشفع، وينفع، فهذا من دين النصارى، الصائبة، وعباد الأصنام، وهذه الشبهة هي التي أوقعت في الشرك جمهور المشركين؛ فإن أصل عبادة الأصنام هو التعلق على[1] الصالحين، وتصوير صورهم، وتماثيلهم، بل عباد الكواكب دعاهم إلى عبادتها ما أودع الله فيها من الحكم، والمنافع التي ظهرت آثارها في هذا العالم، كما يعرفه من عرف مذاهب القوم)[2].

وأصل هذه الشبهة التي تعلق بها القبوريون أن قالوا: أليس للأولياء، والصالحين جاه عند الله وكرامة؟ قلنا: بلى، قالوا: أليسوا أحياء عند ربهم؟ قلنا: بلى، قالوا: أليس الله يحبهم ويكرمهم؟ قلنا: بلى، قالوا: إذن فلماذا لا نتخذهم واسطة بيننا وبين الله تعالى، وندعوهم، ونطلب منهم، ونستغيث بهم؟

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:-

الأول: لماذا تتشبثون بولاية هؤلاء المخلوقين وتنسون أن الله تعالى طلب منكم أنتم أن تكونوا أولياء له، وذلك بالتقوى والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3]، وإذا كان المرء وليا لله لم يحتج إلى غيره من الوسائط، وإن كانوا أعظم منه ولاية وأكثر كرامة وأعلى درجة.

الثاني: إن لم يكن المرء وليا لله مطيعا لم تنفعه وساطة أولياء الله تعالى؛ لأنهم يتبرءون منه حينئذ ويكرهونه موالاة لله، ولا يعقل أن يتوسط أحباب الله عند الله لأعداء الله، فإن توسطوا لهم كانوا أعداء لله مثلهم، وطردوا، وكيف يتوسطون لمن يدعوهم من دون الله فيحولوا بينه وبين مناجاته لربه، وتذلله له، والأولياء لم يكونوا أولياء إلا بحبهم ما يحب الله وبغضهم ما يبغض الله تعال، والله يبغض من يدعو سواه، ويحب المتجهين إليه في

---

(١) لعل الأنسب للسياق (التعلق بالصالحين).

(٢) تحفة الطالب والجليس ص٥٦، وانظر قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص٤٧

(٣) سورة يونس الآيتان (٦٢-٦٣).



الدعاء والملحين في السؤال .

الثالث: أنه لا يلزم من أن لأولياء الله تعالى جاها عند الله ومحبة وزلفى أن يدعوا من دون الله ويترك وهو الحي القيوم الرحمن الرحيم الذي يجيب الداعين ويعطي السائلين ولو جاز هذا التوسل لما أهمله خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ولعلمه للصحابة رضوان الله عليهم لكن الذي بعث به صلى الله عليه وسلم هو إفراد الله تعالى بالعبادة، وإخلاص التوحيد له، وهذا الإخلاص لا يتم إلا بهدم هذه الواسطة الخاطئة والشفاعة الباطلة، وهل كان شرك الجاهلية إلا التقرب بالأولياء وتوسيطهم ودعاؤهم في الرخاء من دون الله بدعوى التقرب بهم إلى الله تعالى كما قال جل شأنه: **﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾**(١)

الرابع: أن الله تعالى أنكر في آيات كثيرة اتخاذ الأولياء، والشفعاء واسطة من دونه فقال: **﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**(٢) وقال تعالى: **﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾**(٣) وقال تعالى أيضا: **﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾**(٤)

الخامس: أن الأولياء وإن كانوا أحياء عند ربهم فإنهم قد ماتوا عندنا وانقعطت صلتهم بالدنيا ورفع عنهم التكليف ولا يصح خطابهم بما كانوا يخاطبون به في الدنيا .

السادس: يقال لمن يعتقد وساطة الأولياء والصالحين في الدعاء من دون الله باسم التوسل والتقرب والتشفع أذلك مشروع أم غير مشروع؟ فإن كان مشروعا يثاب عليه الفاعل ويعاقب عليه التارك فهاتوا أدلتكم ولن تستطيعوا وبرهانكم إن كنتم صادقين! وإن كان غير مشروع فلماذا العناد بالباطل؟

السابع: أننا نطالب الذين يدعون الوسائط من دون الله بآيات صريحة من الكتاب وأحاديث صحيحة من السنة ولا قبل لهم بذلك، أما أهل السنة والجماعة فيقولون: قال الله تعالى: **﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ**

---

(١) سورة الزمر الآيتان (٢-٣).
(٢) سورة الشورى الآية ٩
(٣) سورة الزمر الآيتان (٤٣-٤٤).
(٤) سورة الشورى الآية ٦



الْكَبِيرُ﴾[١] ويقولون أيضا قال الله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾[٢] إلى غير ذلك من الآيات الصريحات.

الثامن: أن من علامات المشركين النفرة من الحق عند سماعه كما حكى الله عنهم في محكم التنزيل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[٣] وقوله تعالى أيضا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[٤]

وكثير ممن يدعون الإسلام من جمهور القبوريين فيهم هذه العلامة، ومن أراد أن يجرب ذلك بنفسه فليذهب إلى أحد المساجد التي فيها مشهد أو مقصورة لمقبور أو مقبورة وليقل لهم: يا قوم ادعوا الله وحده بأسمائه الحسنى وصفاته العلى فإنه قريب مجيب، ودعوا هؤلاء الموتى وأريحوهم مما تصنعون بهم، وإن رآهم رافعي أيديهم باتجاه القبر داعين متضرعين فليقل لهم: يا قوم اتقوا الله واتجهوا إلى القبلة في الدعاء، فسيناله من ألسنتهم وأيديهم ما يؤكد له تأصل هذه العقيدة في قلوبهم، وذلك مصداقا لقول الله تعالى " : ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾[٥]

قال الشيخ صنع الله الحلبي[٦] رحمه الله في الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفات في الحياة بعد الممات على سبيل الكرامة: (هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات، ويستغاث بهم في الشدائد والبليات وبهممهم تنكشف المهمات فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات مستدلين على أن ذلك منهم كرامات وقالوا: منهم أبدال، ونقباء، وأوتاد، ونجباء وسبعون وسبعة وأربعون وأربعة والقطب هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس. . وهذا كلام فيه تفريط وإفراط بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي لما فيه من روائح

---

(١) سورة الحج الآية ٦٢
(٢) سورة الرعد الآية ١٤
(٣) سورة الزمر الآية ٤٥
(٤) سورة ص الآية ٥
(٥) سورة الإسراء الآية ٤٦
(٦) هو صنع الله بن صنع الله الحلبي، المكي، الحنفي، واعظ، فقيه، محدث، من مؤلفاته ((سيف الله على من كذب على أولياء الله))، و((إكسير التقى في شرح الملتقى))، توفي سنة ١١٢٠هـ، انظر: إيضاح المكنون للبغدادي ١/ ١١٥، ومعجم المؤلفين ١/ ٨٤٣

الشرك المحقق ومصادمة الكتاب العزيز المصدق، ومخالفة لعقائد الأئمة وما اجتمعت عليه الأمة)[١].

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ - في الرد على قول الغلاة: إن من أقر بالكرامة لا بد أن يعرف بجواز الاستغاثة بصاحبها - : (بل البد، والسعة، واليسر في القول بأنه لا يستغاث بالمخلوق فيما يختص بالخالق ولو كان المخلوق في ثبت له من الكرامة ما ثبت، فالكرامة فعل الله لا فعل غيره، والمستغاث هو الله لا غيره ولم يكن الصحابة يستغيثون، ويسألون من ظهرت له كرامة، أو حصلت له خارقة من الخوارق، فهذا الكلام الذي قاله الغلاة جهل مركب يليق بقائله: وكل إناء بالذي فيه بنضح)[٢][٣].

ثم إن خرق العادة ليس دليلا على الولاية أو الكرامة[٤] فما الذي يدرينا أن صاحب هذا الخارق ولي من أولياء الله تعالى؟ ولو صحت ولايته جدلا لم تصح استغاثته بعد موته ولا وساطته؛ ولهذا كان بعض السلف يقول: كن طالبا للاستقامة لا طالبا للكرامة؛ فإن نفسك منجبلة على حب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة[٥].

ب - شبهة البركة: وهذه الشبهة فرعها الغلاة عن الشبهة السابقة، فالأولياء، والصالحون لما اختارهم الله سبحانه وتعالى، وأيدهم بنصره وأمدهم بعونه وقربهم بالولاية، وأظهر شأنهم للناس بالكرامة، لما كانوا بهذه المنزلة -حسب زعمهم- حلت فيهم البركة، وصارت قاصدهم لا يخيب، فجوزوا توسيطهم في دعاء الله تعالى وطلب المدد منهم، والاستغاثة بهم -أحياء وأمواتا- بدعوى وجود البركة فيهم، وفي أشيائهم في الدنيا، وحلولها في مراقدهم وأجداثهم بعد مماتهم، (وإنما دهي الغلاة ما ألقاه الشيطان إليهم -بكيده- أن قال: إن هؤلاء قوم صالحون، وعند الله مقربون، ولهم ما يشاءون، ولهم الجاه الأعلى، والمقام الرفيع الأسنى، فمن قصدهم لا يخيب سعيه، ولا يطيش رأيه، وإن بركتهم تدفع البليات، وتقضي الحاجات، وبشفاعتهم يتقرب زوارهم إلى الله

---

(١) سيف الله على من كذب على أولياء الله ص١٥
(٢) هذا تضمين لعجز بيت وصدره (فحسبكم هذا التفاوت بيننا).
(٣) منهاج التأسيس نقلا عن غاية الأماني ١/ ٢٨٢
(٤) انظر الشرح الميسر للفقه الأكبر للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس ص٧٧، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص٧١
(٥) انظر المعجزة وكرامات الأولياء لشيخ الإسلام ابن تيمية

الغفار، فتحط عنهم بشفاعتهم عند الله الأوزار إلى غير ذلك من الدلائل التي يملأ بها قلوب أهل الأماني بمثل هذه الأماني فيتلاعب بعقولهم السخيفة وآرائهم الضعيفة ويحسن لهم البدع والمنكرات بما يلقيه إليهم من الحكايات والخرافات. . . فتراهم يقولون: قد علقنا أولادنا عليهم ومنهم من يطلب منهم النسل إن كان عقيما، والشفاء إذا كان سقيما وكثيرا ما يطلب منهم منصبا فيه أخذ أموال العباد والسعي في الأرض بكل فساد، فيجيء إليهم ويلازمهم معتقدا أن من لازمهم قضيت حاجته ونجحت سعايته واقترنت سعادته)[١].

ثم يقال في الرد على هذه الشبهة إن التبرك: هو طلب كثرة الخير ودوامه[٢](ولا أحد أحق بذلك وصفا وفعلا منه تبارك وتعالى وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين وهما متلازمان)[٣]. فطلب البركة يكون من الله تعالى وأما طلبها من غيره فغير مشروع لأن: التبرك بالأموات من الأنبياء والصالحين وغيرهم في دعائهم لقضاء الحاجات الدينية أو الدنيوية، وتفريج الكربات والاستغاثة بهم والتقرب إليهم بالذبح، أو النذر لهم، والطواف على قبورهم، فهذا ونحوه من الشرك الأكبر؛ لأنهم قد اعتقدوا فيهم ما لا يجوز أن يعتقد إلا في الله فأنزلوهم منزلة الربوبية، أو صرفوا لهم من العبادات ما لا يجوز أن يصرف إلا لله تبارك وتعالى، وهذا بسبب المبالغة في تعظيمهم والافتتان فيهم والتعلق بهم)[٤]، ثم إن كون الأولياء والصالحين لهم كرامة وبركة ومنزلة عند الله تعالى فهذا حق لكنها كلمة حق أريد بها باطل، فبركة النبي أو الولي وعلو درجته معناه أن الله تعالى: يثيبه ويعطيه أكثر مما يعطيك ليس معناه أنك إذا دعوته كان الله يقضي حاجتك أعظم مما يقضيها إذا دعوت أنت الله تعالى، فإنك وإن كنت مستحقا للعقاب ورد الدعاء مثلا لما فيه من العدوان فالنبي والصالح لا يعين على ما يكره الله، ولا يسعى فيما يبغضه الله، وإن لم يكن كذلك فالله أولى بالرحمة والقبول)[٥].

ومن النتائج السيئة لشبهة البركة عند الغلاة ما حكي عن الحلاج من أن أتباعه بالغوا في التبرك به حتى صاروا يتمسحون ببوله، ويتبخرون بعذرته، ووصل الأمر ذروته في العصر

---

(١) الصواعق المرسلة الشهابية ص١٤١، وانظر معارج الألباب ص٢١٦

(٢) انظر لسان العرب مادة (برك) والمفردات للراغب ص ٤٤ مادة (برك) وبدائع الفوائد لابن القيم٢/ ١٨٦

(٣) بدائع الفوائد٢/ ١٨٦

(٤) التبرك أنواعه وأحكامه للدكتور ناصر الجديع ص٤٨٤، وانظر الشرك في القديم والحديث١/ ٤٧٦

(٥) زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور لشيخ الإسلام ابن تيمة ص٢٣، وانظر هذه مفاهيمنا ص٢٠٨

الحاضر حتى دعا بعض الرجال المنحرفين إلى مجامعة زوجاتهم عند ضريح الولي، بدعوى نيل البركة، وأن يكون الموهوب ولدا صالحا!![1].

ج – **شبهة الحكايات والمنامات:** تعد الحكايات، والمنامات مصدرا مهما من مصادر التلقي عند الصوفية، وهي دليل قوي عندهم لإثبات القضايا والاحتجاج لها[2]، وكثيرا ما يصدق العوام تلك الحكايات وتنطلي على السذج من الناس، وقد شحن الغلاة كتبهم بتلك الحكايات وتناقلوها كابرا عن كابر لإثبات جواز الاستغاثة بالأموات ومشروعية العكوف على القبور، والتعلق بأصحابها واعتبارهم واسطة شرعية بينهم وبين الله تعالى، فتجدهم يحكون أن رجلا استغاث بالولي الفلاني فأغاثه، وأن مريضا بات بقبر الشيخ فشفي من مرضه وأن امرأة نادت من مسافة بعيدة القطب المجرب عندها فقضي حاجتها في الحال.

والرد على هذه الشبهة من وجوه:-

أ – أن بناء الأحكام على مثل هذه الحكايات أمر باطل، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأما ما يروى عن بعضهم أنه قال: قبر معروف الترياق المجرب، أو قول بعضهم: فلان يدعى عند قبره، أو وقول بعض الشيوخ لمريده إذاكانت لك إلى الله حاجة فاستغث بي، أو قال: فاستغث عند قبري، ونحو ذلك فإن هذا قد وقع فيه كثير من المتأخرين وأتباعهم وكثير من هؤلاء إذا استغاث بالشيخ رأى صورته وربما قضى بعض حاجته فيظن أنه الشيخ نفسه، أوأنه ملك تصور على صورته وأن هذا من كراماته فيزداد به شركا، وفيه مغالاة، ولا يعلم أن هذا من جنس ما تفعله الشياطين بعباد الأوثان حيث تتراءى أحيانا لمن يعبدها وتخاطبهم ببعض الأمور الغائبة وتقضي لهم بعض الطلبات ولكن هذه الأمور كلها بدع محدثة في الإسلام بعد القرون الثلاثة المفضلة)[3].

ب – أن الحكايات والمنامات ليست من الأدلة الشرعية عند أهل العلم وليست من الأمور التي يعول عليها عند العقلاء، ثم إن أغلب تلك الحكايات كذب، لا يصح عمن نقلت عنه، وإنما هي من اختلاق الدجالين سدنة المعابد والقبور، يقول شيخ الإسلام ابن

(١) انظر التبرك أنواعه وأحكامه ص٤٧٣، ودمعة على التوحيد ص٨٥، وظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث لمحمد عبد الكريم حامد رسالة ماجستير غير منشورة ص١٨٨
(٢) انظر حقيقة البدعية وأحكامها لسعيد بن ناصر الغامدي٢/ ٨
(٣) تلخيص كتاب الاستغاثة١/ ٤٤٩، وانظر قاعدة جليلة ص٤٥



تيمية : (المنقول من ذلك إما أن يكون كذبا على صاحبه . . . وإما أن يكون المنقول من هذه الحكايات عن مجهول لا يعرف)[1] .

ومعلوم أننا لا نقبل مثل هذه الحكايات المجهولة الإسناد في الحديث المرفوع إلى الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، فكيف بالمنقول عن غيره؟[2] .

ويقول العلامة ابن القيم -معددا الأمور التي أوقعت الغلاة في الافتتان بالمقبورين : - (ومنها حكايات لهم عن تلك القبور : إن فلانا استغاث بالقبر الفلاني في شدة فخلص منها ، وفلانادعاه ، أو دعابه في حاجة فقضيت له ، وفلانا نزل به ضر فاسترجى صاحب ذلك القبر فكشف ضره وعند السدنة والمقابرية[3] من ذلك شيء يطول في ذكره ، وهم من أكذب خلق الله تعالى على الأحياء والأموات)[4] .

ج - أن تلك الحكايات التي فيها قضاء المقبورين لبعض حوائج الناس يحتمل أنها من تخييل الشيطان لهم فإنه كثيرا ما يلبس على بعض الصالحين بتخييل المنامات والكرامات لهم وقد يقضي بعض حوائج من استغاث بالأموات ، وقد يتقمص بعض الشخصيات فيراه بعض الناس على هيئتها وقد تقدم نقل ذلك عن شيخ الإسلام ابن تيمية .

وعلى احتمال صحتها وصدورها عن أصحابها فلا يستقيم الاحتجاج بها ، بل ينبغي الرد عليهم وبيان الحق في ذلك بدون محاباة كما قال ابن الجوزي رحمه الله[5](وإذا قد ثبت هذا من أقوال شيوخهم وقعت من بعض أشياخهم غلطات لبعدهم عن العلم فإن كان ذلك صحيحا عنهم توجه الرد عليهم بدون محاباة في الحق)[6] .

د - أن مثل هذه الحكايات لو صحت عن أصحابها ولو بلغت ألف حكاية فإنها معارضة للقطعيات من الكتاب والسنة فتكون مردودة .

هـ- أن قضاء الحوائج عند الاستغاثة بالمقبور ليس لأجل الاستغاثة بالمقبور ، بل ذلك

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم١/ ٣٤٤ ، ومنهاج السنة النبوية٢/ ٤٥١ ، وغاية الأماني٢/ ٢٧٣

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم١/ ٣٤٤ ، وجلاء العينين ص٥٥٩

(٣) في إغاثة اللهفان (المقابرة) .

(٤) إغاثة اللهفان١/ ٢٢٠ ، وانظر تلخيص كتاب الاستغاثة٢/ ٤٦٨ ، والصواعق المرسلة الشهابية ص٢٧٤

(٥) هو أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيدالله بن عبدالله بن حمادي القرشي التيمي البكري ، البغدادي الحنبلي ، الواعظ ، صاحب التصانيف الكثيرة ، ولد سنة ٥١٠هـ ، وقيل : غير ذلك ، وتوفي سنة ٥٩٧هـ. انظر سير أعلام النبلاء٢١/ ٤٦٥ ، وشذرات الذهب٤/ ٣٢٨

(٦) تلبيس إبليس ص١٦٨



بمحض قدرة الله وإرادته فيصادف ذلك عند الاستغاثة المقبور فيظن المستغيث أن الواسطة المقبور هو الذي قضى حاجته، فيعد ذلك من كرامته ويجعله دليلا على صحة الاستغاثة به، وطلب المدد منه؛ لأنه واسطة مجربة في قضاء الحوائج، وله تصرفات في الكون[١].

و- أن قضاء حاجة الداعي عند القبور ليس لأجل الاستغاثة بأصحابها المقبورين، بل لأجل أن المستغيث بها يكون في حالة من الاضطرار والكرب فيدعو بحرقة وذلة وانكسار فيستجيب الله تعالى له ويقضي حاجته لصدق توجهه وتضرعه، واضطراره وانكساره، وذلته، فيظن الجاهل أن الواسطة المقبور هو الذي قضى حاجته[٢].

ز- أن الله تعالى قد يجيب الكفار، والمشركين في أدعيتهم عند أصنامهم، لاضطرارهم وإظهار انكسارهم، فدعاء المضطرين قد يجيبه الله تعالى، ولو دعا في الخانة والخمارة، والحمام، كما يجيب من دعاه عند الأوثان، فليس للواسطة المقبور تأثير في قضاء الحاجة، وإجابة الدعوة[٣].

ح - أنه قد يكون سبب كوني معقول لقضاء حوائج بعض الغلاة عند القبور، فقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن بعض الغلاة في عصره كان له فرس مريض بمرض الإمساك الشديد في البطن والقبض المؤلم بحيث لا يستطيع أن يتروث فإذا ذهب به إلى بعض القبور فإنه يشفى ويمشي بطنه عند القبور فسأله شيخ الإسلام ابن تيمية: هل تذهب به إلى قبر الإمام الشافعي أو غيره من العلماء الصالحين، فقال لا، بل أذهب به إلى دير للنصارى، أو قبور بعض الكفار، والعبيديين، فأخبره شيخ الإسلام ابن تيمية أن سبب شفاء الفرس هو سماعه لعذاب صاحب القبر؛ لأنه يعذب في قبره، والبهائم تسمع صوته فبسبب الرعب الذي يحصل لها والفزع المصاحب لذلك تنحل بطونها فتروث وتشفى من مرضها؛ لأن الفزع يقضي الإسهال فكان الناس يتعجبون من تعليل شيخ الإسلام ابن تيمية هذا[٤].

وجملة القول في الرد على شبهات الغلاة المتعلقة بالأنبياء والأولياء جميعا، أن تقول

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم٢/ ٦٥٨، وسيف الله على من كذب على أولياء الله للشيخ صنع الله الحلبي ص٤٧

(٢) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة١/ ١٦٩، وإغاثة اللهفان١/ ٢٢٠، والدر النضيد للشوكاني ضمن الرسائل السلفية ص١٧٢، وتطهير الاعتقاد ص٧٥

(٣) انظر اقتضاء الصراط المستقيم٢/ ٦٥٨، وإغاثة اللهفان١/ ٢٢٠، وغاية الأماني٢/ ٢٨٠

(٤) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة٢/ ٥٨٨

لهم : إن سؤال المخلوق فيه ثلاث مفاسد : -

أ - مفسدة الافتقار إلى غير الله تعالى وهي نوع من الشرك .

ب - ومفسدة إيذاء المسئول وهي ظلم للواسطة .

ج - ومفسدة التذلل ، والانكسار لغير الله ، وهي ظلم للنفس[(١)] .

ولقد أحسن القائل[(٢)] : -

يا سائلا غير إله السما بشراك بالخيبة والرد

إن الذي سواك من نطفة يغنيك عن مسألة العبد

ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن نفرا من أصحاب رسول الله ﷺ بايعوه على أن لا يسألوا الناس شيئا ، فكان يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا يناوله إياه[(٣)] ؛ من أجل ذلك قيل : (استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق ، وقيل كاستغاثة المسجون بالمسجون)[(٤)] ، ومن كلام السجاد رحمه الله[(٥)] طلب المحتاج من المحتاج سفه في الرأي ، وضلة في العقل[(٦)] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : (استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة العدم بالعدم)[(٧)] .

وبين العلامة ابن القيم أن المخلوق الذي يسأل مخلوقا فقير يسأل فقيرا ، وشحاذ يسأل شحاذا[(٨)] ، وسمى الشوكاني نداء الوسائط البدعية من الأموات ، والاستغاثة بهم ، وتقديم الذبائح ، والنذور لهم عند الحاجة أن ذلك رشوة مقدمة للميت المتوسل به ، والواسطة لا

---

(١) انظر قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص٦٦ ، والضوابط الشرعية لسؤال المخلوق بحث للدكتور عبد الله بن حمد نشرته مجلة البحوث الفقهية المعاصرة السنة ٧ العدد ٢٨ لعام ١٤١٦هـ .

(٢) هذان البيتان للشيخ صالح كما نقلهما عنه محمود شكري الآلوسي ، انظر غاية الأماني ٢/ ٣١٦

(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الزكاة باب النهي عن المسألة ٧/ ١٣٢ ، والتعليق عليه في تلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ٤٠١

(٤) هذه المقولة لأبي يزيد البسطامي ، انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ٤٠١ ، وجلاء العينين ص٥٧٢ ، وصيانة الإنسان ص١٩٤

(٥) هو أبو محمد علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب ، الإمام السيد الهاشمي السجاد ، كان عالما عاملا وسيما مهيبا ، ولد عام مقتل علي رضي الله عنه ، وتوفي سنة ١١٨هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٨٤ ، وتهذيب التهذيب ٧/ ٣٥٧ ، وشذرات الذهب ١/ ١٤٨

(٦) انظر الصحيفة الجاوية ص١٣٤ ، وجلاء العينين ص٥٧٢ ، وغاية الأماني ٢/ ٣١١

(٧) كتاب التوحيد ص١٢٦

(٨) انظر مدارج السالكين ٢/ ١٣١ ، وحاشية كتاب التوحيد لعبد الرحمن بن قاسم ص١١٧ ، والقول الفصل النفيس ص٢٠٤



تحتاج إلى تلك الرشوة[١]، وشبهه الألوسي بضعيف عاذ بقرملة[٢][٣].

وأنا أقول: إن استغاثة الحي بالميت المقبور لقضاء حوائجه كاستغاثة حوت في قاع البحر بباز في جو السماء، هذا لا يستطيع مفارقته، وهذا لا يستطيع ملامسته، وما أحسن ما قيل[٤]: -

بالله أبلغ ما أسعى وأدركه　　　لا بي ولا بشفيع لي من الناس

ثم إن الدعوة للتشبث بالوسائط البدعية يصادم دعوة القرآن إلى الإيمان بالأمور الغيبية، ومن ذلك: أن الله سبحانه وتعالى قريب، مجيب، يرانا، ويسمع كلامنا، ويعلم حالنا، فربنا أخبر في القرآن أنه قريب منا فندعوه ليستجيب لنا، وكذلك أدبنا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، فإذا اتجهنا لبارئنا، ومصورنا داعين، راغبين، وأنزلنا به حوائجنا، وأظهرنا إليه فاقتنا، وعلقنا به آمالنا، وربطنا به قلوبنا حصل لنا بذلك فوائد عظيمة، منها: -

أ- امتثالنا لأوامر ربنا وتطبيقنا لشرعه عز وجل، وطاعتنا لنبيه صلى الله عليه وسلم واتباعنا لسنته.

ب - إيماننا بالغيب الذي يميز المؤمنين عن الكافرين، والمنافقين، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[٥]

ج - يقيننا بأن هذه هي الوسيلة الصحيحة والواسطة النافعة لقضاء حوائجنا، وتحقيق مطالبنا، فليبلغنا الله بذلك أمانينا، ويذهب عنا ما يعنّينا.

بعكس الذين يقولون: إنك لا بد أن تبحث عن الواسطة من ذوات الأنبياء عليهم السلام، أو واسطة من شخصيات الأولياء رحمهم الله فتعلق بها قلبك، ويلهج بذكرها لسانك ليقضي الله حاجتك، فإن في هذا دعوة للتعلق بالمحسوسات، ونوع إنكار لأمور الغيبيات.

وهذا التصور الخاطئ لمفهوم الواسطة قريب من تصور الكافرين قديما وحديثا الذين رفضوا الإيمان بالله بحجة أنه لم تدركه حواسهم، والله أعلم.

---

(١) انظر كتاب الدر النضيد ضمن الرسائل السلفية ص١٦٤

(٢) القرملة: شجرة ضعيفة بلا شوك تتفضخ إذا وطئت. انظر القاموس المحيط ٤/ ٣٧ مادة (القرمل).

(٣) انظر جلاء العينين ص٥٦٠　　(٤) انظر الفوائد لابن القيم ص٤٢

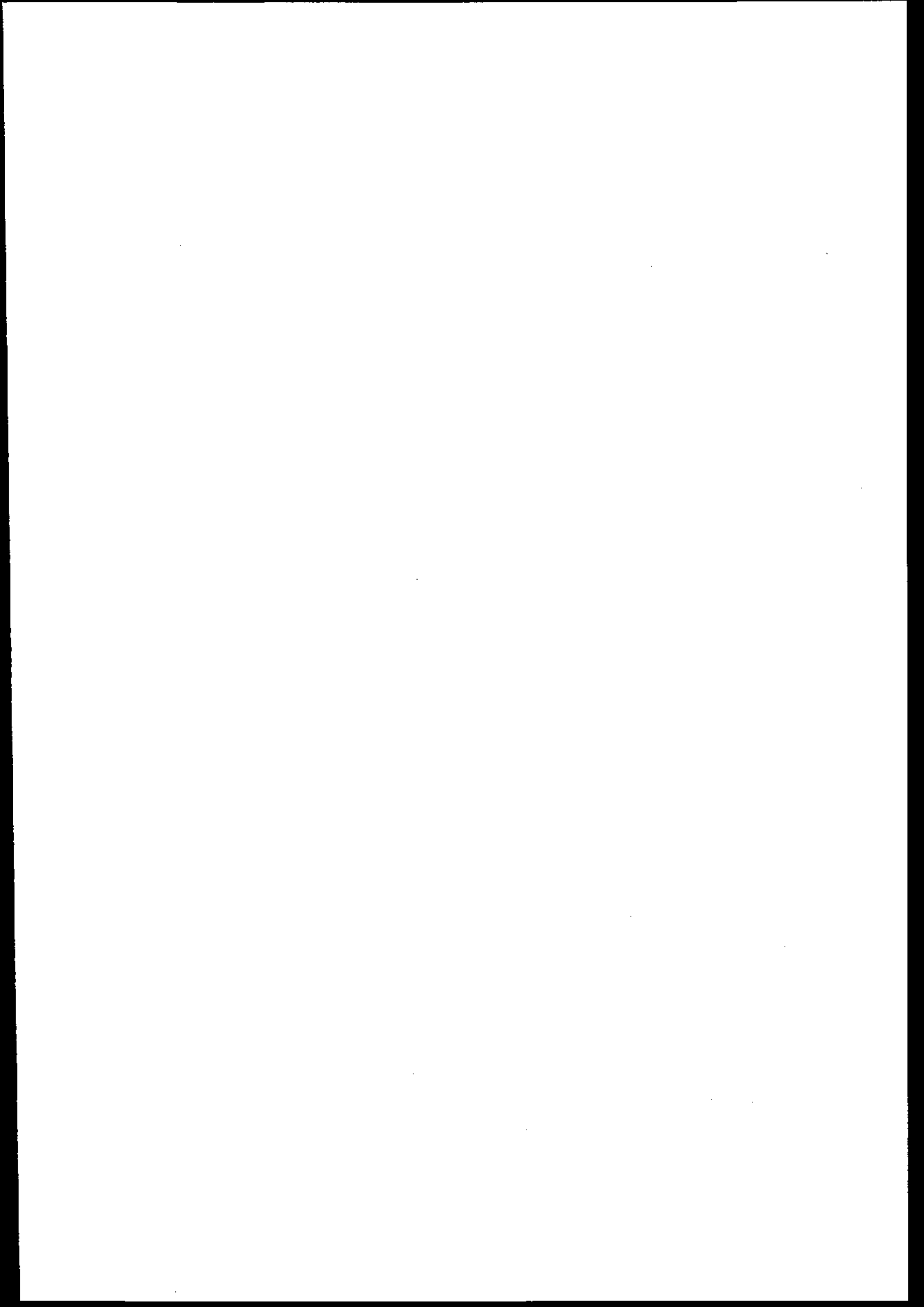
(٥) سورة البقرة الآيتان (٢-٣).

الباب الثالث

أثر الواسطة الشرعية والبدعية في العقيدة

الفصل الأول: أثر الواسطة الشرعية في معتقد أهل السنة والجماعة.

الفصل الثاني: أثر الواسطة البدعية في عقائد أهل الأهواء.



الفصل الأول

أثر الواسطة الشرعية في معتقد أهل السنة

المبحث الأول: نيل رضوان الله والجنة

لما كان مفهوم الواسطة عند أهل السنة والجماعة منضبطًا بالكتاب والسنة - كما هو شأنهم في جميع مسائل الاعتقاد - وقد بينا منهجهم فيما مضى - لما كان الأمر كذلك؛ فإن هذا المنهج الرباني أورثهم آثاراً مباركة، وثماراً يانعة، ذاقوا حلاوتها، ودعوا الناس إلى مشاركتهم فيها ومن تلك الآثار: نيل رضوان الله ودخول جنته.

إن أعظم أثر للواسطة الشرعية، يفرح به المؤمن، ويزيده نشاطًا، ويبعث في النفس المؤمنة الشعور بالراحة، والاطمئنان، ويزيد في الإيمان هو ذلك الوعد الذي وعد الله به عباده المؤمنين العاملين، ألا وهو نيل رضوانه سبحانه وتعالى، ودخول جنته، وفي سبيل هذا المطلب الغالي، والأثر النفيس شمر المشمرون، وتنافس المتنافسون، وجاهد المجاهدون.

ولقد أكد الحق سبحانه وتعالى هذا الوعد في كتابه الزيز، وذلك في كثير من آيات الذكر الحكيم[1]؛ لكننا نكتفي من ذلك بعشر آيات كريمات وهي:

١ - قوله تعالك ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٣].

يقول الإمام ابنكثير في تفسير هذه الآية: (بخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات، والنعيم المقيم في: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ آي ماكثين فيها أبدًا: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي حسنة البناء، طيبة القرار... ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي رضوان الله عنهم أكبر وأجل، وأعظم ما هم فيه من النعيم)[٣]. وإنما كان رضوان الله أكبر عند المؤمنين؛ (لأنه مبأ لحول دار الإقامة، ووصول كل سعادة، وكرامة، وهو غاية أرب المحبين، ومنتهى أمنية الراغبين)[٤].

---

(١) انظر صفة الجنة في القرآن الكريم لعبد الحليم السلفي رسالة ماجستير غير منشورة ص٢١، فقد سرد المؤلف جميع الآيات التي ورد فيها دخول المؤمنين الجنة.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٢. (٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٨٣، وانظر تفسير الطبري ٦/ ٤١٥.

(٤) تفسير الألوسي ١٠/ ١٣٧، وانظر تفسير السعدي ٣/ ١٢٥.



٢ – وقال تعالى: ﴿ الَّذينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1].

٣- وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾[2].

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية عند قوله الله تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾: (ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فيما منحهم من الفضل العظيم)[3].

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[4].

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي – عند تفسير هذه الآية –: (ففي هذه الآية الكريمة ذكر المبشِّر، والمبشَّر، والمبشر به، والسبب الموصل لهذه البشارة، فالمبشر هو الرسول ﷺ، ومن قام مقامه من أمته، والمبشر هم المؤمنون العاملون الصالحات، والمبشر به هي الجنات الموصوفات بتلك الصفات، والسبب الموصل لذلك هو الإيمان، والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة إلا بهما، وهذا أعظم بشارة حاصلة على يد أفضل الخلق بأفضل الأسباب)[5].

٥ – وقال تعال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[6].

يقو الشيخ عبدالرحمن السعدي – في تفسير هذه الآية مبيِّنًا المراد بالذين آمنوا وعملوا الصالحات – أي جمعوا بين الإيمان، والقيام بموجهب، ومقتضاه، من الأعمال الصالحة،

---

(١) سورة التوبة، الآيات (٢٠ـ ٢١– ٢٢).
(٢) سورة البينة، الآيتان (٧ـ ٨).
(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٧٥.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥.
(٥) تفسير السعدي ١/ ٢٩.
(٦) سورة يونس الآيتان (٩– ١٠).

المشتملة على أعمال القلوب، وأعمال الجوارح على وجه الإخلاص، والمتابعة: ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ﴾ أي بسبب ما معهم من الإيمان يثيبهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم؛ ولهذا قال: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ الجارية على الدوام: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أضافها الله إلى النعيم لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح، والسرور، والبهجة، والحبور، ورؤية الرحمن، وسماع كلامه، والاغتباط برضاه، وقربه، ولقاء الأحبة، والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنغمات المشجيات، والمناظر المفرحات)[1].

٦- وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[2].

٧- وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[3].

٨- وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾[4].

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي - في تفسير هذه الآية: (أي آمنوا بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، على الوجه الذي أمروا به علمًا وتصديقًا، وإقرارًا: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الناشئة عن الإيمان... ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر من أنواع المآكل، والمشارب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور، والغرف المزخرفة، والأشجار المتدلية، والفواكه المستغربة، والأصوات الشجية، والنعم السابغة... وأعلى من ذلك، وأجل رضوان الله عليهم، وتمتع الأرواح بقربه، والعيون برؤيته، والأسماع بخطابه الذي ينسيهم كل نعيم، وسرور، ولولا الثبات من الله لهم لطاروا، وماتوا من الفرح، والحبور، فلله ما أحلى

---

(١) تفسير السعدي ٣/ ١٥٤.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥٨.
(٣) سورة الحديد، الآية: ٢١.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٢٢.



ذلك النعيم، وما أعلى ما أنالهم الرب الكريم)[١].

ويقول العلامة ابن القيم - في وصف الجنة[٢] -

هي جنة طابت وطاب نعيمها	**فنعيمها باق وليس بفان**
دار السلام وجنة المأوى ومنـ	**ـزل عسكر الإيمان والقرآن**
فالدار دار سلامة وخطا بهم	**فيها سلام واسم ذي الغفران**

٩ ـ وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً**﴾[٣]. وأي ضيافة أجل، وأعظم من ضيافة الرب الكريم، في جنات النعيم؟ وقد نالها هؤلاء الضيوف بسبب تحقيقهم للتوحيد، وتكميلهم للإيمان، وتعلق قلوبهم بالكريم الرحمن[٤].

١٠ ـ ولما ذكر تعالى أصناف أهل الجنة في سورة الفرقان ذكر من ضمنهم: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ**﴾[٥]. ثم أخبر جل شأنه عن الجميع بقوله: ﴿**أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا**﴾[٦].

وثبت في السنة المطهرة الوعد بحصول هذا الأثر، وهو نيل رضوان الله تعالى، ودخول الجنة للمؤمنين الموحدين بسبب إيمانهم بالله تعالى، ونفيهم للوسائل الشركية، والوسائط البدعية، وذلك في أحاديث عديدة، نكتفي بذكر ثلاثة منها وهي:

١- ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان فإن حقًا على الله أن يدخله الجنة جاهد في سبيل الله، أو حبس في أرضه التي ولد فيها**)[٧].

٢- وثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟**

---

(١) تفسير السعدي ٢/ ٨٢.
(٢) انظر متن القصيدة النونية ص ٣٠٩.
(٣) سورة الكهف، الآيتان (١٠٧ - ١٠٨).
(٤) انظر: تفسير السعدي ٥/ ٤٢.
(٥) الآية: ٦٨.
(٦) سورة الفرقان، الآيتان (٧٥ - ٧٦).
(٧) انظر صحيح البخاري، ٦/ ١١، حديث ٢٧٩.



فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدا)[١] .

٣ - وروى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : **(يا أبيا سعيد من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا وجبت له الجنة)**[٢] .

فنحن نرى في هذه الأحاديث أن شرط دخول الجنة هو الإيمان ، وفي بعضها الإسلام ، ونفهم من ذلك أن المراد بهذا الإيمان ، والإسلام هو الإيمان الجازم بأن الله تعالى هو الذي يستحق أن تصرف له جميع أنواع العبادات القلبية ، والمعنوية ، والحسية ، والكفر بما يعبد من دون الله من الطواغيت ، والوسائط ، وتعليق القلوب ببارئها ، وإنزال الحوائج ، وقضاء الحاجات بالغني الكريم وقطع النظر عما سواه من المخلوقات كائنًا من كان .

وهذا الأثر وهو هداية المؤمنين إلى الجنة هو أخص أنواع الهداية التي يطلبه المؤمنون من ربهم ، بل هو غاية الهداية ، كما مر معنا في مبحث أنواع الهداية ، وبيان ما للرسول ﷺ منها .

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يجعلنا من عباده المخلصين ، ويهدينا صراطه المستقيم ، ويثبتنا عليه في الحياة الدنيا ، وفي الآخرة ، وأن يجعلنا ممن يحل عليه رضوانه الأكبر في هذه الحياة ، وبعد الممات في تلك الغرفات ، إنه ولي ذلك والقادر عليه . . .

---

(١) انظر صحيح البخاري ١١/ ٤١٤ حديث ٦٥٤٩ ، وصحيح مسلم ، كتاب صفة الجنة ونعيمها باب إحلال الرضوان على أهل الجنة ١٧/ ١٦٨ .

(٢) انظر صحيح مسلم ، كتاب الإمارة باب بيان ما أعده الله تعالى للمجاهد في سبيل الله ١٣/ ٢٨ .

المبحث الثاني

تحقيق التوحيد الخالص

يأمر أهل السنة والجماعة بالتعلق بالله سبحانه وتعالى والاطراح بين يديه وينفون أن يكون بين العبد، وربه واسطة في حال الدعاء، والتضرع، والرجاء، هذا هو سبيل الإخلاص الذي جاء به الإسلام؛ لأن الإخلاص هو (قصد المعبود وحده بالتعبد)[١]، وهو من أهم الخصائص التي يقوم عليها منهج السلف في الاعتقاد[٢]؛ ولأن (العمل لأجل الناس وابتغاء الجاه، والمنزلة عندهم ورجائهم للضر والنفع منهم لا يكون من عارف بهم ألبتة؛ بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله، وأقواله، وعطاءه، ومنعه، وحبه، وبغضه، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا بجهله بالله، وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم)[٣].

فالإخلاص لله تعالى في جميع العبادات هو أساس الدين، وقوامه، وروح العبادة الذي ينبض فإذا خدش هذا الإخلاص، أو فقد حبط العامل، والعمل[٤]. قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[٥]، وقد تقدم معنا بيان الشرطين العظيمين لقبول العمل، وهما:

أ – الإخلاص لله تعالى، وقصده بذلك العمل.

ب – التقيد بالسنة، ومتابعة الرسول ﷺ في ذلك العمل.

قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[٦]، وقال أيضًا: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٥٢٧.

(٢) انظر تعريف الخلف بمنهج السلف ص ٧٧، ومنهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة لعثمان بن علي حسن ٢/ ٧٣٠.

(٣) مدارج السالكين ١/ ٨٣، وانظر تجريد التوحيد للمقريزي ص ٤٢.

(٤) انظر العقيدة الإسلامية وأثرها في بناء المجتمع لعزام سلهب رسالة ماجستير غير منشورة ص ١٧٠.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٧) سورة البينة، الآية: ٥.



أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [(١)]، ونظائر هذه الآيات في القرآن كثير، فالتعلق بالله سبحانه وتعالى، والإذعان لربوبيته، والترقي في منازل العبودية يوردث التوحيد الخالص، والإيمان الجازم، فلا واسطة بين المخلوق، والخالق في العبادة؛ لأن هذه العبادة الشرعية بحد ذاتها عمل صالح، وواسطة مقبولة بنفسها [(٢)]، فلا ينبغي أن يقصد بها مخلوق، ولا أن تدخلها واسطة من الوسائط سواء كان ملكًا مقربًا، أو نبيًا مرسلاً، أو إمامًا من الأئمة، أو وليًا من الأولياء.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه، ويطمئن به، ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله سبحانه، ومن عبد غيد الله وإن أحبه وحصل به مودة في الحياة الدنيا، ونوع من اللذة فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل الطعام المسموم.. الوجه الثالث: أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع، ولا ضر، ولا عطاء، ولا منع، ولا هدى، ولا ضلال، ولا نصر، ولا خذلان، ولا خفض، ولا رفع، ولا عز، ولا ذل؛ بل ربه هو الذي خلقه، ورزقه، وبَصَّره، وهداه، وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سوه، وأما العبد فلا ينفعه، ولا يضره إلا بإذن الله، وهذا الوجه أظهر للعامة من الأول؛ ولهذا خوطبوا في القرآن أكثر من الأول ... فهذا الوجه يقتضي التوكل على الله، والاستعانة به، ودعاءه، ومسألته دون ما سواه ... فإذا لم تكن القلوب مخلصة لله الدين عبدت غيره من الآلة التي يعبدها أكثر الناس مما رضوه لأنفسهم فأشركت بالله بعبادة غيره، واستعانته، فتعبد غيره، وتستعين به لجهلها بسعادتها التي تنالها بعبادة خالقها، والاستعانة به، فبالعبادة له تستغني عن معبود آخر، وبالاستعانة به تستغني عن الاستعانة بالخلق)[(٣)].

وذكر العلامة ابن القيم أن هناك تجريدان، لابد منهما لتحقيق شهادة أن لا إله لا الله، وأن محمد رسول الله ﷺ وهما: أن تسقط الوسائط، والوسائل بينك وبين الله تعالى، ولا تثبت وساطة إلا في وصول أمره، ونهيه، ورسالته إليك، كما تسقط الوسائط بينك وبين الرسول ﷺ في الطاعة، والاتباع، ثم قال: (وهذان التجريدان هما حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، والله وحده هو المعبود المألوه الذي لا يستحق

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٣. (٢) راجع المبحث السابق (وجه كون العبادة واسطة).
(٣) مجموع الفتاوى ١/ ٢٤ وما بعدها (بتصرف).

العبادة سواه، ورسوله المطاع، المتبع المهتدى به الذي لا يستحق الطاعة سواه، ومن سوه فإنما يطاع إذا أمر الرسول بطاعته، فيطاع تبعًا للأصل، وبالجملة فالطريق مسدودة رلا على ما اقتفى آثار الرسول ﷺ واقتدى به في ظاهره وباطنه)[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والمقصود هنا أن الشيء إذا انقسم، ووقعت فيه الشركة نقص ما يحصل لكل واحد؛ فإذا كان جميعه لواحد كان أكمل؛ فلهذا كان حب المؤمنين الموحدين المخلصين لله أكمل، وكذلك سائر ما نهوا عنه من كبائر الإثم، والفواحش يوجب كمال الأمور الوجودية في عبادتهم، وطاعتهم، ومعرفتهم، وذلك من زكاهم؛ كما أن الزرع كلما نقي عنه الدغل[٢] كان أزكى له، وأكمل لصفات المال الوجودية فيه، وأصل الزكاة التوحيد، والإخلاص كما فسرها بذلك أكابر السلف)[٣].

وليس للعبد حظ أشرف، ولا أنفع من أن يكون الله وحده إله، ومعبوده، ومحبوبه، ومراده، فهذا هو الحظ الأوفر، والسعادة العظمى، وليس فوق هذا كمال فيطلبه العبد[٤].

إن من يعبد إلهًا واحدًا لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فيتعامل معه، ويدين له في الاعتقاد، والشعور تجده لا يتشتت، ويتوزع في اعتقاده بآلهة متعددة، أو أفعال متضاربة، وأوامر متناقضة لا تراعي فطرته، وما يناسب طاقته؛ بل إن الموحد يتعامل مع إله واحد في العبادة، والاتجاه، والتشريع، ونظام الحياة كل ذلك يتلقاه من جهة واحدة، ومن مصدر واحد، لا من مصادر شتى، أو من آلهة أخرى. قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[٥].

وهذا التجمع واتحاد الوجهة، والقصد، والتلقي ينشيء طاقة هائلة من الشعور بالسكينة، والراحة النفسية، لا يقف في وجهها شيء، وهذا سر من أسرار العقيدة الإسلامية التي تظهر في جانب الإخلاص لله تعالى[٦].

---

(١) مدارج السالكين ١/ ١٤٤.

(٢) الدغل بفتحتين: الفساد. انظر مختار الصحاح ص ٢٠٦ مادة (د غ ل).

(٣) مجموع الفتاوى ١٧/ ١٤٥.

(٤) انظر طريق الهجرتين ص ٢٢٣.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٢٩.

(٦) انظر العقيدة الإسلامية وأثرها في بناء المجتمع ص ٢٦٩.



فتوحيد الخالق، والتعلق به مفزع أعدائه، وأوليائه، فأما الأعداء فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[(١)]، وأما الأولياء فينجيهم من نكبات الدنيا وشدائد الآخرة؛ (ولذلك فزع إليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات، وفزع إليه أتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون في الدنيا، وما أعدلهم في الآخرة. . . فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد؛ ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه بالتوحيد، فلا يلقي في الكرب العظام إلا الشرك، ولا ينجي منها إلا التوحيد، فهو مفزع الخليقة، وملجأها، وحصنها، وغياثها)[(٢)].

وهذا الأثر الناتج عن التوجه إلى الله تعالى، والتعلق به، وقطع النظر عما سواه من الوسائط البدعية هو من مقتضيات العبودية لله سبحانه وتعالى، وإخلاص العبادة له عز وجل، وذلك بأن يكون العبد عارفًا بربه، (مخلصًا له جميع عبادته، محققًا ذلك بترك الشرك، صغيره وكبيرة، وباتباع النبي ﷺ ظاهرًا وباطنًا، والبراءة من كل بدعة وضلالة)[(٣)].

يقول العلامج ابن القيم: (وما نجا من شَرَك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليه، وإلهه، ومعبوده، فجرد حبه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذله لله، وتوكله على الله، واستعانته بالله، والتجاءه إلى الله، واستغاثته بالله، وأخلص قصده لله، متبعًا لأمره، متطلبًا لمرضاته، إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله، فهو لله، وبالله، ومع الله)[(٤)].

فالاعتماد على الله سبحانه وتعالى عند فعل الأسباب وترك الاعتماد على الأسباب من ثمرات الإيمان بالله تعالى التي تتحقق بإثبات الوساطة الشرعية، ونفي الوسائط البدعية، كما هو منهج أهل السنة والجماعة[(٥)].

ولقد قطع الله جل شأنه كل الذرائع، والأسباب والوسائل، والوسائط التي يتعلق بها المشركون قديمًا وحديثًا، والتي تفوت تحقيق هذا الأثر المبارك، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلِ

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥ .
(٢) الفوائد لابن القيم ص ٥٨ .
(٣) القواعد الحسان للسعدي ص ١٩٢ .
(٤) مدارج السالكين ١/ ٤٤٦ .
(٥) انظر مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ٥/ ١٤٢، والصيد الثمين في رسائل ابن عثيمين له أيضًا ١/ ٦٦



ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾[1].

يقول العلامة ابن القيم: (فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يصحل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عابده منه، فإن لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له، وظهيراً، فإن لم يكن معينًا، ولا ظهيراً كان شفيعًا عنده، فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتبًا متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة التي يظنها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة؛ بإذنه، فكفى بهذه الآية نورًا، وبرهانًا، ونجاة، وتجريدًا للتوحيد، وقطعًا لأصول الشرك، ومواده لمن عقلها، والقرآن مملوء من أمثالها، ونظائرها)[2].

فإثبات ما ورد في الشرع من الواسطة الشرعية، ونفي ما عداها من الوسائط البدعةي التي يتشبث بها أهل الأهواء يورث الإيمان بالله وحده، وإخلاص الدين له، وقطع النظر عما سواه، وهذا الأثر هو روح الدين، وأساس الإيمان، والهدف الأسمى للعقيدة الإسلامية؛ بل هو الدين كله[3] (فمتى آمن العبد بأنه أثر للباري الأعظم كان بينه وبين خالقه ما بين الصانع، والمصنوع من الصلة، وكان بينه وبين المصنوعات جميعًا ما بين الآثار المتعددة للمنشيء الواحد، وكان هذا الارتباط المعترف به اعتراف إيمان بين الخلق والخالق رباطًا لا ينفصم، يستمر به العمران، والإصلاح، والخير على وتيرة واحدة، مصدرها الإذعان لإرادة واحدة، وكان بذلك وجودنا جميعًا في هذا الكون، متصل المبدأ، متحد الغاية)[4].

ولله در شيخ الإلام ابن تيمية في قوله - من نظمه -[5]:

لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ... ولا عن النفس لي دفع المضرات

---

(١) سورة سبأ الآيتان (٢٢-٢٣).

(٢) مدارج السالكين ١/ ٣٤٣، وذكر الشيخ محمد بن عبةالوهاب أن الله قطع بهاتين الآيتين عروق الشرك من القلب. انظر عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية لشيخنا الدكتور صالح العبود ص ٣٧٤، وحاشية كتاب التوحيد لعبد الرحمن بن قاسم ص ١٣٦، وتفسير السعدي ٦/ ١٣٥.

(٣) انظر عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية ص ٣٥٠، وغاية الأماني ١/ ٢٠.

(٤) الرسالة الخالدة لعبد الوهاب عزام ص ٢٦.

(٥) نقل عنه هذه الأبيات ابن القيم. انظر مدارج السالكين ١/ ٥٢٥.



وليس لي دونه مولى يدبرني	ولا شيفعٌ إذا حاطتْ خطيئاتي
إلا بإذن من الرحمن خالقنا	إلى الشفيع كما قد جاء في الآيات
ولستُ أملك شيئًا دونه أبدًا	ولا شريك أنا في بعض ذرات
ولا ظهيرٌ له كي يستعين به	كما يكون لأرباب الولايات
والفقر لي وصف ذات لازم أبدا	كما الغنى أبدًا وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم	وكلهم عنده عبد له آتي
فمن بغى مطلبًا من غير خالقه	فهو الجهول الظَّلوم المشرك العاتي

واعلم أن من ذاق حلاوة هذا الأثر لم تضره مرارة أي مأساة؛ لأنه استغنى بالخالق عن المخلوق، واكتفى بالغني النافع من كل وجه عن اللجوء إلى الفقير المحتاج في كل شأنه، وهذا هو لباب التوحيد؛ كما قال المقريزي: (ولباب التوحيد أن يرى الأمور كلها لله تعالى، ثم يقطع الالتفات إلى الوسائط، وأن يعبده سبحانه عبادة يفرده بها، ولا يعبد غيره) [1]. والله تعالى أعلم.

---

(١) تجريد التوحيد المفيد ص ٧.

المبحث الثالث

الطمأنينة والثبــــات

تنير عقيدة التوحيد السبيل أمام المؤمنين، وتغرس في قلبه نشوة، تنبعث منها السعادة؛ لأنها تربطه بخالقه، صاحب الكمال المطلق، والقدرة التامة، فيعيش في كنف الله آمنًا مطمئنًا، يحدوه شعور نفسي يغمره بالفرحة؛ لأنه في كلاءة ربه، ومن كان مع الله كان الله معه.

يقول العلامة ابن القيم: (ومن علامات صحة القلب أنه لا يزال يضرب صاحبه حتى ينيب إلى الله، ويخبت إليه، يوتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه الذي لا حياة له، ولا فح، ولا نعيم، ولا سرور إلا برضاه، وقربه، والأنس به، فبه يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوي، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجوع، وله يخاف، فذكره قوته، وغذاؤه، ومحبته، والشوق إليه حياته، ونعيمه، ولذته، وسروره، والالتفات إلى غيره، والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه داؤه، فإذا حصل له ربه سكن إليه، واطمأن به، وزال ذلك الاضطراب، والقلب، وانسدت تلك الفاقة؛ فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوء الله تعالى أبدًا، وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له، وعبادته وحده، فهو دائمًا يضرب على صاحبه حتى يسكن، ويطمئن إلى إلهه، ومعبوده، فحينئذ يباشر روح الحياة، ويذوق طعمها . . وبالجملة فالقلب الصحيح هو الذي همه كله في الله، وحبه كله له، وقصده له. . . وطمأنينته، وسكونه إليه، فهو كلما وجد من نفسه التفاتًا إلى غيره تلا عليها: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾[1]. . . . فينطرح بمجموعه بين يديه، ويعتمد بكليته عليه)[2].

فالراحة النفسية، والطمأنينة القلبية التي يشعر بها المؤمن الموحد لا توازيها لذة في الوجود؛ لأنه علق قلبه بخالقه، وأنزل به حوائجه، وعلم أن لا قاضي للحاجات إلا الله، ولا محقق للأمنيات إلا إياه، وحرر قلبه من قيد الالتجاء إلى الواسطة، واكتفى بعبادة المعبود عن التعلق بغيره من الكائنات في الوجود، موقنًا أن هذا هو عين الواسطة، فقلب هذا الموحد يرقص فرحًا أبدًا، ونفسه مطمئنة، مسرورة سرمدًا، (فليس عند القلوب

---

(١) سورة الفجر، الآيتان (٢٧-٢٨).

(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٨٠، وانظر الجواب الكافي ص ٢٧٢.

السليمة، والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية أحلى، ولا ألذ، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة؛ كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله: إنه ليمر بالقلب أوقات، أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي ييش طيب، وقال آخر: إنه ليمر بالقلب أوقات يهتز فيها طربًا بأنسه بالله، وحبه له . . . وما من مؤمن إلا وفي قلبه محبة الله تعالى، وطمأنينة بذكره، وتنعم بمعرفته، ولذة، وسرور بذكره، وشوق إلى لقائه، وأنس بقربه، وإن لم يحس به)[١].

فطمأنينة المؤمن، وثبات قلبه بالتوحيد، هذا الشعور هو جنته في الدنيا، كما قال العلامة بن القيم: (فمحبة الله تعالى، ومعرفته، ودوام ذكره، والسكون إليه، والطمأنينة إليه، وإفراده بالحب، والخوف، والرجاء، والتوكل، والمعاملة؛ بحيث يكون هو وحده المست،لي على هموم العبد، وعزماته، وإراداته هو جنة الدنيا، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرة عين الحبين، وحياة العارفين)[٢].

وكيف لا يشعر بالطمأنينة، والثبات من يقرأ قول الله تعالى: ﴿**ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم**﴾[٣]؟، وكيف لا يشعر بالراحة النفسية من يؤمن بقول الله تعالى: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[٤]؟، بل إنه سوف يشعر بما شعر به نبي الله موسى - على نبينا وعليه السلام - حين قال لبني إسرائيل: ﴿**كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾[٥]، وما شعر به خاتم النبيين ﷺ في الغار حين قال لصاحبه الصديق رضي الله عنه: ﴿**لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾[٦]، وإذا بحثنا عن هذا الأثر في القرآن فإننا نجد أن القرآن وضحه وضوحًا كافيًا، وبينه بيانًا شافيًا، وذلك في كثير من الآيات، كل آية يقف عندها المؤمن، تسليه تسلية، وتملأه طمأنينة، وتزيده ثباتًا: ومن تلك الآيات:

أ - قول الله تعالى: ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾[٧].

---

(١) إغاثة اللهفان ٢/ ٥٦٧، وانظر الجواب الكافي ص ٢٩٠.
(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٨٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٥.
(٤) سورة الحديد، الآية: ٤.
(٥) سورة الشعراء، الآية: ٦٢.
(٦) سورة التوبة، الآية: ٤٠.
(٧) سورة يونس، الآيات (٦٢ - ٦٣ - ٦٤).



يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي في تفسير هذه الآية: (يخبر تعالى عن أوليائه، وأحبائه، ويذكر أعمالهم، وأوصافهم، وثوابهم، فقال: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف، والأهوال: ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما أسلفوا؛ لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ثبت لهم الأمن، والسعادة، والخير الكثير الذي لايعلمه إلا الله تعالى، ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ . . لذلك كانت: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾.

والحاصل أن البشرى شاملة لكل خير، وثواب رتبه الله في الدنيا والآخرة على الإيمان والتقوى)[1].

ب - وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[2]، يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي: (أي يزول قلقها، واضطرابها، وتحضرها أفراحها، ولذاتها)[3].

ج- وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[4].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أي هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده، لا شريك له ولم يشركوا به شيئا هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة)[5].

فأهل السنة والجماعة ذاقوا حلاوة هذا الأثر بسبب إيمانهم بالله وتجريد التوحيد له، وتعلقهم به دون سواه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والمقصود أن ما عند عوام المؤمنين، وعلمائهم أهل السنة والجماعة من المعرفة واليقين، والطمأنينة، والجزم الحق، والقول الثابت، والقطع بما هم عليه أمر لا ينازع يه إلا من سلبه الله العقل، والدين)[6].

---

(١) تفسير السعدي ٣/ ١٧٢، وانظر الجواب الكافي ص ٢٩٠، وتفسير ابن كثير ٢/ ٤٣٨.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.
(٣) تفسير السعدي ٤/ ٥٣، وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٥٣٠.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.
(٥) تفسير ابن كثير ٢/ ١٥٨، وانظر أضواء البيان ٢/ ١٥٣.
(٦) مجموع الفتاوى ٤/ ٤٩.

د- وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[١].

روى الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية - عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: (هم الذي لم يشركوا بالله شيئًا، وفي رواية أخرى أنه قال: هم الذي لم يلتفتوا إلى إله غير الله جل وعلا)[٢].

ولما حقق الصحابة رضي الله عنهم التوحيد أنزل الله عليهم السكينة، والطمأنينة، وثبت أقدامهم، ولهذا ثبت عنهم أنهم كانوا ينشدون أثناء حفر الخندق ويرتجزون - والنبي صلى الله لعيه وسلم - يردد معهم قافية كل بيت - أبيات عبدالله بن رواحة رضي الله عنه المشهورة [٣]:

لا هِمَّ لولا أنتَ ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينـا
فأنزلـن سكينـةً علينـا وثبِّتِ الأقدام إن لاقينـا

وقد استجاب الله دعاءهم - رضي الله عنهم - فأنزل عليهم السكينة، والطمأنينة، والثبات.

إن تعلق الموحد بربه قد منحه يقينًا بأن لا رب إلا الله تخافه القلوب، وترجوه، وتجتنب سخطه، وتلتمس رضاه، وبهذه العقيدة الراسخة تتساقط الأرباب، والوسائط الزائفة من حياته، وتتحطم كل الأصنام المادية، والمعنوية من قلبه، فيصبح راضيًا بالله وحده ربًا، وعليه متوكلاً، وإليه منيبًا، ويطمع في فضله، ويستمد من قوته، ويعتصم به، ويعتمد عليه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٤]، فأين هذا من المشرك بالله الذي تعددت أربابه، وتنوعت وسائطه، وتضاربت وجهاته، وأهدت طاقاته؟[٥].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية فمن ذاق (حلاوة الإخلاص لله، والعبادة له، وحلاوة ذكره، ومناجاته، وفهم كتابه، وأسلم وجهه لله، وهو محسن بحيث يكون عمله صالحًا، ويكون لوجه الله خالصًا، فإنه يجد من السرور، واللذة، والفرح ما هو أعظم من الداعي

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠. (٢) انظر تفسير ابن كثير ٤/ ١٠٦.
(٣) صحيح البخاري ٧/ ٣٩٩، حديث ٤١٠٤، والرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري ص ٣٤١.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٠١. (٥) انظر الرسالة الخالدة لعبد الوهاب عزام ص ٢٩.



المتوكل الذي نال بدعائه، وتوكله ما ينفعه من الدنيا، أو اندفع عنه ما يضره)[١].

فالمحتمي بالله، والمتعلق به آوى إلى ركن شديد، لا يحتاج إلى وسائط، ولا مقربين، فهو يمتاز عن غيره بأنه (مطمئن البال، مستريح الفكر، غير قلق على المستقبل، ولا تمزق الأوهام نفسه مهما واجهه من أخطار . . . هذه الطمأنينة، والثقة يفقدها غير المؤمن، ولا يعوضها الغنى والترف؛ لما نرى من كثرة حوادث الانتحار، والتمزق النفسي في أكثر الدول غنى ورفاهية)[٢].

ولا شك أن من قطع طمعه في المخلوقين، من الأحياء، والميتين، وعلق قلبه برب الخلق أجمعين، موقنًا بأنه لا خير إلا خيره، ولا نفع إلا نفعه، ولا شر إلا بقدره، ولا ضر يرفع إلا من جهته، لا شك أن من هذا وصفه فهو الموحد الذي أضاءت كلمة التوحيد جوانب قلبه، وسرت الطمأنينة في جنبات نفسه، فهو ثابت على الحق، لا تزعزعه عواصف الخرافة، وزوابع الأوهام التي اقتلعت قلوب المشركين، فأصبحت معلقة بالوسائل الوهمية، والوسائط البدعية، فمثل هذا الموحد كمثل الشجرة الطيبة اليت ضرب الله في القرآن، فقال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾[٣].

يقول العلامة ابن القيم (فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علوًا التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين، وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقًا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة في كل وقت بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها)[٤]. فلابد في الإسلام من الاستسلام لله وحده، وترك الاستسلام لغيره من الوسائط، وهذا هو حقيقة قولنا (لا إله إلا الله)[٥].

---

(١) مجموعة الرسائل الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢/ ١٦٤، وانظر مجموع الفتاوى ١٠/ ٢١٦.

(٢) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم للدكتور محمد ملكاوي ص ٤١، وانظر العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع للدكتور محمد بيصار ص ٧١، والثمرات الزكية في العقائد السلفية جمع أحمد فريد ص ٢٥١.

(٣) سورة إبراهيم، الأيتان (٢٤ ـ ٢٥).

(٤) أعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٧٢.

(٥) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٨٤٦.



ومن أراد أن يذوق طعم هذا الأثر فسبيله واحدة، وطريقه محددة، ألا وهي تجريد التوحيد لربه تعالى الذي بيده أزمَّة الأمور كلها، وإليه تفزع الخليقة بأجمعها فيتوجه إليه بالقلب، واللسان، والروح، والوجدان، معرضًا عما سواه، فيعيش آمنًا، مطمئنًا يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، إن أصابته سراء شكر، وإن مسته ضراء صبر، فهو شكور، صبور، وفي كلا الحالين مأجور [١].

وهذا هو اللطف الخفي الذي عرفه العلامة ابن القيم بقوله: (هو ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة، والطمأنينة، وزوال القلب، والاضطراب، والجزع، فيستخذي بين يدي سيده ذليلاً، مستكينًا، ناظرًا إليه بقلبه ساكنًا إليه بروحه، وسره، قد شغله مشاهده لطفه ه عن شدة ما هو فيه من الألم، وقد غيبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له، وأنه عبد محض، يجر»ي عليه سيده أحكامه، رضي، أو سخط؛ فإن رضي نال الرضا، وإن سخط سخط فحظه السخط)[٢].

---

(١) انظر توحيد الألوهية أساس الإسلام ص ١٠٤، وأثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة للدكتور عبدالله الجربوع رسالة ماجستيد غير منشورة ص ٣١٦، وأعمال القلوب وأثرها في الإيمان لمحمد دو كوري محمد رسالة دكتوراة غير منشورة ص ٢٧٩.

(٢) الفوائد ص ١٩٥.

المبحث الرابع

الشعور بالعزة والقوة والنصر

إن المؤمن الموحد الذي امتلأ قلبه بحب الله تعالى، وحب رسوله ﷺ ولم يبق فيه متسع لمحبة غير الله من الوسائط، والوسائل المزعومة - نجده - قد كسر كل القيود، والأغلال التي تحول بينه، وبين ربه تعالى، فهو يشعر براحة نفسية لا يشعر بها إلا الموحدون، وعزة، وإباء لا توازيها عزة عزيز من الخلق، وقوة إيمانية تسمو به عن الخضوع، والخنوع للمخلوق، فعزته من الله، وقوته بالله، ونصره من عند الله، قال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾[2].

يقول العلامة ابن القيم مبينًا حال هذا الموحد مع ربه: (وكلما ازداد له حبًا ازداد له عبودية، وذلاً، وخضوعًا، ورقًا له، وحرية عن رق غيره.

فأصبح حرًا عِزّةً وصيَانةً ... على وجه أنواره وضِيَاؤُه)[3].

فرسالة الإسلام جاءت بتوحيد الألوهية؛ لتحرر الإنسان من رق العبودية، والخضوع لغير الله تعالى ولتغرس في قلوب المؤمنين الشعور بالعزة، والقوة، والشجاعة، وتثبت في النفوس قوة العزيمة، وسمو المقصد؛ وذلك بسبب ما تميزت به رسالة الإسلام من عقيدة التوحيد الخالص، ونبذ الوسائط التي كانت سائدة في الجاهلية، ومسيطرة على مناحي الحياة، وجميع تحركات المشركين، فتحرر المسلم الذي كتب الله هدايته بانضوائه تحت لواء الرسول ﷺ وانضمامه لحزبه، وأصبح عزيزًا بعد ما كان ذليلاً وقويًا بعد ما كان ضعيفًا، ومنتصرًا على الخرافة بعد ما كان أسيرًا لها[4].

إذن (جاء الإسلام بعقيدة التوحيد؛ ليرفع نفوس المسلمين ويغرس في قلوبهم الشرف، والعزة، والأنفة، والحمية، وليعتق رقابهم من رق العبودية، فلا يذل صغيرهم لكبيرهم، ولا يهاب ضعيفهم قويهم، ولا يكون لذي سلطان بينهم سلطان إلا بالحق، والعدل، وقد ترك الإسلام بفضل عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٠ (٢) سورة غافر، الآية: ٥١ .

(٣) إغاثة اللهفان ٢/ ٥٦٧، وانظر الآداب الشرعية لابن مفلح ٣/ ٦١١ .

(٤) انظر رسالة الإسلام نور بدد الظلام للسيد عبدالحليم الخطيب ص ٣٥١، وحرية الاعتقاد في ظل الإسلام للدكتور تيسيد العمر ص ١٣٧ .

في العصور الأولى فكانوا ذوي أنفه وإباء وغيره)[١]، فبالتوحيد يقوى العبد، ويستغني، ويتعزز، ويحتمي، ومن سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على رب الناس[٢].

فلشهادة التوحيد آثار، ومن تلك الآثار: تحرير القلب، والنفس من الرق للمخلوقين، والخضوع، والاتباع لغير المرسلين[٣]، قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾[٤].

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أي من كان يحب أن يكون عزيزًا في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله تعالى؛ فإنه يحصل له مقصوده؛ لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة وله العزة جميعًا)[٥]، وكما قال تعالى في ا لآية الأخرى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[٧]، فمن ابتغى العزة من الوسائط أذله الله، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾[٨]، وكثيرًا ما يقرن الله سبحانه وتعالى بين ذكر العزة، والقوة، والنصر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[٩]، فنفهم من ذلك أن العزة هي العزية الحقيقية، وأنها هي التي تستلزم القوة والنصر، والغلبة[١٠]، فمن آمن بالله تعالى، وأيقن بعظيم قدرته، وقوته، وحكمته تعالى، وشاهد ببصره، وبصيرته مظاهر العزة، والعظمة الربانية في كل فرد من أفراد هذا الكون، واستحضر ما يمكن تصوره من آثار العزة لاسمه «العزيز»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[١١].

(فحينئذ تشمخ نفسه، وتعلو على كل أسباب الضعف، والذل فتصبح نفسه عزيزة بالله تعالى، لا تذل لأي مخلوق، مهما كان ضعيفًا فقيرًا؛ فإنه دائمًا عزيز بالله تعالى لا

---

(١) النظرات للمنفلوطي ٢/ ٤٨، وانظر دمعة على التوحيد ص ٢١٣.
(٢) انظر مجموع الفتاوى ١/ ٥٥، والعقل والغيب للدكتور محمد حسن هيتو ص ٤٧.
(٣) انظر مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ٥/ ١٠٣، وأثر العقيدة في بناء الفرد والمجتمع للدكتور عبدالعال مكرم ص٧٥.
(٤) سورة فاطر، الآية: ١٠.
(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٥٦، وانظر القواعد الحسان للسعدي ص ١١٧، وأضواء البيان ٦/ ٤١٥.
(٦) سورة النساء، الآية: ١٣٩.
(٧) سورة المنافقون، الآية: ٨.
(٨) سورة مريم، الآيتان (٨١ ـ ٨٢).
(٩) سورة الحج، الآية: ٤٠.
(١٠) انظر صعود الأقوال ورفع الأعمال لعبد الله سراج الدين ص ٣٥.
(١١) سورة المنافقون، الآية: ٨.



يذل لغيره)[1].

وقال العلامة ابن القيم: (فالمؤمن عزيز غالب، مؤيد، منصور، مكفي عنه بالذات، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بتحقيق الإيمان، وواجباته، ظاهرًا وباطنًا)[2].

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أنه وجد المسلمين في ناحيته يتعلقون بالوسائط البعية ويلوذون بقبر رجل يقال له أبو عمر، ويأملون من الله النصر على التتار، يقول قائلهم[3]:

يا خائفينَ مـــن التَّتَرْ لُوذوا بقبر أبـــي عِمَرْ

فبين لهم شيخ الإسلام أن السبب في هزيمتهم هو تعلقهم بهؤلاء الوسائط المقبورين، والاستغاثة بهم من دون الله تعالى، وذكرهم بأن العزة، والغلوة، والنصر لا يجيء بالشرك، والتعلق بالمقبور، وإنما يجيء من جهة الاستغاثة بالعزيز الغفور.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (حتى إن العدو الخارج عن شريعة الإسلام لما قدم دمشق خرجوا يستغيثون بالموتى عند القبور التي يرجون عندها كشف ضرهم. . . فقلت لهم: هؤلاء الذين تستغيثون بهم لو كانوا معكم في القتال لانهزموا كما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد . . . فلما كان بعد ذلك جعلنا نأمر الناس بإخلاص الدين لله عز وجل، والاستغاثة به، وأنهم لا يستغيثون إلا إياه لا يستغيثون بملك مقرب، ولا نبي مرسل . . . فلما أصلح الناس أمورهم، وصدقوا في الاستغاثة بربهم نصرهم على عدوهم نصرًا عزيزًا، ولم تهزم التتار مثل هذه الهزيمة قبل ذلك أصلاً لما صح من تحقيق توحيد الله تعالى وطاعة رسوله؛ فإن الله تعالى ينصر رسوله والذين آمنوا في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد)[4].

وحينما تشع كلمة التوحيد في قلب المؤمن، وتثبت فيه ثبات الجبال الراسيات فإنه سيرفض كل مظاهر الشرك، ودواعيه، ووسائله بكل شموخ، وأنفة، فلا خضوع لغير الله، ولا توجه لمخلوق من مخلوقات الله، وعندما يصل العبد إلى هذه المنزلة من منازل الإيمان سوف يشعر بأن حريته في عبوديته لله تعالى، وأن تلك السجدة التي يخفض فيها

(١) العقيدة الإسلامية الميسرة وأثرها في حياة المسلم لعبد العزيز ندا ص ٤٣، وانظر عقيدة التوحيد في القرآن الكريم ص ٣٨.

(٢) إغاثة اللهفان ٢/ ٢٦٣، وانظر الرسالة الخالدة لعبد الوهاب عزام ص ٦٣، والرسالة والرسول للدكتور أكرم العمري ص١٢.

(٣) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ٢/ ٧٣٢.

(٤) المرجع نفسه والموضع بعينه.

جبهته بكل تذلل، وتواضع، وخضوع للعزيز الجبار هي عنوان العلو، وشارة الحرية، وسر العزة، وسبيل القوة، والنصر، كما قيل[١]:

سجدة تخفض الجباه ولكـــن　　　عز فيها مسبح وتعالـى

ظنها الجاهلون غلا على العبـد　　　ولكن تحطـم الأغـــلالا

تثبت الوجه والجوارح في الأر　　　ض ولكن تقلقل الجبـــالا

وبهذه العقيدة الراسخة، وهذه القوة المستمدة من الله جل جلاله يصرع التوحيد الشرك، وتطرح حقيقة الإيمان الخرافة أرضًا، فيعيش التوحيد قويًا في قلوب المؤمنين، ويتوارى الشرك عن الأنظار، وتهرب الخرافة، وهي تجر أذيال الهزيمة خوفًا من سياط الحق، وأنواره الساطعة، عند ذلك يحق للموحة أن يصرخ في وجه الوسائط البدعية قائلاً[٢]:

بالله أبلغ ما أسعى وأدركه　　　لا بي ولا بشفيع لي من الناس

---

(١) من قصيدة لعبد الوهاب عزام. انظر: مجلة المسلمون السنة الأولى ٩٦١.

(٢) انظر الفوائد، ص ٤٢.

المبحث الخامس

حصول السيادة والاستخلاف في الأرض

من آمن بالله تعالى محققًا شهادة التوحيد، وصدق رسله، واتبع النور الذي جاءوا به لا شك أن هذه الفئة من الناس هي التي يحبها الله تعالى، ويزكيها، ويستخلفها في الأرض بسبب إيمانها، وهدايتها، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ** ﴾[1].

فتحقيق التوحيد، ورفض الوسائط البدعية بين المخلوق، وخالقه من أهم الشروط لحصول السيادة، والاستخلاف في الأرض؛ لأن الله سبحانه وتعالى أرسل رسله، وأنزل كتبه لإخلاص العبادة لله تعالى وحده، والكفر بغيره من الوسائط، والطواغيت التي تعبد من دون الله، ولقد بشر رسل الله - عن طريق وحي الله - بحصول هذا الأثر للمؤمنين بالله المتبعين لرسل الله، وعدا من الله، والله لا يخلف الميعاد.

ولقد بين القرآن في كثير من الآيات الكريمة هذا الأثر، تسلية، وتثبيتًا لأوليائه المؤمنين الموحدين، وتبكيتا، وتقريعًا لأعدائه المشركين الظالمين، وتأكيداً للنتيجة الحتمية للصراع بين الحق، والباطل في أن العاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ** ﴾[2] ومن تلك الآيات:

أ - قول الله تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[3].

وهذا ما حصل لسلف هذه الأمة - رضي الله عنهم - حيث نزلت هذه الآية في غزوة الخندق، وهم بين مطرقة الخوف، وسندان الموت، وما كان بأيديهم إلا المدينة بيهودها، ومنافقيها فأظهر الله أهل التوحيد، ونصر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم[4]، واستخلفهم، ومكن لهم في الأرض، وبدل خوفهم أمنا، وقلقهم طمأنينة، وعبدوه وحده، عبادة خالصة، وأطاعوه، وأطاعوا رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

---

(١) سورة البينة، الآية: ٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان (١٠٥ ـ ١٠٦).

(٣) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٤) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٦٩.

قال الإمام ابن كثير : (هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض : أي أئمة الناس، والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، ويخضع لهم العباد، ولبيدلنهم من بعد خوفهم أمنا، وحكما، وقد فعله تبارك وتعالى، وله الحمد، والمنة)[1].

وقد جمع الشيخ محمد الأمين الشنقيطي هذه الآية من نظائرها، ثم قال : (والآيات تدل على أن طاعة الله، والإيمان به، والعمل الصالح سبب للقوه، والاستخلاف في الأرض، ونفوذ الكلمة)[2]. وهذا الوعد في الآية يشمل أصحاب رسول الله ﷺ وكل من آمن بالله تعالى وقام بنصرة دينه على الوجه الأكمل[3].

وهذه الولاَيةَ الموعود بها في هذه الآية للجماعة المؤمنة بين الله مظاهرها، وأنها الاستخلاف في الأرض، والتمكين فيها، وحصول السيادة والشرف، فتكون لهم العزة، والقوة، والغلبة، ويحصل لهم الأمن بدلاً من الخوف، وقد بين الله حصول هذه السيادة، والولاية ألا وهو الإيمان الصادق، والأعمال الصالحة، المذكورة في صدر الآية، ثم ذكر في آخرة الآية أنه يجب أن تكون خالصة لله تعالى[4].

ب - وقال موسى في جواب قومه : ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[5].

ج - ولما ألقي سحرة فرعون ساجدين وآمنوا بالله رب موسى وهارون توعدهم فرعون وهددهم، فلم يبالوا بوعيده وتهديده، وكان جوابهم له : ﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[6].
فثبتوا على إيمانهم بالله تعالى، وتصديقهم بنبيه موسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - وكفروا بفرعون، وربوبيته المزعومة، فكانت النتيجة : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾[7].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣١١.
(٢) أضواء البيان ٦/ ١٦٧، وانظر الورثة الصالحة للحضارة المعاصرة للدكتور فاروق حمادة ص ١٥.
(٣) انظر أضواء البيان ٥/ ٤٨٢.
(٤) انظر أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة ص ١٥٠ والعقائد الإسلام لسيد سابق ص٣٠٧
(٥) سورة الأعراف، الآية : ١٢٩. (٦) سورة الأعراف، الآيتان (١٢٥ ـ ١٢٦).
(٧) سورة الأعراف، الآية : ١٣٧.



د – وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[١].

هـ- وذكر الله تعالى في كتابه العزيز قصة الفتية الذين آمنوا بربهم، أصحاب الكهف، وما نالوا من الرحمة، والتمكين، وتهيئة الأمور، وبين أن سبب ذلك كله توحيدهم لله تعالى، وتعلقهم به، والتبرؤ من الشرك، وهجران أهله، فقال تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾[٢].

فتبين من هذه الآيات السابقة للإيمان الصادق، والطاعة التامة لله تعالى، وطاعة رسوله ﷺ ثمرات يانعة، ومن تلك الثمرات حصول السيادة، والاستخلاف في الأرض، فضلاً من الله ونعمة، والله ذو الفضل العظيم، ولهذا قال النبي ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم)[٣].

ولا ريب أن المقصود بهذه الطائفة هي طائفة المؤمنين الموحدين المتقين. وقال – عليه الصلاة والسلام – في الحديث الآخر: (بشر هذه الأمة بالسنا، والرفعة، والدين، والنصر، والتمكين في الأرض، فمن عمل عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب)[٤].

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يمكن لنا ديننا الذي ارتضى لنا، ويحفظ لنا أمننا، وإيماننا، ويثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا، وفي الآخرة.

---

(١) سورة القصص، الآيتان (٥ – ٦). (٢) سورة الكهف، الآية ١٥.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند ٥/ ١٣٤، وابن حبان في صحيحه، انظر الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان لابن بلبان ٢/ ١٣٢، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، انظر المستدرك ٤/ ٣١١، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٣٣٥، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ١/ ٥٤٥، برقم ٢٨٢٥.

المبحث السادس

تحقيق الوحدة بين المسلمين

جاءت رسالات الله إلى أهل الأرض لتحقيق التوحيد، وإخلاص العبودية التامة لله تعالى، ولقد حذر المرسلون بهذه الرسالات أهل الأرض من مغبة الشرك، ومسالك الزلل، وبنيات الطريق، وأخذوا بأيديهم إلى صراط الله المستقيم، وبينوا لهم أن عبادة الله تعالى وحده، وإخلاص الدين له هو سر قوتهم، وطريق وحدتهم، وسبيل خلاصهم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

ولما كان دين الله واحدًا وهو عبادة الله وحده؛ وإن تنوعت الشرائع أمر الله الرسل أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[3].

ولقد عصم الله الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة إلى قيام الساعة من الأهواء، والاختلاف بسبب تجريدهم لتوحيد الله، ومتابعتهم لرسوله صلى الله عليه وسلم وسيرهم على نهج سلفهم الصالح إيمانًا وتصديقًا، علمًا، وعملاً، عقيدة، وسلوكًا، عبادة، ومعاملة، منهجًا، وأخلاقًا، فاتسمت عقيدتهم بالصفاء، والنقاء، من الدغل، والخلل، فامتازوا بوحدة العقيدة، والمنهج في كل زمان، ومكان، والنقاء من الدغل، والخلل، فامتزوا بوحدة العقيدة، والمنهج في كل زمان، ومكان؛ لذلك تجد التوافق العجيب بينهم، وإن تفرقت أبدانهم، وتباعدت ديارهم، ولعل من أهل أسباب ذلك هو تعلقهم بالله تعالى دون سواه من الوسائط المخلوقة، واتباعهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم دون الانقياد لغيره من المشروعين، والمبتدعين.

روى الإمام ابن كثير عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾[4] عن قتادة أنه قال: (أهل رحمة الله أهل الجماعة، وإن تفرقت ديارهم،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٣) سورة المؤمنون، الآيتان (٥١-٥٢).
(٤) سورة هود، الآيتان (١١٨ ـ ١١٩).

وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم، وأبدانهم)[١].

وهذا الذي قاله قتادة رحمه الله أمر مطرد، وحقيقة مشاهدة؛ فإنك لو بحثت عن أهل السنة والجماعة، (على اختلاف بلدانهم، وزمانهم، وتباعد ما بينهم من الديار، وسكون كل واحد منهم قطرًا من الأقطار وجدتهم في بيان الاعتقاد على وتيرة واحدة، وخط واحد، يجرون على طريقة لا يحيدون عنها، ولا يميلون فيها، قولهم في ذلك واحد، لا ترى فيهم اختلافًا، ولا تفرقًا في شيء ما، وإن قل؛ بل لو جمعت ما جرى على ألسنتهم، ونقلوه عن سلفهم، وجدته كأنه جاء عن قلب واحد، وجرى على لسان واحد، وهل على الحق دليل أبين من هذا؟ . . . وكان السبب في اتفاق أهل الحديث أنهم أخذوا الدين من الكتاب، والسنة، وطريقة النقل، فأورثهم الاتفاق، والائتلاف، وأهل البدعة أخذوا الدين من المعقولات، والآراء، فأورثهم الافتراق والاختلاف)[٢].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فأهل الإشراك متفرقون، وأهل الإخلاص متفقون، وقد قال تعالى: ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[٣]، فأهل الرحمة متفقون، مجتمعون، والمشركون فرقوا دينهم، وكانوا شيعًا . . . بخلاف أهل التوحيد فإنهم يعبدون الله لا يشركون به في بيوته التي أذن الله أن ترفع، ويذكر فيها اسمه . . . وإن حصل بينهم تنازع في شيء مماي سوغ فيه الاجتهاد لم يوجب ذلك تفرقًا، ولا اختلافًا، والله هو معبودهم، إياه يعبدون، وعليه يتوكلون، وله يخشون، ويرجون، وبه يستعينون، ويستغيثون، وله يدعون، ويسألون؛ فإن خرجوا إلى الصلاة في المساجد كانوا مبتغين فضلاً منه، ورضوانًا، كما قال تعالى في نعتهم: ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾[٤]، وكذلك إذا سافروا إلى أحد المساجد الثلاثة، لا سيما المسجد الحرام الذي أمروا بالحج إليه، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ﴾[٥]، فهم يؤمون بيته ويبتغون فضلاً من ربهم ورضوانًا، لا يرغبون إلى غيره، ولا يرجون سواه، ولا يخافون إلا إياه)[٦].

---

(١) تفسير ابن كثير.
(٢) الحجة في بيان المحجة لقوام السنة ٢/ ٢٢٦.
(٣) سورة هود، الآيتان (١١٨ ـ ١١٩).
(٤) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٢.
(٦) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٨٤٩، وانظر مجموع الفتاوى ٤/ ٥٢.



ففي خضوع المسلمين لرب واحد، وعبادتهم له وحده، وتعلقهم به دون من سواه من الوسائط والأرباب، والإخلاص في ذلك مع الانقياد لأوامر الشرع، والطاعة التامة للرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأصل من أقوى الروابط في جميع كلمة المسلمين، وتوحيد صفوفهم[1]. قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[2]، ففي هذه الآيات الكريمات بيان سبيل الوحدة بين المسلمين، وهي تحقيق التوحيد الخالص والإنابة إلى الله تعالى، وتعل القلوب به دون غيره من الطواغيت، والوسائط، وأداء شعائر الله، والبراءة من الشرك، ووسائله، وسد الطرق المؤدية إليه، وهجران أهله.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[3]، وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[5].

فمجتمع العقيدة مجتمع متماسك، مترابط يشد أفراده على أيدي بعضهم البعض كأنهم بنيان مرصوص، وآمالهم، وإلامهم واحدة، واتجاهاتهم كلها واحدة؛ لأنها نابعة من عقيدتهم، وإيمانهم بالله تعالى وحده، ليحققوا العدل، والمحبة، والأخوة الإيمانية، وليعيش كل فرد في هذا المجتمع آمنًا على دينه، وروحه، وعقله، وماله، وعرضه[6]، ولن تنقشع عن الإنسانية غيوم البلاء، وويلات الحروب، وظلام الفرقة التي نشاهدها بين

---

(١) انظر وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق للدكتور جمال بادي ص٦، وحكم الانتماء إلى الفرق للشيخ بكر أبي زيد ص ١٢٤.

(٢) سورة الروم، الآيات (٣٠ـ ٣١ـ ٣٢).

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٥٢.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٦) انظر عقيدة التوحيد في القرآن الكريم ص ٤٧، وتعريف الخلف بمنهج السلف ص ٤١٩.



الأمم، والطبقات ما لم تهب عليهم رياح العقيدة الصافية، وتملأ كلمة التوحيد قلوب الناس[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وهذا الأصل العظيم، وهو الاعتصام بحبل الله جميعًا، وأن لا يتفرقوا هو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب، وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي صلى الله عفيه وسلم في مواطن عامة، وخاصة)[2].

ولا ريب أن الأساس الذي يقوم عليه بناء وحدة الأمة وتماسكها، وهو الركن العظيم، والحصن الحصين، والمنطلق المتين لجمع كلمة المسلمين هو (عقيدة التوحيد الذي جمعنا الله به بعد الفرقة، وألف بين قلوبنا بعد التمزق، حتى أصبحنا أمة واحدة ذات هدف واحد، ومنطلق واحد، وعقيدة واحدة هي مصدر عزتنا، وعنوان سعادتنا، ومناط وجودنا في هذه الحياة، إنها عبادة الله الذي لا إله غيره، ولا رب سواه)[3].

ولقد ذاق سلفنا الصالح حلاوة هذا الأثر بسبب تقحيقهم للتوحيد، وسيرهم في ظلال العقيدة الصافية، فكانوا (يستلهمون سر وحدتهم من صفاء العقيدة الخالصة التي لم تشبها شائبة، فأصبحوا بذلك سادة الدنيا، وفتح الله لهم أبواب الخير من كل مكان، ورفعوا راية التوحيد في مشارق الأرض ومغاربها، وكل عاقل يدرك أن هذا النصر المؤزر الذي حققه الله على أيديهم لم يكن وليد الصدفة.... وإنما تحقق بسبب اعتمادهم على الله، والتوكل عليه، مع الأخذ بالأسباب المشروعة... وانطلاقهم في دعوتهم من تحقيق كلمتي التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله)[4].

وليس معنى ذلك أنه لا يقع بين أهل السنة اختلاف ألبتة؛ بل يقع، وقد وقع في كثير من مراحل التاريخ؛ لأنهم بشر غير معصومين، إلا أن اختلافهم محمود، غير مذموم؛ لأنه لا يؤدي إلى تفرق، وتحزب، وتباين، وإنما يكثر الخلاف بينهم في الأحكام الدينية، والمسائل الفرعية، ولا يؤدي اختلافهم إلى تناحر، وتبغاض، وتكفير، كما هو حال أهل البدع؛ بل يقع الخلاف، وتبقى المودة، والنصح، والألفة، الأخوة، كما قال الإمام ابن

---

(١) انظر الرسالة الخالدة ص ٣٩، والوحدة الإسلامية والأخوة الدينية لمحمد رشيد رضا ص ١٣٧.
(٢) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٣٥٩.
(٣) منهج السلف في العقيدة وأثره في وحدة المسلمين لشيخنا الدكتور صالح السحيمي ص ٥.
(٤) المرجع السابق ص ٢٢.

قتيبة رحمه الله[١] : (ولو أردنا - رحمك الله - أن ننتقل عن أصحاب الحديث[٢] ونرغب عنهم إلى أصحاب الكلام ، ونرغب فيهم لخرجنا من اجتماع إلى تشتت ، وعن نظام إلى تفرق ، وعن أنس إلى وحشة ، وعن اتفاق إلى اختلاف)[٣] .

وإذا كان مذهب أهل السنة والجماعة في فهم الواسطة يقوم على التقيد بالكتاب ، والسنة ، ونفي الوسائط المخلوقة ، والوسائل المبتدعة ، ويقوم - بدلاً من ذلك - على ربط القلوب بخالقها ، وتجريد التوحيد له ، وإخلاص العبادة له ، مع تمام المتابعة لرسوله صلى الله عليه وسلم ، إذا كان الأمر كذلك ، فكيف لا يثمر هذا المنهج وحدة الأمة ، وتماسكها ، وترابطها ؛ بعيداً عن نزعات الافتراق ، والتصدع ، والشقاق؟ فالمؤمنون قلوبهم متجهة نحو قبلة واحدة ، ومعلقة برب واحد ، ومطيعة لنبي واحد ، ومتبعة لدليل واحد وهو الكتاب والسنة ، إذا خرجوا إلى الصلاة خرجوا بنية واحدة ، وشعور واحد ، وإذا صاموا وجدتهم كذلك ، وإذا حجوا بيت ربهم وجدتهم كذلك أيضًا ؛ بل يزيدون على ذلك في مناسك الحج بأن يكون مظهرهم دالاً على هذه الوحدة ، وذلك الاتفاق[٤] .

فدعاؤهم لله تعالى ، وتوجههم إليه ، وخوفهم منه ، وطمعهم فيه ، لا في زيد ولا عمرو من الوسائط البدعية ، والوسائل الوهمية ، وهذا هو التوحيد الذي جاءت به رسالة الإسلام (فبالتوحيد ، والسنة تصفو القلوب ، وتتآلف ، وبالتوحيد تتحقق الوحدة ، وبدون التوحيد لا تتحد)[٥] .

فالإيمان سبب للاجتماع ، والاتفاق ، قال بعض السلف : (ثلاث لا تنفع اثنتان دون الثالثة : الإيمان ، والصلاة ، والجماعة)[٦] . فالاختلاف مرفوض في الشريعة مطلقًا ، والصراط واحد ، والواحدانية لا تقتضي الافتراق ، ولا التشيع ، والانقسام[٧] .

ثم نقول للسارحين في الوهم القائلين بأن الدعوة إلى التوحيد تورث الفرقة : (من هو

---

(١) هو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، الإمام العالم الكاتب الأديب اللغوي ، قال الخطيب البغدادي : كان ابن قتيبة ثقة ، ديِّنًا فاضلاً ، من مصنفاته : «تأويل مختلف الحديث» و «الشعر والشعراء» ، توفي سنة ٢٧٦هـ . انظر تاريخ بغداد ١٠/ ١٧٠ ، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٦ .

(٢) أصحاب الحديث لقب من ألقاب أهل السنة ، كما مر معنا في تعريف أهل السنة .

(٣) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٤٤ .

(٤) انظر دروس في العقيدة مستفادة من الحج لشيخنا الدكتور عبدالرزاق بن عبدالحسن البدر ص ٤٢ .

(٥) موسوعة أهل السنة لعبدالرحمن دمشقية ١/ ١٣ .

(٦) الإبانة لابن بطة ١/ ٢٢٣ .

(٧) انظر حكم الانتماء إلى الفرق للشيخ أبو بكر أبي زيد ص ١٢٥ .



الذي يفرق الجماعة؟ أهو الذي يدعو إلى عقيدة التوحيد، وإفراد الله بالعبادة واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم والاعتصام بالكتاب، والسنة، حتى تكون الأمة جماعة واحدة، معبودها واحد، وهو الله، وقدوتها واحد، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ودليلها واحد، وهو الكتاب، والسنة، وتحت راية واحدة، هي راية التوحيد؟ أم الذي يدعو إلى التعلق بغير الله من الأولياء ، والصالحين، وإلى اتباع الطرق الصوفية المبتدعة، وإلى الاستدلال بالأحاديث الموضوعة، والحكايات المكذوبة، والمنمات الشيطانية، مما تزخر به كتب القوم: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]؟؟)[2].

ومما يستدل به على هذا الأثر المبارك من الواقع المشهود ما أثمرته دعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب السلفية في هذه البلاد؛ حيث قامت على الدعوة إلى تحقيق التوحيد، وإخلاص العبادة لله تعالى، وتصفية العقيدة من شوائب الشرك، ووسائله البدعية، وظهرت دعوته - رحمه الله - في بيئة متنافرة، وقبائل شتى متناحرة، تغير القوية منها على الضعيفة، وفي أعراق متعددة، ومذاهب مختلفة فتطهرت البيئة من الشرك والبدع، واجتعت القلوب على التوحيد، وتوحدت القبائل تحت راية (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فاجتمعت الكلمة، وتحققت الوحدة بفضل الله تعالى، ثم ببركة دعوة التوحيد السلفية.

فكان قيام دولة التوحيد على يد الأمير محمد بن سعود، والشيخ محمة بن عبدالوهاب رحمهما الله اللذين حصلت البيعة بينهما على نصرة الإسلام، وإقامة السنة، والتوحيد[3]، فكان سيف العدل في يد الأمير ، ومشعل التوحيد في يد الشيخ:

وتناصر السيف الصقيل ومشعل التـ	**ـوحيد حتى أينعا بثمار**
لله درك دعوةً سلفيةً	**للدين والدنيا بكل فخار**

واعلم أن المؤمنين في أي بقعة من بقاع الأرض يجمعهم ويصل بينهم جسران عظيمان: جسر يربط بين القلوب، وهو التوحيد، وجسر يربط بين الأفواه، وهو لغة

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨١.

(٢) هذه مفاهيمنا ص ٢٢٥، وانظر دعوة الإمام محمة بن عبدالوهاب سلفية لا وهابية ص ٤٦٧.

(٣) انظر عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي ص ١٤.

القرآن، كما قال الشاعر[١]:

بين الجوانح جسر من عقيدتنا   وبين أفواهنا جسر من الضاد

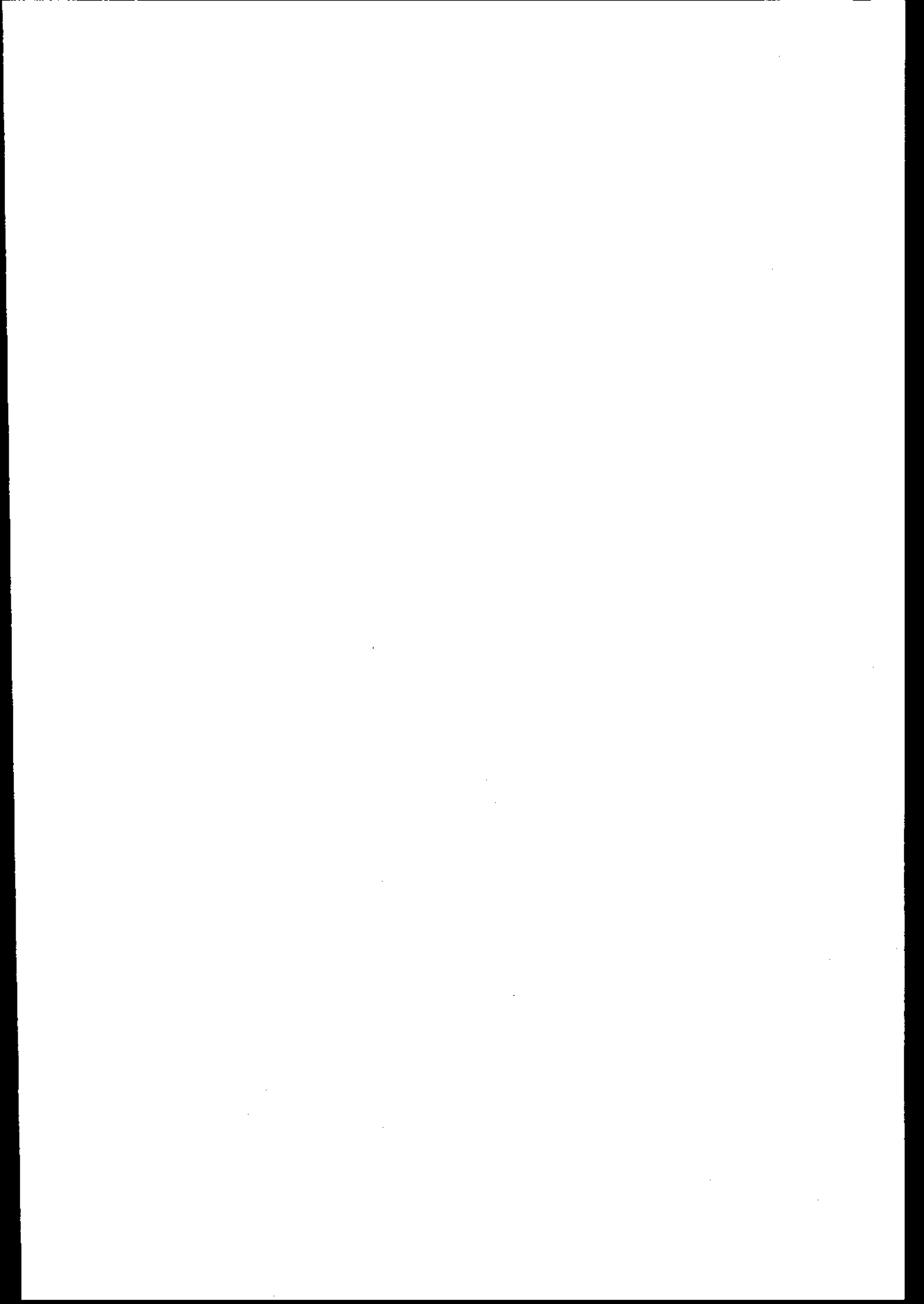
يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فظهر أن سبب الاجتماع، والألفة جمع الدين، والعمل به كله، وهو عبادة الله وحده، لا شريك له، كما أمر به، باطنًا، وظاهرًا . . . ونتيجة الجماعة رحمة الله، ورضوانه، وصلواته، وسعادة الدنيا، والآخرة، وبياض الوجوه)[٢].

ونستطيع أن نقرر باختصار أن نبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم - بعث بأمرين اثنين، وعليهما مدار الرسالة: بعث بكلمتين: بعث بكلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة عليها. والله تعالى أعلم.

---

(١) للشاعر عبدالرحمن العشماوي. انظر ديوانه.

(٢) مجموع الفتاوى ١/ ١٧.



الفصل الثانى

أثر الواسطة البدعية في عقائد أهل الأهواء

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: الوقوع في التشبيه والشرك.

المبحث الثاني: الحيرة والشك والضياع.

المبحث الثالث: الذلة والانكسار لغير الله تعالى.

المبحث الرابع: ضياع العمل لتوزعه بين الوسائط.

المبحث الخامس: انتشار الضعف بين المسلمين وانشطار شملهم.



المبحث الأول

الوقوع في التشبيه والشرك

لما كان الخروج عن دائرة الكتاب ، والسنة ، وعدم التزام منهج السلف في العقيدة هو السمة الغالبة لأهل الأهواء ؛ فإن معارضتهم لمذهب أهل السنة والجماعة في فهم الواسطة بمفهومهم الخاطئ للواسطة ، وتشبثهم بالوسائط البدعية نجم عنده آثار سيئة ، أوقعت أهل الأهواء في وَحَل من الاعتقادات الفاسدة ، والتصورات الخاطئة ، والممارسات الممنوعة شرعًا ، ومن ذلك وقوعهم في التشبيه ، والشرك .

فبسبب غلو أهل الأهواء في التوجه إلى الوسائط البدعية من دون الله تعالى ينجم عن ذلك توجه القلب إلى تلك الوسائط بالتذلل ، والتزلف ، والخضوع ، والخنوع ، والاستصغار ، والانكسار لغير الله تعالى ، وهكذا يصرف صاحب البدعة هذا النوع من العبادة لغير الله تعالى ، فيقع في التشبيه ، والشرك .

أما وقوعه في التشبيه فمن جهة أنه جعل الله – تعالى عن ذلك – بمثابة ملوك الدنيا الذين لا يستغنون عن الوسائط من الوزراء ، والمعينين ، فيلبون الطالبات ، ويقضون الحاجات بسببهم ، وبواسطتهم ؛ لحاجة هؤلاء الملوك إلى تلك الوسائط ، والأعوان ، وأما وقوعه في الشرك ، فمن جهة اعتقاده أن الواسطة الحي المنظور أو الميت المقبور يستطيع أن يجلب له منفعة ، أو يدفع عنه مضرة ، فتراه يتوجه إليه بالدعوات ، ويظهر الانكسار ، والتذلل له في جميع الحالات ، ويعلق به قلبه ، ويرمي بنفسه بين يديه لقضاء الحاجات ، وتحقيق الأمنيات (فكل مشرك فهو مشبه لإلهه ، ومعبوده بالله سبحانه ، وإن لم يشبهه به من كل وجه)[1] .

يقول المقريزي : (اعلم أن حقيقة الشرك : تشبيه الخالق بالمخلوق ، وتشبيه المخلوق بالخالق في خصائص الإلهية ، وهي التفرد بملك الضر ، والنفع ، والعطاء ، والمنع ، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق تعالى ، وسَوَّى بين التراب ، ورب الأرباب)[2] .

إن أعظم مسألة خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين هي مسألة

---

(١) بلوغ الأرب ٢/ ٢١٨ .

(٢) تجريد التوحيد المفيد ص ٢٧ .

الواسطة، فقد وجد المشركين يتعبدون الله بإشراك الصالحين في دعاء الله تعالى، وعبادته، ويرون ذلك نافعًا لهم، ويعدونه من تعظيم الصالحين، رجاء وساطتهم، وشفاعتهم عند الله تعالى، كما قال الله عنهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[1]، فجاء الرسول ﷺ بإخلاص العبادة لله تعالى، وخالف المشركين في إشراكهم الوسائط مع الله تعالى في دعائه، ورجائه، وهذه أعظم مسألة خالف فيها رسول الله ﷺ المشركين، وهي التي تفرق الناس من أجلها إلى مسلم موحد، وكافر مشرك[2].

وقد كان قصي بن كلاب ينهى عن عبادة غير الله تعالى من الأصنام، وينقض ما يعتقده المشركون من الوسائط الشركية، وهو القائل[3]:

أربًا واحدا أم ألف رب ... أدين إذا تقسمت الأمور؟!

تركت اللات والعزى جميعًا ... كذلك يفعل الرجل البصير

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمي بني غنم أزور

فطوائف أهل الأهواء التي أخطأت في فهم الواسطة، وابتدعت القول بالوسائط البدعية قد وقعت في الشرك، والعياذ بالله تعالى.

وهذه الطوائف: هي: الفلاسفة، والرافضة، والصوفية:

أما الفلاسفة: فلقولهم: إن العقول العشرة هي المدبرة للعالم، وإن الكواكب والهياكل، والروحانيات هي الواسطة بين الله تعالى، وخلقه[4].

وأما الرافضة: فتزعم أن الوسائط من أئمة أهل البيت خلقوا من نور قبل العالم، فهم محدقون بعرض الرحمن، ويزعمون أن الجزء الإلهي حل في علي رضي الله عنه والأئمة من بنيه، حتى رووا عنهم أنهم قالوا: (.. ولكن الله خلطنا بنفسه)[5].

وفرقة السبئية من غلاة الرافضة تعتقد ألوهية علي رضي الله عنه وتزعم أنه لم يمت، وسيرجع، وإنما قتل ابن ملجم شيطانًا تصور بصورته، وإنه في السحاب، والرعد صوته،

---

(١) سورة يونس الآية: ١٨.

(٢) انظر المسائل التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الجاهلية ١/ ٩٠، والحياة الدينية عند العرب بين الجاهلية والإسلام لمحمد حامد الناصر وأخرى ص ٤٥.

(٣) انظر الملل والنحل ٢/ ٢٤٨، والأصنام لابن الكلبي/ وبلوغ الأرب للألوسي ٢/ ٢٠٤.

(٤) راجع تعريف الفلاسفة للواسطة.

(٥) أصول الكافي ١/ ٤٤١.



والبرق سوطه، وعند سماع الرعد يقولون: عليك السلام يا أمير المؤمنين، إلى غير ذلك مما سبق بيانه من الغلو الفاضح، والشرك الواضح[١].

ومن أعظم صور التشبيه، والكفر الذي تزعمه الرافضة - والعياذ بالله - ادعاؤهم أن الله - تعالى عما يقولون الظالمون علوًا كبيرا - يزور قبر الحسين رضي الله عنه مع الملائكة، والنبيين، والمؤمنين[٢].

ومن صور الشرك الذي يطفح به تراث الرافضة قول الحافظ البرسي - يخاطب عليًا رضي الله عنه[٣]-:

أ نت الصراط المستقيـــ ـــم قسيم جنات الأرائـــك

والنار مفزعهـــا إليـــ ـــك وأنت مالك أمر مالك

وقال آخر من الغلاة أيضًا[٤]:

أبا حسن أنــت عيــن الإلــه وعنوان قدرتــه الساميــة

وأنت مدير رحــى الكائنــات ولك أبحارهــا الساميــة

لك الأمر إن شئت تحيي غدا وإن شئت تسفع بالناصية

واســمع إلى قــول ابن هـانئ الأندلسي[٥] يمدح الخليـفـة الفـاطمي المعـز لدين الله[٦] مصرحًا بالشرك والعياذ بالله[٧]:

ما شئـــتَ لا ما شـــاءتِ الأقـــدار فاحكـــم فأنـــتَ الواحـــد القهّار

شرفت بك الآفاق وانقسمت بك الأ رزاق والآجـــال والأعـــمـــــار

وأما غـلاة الصوفية: فبدأوا بالغلو الزائد، والإطراء المنهي عنه للنبي ﷺ فـزعـمـوا أن

(١) راجع المبحث المتقدم (نظرة الرافضة لأئمتهم ووسائطهم).

(٢) انظر دائرة المعارف للأعلمي الشيعي ١/ ١٨٩.

(٣) انظر مشارق أنوار اليقين للبرسي ص ٢٣٩.

(٤) راجع بقية الأبيات في هذه الرسالة.

(٥) هو أبو الحسن محمد بن هانئ الأزدي المهلبي الأندلسي شاعر عصره، ولد بإشبيلية، قال عنه الذهبي: وله ديوان كبير في مدائح تفضي به إلى الكفر، مات سنة ٣٦٢هـ. انظر سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٣١، ونفح الطيب ١/ ٢٩٣.

(٦) هو أبو تميم معد بن المنصور إسماعيل بن القائم العبيدي المهدوي المغربي الفاطمي المعز لدين الله، كان عنده تشيع زائد، مات بالقاهرة سنة ٣٦٥هـ. انظر سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٥٩، وشذرات الذهب ٣/ ٥٢.

(٧) انظر ابن هانئ الأندلسي متنبئ المغرب لأبي القاسم كرو ص ٧٣.



الله سبحانه وتعالى عن ذلك قبض قبضة من نوره فخلقه منه، وأنه سبق الكون في الوجود، وأن مظاهر هذا الكون - على تنوعها - انبجست من نور النبي ﷺ وخلقت من أجله إلى غير ذلك من الغلو الزائد، والاعتقاد الفاسد الذي مرمعنا في بيان نظرة الصوفية للرسول ﷺ.

يقول زعيم البريلوية: (إن كل مفاتيح الكون في يد رسول الله ﷺ وهو مالك الكل، والنائب الأكبر للقادر، وهو الذي يملك كلمة (كن)، وهو المبرئ من السقم، والآلام، والكاشف عن الأمة كل خطب، وهو المحيي، وهو الدافع عنهم المعضلات، والنافع للخلق، والرافع للمراتب، وهو الحافظ، والناصر، وهو الذي أبرد على الخليل النار، وهو الذي يهب، ويعطي)[1].

ومن نماذج الغلو في الرسول صلى الله عليه وسلم الموقعة في الشرك - والعياذ بالله - قول البرعي[2]:

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي ... في كل هول من الأهوال ألقاه

إن كان زارك قوم لم أر معهم ... فإن عبدك عاقته خطاياه

وقول الآخر[3]:

يا رسول الإله إني ضعيف ... فاشفني أنت مصدر للشفاء

يا رسول الإله إن لم تغثني ... فإلى من ترى يكون التجائي؟

ثم انتقل الصوفية ثانيا من الغلو في الرسول ﷺ إلى الغلو في الوسائط من الأولياء، والشيوخ الذين يعتقدون فيهم القدرة على التصرف في الكون، وإجابة دعاء المستغيثين، وكشف الضر عن البائسين المضطرين.

ونلاحظ اتفاق الاتباع مع المتبوعين في هذه الاعتقادات الفاسدة، والأقوال الشركية الكاسدة، ومن نماذج الحكايات الصوفية الصارخة بالشرك - والعياذ بالله - ما يحكى عن أحدهم أنه قال: (دعوت الله ست سنوات أن يرزقني الولد، فلم أرزق، وذهبت إلى

---

(١) الاستمداد على أجياد الارتداد للبريلوي ص ٢٩، نقلاً عن البريلوية لإحسان إلهي ظهير ص ٦٨، وانظر محبة الرسول صلى الله عليه وسلم بين الاتباع والابتداع ص ٢٠٤.

(٢) انظر ديوانه ص ١٤.

(٣) هذان البيتان لشمس الدين التنوجي المصري. انظر شواهد الحق ص ٣٥٢.



شيخي مصطفى النقشبندي في أربيل، فما أن استغثت به، وطلبت منه الولد حتى رزقت بطفلين توأمين!!)[1] . ونقل الألوسي عن بعضهم أنه كان يقول: (الولي أسرع إجابة من الله عز وجل!!)[2] ، وهل بعد هذا شرك، أو كفر؟ .

وذكر الشعراني أن سيدي محمة الحنفي فرش سجادته على البحر، وقال لم ريده: قل يا حنفي، وامش، فمشى المريد خلفه، ثم خطر للمريد لم يقول: يا حنفي، هلا قال: يا الله؟ فلما قالها غرق فأمسك الشيخ بيده، وقال له - معاتبًا: أنت الحنفي تعرفه، فكيف بالله؟ فإذا عرفت الله، فقل: يا الله!!!![3] .

وحكى الشيخ الميلي أن أحد هؤلاء الوسائط المعروفين بالولاية عند أتباعه كان مرة مع مريديه في سفينة، فهاج بهم البحر، وعلت أمواجه، فلجأوا جميعًا إلى الله يسألونه الفرج، والسلامة، وكان الشيخ - الواسطة - منفردًا كالعادة في غرفة يدعو، فلم تنفرج الأزمة، فوقع في رُوعه أنه أتي من قبل أتباعه فخرج عليهم مغضبًا، وهو يقول: ماذا صنعتم في هذه الشدة؟ فقالوا: دعونا الله مخلصين له الدين بلسان المضطرين، فأنكر عليهم اللجوء إلى الله مباشرة، ووبخهم على فعلهم، وعرفهم أن ذلك هو الحائل دون استجابة دعائه، وأنذرهم عاقبة استمدادهم في التوجه إلى ربهم، وأنه الغرق، وعلمهم أن واجبهم هو التوجه إليه هو، وسؤاله؛ لأنه واسطتهم، ثم هو وحده يتوجه رلى الله تعالى، فتابوا من دعاء الله عز وجل، وتوجهوا إلى الشيخ الواسطة بالدعاء، وعاد الشيخ إلى غرفته يدعو - متوسطًا بين الله، ومريديه - فانكشفت الغمة وسلمت السفينة، وحمد الشيخ ثقته بنفسه، وتأكد عند مريديه صحة وساطته في الرخاء، والشدة!![4] .

وقال أحد الوسائط: (يا رياح اسكني عليهم بقدرتي)[5] .

وقال أحد كبرائهم يخاطب أتباعه في مرض موته: (من كانت له حاجة فليأت إلي قبري، ويطلب حاجته أقضها له؛ فإن ما بيني وبينكم غير ذراع من تراب، وكل رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب فليس برجل)[6] .

وقال شيخ التجانية لأتباعه: (ليس لأحد من الرجال أن يُدْخل كافة أصحابة الجنة بغير

---

(١) دمعة على التوحيد ص ٦٣ .
(٢) تفسير الألوسي ٢٤/ ١١ .
(٣) انظر شواهد الحق ص ٤٤٧ .
(٤) انظر رسالة الشرك للميلي ص ١٩٦ .
(٥) جواهر المعاني ٢/ ٨٠ .
(٦) الطبقات الكبرى للشعراني ٢/ ٩٦ .



حساب، ولا عقاب، ولو عملوا من الذنوب ما عملوا، ولو بلغوا من المعاصي ما بلغوا إلا أنا وحدي)[١] .

وذكروا أن الشيخ رزوق كان يقول لمريديه[٢] :

أنا لمريدي جامع لشتاته إذا ما سطا جَوْر الزمان بِنَكبة
وإن كنتَ في ضيقٍ وكربٍ ووَحْشَةٍ فنادِ بيا زَرُّوقُ آتِ بسرعةِ

وقنل الشعراني في طبقاته عن الشاذلي أنه قال: (رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: إذا كانت لك حاجة، وأردت قضاءها، فانذر لنفيسة الطاهرة فلسًا؛ فإن حاجتك تقضرى)[٣] . وحتى في حالة الخوف الشديد من العدو يقول قائلهم[٤] :

يا خئفين من التتر لوذوا بقبر أبي عمرْ

ويقول الدباغ: (إن المريد لا يأتي بشيء، حتى لا يكون في قلبه غير الشيخ! والله! والرسول!)[٥] .

وانظر إلى هذه المحبة الثلاثية، ولاحظ تقديم الشيخ الواسطة في الذكر على رب العزة، والجلال، وعلى نبيه المصطفى ﷺ !!!

وهكذا انتشر - بسبب الاعتقاد في الوسائط البدعية - الشرك في أوساط الناس، وخصوصًا العوام منهم، حتى أصبح مألوفًا أن تسمع في نواح كثيرة من العالم الإسلامي من يخاطب المقبورين قائلاً: (مدد يا سيدي فلان، نظرة إلينا بعين الرضا، راعني، آنا محسوبك، ويقول: ملعون ابن ملعون من كان في شدة، أو في ضيق، ولم يقل: يا ست، أو يا سيدي، وهذا هو عين الشرك الأكبر)[٦] إلى غير ذلك من الأقوال الشركية، والدعوات البدعية إلى التعلق بالوسائط، والانقطاع بهم عن الله تعالى - كما بيناه مستوفى في صورة الواسطة البدعية عندهم في الأحياء، وصورة الواسطة البدعية عندهم في الأموات.

---

(١) جواهر المعاني ١٧٦٢ .

(٢) انظر روض الرياحين لعبد السميع الديوبندي ص ٢٠٦، نقلاً عن جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ٢/ ١٠٨٧ .

(٣) الطبقات الكبرى ٢/ ٧٤.

(٤) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ٢/ ٧٣٢.

(٥) الإبريز ص ٣١.

(٦) السنن والمبتدعات ص ١٦، وانظر الرسائل السلفية للشوكاني ص ١٧٢، والرسالة الخالدة ص ٢٤، والديانات والعقائد في مختلف العصور لأحمد عبدالغفور عطار ١/ ٧٤.



وانتشر شرك التقريب بهذه الوسائط المزعومة، وضرب الشرك الأكبر بجرانه[١] على السواد الأعظم من المسلمين، حتى إن الباحث في العقيدة في هذه الحقبة يخيل إليه أن عقيدة التوحيد قد قضي عليها تماماً[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فكل من غلا في حي، أوف ي رجل صالح، كمثل علي رضي الله عنه أو عُدَي[٣] .. أو نحوه، أو في من يعتقد فيه الصلاح كالحلاج... وجعل فيه نوعًا من الإلهية، مثل أن يقول: كل رزق لا يرزقنيه الشيخ فلان ما أريده، أو يقول إذا ذبح شاة: باسم سيدي أو يعبده بالسجود له، أو لغيره، أو يدعوه من دون الله تعالى: مثل أن يقول: يا سيدي فلان اغفر لي، أو ارحمني، أو انصرني، أو ارزقني، أو أغثني، أو أجرني، أو توكلت عليك، أو أنت حسبي، أو أنا في حسبك، أو نحو، هذه الأقوال، والأفعال التي هي من خصائص الربوبية التي لا تصلح إلا لله تعالى، فكل هذا شرك، وضلال، يستتاب صاحبه؛ فإن تاب، وإلا قتل، فإن الله إنما أرسل الرسل، وأنزل الكتب لنعبد الله وحده، لا شريك له، ولا نجعل مع الله إلهًا آخر)[٤].

ونجد أنواعًا كثيرة من صور الشرك يذكرها بعض العلماء هي نتيجة حتمية، وأثر سيء للاعتقاد في الواسطة البدعية، يقول العلامة ابن القيم: (ومن أنواع الشرك سجود المريد للشيخ، فإنه شرك من الساجد، والمسجود له... ومن أنواعه ركوع المتعممين بعضهم لبعض عند الملاقاة... ومن أنواعه حلق الرأس للشيخ؛ فإنه تعبد لغير الله ... ومن أنواعه التوبة للشيخ؛ فإنه شرك عظيم؛ فإن التوبة لا تكون إلا لله .. ومن أنواعه طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم)[٥].

فاتخاذ الواسطة البدعية شرك بالله تعالى؛ لأن التابع يسأل الواسطة نفسه، ويطلب منه ويرجوه، ومتخذ الشفيع، والواسطة على هذا الوجه مشرك لا تنفعه شفاعته، ولا

---

(١) الجران - في الأصل - مقدم عنق البعير، فإذا برك من عنقه على الأرض. انظر المصباح المنير ١/ ٩٧ مادة الجرن.

(٢) انظر الانحدافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين لعلي بخيت الزهراني ١/ ٢٧١.

(٣) هو أبو محمد عُدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى الشامي ثم الهكاري، كان معلمًا للخير ناصحًا متشرعًا، قال عنه الذهبي: الشيخ الإمام الصالح القدون زاهد وقته، توفي سنة ٥٥٥هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٤٢، وجامع كرامات الأولياء ٢/ ١٤٧.

(٤) مجموع الفتاوى ٣/ ٣٩٥.

(٥) مدارج السالكين ١/ ٣٤٤.



وساطته[1] .

وفي هذا التوجيه بالدعاء إلى الواسطة تشبيه للمخلوق بالخالق : (لأن الدعاء من خصائص الإلهية فمن صرفه لغير الله تعالى فقد أعطى خصيصة من أهم خصائص الإلهية لغير الله تعالى ، فيكون قد شبه الغير بمن لا شبيه له)[2] .

يقول الشيخ حافظ الحكمي[3] رحمه الله[4] :

وإن دعا المقبور نفسه فقد ... أشرك بالله العظيم وجحد

لن يقبل الله تعالى منه ... صرفا ولا عدلاً فيعفو عنه

إذ كل ذنب موشك الغفران ... إلا اتخاذ الند للرحمن

وقد بين العلامة ابن القيم الترج الذي يسلكه الشيطان مع عباد القبور ، والمتعلقين بالواسطة المقبور ، حتى يوقعهم في مستنقع الشرك - والعياذ بالله - فقال : (والمقصود أن الشيطان بلطف كيده - يحسن الدعاء عند القبر ، وأنه أرجح منه في بيته ، ومسجده ، وأوقات الأسحار ، فإذا تقرر ذلك عنده نقله درجة أخرى من الدعاء عنده إلى الدعاء به ، والإقسام على الله به ، وهذا أعظم من الذي قبله ، فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه . . . . فإذا قرر الشيطان عنده أن الإقسام على الله به ، والدعاء به أبلغ في تعظيمه واحترامه ، وأنجح في قضاء حاجته نقله درجته أخرى إلى دعائه نفسه من دون الله ، ثم ينقله بعد ذلك درجة إلى أن يتخذ قبره وثنًا يعكف عليه ، ويوقد عليه القنديل ، ويعلق عليه الستور ، ويبني عليه المسجد ، ويعبده بالسجود له ، والطواف به ، وتقبيله ، واستلامه ، والحج إليه ، والذبح عنده ، ثم ينقله درجة أخرى إلى دعاء الناس إلى عبادته ، واتخاذه عيداً ، ومنسكًا ، وأن ذلك أنفع لهم في دنياهم وآخرتهم)[5] .

---

(١) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ١٤٦ ، وإغاثة اللهفان ١/ ٢٢١ ، ومعارج القبول للحكمي ٢/ ٦٧٧ ، وفتح المجيد ص ٢٢٢ ، وأصول الدين عند أبي حنيفة للدكتور محمد بن عبدالرحمن الخميِّس ص ٢٥٦ .

(٢) الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية ١/ ٤٣٤ .

(٣) هو : الشيخ العلامة حافظ بن أحمد بن علي الحكمي ، ولد بقرية السلام بجنوب جازان سنة ١٣٤٢ ، وطلب العلم على يدي الشيخ عبدالله القرعاوي ، وكان مبرزاً في كثير من الفنون ، أديبًا يقول الشعر ، توفي سنة ١٣٧٧هـ . بمكة المكرمة ، انظر ترجمته بقلم ابنه د/ أحمد بن حافظ الحكمي في مقدمة تحقيق أعلام السنة المنشورة ص١٥ .

(٤) انظر معارج القبول ٢/ ٦٥٦ .

(٥) إغاثة اللهفان ١/ ٢٢١ ، وانظر تلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ١٤٦ ، ومعارج القبول للحكمي ٢/ ٦٧٧ .



وإذا لم يكن هذا الذي يعتقده غلاة الصوفية في الوسائط من الشيوخ شركًا فماذا نسميه إذن؟ (إنهم يتخذون الشيوخ آلهة، يعتقدون أنهم ينفعون، ويضرون، وأن بيدهم النجاة. . . كما رأينا من أقوال عارفيهم، وأقطابهم، وعلمائهم البراهين الكافية الوافية على أنهم يتخذون الشيخ إلهًا من دون الله، أو شريكًا معه، يسبغون عليه كل صفات الألوهية)[1] .

يقول الأستاذ عبدالرحمن الوكيل: (فالصوفية يعتقدون أن أولياءهم ليسوا بشرًا، وإنما هم آلهة تخلق ما تشاء، وتختار، أو هم - كما نقلنا لك من قبل - ذات الله سبحانه وتعالى تجسدت مرة فكانت تجانية، وأخرى فكانت نقشبندية، وأخرى فكانت رفاعية، وأخرى فكانت برهانية)[2] .

ونتيجة للواسطة البدعية فإن أهل الأهواء يقعون في شرك يفوق شرك أهل الجاهلية الأولى؛ ذلك أنهم يقعون في الشرك في حالي الرخاء، والشدة، أما الأقدمون فإنما كان شركهم في حال الرخاء، فإذا أصابتهم شدة إذا هم يخلصون. قال الله تعالى عنهم: ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ**﴾[3] ، وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ**﴾[4] .

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: (إن الله ذم الكفار، وعابهم بأنهم في وقت الشدائد والأهوال خاصة يخلصون العبادة له وحده، ولا يصرفون شيئًا من حقه لمخلوق، وفي وقت الأمن، والعافية يشركون به غيره في حقوقه الواجبة له وحده التي هي عبادته وحده في جميع أنواع العبادة، ويعلم من ذلك أن بعض جهلة المتسمين باسم الإسلام أسوأ حالاً من عبدة الأوثان؛ فإنهم إذا دهمتهم الشدائد، وغشيتهم الأهوال، والكروب التجأوا إلى غير الله ممن يعتقدون فيه الصلاح في الوقت الذي يخلص في الكفار العبادة لله مع أن الله الله جل وعلا أوضح في غير موضع أن إجابة المضطر، وإنجائه من الكروب من حقوقه التي لا يشاركه فيها غيره)[5] .

---

(١) الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٦٠٣ .

(٢) هذه هي الصوفية ص ١٠٢ ، وانظر تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ١/ ١٧٩ .

(٣) سورة العنكبوت ، الآية: ٦٥ . (٤) سورة لقمان، الآية: ٣٢ .

(٥) أضواء البيان ٣/ ٤٤٧ ، وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٤ ، وتفسير الألوسي ٢٣/ ٢٤٤ ، وتفسير السعدي ٦/ ٣ ، ورسالة الشرك للميلي ص ١٩٦ .



ولا ريب أن التوحيد، والشرك لا يجتمعان في قلب واحد أبدًا، فالمرء إما أن يكون موحدًا لله تعالى معلقًا به قلبه، لا ينظر إلى واسطة بدعية، ولا يلتفت إلى وسيلة وهمية، قلبه خالص، مصفى لله تعالي، وأما إن شابه تعلق بالوسائط البدعةي، فقد انتقض إخلاصه، ووقع في الشرك؛ لأن (كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عما يشوبه، وخلص منه كان خالصًا، ويسمى الفعل الملخص المصفى إخلاصًا... والإخلاص يضاد الإشراك، فمن ليس مخلصًا فهو مشرك)[١].

والحقيقة المرة أن الشرك قد انتشر بسبب الاعتقاد في الواسطة البدعية، وعمت به البلوى، وأصبح في كل بلد - إلا ما رحم ربي - مقبور يتوجه إليه الناس بالدعاء، والرجاء، وصنوف القربات، والعبادات[٢].

يقول أحد الدعاة متبرمًا من هذا الواقع المر: (اعلم أن الشرك قد شاع في الناس في هذا الزمان، وانتشر، وأصبح التوحيد الخالص غريبًا، ولكن معظم الناس لا يعرفون معنى الشرك، ويدعون الإيمان، مع أنهم قد تورطوا في الشرك وتلوثوا به)[٣].

واعلم أن الشرك الذي وقع فيه أهل الأهواء والبدع، بسبب الاعتقاد الفاسد في الوسائط الوهمية نوعان:

أ- شرك الأسباب: وهو اعتقاد النفع، والضر في الأسباب العادية، وهذا الشرك وقع فيه الفلاسفة، والطبائعيون ومن شاكلهم، فمن قال: إن الأسباب العادية تؤثر بنفسها، فقد حكي الإجماع على كفره، ومن قال: إنها تؤثر بقوة أودعها الله فيها فهو فاسق.

ب- وشرك التقريب: وهو عبادة غير الله للتقرب إلى الله، وهذا الشرك وقع فيه غلاة الرافضة، والصوفية، وحكمه الكفر بإجماع[٤].

---

(١) تصفية القلوب للإمام يحيى بن حمزة اليماني ص ٣٤٣.

(٢) انظر الدين الخالص لصديق حسن خان ١/ ١٩١، وقرة عيون الموحدين للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ص ١٠٦، والقول الجلي في حكم التوسل بالنبي والولي ص ٣٢، والسيد صديق حسن خان القنوجي وآراؤه الاعتقادية للدكتور أختر لقمان ص ٢٣٦، ودمعة على التوحيد ص ٥٩.

(٣) رسالة التوحيد للندوي نقلاً عن بيان الشرك ووسائله عند الحنفية للدكتور محمد الخميس ص٣٩.

(٤) انظر الكليات للكفوي ٣/ ٧١، ومجالس الأبرار لأحمد الرومي ص ١٥٠، نقلاً عن بيان الشرك ووسائله عند الحنفية ص١٧، ورسالة الشرك ومظاهره للميلي ص٦٦.



(اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك، وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم).

وبعد أن رأينا كيف لبس إبليس اللعين على أهل الأهواء في فهم الواسطة حتى أوقعهم في وحَلٍ من الشرك، لا يسعنا إلا نتمثل قول الشاعر[1]:

إذا عدَّد الناس أربابهم فنحن لنا ربنا الواحد

---

(١) هذا البيت للشاعر عبدالرحمن العشماوي، انظر ديوانه.



المبحث الثاني

الحَيْرة والشك والضياع

من آثار منهج أهل الأهواء في تقريرهم للواسطة الوقوع في الحيرة، والشك، والضياع، وهذا الأثر نتيجة حتمية لكل من أعرض عن الوحيين في إثبات المسائل الاعتقادية، وخصوصًا فيما يتعلق بالواسطة، من وجهين:

أولهما: أنه في حكم التارك لكلام الله وراءه ظهريًا، والمعرض عن ذكر ربه سويًا: **﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾**[(١)]؛ لأنه صرح بالنهي عن التعلق بالوسائط البدعية في قوله تعالى: **﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾**[(٢)]، ثم هو في حكم المطرِّح لسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم وهي القسم الثاني من الوحي: **﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾**[(٣)].

وثانيهما: أنه تعلق بفقير ليغنيه، وأمسك بحبل مقطوع ليوصله. فبسبب إعراضه عن الوحيين، وتعلقه بوسائط الوهم، والمين[(٤)] يعاقبه الله تعالى بالحيرة، والشك، والضياع، فتجتاله الشياطين كما قال تعالى: **﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾**[(٥)].

فمنهج أهل السنة القائم على التقيد بالكتاب والسنة ينفي كل شبهة، وغبض[(٦)] حول مفهوم الواسطة، واقتصارهم على الثابت من الواسطة في القرآن، والسنة، وتفريقهم بين ما هو حق للخالق جل وعلا وما هو حق للمخلوق أورثهم الطمأنينة، والثبات في العقيدة؛ بينما نجد أن طريقة أهل الأهواء في إثبات الواسطة كانت فاسدة بسبب خروجهم عن دائرة الكتاب والسنة في فهم الواسطة مما أورثهم الحيرة التي تحمل في طياتها كثيرًا من

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٢. (٢) سورة يونس، الآيتان (١٠٦ ـ ١٠٧).

(٣) سورة النجم، الآية: ٤.

(٤) المين: الكذب، وجمعه: مُيون. انظر مختار الصحاح ص ٦٤١، مادة (م ي ن).

(٥) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.

(٦) الغبش، فتحتين «ظلمة الليل، والمراد بن الشوائب، والمكدرات. انظر مختار الصحاح ص ٤٦٨، مادة (غ ب ش).



الشبهات، كما أورثتهم القلق، والشك في أمر هذه الوسائط البدعية: هل هي نافعتهم حقًا، أم أن الأمر بيد الله الذي يؤمنون بأنه هو الخالق لتلك الوسائط التي يثبتونها؟ ونتيجة لهذه الحيرة، والشك، والقلق ورثوا التمزق النفسي، والضياع في نهاية الأمر.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1].

قال الإمام ابن كثير: (هذا مثل من أجاب الآلة التي تعبد من دون الله عز وجل)[2].

وقال الشيخ السعدي: (وهذا حال الناس كلهم إلا من عصمه الله تعالى فإنهم يجدون فيهم جواذب، ودواعي متعارضة، دواعي الرسالة والعقل الصحيح، والفطرة المستقيمة: ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾، والصعود إلى أعلى عليين، ودواعي الشيطان، ومن سلك مسلكه، والنفس الأمارة بالسوء يدعونه إلى الضلال، والنزول إلى أسفل سافلين، فمن الناس من يكون مع دواعي الهدى في أموره كلها، أو أغلبها، ومنهم من بالعكس من ذلك، ومنهم من يتساوى لديه الداعيات، ويتعارض عندهم الجاذبان، وفي هذا الموضع تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة)[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾[4].

يقول الشيخ السعدي في تفسير هذه الآيات: (فهذه حالة المعرض عن ذكر الله في الدنيا مع قرينه، وهو الضلال، والغي، وانقلاب الحقائق، وأما حاله إذا جاء ربه في الآخرة فهو شر الأحوال، وهو الندم، والتحسر، والحزن الذي لا يجبر مصابه، والتبري من قرينه)[5].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ

---

(١) سورة الأنعا، الآية: ٧١.
(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ١٥٠.
(٣) تفسير السعدي ٢/ ١٩٦.
(٤) سورة الزخرف، الآيات (٣٦ - ٣٧- ٣٨).
(٥) تفسير السعدي ٧/ ١٢١.



عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[١]. وقال الشيخ السعدي - عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾[٢]- قال: (فلذلك أشركوا به غيره، ورضوا بتناقض ما ذهبوا إليه على وجه الحيرة، والشك، لا على وجه البصيرة)[٣].

ولا يوقع في الحيرة، والتمزق النفسي، والضياع أعظم من التجاء الإنسان إلى ضعيف ليس بيده النفع فينفعه، ولا بيده الضر فيضره؛ بل إن ضرره أقرب إلى الإنسان من النفع، فيدور المبتدع مع هذه الواسطة البدعية في حلقة مفرغة، نهايتها تبدد الآمال، وتلاشي الأمنيات، قال الله عز وجل: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾[٤]، وأما أحسن قول الشاعر[٥]:

ومُشتت العزمات ينفق عُمره حيران لا ظَفَرٌ ولا إخفـــاق

فليس فوق إخفاق المشرك إخفاق، ولا مثل ضياع عمله ضياع. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾[٦].

يستفاد من هذه الآية أن دعاء الواسطة البدعية تترتب **عليه أمور خمسة:**

١- أنه لا أضل ممن يدعو غير الله تعالى.

٢- أن هذا المدعو - الواسطة - غافل عن دعاء الداعي غير عالم به.

٣- أن هذا التوسيط سبب لبغض المدعو للداعي، وعداوته له.

٤- أن تلك الدعوة عبادة للواسطة ، وإن لم تكن مقصودة.

٥- كفر الواسطة بتلك العبادة.

فهذه الأمور الخمسة هي السبب في ضلال، وضياع من يدعو الواسطة البدعية من دون الله تعالى[٧].

---

(١) سورة البقرة، الآيتان (١٦٦ ـ ١٦٧).
(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٥.
(٣) تفسير السعدي ٦/ ٨٢.
(٤) سورة الحج، الآيتان (١٢- ١٣).
(٥) انظر الفوائد ص ٥٥.
(٦) سورة الأحقاف، الآيتان (٥-٦).
(٧) انظر حاشية كتاب التوحيد للشيخ عبدالرحمن قاسم النجدي ص ١١٥.



ومما يدل على الحيرة ، والاضطراب، والتمزق النفسي ، والصراع الداخلي الذي يعيشه جهلة المسلمين الذي انخدعوا بزهد الصوفية ، وانخرطوا في نظام الزوايا الطرقية أنك تجد الواحد منهم يجمع بين المتناقضات ، ويؤلف بين المتضادات ، فتسمعه يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقرأ : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] ، ويقرأ : ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾[2] ، وإذا قيل له : إن فلانًا من الناس وقع في الشرك ، يتغير لونه ، ويحتد صوته ، فيوحد ربه ، ويخلص دينه ، ثم تراه يدخل الزاوية ، فيكسر قلبه لشيخها إن كان حيًا ، ويتذلل له ، وينحني أمامه طلبًا من الشيخ أن يباركه ، ورجاء لكل خير أن يدركه ، وإن كان الشيخ مقبوراً تحت الثرى ، فالأمر أدهى مما ترى ، (فتجتمع في ذات واحدة دواعي الضعف ، والقوة ، وتظهر على نفس واحدة أعراض التفرق والوحدة ، ويجري من لسان واحد أجاج الجهل ، وعذب الحكمة ، ثم تجد الناحية الفاسدة من يتعاهدها بالفساد ، حتى تطغى ، وتفقد الجهة الصالحة من يغذيها فتفنى)[3] .

فانظر إلى مجتمع تكون فيه هذه الفوضى العقدية ، وتنتشر فيه تلك المظاهر الشركية كيف يكون وصفه؟ فضلاً عما يحصل من المتبوعين لأولئك الأتباع من المصادمات ، وما يستلزمه واقعهم من الحيرة ، والتمزق ، والضياع ، وحسبك أن تدير رأسك ناحية بلاد المسلمين التي ابتلي أهلها بالخضوع لهذه الوسائط البدعية ، وهي كثيرة لتعرف الأثر السيء ، والصراع النفسي ، والحيرة ، والضياع الذي يعيشونه نتيجة الاعتقاد في الواسطة البدعية[4] .

(والمقصود أن الدعاوى كثيرة عندهم في هذا الباب ، ولا ريب أن من أعد نفسه للاعتقاد ، والإيمان بكل ما ينشر في هذا الفكر فسوف يجد نفسه محاطًا بعدد كبير من الأرباب ، والآلهة كل يدعو إلى نفسه ، وفي ذلك من أسباب الحيرة ، والدهشة ، والشقاوة ما لا يزول إلا بالعودة الصادقة إلى كتاب الله ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والتمسك بهما عقيدة راسخة وعملاً بالصالحات ، وسلوكًا إلى طريق الخيرات ، وبذلك فقط ينزاح الشك ، وينجلي الريب ، وتنحسر الحيرة ، والمرية ، وتضمحل الدهشة ، والشقاوة)[5] .

---

(١) سورة الفاتحة ، الآية : ٥ .
(٢) سورة الجن ، الآية : ١٨ .
(٣) رسالة الشرك للميلي ص ٥٣ .
(٤) انظر الغلو في الدين للدكتور علي الشبل ص١١٥ .
(٥) تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ١/ ١٨٢ .

واعلم أن الشك، والضياع، والحيرة يشترك فيها أهل الأهواء من الرافضة، والصوفية مع أهل الكلام بسبب بعدهم عن الوحي، وخروجهم عن منهاج السلف في العقيدة يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وتجد عامة هؤلاء الخارجين عن منهاج السلف من المتكلمين، والمتصوفة يعترفون بذلك، إما عند الموت، وإما قبل الموت، والحكايات في هذا كثيرة مشهورة)[(١)].

وقد وصف الإمام الطحاوي - رحمه الله -[(٢)] المتكلم الذي قدم العقل على الوحي - ويدخل في حكمه من خرج عن منهج الكتاب والسنة في فهم الواسطة - وصفه بقوله: (فيتذبذب بين الكفر، والإيمان، والتصديق، والتكذيب، والإقرار، والإنكار، مُوَسْوَسًا، تائهًا، شاكًا، لا مؤمنًا مصدقًا، ولا جاحدًا مكذبًا)[(٣)]. وهذه هي الحيرة الضارة؛ لأنه لا خيرة مثل الحيرة في الدين[(٤)].

فالحيرة هي نهاية مطاف المتكلمين، وغلاة الصوفية؛ لأن غاية المتكلمين الشك، وغايةالصوفية الشطح[(٥)]، وقد قال شاعرهم[(٦)]:

قد تحيرتُ فيكَ خذ بيد   يا دليلاً لمن تحير فيـــه

ولبيان حيرة المتكلمين، وحكم أساطينهم على أنفسهم بالشك في نهاية أمرهم أورد أمثلة على ذلك ليتضح اشتراكهم مع أهل الأهواء المتعلقين بالواسطة البدعية في الحيرة. يقول أحدهم: (أستلقي على قفاي، وأضع الملحفة على نصف وجهي، ثم أذكر المقالات، وحجج هؤلاء، وهؤلاء، واعتراض هؤلاء، وهؤلاء، حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي شيء)[(٧)].

وقال العلامة ابن القيم: (وقال آخر - وقد نزلت به نازلة من سلطانه فاستغاث برب الفلاسفة فلم يغث - قال: ثم استغثت برب الجهمية فلم يغني، ثم استغثت برب القدرية

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ٧٢.

(٢) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبدالملك الأزدي المصري الطحاوي الحنفي، الإمام العلامة، الحافظ، محدث الديار المصرية، ولد سنة ٢٣٩هـ، قال عنه الذهبي: كان ثقة، ثبتًا، فقيهًا، عاقلاً، لم يخلف مثله، توفي سنة ٣٢١هـ. انظر وفيات الأعيان ١/ ٧١، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٧، وشذرات الذهب ٢/ ٢٨٨.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٠٩.

(٤) انظر تفسير الفخر الرازي.

(٥) انظر درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٦٦.

(٦) نقله شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ١١/ ٣٨٣.

(٧) انظر مجموع الفتاوى ٤/ ٢٠٩، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٠٩.

فلم يغثني، ثم استغثت برب المعتزلة فلم يغثني، قال: فاستغثت برب العامة فأغاثني)[١].

وهذا أبو الفتح الشهرستاني من كبار متكلمي الأشاعرة يقول[٢]:

لقد طفت المعاهـد كلهـا ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعًا كفَّ حائرٍ ... على ذقنٍ أو قارعًا سنَّ نـادم

وهذا أبو عبدالله الفخر الرازي ينشد قائلا[٣]:

نهاية إقـدام العقـول عقـال ... وأكثر سعي العالمين ضـلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبـال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

ثم قال: (لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن . . . ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي)[٤].

والمقصود أن الحيارى من أهل الأهواء والبدع طلبوا من الوسائط أني يهدوهم لشعائر الطريق، ويصلوا بهم إلى بر الطمأنينة، والأمان، فانحرفوا بهم عن جادة القصد ليزدادوا حيرة، وضياعًا، والتمسوا لديهم الحقيقة الضائعة، فزادت الحقيقة على أيديهم بعدًا، وضياعًا، واتخذوهم وسيلة لتصحيح العقيدة، والشريعة فهدموا العقيدة، والشريعة في قلوب المريدين[٥]. نعوذ بالله من الشك، والضياع، والحيرة، والحور بعد الكور.

---

(١) الصواعق المنزلة ١/ ٧١.

(٢) انظر نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني ص ٤.

(٣) انظر مجموع الفتاوى ٤/ ٧٢، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٠٨.

(٤) درء تعارض العقل والنقل ١/ ١٦٠، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٠٩.

(٥) انظر نظرية الاتصال عند الصوفية ص ٢٨٩، والبرهان الساطع في تبرؤ المتبوع من التابع ص ١٦.



المبحث الثالث

الذلة والانكسار لغير الله تعالى

من آثار الواسطة البدعية الذلة، والانكسار لهذه الواسطة، وذلك نتيجة لتعلق المريد بشيخه في الاستمداد منه، والاعتماد عليه.

يقول الأستاذ علي الرحمن الوكيل: (ما ألحفت الصوفية في شيء إلحافها في الدعوة إلى اتخاذ شيوخها أربابًا من دون الله، ففرضت على الدرويش أن يكون وطاء ذليلاً لشيخه، مستعبد الفكر، سليب الإرادة كجثة الميت في يد الغاسل، وجعلت هذه العبودية الممتهنة أولى الدلائل على طاعة المريد لشيخه، وعلى حبه له، وعلى أنه يرقى معارج الوصول إلى حظائر القدس.... وتحتم الصوفية على المريد أن لا يعصي شيخه في أمر، أو نهي، وإن رآه يخالف السنة المحمدية، ولكي يظل الدرويش تحت قبضة الشيخ يستذل كامته ويغصبه ماله، وعرضه، قررت الصوفية على لسان الشعراني - أن من أشرك بشيخه شيخًا آخر وقع في الشرك بالله، وأن من أخذ الطريقة على غير شيخه كان على غير دين، وكتب الصوفية طافحة بمثل تلك المنكرات التي تهدر الكرامة، والقيم الإنسانية النبيلة، وتجعل من الإنسان لَقي[١] طريح الذل، والهوان، والصغار، موطئًا، مستعبدًا لكل نعل نجسة، باغية الوطء... وهذا سر ما ترى عليه الصوفية من انشطارها شطرين: شطر معبود، وآخر عابد)[٢].

وقد قررت الصوفية على لسان النبهاني، وغيره في صفة زيارة الأنبياء، والأولياء، والعلماء، والصلحاء، وكل من يتبرك بهم على زعمهم أن الزائر يأتي إليهم، ويتعين عليه قصد الأنبياء من الأماكن البعيدة، (فإذا جاء إليهم فليتصف بالذل، والانكسار، والمسكنة، والفقر، والحاجة، والاضطرار، والخضوع، ويحضر قلبه، وخاطره إليهم، وإلى مشاهدتهم بعين قلبه لا بعين بصره)[٣].

ومن آداب المريد مع شيخه - حسب قواعد الصوفية -: أن المريد يجب عليه أن لا يدخل على الشيخ الواسطة من غير إذن، ولا يقعد بين يديه رلا على طهارة، ظاهرًا

---

(١) اللقي: الشيء الملقى المطروح على الأرض. انظر المصباح المنير ٢/ ٥٥٨ مادة «لقيته».

(٢) هذه هي الصوفية ص ٩٩.

(٣) شواهد الحق، ص ٨٧.



وباطنًا، مسلمًا، مستسلمًا، متذللاً، كجلوس العبد بين يدي سيده، وإن رأى شيخه يخالف الشريعة فلا يعترض عليه، ولو في خاطره[١].

فالتأليف، والمحبة بين المريد، والشيخ هي الواسطة، وعلى قدر هذه الواسطة يكون سراية الحال من الشيخ إلى المريد[٢].

وهذا من القواعد العامة التي وضعها الصوفية لتربية المريدين، (وكلها تحوم حول الخضوع التام من المريد للشيخ، بحيث يتحول التلميذ المسكين إلى آلة جوفاء، تردد ما يقال لها بلا تفكير، ولا شخصية مستقلة؛ بل انقياد أعمى، وحتى تتم هذه التربية الذليلة ألزموهم بلبس معين، ومشية معينة، وشيخ معين، وطريقة معينة)[٣].

ومن صور الذلة، والانكسار للواسطة التي كان الشيوخ يطلبونها من أتباعهم المريدين، أن شيخًا غضب على أحد المريدين؛ لأنه جمع مالاً، وجالس بعض الكبراء، فطرده من طريقته، ولم يسمح له بالعودة إلا بعد أن يحلق لحيته، ويسود وجهه، ويركب حمارًا منكوسًا، ويُعرِّف بنفسه في الأزقة، والأسواق، كسرًا لنفسه[٤].

وقد جرت عادة الصوفية أن الشيخ إذا أراد من الحاضرين الانصراف أنه: (يقف قبل الجميع قرب الباب، ويمد يده، فيشرع الحاضرون بالخروج مارين أمام الشيخ، واحدًا بعد واحد يقبلون يده المقدسة، وقد يمرغون جباههم عليها، وقد يقبل بعضهم رجله؛ حيث يمدها الشيخ إلى الأمام، تكرمًا، ومنة، وعطفًا منه، وتفضلاً؛ ليُمكِّن المريد من تقبيلها، وتمريغ وجهه، وجبهته عليها)[٥].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأعرف منهم شخصًا كان معظمًا، وكان له حاجة إلى نصراني فذهب إليه، وخضع له، وقبل يده، ورجله، وربما قبل نعله حتى قضى حاجته، ثم جعل يقول: ما رأيت إلا الله، وما كان ذلك الخضوع، والتقبيل إلا لله عز وجل)[٦].

---

(١) انظر رماح حزب الرحيم مطبوع بهامش جواهر العاني ١/ ١٤٤.

(٢) انظر المرجع نفسه ١/ ١٦٥.

(٣) دراسات في ا الفرق الصوفية لمحمد العبدة وآخر ص ٧٨، نقلاً عن الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين لعلي بخيت الزهراني ١/ ٥٣٠.

(٤) انظر حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر لبعد الرزاق البيطان ٣/ ١٥٩٠، نقلاً عن الانحرافات العقدية والعلمية لعلي بخيت الزهراني ١/ ٥٣٥.

(٥) الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٣٤٦، وانظر مجلة المنار ١/ ٥٦١.

(٦) تلخيص كتاب الاستغاثة ١/ ٣٧٧.



ثم إن طلب البركة المنهوم الذي أصيب به أهل الأهواء بسبب بعدهم عن منهج الكتاب والسنة هو الذي تدرج بهم من التبرك بالوسائط المقدسين إلى التذلل أمامهم، والانكسار تعظيمًا لهم، وقد يصل الأمر ببعضهم إلى الركوع، والسجود لهؤلاء المعظمين، (وكل من تبرك بقبر، أو ضريح، أو مشهد، أو أي شيء له صلة بشخص مقدس عند المتبرك سواء كان ذلك التبرك بالتقبيل، أو الاستسلام، أو تمريغ الخد، والوجه، والجسم، فهو سالك مسلك عبدة الأصنام، مشرك بالله مبتدع في الدين ما لم ين . ل الله به سلطانا)[١].

ونتيجة لهذا الاعتقاد الفاسد في الواسطة، ولممارسات الشاذة من الاتباع للمتبوعين ظهرت هذه الشريحة الضعيفة في المجتمع التي تذل للحجر، والشجر، والأرواح، والأشباح، بكل خضوع، ومسكنة، فأصبحت (لا تستطيع أن تقف أمام الولاة والحكام الظالمين، تأمرهم بمعروف، أو تنهاهم عن منكر، فذلوا للحاكم الأغنياء، كما ذلوا للخُشُب، والأحجار، وما زال كل قرن يمر تزداد معه الآلهة عددًا، وتزداد النفوس ذلك حتى وصلت الحال بالأمة الإسلامية إلى فقد سيادتها، وانهيار عزتها، ولا يصلح آخر الإسلام إلا بما صلح به أوله، فلابد من العودة إلى الحياة الإسلامية الأولى؛ حيث التوحيد الصحيح، والعزة الحقة، ولابد من هدم هذه البدع، والخرافات باللين؛ إن نجح، وبالقوة إن لم ينجح، والله المستعان)[٢].

وبهذه التعاليم يشل الصوفية إرادة التابع، بحيث لا يبقى له من هذا الاسم إلا بمقدار توجه إرادته إلى متبوعه الواسطة، وتعظيمه، وتقديسه، والتذلل بين يديه، وفي هذا أعلى صورة لتعطيل الفكر، وتخدير الإرادة، وشلل العقل، حيث يصبح المريد بين يدي الواسطة كالميت بين يدي غاسله[٣] كما قالوا:

وكن عنده كالميت عند مُغَسّل ... يقلبه ما شاء وهو مطـــاع

والذي تولى كبر هذه الأفعايل، والأباطيل هم شيوخ الصوفية، فأشاعوا بذلك روح الذل والخنوع بين المريدين، وقتلوا فيهم الأنفة، والإباء، والعزة، والكرامة، والرجولة، فخرجت في الأمة جماهير ذليلة قد استناخت للضيم، واستمرأت الهوان[٤].

---

(١) تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ٢/ ١٧٩.

(٢) زعماء الإصلاح في العصر الحديث لأحمد أمين ص ١٧.

(٣) انظر نظرية الاتصال عند الصوفية ص ٢٨٥.

(٤) انظر الانحرافات العقدية والعلمية لعلي بخيت الزهراني ١/ ٥٣٧.



وإظهار المذلة، والافتقار، والانكسار لغير الله اعتراف له بقدرته على قضاء الحوائج، وتحقيق الأماني، وهذا صرف لحق من حقوق الله تعالى لغيره من خلقه، وهو وسيلة للشرك، ومهواة عظيمة[١].

ولقبح هذا الصنيع فقد كان الإمام أحمد يقول في دعائه: (اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك، فصنه عن المسألة لغيرك)[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والعبد كلما كان أذل لله، وأعظم افتقارًا إليه، وخضوعًا له كان أقرب إليه، وأعزله، وأعظم لقدره، فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله، وأما المخلوق فكما قيل: احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظريه، وأحسن إلى من شئت تكن أميره)[٣].

وبين العلامة ابن القيم أن تذلل المبتدع عند القبر، وانكسار قلبه للمقبور، وإظهار مسكنته واضطراره من أقوى الشبهات التي أوقعت القبورية في الافتتان بالقبور، والتعلق بالمقبورين؛ وذلك أن الله قد يقضي حاجته، ويجيب دعوته لما قام بقلبه من الاضطرار، لا لوقوفه على القبر، ولا لأجل المقبور كما يعتقد أهل الأهواء[٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأين التوحيد للخالق بالرغبة إليه، والرجاء له، والتوكل عليه، والحب له، من الإشراك به بالرغبة إلى المخلوق، والرجاء له، والتوكل عليه، وأن يحب كما يحب الله؟ وأين صلاح العبد في عبودية الله، والذي له، والافتقار إليه، من فساده في عبودية المخلوق، والذل له، والافتقار إليه؟)[٥] فالتذلل للمخلوق، والاستعباد له مناقض لمقاصد رسالة الإسلام التي جاءت بعزة العبودية لله تعالى، وتحرير العقول، والأبدان من الاستعباد لغير الله تعالى من أشكال الوسائط البدعية، والطواغيت الشركية، وكل ما فيه مدعاة للوثنية[٦]. فمعنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) أنه ليس في هذا الكون واسطة، ولا معبود (جدير بأن يعبده الناس، ويسجدوا له بالطاعة، ويطأطئوا له رؤوسهم في العبادة، ويركنوا إليه عند الشدة، ويستعينوا به عند الحاجة إلا الله تعالى، فهي إذن يتلخص فيها الإيمان الكامل، والخضوع التام، والإقرار الصريح بأن العبودية لا تكون إلا لإله واحد دون سائر الآلهة الباطلة، فيتحقق بها التوحيد الحقيقي بشقيه: توحيد

---

(١) انظر نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي لابن عباس لابن رجب ص ٦٣.

(٢) المرجع نفسه والموضع بعينه. (٣) مجموع الفتاوى ١/ ٣٩، وانظر جلاء العينين ص ٥٥٧.

(٤) راجع ما تقدمت مناقشته من الشبهات. (٥) قاعدة جليلة ص ٧٤.

(٦) انظر التفسير القيم ص ١٩ هامش (١).



الألوهية، وتوحيد الربوبية)[١].

والمقصود أن الذلة من العبد، والانكسار من القلب هو روح العبودية، ومخها، فلا يجوز صرفها إلا لله تعالى، يقول العلامو ابن القيم: (إن عبودية التوبة فيها من الذل، والانكسار، والخضوع، والتملق لله، والتذلل له ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة؛ وإن زادت في القدر، والكمية على عبودية التوبة، فإن الذل، والانكسار روح العبودية، ومخصها، ولبها)[٢].

ولا نجد مظهراً لألوهية المعبود أكبر من أن نجد عابديه واقفين بين يديه، متذللين، منكسرين، ضارعين، خاضعين، خاشعين يلتمسون منه المدد، والمعونة، وهذا هو في الحقيقة ما نلاحظه عند الصوفية في زياراتهم للمقبورين[٣]، وما أحسن قول الشاعر[٤]:

نزِّه فؤادك من سوانا تَلْقَنَا　　　فجنا بنا حِلٌ لكل مُنَزِّهِ

وقال العلامة ابن القيم في نونيته - مبيناً حال المتذللين، والمنكسرين لغير الله تعالى[٥]:

هَرَبوا من الرق الذي خلقوا لــه　　　فبُلوا برق النفس والشيطــان

لا ترضَ ما اختاروا هم لنفوسهم　　　فقد ارتضوا بالذُّلِّ والحرمــان

فمتى كان المسلم بحاجة إلى من يأخذ بيده ليتوسط له عند ربه؟ ومتى كان ربنا محتجباً عن الضعفاء، والزمني، والغارقين في بحور المعصية؟ فهل في كتاب الله تعالى، أو في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ما يدل على ذلك؟ كلا! بل إن الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة طالما وضحت هذا الجانب، وأضاءت هذا الطريق، ومهدت هذا المنحنى الخطر الذي ضل بسببه كثير من أهل الجهل، والأهواء، والبدع؛ حيث ظنوا أن صاحب المعصية غير مؤهل لمناجاة الله، وطلب المغفرة منه، والرحمة، حتى يبحث عن وساطة مصقولة الباطن، نظيفة الظاهر، فيتشبث بها، ويتعلق بأذيالها، خاضعاً، متذللاً، منكسراً، كل ذلك لتأخذ بيده، حتى يغفر الله حوبته، ويقبل توبته!!

اللهم اجعل عزتنا في التذلل لك وحدك، وراحة قلوبنا في انكسارها لك لا لغيرك، ولا تجعل لسواك فينا نصيباً، يا رب العالمين.

---

(١) مقدمة تحقيق معنى لا إله إلا الله للزركشي تحقيق علي القرة داغي ص ٤٤.
(٢) مدارج السالكين ١/٢٩٨، وانظر تيسير العزيز الحميد ص ٦٦، والرد على شبهات المستعينين بغير الله تعالى ص ٤٧.
(٣) انظر دمعة على التوحيد ص ٢١٣.　　(٤) انظر الفوائد ص ٤٠.
(٥) انظر متن القصيدة النونية، ص ٣٠٨.

المبحث الرابع

ضياع العمل لتوزعه بين الوسائط

يتوجه أهل الأهواء إلى الوسائط البدعية، طلبًا لإنجاح الأمور، واستدفاعًا لوقوع محذور، فينجم عن ذلك أن النية تتجزأ إلى نيات، والعمل يتوزع بين تلك الوسائط، ويصير إلى شتات، ورذا أردت أن تعرف كيف يضيع عمل المبتدع، وما ووجه توزعه بين الوسائط فاسمع إلى ماي قوله إمام الرافضة الخميني، مصرحًا بهذه العقيدة الفاسدة: (فيتوسل بأولياء الأمراء، وخفراء الزمان، وشفعاء الإنس، والجان، يعني الرسول، والأئمة المعصومين، ويجعل تلك الذوات الشريفة شفيعًا، وواسطو؛ وحيث أن لكل يوم خفيرًا[1]، ومجيرًا، فيتعلق يوم السبت بالوجود المبارك الرسول صلى ا الله عليه وآله وسلم، ويوم الأحد لأمير المؤمنين رضي الله عنه، ويوم الإثنين للإمامين الهمامين السبطين رضي الله عنهما، ويوم الثلاثاء للخضرات: السجاد، والباقر، والصادق رحمهم الله، ويوم الأربعاء للحضرات: الكاظم، والرضا، والتقي، والنقي رحمهم الله، ويوم الخميس للعسكري رحمه الله، ويوم الجمعة لولي الأمر - عجل الله فرجه الشريف - ويسأل الحق تعالى رفع شر الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، بشفاعتهم؛ فإنهم مقربون لجناب القدس، المحارم لخلوة الأنس ويجعلهم وسائط في الائتمام، وقبول العبادات الناقصة، والمناسك غير اللائقة، فالحق تعالى كما جعل محمدًا، وأهل بيته وسائط الهداية... وعينهم الهداة لنا... فيرحم بشفاعتهم قصورنا، ويتمم نقصنا، ويقبل طاعتنا، وعباداتنا غير اللائقة)[2].

واسمع إلى تعليل أحد الصوفية لتوزيع العمل بين الوسائط؛ حيث يقول: (فلكل شيخ من أهل الله حضرة لا يشترك فيها معه غيره؛ لإذا ورد منها نور بأمر من الأمور التي ذكرناها، ونسب إلى غير تلك الحضرة من الحضرة الإلهية اغتاظ ذلك النور، وطار، ورجع رلى محله... فمن نسب نورًا إلى غير محله من الحضرة الإلهية فقد أساء الأدب في حضرة الحق، وكذب على الله، والحضرة لا تحتمل الكذب؛ فلذا يطرد، ويسلب،

---

(١) الخفير: المجير، والمانع، والاسم الخفرة: وهي الذمة انظر مختار الصحاح ص ١٨٢ مادة (خ ف ر).

(٢) الآداب المعنوية للصلاة للخميني ص ٥٦٩، نقلاً عن كتاب العلاقة بين التشيع والتصوف لفلاح بن أحمد ص ٣٦٣.



والعياذ بالله تعالى)[١].

ويقول الشيخ الواسطة الدباغ - عن نفسه عندما كان مريدًا في بداية سلم الولاية: (ألقى الله في قلبي التشوف إلى العبودية الخاصة، فجعلت أبحث عنها غاية البحث، فما سمعت بأحد يشيخه الناس، ويشيرون إليه بالولاية إذا ذهبت إليه وشيخته؛ فإذا شيخته ودمت على أواده مدة، يضيق صدري، ولا أرى زيادة، فأتركه، ثم أذهب إلى غيره فأشيخه، فيقع لي معه مثل ما وقع ما الأول، فأتركه، ثم أذهب إلى غيرهما فوقع لي ثمل ذلك، فبقيت متحيرًا في أمري من سنة تسع إلى سنة إحدى وعشرين، وكنت أبيت كل ليلة جمعة في ضريح الولي الصالح سيدي بن حرزهم، وكنت أقرأ البردة مع من يبين به حتى نختمها كل ليلة جمعة)[٢].

وقد يستغيث بعضهم بعدة وسائط فيقول: يا سيدي فلان، وفلان، وفلان، فمنهم من يخيل إليه أنه رأى وساطته في صورة إنسان، فيكلمه، ومنهم من يرى صورة لطائر، ومنهم من يرى صورة حيوان، وتكون الشياطين هي التي تتصور بتلك الصور؛ لأولئك المشركين الذي يدعون من دون الله آلهة أخرى، ويطلبون من هذه الوسائط مالا يطلب إلا من الله تعالى[٣]، (ومنهم من يزعم أن معبوده الأدنى يقربه إلى الأعلى الفوقاني، والفوقاني يقربه إلى من هو فوقه، حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه وتعالى، فتارة تكثر الوسائط، وتارة تقل)[٤]. وهذا التصور للوسائط البدعية هو نفسه تصور أهل الجاهلية لمعبوداتهم، ولكلك شيخ من هذه الوسائط المزعومة يوم معروف في شهر معلوم، يؤتى إليه من جميع النواحي لقضاء الحاجات، وتقديم العرائض والخطابات[٥].

ولا ريب أن توجه أهل الأهواء، والطرقيين كل إلى شيخه أو إمامه، وواسطته، سواء توجه إليه طالبًا منه التوسيط، أو انقطع إليه بالعبادة، والدعاء، والاستمداد؛ فإنه يشبه بهذا التوجه الشعوب البدائية التي كانت تتيه في ظلام الجهل؛ حيث توجهت هذه الشعوب - لبعدها عن ضياء الوحي، وأنوار الرسالات السماوية - بالعبادة إلى بعض مظاهر الكون فبعدت الشمس، والقمر، وعبدت الإنسان، والبقرة، والفيل، وسجد كل شعب لماي ظن

(١) ميزاب الرحمة الربانية ص ٣٣. (٢) الإبريز ص ٨.
(٣) انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ٢/ ٦٢٦، ودمعة على التوحيد ص ١٠٩.
(٤) تجريد التوحيد المفيد ص ٢٦.
(٥) نقله عن بعضهم الشيخ حمد بن ناصر آل معمر. انظر النبذة الشريفة في الرد على المقبورين ص ١٤٩.



أنه الممثل الأكبر لخالق هذا العالم[1]. وهكذا كانت قدماء اليونان الوثنية لتعدد الآلهة، (فنسبوا لمظاهر الطبيعة صفات الألوهية، وعبدوها من دون الله، فللبحر إله، وللخصب إله، وللرعد، والعواصف إله، وللحب إله، وللجمال إله، حتى إن الآلهة العديدة التي اعتقدوها سلبت الإنسان كل سلطان فما هو إلا ذرة في مهب الرياح الهوجاء لا قدرة له على الثبات، والمواجهة؛ بل هو خاضع للحتميات القاهرة التي تفرضها إرادات الآلهة المتعارضة)[2].

من أجل هاتين النظرتين: نظرة أهل الأهواء البدعية لتعدد الوسائط، ونظرة الوثنيين الشركية لتعدد الآلهة كان العمل الناشيء عن تلك النظرتين هباء منثورا.

وإذا كنا نطعن في دين النصارى؛ لأنهمي دينون بآلهة ثلاثة، ويشعرون في الوقت نفسه بغرابة هذا التعدد وبعده عن الحقيقة، والعقل، ويحاولون تأويله بكل سبيل، ويقولون إن الثلاثة في حكم الواحد، فبما ذا نحكم على من ينتسبون إلى الإسلام وهم يدينون بآلاف من الآلهة معظمها جذوع أشجار، ورفات أموات، وقطع أحجار، وهم لا يشعرون؟[3].

ومن عجيب أمر الصوفية، وتناقضهم البيِّن أن بعض شيوخهم، وهو تجاني تنبه لشتات العمل، وضياعه؛ بسبب توزعه بين الوسائط، فكان هذا الشيخ ينصح مريده قائلا: (يا فلان: رد روحك لجهة واحدة، خوفًا عليه من الشتات، وجمعًا له عن الالتفات)[4]. وغني عن القول أنهي قصد بالجهة الواحدة شيخه الواسطة!!

وإذا أصبح لكل واسطة من المقبورين دوره في حياة ا لناس، وتخصصه الذي يزار من أجله ويستغاث به طلبًا لحصوله؛ فإن البدع تتمكن من القلوب، ويزداد العمل تشتتًا، وضياعًا، فضريح السيدة فلانة يزار لزواج العوانس، وضريح الشيخ فلان يزوره المعدمون لبسطة الرزق، والقادرة الشاطرة صاحبة الضريح الفلاني يحج إليها في مشاكل الحب، والهجر، والفراق، والطلاق، ومقبورة أخرى متخصصة في أمراض الأطفال، والعيون، وعسر الهضم... [5] وهكذا، فكل قوم لهم واسطة ينادونه عند الشدائد، فلأهل العراق

(١) انظر مجلة المنار ١/ ٢٦٧، ومشكلة الألوهية للدكتور محمد غلاب ص ٢٢.
(٢) الرسالة والرسول لشيخنا الدكتور أكرم ضياء العمري ص ٨، وانظر دمعة على التوحيد ص ٨٢.
(٣) انظر النظرات للمنفلوطي ٢/ ٤٧، وهذه هي الصوفية ص ١٠٢.
(٤) بغية المستفيد ص ٣٠٢.
(٥) انظر كنت قبوريًا ص ٣٦، ودمعة على التوحيد ص ١١٧.



واسطة، وأهل الهند لهم واسطة، ولأهل تهامة واسطة، وهل مكة، والطائف لهم واسطة، وأهل مصر له واسطة، وأهل اليمن لهم واسطة، وهلم جرا. . . . فلكل قرية أموات يهتفون باسمهم، وينادونهم، وهذا بعينه صنيع المشركين مع أصنامهم[1].

وقد تنبه المستشرق هجرونيه لما أصبح يعانيه المسلمون من تشتت، وضياع بسبب تعدد هذه الوسائط البدعية فقال: (إن شفاعة الصالحين أصبحت من الأمور التي لا يمكن فصلها عن أمة محمد الذي لعن اليهود، والنصارى - حسب ما جاء في الحديث - لعبادتهم قبور أنبيائهم، ويكاد يكون لكل قرية مسلمة إمامها الخاص، ولكل شعب مسلم مام القوي، ولكل ناحية في الحياة الإنسانية أمراؤها الإنسانيون، وهم الوسطاء بين الخالق والمخلوق)[2].

فنتيجة عمل المبتدع الضياع، ولاخسران؛ بسبب البدعة، كما ضيع المشرك عمله بسبب الشرك. قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[3]، وقال تعالى أيضًا: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[4]، لأن أي عمل ديني لم يكن خالصًا لله تعالى، ولم يكن صوابًا على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فحبوطه مؤكد، وهو مردود على صاحبه، يقول العلامة ابن القيم: (وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد[5] إليه المنتهى، ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته، ورغبته، وإرادته، وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك، وزال عنه، وفارقه أحوج ما كان إليه، ومن كان انتهاء محبته، ورغبته، ورهبته، وطلبه هو سبحانه ظفر بنعيمه ولذته، وبهجته، وسعادته أبدًا الآباد)[6].

إن المبتدع الذي تتوزع طاقاته، وتتبدد جهوده ومشاعره، وتتوزع نياته، ويضمحل عمله لتوجهه لوسائط متعددة، مثله كمثل المشرك الذي يشعر بتمزق داخلي، وعدم

---

(١) انظر الدر النضيد ضمن الرسائل السلفية للشوكاني ص ١٦٥، وتطهير الاعتقاد ص ٥٨، وتوحيد الألوهية أساس الإسلام ص ٣٢١.

(٢) عقيدة الشيعة لهجرونيه ص ٣٣٧، نقلاً عن الصلة بين التصوف والتشيع للشيبي ١/ ٤٣٠، وانظر العقيدة والشريعة لجولد تسيهد ص ٢٣٢.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

(٤) سورة الكهف، الآيتان (١٠٣ ـ ١٠٤).

(٥) هكذا في النص بالرفع، ولعل الصحيح (واحدًا) بالنصب لأنه واقع خبر ليس.

(٦) الفوائد ص١٩٥.



استقرار، وطمأنينة لدينونته، لآلهة متعددة، فهو لا يستطيع إرضاءهم جميعًا، و(وبين الله حالة المشرك هذا بقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾[1].

فمثله كمثل العبد المملوك لعدة أشخاص لا يمكنه أن يبلغ رضاهم كلهم فهو في شقاء دائم؛ لتصارع رغباتهم عليه، ومطالبهم منه . . . لذا نجد المشرك دائمًا مصادمًا لفطرته، مضطربًا في وجهته، وغايته، ودوافع عمله، وسلوكه)[2].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والمقصود هنا أن الشيء إذا انقسم ووقعت فيه الشركة نقص ما يحصل لكل واحد؛ فإذا كن جميعه لواحد كان أكمل . . . كما أن الزرع كلما نقي عن الدغل كان أزكى له، وأكمل؛ لصفات الكمال الوجودية فيه)[3].

وبالجملة؛ فإن من يتوجه إلي وسائط الأئمة من الرافضة، أو وسائط الشيوخ والأولياء من الصوفية، سوف يصاب بالحيرة، والدهشة، ويضيع عمله سدى؛ لأنه لا يدري يرضي من على حساب من؟ فطابور الأئمة طويل، وسلسلة الأولياء لا تنتهي، وسوف يصبح - والحالة هذه - كما قيل:

تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

اللهم اجعل أعمالنا كلها صالحة، واجعلها لك خالصة، ولا تجعل لأحد فيها نصيًا، بمنك يا أكرم الأكرمين.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٩.

(٢) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم ص ١٣٢، وانظر معارج الألباب ص ٢٣٠.

(٣) مجموع الفتاوى ١٧/ ١٤٥، وانظر ١/ ٢٤، واقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٩٤، وقرة عيون الموحدين شرح كتاب التوحيد للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ص ٨٤، وتفسير السعدي ٦/ ٤٤.



المبحث الخامس

انتشار الضعف بين المسلمين وانشطار شملهم

تقدم منها في بيان آثار الوساطة الشرعية أن التوحيد سبب للألفة، والاجتماع وهنا أث مقابل يحصل نتيجة للاعتقاد الفاسد في الوسائط البدعية المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي يوالي عليهم، ويعادي بسببهم، ألا وهو انتشار الضعف بين أبناء الأمة الإسلامية، وانشطار شملهم، وانفطار عقدهم؛ لأن الجنوح إلى البدع، والأهواء سبب للفرقة، والانشطار، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والبدعة مقرونة بالفرقة كما أن السنة مقرونة بالجماعة، فيقال: أهل السنة والجماعة كما يقال: أهل البدعة والفرقة)[1]، وقال الإمام الشاطبي: (التعدد داعية الفرقة والفرقة سبب للمنازعة المورثة للفشل، والضعف، والوهن، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[2])[3].

وقد تفرق أهل الأهواء، وصاروا شيعًا وأحزابًا، كل طائفة تكفر الأخرى وتبدعها حتى صدق فيهم قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[4].

والغريب في مسألة وساطة الشيخ للمريد أن أبناء كل طريقة يتعصبون تعصبًا مشينًا لشيخهم على حساب الطرق الأخرى، فتراهم يلمزون مشايخ الطرق الأخرى، ويجرحونهم، وينتقصونهم؛ بينما تجدهم في الجانب الآخر يطرحون على شيخهم، وواسطتهم وشاحًا من التعظيم، وهالات من التقديس ويدعون اختصاصه بحلول البركة، وصلاحه وحده للواسطة، (فانتهى الأمر بنوع من التعصب الطائفي يذكرنا بالحزبية السياسية أو التعصب القروي، وإن كان أخطر كثيراً من كلا التعصبين؛ لأنه تعصب باسم الدين، وهو في الوقت ذاته خروج آثم على مبادئ الدين)[5].

واسمع إلى بعضهم - وهو تجاني - كيف يزرع في نفوس المريدين من أتباعه بذور العداوة، والفرقة، والانشطار بقوله: (ويجب على الشيخ أن لا يترك أصحابه يزورون شيخًا آخر، ولا يجالسون أصحابه؛ فإن المضرة سريعة للمريدين؛ لأن لكل شيخ طريقة،

---

(١) الاستقامة ١/ ٤٢.	(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٣) الاعتصام ١/ ٨٧، وانظر الوحدة الإسلامية والأخوة الدينية لمحمد رشيد رضا ص هـ.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥٩.

(٥) نظرية الاتصال عند الصوفية ص ٢٨٩، وانظر دمعة على التوحيد ص ٢١٣.

تخصه، لا يتعداها، ولا يخلطها بغيرها، فيسمع المريد أصحاب ذلك الشيخ يذكرون عن شيخهم خلاف ما أمره بن شيخه فيختلف عليه الأمر فيوقعه، فوجب على الشيخ سد هذا الباب على المريدين)[١].

وقديمًا نقل أبو القاسم القشيري عن بعض الصوفية - في تعريف التصوف - قوله: (ما تزال الصوفية بخير ما تنافروا فإذا اصطلحوا فلا خير فيهم)[٢].

والاعتقاد في هذه الوسائط البدعية الذي فرق أهل الأهواء من هذه الأمة، هو نفسه الذي فرق أمة العرب في جاهليتهم، وذلك أن كل قبيلة كانت تزعم أن صنمها هو الواسطة بينها وبين الله تعالى، فتواليه، وتعادي غيره من الأصنام، والآلهة، وكان بعض عقلائهم في الجاهلية ينهى عن عبادة هذه الأصنام ويقول العرب: إنما تفرقتم بسبب هذه الآلهة المتعددة، والوسائط الوهمية، ولا سبيل إلى جمع كلمتكم إلا بعبادة إله واحد، فأطيعوني ترشدوا، واعبدوان الله وحده[٣]. وكان بعض شعرائهم في الجاهلية يقول - في صنعم له اسمه سعد-[٤]:

أتينا إلى سعد ليجمع شلمنا ... فشتّضنا سعدٌ ا فلا نحن من سعد
وهل سعد رلا صخرة بتُوفَةٍ[٥] ... من الأرض لا يدعو لغيٍّ ولا رشد

وهكذا تعدد الطواذف في هذه الأمة بسبب هذه الوسائط البدعية، وتعصبت كل طائفة لواسطتها، وتفرقوا، وخطأ كل فريق الفريق الآخر.

يقول محمود شكري الألوسي: (وهكذا تجد الغلاة من أهل الطرائق المبتدعة، فالرفاعي يقول: ليس القادري على شيء، والقداري يقول: ليس الرفاعي على شيء، وهذا يقول: شيخي أخذ زنبيل[٦] الأرواح من عزرائيل، وأعاد كل روح إلى جسدها، وهذا يقول مر شيخي على جهنم فأراد أن يطفئها ببزاقه فحالت الملائكة بينها وبينه!! ومن

---

(١) رماح حزب الرحيم مطبوع بهامش جواهر المعاني ١/ ١٤٧.
(٢) الرسالة القشيرية ص ٢٨٢. (٣) انظر الملل والنحل ٢/ ٢٤٨.
(٤) انظر بلوغ الأرب للألوسي ٢/ ٢٠٨، والمسائل التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية ١/ ١٢٤.
(٥) التنوفة: المفازة، والصحراء. انظر مختار الصحاح ص ٧٩، مادة (ت ن ف).
(٦) الزنبيل: القفة، أو الجراب، والوعاء. انظر القاموس المحيط ٣/ ٣٩٩ مادة (ال. بل).

اتبع العيدروسي[١] يقول:

العيدروسي كـان يُحيي   من الأموات من ماتَ دَهْرًا

وهكذا تجدهم يتضاربون بالأقوال، ولم يزالوا قائمين على ساق المخاصمة والجدال)[٢].

فالاختلاف مع العداوة، والفرقة عادة أهل الأهواء، والاختلاف مع التوالي، والتصويب عادة أهل السنة والجماعة[٣].

فأهل الأهواء في شقاق دائم ونفرة، ونزاع، هذه حالهم وإن تقاربت ديارهم، واجتمعت أبدانهم (يكفر الابن أباه والرجل أخاه، والجار جاره، تراهم أبدًا في تنازع، وتباغض، واختلاف، تنقضي أعمارهم، ولا تتفق كلمتهم: ﴿ تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾[٤]، أوما سمعت أن المعتزلة مع اجتماعهم على هذا اللقب يكفر البغداديون منهم البصريين، والبصريون منهم البغداديين؟ . . . إذا تدبرت أقوالهم رأيتهم متفرقين . . . يتبرأ بعضهم من بعض . . . وهل على الباطل دليل أظهر من هذا؟)[٥].

وهذا الفرق، والطوائف التي تنتشر في طول العالم الإسلامي، وعرضه ما سبب تفرقها وانشطارها عن جماعة أهل السنة؟ إن السبب في ذلك هو تلك النظرة البدعية للوسائط، وترك منهج أهل السنة في طلب الحق، فكل طائفة تزعم أن الواسطة بينها، وبين الله عز وجل هو شيخها الذي تنتسب إليه؛ ولهذا كثرت الطرق الصوفية كثرة فاحشة، حتى إن عدها، وحصرها بأسمائها، دون ذكر مقالاتها يعد من قبيل المستحيل فاتباع أحمد البدوي واسطتهم البدوي، والقارية واسطتهم عبدالقادر الجيلاني، والرفاعية واسطتهم الرفاعي، والشاذلية واسطتهم الشاذلي، والنقشبندية واسطتهم النقشبندي،

---

(١) في كتب التراجم كثيرون بهذا اللقب، ولعل المراد صاحب الترجمة؛ لأنه كان معظمًا عند الناس، وهو محمد بن عبدالله بن شيخ العيدروس، صوفي من أهل تريم باليمن، ولد سنة ٩٣٥هـ، وتوفي سنة ١٠٠٥هـ، كان معظمًا عند الملوك، والأمراء، له كتاب «إيضاح أسرار علوم المقربين». انظر: الأعلام ٧/ ١١٧، ومعظم المؤلفين ٣/ ٤٤٢.

(٢) غاية الأماني ١/ ٢٦.

(٣) انظر مجموع الفتاوى ٢٤/ ١٧٢، وإيثار الحق على الخلق لابن الوزير ص ١٦٠.

(٤) سورة الحشر، الآية: ١٤.

(٥) الحجة في بيان المحجة ٢/ ٢٢٦، وانظر مجموع الفتاوى ٤/ ٥١، ومعارج الألباب ص ٢٧٠.

والتجانية واسطتهم أحمد التجاني، والبريلوية واسطتهم أحمد البريلوي. . . وهلم جرا، فالقائمة لا تنتهي، والوسائط في تزايد، ونتج عن تعدد هذه الطرق بعدد الوسائط البدعية، (تقسيم أمة الإسلام بين مشايخ ضلال جهال، يستغلونهم، ويتحكمون فيهمو ويحرمونهم من نعمة الوحدة الإيمانية، والأخوة؛ إذا المعروف أن العداوة متأصلة بين طوائف الطرق إلى حد أن بعضهم لا يجالس البعض، ولا يؤاكله، ولا يشاربه؛ بل ولا يزوجه، ولا يتعاون معه، ويقول: هذا ليس بأخي من الشيخ، وكفى بهذه التفرقة بين المسلمين باطلاً، وشراً، وفساداً، وتفريق أمة الإسلام، وتمزيق وحدتها؛ إذ ما قامت الطرق إلا على أساس تفرقة المسلمين، وتجزئتهم، وتفكيك عرى وحدتهم الروحية، والسياسية ليسهل قهرهم، والتسلط عليهم، كما حصل لهم في عهود الاستمار البائدة، وها هي ذي آثار ذلك باقية إلى اليوم فأمة الإسلام أمم ودولتهم دول، بهذا مضت فترة غير قصيرة على أمة الإسلام، وهي جماعات متباينة، لا يعطف بعضها على بعض، هذا قادري، وهذا شاذلي، وهذا نقشبندي، وهذا رفاعي، وهذا درقاوي، وذاك هبري، وعليوي، وتمسك كل فريق بشيخ، وورد، وطريقة، وجماعة، ومن هنا سهل على أعداء الإسلام الاستيلاء على ديار الإسلام، فوضعوا المسلمين قاطبة تحت حكم، واستعمروهم، واستغلوهم، وهم الذين وضعوا الطرق، والتصوف لتفرقتهم، وإذهاب ريحهم)[(١)].

وهكذا كثرت الفرق، والجماعات التي تنتسب إلى الإسلام بشكل متزايد، وكل طائفة تتميز عن الطوائف الأخرى بلبس معين، أو شارة معينة، أو لقب معين، كل ذلك بسبب انتساب كل طائفة إلى واسطة من الوسائط البدعية فحجرت واسعًا، وضيقت على نفسها بالتحزب، وتركت شرف الانتساب لجماعة المسلمين الرحبة أهل السنة، والاجتماع، فانتشر بسبب الواسطة البدعية - الضعف في أوساط المسلمين، وانشطر شملهم إلى فرق وجماعات متناحرة، متباغضة، متحاسدة، يجمع بينها التعصب، كل فرقة تتعصب لشيخها، وواسطتها، ويدعون أنه هو القطب الغوث، الواسطة، ولا أحد يدانيه، فيرد عليهم أتباع شيخ آخر بالمنطق نفسه، فيصبح كل حزب بما لديهم فرحين، فينتج عن هذا التعصب الفرقة وانتشار الحقد بين طوائف أهل الأهواء[(٢)].

---

(١) إلى التصوف يا عباد الله للشيخ أبي بكر الجزائري ص ١١، وانظر مجموعة الرسائل الكبرى ١/ ٣٠٩.
(٢) انظر حكم الانتماء إلى الفرق ص ١١٥، وانظر هذه مفاهيمنا ص ٢٢٥.



يقول الشيخ بكر أبو زيد: (وهذه الجماعات متعددة؛ بل الجماعة في نفسها متعددة إلى جماعات غالبًا، والتعدد دليل على الاختلاف، وتعدد التعدد دليل على ضراوة الخلاف، والاختلاف نتيجة حتمية لاضطراب الأصول التي تنفرد بها كل جماعة، وتدعو إليها، وتقيم جماعتها عليها، وهذا يناقض قاعدة الشرع المطردة من أن الحق واحد، لا يتعدد، وكل واحدة تقيم حزب التشكيك بما لدى الأخرى مدعية أن ما لديها هو الحق، وما لدى الأخرى هو الباطل كلا، أو بعضًا، وعليه فلا يَقْضِي على هذا السبب العظيم للتفرق، وتمزيق الجماعة، بله الأمة إلا الالتزام بمنهاج النبوة، كما درج عليه الصدر الأول، ومن تبعهم بإحسان، فدع أيها المسلم بُنَيَّاتِ الطريق)[١].

وللأسف الشديد فإن تفرق الأمة الإسلامية إلى جماعات وأحزاب، وطوائف معناه أنه هذه الأمة جهلت حقيقة دينها الذي يدعو إلى الوحدة، والائتلاف، وجمع الكلمة[٢]. ولقد صدق فيهم قول الشاعر[٣]:

يا أمةً جهلتْ حقيقة دينها فتفرقتْ فيها إلى أشياع

ولا ريب أن عقابة هذا التفرق وخيمة رغم كونه واقعًا في الأمة، وحقيقة أليمة. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ونتيجة الفرقة عذاب الله، ولعنته، وسواد الوجوه، وبراءة الرسول منهم)[٤].

وكفى بهذا زاجرًا عن التفرق، والاختلاف، ودافعًا إلى التجمع، والائتلاف والله تعالى أعلم.

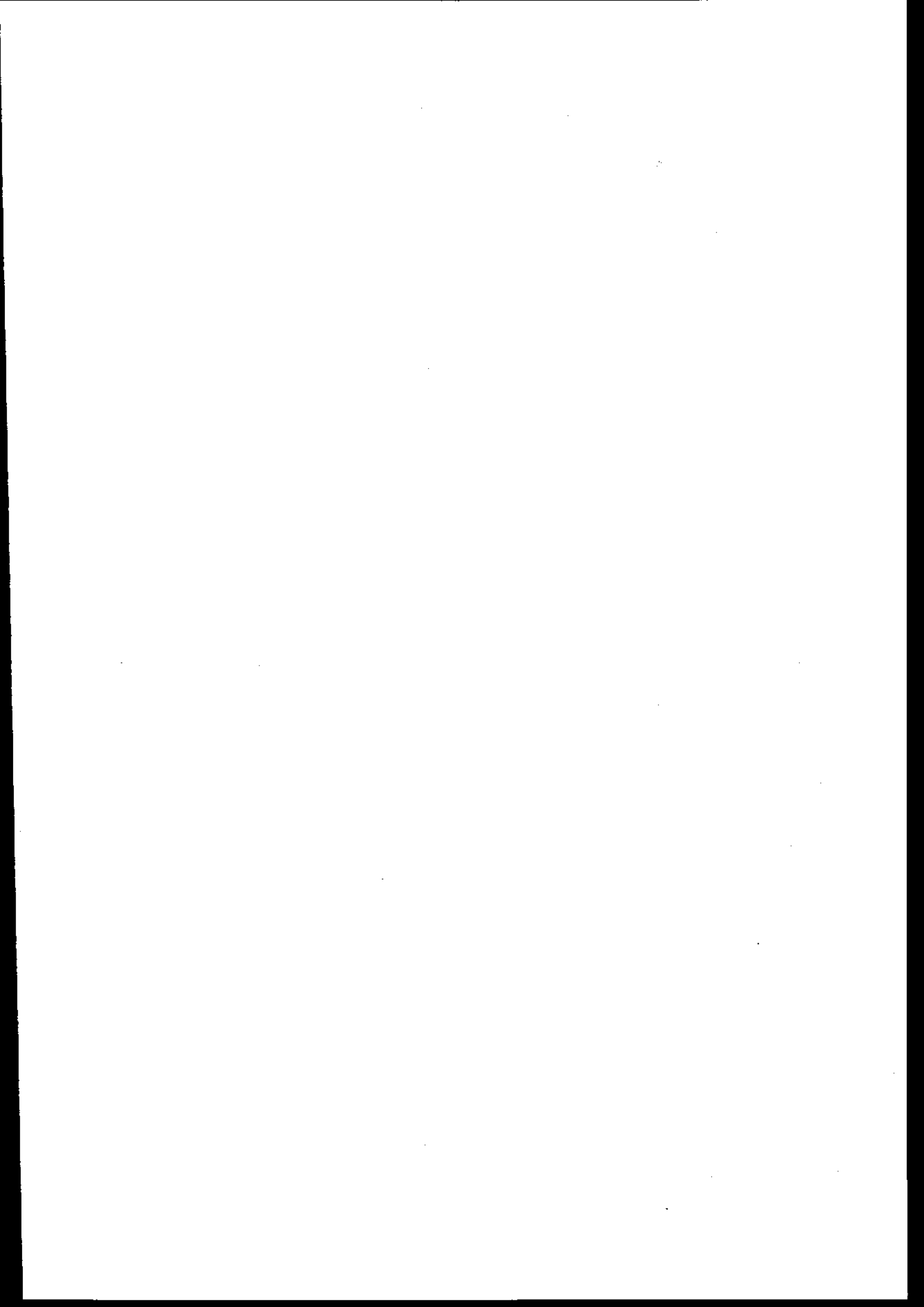
---

(١) حكم الانتماء إلى الفرق ص ١١٥.

(٢) راجع أثر الواسطة الشرعية في معتقد أهل السنة والجماعة.

(٣) للشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة. انظر رسالة الشرك للميل ص ١٠.

(٤) مجموع الفتاوى ١/ ١٧.





الخاتمـــة

الحمد لله الذي بنعمته، وتوفيقه تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتمة الوسائط في التبليغ نبينا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد:

فأحمد الله عز وجل، وأشكره على أن وفقني إلى كتابة هذه الرسالة، وأعانني على إتمامها، وإنجازها، وفي نهايتها يسعدني أن أشير إلى بعض الجوانب من معالمها، وأعرض لأهم النتائج، والثمرات التي توصلت إليها على النحو الآتي: -

١- إن المعنى اللغوي للواسطة: هو الشيء الذي يقع بين أمرين، ولذلك سميت واسطة القلادة واسطةً؛ لأنها الجوهرة التي تكون وسط العقد المنظوم، وأن الواسطة في لغة هذا العصر أصبحت شائعة من حيث الإطلاق على الجاه، والمنزلة، والمكانة.

٢- إن الواسطة في اصطلاح أهل السنة والجماعة ترادف الوسيلة، والشفاعة، والتعريف المختار للواسطة هو أن الواسطة: هي الوسائل، والأسباب الشرعية، المقربة إلى الله، الواردة في الكتاب، والسنة، بمعرفتها، والإيمان بها، والعمل بمقتضاها يتقرب العبد إلى الله تعالى لقبول أعماله، وأن الواسطة عند أهل السنة تطلق على أمرين:

أ - واسطة من الحق إلى الخلق، وهي الرسالة.

ب - وواسطة من الخلق إلى الخالق، وهي العبادة.

٣- إن الواسطة عند أهل الأهواء، والبدع ليست مضبوطة بضابط معين، وليس لها مصطلح محدد، فهي عالم خيالي، وباب مفتوح جلبوا إليه كل شيء ظنوه سببا وواسطة، فالواسطة عند الفلاسفة: هي الكواكب، والروحانيات، والعقول المدبرة، وهي عند الرافضة تختص بالأئمة من آل البيت -رحمهم الله-، وهي عند الصوفية شيخ الحقيقة، وإمام الطريقة، والإنسان الكامل.

٤- إن المراد بأهل السنة: هم المتبعون للسنة، المتمسكون بها، وهم الصحابة -رضي الله عنهم- ومن تبعهم بإحسان من هذه الأمة إلى يوم الدين، وإنهم يلقبون بأهل السنة والجماعة، والفرقة الناجية، والسلفية، أو أتباع السلف، وأهل الحديث، وأهل الأثر، والطائفة المنصورة.

٥- إن أهل الأهواء ينبزون أهل السنة بألقاب شنيعة، وأسماء مبتدعة، ومن ذلك

تسميتهم لهم: حشوية، ونابتة، وناصبة، وجبرية، ومشبهة، وعامة، ووهابية.

٦- إن الهوى تدور معانيه اللغوية حول السقوط، والميل عن الحق، والموت، والحيرة، وأنه في الاصطلاح: خلاف الهدى، وهو ميل الإنسان إلى رغبات نفسه، ومحاب قلبه، وأنه لص وخطره على ابن آدم كبير، وهو السبب في ضلال أهل الأهواء، وفساد عقائدهم.

٧- إن الضابط لمعرفة أهل الأهواء: أن كل من خرج عن موجب الكتاب والسنة يعد من أهل الأهواء؛ وإن كان منسوبا إلى العلم، والعبادة.

٨- إن العلامات التي تميز أهل الأهواء هي: -

أ - اتباع الهوى. ب - الفرقة، والاختلاف.

جـ - التقليد المذموم للآباء، والمشايخ في العادات الفاسدة، والمعتقدات الباطلة.

د - تكفيرهم لمخالفيهم بغير دليل.

هـ - الذلة؛ بسبب طاعتهم لأهوائهم، وانكسارهم لوسائطهم،

و - اتباعهم للمتشابه المنهي عنه. ز - معارضة السنة، وبغض أهلها.

حـ - التعصب لآرائهم.

ط - مصادر التلقي عندهم غير مضبوطة بضوابط الشريعة.

٩- تعريف الفلاسفة، وأن الفيلسوف مأخوذ من (فيل) وهو محب، و(سوفا) وهي الحكمة، **وأنهم ثلاثة أقسام:-**

أ- دهريون. ب- وطبيعيون. ج- وإلهيون.

وعلومهم ستة:

- علم رياضة. - وعلم طبيعة. - وعلم سياسة.
- وعلم إلاهيات. - وعلم أخلاق. - وعلم منطق.

١٠- تعريف الرافضة: وأن الرفض في اللغة: يعني الترك، والمنع، وأن الرافضة في الاصطلاح: هم الغلاة من الشيعة في حب علي رضي الله عنه وبنيه من بعده، وبغض أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما على الخصوص، ومعظم الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وأن طائفة الإمامية الاثني عشرية رافضة، وقد انصبت فيها جميع عقائد الغلاة، وأن هذا

اللقب محمود عندهم؛ فهو لقب تشريف، وتكريم، وليس لقب شتم، وتذميم كما هو المشهور عند الناس.

١١- تعريف الصوفية: وأن كلمة (صوف) تطلق في اللغة على عدة معان: منها الصوف المعروف، كما تطلق على الميل، والعدل، ومن أصحاب المعاجم من يرى أنها كلمة مولدة.

وأن الصوفية في الاصطلاح: كثرت التعريفات لها حتى بلغت ألفي تعريف عند الصوفية أنفسهم، ومدارها على أن الصوفية هم الجماعة المتصفة بالصفات المحمودة في الشرع، والمتخلقة بالأخلاق الممدوحة في الطبع، معرضة عن الدنيا، ومقبلة على الأخرى.

وهذا يصدق على الصوفية في طورها الأول، أما التصوف في عرف المتأخرين فقد صار في أغلب الأحيان صناعة لكسب العيش، وتتطلب هذه الصناعة عمامة خضراء، وسبحة غليظة، وتظاهرا بالذكر، ودعوى مخاطبة الأولياء، والاتصال بهم عن طريق الروح، إلى غير ذلك من وسائل وأحكام هذه الصناعة.

١٢- إن الحكمة من بعثة الرسل (الواسطة)، وحاجة الناس إلى بعثتهم **تتلخص في الآتي:-**

أولا: تحقيق عبادة الله تعالى وحده، وإخلاص العمل له.

ثانيا: إقامة الحجة على الخلائق.

ثالثا: تعريف الناس بالعالم الغيبي، وما أعده الله للمؤمنين به من جنانه، وللكافرين به من نيرانه.

رابعا: القدوة الصالحة، والأسوة الحسنة.

خامسا: جمع الأمة على دين واحد، ورجل واحد.

سادسا: توجيه الناس، وإرشادهم لما فيه الخير، والصلاح في دينهم، ودنياهم.

١٣- إن الملائكة في اللغة جمع ملك: وأصله مألك من الألوكة، وهي الرسالة. وفي الاصطلاح: هم أجسام علوية، قائمة بأنفسها، قادرة على التشكل بقدرة الله، لا حصر لهم، لا يأكلون، ولا يشربون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وليس لهم

من خصائص الربوبية والألوهية شيء. وإنهم أصناف كثيرة، ولهم وظائف عديدة، وهم سفراء الله بينه وبين عباده، ينزلون بالأمر من عنده في أقطار العالم، ويصعدون إليه بالأمر.

١٤- إن الواسطة بين الله تعالى، والملائكة هو جبريل عليه السلام.

١٥- إن الواسطة بين الله ورسله في إبلاغ الوحي هو جبريل عليه السلام أمين الوحي، وأما نزول غيره من الملائكة لهذا الغرض، إنما كان في حالات نادرة، وحوادث مخصوصة، ليست على سبيل الاستقلال، وإنما كانت على سبيل التبعية، والمشاركة لجبريل عليه السلام.

١٦- إن النبي ﷺ رأى الواسطة الملكي على صورته التي خلق عليها مرتين: مرة عند سدرة المنتهى، ومرة في أجياد بمكة له ستمائة جناح، وإن نزول الواسطة الملكي على الواسطة البشري بالوحي يأتي على عدة أشكال: فمرة يأتيه على صورة غير مرئية، ومرة يراه على صورته، ومرة يتمثل له في صورة رجل إنسي، فيكلمه.

١٧- إنه ثبت -بطريق الوحي- أن جبريل، وبعض الملائكة عليهم السلام كانوا واسطة بين الله تعالى وبعض الأشخاص من غير الأنبياء، تشريفا لهؤلاء الأشخاص، وتكريما لهم.

١٨- الوحي في اللغة: الإعلام في خفاء. وفي الشرع: إعلام الله أنبياءه بما يريد أن يبلغه إليهم من شرع، بواسطة، أو بغير واسطة. وإن الوحي يأتي على **الأحوال التالية**:-

أ- تكليم الله نبيه من وراء حجاب. ب- الإلهام، والقذف في القلب.

ج- رؤيا الأنبياء في المنام. د- تكليم الله أنبياءه بواسطة الملك.

١٩- إن الحكمة في كون الواسطة بين الناس من البشر أنفسهم **تكمن في الآتي**:-

١- للتناسب بين الطبيعتين؛ لأن الجنس إلى الجنس أميل.

٢- أن البشر لا يطيقون رؤية الملك. ٣- لأجل تمام القدوة، والأسوة.

٤- أن الملك لا يصلح أن يكون رسولا بين الناس؛ لبعد الفجوة، وتباين الخصائص بين الملائكة، والبشر.

٥- أن النبوة فضل من الله يختص بها من يشاء من عباده، سواء كان ملكا، أو بشرا.



٢٠- يتميز منهج أهل السنة والجماعة في فهم الواسطة بالتقيد بالكتاب والسنة، فبحكم سيرهم على هذا المنهج البين، والصراط المستقيم نظروا إلى نصوص الكتاب والسنة، فوجدوها تثبت نوعا من الواسطة: وهو الواسطة من الملائكة، والأنبياء عليهم السلام في التبليغ، وواسطة العبادة؛ مثل الدعاء، والتوسل المشروع، والعمل الصالح، والشفاعة، وغير ذلك من أنواع العبادات الشرعية، والأعمال الصالحة، ثم وجدوها تنفي أنواعا أخرى من الوسائط ما أنزل الله بها من سلطان، يتشبث بها أهل الأهواء، والبدع، دون أن يسعفهم في إثباتها شيء من الأدلة المنقولة الصحيحة، أو يوافقهم عليها أهل العقول السليمة، الصريحة، فأثبت أهل السنة والجماعة ما أثبته الكتاب والسنة، ونفوا ما عدا ذلك؛ سيرا مع الكتاب، والسنة، ووقوفا مع النص، وجودا، وعدما.

٢١- مما يوضح صورة الواسطة في التبليغ في الدنيا أن الله تعالى يوحي بالأمر إلى الواسطة من الملائكة وهو جبريل أمين الوحي، فينزل به جبريل على الواسطة من الرسل، ثم يقوم الرسول بالبلاغ المبين في قومه، مبينا لهم العقيدة، والشريعة، والحلال، والحرام، ثم يقوم من سوى الأنبياء، والرسل، من حوارييهم، وأنصارهم، وصحابتهم، وكذلك مشايخ العلم، والدين بالبلاغ لما جاءت به الرسل، ونشر محاسن الرسالات السماوية، فيكونون وسائط بين الأنبياء، وأممهم في تبليغ الرسالات في الدنيا.

٢٢- إن الله تعالى يرسل جبريل عليه السلام في عرصات يوم القيامة واسطة بينه، وبين خاتم النبيين -صلوات الله وسلامه عليه-؛ وذلك حين يقوم نبينا ﷺ مقامه في الشفاعة العظمى، حينما يعتذر عنها جميع الأنبياء، والرسل، فيقول صلى الله عليه وسلم: (أنا لها) كما ورد في السنة أن أصحاب الأعذار الأربعة، وهم: رجل أصم، لا يسمع شيئا وقت البعثة، ورجل أحمق، مجنون لا يعقل شيئا، ورجل هرم، لا يدري شيئا، ورجل مات في الفترة، لم يدرك رسالة، ولم يأته رسول، هؤلاء المعذورون يرسل الله إليهم رسولا، واسطة بينه وبينهم في التبليغ في الآخرة، لإقامة الحجة عليهم، والإعذار إليهم.

٢٣- إن الرسالة، أو النبوة سفارة بين الله، وبين الناس؛ لإرشادهم، ووعدهم، ووعيدهم، وهي اصطفاء محض من الله، واختيار؛ لأن الله يصطفي من الملائكة رسلا، ومن الناس رسلا، فمقام هذه الرسالة عند أهل السنة والجماعة في ذروة الاهتمام، ومن الأهمية بمكان؛ لأنها روح العالم، ونوره، وحياته، ولا صلاح للعالم إذا عدم الروح،



والنور، والحياة.

٢٤- من الخصائص التي تميزت بها رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم: -

أ - كونها رسالة عالمية، وليست خاصة، كما هو حال الرسالات السماوية السابقة.

ب - كونها خاتمة للرسالات السماوية.

جـ - شمولها، واستيعابها لشئون الإنسان، والكون الذي يعيش فيه، والدار الآخرة، التي هو صائر إليها.

د - الوسطية، والتوازن.

هـ - كون المؤمنين بها يشهدون يوم القيامة على سائر الأمم أصحاب الرسالات السابقة.

و - حفظ الله لها من التبديل.

٢٥- من الحقوق التي أوجب الله على الأمة لصاحب هذه الرسالة صلى الله عليه وسلم: الإيمان به، ومحبته، وطاعة أمره، واتباع سنته، وتعزيره، وتوقيره، وتعظيمه، والصلاة والسلام عليه، والإيمان بعصمته صلى الله عليه وسلم في التبليغ، وفي الأمور التي يتعلق بها إثبات نبوته. وهذه الحقوق كلها واجبة، وهي مترابطة، ومتلازمة، ولا ينفك بعضها عن بعض، حيث لا يتصور في شخص واحد وجود بعضها، وتخلف حق منها.

٢٦- الهداية للحق، وإلى الطريق المستقيم هي أعظم نعمة يوفق الله عبده لنيلها، **وهي أنواع:-**

أ - الهداية العامة المشتركة بين الخلق.

ب - هداية البيان، والدلالة، والإرشاد، والتبليغ، وهذه الهداية هي التي شرف الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم، وأعطاه إياها، وكرم الله بها كل من آمن به، وبرسوله، وأطاعه، واتبع النور الذي أنزل معه.

ج- هداية التوفيق والإلهام. د- هداية المؤمنين إلى الجنة، والكافرين إلى النار.

٢٧- إن الرسول صلى الله عليه وسلم واسطة في التبليغ، والبيان، لا في العبادة



وجزاء الإنسان؛ لأن التبليغ، والإرشاد من عمل الرسول ﷺ وواجباته، وأما العبادة، وما يتعلق بها كجزاء الإنسان، والحكم على مصيره هل هو إلى الجنة، أم إلى النار؟ فهذا من حقوق الله تعالى، فليس بين الله تعالى وبين خلقه واسطة حال الدعاء، والتضرع، والرجاء، من الملائكة، والأنبياء، بله غيرهم.

٢٨- إن الوسطية سمة بارزة في منهج أهل السنة والجماعة؛ وذلك في جميع مسائل الاعتقاد، ومن تلك المسائل وسطيتهم في باب تعظيم النبي ﷺ؛ حيث يرون أن تعظيمه ﷺ أمر زائد على المحبة؛ لكنه تعظيم شرعي، يحفظ للنبي ﷺ مكانته في قلب المؤمن بعيدا عن الغلو في حقه، أو إعطائه شيئا من خصائص الألوهية، أو الربوبية، كما يفعل الغلاة من أهل البدع، وبمعرفة حدود هذا التعظيم الشرعي يقف المسلم في سياج منيع، وحصن حصين، يقيه التردي في إحدى حفرتين: ألا وهما: غلو الغالين، أو جفاء المتنقصين.

٢٩- العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله، ويرضاه من الأقوال، والأعمال، الباطنة، والظاهرة، وكل عبادة استوفت شرطي قبول العمل، وهما: -

أ - الإخلاص لله تعالى.

ب - ومتابعة النبي صلى الله عليه وسلم، فهي عبادة صحيحة، وعمل صالح، وواسطة شرعية لحصول ثواب الله تعالى، ومحبته، ورضوانه، فالعبادات الصالحة هي الوسيلة التامة إلى سعادة الدنيا، والآخرة، فالصلاة واسطة، والصيام واسطة، والصدقة واسطة، والحج واسطة، وقل مثل ذلك في سائر أنواع العبادات، وأصناف القربات.

٣٠- الدعاء هو العبادة، وهو رابطة قوية بين العبد، وربه، فيتقرب به المخلوق من خالقه جل شأنه، وهو وسيلة صحيحة، وواسطة شرعية، يتم فيه اطراح العبد بباب ربه الكريم، يتجلى فيه من مظاهر العبودية، والتذلل، والانكسار لله تعالى ما لا يظهر في كثير من صور العبادات الأخرى.

٣١- إن صورة الواسطة في التوسل المشروع تتضح بمعرفة أنواعه الثلاثة: وهي: -

أ - التوسل بأسماء الله الحسنى، وصفاته العلى.

ب - التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح الذي ترجى إجابة دعائه.

جـ - التوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح، فالاقتصار على هذه الأنواع هو

الواجب على المسلم من التوسلات البدعية المخترعة، التي شغل بها أهل الأهواء أنفسهم عن الثابت من التوسل.

٣٢- العمل الصالح واسطة صحيحة بين العبد وخالقه، والأعمال الصالحة التي تنفع المؤمن وتقربه من مولاه متنوعة؛ لكنها ترجع في الأساس إلى ثلاثة أضرب: منها: ما يختص بالقلب، ومنها ما يختص بالبدن، ومنها ما يشترك فيه البدن، والقلب.

٣٣- الشفاعة في الاصطلاح هي: التوسط للغير بجلب منفعة، أو دفع مضرة، وهي ثابتة للنبي ﷺ يوم القيامة، وللنبي ﷺ شفاعات في الآخرة، بعضها خاص به صلى الله عليه وسلم، ويشاركه الملائكة، والنبيون في بعضها الآخر، وهذه الشفاعات هي: -

أ - الشفاعة العظمى.

ب - الشفاعة في استفتاح باب الجنة لأهلها.

جـ - الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه.

د - الشفاعة في رفع درجات أقوام من أهل الجنة.

هـ - الشفاعة في دخول الجنة بلا حساب.

و - الشفاعة لأهل الكبائر.

٣٤- ومع ثبوت الشفاعة لنبينا ﷺ إلا أنه لا يجوز أن نتوجه إليه الآن بطلبها منه، وإنما نتوجه إلى المولى عز وجل بطلبها، فنقول: اللهم شفع فينا نبيك، وخاتمة رسلك محمدا صلى الله عليه وسلم، واجعلنا نرد حوضه، ونشرب منه شربة، لا نظمأ بعدها أبدا.

٣٥- وأما الشفعاء الذين دلت الأدلة على شفاعتهم، غير النبي ﷺ فهم: الملائكة، والنبيون، وأفراط المسلمين، والشهداء من هذه الأمة، فيجب على المسلم أن يعتقد شفاعتهم.

٣٦- ينبغي في الرد على أهل الأهواء بنفي الواسطة البدعية، والتوسل البدعي بذوات الأنبياء، والأئمة، والأولياء، أن نركز على مسألة مهمة، وهي أن العبادة الشرعية واسطة مقبولة بنفسها، وهذه المسألة يتفق عليها الجميع، فينبغي بيانها وتوضيحها للعوام، وأهل الأهواء والبدع، الذين جرفهم تيار التوسل البدعي وشغلهم التعلق بذوات المخلوقين، عن الاستغناء بالثابت من التوسل واعتبار العبادة الشرعية واسطة مقبولة عند الله تعالى.



٣٧- يتميز مذهب أهل الأهواء في فهم الواسطة بخروجه عن دائرة الكتاب والسنة، ومن ثم بنوه على الأمور التالية :-

أولا: تعلقهم بكل شيء ظنوه سببا، وإن لم يكن سببا.

ثانيا: دعوتهم الصريحة إلى التعلق بالواسطة، والالتفات إليها أكثر من المتوسط إليه.

ثالثا: فلسفتهم الخاصة في منع العصاة، والمذنبين من التوجه إلى الله مباشرة، والبحث عن واسطة مصقولة الباطن، نظيفة الظاهر.

رابعا: اعتمادهم على الأخبار الواهية، والأحاديث المكذوبة.

خامسا: قياسهم الواسطة في العبادة على الواسطة في التبليغ.

سادسا: زعمهم أن كل من عظمه الله تعالى واسطة بذاته، فيرون أن من تعظيمه اعتقاد وساطته، وأن ذلك من تعظيم الله تعالى.

٣٨- تبين لي من خلال دراسة هذا الموضوع وقوع أهل الأهواء في تناقض عجيب؛ وذلك أنهم وقعوا في الغلو الفاحش في الواسطة الصحيحة نبينا محمد ﷺ فرفعوه فوق مرتبة النبوة، ومنزلة الرسالة، ثم جمعوا مع ذلك تنقيصه صلى الله عليه وسلم، والحط من رتبته، والطعن في مقام النبوة، فزعموا أن لبعض الشخصيات منزلة أعلى من منزلته، ومكانة أسمى من مكانته صلى الله عليه وسلم، وأن هذا التنقيص موجود في مقالات الفلاسفة، والرافضة، والصوفية.

٣٩- إن نظرة الرافضة للرسول ﷺ تتميز بالغلو حينا، والتنقيص أحيانا أخرى، فحينما يتحدثون عن النبي ﷺ يقولون إنه خلق من نور، فإذا ما تحدثوا عن علي رضي الله عنه، والأئمة من بنيه رحمهم الله وقعوا في تنقيص النبي ﷺ، والحط من قدره، والرفع من شأن الإمام.

٤٠- إن عقيدة الرافضة في الملائكة الكرام الطعن فيهم، والتطاول على مقامهم المقرب، وإنكار وظائفهم، وخصائصهم التي شرفهم الله بها، وكأنهم ملائكة الأئمة، لا ملائكة الله.

٤١- تتميز نظرة الرافضة لأئمتهم "وسائطهم" بالغلو الفاحش، والتقديس المرفوض مع التنقيص الفاضح لمقام النبوة، ومنزلة الرسول صلى الله عليه وسلم.



٤٢- إن الشبهات التي تدافع بها الرافضة عن عقيدتهم في ادعاء وساطة الأئمة شبهات واهية تتمثل في روايات باطلة، وأخبار مختلقة، وأن هذه الشبهات مخالفة للطبع، والعادة، والشريعة.

٤٣- لقد وقع الصوفية في الإطراء المنهي عنه؛ بل وقعوا في الغلو الزائد في الرسول صلى الله عليه وسلم حتى طفحت عباراتهم بالشرك، ومعاني الزندقة، فزعموا أنه خلق من نور، وأنه أصل مادة الوجود، وأن الكون انبجس من نوره، وأن الكائنات خلقت من أجله، وأنه لا ظل له، ومن ثم ادعوا جواز صرف شيء من أنواع العبادة له صلى الله عليه وسلم.

٤٤- وجدت أن مقام الولاية عند الصوفية مزاحم لمقام النبوة؛ بل هو أعلى منها كما يصرحون بذلك، وبسبب ادعائهم وساطة الأولياء لازمهم أمران:-

أحدهما: رفع مقام الولاية فوق مقام النبوة، والغلو في الولي.

وثانيهما: خدش مقام النبوة، والحط من منزلة الرسالة، وتنقيص الأنبياء، وربما فضلوا خاتم الأولياء على جميع الأنبياء.

٤٥- إن أجلى ما تتضح به صورة الواسطة البدعية عند الصوفية في الأحياء هو دعوتهم الصريحة إلى تعلق المريدين بوسائطهم حال الحياة؛ حيث يصرح المتبوعون من الشيوخ لأتباعهم أن بيدهم الخلاص، والفلاح لمن توجه إلى الله تعالى بواسطتهم، وتعلق بهم، وآوى إلى جنابهم، ودخل ساحتهم.

٤٦- ثم تتأكد هذه العلاقة، وتتوطد بين الشيخ، والمريد بعد وفاة الشيخ، وبعد أن يصبح في عالم البرزخ، واتضح أن الصوفية في صورة الواسطة البدعية في الأموات اتبعوا سنن الرافضة في التعلق بالمقبورين، والعكوف على قبورهم.

٤٧- اتضح أن نظرة الصوفية لشيوخهم "وسائطهم" عموما تتميز بالغلو الزائد، والتقديس المشين، فادعوا عصمتهم، وهولوا من قدراتهم، وطاقاتهم، وادعوا أن الشيخ يطرح عن المريد الخطايا، والمعاصي، فأصبحوا يحلفون بهم، ويحكون عنهم حكايات، وقصص خرافية بعيدة عن الحقيقة والواقع، وأصبح الشيخ عند الصوفية عالما خرافيا تنسج حوله الأساطير، والتصورات الخاطئة.



٤٨- إن الشبهات التي تتشبث بها الصوفية لتبرير التعلق بالوسائط البدعية أنواع :-

فمنها شبهات عامة، بعضها آيات ليس فيها دليل لهم، وآحاديث ضعيفة أو موضوعة لا حجة فيها، أو أحاديث صحيحة ليس فيها مستند لهم.

ومنها شبهة التسبب، والكسب، وشبهة المجاز العقلي.

ومنها شبهات تتعلق بالأنبياء عليهم السلام: كالتوسل بهم، وقياس وساطتهم في العبادة على وساطتهم في التبليغ، وقياس حياتهم البرزخية على حياتهم الدنيوية، وقياس جواز التوجه إلى النبي ﷺ بالطلب قياسا على شفاعته يوم القيامة.

ومنها شبهات تتعلق بالأولياء، والصالحين: مثل شبهة الولاية، والكرامة، وشبهة البركة.

ومنها حكايات، ومنامات يروونها عن شيوخهم، ووسائطهم.

٤٩- ومن النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث اكتشاف أن رسالة الواسطة التي تنسب للعز بن عبد السلام رحمه الله هي نفسها رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية " الواسطة بين الحق والخلق " كما سبقت الإشارة إلى ذلك في المقدمة.

٥٠- وجدت أن السبب في تعلق الصوفية بالمقبورين، والتماس المدد منهم سببه هو تلك التصريحات التي كانت تصدر من الوسائط المزعومة للمريدين في حياتهم، كتخليص المريد من المآزق، وتثبيته عند القلق، ونفعه، أو ضره -كما وضحته صورة الواسطة البدعية عندهم في الأحياء- مما مهد للكثير من الممارسات البدعية عند قبور هؤلاء الوسائط -كما وضحته صورة الواسطة البدعية عندهم في الأموات-.

٥١- تحاول هذه الرسالة أن تأخذ بيد المسلم كي يصفي العلاقة بينه وبين ربه عز وجل من الشوائب، والمكدرات، ولكي يتخلى عن العلائق، والعوائق، والشواغل، والحوائل التي تحول بين العبد وربه؛ لإخلاص العبادة لله تعالى، وعدم صرف شيء منها لغيره تعالى، لا لنبي مرسل، ولا لملك مقرب، ولا لإمام منصوب، ولا لولي محبوب.

٥٢- إن التناقض عند أهل الأهواء في باب الواسطة أمر عجيب فبينما نجد كثيرا منهم يدعون المريدين إلى التعلق بالله تعالى، ونكران الخلق، وعدم الالتفات إلى الأسباب، ويدعون إلى التوحيد الخالص، كقول أبي يزيد البسطامي: (استغاثة المخلوق



بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق) تجدهم في الجانب الآخر يصفون أنفسهم بما لا يوصف به إلا رب العزة، والجلال، كقول أبي يزيد نفسه (سبحاني ما أعظم شأني)، ويتطاولون على مقام النبوة، كقول أبي يزيد نفسه : (وقع في خاطري أني أشفع لك إلى ربي) . . . إلى غير ذلك من التناقضات .

٥٣- اتضح لي من خلال هذا البحث وقوع الرافضة، والصوفية في الكذب؛ حيث كذبت الرافضة على الأئمة من آل البيت -رحمهم الله- فادعت أنهم واسطة بينهم، وبين الله تعالى، والأئمة بريئون من هذا الزعم الكاذب، بينما كذب غلاة أئمة الصوفية، ومشايخها الضالون على المريدين من أتباعهم، فادعى كثير من مشايخهم أنهم واسطة بينهم، وبين الله تعالى، فكذب التابع على المتبوع عند الطائفة الأولى، وكذب المتبوعون على أتباعهم عند الطائفة الثانية، وفي الصوفية قد يكذب التابع على المتبوع فيجتمع فيهم النوعان .

٥٤- أن المرء الموحد الذي أنقذه الله من مهاوي البدع، وخصوصا التعلق بغير الله تعالى من العبيد المخلوقين، والوسائط المزعومين، والتذلل لهم، والانكسار أمامهم هذه النعمة توجب عليه الفرح بالتوحيد، والخوف من سلبه .

٥٥- أثمرت الواسطة الشرعية لأهل السنة آثارا مباركة ذاقوا حلاوتها : ومن تلك الآثار : طلب نيل رضوان الله تعالى، ودخول جنته، وتحقيق التوحيد الخالص، وحازوا الطمأنينة، والثبات، وشعروا بالعزة، والقوة، والنصر، وعلموا أن حصول السيادة، والاستخلاف في الأرض سببه التوحيد، وأن الالتزام بالواسطة الشرعية يحقق الوحدة بين المسلمين .

٥٦- كما نجم عن القول بالواسطة البدعية آثار سيئة في عقائد أهل الأهواء : مثل وقوعهم في التشبيه، والشرك، والحيرة، والشك، والضياع، كما نتج عن القول بالواسطة البدعية الذلة، والانكسار لغير الله تعالى، وضياع عمل المبتدع لتوزعه بين الوسائط، كما سببت الواسطة البدعية انتشار الضعف بين المسلمين، وانشطار شملهم .

التوصيات المقترحة:

أوصي نفسي، وإخواني المسلمين بالتمسك بالإسلام روحا، ومظهرا، فهي وصية



إبراهيم، ويعقوب على نبينا وعليهما السلام: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1].

ثم أرى أن هناك مسألة جديرة بالتحقيق، والتتبع في بحث مستقل ألا وهي: أن معظم شيوخ الطرق، والوسائط المزعومين- إن لم يكونوا كلهم- يسطو المتأخر منهم على دعاوى المتقدم، فدعوى أن من نظر إليه الولي الفلاني يموت في الحال، وأن من نظر إليه الكامل الفلاني يدخل الجنة، وكون الواسطة الفلاني ختمت به الولاية، وأن القطب الفلاني هو واسطة الفيض إلى غيره من الأولياء، والصالحين كل هذه الدعاوى، وغيرها كثير يوجد عند بعض المتأخرين، ويوجد من سبقهم إلى القول به من أقطاب التصوف المتقدمين.

كما أرى أنه ينبغي أن تفرد رسالة علمية في بيان شبهات أهل الأهواء، فهي كثيرة ومتناثرة.

وأخيرا: أرى أن الأسلوب الأمثل لمعالجة مسألة الواسطة البدعية عند أهل الأهواء، وغيرها من الأخطاء العقدية ينبغي أن يكون بالحكمة، واختيار الأسلوب النافع المؤثر.

ومن جميل ما وقفت عليه في هذا المجال ما ذكره الشيخ عطية محمد سالم عن منهج الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمهما الله تعالى- في الدعوة إلى الله، وأنه ألقى محاضرة في نيجيريا حول الغلو في الأشخاص، فكان من حكمته، وبصره بالدعوة أن أخذ يحث على العمل الصالح، ويبين للناس أن يوم القيامة لا ينفع مال، ولا بنون، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، ثم أخذ يمثل بالرسل ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[2].

(فهذان نبيان كريمان لم يغنيا عن زوجتيهما شيئا، وولد نوح يبتلعه الطوفان، وهو ينظر إليه، ولم يملك له شيئا، وهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام لم يغن عن أبيه من الله شيئا، فقد ألح في دعوته إلى الله، ولكن أصر وعاند، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، وهذا سيد الخلق صاحب الشفاعة العظمى حين يقول كل نبي (نفسي نفسي) ويتقدم هؤلاء قائلا: (أنا لها) يقول لابنته التي هي بضعة منه: (يا فاطمة اعملي فإني لا أغني عنك من

---

(1) سورة البقرة، الآية: ١٣٢ (2) سورة التحريم، الآية: ١٠.



الله شيئا).

وهكذا كانت محاضرته رحمه الله، ولم يتعرض لشخص بعينه، ولا إلى عمل معين، ولما انصرفنا جاء رجل يتوكأ على عصا، فسلم على الشيخ، وقال له: لقد حطمت الأصنام التي كانت هنا، فقال له: متجاهلا: أي أصنام في بلد مسلم؟ فقال: إذا كان الرسل: نوح، ولوط، وإبراهيم، ومحمد صلوات الله، وسلامه عليهم لم يستطيعوا مساعدة أقرب الناس إليهم من أب، أو ابن، أو زوجة، فهل هؤلاء الذين يدعون أنهم شيوخ يستطيعون نفع أتباعهم يوم يقول كل نبي: نفسي، نفسي، ولا شك أن هذا المفهوم وجد عند الكثيرين)[1].

اللهم رب جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السموات، والأرض، عالم الغيب، والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق، بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

رجـــاء: أوجه رجائي لكل من يتصفح هذا العمل البشري، ويقرأ هذه الرسالة إن وجد صوابا أن يدعو لي، وإن وجد خطأ أن يصلحه، ويلتمس لي العذر فيه، وأقول له: -

يـا من يراها منصفا　　　يقرأهـا مغتبطـا

أهديتكم صوابها　　　فاهدي إلينا الغلطَا

وادع لنا عقبها　　　وأوَّلاً ووسطَا

وبذكر هذه التوصيات وبعد هذا الرجاء أكون قد انتهيت من هذه الرسالة المباركة إن شاء الله، فالحمد لله أولا وآخرا، وظاهرا، وباطنا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليما كثيرا، وجزاه الله عنا أفضل ما جزى نبيا عن أمته.

---

(١) ضرورة الدعوة إلى الله وأثرها، تأليف الشيخ عطية محمة سالم ص٥٤.



فهرس المصادر والمراجع

١- **القرآن الكريم**

٢- **الآثار الواردة عن أئمة السنة في أبواب الاعتقاد من كتاب سير أعلام النبلاء**

٣- **للذهبي**،د/ جمال بشير بادي ـ دار الوطن ـ الرياض ـ ١٤١٦هـ.

٤- **الآداب الشرعية والمنح المرعية** ،لابن مفلح ـ مكتبة الرياض ـ الرياض ـ ١٣٩١هـ.

٥- **الآيات البينات في عدم سماع الأموات عند الحنفية السادات**، نعمان الألوسي ـ تحقيق: الشيخ الألباني ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط٤ ـ ١٣٩١هـ.

٦- **آيات الهداية والاستقامة في كتاب الله تعالى** ، الشيخ عطية محمد سالم ـ مكتبة دار التراث ـ المدينة المنورة ـ ط١ ـ ١٤١٤هـ.

٧- **الأئمة الاثنا عشر**، لابن طولون ـ تحقيق: صلاح الدين المنجد ـ دار صادر ـ ١٩٥٨م.

٨- **أئمة المسجد الحرام ومؤذنوه في العهد السعودي**، عبدالله سعيد الزهراني ـ ط١ ـ الرياض ـ ١٤١٩هـ.

٩- **أبو حامد الغزالي والتصوف**، عبدالرحمن دمشقية ـ دار طيبة ـ الرياض ـ ١٤٠٦هـ.

١٠- **أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة**، د/ عبدالله الجربوع ـ رسالة ماجستير غير منشورة ـ بالجامعة الإسلامية.

١١- **أثر العقيدة في بناء الفرد والمجتمع**، د/ عبدالعال مكرم ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٤٠٨هـ.

١٢- **أثر علامة القصيم الشيخ عبدالرحمن بن سعدي على الحركة العلمية المعاصرة** ، د/ عبدالله الطيار ـ دار العاصمة ـ الرياض ـ ١٤١٦هـ.

١٣- **الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة**، للشيخ عبدالرحمن الدوسري ـ مكتبة الرشد ـ الرياض ـ ط٢ ـ ١٤٠٣هـ.

١٤- **الأحاديث الموضوعة** ، للصنعاني

١٥- **الأحاديث الواردة في فضائل المدينة جمعا ودراسة** د/ صالح الرفاعي ـ مركز خدمة السنة بالجامعة الإسلامية ـ ط١ ـ ١٤١٣هـ.

١٦- **أحكام أهل الذمة** ، لابن قيم الجوزية ـ تحقيق: صبحي الصالح ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٤٠١هـ.

١٧- **أخبار القرامطة** ، د/ سهيل ركار ـ طبعة دار الكوثر.

١٨- **أخبار القضاة** ، وكيع بن حيان ـ تحقيق: عبدالعزيز المراغي ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ١٣٩٩هـ.

١٩- **أدب العبودية** ، محمد مصطفى عبدالرحمن ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ـ ١٤٠٤هـ.

٢٠- **الأدب المفرد**، للإمام البخاري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٣٩٨هـ.

٢١- **أدب الوزير، للماوردي** ـ مكتبة الخانجي ـ مصر ـ ١٣٩٨هـ.

٢٢- **أدبيات الشاي والقهوة**، محمد طاهر الخطاط الكردي .
٢٣- **الأركان الأربعة: الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج**، لأبي الحسن الندوي ـ دار القلم ـ الكويت ـ ١٣٩٨هـ.
٢٤- **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، أحمد المقري ـ تحقيق : مصطفى السقا ، وآخرين ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٩م .
٢٥- **أساس البلاغة** ، للزمخشري ـ تحقيق : الكوثري ـ دار إحياء التراث ـ بيروت ـ ١٣٥٨هـ .
٢٦- **أسباب النزول** ، للواحدي ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ـ ١٣٧٩هـ .
٢٧- **الأسس العقدية التشريعية والأخلاقية كما تصورها سورة النجم** ، د/ محمد عمر حوية الشنقيطي ـ دار القبلة ـ جدة ت ١٤١٢هـ.
٢٨- **الأسماء والصفات** ، للبيهقي ـ تحقيق : الكوثري ـ دار إحياء التراث ـ بيروت ـ ١٣٥٨هـ .
٢٩- **الأصل الجامع لعبادة الله** ، للشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ ضمن مؤلفات الشيخ قسم العقيدة ـ طبعة جامعة الإمام بالرياض ـ ١٤١٣هـ.
٣٠- **أصل الدين عند الأئمة وسلف الأمة**، عبد المحسن الشاذلي ـ دار طيبة ـ الرياض ـ ١٤١١هـ.
٣١- **أصل الشيعة وأصولها** ،محمد الحسيني الكاشف الغطاء ـ مكتبة النجاح ـ القاهرة ـ ط١٠ـ ١٣٧٧هـ.
٣٢- **الأصمعيات** ، للأصمعي ـ تحقيق : أحمد محمد شاكر ، وآخر ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ط٤ـ ١٩٧٦م .
٣٣- **الأصنام** ، لابن الكلبي ـ تحقيق : أحمد زكي ـ المطبعة الأميرية .
٣٤- **أصول الحديث**: علومه ومصطلحه ، محمد عجاج الخطيب ـ دار المعارف ـ دمشق ـ ١٤٠٨هـ.
٣٥- **أصول الدين**، عبدالقاهر البغدادي ـ طبعة مدار الفنون ـ استنبول ـ ١٣٤٦هـ.
٣٦- **أصول الدين** ، للبزدوي ـ تحقيق : هانز بيتر لتس ـ ط دار إحياء الكتب العربية ـ مصر ـ ١٣٨٣هـ.
٣٧- **أصول الدين الإسلامي** ، محمد إبراهيم التويجري
٣٨- **أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة**، د/ محمد بن عبدالرحمن الخميس ـ دار الصميعي ـ ط١ـ ١٤١٦هـ.
٣٩- **أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية عرض ونقد**، د/ ناصر بن عبدالله القفاري ـ دار الرضا ـ مصر ـ ط٣ـ ١٤١٨هـ.
٤٠- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ـ ١٤١٧هـ.



٤١- **أعلام السنة المنشورة** ، للحكمي - تعليق : مصطفى الشلبي - مكتبة السوادي - جدة - ط٢ - ١٤٠٨هـ

٤٢- **أعلام العراق في تراجم نوابغ الألوسيين** ، محمد بهجة الأثري - ط السلفية ١٣٤٥هـ .

٤٣- **أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث** ، أحمد تيمور باشا - تقديم : السيد محمد يوسف - لجنة نشر المؤلفات التيمورية - القاهرة - ١٣٨٧هـ .

٤٤- **أعلام الموقعين عن رب العالمين**، لابن قيم الجوزية - تعليق : طه عبدالرؤوف سعد - دار الجيل - بيروت

٤٥- **أعلام النبوة**، للماوردي - مراجعة : طه عبدالرؤوف سعد - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - ١٣٩١هـ .

٤٦- **الأعلام قاموس تراجم** ، خير الدين الزركلي - ط ٣+ ط ٥ ١٩٨٠م دار العلم للملايين - بيروت .

٤٧- **أعمال القلوب وأثرها في الإيمان** ، محمد دوكوري - رسالة دكتوراه - غير منشورة بالجامعة الإسلامية .

٤٨- **الأغاني** ، لأبي فرج الأصفهاني - ط دار الكتب المصرية .

الأم ، للإمام الشافعي المطلبي - تصحيح : محمد النجار - مكتبات الكليات الأزهرية - القاهرة .

٤٩- **الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع**، للسيوطي - تحقيق : مشهور حسن سلمان - دار ابن القيم - الدمام ١٤١٠هـ .

٥٠- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، لشيخ الإسلام ابن تيمية - تعليق : محم دبن رسلان - دار العلوم الإسلامية - القاهرة - ١٤٠٩هـ .

٥٢- **الأمنية في إدراك النية**، أحمد بن إدريس الصنهاجي - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٤هـ .

٥٣- **الأنساب** ، للسمعاني - مصور بالأوفست

٥٤- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)**، للبيضاوي - دار الطباعة المعمورة - القاهرة - ١٣٨٥هـ .

٥٥- **أنوار الحق في الصلاة على سيد الخلق**، عبدالمقصود سالم ، مكتبة شركة الشمرلي بالقاهرة ط١٨ ، صنة ١٤٠٦هـ .

٥٦- **الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة**، للمعلمي - المطبعة السلفية - القاهرة - ١٣٧٨هـ .

٥٧- **الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية**، يوسف النبهاني - طبعة ١٣١٢هـ .

٥٨- **الأنوار النعمانية** ، نعمة الله الجزائري الرافضي ـ مطعبة شركة جاب ـ إيران .
٥٩- **أنيس الفقهاء** ، للقونوي ـ تحقيق : د/ أحمد بن عبدالله الكبيسي ـ دار الوفاء ـ جدة ـ ١٤٠٦هـ .
٦٠- **أهل الصفة وأحوالهم** ، شيخ الإسلام ابن تيمية ـ تحقيق : مجدي فتحي السيد ـ دار الصحابة ـ مصر ـ ١٤١٠هـ .
٦١- **أهل الفترة ومن في حكمهم** ، موفق شكري ـ مؤسسة علوم القرآن بعجمان ـ ١٤٠٩هـ .
٦٢- **أوضح الإشارة في الرد على من أجاء الممنوع من الزيارة** ، أحمد بن يحيى النجمي ـ ط الرئاسة العامة للبحوث العلمية والدعوة والإرشاد ـ الرياض ـ ط١ ـ ١٤٠٥هـ .
٦٣- **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة** ، لابن بطة العكبري ـ تحقيق : رضا بن نعسان معطي ـ ط دار الراية ـ الرياض ـ ١٤٠٩هـ .
٦٤- **الإبريز من كلام سيدي عبدالعزيز**، أحمد بن مبارك اللطمي ـ مطبعة عبدالحميد حنفي ـ مصر .
٦٥- **إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين**، للزبيدي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٩هـ .
٦٦- **إتحاف النبلاء بسير العلماء**، راشد عثمان الزهراني ـ دار الصيمعي ـ الرياض ـ ط١ ـ ١٤١٦هـ .
٦٧- **الإتقان في علوم القرآن** ، للسيوطي ـ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الهيئة المصرية ـ للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٤م .
٦٨- **إثبات الشفاعة**، للذهبي ـ تحقيق : إبراهيم باجس ـ أضواء السلف ـ ط١ ـ ١٤٢٠هـ .
٦٩- **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، للسان الدين بن الخطيب ـ تحقيق : محمد عنان ـ مكتبة الخانجي ـ ط١ ـ ١٩٧٤م .
٧٠- **الإحكام في أصول الأحكام** ، للآمدي ـ مطبعة دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٣٣٢هـ .
٧١- **إحياء الشريعة في مذهب الشيعة** ، محمد بن مهدي الكاظمي ـ الخالصي ـ مطبعة المعارف ـ بغداد ط١ ـ ١٣٧٠هـ .
٧٢- **إحياء علوم الدين**، الغزالي ـ المطبعة العثمانية ـ مصر ـ ١٣٥٢هـ .
٧٣- **الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد**، د/ صالح الفوزان ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ـ ١٤١١هـ .
٧٤- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود)**، لأبي السعود ـ دار إحياء التراث العربي
٧٥- **إرشاد الفحول إلى معرفة الحق من علم الأصول**، محمد بن علي الشوكاني ـ مكتبة محمد علي صبح

٧٦- **إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين**، عبدالباقي اليماني ـ تحقيق: عبدالمجيد دياب ـ مركز الملك ـ فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ـ الرياض ـ ١٤٠٦هـ.
٧٧- **الإعلام بقواطع الإسلام**، لابن حجر الهيتمي ـ مطبعة منصور محمد ـ ١٢٩٣هـ.
٧٨- **الإعلام بوفيات الأعلام**، للذهبي ـ تحقيق: رياض مراد، وآخر ـ ط دار الفكر المعاصر ـ بيروت.
٧٩- **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**، لابن قيم الجوزية ـ تحقيق: مجدي فتحي السيد ـ ط دار الحديث ـ القاهرة.
٨٠- **إقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله أو صدق الكذبة والعرافين**، لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز ـ طبعة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء ـ الرياض ـ ١٤٠٤هـ.
٨١- **الإكليل في استباط التنزيل** ، للسيوطي ـ تصحيح: الغماري ـ دار الكتاب العربي ـ القاهرة.
٨٢- **إلى التصوف يا عباد الله** ، للشيخ أبي بكر الجزائري ـ مطبعة المدني ـ مصر ـ ط١ ـ ١٤٠٨هـ.
٨٣- **الإمام الصادق حياته وعصره**، محمد أبو زهرة ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ بدون تاريخ ـ.
٨٤- **الإمام محمد بن نصر المروزي وجهوده في بيان عقيدة السلف والدفاع عنها** ، لموسم النفيعي دار الوطن بالرياض.
٨٥- **الإمامة عند الشيعة الاثني عشرية**، جلال الدين صالح ـ رسالة ماجستير ـ غير منشورة ، بالجامعة الإسلامية.
٨٦- **إنباه الرواة على أنباة النحاة**، جمال الدين القفطي ـ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر العربي ـ ط١ ـ ١٩٨٦م.
٨٧- **الإنصاف في حقيقة الأولياء ومالهم من الكرامات والألطاف**، للصنعاني ـ تحقيق: مجموع من طلبة العلم بإشراف د/ حسن بن علي العواجي ـ ط١ ـ ١٤١٧هـ.
٨٨- **إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد**، محمد بن المرتضى اليماني المشهور بابن الوزير ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٤٠٧هـ.
٨٩- **إيضاح الدلالة في عموم الرسالة**، لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ـ إدارة الطباعة المنيرية ـ القاهرة ـ ١٣٤٣هـ.
٩٠- **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون** ، للبغدادي تصحيح محمد شرف الدين ، المكتبة الإسلامية بطهران، ط ثالثة ١٣٧٨ .
٩١- **ابن هاني الأندلسي متنبي المغرب**،أبو القاسم كردُّ ـ الدار العربية للكتاب ١٩٨٤م.
٩٢- **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، للمقريزي ـ تحقيق: د/ جمال الدين الشيال ـ ط القاهرة ـ ١٩٦٧م.



٩٣- **اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية** ، لابن قيم الجوزية ـ مكتبة ابن تيمية ـ ١٩٨٨م.

٩٤- **الاستقامة** ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ تحقيق : د/ محمد رشاد سالم ـ ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ ط١ـ ١٤٠٣هـ.

٩٥- **استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس،** لابن رجب الحنبلي ـ تحقيق : أحمد عبدالرحمن الشريف ـ دار الخاني ـ الرياض ـ ١٤١١هـ.

٩٦- **الاعتقاد على مذهب أهل السنة والجماعة** ، للبيهقي ـ تصحيح : أحمد موسى ـ ١٩٦١م.

٩٧- **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين،** للفخر الرازي ـ تحقيق : عبدالرؤوف ، وآخر ـ مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٨م.

٩٨- **الاقتصاد في الاعتقاد،** للغزالي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٣هـ.

٩٩- **الاقتصاد في الاعتقاد** ، للحافظ عبدالغني المقدسي ـ تحقيق : د/ أحمد عطية الغامدي ـ مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة ـ ١٤١٤هـ.

١٠٠- **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم،** لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ تحقيق : د/ ناصر العقل ـ مكتبة الرشد ـ ط٤ـ ١٤١٤هـ.

١٠١- **الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد،** عبدالرحيم الخياط المعتزلي ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ـ ١٩٧٥م.

١٠٢- **الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء،** لابن عبدالبر ـ مكتبة القدس ـ القاهرة ـ ١٣٥٠هـ.

١٠٣- **الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين** ، علي بخيت الزهراني ـ تقديم : محمد قطب ـ مكتبة دار طيبة ـ مكة المكرمة ـ ط٢ـ ١٤١٨هـ.

١٠٤- **الباعث على إنكار البدع والحوادث،** لأبي شامة المقدسي ـ تحقيق : عثمان أحمد عنبر ـ ط دار الهدى ـ القاهرة ـ ١٣٩٨هـ.

١٠٥- **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار،** محمد باقر المجلسي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت

١٠٦- **بحر الدموع،** لابن الجوزي ـ تحقيق : إبراهيم عبدالمجيد ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٤١٤هـ.

١٠٧- **بد العارف،** لابن سبعين ـ تحقيق : د/ جورج كتورة ـ دار الأندلس ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٧٨م.

١٠٨- **البدء والتاريخ،** للبلخي ـ وينسب للمقدسي ـ مكتبة المثنى ـ بغداد

١٠٩- **بدائع الفوائد** ، لابن قيم الجوزية ـ ط دار الفكر.

١١٠- **البداية والنهاية،** لابن كثير ـ تحقيق : د/ أحمد أبو ملحم ، وآخرين ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٨٥م.

١١١- **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع** ، الشوكاني ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة.

١١٢- **البدعة وأثرها السيء في الأمة**، سليم الهلالي - المكتبة الإسلامية - الأردن - ١٤٠٤هـ.
١١٣- **البدور السافرة في أمور الآخرة**، جلال الدين السيوطي - خرج أحاديثه : أبو محمد المصري - مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - ط١ - ١٤١١هـ.
١١٤- **البرهان الساطع في تبرؤ المتبوع من التابع**، محمد سلطان المعصومي - دار الراية - ط١ - ١٤١٢هـ.
١١٥- **البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان** ، للسكسكي - تحقيق : بسام العموش - مكتبة المنار - الأردن - ١٤٠٨هـ.
١١٦- **بروتوكولات آيات قم حول الحرمين المقدسين**، د/ عبدالله الغفاري - ١٤١١هـ.
١١٧- **البريلوية عقائدة وتاريخ**، إحسان إلهى ظهير - الناشر إدارة ترجمان السنة - لاهور - ط١ - ١٤٠٣هـ.
١١٨- **بستان الواعظين ورياض السامعين** ، لابن الجوزي - مراجعة : السيد الجميلي - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤١٠هـ.
١١٩- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، للفيروزآبادي - تحقيق : محمد النجار ، وآخر - ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٩٣هـ.
١٢٠- **بطلان عقائد الشيعة** ، للتونسوي - دار العلوم للطباعة - ١٤٠٨هـ.
١٢١- **البغوي ومنهجه في التفسير** ، عفاف عبدالغفور - دار الفرقان - عمان - ١٤٠٢هـ.
١٢٢- **بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتحاد**، لشيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق : د/ موسى الدويش - مكتبة العلوم والحكم - ط١ - ١٤٠٨هـ.
١٢٣- **بغية المستفيد لشرح منية المريد** ، محمد العربي السائح التجاني - دار الجيل - بيروت
١٢٤- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، للسيوطي - تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم دار الفكر - ط٢ - ١٩٧٩م.
١٢٥- **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، محمود شكري الألوسي - تحقيق : محمد بهجت الأثري - دار الكتب الحديثة - القاهرة - ط٣
١٢٦- **بيان الشرك ووسائله عند أئمة الحنفية**، د/ محمد الخميس - دار الفتح - الشارقة - ط١ - ١٤١٤هـ.
١٢٧- **بيان حقيقة التوحيد الذي جاءت به الرسل و دحض الشبهات التي أثيرت حوله** ، الشيخ صالح الفوزان - ط مركز شؤون الدعوة بالجامعة الإسلامية - المدينة المنورة - ط١ - ١٤١٣هـ.
١٢٨- **التأدب مع الرسول ﷺ في ضوء الكتاب والسنة**، حسن نور حسن - دار المجتمع - جدة - ١٤١٢هـ.
١٢٩- **تأويل مختلف الحديث**، لابن قتيبة - تحقيق : عبدالقادر عطا - دار الكتب الإسلامية - القاهرة -



ط١ـ ١٤٠٢هـ.

١٣٠ - **تاج العروس**، للزبيدي ـ تحقيق : عبدالكريم العزباوي ـ ط حكومة الكويت .

١٣١ - **تاريخ ابن خلدون** (المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر) ، لابن خلدون ـ تصحيح : خليل شحادة ، وآخر ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط١ـ ١٩٨١م .

١٣٢ - **تاريخ الأمم والملوك**، الطبري ـ تحقيق : محم دأب الفضل إبراهيم ـ دار السويدان ـ بيروت .

١٣٣ - **تاريخ الشعوب الإسلامية** ، كارل بروكلمان ـ تعريب : نبيه فارس ، وآخر ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٦٨م .

١٣٤ - **تاريخ اليعقوبي**، طبعة دار صادر

١٣٥ - **تاريخ بغداد أو دار السلام**، للخطيب البغدادي ـ ط دار الكتاب العربي ـ بيروت .

١٣٦ - **تاريخ حكماء الإسلام**، ظهير الدين البيهقي ـ تحقيق : محمد كرد علي ـ مطبعة الترقي ـ دمشق ـ ط٢ـ ١٩٧٧م .

١٣٧ - **تاريخ دمشق** ، لابن عساكر ـ مصور بالأوفست من نسخة المكتبة الظاهرية ـ دمشق ـ نشر مكتبة الدار المدينة المنورة .

١٣٨ - **تبديد الظلام وتنبيه النيام إلى خطر التشيع على المسلمين والإسلام**، إبراهيم الجبهان ـ ط٣ـ ١٤٠٨هـ.

١٣٩ - **التبرك أنواعه وأحكامه** ، د: ناصر بن عبدالرحمن الجديع ـ مكتبة الرشد ـ الرياض ـ ط٣ـ ١٤١٥هـ.

١٤٠ - **التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكة**، أبو المظفر الأسفراييني ـ تعليق : الكوثري ـ مطبعة الأنوار ـ ط١ـ ١٩٤٠م .

١٤١ - **التبيان في آداب حملة القرآن** ، للنووي ـ تحقيق : تشير محمد عيون ـ مكتبة المؤيد ـ الطائف ـ ١٤١٢هـ.

١٤٢ - **تثبت دلائل النبوة** ، للقاضي عبدالجبار الهمداني ـ تحقيق : د/ عبدالكريم عثمان ـ دار العرب ـ بيروت ـ ١٣٨٦هـ.

١٤٣ - **التجانية دراسة لأهم عقائدها على ضوء الكتاب والسنة**، د: علي بن محمد آل دخيل الله ـ دار العاصمة ـ الرياض ـ ط٢ـ ١٤١٩هـ.

١٤٤ - **تجريد التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد** ، لابن عبدالبر القرطبي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٤٥ - **تجريد التوحيد المفيد**، للمقريزي ـ تصحيح : طه الزيني ـ مركز شؤون الدعوة بالجامعة الإسلامية ـ ط٣ـ ١٤٠٩هـ.

١٤٦ - **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، المباركفوري ـ مراجعة : عبداللطيف عبدالوهاب ـ



المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ـ ١٣٨٣هـ.

١٤٧ - **التحفة السنية بتوضيح الطريقة التجانية**، محمد البرناوي ـ مركز شؤون الدعوة بالجامعة الإسلامية ـ ط١

١٤٨ - **تحفة الطالب والجليس في الرد على المفتري داود بن جرجيس**، الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن آل الشيخ.

١٤٩ - **التحفة العراقية في أعمال القلوب**، لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ تحقيق: سليمان الحرشي ـ دار الهدى ـ الرياض ـ ١٤٠٧هـ.

١٥٠ - **تخريج أحاديث إحياء علوم الدين**، للعراقي ـ دار العاصمة ـ الرياض ـ ١٤٠٨هـ.

١٥١ - **تذكرة الحفاظ**، للذهبي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط٧

١٥٢ - **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**، لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي ـ دار الريان للتراث ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٤٠٧هـ.

١٥٣ - **ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، للطاهر الزاوي ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ مصر ـ ط٢ ـ ١٣٩٠هـ.

١٥٤ - **ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي**، د/ عبدالرحمن السديس، دار الهجرة بالرياض، ط أولى ١٤١٢هـ.

١٥٥ - **الترغيب في الدعاء**، للحافظ عبدالغني المقدسي ـ تحقيق: فالح الصغير ـ دار العاصمة ـ الرياض ـ ١٤١٧هـ.

١٥٦ - **الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك**، لابن شاهين ـ تحقيق: صالح الوكيل ـ دار ابن الجوزي ـ الدمام ـ ١٤١٥هـ.

١٥٧ - **الترغيب والترهيب**، للمنذري ـ إدارة الطباعة المنيرية ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

١٥٨ - **التشيع ظاهرة طبيعية في إطار الدعوة الإسلامية**، محمد باقر الصدر ـ تعليق: طالب الحسيني ـ

١٥٩ - **التصوف بين الحق والخلق**، محمد شقفة ـ الدار السلفية ـ ط٣ ـ ١٤٠٣هـ.

١٦٠ - **التصوف في ميزان البحث والتحقيق**، عبدالقادر السندي ـ مكتبة ابن القيم ـ المدينة المنورة ـ ١٤١٠هـ.

١٦١ - **التصوف منشأه ومصطلحاته**، د/ أسعد السحمراني ـ دار النفائس ـ بيروت ـ ١٤٠٧هـ.

١٦٢ - **تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد**، محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني ـ بتعليق: علي بن محمد بن سنان ـ مكتبة دار الكتاب الإسلامي ـ المدينة المنورة ـ ١٤١٠هـ.

١٦٣ - **التعرف إلى مذهب التصوف**، للكلاباذي

١٦٤ - **تعريف الخلف بمنهج السلف**، إبراهيم بن محمد البريكان ـ دار ابن الجوزي ـ الدمام ـ ١٤١٨هـ.



١٦٥- **تعظيم قدر الصلاة**، محمد بن نصر المروزي - تحقيق: عبدالرحمن عبدالجبار الفيريوائي - مكتبة الدار بالمدينة المنورة - ١٤٠٦هـ.

١٦٦- **تفسير آيات القرآن عن علاقة الملائكة بالإنسان**، عبدالعزيز بن صالح السلمي - رسالة دكتوراه غير منشورة - بالجامعة الإسلامية .

١٦٧- **تفسير البغوي معالم التنزيل**، للحسين بن مسعود البغوي - تحقيق: عثمان جمعة، وآخرين - دار طيبة - الرياض - ١٤٠٩هـ.

١٦٨- **تفسير القرآن العظيم**، لابن كثير - دار المعرفة - بيروت - ط١ - ١٤٠٧هـ.

١٦٩- **التفسير القيم** ، لابن قيم الجوزية - جمع: محمد أويس الندوي - تحقيق: حامد محمد - لجنة التراث العربي - بيروت - ١٣٦٧هـ.

١٧٠- **التفسير الكبير**، الفخر الرازي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط ٣

١٧١- **التفسير الكبير** ، لشيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق: د/ عبدالرحمن عميرة - دار الكتب العلمية - بيروت .

١٧٢- **تفسير الماوردي النكت والعيون**، للماوردي - مراجعة - عبدالرحيم عبدالمقصود - دار الكتب العلمية .

١٧٣- **تفسير النسفي** ، عبدالله بن أحمد النسفي - ط دار الفكر

١٧٤- **التفسير والمفسرون**، د/ محمد حسين الذهبي - ط١ - ١٣٩٦هـ.

١٧٥- **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، لابن المفضل - تحقيق: د/ عبدالمجيد النجار - دار الغرب الإسلامي - ط١ - ١٤٠٨هـ.

١٧٦- **تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي**، د/ محمد لوح - دار الهجرة - الرياض - ١٤١٦هـ.

١٧٧- **تقريب التهذيب** ، لابن حجر العسقلاني - تحقيق: محمد عوامة - دار الرشيد - حلب .

١٧٨- **تلبيس إبليس** ، لابن الجوزي - تحقيق: لجنة من كبار العلماء - ط دار إحياء الكتب العربية .

١٧٩- **تلخيص كتاب الاستغاثة (المعروف بالرد على البكري)**، شيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق: محمد بن علي عجال - مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة المنورة - ط١ - ١٤١٧هـ.

١٨٠- **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد** ، لابن عبدالبر - طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب - ١٤١١هـ.

١٨١- **تنبيه أولى الأبصار إلى كمال الدين وما في البدع من الأخطار**، الشيخ صالح السحيمي - دار ابن حزم - الرياض - ١٤١٠هـ.

١٨٢- **تنبيه الحذاق على بطلان ما شاع بين الأنام من حديث النور المنسوب لمصنف عبدالرزاق**، محمد أحمد عبدالقادر الشنقيطي - مركز شؤون الدعوة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - ط٢

١٨٣- **التنجيم والمنجمون وحكمهم في الإسلام**، د: عبدالمجيد سالم المشعبي - مكتبة الصديق -

الطائف ـ ط ١ ـ ١٤١٤هـ.

١٨٤ - **تنقيح المقال في علم الرجال**، للمامقاني، عبدالله -المطبعة المرتضوية، النجف ١٣٤٨هـ.

١٨٥ - **إتنوير الأذهان من تفسير روح البيان**، سماعيل حقي البروسوي ـ اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط ١ـ ١٤٠٨هـ.

١٨٦ - **تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك**، للسيوطي ـ دار الندوة الجديدة ـ بيروت

١٨٧ - **تهذيب الأسماء واللغات**، للنووي ـ ط دار الكتب العلمية

١٨٨ - **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، للمزي ـ تحقيق: د/ بشار عواد معروف ـ مؤسسة الرسالة ـ ط١ـ ١٤١٣هـ.

١٨٩ - **تهذيب اللغة**، للأزهري ـ تحقيق: عبدالسلام هارون ـ الدار المصرية ـ ١٩٦٤م.

١٩٠ - **التوحيد**، لابن خزيمة ـ تصحيح: عزت العطار ـ مطبعة إنواز ـ مصر ـ ١٣٥٦هـ.

١٩١ - **توحيد الألوهية أساس الإسلام**، حامد عبدالقادر الأحمدي ـ رسالة ماجستير غير منشورة ـ بالجامعة الإسلامية.

١٩٢ - **توحيد الألوهية أساس الإسلام**، رسالة ماجستير غير منشورة

١٩٣ - **التوسل أنواعه وأحكامه**، للشيخ الألباني ـ جمع: محمد عيد عباسي ـ الدار السلفية ـ الكويت ـ ط٣ـ ١٤٠٥هـ.

١٩٤ - **التوسل حكمه وأقسامه**، للشيخين محمد ناصر الدين الألباني، ومحمد بن صالح العثيمين ـ جمع: علي ابن حسين أبي لوز ـ دار ابن خزيمة ـ الرياض ـ ط١ـ ١٤١٨هـ.

١٩٥ - **التوصل إلى حقيقة التوسل المشروع والممنوع**، محمد نسيب الرفاعي ـ طبع في بيروت ـ ط١ـ ١٣٩٤هـ.

١٩٦ - **التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق**، للشيخ سليمان بن عبدالله آل الشيخ ـ دار طيبة ـ ط١ـ ١٤٠٤هـ.

١٩٧ - **التوضيح والبيان لشجرة الإيمان**، الشيخ السعدي ـ مكتبة دار الأقصى ـ الكويت ـ ١٤٠٦هـ.

١٩٨ - **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد**، الشيخ سليمان بن عبدالله آل الشيخ ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط٧ـ ١٤٠٨هـ.

١٩٩ - **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، الشيخ عبدالرحمن السعدي ـ مطابع الجامعة الإسلامية ـ ١٣٩٨هـ.

٢٠٠ - **ثلاثون سنة بين الموتى**، كارل ويكلاند ـ ترجمة: د/ على راضي ـ دار النهضة العربية ـ ط٢

٢٠١ - **الثمرات الزكية في العقائد السلفية**، جمع: أحمد فريد ـ مكتبة التوعية الإسلامية ـ مصر ـ ١٤٠٩هـ.

٢٠٢ - **ثواب الأعمال الصالحة**، حسين الجمل ـ دار المعراج ـ الرياض ـ ١٤١٥هـ.

٢٠٣ - **جامع الرسائل**، لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ تحقيق: د/ محمد رشاد سالم ـ مطبعة المدني ـ



القاهرة ـ ط١ ـ ١٣٨٩هـ.

٢٠٤- **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم** ، لابن رجب الحنبلي ـ مكتبة طيبة ـ المدينة المنورة ـ ط٢ـ ١٤١٠هـ.

٢٠٥- **جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله**، لابن عبدالبر ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٣٩٨هـ.

٢٠٦- **جامع كرامات الأولياء**، يوسف النبهاني ـ تحقيق : إبراهيم عطوة ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٤١٢هـ.

٢٠٧- **جامعة الجامعة من تراث إخوان الصفا**، تحقيق : عارف تامر

٢٠٨- **الجرح والتعديل**، للرازي ـ طبعة مجلس دائرة المعارف بحيدآباد الدكن ـ ١٣٧١هـ.

٢٠٩- **الجعديات (حديث علي بن الجعد الجوهري)**، لأبي القاسم البغوي ـ تحقيق : رفعت فوزي ـ مكتبة الخانجي ـ مصر ـ ١٤١٥هـ.

٢١٠- **جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام** ، لابن قيم الجوزية ـ تحقيق : محي الدين مستو ـ مكتبة دار التراث بالمدينة المنورة ـ ط٣ـ ١٤١٣هـ.

٢١١- **جلاء العينين في محاكمة الأحمدين**، للسيد نعمان خير الدين الألوسي ـ مطبعة المديني ـ القاهرة ـ ودار المدني بجدة.

٢١٢- **جمهرة أنساب العرب**، لابن حزم ـ تحقيق : عبدالسلام هارون ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٤ـ ١٩٧٧م.

٢١٣- **جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة** ، د/ أحمد الغنيمان ـ رسالة دكتوراه غير منشورة ـ بالجامعة الإسلامية.

٢١٤- **جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية** ، د/ شمس الدين الأفغاني ـ دار الصميعي ـ الرياض ـ ط١ـ ١٤١٦هـ.

٢١٥- **الجواب الباهر في زوار المقابر** ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ شرح : د/ محمود مطرجي ـ دار القلم ـ بيروت ـ ط١ـ ١٤٠٦هـ.

٢١٦- **الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح**، لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ مطابع المجد التجارية.

٢١٧- **الجواب الفائق في الرد على مبدل الحقائق**، الشيخ عبدالله الجبرين ـ مطبعة سفير ـ الرياض ـ ١٤١٠هـ.

٢١٨- **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، لابن القيم ـ تحقيق : سعيد اللحام ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت ـ ط ٣ـ ١٤١١هـ.

٢١٩- **جواهر البحار في فضائل النبي المختار**، للنبهاني ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ـ ١٣٧٩هـ.

٢٢٠- **جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني**، علي حرازم بن العربي

الفاسي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط٢ـ ١٩٧٣م.
٢٢١- **الجواهر والدرر مما استفاده الشعراني من شيخه على الخواص** ، مطبوع بهامش الإبريز لأحمد بن المبارك اللمطي ـ مطبعة عبدالحميد حنفي ـ مصر.
٢٢٢- **حاشية البناني على شرح المحلي لمتن جمع الجوامع** للسبكي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي.
٢٢٣- **حاشية القوشجي على شرح التجريد** ، للطوسي ـ مطبوعة بهامش المواقف
٢٢٤- **حاشية كتاب التوحيد**، عبدالرحمن بن قاسم ـ ط٣ـ بدون تاريخ
٢٢٥- **الحبائك في أخبار الملائك**، للسيوطي ـ تحقيق : محمد بسيوني زغلول ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٨٥م.
٢٢٦- **حجة الله البالغة**، شاه دهلوي ـ مراجعة : محمد شريف ـ نشر دار إحياء العلوم ـ بيروت ـ ١٤١٠هـ.
٢٢٧- **الحجة في بيان المحجة** ، لأبي القاسم الأصبهاني المعروف بقوام السنة ـ تحقيق : د/ محمد ربيع المدخلي ، وآخر ـ دار الراية ـ الرياض ـ ط١ـ ١٤١١هـ.
٢٢٨- **الحجج الباهرة في إفحام الطائفة الكافرة الفاجرة في الرد على الرافضة** ، جلال الدين الدواني ـ تحقيق : د/ عبدالله حاج علي منيب ـ مكتبة الإمام البخاري ـ القاهرة ـ ط١ـ ١٤٢٠هـ.
٢٢٩- **الحد الفاصل بين الإيمان والكفر**، عبدالرحمن عبدالخالق ـ الدار السلفية ـ الكويت ـ ١٤٠٨هـ.
٢٣٠- **الحداثة في منظور إيماني**، د/ عدنان على رضا النحوي ، دار النحوي ، بالرياض ، ط ثالثة ، ١٤١٠هـ.
٢٣١- **حديث الإفك، للحافظ عبدالغني المقدسي** ـ تحقيق : هشام السقا ـ دار عالم الكتب ـ الرياض ـ ١٩٨٥م.
٢٣٢- **الحركات الباطنية في الإسلام**، د/ مصطفى غالب ـ دار الكتاب العربي
٢٣٣- **الحركة الصوفية في الإسلام** ، د/ محمد أبو ريان ـ دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية ـ ١٩٩٤م
٢٣٤- **حرية الاعتقاد في ظل الإسلام**، د/ تيسير العمر ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ١٤١٩هـ.
٢٣٥- **حقائق عن التصوف** ، عبدالقادر عيسى ـ مطبعة البلاغة ـ بحلب ـ ط٢ـ ١٣٩٠هـ.
٢٣٦- **حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة**، د/ محمد خليفة التميمي ـ مكتبة أضواء السلف ـ الرياض ـ ١٤١٨هـ.
٢٣٧- **حقيقة البدعة وأحكامها**، سعيد بن ناصر الغامدي ـ مكتبة الرشد ـ الرياض ـ ط١ـ ١٤١٢هـ.
٢٣٨- **حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية** ، بكر عبدالله أبي زيد ـ دار ابن الجوزي ـ الإحساء ـ ط٢ـ ١٤١٠هـ.



٢٣٩- **حكمة التشريع وفلسفة** ، لعلي الجرجاوي ، ط خامسة بدون ناشر ١٣٨١هـ .
٢٤٠- **الحكمة من إرسال الرسل**، للشيخ عبدالرزاق عفيفي ، دار الصميعي بالرياض ، ط ثالثة ، ١٤٢٠هـ .
٢٤١- **الحكومة الإسلامية (ولاية الفقيه)** ، للخميني ـ ط ١٣٨٩هـ .
٢٤٢- **الحلاَّج** ، د/ جلال شرف ـ مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية ١٩٧٠م .
٢٤٣- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، لأبي نعيم الأصفهاني ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط٣ـ ١٩٨٠م .
٢٤٤- **حماية الرسول ﷺ حمى التوحيد** ، د/ محمد بن زيان الغامدي ـ رسالة ماجستير ـ غير منشورة بالجامعة الإسلامية .
٢٤٥- **الحوادث والبدع** ، للطرطوشي ـ تحقيق : علي بن حسن الأثري ـ دار الأصفهاني ـ جدة .
٢٤٦- **حوار مع المالكي**، عبدالله بن منيع ـ ط الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية ـ ط١ـ ١٤٠٣هـ .
٢٤٧- **الحياة الآخرة ما بين البعث إلى دخول الجنة أو النار**، د/ غالب بن علي العواجي ـ دار لينة ـ مصر ـ ط١ـ ١٤١٧هـ .
٢٤٨- **الحياة الدينية عند العرب بين الجاهلية والإسلام**، محمد حامد الناصر ، وآخرى دار عالم الكتب ـ الرياض ـ ١٤١٧هـ .
٢٤٩- **حياة القلوب بدعاء علام الغيوب** ، لأبي السمح الفقيه ، مطبعة دار نشر الثقافة ، ط ثالثة ١٣٨٠هـ .
٢٤٩- **الحياة في ظل العقيدة الإسلامية** ، زيد المدخلي ـ دار العلم ـ جدة ـ ١٤٠٥ه
٢٥٠- **الخشوع في الصلاة** ، لابن رجب الحنبلي ـ خرّج أحاديث : علي حسن عبدالحميد ـ دار عمّار ـ الأردن ـ ١٩٨٨م .
٢٥١- **الخشوع وأثره في بناء الأمة**، سليم عيد الهلالي ـ دار ابن الجوزي ـ الدمام ط٢ ـ ١٤١٢هـ .
٢٥٢- **خصائص الدعوة الإسلامية**، محمد أمين حسن ـ مكتبة المنار ـ الأردن ـ ط١ ـ ١٤٠٣هـ .
٢٥٣- **خصائص الرسالة المحمدية** ، د/ أحمد مرعي العمري ـ رسالة ماجستير غير منشورة ـ بالجامعة الإسلامية .
٢٥٤- **خصائص القرآن الكريم** ، د/ فهد الرومي ـ ط٣ـ ١٤٠٩هـ .
٢٥٥- **الخصائص الكبرى أو كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب**، للسيوطي ـ تحقيق : محمد خليل هراس ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ـ ١٣٨٧هـ .
٢٥٦- **خصائص المصطفى بن الغلو والجفا**، الصادق بن إبراهيم ـ رسالة ماجستير غير منشورة ـ بالجامعة الإسلامية .
٢٥٧- **خطط المقريزي (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)** ، تقي الدين المقريزي ـ مكتبة

الثقافة الدينية ـ القاهرة .
٢٥٩- **الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الاثني عشرية**، محب الدين الخطيب ـ المطابع الأهلية للأوفست ـ الرياض ـ ط٣ـ ١٤٠٣هـ.
٢٦٠- **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، محمد أمين المحبي ـ المطبعة الوهبية ـ القاهرة ـ ١٣٨٤هـ.
٢٦١- **الخميني وتفضيل الأئمة على الأنبياء** ، محمد مال الله ـ مكتبة ابن تيمية ـ ط٤ـ ١٣٠٩هـ.
٢٦٢- **دائرة المعارف المسماة بمقتبس الأثر ومجدد ما دثر**، الأعلمي الشيعي ـ طبعة دار المعارف .
٢٦٣- **دائرة معارف القرن الرابع عشر**، محمد فريد وجدي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط٣ـ ١٩٧١م .
٢٦٤- **دارسات في الفرق** ، د/ صابر طعيمة ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ـ ١٤٠١هـ.
٢٦٥- **الداعي والمدعي في الدعاء**، لابن عبدالهادي ـ تحقيق : عبدالباسط إبراهيم ـ رسالة ماجستير غير منشورة ، بالجامعة الإسلامية .
٢٦٦- **الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين ﷺ**، للشيخ غالي محم دالأمين الشنقيطي ـ دار القبلة الإسلامية ـ جدة ـ ط٣ـ ١٤١١هـ.
٢٦٧- **الدر المختار في الفقه الحنفي شرحه** ، للحصكفي مكتبة صبيح وأولاده بمصر بدون تاريخ .
٢٦٨- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، للسيوطي ـ مطبعة محمد دمج ـ مصر .
٢٦٩- **درء تعارض العقل والنقل**، شيخ الإسلام ابن تيمية ـ تحقيق : د/ محمد رشاد سالم ـ مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ـ ط١ـ ١٤٠٠هـ.
٢٧٠- **دراسات الأهواء والفرق والبدع وموقف السلف منها** ، د/ ناصر بن عبدالكريم العقل ـ مركز الدراسات والإعلام ـ دار إشبيليا ـ الرياض ـ ط١ـ ١٤١٨هـ.
٢٧١- **دراسات في التصوف** ، إحسان إلهى ظهير ـ تقديم الشيخ صالح اللحيدان ـ إدارة ترجمان السنة ـ باكستان ١٤٠٩هـ.
٢٧٢- **الدرر السنية في الرد على الوهابية** ، أحمد زيني دحلان ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ـ ط٥ـ ١٤٠٥هـ.
٢٧٣- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** ، لابن حجر العسقلاني ـ تحقيق : محمد جاد الحق ـ دار الكتب الحديثة ـ مصر ـ ط٢ ـ ١٩٦٦م .
٢٧٤- **دروس في العقيدة مستفادة من الحج**، د/ عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر ـ ط جمية دار البر ـ دبي .
٢٧٥- **الدعاء** ، للطبراني ـ تحقيق : سعيد محمد البخاري ـ دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ـ ١٤٠٧هـ.
٢٧٦- **الدعاء في الإسلام وأثره في العقيدة والحياة**، سعيد البستاني ـ دار المعرفة ـ دمشق ـ ١٤١٤هـ.
٢٧٧- **الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية** ، جيلان بن خضر العروسي ـ مكتبة الرشد ـ الرياض ـ



ط١ـ ١٤١١هـ.

٢٧٨- **دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب سلفية لا وهابية**، أحمد بن عبدالعزيز الحصين ـ دار عالم الكتب ـ الرياض ـ ط١ـ ١٤٢٠هـ.

٢٧٩- **دعوة الرسل إلى الله تعالى**، محمد أحمد العدوي ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ـ ١٣٥٤هـ.

٢٨٠- **دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين**، محمد الغزالي المصري ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ـ ط٢ـ ١٣٨٣هـ.

٢٨١- **دلائل الخيرات** ، محمد بن سليمان الجزولي ـ مؤسسة الأعلمي ـ بيروت .

٢٨٢- **دلائل النبوة** ، لقوام السنة ـ تحقيق : مساعد الحميد ـ دار العاصمة ـ الرياض ـ ١٤١٢هـ.

٢٨٣- **دلائل النبوة**، لأبي نعيم الأصبهاني ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف بحيدر آباد ـ الهند .

٢٨٤- **دمعة على التوحيد حقيقة القبورية وآثارها في واقع الأمة**، من منشورات المنتدى الإسلامي ـ ط١ـ ١٤٢٠هـ

٢٨٥- **الديانات والعقائد في مختلف العصور** ، أحمد عبدالغفور عطار ـ مكة المكرمة ـ ١٤٠١هـ.

٢٨٦- **الديباج المذهب في ذكر أعيان المذهب**، لابن فرحون المالكي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٢٨٧- **الدين الخالص** ، للسيد محمد صديق حسن القنوجي ـ دار التراث ـ القاهرة

٢٨٨- **ديوان شموخ في زمن الانكسار**، د/ عبدالرحمن صالح العشماوي ، مكتبة العبيكان بالرياض، ط٢ ، ١٤١٢هـ.

٢٨٩- **ديوان أبي العتاهية** ، لأبي العتاهية ـ ط دار صادر ـ بيروت ـ ١٣٨٤هـ .

٢٩٠- **ديوان أبي نواس** ، لأبي نواس ـ بشرح وتحقيق : أحمد الغزالي ـدار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٤٠٤هـ.

٢٩١- **ديوان الأعشى**، للأعشى ـ ط دار صادر ـ بيروت

٢٩٢- **ديوان الإمام الشافعي** ، جمع وتعليق : محمد عفيف الزغبي ـ درا المطبوعات الحديثة ـ جدة ـ ط٥ـ ١٩٨٨م .

٢٩٣- **ديوان البرعي**، شرح محمة سعيد كمال ، مكتبة المعارف بالطائف ، ط أولى ١٤٠٤هـ.

٢٩٤- **ديوان البوصيري** ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ـ ١٣٩٣هـ.

٢٩٥- **ديوان الشماخ**، شرح أحمد بن الأمين الشنقيطي ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ ١٣٢٧هـ .

٢٩٦- **ديوان المتنبي** ، بشرح العكبري ـ تصحيح : مصطفى السقا ، وآخرين .

٢٩٧- **ديوان المتنبي**، للمتنبي ـ بشرح عبدالرحمن البرقوقي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٣٩٩هـ.

٢٩٨- **ديوان حافظ إبراهيم**، تصحيح : أحمد أمين ، وآخرين ـ الناشر : محمد أمين دمج ـ بيروت ـ



١٩٦٩م.

٢٩٩- **ديوان ذي الرمة بشرح أبي النصر الباهلي**، تحقيق: عبدالقدوس أبي صالح - مجمع اللغة العربية بدمشق - ١٣٩٢هـ.

٣٠٠- **ديوان طرفة بشرح الأعلم الشنتمري**، تحقيق: درية الخطيب، ولطفي الصقال - طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق - ١٣٩٥هـ.

٣٠١- **ديوان عنترة العبسي**، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٦هـ.

٣٠٢- **ديوان عنترة العبسي**، ط دار صادر - بيروت

٣٠٣- **ديوان لبيد بن ربيعة العامري**، ط دار صادر - بيروت

٣٠٤- **ذكريات مشاهير رجال المغرب**، عبدالله كنون الحسني - مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني - بيروت - بدون تاريخ

٣٠٥- **ذم الهوى**، لابن الجوزي - تحقيق: مصطفى عبدالواحد - دار الكتب الحديثة - القاهرة - ١٣٨١هـ.

٣٠٦- **الذيل على النهاية في غريب الحديث**، لابن علوش - دار ابن حزم - بيروت - ط١ - ١٤١٧هـ.

٣٠٧- **رجال الشيعة في الميزان**، عبدالرحمن الزرعي - ط١ - ١٩٨٣م.

٣٠٨- **رحلة الحج إلى بيت الله الحرام**، الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - دار ابن تيمية - مصر.

٣٠٩- **الرد الكافي على مغالطات** د/ عبدالواحد وافي، إحسان إلهي ظهير - إدارة ترجمان السنة - بدون تاريخ

٣١٠- **الرد على الأخنائي**، مطبوع بهامش كتاب الاستغاثة لشيخ الإسلام.

٣١١- **الرد على الرافضة**، لأبي حامد المقدسي - تحقيق: عبدالوهاب خليل الرحمن - الدار السلفية بالهند - ط١ - ١٩٨٣م.

٣١٢- **الرد على شبهات المستعينين بغير الله تعالى**، أحمدبن عيسى النجمي - تصحيح: عبدالسلام بن برجس آل عبدالكريم - مطابع دار طيبة - الرياض - ١٤٠٩هـ.

٣١٣- **رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا**، تصحيح: خير الدين الزركلي - المطبعة العربية - مصر - ١٣٧٤هـ.

٣١٤- **الرسائل السلفية في إحياء سنة خير البرية**، محمد بن علي الشوكاني - بتعليق: خالد عبداللطيف العلمي - دا رالكتاب العربي - بيروت - ط١ - ١٤١١هـ.

٣١٥- **رسائل وفتاوى ذم ابن عربي الصوفي**، تحقيق: د/ موسى الدويش - ط١ - ١٤١٠هـ.

٣١٦- **رسالة الأبدال والغوث**، للعز بن عبدالسلام - ضمن كتاب شجرة الإرشاد - جمع: وفاء حسن - مطبعة الصحف - ١٤٠٣هـ.

٣١٧- **رسالة الإسلام نور بدر الظلام**، للسيد عبدالحليم الخطيب - تصحيح: حسنين مخلوف - دار المعرفة - حلب - بدون تاريخ.

٣١٨- **الرسالة التبوكية** ، لابن قيم الجوزية ـ تحقيق : أشرف عبدالمقصود ـ دار الرضوان ـ ١٤١١هـ.

٣١٩- **الرسالة الخالدة** ، عبدالرحمن عزام ـ طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ مصر ـ ط٢ـ ١٣٨٤هـ.

٣٢٠- **رسالة الشرك ومظاهره**، مبارك بن محمد الميلي ـ ط مركز شؤون الدعوة بالجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ـ ط٢ـ١٤٠٨هـ.

٣٢١- **الرسالة القشيرية في علم التصوف**، ابو القاسم القشيري ـ تحقيق : معروف زريق ، وآخر ـ دار الخير ـ بيروت ـ ط١ـ ١٤١٢هـ.

٣٢٢- **رسالة الملائكة** ، أبو العلاء المعري ـ تحقيق : محمد سليم الجندي ـ مطبعة الترقي ـ دمشق ـ ١٣٦٣هـ.

٣٢٣- **الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الديانات** ، لأبي عمرو الدواني ـ تحقيق : د/ محمد بن سعيد القحطاني ـ دار ابن الجوزي ـ الدمام ـ ط١ـ ١٤١٩هـ.

٣٢٤- **رسالة في الرد على الرافضة**، للشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ تحقيق : د/ ناصر بن سعد الرشيد ـ ط٢

٣٢٥- **الرسالة والرسول** ، د/ أكرم ضياء العمري ـ ط١ـ ١٤١٠هـ.

٣٢٦- **الرسل والرسالات** ، د/ عمر سليمان الأشقر ـ دار النفائس ـ الأردن ـ ط٥ـ ١٤١٤هـ.

٣٢٧- **الرسول والوحي** ، د/ محمد المسير ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ـ ١٤٠٧هـ.

٣٢٨- **رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم**، عمر الفوتي ـ مطبوع بهامش جواهر المعاني لعلي حرازم ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط٢ـ ١٩٧٣م.

٣٢٩- **الروح** ، لابن قيم الجوزية ـ تحقيق : د/ بسام العموش ـ دار ابن تيمية ـ الرياض ـ ط١ـ ١٤٠٦هـ.

٣٣٠- **روح الإسلام** ، للسيد أمير علي ترجمة : أمين الشريف ـ مكتبة الآداب ـ القاهرة ـ ١٩٦١م.

٣٣١- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** ، شهاب الدين محمود الألوسي ـ ط دار إحياء التراث ـ بيروت ـ ط ٢

٣٣٢- **الروحية الحديثة دعوة هدامة ـ تحضير الأرواح وصلته بالصهيونية العالمية** ، د/ محمد محمد حسين ـ دار الإرشاد ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٦٩م

٣٣٣- **الروحية عند محي اليدين ابن عربي**، د/ علي راضي ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة

٣٣٤- **روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات**، محمد باقر الموسوي الخونساري ـ ط دار المعرفة ـ بيروت

٣٣٥- **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، لابن قيم الجوزية ـ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت

٣٣٦- **روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين** ، محمد عثمان القاضي ـ دار البخاري ـ القصيم ـ ط٢ـ ١٤٠٢هـ.

٣٣٧- **رياض الصالحين**، للنووي - تحقيق: شعيب الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط٣- ١٤٢٠هـ.

٣٣٨- **زاد المسير في علم التفسير**، لابن الجوزي - المكتب الإسلامي - دمشق - ١٣٨٤هـ.

٣٣٩- **زاد المعاد من هدي خير العباد**، لابن قيم الجوزية - تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وآخر- مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٣٩٩هـ.

٣٤٠- **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، أحمد أمين المصري - دار الكتاب العربي - بيروت - بدون تاريخ.

٣٤١- **الزهد**، للإمام أحمد - دار الريان - القاهرة - ١٤٠٨هـ.

٣٤٢- **الزهد**، للحسن البصري - تحقيق: محمد عبدالرحيم محمد - دار الحديث - القاهرة - ١٩٩١م.

٣٤٣- **الزهد والرقائق**، لابن المبارك - تحقيق: أحمد فريد - دار المعراج الدولية - الرياض - ١٤١٥هـ.

٣٤٤- **الزيارة الشرعية والشركية**، محي الدين البركوي - تخريج: د/ محمد ابن عبدالرحمن الخميس - دار العاصمة - الرياض - ط١- ١٤١٤هـ.

٣٤٥- **زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور**، شيخ الإسلام ابن تيمية - مطابع دار طيبة - الرياض.

٣٤٦- **سجع الحمام في حكم الإمام**، علي الجندي، وآخرين - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٦٧م.

٣٤٧- **سُفراء النبي ﷺ**، محمود شيت خطاب - دار الأندلس الخضراء - جدة - ط١- ١٤١٧هـ.

٣٤٨- **سفير الأرواح العليا أو مقتطفات من تعاليم السيد سلفربرش**، ترجمة: د/ علي راضي ١٩٧٥م.

٣٤٩- **سلاح المؤمن في الدعاء والذكر**، لابن الإمام - تحقيق: محي الدين مستو - دار ابن كثير - دمشق - ١٤١٤هـ.

٣٥٠- **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، للألباني - طبعة المكتب الإسلامي - ١٣٧٨هـ.

٣٥١- **السلفية وأعلامها في موريتانيا**، للشيخ الطيب بن عمر بن الحسين - دار ابن حزم - بيروت - ١٤١٦هـ.

٣٥٢- **سمط اللآلي في شرح أمالي القالي**، للوزير البكري الأوني - تحقيق: عبدالعزيز الميمني - دار الحديث - بيروت - ط٢- ١٩٨٤م.

٣٥٣- **السنة**، للخلال - تحقيق: د/ عطية بن عتيق الزهراني - دار الراية - ط١- ١٠٨٩م.

٣٥٤- **السنة**، لابن أبي عاصم - تحقيق: الشيخ الألباني - المكتب الإسلامي - ط١- ١٤٠٠هـ.

٣٥٥- **السنة**، لعبدالله بن الإمام أحمد - تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٥هـ.

٣٥٦- **السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي**، د/ مصطفى السباعي - المكتب الإسلامي - بيروت -



ط٢ـ ١٣٩٨هـ.

٣٥٧- **سنن أبي داود**، بتعليق: عزت الدعاس، وآخر ـ طبعة دار الحديث ـ سورية.

٣٥٨- **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ـ دار الريان للتراث.

٣٥٩- **سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد محمد شاكر ـ مطبعة مصطفى البابي ـ الحلبي ـ مصر ـ ط١ـ ١٣٥٦هـ.

٣٦٠- **السنن الكبرى**، للبيهقي ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف الثمانية ـ الهند ـ ١٣٤٤هـ.

٣٦١- **السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات**، محمد عبدالسلام خضر الشقيري ـ ط دار الفكر.

٣٦٢- **السيد صديق حسن خان القنوجي وآراؤه الاعتقادية**، د/ اختر لقمان ـ دار الهجرة ـ الرياض ـ ط١ـ ١٤١٧هـ.

٣٦٣- **سير أعلام النبلاء**، للذهبي ـ تحقيق: محمد العرقسوس ـ مؤسسة الرسالة ـ ط١ـ ١٩٨٢م.

٣٦٤- **سيف الله على من كذب على أولياء الله**، صنع الله الحلبي ـ تحقيق: على رضا بن عبدالله ـ دار الوطن ـ الرياض ـ ط١ـ ١٤٢٠هـ.

٣٦٥- **السيف المسلول في الذب عن الرسول ﷺ**، د/ عويد المطرفي ـ مكة المكرمة ـ ١٤١٤هـ.

٣٦٦- **شأن الدعاء**، للخطابي ـ تحقيق: أحمد الدقاق ـ دار المأمون ـ دمشق ـ ١٤٠٤هـ.

٣٦٧- **شجرة الإرشاد**، جمع: وفاء بنت حسن بن علي ـ مطبعة الصحف ـ ١٣٠٤هـ.

٣٦٨- **شخصية الرسول ﷺ في ضوء المقاييس الإنسانية**، د/ عبدالحليم عويس ـ ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١٣هـ.

٣٦٩- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، لابن العماد الحنبلي ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.

٣٧٠- **شرح الأصول الخمسة**، القاضي عبدالجبار ـ تعليق: أحمد بن الحسين ـ تحقيق: د/ عبدالكريم عثمان ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ ط١ـ ١٩٦٥م.

٣٧١- **شرح السنة**، للبغوي ـ تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وآخر ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ ١٣٩١هـ.

٣٧٢- **شرح الشفا**، مُلاَّ علي القاري، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣١٩هـ.

٣٧٣- **شرح العقائد النسفية**، سعد الدين التفتازاني ـ طبعة دار سعادت ـ ١٣٢٦هـ.

٣٧٤- **شرح العقيدة الطحاوية**، لابن أبي العز الحنفي ـ حققها: جماعة من العلماء ـ خرّج أحاديثها: الشيخ الألباني ـ المكتب الإسلامي ـ ط٩ـ ١٤٠٨هـ.

٣٧٥- **شرح العقيدة الطحاوية**، لابن أبي العز الحنفي ـ تحقيق: د/ عبدالله التركي، وشعيب الأرناؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٨هـ.

٣٧٦- **شرح العقيدة الأصفهانية**، لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ تقديم: حسنين مخلوف ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ـ ١٣٨٦هـ.



٣٧٧- **شرح العقيدة الواسطية** ، للهراس - مراجعة : عبدالرزاق عفيفي - ١٤٠٧هـ.

٣٧٨- **شرح القصيدة النونية المسماة الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية** ، لابن قيم الجوزية - شرح وتحقيق : د/ محمد خليل هراس - دار الفاروق - مصر .

٣٧٩- **شرح المواقف** ، للشريف الجرجاني - بهامش المواقف في علم الكلام للإيجي - دار الطباعة العامرة بالأستانة - ١٣١١هـ.

٣٨٠- **الشرح الميسر للفقه الأكبر**، د/ محمد عبدالرحمن الخميس - طبعة وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف - الرياض - ١٣١١هـ.

٣٨١- **شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه**، وضعه : عبدالرحمن البرقوقي - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - ١٣٤٨هـ.

٣٨٢- **الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة**، لابن بطة العكبري - تحقيق : رضا بن نعسان معطي - ط٢ - ١٤١١هـ.

٣٨٣- **الشرك في القديم والحديث**، لأبي بكر زكريا محمد - رسالة دكتوراه - غير منشورة - الجامعة الإسلامية

٣٨٤- **الشرك وأنواعه** ، جفري وهاب - رسالة ماجستير غير منشورة - بالجامعة الإسلامية .

٣٨٥- **الشريعة** ، للآجري - تحقيق : محمد حامد الفقي - مطبعة السنة المحمدية - القاهرة - ١٣٦٩هـ.

٣٨٦- **شعب الإيمان** ، للبيهقي - تحقيق : محمد بسيوني زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٤١٠هـ.

٣٨٧- **الشعر والشعراء** ، لابن قتيبة - ط دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٤م .

٣٨٨- **الشعية والتصحيح الصراع بين الشيعة والتشيع**، د/ موسى الموسوي - طبعة لوس إنجلوس

٣٨٩- **شفاء السقام في زيارة خير الأنام**، عبدالوهاب السبك - لجنة التراث العربي - بيروت - ١٣٧١هـ.

٣٩٠- **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والتعليل**، لابن قيم الجوزية - تحقيق : الحساني حسن عبدالله - مكتبة التراث بالقاهرة .

٣٩١- **الشفاعة** ، للشيخ مقبل بن هادي الوادعي - دار الأرقم - الكويت - ط٢ - ١٤٠٣هـ.

٣٩٢- **الشفاعة في الإسلام** ، د/ عائش بن عياش الحبيشي - رسالة ماجستير غير منشورة

٣٩٣- **الشفيع** ، عمر باشميل - دار طويق - الرياض - ١٤١٤هـ.

٣٩٤- **شم العوارض في ذم الروافض**، مُلاَّ علي القاري - مخطوط في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة - برقم ١٣/أ.

٣٩٥- **شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق**، يوسف النبهاني - دار الفكر - بيروت - ط الأخيرة - ١٤٠٣هـ.

٣٩٦- **الشوقيات (ديوان أحمد شوقي)**، لأحمد شوقي - دار الكتاب العربي - بيروت .



٣٩٧- **الشيخ إبراهيم اياس السنغالي وآراؤه وتعاليمه** ، محمد الطاهر ميغري - دار العربية - بيروت - ١٤٠١هـ.

٣٩٨- **الشيخ عبدالرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة** ، د/ عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد - مكتبة الرشد - الرياض - ١٤١١هـ.

٣٩٩- **الشيعة في التاريخ**، محمد بن حسين الزبن العاملي - طبعة دار الآثار - بيروت

٤٠٠- **الشيعة في الميزان** ، د/ محمد يوسف النجرامي - دار المدني جدة - ١٤٠٧هـ.

٤٠١- **الشيعة وأهل البيت**، إحسان إلهى ظهير - طبعة إدارة ترجمان السنة بباكستان - ط٧- ١٤٠٤هـ.

٤٠٢- **الشيعة والتشيع**، إحسان إلهى ظهير - طبعة إدارة ترجمان السنة بباكستان - ط٢- ١٤٠٤هـ.

٤٠٣- **الشيعة وتحريف القرآن** ، محمد مال الله - تقديم : محمد أحمد النجفي - دار الوعي الإسلامي - بيروت - ١٤٠٢هـ.

٤٠٤- **الصابئون حرانيين ومندائيين** ، د: رشدي عليان مطعبة دار السلام - بغداد - ١٩٧٦م.

٤٠٥- **الصارم الحديد في عنق صاحب سلاسل الحديد**، تحقيق: د/ فهد ضويان السحيمي - رسالة دكتوراه غير منشورة - بالجامعة الإسلامية.

٤٠٦- **الصارم المسلول على شاتم الرسول** ، لشيخ الإسلام ابن تيمية - ط عالم الكتب.

٤٠٧- **الصارم المنكي في الرد على السبكي**، محمد بن عبدالهادي - تحقيق: عقيل بن محمد المقطري اليماني - مؤسسة الريان - بيروت - ط١- ١٤١٢هـ.

٤٠٨- **الصحاح في اللغة والعلوم (تجديد صحاح العلامة الجوهري)**، نديم مرعشلي، وآخر، دار الحضارة العربية، بيروت ٩٧٤

٤٠٩- **صحيح الجامع الصغير وزيادته**، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت - ط٣- ١٤٠٨هـ.

٤١٠- **صحيح سنن ابن ماجة**، للشيخ الألباني - مكتب التربية العربي الدولي الخليج - الرياض - ١٤٠٨هـ.

٤١١- **صحيح سنن الترمذي**، للشيخ الألباني - مكتب التربية العربي الدولي الخليج - الرياض - ١٤٠٨هـ.

٤١٢- **صحيح مسلم بشرح النووي**، ط دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط١- ١٩٢٩م.

٤١٣- **الصحيفة السجادية** ، للسجاد زين العابدين، تقديم محمد باقر الصدر، ط شركة المصطفى للتوزيع، المنامة – البحرين ط١، ١٤١٣هـ.

٤١٤- **صراط النجاة في أجوبة الاستفتاءات**، للخوئي - تعليق: جواد التبريزي - انتشارات فؤاد طهران ١٣١٤هـ.

٤١٥- **الصراع بين الإسلام والوثنية** ، عبدالله القصيمي - مصنع القاهرة للطباعة - ١٤٠٢هـ.



٤١٦- **صراع مع الباطل،** محمد أحمد باشميل (بدون ناشر) بيروت ط٢ ـ ١٣٨٠هـ.

٤١٧- **صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال،** عبدالله سراج الدين مكتبة طيبة بالمدينة المنورة ـ بدون تاريخ .

٤١٨- **صفة الجنة في القرآن الكريم،** عبد الحليم السلفي ـ رسالة ماجستير ـ غير منشورة ـ بالجامعة الإسلامية

٤١٩- **صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم ،** للشيخ عبدالرحمن الدوسري ـ شركة العبيكان للطباعة ـ ١٤٠٤هـ.

٤٢٠- **صلاة التراويح،** الشيخ الألباني ـ دمشق ـ ١٣٧٧هـ.

٤٢١- **الصلاة المشيشية،** مطبوعة بحاشية دلائل الخيرات ـ للجزولي ـ مؤسسة الأعلمي ـ بيروت .

٤٢٢- **الصلاة وصف مفصل للصلاة،** عبدالله الطيار ـ دار الوطن ـ الرياض ـ ١٤١٦هـ.

٤٢٣- **الصلاة ومقاصدها،** الحكيم الترمذي ـ تحقيق : حسني زيدان ـ دار الكتاب العربي ـ مصر ـ ١٩٦٥م .

٤٢٤- **الصلات والبُشر في الصلاة على خير البشر،** للفيروز آبادي ـ تحقيق : محمد نور الدين الجزائري، وآخر ـ دار التربية ـ دمشق ـ ١٤٨٥هـ.

٤٢٥- **الصلة بين التصوف والتشيع ،** د/ مصطفى الشيبي ـ دار الأندلس ـ بيروت ـ ط٣ـ ١٩٨٢م .

٤٢٦- **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم وفقهائهم وأدبائهم ،** لابن بشكوال ـ تصحيح : عزت العطار مكتبة المثنى ـ بغداد ـ ١٩٥٥م .

٤٢٧- **الصواعق المرسلة الشهابية على الشبه الداحضة الشامية،** سليمان بن سحمان النجدي ـ تحقيق : عبدالسلام ابن برجس آل عبدالكريم ـ دار العاصمة ـ الرياض ـ ط١ـ ١٤٠٩هـ.

٤٢٨- **الصواعق المنزلة على الطائفة الجهمية والمعطلة ،** لابن قيم الجوزية ـ تحقيق : الشيخين د/ أحمد عطية الغامدي، ود/ علي ناصر فقيهي ـ مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ـ ١٤٠٧هـ.

٤٢٩- **صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية ،** لأبي الحسن الندوي ـ دار البشر ـ جدة ـ ١٤١٠هـ.

٤٣٠- **الصوفية في نظر الإسلام دراسة وتحليل ،** سميح عاطف الزين ـ دار الكتاب اللبناني ومكتبة بيروت ـ بيروت ـ ط٣ـ ١٤٠٥هـ.

٤٣١- **الصوفية معتقدا ومسلكا،** د/ صابر طعيمة ـ الرياض ١٤٠٥هـ.

٤٣٢- **صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان،** محمد بشير السهسواني ـ تعليق : الشيخ إسماعيل الأنصاري ـ مطابع نجد التجارية ط٥ـ ١٣٩٥هـ.

٤٣٣- **الصيد الثمين في رسائل ابن عثيمين،** الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ دار الثقة ـ مكة المكرمة ـ ط١ـ ١٤١٢هـ.

٤٣٤- **ضرورة الدعوة إلى الله وأثرها**، عطية محمد سالم طبعة وزارة الشئون الإسلامية، بالرياض ١٤١٩هـ.

٤٣٥- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، للسخاوي - مكتبة القدس - القاهرة - ١٣٥٣هـ.

٤٣٦- **الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق**، للشيخ سلمان بن سحمان - تحقيق: عبدالسلام بن برجس - دار العليان - بريدة - ط٤ - ١٤١٢هـ.

٤٣٧- **طبقات الحنابلة**، لأبي يعلى - دار المعرفة - بيروت

٤٣٨- **طبقات الشافعية الكبرى**، للسبكي - تحقيق: عبدالفتاح محمد الحلو - دار إحياء الكتب العربية - بدون بيانات.

٤٣٩- **طبقات الصوفية**، للسلمي - ترتيب: أحمد الشرباصي - مطابع الشعب - القاهرة - ١٣٨٠هـ.

٤٤٠- **الطبقات الكبرى**، لابن سعد - ط دار صادر - بيروت.

٤٤١- **الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار**، عبدالوهاب الشعراني - دار الجيل - بيروت - ط١ - ١٤٠٨هـ.

٤٤٢- **طبقات المفسرين**، للسيوطي - تحقيق: علي عمر - مكتبة وهبة - ١٣٩٦هـ.

٤٤٣- **طبقات المفسرين**، للداوودي - تحقيق: علي عمر - مكتبة وهبة - ١٣٩٢هـ.

٤٤٤- **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، لابن قيم الجوزية - نشر قصي محب الدين الخطيب - المطبعة السلفية - القاهرة - ١٣٧٦هـ.

٤٤٥- **ظاهرة الغلو في الدين الأسباب والمظاهر والعلاج**، عبود علي درع - دار الصميعي - الرياض - ط١ - ١٤١٩هـ.

٤٤٦- **ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث**، محمد عبدالكريم حامد - رسالة ماجستير - غير منشورة - الجامعة الإسلامية.

٤٤٧- **العاقبة في ذكر الموت والآخرة، للأشبيلي** - تحقيق: محمد خضر - دار الأقصى بالكويت - ١٤٠٦هـ.

٤٤٨- **عالم الجن والشياطين**، د/ عمر سليمان الأشقر - دار النفائس - الأردن - ط٨ - ١٤١٤هـ.

٤٤٩- **عالم الملائكة أسراره وخفاياه**، مصطفى عاشور مكتبة القرآن بالقاهرة - بدون تاريخ.

٤٥٠- **عالم الملائكة الأبرار**، عمر سليمان الأشقر - مكتبة الفلاح بالكويت - ط٤ - ١٤٠٥هـ.

٤٥١- **عالمية الإسلام وإعداد المواطن الصالح**، أحمد علي الملا - دار قتيبة - دمشق - ١٤٠٤هـ.

٤٥٢- **العبادة والعباد**، محمد بن نمر الخطيب - مطبعة الإرشاد ببغداد - ١٣٩٨هـ.

٤٥٣- **عبدالله بن المبارك الإمام القدوة**، محمد عثمان جمال - دار القلم - دمشق - ط٢ - ١٣٩٩هـ.

٤٥٤- **العبر في خبر من غبر**، للذهبي - تحقيق: محمد بسيوني زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٩٨٥م.



٤٥٥- **العبودية** ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط٦ـ ١٤٠٣هـ.

٤٥٦- **العتبية في مسائل الإمام مالك** ، . محمد بن أحمد العتبي ـ مطبوع ضمن البيان والتحصيل لابن رشد ـ تحقيق : الحاج أحمد الجبالي ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ ١٤٠٤هـ.

٤٥٧- **العزلة** ، للخطابي ـ تحقيق : ياسين السواس ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ١٤٠٧هـ.

٤٥٨- **عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم** ، د/ محمد الحديدي ـ مطبعة الإمانة ـ القاهرة ـ ١٣٩٩هـ.

٤٥٩- **العصمة عند الشيعة الإمامية الاثني عشرية** ، علي البار ـ رسالة ماجستير ـ غير منشورة بالجامعة الإسلامية .

٤٦٠- **العظة والاعتبار آراء في حياة السيد البدوي الدنيوية وحياته البرزخية**، أحمد محم د=حجاب ـ مكتبة تاج للتراث ـ طنطنا ـ مصر ـ بدون تاريخ .

٤٦١- **العقائد الإسلامية**، سيد سابق ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٤٠٦هـ.

٤٦٢- **عقائد الإمامية** ، محمد رضا المظفر ـ مطبعة النجاح ـ القاهرة ـ ١٣٩١هـ.

٤٦٣- **العقد النفيس في نظم جوهر التدريس**، أحمد بن إدريس المغربي ـ المكتبة الثقافية ـ بيروت

٤٦٤- **العقل والغيب**، د/ محمد حسن هيتو ـ دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ـ ط١ـ ١٤١٤هـ.

٤٦٥- **العقيدة الإسلامية الميسرة وأثرها في حياة المسلم** ، عبدالعزيز فتحي ندا١٤٢٠هـ ـ بدون بنانات أخرى .

٤٦٦- **العقيدة الإسلامية وأثرها في بناء المجتمع** ، عزام سلهب ـ رسالة ماجستير ـ غير منشورة بالجامعة الإسلامية .

٤٦٧- **العقيدة الإسلامية وأسسها**، الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ـ دار العلم ـ دمشق ـ ط٥ـ ١٤٠٨هـ.

٤٦٨- **عقيدة التوحيد في القرآن الكريم** ، د/ محمد أحمد ملكاوي ـ دار ابن تيمية ـ الرياض ـ ط١ـ ١٤٠٥هـ.

٤٦٩- **عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي**، د/ صالح العبود ـ مطابع الجامعة الإسلامية ـ المجلس العلمي لإحياء التراث .

٤٧٠- **عقيدة المؤمن**، لأبي بكر الجزائري ـ دار الشرق ـ جدة ـ ط٣ـ ١٤٠٢هـ.

٤٧١- **عقيدة المسلم** ، محمد الغزالي المصري ـ دار العلم ـ دمشق ـ ط٧ـ ١٤٠٩هـ.

٤٧٢- **عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية**، د/ أحمد سعد حمدان الغامدي ـ دار طيبة ـ الرياض ـ ١٤٠٥هـ.

٤٧٣- **العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع**، د/ محمد بيصار ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ ط٤ـ ١٩٧٣م .

٤٧٤- **العقيدة والشريعة في الإسلام**، جولد تسهير ـ ترجمة : محمد يوسف موسى ، وآخرين ـ دار



الكتاب العربي ـ القاهرة ـ ١٩٤٦م.

٤٧٥ ـ **العلاقة بين التشيع والتصوف**، فلاح بن أحمد ـ رسالة دكتوراه غير منشورة بالجامعة الإسلامية.

٤٧٦ ـ **علل الشرائع** ، للصدوق ـ تقديم : محم دصادق بحر العلوم ـ المكتبة الحيدرية بالنجف ـ ١٣٨٢هـ.

٤٧٧ ـ **العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ**، صالح بن مهدي المقبلي ـ دار الحديث ـ ط٢ـ ١٤٠٥هـ.

٤٧٨ ـ **علماء آل سليم وتلامذتهم وعلماء القصيم** ، صالح السليمان العمري ـ ط١ـ ١٤٠٥هـ.

٤٧٩ ـ **علماء نجد خلال ستة قرون**، للبسام ـ مكتبة النهضة الحديثة ـ مكة المكرمة ـ ١٣٩٨هـ.

٤٨٠ ـ **العلو للعلي الغفار**، للذهبي ـ تحقيق : عبدالله البراك ـ داو الوطن ـ الرياض ـ ١٤٢٠هـ.

٤٨١ ـ **عوارف المعارف**، للسهروردي ـ المكتبة العلامية ـ مصر ـ ١٣٥٨هـ.

٤٨٢ ـ **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، لابن أبي أصيبعة ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٣٧٦هـ.

٤٨٣ ـ **غاية الأماني في الرد على النبهاني** ، لأبي المعالى محمود شكري الألوسي ـ مطابع نجد التجارية ـ الرياض.

٤٨٤ ـ **غاية السول في خصائص الرسول ﷺ**، لابن الملقن ـ تحقيق : عبدالله بحر الدين ـ دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ـ ١٤١٤هـ.

٤٨٥ ـ **غاية المرام في علم الكلام** ، للآمدي ـ تحقيق : حسن محمود عبداللطيف ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ لجنة إحياء التراث ـ القاهرة ـ ١٣٩١هـ.

٤٨٦ ـ **الغدير في الكتاب والسنة والأدب**، عبدالحسين الأميني النجفي ـ مطعبة الحيدري بطهران ـ ط٢ـ ١٣٧٢هـ.

٤٨٧ ـ **غريب الحديث** ، لابن الجوزي ـ تخريج : عبدالمعطي أمين قلعةجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٥هـ.

٤٨٨ ـ **غريب الحديث** ، لأبي عبيد القاسم بن سلام ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٦هـ.

٤٨٩ ـ **الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة** ، د/ عبدالرحمن اللويحق ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٢ـ ١٤١٣هـ.

٤٩٠ ـ **الغلو في الدين نشأته ـ موقف الإسلام منه ـ مسائله آثاره**، علي بن عبدالعزيز الشبل ـ دار الوطن ـ الرياض ـ ط١ ـ ١٤١٧هـ.

٤٩١ ـ **الغلو وأثره في عقائد الرافضة**، د/ جازي بخيت الجهني ـ رسالة دكتوراه ـ غير منشورة بالجامعة الإسلامية.

٤٩٢ ـ **الغنية لطالبي طريق الحق**، الشيخ عبدالقادر الكيلاني ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ـ ط٣ـ ١٣٧٥هـ.



٤٩٣- **الغياثي غياث الأمم في التياث الظلم** ، للجويني - تحقيق : د/ عبدالعظيم الديب - طبعة الشؤون الدينية بقطر - ط١ - ١٤٠٠هـ.

٤٩٤- **الغيبة**، محمد بن إبراهيم النعماني - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - ط١ - ١٩٨٣م.

٤٩٥- **فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء**، جمع الشيخ أحمد بن عبدالرزاق الدويش - دار العاصمة - الرياض - ط٣ - ١٤١٩هـ.

٤٩٦- **الفتاوى الهندية أو العالمكيرية**، جماعة من علماء الهند - المكتبة الإسلامية - بتركيا - ط٣ - ١٣٩٣هـ.

٤٩٧- **فتاوى سلطان العلماء العز بن عبدالسلام**، تحقيق : مصطفى عاشور - مكتبة الساعي - الرياض - ١٩٨٧م.

٤٩٨- **فتاوى للموظفين والعمال**، سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز ، والشيخ محمد بن صالح العثيمين ، والشيخ عبدالله الجبرين - جمع : محمد بن عبدالعزيز المسند

٤٩٩- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ابن حجر العسقلاني - تحقيق وتعليق : سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز - وترقيم : محمد فؤاد عبدالباقي - ط دار الفكر .

٥٠٠- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، لابن رجب الحنبلي - تحقيق : محمود شعبان ، وآخر - مكتبة الغرباء - المدينة المنورة - ١٤١٧هـ.

٥٠١- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، محمد بن علي الشوكاني - مطبعة عيسى البابي الحلبي - مصر - ط٢ - ١٩٦٤م.

٥٠٢- **فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ** - تحقيق : محمد حامد الفقي - دار الكبت العلمية - بيروت .

٥٠٣- **فتح المغيث بشرح ألفية الحديث**، للحافظ العراقي - شرح السخاوي - تصحيح : حبيب الرحمن الأعظمي - المكتبة العلمية بالمدينة المورة - بدون تاريخ .

٥٠٤- **الفتوحات المكية** ، لابن عربي الصوفي - تحقيق : د/ عثمان يحيى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٣٩٢هـ.

٥٠٥- **الفتوى الحموية الكبرى**، لشيخ الإسلام ابن تيمية - تقديم : محمد عبدالرزاق حمزة - مطبعة المدني - مصر - ١٤٠٣هـ.

٥٠٦- **فرق الشيعة** ، للنوبختي - دار الأضواء - بيروت - ط٢ - ١٩٨٤م.

٥٠٧- **الفرق بين الفرق**، أبو منصور البغدادي - تحقيق : محمد عثمان الخشت - مكتبة ابن سينا - القاهرة .

٥٠٨- **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**، لشيخ الإسلام ابن تيمية - مطبعة المعارف - الرياض - طبعة جديدة ١٤٠٢هـ.

٥٠٩- **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، لابن حزم - تحقيق : د/ محمد إبراهيم نصر ، وآخر - ط

دار الجيل ـ ١٩٨٥م.

٥١٠- **فصوص الحكم**، لابن عربي الصوفي ـ بتعليق: أبي العلا عفيفي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط٢ـ ١٤٠٠هـ.

٥١١- **الفصول المهمة في أحوال الأئمة**، للحر العاملي ـ مكتبة بصيرني بقم ـ ط٣.

٥١٢- **فضائح الباطنية**، للغزالي ـ تحقيق: عبدالرحمن بدوي ـ الدار القومية ـ القاهرة ـ ١٣٨٣هـ.

٥١٣- **فضل الصلاة على النبي ﷺ**، إسماعيل القاضي ـ تحقيق: الشيخ ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ ط٢ـ ١٣٨٩هـ.

٥١٤- **فضل علم السلف على الخلف**، لابن رجب الحنبلي ـ تحقيق: محمد عبدالحكيم القاضي ـ دار الحديث ـ القاهرة ـ ١٤٠٨هـ.

٥١٥- **فقه العبادات**، للشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ إعداد: الطيار ـ دار الوطن ـ الرياض ـ ١٤١٦هـ.

٥١٦- **الفقيه والمتفقه**، الخطيب البغدادي ـ تصحيح: إسماعلي الإنصاري ـ دار إحياء السنة النبوية ـ ١٣٩٥هـ.

٥١٧- **الفكر الشيعي والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري**، د/ مصطفى الشيبي ـ مكتبة النهضة ـ بغداد ـ ط١ـ ١٣٨٦هـ.

٥١٨- **الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة**، عبدالرحمن عبدالخالق ـ مكتبة ابن تيمية بالكويت ـ ط٢

٥١٩- **فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام**، صالح العبود ـ دار طيبة ـ الرياض ـ ط١ـ ١٤٠١هـ.

٥٢٠- **فلسفة النبوة والأنبياء في ضوء القرآن والسنة**، آدم الألوري ـ مكتبة وهبة ـ مصر ـ ط١ ـ ١٤٠٣هـ.

٥٢١- **الفهرست**، لابن النديم ـ تحقيق: رضا ـ تجدد ـ طهران ـ ١٣٩١هـ.

٥٢٢- **الفوائد**، لابن القيم ـ تحقيق: أيت سعيد ـ ط دار الفكر ـ ودار المعرفة ـ الدار البيضاء بالمغرب.

٥٢٣- **الفوائد البهية في تراجم الحنفية**، العلامة اللكنوي ـ تعليق: النعساني ـ دار المعرفة ١٣٢٤هـ.

٥٢٤- **الفوائد الكفيلة بمعرفة الوسيلة**، محمد بن الحسن الخديم ـ ط١ـ ١٤١٦هـ.

٥٢٥- **الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة**، للشوكاني ـ تحقيق: عبدالرحمن المعلمي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط٢ـ ١٣٩٢هـ.

٥٢٦- **الفوائد المنتقاة من فتح الباري وكتب أخرى**، للشيخ عبدالمحسن العباد ـ مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة ـ ١٤١٣هـ.

٥٢٧- **الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة**، مرعي بن يوسف الكرمي، تحقيق محمد بن ل؛ في الصباغ دار الورق بالرياض، ط ثالثة ١٤١٩هـ.

٥٢٨- **في التصوف الإسلامي وتاريخه**، نيكولسون ـ ترجمة : أبي العلا عفيفي ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة ـ ١٣٦٦هـ.
٥٢٩- **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**، مطبوع ضمن القصور العولي ـ تحقيق : محمد مصطفى أبو العلا ـ مكتبة الجندي بالقاهرة ـ ط٢ـ ١٣٩٠هـ.
٥٣٠- **فيض القدير**، للمناوي
٥٣١- **القائد إلى تصحيح العقائد** للمعلمي تصحيح الشيخ الألباني ، المكتب الإسلامي بيروت ط ثانية ١٤٠٢هـ.
٥٣٢- **القاديانية** ، إحسان إلهي ظهير ، إدارة ترجمان السنة لاهور ، ط ثالثة ١٣٩٥هـ.
٥٣٣- **قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة**، لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ تحقيق : د/ ربيع بن هادي المدخلي ـ مكتبة لينة ـ مصر ـ ط١ ـ ١٤١٧هـ.
٥٣٤- **قاعدة في الرج على الغزالي في التوكل**، لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ تحقيق : علي الشبل دار الصميعي ١٤١٦هـ.
٥٣٥- **قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية** ، أحمد أمين ، مطبعة لجنة التأليف المصرية بالقاهرة ، ١٩٥٣م.
٥٣٦- **القاموس المحيط**، للفيروزآبادي ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر ط٢ ، ١٣٧١هـ.
٥٣٧- **القرامطة**، عارف تامر ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ.
٥٣٨- **قصيدة البردة** ، كعب بن زهير t شرح ابن الأنباري ـ تحقيق : محمود حسن زيني ـ دار تهامة ـ جدة ـ ١٤٠٠هـ.
٥٣٩- **قصيدة البردة** ، مطبوعة بآخر دلائل الخيرات للجزولي ـ مؤسسة الأعلمي ـ بيروت
٥٤٠- **قطر الولي على حديث الولي**، للشوكاني ، تحقيق : إبراهيم هلال ، دار الكتب الحديثة ، بمصر ١٩٧٩م.
٥٤١- **قواعد الأحكام** ، للعز بن عبدالسلام ، المكتبة التجارية الكبرى ، بالقاهرة.
٥٤٢- **قواعد الأديان**، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق : إبراهيم الحمل دار الرياض ١٤١٠هـ.
٥٤٣- **قواعد التحديث فنون مصطلح الحديث**، للقاسمي ، تحقيق محمد بهجت البيطار ، مطبعة الحلبي بمصر ط ثانية ، ١٣٨٠هـ.
٥٤٤- **القواعد الحسان لتفسير القرآن**، للسعدي ، مكتبة الرشد بالرياض ، ١٤٢٠هـ.
٥٤٥- **قواعد عقائد آل محمد الباطنية**، لمحمة الديلمي تصحيح السيد عزت العطار مطبعة السعادة ، بمصر ١٣٦٩هـ.
٥٤٦- **قوت القلوب في معاملة المحبوب** ، للشيخ أبي طالب المكي ـ ط دار الفكر
٥٤٧- **القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع**، للسخاوي ـ المكتبة العلمية ـ المدينة المنورة ـ ط٣ـ ١٣٩٧هـ.



٥٤٨- **القول الجلي في حكم التوسل بالنبي والولي**، لمحمد بن عبدالسلام الشقير، بعناية يوسف السعيد، دار الهدى بالرياض ١٤١٧هـ.

٥٤٩- **القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع**، سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز

٥٥٠- **القومية في نظر الإسلام**، محمد أحمد باشميل، بيروت ١٩٦٠م بدون ناشر.

٥٥١- **القياس الفاسد وأثره في الانحراف في العقيدة**، د/ أحمد بن شاكر الحذيفي - رسالة دكتوراه غير منشورة بالجامعة الإسلامية.

٥٥٢- **الكافي**، للكليني - تصحيح: علي أكبر الغفاري - مكتبة الصدوق بطهران - ط٢ - ١٣٨١هـ.

٥٥٣- **الكامل في ضعفاء الرجال**، لابن عدي، تحقيق صبحي البدري، مطبعة الأعظمي بالعراق، ١٩٧٧م.

٥٥٤- **الكامل في التاريخ**، لابن الأثير - علق عليه: نخبة من العلماء - دار الكتاب العربي - بيروت - ط٤ - ١٩٨٣م.

٥٥٥- **كتاب البعث والنشور**، أحمد بن حسين البيهقي - تحقيق: محمد بسيوني زغلول - مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - ط١ - ١٤٠٨هـ.

٥٥٦- **كتاب التعريفات**، للشريف الجرجاني - تحقيق: إبراهيم الأبياري - دار الريان للتراث

٥٥٧- **كتاب الدرة فيما يجب اعتقاده**، لابن حزم، تحقيق: أحمد بن ناصر وآخر، مكتبة التراث بمكة ١٤٠٨هـ.

٥٥٨- **كتاب الدعاء المأثور**، للطرطوشي

٥٥٩- **كتاب الرد على المنطقيين**، لشيخ الإسلام ابن تيمية، مكتبة الدار بالمدينة ١٤٠٢هـ.

٥٦٠- **كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، القاضي عياض اليحصبي - تقديم وتخريج: كمال بسيوني زغلول - مؤسسة الكتاب للثقافة - ط١ - ١٤٠٦هـ.

٥٦١- **كتاب العظمة**، لابن أبي الشيخ

٥٦٢- **كتاب الفتح الرباني فينا يحتاج إليه المريد التجاني**، محمد بن عبدالله الطصفاوي

٥٦٣- **كتاب المنهاج في شعب الإيمان**، الحسين بن الحسن الحليمي - تحقيق: حلمي فودة - دار الفكر - ط١ - ١٩٧٩م.

٥٦٤- **كتاب تصفية القلوب**، للإمام يحيى بن حمزة اليماني - تحقيق: حسن الأهدل - مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - ١٤١٢هـ.

٥٦٥- **كتاب معرفة علوم الحديث**، للحاكم، تحقيق معظم حسين، المكتبة العلمية بالمدينة ١٣٩٧هـ.

٥٦٦- **كسر الصنم نقض كتاب أصول الكافي**، للبرتعي، ترجمة: عبدالرحيم البلوشي، دار البيارق بعمان ١٤١٩هـ.

٥٦٧- **كشاف اصطلاحات الفنون**، للتهانوي، تحقيق لطفي عبدالبديع وآخر المؤسسة المصرية



للنشر ١٩٧٧م.

٥٦٨- **كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة** ، للهيثمي - تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٣٩٩هـ.

٥٦٩- **كشف الأسرار** ، للخميني - تقديم : د/ محمد أحمد الخطيب - دار عمار - الأردن ت ط١- ١٤٠٨هـ.

٥٧٠- **كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبدالوهاب**، محسن الأمين العاملي - دار الغدير - بيروت - ط٣

٥٧١- **كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب**، أحمد بن الحاج سكيرج - المكتبة الشعبية - بيروت

٥٧٢- **كشف الخفا ومزيل الإلباس**، للعجلوني تصحيح أحمد الفلاش ، مكتبة التراث بحلب .

٥٧٣- **كشف الشبهات في التوحيد**، الشيخ محمد بن عبدالوهاب - دار الوطن - الرياض - ١٤١٤هـ.

٥٧٤- **كشف الغمة ببيان خصائص الرسول ﷺ والأمة** ، مصطفى بن إسماعيل - تقديم : الشيخ مقبل بن هادي الوادعي - مكتبة ابن تيمية - القاهرة - ١٤١٤هـ.

٥٧٥- **كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة**، لابن رجب الحنبلي ، تحقيق : يسري البشري مكتبة السامر بالرياض، ١٩٨٩م.

٥٧٦- **الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ**، محمد عبدالرؤوف القاسم - دار طيبة - مكة المكرمة - ط٢-١٤١٣هـ.

٥٧٧- **الكشكول**، للعاملي ، تحقيق الطاهر الزاوي ، دار إيحاء الكتب بمصر ١٣٨٠هـ.

٥٧٨- **الكليات** ، للكفوي - تحقيقك د/ عدنان درويش ، وآخر - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق - ١٩٧٦م.

٥٧٩- **كليات مفاتيح الجنان**، عباس القمي - الناشر انتشارات أسوة

٥٨٠- **كنت قبوريا**، عبدالمنعم الجداوي - مطبعة المدني - القاهرة - ط٥- ١٤٠٧هـ.

٥٨١- **الكنى والألقاب**، عباس القمي - المطبعة الحيدرية - النجف - ط٢- ١٩٦٩هـ.

٥٨٢- **الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة**، للغزي - تحقيق : جبرائيل جبور - مطبعة محمد أمين دمج - بيروت - ١٩٤٥م.

٥٨٣- **الكواكب النيرات في المنجيات والمهلكات** ، عبدالله الجارالله ، مكتبة ابن خزيمة بالرياض ١٤١٢هـ.

٥٨٤- **لسان العرب**، لابن منظور ، تصحيح : أمين عبدالوهاب، دار إحياء التراث - بير، ت ١٤١٧هـ.

٥٨٥- **لسان الميزان**، ابن حجر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٣٩٠هـ.



٥٨٦- **لطائف المنن**، لابن عطاء الله الكندري ـ تحقيق: د/ عبدالحليم ـ محمود ـ مطبعة حسان

٥٨٧- **اللمع**، لأبي نصر الطوسي ـ تحقيق: د/ عبدالحليم محمود، وآخر ـ دار الكتب الحديثة ـ مصر ـ ١٣٨٠هـ.

٥٨٨- **لمع برق المقامات العوالي في زيارة سيدي حسن الراعي وولده عبدالعالي**، مصطفى البكري ـ مطبوع بآخر شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق للنبهاني

٥٨٩- **الله في العقيدة الإسلامية**، أحمد بهجت، مكتبة المختار الإسلامي بمصر ط ثانية ١٣٩٩هـ.

٥٩٠- **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية**، للسفاريني ـ تعليق: الشيخ عبدالرحمن أبابطين، والشيخ سليمان بن سحمان ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط٣ـ ١٤٠٥هـ.

٥٩١- **مباحث في العقيدة في سورة مريم**، ناصر بن علي الشيخ ـ مكتبة الرشد ـ الرياض ـ ١٤١٥هـ بالجامعة الإسلامية.

٥٩٢- **مباحث في العقيدة في سورة الزمر**، د/ محمد عبدالرحمن الشظيفي ـ رسالة ماجستير ـ غير منشورة

٥٩٣- **مباحث في علوم القرآن**، مناع القطان ـ دار غريب ـ القاهرة ـ ط٥ـ ١٤٠١هـ.

٥٩٤- **المتجر الرابح في ثواب العلم الصالح**، للدمياطي، تحريج عبدالله حجاج، مكتبة التراث بمصر ١٤٠٨هـ.

٥٩٥- **متن القصيدة النونية**، لابن القيم الجوزية ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ـ ط٢ـ ١٤١٧هـ.

٥٩٦- **مجلة البحوث الفقهية المعاصرة**، السنة ٧ ـ العدد٢٨ ـ ١٤١٦هـ.

٥٩٧- **مجلة المنار**، محمد رشيد رضا، مطبعة المنار ١٣١٥هـ.

٥٩٨- **مجلة الهادي الشيعية**، العدد الرابع

٥٩٩- **مجمع الزوائد**، للهيثمي، مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥٢هـ.

٦٠٠- **مجمل اللغة**، لابن فارس تحقيق: هادي حسن.

٦٠١- **المجموع المفيد في نقض القبورية ونصرة التوحيد**، د/ محمد عبدالرحمن الخميس ـ دار أطلس ـ الرياض ـ ط١ـ ١٤١٨هـ.

٦٠٢- **المجموع المفيد من رسائل وفتاوى الشيخ سعد بن حمد بن عتيق**، جمع وترتيب: إسماعيل بن سعد بن عتيق ـ ط دار الهداية ـ ط ٤ـ ١٤١٥هـ.

٦٠٣- **مجموع رحلات الشيخ إبراهيم انياس**

٦٠٤- **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن قاسم النجدي ـ بإشراف الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي.

٦٠٥- **مجموعة التوحيد النجدية**، لمحمد بن عبدالوهاب، مطبعة الحكومة بمكة المكرمة ١٣٩١هـ.

٦٠٦- **مجموعة الرسائل الكبرى**، شيخ الإسلام ابن تيمية ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت

٦٠٧- **مجموعة الرسائل الكمالية**، صلاح الدين المنجد، مكتبة المعارف بالطائف، بدون تاريخ.

٦٠٨- **مجموعة الرسائل المنيرية**، إدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة ١٣٤٣هـ.

٦٠٩- **مجموعة الرسائل والمسائل النجدية لبعض علماء نجد الأعلام**، جمع عبدالسلام بن برجس آل عبدالكريم، دار العاصمة بالرياض، ط ثانية ١٤٠٩هـ.

٦١٠- **مجموعة المناهل العذاب فيما على العبد لرب الأرباب**، صالح السعوي

٦١١- **المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين**، لابن حبان، تحقيق: محمود البستي، دار الوعي بحلب ١٣٩٦هـ.

٦١٢- **محاضرات الجامعة الإسلامية**، في موسمها الثقافي ٩٨-١٣٩٩هـ.

٦١٣- **محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع**، عبدالرؤوف محمد عثمان - مكتبة الضياء - جدة - ١٤١٢هـ.

٦١٤- **مخازي الولي الشيطاني الملقب بالتجاني الجاني**، لإبراهيم القطان مطبوع بآخر مشتهى الخارف الجاني.

٦١٥- **مختار الصحاح**، محمد بن أبي بكر الرازي - ط دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠١هـ.

٦١٦- **مختصر التحفة الاثني عشرية**، للدهلوي اختصار الألوسي، مكتبة إيشبق باستنبول ١٣٩٩هـ.

٦١٧- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، لابن قيم الجوزية - دار الفكر - ط الأخيرة - ١٤٠٨هـ.

٦١٨- **المدخل**، لابن الحاج الفاسي - المطبعة المصرية - القاهرة - ١٣٤٨هـ.

٦١٩- **مراقي السعود**، بشرح محمد الأمين الجكني الشنقيطي، مطبعة المدني بالقاهرة ١٣٧٨هـ.

٦٢٠- **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، مُلاً علي القاري، تقديم محمد عبدالحليم إشاعة المعارف ١٣٩٠هـ.

٦٢١- **مروج الذهب**، للمسعودي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٩٦٨م.

٦٢٢- **مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة**، د: ناصر بن عبدالله القفاري دار طيبة - الرياض - ط٢ - ١٤١٣هـ.

٦٢٣- **مسألة القضاء والقدر وموقف المؤمن منها**، محمد متولي السداوي، مطبعة المدني بالقاهرة ١٣٧٧هـ.

٦٢٤- **مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية**، الشيخ محمد بن عبدالوهاب - شرحها: محمود شكري الألوسي، المطبعة السلفية بالقاهرة ٣٤٧هـ.

٦٢٥- **المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة**، تحقيق: د/ عبدالإله بن سلمان الأحمدي - دار طيبة - الرياض - ط١ - ١٤١٢هـ.

٦٢٦- **المستدرك على الصحيحين في الحديث**، للحاكم - ط دار الفكر - ١٩٧٨م.



٦٢٧- **المسك الأذخر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر**، محمود شكري الألوسي - تحقيق د: عبدالله الجبوري - دار العلوم - الرياض ١٩٨٢م.
٦٢٨- **مسند الإمام أحمد**، للإمام أحمد بن حنبل، المكتب السلامي بيروت ط ثانية ١٣٩٨هـ.
٦٢٩- **مشارق أنوار اليقين**، رجب البرسي - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.
٦٣٠- **المشاهدات المعصومية عند قبر خير البرية**، محمد سلطان المعصومي الحنفي - اعتنى بطبعه: د/ محمد عبدالرحمن الخميس، ط دار العاصمة - الرياض - ط١ - ١٤١٤هـ.
٦٣١- **مشاهير علماء نجد وغيرهم**، للشيخ عبدالرحمن آل الشيخ، دار اليمامة ١٣٩٤هـ.
٦٣٢- **مشتهى الخارف الجاني في رد زلقات التجاني الجاني**، للشيخ محمد الخضر الجكني الشنقيطي - دار البشير - عمّان - ط١ - ١٤٠٥هـ.
٦٣٣- **مشكاة المصابيح**، للتبريزي - تحقيق: الشيخ الألباني - المكتب الإسلامي - دمشق - ١٣٨٠هـ.
٦٣٤- **مشكلة الألوهية**، د/ محمد غلاب، دار إحياء الكتب بالقاهرة، ط ثانية ١٣٧١هـ.
٦٣٥- **المصايد المطارد**، مكشاجم، تحقيق: محمد أطلس مطبعة دار المعرفة بغداد.
٦٣٦- **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي**، أحمد بن محمد المقري الفيومي - المكتبة العلمية - بيروت.
٦٣٧- **مصرع الشرك والخرافة**، لخالد محمد علي تحقيق: عبدالله الأنصاري، مطباع الدوحة ٢٩٨هـ.
٦٣٨- **المصنف**، عبدالرزاق - تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي - المكتب الإسلامي - بيروت ١٩٧٠م.
٦٣٩- **المصنوع في معرفة الحديث الموضوع**، للقاري - تحقيق: عبدالفتاح أبي غدة - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط٢ - ١٣٩٨هـ.
٦٤٠- **المضنون به على غير أهله**، مطبوع ضمن رسائل القصور العوالي - للغزالي - مكتبة الجندي - القاهرة ط٢ - ١٣٩٠هـ.
٦٤١- **مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية**، إدريس محمود إدريس - رسالة ماجستير غير منشورة
٦٤٢- **معارج الألباب في مناهج الحق والصواب**، حسين بن مهدي النعمي - تحقيق: أحمد بن سعيد الأشهبي - دار الأرقم - برمنجهام ت ط١ - ١٤٠٨هـ.
٦٤٣- **معارج القبول**، للحكمي - الدار البيضاء للنشر والتوزيع
٦٤٤- **المعارف**، لابن قتيبة - تحقيق: ثروت عكاشة - دار المعارف - مصر - ط٢ - ١٩٦٩م.
٦٤٥- **المعارف الحسينية**، حسين بن آل حيدر الكاظمي المطبعة الحيدرية بالنجف - ١٣٥٠هـ.
٦٤٦- **معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم**، عبدالوهاب الديلمي، مكتبة الإرشاد بصنعاء ط ثانية ١٤١٩هـ.



٦٤٧- **معالم غائبة عن حياة المسلمين** ، ربيع بن محمد السعودي - دار معاذ بالرياض - ١٤٠٩هـ.

٦٤٨- **معاني القرآن** ، للزجاج - تحقيق : عدبالجليل شلبي - عالم الكتب بيروت - ١٤٠٨هـ.

٦٤٩- **المعجزة وكرامات الأولياء**، لشيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٥هـ.

٦٥٠- **معجم ألفاظ الصوفية**، د/ حسن الشرقاوي - مؤسسة مختار - مصر - ط٢ - ١٩٩٢م.

٦٥١- **معجم ألفاظ العقيدة** ، عامر فالح - مكتبة العبيكان بالرياض - ١٤١٧هـ.

٦٥٢- **معجم الأدباء**، ياقوت الحموي ، دار المأمون بالقاهرة ، ١٣٥٧هـ.

٦٥٣- **معجم البلدان** ، ياقوت الحموي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - , ١٩٧٩

٦٥٤- **معجم الشعراء** ، د/ عفيف عبدالرحمن - دار المناهل - بيروت - ١٤١٧هـ.

٦٥٥- **المعجم الصوفي الحكمة في حدود الكلمة** ، د/ سعاد الحكيم - دار دندرة - بيروت - ط١ - ١٤٠١هـ.

٦٥٦- **المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينية**، د/ جميل صليبا ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٧٩م.

٦٥٧- **المعجم الكبير**، وضعه مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، مطبعة دار الكتب بالكويت ١٩٧٠م.

٦٥٨- **المعجم الكبير**، للطبراني - تحقيق : الشيخ حمدي السلفي - الدار العربية - بغداد.

٦٥٩- **معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية**، عمر كحالة - مكتبة المثنى لبنان.

٦٦٠- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - بحاشية المصحف الشريف -**، محمد فؤاد عبدالباقي - دار المعرفة - بيروت - ط١ - ١٤٠٧هـ.

٦٦١- **معجم مصطلحات الصوفية** ، د/ عبدالمنعم الحنفي - دار المسيرة - بيروت - ط١ - ١٤٠٠هـ.

٦٦٢- **معجم مقاييس اللغة، لابن فارس** - تحقيق : عبدالسلام هارون - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - ١٣٦٦هـ.

٦٦٣- **معرفة أخبار الرجال** ، للكشي - مطبوعات الجديدة - ١٣١٧هـ

٦٦٤- **المعرفة والتاريخ**، يعقوب البسوي - تحقيق : د/ أكرم ضياء العمري - مطبعة الإرشاد - بغداد - ١٣٩٦هـ.

٦٦٥- **معنى لا إله إلا الله**، للزركشي - تحقيق : علي القره داغي

٦٦٦- **المغني في ضبط أسماء الرجال ومعرفة كنى الرواة وألقابهم وأنسابهم**، لمحمد طاهر الفتني ، دار نشر الكتب بباكستان.

٦٦٧- **مفاهيم يجب أن تصحح**، محمد علوي المالكي - ط وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بدولة الإمارات - ط٤ - ١٤١٠هـ.

٦٦٨- **مفتاح العلوم**، للسكاكي - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - ١٣٥٦هـ.

٦٦٩- **مفتاح دار السعادة** ومنشور ولاية العلم والإرادة ، لابن قيم الجوزية - ط دار الكتب العلمية -



بيروت
٦٧٠- **المفرادات في غريب القرآن**، للأصفهاني ـ تحقيق: محمد سعيد كيلاني ـ دار المعرفة ـ بيروت
٦٧١- **المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم** ، أحمد بن عمر القرطبي ـ تحقيق: محي الدين مستو ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ١٤١٧هـ.
٦٧٢- **مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد**، الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ مؤسسة النور بالرياض ـ بدون تاريخ.
٦٧٣- **مقارنة الأديان** ، د/ أحمد شلبي ـ مكتبة النهضة المصرية ـ مصر ـ ١٩٦٦هـ.
٦٧٤- **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، للسخاوي** ـ تصحيح: عبدالله الصديق ـ مكتبة الخانجي ـ مصر ـ ١٣٧٥هـ.
٦٧٥- **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، أبو الحسن الأشعري ـ تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٦٩م.
٦٧٦- **المقالات والفرق** ، سد الأشعري القمي ـ مطبعة حيدري ـ طهران.
٦٧٧- **مقالة التشبيه وموقف أهل السنة منها** ، جابر إدريس ـ رسالة دكتوراه عير منشورة بالجامعة الإسلامية.
٦٧٨- **مقدمات في الأهواء والافتراق والبدع**، د/ ناصر العقل ـ دار الوطن ـ الرياض ـ ط٢ـ ١٤١٧هـ.
٦٧٩- **المقدمة** ، عبدالرحمن بن خلدون ـ ضبط: د/ محمد الإسكندراني ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٤١٧هـ.
٦٨٠- **الملل والنحل**، للشهرستاني ـ تحقيق: محمد سيد كيلاني ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٩٨٠م.
٦٨١- **من عقائد الشيعة** ، عبدالله بن محمد السلفي
٦٨٢- **من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة** ، د/ محمد السيد الجليند ـ دار اللواء ـ الرياض ـ ط٣ ـ ١٤١٠هـ.
٦٨٣- **المنار المنيف في الصحيح والضعيف**، لابن القيم ـ تحقيق: عبد الفتاح أبي غدة ـ مكتبة المطبوعات الإسلامية ـ حلب ـ ١٣٩٠هـ.
٦٨٤- **مناسك حج** ، لآية الله العظمى فاضل النكراني
٦٨٥- **مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا**، للسيوطي تتحقيق: سمير القاضي ـ مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت ـ ١٤٠٨هـ.
٦٨٦- **مناهل العرفان في علوم القرآن** ، محمد عبدالعظيم الزرقاني ـ المكتبة الفيصلية ـ مكة المكرمة ـ بدون تاريخ
٦٨٧- **المنتخبات من المكتوبات**، أحمد السرهندي ـ جمع: حسين حلمي استانبولي ـ مكتبة إيشيق ـ ١٩٧٤م.



٦٨٨- **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، لابن الجوزي ـ تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، وآخر ـ دار الكتب العلمية ـ ط١ ـ ١٩٩٢م.

٦٨٩- **المنتقى شرح الموطأ**، للباجي ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ ١٣٣١هـ.

٦٩٠- **المنتقى وهو مختصر منهاج السنة النبوية**، لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ اختصار الذهبي

٦٩١- **المنخل لغربلة خرافات ابن الحاج في المدخل**، د/ محمد عبدالرحمن الخميس ـ مطبوع ضمن المجموع المفيد في نقض القبورية ونصرة التوحيد ـ دار أطلس ـ الرياض ـ ط١ ـ ١٤١٨هـ.

٦٩٢- **المنطلق**، محمد أحمد الراشد ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٣٩٦هـ.

٦٩٣- **المنفرجة**، لابن النحوي ـ بشرح البوصيري، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ١٣٩٨هـ.

٦٩٤- **المنقذ من الضلال**، الغزالي ـ مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت ـ ١٤٠٨هـ.

٦٩٥- **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية**، شيخ الإسلام ابن تيمية ـ تحقيق: د/ محمد رشاد سالم ـ جامعة الإمام محمد بن سعود ـ ١٤٠٦هـ.

٦٩٦- **المنهاج في شعب الإيمان**، للحليمي ـ تحقيق: حلمي محمود فودة ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٣٩٩هـ.

٦٩٧- **منهج الإمام مالك رحمه الله في إثبات العقيدة**، سعود بن عبدالعزيز الدعجان ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ـ ط١ ـ ١٤١٦هـ.

٦٩٨- **منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة**، عثمان بن علي بن حسن ـ مكتبة الرشد ـ الرياض ـ ط١ ـ ١٤١٢هـ.

٦٩٩- **منهج الحافظ ابن رجب الحنبلي في العقيدة**، د/ علي بن عبدالعزيز الشبل ـ دار الصميعي ـ الرياض.

٧٠٠- **منهج الرسل الكرام في الدعوة إلى الله في القرآن**، د/ أحمد عبيد رسالة دكتوراه ـ غير منشورة ـ الجامعة الإسلامية.

٧٠١- **منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان المجاز**، د/ مصطفى الحويني

٧٠٢- **منهج السلف في العقيدة وأثره في وحدة المسلمين**، الشيخ صالح السحيمي ـ دار ابن حزم ـ الرياض ـ ط١ ـ ١٤٠٩هـ.

٧٠٣- **منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل والنقل وأثر المنهجين في العقيدة**، جابر إدريس ـ مكتبة أضواء السلف ـ الرياض ـ ط١ ـ ١٤١٩هـ.

٧٠٤- **المهند على المفند**، خليل أحمد إلياس

٧٠٥- **موارد الظمآن في علوم القرآن**، للشيخ صابر أبي سليمان، الدار السلفية بالهند ١٤٠٤هـ.

٧٠٦- **المواقف في علم الكلام**، عضد الدين الإيجي ـ مطبعة العلوم ـ ١٣٥٧هـ.

٧٠٧- **الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين**، عبدالفتاح الزهيري ـ مطعبة أركان بغداد ـ ط١ ـ ١٩٨٣م.



٧٠٨- **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان الهيثمي**، تحقيق: محمد عبدالرزاق حمزة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٧٠٩- **موسوعة أهل السنة في نقد أصول فرقة الأحباش**، عبدالرحمن دمشقية ـ دار المسلم ـ الرياض ـ ط١ـ١٤١٨هـ.

٧١٠- **الموسوعة العربية الميسرة**، بإشراف محمد شفيق غربال ـ دار النهضة ـ بيروت ـ مصورة عن الأصل من طبعة ١٩٦٥م.

٧١١- **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ـ الرياض ـ ط٢ـ١٤٠٩هـ.

٧١٢- **الموفقات في أصول الأحكام**، للشاطبي، تعليق: محمد الخضر حسين وآخر المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤١هـ.

٧١٣- **الموفي بمعرفة التصوف والصوفي**، للأدفوي المصري، تحقيق: محمد صالحية مكتبة دار المعرفة بالكويت، ١٤٠٨هـ.

٧١٤- **موقف الإسلام من السحر**، حياة با أخضر ـ دار المجتمع ـ جدة ـ ١٤١٥هـ.

٧١٥- **موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية**، د/ أحمد بناني ـ دار العلم ـ جدة ـ ط١ـ ١٤٠٦هـ.

٧١٦- **موقف الرافضة من القرآن الكريم**، مامادو كارامبيري ـ رسالة ماجستير ـ غير منشورة ـ الجامعة الإسلامية.

٧١٧- **موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة عرضا ونقدا**، د/ سليمان الغصن ـ دار العاصمة ـ الرياض ـ ١٤١٦هـ.

٧١٨- **موقف اليهود والنصارى من المسيح عليه السلام وإبطال شبهاتهم حوله**، سارة حامد العبادي ـ رسالة دكتوراه ـ غير منشورة ـ جامعة أم القرى

٧١٩- **ميزاب الرحمة الربانية في التربية بالطريقة التجانية**، عبيدة بن انبوجة الشنقيطي ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ـ ١٣٤٨هـ.

٧٢٠- **ميزان الاعتدال**، للذهبي ـ تحقيق: علي البجاوي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٣٨٢هـ.

٧٢١- **النبذة الشريفة في الرد على القبوريين**، محمد بن ناصر آل معمر ـ تحقيق: عبدالسلام بن برجس آل عبدالكريم ـ دار العاصمة ـ الرياض ـ ط١ـ ١٤٠٤هـ.

٧٢٢- **النبوات**، لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ مكتبة الرياض الحديثة ـ ١٣٤٦هـ.

٧٢٣- **النبوات**، لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ تحقيق: د/ عبدالعزيز الطويان ـ رسالة دكتوراة غير منشورة بالجامعة الإسلامية.

٤٢٣- **نبوة محمد ﷺ من القرآن**، حسن عتر ـ دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ـ ١٤١٠هـ.

٧٢٤- **النبوغ المغربي في الأدب العربي**، عبدالله كنون ـ مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ـ

بيروت - ط ٣ـ ١٩٧٥م.
٧٢٥- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، لابن تغري بردي - طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة
٧٢٦- **نخبة المطلوب من شرح مطهرة القلوب** ، محمد الحسن بن أحمد الخديم - شرح مطهرة القلوب لمحمد مولود بن أحمد فال اليعقوبي - ط١ـ ١٩٩٦م.
٧٢٧- **نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر**، عبدالحي العياشي الحسني - مطبعة مجلس دائرة المعارف - العثمانية - باكستان - ١٣٥٠هـ.
٧٢٨- **نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض**، للشهاب الخفاجي - المطبعة الأزهرية - القاهرة - ١٣٢٥هـ.
٧٢٩- **نشر الطوالع**، للمرعشي - مكتبة العلوم العصرية - مصر - ١٣٤٢هـ.
٧٣٠- **النظرات**، للمنفلوطي - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - بدون تاريخ.
٧٣١- **نظرية الاتصال عند الصوفية**، سارة بنت عبدالمحسن بن جلوي آل سعود - دار المنارة - جدة - ط١ـ١٤١١هـ.
٧٣٢- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، أحمد المقري - تحقيق: إحسان عباس - ط دار صادر - ١٩٦٨م.
٧٣٣- **نقباء البشر في القرن الرابع عشر**، آغا بزرك الطهراني - مطبعة سفيد بمشهد - إيران - ط٢ـ ١٤٠٤هـ.
٧٣٤- **نكت الهميان في نكت العميان**، صلاح الدين الصفدي - مطبعة أحمد زكي بك - المطبعة الجمالية - مصر - ١٩٧١م.
٧٣٥- **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**، للقلقشندي - تحقيق: على الخاقاني - مطبعة النجاح - بغداد - ١٣٧٨هـ.
٧٣٦- **نهاية الإقدام في علم الكلام**، للشهرستاني - تصحيح: الفرد جيوم - مكتبة المثنى - بغداد - بدون تاريخ.
٧٣٧- **النهاية في الفتن والملاحم**، لابن الكثير - تعليق: محمد خير طعمة - تخريج: خليل مأمون - دار المعرفة - بيروت - ١٤١٩هـ.
٧٣٨- **النهاية في غريب الحديث والأثر** ، لابن الأثير - تحقيق: طاهر أحمد الراوي، ومحمود الطناحي - المكتبة العلمية - بيروت
٧٣٩- **نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف**، د/ محمد عبدالله الوهيبي - دار المسلم - الرياض - ط١ـ ١٤١٦هـ.
٧٤٠- **نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي لابن عباس**، لابن رجب الحنبلي - تحقيق: تشير عيون - مكتبة المؤيد - الطائف - ١٤١٢هـ.



٧٤١- **الهادي إلى لغة العرب**، حسن الكرمي - دار لبنان - بيروت - ١٤١٢هـ.

٧٤٢- **هجر المبتدع** ، بكر أبو زيد - دار ابن الجوزي - ط٢- ١٤١٠هـ.

٧٤٣- **هدى الفرقان في علوم القرآن**، د/ غازي عناية - عالم الكتب - بيروت - ١٤١٦هـ.

٧٤٤- **هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، إسماعيل باشا البغدادي - المكتبة الإسلامية بطهران ١٣٧٨هـ.

٧٤٥- **الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية**، د/ محمد تقي الدين الهلالي - ط١- ١٣٩٣هـ.

٧٤٦- **هذه مفاهيمنا** ، الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ دار البخاري بالقصيم ١٤٠٧هـ.

٧٤٧- **هذه نصيحتي إلى كل شيعي**، للشيخ أبي بكر الجزائري مكتبة أضواء المنار جدة - ط٢- ١٤٠٧هـ

٧٤٨- **هذه هي الصوفية** ، عبدالرحمن الوكيل دار الكتب العلمية بيروت - ط٤- ١٩٨٤م.

٧٤٩- **هي السلفية نسبة وعقيدة ومنهجا**، محمد إبراهيم شقرة - مكتبة ابن تيمية - مكة المكرمة - ط١- ١٤١٣هـ.

٧٥٠- **الوابل الصيب من الكلم الطيب**، لا بن القيم تصحيح محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية بالقاهرة، ١٣٧٥هـ.

٧٥١- **الواسطة بين الحق والخلق**، شيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق: محمد بن جميل زينو - مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

٧٥٢- **وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق**، د/ جمال بادي، دار الوطن بالرياض ط ثانية ١٤١٦هـ.

٧٥٣- **الوحدة الإسلامية والأخوة الدينية**، محمد رشيد رضا، دار المنار بمصر ط ثالثة ١٣٦٧هـ.

٧٥٤- **الوحي المحمدي** ، محمد رشيد رضا، المكتب الإسلامي بدمشق ط ثالثة ١٣٥٤هـ.

٧٥٥- **الورثة الصالحة للحضارة المعاصرة**، د/ فاروق حمادة

٧٥٦- **وسائل الشيعة ومستدركاتها**، جمع: محمد آية الله الشيرازي - دار التقريب بين المذاهب الإسلامية - القاهرة - ط١- ١٣٧٧هـ.

٧٥٧- **وسطية أهل السنة بين الفرق**، د/ محمد با كريم، دار الراية بالرياض ١٤١٥هـ.

٧٥٨- **الوسطية في القرآن الكريم**، علي بن محمد الصلابي، دار النفائس بالأردن ١٤١٩هـ.

٧٥٩- **الوسطية في ضوء القرآن الكريم**، ناصر بن سليمان العمر - دار الوطن - الرياض - ١٤١٣هـ.

٧٦٠- **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط** ، أحمد بن الأمين الشنقيطي - تصحيح: فؤاد سيد - مطبعة السنة المحمدية - القاهرة - ط٢

٧٦١- **الوسيلة** ، لأبي الوفاء محمد درويش - دار القاسم - الرياض - ط١- ١٤١٧هـ.

٧٦٢- **الوظائف كتاب أدعية وسور قرآنية** ، محمدي آبيري البنجلاديشي

٧٦٣- **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى** ، للسمهودي - تحقيق: محي الدين عبدالحميد - دار الكتب

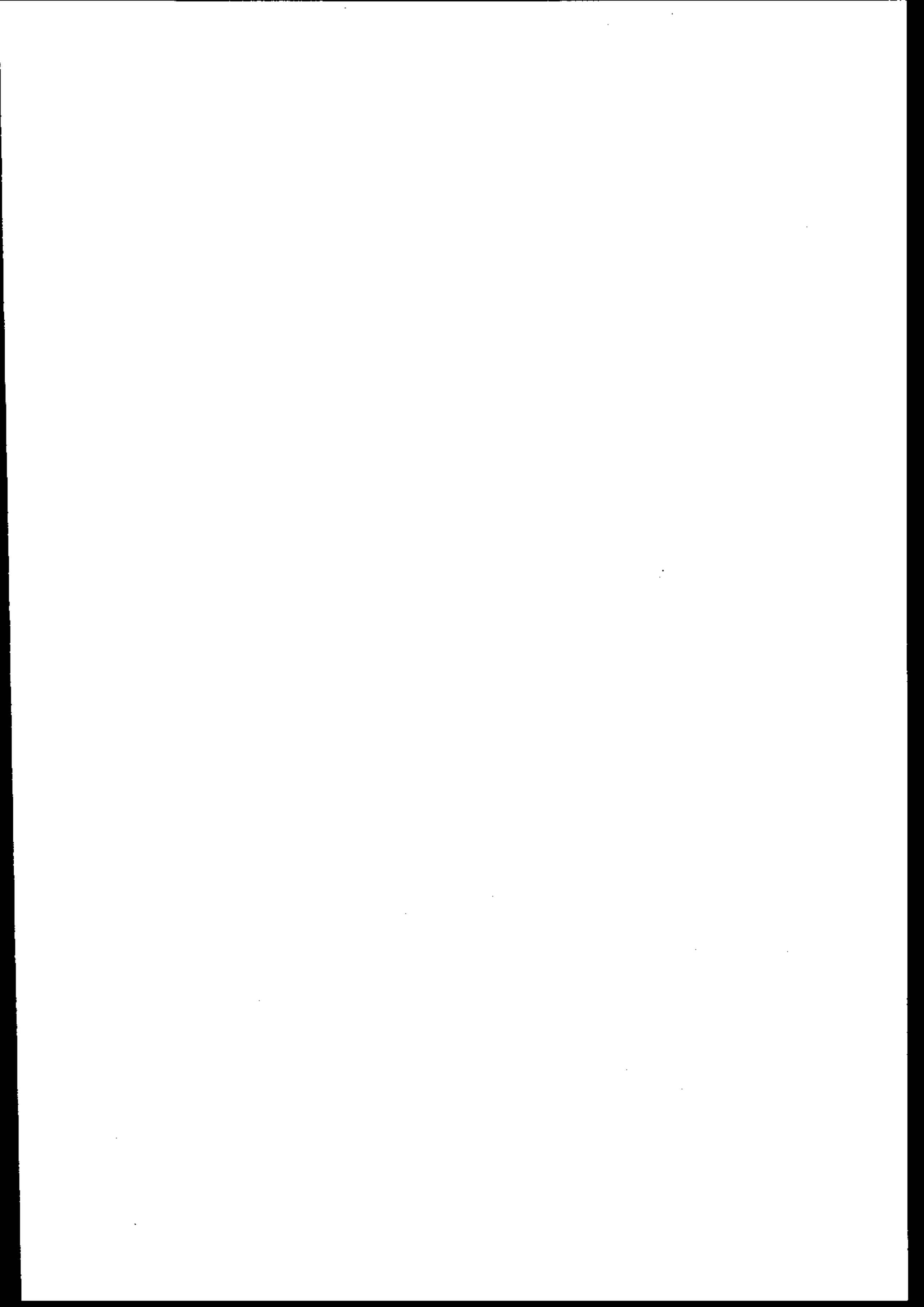
العلمية ـ بيروت ـ ط٤ـ ١٤٠٤هـ.

٧٦٤- **وفيات الأعيان،** لابن خلكان ـ تحقيق: إحسان عباس ـ طبعة دار صادر ١٩٦٩م.

٧٦٥- **يتيمة الدهر في محاسن أهل مصر،** للثعالبي ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد المكتبة التجارية بمصر ١٣٧٧هـ.

٧٦٦- **اليمانيات المسلولة على الرافضة المخذولة** ، زين العابدين بن يوسف الكوراني ـ تحقيق: المرابط محمد يسلم المجتبى ـ مكتبة الإمام البخاري ـ القاهرة ـ ط١ـ ١٤٢٠هـ.

٧٦٧- **اليوم الآخر القيامة الكبرى،** د/ عمر سليمان الأشقر ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت ـ ط٢ـ ١٤٠٨هـ.



فهرس الموضوعات





